



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين بالرياض
قسم القرآن وعلومه

جهود الإمام ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ومنهجه في علوم القرآن [عرضاً ودراسة]

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه

إعداد

سعد بن مبارك بن سعد الدوسري

إشراف

الأستاذ الدكتور/ بدر بن ناصر البدر

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

العام الجامعي

١٤٣١-١٤٣٢ هـ

Her&

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۗ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز ورسالته الخالدة، وآيته الباقية، به أحيا الله القلوب، وأنار البصائر، وأخرج الأمة من ظلمات الجهل والشرك والضلال والرذيلة إلى نور العلم والإيمان والهدى والفضيلة، وسعادة الإنسان في الدارين مرتبطة بهذا الكتاب العظيم. وقد عرف العلماء قدر هذا الكتاب العظيم، فعكفوا عليه تعليماً وتفقهاً وبجثاً وتفسيراً وبياناً، وأفنوا أعمارهم في سبيل خدمته، وسخروا معارفهم وعلومهم لتكون وسيلة في إدراك حقائقه ودقائقه.

ومن هؤلاء العلماء الذين كان لهم دور كبير وبارز في خدمة القرآن الكريم وعلومه الإمام المفسر النحوي اللغوي أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة.

^(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .

^(٢) سورة النساء : ١ .

^(٣) سورة الأحزاب : ٧٠-٧١ .

وكان ابن قتيبة مرآة لثقافة عصره الواسعة، فقد روى عن أئمة الحديث وحفاظه، وله بصير بعلم الكلام والجدل والمناظرة، وقد أفاده اطلاعه على آراء المتكلمين في جداله معهم ومقارعتهم لهم الحججة بالحجة، وذلك في معرض دفاعه عن أهل السنة، وهو مؤرخ عالم بتاريخ العرب وأيامهم، وتاريخ المسلمين وفتوحاتهم، وغزواتهم، وضليع فيما يتصل بالفقه وعلوم القرآن، وفوق ذلك أديب لغوي نحوي، تشهد مؤلفاته على علو كعبه وتميزه.

وقد اشتهر الإمام ابن قتيبة من بين اللغويين بإشهار مذهب السلف، والدعوة إليه، والدفاع عنه، وهو من كبار الأئمة الذين أسسوا منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال باللغة العربية على مسائل العقيدة، والرد على المخالفين، كما هو واضح من كتبه: "تأويل مشكل القرآن"، و"تأويل مختلف الحديث"، و"الاختلاف في اللفظ"، وغيرها، حتى سماه شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بخطيب أهل السنة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق بن راهويه، والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة، قال فيه صاحب كتاب "التحديت بمناقب أهل الحديث": وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء، أجودهم تصنيفاً، وأحسنهم ترصيفاً، له زهاء ثلاثمائة مصنف،... وكان أهل المغرب يعظمونه، ويقولون: كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه، قلت: ويقال: هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة" [مجموع الفتاوى (٣٩١/١٧)].

ونظراً لما يتميز به هذا الإمام الجليل من مكانة علمية بارزة، رأيت أن يكون موضوع رسالتي لنيل درجة الدكتوراه في التعريف بابن قتيبة وبمصنفاته، وبيان جهوده في التفسير وعلوم القرآن، إذ له جهود عظيمة في ذلك، لم تُبرز كما هي الحال بالنسبة لجهوده النحوية والبلاغية والأدبية.

ولما كان الأمر كذلك رأيت إبراز هذه الجهود في هذا البحث، ووسمت الموضوع باسم:

"جهود الإمام ابن قتيبة ومنهجه في علوم القرآن، عرضاً ودراسة".

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

١. تميز ابن قتيبة في تفسيره للآيات بعلمه بأسرار البلاغة القرآنية، وبصره بمصطلحاتها، وذائقته الأدبية الرفيعة، وقدرته على الفهم والاستنباط، وإدراكه للطائف التفسير.
٢. تقدم وفاة ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) وكونه من أهل القرون المفضلة التي شهد لها الرسول صلى الله عليه وسلم بالخيرية، كما أن لكلام المتقدمين من السلف من القبول في النفس، والجزالة في اللفظ، وقوة المعنى، ورصانة الأسلوب، والبعد عن التكلف ما ليس لكلام من بعدهم.
- كما أن العصر الذي عاش فيه ابن قتيبة كان عصرًا قد عاش فيه ثلة من أهل التفسير اللغوي ممن ذاع صيتهم، وكانوا أئمة في هذا الفن، منهم الفراء (ت ٢٠٧)، وأبو عبيدة (ت ٢١٠)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤)، وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥)، والمبرد (ت ٢٨٥)، وغيرهم، مما يعطي صورة جلية لازدهار علم التفسير وما يتعلق به من علوم في ذلك العصر، مما كان له أبلغ الأثر في شخصية ابن قتيبة رحمه الله.
٣. أن ابن قتيبة تميز بسلامة المعتقد مما كان له الأثر في تعامله مع النصوص التي ترد في التفسير وعلوم القرآن مما يمس الاعتقاد.
٤. جودة البحث في هذا الموضوع، حيث لم أجد من أفرد لجهود الإمام ابن قتيبة ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن مؤلفاً يتناولها بالبحث والدراسة.

أهداف الموضوع :

١. إبراز جهود الإمام ابن قتيبة في علوم القرآن، وأثره في من جاء بعده من أصحاب الدراسات القرآنية.
٢. بيان المنهج الذي سار عليه ابن قتيبة في تفسير القرآن، واستنباط القواعد التي فسر بها كتاب الله تعالى، وإبراز كيفية تعامله مع الأقاويل التي قيلت في التفسير وعلوم القرآن.
٣. دراسة مسائل علوم القرآن التي تناولها الإمام ابن قتيبة .

خطة البحث :

تتكون من مقدمة، وتمهيد، وستة أبواب، وخاتمة.

المقدمة :

وفيها : أهمية الموضوع و أسباب اختياره، وأهدافه، وخطة البحث، ومنهجه.

التمهيد :

عصر ابن قتيبة وحياته بإيجاز.

الباب الأول : مصنفات ابن قتيبة، وموارده فيها، وأثره في من بعده، وفيه

ثلاثة فصول :

الفصل الأول : مصنفات ابن قتيبة، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : مصنفات ابن قتيبة في المشكل، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تأويل مشكل القرآن، وفيه أربع مسائل :

المسألة الأولى : سبب التأليف.

المسألة الثانية : المادة العلمية .

المسألة الثالثة : مادته التفسيرية.

المسألة الرابعة : قيمته العلمية.

المطلب الثاني : تأويل مختلف الحديث، وفيه أربع مسائل :

المسألة الأولى : سبب التأليف.

المسألة الثانية : المادة العلمية .

المسألة الثالثة : مادته التفسيرية.

المسألة الرابعة : قيمته العلمية.

المبحث الثاني : مصنفات ابن قتيبة في الغريب، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تفسير غريب القرآن.

المطلب الثاني : غريب الحديث.

المطلب الثالث : إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث.

المطلب الرابع : المسائل والأجوبة .

المبحث الثالث : مصنفات ابن قتيبة الأخرى، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : كتبه المطبوعة، ومادتها التفسيرية.

المطلب الثاني : كتبه المخطوطة والمفقودة.

المبحث الرابع : خصائص التصنيف عند ابن قتيبة.

الفصل الثاني : موارد ابن قتيبة في مصنفاته، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : موارد في التفسير وعلوم القرآن.

المبحث الثاني : موارد في السنة النبوية والآثار .

المبحث الثالث : موارد في العقيدة.

المبحث الرابع : موارد في اللغة.

المبحث الخامس : موارد في العلوم الأخرى.

الفصل الثالث : أثر ابن قتيبة فيمن بعده، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : أثره في التفسير.

المبحث الثاني : أثره في القراءات.

المبحث الثالث : أثره في علوم القرآن.

المبحث الرابع : أثره في أصول التفسير.

المبحث الخامس : أثره في العلوم الأخرى.

الباب الثاني : منهج ابن قتيبة في التفسير، وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : تفسير القرآن بالقرآن، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الثاني : أوجه تفسير القرآن بالقرآن عند ابن قتيبة، وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول : بيان المحمل.

المطلب الثاني : تخصيص العام.

المطلب الثالث : تقييد المطلق.

المطلب الرابع : تفسير الألفاظ الغريبة .

المطلب الخامس: تفسير معنى آية بآية أخرى.

المطلب السادس : تفصيل القصص.

المطلب السابع : الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف.

المطلب الثامن : جمع الآيات في الموضوع الواحد.

الفصل الثاني : تفسير القرآن بالسنة، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالسنة.

المبحث الثاني : أوجه تفسير القرآن بالسنة عند ابن قتيبة، وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : بيان المحمل.

المطلب الثاني : بيان المبهم.

المطلب الثالث : تفسير الألفاظ.

المطلب الرابع : تأكيد المعنى .

المطلب الخامس : بيان المشكل وإزالة اللبس.

المطلب السادس : بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم.

الفصل الثالث : تفسير القرآن بأقوال السلف، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بأقوال السلف.

المبحث الثاني : منهجه في عرض أقوال السلف، والاحتجاج بها.

الفصل الرابع : تفسير القرآن باللغة، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن باللغة.

المبحث الثاني : ضوابط التفسير اللغوي عند ابن قتيبة.

المبحث الثالث : قيمة التفسير اللغوي لابن قتيبة.

الفصل الخامس : الإسرائيليات، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مصادر ابن قتيبة في الإسرائيليات.

المبحث الثاني : منهجه في إيراد الإسرائيليات.

الباب الثالث : اهتمامات ابن قتيبة في التفسير، وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : اهتمام ابن قتيبة بالجانب العقدي، وفيه ثمانية مباحث :

المبحث الأول : منهج ابن قتيبة في توضيح العقيدة.

المبحث الثاني : تقريره منهج السلف في الأسماء والصفات.

المبحث الثالث : تقريره منهج السلف في بقية مسائل الاعتقاد.

المبحث الرابع : منع القياس العقلي في باب الاعتقادات.

المبحث الخامس : ذم علم الكلام.

المبحث السادس: الرد على تأويلات المعتزلة.

المبحث السابع : الرد على تأويلات الرافضة.

المبحث الثامن : الرد على تأويلات الخوارج.

الفصل الثاني : اهتمام ابن قتيبة بالجانب اللغوي، وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : بيان الأصل اللغوي للألفاظ.

المبحث الثاني : كثرة الشواهد الشعرية.

المبحث الثالث : كثرة الشواهد النثرية.

المبحث الرابع : بيان الأساليب العربية.

المبحث الخامس : بيان الفروق اللغوية.

المبحث السادس : بيان الأضداد في اللغة.

المبحث السابع : بيان الوجوه والنظائر.

الفصل الثالث : اهتمام ابن قتيبة بالجانب البلاغي، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : اهتمامه بعلم البيان. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التشبيه.

المطلب الثاني : الاستعارة.

المطلب الثالث : الكناية.

المبحث الثاني : اهتمامه بعلم البديع. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المشاكلة.

المطلب الثاني: المبالغة .

المبحث الثالث: اهتمامه بعلم المعاني. وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الالتفات.

المطلب الثاني : الإيجاز .

المطلب الثالث : التكرار .

المطلب الرابع : الإشباع والتوكيد.

المطلب الخامس : القلب.

المطلب السادس : التقديم والتأخير .

المطلب السابع : خروج الاستفهام عن معناه.

المطلب الثامن : أساليب الخطاب.

الفصل الرابع : اهتمام ابن قتيبة بالجانب النحوي والصرفي، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : بيانه أهمية الإعراب في تفسير القرآن الكريم.

المبحث الثاني : اهتمامه بالإعراب، واستقلالته فيه.

المبحث الثالث : اهتمامه بالصرف .

الفصل الخامس : اهتمام ابن قتيبة بدفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم، وفيه

سبعة مباحث :

المبحث الأول : دفع الإشكال بدلالة القرآن الكريم.

المبحث الثاني : دفع الإشكال بدلالة السياق.

المبحث الثالث : دفع الإشكال بدلالة أسباب النزول.

المبحث الرابع : دفع الإشكال بدلالة القراءات.

المبحث الخامس : دفع الإشكال بدلالة السنة النبوية.

المبحث السادس : دفع الإشكال بأقوال السلف.

المبحث السابع : دفع الإشكال بدلالة اللغة.

الباب الرابع : جهود ابن قتيبة في القراءات، وفيه فصلان :

الفصل الأول : منهج ابن قتيبة في القراءات، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : منهجه في عرض القراءات.

المبحث الثاني : شروط قبول القراءة عند ابن قتيبة.

المبحث الثالث : أصول توجيه القراءات عند ابن قتيبة.

المبحث الرابع : نقده لبعض القراء والقراءات.

الفصل الثاني : آراء ابن قتيبة في القراءات، وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : معنى الأحرف السبعة.

المبحث الثاني : الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف.

المبحث الثالث : لغة القرآن الكريم.

المبحث الرابع : أنواع اختلاف القراءات.

المبحث الخامس : حكم القراءة بالشاذ.

المبحث السادس : الجواب عن الشبه المتعلقة بالقراءات.

المبحث السابع : الجواب عما ادعي على القرآن من اللحن.

الباب الخامس : جهود ابن قتيبة في علوم القرآن وأصول التفسير، وفيه ثلاثة فصول

:

الفصل الأول : جهود ابن قتيبة في علوم القرآن، وفيه عشرة مباحث :

المبحث الأول : أسماء القرآن الكريم وسوره وأقسامه .

المبحث الثاني : نزول القرآن الكريم، والحكمة من تنجيده.

المبحث الثالث : جمع القرآن، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني : جمع أبي بكر رضي الله عنه.

المطلب الثالث : جمع عثمان رضي الله عنه.

المبحث الرابع : تواتر القرآن الكريم، والجواب عن الشبه المثارة حوله.

المبحث الخامس : فضائل القرآن الكريم، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : فضائل القرآن عموماً.

المطلب الثاني : فضائل سور مخصوصة من القرآن الكريم.

المبحث السادس : المحكم والمتشابه، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : معنى المحكم والمتشابه.

المطلب الثاني : الحكمة من وجود المتشابه.

المطلب الثالث : الصلة بين المشكل والمتشابه.

المطلب الرابع : الحروف المقطعة في أوائل السور.

- المبحث السابع : النسخ، وفيه أربعة مطالب :
- المطلب الأول : ثبوت النسخ، والحكمة منه.
- المطلب الثاني : أنواع النسخ في القرآن الكريم.
- المطلب الثالث : نسخ القرآن بالقرآن.
- المطلب الرابع : نسخ القرآن بالسنة.
- المبحث الثامن : القسم في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب :
- المطلب الأول : صيغته .
- المطلب الثاني : فائدته.
- المطلب الثالث : إقسام الله تعالى بمخلوقاته.
- المبحث التاسع : إعجاز القرآن الكريم، وفيه مطلبان :
- المطلب الأول : معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.
- المطلب الثاني : مفهوم الإعجاز القرآني عند ابن قتيبة.
- المبحث العاشر : وقوع المعرب في القرآن الكريم.
- الفصل الثاني : جهود ابن قتيبة في أصول التفسير ، وفيه ستة مباحث :**
- المبحث الأول : معنى التفسير والتأويل، والفرق بينهما.
- المبحث الثاني : التفسير بالرأي : ضوابطه، وحكمه.
- المبحث الثالث : أسباب الاختلاف في التفسير.
- المبحث الرابع : موقفه من زيادة الحروف في القرآن الكريم.
- المبحث الخامس : موقفه من تضمين الحروف.
- المبحث السادس : الحقيقة والمجاز، وفيه ثلاثة مطالب :
- المطلب الأول : معنى الحقيقة والمجاز.
- المطلب الثاني : مفهوم المجاز عند ابن قتيبة.
- المطلب الثالث : ضوابط القول بالمجاز عند ابن قتيبة.
- الفصل الثالث : دراسة تطبيقية على قواعد التفسير عند ابن قتيبة .**

الباب السادس : الموازنة بين الإمام ابن قتيبة والإمام أبي عبيد القاسم بن

سلام

في التفسير وعلوم القرآن ، وفيه فصلان :

الفصل الأول : الموازنة بينهما في التفسير .

الفصل الثاني : الموازنة بينهما في علوم القرآن .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

الفهارس التفصيلية :

وفيها فهارس الآيات الكريمة، وفهارس الأحاديث والآثار، وفهرس الأعلام، وفهرس الفرق

والقبائل والجماعات، وفهرس الأماكن والبلدان، وثبت المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

منهج البحث

- سيكون منهجي في كتابة البحث هو المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك كالتالي:
١. جمع المادة العلمية: وذلك باستخراج كل ما يتعلق بالتفسير وعلوم القرآن من كتب ابن قتيبة.
 ٢. تحليل المادة العلمية: حيث أعمد بعد جمع المادة العلمية إلى تحليلها، مستنبطاً منها جهود الإمام ابن قتيبة في التفسير وعلوم القرآن.
 ٣. التمثيل لما يُذكر في خطة البحث، والتعليق عليه بما هو مناسب في بيان جهود ابن قتيبة، مع الإحالة في الحاشية إلى بقية الأمثلة الأخرى.
 ٤. إذا كانت بعض مباحث الموضوع تحتاج إلى بيان، فإني أمهد لها بما يبينها ويوضح المصطلحات فيها.
 ٥. عند تعرضي للقضايا التفسيرية ألتزم بما له علاقة في بيان معنى الآية دون الاستطرادات التي ليس لها أثر في تفسير الآية.
 ٦. عند تعرضي لمسائل القراءات وعلوم القرآن وأصول التفسير أذكر ما أورده ابن قتيبة، مع بيان اختياراته في تلك المسائل.
 ٧. عند دراستي لقواعد ابن قتيبة في التفسير ألتزم باستيعابها، والتمثيل على كل قاعدة بما يبين اعتماده عليها.
 ٨. عزو الآيات الواردة في البحث إلى سورها، مع بيان أرقامها.
 ٩. توثيق القراءات، ومن قرأ بها، وعزوها إلى مصادرها، وبيان المتواتر منها والشاذ.
 ١٠. تخريج الأحاديث والآثار، وعزوها إلى مصادرها، فإن كانت في الصحيحين أو في أحدهما، فإني أكتفي بتخريجها منهما، وإن لم تكن في الصحيحين فإني مع عزوها إلى مصادرها أذكر درجتها صحة وضعفاً، معتمداً في ذلك على كلام المحققين من أهل الحديث.
 ١١. نسبة الأقوال إلى قائلها وتوثيقها.
 ١٢. نسبة الأبيات الشعرية إلى قائلها، مع توثيقها.

١٣. شرح الغريب من الألفاظ .

١٤. التعريف بالأعلام .

١٥. التعريف بالفرق والأماكن والبلدان.

هذا هو المنهج الذي سرث عليه في كتابة هذا البحث ، الذي بذلت وسعي واجتهدت قدر طاقتي في تجلية مسائله وتوثيقها وبيان الحق فيها ، وأخذ ذلك مني أوقاتاً متواصلة طويلة ، ورغم ذلك لا أدعي أنني وقّيت الموضوع حقه ، ولا أنني أصبت في كل ما قلت وقصدت ، إذ النقص والخطأ من طبيعة البشر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

ولكن حسبي أنني بذلت فيه وسعي ، فما كان فيه من صواب فمن الله تعالى وله الحمد والمِنَّة ، وما كان فيه من خطأ فمني وأستغفر الله منه ، ورحم الله من رأى فيه خطأ أو خللاً فأرشدني إلى صوابه وإصلاحه .

وبعد فإني أحمد الله حمداً كثيراً مباركاً فيه ، فهو الذي وقّق وأعان ، فله الحمد على ما أسبغ من النعمة ، وأتم من المِنَّة ، ويسّر من العُسْر ، وقرب من النجاح، وقدر من الصلاح .
والشكر والامتنان إلى والدي الكريمين وأهلي وإخوتي وأصحابي الذين أحاطوني بدعائهم ، وعظيم اهتمامهم وسؤالهم ، وألتمس من الجميع العفو والصفح ، فلطالما نأت بي الديار عنهم وأنا منشغل بإعداد هذه الرسالة .

ثم الشكر للصرح الجامعي المعطاء جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين على ما يسرته من سبل تحصيل العلم ، وأسأل الله أن يجزي القائمين عليها أحسن الجزاء .

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير والامتنان لشيخني الفاضل الأستاذ الدكتور بدر بن ناصر البدر ، الأستاذ بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين ، المشرف على هذه الرسالة ، على ما بذله من جهد ، وصرفه من وقت ، وأبداه من حسن توجيه وإرشاد في الإشراف على هذا البحث ، وعلى ما لقيته منه - حفظه الله - من معاملة حسنة ، وسعة صدر ، ودماثة خلق ، فأسأل الله تعالى أن يتولى مكافأته وإحسانه ، ويختم له في الدارين بالحسنى .

(١) سورة النساء : ٨٢ .

كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر لفضيلة أخي وشيخي الدكتور/ ناصر بن محمد العشوان ، الذي كان معي في هذا العمل منذ أن كان فكرة إلى أن قام على سوقه ، وخرج بصورته النهائية ، فلك الشكر أبا محمد ، وأسأل الله أن يجزيك عني خير الجزاء ، ويبارك في عمرك وعلمك وولددك.

وأخيراً فإني أشكر جميع من أعانني في بحثي هذا بإشارة أو إعارة من مشايخي وزملائي، فلهم مني حسن الدعاء ، وعاطر الشاء .

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، ويؤلبسه حلل القبول ، وأن يجعله حجة لي يوم الدين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

كتبه

سعد بن مبارك بن سعد الدوسري

المحاضر بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

التمهيد

عصر ابن قتيبة وحياته

التمهيد

عصر ابن قتيبة وحياته

أولاً : عصر ابن قتيبة وبيئته :

يتأثر الإنسان بالعصر الذي يعيش فيه ، وبالبيئة التي يسكن فيها ، وهو ما كان عليه حال الإمام ابن قتيبة - رحمه الله - الذي عاش ما بين (٢١٣-٢٧٦هـ) وكان ذلك في خلافة العباسيين من عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) إلى عهد المعتمد (ت ٢٧٩هـ) وكانت هذه الفترة مليئة بالأحداث والوقائع الكبار ؛ ما بين داخلية^(١) وخارجية^(٢) ، غير أن ذلك لا يعني ضعف الخلافة في تلك الفترة ، بل كانت قوية، لا سيما في عهد المأمون والمعتمد (ت ٢٢٧هـ)، ثم نالها شيء من الضعف قبل أن تستعيد نفوذها أواخر عهد المعتمد^(٣).

وكانت بغداد - حاضرة الخلافة العباسية ومقر الحكم - تموج بحركة علمية زاهرة، وتعج بأنواع الثقافات والعلوم ، مما جعلها موئلاً للعلماء ، ومقصداً للفضلاء ، ويعزو الباحثون ذلك إلى أن من ولي خلافة بغداد في تلك الفترة كانوا ممن حرص على العلم ، فرغبوا فيه وأحسنوا وفادة أهله ، وشجعوهم عليه ، فانتعشت بغداد بمن فيها وبمن وفد إليها ، وأصبحت ميداناً لتلك الحركة العلمية الواسعة .

ويعد عصر الإمام ابن قتيبة من أزهى وأرقى عصور الإسلام من الناحية العلمية، إذ حفلت تلك الفترة بكثير من العلماء على مختلف ألوانهم، وفيه أُلِّفت أمهات المصنفات، فإن عمدة المفسرين ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ألف تفسيره في ذلك العصر، وأشهر

^(١) كمقتل الخليفة جعفر المتوكل (ت ٢٤٦هـ) ، ثم المستعين (ت ٢٥٢هـ)، ثم المعتز (ت ٢٥٥هـ)، والمهتدي (ت ٢٥٦هـ) وثورة الزنج (٢٥٥-٢٧٠هـ) [انظر: المعارف لابن قتيبة (ص٢١٧-٢٢٢)، تاريخ الطبري (١٥/٦٢٠)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١١/١٥)].

^(٢) كالقتال المستمر مع الروم. [انظر: تاريخ الطبري (١٥/٦٢٠)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١١/١٥)، تاريخ الإسلام للذهبي (٩/١٥)، البداية والنهاية (١٤/١٨٨-١٢٥)].

^(٣) وذلك بالقضاء على ثورة الزنج التي أتمكت العباسيين. [انظر: تاريخ الطبري (٩/٦٥٤)، البداية والنهاية (١٤/٥٨٤)].

كتب الحديث ألفت في تلك الفترة ، كصحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ)، وصحيح مسلم (ت ٢٦١هـ)، وسنن ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) ، وسنن أبي داود (ت ٢٧٥هـ)، والجامع للترمذي (ت ٢٧٩هـ)، وسنن النسائي (ت ٣٠٣هـ)، ومسند الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ)، وغير ذلك من مصادر السنة ، كما انتشرت في ذلك العصر مذاهب الأئمة الأربعة ، ومذهب داود الظاهري (ت ٢٧٠هـ)، كما عاش في ذلك العصر ثلة من أهل اللغة ممن ذاع صيتهم ، وكانوا أئمة في هذا الفن، منهم الأصمعي (ت ٢١٤هـ)، وأبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٣هـ)، وابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ)، وأبو عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ)، وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، والمبرد (ت ٢٨٥هـ)، وثعلب (ت ٢٩١هـ)، وغير هؤلاء من فطاحل العلماء ممن لا يحصون كثرة في ذلك العصر.

وبالإضافة إلى كون هذا العصر - الذي أقبل عليه ابن قتيبة وشارك فيه - عصر علوم مختلفة وثقافات متنوعة ، فإنه - كذلك - عصر نزاع عقدي ، حيث نشطت فيه المبتدعة لنشر بدعهم والدعوة إليها ، وعلى رأسهم المعتزلة الذين استغلوا ميل المأمون (ت ٢١٨هـ) لمعتقدتهم ، فهبّ علماء السلف للرد عليهم ، والتصنيف في دفع باطلهم.

وكذا كان عصر ابن قتيبة عصر نزاع نحوي تمثل في المدرستين : الكوفية والبصرية، وكان بعيداً أن يعيش الإمام ابن قتيبة بمعزل عن هذا وذاك، بل كان لا بد أن يتأثر به وينغمس فيه ، وكان أثر ذلك جلياً عليه ، حيث شارك في رد فتنة خلق القرآن فكتب في الرد على من قال بخلق القرآن ، وشارك في رد فتنة المشبهة ، فصنّف في الرد عليهم ، وشارك في الخلاف النحوي بين البصرة والكوفة ، وجعل بينهما مدرسة ثالثة في بغداد ، وكان أستاذاً من أساتذتها المشهورين^(١)، ورأى العصر عصر إمام ومشاركة في كل العلوم ، فكان إماماً من هؤلاء الأئمة المشاركين المتفنين .

^(١) نصّ على رئاسته لهذه المدرسة ابن النديم في الفهرست (ص ٨٥)، وأيده كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي

ثانياً : اسمه ونسبه :

هو الإمام الحجة الثبت اللغوي النحوي الأديب ذو الفنون ، أبو محمد^(١) عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزي الدينوري .

ينسب إلى جده قتيبة^(٢) فيقال : القُتبي ، قال السمعاني (ت ٥٦٢): "القُتبي بضم القاف وفتح التاء وكسر الباء ، هذه النسبة إلى الجد وإلى بطن من باهلة ، فأما النسبة إلى الجد ، فالمشهور بهذه النسبة أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب"^(٣) ، وقد يقال في النسبة القُتبيي ، إلا أن الأول أفصح ، قال النووي (ت ٦٧٦هـ): "القُتبي بضم القاف وفتح التاء بعدها موحدة ، وقد يزيدون فيه ياء مثناة من تحت بين التاء والباء، والأول هو الفصيح المشهور الجاري على القواعد"^(٤).

والمروزي نسبة إلى مرو ، فهو من أسرة فارسية^(٥) كانت تسكن مرو العظمى^(٦) ، ومع هذا فهو محب للعرب مدافع عنهم ضد الشعوبية^(٧) ، حيث يقول في بيان ذلك: "وسأقول في الشرف بأعدل القول ، وأبين أسبابه ولا أبخس أحداً حقه ولا أتجاوز به حده، فلا يمنعي

^(١) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية (١/٦٤٥) أن كنيته أبو عبدالله ، وهذا خطأ بيّن ، حيث لم يذكرها أحد من المؤرخين ، وقد ذكر ابن قتيبة نفسه بكنيته كثيراً في كتبه ، فقال: "قال أبو محمد ...".

^(٢) قتيبة تصغير قتبة ، وهي واحدة الأقتاب ، والأقتاب الأمعاء ، وقيل القتبة معناها الآكاف التي توضع على ظهر الراحلة. [أدب الكاتب (ص ٤٠)، تهذيب اللغة للأزهري (٩/٦٥)].

^(٣) الأنساب (٤/٤٥١) .

^(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٨١) .

^(٥) ذكر الشيخ عبدالرحمن المعلمي في مقدمة تحقيقه لكتاب "المعاني الكبير" لابن قتيبة: "ولا ذكروا - أي المؤرخون - أعربي النسب هو أم مولى، غير أن الذي يشعر به اسم أبيه وجدده أنه عربي"، والصواب أنه فارسي، كما بينه ابن قتيبة ، وهو أعلم بنفسه.

^(٦) مرو العظمى : كانت أشهر مدن خراسان بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً، وقد فتح البلاد قتيبة بن مسلم الباهلي، أخرجت مرو الكثير من العلماء كأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وإسحاق بن راهويه، وعبدالله بن المبارك، وهي الآن تعتبر رابع أكبر المدن في تركمانستان، وعاصمة منطقة ماري، تقع على الحدود الإيرانية الأفغانية. [معجم البلدان (٥/١١٢)، موسوعة المدن العربية والإسلامية (ص ٤٢١)].

^(٧) الشعوبية : جمع شعوبي بالضم ، وهو من يحتقر أمر العرب، وينكر فضلهم ، ويفضل العجم عليهم ، وهي حركة ظهرت بوادها في العصر الأموي ، إلا أنها ظهرت للعيان في بداية العصر العباسي، وانتشرت بين المسلمين الفرس، وسموا شعوبية لأنهم ينتصرون للشعوب الأخرى غير العرب. [انظر: طبقات الحنابلة (١/٧١)، اقتضاء الصراط المستقيم (١/٣٧٧)].

نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلُها ، وأثني أعنتها عما تقدّم إليها سفلتُها"^(١) ، وألّف في ذلك مصنفاً وسمه بـ "فضل العرب والتنبيه على علومها" ، رد فيه على الشعوبية ، حيث يقول في مقدمته : "وأعاذنا الله من فتنة العصبية وحمية الجاهلية، وتحامل الشعوبية ، فإنها بفرط الحسد ونغل^(٢) الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة، وتلحق بها كل رذيلة، وتغلو في القول ، وتسرف في الذم ، وتبتهت بالكذب ، وتكابر العيان، وتكاد تكفر ثم يمنعها حد السيف"^(٣) .

أما الدينوري فنسبته إلى دِينَوْر^(٤) ، لأنه ولي القضاء فيها فترة من الزمن .

ثالثاً : مولده :

ولد ابن قتيبة في سنة ثلاث عشرة ومائتين للهجرة باتفاق المؤرخين ، وانفرد ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) بتحديد الشهر ، فقال : "ومولده في مستهل رجب"^(٥) .

غير أن المؤرخين اختلفوا في تعيين موضع ولادته ، فيذهب ابن النديم^(٦) ، وابن الأنباري^(٧) (ت ٥٧٧هـ) ، وابن الأثير^(٨) (ت ٦٣٠هـ) إلى أنه ولد في الكوفة ، فيما قال آخرون كالخطيب البغدادي^(٩) (ت ٤٦٣هـ) ، والسمعاني^(١٠) (ت ٥٦٢هـ) ، والقفطي^(١١) (ت ٦٤٦هـ) : إنه ولد في بغداد ، ولعل إقامته ونشأته في بغداد هي التي أوحى إليهم بذلك

(١) فضل العرب والتنبيه على علومها (ص ٥٥) .

(٢) النغل : أي الفساد . [لسان العرب ، مادة "نغل" (٦٧٠/١١)] .

(٣) فضل العرب والتنبيه على علومها (ص ٣٣) .

(٤) دينور : مدينة من أعمال الجبل ما بين الموصل وأذربيجان ، تقع غربي همذان ، بينهما نيف وعشرون فرسخاً، تعد

الآن من أهم مدن إقليم الجبال في كردستان الشرقية (غربي إيران) . [معجم البلدان (٥٤٥/٢)] .

(٥) الفهرست (ص ٨٥) .

(٦) المصدر السابق (ص ٨٥) .

(٧) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص ١٥٩) .

(٨) الكامل في التاريخ (٣٥٩/٦) .

(٩) تاريخ بغداد (٤١١/١١) .

(١٠) الأنساب (٤٥١/٤) .

(١١) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

التعيين ، فيما يستند الأولون في قولهم إلى أن أباه ليس بغدادياً ، وأن أسرته كانت وافدة على بغداد .

رابعاً : نشأته ورحلاته :

نشأ ابن قتيبة وقضى معظم حياته في بغداد التي كانت تموج بحركة علمية زاهرة، وتحوي إليها أفئدة المتعلمين من كل أنحاء الدولة الإسلامية ، وقد تجمع فيها حينئذ جهابذة العلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والمفسرين، وكان ابن قتيبة - كما أخبر عن نفسه^(١) - منذ شبابه ذا نفس تواقفة إلى المعرفة ، دفعته إلى أن يتعلق من كل علم بسبب، وأن يضرب فيه بسهم، وقد اقتضاه ذلك أن يغشى مجالس علماء الحديث والتفسير والفقهاء والنحو واللغة والأدب والتاريخ ، فأخذ عنهم علماً غزيراً واسعاً شمل مختلف الفنون ؛ مما مكن له من أسباب القوة ، وهياً له من وسائل التفوق والتبريز.

وبعد أن اشتد عود ابن قتيبة ، ونهل من المعرفة ، وأخذ بقسط وافر من علوم اللغة والشعر ، اختير قاضياً لمدينة "دينور" من بلاد فارس ، وكان بها جماعة من العلماء والفقهاء والمحدثين ، فاتصل بهم ، وأخذ عنهم .

كما خرج إلى مكة ، وأخذ عن بعض شيوخها ، كيحيى بن أكثم (ت ٢٤٢هـ) ورحل إلى نيسابور^(٢) وأخذ عن علمائها ، ومنهم أحمد بن خالد الضرير ، كما اتصل بعلماء البصرة البصرة وأخذ عنهم كثيراً^(٣) ، إذ أغلب شيوخه بصريون - على ما سيأتي بيانه - .

خامساً : شيوخه :

تتلمذ ابن قتيبة على عدد من العلماء الأجلاء ، ونال حظاً وافراً من العلم عن طريقهم ، وصنع لنفسه مشيخة حافلة ، وقد تنوعت أنماط شيوخ ابن قتيبة ، واختلفت

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٣) .

(٢) نيسابور: مدينة في مقاطعة خراسان، وهي عاصمتها قديماً، تعد من أعظم مراكز الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، فتحت في عهد عثمان رضي الله عنه، وخرّبها المغول سنة ٦١٨هـ، وهي اليوم مدينة إيرانية مشهورة تقع في شمال شرق إيران بالقرب من العاصمة الإقليمية مشهد، وعدد سكانها يناهز المائة ألف نسمة. [معجم البلدان (٣٣١/٥)، موسوعة المدن العربية والإسلامية (ص ٢٨٦)].

(٣) انظر رحلاته في : تاريخ بغداد (٤١١/١١)، وفيات الأعيان (٤٣/٣) .

مشاربهم ، فمن محدث ثقة إلى فقيه مفتٍ ، ومن إخباري علامة ، ولغوي فهامة ، إلى مقرئ إمام ، وسوف أقتصر على التعريف بأشهرهم وأكثرهم تأثيراً على ابن قتيبة ، وهم :

١ . والده : مسلم بن قتيبة ، روى عنه بعض الأحاديث والأخبار ، كما هو مثبت في "غريب الحديث" و"المعارف" و"عيون الأخبار" ، وربما نقل عنه بواسطة كما في "تأويل مختلف الحديث"^(١) ، إلا أنه ليس من المشهورين إذ لم يترجم له أحد من المؤرخين^(٢) .

٢ . أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي ، المعروف بـ "ابن راهويه" (ت ٢٣٨هـ) ، أحد أئمة الإسلام ، برع في الفقه والحديث ، صحب الشافعي ، وناظره ، روى عنه : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، وأحمد بن حنبل الذي قال عنه : "لا أعرف لإسحاق بالعراق نظيراً"^(٣) .

ويعد ابن راهويه من أهم شيوخ ابن قتيبة الذين تأثر بهم ، واستفاد منهم ، وكان نفسه حاضراً في كثيرٍ من مصنفات ابن قتيبة ، ويعتبر من أهم موارد فيها ، كما تعد براعة ابن قتيبة في الفقه والحديث نتاجاً لأخذه وتلمذه على يد هذا الشيخ الجليل .

٣ . أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت ٢٥٥هـ) ، المقرئ النحوي اللغوي ، صاحب التصانيف ، أخذ عن يزيد بن هارون ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي زيد الأنصاري ، والأصمعي ، ويعقوب الحضرمي وعليه قرأ القرآن ، وتصدر للإقراء والحديث واللغة ، وعنه : أبو داود والنسائي والبزار ، وأبو العباس المبرد ، وابن دريد^(٤) .

قال عنه الأزهري (ت ٣٧٠هـ) : "وكان أبو حاتم السجستاني أحد المتقدمين ، جالس الأصمعي ، وأبا زيد ، وأبا عبيدة ، وله مؤلفات حسان ، وكتاب في قراءة القرآن جامع ... ، وقد جالسه شمر ، وعبدالله بن مسلم بن قتيبة ، ووثقاه"^(٥) .

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٢٠٠) .

(٢) قال الألباني رحمه الله في الأحاديث الصحيحة (١/٢١٢) : "مسلم بن قتيبة لم أجد له ترجمة ، ويبدو أنه مجهول ، ولا يعرف ، فقد ترجم الخطيب وغيره لابنه عبدالله بن مسلم بن قتيبة فلم يذكر في شيوخه والده هذا" .

(٣) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد (٦/٣٤٥) ، تهذيب الكمال (٢/٣٧٣) سير أعلام النبلاء (١١/٣٥٨) ، الوافي بالوفيات (٨/٢٥١) .

(٤) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم (ص ٦٤) ، نزهة الألباء (ص ١٩٩) ، معرفة القراء الكبار (١/٢١٩) ، البداية والنهاية (١١/٣) .

(٥) تهذيب اللغة (١/٢٢) .

وأثر هذا الإمام على ابن قتيبة كان ظاهراً في أغلب مصنفاته ، خاصة فيما يتعلق باللغة والقراءات ، كما كان واسطته في كثير مما يرويه عن الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد .

٤ . أبو الفضل العباس بن الفرغ الرياشي البصري (ت ٢٥٧هـ) اللغوي النحوي ، كان من كبار أهل اللغة ، كثير الرواية للشعر ، أخذ عن الأصمعي ، وكان يحفظ كتب الأصمعي ، وكتب أبي زيد كلها ، وقرأ على أبي عثمان المازني كتاب سيبويه ، فكان المازني يقول : "قرأ علي الرياشي الكتاب ، وهو أعلم به مني" ، وأخذ عنه ابن خزيمة وإبراهيم بن إسحاق الحربي ، والمبرد ، وابن دريد ، قتله الزنج^(١) بالبصرة ، وكان قائماً يصلي الضحى في مسجده^(٢) .

وقد أثنى الأزهري على أخذ ابن قتيبة من هذين الشيخين ؛ فقال : "وأما القتيبي فإنه رجل سمع من أبي حاتم السجزي كتبه ، وسمع من الرياشي فوائد جمّة ، وكانا من المعرفة والإتقان بحيث يثنى بهما الخناصر"^(٣) .

٥ . أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزياتي (ت ٢٤٩هـ) ، كان نحويّاً لغويّاً راويّاً ، تتلمذ لسيبويه وأبي عبيدة والأصمعي ، وأخذ عنه المبرد ، وله كتاب "الأمثال" و"النقط والشكل" وغيرهما^(٤) .

كان واسطة ابن قتيبة فيما يرويه عن ثلاثة من أئمة اللغة : سيبويه ، والأصمعي ، وأبي عبيدة .

(١) شهدت البصرة عام ٢٥٥هـ "ثورة الزنج" وقد تزعمها علي بن محمد الفارسي الأصل ، وقد ادعى له نسباً علويّاً ، وزعم أنه المهدي ، وأن الله أرسله لتحرير العبيد ، فثار على الخلافة - وكانت أطول ثورات العصر العباسي وأخطرها - وجعل قصر الحكم في المختارة ، جنوب البصرة ، وسيطر على رقعة واسعة بين الأهواز وواسط ، وفي عام ٢٧٠هـ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة بمحاربتة ، فاصطدم بالزنج وقتل علي بن محمد واستسلم أتباعه ، وخمدت تلك الثورة التي دامت أكثر من أربعة عشر عاماً (٢٥٥-٢٧٠هـ) . [انظر: تاريخ الطبري (٤١٠/٩) ، البداية والنهاية (٥١١/١٤)] .

(٢) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٣٨/١٢) ، الفهرست (ص٦٣) ، نزهة الألباء (ص١٥٢) .

(٣) تهذيب اللغة (٣٤/١) .

(٤) انظر ترجمته في: نزهة الألباء (ص١٥٧) ، الواقي بالوفيات (٢٣٣/٥) ، معجم الأدباء (٦٧/١) .

٦ . أبو محمد عبدالرحمن بن عبدالله بن قُريب (ابن أخي الأصمعي) ، كان ثقة فيما يرويه عن عمه ، له من المصنفات كتاب "معاني الشعر" ، وقد عدّه الزبيدي في الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين^(١) .

٧ . أبو العباس أحمد بن سعيد اللحياني ، روى عن الإمام أحمد، وهو صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام، قرأ عليه ابن قتيبة كتاب "الأموال"، وكتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد سنة ٢٣١هـ، وكان عمر ابن قتيبة - إذ ذاك - ثمانية عشر عاماً^(٢) .

يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه "إصلاح الغلط" : "وكل حكاية نحكيها في هذا الكتاب عن أبي عبيد ، فإن أحمد بن سعيد اللحياني صاحبه، كان حدثنا بذلك عنه في سنة إحدى وثلاثين ومائتين"^(٣) .

٨ . أبو حفص حرملة بن يحيى بن عبدالله التجيبي (ت ٢٤٣هـ)، روى عن ابن وهب فأكثر ، وعن الشافعي ولازمه ، وعنه مسلم وابن ماجه^(٤) .

٩ . أبو سعيد أحمد بن خالد الضرير ، قال الأزهري عنه: "وكان طاهر بن عبدالله استقدمه من بغداد ، فأقام في نيسابور ، وأملى بها كتباً في معاني الشعر والنوادر، وردّ على أبي عبيد حروفاً كثيرة من كتاب غريب الحديث، وكان لقي ابن الأعرابي، وأبا عمرو الشيباني ، ... وقدّم عليه القتيبي ، فأخذ عنه"^(٥) .

١٠ . أبو الخطاب زياد بن يحيى بن زياد الحساني النكري البصري (ت ٢٥٤هـ)، كان ثقة ، روى عن معمر بن سليمان ، وحاتم بن وردان ، وبشر بن المفضل، وعنه أبو حاتم وابن خزيمة^(٦) .

(١) طبقات اللغويين والنحويين (ص ١٨٠)، وانظر ترجمته في: الفهرست (ص ٦١)، بغية الوعاة (٨٢/٢) .

(٢) انظر ترجمته في: طبقات الحنابلة (١٠٠/١)، المقصد الأرشد لابن مفلح (١٠٦/١)، المنهج الأحمد للعلمي (٥١/٢) .

(٣) إصلاح غلط أبي عبيد (ص ٤٧) .

(٤) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٣٨٩/١١)، ترتيب المدارك (١٧١/٤)، تهذيب الأسماء واللغات (١٥٥/١)، وفيات الأعيان (٦٤/٢) .

(٥) تهذيب اللغة (٢٤/١)، وانظر ترجمته في: إنباه الرواة (٤١/١)، معجم الأدباء (٢٥٣/١) .

(٦) انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (٥٢٣/٩)، تهذيب التهذيب (٣٨٩/٣) .

١١ . أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحي البصري (ت ٢٣١هـ)، صاحب كتاب "طبقات فحول الشعراء"، برع في الأخبار والأدب، قدم بغداد فأقام بها إلى حين وفاته، روى عنه ابن أبي خيثمة وعبدالله بن أحمد بن حنبل، وأبو العباس ثعلب، قال الذهبي: "محمد بن سلام الجمحي: إخباري موثق، سمع حماد بن سلمة، قال أبو خيثمة: خذوا منه الشعر، فأما الحديث فلا، كان قدرياً"^(١).

١٢ . أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد التميمي المروزي القاضي (ت ٢٤٢هـ)، سمع عبدالله بن المبارك وابن أبي حازم والقطان، وعنه الترمذي والبخاري في غير الصحيح، كان عالماً بالفقه، بصيراً بالأحكام، ولاء المأمون قضاء القضاة ببغداد، وقد أخذ عنه ابن قتيبة بمكة^(٢).

١٣ . أبو عبدالله محمد بن زياد بن عبيد الله بن زياد الزياتي البصري (ت ٢٥٢هـ)، الملقب بـ "يؤيو"، روى عن حماد بن زيد وابن عيينة، وروى عنه البخاري وابن ماجه وابن خزيمة^(٣).

١٤ . أبو طالب زيد بن أخزم الطائي البصري (ت ٢٥٧هـ)، الحافظ الثقة، قدم بغداد وحدث بها عن عبدالرحمن بن مهدي ووهب بن جرير وغيرهما، وروى عنه الجماعة سوى مسلم، ذبحه الزنج عند دخولهم البصرة^(٤).

١٥ . أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، كان عالماً بالأدب، فصيحاً بليغاً مصنفاً في فنون العلم، وكان من أهل البصرة وأحد شيوخ المعتزلة، قدم بغداد فأقام بها مدة^(٥)، وقد تتلمذ له ابن قتيبة في مطلع حياته، وتأثر به في الجانب الأدبي، وأجازه

^(١) المغني في الضعفاء (٢/٢١٨)، وانظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٣/٢٧٦)، معجم الأدباء (٦/٢٥٤٠).

^(٢) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٦/٢١٨)، تاريخ مدينة دمشق (٤٤/٦٢)، سير أعلام النبلاء (١٢/٥)، وفيات الأعيان (٦/١٤٧).

^(٣) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١١/١٥٤)، تهذيب التهذيب (٣/٥٦٤)، الوافي بالوفيات (٣/٦٧).

^(٤) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٩/٤٥٣)، سير أعلام النبلاء (١٢/٢٦٠)، تهذيب التهذيب (١/٦٥٧).

^(٥) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٤/١٢٤)، تهذيب اللغة (١/٣٠)، نزهة الألباء (ص ١٤٨)، وفيات الأعيان (٣/٤٧٠)، معجم الأدباء (٥/٢١٠١).

وأجازه ببعض كتبه، كما صرح به ابن قتيبة في "عيون الأخبار"، حيث يقول: "وفيما أجازه لنا عمرو بن بحر من كتبه؛ قال...^(١)".

ومع اعتراف ابن قتيبة بملكة الجاحظ الأدبية واستفادته منها، إلا أنه هاجمه دفاعاً عن السنة وذباً عن الدين، حيث يقول: "ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعايير على المتقدمين، وأحسنهم للحجة استشارة وأشدهم تلطفاً، لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه،... وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل"^(٢).

سادساً: تلاميذه :

بعد أن استوعب ابن قتيبة علم شيوخه استقر في بغداد، وكان من شأنه: أن يخلو إلى نفسه في بيته، فيؤلف كتبه، ويجود تأليفها^(٣)، ثم يخرجها للناس ويقرأها لمن شاء من طلابه، ونظراً لكثرة مصنفاته واشتمالها على معارف شتى وعلوم جمّة، فقد أخذ عنه كثير من التلاميذ، نقلوا علمه، ورووا كتبه، ونشروا فكره، من أشهرهم :

١ . ابنه القاضي أبو جعفر أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٣٢٢هـ)، الفقيه الأديب، قال القاضي عياض عنه: "كان مالكي المذهب، من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه، وكان يحفظها كما يحفظ القرآن، ويرد فيها من حفظه النقطة والشكلة، وما معه نسخة، كان أبوه أبو محمد حفظها إياه في اللوح..، ولي قضاء مصر وحكم في جامعها"^(٤).

وقد روى عن أبيه تصانيفه كلها، وسمع منه خلق عظيم من جلة أهل الأدب والرواية، كأحمد بن ولاد وأبي جعفر النحاس وأبي علي القالي وأبي القاسم الآمدي^(٥).

(١) (١٩٩/٣).

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٢) .

(٣) انظر: لسان الميزان لابن حجر (١٠/٥) .

(٤) ترتيب المدارك (٥/٢٧٢) .

(٥) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٥/٣٧٨)، سير أعلام النبلاء (١٤/٥٦٥)، معجم الأدباء (١/٢٩٣)، الديباج

المذهب (ص ٩٣).

وذكر الخطيب البغدادي ابناً لأبي جعفر اسمه: عبدالواحد ، وذكر أنه ولد ببغداد سنة ٢٧٠هـ، وانتقل إلى مصر فسكنها ، وروى عن أبيه عن جده كتبه، وهذا يدل على أن بيت ابن قتيبة قد توارث العلم^(١).

٢ . أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد المالكي (ت ٢٩٨هـ)، أخذ عن إسماعيل القاضي ويحيى بن معين، وصالح بن أحمد بن حنبل، وابن قتيبة ومما رواه عنه كتاب "تأويل مختلف الحديث"، وقد وصل إلينا بروايته، وغلب عليه الحديث ، حدث ببغداد وبمصر، وروى عنه أبو بكر الأبهري وأبو محمد الضراب وغيرهما، ألف كتاباً في فضائل مالك، وكتاباً في الرد على الشافعي، وكتاب "المجالسة وجواهر العلم"^(٢)، وقد نقل فيها أشياء عن شيخه ابن قتيبة^(٣).

٣ . أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان الآجري (ت ٣٠٩هـ) ، كان إخبارياً مصنفًا حسن التصنيف، حدث عن أحمد بن منصور الرمادي ، والزبير بن بكار وأحمد بن أبي خيثمة وغيرهم، وعنه أبو بكر بن الأنباري ، وأبو جعفر بن برية الهاشمي وجماعة^(٤).

٤ . أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ (ت ٣١٣هـ)، كان ثقة، حدث عن محمد بن حسان الأزرق وإسحاق بن إبراهيم البغوي وغيرهما، وروى عن ابن قتيبة كل مصنفاته، وعنه أبو محمد عبدالرحمن بن محمد الزهري، وعلي بن عمر السكري^(٥).

٥ . أبو محمد عبيد الله بن عبدالرحمن بن محمد بن عيسى السكري (ت ٣٢٣هـ)، كان ثقة ، سمع زكريا بن يحيى المنقري ومحمد بن الجارود القطان ، وسمع من ابن قتيبة كتاب "غريب الحديث"، و"إصلاح الغلط" سنة ٢٦٨هـ، وقد وصل إلينا بروايته عنه كتاب

^(١) تاريخ بغداد (٢٥٥/١٢)، وقد جاء في سماعات كتاب "تأويل مختلف الحديث" (ص ٢٤٤): "قال أبو علي حسين بن محمد الغساني حدثني حكم بن محمد عن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عبيد عن عبدالواحد بن أحمد ابن عبدالله بن مسلم بن قتيبة عن أبيه عن جده".

^(٢) انظر ترجمته في : ترتيب المدارك (٥١/٥)، الديراف المذهب (ص ٨٨)، سير أعلام النبلاء (٤٢٧/١٥) .

^(٣) المجالسة وجواهر العلم (ص ٣٥٦، ٤١٧، ٤٢٩، ٤٦٨، ٥٤٠، ٥٥٧) .

^(٤) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٢٨/٣)، الواقي بالوفيات (٣٧/٣)، النجوم الزاهرة (٢٢٨/٣) .

^(٥) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٩٠/٧)، المنتظم (٢٤٩/١٣) .

"المسائل والأجوبة" و"إصلاح الغلط" ، وروى عنه القاضي أبو بكر بن الجعابي وأبو الحسن الدارقطني وغيرهما^(١).

٦ . أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الضراب الدينوري (ت ٣٢٨هـ) كان ثقة، قدم بغداد وحدّث بها عن عبدالله بن محمد الروحي، وهارون بن موسى الأشناني، وقرأ على ابن قتيبة كتابه "تأويل مختلف الحديث"، وعنه أبو حفص الزيات، وأبو الحسن البواب^(٢).

٧ . أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن عبدالله بن بكير التميمي (ت ٣٣٤هـ)، كان ثقة، سمع محمد بن قدامة وحمدان بن علي الوراق وابن قتيبة ، وروى عنه الدارقطني ومحمد بن عبدالرحيم المازني ، وأبو حفص الآجري^(٣).

٨ . أبو سعيد الهيثم بن كليب بن شريح بن معقل الشاشي (ت ٣٣٥هـ)، كان إماماً حافظاً رحالاً أديباً، قرأ الأدب على ابن قتيبة ببغداد، وروى عن أبي عيسى الترمذي، وعيسى بن أحمد العسقلاني وغيرهما، وعنه أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، وله مسند في مجلدين^(٤).

٩ . أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف القرطبي (ت ٣٤٠هـ)، الحافظ الإمام، محدّث الأندلس، كان ثبّناً صادقاً بصيراً بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والغريب، معدوداً في علماء المالكية، سمع بقي بن مخلد، وابن أبي الدنيا ، وعنه عبدالله بن محمد الباجي والقاسم بن محمد بن غسلون، وقد صنف كتاب أحكام القرآن، وغرائب مالك، والناسخ والمنسوخ ، والأنساب وغير ذلك، رحل إلى المشرق سنة ٢٧٤هـ، وقرأ على ابن قتيبة "غريب الحديث"، و"المعارف"^(٥).

١٠ . أبو محمد عبدالله بن جعفر بن دُرستويه بن المرزبان الفارسي الفسوي (ت ٣٤٧هـ)، كان عالماً لغوياً، نحويّاً فاضلاً، وتصانيفه في غاية الجودة والإتقان، صحب المبرد ، وأخذ عن ابن قتيبة ، وقد وصل إلينا من رواياته عنه كتاب "الأشربة"، وروى عنه الدارقطني

(١) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٧٠/١٢)، المنتظم (٣٥٣/١٣) .

(٢) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١١٠/٦) .

(٣) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٧٣/١٢) .

(٤) انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ (٨٤٨/٣) .

(٥) انظر ترجمته في: ترتيب المدارك (١٨٠/٥)، تذكرة الحفاظ (٨٥٣/٣) .

وابن شاهين وغيرهما، وكان شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة، وصنف الإرشاد في النحو، وشرح الفصيح، وغريب الحديث، والهجاء، وغير ذلك^(١).

سابعاً : مكانته وثناء العلماء عليه :

ابن قتيبة علم من أعلام الإسلام ، وإمام حجة من أئمة العلم ، وقد أحسن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) حين وصفه فقال: "ابن قتيبة وعاء من أوعية العلم"^(٢).

فقد كان رحمه الله أحد العلماء الأدباء والحفاظ الأذكياء ، وكان رأساً في العربية واللغة ، والأخبار وأيام الناس ، وغريب القرآن والحديث ومعانيهما ، والشعر، والفقهاء، كثير التصنيف والتأليف، مصنفاته عظيمة القدر ، جليلة النفع ، شاهدة على سعة اطلاعه، وتنوع ثقافته وأصالتها ، وقد سار الركبان بها ، فنالت إعجاب العلماء قديماً وحديثاً، وعرفوا قدر هذا العالم الجليل ، وأثنوا عليه الثناء الذي يليق به ، ومن أقوالهم :

١ . قال نفطويه أبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة (ت ٣٢٣هـ): "كان ابن قتيبة إذا خلا في بيته وعمل شيئاً جوّده ، وما أعلمه حكى شيئاً في اللغة إلا صدق فيه"^(٣).

٢ . قال أبو الحسن القطان (ت ٣٤٥هـ): "رأيت في أول رحلتي ببغداد، ولم يتبين لي محلّه، فلم أكتب عنه ، فلما رجعت من اليمن ، ورأيت كتبه ، ندمت على ذلك، فكتبتها عن أبي بكر المفسر عنه"^(٤).

٣ . قال ابن النديم (ت ٣٨٥هـ): "وكان صادقاً فيما كان يرويه ، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه، والشعر والفقهاء ، كثير التصنيف والتأليف، وكتبه مرغوب فيها"^(٥).

(١) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١١/٨٥)، نزهة الألباء (ص٢١٣)، وفيات الأعيان (٣/٤٤).

(٢) تذكرة الحفاظ (٢/٦٣٣) .

(٣) نقله ابن حجر في لسان الميزان (٥/١٠) .

(٤) نقله الخليلي في الإرشاد في معرفة علماء الحديث (٢/٦٢٦) .

(٥) الفهرست (ص٨٥) .

- ٤ . قال ابن حزم أبو محمد (ت ٤٥٦هـ): "وكان ابن قتيبة ثقة في دينه وعلمه"^(١).
- ٥ . قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ): "كان ثقة ديناً فاضلاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة"^(٢)، وقال عنه - أيضاً - : "شهرته ظاهرة في العلم، ومحلّه من الأدب لا يخفى"^(٣).
- ٦ . قال أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ): "كان فاضلاً في اللغة والنحو والشعر، متفنناً في العلوم، وله المصنفات المذكورة ، والمؤلفات المشهورة"^(٤).
- ٧ . قال ابن خلكان (ت ٦٨١هـ): "ابن قتيبة النحوي اللغوي ، كان فاضلاً ثقة، وتصانيفه كلها مفيدة"^(٥).
- ٨ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق ، والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة ، وله في ذلك مصنفات متعددة، قال فيه صاحب كتاب "التحديث بمناقب أهل الحديث": وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء ، أجودهم تصنيفاً وأحسنهم ترصيفاً ، له زهاء ثلاثمائة مصنف، وكان يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق ... ، وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه، قلت: ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة"^(٦).
- ٩ . قال الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) عنه: "العلامة الكبير ذو الفنون ، نزل بغداد ، وصنّف وجمع ، وبُعِدَ صيته ، ... وهو من كبار العلماء المشهورين ، عنده فنون جمّة ، وعلوم مهمة"^(٧).

(١) نقله ابن حجر في لسان الميزان (١٠/٥) .

(٢) تاريخ بغداد (٤١١/١١) .

(٣) المتفق والمفترق (١٤٢٤/٣) .

(٤) نزهة الألباء (ص ١٥٩) .

(٥) وفيات الأعيان (٤٢/٣) .

(٦) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٧) .

(٧) سير أعلام النبلاء (٢٩٦/١٣) .

١٠ . قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): "ابن قتيبة أحد العلماء والأدباء والحفاظ الأذكياء ، وكان ثقة نبيلاً جليلاً من الأئمة ، وكان أهل العلم يتهمون من لم يكن في منزله شيء من تصانيفه"^(١).

والناظر لهذه الأقوال ولغيرها من التراجم لابن قتيبة يجد أنها تكاد تتفق على الإشادة بأمرين مهمين - كانا محل إعجاب وتقدير ، ومبعثاً للثناء - :
أحدهما : كثرة تصانيفه وجودتها .

الثاني : تفننه وتعدد علومه .

وأضاف شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) أمراً ثالثاً ، هو : عنايته بالسنة والرد على أهل البدع .

ثامناً : الطعن في ابن قتيبة : أسبابه وردة .

مع أن الإمام ابن قتيبة نال التقدير والثناء ، إلا أنه - كغيره من العلماء - نالته ألسنة القرح ، ووجهت إليه سهام النقد ، إلا أن الكثير من الأئمة أجلّه وأكبره ، ودافع عنه ورد على منتقديه .

ويعود السبب في تحامل المنتقدين على ابن قتيبة وعدم إنصافهم له إلى أمرين:

أحدهما : تفنن ابن قتيبة وتنوع مصنفاته .

حيث لاقت محاولة ابن قتيبة إضفاء الشمولية في مؤلفاته نجاحاً باهراً، وكان ذلك على حساب كبار المؤلفين، ففي الحديث نقد أبا عبيد القاسم بن سلام^(٢) (ت ٢٢٤هـ)، وفي الشعر فنّد نظرية محمد بن سلام الجمحي^(٣) (ت ٢٣٤هـ)، وهاجم أبا عبيدة^(٤) (ت ٢١٠هـ)، والجاحظ^(٥) (ت ٢٥٥هـ)، وغيرهم من أساطين العصر، كلاً في فنه، وحاول أن يوفق بين مدرستي النحو في : الكوفة والبصرة ، ونوع مصنفاته، فألّف في التفسير والقراءات

(١) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣) .

(٢) وأفرد لذلك مصنفاً وسمه بـ "إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث" .

(٣) وصنف في ذلك كتابه "الشعر والشعراء" .

(٤) هاجمه حين رد على الشعبيية في كتابه "فضل العرب والتنبية على علومها"، كما ردّ كثيراً من آرائه في كتبه "تأويل مشكل القرآن"، و"تفسير غريب القرآن"، و"غريب الحديث"، وغيرها .

(٥) هاجمه في مقدمة كتابه "تأويل مختلف الحديث" .

والحديث والفقه واللغة والنحو والأدب والتاريخ والفلك ، ونتيجة لذلك: اتهم ابن قتيبة بأنه لم يوفق في الشروع في هذه الميادين ، ونسب إلى الغفلة والغباوة والغموض.

الثاني: عقيدة الإمام ابن قتيبة ورده على المخالفين .

فمنذ أن تأثر ابن قتيبة بشيخه إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ)، وأخذ بالانتصار لأهل الحديث والذب عنهم، طفق يجادل أهل الكلام ، وأهل الرأي ، والجهمية^(١)، والمشبهة^(٢)، فأفرد كتاباً في الرد على الجهمية والمشبهة، هو "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة"، وخصص مقدمة كتابه "تأويل مختلف الحديث" في الرد على أصحاب الكلام والرأي ، كما هاجم الشعوبية دفاعاً عن الدين والعروبة في مصنفه "فضل العرب والتبويه على علومها".

وكانت ردود ابن قتيبة المتعددة وتصديه لأكثر من جهة سبباً رئيساً في تحامل قسم كبير من منتقديه عليه.

وبناءً على هذين الأمرين يمكن تصنيف المنتقدين لابن قتيبة إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: القادحين في علمه وخلقه ، فمنهم :

١. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ):

وكان رائد هذه الطائفة ، وأشدهم عداوة لابن قتيبة ، قال الأزهري (ت ٣٧٠هـ):
"رأيته ينسب ابن قتيبة إلى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة ، وقد ردّ عليه قريباً من ربع ما ألفه في مشكل القرآن"^(٣).

(١) الجهمية هم أتباع الجهم بن صفوان ، وهي فرقة معطلة تنكر أسماء الله وصفاته، وتزعم أن الإنسان مجبور على أفعاله، وأن الجنة والنار تفنيان ، وأن الإيمان هو المعرفة بالقلب فقط، وغير ذلك من الضلالات. [انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦)، الفصل لابن حزم (٤/٢٠٤)، الفرق بين الفرق (ص ٢١١)].

(٢) المشبهة صنفان: صنف شبهوا ذات الباري بذات غيره، وصنف آخر شبهوا صفاته بصفات غيره، وكل صنف يفتقر على أصناف شتى، فالمشبهة الذين ضلوا في تشبيه ذاته بغيره أصناف مختلفة، وأول ظهورها كان في أصناف من الروافض الغلاة، منهم السبئية والبيانية والمغيرية والمنصورية وغيرهم، أما المشبهة لصفاته بصفات المخلوقين فأصناف ؛ منهم: المعتزلة البصرية والكلامية والرازية. [الفرق بين الفرق (ص ١٩٨-٢٠١)، مقال التشبيه وموقف أهل السنة منها، د. جابر إدريس (١/٢٣٣)].

(٣) تهذيب اللغة (١/٣١) .

وقد سجل العلماء عليه تحامله الشديد على ابن قتيبة ، وأنه كان يرد عليه أقواله كلها ، ويتعسف في طعنه ، ويحتج لرده بشواذ اللغة .

يقول الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) - مع كونه لا يذكر ابن قتيبة إلا في معرض النقد والتخطئة - : "وهذا الذي ذكره ابن الأنباري غير صحيح ، ونظن أن الذي حمله على الطعن في هذا الوجه ، حكايته له عن ابن قتيبة ، لأن من شأنه أن يرد كل ما يأتي به ابن قتيبة ، وإن تعسف في الطعن عليه"^(١).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) - مبيناً سبب كثرة انتقاد ابن الأنباري لابن قتيبة - : "وابن الأنباري هو من أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات ، يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ، ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة ، وقصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة ، وليس هو أعلم بمعاني القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك، وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة ، وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد (ت ٢٢٤هـ) أشياء من تفسيره غريب الحديث ، وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك، وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم"^(٢).

وقد قال ابن قتيبة في مقدمة كتابه "إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث" - مقررًا هذا الاعتذار - : "والناس يختلفون في الفقه، ويرد بعضهم على بعض في الحلال أنه حرام، وفي الحرام أنه حلال، وهذا طريق النجاة أو الهلكة، لا كالغريب والنحو والمعاني التي ليس على الهائي فيها كبير جناح، كالشافعي (ت ٢٠٤هـ) يرد على الثوري (ت ١٦١هـ) وأصحاب الرأي، وعلى معلمه مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، ... وعلماء اللغة أيضاً يختلفون وينبه بعضهم على زلل بعض، فالفراء (ت ٢٠٩هـ) يرد على إمامه الكسائي (ت ١٨٣هـ)، وهشام - بن معاوية الضير - (ت ٢٠٩هـ) يرد على الفراء، ... ولا نعلم أن الله عزّ وجل أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط، وأماناً من الخطأ، فيستتكف له منها ... ، ولا نعلمه خص بالعلم قوماً دون قوم، ولا وقفه على زمن دون زمن ، بل جعله مشتركاً مقسوماً

(١) أمالي المرتضى (١٣/٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٤١١/١٧) .

بين عباده ، يفتح للآخر ما أغلقه عن الأول، وينبه المقل فيه على ما أغفل عنه المكثّر ، ويجيئه بمتأخر يتعقب قول متقدم وتالٍ يعتبر على ماضٍ ، ... وقد يظن من لا يعلم من الناس ولا يضع الأمور مواضعها أن هذا اغتياب للعلماء وطعن على السلف وذكر للموتى ... ، وليس كما ظنوا ، لأن الغيبة سب الناس بلئيم الأخلاق وذكرهم بالفواحش والشائعات ، وهذا هو الأمر العظيم المشبه بأكل اللحوم الميتة ، فأما هفوة في حرف أو زلة في معنى أو إغفال أو وهم ونسيان ، فمعاذ الله أن يكون هذا من ذلك الباب ، أو أن يكون له مشاكلاً أو مقارباً ، أو يكون المنبه عليه آثماً ، بل يكون مأجوراً عند الله مشكوراً عند عباده الصالحين الذين لا يميل بهم هوى ولا تدخلهم عصبية ، ولا يجمعهم على الباطل تحزب ولا يلفتهم عن استبانة الحق حسد^(١).

وما بعد هذا البيان كلام، ولا أدري كيف ينقمون عليه بعد هذا الاعتذار؟!.

٢. أبو الطيب الحلبي (ت ٣٥١هـ):

يقول في كتابه "مراتب النحويين" : "وكان - ابن قتيبة - يشرع في أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو ، وكتابه في تعبير الرؤيا ، وكتابه في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعيون الأخبار والمعارف والشعراء ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء ، وإن كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له"^(٢).

وهذا كلام لا يعرج عليه ، ولا أدل على فساده من أن ابن قتيبة ظل نافقاً بكتبه عند ذوي البصائر والعقول من الخاصة والعامة ، وظلت مكانته ملحوظة من العلماء بعيون الإجلال والإكبار ، على اختلاف الأجيال والأعصار ، وقد سبق ثناء جلة من علماء الإسلام على مصنفات ابن قتيبة كأبي الحسن القطان (ت ٣٤٥هـ)، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، وشيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وابن كثير^(٣) (ت ٧٧٤هـ)، بل لا يكاد يُترجم لابن قتيبة إلا ويُقرن ذلك بالإشارة إلى جودة مصنفاته.

٣. أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ):

(١) إصلاح غلط أبي عبيد (ص٤٤-٤٦) .

(٢) مراتب النحويين (ص١٣٧) .

(٣) انظر أقوالهم في : مكانته وثناء العلماء عليه (ص٢٩) من هذه الرسالة .

يقول عن ابن قتيبة : "فأما ما يستبد فيه برأيه من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو أو مشكل ، أو حرف غريب فإنه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة ، وألفيته يحدث بالظن فيما لا يعرفه ولا يحسنه"^(١).

ويبدو أن الأزهري - رحمه الله - قد تأثر - في مقولته هذه - بابن الأنباري، يدل عليه أن أغلب المواضع التي خطأ فيها ابن قتيبة كان قد تبع فيها ابن الأنباري، ومع هذا نجد أنه قد أنصف ابن قتيبة وأثنى عليه في مواضع أخر من كتابه ، منها قوله - عنه وعن أبي تراب النخشي (ت ٢٤٥هـ) - : "وهما من الشهرة وذهاب الصيت والتأليف الحسن ، بحيث يعفى لهما عن خطيئة غلط ، ونبد زلة تقع في كتبهما"^(٢).

٤ . أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ) :

نقل عنه ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) في "لسان الميزان" قوله: "ابن قتيبة هجام ولوج فيما لا يحسنه" ، ثم عقب عليه - مبيناً سبب ذلك - فقال: "كأنه يريد كلامه في الكلام"^(٣).
والإمام ابن قتيبة - كغيره من السلف - ذم الكلام وأهله في كثير من مصنفاته، بل خصص مقدمة كتابه "تأويل مختلف الحديث" في ذم الكلام ، يقول فيها : "وقد تدبرت مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ويصرون القذى^(٤) في عيون الناس ، وعيونهم تطرف على الأجزاء^(٥) ، ويتهمون غيرهم في النقل ولا يتهمون آراءهم في التأويل ، ومعاني الكتاب والحديث ، وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر والكيفية والكمية والأبنية^(٦) ، ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما وضع لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع

(١) تهذيب اللغة (ص ٣١) .

(٢) المصدر السابق (٣٤/١) .

(٣) لسان الميزان (١٠/٥) .

(٤) القذى : ما يتكون من العين ، من رمص وغمص وغيرها . [لسان العرب ، مادة "قذى" (١٧٢/١٥)] .

(٥) الأجزاء : جمع جذع ، وهو ساق النخلة . [لسان العرب ، مادة "جذع" (٤٣/٨)] .

(٦) قوله : الطفرة وما بعدها ألفاظ تجري على ألسنة المتكلمين .

من ذلك طلب الرياسة وحب الأتباع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات، والناس أسراب طير يتبع بعضهم بعضاً^(١).

وليس غريباً ألا يروق هذا الكلام - من ابن قتيبة - لرجل انغمس في علم الكلام، وقضى معظم حياته في تحقيق مسائله كإمام الحرمين - عفا الله عنه - .

٥ . ابن تَغْرِي بَرْدِي (ت ٨٧٤هـ):

قال عن ابن قتيبة : "وكان خبيث اللسان يقع في حق كبار العلماء"^(٢).

والذي دفعه إلى هذا القول أنه من الأحناف أصحاب الرأي ، وقد عرض لهم ابن قتيبة بالنقد في مقدمة كتابه "تأويل مختلف الحديث"، فقال: "ثم نصير إلى أصحاب الرأي فنجدهم أيضاً يختلفون وقيسون ثم يدعون القياس ويستحسنون ويقولون بالشيء ويحكمون به ، ثم يرجعون"^(٣).

ثم عدد ابن قتيبة مسائل كثيرة عن أصحاب الرأي تدل على تحكهم ومخالفتهم لكتاب الله^(٤)، وقد تأثر في ذلك بشيخه إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ)، الذي قال عنه: "ولم أر أحداً ألح بذكر أصحاب الرأي وتنقصهم والبعث على قبيح أقاويلهم والتنبيه عليها من إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه، وكان يقول: نبدوا كتاب الله وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولزموا القياس"^(٥).

وابن قتيبة في حديثه عن أهل الرأي لم يكن خبيث اللسان - كما زعموا - بل عرض لهم بالنقد العلمي بأسلوب مهذب مؤدب ، لا يصح وصفه بالخبث ، ولا نعتة بالوقية .

الطائفة الثانية : الطاعنون في عقيدته :

١ . أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥هـ):

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٢) .

(٢) النجوم الزاهرة (٣/ ٨٨) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٣٧) .

(٤) المصدر السابق (ص ٣٧-٤٠) .

(٥) المصدر السابق (ص ٣٨) .

نقل سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٣هـ) في كتابه "مرآة الزمان" بدون إسناد عن الدارقطني قوله: "كان ابن قتيبة يميل إلى التشبيه، منحرفاً عن العترة ، وكلامه يدل عليه"^(١).

٢ . أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ):

نقل - أيضاً - سبط ابن الجوزي في كتابه "مرآة الزمان" بدون إسناد عن البيهقي قوله: "كان - ابن قتيبة - يرى رأي الكرامية"^(٢) "٣".

٣ . الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ):

نقل عن أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي (ت ٥٧٦هـ) قوله: "كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنة ، ولكن الحاكم (ت ٤٠٥هـ) بضده من أجل المذهب"، ثم قال ابن حجر - معقّباً - : "والذي يظهر لي أن مراد السلفي بالمذهب: النصب، فإن ابن قتيبة انحرافاً عن أهل البيت ، والحاكم على الضد من ذلك، وإلا فاعتقادهما معاً فيما يتعلق بالصفات واحد"^(٤).

وتبين من خلال هذه الطعون في عقيدة ابن قتيبة أنها تنحصر في تهمتين:

إحدهما : نسبته إلى التجسيم والتشبيه .

الثمة الثانية: نسبته إلى النصب .

ويمكن الرد على هذه التهم بشكل عام من وجهين:

أحدهما: أن المترجمين القريبين من عهد ابن قتيبة لم يذكروا شيئاً من هذه التهم كأبي الطيب الحلبي (ت ٣٥١هـ)، والأزهري (ت ٣٧٠هـ)، وابن النديم (ت ٣٨٥هـ)، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، مما يثير الشك حول هذه التهم.

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٩٨/١٣) .

(٢) الكرامية هم أتباع محمد بن كرام ، والكرامية يعتقدون أن الله تعالى جسم ، وأنه تعالى محل للحوادث، وأن له ثقل، وأنه خالق رازق بلا خلق ولا رزق ، ولهم في الإيمان قول منكر حيث جعلوا الإيمان قول اللسان وإن كان مع عدم تصديق القلب، فيجعلون المنافق مؤمناً. [انظر: الفرق بين الفرق (ص٢٠٢)، الملل والنحل (١/١٢٤) ، مجموع الفتاوى (١٠٣/٣)].

(٣) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٩٨/١٣) .

(٤) لسان الميزان (١٠/٥) .

الثاني: أن مدار هذه التهم على ما نقله سبط ابن الجوزي في كتابه "مرآة الزمان"، وقد ذكر التهم من غير إسناد إلى شخص أو كتاب، وهو غير ثقة في نقله، فقد قال عنه الذهبي (ت ٧٤٨): "وألف مرآة الزمان فتراه يأتي فيه بمناكير الحكايات، وما أظنه بثقة فيما ينقله بل يجنف ويجازف ثم إنه ترفض وله مؤلفات في ذلك نسأل الله العافية"^(١)، كما كان بينه وبين ابن قتيبة مخالفة في الاعتقاد، فابن قتيبة سني، وسبط ابن الجوزي رافضي، وقد انتقد ابن قتيبة الرافضة انتقاداً مريراً، وأبي من هذه الأمور كفيلاً برد ما نقله سبط ابن الجوزي، لا سيما وقد عارضه أئمة أعلام شهدوا لابن قتيبة بالصلاح وحسن الاعتقاد، وأنه على مذهب أهل السنة والجماعة، كالخطيب البغدادي^(٢) (ت ٤٦٣هـ)، وابن حزم^(٣) (ت ٤٥٦هـ)، وشيخ الإسلام^(٤) (ت ٧٢٨هـ)، والذهبي^(٥) (ت ٧٤٨هـ)، والعلائي^(٦) (ت ٧٦١هـ).

أما الجواب التفصيلي في ردّ هذه التهم، فيقال:

أ. أما نسبة ابن قتيبة إلى التشبيه والتجسيم، فهي من منكر القول وباطله، فكيف تسوغ نسبته إلى التشبيه؟! وقد أفرد مصنفاً في الرد على المشبهة وسمه بـ "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة".

وكيف يعقل أن ينسب إلى التشبيه والتجسيم؟! وهو القائل: "ولما رأى قوم من الناس إفراط هؤلاء - أي الجهمية والمعتزلة^(٧) - في النفي، عارضوهم في التمثيل، فقالوا بالتشبيه المحض وبالأقطار والحدود، وحملوا الألفاظ الجائية في الحديث كما ظاهرها، وقالوا بالكيفية فيها...، وكلا الفريقين غالط، وقد جعل الله التوسط منزلة العدل، ونهى عن الغلو فيما

(١) ميزان الاعتدال (٤/٤٧١).

(٢) تاريخ بغداد (١١/٤١١).

(٣) نقله ابن حجر في لسان الميزان (٥/١٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٣٩١).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٣/٢٩٦).

(٦) نقله ابن حجر في لسان الميزان (٥/١٠).

(٧) المعتزلة: سمو بذلك لاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد - من رؤسائهم - مجلس الحسن البصري، لقولهما بأن مرتكب الخطيئة لا مؤمن ولا كافر، ويجمع المعتزلة القول بنفي الصفات عن الله تعالى، والقول بأن القرآن محدث، وأن الله لا يُرى في الآخرة، وأن الله ليس خالقاً لأفعال العباد، ويسمون - أيضاً - : القدرية والعدلية. [انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢٠)، الملل والنحل (١/٤٣)، مقالات الإسلاميين (١/٢٣٥)].

دون صفاته من أمر ديننا ، فضلاً عن صفاته ... ، وعدُّ القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صح منها بنقل الثقات ، فنؤمن بالرؤية والتجلي وأنه يعجب وينزل إلى السماء ، وأنه على العرش استوى، وبالنفس واليدين، من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بحد أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت، فنرجو أن يكون في ذلك القول والتفسير على سبيل النجاة غداً إن شاء الله تعالى" (١).

وقال - قبل ذلك - : "فنحن نؤمن بالنفخ وبالروح ، ولا نقول كيف ذلك، لأن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفته، أو حيث انتهى رسول الله ﷺ ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب ، ونضعه عليه ونمسك عما سوى ذلك" (٢).

وكيف تصح نسبته إلى التشبيه والتجسيم؟! وقد قال: "فإن قالوا لنا كيف ذلك النظر والمنظور إليه؟ قلنا نحن لا ننتهي في صفاته جل جلاله إلا إلى حيث انتهى إليه رسول الله ﷺ ، ولا ندفع ما صح عنه لأنه لا يقوم في أوهامنا ، ولا يستقيم على نظرنا ، بل نؤمن بذلك من غير أن نقول فيه بكيفية أو حد أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت" (٣).

وهذه نصوص واضحة بينة في رد هذه الفرية ، إذ لا يمكن أن يصدر مثل هذا الكلام عن مشبه ، ثم إن ابن قتيبة قد نهج في كلامه هذا نهج السلف الصالح، وسلك سبيلهم متبعاً غير مبتدع.

ب . وأما نسبته إلى الانحراف عن آل البيت ، فهي - كسابقتها - تهمة باطلة وفرية عظيمة ، ولا أدل على فسادها من أن ابن قتيبة قد أفصح عن اعتقاده في علي رضي الله عنه ، وعاب على النواصب (٤) ، كما أنكر على الرافضة (٥) ، وبين ضلال الفرقتين ومغالاتهما، وكان في ذلك وسطاً عدلاً ، كأهل السنة والجماعة.

(١) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٢) .

(٢) المصدر السابق (ص ١١٥) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) .

(٤) النواصب: هم الذين ينصبون العداً لأهل البيت، ويؤذونهم بقول أو عمل، سمو بذلك لأنهم نصبوا لهم أي عادوهم، والفرق بينهم وبين الخوارج، أنهم يقولون بفسق علي رضي الله عنه، ولكنهم لا يقولون بكفره كالخوارج.

[مجموع الفتاوى (٣٠١/٢٥)، العقيدة الواسطية (٢/٢٨٣)، مع شرحها للشيخ العثيمين رحمه الله].

(٥) الرافضة: إحدى الفرق المنتسبة للتشيع لآل البيت، مع البراءة من أبي بكر وعمر وسائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا القليل منهم، وتكفيرهم لهم وسبهم إياهم، سمو "رافضة" لأنهم رفضوا زيد بن علي لما تولى

يقول ابن قتيبة - في تقرير ذلك - : "وقد رأيت هؤلاء - أي النواصب - أيضاً حين رأوا غلو الرافضة في حبّ علي (ت ٤٠هـ) - رضي الله عنه - وتقديمه على من قدّمه رسول الله ﷺ وصحابته عليه ، وادعاءهم له شركة النبي ﷺ في نبوته ، وعلم الغيب للأئمة من ولده، وتلك الأقاويل التي جمعت إلى الكذب والكفر إفراط الجهل والغباوة ، ورأوا شتمهم خيار السلف وبغضهم وتبرؤهم منهم قابلوا ذلك أيضاً بالغلو في تأخير علي كرم الله وجهه، وبخسه حقه وحنوا في القول ، وإن لم يصرحوا إلى ظلمه واعتدوا عليه بسفك الدماء بغير حق ، ونسبوه إلى الممالة على قتل عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه، وأخرجوه بجهلهم عن أئمة الهدى إلى جملة أئمة الفتن ... ، وهذا هو الجهل بعينه ، والسلامة لك أن لا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضه ، وأن لا تحتل ضغنًا عليه بجنابة غيره ، فإن فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه ، وأن تعرف له مكانته من رسول الله ﷺ بالتريبة والأخوة والصهر والصبر في مجاهدة أعدائه ، وبذل مهجته في الحروب بين يديه ، مع مكانته في العلم والدين، والبأس والفضل من غير أن تتجاوز به الموضوع الذي وضعه به خيار السلف ، مع ما تسمعه من كثير فضائله ، فهم كانوا أعلم به وبغيره ، ولأن ما أجمعوا عليه هو العيان الذي لا يشك فيه"^(١).

وهذا قول واضح بيّن موافق لاعتقاد السلف الصالح في آل البيت ، لا يمكن أن يصدر عن متهم بالانحراف عن آل البيت ، مما يدل على بطلان هذه التهمة^(٢).

تاسعاً : رتبته في الحديث ، وإقاله في الرواية .

الخليفين أبا بكر وعمر لبغضهم لهما، وهم فرق كثيرة منهم من يصل إلى الكفر، وسموا إمامية اثني عشرية لقولهم بإمامة اثني عشر إماماً معصوماً من ولد علي رضي الله عنه. [مجموع الفتاوى (٤/٤٣٥)، مقالات الإسلاميين (ص ٩٠)، الملل والنحل (١/٢١٩)].

^(١) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٣-١٢٧) .

^(٢) للاستزادة حول الرد على الطعن في ابن قتيبة انظر: مقدمة "تأويل مشكل القرآن" للسيد صقر (ص ٤٥-٧٦)، عقيدة الإمام ابن قتيبة ، د. نافع العلياني (ص ١٠٨-١٢٥)، وقد أفدت منهما كثيراً في الرد على الطعن في ابن قتيبة.

مع جلالة قدر الإمام ابن قتيبة وتفننه في علوم كثيرة ؛ إلا أنه كان مُقلِّداً في رواية الحديث ، حتى حكم عليه الذهبي (ت ٧٤٨هـ) وابن حجر (ت ٨٥٢هـ) ^(١) ، بأنه صدوق قليل الرواية .

قال الذهبي : "ابن قتيبة من أوعية العلم ، لكنه قليل الرواية" ^(٢) .

وقال - أيضاً - : "ابن قتيبة صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية" ^(٣) .

ويقول في موضع آخر : "والرجل ليس بصاحب حديث ، وإنما هو من كبار العلماء المشهورين ، عنده فنون جمّة ، وعلوم مهمة" ^(٤) .

وعندي أن سبب إقلاله في الرواية عائد إلى أمرين :

أحدهما : ورعه ، واكتفاؤه بالمحدثين الذين تزدهم بغداد بهم في وقته .

يظهر هذا من القصة التي يرويها تلميذه قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠هـ) ؛ إذ يقول :

"كنا عند ابن قتيبة ، فأتوه بأيديهم المحابر ، فقال : "اللهم سلّمنا منهم" ، فقعّدوا ، ثم قالوا : حدّثنا رحمك الله ، قال : "ليس أنا ممن يُحدّث ، إنما هذه الأوضاع - أي الأوضاع اللغوية - فمن أحب ؟" ، قالوا له : ما يَحِلُّ لك هذا ، فحدّثنا عن إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ) ، فإننا لا نجد فيه إلا طبقتك ، وأنت عندنا أوثق ، قال : "لست أُحدّث" ، ثم قال لهم : "تسألوني أن أُحدّث ، وبيغداد ثمان مئة محدث ، كلهم مثل مشايخي ، لست أفعل" ، فلم يُحدّثهم بشيء" ^(٥) .

الثاني : أن الرحلة للإكثار من أوجه الرواية لا تستهويه ، ويلوم بعض أهل الحديث على كثرة السفر لأجل ذلك .

يقول ابن قتيبة : - بعد دفاعه عن أهل الحديث وثناؤه عليهم - :

"على أنّا لا نُحُلِّي أكثرهم من العَدْل في كتبنا في تركهم الاشتغال بعلم ما قد كتبوا ، والتفقه بما جمعوا ، وتمافتهم على طلب الحديث من عشرة أوجه وعشرين وجهاً ، وقد كان في

(١) لسان الميزان (٨/٥) .

(٢) تذكرة الحفاظ (٦٣٣/٢) .

(٣) ميزان الاعتدال (٥٠٣/٢) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٩٨/١٣) .

(٥) نقلها الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٠١/١٣) .

الوجه الواحد الصحيح والوجهين مَفْنَع لمن أراد الله عزّ وجل بعلمه ، حتى تنقضي أعمارهم ولم يجلوا من ذلك إلا بأسفار أتعبت الطالب ولم تنفع الوارث، فمن كان من هذه الطبقة فهو عندنا مُضَيِّعٌ لحظه ، مُقْبِلٌ على ما كان غيره أنفع له منه" (١).

وكلام الإمام ابن قتيبة هنا وإن كان مقبولاً منه : أن فقه الحديث والعمل به أهم من الإكثار من أوجه روايته ؛ إلا أنه قد يُنْتَقَدُ في تقليله من قيمة الرحلة وأهمية تعدد طرق الحديث .

عاشراً : وفاته :

اختلف المؤرخون في سنة وفاة ابن قتيبة ، فذهب ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) إلى أنه توفي سنة سبعين ومائتين (٢) ، فيما ذهب جمهور المؤرخين إلى أن وفاته كانت في سنة ست وسبعين ومائتين (٣) ، وهذا هو الراجح لأمرين:

أحدهما : أن هذه الرواية نقلت عن أبي القاسم إبراهيم بن أيوب الصائغ (ت ٣١٣هـ) ، وهو تلميذ ابن قتيبة ، وقد قصّ قصة وفاته مفصلة ، فهو أجدر أن تكون روايته أثبت من غيرها (٤).

الثاني : أن قاسم بن أصبغ الأندلسي (ت ٣٤٠هـ) رحل إلى المشرق عام ٢٧٤هـ، كما هو ثابت عند المؤرخين (٥) ، واجتمع بابن قتيبة في بغداد وروى عنه، وهذا يبطل القول بأنه توفي سنة ٢٧٠هـ.

أما سبب وفاته ، فقد قصّه تلميذه إبراهيم الصائغ ؛ فقال: "إن ابن قتيبة أكل هريسة فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغمي عليه إلى وقت صلاة الظهر، ثم اضطرب

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٥٥) .

(٢) الفهرست (ص ٨٥) .

(٣) تاريخ بغداد (٤١٢/١١) ، المنتظم (٢٧٧/١٢) ، وفيات الأعيان (٤٣/٣) ، سير أعلام النبلاء (٢٩٦/١٣) ، البداية والنهاية (٦٢٣/١٤) ، النجوم الزاهرة (٨٧/٣) ، مرآة الجنان (١٤٢/٢) .

(٤) نقلها الخطيب في تاريخ بغداد (٤١٢/١١) .

(٥) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٢٢٠/٤): "ورحل - قاسم بن أصبغ - سنة أربع وسبعين ومائتين، فسمع أبا محمد بن قتيبة .." .

ساعة ، ثم هداً ، فما زال يتشهد إلى وقت السحر ، ثم مات ، وذلك أول ليلة من رجب
سنة ست وسبعين ومائتين^(١).

^(١) نقلها الخطيب في تاريخ بغداد (٤١١/١١) .

الباب الأول

مصنفات ابن قتيبة، وموارده فيها،

وأثره في من بعده

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مصنفات ابن قتيبة، وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: مصنفات ابن قتيبة في المشكل.
- المبحث الثاني: مصنفات ابن قتيبة في الغريب.
- المبحث الثالث: مصنفات ابن قتيبة الأخرى.
- المبحث الرابع: خصائص التصنيف عند ابن قتيبة.

الفصل الأول

مصنفات ابن قتيبة

التمهيد:

ابن قتيبة - رحمه الله - جدير بالإعجاب ، إذ كان جم المعرفة غزير الثقافة، ذا فكر مرتب، وعقل مركز، وبيان ساحر، مكن له من أن يؤلف كتباً عظيمة، امتازت بالأصالة والجدة، والرصانة والدقة، وحسن الترتيب والتنظيم، وكانت أشبه بدائرة معارف شاملة، شملت فروع العلم والمعرفة، فهي تحتوي على التفسير والقراءات وعلوم القرآن، والحديث والفقه، كما تحتوي على النحو واللغة والأدب والشعر والتاريخ، إلى غير ذلك من الميادين كتعبير الرؤيا والفلك وغير ذلك.

وقد عرف المترجمون له هذه الميزة، فاتفقوا على أنه من المكثرين في التصنيف، المتفنين في التأليف، المجودين في التدوين.

وصفه ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) بكثرة التصنيف والتأليف، وذكر له اثنين وثلاثين كتاباً^(١)، فيما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن صاحب كتاب "التحديث بمناقب أهل الحديث" قوله: "وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء، أجودهم تصنيفاً وأحسنهم ترصيفاً، له زهاء ثلاثمائة مصنف"^(٢)، وأما الإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) فقد قال - ظناً وليس يقيناً - : "وله مصنفات كثيرة جداً، رأيت فهرستها ونسيت عددها، أظنها تزيد على ستين مصنفاً في أنواع العلوم"^(٣)، وفي ترجمة ولد ابن قتيبة أحمد (ت ٣٢٢هـ) قال الذهبي (ت ٧٤٨هـ): "قاضي مصر أبو جعفر أحمد بن قتيبة، حدث بكتب أبيه كلها من حفظه بمصر، ولم يكن معه كتاب، وهي إحدى وعشرون مصنفاً"^(٤).

(١) الفهرست (ص ٨٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٧) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢٨١/٢) .

(٤) العبر في خبر من غير (١٦/٢) .

وذكر بعض الدارسين لتراث ابن قتيبة - بعد تتبع واستقصاء - أن عدد مصنفاته يربو على أربعين مصنفاً؛ ما بين مطبوع ومخطوط ومنفود^(١).

وأنت ترى الاختلاف في عدد مصنفات ابن قتيبة، ومهما يكن العدد؛ فإن الرجل المذكور بكثرة التصنيف وجودة التأليف، وقد لاقت مصنفاته الاستحسان والقبول، وعطفت نحوها القلوب والعقول، نظير ما تميزت به من الدقة والجودة والأصالة.

وسيكون الحديث عن هذه المصنفات في هذا الفصل من خلال المباحث التالية:

(١) انظر: مقدمة السيد أحمد صقر على "تأويل مشكل القرآن" (ص ٧-٣٧)، مقدمة الدكتور ثروت عكاشة على كتاب "المعارف" لابن قتيبة (ص ٤٠-٥٦)، الدكتور علي بن نفيح العلياني في كتاب "عقيدة الإمام ابن قتيبة" (ص ٦٩-٨٧).

المبحث الأول مصنفات ابن قتيبة في المشكل

التمهيد :

أولاً: تعريف المشكل لغةً واصطلاحاً:

المشكل لغة: اسم فاعل من أشكل عليه الأمر: إذا خفي ودخل في أشكاله وأمثاله، وأصله من المماثلة، يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ):

"الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة، تقول: هذا شكل هذا، وهذا دخل في شكل هذا، ... قال ابن دريد (ت ٣٢١هـ): "ويسمى الدم أشكل، للحمرة والبياض المختلطين منه"، وهذا صحيح، وهو من الباب الذي ذكرناه في إشكال هذا الأمر، وهو التباسه، لأنها حمرة لابسها بياض"^(١).

وقال الأزهري (ت ٣٧٠هـ):

"الشكل: المثل، تقول هذا على شكل هذا أي على مثاله، وفلان شكل فلان أي مثله في حالاته، ... والأشكال في ألوان الإبل والغنم ونحوه: أن يكون مع السواد غبرة وحمرة، كأنه قد أشكل عليك لونه، وتقول في غير ذلك من الألوان إن فيه لشكلة من لون كذا وكذا ... ، والأشكال في سائر الأشياء: بياض وحمرة قد اختلطا، وأشكل عليه الأمر أي اختلط ..."^(٢). وعلى هذا يكون المعنى اللغوي للإشكال يدور حول معاني: الالتباس، والاشتباه، والاختلاط، والمماثلة، وهذا غير بعيد عن المعنى الاصطلاحي.

المشكل اصطلاحاً:

تفاوتت تعريفات العلماء للمشكل تبعاً لاختلاف الفن الذي يُدرس فيه، إذ هو من المباحث المشتركة بين علوم القرآن، والحديث وأصول الفقه، إلا أن تلك التعاريف - على تباينها - تكاد تشترك حول المعنى الذي ذكره ابن قتيبة للمشكل، إذ يقول: "ومثل المتشابه (المشكل)، وسمي مشكلاً لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله، ثم قد يقال لما

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (شكل) (٣/٢٠٤) .

(٢) تهذيب اللغة مادة (شكل) (١٠/٢٠)، وانظر: مادة (شكل) في: اللسان (٤/٢٣١٠) .

غمض، وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة - أي من جهة دخوله فيما يشبهه - (مشكل)^(١).

وعليه فإن المشكل يطلق على كل ما غمض في الفهم وخفي، أي كان سبب غموضه، فالمشكل في القرآن عام في كل التباس أو اشتباه في الآية، سواء وقع في اللفظ أو المعنى أو ما ظاهره التعارض أو الإعراب أو القراءات^(٢)، والمشكل في الحديث عام - أيضاً - يشمل كل ما خفي واستغلق فهمه من الألفاظ أو المعاني، سواء أكان ذلك لتعارض أم لغير تعارض، وسواء أكان التعارض بين الأحاديث بعضها ببعض، أم بينها وبين آيات القرآن العزيز^(٣)، والمشكل في أصول الفقه عام، يشمل كل نص وقع فيه التباس وخفاء، إما في لفظه أو معناه أو كان بسبب معارضة غيره^(٤).

ثانياً: التصنيف في مشكل القرآن:

كان الباعث على التصنيف في مشكل القرآن هو الرد على الزنادقة والملحدون الذين شككوا بالقرآن الكريم في نظمه أو أسلوبه أو أخباره، وكان أول من صنف في المشكل مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠ هـ) في كتابه "متشابه القرآن"^(٥)، تناول فيه مشكل القرآن واقتصر فيه على موهم الاختلاف والتناقض كما يظهر من نقول أبي الحسين محمد بن أحمد الملطي الشافعي (ت ٣٧٧ هـ) عنه في كتابه "التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع"^(٦)، ثم كتب في المشكل محمد بن المستنير المعروف بقطرط (ت ٢٠٦ هـ) كتاباً وسمه بـ "الرد على الملحدون

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٢) .

(٢) انظر: مشكل القرآن الكريم، عبدالله بن حمد المنصور (ص ٧٦)، وانظر - تعريفات المفسرين للمشكل - : مفاتيح الغيب للرازي (١٤٥/٧)، البرهان للزركشي (٤٥/٢).

(٣) انظر: مقدمة تحقيق "مشكل الآثار للطحاوي"، د. محمد طاهر نور ولي (٨١/١)، وانظر - تعريفات المحدثين للمشكل - : معرفة علوم الحديث للحاكم (ص ١٢٢)، نخبة الفكر مع شرحها، نزهة النظر لابن حجر (ص ٣٧)، توضيح الأفكار للصنعاني (٤٢٣/٢)، دراسة نقدية في علم مشكل الحديث، إبراهيم العسوس (ص ٥١) .

(٤) المناهج الأصولية، د. محمد فتحي الدريني (ص ١٠٣)، وانظر: تعريفات الأصوليين للمشكل: أصول السرخسي (١٦٨/١)، أصول الشاشي (ص ٨١)، الاعتصام للشاطبي (٧٣٦/٢)، كشف الأسرار (٥٢/١).

(٥) ذكره ابن النديم في الفهرست (ص ٢٢٧) .

(٦) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص ٤٤) أفرد فيه باباً في ذكر متشابه القرآن، نقله عن مقاتل.

في متشابه القرآن^(١)، قال عنه الزركشي (ت ٧٩٤هـ): "وقد رأيت لقطرب فيه تصنيفاً جمعه على السور"^(٢)، وذكر أبو حيان أنه كتاب كبير رد فيه على الملاحدة الذين طعنوا في القرآن، وزعموا أن فيه تناقضاً، وبين فيه جهل الملاحدة بلسان العرب، وبعد أفهامهم عن فصاحة الكلام وبلاغته، وصحة معناه^(٣).

ثم تلاهما ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن".

ويجمع بين هذه المصنفات المتقدمة في "مشكل القرآن" أن القصد منها هو الرد على الزنادقة والملحدين، إلا أن التصنيف في مشكل القرآن بعد ذلك أخذ شكلاً أوسع، حيث أُريد به بيان ما يشكل فهمه على القارئ، أي كان هذا المشكل، في معنى أو مناسبة أو نظم أو غيرها، ومن تلك المصنفات:

١. باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، لبيان الحق محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري (ت ٥٥٣هـ)^(٤).

٢. فوائد في مشكل القرآن، لعز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام (ت ٦٦٠هـ)^(٥).

٣- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة غرائب آي التنزيل، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٩١هـ) صاحب كتاب "مختار الصحاح"^(٦).

٤. تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)

(٧).

(١) ذكره القفطي في إنباه الرواة (٢٢٠/٣)، وياقوت الحموي في معجم الأدباء (٢٦٤٧/٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١٧٦/٢).

(٣) تفسير النهر المار من البحر، بهامش البحر (٣٠٤/٣).

(٤) طبع بتحقيق صفوان داودي، نشرته دار القلم بدمشق، عام ١٤١٢ هـ، ثم حققته سعاد بنت صالح بابقي وقدمت عليه دراسة وافية لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى، ونشرته الجامعة عام ١٤١٨ هـ.

(٥) طبع عام ١٣٨٧ هـ، ثم طبع بتحقيق: د. سيد رضوان علي الندوي، نشرته دار الشروق، جدة، عام ١٤٠٢ هـ.

(٦) طبع بتحقيق: د. عبدالرحمن إبراهيم المطرودي، نشرته دار عالم الكتب بالرياض، عام ١٤١٢ هـ.

(٧) حققه عبدالعزيز محمد الخليفة في رسالة علمية، ونشرته مكتبة الرشد، الرياض، عام ١٤١٧ هـ.

- ٥- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، لأبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)^(١).
- ٦- تيجان البيان في مشكلات القرآن، لمحمد أمين خير الله الخطيب العمري (ت ١٢٠٣هـ)^(٢).
- ٧- مشكلات القرآن، لمحمد أنور شاه الكشميري (ت ١٣٥٢هـ)^(٣).
- ٨- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)^(٤).

(١) طبع الكتاب بتحقيق: محمد علي الصابوني، بمطابع دار القرآن الكريم، بيروت، عام ١٤٠٣ هـ.

(٢) طبع بتحقيق: حسن مظفر الرزوي، منشورات جامعة الموصل بالعراق عام ١٩٨٥ م.

(٣) طبع بتحقيق: محمد يوسف البنوري، مطبوعات المجلس العلمي، الهند.

(٤) طبع على نفقة الشيخ عبداللطيف آل الشيخ عام ١٣٧٥ هـ، ثم طبع عدة طبعات، منها طبعة بإشراف الشيخ بكر أبو زيد، نشرته دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، عام ١٤٢٦ هـ.

(٥) للاستزادة - حول الكتب المصنفة في مشكل القرآن - انظر: مشكل القرآن لعبدالله المنصور (ص ٢٦-٣٧)، مقدمة تحقيق كتاب "باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن لبيان الحق النيسابوري"، سعاد باقمي (١/١٧٢-١٨٦)، أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، د.مسعد الطيار (ص ٩٣-١٠٩).

المطلب الأول: تأويل مشكل القرآن .

ذكره عامة المترجمين لابن قتيبة ، كالخطيب (ت ٤٦٣ هـ)^(١)، والسمعاني (ت ٥٦٢ هـ)^(٢)، وابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)^(٣)، والقفطي (ت ٦٤٦ هـ)^(٤)، وابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)^(٥)، وابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)^(٦)، والسيوطي (ت ٩١١ هـ)^(٧)، وذكره المؤلف في عدد من كتبه^(٨) .^(٩)

المسألة الأولى : سبب التأليف .

سبق الحديث عن عصر ابن قتيبة وأنه عصر نزاع بين أهل السنة ومخالفهم ، وقد نشطت فيه المبتدعة، وتجلت فيه نزعات الشك الفلسفي، التي تولى كبرها المعتزلة والجهمية ومنحنا نحوهم من الفلاسفة وأهل الكلام، وكثر في عصره الطعن في كتاب الله تعالى على يد الزنادقة الذين رموه بالتناقض والاختلاف، وباللحن، بل اتهموا الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - في حكمته، فقالوا: ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن من أراد لعباده الهدى والبيان؟.

فلما رأى الإمام ابن قتيبة كثرة الشكوك التي تثار حول القرآن الكريم، والمطاعن التي تسدد نحوه، وخشي أن يتأثر بها الأحداث والأغمار، انبرى لدرء تلك المطاعن والشكوك، وكشف عوجها، وبيان عوارها، فكان من أوائل الأئمة الذين اعتنوا بالتصنيف في هذا الباب،

(١) تاريخ بغداد (١١/٤١١) .

(٢) الأنساب (٤/٤٥١) .

(٣) نزهة الألباء (ص ١٥٩) .

(٤) إنباه الرواة (٢/١٤٣) .

(٥) وفيات الأعيان (٣/٤٢) .

(٦) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣) .

(٧) بغية الوعاة (٢/٦٣) .

(٨) ذكره وأحال إليه في أكثر من مائة موضع في غريب القرآن، انظر (ص ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠)، وذكره في:

تأويل مختلف الحديث (ص ٤٨، ١٦٧)، المسائل والأجوبة (ص ١١٠، ٢١٤، ٤٠٠)، الأنواء (ص ٩).

(٩) حققه السيد أحمد صقر، وقدم له مقدمة ضافية ترجم فيها ترجمة موسعة للمؤلف، وعرف بالكتاب، وبين منهجه في تحقيقه، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي عام ١٣٧٣ هـ، ثم صوّر ونشرته دار التراث بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ، ثم طبع عدة طبعات.

تمثل ذلك في كتابه " تأويل مشكل القرآن " حيث حمل من خلاله لواء الدفاع عن القرآن الكريم ضد النزعات الفلسفية والتأويلات الباطلة، وأبلى في ذلك بلاءً حسناً جعل فريقاً من أهل العلم يعتبرونه لسان أهل السنة، وحامل لواء الحوار والجدل والمنافحة عنهم، يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ): " هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة"^(١).

وقد أبان الإمام ابن قتيبة في مقدمة كتابه سبب التأليف ؛ فقال:

"وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ﴿ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ أُتِغَاءَ أَلْفَتَنَةٍ وَأُتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾^(٢) بأفهام كليلية، وأبصارٍ عليية، ونظرٍ مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضاوا عليه بالتناقض، والاستحالة واللحن، وفساد النظم، والاختلاف.

وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف العُمر^(٣)، والحدث الغرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور.

ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأولهم، لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحتجُّ عليه بالقرآن، ويجعله العلم لنبوته، والدليل على صدقه، ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتي بسورةٍ من مثله، وهم الفصحاء والبلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللدد في الخصام، مع اللب والنهي، وأصالة الرأي، وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، وكانوا مرّة يقولون: هو سحر، ومرّة يقولون هو قول الكهنة، ومرّة: أساطير الأولين، ولم يحك الله تعالى عنهم ، ولا بلغنا في شيء من الروايات أنهم جدبوه^(٤) من الجهة التي جذبته منها الطاعنون.

(١) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٧) .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

(٣) الغمر: هو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور [مادة (غمر): لسان العرب (٣٢٩٥/٥)] .

(٤) جدبوه: أي عابوه، الجذب: هو العيب والتنقص ، يقال جذب الشيء يجذبُه جذباً، أي عابه وذمه. [مادة (جذب):

معجم مقاييس اللغة (٤٣٥/١)، لسان العرب (٥٥٨/١)].

فأحبت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب، جامعاً لتأويل مشكل القرآن^(١).

المسألة الثانية : المادة العلمية .

قدّم ابن قتيبة - كعادته في مصنفاته - بمقدمة أوضح فيها الباعث على تأليفه والمقصد منه، ومحتوى الكتاب ومنهجه فيه، وتكلم فيها عما اختص الله به هذه الأمة من العارضة والبيان واتساع المجاز، وبيّن فيها أهمية اللغة في تفسير القرآن، كما تطرق فيها لحكم ترجمة القرآن الكريم^(٢).

ثم بدأ كتابه بالحكاية عن الطاعنين، فسرّد مطاعنهم على اختلاف أنواعها سرداً دون رد، ثم بدأ في رد تلك المطاعن وتفنيدها حسب ترتيب إيرادها، فعقد باباً للرد عليهم في وجوه القراءات^(٣)، وآخر في ما ادعوه على القرآن من اللحن^(٤)، ثم باباً فيما نخلوه من التناقض والاختلاف بين آيه^(٥).

ثم عقد باباً للمتشابه ، أوضح فيه معنى المتشابه، والحكمة منه، وأجاب فيه عن قولهم: ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن من أراد لعباده الهدى والبيان؟^(٦).

ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز، لأن أكثر غلط المتأولين كان بسببه، وأتى من جهته، وبدأه بباب الاستعارة، ثم باب المقلوب، تلاه باب الحذف والاختصار، فباب تكرار الكلام والزيادة فيه، وباب الكناية والتعريض، ثم باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه^(٧).

ثم ذكر أهم الأبواب، والذي لأجله ألف الكتاب، وهو باب تأويل الحروف التي ادعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم، فبدأ بالحروف المقطعة في أوائل السور، ثم أعقبه بالحديث عن مشكل سور القرآن، فيذكر ما في السورة من المشكل ثم يجيب عنه^(٨).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢-٢٣) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣-٢٣) .

(٣) المصدر السابق (ص ٣٣-٤٩) .

(٤) المصدر السابق (ص ٥٠-٦٤) .

(٥) المصدر السابق (ص ٦٥-٨٥) .

(٦) المصدر السابق (ص ٨٦-١٠٢) .

(٧) المصدر السابق (ص ١٠٣-٢٩٨) .

(٨) المصدر السابق (ص ٢٩٩-٤٣٨) .

وبعد أن فرغ من تأويله لمشكل السور التي ذكرها، عقد باباً مهماً، وهو "باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة"، ذكر فيه الوجوه والنظائر لعدد من الألفاظ في القرآن الكريم^(١).
ثم ذكر ابن قتيبة "باب تفسير حروف المعاني، وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرف"؛ ذكر فيه ثلاثاً وثلاثين كلمةً، ذكر معانيها ودلالاتها في القرآن الكريم^(٢).
ثم ختم كتابه بـ "باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض"، ذكر فيه خمسة عشر حرفاً قيل فيها بالتضمنين في القرآن الكريم^(٣).

المسألة الثالثة : المادة التفسيرية .

يعد كتاب "تأويل مشكل القرآن" من المراجع الرئيسة في الدراسات القرآنية، لما فيه من المادة القرآنية الغزيرة والمتنوعة من التفسير والقراءات وعلوم القرآن.
والكتاب مليءٌ بالتفسير، إلى حد يمكن معه تصنيف الكتاب وعدّه من التفاسير، وقد جاء التفسير في هذا الكتاب - بعد اطلاعي واستقراي - لثلاثة أغراض؛ اختلف منهجه فيها تبعاً لاختلاف الغرض، وهذه الأغراض هي:

الغرض الأول: دفع الإشكال وإزالة اللبس:

وهو الغرض الذي لأجله صنف الكتاب، وقد عقد ابن قتيبة باباً مهماً وكبيراً، قصد فيه دفع الإشكال وإزالة اللبس عن القرآن الكريم، تناول فيه آيات متفرقة من عدة سور من القرآن، بلغ عددها اثنين وخمسين موضعاً، وطريقته في هذا الباب أنه يذكر ما في السورة من المشكل ثم يؤوله ويجيب عنه، ولم يرتب السور حسب ترتيب المصحف، فقد بدأ بآيات من سورة سبأ، تلاها من سورة الفرقان، ثم من سورة يس، ثم الرسائل، ثم الأنعام، وهكذا، كما أنه لا يستوفي الحديث عن آي السورة الواحدة في موضع واحد، فرمما فرّقه في عدة مواضع متباعدة،

(١) المصدر السابق (ص ٤٤١-٥١٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٥١٩-٥٦٣).

(٣) المصدر السابق (ص ٥٦٧-٥٧٨).

فسورة البقرة - مثلاً - تناول ما فيها من مشكل في أربعة مواضع متفرقة^(١)، وكذا سورة الأنعام^(٢)، وتحدث عن مشكل سورة النساء في ثلاثة مواضع^(٣)، ومثلها في سورة النحل^(٤). كما أنه لم يعرض لكل سور القرآن، والسورة الوحيدة التي استوعب الحديث عنها، وشرحها كلها هي سورة الجن^(٥)، لما فيها من إشكال وغموض، بما وقع فيها من تكرار "إن" واختلاف القراء في نصبها وكسرها، ولاشبهه ما فيها من قول الله وقول الجن. وكان منهجه العام في التفسير لهذا الغرض هو الجمع بين ما ظاهره التعارض بين الآيات، وإزالة الإشكال الوارد فيها معتمداً في ذلك على آي القرآن العزيز، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وما أثر عن الصحابة والتابعين، وما نُقل عن أئمة اللغة - على ما سيأتي بيانه إن شاء الله - .

نموذج من التفسير لهذا الغرض:

قال ابن قتيبة:

"وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾^(٦)، وهو يقول في موضع آخر: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾^(٧) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ^(٨)، فإن النار دركات، والجنة درجات، وعلى قدر قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات، فمن أهل النار من طعامه الرِّقوم، ومنهم من طعامه غسولين، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد. والضَّرِيح: نبتٌ يكون بالحجاز، يقال لِرَطْبِهِ: الشَّرْبِقُ، لا يسمن ولا يُشبع... وغسولين: فِغْلين من غسَلْتُ، كأنه الغُسالة، قال بعض المفسرين: هو ما يسيل من أجساد المعذبين.

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٢٤، ٣٦١، ٣٧١، ٤٣٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٢٢، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٩٧).

(٣) المصدر السابق (ص ٣٢٣، ٣٧٥، ٣٩١).

(٤) المصدر السابق (ص ٣٨٤، ٣٨٦، ٤١٦).

(٥) المصدر السابق (ص ٤٢٦-٤٣٤).

(٦) سورة الغاشية: ٦.

(٧) سورة الحاقة: ٣٥-٣٦.

وهذا نحو قوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطْرَانٍ﴾^(١)، و"سرابيلهم من قَطْرٍ آنٍ" قراءة عكرمة (ت ١٠٥هـ) ومن تابعه.

والقطر: الثَّحاس، والآن: الذي قد بلغ منتهى حرّه، كأن قوماً يسربلون^(٢) هذا، وقوماً يسربلون هذا، ويلبسون هذا تارة، وهذا تارة.

وأما قولهم: "كيف يكون في النار نبت وشجر، والنار تأكلهما؟" فإنه لم يُرد فيما يرى أهل النظر - والله أعلم - أن الضريع بعينه ينبت في النار، ولا أنهم يأكلونه، والضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس، وإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع وهلكت هزلاً... فأراد أن هؤلاء القوم يقتاتون ما لا يشبعهم، وضرب الضريع لهم مثلاً، أو يعذبون بالجوع كما يُعذب مَنْ قوته الضريع.

وكان ما أراد الله بهذا معلوماً عندهم مفهوماً، ولو لم يكن كذلك لأنكروه كما أنكروا قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾^(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ^(٦٥) ﴿٦٥﴾ وقالوا: كيف تكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾^(٤)، يعني بالرؤيا: ما رآه ليلة أُسري به وأخبر عنه، فارتدّ لذلك قوم، وزاد الله في بصائر قوم، وأراد بالشجرة الملعونة: شجرة الزقوم، فهذا وجه.

وقد يكون الضريع وشجرة الزقوم: نبتتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلاها، وأنكالها، وعقاربها وحياتها، لو كانت على ما نعلم، لم تبق على النار، وإنما دلنا الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة والمعاني مختلفة. وما في الجنة من شجرها وثمرها وفرشها وجميع آياتها على مثل ذلك^(٥).

(١) سورة إبراهيم : ٥٠ .

(٢) يسربلون : أي يلبسون السَّرْبِيل ، وهو القميص والدَّرْع . [لسان العرب ، مادة "سربل" (١١/٣٣٥)] .

(٣) سورة الصافات : ٦٤-٦٥ .

(٤) سورة الإسراء : ٦٠ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (٦٨-٧٠) .

الغرض الثاني : بيان الوجوه والنظائر.

عقد الإمام ابن قتيبة باباً في غاية الأهمية هو "باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة" تناول فيه الوجوه والنظائر لأربعة وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم، كالقضاء والبلاء، والأمة، والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان. وكان لابن قتيبة تمييز واضح في هذا الغرض تمثل في محاولة إرجاعه المعاني المختلفة للفظ الواحد إلى أصل نشأت منه، وتفرعت عنه.

نموذج من التفسير لهذا الغرض:

قال ابن قتيبة:

"القنوت: القيام.

وسئل صلى الله عليه وسلم: أي الصلاة أفضل؟ فقال: "طول القنوت"^(١)، أي طول القيام.

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيْتُ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾^(٢)، أي أمّن هو مصلّ، فسميت الصلاة قنوتاً: لأنها بالقيام تكون.

وروي عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه قال: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القانت الصائم"^(٣)، يعني المصلّي الصائم.

ثم قيل للدعاء: قنوت؛ لأنه إنما يدعو به قائماً في الصلاة قبل الركوع أو بعده. وقيل: الإمساك عن الكلام في الصلاة قنوت؛ لأن الإمساك عن الكلام يكون في القيام، لا يجوز لأحد أن يأتي فيه بشيء غير القرآن.

قال زيد بن أرقم: "كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾"^(١)، فنهينا عن الكلام وأمرنا بالسكوت"^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت ح(١٧٦٩) (ص٧٩٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) سورة الزمر : ٩ .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ح (٤٨٦٩) (ص١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله" .

ويقال: إن قانتين في هذا الموضع: مطيعين.

والقنوت: الإقرار بالعبودية، كقوله: ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾^(٣)، أي مقرّون بالعبودية.

والقنوت: الطاعة، كقوله: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾^(٤)، أي المطيعين والمطيعات.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾^(٥)، أي مطيعاً لله.

ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة؛ لأن جميع هذه الخلال: من الصلاة، والقيام فيها، والدعاء وغير ذلك يكون عنها"^(٦).

الغرض الثالث: الاستشهاد لأبواب الكتاب المتنوعة.

تحدث ابن قتيبة عن العرب وما خصهم الله به من العارضة - القدرة على الكلام - ، وقوة البيان واتساع المجاز ، وذلك في معرض رده على الطاعنين والمشككين ؛ إذ أتاهم الشك من جهة جهلهم باللغة، ولأجله عقد ابن قتيبة العديد من الأبواب المتعلقة بالمجاز، والاستعارة ، والمقلوب، والحذف والاختصار، وتكرار الكلام، والزيادة فيه، والكناية ومخالفة ظاهر اللفظ معناه، وحروف المعاني، ودخول بعض الصفات مكان بعض.

وكان التفسير حاضراً بكثافة في هذه الأبواب ، حيث حشد فيها ابن قتيبة الكثير من الآيات التي يستشهد بها ثم يقوم بتفسيرها وبيان معناها بما يخدم الباب الذي طرقت فيه.

نموذج من التفسير لهذا الغرض:

قال ابن قتيبة:

(١) سورة البقرة : ٢٣٨ .
(٢) أخرجه البخاري في أبواب العمل في الصلاة، باب ما ينهى من الكلام في الصلاة ح (١٢٠٠) (ص٩٣)، وفي التفسير (سورة البقرة) باب "وقوموا لله قانتين" ح (٤٥٣٤) (ص٣٧٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ح (١٢٠٣) (ص٧٦١) .
(٣) سورة الروم : ٢٦ .
(٤) سورة الأحزاب : ٣٥ .
(٥) سورة النحل : ١٢٠ .
(٦) تأويل مشكل القرآن (ص٤٥١-٤٥٢) .

"فإن شئت أن تعرف ذلك - أي إيجاز اللفظ مع وفاء المعنى للقرآن الكريم - فتدبر قوله سبحانه: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) كيف جمع له بهذا الكلام كل مخلوق عظيم؛ لأن في "أخذ العفو": صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين. وفي "الأمر بالعرف": تقوى الله، وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات.

وإنما سمي هذا وما أشبهه "عرفاً" و"معرفاً"؛ لأن كل نفس تعرفه، وكل قلب يطمئن إليه. وفي "الإعراض عن الجاهلين": الصبر، والحلم، وتنزيه النفس عن مماراة السفية، ومنازعة اللجوج.

وقوله تعالى: إذ ذكر الأرض فقال: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴾^(٢) كيف دلّ بشيئين على جميع ما أخرجها من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام، من العشب والشجر، والحب والتمر والحطب والعصف واللباس، والنار والملح؛ لأن النار من العيدان، والملح من الماء. وينبئك أنه أراد ذلك قوله: ﴿ مَنَعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴾^(٣).

وفكر في قوله تعالى: حين ذكر جنات الأرض فقال: ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ ﴾^(٤) كيف دلّ على نفسه ولطفه، ووحدانيته، وهدى للحجة على من ضل عنه؛ لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة لوجب في القياس ألا تختلف الطعوم، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد، إذا نبت في مغرس واحد، وسقي بماء واحد، ولكنّه صنع اللطيف الخبير...

(١) سورة الأعراف: ١٩٩ .

(٢) سورة النازعات: ٣١ .

(٣) سورة النازعات: ٣٣ .

(٤) سورة الرعد: ٤ .

وتبيّن قوله في وصف خمّر أهل الجنة: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾^(١) كيف نفى عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر، وجمع بقوله: ﴿وَلَا يُزْفُونَ﴾ عدم العقل وذهاب المال، ونفاد الشراب...

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾^(٢) إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ^(٣) فدلّ على أن المنافقين شرٌّ من كفر به، وأولاهم بمقتته، وأبعدهم من الإنابة إليه؛ لأنه شرط عليهم في التوبة: الإصلاح والاعتصام، ولم يشترط ذلك على غيرهم"^(٣).

وبالإضافة إلى التفسير فقد احتوى الكتاب على مادة غزيرة تتعلق بالقراءات، حيث نالت حظاً وافياً من العناية، لا سيما وقد اتخذها الزنادقة سبيلاً للطعن في كتاب الله عزّ وجل، ولأجله أسهب ابن قتيبة في حديثه عن نزول القرآن على سبعة أحرف، وسرد الأقوال التي قيلت في تحديدها؛ مبيناً ما يراه راجحاً منها، ثم عقد باباً في تفصيل وجوه اختلاف القراءات، وآخر في الرد على ما ادعوه على القرآن من اللحن، كما اعتنى في أبواب الكتاب المتنوعة بذكر القراءات وبيان توجيهها.

كما تطرق - رحمه الله - لبعض مباحث علوم القرآن، فعقد باباً للمتشابه، استطرد فيه، فذكر الحكمة من إنزاله، وجريه على أساليب العرب، مستشهداً بعدد من الأحاديث والآثار، ثم بيّن رأيه في المتشابه، وأقام على ذلك الأدلة، وختم الحديث ببيان معنى المتشابه في اللغة والاصطلاح.

وكان لمباحث علوم القرآن الأخرى نصيب من العناية عند ابن قتيبة، كنزول القرآن الكريم وفضائله وإعجازه، وجمع القرآن والجواب عن الشبه المثارة حوله، والنسخ، والقسم في القرآن الكريم، وغير ذلك.

(١) سورة الواقعة : ١٩ .

(٢) سورة النساء : ١٤٥-١٤٦ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤-٨) .

المسألة الرابعة : القيمة العلمية .

كتاب "تأويل مشكل القرآن" من أبداع المصنفات جودةً وإتقاناً وتبويماً، وكانت السمة الأدبية ظاهرة في أسلوب كاتبه في جميع المباحث، مما يمتع القارئ له وينمي ذائقته الأدبية في ذات الوقت، ويعد الكتاب أصلاً من أصول البحث التفسيري واللغوي والبلاغي، وما سبق ذكره عن محتوى الكتاب ومادته التفسيرية كافٍ في الدلالة على القيمة العلمية لهذا الكتاب، الذي نال حظاً وافراً من الشهرة والذيع، والعناية به عند جمهور المفسرين، وأهل اللغة والأدب والبلاغة.

وتبرز القيمة العلمية للكتاب من خلال الأمور التالية:

١ . أقدمية الإمام ابن قتيبة؛ فهو من أهل القرون المفضلة، وأسبقية كتابه؛ فهو أول كتاب يصل إلينا في عنوانه وموضوعه، وكان جامعاً في بابه "مشكل القرآن"، وكل من أتى بعده اعتمد عليه ونهل من معينه.

٢ . ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه من أوائل الكتب التي عُنت بعلم الوجوه والنظائر، واهتمت بعلم الاشتقاق، وبيان الأصل اللغوي للألفاظ.

يقول السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠هـ) - محقق الكتاب - : "ولباب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة كذلك قيمة تاريخية عظيمة، فقد أرجع ابن قتيبة المعاني المختلفة للفظ الواحد، إلى أصل واحد نشأت منه، وتفرعت عنه.

ومن أمثلة ذلك أنه ذكر كلمة "القضاء"، وبين معانيها المختلفة التي تصير إليها؛ ثم ختم بحثه بقوله ص ٣٤٣: "وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد".

وقال بعد ذكره لمعاني كلمة "الأمر" ص ٣٩٤: "وهذا كله وإن اختلف فأصله واحد".

وبذلك يكون لابن قتيبة فضل سبق إلى القول برد مفردات المادة اللغوية إلى أصولها المعنوية المشتركة ؛ لأنه أسبق من ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢، ومن أستاذه أبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧، ومن ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥، بل إني أذهب إلى أن فكرة ابن قتيبة هذه، هي التي أوحى إلى ابن فارس تأليف كتابه "مقاييس اللغة" ؛ كما أوحى إليه تلك المباحث اللغوية - التي تضمنها تأويل مشكل القرآن - تأليف كتاب "الصاحي" في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، والذي يقارن بين الكتابين ، يجد أن ابن فارس قد اعتمد على تأويل

مشكل القرآن كل الاعتماد، وانتفع بمباحثه انتفاعاً عظيماً، ونقل منها إلى كتابه نقولاً كثيرة، من غير أن يشير إلى ذلك؛ وإن أشار - وقليلاً ما صنع - فإنما يشير إشارة مبهمة غامضة؛ كقوله في ص ١٢: "وقال بعض علمائنا"؛ وقوله في ص ١٢٤: "وقال بعضهم"^(١).

٣. كان لأبواب المجاز التي حواها الكتاب قيمة تاريخية كبيرة تتصل بنشأة البلاغة العربية وتطورها، إذ الشائع عند المؤرخين لنشأة البلاغة أنها طفرت من نثار الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) المبتوث في كتبه، إلى "بديع" ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)^(٢) طفرة واحدة، وأغفلوا ذكر ابن قتيبة، وأنه أسهم في تكوينها وتطورها بنصيب وافر، فظهور هذه الأبواب في الكتاب يظهر الحلقة المفقودة في تاريخ البلاغة، إذ لا يمكن إغفال صنيع ابن قتيبة في استخراج ما في القرآن من فنون بلاغية وتبويبها أبواب مفصلة قبل أن يؤلف ابن المعتز كتابه "البديع" بسنوات، وأغلب كتب البلاغة التي جاءت بعد ابن قتيبة جرت على طريقته وتبويه مما يدل على أثره^(٣).

وهذا الدور العظيم من ابن قتيبة في هذا الكتاب يدل - أيضاً - على أثر أهل السنة في نشأة البلاغة العربية، خلافاً لما يدعيه بعضهم من أن البلاغة قامت على أكتاف المعتزلة.

٤. موسوعية الكتاب وشموليته التي تعكس سعة ثقافة صاحبه، فقد احتوى على التفسير والقراءات وإعراب القرآن ونظمه وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، وأحكامه وسائر فنون علومه، كما اشتمل على النحو واللغة والأدب والبلاغة والتاريخ والفقهاء إلى غير ذلك من العلوم.

(١) مقدمة تأويل مشكل القرآن (ص ٨٣-٨٤).

(٢) أبو العباس، عبدالله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون، المعروف بـ "ابن المعتز" الشاعر الهاشمي العباسي، الفصيح البليغ، سمع المبرد وثعلباً، وروى عنه شعره جماعة منهم أبو بكر الصولي، له مصنفات كثيرة، منها: "البديع"، - من أشهرها - ، و"طبقات الشعراء"، و"الزهر والرياح"، و"أشعار الملوك"، قتله المقتدر في أواخر ربيع الأول سنة ٢٩٦هـ. [تاريخ بغداد (٣٠٢/١١)، الوافي بالوفيات (٢٤٠/١٧)، نزهة الألباء (ص ١٧٦)، البداية والنهاية (٧٥٢/١٤)].

(٣) انظر: مقدمة تحقيق "تأويل مشكل القرآن"، للسيد صقر (ص ٨٢)، البحث البلاغي عند ابن قتيبة، د. محمد الصامل (ص ٢٢٧)، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، د. محمد الصامل (ص ٢٥-٢٧)، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن، د. محمد رفعت أحمد زنجير (ص ١٤٦).

المطلب الثاني : تأويل مختلف الحديث .

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(١)، والخطيب (ت ٤٦٣هـ)^(٢)، والسمعاني (ت ٤٦٢هـ)^(٣)، وابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)^(٤)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٥)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٦)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٧) .^(٨)

المسألة الأولى: سبب التأليف .

هذا الكتاب تكملة للجهود التي بذلها الإمام ابن قتيبة في الدفاع عن الوحيين والذب عن الدين، فبعد أن رد على الزنادقة المشككين في كتاب الله تعالى في كتاب "تأويل مشكل القرآن" ، أراد بكتابه هذا الرد على المشككين في السنة، الذين زعموا أن كثيراً من الأحاديث يناقض بعضها بعضاً ، وأن كثيراً منها يخالف العقل والنظر، كما رد فيه على مثالب أهل الكلام لأهل الحديث، وانتصر فيه لمذهب السلف على مخالفيهم، ودافع عن الصحابة رضوان الله عليهم ضد من تنقصهم من الرافضة.

وكان سبب تصنيفه للكتاب هو أن سائلاً كتب له يستنجده للنهوض لمطاعن أهل الكلام وغيرهم من المذاهب التي آثرت العدول عن بعض الأحاديث لما زعموه من التناقض والاختلاف، ويدعو لإزالة الغموض فيما ذكره من تناقض ، وقد أفصح ابن قتيبة عن ذلك في مقدمة الكتاب فقال:

(١) الفهرست (ص ٨٥) .

(٢) تاريخ بغداد (١١/٤١١) .

(٣) الأنساب (٤/٤٥١) .

(٤) نزهة الألباء (ص ١٥٩) .

(٥) إنباه الرواة (٢/١٤٣) .

(٦) وفيات الأعيان (٣/٤٢) .

(٧) بغية الوعاة (٢/٦٣) .

(٨) طبع بتصحيح الشيخ إسماعيل الأسعدي بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦هـ، ثم طبع بتصحيح وضبط الشيخ محمد زهدي النجار، نشرته دار الجليل بלבنا ١٣٩٣هـ، ثم طبع عدة طبعات: منها طبعة بتحقيق محمد محي الدين الأصفر، نشره المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٨هـ.

"أسعدك الله بطاعته، وحاطك بكلاءته، ووفقك للحق برحمته، وجعلك من أهله، فإنك كتبت إلي تُعلمني ما وقفت عليه من ثلَب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم، وإسهابهم في الكتب بدمهم، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف وكثرت النحل وتقطعت العصم وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضاً، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث هذا ما حكيت من طعنهم على أصحاب الحديث، وشكوت تطاول الأمر بهم على ذلك من غير أن ينضح عنهم ناضح، ويحتج لهذه الأحاديث محتج، أو يتأولها متأول، حتى أنسوا بالعيب، ورضوا بالقذف، وصاروا بالإمساك عن الجواب، كالمسلمين، وبتلك الأمور معترفين.

وتذكر أنك وجدت في كتابي المؤلَّف في "غريب الحديث" باباً ذكرت فيه شيئاً من المتناقض عندهم، وتأولته فأملتَ بذلك أن تجد عندي في جميعه مثل الذي وجدته في تلك من الحجج، وسألت أن أتكلف ذلك محتسباً الثواب.

فتكلَّفته بمبلغ علمي ومقدار طاقتي، وأعدتُ ما ذكرتُ في كتبي من هذه الأحاديث؛ ليكون الكتاب تاماً جامعاً للفتن الذي قصدوا الطعن به.

وقدّمتُ - قبل ذكر الأحاديث، وكشف معانيها - وصف أصحاب الكلام وأصحاب الحديث، بما أعرف به كل فريق.

وأرجو أن لا يطلع ذو النهى مني، على تعمد لتمويه، ولا إثارة لهوى، ولا ظلم لخصم.

وعلى الله أتوكل فيما أحاول، وبه أستعين"^(١).

المسألة الثانية: المادة العلمية .

افتتح ابن قتيبة كتابه بمقدمة مستفيضة استغرقت قرابة سبعين صفحة، تحدث فيها عن سبب تأليف الكتاب، ثم أورد بعد ذلك جملة من الأحاديث التي تعلقت بها الفرق المختلفة، ونصرت بها مذاهبها، واحتجت بها على من خالفها من الفرق الأخرى^(٢).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٧) ط المكتب الإسلامي .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٧-٥٣).

وأعقب ذلك ذكر طائفة من الأحاديث التي شنع بها أهل الكلام على أهل الحديث، وأوضح أنها من موضوع الحديث، ومكذوب الخبر، وأنها أخبار وأحاديث "تبعث على الإسلام الطاعنين، وتضحك منه الملحدين، وتزهدهم من الدخول فيه المرتادين، وتزيد في شكوك المرتابين"^(١).

وذكر بعد ذلك طعنهم على أهل الحديث في أنواع طرقهم وعاداتهم في تحمل الحديث من ولع بجمع الطرق المتعددة والشواهد المتكاثرة دون تدقيق ولا تحقيق^(٢). ثم يختتم هذه المطاعن بذكر باب عرّض فيه بالحديث عن أهل الكلام، وذكر فيه جملة من مثالب أهل الكلام، أردفها بذكر فضل أهل الحديث وشرفهم، وفضيلة الاقتداء بهم، واتباع نصحهم^(٣).

ثم ذكر شيئاً من المسائل التي نابذ فيها أهل الكلام صريح الأدلة وصحيح المنقول، وإجماع الأمة، فأطال النفس في مناقشة هذه المسائل، وأفاض في تعقب أصحابها ونقض أقوالهم وأدلتهم عقلاً ونقلًا^(٤).

ثم انتقل بعد ذلك إلى الرد على رؤسائهم كالنظام (ت ٢٣١هـ)^(٥)، وأبي الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ)^(٦)، وهشام بن

(١) المصدر السابق (ص ٥٣-٥٨).

(٢) المصدر السابق (ص ٥٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٦٠-٦٦).

(٤) المصدر السابق (ص ٦٦-٧٣).

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري، وهو ابن أخت أبي الهذيل العلاف، وعنه أخذ الاعتزال، من رؤوس المعتزلة، متهم بالزندقة، كان شاعراً أديباً بليغاً، له كتب كثيرة في الاعتزال والفلسفة، وقد اقترن اسمه بالقول بالصرفة، توفي سنة ٢٣١هـ. [تاريخ بغداد (٦/٦٢٣)، لسان الميزان (١/٢٩٥)].

(٦) أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن مكحول العبدي، مولى عبد القيس، العلاف، شيخ البصريين في الاعتزال، ومقرر طريقتهم والمناظر عليها، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء، كان خبيث القول، فارق إجماع المسلمين، ورد نص كتاب الله، وجحد صفات الله تعالى، توفي سنة ٢٣٥هـ. [تاريخ بغداد (٤/٥٨٢)، لسان الميزان (٨/٣٣٤)].

الحكم (ت ١٩٠هـ)^(١)، وثمامة بن أشرس (ت ٢١٣هـ)^(٢)، ومحمد بن الجهم البرمكي (ت ٢١٨هـ)^(٣)، فذكر طرفاً من آرائهم، وجمالاً من أقوالهم، وتعقبها مفنداً ومبيناً فساد مضمونها وبطلان معانيها^(٤).

وبعد أن فرغ من أهل الكلام انتقل إلى الحديث عن أصحاب الرأي، فعرض لهم بالنقد، وعدّد لهم مسائل كثيرة تدل على تحكّمهم ومخالفتهم لكتاب الله تعالى^(٥).

ثم يعود مرة أخرى فيعقد فصلاً يذكر فيه فضل أهل الحديث وشرفهم، ويبين أنهم إنما حظوا بهذه المكانة وأنزلوا هذه المنزلة لأنهم "التمسوا الحق من جهته، وتبعوه من مظنته، وتقربوا من الله تعالى باتباعهم سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلبوا لآثاره وأخباره برأً وبحراً وشرقاً وغرباً"^(٦).

ثم عرض لأهم قضايا الكتاب، فعقد باباً لذكر الأحاديث التي ادعوا عليها التناقض، وقد بلغ عددها مائة وثلاثة وثمانين حديثاً، وقد جاءت هذه الأحاديث على خمسة أنواع؛ هي:

١. الأحاديث التي قيل بالتناقض بينها، وهي الغالب في الكتاب.

٢. الأحاديث التي قيل فيها: إنها تخالف كتاب الله تعالى.

٣. الأحاديث التي قيل فيها: إنها تخالف النظر وحجة العقل.

(١) أبو محمد هشام بن الحكم الشيباني مولاهم، الكوفي، أحد متكلمي الشيعة، كان شيخ الإمامية في زمنه، مولده بالكوفة، ونشأ بواسط واستقر ببغداد منقطعاً على يحيى بن خالد البرمكي، ولما وقعت نكبة البرامكة تخفى وعاش بالكوفة إلى أن مات سنة ١٩٠هـ. [الفصل في الملل والنحل (٥/٤٠، ١٩٣)، لسان الميزان (٨/٣٣٤)].

(٢) أبو معن ثمامة بن أشرس النميري، أحد كبار المعتزلة البصريين، كان متصلاً بالرشيد، ثم المأمون، وهو شيخ الجاحظ، من رؤساء الفرق الهالكة، وتسمى فرقته الثمامية نسبة إليه، قال ابن حزم: "كان يقول إن العالم فعل الله بطباعه - تعالى الله عن ذلك - وأن المقلدين من أهل الكتاب وعباد الأصنام لا يدخلون النار، بل يصيرون تراباً، توفي سنة ٢١٣هـ. [الفصل في الملل والنحل (٥/٦٢)، تاريخ بغداد (٨/٢٠)، ميزان الاعتدال (٢/٩٤)].

(٣) محمد بن الجهم البرمكي، يعد من فلاسفة المتكلمين، ومجالساً للجاحظ وأبي الهذيل العلاف، كان عالماً بالمنطق منقطعاً إلى كتب أرسطو في الكون والفساد وحدود المنطق، كما كان مشغولاً بالطب والتنجيم، اتصل بالمأمون، وألف له كتاباً في الاختيارات فأجله، عدّه ابن النديم من نقلة كتب الفارسية إلى العربية، كان حياً قبل ٢١٨هـ. [الفهرست (ص ٣٠٥)، تاريخ الحكماء للقفطي (ص ٢٨٤)].

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٧٣-١٠١).

(٥) المصدر السابق (ص ١٠٢-١١١).

(٦) المصدر السابق (ص ١٢٧-١٤٢).

٤. الأحاديث التي قيل فيها: إنها تخالف الإجماع.

٥. الأحاديث التي قيل فيها: إن القياس يبطلها.

ومنهج في عرضها: أن يعنون لكل موضع بقوله: "قالوا: حديثان متناقضان..."، أو قوله: "قالوا: أحاديث متناقضة..."، أو قوله: "حديثان مختلفان في..."، أو بعبارة قريبة من هذا، ثم يورد الحديث وما يعارضه، وبعد ذلك يتدعى الجواب نافياً أن يكون ثمة تعارض وقع بين الأحاديث، ثم يسوق الأدلة، ويورد الشواهد، ويقدم الحجج التي يبطل بها دعوى التناقض بين الأحاديث المذكورة في كل موضع.

المسألة الثالثة: المادة التفسيرية .

حوى الكتاب مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية التي فسرها ابن قتيبة، وكانت هذه الآيات المفسرة على قسمين :

أحدهما: الآيات التي قيل بتعارضها مع بعض الأحاديث التي ساقها ابن قتيبة في كتابه، وقد بسط القول فيها، وفسرها، وأزال شبهة التعارض عنها، حتى أصبحت واضحة المعنى، بينة المقصد والمرمى .

نموذج من هذا القسم:

قال ابن قتيبة - رحمه الله - :

"(قالوا حديث يكذبه القرآن وحجة العقل) قالوا رويتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته"^(١) - والله تعالى يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٢)، ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣). قالوا: وليس يجوز في حجة العقل أن يكون الخالق يشبه المخلوق في شيء من

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ح (٥٥٤) (ص٤٥)، وفي مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر ح (٥٧٣) (ص٤٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ح (١٤٣٤) (ص٧٧٦) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٣ .

(٣) سورة الشورى : ١١ .

الصفات، وقد قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۖ قَالَ لَنْ تَرَنِي ﴾^(١) قالوا فإن كان هذا الحديث صحيحاً فالرؤية فيه بمعنى العلم كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾^(٢).

(قال أبو محمد - ابن قتيبة -) ونحن نقول إن هذا الحديث صحيح لا يجوز على مثله الكذب لتتابع الروايات عن الثقات به من وجوه كثيرة - ولو كان يجوز أن يكون مثله كذباً جاز أن يكون كل ما نحن عليه من أمور ديننا في التشهد الذي لم نعلمه إلا بالخبر وفي صدقة النعم وزكاة الناض^(٣) من الأموال والطلاق والعتاق وأشباه ذلك من الأمور التي وصل إلينا علمها بالخبر ولم يأت لها بيان في الكتاب باطلاً. وأما قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾^(٤)، وقول موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۖ قَالَ لَنْ تَرَنِي ﴾^(٥)، فليس ناقضاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ترون ربكم يوم القيامة" لأنه أراد جل وعز بقوله: لا تدركه الأبصار في الدنيا - وقال لموسى عليه السلام: لن تراني يريد في الدنيا لأنه جل وعز احتجب عن جميع خلقه في الدنيا ويتجلى لهم يوم الحساب ويوم الجزاء والقصاص فيراه المؤمنون كما يرون القمر في ليلة البدر ولا يختلفون فيه كما لا يختلفون في القمر - ولم يقع التشبيه بها على كل حالات القمر في التدوير والمسير والحدود وغير ذلك وإنما وقع التشبيه بها على أنها تنظر إليه عز وجل كما ننظر إلى القمر ليلة البدر لا يختلف في ذلك كما لا يختلف في القمر - والعرب تضرب المثل بالقمر في الشهرة والظهور فيقولون هذا أبين من الشمس ومن فلق الصبح وأشهر من القمر.

(١) سورة الأعراف: ١٤٣ .

(٢) سورة الفرقان: ٤٥ .

(٣) جاء في اللسان، مادة "نضض" (٢٣٦/٧): "الناض من المتاع ما تحوّل ورقاً أو عيناً، قال الأصمعي: اسم الدراهم والدنانير عند أهل الحجاز: الناض".

(٤) سورة الأنعام: ١٠٣ .

(٥) سورة الأعراف: ١٤٣ .

وحدِيث رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضٍ على الكتاب ومبين له فلما قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيح من الخبر "ترون ربكم يوم القيامة" لم يخف على ذي فهم ونظر ولب وتمييز أنه في وقت دون وقت. وفي قول موسى عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^١ أبين الدلالة على أنه يُرى في القيامة - ولو كان الله تعالى لا يرى في حال من الأحوال ولا يجوز عليه النظر لكان موسى عليه السلام قد خفي عليه من وصف الله تعالى ما علموه...

وموسى عليه السلام علم أن الله تعالى يُرى يوم القيامة فسأل الله عزّ وجل أن يجعل له في الدنيا ما أجله لأنبيائه وأوليائه يوم القيامة فقال له: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ يعني في الدنيا ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي﴾^(١) أعلمه أن الجبل لا يقوم لتجليه حتى يصير ذكاً وأن الجبال إذا ضعفت عن احتمال ذلك فابن آدم أخرى أن يكون أضعف إلى أن يعطيه الله تعالى يوم القيامة ما يقوى به على النظر ويكشف عن بصره الغطاء الذي كان في الدنيا - والتجلي هو الظهور ومنه يقال جلوت العروس إذا أبرزتها وجلوت المرأة والسيف إذا أظهرتهما من الصدأ.

وأما قولهم أن الرؤية في قوله: "ترون ربكم يوم القيامة" بمعنى العلم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، يريد ألم تعلم فإنه يستحيل لأنا نعلمه في الدنيا أيضاً - فأبي فائدة في هذا الخبر إذا كان الأمر في يوم القيامة وفي الدنيا واحداً...^(٢).

القسم الثاني: الآيات التي استشهد بها لإزالة الالتباس الحاصل في فهم الحديث، فقد ساق جملة من الآيات القرآنية وفسرها، إما لبيان غريب الحديث، أو للجمع بين ما ظاهره التعارض بين الأحاديث، كما فسر الكثير من الآيات التي يستدل بها لتعضيد آرائه واختياراته المتنوعة.

نموذج من هذا القسم:

قال ابن قتيبة - رحمه الله - :

(١) سورة الأعراف: ١٤٣ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٨-١٤١).

"ونحن نقول: إنه إذا جاز في المعقول، وصح في النظر، وبالكتاب والخبر، أن الله تعالى يبعث من في القبور، بعد أن تكون الأجساد قد بليت، والعظام قد رمت، جاز أيضا في المعقول وصح في النظر وبالكتاب والخبر، أنهم يعذبون بعد الممات في البرزخ.

فأما الكتاب فإن الله تعالى يقول: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(١)، فهم يعرضون بعد مماتهم على النار، غدوا وعشيا، قبل يوم القيامة ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب.

والله عز و جل يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١١٦) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٧٠)^(٢).

.... فإذا جاز أن يكون هؤلاء الشهداء، أحياء عند ربهم يرزقون، وجاز أن يكونوا فرحين ومستبشرين، فلم لا يجوز أن يكون أعداؤهم الذين حاربوهم وقتلوهم، أحياء في النار يعذبون، وإذا جاز أن يكونوا أحياء، فلم لا يجوز أن يكونوا يسمعون؟ وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله الحق .

وأما الخبر فقول النبي صلى الله عليه وسلم في جعفر بن أبي طالب (ت ٥٨هـ) "إنه يطير مع الملائكة في الجنة"^(٣)، وتسميته له ذا الجناحين، وكثرة الأخبار عنه في منكر ونكير، وفي

(١) سورة غافر : ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآيتين ١٦٩-١٧٠ .

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ح (٣٧٦٣) (ص٢٠٣٩) عن أبي هريرة مرفوعاً: "رأيت جعفرًا يطير في الجنة مع الملائكة"، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن جعفر، وقد ضعف يحيى بن معين وغيره عبد الله بن جعفر، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/٥٣٦)، وله شاهد من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الحاكم في المستدرک ح (٤٩٩٧) (٣/٢٥٠)، والطبراني في الكبير ح (١٤٦٦) (٢/١٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ح (٣٣٦٣) (١/٦٣٤).

عذاب القبر، وفي دعائه: "أعوذ بك من فتنة الحيا والممات وأعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة المسيح الدجال"^(١).

وهذه الأخبار صحاح، لا يجوز على مثلها التواطؤ، وإن لم يصح مثلها، لم يصح شيء من أمور ديننا، ولا شيء أصح من أخبار نبينا صلى الله عليه وسلم"^(٢).

وإلى جانب التفسير كانت العناية جلية بعلوم القرآن، فقد تحدث ابن قتيبة بإسهاب عن النسخ في القرآن الكريم، تناول فيه ثبوت النسخ والحكمة منه، وتطرق فيه إلى شروط النسخ وضوابطه، كما عدّد أنواع النسخ في القرآن، ومثّل لكل نوع، وذكر أقسام النسخ؛ كنسخ القرآن بالسنة، والسنة بالقرآن، والسنة بالسنة، ومثّل لذلك.

كما احتوى الكتاب على مجموعة من علوم القرآن المتنوعة، كالحديث عن جمع القرآن وتواتره، والرد على الشبه المثارة حوله، والكلام عن إعجاز القرآن الكريم وفضائله، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك.

وكذا بث ابن قتيبة في كتابه شيئاً من مسائل أصول التفسير، فقد توسع في الحديث عن ضوابط التفسير بالرأي، وأبان فيه عن ضوابط القول بالجاز، كما تطرق في الكتاب إلى عدد من أسباب اختلاف المفسرين.

المسألة الرابعة : القيمة العلمية .

لقي كتاب "تأويل مختلف الحديث" شهرة واسعة، وحظي بقبوله الحسن عند العلماء، ونال مكانة علمية كبيرة، تجلت في دفاعه الرصين عن السنة المطهرة، وفيما حواه الكتاب من معارف ثمينة، وفوائد جلييلة واستطرادات علمية ولغوية وأدبية.

ومن أبرز مزايا الكتاب :

١ . الأقدمية والأسبقية، فكتاب ابن قتيبة من أوائل الكتب التي صنفت في مختلف الحديث، ولم يُسبق إلا بكتاب "اختلاف الحديث" للشافعي (ت ٢٠٤هـ)، وكل من كتب في هذا الباب اعتمد على هذين الإمامين وأخذ عنهما.

(١) أخرجه البخاري في الجناز، باب التعوذ من عذاب القبر ح (١٣٧٧) (ص١٠٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ح (١٣٢٤) (ص٧٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص٢٢٧-٢٢٨).

٢ . يعد الكتاب من أصول أهل السنة في إيضاح العقيدة، حيث أبرز ابن قتيبة مذهب السلف في كثير من المسائل العقدية، وانتصر لهم، ورد على مخالفيهم في تلك المسائل، وقد انتفع بهذا الكتاب الكثير ممن كتب في عقيدة السلف، كأبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١هـ)، وابن منده (ت ٣٩٥هـ)، واللالكائي (ت ٤١٨هـ)، وشيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، والسفاري (ت ١١٨٩هـ)، والشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ)، وغيرهم.

٣ . القيمة الحديثية المتمثلة في الأحاديث المسندة التي حواها الكتاب، فقد كان ابن قتيبة يورد الأحاديث التي اعترض عليها بإسناده، وربما أورد الحديث بالسند من غير طريقه وإنما من الطريق التي اشتهر بها الحديث.

٤ . تميز الكتاب بالمقدمة القيمة المستفيضة التي افتتح بها الكتاب ورد فيها على أصحاب الكلام والرأي، متعرضاً لرؤسائهم فيها بالنقد، بعد أن ذكر جملة من أقوالهم، وبين فسادها وبطلانها.

٥ . ما زخر به الكتاب من علوم وفوائد متنوعة في التفسير والحديث والعقيدة والفقهاء واللغة والنحو والاشتقاق والأدب، وغير ذلك، وقد صاغ ذلك بأسلوب أدبي رفيع في حلة بيانية تبهر الألباب، وتمتع العقول، وتلك مزية ينفرد بها هذا الكتاب قل أن توجد في غيره.

المبحث الثاني

مصنفات ابن قتيبة في الغريب

التمهيد :

أولاً: تعريف الغريب لغة واصطلاحاً:

الغريب لغة:

غَرَبَ في اللغة بمعنى بَعُد، ومنه: رجل غريب: بعيد عن أهله، وليس من سائر القوم، ومنه كلمة غريبة: بعيدة عن الفهم، والغريب الغامض من الكلام.

جاء في "اللسان": "العَرَبُ الذهاب والتنجي عن الناس، وقد غَرَبَ عنا يَعْرُبُ غَرَباً، وَعَرَّبَ وأغرب وغرَّبه وأَعْرَبَهُ نَحَاه، والغربة والغرب: النوى والبعد، وقد تغرب، ويقال: غَرَّبَ في الأرض وأغرب، إذا أمعن فيها، وشأو مُغْرَبٌ ومُعْرَبٌ بعيد، والتغريب: النفي عن البلد الذي وقعت الجناية فيه، والغربة والغرب: النزوح عن الوطن والاعتراب، ورجل غُرِبَ وغريب: بعيد عن وطنه، والجمع غرباء"^(١).

وكل هذه المعاني لمادة (غرب) تدور حول معنى البُعد، فإن أضيف إلى الكلام أفاد الغموض، لبعده عن الفهم.

الغريب اصطلاحاً:

المعنى الاصطلاحي للغريب غير بعيد عن المعنى اللغوي، يقول الخطابي^(٢) (ت ٣٨٨هـ): "الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم، كالغريب من الناس، إنما هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، .. ثم إن الغريب من الكلام يقال به على وجهين: أحدهما: أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر.

(١) لسان العرب، مادة (غرب) (٣٢٢٥/٥)، وانظر: مادة (غرب) في: معجم مقاييس اللغة (٤/٤٢٠)، تهذيب اللغة (١١٤/٨).

(٢) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، العلامة الحافظ، الفقيه المحدث اللغوي، سمع من أبي سعيد ابن الأعرابي، وإسماعيل بن محمد الصفار، وعنه الحاكم وأبو عبيد الهروي وجماعة، له مصنفات كثيرة مفيدة، منها: معالم السنن في شرح سنن أبي داود، وغريب الحديث، وإصلاح غلط المحدثين، والعزلة، توفي ببُست في شهر ربيع الآخر سنة ٣٨٨هـ. [وفيات الأعيان (٢/٢١٤)، سير أعلام النبلاء (١٧/٢٣)، البداية والنهاية (١٥/٤٧٩)].

والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار، ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغريناها"^(١).

ويزاد تعريف الغريب الاصطلاحي وضوحاً، بقول الزجاجي^(٢) (ت ٣٣٧هـ):

"وأما الغريب فهو ما قل استماعه من اللغة، ولم يدر في أفواه العامة، كما دار في أفواه الخاصة، كقولهم: صَكَمْتُ الرجل، أي: لكتمته"^(٣).

أما علم غريب القرآن أو الحديث، فهو العلم المختص بتفسير الألفاظ الغامضة فيهما، وتوضيح معانيهما بما جاء في لغة العرب وكلامهم^(٤)، فهو مبحث لغوي متخصص، ولذلك لم يطرقه إلا اللغويون من المفسرين والمحدثين.

ثانياً: التصنيف في غريب القرآن .

بدأت حركة التأليف في غريب القرآن الكريم في عصر مبكر، لا يعدو النصف الأول من القرن الأول للهجرة، على هيئة مرويات، وأول ما عرف من ذلك ما روي عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) - رضي الله عنهما - بإجاباته عن المسائل التي سألها نافع بن الأزرق^(٥) التي تضمنت معاني ما يربو على مائتي كلمة من غريب القرآن، وكان يستشهد على تلك المعاني من الشعر ومن لغة العرب، وقد وردت جملة من تلك المسائل في كتاب "بجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ)، و"فضائل القرآن" لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، و"غريب القرآن" لابن قتيبة، وساقها

(١) غريب الحديث للخطابي (٧٠/١) .

(٢) أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي - نسبة إلى شيخه الزجاج - النحوي اللغوي، أخذ عن الزجاج، وأبي بكر بن الأنباري، وابن دريد، وأبي جعفر أحمد بن قتيبة، وعنه عبدالرحمن بن محمد بن أبي نصر، وأبو الحسن علي بن محمد الأنطاكي، اشتهر بكثرة التصنيف وتنوعه، من مصنفاته: "كتاب الجمل" في النحو، و"الإيضاح في علل النحو"، و"شرح مقدمة أدب الكاتب - لابن قتيبة -"، توفي سنة ٣٣٧هـ. [طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي (ص ١١٩)، نزهة الألباء (ص ٢٢٧)، وفيات الأعيان (١٣٦/٣)، بغية الوعاة (٧٧/٢)].

(٣) الإيضاح في علل النحو (ص ٩٢).

(٤) انظر: مقدمة تحقيق "العمدة في غريب القرآن لمكي"، يوسف مرعشلي (ص ١٤) .

(٥) نافع بن الأزرق الحروري، من رؤوس الخوارج، وإليه تنسب طائفة الأزارقة من الخوارج، خرج في أواخر عهد يزيد بن معاوية، اشتهر بمسائله لابن عباس رضي الله عنهما في القرآن واللغة. [المغني في الضعفاء للذهبي (٣٤٦/٢)، لسان

الميزان (٢٤٦/٨)] .

السيوطي (ت ٩١١هـ) بتمامها إلا بضعة عشر سؤالاً - حسب قوله - في كتابه "الإتقان"^(١).

وكذلك روي عن ابن عباس كتاب في غريب القرآن بتهديب عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ)^(٢)، وكتاب آخر في الغريب برواية علي بن أبي طلحة (ت ١٤٣هـ)^(٣). ويرى بعض الباحثين أن الكتب المنسوبة لابن عباس رضي الله عنهما كان بعضها - على الأقل - من تأليفه هو^(٤)، بينما يرجح آخرون أنها من تدوين الرواة عنه^(٥)، وأياً كان الأمر، فلا شك أن مرويات ابن عباس هي التي مهدت للتدوين في علم غريب القرآن في وقت مبكر، وهيأت المادة الأولى لكل من ألّف فيه^(٦)، ويظهر هذا جلياً في أوائل المصنفات في غريب القرآن كمجاز القرآن لأبي عبيدة، وغريب القرآن لابن قتيبة، فقد حوى الكتابان مادةً غزيرة من مرويات ابن عباس في الغريب.

ويعد بعض الباحثين أبا سعيد أبان بن تغلب البكري (ت ١٤١هـ) هو أول من صنف كتاباً في "غريب القرآن"^(٧)، فيما يرى آخرون أن أبا عبيدة (ت ٢١٠هـ) له الأسبقية في التأليف في هذا المجال.

يقول أبو هلال العسكري (ت بعد ٤٠٠هـ) في كتابه "الأوائل":

(١) الإتقان (٢/٦٧-١٠٥)، وقد نشر المسائل محمد فؤاد عبدالباقي سنة ١٩٥٠م ملحقة بكتابه "معجم غريب القرآن" مستخرجاً من صحيح البخاري، ثم نشرتها بنت الشاطئ سنة ١٩٧١م مع دراستها في كتابها "الإعجاز البياني في القرآن"، وقد طبعت مستقلة بتحقيق إبراهيم السامرائي عام ١٩٦٩م ببغداد، ثم بتحقيق محمد عبدالرحيم وأحمد نعامة، نشرتها مؤسسة الكتب الثقافية بالقاهرة عام ١٤١٣هـ، وشرحها شرحاً وافياً أبو تراب الظاهري في كتابه "شواهد القرآن" في قرابة ثمانمائة صفحة.

(٢) ذكر فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي (١/٦٧) أنه يوجد مخطوطاً في مكتبة عاطف أفندي بعنوان "غريب القرآن".

(٣) ذكره فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي (١/٦٦)، وعنون له محمود السيد الدغيم في مقدمة تحقيقه لعمدة الحفاظ (ص ٢١)، بـ "غريب القرآن".

(٤) وهو ما يؤكد فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي (١/٦٦).

(٥) انظر: المعجم العربي د. حسين نصار (ص ١٣)، التفسير اللغوي د. مساعد الطيار (ص ٣٣٢).

(٦) انظر: مقدمة تحقيق "مفردات القرآن للفراهي"، د. محمد أجمل الإصلاحي (ص ٤٥).

(٧) السيد صقر في مقدمة تحقيقه لكتاب "تفسير غريب القرآن" لابن قتيبة (ص ب).

"أول من صنف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى، صنف كتاب المجاز، وأخذ ذلك من ابن عباس حين سأله نافع بن الأزرق"^(١).

ثم تابعت المصنفات بعد ذلك بحيث لم يخل قرن من التأليف فيه، حتى قال السيوطي (ت ٩١١هـ): "أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون"^(٢)، وكان أغنى هذه القرون تأليفاً القرنين الثالث والرابع من الهجرة، وكان علماء اللغة هم فرسان هذا الميدان، فقلما تجد منهم من لم يذكر له كتاب في الغريب، حتى الأصمعي (ت ٢١٤هـ) الذي كان يتحرج من تفسير القرآن الكريم نسب إليه كتاب في غريب القرآن^(٣).

ومن أشهر المؤلفات المطبوعة في "غريب القرآن":

١. "مجاز القرآن"، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وهو أول كتاب مطبوع من كتب غريب القرآن، تكلم فيه عن معاني القرآن، وفسر غريبه، كما تعرض لمباحث النحو والصرف والقراءات وأقوال العرب وأساليبهم^(٤).

٢. "تفسير غريب القرآن"، لابن قتيبة، وسيأتي تفصيل الحديث عنه^(٥).

٣. "نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن"، لأبي بكر محمد بن عَزِيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ)^(٦).

٤. "كتاب الغريبين" غريب القرآن والحديث، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١هـ)^(٧).

(١) الأوائل (٢/١٣٠)، وانظر: فهرست ابن خير (ص ١٣٤) .

(٢) الإتيان (٣/٢) .

(٣) بغية الوعاة (٢/١١٣)، طبقات المفسرين (١/٣٥٥) .

(٤) نشره سامي الخانجي بالقاهرة عام ١٩٥٥م، كما قام بتحقيقه: د. محمد فؤاد سزكين، ونشرته مكتبة الخانجي عام ١٩٦٢م، ثم طبع عدة طبعات .

(٥) انظر: (ص ٧٩) من هذه الرسالة .

(٦) طبع على هامش المصحف بمراجعة: عبدالحليم بسيوني سنة ١٣٣٧هـ، وحققه: د. يوسف مرعشلي، ونشرته دار المعرفة ببيروت سنة ١٤١٠هـ .

(٧) طبع الكتاب وظهر منه المجلد الأول بتحقيق: محمود محمد الطناحي عام ١٣٩٠هـ، ثم طبع عدة طبعات، منها: طبعة في ستة أجزاء بتحقيق: أحمد فريد المزدي، نشرته مكتبة الباز بمكة عام ١٤١٩هـ .

٥. "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد (ت بعد ٤٠٠هـ)، وهو من أوسع كتب غريب القرآن وأحسنها، وقد رتبته على الحروف حسب أصل الكلمة^(١).
٦. "تفسير المشكل من غريب القرآن" لمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)^(٢).
٧. "البيان في غريب القرآن" لأبي البركات ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)^(٣).
٨. "تذكرة الأريب في تفسير الغريب" لابن الجوزي أبي الفرج عبدالرحمن بن علي ابن محمد القرشي (ت ٥٩٧هـ)، وقد رتبته على السور، وقال عنه: "وهذا الكتاب يتميز عن كل كتاب صنف في الغريب، لأن تلك تشتمل على غريب اللفظ فقط، وهذا على غريب اللفظ والمعنى"^(٤).
٩. "تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب" لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)^(٥).
١٠. "عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ" لأحمد بن يوسف بن عبدالدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)^(٦).^(٧)

(١) طبع بالمطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣٢٤هـ، كما طبع بتحقيق: سيد محمد كيلاني، ونشرته دار المعرفة ببيروت عام ١٣٩٧هـ، ثم طبع عدة طبعات، من أجودها: تحقيق صفوان الداودي، ونشرته دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢) طبع بتحقيق: د.علي حسين البواب، ونشرته مكتبة المعارف بالرياض عام ١٤٠٦هـ.

(٣) حققه: طه عبدالحميد، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٦٩م.

(٤) تذكرة الأريب (ص ٥٠)، وقد طبع الكتاب بتحقيق: د.علي حسين البواب، ونشرته مكتبة المعارف بالرياض عام ١٤٠٧هـ، كما طبع بتحقيق طارق فتحي السيد عام ١٤٢٥هـ.

(٥) طبع بتحقيق: سمير طه المجذوب في بيروت عام ١٣٩٣هـ، كما حققه: د.أحمد مطلوب بالاشتراك مع د.خديجة الحديشي، ونشرته وزارة الأوقاف بالعراق عام ١٣٩٧هـ.

(٦) حُقق الكتاب في رسالة ماجستير مقدمة من الباحث طلال مصطفى عرقسوس للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠١هـ، ثم طبع عدة طبعات، منها: طبعة بتحقيق: محمد باسل عيون السود، نشرته دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤١٧هـ.

(٧) للاستزادة - حول الكتب المصنفة في غريب القرآن - انظر: معاجم مفردات القرآن، أ.د.أحمد حسن فرحات، معاجم معاني ألفاظ القرآن الكريم، أ.د.فوزي يوسف الهابط، كتب غريب القرآن، د.حسين نصار، أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، د.مسعود الطيار (ص ٨١-٩٢).

المطلب الأول: تفسير غريب القرآن :

ذكره الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)^(١)، والسمعاني (ت ٥٦٢هـ)^(٢)، وابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)^(٣)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٤)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٥)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٦)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٧).^(٨)

المسألة الأولى: سبب التأليف.

ألف ابن قتيبة كتابه "تفسير غريب القرآن" متمماً به كتابه "تأويل مشكل القرآن"، لأن اللفظ الغريب من غامض المشكل، وإنما أفرد الغريب بكتاب، لئلا يطول كتاب "المشكل" كما بيّنه في مقدمة الكتاب، حيث يقول - بعد أن ذكر شبه الطاعنين - : "وقد ذكرت الحجة عليهم في جميع ما ذكروا، وغيره مما تركوا، وهو يشبه ما أنكروا؛ ليكون الكتاب جامعاً للفن الذي قصدت له.

وأفردت "للغريب" كتاباً؛ كي لا يطول هذا الكتاب، وليكون مقصوراً على معناه، خفيفاً على من قرأه إن شاء الله تعالى"^(٩).

(١) تاريخ بغداد (١١/٤١١).

(٢) الأنساب (٤/٤٥١).

(٣) نزهة الألباء (ص ١٥٩).

(٤) إنباه الرواة (٢/١٤٣).

(٥) وفيات الأعيان (٣/٤٢).

(٦) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣).

(٧) بغية الوعاة (٢/٦٣).

(٨) وقد طبع الكتاب بتحقيق: السيد أحمد صقر، نشرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٧٨هـ، ثم أعادت نشره دار الكتب العلمية سنة ١٣٩٨هـ، وللسيد صقر تعليقات مفيدة على الكتاب، حيث نقل فيه الكثير من الآراء ووازن بينها وبين ما ذكره ابن قتيبة، كما خرج الأبيات الشعرية وشرحها، وربط موضوعات الكتاب بأماكنها من كتب التفسير واللغة والأدب، كما طبع الكتاب بعناية: إبراهيم رمضان، نشرته دار الهلال ببيروت.

(٩) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٢).

وأنبأ في مقدمة "تفسير غريب القرآن" عن غرضه من تأليف الكتاب، ومنهجه فيه، فقال: "وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا: أن نختصر ونُكْمَل، وأن نوضِّح ونُجْمِل؛ وأن لا نستشهد على اللفظ المبتدل، ولا نُكثِر الدلالة على الحرف المستعمل؛ وأن لا نحشُو كتابنا بالنحو وبالحدِيث والأسانيد. فإنَّا لو فعلنا ذلك في نقل الحديث: لاحتجنا إلى أن نأتي بتفسير السلف - رحمة الله عليهم - بعينه؛ ولو أتينا بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التي ألفتها نقلت الحديث؛ ولو تكلفنا بعد اقتصاص اختلافهم، وتبيين معانيهم، وفتح مجملهم بألفاظنا، وموضع الاختيار من ذلك الاختلاف، وإقامة الدلائل عليه، والإخبار عن العلة فيه-: لأسهبنا في القول، وأطلنا الكتاب؛ وقطعنا منه طمع المتحفظ، وبعادنا من بُغية المتأدب؛ وتكلفنا من نقل الحديث، ما قد وقيناه وكُفينا"^(١).

المسألة الثانية: المادة العلمية .

افتتح ابن قتيبة - كعادته في مصنفاته - كتابه بمقدمة تحدث فيها عن محتوى الكتاب، وغرضه من تأليفه، ثم أشار إلى مصادره ومنهجه فيها، فقال: "وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين، وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم، ولا تكلفنا في شيء منه بأرائنا غير معانيهم، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة، وأشبهاها بقصة الآية"^(٢)، ثم ختم المقدمة بأمثلة على التفسير المنكر والمردول^(٣).

ثم بدأ كتابه بباب "اشتقاق أسماء الله وصفاته، وإظهار معانيها"، ذكر فيه أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وفسر منها ستة وعشرين، ولم يراع فيها ترتيباً معيناً، فقد بدأ بالرحمن الرحيم، فالسلام، فالقيوم، فالسبوح، ..^(٤).

ثم عقد باباً في "تأويل حروف كثرت في الكتاب" فسر فيه أربعين لفظاً تكرر ذكرها في سور القرآن الكريم، ولم تكن بعض السور أولى بها من بعض، وهذا الباب - كسابقه - لم يراع فيه ترتيباً معيناً، فبدأ بالجن، فالإنس، فالثقلين، ثم النفخ في الصور، فاللعن، فالشرك ...^(١).

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٣) .

(٢) المصدر السابق (ص ٤) .

(٣) المصدر السابق (ص ٣-٥) .

(٤) المصدر السابق (ص ٦-٢٠) .

ثم بعد ذلك القسم الثالث، وهو مادة الكتاب الرئيسة : تفسير غريب القرآن.

المسألة الثالثة : المادة التفسيرية .

بعد أن فسر ابن قتيبة عدداً من أسماء الله تعالى وصفاته، وشرح جملة من الألفاظ المتكررة في القرآن الكريم، شرع في مقصود الكتاب وهو تفسير غريب القرآن، فابتدأ بتفسير غريب سورة الفاتحة، فالبقرة، فسائر سور القرآن على حسب ترتيبها في المصحف، وهذا اللون - من ألوان ترتيب كتب الغريب - أقرب منالاً من الكتب المؤلفة على حسب حروف المعجم، لأن الباحث عن غريب آية أو سورة يجد مبتغاه مجموعاً أمامه، ولا يتبدد ذهنه في الكشف عن معاني الكلمات في موادها المختلفة.

وكان منهجه في مادته التفسيرية خليطاً مما هو موجود في كتب اللغويين، ومما هو مسطر في كتب المفسرين - وهذه مزية تحسب لابن قتيبة - فتجده حين يفسر الألفاظ لغوياً، ويستشهد عليها كثيراً بالشعر وأقوال العرب، ويهتم باشتقاقها، ويبين وزنها أحياناً، تجده مع ذلك يفسرها قرآناً، فيتحدث عن سبب النزول، ويبين المكي من المدني، ويأتي بنظائرها من القرآن الكريم، ويستشهد عليها بالأحاديث والآثار، ويعتني في ذلك بتفسير السلف عناية فائقة، وهو بهذا المنهج تجنب الكثير من الخطأ الذي وقع فيه اللغويون في تفسيرهم للقرآن الكريم باعتمادهم اللغة دون غيرها من المصادر التفسيرية.

وكانت السمة البارزة في تفسير ابن قتيبة هي الميل إلى الاختصار بقدر الإمكان، وقد نص في مقدمته على هذا الغرض، ومع أنه قصد الاختصار، إلا أن تفسيره خرج متوسطاً معتدلاً، لا يمكن وصفه بالطول، ولا بالقصر، بل توسط فيه بين الأمرين؛ فعدل عن الاختصار الشديد - كما هو حاصل عند مكي (ت ٤٣٧هـ) في كتابه "العمدة في غريب القرآن"، وأبي حيان (ت ٧٤٥هـ) في كتابه "تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب"، وتجاوز الإطالة - كما هو موجود عند السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) في كتابه "عمدة الحفاظ".

نموذج من تفسيره :

قال ابن قتيبة :

(١) المصدر السابق (ص ٢١-٣٧).

"سورة الحمد

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ اختصار كأنه قال: أبدأ باسم الله . أو بدأت باسم الله.

و﴿الْمَلَكِيَّاتِ﴾ أصناف الخلق الرُّوحانيِّين، وهم الإنس والجن والملائكة، كلُّ صِنْفٍ منهم عالم .

و﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم القيامة. سُمِّيَ بذلك لأنه يوم الجزاء والحساب، ومنه يقال: دِنْتُهُ بما صَنَعَ . أي جازيته . ويقال في مَثَلٍ: "كما تَدِينُ تُدان" يراد كما تَصْنَعُ يُصْنَعُ بك، وكما تُجَازِي تُجَازَى.

و﴿الصِّرَاطِ﴾ الطريق . ومثله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾^(١) ومثله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) .

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الأنبياء والمؤمنين .

و﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود .

و﴿الصَّالِينَ﴾ النصارى"^(٣) .

وقال - أيضاً - : "قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكُرُّ عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعُ لَوْنَهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ

﴿٦٩﴾^(٤) .

"﴿لَا فَارِضٌ﴾ أي: لا مُسْتَنَّة، يقال: فرضت البقرة فهي فارض، إذا أسنت....

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

(٢) سورة الشورى : ٥٢ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٣٨) .

(٤) سورة البقرة : الآيتين ٦٨-٦٩ .

﴿ وَلَا يَكْرُ ﴾ أي ولا صغيرة لم تلد، ولكنها ﴿ عَوَانُ ﴾ بين تينك، ومنه يقال في المثل: "العوان: لا تُعَلِّمُ الحِمْرَةَ"، يراد أنها ليست بمنزلة الصغيرة التي لا تحسن أن تحتمر.

﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ أي ناصع صاف.

وقد ذهب قوم إلى أن الصفراء: السوداء، وهذا غلط في نعوت البقر، وإنما يكون ذلك في نعوت الإبل، يقال: بغير أصفر، أي أسود، وذلك أن السود من الإبل يشوب سوادها صفرة....

ومما يدل على أنه أراد الصفرة بعينها قوله: ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ والعرب لا تقول: أسود فاقع - فيما أعلم - إنما تقول: أسود حالك، وأحمر قان، وأصفر فاقع^(١).

وبالإضافة إلى التفسير فقد حفل الكتاب بالكثير من القراءات القرآنية، التي اعتمد عليها في معالجة الناحية التفسيرية لغريب القرآن، وكان عددها يزيد عن المائة قراءة، كان حرصه ظاهراً في توجيهها والاحتجاج لها، مما يعطي دلالة على العناية البالغة التي حظيت بها القراءات في الكتاب.

كما حوى الكتاب جملة من علوم القرآن الكريم، كتسمية السور، ونزول القرآن، وجمعه، والمكي والمدني، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والقسم في القرآن، وغير ذلك.

المسألة الرابعة: القيمة العلمية .

نال كتاب "تفسير غريب القرآن" حظاً وافراً من الشهرة، وكان مرجعاً أصيلاً في الدراسات القرآنية واللغوية، ومصدرراً هاماً لكثير ممن جاء بعده، وقد اشتمل الكتاب على مميزات جمة، ومحاسن كثيرة، مما جعل العلماء يحتفون به ويحرصون على الظفر به والاقتباس منه. وتبرز القيمة العلمية للكتاب من خلال الأمور التالية:

١. الأقدمية والأسبقية - التي تتميز بها كتب ابن قتيبة - فكتاب "تفسير غريب القرآن" يعد أول كتاب يصل إلينا في عنوانه، فلا أعلم كتاباً يحمل اسم "غريب القرآن" سبق ابن قتيبة.
٢. تميز الكتاب بمقدمته التي سبقت تفسير الغريب، والتي توسع فيها ببيان وشرح أسماء الله الحسنى، وتفسير الألفاظ التي تكررت كثيراً في القرآن الكريم.

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٥٢-٥٣).

٣. الشراء العلمي الذي حواه الكتاب ، فقد جمع فيه المؤلف علوماً كثيرة وفوائد متنوعة من تفسير وقراءات وحديث، ولغة وغريب، ونحو وإعراب، واشتقاق، وفقه وأحكام، وغير ذلك.
٤. تميّز ابن قتيبة الواضح بالعناية بتفسير السلف ، وإكثاره من الاعتماد عليه في التفسير وعلوم القرآن، وسبقه للغويين في فعل ذلك، ويعد هذا من أبرز مزايا الكتاب.
٥. برزت قيمة الكتاب ومكانته العالية من خلال أثره في كثير ممن جاء بعده، ممن ألف في التفسير عامة كالثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، والقرطبي (ت ٦٧١هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، وغيرهم كثير، أو في تفسير غريبه خاصة كمكي (ت ٤٣٧هـ)، والراغب (ت بعد ٤٠٠هـ)، وأبي حيان (ت ٧٤٥هـ)، وغيرهم.
- هذا وقد جمع أبو عبدالله محمد بن أحمد بن مطرف الكنايني القرطبي (ت ٤٥٤هـ) بين كتابي "غريب القرآن" و"مشكل القرآن" لابن قتيبة، في كتاب أسماه "القرطين"^(١).

(١) نشرته دار الباز بمكة المكرمة في مجلد ضخم دون تحقيق .

المطلب الثاني: غريب الحديث .

ذكره عامة من ترجم لابن قتيبة كابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(١)، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)^(٢)، وابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)^(٣)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٤)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٥)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٦)، وذكره ابن قتيبة في عدد من كتبه^(٧).^(٨)

المسألة الأولى: سبب التأليف .

هذا الكتاب تكملة للحلقة في جهود الإمام ابن قتيبة في إيضاح الوحيين والذب عن الدين، وكان كالمتمم لكتابه "تأويل مختلف الحديث"، الذي تناول فيه مختلف الحديث ومشكله، وقصر كتابه هذا على غريب الحديث، الذي كان سبباً من أسباب الإشكال في الحديث.

وكان ابن قتيبة قد كشف في مقدمة الكتاب عن سبب تأليفه؛ فقال: - بعد أن ذكر جملة من غريب الحديث ومشكله - : "وقد كان تعرّف هذا وأشباهه عسيراً فيما مضى على من طلبه حاجته إلى أن يسأل عنه أهل اللغة ومن يكمل منهم ليُفسّر غريب الحديث وفتق

(١) الفهرست (ص ٨٥) .

(٢) تاريخ بغداد (١١/٤١١) .

(٣) نزهة الألباء (ص ١٥٩) .

(٤) إنباه الرواة (٢/١٤٣) .

(٥) وفيات الأعيان (٣/٤٢) .

(٦) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣) .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٨٢، ٩٣، ١٣١، ٢٦٥)، تأويل مختلف الحديث (ص ١٢، ١٤٣)، المسائل والأجوبة (ص ٢٣٤، ٣٣٤)، الشعر والشعراء (٢/٦٨٤)، أدب الكاتب (ص ٧٠) .

(٨) حققه: د. عبدالله الجبوري، وقدم عليه دراسة وافية لنيل درجة الدكتوراه من جامعة بغداد عام ١٩٧٦م، وطبعته وزارة الأوقاف العراقية في ثلاثة مجلدات عام ١٩٧٧م، ثم طبع بتحقيق: د. رضا السويسي عام ١٩٧٩م في تونس، وأصله رسالة دكتوراه تقدم بها لجامعة باريس ١٩٧٠م، ثم طبعة ثالثة بعناية نعيم زرزور، نشرته دار الكتب العلمية ببيروت عام ١٤٠٨هـ.

معانيه وإظهار غوامضه قليل ، فأما زماننا هذا فقد كفى حَمَلَة الحديث فيه مَوْثِقَة التفسير والبحث بما أَلْفَه أبو عُبيد القاسم بن سلام^(١) ثم بما أَلْفناه في هذا بحمد الله .

وقد كنت زماناً أرى أنّ كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأنّ الناظر فيه مُسْتَعْنٍ به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما تركه نحواً مما ذكر أو أكثر منه ، فتبعت ما أغفل وفسرته على نحو مما فسّر بالإسناد لما عرفت إسناده ، والقطع لما لم أعرفه وأشبع ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر ، وكرهت أن يكون الكتاب مقصوراً على الغريب ، فأودعته من قصار أخبار العرب وأمثالها ، وأحاديث السلف وألفاظهم ما يُشاكل الحديث أو يوافق لفظه لفظه ، لتكثر فائدة الكتاب ويمتّع قارئه ويكون عوناً على معرفته وتحفظه ، ولم أعرض لشيء مما ذكره أبو عُبيد إلا أحاديث وقع فيها ذلك فنبهت عليه ودللت على الصواب فيه ، وأفردت لها كتاباً يدعى كتاب "إصلاح العَلَط" ، وإلا حروفاً تعرض في باب ولا يعمل ذلك الباب إلا بذكرها ، فذكرتها بزيادة في التفسير والفائدة^(٢).

المسألة الثانية: المادة العلمية .

افتتح ابن قتيبة كتابه بمقدمة تحدث فيها عن أهمية معرفة غريب الحديث، وأثره في فهم الحديث وفقهه، ثم أشار إلى أهمية التأليف في هذا الباب، وتحدث عن كتاب أبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، فبين مكانته ، ثم كشف عن سبب تأليفه للكتاب، ومنهجه فيه، ومادته العلمية^(٣).

ثم ابتداء بتفسير الألفاظ الدائرة بين الناس في الفقه وأبوابه، فبدأ بالوضوء، فالحديث عن الصلاة وأوقاتها وما يعرض من الألفاظ في أبوابها، فالزكاة والصدقات، ثم البيوع، فالنكاح والطلاق، ثم ختمه بألفاظ تعرض في أبواب مختلفة من الفقه^(٤).

ثم أتبعه بالحديث عن أسماء القرآن الكريم وسوره وأحزابه، وسائر كتب الله عز وجل^(٥).

(١) وهو كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد .

(٢) غريب الحديث (١/٥، ٦) .

(٣) المصدر السابق (١/٣-٧) .

(٤) المصدر السابق (١/٨-٥٣) .

(٥) المصدر السابق (١/٥٤-٥٦) .

ثم تلاه بتفسير ما جاء في القرآن والحديث من ذكر الكافرين والظالمين والفاستقين والمنافقين والفاجرين والملحددين، وبيّن الأصل الاشتقاقي لكلٍ منها^(١)، ثم ختم بالحديث عن أهل الأهواء والرافضة والخوارج والمرجئة والقدرية، مبيناً سبب تسمية كل فرقة منها^(٢).

ثم شرع بمقصود الكتاب ، فبدأ بتفسير غريب أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وضمنه الأحاديث التي يُدعى تناقضها^(٣).

ثم تلاه بأحاديث الصحابة رضوان الله عليهم، فبدأ بالخلفاء الأربعة، ثم بقية العشرة، ثم ذكر عدداً من الصحابة دون ترتيب معين، وختم هذا القسم بالنساء ، فذكر أحاديث عدد من الصحابيات رضي الله عنهن^(٤).

ثم بدأ بأحاديث التابعين ومن بعدهم^(٥)، ثم ختم الكتاب بذكر أحاديث غير منسوبة سمع أهل اللغة يذكرونها، ولا يعرف أصحابها ولا طرقها، حسنة الألفاظ، لطيفة المعاني، تزيد في عددها عن الأحاديث التي ختم بها أبو عبيد كتابه أضعافاً^(٦).

ولم يراع ابن قتيبة منهجاً معيناً في ترتيب الأحاديث في أبوابها، فهي غير مرتبة على الحروف، ولا على الموضوعات، وإنما تذكر تبعاً دون ترتيب معين، فيذكر نص الحديث كاملاً أو مختصراً، ثم يذكر بعده السند غالباً، ثم يشرح غريب الحديث.

كما لم يقتصر ابن قتيبة على الألفاظ الغريبة الواردة في الأحاديث والآثار، وإنما عرض لأمر أخرى لا يصدق عليها وصف الغرابة، يقول ابن قتيبة: "وكرهت أن يكون الكتاب مقصوراً على الغريب، فأودعته من قصار أخبار العرب وأمثالها، لتكثر فائدة الكتاب ويمتد قارئه ويكون عوناً على معرفته وتحفظه"^(٧).

(١) المصدر السابق (١/٥٧-٥٩).

(٢) المصدر السابق (١/٦٠-٦١).

(٣) المصدر السابق (١/٦٢-٢٤٣).

(٤) المصدر السابق (١، ٢/١٨٨-٢٤٥).

(٥) المصدر السابق (٢/١٩١-٣٥٠).

(٦) المصدر السابق (٢/٣٥١-٣٧١).

(٧) المصدر السابق (١/٥).

المسألة الثالثة : المادة التفسيرية .

تعد كتب غريب الحديث - بشكل عام - من مصادر التفسير غير المباشرة، لاحتوائها على التفسير اللغوي، ويعدّ كتاب "غريب الحديث" لابن قتيبة من أكثر تلك الكتب احتواءً على التفسير، فقد كان نفس ابن قتيبة المفسّر حاضراً بكثافة في الكتاب، حيث فسر الكثير من آيات الأحكام في مقدمة الكتاب، كما كان يكثر من الاستشهاد على معنى الغريب بالآيات القرآنية، ويفسرها بما يجلي المعنى الذي يذهب إليه في شرح الغريب، وربما اقتصر على ذكر الآية القرآنية دون تفسيرها لاشتراكها في المعنى اللغوي لما يفسره من الغريب.

نموذج من تفسيره :

قال ابن قتيبة - رحمه الله - :

"وقد أشكل على كثير من الفقهاء معنى قول الله جلّ وعزّ : ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾^(١) حتى ظنّ بعضهم أنّ المرأة لا تحرم على من ظاهرها حتى يعيد اللفظ بالظهار ثانية فيقول أنت عليّ كظهر أمي أنت عليّ كظهر أمي وهذا خلاف ما أجمع عليه الفقهاء . وكان الشافعي (ت ٢٠٤هـ) يذهب إلى أن العود لما قالوا أنه العود إلى إمساك المرأة والرغبة فيها وقالوا إذا ظاهر من امرأته ولم يطلقها فكأنه لزمه الظهار لأنّ إمساكه عن الطلاق ساعة ظاهر هو معاودته لما حرّم منها فيمسكه ، وأحسب أنّ أبا عبيد (ت ٢٢٤هـ) يتبعه على هذا القول ولا أرى هذا التأويل على طريق اللغة صحيحاً لأنه لو أراد بالعود الرجوع إلى إمساك المرأة والرغبة فيها لقال : (والذين يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ) أي يَعُودُونَ إلى التمسك بالنساء والرغبة فيهن ولم يقل : ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ لأنّ الذي كانوا عليه لم يكن قولاً إنّما كان نكاحاً وتعاشراً وائتلافاً .

والذي عندي فيه على طريق التدبّر والاستدلال والله أعلم أنّ أهل الجاهلية كانوا يُطلّقون النساء بالظهار فجعل الله جلّ وعزّ حكم الظهار في الإسلام خلاف حكمه عندهم في الجاهلية بالكفارة التي تُحلُّهُنَّ لهم وأنزل : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ يريد في الجاهلية

(١) سورة المجادلة : ٣ .

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾^(١) يعني ما كانوا يقولونه من هذا الظهار في الإسلام
﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ﴾^(٢) وأضمر فكفارته ومثل هذا من المحذوف في القرآن
كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا أَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾^(٣) أي فكفارة ذلك ﴿ فَمَا
أَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ وقوله بعد ذلك : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن
صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾^(٤) أراد فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه فحلق فعليه
فدية من صيام ، وشبيه بهذه الآية مما يُشكل على كثير من أهل النظر قول الله تعالى : ﴿
وَالَّتِي يَلِيسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ﴾^(٥) وذلك أنهم رأوا
اليأس يقيناً والارتباب شكاً ولم يأت في القرآن الأمر الذي وقع فيه الارتباب فيقول إن أرتبتم
في كذا وكذا من أمورهن فقالوا فيه أقاويل لا تخفى على من تدبرها إذا فهم ما قلناه .
والمعنى إن الله جلَّ وعزَّ لما ذكر عدَّة اللواتي يحضن من النساء فقال : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ
يَرَبِّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾^(٦) ارتاب الناس في اللائي لا يحضن من القواعد والصغار
فلم يدروا كيف يعتدن فأنزل الله جلَّ وعزَّ : ﴿ وَالَّتِي يَلِيسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ
أَرَبْتُمْ ﴾^(٧) فلم تعلموا كيف يعتدن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ﴾^(٨) وكذلك عدد اللائي
لم يحضن^(٩) .

(١) سورة المجادلة : ٣ .

(٢) سورة المجادلة : ٣ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٦ .

(٤) سورة البقرة : ١٩٦ .

(٥) سورة الطلاق : ٤ .

(٦) سورة البقرة : ٢٢٨ .

(٧) سورة الطلاق : ٤ .

(٨) سورة الطلاق : ٤ .

(٩) غريب الحديث (١/٣٦-٣٨) .

وقال : "أصل الصلاة: الدعاء، قال الله عز وجل: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾^(١)، أي ادع لهم.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾^(٢)، أي: دعاؤه، فسميت الصلاة بذلك لأنهم كانوا يدعون فيها، ويدلُّك على ذلك: الصلاة على الميت، إنما هي دعاء له، ليس فيها ركوع ولا سجود"^(٣).

المسألة الرابعة: القيمة العلمية .

نال كتاب "غريب الحديث" حظاً وافراً من الشهرة والذيع، وحظي بالقبول والإعجاب، والعناية به عند العلماء من أهل اللغة والتفسير والحديث والأدب، فروته طائفة منهم، وحدثت به طائفة أخرى، وجعلوه من أصول كتب الغريب، واعتمد عليه كثير ممن صنف في غريب الحديث.

قال الخطابي (ت ٣٨٨هـ): "ثم انتهج نهجه - أي نهج أبي عبيد - ابن قتيبة، ففتح ما أغفله أبو عبيد من ذلك، وألف فيه كتاباً لم يأل أن يبلغ به شأو المبرز السابق".
ثم قال - بعد أن ذكر جماعة من مصنفي الغريب وأثنى عليهم - : "إلا أن هذه الكتب على كثرة عددها إذا حُصِّلت كان مآلها كالكتاب الواحد، ... ثم إنه ليس لواحد من هذه الكتب التي ذكرناها أن يكون شيء منها على منهاج كتاب أبي عبيد في بيان اللفظ وصحة المعنى، وجودة الاستنباط، وكثرة الفقه، ولا أن يكون من شرح كتاب ابن قتيبة في إشباع التفسير، وإيراد الحجة، وذكر النظائر، والتخلص للمعاني"^(٤).

ويقول ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) معقّباً : "لقد أحسن الخطابي رحمة الله عليه وأنصف، عرف الحق فقاله، وتحرى الصدق فنطق به، فكانت هذه الكتب الثلاثة - لأبي عبيد وابن قتيبة

(١) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة : ٩٩ .

(٣) غريب الحديث (١٥/١) .

(٤) غريب الحديث للخطابي (١/٤٨-٥٠) .

والخطابي - في غريب الحديث والأثر أمهات الكتب، وهي الدائرة في أيدي الناس، والتي يعول عليها علماء الأمصار"^(١).

وتبرز القيمة العلمية للكتاب من خلال الأمور التالية:

١ . أقدمية الكتاب ؛ إذ كان من أوائل المصنفات في هذا الفن، ومكانة مؤلفه العلمية؛ فهو إمام لغوي مفسر، أثنى عليه العلماء ، وشهدوا له بالعلم والتقدم في المعرفة بالغريب واللغة والنحو والتفسير.

٢ . يعد كتاب "غريب الحديث" من أمهات كتب الغريب المتقدمة التي جمعت بين شرح الغريب، وسياق النصوص المسندة ، وقد أشار إلى ذلك الخطابي^(٢)، وابن الأثير^(٣)، والسخاوي (ت ٩٠٢هـ)^(٤)، والكتاني (ت ١٣٤٥هـ)^(٥).

٣ . كان هذا الكتاب تمييزاً لما شيده أبو عبيد - كما سبق في سبب التأليف - وبهذا يزداد أهمية ومنزلة؛ فإن فيه إضافة علمية، وليس عملاً مكرراً.

قال ابن الأثير عن الكتاب : "حذا فيه حذو أبي عبيد، ولم يودعه شيئاً من الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد إلا ما دعت إليه حاجة من زيادة شرح وبيان أو استدراك أو اعتراض ، فجاء كتابه مثل كتاب أبي عبيد أو أكبر منه"^(٦).

٤ . جمع ابن قتيبة في هذا الكتاب مادة لغوية واسعة، معظمها بالأسانيد عن عدد من أئمة اللغة كأبي عمرو بن العلاء (ت ١٤٥هـ)، والأصمعي (ت ٢١٤هـ)، وأبي زيد (ت ٢١٥هـ)، وابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ)، وابن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، وأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، وغيرهم.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٨/١) .

(٢) غريب الحديث (٥٠/١) .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٨/١) .

(٤) فتح المغيث في شرح ألفية الحديث (٦٥/٤) .

(٥) الرسالة المستطرفة (ص ١١٦) .

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر (٦/١) .

٥ . الموسوعية والشمولية - التي تتميز بها أغلب كتب ابن قتيبة - فقد حوى الكتاب معارف ثمينة وفوائد متنوعة في التفسير والحديث واللغة والغريب والنحو والإعراب والاشتقاق والفقه والأحكام.

٦ . تتجلى قيمة الكتاب العالية من خلال أثره الظاهر في كتب الغريب بعده، حيث كان من أهم الأصول والموارد لأغلب من صنف في غريب الحديث بعده، فقد اعتمد عليه وجعله من موارده القاسم بن ثابت السرقسطي (ت ٣٠٢هـ)، في كتابه "الدلائل في غريب الحديث"، والخطابي (ت ٣٨٨هـ)، في "غريب الحديث"، وأبو عبيد أحمد بن محمد المهروي (ت ٤٠١هـ) في "الغريبين في القرآن والحديث"، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في "الفائق في غريب الحديث"، وبيان الحق النيسابوري (ت بعد ٥٥٣هـ)، في "جمل الغرائب"، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، في "كشف المشكل من حديث الصحيحين"، وابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) في "النهاية في غريب الحديث والأثر"، وغيرهم.

كما لم يقتصر أثر الكتاب على كتب غريب الحديث، بل تعداه إلى كتب اللغة والأدب والحديث والتاريخ^(١).

(١) وقد تتبعها محقق الكتاب الدكتور عبدالله الجبوري فعددها، فزادت على الثلاثين كتاباً، وأشار إلى مواضع النقل منه فيها [انظر: مقدمة تحقيقه لـ "غريب الحديث" (١/٤٩-٧٥)، منهج الإمام ابن قتيبة في كتابه "غريب الحديث"، عبدالله بن حمود المخلفي (ص ٩)].

المطلب الثالث : إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث .

ذكره كثير ممن ترجم لابن قتيبة كابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(١)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٢)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٣)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٤)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٥)، وأشار إليه ابن قتيبة في مقدمة كتابه "غريب الحديث"^(٦).^(٧)

المسألة الأولى : سبب التأليف.

أبأ عنوان الكتاب عن الغرض من تأليفه، وهو الاستدراك على أبي عبيد فيما وقع فيه من خطأ وزلل في كتابه "غريب الحديث"، وقد بين ابن قتيبة هذا الغرض في مقدمة كتابه "غريب الحديث" الذي أراد به تميم عمل أبي عبيد، وذكر أنه جرّده من التعقيب والاستدراك على أبي عبيد، إذ أفرد له هذا الكتاب ليحمله خاصاً في التعقيب على أبي عبيد والتنبه على ما وقع فيه من خطأ، وبيان الصواب في ذلك^(٨).

يقول ابن قتيبة في مقدمة هذا الكتاب - مبيناً الغرض ومتمسماً بالعدر لأبي عبيد - :
 "لعل ناظراً كتابي هذا ينفر من عنوانه، ويستوحش من ترجمته، ويربأ بأبي عبيد رحمه الله عن الهفوة ويأبى به الزلّة وينحلها قصب العلماء وهتك أستارهم، ولا يعلم تقلدنا ما تقلدناه من

(١) الفهرست (ص ٨٥) .

(٢) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

(٣) وفيات الأعيان (٤٢/٣) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٩٧/١٣) .

(٥) بغية الوعاة (٦٣/٢) .

(٦) (٦/١) .

(٧) نشر محمد عظيم الدين محقق كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد مقتبسات منه، نشرها على المواد التي وقع فيها النقد من كتاب أبي عبيد، وقد نشرته دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد في الهند سنة ١٣٨٤هـ، ونشره كاملاً لأول مرة المستشرق الفرنسي "جيرار لكونت" الأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية/ باريس، في مجلة "كلية القديس يوسف، بيروت" سنة ١٩٦٨م، ثم طبع بتحقيق الدكتور عبدالله الجبوري، نشرته دار الغرب الإسلامي، بيروت، عام ١٤٠٣هـ .

(٨) غريب الحديث (٦-٥/١) .

إكمال ما ابتدأ من تفسير غريب الحديث، وتشبيد ما أسس، وأن ذلك هو الذي ألزمتنا إصلاح الفساد وسد الخلل، على أننا لم نقل في ذلك الغلط أنه اشتمال على ضلالة وزيف عن سنة، وإنما هو في رأي مضي به على معنى مستتر، أو حرف غريب مشكل، وقد يتعثر في الرأي جلة أهل النظر والعلماء المبرّزون، والخائفون لله الخاشعون .

... ونذكر الأحاديث التي خالفنا الشيخ أبا عبيد رحمه الله في تفسيرها، على قلتها في جنب صوابه، وشكرنا ما نفعنا الله من علمه معتدين في ذلك بأمرين :
أحدهما : ما أوجهه الله تعالى على من علم في علمه .

والآخر: أن لا يقف ناظرٌ في كتبنا على حرف خالفناه فيه، فيقضي علينا بالغلط، ونحن من ذلك إن شاء الله سالمون، وما أولاك رحمك الله بتدبر ما نقول، فإن كان حقاً وكنت الله مريداً أن تتلقاه بقلب سليم، وإن كان باطلاً أو كان فيه شيء ذهب عنا، أن تردنا عنه بالاحتجاج والبرهان فإن ذلك أبلغ في النصرة وأوجب للعدر وأشفى للقلوب"^(١).

المسألة الثانية : المادة العلمية .

قدّم ابن قتيبة لكتابه بمقدمة أبان فيها عن الغرض من التأليف، والتمس فيها العذر لأبي عبيد فيما وقع فيه من خطأ، وتحدث فيها عن الاختلاف في الرأي، وأنه موجود عند الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ، وضرب أمثلة على ذلك، كما تحدث عن الاختلاف بين أئمة اللغة، وذكر شيئاً من اختلافهم، ثم أوضح أن الخطأ والزلل من طبع البشر، وأن العلم مشترك مقسوم بين عباد الله، لم يخصه الله قوماً دون قوم، ولا زماناً دون آخر، كما بيّن فيها أن التنبيه على زلة العالم والتعقيب عليه ليس من الغيبة له ولا الطعن عليه، وأن القائم بذلك مأجور عند الله عزّ وجل إذا تجرد عن الهوى والعصية في تعقيبه واستدراكه، ثم ختم مقدمة الكتاب ببيان واسطته فيما يرويه عن أبي عبيد في هذا الكتاب.

ثم شرع ببيان الأحاديث والآثار التي وقع فيها زلل من أبي عبيد ، رتبها على ما هو موجود في كتاب أبي عبيد ، فبدأ بما وقع في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تلاه

(١) إصلاح غلط أبي عبيد (ص ٤٢-٤٧) .

بأحاديث الصحابة ، بدأ بعمر (ت ٢٣هـ)، فعثمان (ت ٣٥هـ)، فعلي (ت ٤٠هـ)، رضي الله عنهم، فبقية الصحابة، ثم أعقبه بأحاديث التابعين ومن بعدهم. وقد بلغت مأخذ ابن قتيبة على أبي عبيد في الكتاب ثلاثة وخمسين مأخذاً، وطريقته فيه يبدأ بذكر الحديث ثم ينقل كلام أبي عبيد مبيناً ما وقع فيه من خطأ، ثم يوضح الصواب في ذلك مستشهداً على ما يقول بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والآثار، والشعر، وبأقوال اللغويين والرواة العرب.

المسألة الثالثة: المادة التفسيرية .

بالرغم من صغر حجم الكتاب إلا أنه حوى مادة تفسيرية مفيدة ، ففيه الكثير من الآيات المفسرة ، وقد جاءت في الكتاب لغرض واحد وهو الاستشهاد لما يذهب إليه من تخطئة أبي عبيد، أو الاحتجاج لما يبينه من صواب في تلك الأحاديث. وإلى جانب التفسير كان في الكتاب حديث عن بعض مباحث علوم القرآن، كفضائل القرآن، والنسخ، والعام والخاص، وغير ذلك.

نموذج من التفسير :

قال ابن قتيبة - رحمه الله - :

"في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال: "كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرّانه"^(١) .

... والحديث صحيح لا يُدفع، ولا يجوز أن يكون منسوخاً، لأنه خبر، والنسخ إنما يقع في الأمر والنهي، ولا يجوز أن يراد به بعض المولودين دون بعض، لأن مخرجه مخرج العموم، ولا أرى معنى الحديث إلا ما ذهب إليه حماد بن سلمة (ت ١٦٧ هـ) ، فإنه قال فيه: "عندنا حيث أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم"^(٢) .

يريد حين مسح الله ظهر آدم عليه السلام ، فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة، أمثال الذرّ

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ح (١٣٨٥) (ص١٠٨)، ومسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين ح (٦٧٥٥-٦٧٦١) (ص١١٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٩٣/١٨) .

﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ ﴾^(١)، فليست واجداً أحداً إلا وهو مقر بأن له صناعاً ومدبراً، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد شيئاً دونه ليقربه منه عند نفسه أو وصفه بغير صفته أو أضاف إليه ما تعالى عنه علواً كبيراً.

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ۗ ﴾^(٢).

فأراد عليه السلام: أن كل مولود في العالم على ذلك العهد، وعلى ذلك الإقرار الأول، وهو الفطرة، ومعنى الفطرة: ابتداء الخلقة ومنه قول الله عز وجل: ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ ﴾^(٣).

أي مبتدئهما، وهي الحنيفية التي وقعت لأول الخلق وجرت في فطر العقول^(٤).

المسألة الرابعة: القيمة العلمية .

تبرز القيمة العلمية للكتاب من خلال الأمور التالية:

- ١ . يعد الكتاب من بواكير كتب النقد العلمي، إذ لم يسبق ابن قتيبة في هذا الباب.
- ٢ . برزت قيمة الكتاب ومكانته الرفيعة من خلال أثره فيمن جاء بعده، فقد تناوله بالشرح أبو المظفر محمد بن آدم الهروي (ت ٤١٤هـ) في كتاب "الإصلاح"، وأفاد منه أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ) في كتابه "تهذيب اللغة"، وأبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١هـ) في كتابه "الغريبين"، والزحشري (ت ٥٣٨هـ) في "الفائق في غريب الحديث"، وأبو منصور الجواليقي (ت ٥٣٩هـ) في "المعرب من الكلام الأعجمي".
- كما تناوله بالنقد ثلاثة من علماء الحديث واللغة والأدب، هم: أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي (ت ٢٩٤هـ)، ويوسف بن عبدالله القفصي التميمي (ت ٣٣٦هـ)، وابن عبدون عبدالمجيد الفهري الأندلسي (ت ٥٢٧هـ)، ولم يصل إلينا شيء من نقودهم^(٥).

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة فاطر : ١ .

(٤) إصلاح غلط أبي عبيد (ص ٥٥-٥٨) .

(٥) انظر : المصدر السابق (ص ١٦) .

وهذا الكتاب هو الذي أثار حفيظة ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) على ابن قتيبة، فقد تصديا للرد عليه رداً فيه شيء من العنف والقسوة، فتبع الأول بعض هناته ورد عليها في كتابه "غريب الحديث" و"الأضداد"، ومثله صنع ابن فارس في كتابه "الصاحي".

٣ . حوى الكتاب جملة من الأحاديث والآثار الغريبة التي لم ترد في كتابه "غريب الحديث" فكان هذا الكتاب كامتصم له أو الذيل عليه، وقد جاء في سماعات الكتاب ما ينبئ عن الارتباط الوثيق بين الكتابين، حيث يقول أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن السكري (ت ٣٢٣هـ) - تلميذ ابن قتيبة - : "حدثنا أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزي بهذا الكتاب، في سنة ثمان وستين ومائتين، من أوله إلى آخره، بعد أن قرأ علينا كتاب غريب الحديث"^(١).

٤ . حفل الكتاب بمادة علمية غزيرة متنوعة، شملت التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه والأحكام، ونثر فيه ابن قتيبة مادة لغوية كثيفة، تمثلت بالشواهد الشعرية والنثرية، وبنقولته عن أئمة اللغة ورواة العرب.

وقد صاغ هذه المادة المجموعة في الكتاب بأسلوب شيق جذاب، جمع فيه بين الأسلوب العلمي الرصين، والأسلوب الأدبي الفصيح، وحلّاه بحسن ترتيبه وتبويبه.

(١) إصلاح غلط أبي عبيد (ص ٤٢) .

المطلب الرابع : المسائل والأجوبة .

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(١)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٢)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٣)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٤)، والصفدي (ت ٧٦٤هـ)^(٥)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٦)، والداودي (ت ٩٤٥هـ)^(٧) .^(٨)

المسألة الأولى : سبب التأليف .

جرت عادة ابن قتيبة في جميع مصنفاته على أن يقدم بمقدمة يبين فيها السبب الباعث على تأليفه والغرض منه، كما يوضح فيها محتوى الكتاب ومنهجه فيه، إلا أن هذا الكتاب - المسائل والأجوبة - خلا من المقدمة على غير عادته، وأحسب أن خلوه من المقدمة عائد لاختلافه عن بقية مصنفات ابن قتيبة ، وذلك من وجهين :

أحدهما : طريقة الكتاب وأسلوبه ، حيث كان عبارة عن تساؤلات ترد على المؤلف فيجيب عنها.

الوجه الثاني: تنوع المادة العلمية ، وعدم اختصاصها بفن معين، ولذلك جاء الاختلاف في عنوان الكتاب ، فسماه بعضهم "المسائل والأجوبة في الحديث واللغة"^(٩)، وسماه آخرون

(١) الفهرست (ص ٨٥) .

(٢) إنباه الرواة (١٤٦/٢) .

(٣) وفيات الأعيان (٤٣/٣) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٩٧/١٣) .

(٥) الوافي بالوفيات (٣٢٧/١٧) .

(٦) بغية الوعاة (٦٤/٢) .

(٧) طبقات المفسرين (٢٤٦/١) .

(٨) طبع قسم من الكتاب - ١٩ مسألة من أصل ١٩٠ مسألة - في مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٤٩هـ، بعنوان

"المسائل والأجوبة في الحديث واللغة"، ثم طبع الكتاب كاملاً بتحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة، نشرته دار ابن

كثير ببيروت عام ١٤١٠هـ، بعنوان "المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير".

(٩) وهو العنوان الذي حملته الكتاب حين طبع أولاً في مطبعة السعادة ، عام ١٣٤٩هـ .

"المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير"^(١)، ويبدو أن هذا من تصرف النساخ وإضافاتهم، إذ إن الكتاب ذكره المترجمون لابن قتيبة باسم "المسائل والأجوبة"، مجرداً من تحديد الفن الذي طرقته تلك الأسئلة.

ومع أنه لم ينص على الباعث على تأليفه في الكتاب، إلا أن الناظر فيه يدرك مقصوده وغرضه من الكتاب؛ وهو التتميم والإيضاح لما ذكره في مصنفاته المتنوعة، إذ غالب الأسئلة إما أن تتعلق بما تناوله في مصنفاته المتعددة، فيأتي الجواب بمزيد من الإيضاح - كتفصيله لاختياره في المتشابه في تأويل مشكل القرآن^(٢) -، وإما أن يكون فيها تميم للمادة العلمية لأحد مصنفاته، ولذلك أسماه ابن خبير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ) "كتاب المسائل في معاني غريب القرآن والحديث مما لم يقع في كتاب الغريب"^(٣)، وكذلك عدّه الدكتور عبدالله الجبوري تنمة لكتاب "غريب الحديث"^(٤)، وذلك لاحتوائه على أكثر من مائة مسألة تتعلق بغريب الحديث والأثر، وسار فيها على المنهج ذاته الذي انتهجه في "غريب الحديث".

المسألة الثانية : المادة العلمية .

ضم كتاب "المسائل والأجوبة" بين دفتيه مائة وتسعين مسألة، كانت طريقتة في عرضها، أن يصدرها بجملة "سألت عن ..."، وهو الغالب، وبعضها بـ "سألني سائل .."، ثم يذكر السؤال ويجيب عنه، وكانت هذه المسائل تختلف من حيث الطول والقصر، فمنها مسائل طويلة

(١) وهو عنوان المطبوع بتحقيق مروان العطية ومحسن خرابة، وقالوا: "وآثرنا هذه التسمية، لأنها تجمع بين التسميات كافة التي وردت في المخطوط والمطبوع والكتب، ولشهرة الكتاب بهذه التسمية" (ص ٧).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٩٨)، وانظر تفصيل الحديث عنها في المسألة رقم (٧٢) من كتاب المسائل (ص ٢٠٨ -

٢١٦)، وفي المسألة (٨٢) (ص ٢٣٤)، قال: "سألت عن التمني في قول الله جل وعز ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْفَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾، وقلت: إنك وجدته في كتابي المؤلف في غريب القرآن،

وكتابي في غريب الحديث أن الأمنية: التلاوة، وأنه قد أنكر ذلك قوم، وسألوني أن آتي عليه بدليل وشاهد؟ ...".

(٣) فهرسة ابن خبير (ص ١٦٤).

(٤) مقدمة تحقيقه لـ "غريب الحديث" (٧٩/١).

جداً استغرقت عدة صفحات^(١)، ومنها مسائل قصيرة جداً، كان جوابها في سطرين أو ثلاثة^(٢).

وقد غلب على هذه المسائل طابع الغريب في الحديث والأثر والتفسير، واحتوت غير ذلك، وكان تفصيل هذه المسائل كالتالي:

(٣٣) ثلاث وثلاثون مسألة في الجمع بين ما ظاهره التعارض بين الآيات^(٣).

(٤) أربع مسائل في القراءات القرآنية^(٤).

(٤٦) ست وأربعون مسألة في غريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥).

(٢٠) عشرون مسألة في تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير الغريب^(٦).

(٥٢) اثنتان وخمسون مسألة في غريب أثر الصحابة والتابعين وتابعيهم^(٧).

(٣) ثلاث مسائل في تفسير الأثر من غير الغريب^(٨).

(٥) خمس مسائل مشتركة بين غريب الحديث والأثر^(٩).

(١٥) خمس عشرة مسألة في اللغة^(١٠).

(٥) خمس مسائل في الفقه^(١١).

(٢) مسألتان في النحو^(١٢).

(١) انظر: المسائل رقم : ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٦٧، ٧٢ .

(٢) انظر المسائل رقم : ٦١، ٦٢، ١١١، ١١٢، ١٢٠ .

(٣) انظر المسائل رقم : ٣، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٤٧، ٥٠، ٥٢، ٦٢ .

(٤) انظر المسائل رقم : ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٧ .

(٥) انظر المسائل رقم : ١، ١٨، ١٩، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٥، ٤٢ .

(٦) انظر المسائل رقم : ١٣، ١٥، ١، ٤٠، ٤١، ٤٦، ٥٧، ٦٥، ٦٦ .

(٧) انظر المسائل رقم : ٢٣، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٥١، ٥٤، ٥٦، ٦٠، ٦٨ .

(٨) انظر المسائل رقم : ١٩، ٥٨، ١٣٠ .

(٩) انظر المسائل رقم : ١١٠، ١١٢، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٥ .

(١٠) انظر المسائل رقم : ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ١٠، ١١، ١٢ .

(١١) انظر المسائل رقم : ٨، ٢٥، ٣٠، ٤٨، ٥٩ .

(١٢) انظر المسائل رقم : ٧٣، ٧٤ .

(١) مسألة واحدة في التاريخ^(١).

(١) مسألة واحدة في مصطلح الحديث^(٢).

(١) مسألة واحدة في تفسير مثل^(٣).

(١) مسألة واحدة في تفسير قول^(٤).^(٥)

وقد حفل الكتاب بكثير من الأحاديث الغريبة، حتى عُدَّ الكتاب - كما سبق - ذليلاً لغريب الحديث.

وكان ابن قتيبة يتناول الحديث الغريب، فيشرحه، ويفسر معانيه، ويزيل غوامضه بإحاطته إلى اللغة، وبيان أصله اللغوي، وذكر اشتقاقه، والاستشهاد عليه بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وبأقوال الصحابة والتابعين، وبالشواهد الشعرية والنثرية من لغة العرب، وكان يستخدم المنهج ذاته في تفسير الآثار التي يذكرها في الكتاب.

ولم يقتصر في غريب الحديث والآثر على مجرد تفسيره، بل ينطلق منه إلى فقه الحديث وما يستفاد منه.

كما ساق ابن قتيبة في الكتاب بعض الأحاديث والآثار التي ظاهرها التناقض والاختلاف، ففسرها، وأزال تناقضها، وبيّن توافقها وعدم اختلافها مستشهداً على ما يقول بالكتاب والسنة، وبأقوال السلف ولغة العرب.

وفي الكتاب بعض المسائل المتعلقة بمصطلح الحديث، كحديثه عن الفرق بين "حدثنا"، و"أخبرنا"، وحديثه عن الحديث الصحيح والضعيف.

كما اعتنى ابن قتيبة بالفقه؛ فتناول في كتابه عدداً من القضايا الفقهية، كالوضوء، والقبلة، والرضاعة، والرشوة، وبسط القول فيها ذكراً للأدلة والشواهد، ونقل أقوال الفقهاء كالشافعي (ت ٢٠٤هـ)، ومالك (ت ١٧٩هـ)، والثوري (ت ١٦١هـ) في تلك المسائل.

(١) انظر المسألة رقم : ٩ .

(٢) انظر المسألة رقم : ١٧١ .

(٣) انظر المسألة رقم : ١٧٦ .

(٤) انظر المسألة رقم : ١٨١ .

(٥) أفدت هذا التفصيل من محققي الكتاب مروان العطية، ومحسن خرابة، انظر: مقدمة تحقيق الكتاب (ص ١٨-٢٠).

كما نثر ابن قتيبة في الكتاب مادة لغوية غزيرة ، بدا من خلالها من كبار اللغويين، فكان كلما تناول كلمة تحدث عن أصلها اللغوي، واشتقاقها، ومعناها، والمعاني التي تحملها، كما تطرق للفروق اللغوية، وللأضداد في اللغة، ونقل في الكتاب الكثير من شعر العرب وأقوال اللغويين، كالأصمعي (ت ٢١٤هـ)، وأبي زيد (ت ٢١٥هـ)، وابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ)، وابن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، وأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، وغيرهم.

كما ناقش ابن قتيبة في الكتاب بعض القضايا النحوية، فتحدث عن الحكاية بعد القول، وعمل "نقول" عمل "تظن" إذا سبقت باستفهام، كما تطرق إلى الاستثناء وأفعال التفضيل، والممنوع من الصرف.

المسألة الثالثة : المادة التفسيرية .

يعد كتاب "المسائل والأجوبة" من أكثر كتب ابن قتيبة - باستثناء "تأويل مشكل القرآن" ، و"غريب القرآن" - احتواءً على التفسير ؛ فقد فسّر ابن قتيبة في هذا الكتاب ما يربو على مائتي آية ، وكانت هذه الآيات المفسرة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الآيات التي فسّر غريبها وبيّن معانيها.

سئل ابن قتيبة في عدد من المسائل عن غريب القرآن، ففسره ، وبيّن معناه، وأوضح مراميه، حتى أصبحت الآيات واضحة المعنى ظاهرة المقصد.

نموذج لهذا القسم من التفسير :

قال ابن قتيبة :

"سألت عن قول الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(١).

وقلت : فما معنى قوله في صفة النبيين : الذين أسلموا؟ وهل يجوز أن يكون نبيٌّ لم

يسلم؟.

(١) سورة المائدة ٤٤ .

والذي عندي في ذلك أن الإسلام ها هنا من النبيين ليس هو ما ذهب إليه من الإسلام الذي هو ضد الكفر، ولا يجوز أن يكون نبيًّا إلا مسلماً مؤمناً، وإنما أراد يحكمُ بها النبيون المسلمون بما في التوراة من أحكام الله التاركون لتعُقب ذلك بكثرة السؤال عنه، فقد كان عَزِيْرُ أَكْثَرِ السُّؤَالِ عَنِ الْقَدْرِ فَمُحِيٍّ مِنْ دِيْوَانِ النَّبُوَّةِ^(١)، وخرج يونس - عليه السلام - مغاضباً، "ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كثرة السؤال، وعن قيل وقال"^(٢)، وقال: "إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبياءهم"^(٣)، وقال: "لا تماروا في القرآن فإن المرء فيه كفر"^(٤)، يقول: لا تقولوا: لم أمر الله بكذا؟ وإنما أمر الله بكذا.

ولهذا قال إبراهيم، صلى الله عليه: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً

لَكَ ﴾^(٥) أراد: اجعلنا مسلمين لأمرك منقادين لحكمك بالنية والعمل.

وكذلك قوله: ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٦)، أي أسلمت لأمره، فأراد على هذا التأويل: يحكم بها النبيون الذين أسلموا لأحكام الله، والربانيون، والأخبار لليهود بما استحفظوا من كتاب الله أي يحكمون لهم بما استودعوا من حكم الله في التوراة"^(٧).
القسم الثاني: الآيات التي قيل بتعارض ظاهرها.

(١) انظر: المعارف لابن قتيبة (ص ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال ح (٦٤٧٣) (ص ٥٤٣)، وفي الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه ح (٧٢٩٢) (ص ٦٠٦)، ومسلم في الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ح (٤٤٨٦) (ص ٩٨٢)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحج، باب فرض الحج مرة في العمر ح (٣٢٥٧) (ص ٩٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب النهي عن الجدل في القرآن ح (٤٦٠٣) (ص ١٥٦١)، والنسائي في الكبرى كتاب فضائل القرآن، باب المرء في القرآن ح (٨٠٩٣) (٣٣/٥)، والإمام أحمد (٨٦/٢، ٤٢٤)، وفي تحقيق المسند (٢٤١/١٣)، (٢٨٨/١٥): "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن"، وأخرجه الحاكم ح (٢٨٨٢) (٢٤٣/٢)، وقال: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن القيم في حاشيته على أبي داود (٢٣٠/١٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٨٧٠/٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سورة البقرة: ١٢٨.

(٦) سورة البقرة: ١٣١.

(٧) المسائل والأجوبة (ص ٢٠٦-٢٠٧).

حوى الكتاب جملة من الآيات ، قيل بتعارض واختلاف ظاهرها، بسط ابن قتيبة القول فيها، ففسرها، وأزال ما تُوهم من تناقضها واختلافها وتعارضها، حتى أصبحت واضحة المعنى بينة القصد والمرمى.

نموذج لهذا القسم من التفسير :

قال ابن قتيبة : "سألت عن قول الله عزّ وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾^(١)، وقوله في موضع آخر: ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾^(٢)، وفي موضع آخر ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾^(٣)، وفي موضع آخر ﴿ مِّنْ طِينٍ ﴾^(٤)؟".

وظننته اختلافاً ، وتناقضاً، ولم أترك ذكر هذا في كتاب تأويل مشكل القرآن إلا لوضوحه عند أهل المعرفة، وليس في هذا اختلاف بحمد الله؛ لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان أطواراً كما قال^(٥)، فخلق آدم من سلالة من طين كأنه سُئل من جميع طين الأرض شيء خلق منه آدم، فهو من طين، ومن سلالة من طين، ثم تُرك هذا الطين حتى عاد حمماً مسنوناً، والمسنون: المتغير الريح، ويقال: هو المصبوب، من قولك: سنّ الماء إذا صبّه، وهذا مستقصى في كتاب غريب القرآن، ثم صوّره من ذلك الحمأ حتى جفّ، فصار صلصالاً، أي يتصلصل من شدة يُيسه كما يصلصل اللجام، ويطرُّ إذا نُقد، ثم نفخ فيه الروح، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، يعني ولد آدم في الرحم، وقد يجوز أن يكون أراد بقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾^(٦) ولد آدم خلقه من سلالة أي من نطفة وتلك النطفة من آدم، وهو مخلوق من الطين^(٧).

القسم الثالث : الآيات التي استشهد بها في مسائل الكتاب .

(١) سورة المؤمنون : ١٢ .

(٢) سورة الرحمن : ١٤ .

(٣) سورة الحجر : ٢٦ .

(٤) سورة ص : ٧١ .

(٥) في سورة نوح ١٤ : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ .

(٦) سورة المؤمنون : ١٢ .

(٧) المسائل والأجوبة (ص ١١٠-١١١) .

كان ظاهراً من منهج ابن قتيبة في الكتاب الاستشهاد بآيات القرآن الكريم على آرائه واختياراته المتعددة في المسائل، ولأجله حوى الكتاب جملة وافرة من الشواهد القرآنية، فسر ابن قتيبة الكثير من هذه الآيات تدعيماً لآرائه، وتأيداً لاختياراته.

نموذج لهذا القسم من التفسير :

قال ابن قتيبة: "... قد يقع اللقاء ، فيكون معه العيان، وربما لم يكن، ويكون معه الكلام، وربما لم يكن، ويكون معه الحجاب مثل الستر والثوب الرقيق الذي لا يقطع عن الكلام والتداني، وربما لم يكن لأن معنى اللقاء في اللغة تداني الشخص و اجتماعها بعد الافتراق، ويقول الله عز وجل: ﴿ فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾^(١)، ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾^(٢) ثم قال: ﴿ فَأَلْفَقَى الْمَاءَ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ﴾^(٣) ، يريد ماء السماء، وماء الأرض، والعرب تقول: التقى الثريان يريدون المطر وندى الأرض، ومما يدل على أن اللقاء قد يقع مع الحجاب قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾^(٤)، فالوحي ما أراه الله الأنبياء في منامهم، والكلام من وراء الحجاب كلمه موسى عليه السلام، وإرساله بالوحي إرساله جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وأمثاله من الرسل، فأعلمنا أنه كلم موسى من وراء حجاب، وأعلمنا في سورة أخرى أن موسى لقيه حين كلمه إذ قال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرْبِئَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾^(٥)، أي لا تكن في شك من لقاء موسى صلى الله عليه ربه حين كلمه من من الشجر ، وكتب له في الألواح ، قال الله عز وجل : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٦).

(١) سورة القمر : ١١ .

(٢) سورة القمر : ١٢ .

(٣) سورة القمر : ١٢ .

(٤) سورة الشورى : ٥١ .

(٥) سورة السجدة : ٢٣ .

(٦) سورة الأعراف : ١٤٥ .

وأما قوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾^(١)، فإنه أراد الذين كذبوا بالنشور والبعث، وعندهما يكون لقاء الله ، والمصير إليه، وإلى حسابه، وعفوه، أو عقابه، ولا يجوز أن يكون أراد الذين كذبوا بالنظر إليه لأَنَّهُم قبل النظر لم يؤمنوا بالبعث الذي يؤدي إلى ذلك، ومن أنكر الأصل فهو أحرى ألا يُقرَّر بالفرع، ولأن اللقاء قد يكون من غير نظر، ويكون مع النظر على ما أعلمتك، وهذا يقع فيه التأويل لكل متأول، وكذلك قوله: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ ﴾^(٢)، يعني المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب، والظن ها هنا يقين، ولم يرد الذين يظنون أَنَّهُم ناظرون إلى الله^(٣).

وإلى جانب التفسير في الكتاب كان الاهتمام بالقراءات القرآنية ظاهراً عند ابن قتيبة، فقد ذكر جملة من القراءات القرآنية في ثنايا المسائل، وحرص على توجيهها، ونقد بعض القراءات الشاذة، واحتج على ضعفها، وأطال الحديث في مسألة عن قراءة ذكرها في كتابه "القراءات" انتقدها المسائل؛ فأثبت له صحة القراءة وبطلان نقده^(٤)، كما تحدث في بعض المسائل عن شروط قبول القراءة.

وكان لعلوم القرآن حظاً وافراً من العناية في الكتاب ، فقد أطال ابن قتيبة النفس عند حديثه عن المتشابه ، فدعم رأيه الذي ذكره في "تأويل مشكل القرآن" بمزيد من الأدلة والشواهد، كما تناول حجج المخالفين ، وأجاب عنها الواحدة تلو الأخرى بأجوبة علمية مقنعة، وتطرق فيه إلى الحروف المقطعة في أوائل السور^(٥).

وكما المتشابه فقد حظي موضوع "النسخ" باهتمام ابن قتيبة ، فأطال الحديث عن النسخ وتعريفه، وعن شروطه وضوابطه^(٦).

كما تطرق لموضوع فضائل القرآن، وبيّن رأيه في تفضيل بعض القرآن على بعض^(١).

(١) سورة الأنعام : ٣١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٩ .

(٣) المسائل والأجوبة (ص١٣٨-١٤١) .

(٤) انظر المسألة رقم (٧٧) (ص٢٢٥) .

(٥) انظر المسألة رقم (٧٢) (ص٢٠٨-٢١٦) .

(٦) انظر المسألة رقم (٢٥) (ص٩٠-٩٦)، والمسألة رقم (٦) (ص٤٥) .

المسألة الرابعة : القيمة العلمية .

تبرز القيمة العلمية للكتاب من خلال الأمور التالية:

١ . الابتكار في موضوع الكتاب وأسلوبه، وهذا يدل على أن الإمام ابن قتيبة لم يضيف إلى المكتبة الإسلامية أجود المصنفات وأروعها فحسب ، بل أهداها منهجاً علمياً في التأليف، تمثل في تنوع أسلوبه وحسن ترتيبه وتبويبه وتنسيقه.

٢ . كان هذا الكتاب من آخر مصنفات ابن قتيبة تأليفاً، إذ لا يوجد له ذكر في كتبه - وهو الذي اعتاد على كثرة الإحالات إلى كتبه المتنوعة - ، بينما ذكر فيه عدة كتب من مؤلفاته كـ "تأويل مشكل القرآن"^(٢)، و"غريب القرآن"^(٣)، و"غريب الحديث"^(٤)، و"تأويل مختلف الحديث"^(٥)، و"إصلاح غلط أبي عبيد"^(٦)، و"القراءات"^(٧).

وكون هذا الكتاب من آخر المصنفات يضيف إلى قيمته العلمية ، إذ يكون بعد نزوح ورسوخ واستدراك لما سبق.

٣ . تزداد أهمية الكتاب وقيمه العلمية بإضافته وتتميمه لمصنفات ابن قتيبة المتنوعة، حتى أصبح كالذيل لأغلب مصنفاته، فالأحاديث والآثار المائة التي فسر غريبها فيها تنمى لكتاب "غريب الحديث"، والأحاديث التي قيل بتعارضها ووفقاً بينها تتم عملها في كتاب "تأويل مختلف الحديث"، والمسائل الثلاثين التي تحدث فيها عن الآيات التي تُوهّم تعارضها واختلافها، وجمعَ بينها، فيها تكملة لكتابه "تأويل مشكل القرآن"، كما أضاف وشرح وفصل في مسائل عديدة ما ذكره في بعض مصنفاته، كـ "تفسير غريب القرآن"، و"إصلاح غلط أبي عبيد"، وغير ذلك.

(١) انظر المسألة رقم (١٠٠) (ص٢٧٤-٢٧٥) .

(٢) المسائل والأجوبة (ص١١٠، ٢١٤، ٤٠٠) .

(٣) المصدر السابق (ص٢٣٤) .

(٤) المصدر السابق (ص٦٩، ٢٣٤، ٣٣٤، ٤٠٩) .

(٥) المصدر السابق (ص٣٣٤) .

(٦) المصدر السابق (ص١٦١) .

(٧) المصدر السابق (٢٢٥) .

٤ . تتجلى القيمة العالية للكتاب من خلال بروز شخصية ابن قتيبة في إجاباته ومناقشاته لكثير من الأقوال التفسيرية واللغوية والفقهية وغيرها، وبيانه الصحيح من الضعيف منها، والراجح من غيره.

٥ . تميز الكتاب - كما هي بقية مصنفات ابن قتيبة - بوفرة المادة العلمية وتنوعها؛ حيث حفل الكتاب بمسائل ومباحث في التفسير والقراءات وسائر علوم القرآن، وفي الحديث وعلومه، والفقه والأحكام والآداب، وفي اللغة والأدب والنحو والبلاغة والتاريخ والقصص وغير ذلك.

المبحث الثالث

مصنفات ابن قتيبة الأخرى

المطلب الأول: كتبه المطبوعة ، ومادتها التفسيرية.

وقد أفردت لكل كتاب مسألة للتعريف به، ورتبت هذه الكتب على الحروف الهجائية، ثم ختمت المطلب بإيراد نماذج من التفسير في هذه الكتب.

المسألة الأولى: كتاب "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة"^(١).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(٢)، والقفطي (ت ٦٤٦)^(٣)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤)، والداودي (ت ٩٤٥هـ)^(٥).

وهو كتاب نفيس ، من أوائل المصنفات العقدية لأهل السنة، تعرض فيه ابن قتيبة لكثير من المسائل العقدية، فجلى هذه المسائل ونصر فيها مذهب أهل السنة والجماعة، وتعرض للفرق المخالفة ورد عليها من عدة وجوه ، أغلبها حمل طابعاً لغوياً، فكان به من أوائل الأئمة الذين أسسوا لمذهب أهل السنة والجماعة من جهة اللغة ، واستحق به أن يوصف بخطيب أهل السنة.

وقد قسم ابن قتيبة كتابه إلى مقدمة وقسمين رئيسين : عام - في جملة من المسائل العقدية - ، وخاص - في مسألة الاختلاف في اللفظ - .

بدأ ابن قتيبة - كعادته - بمقدمة بديعة ، بيّن فيها الباعث على تأليفه ؛ فقال:

(١) طبع أولاً بتحقيق: محمد زاهد الكوثري، في مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ١٣٤٩هـ، ثم نشره علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي سنة ١٣٩١هـ، ضمن مجموعة عقائد السلف ، ثم طبع عدة طبعات، منها طبعة بتحقيق: عمر محمود، نشرته دار الراجية بالرياض ، عام ١٤١٢هـ .

(٢) الفهرست (ص ٨٥) .

(٣) إنباه الرواة (٢/١٤٣) .

(٤) بغية الوعاة (٢/٦٣) .

(٥) طبقات المفسرين (١/٢٤٦) .

"ولما رأيت إعراض أهل النظر عن الكلام في هذا الشأن - مسألة الاختلاف في اللفظ - منذ وقع ، وتركهم تلقيه بالدواء حين بدأ ، وبكشف القناع عنه حين نجم ، إلى أن استحکم أساسه ، وبسق رأسه ، وجرى على اعتياد الخطأ فيه الكهل ، ونشأ عليه الطفل ، لم أر لنفسي عذراً في ترك ما أوجبه الله عليّ بما وهب من فضل المعرفة في أمر استفحل بأن قصر مقصر ، فتكلفت بمبلغ علمي ومقدار طاقتي ما رجوت أن يقضي بعض الحق عني لعل الله ينفعني به، وسيوافق على قولي هذا من الناس ثلاثة :

رجلاً منقاداً سمع قوماً يقولون فقال كما قالوا، فهو لا يعروي ، ولا يرجع لأنه لم يعتقد الأمر بنظر فيرجع عنه بنظر .

ورجلاً تطمح به عزة الرياسة وطاعة الإخوان وحب الشهرة ، فليس يرد عزته ولا يثني عنانه إلا الذي خلقه إن شاء ، لأن في رجوعه إقراره بالغلط ، واعترافه بالجهل، وتأبى عليه الأنفة .

ورجلاً مسترشداً يريد الله بعمله لا تأخذه فيه لومة لائم ، ولا تدخله من مفارق وحشة ولا تلفته عن الحق أنفة، فيلى هذا بالقول قصدنا وإياه أردنا"^(١).

ثم شرع في القسم العام فبدأ بالرد على القدرية في جملة من تأويلاتهم، ثم أتبعه بالرد على الجبرية ، ثم بالرد على نفاة الصفات والقائلين بالمجاز فيها ، ثم تلاه الرد على القائلين بخلق القرآن، ثم بسط القول في عدد من الصفات ورد على متأوليها ، ثم الرد على المشبهة، ثم أوضح مجمل اعتقاد أهل السلف في الصفات، ثم ختم هذا القسم العام بالرد على النواصب والروافض.

ثم انتهى إلى القسم الخاص الذي لأجله ألّف الكتاب ، وهو مسألة اللفظ، قال في أوله:
 "ثم انتهى بنا القول إلى ذكر غرضنا من هذا الكتاب وغايتنا من اختلاف أهل الحديث في اللفظ بالقرآن وتشانئهم ، وإكفار بعضهم بعضاً، وليس ما اختلفوا فيه مما يقطع الألفة، ولا مما يوجب الوحشة ، لأنهم مجموعون على أصل واحد وهو القرآن كلام الله غير مخلوق في كل

(١) الاختلاف في اللفظ (ص ٢٠-٢١)، ط. دار الراجعية .

موضع، وبكل جهة، وعلى كل حال، وإنما اختلفوا في فرع لم يفهموه لغموضه، ولطف معناه^(١).

ثم استعرض فيه الأقوال وناقشها، منتهياً ببيان رأيه في المسألة والاحتجاج له. جدير بالذكر أن أول طبعة خرج فيها الكتاب كانت بتحقيق محمد زاهد الكوثري، وهو تحقيق رديء، صحّف فيه وحرّف، وغمز ولمز بالمؤلف، ولم يسلم من سلاطة لسانه وجور أحكامه أحد من سلف الأمة، وقد ناقض فيه جلّ ما أرادته مؤلف الكتاب، وعلّق عليه تعليقات توافق الجهمية في بدعتهم وتنصر مذهبهم، ولا أعلم غرضه من إخراج الكتاب؟! وقد شوّهه بهذه الصورة.

المسألة الثانية : كتاب "أدب الكاتب"^(٢):

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(٣)، والسمعاني (ت ٥٦٢هـ)^(٤)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٥)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٦)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٧)، وابن العماد (ت ١٠٨٩هـ)^(٨)، بهذا الاسم، وذكره الخطيب (ت ٤٦٣هـ)^(٩)، وابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)^(١٠)، باسم أدب الكاتب.

(١) الاختلاف في اللفظ (ص ٥٧).

(٢) طبعه أولاً سيرول في لبيسك سنة ١٨٧٧م، مع خلاصة إنجليزية، وأعاد طبعه المستشرق الألماني غرونرت في ليدن سنة ١٩٠٠م، ثم طبع عدة طبعات، أجودها طبعة المطبعة السلفية في القاهرة سنة ١٣٤٦هـ، بإشراف محب الدين

الخطيب، وطبعة جديدة بتحقيق محي الدين عبدالحميد، سنة ١٣٥٥هـ بمصر.

(٣) الفهرست (ص ٨٥).

(٤) الأنساب (٤/٤٥١).

(٥) إنباه الرواة (٢/١٤٣).

(٦) وفيات الأعيان (٣/٤٢).

(٧) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣).

(٨) شذرات الذهب (٣/٣١٨).

(٩) تاريخ بغداد (١١/٤١١).

(١٠) نزهة الألباء (ص ١٦٠).

ويعد أول كتاب ألف في الصناعة الأدبية ، فهو يدور حول تربية الملكة الأدبية ، وإرشاد طبقة الكتاب وتعليمهم ، وكانت صلة ابن قتيبة بالوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان (ت ٢٦٣هـ) وزير المتوكل (ت ٢٤٦هـ) قد هيأت له وضع هذا الكتاب - كما يظهر من مقدمة الكتاب - حيث وضعه لبيان ما يجب أن يكون عليه كاتب الديوان، وما يحتاج إليه في صناعة الكتابة من مختلف العلوم والثقافة ، فقد هاله اتساع نطاق الكتابة في عصره، وإتاحته لكثير ممن أغفل التأدب أن يعمل في ديوان الكتاب، دون أن يكون هؤلاء على قدر من الثقافة أو حظ من المعرفة ، إذ كانت همة الكاتب لا تعدو أن يكون حسن الخط قويم الحروف، حتى إذا صار في هذه المرتبة ، زها بنفسه وأدركه العُجب والغرور، وتظاهر بمظهر العلماء ، فوضع ابن قتيبة هذا الكتاب ، وضمّنه ذخيرة من اللغة ، ومسائل من النحو، وزاداً من المعرفة ، يُقوّم به كاتب الديوان لسانه حين يتحدث ، وقلمه حين يكتب وينشئ.

وقد قسم ابن قتيبة كتابه إلى أربعة أقسام ؛ هي :

- ١ . كتاب المعرفة : خصصه لتعليم الكاتب و تثقيفه ثقافة عامة ، وضمّنه ثمانية وخمسين باباً، منها: باب ما يضعه الناس في غير موضعه، باب أصول أسماء الناس، باب النبات، باب النخل، باب عيوب الخيل، باب في معرفة الآلات . . .
- ٢ . كتاب تقويم اليد : وفيه ستة وأربعون باباً من أبواب الهجاء ، أكثرها في الفصل والوصل والاستفهام والتذكير والتأنيث، منها : باب إقامة الهجاء ، باب ألف الوصل في الأسماء ، باب ما تغيره ألف الوصل ، باب الألفين تجتمعان فيقتصر على إحداهما، باب هاء التأنيث ، باب ما يذكر ويؤنث، باب ما يمد ويقصر .
- ٣ . كتاب تقويم اللسان : وفيه أربعة وثلاثون باباً، تتصل بتقارب الحروف ومخارجها وحركاتها، منها: باب الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها، باب الأفعال التي تهمز والعوام تدع همزها، باب ما لا يهمز والعوام تهمزه، باب ما يشدد والعوام تخففه، باب ما جاء فيه لغتان استعمل الناس أضعفهما.
- ٤ . كتاب الأبنية : وفيه سبعة وتسعون باباً ، خصصها للصرف، منها: أبواب في أبنية الأفعال، وأخرى لبيان معاني أبنية الأفعال، وأبواب في أبنية الأسماء ، وأبواب في شواذ البناء والتصريف.

وقد نال هذا الكتاب إعجاب كثير من العلماء وتقديرهم، فعده ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) أحد الأصول الأربعة من أركان الأدب العربي، حيث يقول:

"وسمنا من شيوحننا في مجالس التعليم: أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد (ت ٢٨٥هـ)، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ)، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها"^(١).

وقد شرح الكتاب أبو محمد عبدالله بن محمد المعروف بابن السيد البطلوسي (ت ٤٢١هـ)، في كتابه "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب"، كما شرحه: أبو إبراهيم إسحاق ابن إبراهيم الفارابي (ت ٣٥٠هـ)، وأبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (ت ٥٣٩هـ)، وأبو جعفر أحمد بن داود بن يوسف الجذامي (ت ٥٩٧هـ).

وشرح خطبته أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، وأبو الكرم المبارك بن فاجر النحوي (ت ٥٠٠هـ).

وشرح أبياته أحمد بن محمد الخارزنجي (ت ٣٤٨هـ).

المسألة الثالثة : كتاب "الأشربة"^(٢).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(٣)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٤)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٥)، وابن العماد (ت ١٠٨٩هـ)^(٦).

وأشار إليه ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار"^(٧).

(١) مقدمة ابن خلدون (١/٧٣٦).

(٢) طبع بتحقيق محمد كرد علي بالمجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٧م، ثم طبع عدة طبعات، منها طبعة بتحقيق حسام الدين البهنساوي، نشرته مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة، عام ١٩٩٨م.

(٣) الفهرست (ص ٨٥).

(٤) إنباه الرواة (٢/١٤٣).

(٥) وفيات الأعيان (٣/٤٢).

(٦) شذرات الذهب (٣/٣١٨).

(٧) (١/٤٢).

تناول فيه ابن قتيبة مسألة تحريم الخمر ، والدواعي التي حرمت من أجلها، وعرج إلى مصادرها وكيفية صنعها، والأنواع التي تصنع منها، ثم تعرض لمسألة النبيذ، فبسط القول واستعرض أقوال الفقهاء مختاراً القول بتحريمه.

وقد أفصح ابن قتيبة في مقدمة الكتاب عن سبب تأليفه ، ومنهجه فيه ؛ فقال:

"وليس فيما عازنا من الأمور التي وقع فيها الحظر والإطلاق شيء اختلفت فيه الناس اختلافهم في الأشربة، وكيفية ما يحل منها وما يحرم، على قديم الأيام، مع قرب العهد برسول الله صلى الله عليه وسلم وتوافر الصحابة، وكثرة العلماء المأخوذ عنهم، المقتدى بهم، ... وإن شيئاً وقع فيه الاختلاف في ذلك العصر بين أولئك الأئمة لحري أن يشكل على من بعدهم ، وتختلف فيه آراؤهم ، ويكثر فيه تنازعهم.

وقد بينت من مذاهب الناس فيه، وحجة كل فريق منهم لمذهبه، وموضوع الاختيار من ذلك بالسبب الذي أوجبه، والعلة التي دلت عليه، ما حضرني من بالغ العلم ومقدار الطاقة"^(١).

وهو كتاب قيم في بابه ، نفيس في موضوعه، رجع إليه معظم الأدباء الذين خاضوا في هذا الباب، وكاد ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) أن يستوعب فصوله في كتابه "العقد الفريد"، ورد عليه في فصل بعنوان "مناقضة ابن قتيبة في قوله في الأشربة"^(٢).

المسألة الرابعة : كتاب "الأنواء"^(٣).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(٤)، والسمعاني (ت ٥٦٢هـ)^(٥)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)

(١) كتاب الأشربة (ص ٢٤-٢٥) .

(٢) العقد الفريد (٦٧/٨) .

(٣) طبع الكتاب بتصحيح: شارل بلا، ومحمد حميد الله بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد بالهند سنة ١٣٧٥هـ.

(٤) الفهرست (ص ٨٥) .

(٥) الأنساب (٤٥١/٤) .

٦٤٦هـ^(١)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٢)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٣)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤).

وأشار إليه ابن قتيبة في كتابه "المعاني الكبير"^(٥).

وهو كتاب في الفلك أخذ صبغة أدبية ولغوية، تحدث فيه ابن قتيبة عن مذاهب العرب في علم النجوم: مطالعها ومساقطها وصفاتها وصورها، وعن أسماء منازل القمر، وأنوائها، وعن الأزمنة وفصولها، والأمطار وأوقاتها، واختلاف أسمائها في الفصول، وعن الرياح وأفعالها، وتحديد مهاجتها، وعن الفلك والبروج والنجوم الخنس والشمس والقمر والكواكب، وعن السحاب والبروق، وأمارات خصب الزمان وجدوبته.

وقد أوضح ابن قتيبة - في مقدمة كتابه - منهجه ؛ فقال:

"وكان غرضي في جميع ما أنبأت به الاقتصار على ما تعرف العرب في ذلك وتستعمله، دون ما يدعيه المنسوبون إلى الفلسفة من الأعاجم، ودون ما يدعيه أصحاب الحساب، فإنني رأيت علم العرب بها هو العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان، النافع لنازل البر وراكب البحر وابن السبيل ، وقد قيدت بهذا الكتاب أطرافاً من هذا الفن أدركت بعضها بالتوقيف، وبعضها بالاعتبار ، واستخرجت بعضها من الأشعار"^(٦).

(١) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

(٢) وفيات الأعيان (٤٢/٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٩٧/١٣) .

(٤) بغية الوعاة (٦٣/٢) .

(٥) (٣٧٥/١) .

(٦) الأنواء (ص١-٤) .

المسألة الخامسة : كتاب "تأويل الرؤيا" ^(١).

ذكره أبو الطيب (ت ٣٥١هـ) ^(٢)، وابن النديم (ت ٣٨٥هـ) ^(٣)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ) ^(٤).

وذكره ابن قتيبة في مقدمة كتابه "عيون الأخبار" ^(٥).

وهو أول كتاب يؤلف في تأويل الأحلام من ناحية تفعيدية تأصيلية ، قدّم له ابن قتيبة بمقدمة مستفيضة ، أورد فيها بعض الأحاديث والآثار في فضل هذا العلم ، وتحدث فيها عن أهمية علم التعبير وشرفه وصعوبته وخطورته، وبين فيها أن علم التفسير يُستمد من أصناف كثيرة من العلوم الشرعية واللغوية وغيرها، كما تطرق إلى آداب المعبر ، وآداب صاحب الرؤيا، ثم بسط القول في الأصول العامة في تعبير الرؤى، كما ذكر فيها السبب الذي بعثه على التصنيف في هذا النوع من العلوم ؛ فقال:

"وسأخبرك عن كيفية الرؤيا بالاستدلال على ذلك من كتاب الله والحديث، إذ كنت لم أجد فيه مقالاً كافياً لإمام متبع" ^(٦).

ثم شرع في أبواب الكتاب ، وهي ستة وأربعون باباً تتعلق بأنواع ما يراه الرائي وتعبير كل نوع، وكان من منهجه في هذه الأبواب أنه إذا وجد آية أو حديثاً صريحاً في مسألة التأويل ابتداءً بذكره معتمداً عليه، وقدّمه واحتج به على تأويله، وأما إذا كان غير صريح، فإنه ربما أورد استثناساً لا احتجاجاً.

وكان ابن قتيبة يطيل النفس في إيراد الصور على التأويل، ويكثر من ضرب الأمثلة تحت الباب الواحد ، وكان يكثر من إيراد تعبير أئمة السلف ، لا سيما سعيد بن المسيب (ت

^(١) طبع أولاً بتحقيق إبراهيم القاضي وسيد المرسي ، نشرته دار الحرمين بالقاهرة سنة ١٤٢٠هـ، وفيها سقط كبير، ثم طبع بتحقيق: إبراهيم صالح، نشرته دار البشائر سنة ١٤٢٢هـ، وأجود طبعات الكتاب كانت بتحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، نشرته مؤسسة غراس بالكويت سنة ١٤٢٢هـ، وجميع هذه الطبعات اتفقت على تسميته "تعبير الرؤيا"، وإنما اخترت تسمية "تأويل الرؤيا" لأنها التسمية التي ذكرها ابن قتيبة في عيون الأخبار (٤٢/١).

^(٢) مراتب النحويين (ص ١٣٧) .

^(٣) الفهرست (ص ٨٥) .

^(٤) سير أعلام النبلاء (٢٩٧/١٣) .

^(٥) (٤٢/١) .

^(٦) تعبير الرؤيا (ص ٧٥) .

٩٤هـ)، ومحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ)، فقد أورد عنهما تسعة وستين أثراً، مما يدل على عظيم عنايته واهتمامه بتعبير السلف.

كما كان نفسه اللغوي حاضراً بكثافة في هذه الأبواب ، فأكثر من الشواهد الشعرية والنثرية للتدليل على كلامه في تأويل المسائل، كما شرح الكثير من غريب اللغة وأمثال العرب.

يقول الشيخ علي الطنطاوي (ت ١٤٢٠هـ) - عن الكتاب حين وقع على أول مخطوط له - في مقال بعنوان "وصف وتلخيص لنسخة ثمينة من كتاب مفقود" :

"يزاول ابن قتيبة في هذا الكتاب بأسلوبه المتين ، وطريقته السوية ، بحثاً هو اليوم جديد في اللغات الأوربية ، ... وهو يتفق وهؤلاء الباحثين في كثير من مسائل هذا البحث ، وإنما يختلف عنهم في أنه استمد من معين النبوة ، فأصاب كبد الحقيقة ، وتمكن من سواء الثغرة، ... والكتاب على الجملة من نفائس تراثنا العلمي ، ومكانه من الخزانة العربية لا يزال حالياً لم يشغله كتاب، وإنما لنا أمل له من رجال الأدب ومن الناشرين الاهتمام اللائق به"^(١).

المسألة السادسة : "رسالة في الخط والقلم"^(٢).

ذكره الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، وكان ضمن الكتب التي حملها إلى دمشق^(٣)، وذكرها السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤)، والداودي (ت ٩٤٥هـ)^(٥) باسم "القلم".

وهي رسالة صغيرة من أقدم النصوص التي وصلت إلينا في موضوعها، وتعتبر معجماً لغوياً متخصصاً في آلات الخط والكتابة ومصطلحاتها وتصريف تلك المصطلحات، تحدث فيها عن القلم وسبب تسميته ، وعن الدواة والمداد والحبر، وعن الكتاب وتسميته، وتكلم عن

(١) فكر ومباحث ، علي الطنطاوي (ص ١٨١) .

(٢) نُشرت الرسالة بتحقيق الدكتور حاتم الضامن في مجلة "المجمع العلمي العراقي" (ج ٤ مجلد ٣٩) ، ثم نُشرت بتحقيق هلال ناجي في مجلة "المورد" عدد (١) سنة ١٤١٠هـ (ص ١٥٦-١٧٠) .

(٣) الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها ، الدكتور يوسف العشي (ص ١٠٥) .

(٤) بغية الوعاة (٦٣/٢) .

(٥) طبقات المفسرين (٢٤٦/١) .

المط^(١) والتطليس^(٢) والقرطاس والعنوان والخاتم ، والقراءات ووجوهها، وختم الرسالة بالحديث عن الديوان، والتأريخ.

وقد نقل ابن السيد البطليوسي (ت ٤٢١هـ) عن هذا الكتاب ، وأسماه "آلة الكتاب" في عدة مواضع منها قوله: "ويقال للشحمة التي تحت برية القلم: الضرة، شُبّهت بضرة الإبهام وهي اللحمية في أصلها ، كذا قال ابن قتيبة في "آلة الكتاب"^(٣) وهو المعروف، وخالف ذلك في "أدب الكاتب" ^(٤).

كما نقل عنه أبو الحسن علي بن محمد الخزاعي (ت ٧٨٩هـ) في كتابه "تخرّيج الدلالات السمعية" وأسماه "صناعة الكتابة"، حيث قال - عند حديثه عن كلمة ديوان وأن جمعها دواوين، ودياوين - : "وقال ابن قتيبة في "صناعة الكتابة": وإنما جعلوه بالياء على لفظه، قال: وداله بالكسر، ولا تفتح"^(٥).^(٦)

وقد عدّ السيد صقر (ت ١٤١٠هـ) هذه التسميات كتباً مختلفة مفقودة لابن قتيبة، وتبعه على ذلك بعض الدارسين، والصحيح أن هذه التسميات إنما هي كتاب واحد، يدل عليه أن هذه النقول - جميعها - موجودة بنصها في "رسالة الخط والقلم"، ويؤكد اتفاق الموضوع، إذ ليس من عادة ابن قتيبة أن يفرد لموضوع واحد أكثر من كتاب.

(١) يقول ابن قتيبة في رسالة الخط والقلم (ص١٦٤): "المط في الكتاب هو المد".

(٢) يقول ابن قتيبة في رسالة الخط والقلم (ص١٦٤): "التطليس في الكتاب مثل الترميد ، وإنما أخذ من الطيلساء وهي لون الليل ، ومنه قيل: ذئب أطلس، وهو الذي يشبه لونه لون الرماد".

(٣) وهو موجود بنصه في رسالة الخط والقلم (ص١٦٢) .

(٤) الاقتضاب (ص٨٧) .

(٥) وهو موجود بنصه في رسالة الخط والقلم (ص١٦٦) .

(٦) تخرّيج الدلالات السمعية (ص٣٥٨) .

المسألة السابعة : كتاب "الشعر والشعراء" ^(١).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) ^(٢)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ) ^(٣)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ^(٤)، والسيوطي (ت ٩١١هـ) ^(٥).

وذكره ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار" ^(٦).

وكانت مادة الكتاب - كما أوضح ابن قتيبة في مقدمته - عن الشعراء وأزمانهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم، وعمما يستحسن من أخبار الرجل ويستجد من شعره، وما أخذه العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ^(٧).

وقد قسم ابن قتيبة الكتاب قسمين - أنبأ عنهما عنوان الكتاب - ، أحدهما: في الشعر ، والآخر : في الشعراء ، كان في الأول مبدع ناقد ، وفي الثاني رواية مؤرخ.

ففي القسم الأول "الشعر" وضع ابن قتيبة أصول النقد المعروفة في عصره، وجمع قدرًا من مقاييس النقاد وأحكامهم ، ثم بسط آراءه النقدية ومقاييسه العامة التي تلائم الشعر الجديد الذي ازدهر في عصره ، بعيداً عن المقاييس التي درج اللغويون - كابن سلام (ت ٢٣١هـ) والجاحظ (ت ٢٥٥هـ) - على تحكيمها متأثرين بمعايير أصول الشعر القديم، وفيه تحدث ابن

^(١) قام المستشرق الألماني نولدكه بترجمة القسم الأول "الشعر" إلى اللغة الألمانية عام ١٨٦٤م، ونشر ريتز هوزن الكتاب نفسه مع ترجمته إلى اللغة الهولندية عام ١٨٧٥م، وأعاد المستشرق الهولندي دي خويه نشره مرة أخرى في ليدن عام ١٩٠٢م، وفي العالم العربي طبعه أولاً محمد أمين الخانجي في مصر عام ١٣٠٢هـ، مع بعض التعليقات للسيد محمد بدر الدين النعساني، وهي نسخة غير كاملة ، ومثلها طبعة محمود توفيق بمطبعة المعاهد بمصر سنة ١٣٥٠هـ بتصحيح مصطفى السقا، أما أجود طبعات الكتاب وأكملها فكانت بتحقيق الشيخ/ أحمد محمود شاكر، نشرتها دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٦٤هـ، ثم نشرت الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٣٨٦هـ.

^(٢) الفهرست (ص ٨٥) .

^(٣) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

^(٤) وفيات الأعيان (٤٢/٣) .

^(٥) بغية الوعاة (٦٣/٢) .

^(٦) (٤٢/١).

^(٧) الشعر والشعراء (٥٩/١) .

قتيبة عن ماهية الشعر وطبيعة الشاعر ، وبناء القصيدة ، وتكلم عن الطبع والتكلف في الشعر وعند الشعراء ، وأوضح دواعي الشعر وموضوعاته، ثم ختم ببيان عيوب الشعر .
وفي القسم الثاني "الشعراء" وهو الأكثر أهمية بالنسبة لتأريخ الأدب ، تحدث عن الشعراء، وقد بلغت عدة الذين ترجم لهم مائتين وستة شعراء ، بين جاهلي ومخضرم وإسلامي ، ولم يتلزم منهجاً معيناً في ترتيبهم ، وكان يذكر ترجمة كل شاعر وموجزاً من أخباره ، مع ما اشتهر به في شعره من مديح أو هجاء أو غزل ، وما يروى له أو يستشهد به، متضمناً نقده لأغلب ما يرويه عن الشعراء في هذا القسم .

ويعدّ هذا الكتاب من أهم كتب الأدب ، ومن أصول النقد الأدبي، وأغلب من كتب في الأدب استفاد منه كابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) في العقد الفريد، وأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) في الأغاني، وابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) في العمدة في محاسن الشعر وآدابه، وأحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) في نهاية الأرب في فنون الأدب، وعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) في خزانة الأدب .

المسألة الثامنة : كتاب "عيون الأخبار" ^(١).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) ^(٢)، والخطيب (ت ٤٦٣هـ) ^(٣)، والسمعاني (ت ٥٦٢هـ) ^(٤)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ) ^(٥)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ^(٦)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ^(٧).

(١) نشره كارل بروكلمان بين عامي ١٩٠٠-١٩٠٨م في برلين وستراسبورغ في أربعة أجزاء ، ثم طبعته دار الكتب المصرية في أربعة مجلدات ١٣٤٣هـ، ثم طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٣م .

(٢) الفهرست (ص ٨٥) .

(٣) تاريخ بغداد (١١/٤١١) .

(٤) الأنساب (٤/٤٥١) .

(٥) إنباه الرواة (٢/١٤٣) .

(٦) وفيات الأعيان (٣/٤٢) .

(٧) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣) .

وهو كتاب جامع في اللغة والأدب والتاريخ، وضعه ابن قتيبة تمييزاً لكتابه "أدب الكاتب" الذي وضعه للكُتَّاب.

يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه :

"وإني كنت تكلفت لمغفل التأدب من الكُتَّاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد، حتى تبينت شمول النقص ودروس العلم ، وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب حتى عفا ودرس، بلغتُ به فيه همة النفس وثلج الفؤاد ، وقيدتُ عليه به ما أطرفني إليه ليوم الإدالة، وشرطتُ عليه مع تعلم ذلك تحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطورهِ متمثلاً إذا كاتب، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور ، ولما تقلدتُ له القيام ببعض آلتِه دعيتني الهمة إلى كفايته وخشيتُ إن وكلتُه فيما بقي إلى نفسه ، وعولتُ له على اختياره أن تستمر مريرته على التهاون، ويستوطئ مركبه من العجز فيضرب صفحاً عن الآخر كما ضرب صفحاً عن الأول، فأكملتُ له ما ابتدأتُ وشيّدتُ ما أسستُ وعملتُ له في ذلك عمل من طَبِّ لمن حَبَّ ، بل عمل الوالد الشفيق للولد البر، ورضيتُ منه بعاجل الشكر وعولتُ على الله في الجزاء والأجر"^(١).

وقد قسم ابن قتيبة كتابه عشرة أقسام ؛ هي :

- ١ . كتاب السلطان : تكلم فيه المؤلف عن السلطان وسيرته وسياسته واختيار العمال ، وصحبة السلطان وآدابها ، والكتابة والكتاب
- ٢ . كتاب الحرب : تحدث فيه المؤلف عن آداب الحرب ومكايدها ، والأوقات التي تُختار لها ، والدعاء عند اللقاء ، والصبر وحض الناس يوم اللقاء عليه
- ٣ . كتاب السؤدد : أسهب فيه المؤلف عن مخايل السؤدد وأسبابه ، والتناهي في السؤدد ، والسيادة والكمال في الحداثة ، وذم الغنى ، ومدح الفقر ، والتواضع والكبر والعجب
- ٤ . كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة : تكلم فيه المؤلف عن الحسد والغيبة والسعاية والكذب وسوء الخلق وسوء الجوار والسباب والشر والحمق
- ٥ . كتاب العلم والبيان : تكلم فيه المؤلف عن العلم والكتب والحفظ ، والقرآن الكريم، والحديث، والأهواء والكلام في الدين ، والإعراب واللحن ، ووصايا المعلمين

(١) عيون الأخبار (١/٣٧-٣٨) .

٦. كتاب الزهد : تكلم فيه المؤلف عن الدعاء والمناجاة والبكاء والتهجد والموت والكبر والمشيب والدنيا ، ومقامات الزهد عند الخلفاء والملوك، وبعض المواعظ من كلام الزهاد وصفاتهم

٧. كتاب الإخوان : تحدث فيه المؤلف عن الحث على اتخاذ الإخوان واختيارهم، والمحبة والإنصاف في المودة ، ومداراة الناس وحسن الخلق والجوار والتلاقي والزيارة

٨. كتاب الحوائج : تكلم فيه المؤلف على استنجاح الحوائج ، ومن يعتمد في الحاجة، والإجابة إلى الحاجة والرد عنها ، والشكر والثناء والترغيب في قضاء الحاجة، والقناعة والاستعفاف

٩. كتاب الطعام : تكلم فيه عن صنوف الأطعمة ، وأخبار العرب في مآكلها ومشاربها ، وآداب الأكل والطعام، والجوع والصيام، والضيافة ، وأخبار البخلاء

١٠. كتاب النساء : تحدث فيه المؤلف عن أخلاق النساء وما يختار منهن وما يكره، والحض على النكاح ودم التبتل ، والمهور ، وأوقات عقد النكاح ، وخطب النكاح، وسياسة النساء ومعاشرتهن

وقد جاء الكتاب موسوعة أدبية لغوية تاريخية فريدة في بابها ، بما استجمعه من رصيد أدبي ولغوي وتاريخي ينم عن مقدرة مؤلفه وسعة اطلاعه وتبحره وتفننه ، مما يبرز الأهمية الكبيرة والقيمة العلمية والأدبية للكتاب .

يقول أبو بكر بن دريد (ت ٣٢١هـ) - وقد تذاكر مع جماعة من جلسائه متنزهات الدنيا ، وسمي كل منهم أنزه مكان رآه - :

"هذه متنزهات العيون، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ فقالوا له: وما هي؟ فقال: عيون الأخبار للقتبي ، والزهرة لابن داود - الأصبهاني - (ت ٢٩٧هـ)، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر - أحمد بن طيفور - (ت ٢٨٠هـ)"^(١).

ويقول الأستاذ الدكتور شوقي ضيف : "ويكفي ابن قتيبة مجداً أديباً أسلوبه الواضح الناصع الذي وصفناه ، وأنه أحرص إلى الأبد أصحاب الشعوية ، بما سوى للعرية في عيون

(١) معجم الأدباء للحموي (٢/٣٨٩) .

الأخبار من هذا الأدب العربي الرفيع الذي وسع مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة" (١).

المسألة التاسعة : كتاب "فضل العرب والتنبيه على علومها" (٢).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) (٣) ، والقفطي (ت ٦٤٦هـ) (٤) ، والذهبي (ت ٧٤٨هـ) (٥) ، باسم "التسوية بين العرب والعجم" ، وأسماه القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) (٦) ، وابن حجر (ت ٨٥٢هـ) (٧) بـ "العرب والعجم" .
وذكره ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" (٨) ، و"عيون الأخبار" (٩) ، وفي "غريب الحديث" ، وأسماه فقال: "وقد ذكرت هذا وأشباهه في كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها" (١٠).
كان ابن قتيبة بهذا الكتاب من أوائل الأئمة الذين تصدوا للشعوبية الذين يتنقصون العرب ويبخسونهم فضلهم ويبغضونهم حسداً من عند أنفسهم وبغضاً للإسلام ، كما بيّن ابن قتيبة بقوله:

"وأعاذنا الله من فتنة العصبية ، وحمية الجاهلية ، وتحامل الشعوبية ، فإنها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة ، وتُلحق بها كل رذيلة ، وتغلو في القول ، وتسرف في الدم ، وتبتهت بالكذب ، وتكابر العيان، وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف، وتغص من

(١) تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي الثاني" ، د. شوقي ضيف (ص ٦٢٢) .

(٢) نشر قطعة منه الشيخ جمال الدين القاسمي في مجلة "المقتبس" في عددها الحادي عشر (ص ٦٥٧-٦٦٨) ، والثاني عشر (ص ٧٢٢-٧٣٥) من المجلد الرابع سنة ١٣٢٧هـ بعنوان "ذم الحسد" ، وأعاد نشرها محمد كرد علي في كتاب "رسائل البلغاء بعنوان "كتاب العرب أو الرد على الشعوبية" دار الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٣١هـ، ثم طبع الكتاب كاملاً بتحقيق الدكتور: وليد محمود خالص، منشورات الجمع الثقافي، أبو ظبي ، عام ١٩٩٨ م .

(٣) الفهرست (ص ٨٥) .

(٤) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٩٧/١٣) .

(٦) ترتيب المدارك (٢٧٢/٥) .

(٧) رفع الإصر (٧٣/١) .

(٨) الشعر والشعراء (٦٤/١) ، (١٠٣) .

(٩) عيون الأخبار (١٨٥/٢) .

(١٠) (٢٤٨/٢) .

النبي صلى الله عليه وسلم بالشجاء ، وتطرف منه على القذى، وتبعد من الله بقدر بعدها ممن قَرَّب واصطفى ، وفي الإفراط هلكة، وفي الغلو البوار"^(١).

وكان محتوى الكتاب ومضمونه يتطابق كلياً مع عنوانه "فضل العرب والتنبية على علومها"، حيث قسم ابن قتيبة كتابه قسمين ، أحدهما: فضل العرب، والآخر: التنبية على علومها.

القسم الأول: فضل العرب.

تحدث فيه عن فضل العرب ومكانتهم على مر العصور، وقرر فيه عقيدة السلف من حب العرب المسلمين واعتقاد أن جنسهم أفضل من غيره ، لما ميزهم الله به من حسن البيان وكرم الأخلاق وشجاعة القلب والثبات.

وقد بيّن ابن قتيبة منهجه في هذا القسم بكلام حقه أن يكتب بماء الذهب إذ يقول:
"وسأقول في الشرف بأعدل القول ، وأبين أسبابه ، ولا أبخس أحداً حقه، ولا أتجاوز به حدّه ، فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعه عما تدّعيه لها جهلتها ، وأثني أعنتها عما تقدم إليها سفلتها، وأقتصر القول، وأقتصر على العيون والنكت ... وأرجو أن لا يطلع ذوو العقول ، وأهل النظر مني على إثثار هوى ولا تعمد لتمويه ، وما أتبرأ بعده من العثرة والزلة، إلا أن يوفقني الله ، وما التوفيق إلا به"^(٢).

وهذا كلام نفيس يدل على منهج سديد ، وإنصاف جميل، ليس بغريب على إمام بمنزلة ابن قتيبة .

القسم الثاني : التنبية على علوم العرب .

تحدث في فاتحته عن محتواه ؛ فقال :

"ونذكر ما للعرب من العلوم ، والحكم في الشعر ، والكلام المسجع المنثور، من غير استقصاء لفن من ذلك، إذ كان غرضنا في هذا الكتاب التنبية والدلالة، ودفع الخصم عما ينسب إليه العرب من الجفاء والغباوة . والعلوم جنسان : أحدهما علم إسلامي نتج من بين الدين واللغة ، كالفقه، والنحو، ومعاني الشعر، وهذا للعرب خاصة، ليس للعجم فيه سبب إلا

(١) فضل العرب (ص ٣٣) .

(٢) فضل العرب والتنبية على علومها (ص ٥٥) .

تعلمه، واقتباسه، وللعرب سناؤه وفخره، والآخر علم متقادم تتشارك فيه الأمم، لا أعلم منه فناً إلا وقد جعل الله للعرب فيه حظاً، ثم تنفرد من ذلك بأشياء لا تُشارك فيه"^(١)، ثم ذكر ما تنفرد به العرب.

المسألة العاشرة : كتاب "المعارف" ^(٢).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(٣)، والخطيب (ت ٤٦٣هـ)^(٤)، والسمعاني (ت ٥٦٢هـ)^(٥)، وابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)^(٦)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٧)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ)^(٨)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٩).

جاء في مقدمة كتاب "عيون الأخبار" ما يشير إلى أن هذا الكتاب بمثابة التكملة لعيون الأخبار^(١٠)، فقد سلك ابن قتيبة فيه ذات المسلك الموسوعي الشامل، فتحدث فيه عن مبدأ الخلق، وقصة الطوفان، ثم تاريخ الأنبياء والرسل، ثم الحديث عن العرب الذين كانوا على دين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أنساب العرب بتوسع، ثم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه وصحابته رضوان الله عليهم، ثم الخلفاء إلى عصر ابن قتيبة، ثم أخبار مختصرة عن الفقهاء والمحدثين والقراء والنسابين وأصحاب الأخبار والغريب والنحو، ثم أخبار الأوائل والفتوح وأيام العرب، ثم تحدث عن أديان العرب في الجاهلية، وختم الكتاب بالحديث عن ملوك اليمن

(١) المصدر السابق (ص ١١٩-١٢٠).

(٢) نشره المستشرق الألماني وستنفلد في جوتنجن سنة ١٨٥٠م، ثم طبع بتصحيح محمد إسماعيل الصاوي، نشرته المكتبة الحسينية في القاهرة، سنة ١٣٥٣هـ، ثم كانت أجود طبعات الكتاب بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة، قدّم عليه مقدمة ضافية، واعتمد في تحقيقه على سبع نسخ خطية، نشرته دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م.

(٣) الفهرست (ص ٨٥).

(٤) تاريخ بغداد (١١/٤١١).

(٥) الأنساب (٤/٤٥١).

(٦) نزهة الألباء (ص ١٦٠).

(٧) إنباه الرواة (٢/١٤٣).

(٨) وفيات الأعيان (٣/٤٢).

(٩) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣).

(١٠) عيون الأخبار (١/٤٢).

والحبشة والشام وملوك العجم.

يقول الدكتور ثروت عكاشة - محقق الكتاب - : "كتاب المعارف موسوعة تتصف بالتنسيق ، مختارة أحسن الاختيار ، مبنية أجمل التبويب، تذكر الأنساب المتشعبة المتفرعة في إيجاز مستوعب، وتلخص التاريخ تلخيصاً من غير إخلال ، وتسوق الطرف والملح والنوادر على نهج محب شائق، لا يفلت منها شيء ذو خطر دون أن تشير إليه وتفصله ... وقد جمعت هذه الموسوعة كل ما يعني الناس أن يعرفوه عن أسلافهم من أخبار، وما ينقل لهم من حديث"^(١).

المسألة الحادية عشرة : كتاب "المعاني الكبير" ^(٢).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(٣)، وابن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)^(٤)، وأشار إليه ابن ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار"^(٥).

وهو كتاب تمّم فيه ما شيّد في "الشعر والشعراء"، جمع فيه ذخيرة أدبية قيمة من الشعر العربي في موضوعات تتصل بمناحٍ مختلفة من الحياة عند العرب، وتكشف عن عاداتهم وتقاليدهم.

وقد قسم ابن قتيبة كتابه إلى اثني عشر كتاباً ؛ هي:

- ١ . كتاب الفرس ، ستة وأربعون باباً .
- ٢ . كتاب الإبل ، ستة عشر باباً .
- ٣ . كتاب الحرب ، عشرة أبواب .
- ٤ . كتاب القدر ، عشرون باباً .

(١) مقدمة تحقيق كتاب المعارف لابن قتيبة (ص ٧١) .

(٢) طبع في حيدر آباد الهند ، سنة ١٣٦٨هـ في ثلاثة أجزاء بتحقيق المستشرق الألماني كرنكو ومشاركة عبدالرحمن المعلمي اليماني ، والكتاب الثاني عشر من كتاب المعاني "تصحيف العلماء" مفقود ، وقد ألف ابن المرزبان عبدالله ابن جعفر بن درستويه (ت ٣٤٧هـ) في نقده كتاباً بعنوان "الرد على ابن قتيبة في تصحيف العلماء".

(٣) الفهرست (ص ٨٥) .

(٤) فهرسة ابن خير (ص ٣٣٧) .

(٥) (١٥٨/١) .

- ٥ . كتاب الديار ، عشرة أبواب .
 - ٦ . كتاب الرياح ، أحد وثلاثون باباً .
 - ٧ . كتاب السباع والوحوش ، سبعة عشر باباً .
 - ٨ . كتاب الهوام ، أربعة عشر باباً .
 - ٩ . كتاب الأيمان والدواهي ، سبعة أبواب .
 - ١٠ . النساء والغزل ، باب واحد .
 - ١١ . الشيب والكبر ، ثمانية أبواب .
 - ١٢ . تصحيف العلماء .
- وقد تحدث مصحح الكتاب الشيخ عبدالرحمن بن يحيى اليماني عن أبرز خصائصه، أذكر منها:

- ١ . أنه متكفل بجمع غالب أبيات المعاني، وبقية كتب الفن المفقودة.
- ٢ . لم يقتصر ابن قتيبة على ذكر العويص من الشعر بل أتى به وبما يقرب منه وما يتصل به ، وما يناسبه في معناه ، فأصبح بذلك ذخيرة أدبية عظيمة.
- ٣ . في الكتاب طائفة غير قليلة من الأشعار التي لا توجد في الكتب المطبوعة.
- ٤ . فيه أشعار كثيرة توجد في الكتب الأخرى لكنها غير مفسرة ، وهي فيه مفسرة بالتفسير الواضح.
- ٥ . المؤلف من الأئمة الذين يستند إلى قولهم ونقلهم في اللغة والغريب، وفي هذا الكتاب جملة كبيرة من ذلك بحيث يصح أن يعد كتاب لغة لا كتاب أدب وشعر فقط^(١).

المسألة الثانية عشرة : كتاب "الميسر والقдах" ^(٢).

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(٣)، والقفطي (ت ٦٤٦هـ)^(٤)، وابن خلكان (ت

٦٨١هـ)^(١).

(١) مقدمة كتاب "المعاني الكبير" (ص ٢٠).

(٢) طبع بتحقيق السيد محب الدين الخطيب في المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٤٢هـ .

(٣) الفهرست (ص ٨٥).

(٤) إنباه الرواة (٢/١٤٣).

وأشار إليه ابن قتيبة في كتابه "إصلاح غلط أبي عبيد" (٢). وهو كتاب فريد في موضوعه ، وضعه ابن قتيبة في الميسر بعد أن طُلب إليه ذلك، وقد بيّن فيه أن الميسر جزء من تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولم يقتصر فيه على بيان تحريم الميسر من الناحية الفقهية ، وإنما عرض للموضوع عرضاً لغوياً وتاريخياً ، متتبّعاً ما جاء في أخبار العرب وأشعارهم وأقوالهم من ذكر الميسر والقداح.

وقد أفصح ابن قتيبة في مقدمة الكتاب عن الباعث والمنهج ؛ فقال :

".. فإنك كتبت تُعلمني تعلق قلبك بالميسر وكيفيته ، والقداح وحفظها، والياسرين وأحوالهم، ومعرفة ما في الميسر من النفع الذي ذكره الله في القرآن، وأنت لم تجد فيه لأحد من علماء اللغة مقالاً كافياً ، ولا قرأت فيه لمتقدم من السلف خبراً شافياً، وتساءل أن أكتب إليك بذلك كتاباً يوضحه لك ، وقد كلفتم الله شططاً ، وحاولت عسيراً، لأن الميسر أمر من أمور الجاهلية قطعها الله بالإسلام ، فلم يبق عند الأعراب إلا النبد منه اليسير، وعند علمائنا إلا ما أدى إليهم الشعر القديم ، من غير أن يجدوا فيه أخباراً تؤثّر أو روايات تحفظ ... ، ولما رأيتُ شغفك بهذا الفن أحببت إسعافك بما أمكن منه ، وتعدّرت علي من قول العلماء فيه ما تعذر عليك ، ولم أجد السبب إلى ما التمسته إلا جمع الأبيات في الميسر وتدبرها ، والاستدلال على كيفيته باعتبارها ، ففعلتُ ذلك، وأودعت كتابي هذا منه ما أدّى إليه النظر ، ودلّ عليه الاستخراج ، وأسأل الله إرشادنا وإياك" (٣).

نماذج من التفسير في كتب ابن قتيبة :

(*) يقول ابن قتيبة : "وأما قوله عزّ وجل: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٤) فإنه نزل في قوم من اليهود سمعوا قوله عزّ وجل: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُوبِ اللَّهِ

(١) وفيات الأعيان (٤٢/٣) .

(٢) (ص١١٧) .

(٣) الميسر والقداح (ص٢٢-٢٣) .

(٤) سورة البقرة : ٢٦ .

أُولَئِكَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴿١﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ ﴿٢﴾ فقالوا: ما هذه الأمثال التي لا تليق بالله، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ ﴿٣﴾ من الذباب والعنكبوت، فقالوا: ما أراد بمثل ينكره الناس فيضل به كثيراً منهم، فقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٤﴾، تعني اليهود خاصة لأنهم ضلوا بالمثل وأنكروا ولم ينكره غيرهم" ﴿٥﴾.

﴿*﴾ ويقول: "ثم أتى الله بالإسلام فابتعث منها - أي من أمة العرب - النبي صلى الله عليه وسلم، سيد الأنبياء وخاتم الرُّسل، وناسخ كل شريعة، وحائز كل فضيلة، فنشر عددها، وجمع كلمتها، وأمدّها بملائكته، وأيدّها بقوته، ومكّن لها في البلاد، وأوطأها رقاب الأمم، وجعل فيها خلافة النبوة، ثم الإمامة خالدة تالدة حتى يأتي المسيح صلى الله عليه وسلم فيصلي خلف الإمام منها، فاردة لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، وخاطبها يومئذ ولا عجم فيها، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ﴿٦﴾، فلها فضل هذا الخطاب، والأمم طراً داخله عليها فيه، وأما قوله لبني إسرائيل: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧﴾، فإنها في باب العام الذي أريد به الخاص، كقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨﴾، وحكاية عن

(١) سورة العنكبوت: ٤١ .

(٢) سورة الحج: ٧٣ .

(٣) سورة البقرة: ٢٦ .

(٤) سورة البقرة: ٢٦ .

(٥) الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٣-١٠٥) .

(٦) سورة آل عمران: ١١٠ .

(٧) سورة الأعراف: ١٤٠ .

(٨) سورة الأنعام: ١٦٣ .

موسى : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١)، وقد كانت الأنبياء قبلهما مؤمنين، ومسلمين، وإنما أراد موسى زمانه، وكذلك قوله: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٢)، يريد عالمي زمانهم، وقوله لقريش : ﴿ أَهْمَ خَيْرٍ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّعُ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾^(٣)، ليس فيه دليل على أن أهل اليمن خير من قريش في الحسب، ولا أنهم مثلهم، وهم من ولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم، ومن الذرية التي اصطفى الله على العالمين، وليس لليمن والد من الأنبياء دون نوح، وإنما خاطب الله بها مشركي قريش، ووعظهم بمن قبلهم من الأمم المهالكة لمعصيته، وحثهم أن ينزل بهم مثل ما أصابهم فقال: ﴿ أَهْمَ خَيْرٍ ﴾ من أولئك الذين كانت فيهم التبابعة^(٤)، والملوك ذو الجنود، والعدد فأهلكناهم بالذنوب، والخير قد يقع في أسباب كثيرة، يقال: هذا خير الفارسين، يريد أجلدتهما، وهذا خير العودين، يريد أصلبهما، وكانت قريش - كما قال الله - قليلاً فكثرتهم ومستضعفين فأيدهم بنصره، وخائفين أن تتخطفهم الملوك فأمنهم بحرمه بما رهصه^(٥) لهم، وأراد وأراد من تمكينهم وإعلاء كلمتهم، وإظهار نوره لهم، وتغيير ممالك الأمم لهم^(٦).

(*) ويقول: " (الفقير، والمسكين) لا يكاد الناس يفرقون بينهما، وقد فرق الله تعالى بينهما في آية الصدقات فقال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾^(٧)، وجعل لكل صنف سهماً، والفقير: الذي له البلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له، قال الراعي^(٨):

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ٤٧ ، ١٢٢ .

(٣) سورة الدخان : ٣٧ .

(٤) التبابعة: ملوك اليمن، واحدهم تُبَعِّع، سُمُّوا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً له على مثل سيرته. [كتاب المعارف (ص ٣٤٨)، لسان العرب (١/٤١٨)].

(٥) رهص: أسس وثبت. [معجم مقاييس اللغة (ص ٤٠٦)].

(٦) فضل العرب والتنبية على علومها (ص ٩٠-٩١) .

(٧) سورة التوبة : ٦٠ .

(٨) الراعي: هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري، لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل، عاصر جريراً والفرزدق وكان يفضل الفرزدق، فهجاه جرير هجواً مرأً، وسماه بعض الرواة : حصين بن معاوية، توفي سنة (٩٠هـ). [أنظر: الشعر والشعراء (٢/٤١٥)، طبقات الشعراء (ص ٥٠٢)].

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حُلُوبُهُ وَفَقَّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبْدٌ^(١)

فجعل له حلوبة، وجعلها وفقاً لعياله، أي: قوتاً لا فضل فيه^(٢).

(*) ويقول: "والتُّصْبُ الشر؛ قال الله عزَّ وجل: ﴿بِئْسَ وَعَذَابٌ﴾^(٣)، و"التُّصْبُ"

ما نُصِبَ؛ قال الله عزَّ وجل: ﴿كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾^(٤)، وهو التُّصْبُ أيضاً، و"التُّصْبُ"

التَّعْبُ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(٥) (٦).

(*) ويقول: "إنما قيل لمدير الأمور عن الملك "وزير" من الوزر وهو الحمل، يراد أنه يحمل

عنه من الأمور مثل الأوزار وهي الأحمال، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ

الْقَوْمِ﴾^(٧)، أي أحمالاً من حليهم، ولهذا قيل للإثم: وزر، شُبَّهَ بالحمل على الظهر، قال الله

تبارك وتعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾^(٨) (٩).

(*) ويقول: "وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ﴾^(١٠)، فنفي عن خمر الجنة عيوب خمر الدنيا، وهو الصداع،

ونفاد الشراب، وذهاب العقل والمال ...

(١) البيت في ديوانه (ص ٥٦)، الحلوبة: الناقة أو الشاة متى كانت تحلب، وقوله "وفق العيال" معناه أن لها لبناً قدر

كفايتهم لا فضل فيه عنهم، السبد: هو الشعر أو الوبر. [تهذيب اللغة (٩/٣٤٢)، شرح أدب الكاتب للجواليقي

(ص ٥٧)].

(٢) أدب الكاتب (ص ٣٤).

(٣) سورة ص: ٤١.

(٤) سورة المعارج: ٤٣.

(٥) سورة الكهف: ٦٢.

(٦) أدب الكاتب (ص ٢١١).

(٧) سورة طه: ٨٧.

(٨) سورة الشرح: الآيتان ٢-٣.

(٩) عيون الأخبار (١/٥٠).

(١٠) سورة الواقعة: الآيات ١٧-١٩.

ونحو هذا قوله تعالى في فاكهة أهل الجنة: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾^(١) فنفي عنها عيوب فواكه الدنيا، لأن فواكه الدنيا تأتي في وقت وتنقطع في وقت، ولأنها ممنوعة إلا بالثمن

...

وقال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٢)، فالإثم العذاب، وكذلك الآثام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٣) أي عقاباً^(٤).

(* ويقول: " وكالحبل: يعبر بالعقد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(٥)، ولقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾^(٦)، أي بأمانٍ وعهدٍ، والعرب تسمي العهد حبلاً، قال الشاعر:

وَإِذَا جُجُوزَها حِبَالُ قَبِيلَةٍ أَحَدَتْ مِنَ الأخرى إِلَيْكَ حِبَالَهَا^(٧)

وكاللباس: يعبر بالنساء؛ لقوله جلّ وعزّ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾^(٨)^(٩).

(١) سورة الواقعة: الآية ٣٣ .

(٢) سورة البقرة: ٢١٩ .

(٣) سورة الفرقان: ٦٨ .

(٤) كتاب الأشربة (ص ٨٣-٨٤) .

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٣ .

(٦) سورة آل عمران: الآية ١١٢ .

(٧) ذكره ابن قتيبة في "المعاني الكبير" (١١٢٠/٢)، و"غريب الحديث" (٩١/١) منسوباً للأعشى الهمداني، وهو في ديوانه (ص ١٤٥)، وأوضح ابن قتيبة معناه في كتابه "المعاني" فقال: "يعني: ناقته، أي: إذا أخذت موثقاً من قبيلة، فجازت تريدك أخذت موثقاً آخر من قبيلة أخرى"، وقال في "الغريب": "يريد أنه يستجير بقوم بعد قوم، وتأخذ منهم عهداً بعد عهد حتى يصل".

(٨) سورة البقرة: ١٨٧ .

(٩) تأويل الرؤيا (ص ١٠٧) .

المطلب الثاني : كتبه المخطوطة والمفقودة .

المسألة الأولى : كتبه المخطوطة .

أولاً: كتاب "دلائل النبوة" .

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ)^(١)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٢)، والداودي (ت ٩٤٥هـ) ٩٤٥هـ)^(٣) بهذا الاسم، وذكره ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)^(٤)، باسم "دلائل النبوة من الكتب الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام"، ويسميه القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)^(٥)، والسخاوي (ت ٩٠٢هـ)^(٦) "أعلام النبوة"، وقد رواه عنه قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠هـ)، وابنه أحمد (ت ٣٢٢هـ)، كما في فهرس ابن خير (ت ٥٧٥هـ)^(٧).

توجد منه نسخة مخطوطة بالظاهرية حديث رقم (١٦٤) (ورقة ١٢٧-١٥٩)، وبالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية مخطوط بعنوان "معجزات النبي صلى الله عليه وسلم"، وبهذا الاسم ذكره أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) في كتابه "مراتب النحويين"^(٨).

ثانياً : رسالة في فضل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - .

مخطوطة في عشر ورقات مخرومة الآخر توجد في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٩/٩٩٣٠-٩٩٣٦) مجاميع، ذكرها الدكتور عبدالله الجبوري^(٩).

المسألة الثانية : كتبه المفقودة .

أولاً: كتاب "آداب العشرة" .

(١) الفهرست (ص ٨٥) .
(٢) بغية الوعاة (٦٣/٢) .
(٣) طبقات المفسرين (٢٤٦/١) .
(٤) نزهة الألباء (ص ١٦٠) .
(٥) ترتيب المدارك (٢٧٢/٥) .
(٦) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ٣٦٠) .
(٧) فهرسة ابن خير (ص ١٢٨) .
(٨) (ص ١٣٧) .
(٩) فهارس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف ببغداد (٢٣٦/٤) .

ذكره ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) في الفهرست ^(١).

ثانياً: كتاب "التفقيه".

ذكره القفطي (ت ٦٤٦هـ) ^(٢)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ^(٣)، وابن النديم؛ وقال: "رأيت منه ثلاثة أجزاء نحو ستمائة ورقة بخط نذك - أي ناعم - ، وكانت تنقص على التقريب جزئين ، وسألت عن هذا الكتاب جماعة من أهل الخط فزعموا أنه موجود وهو أكبر من كتب البنديجي (ت ٢٨٤هـ) ^(٤)، وأحسن من كتبه" ^(٥).

ثالثاً: كتاب "جامع النحو الصغير".

ذكره ابن النديم ^(٦)، والقفطي ^(٧)، والسيوطي (ت ٩١١هـ) ^(٨)، والداودي (ت ٩٤٥هـ) ^(٩).

رابعاً: كتاب "جامع النحو الكبير".

ذكره ابن النديم ^(١٠)، والقفطي ^(١١)، والسيوطي ^(١٢)، والداودي ^(١٣).

خامساً: كتاب "الحكاية والمحكى".

ذكره ابن النديم في الفهرست ^(١).

^(١) الفهرست (ص ٨٥) .

^(٢) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

^(٣) وفيات الأعيان (٤٢/٣) .

^(٤) أبو بشر اليمان بن أبي اليمان البنديجي ، النحوي الشاعر ، ولد أكمه سنة مائتين ، ونشأ ببنديج ، ثم خرج إلى بغداد فقرأ على محمد بن زياد الأعرابي ، ثم إلى البصرة ولقي ابن السكيت والزيادي والرياشي ، له من الكتب: كتاب "معاني الشعر" ، وكتاب "العروض" ، وكتاب "التفقيه" . [معجم الأدباء (٦/٢٨٤٤) ، بغية الوعاة (٢/٣٥٣)] .

^(٥) الفهرست (ص ٨٥) .

^(٦) المصدر السابق (ص ٨٥) .

^(٧) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

^(٨) بغية الوعاة (٦٣/٢) .

^(٩) طبقات المفسرين (٢٤٦/١) .

^(١٠) الفهرست (ص ٨٥) .

^(١١) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

^(١٢) بغية الوعاة (٦٣/٢) .

^(١٣) طبقات المفسرين (٢٤٦/١) .

سادساً: كتاب "حكم الأمثال" .

انفرد بذكره ابن النديم^(٢) .

سابعاً: كتاب "خلق الإنسان" .

ذكره ابن النديم^(٣)، والسيوطي^(٤)، والداودي^(٥) .

ثامناً : كتاب "الصيام" .

ذكره الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في سير أعلام النبلاء^(٦)، وذكره ابن قتيبة في كتابيه "المسائل

والأجوبة"^(٧)، و"الأنواء"^(٨) .

تاسعاً: كتاب "العلم" .

ذكره القفطي^(٩)، وابن النديم، وقال: "نحو خمسين ورقة"^(١٠) .

عاشراً: كتاب "عيون الشعر" .

ذكره ابن النديم، وقال: إنه يحتوي على عشرة كتب: كتاب المراتب، كتاب القلائد،

كتاب المحاسن، كتاب المشاهد، كتاب الشواهد، كتاب الجواهر، كتاب المناقب، كتاب المعاني،

كتاب المدائح^(١١) .

حادي عشر: كتاب "فرائد الدر" .

انفرد بذكره ابن النديم في الفهرست^(١٢) .

(١) الفهرست (ص ٨٥) .

(٢) المصدر السابق (ص ٨٥) .

(٣) المصدر السابق (ص ٨٥) .

(٤) بغية الوعاة (٢/٦٣) .

(٥) طبقات المفسرين (١/٢٤٦) .

(٦) (٢٩٧/١٣) .

(٧) (ص ١٥٩) .

(٨) (ص ١١٨) .

(٩) إنباه الرواة (٢/١٤٣) .

(١٠) الفهرست (ص ٨٥) .

(١١) الفهرست (ص ٨٥) .

(١٢) المصدر السابق (ص ٨٥) .

ثاني عشر : كتاب "الفقه" .

ذكره القفطي^(١)، وذكره ابن النديم باسم "جامع الفقه"^(٢)، وذكر الكتاب قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠هـ) - تلميذ ابن قتيبة - ، وبين أنه نقل فيه عن شيخه ابن راهويه (ت ٢٣٨هـ) شيئاً كثيراً^(٣).

ثالث عشر : كتاب "القراءات" .

ذكره ابن النديم^(٤)، والذهبي^(٥)، وذكره القفطي^(٦)، وابن خلكان^(٧) باسم "إعراب إعراب القراءات"، وذكره ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن"^(٨)، و"غريب القرآن"^(٩)، و"المسائل والأجوبة"^(١٠).

وذكر الكتاب أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، وأشار إلى أنه اعتمد فيه على كتاب القراءات لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، حيث يقول:

وفي الحروف لأبي محمد
علقه بكتب الإمام
القتبي مختصر مجرد
أبي عبيد مفخر الأنام^(١١)

رابع عشر : كتاب "النسب" .

ذكره ابن قتيبة في كتابه "المعارف"^(١٢).

(١) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

(٢) الفهرست (ص ٨٥) .

(٣) نقلاً عن الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٠١/١٣) .

(٤) الفهرست (ص ٨٥) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٩٧/١٣) .

(٦) إنباه الرواة (١٤٣/٢) .

(٧) وفيات الأعيان (٤٢/٣) .

(٨) (ص ٦٤، ٥٣١) .

(٩) (ص ١٦) .

(١٠) (ص ٢٢٥) .

(١١) الأرجوزة المنبهة (ص ١٥٤) .

(١٢) (ص ٧٠) .

ويذكر المترجمون لابن قتيبة كتباً أخرى، ويظهر أنها ليست كتباً مستقلة، بل هي أبواب من كتب، إذ كان من عادة ابن قتيبة أن يعتمد إلى تقسيم كتابه إلى أبواب وكتب، ومن ذلك كتاب "الفرس" الذي ذكره القفطي^(١)، وهو من كتاب "المعاني الكبير"، وكتاب "المراتب والمناقب" الذي ذكره ابن النديم^(٢)، وهو من "عيون الشعر"، وكتاب "الأبنية" الذي ذكره القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)^(٣)، وهو من "أدب الكاتب"، وكتاب "تقويم اللسان" الذي ذكره ذكره حاجي خليفة (ت ١٠٧٦هـ)^(٤)، وهو من "أدب الكاتب".

(١) إنباه الرواة (٢/٤٣١) .

(٢) الفهرست (ص ٨٥) .

(٣) ترتيب المدارك (٥/٢٧٢) .

(٤) كشف الظنون (١/٤٧٠) .

المبحث الرابع

خصائص التصنيف عند ابن قتيبة

ألف الإمام ابن قتيبة كتباً عظيمة في شتى فروع العلوم الإسلامية، امتازت بالأصالة والجددة، وحسن الترتيب والتنظيم، وكانت لونهاً جديداً خالصاً من شوائب الاستطراد والتخليط ومساوئ التأليف والتصنيف، من نظر إليها لم يرَ إلا رجلاً واحداً، وأسلوباً واحداً، ومنهجاً مستويماً يعم الجميع، بناه ابن قتيبة لنفسه، وظل يتعهده بالرعاية والعناية إلى آخر حياته، أثمر هذه الكتب الجليلة التي تثري العلم وتنمي الذوق الأدبي، وتصلق الفكر، وتوسع المدارك، جاء فيها إمامنا بالجديد في مجال التصنيف، وأسهم من خلالها بحظ موفور في تطور مناهج البحث والتأليف.

وقد أعانه على هذا الإبداع - بعد توفيق الله تعالى - امتلاكه للبيان المشرق الرصين، واقتداره على النقد العلمي المتين، وسعة باعه، وعمق إدراكه، وتشعب ثقافته، وتنوع أسباب معرفته، وكان مع هذا مخلصاً لربه، نذر نفسه وفكره وعقله لدينه، وقضى حياته مجاهداً في سبيل إعزازه، والتمكين له، ودرء الشبه المثارة حوله، فأثابه الله على إخلاصه بما أفاض على كتبه من القبول، وبما أناله من التقدير والإجلال، ومن هنا رأينا أهل المغرب يقدرونه، فيقولون: "من استجاز الوقعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة"، ويقولون - أيضاً - "كل بيت ليس فيه شيء من تصنيف ابن قتيبة لا خير فيه"^(١).

والناظر في مصنفات ابن قتيبة والدارس لها يمكنه أن يلحظ جملة من خصائص التصنيف عند ابن قتيبة، كان من خلالها من أجود المصنفين تأليفاً، وأغزرهم إنتاجاً، وأكثرهم إمتاعاً، ومن أبرز هذه الخصائص:

أولاً: التبحر.

وتبرز هذه الخصيصة من خلال الأمور التالية:

(١) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٧).

أ. كثرة التأليف .

أقبل الإمام ابن قتيبة على التأليف بهمة عالية وجد كبير، وكان من شأنه أن يخلو إلى نفسه في بيته فيؤلف كتبه، ويجود تأليفها، ثم يخرجها للناس ويقرئها لمن شاء من طلاب العلم، فحصل له من ذلك حظ عظيم، وكم من المؤلفات وفير، جعل المترجمين له يتفقدون على الإشادة بكثرة مؤلفاته وجودتها، كما فعل أبو الحسن القطان (ت ٣٤٥هـ)^(١)، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)^(٢)، والنووي (ت ٦٧٦هـ)^(٣)، وشيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ)^(٤)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٥)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٦).

ولا شك أن هذه الكثرة في التصنيف والسعة في التأليف تدل على تبحر الإمام ابن قتيبة وسعة اطلاعه وغزارة معرفته.

ب. التنوع والتنوع .

كما أشاد المؤرخون بكثرة التصنيف عند الإمام ابن قتيبة؛ فإنهم كذلك أثنوا على تفننه وتنوع مصنفاته، فالمؤلفات العديدة التي أودعها ابن قتيبة المكتبة الإسلامية لم تقتصر على فن أو فنين بل شملت أغلب ميادين العلوم الإسلامية والعربية، ففي الدراسات القرآنية أتحفنا بـ "تأويل مشكل القرآن"، و"تفسير غريب القرآن"، و"القراءات"، وفي الدراسات الحديثية أمتعنا بـ "تأويل مختلف الحديث"، و"غريب الحديث"، و"إصلاح غلط أبي عبيد"، و"المسائل والأجوبة"، وفي الدراسات العقديّة كان "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبّهة"، وفي الفقه زدنا بكتابه "الأشربة"، و"الميسر والقдах"، وفي مجال النقد والأدب والشعر واللغة كانت مصنفات "عيون الأخبار"، و"الشعر والشعراء"، و"المعاني الكبير"، و"أدب الكاتب"، وفي التاريخ ألف كتابه "المعارف"، وفي الفلك كتاب "الأنواء"، وفي الرؤيا كتابه "تأويل الرؤيا"، إلى غير ذلك من المصنفات المتنوعة.

(١) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليلي (٢/٦٢٦).

(٢) تاريخ بغداد (١١/٤١١).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٨١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٣٩١).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٣/٢٩٦).

(٦) البداية والنهاية (١٤/٦٢٣).

ولم يكن التفنن عند الإمام ابن قتيبة في تنوع مصنفاته فحسب، بل كان التفنن حاضراً عنده في المصنف الواحد، إذ سلك في أغلب مصنفاته المسلك الموسوعي الشامل، حيث يتنقل القارئ لمصنفة من تفسير الآيات الكريمة وبيان غريبها، إلى شرح الأحاديث الشريفة وتفسير غريبها، ومنها إلى الفقه والأحكام، والمواعظ والحكم، والأخبار والقصص، وفيها الاختيارات الشعرية وأبيات المعاني، والشروح اللغوية، والمسائل النحوية والصرفية، إلى غير ذلك من العلوم . وهذا التفنن والتنوع في مصنفات ابن قتيبة يظهر وجهاً آخر من أوجه التبحر والتوسع عند هذا الإمام.

ج . سعة الثقافة ، وتعدد المصادر وتنوعها.

يلمح الناظر لمصنفات ابن قتيبة مظهراً آخر من مظاهر التبحر عند هذا الإمام، يتمثل في سعة ثقافته التي اكتسبها من وفرة مصادره وتنوعها، ومن مجالساته ومطالعاته المتعددة، فقد شارك في مطلع شبابه في حلقات أهل الكلام، فدرس علم الكلام، وأخذ طرفاً من علوم الفلسفة والمنطق، ثم غادرهم إلى أوساط أصحاب الحديث وأئمة اللغة، فتعمق في علوم العربية والتفسير والحديث والفقه، ولم تقتصر معارفه على مختلف علوم الإسلام، بل تعداه إلى الاطلاع على الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، وقد نقل عنها نقولاً دقيقة تدل على إحاطته بتلك الكتب، كما اطلع على كثير مما نُقل عن اليونانية والهندية وكتب العجم إلى العربية، إضافة إلى إحاطته بالتراث الفارسي الذي يتقن لغته كما يتقن العربية، وكان هذا جلياً لقارئ كتبه، فيجده يقول فيها: "وقرأت في الإنجيل"^(١)، "وقرأت في التوراة"^(٢)، "وقرأت في التاج"^(٣)، و"قرأت في بعض كتب العجم كتباً لأردشير بن بابك إلى الرعية"^(٤)، و"قرأت في كتاب الآيين"^(٥)، و"قرأت في كتاب للهند"^(٦)، و"قرأت في آداب ابن المقفع"^(٧)، و"اليتيمة"^(٨)، له ، وهذا كثير

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٠٠)، كتاب المعارف (ص ٣٤) .

(٢) المعارف (ص ١١)، غريب الحديث (١/١٠٧) .

(٣) عيون الأخبار (١/٥٥)، وهو كتاب في سيرة أنوشروان كسرى الأول [كتاب المعارف (ص ٣٧٠)] .

(٤) المصدر السابق (١/٥٧)، وأردشير بن بابك هو مؤسس الدولة الساسانية [كتاب المعارف (ص ٣٦٤)] .

(٥) المصدر السابق (١/٥٣)، وهو كتاب في أنظمة الملك والدولة الساسانية (الإمبراطورية الفارسية الثانية) .

(٦) فضل العرب (ص ١٩١) .

(٧) عيون الأخبار (١/٧١) .

كثير في مصنفاته لا سيما "عيون الأخبار"، و"المعارف"، ولم يكتف بمجرد القراءة وسيلة للاطلاع، بل تجده أحياناً يسأل أصنافاً شتى من الناس عن أمور يرغب في التعرف عليها كالفلك والطب ونحو ذلك، كما جاء في كتبه "الأنواء"^(٢)، و"عيون الأخبار"^(٣)، و"تأويل مختلف الحديث"^(٤).

وهذه المصادر المتعددة والمتنوعة التي نهل منها الإمام ابن قتيبة أدت إلى تكامل علومه وشمول ثقافته وموسوعيتها مما مكّنه من التفنن في التصنيف، والإجادة في التأليف، وبهذا يظهر التبحر في مصنفات ابن قتيبة .
د . التعمق في معالجة الموضوع .

برز تبحر ابن قتيبة في مصنفاته من خلال تعمقه في معالجة القضايا المختلفة في مصنفاته المتعددة ، وليس مقصوداً بالتعمق ذلك الاستطراد الذي كان شائعاً عند الكثير من معاصريه، بل المراد به الرسوخ والتمكن والإحاطة بالمواضيع التي يتناولها، ومن ثمّ معالجتها بمنهج علمي قويم وبأسلوب واضح جلي، يكشف الموضوع ويحلّي تفاصيله، وتظهر هذه المزية بوضوح فيما تناوله من ردودٍ على الشبهات والمطاعن، وفيما أورده من دفعٍ للإشكال عن الكتاب والسنة.
ثانياً : التنظيم والترتيب والتنسيق .

وكانت هذه من أروع الخصائص والمميزات التي اتسمت بها مصنفات ابن قتيبة ، حيث كانت كتبه مرتبة منظمة في أدق نسق ، تشيع فيها الوحدة الموضوعية، فلا تجد فيها استطراداً ولا خروجاً عن دائرة الموضوع الذي تعالجه، وقد عرف له العلماء ذلك، فأشادوا بحسن تنظيمه وبراعة تنسيقه ، والحق أن الإمام ابن قتيبة بهذا الصنيع قد أضاف لوناً جديداً في التأليف لم يكن معهوداً في كثير من المؤلفات قبله.

وتبرز هذه الخصيصة من خلال الأمور التالية:
أ . إفراده الموضوعات بكتب خاصة .

(١) المصدر السابق (٤٩/١) .

(٢) (ص٢) .

(٣) (٤٢/١) .

(٤) (ص١٥٧) .

كان من صور التنظيم والتنسيق عند ابن قتيبة تقسيم الموضوعات وإفرادها بالتصنيف، بحيث يكون منهجه في التأليف أقرب إلى طريقة المختصين الذين يعالجون كل مشكلة في كتاب مستقل، وغرضه من ذلك ألا يتضخم الكتاب بحيث يصعب حفظه ونقله والاستفادة منه، وكان هذا سبباً في كثرة كتبه ومؤلفاته.

يقول ابن قتيبة في مقدمة "عيون الأخبار" - توضيحاً لهذا الأمر - :

"ولني حين قسمت هذه الأخبار والأشعار وصنفتها وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع في عشرة كتب ، بعد الذي رأيت إفراده عنها وهو أربعة كتب متميزة ، كل كتاب منها مفرد على حدته ، كتاب الشراب، وكتاب المعارف، وكتاب الشعر، وكتاب تأويل الرؤيا"^(١).

ومن ذلك - أيضاً - تجريده كتاب "غريب الحديث" من التعقيب والاستدراك على أبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، وإفراده ذلك في مصنفه "إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث".
ب. مطابقة العنوان لموضوع الكتاب .

كان من مظاهر المنهجية والتنسيق عند ابن قتيبة حرصه وتدقيقه في مطابقة العنوان لموضوع الكتاب، والناظر في عناوين كتبه يلحظ أنها مكتفية بنفسها لا تحتاج إلى مزيد بيان، بل تعبر عن مضمون الكتاب ومحتواه أصدق تعبير.

ومن الأمثلة عليه : كتاب "فضل العرب والتنبية على علومها"، كان على قسمين، أنبأ عنهما عنوان الكتاب، تناول في القسم الأول فضل العرب ومكانتهم على مر العصور، فيما نبّه في القسم الثاني على العلوم التي انفرد بها العرب ، ولم يخل القسمان من قضايا جانبية تقوي الأصل الذي بُني عليه ، وتبينه بجلاء .

ومثله كتاب "الشعر والشعراء" حيث كان على قسمين، نطق بهما عنوان الكتاب، ففي القسم الأول "الشعر" أسهب في الحديث عن الشعر وماهيته، وعن القصيدة وبنائها، وضمه الكثير من قضايا النقد الشعري، ثم انتقل في القسم الثاني إلى الشعراء فقدم تراجم مفيدة لعدد منهم من طبقات مختلفة وعصور متباينة ، ضمنها بعضاً من أخبارهم وأشعارهم، وبهذا ظهر التطابق التام بين عنوان الكتاب وموضوعه.

(١) (٤٢/١).

ج . الالتزام بموضوع الكتاب وعدم الاستطراد :

كان الالتزام بموضوع الكتاب وعدم الخروج عن الغرض الذي أُلّف من أجله سبباً رئيساً في خروج مصنفات ابن قتيبة بهذا التنسيق البديع والتنظيم المحكم ، إذ كان الإمام ابن قتيبة - بخلاف سابقه ومعاصره - حريصاً على الالتزام بموضوع الكتاب وغرضه فلا يسمح بالاستطراد أو الحشو الذي يخلخل الكلام أو يفقده سياقه، فتجده - مثلاً - يقول في كتابه "الأشربة" - بعد أن ذكر جملة من حجج وأخبار المحللين لما دون السكر - :

"ومثل هذا كثير يطول باقتصاصه الكتاب ، ويخرج عن فنه، ونحن نعوذ بالله منه أن نتزين عند الناس بما يشيننا عنده ، أو نتقرب إليهم بما يباعدا منا، وأن نشرك بعبادة ربنا أحدا"^(١). ويقول في تأويل مختلف الحديث: "وأشبه هذا في القرآن والحديث يكثر ويطول، ولم يكن قصدنا في هذا الموضوع الاحتجاج على القدرية فنذكر ما جاء في الرد عليهم ونذكر فساد تأويلاتهم واستحالتها"^(٢).

ومثل هذا كثير عند ابن قتيبة ، وحين يحتاج للاستطراد في موضوع معين فإنه غالباً يحيل إلى كتبه المختصة به، ومن هنا كانت كثرة الإحالات في كتبه ، ومن ذلك قوله في "المسائل والأجوبة" :

"وليس لنا أن نستعمل - في القراءات - إلا ما ثبت في مصحفنا ، لأنه آخر العرض، ولأن الذي جمعه بين اللوحين أراد جمعنا عليه ، وألا نفترق ، ونختلف، وفي هذا كلام يطول ويكثر، وقد أودعت كتابي المؤلف في مشكل القرآن طرفاً منه"^(٣).

د . الاختصار وعدم الإطالة :

كان ظاهراً من منهج ابن قتيبة في مصنفاته الميل إلى الاختصار وعدم الإطالة، وكان يهدف من ذلك إلى أن تكون كتبه وجيزة خفيفة قريبة للحفظ لمن أراد ذلك، وقد نصّ على هذا في أكثر من كتاب، منها قوله في "أدب الكاتب" : "فعملتُ لمغفل التأديب كتباً خفياً في

(١) (ص ١٠٨) .

(٢) (ص ٢٢) .

(٣) (ص ٢١٤) .

المعرفة وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كل كتاب منها على فن، وأعنيته من التطويل والثقل، لأنشطه لِتَحْفُظِهِ ودراسته إن فاءت به همته"^(١).

وقال في مقدمة كتاب "المعارف": "وكان غرضي في جميع ما اقتضت الإيجاز والتخفيف، والقصد للمشهور من الأنباء دون المغمور، ولما يجري له سبب على السنة الناس، دون ما لا يجري له سبب، ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب حتى يُعجز عن نسخه فضلاً عن حفظه"^(٢).

ويقول في "غريب القرآن": "وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا: أن نختصر ونكمل، وأن نوضح ونحمل، وأن لا نستشهد على اللفظ المبتدل، ولا نكثر الدلالة على الحرف المستعمل، وأن لا نحشو كتابنا بالنحو والحديث والأسانيد، فإننا لو فعلنا ذلك لأسهنا في القول وأطلنا الكتاب، وقطعنا منه طمع المتحفظ وبعادناه من بغية المتأدب"^(٣).

وهذا الذي ذكره وانتهجه في غريب القرآن، وأعني به حذف الأسانيد والأعاريب ونحو ذلك مما ليس له صلة مباشرة بموضوع الكتاب يعد صورة من صور الاختصار في مصنفاته، ويلمح القارئ للكتاب شكلاً آخر من أشكال الاختصار يتمثل في إيجاز العبارة وسهولتها مع تمام المعنى، من ذلك قوله في سورة الفاتحة: "وَالصِّرَاطَ" ^(٤) الطريق ^(٥)، وفي سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ^(٦)، فرض ^(٧)، وهذا كثير في كتبه الأخرى.

ومن مظاهر الاختصار عند ابن قتيبة الاكتفاء بأدلة والشواهد والأقوال وأوفائها وأدائها على المقصود، يقول في كتاب "الأشربة" - بعد أن ذكر بعض الأحاديث الدالة على تحريم المسكر قليله وكثيره -:

(١) (ص ١٤).

(٢) (ص ٦).

(٣) (ص ٣).

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٥) غريب القرآن (ص ٣٨).

(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

(٧) غريب القرآن (ص ٧٣).

"مع أشباه لهذا من الحديث يطول الكتاب باستقصائها، وفيما ذكرنا من هذه الأحاديث غنى عن ذكر جميعها ، لأنها أغلظها في التحريم ، وأشدّها إفصاحاً به، وأبعدها من حيلة المتأول" ^(١).

وفي تأويل مشكل القرآن يقول: "ومثل هذا كثير، وفيما ذكرنا منه ما أقنع ودلّ على ما أردناه إن شاء الله تعالى" ^(٢).

ويقول في "غريب الحديث" : "ومثل هذا كثير يطول بذكره الكتاب، وفيما ذكرت فيه ما دلّ على ما أوردت" ^(٣).

هـ. كثرة الإحالات :

وتعدُّ صورة من صور الاختصار - آنف الذكر - وشكلاً من أشكال التنسيق والتنظيم، وهي من السمات البارزة من أسلوب ابن قتيبة في مصنفاته ، حيث يكثر من الإحالة إلى كتبه المتنوعة ، فكان ما يبحثه بتفصيل في كتاب لا يرى ضرورة لإعادته مرة أخرى ، بل يحيل إلى ذلك الكتاب لمن طلب الزيادة والتوسع، وهي لفئة منهجية قوامها التنظيم والتنسيق، ونتيجتها الاختصار والبعد عن التكرار .

يقول ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" : "غير أبي رأيت ما ذكرتُ من ذلك في كتاب "العرب" كثيراً كافيًا، فكرهت الإطالة بإعادته، فمن أحب أن يعرف ذلك ، ليستدل به على حلو الشعر ومره، نظر في ذلك الكتاب إن شاء الله" ^(٤).

وكان هذا الأسلوب شائعاً في كتبه، ويكثر في الكتب المرتبطة والمتمة لبعضها، ومن هنا كانت الإحالات في "تفسير غريب القرآن" إلى كتابه "تأويل مشكل القرآن" تربو على المئة إحالة، ومثلها الإحالات في "تأويل مختلف الحديث" إلى "غريب الحديث" .

و . تجزئة كتبه :

كان تقسيم الكتب وتجزئتها وجهاً آخر من أوجه التنظيم والتنسيق التي تميزت بها كتب ابن قتيبة ، حيث كان الإمام يعمد إلى تقسيم أغلب كتبه لا سيما المطول منها، فقد قسم

^(١) (ص ٣٣) .

^(٢) (ص ٩٨) .

^(٣) (ص ٥) .

^(٤) (ص ٦٤) .

كتابه "المعاني الكبير" إلى اثني عشر كتاباً، وكتاب "عيون الأخبار" إلى عشرة كتب، ومثلها قسم كتاب "عيون الشعر"، وقسم "أدب الكاتب" إلى أربعة كتب، وجعل كتبه "الشعر والشعراء" و"فضل العرب" و"الاختلاف في اللفظ" على جزأين لكل منها .
ز . الوحدة الموضوعية :

إن من أجل صور التنسيق والتنظيم التي تدعو إلى الإعجاب بمصنفات ابن قتيبة وتجعلها تحظى بذلك القبول تلك الوحدة الموضوعية التي تشيع فيها، وهو ما يلحظه القارئ لجميع كتبه بلا استثناء ، ومن ذلك كتابه "تأويل مشكل القرآن" الذي وضعه للرد على الزنادقة والملحدون ، فيما ادعوه من التناقض والاختلاف ، فرّق الحديث فيه على أبواب متنوعة، بدأها بالقراءات ، فالمتشابه، ومنها إلى أبواب المجاز المختلفة، فموهم الاختلاف والتناقض، ثم الوجوه والنظائر، فحروف المعاني، وختمها بالحديث عن تضمين الحروف، ويجمع هذه الأبواب المختلفة أنها تعالج الموضوع العام حيث كانت سبباً لوقوع الإشكال، ومن ثم احتاج الإمام إلى تفصيل الحديث عنها وصولاً إلى تأويل المشكل، والرد على المطاعن والشكوك، وقد تنقل بين تلك الأبواب بشكل سلس مترابط يبرز الوحدة الموضوعية التي كان عليها الكتاب .

وقل مثل هذا في بقية مصنفاته ، حتى في كتبه التي عمد إلى تقسيمها وتجزئتها تجدد لكل كتاب أو قسم فيها فصوله المترابطة معه، وكأنها حلقات في سلسلة متتابعة ليس في داخلها ما يوهن العلاقة بينها، بل يشد بعضها بعضاً ، فيظهر الكتاب وقد أحكمت فصوله ونُسقت مواده تنسيقاً دقيقاً ، يخدم غرض الكتاب وموضوعه، ومن ذلك : كتاب "عيون الأخبار" قسمه عشرة كتب ، قال في مقدمته: "وهذه عيون الأخبار صنفتها أبواباً ، وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها".

وقد اتفق الدارسون على أن ابن قتيبة أوفى بما وعد، وأن كتابه خرج مرتباً مبوباً في أدق نسق^(١).

ط . التقديم لمؤلفاته :

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، (ص ٦٢٠)، مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، د. مصطفى الشكعة (ص ١٨٨) .

كان للمقدمات البديعة التي يفتح بها الإمام ابن قتيبة كتبه أثر واضح في خروج تلك المصنفات بصورة غاية في الدقة والتنسيق والتنظيم، فقد كان ابن قتيبة يوجه كبير عنايته وبالغ اهتمامه لتلك المقدمات، فيقدم لكل كتاب - باستثناء كتاب "المسائل والأجوبة" وقد أُنبت عن السبب في ذلك^(١) - بمقدمة مستفيضة يذكر فيها الباعث على تأليفه والغرض منه، ويبين فيها المادة العلمية ومنهجه فيها، كما يُضمن مقدمة كل كتاب مسائل ومباحث مهمة يترتب عليها فهم المادة العلمية المطروقة في الكتاب، كما فعل في مقدمة "تأويل مشكل القرآن"، و"تأويل مختلف الحديث"، و"غريب القرآن"، و"الشعر والشعراء"، وهذا لون من ألوان التنظيم والتنسيق، أضافه ابن قتيبة للمكتبة الإسلامية.

وكان للمقدمات عند ابن قتيبة غرض آخر مهم، وهو الدلالة على محتوى الكتاب وترتيبه إذ كانت أشبه بملخص الكتاب أو فهرس موضوعاته، يقول ابن قتيبة في مقدمة "عيون الأخبار" - تحقيقاً لهذا الغرض - :

"فهذه أبواب الكتب جمعتها لك في صدر أولها لأعفيك من كد الطلب وتعب التصفح وطول النظر عند حدوث الحاجة إلى بعض ما أودعتها، ولتقصد فيما تريد حين تريد إلى موضعه، فتستخرجه بعينه أو ما ينوب عنه ويكفيك منه"^(٢).

ثالثاً : التكميل والتميم .

لقد كان بادياً من منهج ابن قتيبة سعيه الحثيث إلى تكميل الموضوعات والفنون التي صنف فيها و تتميمها، وقد نصّ على هذا الغرض في كثير من كتبه، منها قوله في مقدمة "عيون الأخبار" الذي وضعه تميماً لكتابه "أدب الكاتب" :

"وإني كنت تكفلت لمغفل التأدب من الكتاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد... ، وشرطت عليه مع تعلم ذلك تحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطورها متمثلاً إذا كاتب، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف إذا حاور، ولما تقلدت له القيام ببعض آلتها دعيتني الهمة إلى كفايته وخشيت إن وكلته فيما بقي إلى نفسه وعوّلت له على اختياره أن تستمر مريرته على التهاون، ويستوطئ مركبه من العجز فيضرب صفحاً عن الآخر

(١) انظر : (ص ٩٨) من هذه الرسالة .

(٢) (٤٤/١) .

كما ضرب صفحاً عن الأول، فأكملت له ما ابتدأت وشيدت له ما أسست وعملت له في ذلك عمل من طَبَّ لمن حَبَّ ، بل عمل الوالد الشفيق للولد البر، ورضيت منه بعاجل الشكر وعوّلت على الله في الجزاء والأجر"^(١).

وقد تمّم هذا الكتاب "عيون الأخبار" بأربعة كتب ؛ هي : "المعارف"، و"الأشربة"، و"تأويل الرؤيا"، و"الشعر والشعراء"، ثم تم الكتاب الرابع منها بكتاب "المعاني الكبير"، كما صنف "غريب الحديث" ، وتممه بثلاثة كتب: "تأويل مختلف الحديث"، و"إصلاح غلط أبي عبيد"، و"المسائل والأجوبة"، ووضع كتاب "تأويل مشكل القرآن"، وتممه بـ"تفسير غريب القرآن".

ولم يكن التتيميم بوضع المصنفات التي تكمل بعضها فحسب، بل ظهر هذا الغرض في المصنف الواحد من خلال الملاحق التي يضعها ابن قتيبة في آخر كتبه ، كما في "تأويل مشكل القرآن"، حيث ختمه بملحق شرح فيه بعض الأحاديث والآثار والغريب الوارد في الكتاب، ومثله الملحق الذي ختم به كتاب "المسائل والأجوبة".

رابعاً : المراجعة والتعديل .

كان لهذه الخصيصة أثر جلي في خروج مصنفات ابن قتيبة بهذه الدقة والجودة ، حيث كان الإمام ابن قتيبة يتعاهد كتبه بالمراجعة والتعديل والتصحيح ، يقول ابن قتيبة في مقدمة "غريب الحديث" :

"وكنت حين ابتدأت في عمل الكتاب أطلعت عليه قوماً من حملة العلم والطالبين له، وأعجلتهم الرغبة فيه والحِرْصُ على تدوينه عن انتظار فراغي منه، وسألوا أن أخرج لهم من العمل ما يرتفع في كلِّ أسبوع، ففعلتُ ذلك، حتى تمَّ لهم الكتاب وسمعوه وحملهُ قوم منهم إلى الأمصار، ثم عَرَضْتُ بعد ذلك أحاديث كثيرة فعملت بها كتاباً ثانياً يُدعى كتاب "الزوائد في غريب الحديث" ثم تدبرت الكتابين، فرأيت الأصوب في الرأي أن أجمعهما، وأقدم ما سبيله أن يُقدّم، وأوخر ما سبيله أن يؤخر، وأحذف ما سبيله أن يُحذف، فمن رأى ذينك الكتابين على

(١) (٣٧/١) .

غير تأليف هذا الكتاب فليعلم أنَّهما شيء واحد، وأنَّ الاختلاف بينهما إنما هو بتقديم وتأخير ومكرر من التفسير^(١).

وهذا وإن كان يدل على حصول المراجعة والتعديل قبل خروج الكتاب بشكله النهائي، إلا أنه يؤول إلى استمرارية المراجعة بعد ذلك، إذ يشير إلى أن من عادته النظر المستمر في كتبه ومراجعتها للإضافة والتعديل، ويقوي هذا وجود بعض الإحالات في كتبه المتقدمة إلى كتبه المتأخرة عنها، ولا تفسير لذلك إلا لوجود المراجعة والإضافة.

خامساً : جمالية الأسلوب وعضوبة البيان .

كان الإمام ابن قتيبة كاتباً أديباً متدفق البيان خصب الخيال ذا ذائقة نقية وموهبة خلقة مكنته من أن يؤلف مؤلفات بديعة أنيقة تتسم بجمال الأسلوب وعضوبة البيان، وقد شهد له بذلك كبار العلماء ، كالأزهري (ت ٣٧٠هـ)^(٢)، والخطيب (ت ٤٦٣هـ)^(٣)، وشيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ)^(٤)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٥)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٦).

وتعود الجاذبية العظيمة لمؤلفات ابن قتيبة لهذا السبب ، إذ جاءت بأسلوب لفظي من أسمح الأساليب وأجملها، وأبعدها عن التكلف والتعير ، وأدقها في الدلالة على المراد، ذلك أن إمامته في اللغة ، وروايته لآثارها ، وطول إلفه لأساليبها وعباراتها قد وضع بين يديه ذخيرة حافلة متنوعة من الصور اللفظية والألوان اللغوية ، استطاع من خلالها أن يجمع بين الدقة والجمال، بأسلوب يمتاز بوضوحه ، واصطفاء ألفاظه بحيث لا تجد فيها أي نشاز أو اضطراب ، فجاءت مصنفاته بهذا الأسلوب الأدبي الرائع المتناسق ، الذي تستريح له الأذن، وتجد فيه القلوب والعقول متاعاً لا ينفد .

(١) (٦/١) .

(٢) تهذيب اللغة (٢٥٤/١٣) .

(٣) المتفق والمفترق (١٤٢٤/٣) .

(٤) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٧) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٩٦/١٣) .

(٦) البداية والنهاية (٦٢٣/١٤) .

وأحتم بانتخاب قطعة من مقدمة طويلة نفيسة شيقة لكتابه "أدب الكاتب"، يتضح من خلالها الكثير من الخصائص التي تطرقت إليها في هذا المبحث، ويتبين منها سبب جودة التأليف عند الإمام ابن قتيبة، يقول فيها:

"أما بعد حمد الله بجميع محامده، والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على رسوله المصطفى وآله، فإني رأيتُ أكثرَ أهلِ زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه مُتَطَيِّرِينَ، ولأهله كارهين: أما الناشئُ منهم فراغبٌ عن التعليم، والشَّادي^(١) تاركٌ للازدياد، والمتأدِّبُ في عُنفوانِ الشبابِ ناسٍ أو مُتَنَاسٍ، ليدخلَ في جملة المجدودين^(٢)، ويخرجَ عن جملة المحدودين^(٣)، فالعلماءُ مُغْمُورُونَ، وبِكَرَّةِ الجَهْلِ مَقْمُوعُونَ، حينَ حَوَى نَجْمُ الخَيْرِ، وكسدتْ سوقُ البرِّ وبارتْ بضائعُ أهله، وصارَ العِلْمُ عارًا على صاحبه، والفضلُ نقصًا وأموالُ الملوكِ وقفا على شهواتِ النفوسِ، والجاهُ الذي هو زكاةُ الشرفِ يُبَاعُ بِيَعِ الحَلَقِ، وَأَصَتْ^(٤) المُرُوءَاتُ في زخارفِ النَّجْدِ^(٥)، وتشبيدُ وتشبيدُ البُنْيَانِ، ولَدَّاثُ النفوسِ في اصطفاقِ المَزَاهِرِ ومُعَاطَاةِ النَّدْمَانِ^(٦)، وَوُبِدَّتِ الصَّنَائِعُ، وجُهِلَ قَدْرُ المَعْرُوفِ، ومَاتَتِ الخَوَاطِرُ، وَسَقَطَتْ هِمَمُ النفوسِ، وَزُهِدَ في لسانِ الصدقِ ...

فلما أن رأيتُ هذا الشأنَ كل يومٍ إلى نُقْصَانٍ، وخشيتُ أن يذهبَ رَسْمُهُ ويعفُو أثره؛ جعلتُ له حظًّا من عِنَايَتِي، وجزءًا من تَأْلِيفِي؛ فعملتُ لمُغْفَلِ التَّأْدِيبِ كُتُبًا خفَافًا في المَعْرِفَةِ، وفي تقويمِ اللسانِ واليدِ، يشتملُ كلُّ كتابٍ منها على فنٍّ، وأعفيتها من التَّطْوِيلِ والتثْقِيلِ، لأنشطه لِتَحْفُظِهِ ودراسته إن فَاءَتْ به وَأُقِيدَ عليه بها ما أضلَّ من المَعْرِفَةِ، وأستظهر له بإعداد

(١) الشادي: الذي أخذ من العلم طرفاً وأتقنه [الاقتضاب شرح أدب الكتاب (ص ٤٠)].

(٢) المجدودون، الواحد مجدود: المحظوظ، من الجد وهو الحظ [لسان العرب (١/٥٦٠)].

(٣) المحدودون، الواحد محدود: المحروم [المصدر السابق (٢/٨٠١)].

(٤) آصت: صارت، يقال: "آص سواد شعره بياضاً" أي صار بياضاً. [الاقتضاب (ص ٤٥)].

(٥) النجد: ما نضد من متاع البيت. [معجم مقاييس اللغة (ص ٩٧٦)].

(٦) اصطفاق المزهرة: الضرب بها واجتلاب أنغامها، والمزهر، الواحد مزهر، وهو العود. معاطاة الندمان: تناغم الشرب،

وتعاطوا الشيء: تناولوا بعضهم من بعض. [الاقتضاب (ص ٤٧)].

الآلة لزمان الإدالة^(١) أو لقضاء الوطر عند تبين فضل النظر، وألحقه - مع كلال الحد ويُبس الطينة - بالمرهفين^(٢)، وأدخله - وهو الكودن^(٣) - في مضممار العتاق^(٤).

وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالاسم، ولم يتقدم من الأداة، إلا بالقلم والدواة، ولكنها لمن شدا شيئاً من الإعراب: فعرف الصذر^(٥) والمصدر والحال والظرف، وشيئاً من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء، وأشباه ذلك.

ولا بُد له - مع ذلك - من النظر في جمل الفقه، ومعرفة أصوله ...

ولا بُد له - مع ذلك - من دراسة أخبار الناس، وتحفظ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور.

ومدار الأمر على القطب، وهو العقل وجودة القريحة؛ فإن القليل معهما بإذن الله كافٍ، والكثير مع غيرهما مقصر.

ونحن نستحب لمن قبل عنا واثم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهدب أخلاقه قبل أن يهدب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعتته عن شين الكذب، ويجانب - قبل مجانبته اللحن وخطل القول^(٦) - شنيع الكلام ورفث المزج ...

ونستحب له أن يدع في كلامه التّعير والتّعيب^(٧) ... فهذا وأشباهه كان يُستثقل والأدب غرض والزمان زمان، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، ويروونه تلؤ

(١) استظهر له: احتاط له، الإعداد: التهيئة لوقت الحاجة. زمان الإدالة: نحوض الدولة بعد زوالها. [الاقتضاب (ص ٧٨)].

(٢) المرهفون: الواحد مرهف: السيف الحديد، وهو مثل لدوي الفهم والذكاء. [الاقتضاب (ص ٧٨)].

(٣) الكودن: البرزون، وعند الجوهري: الكودن: البرزون يوكف ويشبه به البليد. [الصحاح (٦/٢١٨٧)].

(٤) العتاق: الواحد عتيق: الكريم الرائع من كل شيء، وفرس عتيق: رائع بين العتق. [معجم مقاييس اللغة (ص ٧٠٧)].

(٥) الصدر: الفعل، وهي تسمية الكوفيين. [الاقتضاب (ص ٧٨)].

(٦) خطل القول: فساده [معجم مقاييس اللغة (ص ٣٠٤)].

(٧) التّعير والتّعيب واحد ومعناه التوسع في الكلام والتشدد. [الاقتضاب (ص ١١٠)].

المقادر في دَرَك ما يطلبون وبلوغ ما يؤمُّون، فكيف به اليومَ مع انقلاب الحال وقد قال رسول الله : "إن أبغضكم إليَّ التزائم المتفیهون المتشدقون" ^(١)!! ^(٢).

^(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق ح (٢٠١٨) (ص ١٨٥٣) من حديث جابر رضي الله عنه ، وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه"، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (٣٨٥/٢)، السلسلة الصحيحة (٤١٨/٢)].

^(٢) أدب الكاتب (ص ٩-٢١) .

الفصل الثاني

موارد ابن قتيبة في مصنفاته

وفيه تمهيد وخمسة مباحث :

- المبحث الأول: موارده في التفسير وعلوم القرآن .
- المبحث الثاني: موارده في السنة والآثار .
- المبحث الثالث: موارده في العقيدة .
- المبحث الرابع: موارده في اللغة .
- المبحث الخامس : موارده في العلوم الأخرى .

الفصل الثاني

موارد ابن قتيبة في مصنفاته

التمهيد :

اعتمد الإمام ابن قتيبة في مصنفاته المتعددة على نوعين من الموارد :

أحدهما : الموارد السماعية .

وهي الغالب ؛ إذ عصر ابن قتيبة عصر رواية وسماع ، وقد اعتمد على عدد كبير من شيوخه ، أخذ عنهم فنون العلم والمعرفة بطريق الرواية والسند ، ونقل عن طريقهم الكثير من الأحاديث والآثار والأقوال والأخبار ، والمطلع على مصنفاته المتنوعة يجد مصداق ذلك .

الثاني : الموارد النقلية .

حيث نقل ابن قتيبة في مصنفاته عن كتب سابقه ومعاصره ، وأفاد منها في عدد من العلوم .

وحيث إن موارد ابن قتيبة قد تنوعت موضوعاتها ، فقد جعلت هذا الفصل في خمسة

مباحث :

المبحث الأول : موارده في التفسير وعلوم القرآن .

المبحث الثاني : موارده في السنة والآثار .

المبحث الثالث : موارده في العقيدة .

المبحث الرابع : موارده في اللغة .

المبحث الخامس : موارده في العلوم الأخرى .

ولا أقصد في هذه المباحث ذكر موارد ابن قتيبة على وجه الاستقصاء والحصر ، فإن ذلك أكثر من أن تحويه رسالة ، وإنما سأقتصر فيها على بيان أهم الموارد التي نهل منها، وأخذ عنها.

المبحث الأول

موارده في التفسير وعلوم القرآن

أبان الإمام ابن قتيبة في بعض كتبه عن موارده التي يعتمد عليها في تفسير القرآن وعلومه بشكل عام ، من ذلك قوله في "تفسير غريب القرآن" :

"وكتابتنا هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا في شيء منه بأرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بقصة الآية ، ونبذنا منكر التأويل ، ومنحول التفسير"^(١).

وقد تبين من قوله أمران :

أحدهما : أنه اعتمد في التفسير على من سبقه من مفسري السلف - وهم من قصد بقوله : "كتب المفسرين" - وأهل اللغة .

الثاني : أنه لم يكن مجرد ناقل ، بل يقف من هذه النقول موقف الناقد البصير ، فيقبل منها ما يراه صواباً ، ويرد ما عدا ذلك ، وهذا ينم عن رأي في الاختيار ، وأن ما اختاره فقد ارتضاه قولاً له ، وهنا تتجلى شخصية ابن قتيبة العلمية.

وبعد تتبع لمصنفات ابن قتيبة يمكن تقسيم الموارد التي اعتمد عليها في التفسير وعلوم القرآن إلى موارد رئيسة ، وموارد فرعية .

أولاً : الموارد الرئيسية :

وهي الموارد التي اعتمد عليها ابن قتيبة اعتماداً كبيراً في مادته العلمية المتعلقة بتفسير القرآن وعلومه ، وتتمثل في ثلاثة موارد :

المورد الأول : تفسير السلف .

وهو المورد الأول الذي يعتمد عليه ويقدمه على غيره ، بل ويقتصر عليه في كثير من المواضع ، ويعد ابن قتيبة من أوائل الأئمة الذين اعتنوا بتفسير السلف ، وأكثروا من النقل عنهم

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٤) .

، بل ويحصر لقب المفسرين عليهم ، فقد تبين لي بعد نظر وتتبع أنه لا يطلق لفظ "المفسرين" إلا ويريد به مفسري السلف^(١).

يقول ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ ^ط ۖ ﴾^(٢) :

"قد تكلم المفسرون في هذه الآية بما فيه مَقْنَعٍ وغناء عن أن يُوضَّحَ بغير لفظهم" ، ثم ذكر أقوال عائشة (ت ٥٨ هـ) رضي الله عنها، وابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما، وقتادة (ت ١١٧ هـ)، ومجاهد (ت ١٠٤ هـ)^(٣).

وسياتي تفصيل الحديث عن هذا المورد في فصل "تفسير القرآن بأقوال السلف"^(٤).

المورد الثاني : "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت ٢١٠ هـ).

وهو من أهم المصادر التي تأثر بها ابن قتيبة وأفاد منها ، وأكثر من النقل عنها .

وقد اختلف منهج ابن قتيبة في النقل عن أبي عبيدة :

أ . فتارةً ينقل عنه بالإسناد بواسطة شيخه أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، ومن

ذلك قوله :

"خبرني السجستاني عن أبي عبيدة أنه قال في قول الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ^٥ ﴾ ، أي محبساً ، وهو من قولك : حَصِرَتِ الرَّجُلُ ، إذا حبسته وضيقته عليه"^(٦).

وقال في قوله تعالى : ﴿ وَظَلِّ مَمْدُورٍ ^٧ ﴾ : "أخبرني السجستاني عن أبي عبيدة أنه قال :

(١) انظر : (ص ٣٣٤) من هذه الرسالة . .

(٢) سورة يوسف : الآية ١١٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٠) .

(٤) انظر : (ص ٣١٤) من هذه الرسالة .

(٥) سورة الإسراء : الآية ٨ .

(٦) غريب الحديث (١/٢٨٠) .

(٧) سورة الواقعة : الآية ٣٠ .

"دائم لا تنسخه الشمس"^(١).

ب . وتارة ينقل عنه مع العزو من غير تعقيب ، كما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَخْرَجَ شَطْئَهُ ﴾^(٢)، قال : "قال أبو عبيدة : شطاء الزرع : فراخه وصغاره ، يقال: قد أشطأ الزرع فهو مشطى ؛ إذا أفرخ"^(٣).

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾^(٤) :

"قال أبو عبيدة : هي القُرش والبُسط أيضاً ، وجمعه رفارف ، ... و"عبقري" قال أبو عبيدة: يقال لكل شيء من البسط عبقري"^(٥).

ج . وتارة ينقل عنه مع العزو والتعقيب عليه بما يدعم رأيه ويقويه ، كما جاء في تفسير

قوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾^(٦)، قال : "قال أبو عبيدة: الكبت

الكبت : الإهلاك ، وقال غيره : هو أن يغيظهم ويحزنهم ... ، وهو بما قال أبو عبيدة أشبهه،

واعتبارها قوله : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ﴾^(٧)، لأن أهل النظر يرون أن "التاء" فيه

منقلبة عن "دال" ، كأن الأصل فيه : يَكْبِدُهُمْ ، أي يصيبهم في أكبادهم بالحزن والغيط وشدة

العداوة ، والتاء والبدال متقاربتا المخرجين ، والعرب تدغم إحداهما في الأخرى، وتبدل

إحداهما من الأخرى ، كقوله : هَرَّتْ الثوب وهَرَدَه : إذا خرقة ، كذلك : كَبَّتْ العدو وكَبَدَه،

ومثله كثير"^(٨).

(١) غريب الحديث (٣٦١/١)، وانظر - للاستزادة - : (٢٤١/١)، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٢، ٣٩٣، ٤٢٥، ٤٧٤،

٤٧٥، ٥٧٥، ٦٠٥، (٢/٨٨، ١٨٧، ١٩٣) .

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٤١٣) ، وانظر : مجاز القرآن (٢/٢١٨) .

(٤) سورة الرحمن : الآية ٧٦ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٣)، وانظر : مجاز القرآن (٢/٢٤٦)، وانظر - للاستزادة - : تفسير غريب القرآن

(ص ٤٨، ٧٤، ١١٠، ١٩٩، ٢١٨، ٤١٣، ٤٢٧)، تأويل مشكل القرآن (ص ٣٦٠)، غريب الحديث (١/٢٢٦)،

(٢/٣٧، ١٨٨، ٢٠٩) .

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٢٧ .

(٧) سورة الأحزاب : الآية ٢٥ .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ١١٠) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾^(١) : "أي يُظلم بصره، هذا قول أبي عبيدة ، وقال الفراء (ت ٢٠٧هـ) : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ ، أي يعرض عنه ، ولا أرى القول إلا قول أبي عبيدة ، ولم أر أحداً يجيز "عشوت عن الشيء" أعرضتُ عنه؛ إنما يقال : "تعاشيت عن كذا" ؛ أي تغافلت عنه، كأني لم أره، ومثله: "تعاميت" ، والعرب تقول : "عَشَوْتُ إلى النار" : إذا استدلتُ إليها ببصر ضعيف"^(٢).

د . وتارة ينقل عن أبي عبيدة من غير عزو ، وهو الغالب من صنيعه ، ومنه قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾^(٣) : "أيام التشريق ، والأيام المعلومات : عشر ذي الحجة"^(٤) ، وهذا نص تفسير أبي عبيدة في "مجاز القرآن"^(٥).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ بِاللَّجِبَتِ وَالطَّعُوتِ ﴾^(٦) : "كل معبود من حجر أو أو صورة أو شيطان ، فهو جبت وطاغوت"^(٧) ، وهو نص كلام أبي عبيدة"^(٨).

ولم يكن موقف ابن قتيبة موقف المتأثر دائماً الذي ينقل أقوال أبي عبيدة ويوافقه في جميع آرائه ، بل كان كثيراً ما يخالفه ويناقش أقواله ويفند آراءه ، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾^(٩) : "قال أبو عبيدة : تركوا ما أمروا به ولم يسلموا"^(١٠) ، ولا أعلم أحداً قال : ردّ يده في فيه ؛ إذا أمسك عن الشيء ، والمعنى : ردوا أيديهم في أفواههم ، أي عضوا عليها حنقاً وغيظاً ، وهكذا فسّر هذا الحرف ابن مسعود (ت ٣٥هـ) ،

(١) سورة الزخرف : الآية ٣٦ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٩٧) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ١٢١ ، ٢٥٢ ، ٣١١ ، ٣٤١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣) .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٣ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٨٠) .

(٥) (ص ٧١) .

(٦) سورة النساء : الآية ٥١ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ١٢٨) .

(٨) مجاز القرآن (١/١٢٩) ، وانظر - للاستزادة - : تفسير غريب القرآن (ص ٣٩ ، ٤٧ ، ١٧٩ ، ١٨١) .

(٩) سورة إبراهيم : الآية ٩ .

(١٠) مجاز القرآن (١/٣٣٦) .

واعتباره قوله عز وجل في موضع آخر: ﴿وَإِذَا حَلَّوْا عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَاِمَلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾^(١) (٢).
 الْغَيْظِ﴾^(١) (٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾^(٣): "قال أبو عبيدة: يريدون بشراً ذا سحر، أي ذا رثة"^(٤)، ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير المستكره، وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه، قال مجاهد (ت ١٠٤هـ) في قوله: ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي مخدوعاً؛ لأن السحر حيلة وخديعة، وقالوا في قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾^(٥): أي من أين تخدعون؟ و﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾^(٦)، أي من المغلّلين...

وقولهم: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾^(٧)، يدل على هذا التأويل؛ لأنهم لو أرادوا رجلاً ذا رثة، لم يكن في ذلك مثلاً ضربه، ولكنهم لما أرادوا رجلاً مخدوعاً - كأنه بالخديعة سحر - كان مثلاً ضربه، وتشبيهاً شبهوه، وكأن المشركين ذهبوا إلى أن قوماً يعلمونه ويخدعونه، وقال الله في موضع آخر حكاية عنهم: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾^(٨)، وقول فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾^(٩)، لا يجوز أن أن يكون أراد به: إني لأظنك إنساناً ذا رثة، وإنما أراد إني لأظنك مخدوعاً"^(١٠).

(١) سورة آل عمران: ١١٩.

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٧.

(٤) مجاز القرآن (١/٣٨١).

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٨٩.

(٦) سورة الشعراء: الآية ١٥٣.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٤٨.

(٨) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٩) سورة الإسراء: الآية ١٠١.

(١٠) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٥).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَىٰ فَارِغًا ۗ ﴾^(١): "قال أبو عبيدة: فارغاً من الحزن لعلمها أنه لم يُقتل، أو قال: لم يغرق"^(٢)، وهذا من أعجب التفسير، كيف يكون فؤادها من الحزن فارغاً في وقتها ذلك، والله سبحانه يقول: ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِكُمْ ۖ هَوَاءٌ ۗ لَأَنه لَا يَعْزِمُ وَلَا صَبْرًا ۗ ﴾ قال الله: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۗ ﴾^(٣).

وقد خالفه المفسرون إلى الصواب، فقالوا: أصبح فارغاً من كل شيء إلا من أمر موسى؛ كأنها لم تهتم بشيء - مما يهتم به الحي - إلا أمر ولدها"^(٤).

المورد الثالث: "معاني القرآن" لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ).

وهو من الموارد الأساسية التي اعتمد عليها ابن قتيبة، ويأتي في درجة متأخرة - بعد الموردين السابقين - من حيث الاستفادة منه والنقل عنه.

وكما اختلف منهج ابن قتيبة في النقل عن أبي عبيدة، فإنه كذلك اختلف في نقله عن الفراء:

أ. فتارة ينقل عنه مع العزو دون تعقيب.

كقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالْقَنَاظِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ۗ ﴾^(٥): "قال الفراء: المقنطرة: المضَعَّعة؛ كأن القناظير ثلاثة، والمقنطرة تسعة"^(٦).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ۗ ﴾^(٧) قال: "أراد تقيكم الحر والبرد،

(١) سورة القصص: الآية ١٠.

(٢) مجاز القرآن (٢/٩٨).

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٣.

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٣٢٨-٣٢٩)، وانظر - للاستزادة - (ص ٢٠٨، ٢٣٦، ٢٥٦، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٥٠، ٤٥١)، غريب الحديث (١/٢٧٦، ٣١١)، (٢/٣٦٤).

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٤.

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ١٠٢)، وانظر: معاني القرآن للفراء (١/١٩٥).

(٧) سورة النحل: الآية ٨١.

فاكتفى بذكر أحدهما إذ كان يدل على الآخر ، كذلك قال الفراء" (١).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (٢): "قال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا أشرقت ، ثم يميلان معها حتى ينكسر الفياء" (٣).
ب . وتارة ينقل عنه مع العزو والتعقيب .

ومنه قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَفُومَهَا وَعَدْسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ (٤): " الفوم : يقال هو الحنطة والخبز جميعاً ، قال الفراء : هي لغة قديمة يقول أهلها : فوموا ، أي اختبزوا، ويقال : هو الثوم ، والعرب تبدل الثاء بالفاء ، فيقولون : جدث وجدف ، والمغاثير، والمغافير، وهذا أعجب الأقاويل إليّ لأنها في مصحف عبدالله (ت ٣٥هـ): "وثومها" (٥).
ومنه - أيضاً - قوله : "... وأما التوراة فإن الفراء يجعلها من وَرِي الرَّزْدُ يَرِي : إذا خرجت ناره وأورثته ، يريد أنها ضياء" (٦).
ج . وتارة ينقل عنه من غير عزو ، وهو الغالب .

ومنه قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَتَلَوُا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا ﴾ (٧) : "يقول كثروا فإنكم إذا كثرتم دفعتم القوم بكثرتكم" (٨)، وهو نص كلام الفراء" (٩).
ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (١٠) :
"يقول : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد من المساجد ، فصلوا فيه ، ولا تقولن أحدكم

(١) تفسير غريب القرآن (ص٢٤٨)، وانظر : معاني القرآن (١١٢/٢) .

(٢) سورة الرحمن : الآية ٦ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص٤٣٦)، وانظر : معاني القرآن (١١٢/٣) ، انظر - للاستزادة - : تفسير غريب القرآن (ص٢٩، ٦٧، ٦٩، ٣٠٩، ٣١٩)، غريب الحديث (١/٢٤٩، ٢٨٨، ٤١٣) .

(٤) سورة البقرة : الآية ٦١ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص٥١)، وانظر : معاني القرآن (٤١/١) .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص٣٦) .

(٧) سورة آل عمران : الآية ١٦٧ .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص١١٥) .

(٩) معاني القرآن (١/٢٤٦) .

(١٠) سورة الأعراف : الآية ٢٩ .

لا أصلي حتى آتي مسجدي"^(١)، وهذا نص تفسير الفراء^(٢).

وابن قتيبة في هذا المورد - كبقية الموارد - ناقد بصير ، لم يكن مجرد ناقل ، بل ناقش الفراء وردّ بعض آرائه ، ومن ذلك قوله : "وقد قال الفراء في قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾"^(٣)، أراد : يعتانونك . أي : يصيبونك بعيونهم، كما يعتان الرجل الإبل إذا صدرت عن الماء .

وليس هو - عندنا - على ما تأول ، وإنما أراد : أنهم ينظرون إليك بالعداوة والبغضاء، نظراً يكاد يزلقك من شدّته حتى تسقط ...

تقول الناس : نظر إليّ شزراً ، ونظر إليّ محدّقاً ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾"^(٤)، لأن المغشي عليه عند الموت ، يشخص ببصره ، ولا يطرّف"^(٥).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾"^(٦) : "قال الفراء : "وقد تكون في العربية جنّة واحدة ... وذلك للقوافي ؛ والقوافي تحتمل - من الزيادة والنقصان - ما لا يحتمله الكلام.

وهذا من أعجب ما حمل عليه كتاب الله ، ونحن نعوذ بالله من أن نتعسف هذا التعسف ، ومُجيز على الله - جلّ ثناؤه - الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية .

وإنما يجوز في رؤوس الآي : أن يزيد هاء للسكت ؛ كقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴾"^(٧)، وألفاً كقوله : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾"^(٨)، أو يحذف همزة الحرف ، كقوله : ﴿

(١) تفسير غريب القرآن (ص ١٧٦) .

(٢) معاني القرآن (١/٣٧٦) .

(٣) سورة القلم : الآية ٥١ .

(٤) سورة محمد : الآية ٢٠ .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٧٦) .

(٦) سورة الرحمن : الآية ٤٦ .

(٧) سورة الفارعة : الآية ١٠ .

(٨) سورة الأحزاب : الآية ١٠ .

﴿ أَثْنًا وَرَعِيًّا ﴾^(١)، أو ياءً كقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾^(٢)، لتستوي رؤوس الآي، على مذاهب العرب في الكلام: إذا تمَّ، فأذنت بانقطاعه وابتداء غيره؛ لأن هذا لا يزيل معنى عن جهته، ولا يزيد ولا ينقص، فأما أن يكون الله عزَّ وجل وعد جنتين، فيجعلها جنَّةً واحدة من أجل رؤوس الآي: فمعاذ الله!

وكيف يكون هذا، وهو - تبارك اسمه - يصفهما بصفات الاثنين، فقال: ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾^(٣)، ثم قال^(٤): ﴿ فِيهِمَا ﴾ ﴿ فِيهِمَا ﴾!؟ .
ولو أن قائلاً قال في خزنة النار: إنهم عشرون، وإنما جعلهم تسعة عشر لرأس الآية... ما كان في هذا القول إلا كالفراء.

وقوله تعالى: ﴿ بَطَّأْنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾^(٥).
قال الفراء: قد تكون البطانة ظهارة، والظهارة بطانة، وذلك أن كل واحد منهما قد يكون وجهاً؛ تقول العرب: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء لظاهرهما الذي تراه... وهذا أيضاً من عجب التفسير، كيف تكون البطانة ظهارة، والظهارة بطانة، والبطانة: ما بطن من الثوب وكان من شأن الناس إخفاؤه، والظهارة: ما ظهر منه وكان من شأن الناس إبدائه!؟

وإنما أراد الله جل وعز أن يُعرِّفنا - من حيث نفهم - فضل هذه الفرش وأن ما ولي الأرض منها إستبرق، وهو: الغليظ من الديباج، وإذا كانت البطانة كذلك: فالظهارة أعلى وأشرف.

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المناديلُ سعدِ بن معاذ - في الجنة - أحسنُ

(١) سورة مريم: الآية ٧٤ .

(٢) سورة الفجر: الآية ٤ .

(٣) سورة الرحمن: الآية ٤٨ .

(٤) سورة الرحمن: الآيتين ٥٠، ٥٢ .

(٥) سورة الرحمن: الآية ٥٤ .

من هذه الحُلة^(١)، فذكر المناديل دون غيرها : لأنها أحسنُ من الثياب، وكذلك البطائن أحسن من الظواهر .

وأما قولهم : ظهر السماء وبطن السماء ؛ - لما ولينا - فإن هذا قد يجوز في ذي الوجهين المتساويين ، إذا ولي كلُّ واحد منهما قوماً ، تقول في حائط بينك وبين قوم - لما وليك منه - هذا ظهر الحائط ؛ ويقول الآخرون لما وليهم : هذا ظهر الحائط ، فكلُّ واحد - من الوجهين - ظهرٌ وبطنٌ ، ومثل هذا كثير .

كذلك السماء : ما ولينا منها ظهرٌ ؛ وهو لمن فوقها - من الملائكة - بطنٌ^(٢) .

ثانياً : الموارد الفرعية .

وهي المصادر التي نقل عنها ابن قتيبة في مواضع قليلة ، سواء كانت مصادر سماعية أم نقلية ، ومن أهمها :

١ . الإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) .

نقل ابن قتيبة عن "تفسير عبدالرزاق" بعض آثار الصحابة والتابعين في التفسير، منها:
عند حديثه عن المتشابه قال : "وروى عبدالرزاق عن إسرائيل (ت ١٦٢هـ) عن سماك بن حرب (ت ١٢٣هـ) عن عكرمة (ت ١٠٥هـ)، عن ابن عباس (ت ٦٨هـ)، رضي الله عنهما أنه قال : " كل القرآن أعلم إلا أربعاً : غسلين وحناناً والأواه والرقيم^(٣)"^(٤) .

وقوله : "روى عبدالرزاق عن معمر (ت ١٥٤هـ) عن قتادة (ت ١١٧هـ)، أن رجلاً جاء إلى عكرمة ، فقال : رأيت قول الله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾^(٥)، وقوله : ﴿ تَرَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾^(٦)، فقال : إنها مواقف ، فأما موقف منها : فتكلموا

(١) أخرجه البخاري في اللباس ، باب من مسّ الحرير من غير لبس ح (٥٨٣٦) (ص٤٩٨)، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل سعد بن معاذ ح (٦٣٤٨) (ص١١١) ، من حديث البراء رضي الله عنه .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص٤٣٩-٤٤١) .

(٣) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (سورة الكهف) (٣٩٧/١) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص٩٩) .

(٥) سورة المرسلات : الآية ٣٥ .

(٦) سورة الزمر : الآية ٣١ .

فتكلموا واختصموا ، ثم ختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم ، فحينئذ لا يتكلمون^(١)"^(٢).

٢ . الإمام سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ).

نقل عنه ابن قتيبة في مواضع محدودة في "تفسير غريب القرآن" ، منها :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾^(٣) : " وقال ابن عيينة : فساهم : أي قامر ، فكان من المدحضين ، أي المقمورين "^(٤).

٣ . علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ).

وقد نقل عنه في مواضع معدودة ، منها :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ لَا يَهْدِي ﴾^(٥) ، أراد من لا يهتدي ، فأدغم التاء في الدال ، ومن قرأ "يهدي" خفيفة^(٦) ، فإنها بمعنى يهتدي ، قال الكسائي : يقول قوم من العرب : هديت الطريق ، بمعنى : اهتديت "^(٧).

٤ . أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٤ هـ).

نقل عنه في مواضع معدودة حملت طابع التفسير اللغوي ، منها :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾^(٨) : " وقال الأصمعي : يقال خطئ الرجل يُخطئُ خطأً : إذا تعمد الذنب ، فهو خاطئ ، والخطيئة منه ، وأخطأ يُخطئُ :

(١) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (سورة النساء) (١/١٦٢) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٦) ، وانظر - للاستزادة - : تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢٩) ، غريب الحديث (٢/٦٠٥) ، المسائل والأجوبة (ص ٢١٢) .

(٣) سورة الصافات : الآية ١٤١ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٣٧٤) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ١٠٤ ، ١١١ ، ٣٣٩ ، ٤٦٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥٤١) .

(٥) سورة يونس : الآية ٣٥ .

(٦) قرأ ابن كثير وابن عامر وورش " لا يَهْدِي " بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، وقرأ أبو جعفر كذلك " لا يَهْدِي " إلا أنه أسكن الهاء ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف " لا يَهْدِي " بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال ، وقرأ يعقوب وحفص " لا يَهْدِي " بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، وقرأ أبو عمرو " لا يَهْدِي " بفتح الياء ، واختلاس فتحة الهاء ، مع تشديد الدال ، وقرأ شعبة " لا يَهْدِي " بكسر الياء والهاء وتشديد الدال . [المبسوط (ص ٢٣٤) ، النشر (٢/٢١٢)] .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ١٩٧) ، وانظر (ص ٤٢٦) ، تأويل مشكل القرآن (ص ٥٢٦) .

(٨) سورة يوسف : الآية ٢٩ .

إذا غلط ولم يتعمد ، والاسم منه الخطأ"^(١) .

٥ . أبو عمرو زيان بن العلاء (ت ١٥٤هـ) .

وقد نقل عنه في مواضع قليلة ، منها :

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾^(٢) : "وقَدَرَ - بالتخفيف

والثقل - قال أبو عمرو بن العلاء : قَتَرَ وَقَتَّرَ ، وَقَدَرَ وَقَدَّرَ بمعنى واحد ، أي ضيق"^(٣) .

٦ . أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (ت ٢٠٦هـ) .

نقل عنه في مواضع منها :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهٗ ﴾^(٤) : "قال أبو عمرو الشيباني : ﴿ لَمْ

يَتَسَنَّهٗ ﴾ لم يتغير ، من قوله : ﴿ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾^(٥) ، فأبدلوا النون من "يتسنن" هاء"^(٦) .

٧ . أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) .

أفاد منه ابن قتيبة كثيراً في السنة وعلوم اللغة ، إلا أن الإفادة منه في التفسير وعلوم

القرآن كانت محدودة جداً ، منها :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ شُغِلِ فَنَكِهُونَ ﴾^(٧) ، قال : " (فكِهون) أي يتفكهون ، قال

أبو عبيد : تقول العرب للرجل إذا كان يَتَفَكَّهُهُ بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس : إن فلاناً

لَفَكِهَ ، ومنه يقال للمزاح : فاكهة ، ومن قرأ : "فاكهون"^(٨) ، أراد : ذوي فاكهة ، كما يقال :

: فلان لابن تامر"^(٩) .

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٢١٥) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٣٨٠) ، غريب الحديث (١/٤٧٤) .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٨) .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

(٥) سورة الحجر : الآية ٢٦ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٩٥) ، وانظر : (ص ٣٤) .

(٧) سورة يس : الآية ٥٥ .

(٨) قرأ أبو جعفر : "فكهون" بغير ألف ، وقرأ الباقون "فاكهون" بألف . [المبسوط (ص ٢٧١) ، النشر (٢/٢٦٥)] .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٣٦٦) ، وانظر : تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٧) .

٨ . أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السري الزجاج (ت ٣١١هـ)^(١).
وهو معاصر لابن قتيبة ، صرح بالتقل عنه في موضع واحد عند تفسير قوله تعالى:
﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾^(٢) ، قال : " وقال أبو إسحاق الزجاج إن معنى "جزءاً"
ها هنا : بنات ، يقال : له جزء من عيال ؛ أي بنات "^(٣).
كما أفاد ابن قتيبة في التفسير من عدد كبير من أئمة اللغة ، كأبي زيد الأنصاري (ت
٢١٥هـ) ، وابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) ، وابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) .

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السري بن سهل الزجاج ، اللغوي النحوي المفسر ، أخذ عن إسماعيل بن إسحاق
القاضي ، وثعلب والمبرد وعبدالله بن أحمد بن حنبل ، وعنه : النحاس وأبو علي القالي وأبو علي الفارسي وعبدالرحمن
بن إسحاق الزجاجي، وعلي الرماني ، له مؤلفات كثيرة ، منها : "معاني القرآن وإعرابه" ، و"تفسير أسماء الله الحسنى"
و"ما ينصرف وما لا ينصرف" ، توفي سنة ٣١١هـ . [تاريخ بغداد (٦/٩٠) ، سير أعلام النبلاء (٤/٣٦٠) ، البداية
والنهاية (١١/١٥٨)] .

(٢) سورة الزخرف : الآية ١٥ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٣٩٦) ، وانظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/٤٠٦) .

المبحث الثاني موارده في السنة والآثار

بالنظر إلى كثرة الأحاديث والآثار في مصنفات ابن قتيبة يتبين اعتماده على كثير من الموارد السماعية والنقلية التي استمد منها تلك المادة الوفيرة ، ويمكن تقسيم هذه الموارد ثلاثة أقسام :

القسم الأول : شيوخه الذين أسند عن طريقهم الكثير من الأحاديث والآثار .

ومن أبرزهم : الإمام الجليل الثقة أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن راهويه (ت ٢٣٨هـ).

من جهابذة المحدثين وأئمتهم ، اشتهر بسعة العلم والحفظ رواية ودراية ، حتى لُقّب بـ "أمير المؤمنين" في الحديث ، وقد لقبه بذلك قريناه يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، فقد سُئل يحيى عن حديث حدّث به عن ابن راهويه ، فقيل له : يا أبا زكريا رواه وكيع (ت ١٩٧هـ) بخلاف هذا ، فقال : "اسكت إذا حدّثك أبويعقوب - ابن راهويه - أمير المؤمنين فتشك فيه"، وقال الإمام أحمد - في جواب هذا الرجل - : "إذا حدّثك أبو يعقوب أمير المؤمنين فحسبك به"^(١).

ويعد ابن راهويه من أجلّ شيوخ ابن قتيبة وأكثرهم أثراً فيه ، لا سيما في جانب الرواية والدراية في الحديث ، إذ يعد أهم موارده فيه ، فعن طريقه أسند الكثير من الأحاديث والآثار^(٢)، وبواسطته نقل بعضاً من مرويات شيوخه^(٣)، ك : إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم المشهور بابن عليّة (ت ١٩٣هـ)، وأبي بكر بن عياش الأسدي (ت ١٩٣هـ)، وحفص بن غياث (ت ١٩٤هـ)، وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)، وعبدالرحمن بن مهدي (ت ١٩٨هـ)،

(١) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد (٣٤٥/٦)، تهذيب الكمال (٣٧٣/٢)، سير أعلام النبلاء (٣٥٨/١١) .

(٢) انظر : غريب الحديث (٢٣٣/١) (٣٩٠/٢)، ٥٠٠، ٥٨٨، تأويل مختلف الحديث (ص١٠٧، ٢٨٧، ٣٠٣)، الأشربة (ص٣)، المسائل والأجوبة (ص٩٢)، عيون الأخبار (١٧/١)، ١٨، ٢٥، ١٤٥ .

(٣) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٥٤، ٥٥)، غريب الحديث (٥٨٩/١)، الأشربة (ص١٠)، عيون الأخبار (١٣٦/١، ٢٧١)، المعارف (ص٦٥) .

وعبدالله بن المبارك (ت ١٨١هـ)، وأبي نعيم الفضل بن دكين (ت ٢١٩هـ)، وقتيبة بن سعيد (ت ٢٤٠هـ)، والنضر بن شميل (ت ٢٠٣هـ)، ووكيعة بن الجراح (ت ١٩٧هـ)، وغيرهم .

ومن شيوخ ابن قتيبة الذين أسند عن طريقهم الأحاديث والآثار :

١ . أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت ٢٥٥هـ)^(١) .

روى عن أبي زيد الأنصاري ، ووهب بن جرير ، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي ، وعبدالله بن رجاء الغداني ، ومحمد بن عبيد الله العتيبي ، وعنه أبو داود والنسائي وابن خزيمة وأبو بكر البزار ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : "هو الذي صنف القراءات وكانت فيه دعابة غير أني اعتبرت حديثه فرأيت مستقيم الحديث ، وإن كان فيه ما لا يتعرى عنه أهل الأدب" ، وقال عنه ابن حجر : "صدوق"^(٢) .

٢ . أبو الخطاب زياد بن يحيى بن حسان الحساني النكري العدني البصري (ت ٢٥٤هـ)

(٣) .

روى عن معتمر بن سليمان وحاتم بن وردان وبشر بن المفضل وأبي داود الطيالسي وابن عيينة وغيرهم ، وعنه الجماعة وأبو حاتم وابن خزيمة وابن جرير وابن أبي الدنيا وابن أبي داود ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أبو حاتم والنسائي : "ثقة" . وقد أكثر ابن قتيبة من الرواية عنه^(٤) .

٣ . أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد الشهيدي البصري (ت

٢٥٧هـ)^(٥) .

(١) انظر ترجمته : الثقات لابن حبان (٢٩٣/٨) ، تهذيب الكمال (٢٠١/١٢) ، تقريب التهذيب (٢٥٨/١) .

(٢) انظر مروياته : تأويل مختلف الحديث (ص١٠٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩) ، غريب الحديث (١٥٦/١) ، ٣٤٧ ، (٤٠١) ، (٦٢/٢) ، ٢٧٧ ، ٣٨٥ ، ٥٦٩ ، ٦١٤) ، المعارف (ص١٠٢ ، ١٠٤) ، عيون الأخبار (٥/١) ، ٢٢ ، ٢٤ ، (٣١) .

(٣) انظر ترجمته : الثقات لابن حبان (٢٤٩/٨) ، تهذيب الكمال (٥٢٣/٩) ، تقريب التهذيب (٢٢١/١) .

(٤) انظر مروياته : تأويل مختلف الحديث (ص٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٢١ ، ١٤٣ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨) ، غريب الحديث (٢٨٧/١) ، ٣٤٩ (٨٨/٢) (٦٨٣/٣) ، عيون الأخبار (١٢٨/١) ، ١٧٣ ، ٢١٣) .

(٥) انظر ترجمته : تاريخ بغداد (٣٩٥/٧) ، تهذيب الكمال (٣٦١/٢) ، تقريب التهذيب (٩٨/١) .

روى عن أبيه ومعتمر بن سليمان وحفص بن غياث وأبي بكر بن عياش وغيرهم، وعنه أبو داود في المراسيل والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة، قال النسائي: "ثقة"، وقال الدارقطني: "ثقة مأمون"، وقال ابن حجر: "ثقة"^(١).

٤. أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن محمد الصواف الباهلي البصري (ت ٢٥٣هـ)^(٢).
روى عن عبدالله بن بكر السهمي ويزيد بن هارون وعبدالله بن حمران ومعاذ بن هشام، وعنه البخاري وأبو داود وابن أبي عاصم، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن حجر: "ثقة"^(٣).

٥. الحسين بن الحسين بن حرب السلمي بن عبدالله المروزي (ت ٢٤٦هـ)^(٤).
نزىل مكة، روى عن ابن المبارك وابن عليّة وابن عيينة وأبي معاوية وجعفر بن عون ومعتمر بن سليمان وغيرهم، وعنه الترمذي وابن ماجه وبقي بن مخلد وابن أبي عاصم، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال مسلمة: "ثقة"^(٥).

٦. أبو سهل عتبة بن عبدالله بن عبدة الخزاعي الصفار البصري (ت ٢٥٧هـ)^(٦).
روى عن عبد الصمد بن عبد الوارث وحسين الجعفي ويحيى بن آدم وأبي داود الطيالسي ويزيد بن هارون وغيرهم، وعنه الجماعة سوى مسلم، وابن خزيمة وأبو حاتم وأبو بكر البزار وآخرون، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم: "صدوق"، وقال ابن حجر "ثقة"^(٧).
٧. أبو عبدالله محمد بن عبيد بن عبد الملك الأسدي الهمداني الجلاب (ت ٢٤٩هـ)^(٨).

(١) انظر مروياته: تأويل مختلف الحديث (ص ٨٣، ٨٤، ١١٨، ١٧٢)، عيون الأخبار (١/٢٢، ١١٨، ١١٩، ١٧٩، ١٩٠)، المعارف (ص ١١١).

(٢) انظر ترجمته: الثقات لابن حبان (١٢١/٨)، تهذيب الكمال (٣٧١/٢)، تقريب التهذيب (٩٩/١).

(٣) انظر مروياته: عيون الأخبار (٢٨٨/١).

(٤) انظر ترجمته: الثقات (١٩٠/٨)، تهذيب الكمال (٣٦١/٦)، سير أعلام النبلاء (١٢/١٩٠).

(٥) انظر مروياته: غريب الحديث (١/١٥٩، ٤٠٥)، تأويل مختلف الحديث (ص ٢٩٩)، عيون الأخبار (١/١١٣، ١٤٣، ٢٤٠، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٧٢).

(٦) انظر ترجمته: الثقات لابن حبان (٤٣٧/٨)، تهذيب الكمال (٥٣٧/١٨)، تقريب التهذيب (٣٦٩/٢).

(٧) انظر مروياته: غريب الحديث (١/٢٥٧، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٣٣، ٣٦٨، ٣٨٧)، (٢/٣٣٥، ٤٥٤)، عيون الأخبار (٢٥١/١).

(٨) انظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١١/٥٤٦)، تقريب التهذيب (٤٩٥/٢).

روى عن أبي معاوية وربيعي وإسماعيل بن عليّة ، وسفيان بن عيينة وعبيدة بن حميد ويزيد بن هارون وغيرهم ، وعنه الترمذي وابن ماجه في غير السنن ، وأبو حاتم ، وأبو بشر الدولابي ، ومحمد بن صالح الطبري ، وآخرون ، قال أبو زرعة : "محمد بن عبيد عندنا إمام" ، وقال الحسن بن يزيد الخشاب : "لو كان محمد بن عبيد ببغداد كان شبيهاً بأحمد بن حنبل" ، قال ابن حجر : "ثقة"^(١).

٨ . أبو طالب زيد بن أحنم الطائي البصري (ت ٢٥٧هـ)^(٢).

سمع يحيى بن سعيد القطان ومعاذ بن هشام وعبدالرحمن بن مهدي وسعيد بن عامر ، وعنه البخاري ، وأصحاب السنن الأربعة ، وعبدالله بن وهب الدينوري وابن صاعد ، وثقه النسائي ، وقال ابن حجر : "ثقة حافظ"^(٣).

القسم الثاني : أئمة الحديث الذين نقل مروياتهم وأقوالهم بالقطع دون إسناد .

١ . أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري الفقيه ، الحافظ المدني (ت ١٢٥هـ)^(٤).

أحد الأئمة الأعلام ، عالم الحجاز والشام ، روى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن جعفر والمسور بن مخرمة وسهل بن سعد وأنس وجابر رضي الله عنهم ، وأبي إدريس الخولاني والحسن وعبدالله بن محمد بن الحنفية وسالم بن عبدالله بن عمر ، وسعيد بن المسيب ، وعروة وعطاء وحلق كثير ، وعنه عمر بن عبدالعزيز ويحيى بن سعيد الأنصاري وأيوب السخيتاني والأوزاعي وابن جريج وهشام بن عروة ومالك والليث وسفيان بن عيينة وآخرون ، قال علي بن المدني : "له نحو ألفي حديث" ، وقال الليث (ت ١٧٥ هـ) : "ما رأيت عالماً

(١) انظر مروياته : تأويل مختلف الحديث (ص ٩٣ ، ١٥١ ، ٢٩٤) ، الأشربة (ص ٣ ، ١٠) ، المعارف (ص ٨ ، ١٣٠) ، غريب الحديث (١/٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٩٦ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٧١ ، ٤٠١ ، ٤١٢) (٥/٢) ، ٦ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ١٠٨ ، ١٦٤) (٣/٦٧٤ ، ٧٢٧) .

(٢) انظر ترجمته : تاريخ بغداد (٦/٤٥٣) ، سير أعلام النبلاء (١٢/٢٦٠) ، تقريب التهذيب (١/٢٢١) .

(٣) انظر مروياته : تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٣٥ ، ٣٠٣) ، الأشربة (ص ٨) ، المعارف (ص ٤ ، ٣١) ، عيون الأخبار (١/١٢٨ ، ١٦٥ ، ١٨١ ، ٢١٣) ، غريب الحديث (١/٢٧٠ ، ٤١٠) (٢/٤٥١) .

(٤) انظر ترجمته : المعارف (ص ٢٦٧) ، التاريخ الكبير (١/٢٢٠) ، سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٦) ، تهذيب التهذيب (٩/٤٤٥) .

أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علماً منه" ، وقال ابن قتيبة : "الزهري أعلم الناس بكل فن" (١).

٢ . أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، الكوفي (ت ١٦١هـ) (٢).

شيخ الإسلام ، إمام الحفاظ ، عدد شيوخه ستمائة شيخ ، وكبارهم حدثوه عن أبي هريرة وجرير بن عبدالله وابن عباس رضي الله عنهم ، روى عن أيوب السخيتاني وحبيب ابن أبي ثابت وحמיד الطويل وأبي حازم سلمة بن دينار وسليمان الأعمش وشعبة بن الحجاج وعاصم بن أبي النجود ، وروى عنه خلق كثير ، منهم : الأوزاعي وابن علية وحفص بن غياث وروح بن عبادة وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك وعبدالرحمن بن مهدي ، قال شعبة (ت ١٦٠هـ) وابن عيينة (ت ١٩٨هـ) ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) : "سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث" ، وقال عبدالله بن المبارك (ت ١٨١هـ) : "كتبت عن ألف ومائة شيخ ، ما كتبت عن أفضل من سفيان" (٣).

٣ . أبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار البصري (ت ١٦٧هـ) (٤).

الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، روى عن ابن أبي مليكة وثابت البناني وقتادة وأيوب السخيتاني وعمرو بن دينار وعطاء بن السائب وخلق كثير ، وعنه ابن جريج وابن المبارك ويحيى بن القطان وعبدالرحمن بن مهدي وأبو نعيم وآخرون .

قال علي بن المديني (ت ٢٣٤هـ) : "هو عندي حجة في الرجال ، وهو أعلم الناس بثابت البناني وعمار بن أبي عمار ، ومن تكلم في حماد فاتهموه في الدين" ، وقال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) : "حماد بن سلمة عندنا من الثقات ، ما نزداد فيه كل يوم إلا بصيرة" ، وقال

(١) انظر : غريب القرآن (ص٧٦ ، ١٨٦) ، تأويل مختلف الحديث (ص٥٨ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٢٢٧ ، ٣١١) ، غريب الحديث (٢٧٧/١ ، ٥٥٢) (٣٦٦/٢) (٦٦٨/٣ ، ٦٧٠ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤) .

(٢) انظر ترجمته : المعارف (ص٢٦٧) ، تاريخ بغداد (٢١٩/١٠) ، سير أعلام النبلاء (٢٢٩/٧) ، تهذيب التهذيب (١١١/٤) .

(٣) انظر : غريب الحديث (٣١٢/٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢ ، ٥٢٣ ، ٦٢٩ ، ٦٥٥) .

(٤) انظر ترجمته : المعارف (ص٢٨١) ، التاريخ الكبير (٢٢/٣) ، سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٧) ، تهذيب التهذيب (١١/٣)

الذهبي (ت ٧٤٨هـ): "وكان مع إمامته في الحديث ، إماماً كبيراً في العربية ، فقيهاً فصيحاً، رأساً في السنة، صاحب تصانيف"^(١).

٤ . أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح الخنظلي التميمي مولاهم المروزي (ت ١٨١هـ)^(٢).

الإمام ، شيخ الإسلام ، الحافظ أحد الأعلام ، روى عن سليمان التميمي وحميد الطويل ويحيى بن سعيد الأنصاري والأعمش والثوري وشعبة والأوزاعي ومالك والليث وخلق كثير ، وعنه ابن عيينة وفضيل بن عياض وأبو بكر بن عياش ونعيم بن حماد وابن مهدي والقطان وابن راهويه وابن معين وآخرون .

قال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) : " لم يكن في زمانه أطلب للعلم منه، جمع أمراً عظيماً، ما كان أحد أقل سقطاً منه، كان رجلاً صاحب حديث حافظ". وقال يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) : "كان كيساً مثبته ثقة ، وكان عالماً صحيح الحديث ، وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفاً أو إحدى وعشرين ألفاً" ، وقال إسماعيل بن عياش (ت ١٨١هـ): "ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلى وقد جعلها فيه"^(٣).

٥ . أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي الكوفي (ت ١٩٧هـ)^(٤).

الإمام الحافظ ، محدث العراق ، روى عن الأعمش وهشام بن عروة وجريز بن حازم وابن جريج والأوزاعي ومالك والثوري وخلق كثير ، وعنه عبدالرحمن بن مهدي وأحمد ويحيى وإسحاق بن راهويه وابن أبي شيبه وآخرون.

(١) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٢٢١، ٢٤٨، ٢٧٦، ٢٨٦، ٢٨٧)، عيون الأخبار (١/٢٤٨)، غريب الحديث (١/١٦٥، ٢٧٥، ٢١٥، ٥٧٠) (٢/٣٩٩، ٥٠٥، ٥٦٧، ٦١٢) .

(٢) انظر ترجمته : المعارف (ص٢٨٦)، التاريخ الكبير (٥/٢١٥)، تاريخ بغداد (١١/٤١١)، سير أعلام النبلاء (٨/٣٧٨) .

(٣) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٧٦، ٣٣٥)، المعارف (ص٨)، غريب الحديث (١/٤٥٣) (٢/٢٤٧٨، ٢٧٧، ٤٤١، ٦٢٦) .

(٤) انظر ترجمته : المعارف (ص٢٨٣) ، التاريخ الكبير (٨/١٧٩)، تاريخ بغداد (١٥/٦٤٧)، سير أعلام النبلاء (٩/١٤٠) .

قال الإمام أحمد : " ما رأيت أوعى للعلم من وكيع ولا أحفظ منه " ، وقال ابن معين :
 " والله ما رأيت أحداً يحدث لله تعالى غير وكيع ، وما رأيت أحفظ منه ، ووكيع في زمانه
 كالأوزاعي في زمانه " (١).

٦ . أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي الكوفي ثم المكي (ت ١٩٨ هـ) (٢).
 الإمام الكبير ، الحافظ الفقيه ، طلب الحديث ولقي الكبار وحمل عنهم علماً جمياً ، وأتقن
 وجود ، وجمع وصنف ، روى عن عمرو بن دينار وابن شهاب الزهري وعاصم بن أبي النجود
 وأبي إسحاق السبيعي وأيوب السختياني والأعمش والثوري وشعبة وخلق كثير ، وعنه حماد بن
 زيد وعبدالله بن المبارك وعبدالرحمن بن مهدي ويحيى القطان وعبدالرزاق وإسحاق بن راهويه ،
 ومن كبار أصحابه المكثرين عنه : الحميدي والشافعي وابن المديني وأحمد .

قال الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) : " لولا مالك وسفيان بن عيينة لذهب علم الحجاز " ، وقال
 ابن مهدي (ت ١٩٨ هـ) : " كان ابن عيينة من أعلم الناس بحديث الحجاز " (٣).

٧ . أبو الحسن علي بن عبدالله بن جعفر بن نجيح السعدي ، مولاهم البصري ، المعروف
 بابن المديني (ت ٢٣٤ هـ) (٤).

الشيخ الإمام الحجة ، أمير المؤمنين في الحديث ، صاحب التصانيف ، روى عن حماد
 ابن زيد وابن عيينة وابن علية ويحيى القطان وعبدالرزاق وبشر بن المفضل وآخرون ، وعنه
 البخاري وأبو داود وأحمد وعثمان بن أبي شيبة .

قال أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧ هـ) : " كان علي علماً في الناس في معرفة الحديث
 والعلل " ، وقال ابن عيينة - وهو من شيوخه - : " يلوموني على حب علي ، والله لقد كنت

(١) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ٧٧ ، ٩٠ ، ١٧٥ ، ٣١٢) ، الأثرية (ص ٩) ، عيون الأخبار (١/١١٢ ، ١٣٣ ،
 ١٣٦) ، غريب الحديث (١/٤٤٢ ، ٥٧٢ ، ٦٢٤) (٢/٤٦ ، ١١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠) .

(٢) انظر ترجمته : المعارف (ص ٢٨٣) ، التاريخ الكبير (٤/٩٤) ، سير أعلام النبلاء (٨/٤٥٤) ، تهذيب التهذيب
 (٤/١١٧) .

(٣) انظر : غريب القرآن (ص ٤٩٨) ، تأويل مختلف الحديث (ص ٩٣ ، ١٧٥ ، ٢١٣ ، ٣٠٥) ، غريب الحديث (١/٣٤٤) ،
 ٤٠٧ ، ٤٩٠ ، ٦٠٣) (٢/١١٤ ، ١١٨ ، ١٦٥ ، ٢٢٧ ، ٣٥٨) .

(٤) انظر ترجمته : التاريخ الكبير (٦/٢٨٤) ، سير أعلام النبلاء (١١/٤١) ، تهذيب التهذيب (٧/٣٤٩) .

أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني"، وقال عبدالرحمن بن مهدي: "علي بن المديني أعلم الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاصة بحديث ابن عيينة"^(١).

وكان لهؤلاء الأئمة الكثير من المصنفات، فلا يستبعد نقل ابن قتيبة عنها، كما كان له أسانيد المتصلة لهؤلاء الأئمة^(٢)، وليس في هذه النقول عنهم ما يشير إلى طريق إفادته أمن جهة النقل كان، أم من جهة السماع، باستثناء مواضع قليلة صرح فيها بالسماع لما في تلك المصنفات، كـ "كتاب الزهد" لابن المبارك، نقل عنه نقولاً كثيرة سماعاً عن طريق شيوخه، منها:

قوله: "حدثنا حسين - بن حسن المروزي (ت ٢٤٦هـ) - قال: حدثنا عبدالله بن المبارك (ت ١٨١هـ) قال: حدثني غير واحد عن معاوية بن قرّة (ت ١١٣هـ)، قال: قال أبو الدرداء (ت ٣٢هـ): أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث، أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أراض الله عنه أم ساخط عليه، وأبكاني فراق الأحبة: محمد وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الله يوم تبدو السرائر، ثم لا أدري إلى الجنة أو إلى النار"^(٣).^(٤)

القسم الثالث: كتب الحديث وعلومه التي نصّ على نقله عنها.

وهي قليلة جداً، إذ عصره عصر رواية وسماع، فكان جل اعتماده على الموارد السماعية، حتى إنّه نقل عن بعض المصادر النقلية كمصنف ابن أبي شيبة وسنن سعيد بن منصور وكتاب الزهد لابن المبارك سماعاً.

ومن الكتب التي نصّ على نقله عنها:

١. "المصنف" لعبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ).

(١) انظر: غريب الحديث (١/٣٢٢، ٣٢٥) (٢/٥٠٧).

(٢) فيروي عن الزهري من طريق محمد بن عبيد عن سفيان بن عيينة عنه، ويروي عن الثوري من طريق شاذان بن الحسن عن القاسم بن الحكم العُربي عنه، ويروي عن حماد بن سلمة من طريق أبي حاتم سهل بن محمد عن الأصمعي عنه، ويروي عن عبدالله بن المبارك من طريق حسين بن حسن المروزي عنه، ويروي عن وكيع من طريق إسحاق بن راهويه عنه، ويروي عن ابن عيينة من طريق محمد بن عبيد عنه، ويروي عن ابن المديني من طريق أحمد بن الخليل عنه.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص ٨٤).

(٤) عيون الأخبار (١/٢٧٣)، وانظر - للاستزادة - : (١/٢٧٢، ٢٨٧، ٣٩٩).

نقل عنه ابن قتيبة في مواضع عدة في "غريب الحديث"^(١)، و"عيون الأخبار"^(٢)، و"تأويل مختلف الحديث"^(٣).

٢ . "المصنف" لأبي بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ).

نقل عنه في "غريب الحديث"^(٤)، و"الأشربة"^(٥).

٣ . "الموطأ" للإمام مالك بن أنس (ت ١٨٩هـ) .

نقل عنه ابن قتيبة في "غريب الحديث"^(٦)، و"تأويل مختلف الحديث"^(٧).

٤ . "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ).

نقل عنه نقولاً كثيرة في مصنفاته "غريب الحديث"^(٨)، و"تأويل مختلف الحديث"^(٩)،

و"إصلاح غلط أبي عبيد"^(١٠)، و"عيون الأخبار"^(١١)، و"المسائل والأجوبة"^(١٢).

هذا ما نصّ عليه ، ولا يبعد أن يكون استفاد من غيرها ، إلا أنه من الصعب معرفة

تلك المصادر والقطع بتحديداتها ، لوجود تلك الأحاديث مخرجة في أكثر من كتاب مما صنف

في عصر المؤلف وقبله .

(١) انظر : (٥٧٨/١) ، (٣٢/٢) ، (٣٣ ، ٤٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٩٧ ، ٣٥٣ ، ٥١٤ ، ٦٠٤) .

(٢) انظر : (١٠٧/١) ، (١٠٨ ، ١٤٥) .

(٣) انظر : (ص٣٣٥) .

(٤) انظر : (١٧٣/٢) ، (٣٤٧ ، ٤٧٢ ، ٥٥١) .

(٥) انظر : (ص٢١) .

(٦) انظر : (٢٩/١) ، (١٧٨ ، ٣٨٦) (٣٢٠/٢) ، (٤٩٧) (٧٣٠/٣) .

(٧) انظر : (ص١٣٤ ، ٣٢٣) .

(٨) انظر : (١٦٢/١) ، (١٦٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٥٠٣) (١٧٣/٢) (٢٧٠) .

(٩) انظر : (ص٢٢٢) .

(١٠) انظر : (ص٤٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٤) .

(١١) انظر : (٢٢٦/١) .

(١٢) انظر : (ص١٦١) .

المبحث الثالث

موارده في العقيدة

سار الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون ومن تبعهم من أئمة العلم والهدى على الرجوع في مسائل الاعتقاد وأصول الدين إلى القرآن الكريم ، وإلى السنة النبوية ، وقد سار الإمام ابن قتيبة في هذا المسار وسلك سبيلهم ونهج منهجهم ، وقال بما قالوا ، ونهى عما نهوا عنه من الخوض في مسائل الاعتقاد بالرأي والهوى والأقيسة البعيدة عن هدي الكتاب والسنة، وقرّر وجوب التمسك بهما والاعتماد عليهما في هذا الباب ، وأنكر على من خالف في ذلك ، فقال : "ولو كان اختلافهم - أي أصحاب الكلام - في الفروع والسنن لاتسع لهم العذر عندنا - وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعونه لأنفسهم - كما اتسع لأهل الفقه ، ووقعت لهم الأسوة بهم ، ولكن اختلافهم في التوحيد وفي صفات الله تعالى وفي قدرته وفي نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وعذاب البرزخ وفي اللوح ، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى ، ولن يعدم هذا من رد مثل هذه الأصول إلى استحسانه ونظره وما أوجبه القياس عنده ، لاختلاف الناس في عقولهم وإرادتهم واختياراتهم"^(١).

ويقول - في الثناء على أهل الحديث لسلوكهم هذا المنهج القويم - : "إن أهل المقالات وإن اختلفوا ورأى كل صنف منهم أن الحق فيما دعا إليه ، فإنهم مجتمعون لا يختلفون على أن من اعتصم بكتاب الله عزّ وجل ، وتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد استضاء بالنور ، واستفتح باب الرشيد ، وطلب الحق من مظانه ، وليس يدفع أصحاب الحديث عن ذلك إلا ظالم ، لأنهم لا يردون شيئاً من أمر الدين إلى استحسان ولا إلى قياس ولا نظر ، ولا إلى كتب الفلاسفة المتقدمين ، ولا إلى أصحاب الكلام المتأخرين"^(٢).

ويقول في باب الأسماء والصفات : "إن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفاته أو حيث انتهى رسوله صلى الله عليه وسلم"^(٣).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٦٣) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٤٢) .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٥) .

ويقول : "نحن لا ننتهي في صفاته - جلّ جلاله - إلا إلى حيث انتهى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ندفع ما صح عنه ، لأنه لا يقوم في أوهامنا ، ولا يستقيم على نظرنا ، بل نؤمن بذلك من غير أن نقول فيه بكيفية أو حد ، أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت" (١).

وقوله في حديث الصورة (٢): "والذي عندي - والله تعالى أعلم - أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين ، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن ، ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد" (٣).

وقد سار الإمام ابن قتيبة على هذا المنهج ، فتجده يستمد المسائل والدلائل على الإيمان بالله تعالى ، ووجوب توحيده ، وإثبات ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى من القرآن الكريم والسنة النبوية ، كما يستدل بهما على إثبات النبوات والمعاد وبقية مسائل الاعتقاد ، ملتزماً بالنصوص لا يعارضها برأي ولا هوى ولا قياس فاسد .

كما قرّر رحمه الله ضرورة الاعتماد في مسائل الاعتقاد على فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ومن سلك سبيلهم من أئمة الهدى والبيان . والمتتبع لكلام ابن قتيبة في مسائل الاعتقاد يظهر له جلياً أنه موقر للسلف الصالح ، لا يعدل بهم أحداً ، ويرى أنهم أصح الناس فهوماً وعلومياً ، وأن قولهم في الكتاب والسنة هو الحق الذي يجب المصير إليه ، ولا يجوز التعويل على غيره مما أحدثه الخلف بعدهم ، كما أثني عليهم وبيّن وجوب الاقتداء بهم في كثير من كتبه .

من ذلك قوله عندما تطرق لفضائل علي رضي الله عنه (ت ٤٠هـ): "وأنت تعرف له مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية والأخوة ، والصبور والصبر في مجاهدة أعدائه ، وبذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانته في العلم والدين والبأس والفضل من غير أن

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٣٠١) .

(٢) حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله عزّ وجل خلق آدم على صورته" أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ح (٦٢٢٧) (ص ٥٢٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم كأفئدة الطير ح (٧١٦٣) (ص ١١٧١) من حديث أبي هريرة .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٣٢٢) .

نتجاوز به الموضوع الذي وضعه به خيار السلف ، مع ما تسمعه من كثير فضائله ، فهم كانوا أعلم به وبغيره ، ولأن ما أجمعوا عليه هو العيان الذي لا يشك فيه"^(١).

وعند حديثه عن القدر ردّ على عمرو بن عبيد (ت ١٤٣هـ)^(٢) طعنه في أيوب السخيتاني (ت ١٣١هـ)^(٣)، وعبدالله بن عون (ت ١٥١هـ)^(٤)، ويونس بن عبيد (ت ١٤٠هـ)^(٥)، وسليمان التيمي (ت ١٤٣هـ)^(٦)؛ فقال : "وهؤلاء الأربعة الذين ذكرهم عُروهُ أهل زمانهم في العلم والفقهِ ، والاجتهاد في العبادة ، وطيب المطعم ، وقد درجوا على ما كان عليه من قبلهم من الصحابة والتابعين .

فإن ادعوا أن الذين درجوا من الصحابة والتابعين ، لم يكونوا على ما كان عليه هؤلاء،

(١) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٦) .

(٢) عمرو بن عبيد بن باب ، أبو عثمان البصري ، الزاهد القدري ، كبير المعتزلة ، وأولهم ، كان يسكن البصرة، وجالس الحسن البصري وحفظ عنه، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة ، فقال بالقدر، قال ابن معين: "عمرو بن عبيد ليس بشيء، رجل سوء"، وقال ابن حبان : "كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث، واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسموا المعتزلة، وكان يشتم الصحابة"، مات بطريق مكة سنة ١٤٣هـ . [المعارف (ص ٢٧٢)، تاريخ بغداد (٦٣/١٤)، طبقات المعتزلة (ص ٣٥)، ميزان الاعتدال (٢٧٣/٣)].

(٣) أيوب السخيتاني ، أبو بكر بن أبي تيممة كيسان العنزي مولاهم البصري ، عداده في صغار التابعين، سمع من: سعيد بن جبير ، وأبي العالية الرياحي، ومجاهد بن جبر ، ونافع مولى ابن عمر، وخلق سواهم، وعنه : شعبة وسفيان الثوري ومالك ومعمر وحماد بن زيد وابن عيينة. قال حماد بن زيد: "أيوب عندي أفضل من جالسته وأشدهم اتباعاً للسنّة"، مات سنة ١٣١هـ . [المعارف (ص ٢٦٦)، طبقات ابن سعد (٢٤٦/٧)، سير أعلام النبلاء (١٥/٦)].

(٤) عبدالله بن عون بن أرتبان، أبو عون المزني، مولاهم البصري، الإمام القدوة الحافظ ، عالم البصرة، حدث عن الشعبي وابن سيرين وسعيد بن جبير ونافع، وعنه : سفيان الثوري وشعبة وابن المبارك وإسماعيل بن عُلية. قال عبدالرحمن بن مهدي: "ما كان بالعراق أعلم بالسنة من ابن عون"، وقال الأوزاعي: "إذا مات ابن عون والثوري استوى الناس"، مات سنة ١٥١هـ . [طبقات ابن سعد (٢٦١/٧)، سير أعلام النبلاء (٣٦٤/٦)، تهذيب التهذيب (٣٤٦/٥)].

(٥) يونس بن عبيد بن دينار، أبو عبدالله العبدي، مولاهم البصري، الإمام القدوة الحجة، من صغار التابعين وفضلائهم، رأى أنس بن مالك، وحدث عن ابن سيرين وعطاء وعكرمة ونافع مولى ابن عمر، وعنه: شعبة، وسفيان، وحماد ابن سلمة ومعتمر بن سليمان . قال أبو حاتم: "هو أحب إليّ من هشام بن حسان، وأكد من سليمان التيمي، لا يبلغ التيمي منزلة يونس"، مات سنة ١٤٠هـ . [طبقات ابن سعد (٢٦٠/٧)، سير أعلام النبلاء (٢٨٨/٦)، تهذيب التهذيب (٤٤٢/١١)].

(٦) سليمان بن طرخان أبو المعتمر التيمي البصري ، الإمام شيخ الإسلام ، من صغار التابعين ، روى عن أنس بن مالك وطاووس وطلق بن حبيب وقتادة ، وعنه : شعبة وسفيان وحماد بن سلمة وابن عيينة ، قال شعبة: "ما رأيت أحداً أصدق من سليمان التيمي، كان إذا حدّث عن النبي صلى الله عليه وسلم تغَيَّرَ لونه"، وقال يحيى بن سعيد = القطان: "ما جلست إلى أحد أخوف لله من سليمان التيمي"، توفي بالبصرة سنة ١٤٣هـ . [طبقات ابن سعد (١٨/٧)، سير أعلام النبلاء (١٩٥/٦)، تهذيب التهذيب (٢٠١/٤)] .

وأهم يقولون بمثل مقالتهم في القدر ، قلنا لهم : فلم تعلقتم بالحسن (ت ١١٠هـ)، وعمرو بن عبيد ، وغيلان (ت بعد ١٠٥هـ) ^(١)، ألا تعلقتم ب : علي (ت ٤٠هـ)، وابن مسعود (ت ٣٥هـ)، وأبي عبيدة (ت ١٨هـ)، ومعاذ (ت ١٨هـ)، وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ)، وأشباه هؤلاء ، فإنهم كانوا أعظم في القدوة، وأثبت في الحجة" ^(٢).

ويقول في مقدمة "تأويل مختلف الحديث" - بعد أن ذكر جملة من المسائل العقدية - :
 "وأما الايتساء" ^(٣) فبالعلماء المبرزين، والفقهاء المتقدمين، والعباد المجتهدين الذين لا يُجارون، ولا يُبلغ شأوهم .

مثل سفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ومالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، والأوزاعي (ت ١٥٧هـ)، وشعبة (ت ١٦٠هـ) ^(٤)، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ) ^(٥)، والفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ) ^(٦)، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، وبشر الحافي (ت ٢٢٧هـ) ^(٧)، وأمثال هؤلاء هؤلاء ممن قرب من زماننا.

(١) غيلان بن مسلم ، أبو مروان الدمشقي ، المقتول في القدر ، تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية ، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه ، قال ابن المبارك : "كان من أصحاب الحارث الكذاب ، وممن آمن بنبوته" ، أفتى الأوزاعي بقتله ، فُضِّل على باب كيسان بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ ، وقال رجاء بن حيوة : "قتله أفضل من قتل ألفين من الروم" .
 [الملل والنحل للشهرستاني (١/٢٢٧) ، ميزان الاعتدال (٣/٣٣٨) ، لسان الميزان (٦/٣١٤)] .
 (٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) .

(٣) الايتساء : أي الاقتداء من اتسسى به ، جعله أسوة أي قدوة . [تهذيب اللغة (١٣/٩٥)] .

(٤) شعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي ، أبو بسطام العتكي ، الإمام الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث، عالم البصرة وشيخها، حدّث عن أيوب السخيتاني ومنصور بن المعتمر وقتادة ، وعنه خلق عظيم منهم : سفيان الثوري والكسائي وسفيان بن عيينة وعبدالرحمن بن مهدي، يقول الثوري : "شعبة أمير المؤمنين في الحديث"، وقال الإمام أحمد: "كان شعبة أمة وحده"، مات سنة ١٦٠هـ . [المعارف (ص ٢٨٠) ، تاريخ بغداد (١٠/٣٥٣) ، سير أعلام النبلاء (٧/٢٠٢)] .

(٥) الليث بن سعد بن عبدالرحمن، أبو الحارث الفهمي، الإمام الحافظ الفقيه، عالم الديار المصرية، أخذ عن ابن شهاب الزهري، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وعطاء بن أبي رباح، وعنه: ابن المبارك، وقتيبة بن سعيد، وآدم بن أبي إياس، قال ابن وهب : "لولا مالك والليث لضلّ الناس"، وقال الشافعي: "الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به"، مات سنة ١٧٥هـ . [المعارف (ص ٢٨٣) ، سير أعلام النبلاء (٨/١٣٦) ، وفيات الأعيان (٤/١٢٧)] .

(٦) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، أبو علي التميمي، الإمام القدوة، شيخ الحرم، حدث عن منصور والأعمش وأبي إسحاق الشيباني ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعنه: ابن المبارك ويحيى القطان وعبدالرحمن بن مهدي وابن عيينة، والشافعي. قال ابن المبارك : "ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض"، وقال أيضاً: "إن

فأما المتقدمون فهم أكثر من أن يبلغهم الإحصاء ويجوزهم العدد^(٢). وهؤلاء الأئمة ومن تقدمهم من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان هم المورد العذب الذي نقل منه ابن قتيبة في مسائل الاعتقاد ، فقد نقل في هذه المسائل عن عمر ابن الخطاب (ت ٢٣هـ)^(٣)، وعائشة (ت ٥٨هـ)^(٤)، وابن مسعود (ت ٣٥هـ)^(٥)، وابن عباس (ت ٦٨هـ)^(٦)، رضي الله عنهم ، وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ)^(٧)، وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)^(٨)، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)^(٩)، وأبي عبيد القاسم ابن سلام (ت ٢٢٤هـ)^(١٠).

-
- الفضيل صدق الله ، فأجرى الحكمة على لسانه، فالفضيل ممن نفعه علمه"، مات بمكة سنة ١٨٧هـ. [المعارف (ص ٢٨٥)، سير أعلام النبلاء (٤٢١/٨)، تهذيب التهذيب (٢٩٤/٨)].
- (١) بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء المروزي ، الإمام العالم الزاهد ، المشهور بـ "الحافي" ، أخذ عن مالك وحماد بن زيد والفضيل بن عياض ، وابن المبارك ، قال إبراهيم الحري: "ما أخرجت بغداد أتم عقلاً من بشر، ولا أحفظ للسان" ، مات سنة ٢٢٧هـ . [المعارف (ص ٢٩٢) ، تاريخ بغداد (٦٦٥/٧) ، سير أعلام النبلاء (٤٦٩/١٠)].
- (٢) تأويل مختلف الحديث (ص ٦٥) .
- (٣) انظر : المصدر السابق (ص ٢٥٣ ، ٣٦٨) .
- (٤) انظر : المصدر السابق (ص ٣١٣) .
- (٥) انظر : المصدر السابق (ص ٧٥) .
- (٦) انظر : المصدر السابق (ص ١٧٢ ، ٣٦٢ ، ٣٨٩) ، الاختلاف في اللفظ (ص ١١٣) .
- (٧) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ٣٤٢) .
- (٨) انظر : المصدر السابق (ص ٣٠٩) .
- (٩) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٩) .
- (١٠) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ٣٢٣) ، الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٨) .

المبحث الرابع

موارده في اللغة

يعد ابن قتيبة من أئمة اللغة المبرزين ، يظهر ذلك جلياً من خلال مصنفاته المتعددة والمتنوعة في فنون العلم والمعرفة ، إذ طغى عليها الطابع اللغوي نظراً لكثافة المادة اللغوية في تلك المصنفات ، وقد أفاد في جمع مادته اللغوية من موارد كثيرة جداً ، تمثلت في شيوخه الذين تلقى عنهم علوم اللغة ، وفي غيرهم من أئمة اللغة الذين أفاد من أقوالهم وآرائهم في مصنفاته ، وكان ذا ملكة لغوية ودراية قوية في الإفادة من هذه الموارد ، فهو يقتبس ويستنبط ويناقش ويرجح ، وإن كان في بعض الأحيان يكتفي بإبراز الأقوال دون أن يعلق عليها.

وقد اعتمد الإمام ابن قتيبة اعتماداً كبيراً في هذه المادة على الموارد السماعية ، إذ لم ينقل شيئاً من الكتب التي وصلت إلينا لأئمة اللغة الذين ذكروهم في مصنفاته ، باستثناء بعض كتب الأصمعي (ت ٢١٤هـ)، وأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ)، وأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، وحتى هذه الكتب كان نقله عنها على قلة ، إذ اعتمد في النقل عنهم على الرواية والسماع بواسطة شيوخه أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، والرياشي (ت ٢٥٧هـ)، والزيادي (ت ٢٤٩هـ)، وغيرهم. ويمكن تقسيم الموارد اللغوية التي أفاد منها إلى موارد رئيسة وموارد فرعية .

أولاً : الموارد الرئيسة :

وهي الموارد اللغوية التي اعتمد عليها اعتماداً كبيراً في مصنفاته ، وهي :

١ . أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني البصري (ت ٢٥٥هـ). اللغوي النحوي المقرئ، صاحب التصانيف، أخذ عن : الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة معمر بن المثنى وعن يعقوب الحضرمي وعليه قرأ القرآن، وحدث عنه : أبو داود والنسائي وأبو بكر البزار ، ومن أئمة اللغة : ابن قتيبة والمبرد وأبي بكر بن دريد ، له باع طويل في اللغة والشعر والعروض ، من مصنفاته : "إعراب القرآن" ، و"ما يلحن فيه العامة" ، و"المقصود والممدود" ، و"القراءات".

قال الأزهري (ت ٣٧٠هـ) : "أبو حاتم السجستاني كان أحد المتقدمين ، جالس الأصمعي وأبا زيد وأبا عبيدة ، وله مؤلفات حسان ، وكتاب في "قراءات القرآن" جامع، ولأبي

حاتم كتاب كبير في "إصلاح المزال والمفسد" وقد قرأته فرأيته مشتتلاً على الفوائد الجمّة ، وما رأيت كتاباً في هذا الباب أنبل منه ولا أكمل".

وقال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) : "إمام البصرة في النحو والقراءة واللغة والعروض"^(١). يعد من أجل شيوخ ابن قتيبة الذين أثروا حصيلته اللغوية ، فعنه أخذ علوم اللغة، وبواسطته نقل عن أئمة اللغة كأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ، ومن هنا يمكن القول بأن أبا حاتم السجستاني هو أهم الموارد اللغوية التي نهل منها ابن قتيبة ، وهو ما يراه القارئ واضحاً من خلال قراءته ولو لصفحات يسيرة من مصنفاته .

وتمثلت إفادة ابن قتيبة من هذا المورد في طريقتين :

أحدهما : نقل أقواله ، ومنه :

قوله : "سألت أبا حاتم عن المِخْش، فقال : هو الذي ينخس في القوم ويدخل معهم وهم يأكلون"^(٢).

ويقول : "قال أبو حاتم : الحلبلاب هو النبت الذي تسميه العامة لبلاباً"^(٣).

الثاني : نقل مروياته عن شيوخه الأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة^(٤).

٢ . أبو الفضل عباس بن الفرّج البصري الرياشي (ت ٢٥٧هـ) .

النحوي اللغوي ، العلامة الحافظ ، شيخ الأدب ، أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي ومسدّد والطيالسي ، وعنه ابن قتيبة وإبراهيم الحربي ، والمبرد وابن دريد . قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) : "قدم الرياشي بغداد ، وحدّث بها، وكان ثقة، وكان من الأدب وعلم النحو بمحل عالٍ، كان يحفظ كتب أبي زيد (ت ٢١٥هـ)، وكتب الأصمعي (ت ٢١٤هـ) كلها ، وقرأ على أبي عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ) كتاب سيبويه،

(١) انظر ترجمته : إنباه الرواة (٥٨/٢)، سير أعلام النبلاء (٢٦٨/١٢)، معرفة القراء (٢١٩/١)، تهذيب اللغة (٢٢/١)، غاية النهاية (٢٨٩/١) .

(٢) غريب الحديث (٤٩٣/١) .

(٣) أدب الكاتب (ص٣١٦)، وانظر - للاستزادة - : (ص١٨٧)، غريب الحديث (٢٧٠/١، ٢٧٧) (٢٧٢/٢، ١٤٩، ٧٣٦) .

(٤) ستأتي الأمثلة عند الحديث عن هؤلاء الأئمة .

فكان المازني يقول : قرأ عليّ الرياشي "الكتاب" وهو أعلم به مني ، وكان ثقة". وقال الذهبي (ت ٧٤٨هـ): "كان من بحور العلم"، وقال أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ): "كان الرياشي حافظاً للغة والشعر ، كثير الرواية عن الأصمعي"^(١).

وكما هو حال أبي حاتم فإن للرياشي أثراً كبيراً في الشراء اللغوي عند الإمام ابن قتيبة، يظهر ذلك جلياً في جانب الشعر وروايته ، فإن الناظر لهذا الجانب في مصنفات ابن قتيبة يجد حضوراً كثيفاً للرياشي ومروياته .

للإمام ابن قتيبة طريقان في الإفادة منه :

الأول : نقل أقواله ، ومنه :

قوله : "قال لنا الرياشي : يقال أريضت الشمس ، إذا اشتد حرها حتى تُريض الشاة والظي"^(٢).

وقوله : "وأخبرني الرياشي في بيت أبي ذؤيب (ت ٢٧هـ)^(٣) :

بأية ما وقفت والركاب بين الحُجُون وبين الشُرر^(٤)

قال : هو هذا الموضع الذي سُرَّ^(٥) فيه الأنبياء، وهو من مكة على أربعة أميال"^(٦).

الثاني : نقل مروياته عن الأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة^(٧).

٣ . أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك الأصمعي البصري (ت ٢١٤هـ).

اللغوي الإخباري ، العلامة الحافظ ، حجة الأدب ، ولسان العرب ، حدّث عن: أبي عمرو بن العلاء وشعبة وسليمان التيمي ، ونافع بن أبي نعيم ، وقرأ عليه، وعنه : أبو عبيد وأبو

(١) انظر : ترجمته : تاريخ بغداد (٢٢/١٤)، إنباه الرواة (٣٦٧/٢)، نزهة الألباء (ص١٩٩)، سير أعلام النبلاء (٣٧٢/١٢) .

(٢) غريب الحديث (٤٦٧/١) .

(٣) أبو ذؤيب الهذلي ، خويلد بن خالد بن محرث ، شاعر فحل مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام، سكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح ، كان مسلماً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره ، قدم وشهد السقيفة ومبايعة أبي بكر رضي الله عنه، توفي غازياً بإفريقية سنة ٢٧هـ. [الشعر والشعراء (٢/٦٥٣)، طبقات الشعراء للجهمي (ص٤٧)].

(٤) البيت في تهذيب اللغة (٢٠٣/١٢)، واللسان (٣٥٦/٤) منسوباً لأبي ذؤيب .

(٥) سُرَّ فيه الأنبياء؛ أي: قطعت سُرُزهم ، يعني أنهم وُلدوا في هذا الموضع. [لسان العرب ، مادة (سرر) (٣٥٦/٤)].

(٦) غريب الحديث (١٦٦/١)، وانظر - للاستزادة - : (٢٣٧/١)، (٢٥٩)، (٣٣٥)، (٤١١)، (٤٢٣)، (٤٧١) (٤٧١)، (١٣/٢)، (٧١)، (١٤٠)، (٢٠١)، (٢٤٤)، (٥١٧)، عيون الأخبار (١١٩/١)، المعاني الكبير (١/٥٢)، (٥٨)، (٦٥)، (٨٣) .

(٧) ستأتي الأمثلة عند الحديث عن هؤلاء الأئمة .

الفضل الرياشي وأبو حاتم السجستاني ويحيى بن معين ، وأبو حاتم الرازي، وابن أخيه عبدالرحمن بن عبدالله الأصمعي ، وخلق كثير .

وقد أثنى الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) على الأصمعي في السنة، وقال الشافعي (ت ٢٠٤هـ): "ما عبّر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي"، وقال ابن معين (ت ٢٣٣هـ): "كان الأصمعي من أعلم الناس في فنه" ، وقال المبرد (ت ٢٨٥هـ): "كان الأصمعي بجرأ في اللغة لا نعرف مثله فيها".

له مصنفات عديدة أكثرها مختصرات ، وقد فُقدَ جُلّها ، ومن كتبه التي وصلت إلينا: "كتاب الخيل" ، و"كتاب الشاء" ، و"كتاب الوحوش"^(١).

ويعد الأصمعي من أهم موارد ابن قتيبة اللغوية ، بل تكاد إفادته منه تطغى على جميع موارده اللغوية الأخرى ، فمصنفاته مليئة بأقوال الأصمعي ومروياته ، إلى درجة أكاد أجزم بأنها حفظت أغلب تراث الأصمعي المفقود ، وعليه تكون مصنفات ابن قتيبة من أهم الموارد الرئيسة لمن أراد البحث عن هذا التراث المفقود .

طرق إفادة ابن قتيبة من الأصمعي :

أ . النقل عنه بإسناد عن طريق شيوخه :

١ . طريق أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) عن الأصمعي ، وغالب مرويات ابن قتيبة عن الأصمعي كانت بواسطة شيخه أبي حاتم ، ومنها :
قوله : "أخبرني السجستاني عن الأصمعي أنه قال : يقال : أباد الله غضراءهم أي خيرهم وغضارتهم"^(٢).

٢ . طريق الرياشي (ت ٢٥٧هـ) عن الأصمعي .

ويأتي في درجة ثانية بعد أبي حاتم ، وغالب مروياته عن الأصمعي تتعلق بالشعر ، ومنها:

(١) انظر ترجمته : طبقات الزبيدي (ص١٦٧)، تاريخ بغداد (١٥٧/١٢)، إنباه الرواة (١٩٧/٢)، سير أعلام النبلاء (١٧٥/١٠) .

(٢) غريب الحديث (٢٩٤/٢)، وانظر - للاستزادة - : (١/٢٦٢، ٤٣٠، ٤٨٢، ٥٧٤) (٢/٣٤٠، ٣٨٣، ٧٢٣، ٧٢٥)، تأويل مشكل القرآن (ص٩٥)، عيون الأخبار (١/١١٦، ١١٨، ١٥٨، ١٥٩، ١٩١، ١٩٥) .

قوله : "حدثني الرياشي عن الأصمعي ، قال : أبرع بيت قالته العرب : قول أبي ذؤيب (ت ٢٧هـ):

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع^(١)"^(٢)

٣ . طريق الزبيدي (ت ٢٤٩هـ) عن الأصمعي ، ومنه :

قوله في معنى : "إني أقطعك من عفاء الأرض" : قال "قال الزبيدي عن الأصمعي: عفاء الأرض ما كان عافياً ليس فيه لمسلم ولا لمعاهد شيء"^(٣).

٤ . طريق عبدالرحمن بن عبدالله الأصمعي عن عمه الأصمعي ، ومنه :

قوله : "وأخبرني عبدالرحمن بن عبدالله بن قريب عن عمه الأصمعي ، أنه قال: الضغائيس نبت ينبت في أصل الثمام يُشبهه الهليون يُسلق ويُجعل بالخل والزيت ويؤكل"^(٤).
ب . النقل عن خطه ، ومنه :

قوله : "وقرأت في كتاب بخط الأصمعي عن عيسى بن عمر (ت ١٥٦هـ) أنه قال: (شرحجيل) أعجمي ، وكذلك (شراحيل) ، قال: وأحسبهما منسوبين إلى (إيل) مثل جبرائيل وميكائيل"^(٥).

ج . النقل عنه دون سند .

وهو كثير جداً في مصنفات ابن قتيبة ، ومنه :

قوله : "الويل : كلمة جامعة للشركه ، قال الأصمعي : ويل تقييح"^(٦).

قوله : "والعبير : أخلاط من الطيب يجمع بالزعفران ، قال ذلك الأصمعي"^(١).

(١) من مرثية أبي ذؤيب الهذلي أولاده ، وهو البيت (١٣) من المفضليات (ص ٤٢٢)، وذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء منسوباً له (٦٥/١) .

(٢) عيون الأخبار (٥٨٨/٢)، وانظر - للاستزادة - : (١٨١/١)، (٢٠٩)، (٣١١/١)، (٦٠٠)، (٦٢٤)، (٥٥/٢)، (١٦٠)، (١٩٧)، (٢٠١)، (٢٨٧)، (٤٣٨)، (٤٥٨)، (٥١٨)، (٥٣٤) .

(٣) غريب الحديث (٢٥٢/١)، وانظر - للاستزادة - : (٢٤٩/١)، (٤٧٤)، (٥٣٣)، (٥٣٦)، (٦٠٧)، (٦٠٨)، (٦١٩)، (٨/٢)، (٦٣)، (١٠٢)، (٢٦٢)، (٢٧٥) .

(٤) غريب الحديث (٢٧١/١)، وانظر - للاستزادة - : (١٨٧/١)، (٤١٥)، (٦٠٩/٢)، (٧٠٣/٣)، (٧٠٣/٣)، (١١٤/١)، (١٧٩)، (٢٠٨)، (٤٦/١) .

(٥) أدب الكاتب (ص ٦١)، وانظر : غريب الحديث (٤١٣/١) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٦١) .

٤ . أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت بن بشر بن بشير بن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن زيد بن قيس الأنصاري البصري (ت ٢١٥هـ).

الإمام النحوي اللغوي ، صاحب التصانيف ، روى عن أبي عمرو بن العلاء ، وسليمان التيمي وابن عون، ورؤبة بن العجاج ، وعنه : خلف بن هشام البزار ، وتلا عليه، وأبو عبيد ، وأبو حاتم السجستاني ، وأبو عثمان المازني ، والرياشي ، وأبو حاتم الرازي وخلق كثير .

له مصنفات كثيرة منها : "النوادر" ، و"الهمز" ، و"المطر" ، و"النبات" ، و"الشجر".

قال أبو عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ) : "كنا عند أبي زيد فجاء الأصمعي، فأكب على رأسه ، وقال : هذا عالمنا ومعلمنا منذ ثلاثين سنة ، فبينما نحن كذلك إذ جاء خلف الأحمر (ت ١٨٠هـ) فأكب على رأسه، وقال : هذا عالمنا ومعلمنا منذ عشرين سنة".

وقال أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ): "يقال : إن الأصمعي كان يحفظ ثلث اللغة، وكان أبو زيد يحفظ ثلثي اللغة ، وكان الخليل يحفظ نصف اللغة"^(٢).

يعد من الموارد اللغوية الرئيسة في مصنفات ابن قتيبة ، فقد أفاد منه كثيراً ، وكان لإفادته منه طريقان :

أ . النقل عنه بالسند عن طريق شيوخه :

١ . طريق أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) عن أبي زيد، وهو الأكثر، ومنه:

قوله : "وأخبرني السجستاني سهل بن محمد عن أبي زيد الأنصاري سعيد بن أوس بن ثابت أنه قال : الجوّاظ : الكثير اللحم المختال في مشيته"^(٣).

٢ . طريق الرياشي (ت ٢٥٧هـ) عن أبي زيد ، ومنه :

قوله : "حدثنا الرياشي عن أبي زيد ، أنه قال : قول الناس ثريدة كثيرة العُراق خطأ، لأن العُراق العظام ، ولكن يقال ثريدة كثيرة الوُدُر"^(١).

(١) غريب الحديث (٢١٨/١)، وانظر - للاستزادة - : (٢٥٤/١، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٩) (٣٨/٢، ٧٦، ١٠٤، ١١٢، ١١٥، ١٥٦، ١٧٩، ١٨٠)، عيون الأخبار (١٤٨/١، ١٧٤)، تأويل مشكل القرآن (ص ٥٣٤) .

(٢) انظر ترجمته : إنباه الرواة (٣٠/٢)، نزهة الألباء (ص ١٧٣)، تاريخ بغداد (١٠٩/١٠)، سير أعلام النبلاء (٤٩٤/٩)

(٣) غريب الحديث (٢٥٦/١)، وانظر - للاستزادة - : (١٥٣/١، ٢٧١، ٤٠٣، ٤٤٣، ٤٦٨، ٥٧٣، ٦٢٠) (١٣٢/٢، ١٨١)، المعاني الكبير (٤٣/١، ٩١، ٢٨٤) .

ب . النقل عنه دون سند ، وهو الغالب في مصنفات ابن قتيبة ، ومنه :
قوله : "قال أبو زيد : يقال سؤم الرجل خيله : إذا أرسلها في الغارة ، وسؤموا خيلهم :
إذا شنوا الغارة"^(٢).

٥ . أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي مولاهم البصري (ت ٢١٠هـ).

النحوي اللغوي المفسر ، روى عن أبي عمرو بن العلاء وهشام بن عروة ورؤبة بن العجاج ،
وعنه: أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني وأبو عثمان المازني وعلي ابن المدني.
من مصنفاته : "مجاز القرآن" ، و"الخيل" ، و"ما تلحن فيه العامة".
قال يعقوب بن شيبة (ت ٢٦٢هـ) : "سمعت علي بن المدني ذكر أبا عبيدة ، فأحسن
ذكره ، وصحح روايته ، وقال : كان لا يحكي عن العرب إلا الشيء الصحيح" ، وقال الجاحظ
(ت ٢٥٥هـ) : "لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة" ، وقال المبرد (ت
٢٨٥هـ) : "كان هو والأصمعي متقاربين في النحو ، وكان أبو عبيدة أكمل القوم"^(٣).
وكما كان مورداً أساساً في تفسير القرآن ، فإنه كذلك من أهم الموارد اللغوية عند ابن
قتيبة ، وكان للإفادة عنه طريقان :

أ . النقل عنه بالإسناد بواسطة شيخه أبي حاتم السجستاني ، ومنه :

قوله : "خبرني أبو حاتم عن أبي عبيدة ، أنه قال - في النسلان - : هو مشي الذئب
إذا بادر إلى شيء"^(٤).

كما نقل ابن قتيبة عن كتب أبي عبيدة بواسطة أبي حاتم ، ومنه :

قوله : "والذي حكاه لي أبو حاتم عن أبي عبيدة في كتاب "الخيل" أنه قال: الإقراف أن
يضرب فيها عرق البراذين"^(٥).

ب . النقل عنه دون سند ، وهو الغالب ، ومنه :

(١) غريب الحديث (٢٦٣/١) ، وانظر - للاستزادة - : (١٨١/٢) ، عيون الأخبار (٢٩٦/١) .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ١١٠) ، وانظر -للاستزادة- : (ص ١٢١ ، ١٩٢ ، ٢٤٧) ، تأويل مختلف الحديث (ص ٣٣٩) ،

أدب الكاتب (ص ٣٠ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٠) ، غريب الحديث (١٨٧/١) ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٣٠٧ .

(٣) انظر ترجمته : تاريخ بغداد (٢٥٢/١٣) ، إنباه الرواة (٢٧٦/٣) ، سير أعلام النبلاء (٤٤٥/٩) ، نزهة الألباء

(ص ٨٤) .

(٤) غريب الحديث (٥١٧/١) ، وانظر - للاستزادة - : (٢٤١/١) ، ٢٨٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٣ ، ٤٧٤ .

(٥) غريب الحديث (٣٢٧/٢) ، وانظر -للاستزادة- : (٤٧٣/١) (٢٩٢/٢) ، ٣٠٣ ، المعاني الكبير (١٤٤/١) ، ٢٠ ، ٣٧ .

قوله : "قال أبو عبيدة : شاة يَبْسُ وَيَبْسُ، إذا لم يكن لها لبن ، وطريق يَبْسُ وَيَبْسُ أي يابس"^(١).

٦ . القاسم بن سلام بن عبد الله ، أبو عبيد الهروي البغدادي (ت ٢٢٤هـ)^(٢).

وهو من موارد ابن قتيبة اللغوية، وقد أفاد منه كثيراً في مصنفاته وله طريقان في ذلك:

أ . النقل عنه بالسند بواسطة شيخه أحمد بن سعيد اللحياني ، ومنه :

قوله : "الصاع خمسة أرتال وثلاث ، برطل زماننا، والمد ربع الصاع، حدثنا أحمد بن

سعيد اللحياني صاحب أبي عبيد عن أبي عبيد أنه قال في الصاع والمد مثل ذلك"^(٣).

ب . النقل عن كتبه ، وهو الغالب في "غريب الحديث" ، و"إصلاح غلط أبي عبيد"،

ومنه :

قوله : "الأزم : الأضراس ، وقال أبو عبيد في كتاب "الأمثال" : لو كانت الأضراس

لكانت الأزم بالزاي، ذهب إلى الأزم ، وهو العض"^(٤).

٧ . يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي ، أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ).

النحوي اللغوي المفسر ، روى عن : علي بن حمزة الكسائي ، وأبي بكر بن عياش، وقيس ابن

الربيع ، وعنه : سلمة بن عاصم ومحمد بن الجهم السمرى وغيرهما .

من مصنفاته : "معاني القرآن" ، و"البهي" .

قال ثعلب (ت ٢٩١هـ): "لولا الفراء لما كانت عربية ولسقطت لأنه خلصها، ولأنها

كانت تتنازع ويدعيها كل أحد".

وقال ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ): "لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من النحاة إلا

(١) أدب الكاتب (ص٤٢٢)، وانظر - للاستزادة - : (ص٣٣، ٤٧، ٤٩، ١٠٠، ١٠٨، ١٢٢، ١٢٣)، المعاني الكبير

(١/٦، ٧، ٩، ١١، ١٣)، غريب الحديث (١/٢٢٦، ٢٧٦، ٣٠٤، ٤٢٦) .

(٢) انظر ترجمته في (ص٩٦٤) من هذه الرسالة .

(٣) غريب الحديث (١/١٦٢)، وانظر - للاستزادة - : (١/٤٢٤)، تأويل مختلف الحديث (ص٢٢٢) .

(٤) غريب الحديث (٢/١١٨)، وانظر - للاستزادة - : (١/٣٠٦، ٣١٦، ٣٨٩، ٣٩٥، ٤٥٧)، المسائل والأجوبة

(ص١٦١، ١٩١، ٣٧٢، ٤٠٩) .

الكسائي والفراء لكفى" (١).

وقد أفاد منه ابن قتيبة في مواضع كثيرة من مصنفاته ، منها :

قوله : "قال الفراء : يقولون وعدته خيراً ، ووعدته شراً ، فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا في الخير "وعدته" ، وفي الشر "أوعدته" ، فإذا جاءوا بالبلاء قالوا : "أوعدته بالشر" فأثبتوا الألف" (٢).

ثانياً : الموارد الفرعية :

وهي الموارد اللغوية التي نقل عنها ابن قتيبة على قلة ، ومنها :

١ - أبو عمرو زيان بن العلاء بن عمار بن عبدالله المازني (ت ١٥٤هـ)، الإمام النحوي اللغوي المقرئ ، روى عن : أنس بن مالك ، ومجاهد ويحيى بن معمر ، وعنه : شعبة ، وعبدالله بن المبارك وحماد بن زيد والأصمعي (٣).

نقل عنه ابن قتيبة في مواضع من كتبه ، بعضها بالسند إليه عن طريق شيوخه عن الأصمعي عنه ، ومنها :

قوله : "حدثنا الرياشي عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء في معنى (شانقاً ناقته): هو من شَنَقَتِ الناقة إذا كَفَفَتْها بزمامها" (٤).

٢ - الخليل بن أحمد أبو عبدالرحمن الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، النحوي اللغوي، أخذ عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء ، وعنه : سيبويه ، والنضر بن شميل والليث ابن المظفر وخلق كثير (٥).

أفاد منه ابن قتيبة في مواضع محدودة ، منها :

(١) انظر ترجمته : طبقات الزبيدي (ص ١٣١)، نزهة الألباء (ص ٨١)، بغية الوعاة (٢/٣٣٣)، سير أعلام النبلاء (١١٨/١٠).

(٢) أدب الكاتب (ص ٢٧١)، وانظر - للاستزادة - : (ص ٤٣، ٤٦، ٤٩، ٥٠، ١٨١، ٢٠٢، ٢٤٧، ٢٥٢)، المعاني الكبير (١/١٥٩، ٢٢٠)، غريب الحديث (١/٢٤٤، ٢٤٩، ٢٨٨، ٣٠٠) (٢/٧٢، ٧٣، ١٩٨، ٢٢٦).

(٣) انظر ترجمته : المعارف (ص ١٢٣)، وفيات الأعيان (٣/١٣٦)، سير أعلام النبلاء (٦/٤٠٧).

(٤) غريب الحديث (٢/١٦٠)، وانظر - للاستزادة - : (١/٣٥٦، ٣٧٥، ٤١١، ٤١٥، ٦٢٢) (٢/٢٥، ٣٠٩، ٤٦١، ٥٨٠).

(٥) انظر ترجمته : المعارف (ص ١٢٣)، إنباه الرواة (١/٣٤١)، سير أعلام النبلاء (٧/٤٢٩)، الوافي (١٣/٣٨٥).

قوله : " وقالوا : لبيّ فلان ، من التلبية وكان أصلها : لبيّث ؛ لأنها من ألبت بالمكان ، قال ذلك الخليل ، وقال : ومعنى : لبيك ، ها أنا ذا عبدك قد أجبتك ، قد خضعت لك " (١) .

٣- عمرو بن عثمان بن قنبر ، أبو بشر الفارسي ثم البصري ، المعروف بـ "سيبويه" (ت ١٨٠هـ) ، النحوي اللغوي ، روى عن : الخليل بن أحمد ، وعيسى بن عمرو ، ويونس ابن حبيب ، وعنه : سعيد بن مسعدة الأخفش ، ومحمد بن المستنير قطرب وغيرهما (٢) .

نقل ابن قتيبة عن "الكتاب" لسيبويه في مواضع من كتبه ، منها :

قوله : "وقرأت في "كتاب" سيبويه على البصريين : بشرته فأبشر، مثل : فطرته فأفطر" (٣) .

٤ - يونس بن حبيب أبو عبدالرحمن الضبي (ت ١٨٣هـ) ، النحوي اللغوي ، روى عن : أبي عمرو بن العلاء ، وحامد بن سلمة ، وعنه : الكسائي ، وسيبويه ، والفراء ، وغيرهم (٤) .

أفاد منه ابن قتيبة في بعض المواضع ، منها :

قوله : "قال يونس : الصّرف ، الحيلة من قولهم : إنه ليتصرّف ، أي يجتال" (٥) .

٥ - علي بن حمزة بن عبدالله ، أبو الحسن الكسائي (ت ١٨٩هـ) ، النحوي اللغوي المقرئ ، روى عن : جعفر الصادق والأعمش ، وقرأ على حمزة وابن أبي ليلى ، وعنه : الفراء ، وأبو عبيد وجماعة (٦) .

أفاد منه ابن قتيبة على قلة ، ومنه :

قوله : "قال الكسائي : والعرب تقول (أكذبت الرجل) إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه ، وتقول : (كذبته) إذا أخبرت أنه كاذب" (٧) .

(١) أدب الكاتب (ص ٥٠٠) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٤٨٧ ، ٤٩٤) .

(٢) انظر ترجمته : المعارف (ص ١٢٤) ، نزهة الألباء (ص ٦٠) ، إنباه الرواة (٣٤٦/٢) ، سير أعلام النبلاء (٣٥١/٨) .

(٣) غريب الحديث (٢/٢٣٣) ، وانظر - للاستزادة - : (٤٠٦/١) (١٢٥/٢) ، ٢٩٠ ، ٣٥٧ ، ٦٧٦) ، أدب الكاتب (ص ٤٩ ، ٨١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩) .

(٤) انظر ترجمته : نزهة الألباء (ص ٣١) ، إنباه الرواة (٧٦/٤) ، سير أعلام النبلاء (١٩١/٨) .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٣١١) ، وانظر - للاستزادة - : أدب الكاتب (ص ٣٨ ، ١٧٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٦٦ ، ٤٣٥) ، غريب الحديث (٧١/٢) .

(٦) انظر ترجمته : المعارف (ص ١٢٤) ، إنباه الرواة (٢٥٦/٢) ، سير أعلام النبلاء (١٣١/٩) .

(٧) أدب الكاتب (ص ٢٧٤) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٨٧ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ٢٢٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦) ، غريب الحديث (٣٩٩/١) ، ٤٦٧ ، ٤٦٨) (٢/٢٥١ ، ٥٨٨) ، تأويل مشكل القرآن (ص ١٢٥) .

٦ . أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني الكوفي (ت ٢٠٦هـ) ، النحوي اللغوي المفسر المقرئ ، أخذ عن : المفضل الضبي دواوين العرب ، وعنه : الإمام أحمد وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهما^(١) .

أفاد منه ابن قتيبة في مواضع محدودة ، منها :

قوله : "قال أبو عمرو الشيباني : لا يقال حَلَقَةٌ في شيء من الكلام ، إلا حَلَقَةٌ الشَّعْر جمع حالق ، مثل كافر وكَفَرَة وظالم وظَلَمَة"^(٢) .

٧ . محمد بن زياد ، أبو عبدالله ابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) ، اللغوي ، روى عن : ابن معاوية الضرير ، والقاسم بن معن ، وعنه : إبراهيم الحربي ، وثعلب ، وعثمان الدارمي^(٣) .

نقل عنه ابن قتيبة في بعض المواضع ، منها :

قوله : "قال ابن الأعرابي : الأحنف الذي يمشي على ظهر قدميه، والأفقد الذي يمشي على صدرها"^(٤) .

٨ . أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت البغدادي (ت ٢٤٤هـ) ، النحوي اللغوي، أخذ عن : أبي عمرو الشيباني ، والأصمعي ، والفراء وغيرهم ، وعنه : أبو عكرمة الضبي ، وأحمد بن فرح المفسر ، وجماعة^(٥) .

أفاد منه ابن قتيبة في مواضع ، منها :

قوله : "أخبرنا يعقوب بن السكيت أن الهباء المُنْبَث : ما سَطَعَ من تحت سنابك الخيل، والهباء المنثور : ما تراه في الشمس الداخلة في كوة السقف"^(٦) .

(١) انظر ترجمته : المعارف (ص١٢٤) ، إنباه الرواة (٢٢١/١) ، البداية والنهاية (٢٦٥/١٠) .

(٢) أدب الكاتب (ص٢٩٥) ، وانظر : (ص٣٠٥ ، ٤٦٩) ، غريب الحديث (٣٤/٢) ، المسائل والأجوبة (ص٣٥٣) .

(٣) انظر ترجمته : تاريخ بغداد (٢٨٢/٥) ، إنباه الرواة (١٢٨/٣) ، سير أعلام النبلاء (٦٨٧/١٠) .

(٤) غريب الحديث (٥٣٨/٢) ، وانظر - للاستزادة - : (١٩٦/١ ، ٣٨١ ، ٤٣٤ ، ٤٥٩ ، ٤٦٦) ، تفسير غريب القرآن (ص١٩٢) ، أدب الكاتب (ص٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٧٦) .

(٥) انظر ترجمته : إنباه الرواة (٦٠/٤) ، تاريخ بغداد (٢٧٣/١٤) ، سير أعلام النبلاء (١٦/١٢) .

(٦) غريب الحديث (٦١٥/٢) ، وانظر - للاستزادة - : (٤٣٤/١ ، ٤٧٧) .

المبحث الخامس

موارده في العلوم الأخرى

سبق الحديث عن ابن قتيبة أنه سلك في أغلب مصنفاته المسلك الموسوعي ، المشتمل على التفسير والحديث والفقه والأحكام والعقيدة والأخبار والقصص واللغة والأدب والنحو، وغير ذلك من العلوم ، وقد أفاد في ذلك كله من مصادر متعددة ومتنوعة في علوم متفرقة.

أ. ففي الفقه :

أفاد الإمام ابن قتيبة من عدد من أئمة الفقه ، أبرزهم :

١ . شيخه إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ) :

له مذهب فقهي ينسب إليه ، وقد تأثر به ابن قتيبة كثيراً في مجال الفقه والأحكام ، ونقل الكثير من أقواله واختياراته الفقهية في عدد من المسائل^(١).

٢ . أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي ، (ت ١٥٠هـ)، مولى بني تميم الله بن ثعلبة .

الإمام الفقيه ، عالم العراق ، روى عن عطاء بن أبي رباح ، ونافع مولى ابن عمر، وعطية العوفي ، والزهري ، وأبي إسحاق السبيعي ، وعطاء بن السائب ، وخلق سواهم ، وعنه : عبدالله بن المبارك ، وعبدالرزاق ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، ووكيع ، والثوري، وأبو يوسف ، وخلق كثير .

قال عبدالله بن المبارك (ت ١٨١هـ): "أبو حنيفة أفقه الناس"، وقال الشافعي (ت ٢٠٤هـ): "الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة"، وروي عن الأعمش (ت ١٤٨هـ) أنه سئل عن مسألة فقال : "إنما يحسن هذا النعمان بن ثابت الخراز ، وأظنه بورك له في علمه"^(٢).

نقل ابن قتيبة عنه وعن صاحبه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢هـ) في بعض المسائل الفقهية^(١).

(١) انظر : غريب الحديث (١/١٦٢، ١٦٤، ١٨٦) (٢/٣٣٦، ٣٦٢)، تأويل مختلف الحديث (ص ٥٤، ٥٥، ١٧٣)،

الأشربة (ص ١٠).

(٢) انظر ترجمته : تاريخ بغداد (١٣/٣٢٣) ، سير أعلام النبلاء (٦/٣٩١)، البداية والنهاية (١٠/١٠٧).

٣ . أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر المدني (ت ١٩٧هـ).
 شيخ الإسلام ، حجة الأمة ، إمام دار الهجرة ، أخذ عن نافع ، وسعيد المقبري ، وابن المنكدر ، والزهري ، وعبدالله بن دينار ، وخلق كثير ، وعنه : الأوزاعي ، وشعبة ، والثوري ، والليث ، وابن عيينة ، وعبدالرحمن بن مهدي ، ووكيع ، والشافعي .
 قال ابن عيينة (ت ١٩٨هـ): "مالك عالم أهل الحجاز ، وهو حجة زمانه" ، وقال الشافعي (ت ٢٠٤هـ): "إذا ذُكر العلماء فمالكُ النجم" ، وقال الذهبي (ت ٧٤٨هـ): "لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم ، والفقهِ ، والجلالة ، والحفظ"^(١).
 وقد أفاد ابن قتيبة من الإمام مالك ، ونقل الكثير من أقواله في عدد من المسائل الفقهية^(٢).

٤ . أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان القرشي المطلي الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، الإمام ، عالم العصر ، ناصر الحديث ، فقيه الملة ، أخذ عن : الإمام مالك ، وسفيان بن عيينة ، وفضيل بن عياض ، وإسماعيل بن علية ، وخلق كثير ، وعنه : الحميدي ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، والإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وحرملة بن يحيى ، والربيع ابن سليمان المرادي ، وآخرون .

قال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) : "إن الله يقيض للناس في رأس كل مئة من يعلمهم السنن ، وينفي عن رسول الله الكذب ، قال : فنظرنا ، فإذا رأس المئة عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١هـ)، وفي رأس المئتين الشافعي" ، وقال أيضاً : "ما أحدٌ مسَّ محرمة ولا قلماً ، إلا وللشافعي في عنقه مئة"^(٣).

وقال إسحاق ابن راهويه : "ما تكلم أحد بالرأي - وذكر جماعة من أئمة الاجتهاد - إلا والشافعي أكثر اتباعاً منه ، وأقل خطأ منه ، الشافعي إمام"^(٤).

(١) انظر : غريب الحديث (٤٤/٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣٥ ، ٦٠٣ ، ٦١٨ ، الأثرية (ص٧٤ ، ١٢٤)، تأويل مختلف الحديث (ص٧٩) .

(٢) انظر ترجمته : تهذيب الكمال (٣٥٥/٢٤)، سير أعلام النبلاء (٥/١٠)، البداية والنهاية (٢٥١/١٠) .

(٣) انظر : غريب الحديث (٣٦٢/٢ ، ٥٢٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٤٨ ، ٦٥٥ ، ٧٣٠)، تأويل مختلف الحديث (ص٣٠٦)، الأثرية (ص٧٤ ، ١٢٤ ، ١٢٧) .

(٤) انظر ترجمته : تاريخ بغداد (٣٩٢/٢)، طبقات الفقهاء للشيرازي (ص٧١)، سير أعلام النبلاء (٥/١٠) .

نقل عنه ابن قتيبة كثيراً من المسائل الفقهية^(١)، وأشار في بعضها إلى واسطته وهو الربيع بن سليمان المرادي (ت ٢٠٧هـ)^(٢)، راوي كتب الشافعي، حيث يقول في مواضع عديدة: "وكتب إليّ الربيع بن سليمان يخبرني عن الشافعي ..."^(٣).

٥. أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي الدمشقي (ت ١٥٧هـ).

الحافظ الفقيه، عالم أهل الشام، أخذ عن عطاء بن أبي رباح والزهري، ومحمد بن إبراهيم التيمي، ويحيى بن أبي كثير وخلق، وعنه شعبة وابن المبارك، والوليد بن مسلم ويحيى القطان ومحمد بن يوسف الفريابي وخلائق.

قال إسماعيل بن عياش (ت ١٨١هـ): "سمعت الناس في سنة أربعين ومائة يقولون: الأوزاعي اليوم عالم الأمة". وقال الإمام مالك (ت ١٩٧هـ): "الأوزاعي إمام يقتدى به". وقال الشافعي (ت ٢٠٤هـ): "ما رأيت رجلاً أشبه فقهه بحديثه من الأوزاعي". وكان له مذهب مستقل مشهور، عمل به فقهاء الشام مدة، وفقهاء الأندلس، ثم في^(٤).

وقد أفاد منه ابن قتيبة، فنقل اختياراته الفقهية في بعض المسائل^(٥).

٦. أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (ت ١٦١هـ).

أفاد منه ابن قتيبة في عدد من المسائل الفقهية^(٦).

ب. وفي السير:

نقل الإمام ابن قتيبة عن عدد من كتب السير، من أهمها:

(١) انظر: غريب الحديث (١٨٦/١، ١٩٧، ٢١٠، ٣٠١) (٣٢٥/٢، ٣٣٦، ٦٤٨)، الأشربة (ص ١٢٤، ١٢٧).

(٢) الربيع بن سليمان بن عبدالجبار بن كامل المرادي، الفقيه الكبير، صاحب الإمام الشافعي، وراوي كتب الأمهات عنه، قال له الشافعي: "لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك"، وقال أيضاً: "الربيع راوية كتيبي"، مات سنة ٢٧٠هـ. [تهديب التهذيب (٢٤٥/٣)، سير أعلام النبلاء (٩٦/٢٤)].

(٣) غريب الحديث (٢٠٠/١، ٣٣٤، ١٦٣/٢) (٦٤٨).

(٤) انظر ترجمته: المعارف (ص ٢٧٨)، التاريخ الكبير (٣٢٦/٥)، سير أعلام النبلاء (١٠٧/٧)، البداية والنهاية (١١٥/١٠).

(٥) انظر: غريب الحديث (٢٨١/١) (٣٢٥/٢)، تأويل مختلف الحديث (ص ٥٢).

(٦) انظر: غريب الحديث (٣١٣/٢، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٦٢، ٦٢٩، ٦٥٥)، الأشربة (ص ٦٤، ١٢٤، ١٢٥).

١. كتاب "السير والمغازي" لأبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار القرشي المدني المطليبي (ت ١٥١هـ).

الشيخ المؤرخ، إمام المغازي والسير، قال فيه الزهري (ت ١٢٥هـ): "لا يزال بالمدينة علم جم ما دام فيهم ابن إسحاق"، وسئل عن مغازيه؛ فقال: "هذا أعلم الناس بهذا"^(١). نقل عنه ابن قتيبة في مواضع كثيرة من كتبه، ويأتي في درجة ثانية بعد "المغازي" للواقدي من حيث الاستفادة منه والنقل عنه^(٢).

٢. كتاب "السير" لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة الفزاري (ت ١٨٦هـ).

وهو من أقدم الكتب التي تناولت موضوع المغازي والسير والجهاد، وما يتعلق بذلك من أحكام، يقول الشافعي (ت ٢٠٤هـ): "لم يصنف أحد في السير مثل كتاب أبي إسحاق"^(٣). وقد أفاد منه ابن قتيبة في بعض مصنفاته^(٤).

٣. كتاب "المغازي" لأبي عبدالله محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ). يقول تلميذه ابن سعد (ت ٢٣٠هـ): "كان عالماً بالمغازي والسيرة والفتوح، واختلاف الناس في الحديث والأحكام، واجتماعهم على ما اجتمعوا عليه، وقد فسر ذلك في كتب استخراجها ووضعها وحدث بها"^(٥).

من أشهر كتبه "كتاب المغازي" ويعد المورد الأساسي لابن قتيبة في السير، حيث اعتمد عليه ونقل عنه نقولاً كثيرة في "المعارف"^(٦).

(١) انظر ترجمته: المعارف (ص ٢٧٦)، تاريخ بغداد (٧/٢)، تهذيب الكمال (٤٠٥/٢٤)، سير أعلام النبلاء (٣٥/٧).

(٢) انظر: المعارف (ص ١١، ٢١، ٩٣، ٩٤، ٩٨، ١٠٠، ١٠٦، ١١٣، ١٢٠)، غريب الحديث (١/٢٥٦، ٣٩٦)، عيون الأخبار (١/٢٢٨).

(٣) انظر ترجمته: المعارف (ص ٢٨٧)، تهذيب الكمال (١٦٧/٢)، سير أعلام النبلاء (٥٣٩/٨).

(٤) انظر: عيون الأخبار (٢/٥٧٧)، المعارف (ص ١٣٠)، غريب الحديث (١/٤٢٩).

(٥) انظر ترجمته: المعارف (ص ٢٨٨)، طبقات ابن سعد (٦٠٣/٧)، سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٩).

(٦) انظر: (ص ٧٣، ٧٤، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١١٣، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٣، ١٥٦، ١٧٧، ١٩١، ٢٢٥، ٢٥٦، ٢٧٤).

كما أفاد الإمام ابن قتيبة في المعارف العامة من عدد من كتب الهند والعجم والفرس،
وقد سبق الحديث عنها^(١).

(١) انظر: (ص ١٤١) من هذه الرسالة .

الفصل الثالث

أثر ابن قتيبة فيمن بعده

وفيه تمهيد وخمسة مباحث :

- المبحث الأول: أثره في التفسير .
- المبحث الثاني: أثره في القراءات .
- المبحث الثالث: أثره في علوم القرآن .
- المبحث الرابع: أثره في أصول التفسير .
- المبحث الخامس : أثره في العلوم الأخرى .

الفصل الثالث

أثر ابن قتيبة فيمن بعده

التمهيد:

سبق الحديث عن مصنفات ابن قتيبة ، وأنّ جلة من علماء الإسلام قد أثنوا على مصنفاته، كأبي الحسن القطان (ت ٣٤٥هـ)، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، وشيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، بل لا يكاد يُترجم لابن قتيبة إلا ويقرن ذلك بالإشادة بكثرة مصنفاته وجودتها وتفنن علومه ، ولهذا الأمور كانت مصنفات الإمام ابن قتيبة مورداً عذبا ، ومنبعاً ثراً للعلماء الذين جاءوا من بعده ممن صنّف في التفسير وعلوم القرآن والقراءات والحديث ، والعقيدة ، واللغة ، والأدب، وغير ذلك من الفنون ، وراح كل منهم يأخذ من مصنفات ابن قتيبة ما يلائم فنه الذي يصنف فيه ، ونقلوا الكثير من كلام ابن قتيبة في مصنفاتهم ، وتناولوه تارة بالشرح والتعليق والتحليل ، وطوراً بالمناقشة والرد والتعقيب ، وهم في نقلهم عنه وتأثرهم به مختلفون بين مكثر في النقل ومقل .

وسأحاول في هذا الفصل بيان الأثر الذي تركه الإمام ابن قتيبة فيمن أتى بعده من العلماء ، وليس من السهل استعراض كل الذين أفادوا من مصنفات ابن قتيبة ، فإن هذا متعذر، وليس هو المقصود في هذا البحث ، فإن المكانة العلمية الرفيعة التي امتازت بها مصنفات ابن قتيبة من الأمور الظاهرة ، التي لا تخفى على أحد من أهل العلم ، وعليه سأكتفي بذكر أهم المصنفات في التفسير وعلوم القرآن والقراءات وأصول التفسير واللغة والعقيدة ، والتي أفاد أصحابها من الإمام ابن قتيبة ، وسيكون ذلك في خمسة مباحث موزعة على هذه الفنون .

وسأفصل الحديث في المباحث الأربعة الأولى المتعلقة بأثره في التفسير والقراءات وعلوم القرآن وأصول التفسير ، وذلك بتفصيل الحديث عن أشهر الكتب التي أفاد مصنفوها من ابن قتيبة ، مع بيان كيفية الإفادة منه ، ومواقعها .

كما سأجمل الحديث في المبحث الأخير ، وذلك بذكر المصنفات التي أفاد مؤلفوها من الإمام ابن قتيبة في كل فن على سبيل الإجمال مع الإحالة إلى مواضع الإفادة منها.

المبحث الأول

أثره في التفسير

لقد كان لابن قتيبة الأثر الكبير فيمن جاء بعده من المفسرين ، إذ انتفع خلق كثير منهم على امتداد العصور من كتابيه "تفسير غريب القرآن"، و"تأويل مشكل القرآن"، وأفادوا منهما في جوانب متعددة من التفسير والقراءات واللغة والنحو وغير ذلك ، إلا أن غالب إفادة هؤلاء الأئمة في جانب التفسير اللغوي ، وهو الجانب الذي يتميز به ابن قتيبة ويز فيه أقرانه ، ومن أهم كتب التفسير التي تأثرت بالإمام ابن قتيبة ونقلت عنه ما يلي:

١ . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).

إمام المفسرين وشيخهم أفاد من الإمام ابن قتيبة في مواضع من تفسيره ، ظهر ذلك من خلال بعض النقول ، وإن لم يشر فيها لابن قتيبة ، وقد نبّه لهذا السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠هـ) في مقدمة تحقيقه لـ "تفسير غريب القرآن"؛ فقال:

"ومما استلقت النظر أن أبا جعفر الطبري قد انتفع بكتاب الغريب هذا انتفاعاً كبيراً، ونقل ألفاظه في بعض المواطن نقلاً حرفياً ، دون أن يشير إلى ابن قتيبة بأية إشارة واضحة أو مبهمة كالواضحة ، مثل ما فعل مع الفراء (ت ٢٠٧هـ)، وأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ)، وكثير من المواطن التي لم ينقل فيها ألفاظ ابن قتيبة وعبر فيها بألفاظه وأسلوبه، يجد فيها القارئ الحصيف ريح كلام ابن قتيبة"^(١).

ومن المواضع التي أفادها الطبري من ابن قتيبة :

عند تفسير "العدل" في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا

يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^(٢)؛ قال الطبري :

(١) مقدمة تفسير غريب القرآن (ص ٤) .

(٢) سورة البقرة : ٤٨ .

"وإنما قيل للفدية من الشيء والبدل منه : عَدْلُهُ ؛ لمعادلته إياه ، وهو من غير جنسه، ومصيره له مثلاً من وجه الجزء ، لا من وجه المشابهة في الصورة والحلقة ، كما قال تعالى ذكره : ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَّا يُؤَخِّدُ مِنْهَا ﴾^(١) ، بمعنى: وإن تُعَدِّ كل فدية لا يؤخذ منها، يقال منه : هذا عَدْلُهُ وَعَدِيلُهُ ، وأما العِدْلُ - بكسر العين - فهو مثل الحِمْلِ المحمول على الظهر ، يقال من ذلك : عندي غلامٌ عِدْلُ غلامِك ، وشاةٌ عِدْلُ شاتِك؛ إذا كان غلاماً يَعِدِلُ غلاماً ، وشاةٌ تعدل شاةً ، وكذلك في كل مثلٍ للشيء من جنسه ، فإذا أريد أن عنده قيمته من غير جنسه نُصِبَتِ العين ، فقيل: عندي عِدْلُ شاتِك من الدراهم"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ

﴿^(٣)؛ قال الطبري :

"لا ذلول : أي لم يُذِلَّلْها العمل ، فمعنى الآية : إنها بقرة لم تذللها إثارة الأرض بأظلافها، ولا سُني عليها الماء ، فيسقى عليها الزرع ، كما يقال للدابة التي قد ذلَّلها الركوب أو العمل ، دابةٌ ذلولٌ بَيِّنَةُ الذَّلِّ بكسر الذال ، ويقال في مثله من بني آدم : رجلٌ ذليلٌ بَيِّنُ الذَّلِّ والذَّلَّة"^(٤).

٢ . معاني القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ).

للنحاس واسطة مباشرة لابن قتيبة ، فقد كان أحد شيوخه : أحمد بن الإمام ابن قتيبة (ت ٣٢٢هـ)، والذي روى عن أبيه تصانيفه كلها ، ومن هنا كانت إفادة النحاس من ابن قتيبة ، وقد نقل عنه في مواضع من كتابه - وغالباً ما ينسب ابن قتيبة فيقول "القتبي" - ؛ منها:

(١) سورة الأنعام : ٧٠ .

(٢) تفسير الطبري (١/٦٣٩)، وقد أفاد هذا من ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٤٨) .

(٣) سورة البقرة : ٧١ .

(٤) تفسير الطبري (٢/١٠٥)، وقد أفاده من ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٥٤)، وانظر للاستزادة : تفسير الطبري

(٦٢/٧)، لقوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ [سورة النساء: ٤٣]، وهو ما أفاده من ابن قتيبة في

تفسير غريب القرآن (ص ١٢٧) .

في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ^ع إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ^ط وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ^ج ﴾^(١)؛ قال النحاس :

"وقال القتيبي : يا أيها الناس مثلكم مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذباباً، وسلبها الذباب شيئاً فلم تستطع أن تستنقذه منه ، فذهب إلى أن في الكلام ما دلّ على المثل من قوله: ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ^ط ﴾ إلى آخر الآية"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبُونَ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ^ط فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ^ج ﴾^(٣)؛ قال النحاس :

"وقال القتيبي : المعنى: ما يعبا بعدابكم ربي لولا دعاؤكم غيره ، أي لولا شرككم، ثم قال سبحانه : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ^ج ﴾ ، قال القتيبي : أي فسوف يكون العذاب لزاماً"^(٤).

٣ . تفسير القرآن ، لأبي الليث ، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٣هـ). اعتمد السمرقندي في تفسيره على ابن قتيبة اعتماداً كبيراً ، وكان أحد مصادرهِ الرئيسة في كتابه ، فقد تكرر اسم "القتبي" عنده في قرابة الأربعمئة موضع ، في مختلف قضايا التفسير واللغة والقراءات ، ومن المواضع التي أفادها من ابن قتيبة :

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَلْقَوْنَ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ^ج ﴾^(٥)؛ قال السمرقندي :

(١) سورة الحج : ٧٣ .

(٢) معاني القرآن (٤/٤٣٢)، وما نقله عن ابن قتيبة موجود بنصه في مشكل القرآن (ص ٨٤) .

(٣) سورة الفرقان : ٧٧ .

(٤) معاني القرآن (٥/٧٥)، وما نقله عن ابن قتيبة موجود في تأويل مشكل القرآن (ص ٤٣٨)، وانظر للاستزادة مما نقله

النحاس عن ابن قتيبة : معاني القرآن (٢/١٣، ٢٤٠)، (٣/٤٢١)، (٤/٢٨٨)، (٥/٥١، ٣٣٤، ٤٠٨)، (٦/٦١،

١٩، ٢٩٧).

(٥) سورة المائدة : ٢١ .

"وقال القتيبي : أصل الكتاب ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ ، ثم يتفرع منه المعاني ، ويقال : كتب بمعنى قضى ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾^(١) ، ويقال : كتب أي فرض ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾^(٢) ، ويقال أي كتب أي جعل ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾^(٣) ، ويقال كتب أي أمر ، كما قال تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، يعني أمر الله لكم بدخولها ، قال : ويقال هاهنا بمعنى جعل"^(٤).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾^(٥)؛ قال قال السمرقندي :

"وقال القتيبي : الضُرُّ - بضم الضاد - الشدة والبلاء ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾^(٦) ، وكقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ ﴾^(٧) ، والضُرُّ - بفتح الضاد - ضد النفع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ، يعني : قل لا أملك جر نفع ولا دفع ضرر"^(٨).

٤ . الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٤٢٧هـ) .

(١) سورة التوبة : ٥١ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران : ٥٣ .

(٤) تفسير القرآن (١/٤٠٥)، وقد نقله عن ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٤٦٢) .

(٥) سورة يونس : ٤٩ .

(٦) سورة الأنعام : ١٧ .

(٧) سورة النحل : ٥٤ .

(٨) تفسير القرآن (٢/١١٩)، وقد نقله عن ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٤٨٣)، وانظر للاستزادة مما نقله السمرقندي عن ابن قتيبة : تفسير القرآن (١/٥٧، ٨٦، ٩١، ١٠٨، ١٢٠، ١٢٤، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٥، ١٥٨، ١٧٥، ١٨١)، (٢/٦٩، ٧١، ٨٠، ٨٩، ٩٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٧، ١١٨، ١٢٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٩، ١٦٧) .

كانت مصنفات الإمام ابن قتيبة من أهم المصادر التي اعتمد عليها الثعلبي في تفسيره، وقد صرح بالعزو إلى "القتبي" في أكثر من سبعين موضعاً من تفسيره، تنوعت ما بين تفسير غريب، أو بيان معنى، أو توجيه قراءة، أو إيراد نكتة بلاغية، ومن تلك المواضع:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ

الْتَّظِيرِينَ ﴾^(١)؛ قال الثعلبي:

"قال القتبي: غلط من قال الصفراء هاهنا السوداء؛ لأن هذا غلط في نعوت البقر. وإنما هي في نعوت الإبل، وذلك أن السوداء من الإبل شربت سوادها صفرة، والآخرة إنه لو أراد السوداء لما أكدته بالفقوع؛ لأن الفاقع المبالغ في الصفرة، كما يقال: أسود حالك، وأحمر قان، وأخضر ناضر"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ فَثَلَّهِ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ

تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣)؛ قال الثعلبي:

"قال القتبي: كل شيء يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الصحة وحال المرض، وحال الجوع وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن

طردته لهث، وإن تركته لهث، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾^(٤) (٥).

سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿ (٤) (٥).

(١) سورة البقرة: ٦٩.

(٢) الكشف والبيان (١/٢١٧)، وقد أفاده من ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٥٣).

(٣) سورة الأعراف: ١٧٦.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٣.

(٥) الكشف والبيان (٤/٣٠٩)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٣٦٩)، وانظر للاستزادة من المواضع التي

نقل فيها عن ابن قتيبة: الكشف والبيان (٢/٣٨، ٧٧، ١٧٣)، (٣/١٣، ١٨٨، ٣٢٤، ٣٤٦، ٣٤٩، ٤٠٦)،

(٤/٣٦٨، ٣٤٢/٤)، (٥/٣٤، ٧٧، ١٧٤، ٢٢٢، ٢٤٨)، (٦/١٦٠، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٨٣، ٢٣٠،

٥ . الهداية إلى بلوغ النهاية ، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ):
تأثر مكي في تفسيره بمصنفات ابن قتيبة ، كـ"تفسير غريب القرآن" ، و"تأويل مشكل القرآن" ، وتردد اسم "ابن قتيبة" في تفسير مكي في قرابة المائة موضع ، وشملت مختلف مجالات التفسير والقراءات واللغة ، ومن تلك المواضع :

عند تفسير "الفوم" في قوله تعالى : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾^(١)؛ قال مكي :

"وروي عن مجاهد (ت ١٠٤هـ)، قال : هو الثوم ، وهو اختيار ابن قتيبة ، وهو في مصحف ابن مسعود (ت ٣٢هـ) "وثومها"^(٢) بالثاء ، فهذا يدل على أنه الثوم، وذكر ابن قتيبة : أن الفوم : الحبوب ، والعرب تبدل الثاء من الفاء ، يقولون : جَدَفٌ وَجَدَثٌ ، ومغافيرٌ ومغائير"^(٣).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴾^(٤)؛ قال مكي :

"وقال القتيبي : الجيران على أربعة أقسام :
أحدهم : من ساكنك في الدار ، ولهذا سمت العرب الزوجة جارة، وقال الأعشى (ت ٥٧هـ) لامراته :

أيا جارتنا بيني فإنك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة^(٥)

والثاني : الملاصق منزلك ، والثالث: الذي معك في المحلة وإن لم يلاصقك، وعلى هؤلاء الثلاثة وقعت الوصية من الله عز وجل .

(١) سورة البقرة : ٦١ .

(٢) قراءة ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهما - [مختصر ابن خالويه (ص ١٤)] .

(٣) الهداية (٢٨٥/١)، وهو نص كلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٥١) .

(٤) سورة النساء : ٣٦ .

(٥) البيت في ديوانه (ص ٢٦٣) .

والرابع : هو الذي جمعك وإياه بلد واحد ، يقول الله تعالى في المنافقين : ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(١) ، يعني المدينة^(٢) .

ومما نقله مكّي عن ابن قتيبة دون عزو ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴾^(٣) ، فقال :

"أدخله بعضهم في باب الاستعارة ، لأنه أريد به تحقيق الأمر واستيقانه ، والاستعارة في كلام العرب باب ، وهذا فصل نبين فيه نبداً من معاني الاستعارة".
ثم تحدث عن الاستعارة ومثّل لها في قرابة أربع صفحات من تفسيره^(٤) .
يقول د.أحمد حسن فرحات معلقاً على كلام مكّي هذا :

"ولو قارنا هذا الكلام الذي ذكره مكّي في باب الاستعارة بما ذكره ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" لوجدناه تلخيصاً جيداً لما ذكره ابن قتيبة حيث حذف مكّي الاستشهاد بالأبيات الشعرية ، وتصرف في بعض العبارات حذفاً أو زيادة بما يناسب منهجه في الاستخلاص والاختصار والبيان ، وهذا نص لا يحتمل التأويل في نقل مكّي عن كتاب ابن قتيبة "تأويل مشكل القرآن" ، ولعل مكياً تأثر بكلمة "المشكل" مما حمّله على تأليف كتابيه "تفسير مشكل إعراب القرآن" ، و"تفسير المشكل من غريب القرآن على الإيجاز والاختصار" ، وكذلك أشار في مقدمة تفسيره، إلى أنه عني بـ "كشف مشكل المعاني"^(٥) .

(١) سورة الأحزاب : ٦٠ .

(٢) الهداية (١٣٢٢/٢) ، وانظر للاستزادة مما نقله مكّي عن ابن قتيبة : (١٥١/١) ، ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٣٠٦ ، ٧٠٦ ، ٨٢٨) ، (١٠٥٧ ، ١٠٨٦ ، ١١٠٧) ، (١٢١٩/٢) ، ١٢٢٧ ، ١٢٦١ ، ١٢٩٩ ، ١٣٢٢ ، ١٣٥٨ ، ١٤١٠) ، (١٩٨٣/٣) ، ٢٠٢١ ، ٢٠٢٤ ، ٢١٠٨ ، ٢١٢١) ، (٤٢٦٤/٦) ، ٤٢٨٨ ، ٤٣٤٢ ، ٤٤٥٤) ، (٤٤٩٦/٧) ، ٤٦١٠ ، ٤٨٧٨) .

(٣) سورة النساء : ١٥٧ .

(٤) الهداية (١٥٢٠/٢-١٥٢٣) ، وهو تلخيص لكلام ابن قتيبة عن الاستعارة في تأويل مشكل القرآن (ص ١٣٥-١٤٥) .

(٥) مكّي بن أبي طالب وتفسيره القرآن (ص ١٧٠) .

ولم يكن أثر الإمام ابن قتيبة على مكي في تفسيره "الهداية" فحسب ، بل ظهر أثره - أيضاً - في كتابه "تفسير المشكل من غريب القرآن على الإيجاز والاختصار" ، إذ كان أكثر اعتماده في هذا الكتاب وأغلب نقوله من كتاب "تفسير غريب القرآن" لابن قتيبة .
وسياًتي - أيضاً - أثر ابن قتيبة في مصنفات مكي في القراءات ، مما يدل على أن مصنفات ابن قتيبة كانت معيناً عذباً للإمام مكي ، نهل منها وأفاد في مصنفاته المتعددة في شتى الفنون .

٦ . النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠هـ) .
كان أثر الإمام ابن قتيبة على الماوردي في تفسيره ظاهراً ، فقد نقل عنه في أكثر من مائة موضع ، وغالب إفادته منه كانت في "تفسير غريب القرآن" ، ومن تلك المواضع:
عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾^(١) ؛ قال الماوردي:

"أما السندس ؛ ففيه قولان :

أحدهما : أنه من ألطف الديباج ، قاله الكلبي (ت ٤٦٠هـ) .

الثاني : ما رق من الديباج ، واحده سندسة ، قاله ابن قتيبة .
وفي الاستبرق قولان :

أحدهما : أنه ما غلظ من الديباج ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : أنه الحرير المنسوج بالذهب"^(٢) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾^(٣) ؛ قال الماوردي:
"ومعنى صفحاً : أي إعراضاً ، يقال : صفحت عن فلان ، أي أعرضت عنه ، قال ابن قتيبة : والأصل فيه أنك توليه صفحة عنقك ، قال كثير (ت ١٠٥هـ) في صفة امرأة :

(١) سورة الكهف : ٣١ .

(٢) النكت والعيون (٣/٣٠٤) ، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٢٦٧) .

(٣) سورة الزخرف : ٥ .

صفوحٌ فما تلقاك إلا بخيلةً فَمَنْ مَلََّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ^(١)»^(٢).

٧. تفسير القرآن لأبي المظفر ، منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت ٤٨٩ هـ).
وأثر ابن قتيبة في هذا التفسير ظاهر لا يخفى ، فقد نقل السمعاني عنه نقولات كثيرة من مصنفاته "تأويل مشكل القرآن" ، و"تفسير غريب القرآن" ، و"أدب الكاتب" ، و"كتاب المعارف" ، في مجالات التفسير واللغة والتاريخ وغير ذلك ، ومن مواضع إفادته عن ابن قتيبة :
عند تفسير قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرًا وَرَحْمَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣)؛ قال السمعاني :
"قال أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) : "ومتاعاً للمقوين" ، أي : منفعة لكل من ليس له زاد ولا مال^(٤) ، ويقال : أقوى المكان إذا خلا عن الشيء ، وأنكر القتيبي هذا ، وقال : منفعة الغني بالنار أكثر من منفعة الفقير ، والعرب تقول للفقير مُقْوِي ، وللغني مُقْوِي ، تقول للفقير : مقوي؛ لنفاد ما معه وخلوه عنه ، وللغني مقوي ؛ لقوته وقدرته على ما لا يقدر عليه الفقير ، فعلى هذا معنى الآية : أن النار منفعة لجميع الناس من الفقراء والأغنياء والمقيمين والمسافرين"^(٥).

وفي تفسير سورة قريش ؛ قال السمعاني :

"وذكر القتيبي في معنى السورة : أن القوم لم يكن لهم زرع ولا ضرع إلا القليل ، وكانت معاشهم من التجارة ، وكانت لهم رحلتان : رحلة في الصيف إلى الشام، ورحلة في الشتاء إلى اليمن ، وكانوا إذا خرجوا من مكة لا يتعرض لهم أحد، فإذا لقيهم قوم قالوا: نحن أهل الله ، فيكفون عنهم ولا يحاجون ، وروي أنهم كانوا يقولون : نحن من حرم الله، فتقول العرب : هؤلاء أهل الله ، فيكفون عنهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أَوْلَمَ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا

(١) البيت في ديوانه (ص ٩٨) .

(٢) النكت والعيون (٢١٦/٥)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٣٩٥)، وانظر للاستزادة مما نقله الماوردي عن ابن قتيبة : النكت والعيون (٢٤١/٢)، ٢٨٤، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٩٧، ٣٦٠، ٣٧٤، (٣/٨٤)، ١٩١، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠١، ٢١٣، ٢٥٧، ٢٧٣، ٢٨٦، ٢٨٨، (٤/٣٩)، ٥٤، ٥٦، ٦٠، ٨٦، ١٢١، ١٣٨، ١٤٣، ١٦٠، ١٧٨) .

(٣) سورة الواقعة : ٧٣ .

(٤) مجاز القرآن (٢/٢٥٢) .

(٥) تفسير السمعاني (٥/٣٥٨)، وقد أفاده من ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٤٥١) .

وَيَخْطَفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴿١﴾، فذكر الله تعالى في هذه السورة والسورة المتقدمة - سورة الفيل - منتهً عليهم في دفع أصحاب الفيل عنهم ، ليبقى لهم ما ألفوه من التجارة في رحلتي الشتاء والصيف" (٢).

٨ . معالم التنزيل ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦).

أفاد البغوي في تفسيره من ابن قتيبة ، ونقل عنه نقولات كثيرة في التفسير واللغة وتوجيه القراءات ، ومن ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٣)؛ قال البغوي :

"قال القتيبي : لا تتبعه بالحدس والظن ، وهو في اللغة اتباع الأثر ، يقال : قفوت فلاناً أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره ، وبه سميت القافية لتبعمهم الآثار .
قال القتيبي : هو مأخوذ من القفا ؛ كأنه يقفو الأمور ؛ أي : يكون في إقفائها يتبعها ويتعرفها" (٤).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (٥)؛

قال البغوي :

"قال القتيبي : معاد الرجل : بلده ، لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة (٦) ، بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ،

(١) سورة العنكبوت : ٦٧ .

(٢) تفسير السمعاني (٢٨٦/٦)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٣-٤١٥)، وانظر للاستزادة مما نقله السمعاني عن ابن قتيبة : تفسير السمعاني (٤٣٠/١)، (١٧٥/٢)، (٩/٣)، (١٥٣، ٤٧٤)، (٣٦/٤)، (٣٧، ٥٦)، (١١١، ١٢٥، ٣٨١)، (٢٥٣/٥)، (٢٧٥، ٣٠٢، ٣٨٣، ٤١٩)، (١٢٨/٦)، (١٦٢، ٣٠٦) .

(٣) سورة الإسراء : ٣٦ .

(٤) معالم التنزيل (٩٢/٥)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٤) .

(٥) سورة القصص : ٨٥ .

(٦) الجحفة : موضع يبعد عن مكة حوالي ثمانين كيلاً ، وكانت مدينة عامرة تسمى مهيجة، فنزل بها بنو عبيد وهم أخوة عاد ، وكان أخرجهم العماليق من يثرب ، فجاءهم سيل جحاف فاحتفهم وجرههم ، فسميت الجحفة، وهي ميقات أهل مصر والشام، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم أن تنتقل حمى يثرب إليها، فكانت فيها حمى يثرب فخربت ،

فاشتاق إليها ، فأتاه جبريل عليه السلام ، وقال : أشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ قال : نعم ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾^(١) (٢) .

٩ . المحرر الوجيز ، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ) .

أفاد ابن عطية في تفسيره من مصنفات ابن قتيبة ، فأشار إلى بعضها ، ك"تأويل مشكل القرآن" ، "وتفسير غريب القرآن" ، و"غريب الحديث" ، و"أدب الكاتب" ، ونقل عن ابن قتيبة في بعض قضايا التفسير واللغة ، ومن ذلك :

تحدث ابن عطية عن التكرار في قوله تعالى : ﴿ فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٣) ؛ فقال :

"كرر تأكيداً أو تنبيهاً للنفوس وتحريكاً لها ، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة ، وهي من كتاب الله في مواضع ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كلام العرب ، وذهب قوم منهم ابن قتيبة وغيره إلى أن هذا التكرار إنما هو لما اختلفت النعم المذكورة كثر التوقيف مع كل واحدة منها ، وهذا حسن"^(٤) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾^(٥) ؛ قال ابن عطية :

فانتقل الميقات إلى رابع ، وهو موضع بجذائه ، وتوجد آثار الجحفة اليوم شرق مدينة رابع بجوالي ٢٢ كيلاً . [معجم البلدان (١١١/٢) ، أطلس الحديث النبوي (ص ١١٣)] .

(١) انظر : لباب النقول في أسباب النزول (ص ١٩٧) .

(٢) معالم التنزيل (٢٢٦/٦) ، وقد أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢٥) ، وتفسير غريب القرآن (ص ٣٣٦) ، وانظر للاستزادة مما نقله البغوي عن ابن قتيبة : معالم التنزيل (٤٩/١ ، ١٠١ ، ٢٦٩) ، (١٣١/٢) ، (١٩٩/٣) ، (٣٠٥ ، ٣٤٤) ، (٣٨/٤) ، (٦٢ ، ٧٩ ، ١١٦ ، ١٨٣ ، ٢٩٩ ، ٣١٣ ، ٣٥٩) ، (٩٢/٥) ، (١٠٧ ، ١٢٤ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٣٢٥) .

(٣) سورة الرحمن : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، وآيات أخرى .

(٤) المحرر الوجيز (٢٢٦/٦) ، وقد أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٩) .

(٥) سورة الجاثية : ٢٩ .

"وقوله : "هذا كتابنا" يحتمل أن تكون الإشارة إلى الكتب المنزلة ، أو إلى اللوح المحفوظ ، قال مجاهد (ت ١٠٤هـ)، ومقاتل (ت ١٥٠هـ): يشهد بما سبق فيه من سعادة أو شقاء ، أو تكون : الكتب الحفظية ، وقال ابن قتيبة : هي إلى القرآن"^(١).

١٠ . باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن ، لبيان الحق محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي (ت ٥٥٣هـ) .

تقول د.سعاد بنت صالح باقبي في مقدمة تحقيق الكتاب :

"أخذ النيسابوري - رحمه الله - في كتابه "باهر البرهان" من تفاسير متعددة، إلا أنه اعتمد أربعة أصول أكثر من النقل عنها ، وهي :

١ . "تأويل مشكل القرآن" لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ).

٢ . "جامع التأويل لمحكم التنزيل" ، لأبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (ت ٣٢٢هـ).

٣ . "الكشف والبيان في تفسير القرآن" ، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي

(ت ٤٢٧هـ).

٤ . "النكت والعيون" لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠هـ).

فقد بدا واضحاً تأثره الشديد بهذه الكتب ، ونقله المتكرر عنها ، إلا أنه لم يصرح بذلك أحياناً ، ويغفله غالباً ، فالتفتي مثلاً لم يصرح باسمه إلا في خمسة مواضع ، مع أنه نقل عنه كثيراً"^(٢).

قلت : وكتاب "تفسير غريب القرآن" يعد - أيضاً - أحد مصادر النيسابوري الرئيسة، إفاداته من هذا الكتاب لا تقل أبداً عن إفاداته من كتاب "تأويل مشكل القرآن"، حتى أن المواضع الخمسة التي صرح بالنقل عن ابن قتيبة ؛ ثلاثة منها كانت من "تفسير غريب القرآن"؛ وهي :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾^(١)؛ قال

النيسابوري :

^(١) المحرر الوجيز (٦/٨٩)، وقد أفاده من ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٤٠٥)، وانظر للاستزادة مما نقله عن ابن

قتيبة : المحرر الوجيز (١/٩٧، ١١٠، ١٢٠، ١٦٢، ٤٨١، ٤٩٧، ٥٤٣)، (٢٧/٢، ٦٧، ٢٠٠، ٣٦٩، ٥٠٨)،

(٣/١٢٩، ١٧١)، (٤/٢٨٢، ٤٥٤، ٥٢٧)، (٦/٤٧٦).

^(٢) مقدمة تحقيق كتاب "باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن" (ص ٢٦٣) .

"قال القتيبي : أتبعث الرجل : لحقته ، وتبعته : سرته خلفه ، فالمعنى : لحقه الشيطان فأغواه"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى - على لسان إخوة يوسف عليه السلام - : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾^(٣)؛ قال النيسابوري :

"كدنا : صنعنا ، عن ابن عباس (ت ٦٨هـ)، ودبرنا ، عن القتيبي"^(٤).

وفي تفسير "قبيلاً" في قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾^(٥)؛ قال النيسابوري :

"قال القتيبي : قبيلاً : كقبيلاً ، والقبالة: الكفالة"^(٦).

ومما نقله النيسابوري عن ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" قوله : في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾^(٧) :

"وقال القتيبي : خاف بمعنى علم ؛ لأن الخوف بمعنى الخشية للمستقبل ، والوصية هاهنا وقعت ، واستشهد بقول أبي محجن الثقفي"^(٨) :

إذا متُّ فادفني إلى أصلِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عظامي بعد موتي عروقتها
ولا تَدْفِنِي بِالْفِضَاءِ فَإِنِّي أخافُ إذا ما متُّ ألا أدوقها"^(٩) (١٠)

(١) سورة الأعراف : ١٧٥ .

(٢) باهر البرهان (١/٥٤٣)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ١٧٤) .

(٣) سورة يوسف : ٧٦ .

(٤) باهر البرهان (٢/٧٢١)، نقله عن ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٢٢٠) .

(٥) سورة الإسراء : ٩٢ .

(٦) باهر البرهان (٢/٨٤٤)، نقله عن ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٢٦١) .

(٧) سورة البقرة : ١٨٢ .

(٨) أبو محجن عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، أحد الشعراء والشجعان في الجاهلية والإسلام ، أسلم سنة ٥٩ هـ ، قال الحاكم : "له صحبة" ، وقال ابن دريد : "كان شاعراً فارساً شجاعاً، شهد القادسية، وكان له فيها بلاء عظيم" ، مات بأذربيجان سنة ٣٠ هـ . [الإصابة (٧/٣٦٠)، الشعر والشعراء (١/٤٢٣)] .

(٩) البيت في ديوانه (ص ٦٢) بشرح أبي هلال العسكري .

(١٠) باهر البرهان (١/١٧٤)، وهو عند ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" (ص ١٩١) .

١١ - زاد المسير في علم التفسير ، لأبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ).

للإمام ابن قتيبة أثر كبير وبالغ على ابن الجوزي في تفسيره ، لا سيما في كتابه "تفسير غريب القرآن" ، الذي أكاد أجزم أن ابن الجوزي ضمّن جُلّ كلام ابن قتيبة فيه في تفسيره، ولا أدل على ذلك من أن اسم "ابن قتيبة" تردد في "زاد المسير" في قرابة تسعمائة وخمسين موضعاً ، ولا غرابة في ذلك ، فإن للإمام ابن الجوزي علاقة وثيقة بمصنفات ابن قتيبة ، حتى أن كتاب "المسائل والأجوبة" لابن قتيبة وصل إلينا عن طريقه ، فقد جاء في سماعات الكتاب:

"أخبرنا الإمام جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي قراءةً عليه، وأنا أسمع ببغداد يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الآخر من سنة ست وتسعين وخمسمائة"^(١).

وقد شملت إفادة ابن الجوزي من ابن قتيبة مختلف قضايا التفسير واللغة والقراءات، ومن ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾^(٢)؛ قال ابن الجوزي :

"قال ابن قتيبة : هي الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا ، فأما تسميتها بالأسباب ، فالسبب في اللغة : الحبل ، ثم قيل لكل ما يتوصل به إلى المقصود: سبب"^(٣).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾^(٤)؛ قال ابن الجوزي :

"قال ابن قتيبة: خطواته: سبيله ومسلكه، وهي جمع خُطوة، والخُطوة - بضم الخاء - : ما بين القدمين ، وبفتحها - الخُطوة - : الفعلة الواحدة ، واتباعهم خطواته : أنهم كانوا يحرمون أشياء قد أحلها الله ، ويُحلّون أشياء قد حرّمها الله"^(٥).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾^(١)؛ قال ابن الجوزي :

(١) المسائل والأجوبة (ص ٣٣) .

(٢) سورة البقرة : ١٦٦ .

(٣) زاد المسير (١/١٧١)، كلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٦٨)، وتأويل مشكل القرآن (ص ٤٦٤) .

(٤) سورة البقرة : ١٦٨ .

(٥) زاد المسير (١/١٧٢)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٦٨) .

"الفصال: الفطام، قال ابن قتيبة : يقال : فصلت الصبيَّ أمه ؛ إذا فطمته ، ومنه قيل للحوار إذا قُطع عن الرضاع : فصيل ؛ لأنه فُصِلَ عن أمه ، وأصل الفصل: التفريق"^(٢) .

١٢ . التفسير الكبير لفخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرازي (ت ٦٠٦هـ).

تأثر الرازي في تفسيره بالإمام ابن قتيبة ، ونقل عنه في مواضع كثيرة في التفسير والقراءات وعلوم اللغة المختلفة ، ومن ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾^(٣) ؛ قال الرازي :

"قوله : "ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم" فيه سؤال ، وهو أن يقال: أي فائدة في إباحة أكل الإنسان طعامه في بيته ، وجوابه : قال ابن قتيبة : أراد بيوت أولادهم ، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء ؛ لأن الولد كسب والده ، وماله كماله، والدليل على هذا أنه سبحانه وتعالى عدّد الأقارب ولم يذكر الأولاد ، لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى"^(٤) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾^(٥) ؛ قال الرازي :

"قال ابن قتيبة : الغاسق : القمر ، سمي به لأنه يكسف فيغسق ، أي يذهب ضوءه ويسودّ ، ووقوبه : دخوله في ذلك الاسوداد ، روى أبو سلمة (ت ٩٤هـ) - بن عبدالرحمن بن عوف - عن عائشة (ت ٥٨هـ)، رضي الله عنها : أنه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة البقرة : ٢٣٣ .

(٢) زاد المسير (٢٧٣/١)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص٨٩)، وانظر للاستزادة مما نقله عن ابن قتيبة: زاد المسير (١١/١)، (١١/١)، (١٧، ٢٠، ٢٩، ٣، ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٧٣، ٧٦)، (١١/٢)، (١٢، ١٤، ١٨، ٣١، ٤٣، ٤٩، ٥٢، ٦١، ٧٥، ٨٠، ٩٠، ٩٤)، (٩/٣)، (٢٦، ٢٩، ٤١، ٥٩، ٦٥، ٦٨، ٩١، ٩٥، ١١٩، ١٢٨) .

(٣) سورة النور : ٦١ .

(٤) التفسير الكبير (٣٢/٢٤)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص٣٣٣) .

(٥) سورة الفلق : ٣ .

بيدها وأشار إلى القمر ، وقال : "استعيذ بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب" ^(١) ، قال ابن قتيبة : ومعنى قوله : "تعوذي بالله من شره إذا وقب" أي إذا دخل في الكسوف ^(٢) .

١٣ . رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز ، لعز الدين عبدالرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي (ت ٦٦١هـ) .

اعتمد الرسعني في تفسيره على الإمام ابن قتيبة اعتماداً كبيراً ، فكانت مصنفات ابن قتيبة من المصادر الرئيسة في تفسيره ، ظهر ذلك من خلال النقول الكثيرة التي تزيد عن المائتين وسبعين نقلاً ، والتي شملت مختلف المواضيع في التفسير والقراءات واللغة والنحو والصرف ، ومن تلك المواضيع :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) ؛ قال الرسعني :

"قال ابن قتيبة : أراد بالعرض : السَّعة ، ولم يرد العرض الذي يخالف الطول ، والعرب تقول : بلاد عريضة ، أي واسعة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم للمنهمزمين يوم أحد: "لقد ذهبتم فيها عريضة" ^(٤) " ^(٥) .

وتحدث الرسعني عن القراءات في "يغل" في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ ﴾ ^(٦) ؛ فقال :

^(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ، باب ومن سورة المعوذتين ح (٣٣٦٦) (ص ١٩٩٨) ، وقال : "هذا حديث حسن صحيح" ، والنسائي في السنن الكبرى ، كتاب عمل اليوم والليلة ، باب ما يقول إذا رفع رأسه إلى السماء ح (١٠١٣٧) (٨٣/٦) ، وأحمد في المسند (٨/٤٣) ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/٣٧٩) : "حديث حسن صحيح" .

^(٢) التفسير الكبير (١٧٨/٣٢) ، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٥٤٢) ، وانظر للاستزادة مما نقله عن ابن قتيبة : التفسير الكبير (٩٢/١) ، (٣٨١) ، (٨/٤) ، (١٢٤) ، (٣٩/٦) ، (٢٣/٨) ، (٨٩) ، (١٣١) ، (٢٣/٩) ، (٢٩) ، (٢٤) ، (١٤٦) ، (١٤/١٠) ، (٣٧/١٤) ، (٤٥) ، (١٢٤) ، (٥٢/١٨) ، (١٥٧) ، (١٥٦) ، (٢٣/١٩) ، (١٦٢) ، (١٦٧) ، (١٦٨) ، (١٨٦) .

^(٣) سورة آل عمران : ١٣٣ .

^(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧٤/٦) عن ابن إسحاق مقطوعاً .

^(٥) رموز الكنوز (١/٣٠٠) ، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ١١١) .

^(٦) سورة آل عمران : ١٦١ .

"وقال الحسن (ت ١٠ هـ) : أن يُعَلَّ : أي يُحَان ، وهو الذي يقتضيه سبب نزول الآية ،
وقاله قتادة (ت ١٧ هـ) ، وهو اختيار ابن قتيبة .

وقال الفراء (ت ٢٠٧ هـ) : يُحَوِّن ، واختاره الزجاج (ت ٣١١ هـ) .

وردّه ابن قتيبة ، فقال : لو أراد يَحَوِّن لقال : يُعَلِّل ، كما يقال : يُفَسِّق^(١) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا

وَسَعَةً ﴾^(٢) ؛ قال الرسعي :

"قال ابن قتيبة : المرَاغِمُ والمُهَاجِرُ واحد ، وأصله : أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه
مُرَاغِمًا لهم ، أي : مغاضباً ومهاجراً ، أي : مقاطعاً من الهجران ، فقليل للمذهب^(٣) : مُرَاغِمٌ ،
وللمصير إلى النبي صلى الله عليه وسلم : هجرة ، لأنها كانت بهجرة الرجل قومه"^(٤) .

١٤ . الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت

٦٧١ هـ) .

تأثر القرطبي في تفسيره بالإمام ابن قتيبة بشكل كبير ، ظهر ذلك من خلال النقول
الكثيرة في مجال التفسير والقراءات ، وفي مختلف القضايا اللغوية والنحوية والصرفية والفقهية ،
ومن تلك المواضع :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا

وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾^(٥) ؛ قال القرطبي :

(١) رموز الكنوز (١/٣٤٩) ، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ١١٥) .

(٢) سورة النساء : ١٠٠ .

(٣) جاء في اللسان ، مادة "ذهب" (١/٣٩٣) : "الذهب السير والمرور ، ذهب يذهب ذهاباً وذهوباً فهو ذاهب
وذهوب ، والمذهب مصدر كالذهب" .

(٤) رموز الكنوز (١/٦٠٣) ، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ١٣٤) ، وانظر للاستزادة مما نقله عن ابن قتيبة :

رموز الكنوز (١/١٣٦) ، ١٥٧ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٦٤ ، ٢٩٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠ ، ٤١١ ، ٤٢١ ، ٥٣١ ،

٥٧٢ ، (٦٦٣) ، (٣٩٢/٤٨) ، ١٠٠ ، ١٥٤ ، ١٨٥ ، ٢٣٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٣١٠ ، ٣٨١ ، ٤٥٧ ، (٤٨٩) ،

(١١/٣) ، ٢٨ ، ٦٥ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٥٧ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، (٢٥٨) .

(٥) سورة البقرة : ٢٢٤ .

"قال القتيبي : المعنى إذا حلفت على ألا تصلوا أرحامكم ولا تتصدقوا ولا تصلحوا ، وعلى أشباه ذلك من أبواب البر ؛ فكفروا اليمين .

قلت : وهذا حسن لما بيّناه ، وهو الذي يدل عليه سبب النزول" (١).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (٢) ؛ قال القرطبي :

"قال القتيبي : تقول العرب للرجل يُسَبُّ سَبَّةً سوء قبيحة باقية : قد وُسم ميسم سوء؛ أي ألصق به عار لا يفارقه ؛ كما أن السِّمة لا يُمحي أثرها .

قال جرير (ت ١١٠هـ) :

لما وَضَعْتُ على الفرزدق ميسمي وعلى البعيثِ جَدَعْتُ أنف الأخطلِ (٣)
أراد به الهجاء ، قال وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة ، ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه ، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة ؛ كالوسم على الخرطوم" (٤).

١٥ . البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي (ت ٧٤٥هـ).

أبو حيان - كغيره من كبار المفسرين - اعتمد على مصنفات ابن قتيبة ، وتأثر بها في مختلف قضايا التفسير والقراءات واللغة ، ونقل في تفسيره عن ابن قتيبة في أكثر من مائة وخمسين موضعاً ، ومن تلك المواضع :

عند تفسير "وصيلة" في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا

حَامٍ ﴾ (١) ؛ قال أبو حيان :

(١) تفسير القرطبي (٣/٩٧)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٨٥) .

(٢) سورة القلم : ١٦ .

(٣) البيت في ديوانه (ص ٣٥٧)، وفيه "وضعا البعيث" ، والبعيث : شاعر معروف من بني تميم.

(٤) تفسير القرطبي (١٨/٢٣٧)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ١٥٦)، وانظر للاستزادة مما نقله عن ابن

قتيبة : تفسير القرطبي (١/٢٨٢، ٤٣٦، ٤٤٩)، (٢/٢٠، ٢١٥، ٣١٥)، (٣/٤٤، ٦٦، ٢٨٩)، (٥/١٠، ٩٥،

٢٤٢، ٢٨٨، ٢٩٧، ٣٠٢، ٤١٤، ٤٢٦)، (٦/٣٩٦، ٤٣٧)، (٧/٣٢، ٨٩)، (٩/١٣٩، ١٧٩، ٢٣٦،

٢٩٠، ٣١١، ٣٤٦، ٣٨٢)، (١٠/١٧٨، ٢٠٣، ٢١٦، ٢١٨، ٢٤٣، ٢٥٧، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٧،

(١٣/٢٤٢)، (١٥٥/١٦) .

"الوصيلة هي الغنم على قول الأكثرين ، روى أبو صالح (ت ١٢١هـ) عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما : أنها الشاة تنتج سبعة أبطن ، فإن كان السابع أنثى لم تنتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء ، وإن كان ذكراً أكلوه جميعاً ، فإذا كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فتترك مع أخيها فلا تذبح ، ومنافعها للرجال دون النساء ، فإذا ماتت اشترك الرجال والنساء فيها ، وقال ابن قتيبة : إن كان السابع ذكراً ؛ ذبح فأكل منه الرجال دون النساء ، وقالوا : خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن كانت أنثى تركت في الغنم ، وإن كانت ذكراً وأنثى فكما في قول ابن عباس" (١).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)؛ قال أبو حيان :

"قال ابن قتيبة : هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً، من حيث لا يعلمون ولا يتابعهم به، ولا يجاهرهم" (٣).

وذكر أبو حيان القراءات في "قبلاً" في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ (٤)؛ فقال :

"وذكر ابن قتيبة أنه قرئ بفتحيتين "قبلاً" (٥)، وحكاها الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، وقال: مستقبلاً" (٦).

(١) سورة المائدة : ١٠٣ .

(٢) البحر المحيط (٤/٢٨)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٣٤٠) .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٢ .

(٤) البحر المحيط (٤/٤١٥)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ١٦٦) .

(٥) سورة الكهف : ٥٥ .

(٦) قرأ بها أبو الجوزاء وأبو المتوكل . [مشكل إعراب القرآن (٢/٤٤)، زاد المسير (٥/١٥٨)] .

(٧) البحر المحيط (٦/١٣١)، وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٢٦٩) .

والغالب من صنيع أبي حيان أن ينقل عنه فيقول: "قال ابن قتيبة" ^(١)، وربما ذكره بنسبته ، فقال : "قال القتيبي" ^(٢)، وقد جمعهما في موضع واحد ، عند تفسير "أسفاً" في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ ^(٣)؛ فقال : "وأكثر ما يكون بمعنى الحزين أو المغضب ، قاله ابن قتيبة ، أو النادم ، قاله القتيبي أيضاً" ^(٤).

كما ظهر أثر الإمام ابن قتيبة جلياً على جمع من المفسرين في مصنفاتهم ، فأفادوا منه في جوانب متعددة من التفسير والقراءات واللغة والنحو والصرف وغير ذلك، أذكر منهم على سبيل الإجمال ما يلي :

١٦ . أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت ٣٧٠هـ) ^(٥).

١٧ . أحكام القرآن ، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بـ "ابن العربي" (ت ٥٤٣هـ) ^(٦).

١٨ . تفسير القرآن العظيم ، لعز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي (ت ٦٦٠هـ) ^(٧).

١٩ . التسهيل لعلوم التنزيل ، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ) ^(٨).

٢٠ . لباب التأويل في معاني التنزيل ، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشهير بـ "الخازن" (ت ٧٤١هـ) ^(١).

^(١) انظر : البحر المحيط (١/٦٠، ٩٢، ١٠١، ١١٨، ١٣٧، ١٧١، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٩٧، ٤٧٧)، (٢/٨٢، ١٠٧، ١٧٤، ٢٠٥، ٣١٥، ٣٧٠، ٣٩١، ٣٩٨، ٤٥٤)، (٣/٢، ٣٢، ٥٥، ٨٠، ١٣٥).

^(٢) انظر : البحر المحيط (٢/٤٣٢)، (٣/٦٤، ٢٦٥)، (٤/٢٣٤، ٤١٥)، (٥/٧٢، ١٩٨، ٢٩٩، ٣٥٦)، (٦/٩٠، ١٥٦، ١٩٢)، (٢/٢٥٥، ٣٨٧).

^(٣) سورة الأعراف : ١٥٠ .

^(٤) البحر المحيط (٤/٣٨٣) .

^(٥) أحكام القرآن للجصاص (٣/٢٦٣) .

^(٦) أحكام القرآن لابن العربي (١/٣٩٢)، (٢/٥٦٧)، (٣/٣٧٠، ٣٧١) .

^(٧) تفسير العز بن عبدالسلام (١/٥٧٢)، (٢/١٦٦) .

^(٨) التسهيل لابن جزي (١/١٠٢)، (٢/٦٤) .

- ٢١ . الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأحمد بن يوسف ، المعروف بـ"السمين الحلبي" (ت ٧٥٦هـ)^(٢) .
- ٢٢ . تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)^(٣) .
- ٢٣ . غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)^(٤) .
- ٢٤ . اللباب في علوم الكتاب ، لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي، الحنبلي (ت بعد ٨٨٠هـ)^(٥) .
- ٢٥ . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)^(٦) .
- ٢٦ . فتح القدير ، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)^(٧) .
- ٢٧ . روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي(ت ١٢٧٠هـ)^(٨) .
- ٢٨ . التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)^(٩) .
-
- (١) تفسير الخازن (١٢٦/١، ٢٤٦، ٣٥٧، ٤٠٣)، (٧٦/٢، ٣٨٥، ٤٣٠، ٥٥٠)، (٤٦/٣، ٥٢، ٦٩، ٧٩، ٨١، ٨٥، ٨٨، ٢١٥، ٤٤٦) .
- (٢) الدر المصون (١٣٧/٢)، (٣٧، ٦١/٣)، (٥٠٣/٤)، (٤٤/٥، ١٤٠، ٢٧١، ٣٦٦، ٤٣٧، ٥١٠، ٥٧٨)، (٦٧/٦، ٤٢١)، (٣٦٦/٧، ٣٩٦، ٥٠٢)، (١٦٤/٨، ٢٧٩، ٦١٥، ٦٦١) .
- (٣) تفسير ابن كثير (١٨٧/٥)، (٤٦٢/٦)، (٥١٠/٧)، (٢٧٦/٨)، (٥٠٨) .
- (٤) تفسير النيسابوري (٦٢/٢، ١٩، ١٩١، ٢٧٣، ٣٤٩، ٣٧٨)، (١٢٣/٣، ٢٢٢، ٢٦٧، ٥٢٨)، (٥٣/٤)، (٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٦٩، ٣٠١، ٣٥٦، ٣٧٥، ٣٩٣) .
- (٥) اللباب (٥٤٩/١)، (٤٩٣/٢، ٥١٧)، (١٥٣/٣، ١٦٤، ٣٦٦)، (٧٩/٥، ٣٣٥، ٥٠٤)، (٤/٦، ٢٣، ١٧٢، ٢٦٨)، (١١٦/٧، ٥٥٤، ٦٠٧)، (٤١٦/٨)، (١٩/٩، ٧٥، ١٨٢، ١٩٨، ٢٨٨، ٣٧٥) .
- (٦) نظم الدرر (٤٨٨/٢)، (٢٧٥/٣)، (٥٤٢/٤)، (١١/٦)، (١٠٢/٨)، (٥٨٩) .
- (٧) فتح القدير (٤٠٣/٢، ٥٢٥)، (٧٢/٣، ٨٥، ١٢٧، ١٤٠، ١٥١، ١٦٩، ١٧٥، ١٩٠، ٢١٠، ٢٣٢، ٢٣٨، ٢٦١، ٢٩٠، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٨٩)، (١٥/٤، ٢٤، ٨٩، ١٠٦، ١٤١، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٥، ٢٣٢، ٢٧١، ٣٠٩)، (١٤/٥، ٣٨، ٧٧، ٩٢، ٩٨، ١٠٢، ١٢٢، ١٤١) .
- (٨) روح المعاني (٢٢/١، ١٢٠، ١٦٢، ٢٤٤، ٢٨٧)، (١٥٦/٢، ٢٩٥، ٤٢٤)، (١٨٧/٣، ٣٢٠)، (٤٢/٤)، (١٧٠، ٣٢٤/٦، ٣٤٠، ٣٤٩، ٣٨٢، ٤٠٠)، (١١٦، ٦٢/٧، ١٧٧) .

٢٩ . أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار
الجبلي الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)^(١).

(١) التحرير والتنوير (٥٧/١)، (٢٩٦/٩)، (٢٢٢/١١)، (٣١٣/١٥)، (٧٧/٢٠)، (١٥٣/٢٣)، (٢٨٦/٢٥)،
(٢٤٦/٢٧)، (٣٤١/٢٩)، (٣٨١)، (١٨/٣٠)، (٢٦)، (٢٠٨) .
(٢) أضواء البيان (٤٨٤/٣)، (٢٢٦/٤)، (٢٦٩)، (٢٨٩)، (٧٣١)، (٧٧٦/٥) .

المبحث الثاني أثره في القراءات

مما لا شك فيه أن للإمام ابن قتيبة أثراً كبيراً في علم القراءات ، وفي الكتب المصنفة فيه؛ فقد أفرد في هذا الفن مصنفاً يعد من أوائل المصنفات في علم القراءات ، كما كان من أوائل الأئمة الذين فصلوا الحديث عن الأحرف السبعة ، وعن وجوه خلاف القراءات، وأنواع الاختلاف فيها ، وكثير ممن تحدث عن هذه المواضيع يعتد برأي الإمام ابن قتيبة ويفصله ويبنى على اختياره .

كما أفاد منه جمع من المصنفين في توجيه القراءات ونقدها ، غير أنه من الصعوبة الكشف عن مدى أثره في هذا المجال - بالتحديد - ؛ إذ إن كتابه في "القراءات" مفقود ، ومن ثم لا أستطيع التعرف على من نقل عنه إلا في حال نسب الناقل القول لابن قتيبة ، وهذا قليل لا سيما في كتب المتقدمين .

ومن أهم كتب القراءات التي تأثرت بالإمام ابن قتيبة ونقلت عنه ، ما يلي :

١ . الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) .

أكثر مكي في كتابه من النقل عن ابن قتيبة ، لا سيما في مجال توجيه القراءات ونقدها، وكان لهذه النقول أهمية بالغة ، إذ كان غالبها من كتاب ابن قتيبة المفقود "كتاب القراءات" ، وقد ظهر من خلال نقول مكي أن مادته في غالبها تتعلق بالتعقيب على اختيارات أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، في كتابه "القراءات" ، المفقود أيضاً، وقد نبه مثل هذا الداني (ت ٤٤٤هـ) في أرجوزته المنبهة، حيث قال :

وفي الحروف لأبي محمد القتيبي مختصر مجرد

علّقه بكتب الإمام أبي عبيد مفخر الأنام^(١)

وقد تتبعت هذه المواضع التي عتب فيها ابن قتيبة على أبي عبيد وخالفه في اختياره، فوجدت أن مكياً قد تابع ابن قتيبة ووافقه على اختياره في جميع هذه المواضع ، إلا في موضع

(١) الأرجوزة المنبهة (ص ١٥٤) .

واحد ؛ حين تحدث عن القراءات في قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

الْكِتَابِ ﴾^(١)؛ فقال :

"قوله : "ويثبت وعنده" قرأه ابن كثير (ت ١٢٠هـ)، وأبو عمرو (ت ١٥٤هـ)، وعاصم (ت ١٢٧هـ) بالتخفيف^(٢)، جعلوه مستقبل "أثبت" ، والمفعول محذوف "هاء" من الصلة؛ أي:

﴿ يَأْلَقُولُ الثَّابِتِ ﴾^(٣)، يدل على التخفيف، لأنه اسم فاعل من "ثبت" ، والتقدير : يمحو الله ما يشاءه ويثبت ما يشاءه ، وقرأ الباقون بالتشديد^(٤) : "ويُثَبِّتُ" ،

جعلوه مستقبل "ثَبَّتَ" ، دليله قوله تعالى : ﴿ وَأَشَدُّ تَثْبِيتًا ﴾^(٥)، ف "تثبيت" مصدر "ثَبَّتَ" مشدداً ، فالقراءتان لغتان ، كما أن "ثَبَّتَ" ، وأثبت " لغتان بمعنى، لكن في التشديد معنى التأكيد والتكرير ، وهو الاختيار ، لأن أكثر القراء عليه ، واختار أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ) "ويُثَبِّتُ" بالتشديد، على معنى : يُقَرُّ ما كتبه، فلا يمحوه، وتعقب عليه ابن قتيبة ، فاختار التخفيف ، لأن المعروف مع المحو الإثبات ، فالمعنى : يمحو الله ما يشاء ، ويكتب ما يشاء ، أو على معنى : يمحو الله ما يشاء ويُقَرُّ ما يشاء فلا يمحوه ، والتخفيف يحتمل المعنيين اللذين ذكر أهل التأويل في الآية"^(٦).

ومن المواضع التي نقل فيها مكي تعقيب ابن قتيبة على أبي عبيد ، ووافق فيها ابن قتيبة على اختياره ، ما يلي :

تحدث عن القراءات في "خرجاً" في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا

وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾^(٧)؛ فقال :

(١) سورة الرعد : ٣٩ .

(٢) انظر : المسوط (ص ٢٥٥)، النشر (٢/٢٢٤) .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٧ .

(٤) انظر : المسوط (ص ٢٥٥)، النشر (٢/٢٢٤) .

(٥) سورة النساء : ٦٦ .

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع (٢/٢٣) .

(٧) سورة الكهف : ٩٤ .

"قرأ حمزة (ت ١٥٦هـ)، والكسائي (ت ١٨٩هـ): "خراجاً"^(١)، بألف ، وقرأ الباقر "خراجاً"^(٢)، بغير ألف.

وحجة من قرأه بألف أنه جعله من "الخراج" الذي يُضرب على الأرض في كل عام، وحجة من قرأه بغير ألف أنه جعله مصدر "خَرَجَ" ، فهو الجُعَلُ ، والاختيار ما عليه الجماعة؛ لأنهم إنما عَرَضُوا عليه أن يُعْطَوْه أجرة وعطية من أموالهم ، مرة واحدة معروفة على بنيانه ، لم يعرضوا عليه أن يعطوه جزية على رؤوسهم منجمة في كل عام ، واختار أبو عبيد (ت ٢٢٤): "خراجاً" بألف ، وتعقب عليه ابن قتيبة ، فاختار "خَرَجاً" بغير ألف، قال: لأن الخرج الجُعَلُ، فهم إنما عرضوا عليه جُعَلاً من أموالهم يعطونه إياه على بنيانه السد في مرة واحدة"^(٣).
ولك أن تقارن هنا بين قول الإمام ابن قتيبة في اختياره ، وقول مكّي لتبين مدى تأثيره بالإمام ابن قتيبة .

وذكر القراءات في "تأثم" في قوله تعالى : ﴿أَوْلَم تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(٤)؛ فقال :

"قوله : "أولم تأثم" قراءة نافع (ت ١٦٩هـ)، وأبو عمرو (ت ١٥٤هـ)، وحفص (ت ١٨٠هـ)، بالتاء: "تأثم"^(٥)، على تأنيث "البينة" ، وقرأ الباقر بالياء : "يأثم"^(٦)، حملوه على على تذكير "البيان" ، لأن "البينة والبيان" سواء في المعنى، وأيضاً فإن تأنيث "البينة" غير حقيقي، وأيضاً فقد فرّق بين المؤنث وفعله بضمير المفعولين ، وهو الاختيار ، لأن الأكثر عليه، واختار أبو عبيد الياء ؛ لأنه يؤثر التذكير ، للحائل بين الفعل والاسم ، واختار ابن قتيبة التاء ،

(١) انظر : معاني القراءات للأزهري (١٢٤/٢)، النشر (٢٣٦/٢) .

(٢) انظر : معاني القراءات للأزهري (١٢٤/٢)، المبسوط (ص ٢٨٣) .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع (ص ٧٧-٧٨) .

(٤) سورة طه : ١٣٣ .

(٥) انظر : المبسوط (ص ٢٩٩)، النشر (٢٤٣/٢) .

(٦) انظر : معاني القراءات للأزهري (١٦١/٢)، النشر (٢٤٣/٢) .

لإجماعهم على قوله : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾^(١)، فهي مثلها في الحائل بين الفعل والاسم بالضمير^(٢).

وتحدث عن القراءات في " ننجي " في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣)؛ فقال :

"قرأ أبو بكر (ت ١٩٣هـ)، وابن عامر (ت ١١٨هـ) بنون واحدة وتشديد الجيم^(٤)، وقرأ وقرأ الباقون بنونين والتخفيف^(٥).

وكان أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ) يختار القراءة بنون واحدة اتباعاً للمصحف ، على إضمار المصدر ، يقيمه مقام الفاعل ، وينصب "المؤمنين" ، ويسكن الياء في موضع الفتح، وهذا كله قبيح بعيد ، واختار أبو عبيد أن يكون أصله "ننجي" بنونين والتشديد، ثم أدغم النون الثانية في الجيم ، وهو غلط قبيح ، ولا يجوز الإدغام في حرف مشدد ، فكيف تدغم النون في الجيم وهي مشددة أولها ساكن ، ولا يجوز أيضاً إدغام النون في الجيم عند أحد، واختار ابن قتيبة "ننجي" بنونين ، على قراءة الجماعة ، وهو الصواب"^(٦).

٢ . الإبانة عن معاني القراءات ، لمكي (ت ٤٣٧هـ) :

نقل فيه عن ابن قتيبة في موضع واحد ، حين تحدث عن معنى الأحرف السبعة وعن وجوه اختلاف القراءات، فذكر قول الإمام ابن قتيبة واعتمده به وشرحه وفصله ، ممثلاً بما مثل به الإمام ابن قتيبة في هذا الباب^(٧).

قلت : وهذا الموضوع يدل على عظيم أثر الإمام ابن قتيبة على مكي ، إذ سلك مكي في هذا الباب مسلكاً دقيقاً حدا فيه حدو الإمام ابن قتيبة ، فقد ذهب الإمام ابن قتيبة في

(١) سورة البينة : ١ .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع (ص ١٠٨) .

(٣) سورة الأنبياء : ٨٨ .

(٤) انظر : المبسوط (ص ٣٠٣)، النشر (٢/٢٤٣) .

(٥) انظر : معاني القراءات (٢/١٧٠)، النشر (٢/٢٤٣) .

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع (ص ١١٤)، وانظر للاستزادة مما نقله عن ابن قتيبة ووافقه في اختياره :

(٥٠١/١)، (١٧/٢)، (٢٥، ٣٢، ٣٧، ٧٥، ٩٧) .

(٧) الإبانة (ص ٧١-٧٩) .

"تأويل مشكل القرآن" إلى أن الأحرف السبعة هي سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن^(١)، ثم انتقل بعد ذلك إلى بيان أوجه اختلاف القراءات ، فذكر أنها على سبعة أوجه^(٢)، - ظنها بعضهم اختياراً له في معنى الأحرف السبعة ، وليست كذلك - .

ومثله فعل الإمام مكّي في "الإبانة" ، فأفصح عن رأيه في الأحرف السبعة؛ فقال :
"والذي نعتقده في ذلك ، ونقول به ، وهو الصواب إن شاء الله : أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن : هي لغات متفرقة في القرآن"^(٣).

ثم قال بعد ذلك :

"والذي يشتمل عليه معنى القراءات : أنها ترجع إلى سبعة أوجه" .

فذكر الأوجه السبعة التي ذكرها ابن قتيبة وأمثلتها نصاً من ابن قتيبة^(٤)، وهذا يدل على أنه ذكرها لبيان أوجه اختلاف القراءات ، وليس لبيان معنى الأحرف السبعة ، وهو في هذا قد تبع الإمام ابن قتيبة ، وهو الأمر الذي عصى فهمه على الكثير ، فلم يميّز بين معنى الأحرف السبعة ، وبين أوجه اختلاف القراءات السبعة^(٥).

٣ . جامع البيان في القراءات السبع ، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ).

اعتمد الداني في كتابه على ابن قتيبة اعتماداً كبيراً ، وتأثر به كثيراً ، بل أفاد غالب حديثه عن الأحرف السبعة من حديث ابن قتيبة الموسع عن الأحرف السبعة في "تأويل مشكل القرآن" ، ويتأكد هذا الأمر في كثير من المواضع ، حين نقارن بين كلام الداني فيها وبين كلام ابن قتيبة ، ومن تلك المواضع :

أ . عند حديثه عن معنى الأحرف في اللغة ، ووجه تسميتها أحرفاً ، نقل كلام ابن قتيبة وتفصيله في الموضوع دون إشارة إليه^(٦).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٤).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٦-٣٨).

(٣) الإبانة (ص ٧١).

(٤) المصدر السابق (ص ٧٤-٧٩).

(٥) انظر تفصيل الحديث عن هذا (ص ٦٩٤) من هذه الرسالة .

(٦) جامع البيان (١/٣٥-٣٨).

ولك أن تقارن هنا بين قول ابن قتيبة حين تحدث عن معنى الأحرف السبعة ففسر قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾^(١)؛ فقال :

"أراد سبحانه وتعالى : من الناس من يعبد الله على الخير يصيبه من تثير المال وعافية البدن ، وإعطاء السؤال ، فهو مطمئن ما دام ذلك له ، وإن امتحنه الله تعالى بالألواء^(٢) في عيشه ، والضراء في بدنه وماله كفر به .

فهذا عبَدَ الله على وجه واحد ، ومعنى متحد، ومذهب واحد، وهو معنى الحرف، ولو عبَدَ الله على الشكر للنعمة ، والصبر للمصيبة ، والرضا بالقضاء ، لم يكن عبَدَه على حرف"^(٣).

وقارنه بقول الداني في تفسير الآية : "يقول جل ثناؤه : ومن الناس من يعبد الله على النعمة تصيبه ، والخير يناله : من تثير المال ، وعافية البدن ، وإعطاء السؤال ، ويطمئن إلى ذلك، ما دامت له هذه الأمور ، واستقامت له هذه الأحوال ، فإن تغيّرت حاله ، وامتحنه الله تعالى بالشدّة في عيشه ، والضّرّ في بدنه ، والفقر في ماله، ترك عبادة ربه ، وكفر به، فهذا عبَدَ الله سبحانه على وجه واحد ، ومذهب واحد، وذلك معنى الحرف .

ولو عبَدَه تبارك وتعالى على الشكر للنعمة ، والصبر عند المصيبة ، والرضى بالقضاء عند السراء والضراء ، والشدّة والرخاء ، والفقر والغنى ، والعافية والبلاء – إذ كان سبحانه أهلاً أن يُعبَدَ على كل حال – لم يكن عبَدَه تعالى على حرف"^(٤).

وقارن – أيضاً – بين قول ابن قتيبة :

"والحرف يقع على المثال المقطوع من حرف المعجم ، وعلى الكلمة الواحدة ، ويقع الحرف على الكلمة بأسرها ، والخطبة كلها ، والقصيدة بكاملها .

ألا ترى أنهم يقولون : قال الشاعر كذا في كلمته ، يعنون في قصيدته"^(٥).

(١) سورة الحج : ١١ .

(٢) اللأواء : المشقة والشدّة . [لسان العرب ، مادة "الأوي" (٢٣٧/١٥)] .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٦) .

(٤) جامع البيان (١/٣٦) .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٥) .

وقول الداني (ت ٤٤٤ هـ) :

"وكذا يسمون الرسالة على نظامها ، والخطبة بكاملها ، والقصيدة كلها، والقصة بأسرها كلمة ؛ إذ كانت الكلمة منها ، فيقولون : قال قيس في كلمته كذا ، يعنون خطبته، وقال زهير في كلمته كذا ، يريدون قصيدته ، وقال فلان في كلمته كذا، أي في رسالته"^(١).

ومن هنا يتبين أن حديث الداني في هذا الباب إنما هو في غالبه نص كلام ابن قتيبة.

ب . عند حديثه عن الحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف ، اقتصر فيه على الحكمة التي ذكرها ابن قتيبة ؛ وهي التوسعة على العباد، والرحمة لهم ، والتخفيف عنهم، ويُعد كلام الداني في هذا الموضوع تلخيصاً محكماً لكلام ابن قتيبة ، لخص فيه حديثه وحافظ على أفكاره الرئيسة في الموضوع وتسلسلها^(٢).

ج . عند حديثه عن أوجه اختلاف الأحرف السبعة ؛ ذكر أوجهاً كثيرة ضمنها الأوجه السبعة التي ذكرها ابن قتيبة بأمثلتها^(٣).

د . عند حديثه عن أنواع اختلاف الألفاظ في الأحرف السبعة ، التزم بشكل كبير بكلام الإمام ابن قتيبة ، وبنى عليه حديثه ، متمثلاً في ذلك بأمثلة الإمام ابن قتيبة^(٤). وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل أثر الإمام ابن قتيبة على الداني في هذا الجانب في مبحث أنواع اختلاف القراءات^(٥).

وبالرغم من أن الداني نقل عن ابن قتيبة نقولاً كثيرة في مواضع متعددة من الكتاب ، إلا أنه لم يصرح باسمه إلا في موضع واحد يتعلق بترجمة حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦ هـ)، وكان المقام يقتضي التصريح باسمه ، فقد نقل عنه بالإسناد ، فقال :

"أخبرنا حاتم بن عبدالله البزار^(٦)، قال: أنبأ أبو محمد قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠ هـ)، قال

(١) جامع البيان (٣٧/١) .

(٢) انظر : جامع البيان (٣٨/١)، وتأويل مشكل القرآن (ص٣٨-٤٠) .

(٣) انظر : جامع البيان (٣٩/١-٤٧)، وتأويل مشكل القرآن (ص٣٦-٣٨) .

(٤) انظر : جامع البيان (٤٩/١-٥٣)، وتأويل مشكل القرآن (ص٤٠-٤٢) .

(٥) انظر : (ص٧٠٦) من هذه الرسالة .

(٦) أبو بكر حاتم بن عبدالله بن حاتم بن حنين بن قاسم البزار الرصافي ، سمع من قاسم بن أصبغ كثيراً ، ومن عبدالله بن ابن يونس ومحمد بن محمد الخشني ، وعنه أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ، وقال : إنه سمع منه بالرفافة ، =

قال عبدالله بن مسلم - ابن قتيبة - : "حمزة الزيات : هو حمزة بن حبيب بن عمار ، ويكنى أبا عمار ، مولى لآل عكرمة بن رعي التيمي ، كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان"^(١).

٤ . المقنع في رسم مصاحف الأمصار ، لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ).

نقل فيه بالإسناد عن ابن قتيبة في موضعين ؛ هما :

. قول الداني : "وحدّثت عن قاسم بن أصبغ ، قال : حدثنا عبدالله بن مسلم بن قتيبة،

قال : "كتبوا في المصحف "ولا أوضعوا"^(٢)، و"أولا أذبحنه"^(٣)، بزيادة ألف"^(٤).

. وقوله أيضاً : "حدّثت عن قاسم بن أصبغ، قال : حدثنا عبدالله بن مسلم بن قتيبة؛

قال : "كُتِبَ كُتَابُ المصاحف "الصلوة"، و"الزكوة"، و"الحياة"، بالواو"^(٥).

قلت : ومن هذه المواضع في كتابي "جامع البيان"، و"المقنع" يتبين أن واسطة الداني فيما

يرويه وينقله عن كتب ابن قتيبة هو قاسم بن أصبغ ، تلميذ ابن قتيبة الذي كان له دور كبير

في نقل كتب ابن قتيبة إلى المغرب الإسلامي وانتشارها عند المغاربة ، وتلقيها بالقبول

والإعجاب والتقدير ، حتى بلغ بهم الأمر إلى القول : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيف ابن

قتيبة لا خير فيه^(٦).

٥ . الإيضاح في القراءات ، لأحمد بن أبي عمر الأندرابي (ت بعد ٥٠٠ هـ) .

تأثر الأندرابي بالإمام ابن قتيبة ، وكان أحد مصادره التي اعتمد عليها ، ونقل منها، وقد

عدّدت محققة الكتاب المصادر التي اعتمد عليها الأندرابي ؛ فقالت : "وابن قتيبة نقل عنه نصاً

طويلاً في تفسير الأحرف السبعة ، ونصوصاً أخرى متفرقة"^(٧).

=وبقرطبة في منزله، كان صالح الكتاب ، وذهبت كتب سماعه وحدث بيسير ، ولد سنة إحدى عشرة وثلاثمائة.

[تاريخ علماء الأندلس (ص ١٠٨)، جذوة المقتبس (ص ٢٠٣)].

(١) جامع البيان (١/١٤٤)، وكلام ابن قتيبة في المعارف (ص ٢٩٤).

(٢) في سورة التوبة : ٤٧ .

(٣) في سورة النمل : ٢١ ، وهذان الموضوعان مما اختلفت فيه المصاحف ، وهما في المصحف الكوفي بغير ألف. [كتاب

المصاحف لابن أبي داود (١/٤٣٤)].

(٤) المقنع في رسم مصاحف الأمصار (ص ٥١).

(٥) المصدر السابق (ص ٦٠).

(٦) انظر : مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (١٧/٣٩١).

(٧) مقدمة تحقيق "الإيضاح للأندرابي" ، للباحثة/ منى عدنان غني (ص ١٨).

ومن المواضع التي نقل فيها الأندرابي عن ابن قتيبة ؛ ما يلي :

في باب "في ذكر تغليظ اللام من أسماء الله عز وعلا والترقيق" ؛ قال :

"قال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة : "الله أصله الإلاه ، غُيِّرَتِ الهمزة لكثرة ما يجري ذكره على الألسنة ، وأدغمت لام المعرفة التي لقيتها ، وفُحِّمَتِ وأشبعَتِ حتى طبق اللسان بها الحنك؛ لفخامة ذكره جلّ جلاله ، وليفرق أيضاً عند الابتداء بذكره بينه وبين اللات" (١).

وفي باب "في ذكر معنى المصحف والكتاب والقرآن والسورة والآية والكلمة والحرف وغير ذلك" ؛ قال :

"قال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة : قد سمى الله تعالى القرآن كتاباً ، وقال :

﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَارِيبٍ فِيهِ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ (٣) ، والكتاب فعل الكاتب ، وقد يسمى الشيء بفعل الفاعل ، يقال : هذا درهمٌ ضربُ الأمير ، وإنما هو مضروب الأمير ، قال : ومعنى كُتِبَ الكتاب ؛ أي جمع حروفه ، ومنه كتبت الخرز" (٤).

ونقل عن ابن قتيبة - أيضاً - في الباب نفسه :

"قال القتيبي : يكون القرآن مصدراً كالقراءة ، يقال لك : قرأت قراءة حسنة ، وقرآناً حسناً ، قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ^ط إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٥) ، أي : قراءة الفجر" (٦).

كما نقل الأندرابي بالإسناد من طريق أبي جعفر أحمد بن الإمام ابن قتيبة عن أبيه الأوجه السبعة التي ذكرها في اختلاف القراءات (٧).

(١) الإيضاح في القراءات (ص ١٨٤) .

(٢) سورة البقرة : ٢ .

(٣) سورة إبراهيم : ١ .

(٤) الإيضاح (ص ١٤٩) .

(٥) سورة الإسراء : ٧٨ .

(٦) الإيضاح (ص ١٥٠) .

(٧) المصدر السابق (ص ٦٠-٦٢) ، وهو بنصه عند ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٣٦-٣٨) ، وانظر : للاستزادة

مما نقله عن ابن قتيبة : الإيضاح (ص ٣٤٣) .

- كما أفاد منه جمع ممن صنف في القراءات وعلومها ، أذكر منهم على سبيل الإجمال:
- ٦ . جمال القراء وكمال الإقراء ، لأبي الحسن علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣هـ).
- صرّح بالنقل عن ابن قتيبة في موضعين :
- أحدهما : في ترجمة أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)^(١).
- والثاني : في الوقف والابتداء^(٢).
- ٧ . إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع ، لأبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت ٦٦٥هـ).
- تأثر بابن قتيبة ونقل عنه في مواضع متعددة^(٣).
- ٨ . المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، لأبي شامة المقدسي .
- تأثر بالإمام ابن قتيبة في حديثه عن الأحرف السبعة ، وأفاد منه في مواضع متعددة في كتابه ، وصرح بالنقل عنه في ثلاثة منها^(٤).
- ٩ . النشر في القراءات العشر ، لأبي الخير محمد بن محمد الدمشقي ، الشهير بـ"ابن الجزري" (ت ٨٣٣هـ).
- وقد بدا أثر الإمام ابن قتيبة عليه ظاهراً في كتابه ، فقد نقل عنه نقولاً كثيرة في جوانب متعددة في كتابه^(٥)، ووصفه بـ"الإمام" ، واعتدّ برأيه في بعض المسائل المتعلقة بالأحرف السبعة^(٦).
- ١٠ . إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، لشهاب الدين أحمد بن محمد ابن أحمد البنا الدمياطي (ت ١١١٧هـ).
- صرّح بالنقل عنه في موضع واحد^(٧).

(١) جمال القراء (٢/٥٤٠) .

(٢) المصدر السابق (٢/٧٣٠) .

(٣) إبراز المعاني (ص ٣٠٥، ٦٠٠، ٦٢٢، ٧٣٤) .

(٤) المرشد الوجيز (ص ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٨٥) .

(٥) النشر (١/٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٤٥)، (٢/٣٣٣، ٣٣٤) .

(٦) المصدر السابق (١/٢٥، ٢٨، ٤٥) .

(٧) إتحاف فضلاء البشر (١/٣٦٩) .

المبحث الثالث

أثره في علوم القرآن

لم يقتصر أثر الإمام ابن قتيبة على كتب التفسير والقراءات فحسب ، بل كان أثره جلياً في مصنفات علوم القرآن ، فقد أفاد جمع من المصنفين في علوم القرآن من ابن قتيبة في أبواب علوم القرآن المتنوعة .

ومن أشهر مصنفات علوم القرآن التي أفادت من ابن قتيبة ؛ ما يلي :

١ . البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ).

كانت مصنفات ابن قتيبة من المصادر المهمة التي اعتمدها الزركشي في برهانه ، وقد ظهر تأثره بابن قتيبة من خلال النقول الكثيرة التي أفادها من مصنفه ، وقد صرح الزركشي بالنقل عن ابن قتيبة في عشرة مواضع ؛ هي :

أ . في النوع الثالث : معرفة الفواصل ورؤوس الآي .

نقل الزركشي عن الفراء (ت ٢٠٧هـ) قوله : إن الشنية في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴾^(١)، إنما هي لأجل الفاصلة ، رعاية للتي قبلها والتي بعدها على هذا الوزن ، ثم قال الزركشي :

"وأنكر ذلك ابن قتيبة عليه ، وأغلظ ، وقال : إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت أو الألف ، أو حذف همزة أو حرف ، فأما أن يكون الله وعد جنتين فنجعلهما جنة واحدة من أجل رؤوس الآي ، فمعاذ الله ، وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنتين، قال : ﴿

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾^(٢)، ثم قال فيها : ﴿ فِيهِمَا ﴾^(٣)»^(٤).

ب . في النوع الحادي عشر : معرفة على كم لغة نزل .

(١) سورة الرحمن : ٤٦ .

(٢) سورة الرحمن : ٤٨ .

(٣) سورة الرحمن : ٥٠ .

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/٦٥)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٠) .

تحدث الزركشي عن الأحرف السبعة ، وعدّد أقوال العلماء في المراد بها ، فذكر القول بأنّ : المراد بها سبع لغات متفرقة في القرآن ، ثم قال الزركشي :

"وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا القول ، وقالوا : لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش؛ لقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾^(١).

قال ابن قتيبة : ولا نعرف في القرآن حرفاً واحداً يقرأ على سبعة أوجه"^(٢).

ج . في النوع الرابع عشر : معرفة تقسيمه بحسب سوره ، وترتيب السور والآيات وعددها

ذكر في نهاية هذا النوع فائدة عن الإمام ابن قتيبة تتعلق بمعنى لفظ "السورة" لغة ، وسبب تسميتها بذلك^(٣).

د . في النوع الثالث عشر : معرفة غريبه .

نقل عن ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾^(٤) ، أنه من عَشَوْتُ أعشو عشواً ، إذا نظرت^(٥).

هـ . في النوع السابع والعشرين : معرفة خواصه .

نقل عن ابن قتيبة قصة لبعض الصالحين ، تتعلق بقراءة قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي ﴾^(٦)^(٧).

و . في النوع السادس والأربعين : في أساليب القرآن وفنونه البليغة .

(١) سورة إبراهيم : ٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/٢١٨)، وكلام ابن قتيبة ليس في شيء من مصنفاته ، وإنما نقله أبو شامة المقدسي في المرشد الوجيز (ص٢٤٩)، وعندني شك في نسبة هذا القول لابن قتيبة ، انظر (ص٧٠٢) من هذه الرسالة .

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/٢٦٣)، وأفاده من ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص٣٤) .

(٤) سورة الزحرف : ٣٦ .

(٥) البرهان (١/٢٩٤)، وكلام ابن قتيبة في غريب القرآن (ص٣٩٧) .

(٦) سورة الكهف : ١٠٩ .

(٧) البرهان (١/٤٣٥) .

في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ
ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾^(١)؛ قال الزركشي :

"قال ابن قتيبة : وهل شيء أبلغ في العظمة والعزة من هذه الآية ، لأن الله تعالى أراد:
أفلم يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار قوم أهلكهم الله بالكفر والعتو ، فيروا بيوتاً خاوية قد
سقطت على عروشها، وبعراً يشرب أهلها فيها قد عطلت ، وقصراً بناه ملكه بالشيد^(٢) خلا
من السكن ، وتداعى بالخراب ، فيتعضوا بذلك ، ويخافوا من عقوبة الله ؛ مثل الذي نزل
بهم"^(٣).

ز . أما المواضع الأربعة المتبقية فكانت في النوع السابع والأربعين : في الكلام على
المفردات من الأدوات ، والبحث عن معاني الحروف .
وفيه نقل الزركشي كلام ابن قتيبة في أربع من الأدوات ؛ هي : "أما"^(٤)، و"أنتي"^(٥)،
و"رويدا"^(٦)، و"لام العاقبة"^(٧).

ومما يلفت النظر أنّ ما نقله عن ابن قتيبة في معنى "أما" موجود بنصه في كتاب "المسائل
والأجوبة" ، وهذا يدل على أن الزركشي اطّلع على الكتاب أو نقل عمّن اطّلع عليه وأفاد منه
؛ مع أن الكتاب قليل الشيوخ ، وقلما تجد له ذكراً عند المتقدمين .

٢ . الإتيان في علوم القرآن ، لأبي الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي
(ت ٩١١هـ).

تأثر السيوطي كثيراً بالإمام ابن قتيبة ، وأفاد وانتفع بمصنفاته ، وذكر في مقدمة "الإتيان"
أن من مصادره التي اعتمد عليها : "تفسير غريب القرآن" ، و"تأويل مشكل القرآن" ، لابن قتيبة

(١) سورة الحج : ٤٦ .

(٢) الشيد - بالكسر - : كل ما طلي به الحائط من جص أو بلاط . [لسان العرب مادة "شيد" (٣/٢٤٤)].

(٣) البرهان (٢/٤٢٨)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ١٠) .

(٤) المصدر السابق (٤/٢٤٣)، وهذا الكلام بنصه موجود عند ابن قتيبة في المسائل والأجوبة (ص ٢١٠) .

(٥) المصدر السابق (٤/٢٤٩)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٥٢٥) .

(٦) المصدر السابق (٤/٢٨٠)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٥٥٩) .

(٧) المصدر السابق (٤/٣٤٦) .

(١)

كما أفاد منه في مواضع متعددة في مصنفه ، صرح بالنقل فيها عن ابن قتيبة في اثني عشر موضعاً كان في بعضها ناقلاً عن الزركشي في "برهانه" ؛ هي :

أ . في النوع السادس عشر : في كيفية إنزاله .

في هذا النوع نقل السيوطي عن ابن قتيبة في موضعين :

أحدهما : عند حديثه عن الأحرف السبعة ، وأقوال العلماء فيها ، نقل عن ابن قتيبة أوجه التغيرات السبعة في القراءات ، وعدّها قولاً له في معنى الأحرف السبعة^(٢) .

الثاني : في مسألة نزول القرآن بغير لغة قريش ، نقل عن ابن قتيبة إنكاره لنزول القرآن بغير لغة قريش^(٣) .

ب . في النوع السابع عشر : في معرفة أسمائه وأسماء سوره .

نقل عن ابن قتيبة تعريفه للسورة في اللغة ، ووجه تسميتها بذلك^(٤) .

ج . في النوع الثامن والعشرين : معرفة المتواتر والمشهور والآحاد والشاذ والموضوع والمدرج .

ذكر السيوطي في هذا النوع بعض الشبه المثارة حول تواتر القرآن ، ومن ذلك : ما نُقل عن ابن مسعود (ت ٣٢هـ) ، رضي الله عنه من إنكار الفاتحة والمعوذتين .

ثم أجاب عن هذه الشبه ، فنقل حديث الإمام ابن قتيبة في دفع تلك الشبه^(٥) .

د . في النوع الثامن والثلاثين : فيما وقع فيه بغير لغة العرب .

نقل فيه نصين عن ابن قتيبة في معنى "القنطار"^(٦) ، "واليم"^(٧) .

هـ . في النوع الأربعين : في معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر .

(١) الإتقان (١/٢٤، ٢٦) .

(٢) المصدر السابق (١/٣١١)، أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص٣٦-٣٨) .

(٣) المصدر السابق (١/٣٢٢) .

(٤) المصدر السابق (٢/٣٤٦)، أفاده من ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص٣٤) .

(٥) المصدر السابق (٢/٥٢١)، أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص٤٣-٤٩) .

(٦) المصدر السابق (٣/٩٦٣)، وكلام ابن قتيبة بنصه في تفسير غريب القرآن (ص١٠٢) .

(٧) المصدر السابق (٣/٩٧١)، وكلام ابن قتيبة بنصه في غريب الحديث (٢/٣٤٢) .

في معاني "إذ" نقل عن ابن قتيبة أنها قد تزداد لغرض التوكيد ، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿١﴾. (٢)

و . في النوع الثالث والأربعين : في المحكم والمتشابه .

نقل عن السمعاني (ت ٤٨٩هـ) اختيار ابن قتيبة : أن الراسخين في العلم ممن يعلم تأويل المتشابه ، إذ يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته (٣).

ز . في النوع السابع والخمسين : في الخبر والإنشاء .

قال السيوطي :

"من أقسام الخبر : الوعد ، والوعيد ، نحو قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ

﴿٤﴾، وقوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٥﴾، وفي كلام ابن قتيبة ما يوهم أنه إنشاء" (٦).

ح . في النوع التاسع والخمسين : في فواصل الآي .

نقل عن ابن قتيبة إنكاره على الفراء (ت ٢٠٧هـ) في أن التثنية في قوله تعالى : ﴿وَلَمَن

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴿٧﴾، لأجل الفاصلة (٨).

ط . في النوع التاسع والستين : فيما وقع في القرآن من الأسماء والكنى والألقاب .

نقل عن ابن قتيبة في موضعين (٩)، وكلاهما من كتاب "المعارف" لابن قتيبة (١٠).

٣ . التحبير في علم التفسير ، للسيوطي (ت ٩١١هـ) .

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

(٢) الإتيان (١٠١٥/٣)، أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٢٥٢) .

(٣) المصدر السابق (١٣٤١/٤) ، واختيار ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٩٨-١٠١) .

(٤) سورة فصلت : ٥٣ .

(٥) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

(٦) الإتيان (١٦٩٣/٥)، ولم أعر على كلام ابن قتيبة في هذا .

(٧) سورة الرحمن : ٤٦ .

(٨) الإتيان (١٨٠٠/٥)، وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٠) .

(٩) الإتيان (١٩٦٦/٥)، (١٩٨١) .

(١٠) المعارف (ص ١٣، ٣٠) على التوالي .

وهو كتاب آخر للسيوطي ، ظهر فيه أثر الإمام ابن قتيبة بشكل جلي ، حيث اعتمد السيوطي على كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة ، ونقل عنه نقولاً كثيرة في مواضع متعددة ، ومن تلك المواضع :

أ . في النوع الحادي والعشرين : المتواتر والآحاد والشاذ .

نقل عن ابن قتيبة الإجابة عما نسب لابن مسعود (ت ٣٢٢هـ) رضي الله عنه من أنه كان يحك المعوذتين من مصحفه^(١).

ب . في النوع الحادي والأربعين : المجاز .

نقل عن ابن قتيبة في ثلاثة مواضع :

أحدها : في "التقديم والتأخير" ، قال السيوطي :

"ومثل له ابن قتيبة بأمثلة دقيقة ، منها : قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ

الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ قِيمًا ۗ ﴾^(٢) ، أراد : أنزل الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً ،

وقوله : ﴿ فَضَحِكْتَ فَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ ۗ ﴾^(٣) ، أي : بشرناها فضحكت ، وقوله : ﴿ فَلَا

تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ ﴾^(٤) ؛ أراد : فلا

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة"^(٥).

الثاني : في "القلب" ، ذكر أنّ ابن قتيبة ممن جوّزه ، ثم نقل عن ابن قتيبة بعضاً مما مثل

به للقلب^(٦).

الثالث : في "نسبة الفعل إلى شيئين هو لأحدهما فقط" ، نقل فيه عن ابن قتيبة واقتصر

فيه على أمثله^(٧).

(١) التحبير في علم التفسير (ص ١٤٦)، وإجابة ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٤٣-٤٤) .

(٢) سورة الكهف : ١ ، ٢ .

(٣) سورة هود : ٧١ .

(٤) سورة التوبة : ٥٥ .

(٥) التحبير (ص ٢٠٧)، أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٢٠٥-٢٠٦) .

(٦) المصدر السابق (ص ٢٠٨-٢٠٩)، وأمثلة ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٣-٢٠٩) .

(٧) المصدر السابق (ص ٢١٣)، وكلام ابن قتيبة بنصه في تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨٦-٢٨٧) .

ج . في النوع السادس والأربعين : المشكل .

قال السيوطي : "وقد صنف ابن قتيبة كتاباً جيداً في هذا النوع"^(١).

ثم ذكر الأمثلة على هذا النوع^(٢)، وجميعها أفادها من الإمام ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن"^(٣).

٤ . الزيادة والإحسان في علوم القرآن ، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن سعيد بن مسعود ، الشهير بـ "ابن عقيلة المكي" (ت ١١٥٠هـ).

أفاد ابن عقيلة من الإمام ابن قتيبة ، فنقل عنه في مواضع متعددة ، وقد صرح بالنقل عن ابن قتيبة في عشرة مواضع ، كان في بعضها ناقلاً عن الزركشي (ت ٧٩٤هـ) أو السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤)، ومما نقله عن ابن قتيبة مما ليس عندهما ، ما يلي :

أ . في النوع الخامس والأربعين : علم خواص القرآن .

نقل عن ابن قتيبة نصاً يتعلق بقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٥) .^(٦)

ب . في النوع الثامن والسبعين : علم الوقف على مرسوم خط المصحف العثماني .

تحدث عن قطع الموصول ، فذكر قوله تعالى : ﴿وَيَكَاثُ اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ

﴿^(٧)، ونقل عن ابن قتيبة قوله : "معنى ويك : رحمة لك ، بلغة حمير" ^(٨).

ج . في النوع الثاني والتسعين : علم توجيه القراءات .

(١) المصدر السابق (ص ٢٢١)، يريد به كتاب ابن قتيبة "تأويل مشكل القرآن" .

(٢) المصدر السابق (ص ٢٢١-٢٢٣) .

(٣) (ص ٦٥-٦٧) .

(٤) الزيادة والإحسان (١/٣٧٤)، في علم أسماء سور القرآن (٣/١٢٤)، في علم المتواتر (٨/١٩)، في علم معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر (٩/٣٥١)، و(٩/٣٥٧)، في علم ما وقع في القرآن العزيز بغير لغة العرب .

(٥) سورة النحل : ١٠٨ .

(٦) الزيادة والإحسان (٢/٣٨٤) .

(٧) سورة القصص : ٨٢ .

(٨) الزيادة والإحسان (٣/٤٦٩)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٥٢٧) .

ذكر القراءتين^(١)، في قوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٢)، ثم نقل عن ابن قتيبة قوله:

"ما كان من الأسماء المنقولة من الصفات على وزن "فاعل" ، وكثر استعماله ، نحو: صالح، مالك، خالد، فحذف ألفه أحسن من إثباتها ، فإن حُلِّيت باللام تعين الإثبات"^(٣).

د . في النوع الرابع والأربعين بعد المائة : علم معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر .
نقل عن ابن قتيبة في معنى "كأَيُّن" ^(٤).

هـ . في النوع الرابع والخمسين بعد المائة : آداب ختم القرآن .

في تفسير معنى "الحال المرتحل" في حديث ابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما، قال: قال رجل : يا رسول الله ، أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال: "الحال المرتحل"^(٥).

نقل عن ابن قتيبة أنه المجاهد ، كلما ختم غزوة افتتح أخرى^(٦).

قلت : وهو أحد تفسيري الإمام ابن قتيبة لمعنى "الحال المرتحل" ، وقد ذكره على سبيل الإمكان ، وإلا فإن المعنى الذي قدّمه وفسّر به الحديث ، هو القول بأن الحال المرتحل هو الخاتم المفتوح للقرآن ، وفي ذلك يقول :

"الحال : الخاتم للقرآن ، شُبّه برجل هو سافر فسار حتى إذا بلغ آخره وقف عنده .

(١) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف : "مالك" بالألف، وقرأ الباقر "ملك" بغير ألف. [المبسوط (ص ٨٦)، النشر (٢١٣/١) .

(٢) سورة الفاتحة : ٤ .

(٣) الزيادة والإحسان (٢٣٩/٤)، وكلام ابن قتيبة في أدب الكاتب (ص ٢٢٩) .

(٤) الزيادة والإحسان (١٢٨/٨)، وأفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٥١٩) .

(٥) أخرجه مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : الترمذي في أبواب القراءات ، باب في كم أقرأ القرآن ح (٢٩٤٨) (ص ١٩٤٨)، وقال: "هذا حديث غريب ، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، وإسناده ليس بالقوي"، وضعفه الألباني [ضعيف سنن الترمذي (ص ٣١٢) .

وأخرجه مرسلاً من حديث زرارة بن أوفى : الترمذي في أبواب القراءات ، باب في كم أقرأ القراءات ح (٢٩٤٨) (ص ١٩٤٨)، والدرامي في فضائل القرآن ، باب في ختم القرآن ح (٣٥١٩) (٢١٨٠/٤)، قال محققه حسن سليم أسد: "إسناده فيه علتان : الإرسال وضعف صالح المري" .

(٦) الزيادة والإحسان (٤٢٠/٩) ، وكلام ابن قتيبة في غريب الحديث (٧٦٦/٣) .

والمرتحل : المفتوح للقرآن ، شُبِّهَ برجل أراد سفرًا ، فافتتحه بالمسير حتى إذا بلغ المنزل حلَّ به ، كذلك تالي القرآن يتلوه" (١).

٥ . مناهل العرفان في علوم القرآن ، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ).
 عدّ الدكتور خالد السبب في دراسته لكتاب "مناهل العرفان" كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة في مقدمة المصادر التي اعتمد عليها الزرقاني في كتابه (٢).
 وقد تتبعتُ المواضع التي صرّح الزرقاني فيها بالنقل عن ابن قتيبة ، فوجدتُ أن جميع هذه النقول من كتاب "تأويل مشكل القرآن" ، وهي كالتالي :
 أ . في المبحث السادس : في نزول القرآن على سبعة أحرف .

نقل عن ابن قتيبة في ثلاثة مواضع :
 أحدها : في معنى الأحرف السبعة ، نقل عن ابن قتيبة أوجه التغير السبعة في أوجه القراءات ، ثم اختارها الزرقاني قولاً له في معنى الأحرف السبعة ، ودلل لهذا القول ، وأجاب عما أشكل عليه (٣).

الثاني : نقل عن ابن قتيبة أن الاختلاف في الإظهار والإدغام ، والروم والإشمام ، والتخفيف والتسهيل ، ونحو ذلك ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً (٤).

الثالث : نقل عن ابن قتيبة حديثه عن الحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف (٥).
 ب . في المبحث الثامن : في جمع القرآن وتاريخه والرد على ما يثار حوله من شبهة .
 نقل عن ابن قتيبة في موضعين :

أحدهما : رد ابن قتيبة على شبهة إسقاط الفاتحة من مصحف ابن مسعود (ت ٣٢٢هـ) (٦).

(١) غريب الحديث (٧٦٥/٣) .

(٢) كتاب مناهل العرفان للزرقاني : دراسة وتقييم (١/١١٠) .

(٣) مناهل العرفان (١/١٣٤-١٣٦)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص٣٦-٣٨) .

(٤) المصدر السابق (١/١٣٧)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص٣٨) .

(٥) المصدر السابق (١/١٣٨)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص٣٩-٤٠) .

(٦) مناهل العرفان (١/٢٢٥)، أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص٤٧-٤٩) .

الثاني : رد ابن قتيبة على شبهة ظن ابن مسعود رضي الله عنه أن المعوذتين ليستا من القرآن^(١).

ج . في المبحث الثالث عشر : في ترجمة القرآن وحكمها تفصيلاً .

نقل عن ابن قتيبة نفي إمكانية الترجمة الحرفية للقرآن الكريم^(٢).

كما ظهر أثر الإمام ابن قتيبة في عدد من مصنفات علوم القرآن ، سواء أكانت عامة أم خاصة ببعض مواضيع علوم القرآن ، ومن تلك المصنفات :

٦ . الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عزّ وجل ، واختلاف العلماء في ذلك ، لأبي جعفر

أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٣).

٧ . المغرب من الكلام الأعجمي ، لأبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي

(ت ٥٤٠هـ)^(٤).

٨ . نواسخ القرآن ، لأبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت

٥٩٧هـ)^(٥).

٩ . فنون الأفنان في عيون علوم القرآن ، لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)^(٦).

١٠ . التبيان في آداب حملة القرآن ، لأبي زكريا محي الدين بن شرف النووي (ت

٦٧٦هـ)^(٧).

١١ . التبيان في أقسام القرآن ، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ابن قيم

الجوزية (ت ٧٥١هـ)^(٨).

١٢ . المهذب فيما وقع في القرآن من المغرب ، للسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٩).

(١) المصدر السابق (٢٢٦/١)، أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٤٣) .

(٢) المصدر السابق (١٣٠/٢)، أفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٢١) .

(٣) الناسخ والمنسوخ (٢/٢١٤، ٦٠٨) .

(٤) المغرب (ص ١١١، ١٦٢، ١٧٩، ٢١٣، ٢٩١) .

(٥) نواسخ القرآن (ص ١٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٣٣٧، ٣٨٤) .

(٦) فنون الأفنان (ص ٣٤٥) .

(٧) التبيان (ص ١١٢) .

(٨) التبيان في أقسام القرآن (ص ٣٠، ١٢٩، ٢٣٤، ٢٧٤، ٤٢٢) .

(٩) المهذب فيما وقع في القرآن من المغرب (ص ١٣٢، ١٦٦) .

١٣ . مفحّمت الأقران في مبهمات القرآن ، للسيوطي (ت ٩١١هـ)^(١).

^(١) مفحّمت الأقران (ص ٦٨) .

المبحث الرابع أثره في أصول التفسير

من الصعب الكشف عن مدى أثر ابن قتيبة في أصول التفسير ، إذ المصنفات في هذا الفن قليلة ، كما أن غالبها من تصنيف المتأخرين ، غير أنه قد ظهر لي - بعد تتبع ونظر - أثر الإمام ابن قتيبة في عدد من مصنفات أصول التفسير أو المصنفة في مواضيع أصول التفسير ، ومن ذلك :

١ - الإكليل في المتشابه والتأويل ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ).

وهو كتاب عرض فيه شيخ الإسلام لموضوع "التأويل" وهو أهم مواضيع أصول التفسير ، وفيه أفاد من الإمام ابن قتيبة ، فذكر اختياره في كون الراسخين في العلم يعلمون التأويل ، ونقل استدلاله واحتججه للمسألة^(١).

٢ - التفسير والمفسرون ، للدكتور محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٨هـ) .

أكثر الذهبي في كتابه من النقل عن الإمام ابن قتيبة ، وأثنى عليه وعلى رأيه في هذه النقول ، وكان غالباً ما يصفه ، فيقول : "قال العلامة ابن قتيبة" ، ومن المواضع التي نقل فيها عن ابن قتيبة ما يلي :

أ - في الباب الأول : التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

تحدث الذهبي عن أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه ، وأن ذلك راجع إلى اختلافهم في أدوات الفهم ، ثم استشهد بقول ابن قتيبة :

"إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض"^(٢).

ب - في الفصل الرابع من الباب الثالث : التفسير بالرأي المذموم .

(١) الإكليل في المتشابه والتأويل (ص ٢٣) .

(٢) التفسير والمفسرون (٣٠/١)، وكلام ابن قتيبة بنصه في المسائل والأجوبة (ص ٤٨) .

تحدث عن المعتزلة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم ، ثم وضع عنواناً رئيساً : "نقد ابن قتيبة لهذا المسلك الاعتزالي في التفسير" ، نقل فيه جملة من ردود الإمام ابن قتيبة على تأويلات المعتزلة^(١).

كما تحدث الذهبي - في الفصل نفسه - عن موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم، فذكر شيئاً من أوهامهم وأباطيلهم ، ثم قال :

"هذه هي أهم الأشياء التي يستند إليها الإمامية الإثنا عشرية في تفسيرهم لكتاب الله تعالى ، وهي كلها أوهام وأباطيل لا ثبوت لها إلا في عقول الشيعة ، وكيف يكون سائغاً ومقبولاً أن ينبنى تفسير القرآن وفهم معانيه على أوهام وأباطيل ، لهذا نرى العلامة ابن قتيبة يشدد النكير على الشيعة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى ، فيقول : "وأعجب من هذا التفسير - يعني تفسير المعتزلة - تفسير الروافض للقرآن ، وما يدعونه من علم باطنه" ، ثم نقل الذهبي نصاً طويلاً عن ابن قتيبة يتحدث فيه عن ضلالات الرافضة ، وتأويلاتهم الباطلة^(٢).

وفي الفصل نفسه تحدث عن موقف الخوارج من السنة ، وإجماع الأمة وأثر ذلك في تفسيرهم للقرآن ، ثم قال :

"وفي هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يتحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج ، وهي مخالفة لإجماع الأمة ، ومناقضة لما صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقالوا: يبطلها القرآن" .

ثم ينقل نصاً طويلاً يرد فيه ابن قتيبة على تأويلات الخوارج واحتجاجهم ، ثم يختم فيقول:

"يحدثنا ابن قتيبة بهذا عنهم ، ثم يتولى الرد عليهم في ذلك كله رداً مسهباً ، فيه إزالة كل شبهة ، ودفع كل حجة وردت على ألسنة القوم"^(٣).

٣ . الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، للدكتور محمد بن محمد أبو شهبه (ت

. ١٤٠٣هـ) .

(١) المصدر السابق (١/٢٦٩-٢٧١)، وردود ابن قتيبة بنصها في تأويل مختلف الحديث (ص٤٦-٤٨) .

(٢) المصدر السابق (٢/١٦-١٨)، وكلام ابن قتيبة بنصه في تأويل مختلف الحديث (ص٤٨-٥٠) .

(٣) المصدر السابق (٢/٢٣١-٢٣٢)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص١٣٠-١٣١) .

يعد هذا الكتاب من أهم الكتب المصنفة في "الإسرائيليات" ، وهو موضوع يبحث في أصول التفسير ، وقد أفاد أبو شهبة في كتابه من الإمام ابن قتيبة ونقل عنه في مواضع متعددة، منها :

أ. عند حديثه عن أسباب الضعف في التفسير بالمأثور، نقل عن ابن قتيبة قوله :
"الحديث يدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة : الزنادقة واجتياهم للإسلام ، وتهجينه
بيث الأحاديث المستبشعة والمستحيلة" .

ثم نقل عن ابن قتيبة بعضاً مما دسّه الزنادقة من الأحاديث والقصص المكذوبة^(١).
ب. وذكر أبو شهبة أن من أسباب الضعف في التفسير بالمأثور : وجود القصص الذين لم يكونوا من أهل العلم بالحديث ، وكان غرضهم من ذكر القصص استمالة العوام، ولهذا اختلقوا بعض القصص الباطل ، وفي هذا الكثير من الإسرائيليات والخرافات والأباطيل، وقد تلقفها الناس منهم ؛ لميلهم إلى العجائب والغرائب .

ثم قال الدكتور أبو شهبة :

"ويعجبني في هذا : ما ذكره ابن قتيبة عن القصص ؛ قال :

فإنهم يميلون وجه العوام إليهم ، ويستدرّون ما عندهم بالمناكير ، والأكاذيب من الأحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ..."^(٢).

ثم نقل نصاً طويلاً عن ابن قتيبة يذكر فيه بعض الأخبار التي اختلقها القصاص^(٣).

ج. في الإسرائيليات في عظم خلق الجبارين وخرافة عوج بن عنق .

نقل أبو شهبة ما ذكره المفسرون من روايات في هذا الجانب ، ثم قال :

"وهي كما قال ابن قتيبة أحاديث خرافة ، كانت مشهورة في الجاهلية ، ألصقت بالحديث بقصد الإفساد"^(٤).

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص ٨٦-٨٧)، وكلام ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٨-١٨٩) .

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص ٨٩)، وكلام ابن قتيبة بنصه في تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٨) .

(٣) المصدر السابق (ص ٨٩-٩٠)، وقد أفاده من ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٨-١٩٠) .

(٤) المصدر السابق (ص ١٨٦)، وأفاده من ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ١٩٢) .

٤ . أصول التفسير وقواعده ، للشيخ خالد بن عبدالرحمن العك (ت ١٤٢٠هـ).

وفيه أفاد من الإمام ابن قتيبة ، ونقل عنه نقولاً متعددة ، منها :

أ . في البحث الثالث : نشأة علم التفسير وقواعده .

نقل عن ابن قتيبة أن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض^(١).

ب . في البحث العاشر : التأويل عند السلف والمتكلمين .

تحدث المؤلف عن أن التأويل كان أول مظهر من مظاهر المتكلمين ، ثم قال :

"يقول الإمام ابن قتيبة في كتابه "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة" :

"ولما اطرد لهم القول على ما أصّلوا ، ورأوه حسن الظاهر ، قريباً من النفوس ، يروق السامعين ويستميل قلوب الغافلين ، نظروا في كتاب الله تعالى ، فوجدوه ينقض ما قاسوا ، ويبطل ما أسسوا ، فطلبوا له التأويلات المستكرهة ، والمخارج البعيدة ، وجعلوه عويصاً وألغازاً ، والإمام ابن قتيبة في كتابه هذا يفند تأويلات تلك الفرق الضالة" .

ثم نقل بعضاً من ردود ابن قتيبة على التأويلات الباطلة^(٢).

ج . في اللهجات والقراءات .

تحدث عن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ونقل فيها أوجه التغيرات السبعة التي ذكرها ابن قتيبة^(٣).

د . في بحث : الترجمة الحرفية للقرآن فوق الطاقة البشرية .

نقل عن ابن قتيبة نفي إمكانية الترجمة في القرآن^(٤).

(١) أصول التفسير وقواعده (ص ٣٢)، نقله عن ابن قتيبة في المسائل والأجوبة (ص ٤٨) .

(٢) المصدر السابق (ص ٥٤-٥٥)، وكلام ابن قتيبة بنصه في الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٠) .

(٣) المصدر السابق (ص ٤٢٣-٤٢٤)، وأفاده من ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٣٦-٣٨) .

(٤) المصدر السابق (ص ٤٦٩)، أفاده من قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٢١) .

المبحث الخامس أثره في العلوم الأخرى

نقلت مصادر متعددة في شتى الفنون عن الإمام ابن قتيبة ، وسأتناول أشهر هذه المصادر على سبيل الإيجاز ، وسأحيل في الحاشية إلى مواضع النقل عن ابن قتيبة :

أولاً : كتب العقيدة .

١ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور اللالكائي (ت ٤١٨هـ) ^(١).

٢ . المختار في أصول السنة ، لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالله بن البنا الحنبلي (ت ٤٧١هـ)، وهذا الكتاب لخص فيه ابن البنا ثلاثة كتب : كتاب التوحيد من صحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ)، وكتاب "تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة ، وكتاب "الشريعة" للآجري (ت ٣٦٠هـ) ^(٢).

٣ . التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة ، لأبي المظفر طاهر بن محمد الإسفرايني (ت ٤٧١هـ) ^(٣).

٤ . تلبيس إبليس ، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ^(٤).

٥ . درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ^(٥).

٦ . منهاج السنة النبوية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ^(٦).

٧ . الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ^(٧).

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/٥٩٢) .

(٢) المختار في أصول السنة (ص ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨) .

(٣) التبصير في الدين (ص ٨٠) .

(٤) تلبيس إبليس (ص ٦٠، ١٧٩، ٢٨٨) .

(٥) درء تعارض العقل والنقل (١/٢٦٣، ٢٦٨، ٣٨١/٥)، (٧/٣٢٥)، (٨/٣٦٠، ٤١٧) .

(٦) منهاج السنة النبوية (٤/٣٠٢)، (٥/١٣٦، ١٣٩، ١٨٣، ١٩١، ٣٢٢، ٤٣٢) .

(٧) الجواب الصحيح (٤/٤١٨)، (٥/٢٠٩) .

- ٨ . بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)^(١) .
- ٩ . كتاب العرش، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٢) .
- ١٠ . العلو للعلي الغفار ، للذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٣) .
- ١١ . شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، لأبي عبدالله محمد ابن أبي بكر بن أيوب ، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)^(٤) .
- ١٢ . هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)^(٥) .
- ١٣ . الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة ، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)^(٦) .
- ١٤ . الاعتصام ، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)^(٧) .
- ١٥ . شرح العقيدة الطحاوية ، لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي (ت ٧٩٢هـ)^(٨) .
- ١٦ . إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، لأبي عبدالله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بـ"ابن الوزير" (ت ٨٤٠هـ)^(٩) .
- ١٧ . لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ، لأبي العون محمد بن أحمد السفاريني (ت ١١٨٩هـ)^(١٠) .
- ١٨ . كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، للشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي (ت ١٢٠٦هـ)^(١١) .

(١) بيان تلبيس الجهمية (١١/٣)، (١٦١/٦) .

(٢) كتاب العرش (٢/٢٦٩، ٢٧٠) .

(٣) العلو للعلي الغفار (ص١٩٦، ١٩٧) .

(٤) شفاء العليل (١/١٠٨، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٤٨، ٣٣٥)، (٢/٢٣، ٢٨، ٣١٩) .

(٥) هداية الحيارى (ص١٢٩، ١٥٥، ١٥٨، ١٦٠، ١٨٤، ٢١٠) .

(٦) الصواعق المرسله (٣/٨٧٣) .

(٧) الاعتصام (٢/٣٩)، (٣/٣١٧، ٣٩١، ٣٩٤) .

(٨) شرح العقيدة الطحاوية (ص٥٦٣) .

(٩) إيثار الحق (ص٣١١، ٣١٨) .

(١٠) لوامع الأنوار البهية (٢/٣٥، ٢٣٣، ٢٧٦، ٣١١، ٣١٢، ٣٣٨) .

ثانياً : كتب الحديث :

- ١ . معالم السنن "شرح سنن أبي داود" ، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ)^(٢).
- ٢ . شرح صحيح البخاري ، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك الشهير بـ"ابن بطلال" (ت ٤٤٩هـ)^(٣).
- ٣ . التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر النمري الأندلسي (ت ٤٦٣هـ)^(٤).
- ٤ . الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار ، لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)^(٥).
- ٥ . المنتقى شرح الموطأ ، لأبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي (ت ٤٩٤هـ)^(٦).
- ٦ . شرح السنة ، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦هـ)^(٧).
- ٧ . إكمال المعلم بفوائد مسلم "شرح صحيح مسلم" ، للقاضي أبي الفضل عياض ابن موسى بن عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)^(٨).

(١) كتاب التوحيد (ص ١٠٨) .

(٢) معالم السنن (١/٢٩٢، ٢٩٣)، (٤/١١٦، ٢٣٦، ٣٣٣) .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (١/٥٠، ٥٢، ٦٠، ٧٦، ١٠٠، ٣٠١)، (٢/٧٣، ١٨٠، ٢٢٤، ٤٢٦)، (٣/١٣٦، ٢٤٧، ٣٩٦، ٤٧٦، ٥٥٨)، (٤/١٢٩، ٢١١، ٣٦٧، ٤٩٥) .

(٤) التمهيد (٢/٣٢٠، ٣٢٤، ٣٢٥)، (٦/٢١٤)، (١٢/١٨٤)، (١٣/١٨٠)، (١٤/٣٥٢)، (١٥/٨٧)، (١٦/٢٩١)، (١٨/٤٣، ٤٥، ٣٠٨)، (٢٠/١٧٠)، (٢٤/١٩٩) .

(٥) الاستذكار (١/٥٢٩)، (٢/٤٩٦)، (٣/٩٦، ١٢٤، ٢٧٧)، (٤/٥١)، (٥/٢١٧، ٢١٨)، (٨/٥) .

(٦) المنتقى (١/٢٠٣)، (٢/٩٨، ٣٤٨)، (٣/١١٤، ٢٣٦)، (٤/٣٩٥)، (٩/٤٩٣) .

(٧) شرح السنة (١/٢٣، ١٣٢)، (٢/٢٠، ٤١)، (٣/١٨١، ٣٦٠)، (٤/٤٣٧)، (٥/١٨، ٣١٣، ٤١٦)، (٦/١٦١)، (٩/١٧٤، ٣٠٨)، (١٢/٣، ١٦)، (١٣/٢٥، ٢٨١) .

(٨) إكمال المعلم (١/٢٢١، ٢٣٠، ٢٦٠، ٣٩٨، ٥٠٨)، (٢/٣٠، ١٧٢، ٤١٣، ٤٥٢، ٤٨٩)، (٣/١٣٩، ٢٧٠)، (٥/٩١، ٣٩٠، ٥٦١)، (٦/١٥٢، ٤٣٨، ٥٢٤، ٥٧٨) .

- ٨ . المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦هـ) ^(١) .
- ٩ . المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، لأبي زكريا محي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ^(٢) .
- ١٠ . شرح سنن ابن ماجه ، لعلاء الدين مغلطاي بن قليج بن عبدالله الحنفي (ت ٧٦٢هـ) ^(٣) .
- ١١ . فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لأبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالرحمن الدمشقي الحنبلي ، الشهير بـ"ابن رجب" (ت ٧٩٥هـ) ^(٤) .
- ١٢ . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ^(٥) .
- ١٣ . عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، لأبي محمد محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥هـ) ^(٦) .
- ١٤ . شرح سنن أبي داود ، للعيني (ت ٨٥٥هـ) ^(٧) .
- ١٥ . زهر الربى على المجتبى "شرح السيوطي على سنن النسائي" ، للحافظ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ^(٨) .

(١) المفهم (١/٨٩، ٣٧٦، ٣٩٧، ٥٨٩)، (٢/٦٠٣)، (٤/٩٩، ١٣٦، ٢٦٠، ٢٨٧، ٤٠٤) .

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم (١/٩٣، ٦٣، ٩٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٤، ١٧٩، ١٨٨، ١٩٠)، (٢/١٩٧، ٢٢٦)، (٣/١٣، ٦٠، ٧٦، ٨٣، ١٠٥، ١٢٢، ١٣٠)، (٤/١٤، ٨٠، ١٧٩) .

(٣) شرح ابن ماجه لمغلطاي (١/٤٨، ٢٣٧، ٢٣٨، ٣٤٥)، (٢/٥٠٥، ٧٣٤)، (٣/٩٠٣، ٩٨٦، ١٠٠٣)، (٤/١٢٦٠، ١٤٣٧، ١٤٥٤) .

(٤) فتح الباري لابن رجب (١/١٣١، ١٥٢، ١٦٤، ٤٧٠)، (٢/١٩٦، ٢٠٢، ٤٢٢، ٦٢٥، ٦٦١)، (٣/٧٧، ٢٢٦)، (٥/١٧٤)، (٦/٥٣٤) .

(٥) فتح الباري لابن حجر (١/٧٤، ٨٧، ١٣٢، ٢٦٨، ٣٤٣، ٤١٥، ٤١٦، ٤٧٧، ٥٢١)، (٢/١٥٠، ٣١٢)، (٣/١٠٠، ١٠٩، ٢٣٩، ٢٤٧، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٩٨، ٣٢٣، ٣٦٧، ٤٦٣) .

(٦) عمدة القاري (١/٥٤، ٩٩، ١٩٦، ٢٣٧، ٢٦٢، ٢٨٢، ٢٩٧، ٤٠٣)، (٢/٣٩٩)، (٣/٨، ٣٤، ٤٢٣) .

(٧) شرح أبي داود ، للعيني (١/٢٨٤)، (٢/١١٣)، (٤/١٩٠)، (٥/٢١١)، (٦/٢٢٤، ٢٧٧) .

(٨) شرح السيوطي على النسائي (١/١٣١)، (٤/٥٨، ١١٩)، (٥/١٧، ١٨)، (٦/٢٥٠)، (٨/١٢١، ٢٠٨) .

١٦ . تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلي محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ) ^(١).

ثالثاً: كتب الغريب [غريب القرآن وغريب الحديث] .

١ . الدلائل في غريب الحديث ، لأبي محمد القاسم بن ثابت السرقسطي (ت ٣٠٢هـ) ^(٢).

٢ . غريب الحديث ، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي (ت ٣٨٨هـ) ^(٣).

٣ . مفردات ألفاظ القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد الشهير بـ"الراغب الأصفهاني" (ت بعد ٤٠٠هـ) ^(٤).

٤ . الغريبين في القرآن والحديث ، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١هـ) ^(٥).

٥ . تفسير المشكل من غريب القرآن ، لأبي محمد مكّي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) ^(٦).

٦ . تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ، لمحمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الحميدي (ت ٤٨٨هـ) ^(٧).

٧ . الفائق في غريب الحديث ، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ^(٨).

٨ . جمل الغرائب، لمحمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري (ت ٥٥٣هـ) ^(٩).

(١) تحفة الأحوزي (٢١/٣، ٦١٧)، (٤/٥٣٠)، (٥/٤٥٠)، (٦/٥٤، ٦٣، ١٠٤، ٢٠٥، ٣٤٥) .

(٢) الدلائل في غريب الحديث (١/١٨، ٩٨)، (٢/٦٦٣، ٦٧٠، ٧٦٥)، (٣/١١٩٧) .

(٣) غريب الحديث للخطابي (١/٢١٨، ٢٥٤، ٢٨٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٤، ٣١٥، ٣٦٠، ٤١٦)، (٢/٨١، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦٠، ٣٤٢، ٣٤٨، ٤١٥، ٤٧٢، ٤٨٤، ٤٩٠، ٤٩١، ٥٣٦) .

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (ص١٢٦، ١٨٤، ١٨٥، ٣٢٤، ٥٧٣، ٥٨٩) .

(٥) الغريبين (١/٦٢، ٧٨، ٨٩، ٩٢، ١١٣، ١٤١، ١٤٤، ١٩٨)، (٢/٣٩٨، ٤٣٠، ٤٤٧، ٥٥٤) .

(٦) تفسير المشكل (ص٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٤١، ٥٢، ٥٩، ٦٣) .

(٧) تفسير غريب ما في الصحيحين (ص٤٣، ٥٣، ٦٢) .

(٨) الفائق (١/٢٣٩)، (٢/١٥٧، ١٧٠، ٢٠٣)، (٣/٣٥٧، ٤١٩)، (٤/١٠٠، ١١١) .

(٩) جمل الغرائب (ص٣٢، ٥٢، ٥٤، ٥٧، ٧٨، ٧٩، ٩٣، ٩٤، ١٠١، ١٠٦، ١١٠، ١٢٦، ١٤٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥) .

- ٩ . المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث ، لأبي موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المدني الأصفهاني (ت ٥٨١هـ) ^(١).
- ١٠ . تذكرة الأريب في تفسير الغريب ، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ^(٢).
- ١١ . غريب الحديث ، لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ^(٣).
- ١٢ . النهاية في غريب الحديث والأثر ، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري الشهير بـ "ابن الأثير" (ت ٦٠٦هـ) ^(٤).
- ١٣ . التبيان في تفسير غريب القرآن ، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عماد الدين المعروف بـ "ابن الهائم" (ت ٨١٥هـ) ^(٥).
- رابعاً : كتب اللغة والأدب :
- ١ . الزاهر في معاني كلمات الناس ، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) ^(٦).
- ٢ . العقد الفريد ، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) ^(٧).
- ٣ . الأمالي في لغة العرب ، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ) ^(٨).
- ٤ . كتاب الأغاني ، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ^(١).

^(١) المجموع المغيث (١١٣/١)، (٦٥/٢) .

^(٢) تذكرة الأريب (١٧٦، ١٩٥، ٢٦٦، ٢٩٩)، (١٧/٢، ٢٣، ٥١، ٥٨، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٤١، ٣١٢، ٣٢١) .

^(٣) غريب الحديث لابن الجوزي (٧/١، ١٢، ١٣، ١٧، ٢١، ٢٩، ٣٣، ٢٦، ٤٣، ٥٠، ٥٧، ١٠٤، ١١٠، ١٢١، ١٣٥، ١٣٩)، (١٣٩، ٣٢/٢)، (١٥٩، ١٤٩، ١٤٧، ١٣٤، ١٢٥، ٨٤، ٥٨، ٥٥، ٣٢/٢) .

^(٤) النهاية (١٠١/١، ١٢٧، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٥، ١٦٦، ١٧٢، ١٨٧، ١٩٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٤٧)، (١١/٢، ١١٣، ١٧٦، ١٨٥، ٢٢٢، ٢٥١، ٢٥٧، ٢٨١، ٣١٨، ٣٤٦، ٣٦٤، ٣٩٦) .

^(٥) التبيان لابن الهائم (ص ٦١، ٨٠، ٩٥) .

^(٦) الزاهر (٥٤/٢، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٥، ٣٢٧) .

^(٧) العقد الفريد (٣٦١/١)، (٢٦١/٢)، (٢٠١/٣)، (٣٥٨، ٣٠١/٣)، (١٨٣/٦)، (٦٧/٨، ٦٩، ٧٤، ١٢٤) .

^(٨) الأمالي لأبي علي القالي (١١٨/١، ١٨٤، ٢٤٣)، (١٥٩/٢، ١٧٩، ٢١٨) .

- ٥ . تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ) ^(٢) .
- ٦ . الصحاح في اللغة، لأبي العباس إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ) ^(٣) .
- ٧ . مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) ^(٤) .
- ٨ . الصاحي في فقه اللغة ، لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ^(٥) .
- ٩ . الفروق اللغوية ، لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) ^(٦) .
- ١٠ . فقه اللغة ، لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ^(٧) .
- ١١ . زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ) ^(٨) .
- ١٢ . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) ^(٩) .
- ١٣ . المحكم والمحيط الأعظم ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ) ^(١٠) .

(١) الأغاني (١٢/٢)، (١٨٨)، (١٢٩/٤)، (١٢/٥)، (١١/٥)، (٢٤٦/٨)، (٩٥/٩)، (٩٨)، (١٠٨)، (٢١١)، (٢٣٢)، (٣/١٠)، (٢٥٨)، (٢٧٣)، (٥٦/١١)، (٢٠٥)، (٢٤١)، (٤٥/١٢)، (٢٨٣)، (٢٣٢) .

(٢) تهذيب اللغة (١٧٧/١)، (٢٢٠)، (٢٣٨)، (٢٤١)، (٢٥١)، (٢٧١)، (٢٧٨)، (٢٨٦)، (٣٠٣)، (١٦/٢)، (٣٧)، (١٠٧)، (١٥٧)، (٢٤٦)، (٢٥٠)، (٢٠٤/٣)، (٢٢٩)، (١٣٧/٤)، (١٨٠)، (٤٤/٥)، (٦٢)، (١٨٨) .

(٣) الصحاح (٢٢٣٠/٦) .

(٤) مقاييس اللغة (٤٧)، (٢١٩)، (٣٥٦)، (٤٨١)، (٦٣/٢)، (١١٩)، (٣١٧)، (٣٤٦)، (٣٧٧)، (٣٨١)، (٤٤٧)، (٣٣٩/٣)، (٩٥/٤)، (٤٩٥)، (٥٩/٥)، (٤٢٤) .

(٥) الصاحي (ص١٨، ٢٧، ١٠٨، ١٥١) .

(٦) الفروق اللغوية (ص١٢، ٢٢٨، ٢٨٣) .

(٧) فقه اللغة (ص٤٩، ١٠٤، ٣٠٤) .

(٨) زهر الآداب (١/١)، (١٨/٢)، (٣٤٤) .

(٩) العمدة في محاسن الشعر (٩١/١)، (١١٢)، (١٢٣)، (١٥٥)، (٢٠٨)، (٢٦٧)، (٢٨٥)، (٣١٢)، (١٩٤/٢)، (٢٠٠)، (٢١٨)، (٢٢٥)، (٢٣٤)، (٢٧٢) .

(١٠) المحكم والمحيط الأعظم (١٣٧/٣)، (٢٠٩)، (٢٣٠)، (٧/٦)، (٢٨٤)، (٢٤٧/٧)، (٣٢٨)، (٣٣١)، (٤٧٩)، (١٩٤/٨)، (٤٧٦)، (٥١٢)، (٥٣٥)، (١٠٥/١٠)، (١٤٣)، (٢١٧)، (٥٨٨) .

- ١٤ . المخصص ، لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)^(١) .
- ١٥ . فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، لأبي عبيد عبدالله بن أبي مصعب البكري (ت ٤٨٧ هـ)^(٢) .
- ١٦ . لسان العرب ، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١ هـ)^(٣) .
- ١٧ . نهاية الأرب في فنون الأدب ، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣ هـ)^(٤) .
- ١٨ . صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، لأحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)^(٥) .
- ١٩ . المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)^(٦) .
- ٢٠ . خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبدالقادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ)^(٧) .

(١) المخصص (١/٩٢، ١٢٥، ١٣٠، ٢٠٦، ٢٤٤، ٢٨٩، ٣٣٩، ٣٤٩، ٤١١)، (٢/٧٠، ٨٤، ٨٧، ٩٢، ٩٤، ٢٣١، ٢٨٠)، (٣/١٦، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤١٠، ٤٦٠، ٤٦٣، ٤٨٨، ٤٩٦، ٥٠٨) .

(٢) فصل المقال (ص ٣٨، ٩٥، ٢٨٩، ٣٤٤، ٤٠٤، ٤٨٢) .

(٣) لسان العرب (١/٤٦، ٢٤٣، ٥٨٨)، (٢/١١٨، ١٨٥، ٢٢٤، ٢٧٢، ٥٢٢)، (٣/١٢٤، ٤٣٥)، (٤/١٧٢، ٢٣٠/٦، ٢٤٣، ٣١١، ٣٥١)، (٧/٦٤، ١٢٢، ١٤٩، ١٦٥، ٢٣٨) .

(٤) نهاية الأرب (١/٣٠٢)، (٢/٣٤٨)، (٣/١١٤، ٣٢٠)، (٩/٢٣٢)، (١٠/١٠، ١١، ١٣، ٢٣، ٤٩)، (١٥/١٨٩، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٦٣)، (١٦/١٥، ٢٩، ٦٣) .

(٥) صبح الأعشى (١/١٧٦، ١٨٥، ١٨٦، ٢٤٤)، (٢/٢٢، ٢٣، ٣٢، ٨٠، ٩٠، ٩٤، ١٥٢)، (٣/١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٤) .

(٦) المزهر (٢/٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٩٣، ٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٩٧) .

(٧) خزانة الأدب (١/٩١، ٩٥، ٩٨، ١٠٤، ١١٦، ١٢١، ١٣٨، ١٤٦، ١٨٢، ٢١٩)، (٢/٣١، ١٠٤، ١١٩، ١٢٠، ١٤٤، ١٥٨، ١٦٠، ١٨٤، ١٨٩، ٢١٠)، (٣/١٠١، ١٤٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٧٢، ١٧٥، ١٨٢) .

الباب الثاني

منهج ابن قتيبة في التفسير

وفيه خمسة فصول:

- الفصل الأول: تفسير القرآن بالقرآن .
- الفصل الثاني: تفسير القرآن بالسنة .
- الفصل الثالث: تفسير القرآن بأقوال السلف .
- الفصل الرابع: تفسير القرآن باللغة .
- الفصل الخامس : الإسرائليات .

الفصل الأول

تفسير القرآن بالقرآن

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول: عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالقرآن .
- المبحث الثاني: أوجه تفسير القرآن بالقرآن عند ابن قتيبة ،
وفيه ثمانية مطالب :
- المطلب الأول : بيان المجمل .
- المطلب الثاني : تخصيص العام .
- المطلب الثالث : تقييد المطلق .
- المطلب الرابع : تفسير الألفاظ الغريبة .
- المطلب الخامس : تفسير معنى آية بآية أخرى .
- المطلب السادس : تفصيل القصص .
- المطلب السابع : الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف .
- المطلب الثامن : جمع الآيات في الموضوع الواحد .

المبحث الأول

عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالقرآن

إن أحسن طرق التفسير وأصحها أن يفسر القرآن بالقرآن ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل القرآن وهو أعلم بمراده فيه، فهو الذي بيّنه ويوضحه ، وقد تكفل سبحانه وتعالى ببيان القرآن وتفصيله وتوضيحه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَيَبِّئْ عَائِيَّتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣)، وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

وعليه أجمع المفسرون والمعتبرون والعلماء المحققون أن أعظم وأجل ما يفسر به القرآن إنما هو القرآن ذاته ؛ ومن ثم نصّوا على أن تفسير القرآن بالقرآن يعد المصدر الأول للتفسير . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر"^(٥).

ويقول السيوطي (ت ٩١١هـ) : "قال العلماء : من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن"^(٦).

ويقول الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) : "أجمع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلّها تفسير كتاب الله بكتاب الله ؛ إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله جلّ وعلا"^(١).

(١) سورة القيامة : ١٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٥ .

(٣) سورة البقرة : ٢٢١ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٧ .

(٥) مجموع الفتاوى (٣٦٣/١٣) .

(٦) الإيتقان (٢٢٧٤/٦) .

وقد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير بعض آيات القرآن الكريم بآيات أخرى، مما يدل على أهمية هذا النوع من التفسير ، ومنه :

١ . حديث عبدالله بن مسعود (ت ٣٢٢هـ) رضي الله عنه : لما نزلت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾^(١) ، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أين لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَبْنِي لَّا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) " .

حيث فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم في آية الأنعام بالشرك الوارد في سورة لقمان .

٢ . حديث أبي سعيد بن المعلى (ت ٧٣هـ) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " ^(٣) .

وفيه تفسير لآية الحجر ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾^(٤) ، بسورة الفاتحة .

وقد اتخذ سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من أئمة الدين هذه الأحاديث أصلاً في تفسير القرآن بالقرآن ، واتخذوه منهجاً لهم يسرون عليه في تفسير القرآن الكريم، لذا فإننا نجد في تفسير الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة التفسير الشيء الكثير من ذلك، ومنه :

(١) أضواء البيان (١/٦٧) .

(٢) سورة الأنعام : ٨٢ .

(٣) سورة لقمان : ١٣ .

(٤) أخرجه البخاري في التفسير [سورة لقمان] ، باب قوله تعالى : ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ح (٤٧٧٦) (ص ٤٠٥) ، ومسلم في الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه ح (٣٢٧) (ص ٦٩٩) .

(٥) أخرجه البخاري في التفسير ، باب ما جاء في فاتحة الكتاب ح (٤٤٧٤) (ص ٣٦٦) ، وفي فضائل القرآن ، باب فضل فاتحة الكتاب ح (٥٠٠٦) (ص ٤٣٤) .

(٦) سورة الحجر : ٨٧ .

- ١ . عن عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه ، قال : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾^(١) قال : هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة ، وقال : ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾^(٢) ، قال : ضرباءهم^(٣) .
- ٢ . عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما أنه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾^(٤) ، أما الأولى فحين قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾^(٥) ، وأما الآخرة فحين قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾^(٦)^(٧) .
- ٣ . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٨) ، "الرجل "الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ، حتى تغشى الذنوب عليه، مثل الآية التي في سورة البقرة ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٩)^(١٠) .

كما اعتمد المفسرون في مصنفاتهم هذا النوع من التفسير ، ومن أشهرهم ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، وخصه بعضهم بالتصنيف ، كالأمير

(١) سورة التكوير : ٧ .

(٢) سورة الصافات : ٢٢ .

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤٤/٢٤) ، والحاكم في مستدركه (٥٦٠/٢) ، وقال : "حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ، ووافقه الذهبي ، وقال ابن حجر في فتح الباري (٦٩٤/٨) : "إسناده متصل صحيح" .

(٤) سورة النازعات : ٢٥ .

(٥) سورة القصص : ٣٨ .

(٦) سورة النازعات : ٢٤ .

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٠٣/٢٤) .

(٨) سورة المطففين : ١٤ .

(٩) سورة البقرة : ٨١ .

(١٠) تفسير الطبري (٢٨٩/٢٤) .

الصنعاني (ت ١١٨٢هـ) في "فتح الرحمن في تفسير القرآن بالقرآن"، والشنقيطي (ت ١٩٩٣هـ) في "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"^(١).

ويعد الإمام ابن قتيبة من أوائل المصنفين الذين اعتنوا بتفسير القرآن بالقرآن ، فقد اعتد به اعتداداً واضحاً في "تفسير غريب القرآن" ، و"تأويل مشكل القرآن" ، والقارئ لهدين الكتابين يجد فيهما أوجهاً متعددة من تفسير القرآن بالقرآن - على ما سيأتي بيانه - تدل على عظيم اهتمامه بهذا المصدر التفسيري ، وكان ظاهراً من منهجه فيهما الحرص على هذا الجانب ، فتجده يجمع الآيات التي تدل على المعنى المراد من الآية المفسرة أو التي تؤيده وتقويه ، ويصدر بها تفسيره للآية ، وله تميز واضح من هذه الناحية ، وقد بلغ به الاهتمام أنه قد يورد في معنى الآية أكثر من قول ، ويستشهد لكل قول من القرآن الكريم، كما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ۝٥٤ ﴾^(٢) ، حيث يقول :

"كان الحسن (ت ١١٠هـ) يجعل الفرع يوم القيامة إذا بعثوا من القبور ، يقول : ولو ترى يا محمد فزعهم حين لا فَوْتَ ، أي لا مهرب ولا ملجأ يفوتون به ويلجأون إليه، وهذا نحو قوله : ﴿ فَنَادُوا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾^(٣) ؛ أي نادوا حين لا مهرب .

وكان غير الحسن يجعل الفرع عند نزول بأس الله من الموت أو غيره ؛ ويعتبره بقوله في موضع آخر : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ

﴿ ١٨٤ ﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ

هٰنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴿ (٤)﴾^(١).

(١) انظر : تفسير القرآن بالقرآن ، دراسة تأصيلية ، د.أحمد البريدي (ص ٣-٢٣) .

(٢) سورة سبأ ، الآيات : ٥١-٥٤ .

(٣) سورة ص : الآية ٣ .

(٤) سورة غافر ، الآيتان : ٨٤-٨٥ .

وفي تفسير قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(١)، قال: "فيه تأويلان :

أحدهما : أن تكون المخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره من
الشُّكَّاء ؛ لأنَّ القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم ، وهم قد يُخاطبون الرجل بالشيء
ويريدون غيره ، ولذلك يقول مُتَمَتِّلُهُمْ : "إِيَّاكَ أعني واسمعي يا جاره"^(٢).

ومثله قوله : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣).

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالوصية والعظة المؤمنون ، يدلك على
ذلك أنه قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٤)،
ولم يقل بما تعمل خبيراً .

ومثل هذه الآية قوله : ﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾^(٥)، أي سل من أرسلنا إليه من قبلك رسلاً من رسلنا، يعني
أهل الكتاب ، فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد المشركون .

والتأويل الآخر : أنَّ الناس كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم أصنافاً :
منهم "كافر به" مُكذِّب، لا يرى إلا أن ما جاء به الباطل .
وآخر : "مؤمن به" مُصدِّق يعلم أن ما جاء به الحق .

و"شاك في الأمر" لا يدري كيف هو ، فهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى .

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٣٠-٣٣١) .

(٢) سورة يونس : ٩٤ .

(٣) مثل يضرب لمن يتكلم بكلام ويقصد به شيئاً غيره ، وهو في مجمع الأمثال (١/٥٠-٥١)، وجمهرة الأمثال
(٢٩/١) .

(٤) سورة الأحزاب : الآية ١ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية ٢ .

(٦) سورة الزخرف : ٤٥ .

فخاطب الله سبحانه هذا الصنف من الناس ، فقال : فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فسل الأكابر من أهل الكتاب والعلماء الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، مثل : عبدالله بن سلام (ت ٤٣ هـ) ، وسلمان الفارسي (ت ٣٤ هـ) ، وتميم الداري (ت ٤٠ هـ) وأشباههم ، ولم يرد المعاندين فيشهدون على صدقه ، ويُخبرونك بنبوته ، وما قدمه الله في الكتاب من ذكره فقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ۙ ﴾^(١) ، وهو يريد غير النبي صلى الله عليه وسلم .

كما قال في موضع آخر : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۙ ﴾^(٢) .

وحد وهو يريد الجمع ، كما قال : ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ۙ ﴾^(٣) ، و﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۙ ﴾^(٤) ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ ۙ ﴾^(٥) ، ولم يُرد في جميع هذا إنساناً بعينه ، إنما هو لجماعة الناس^(٦) .

و كان الغالب من منهج ابن قتيبة في تفسير القرآن بالقرآن أن ينص على ذكر الآية المفسرة - كما سيأتي في أمثلة المبحث الثاني - ؛ إلا أنه يكتفي أحياناً بالإشارة إلى معنى الآية ، كما في قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ۙ ﴾^(٧) : "وذلك أنه قال : لأضلنهم ولأغوينهم ولأمنينهم ولأمرنهم بكذا ؛ فلما اتبعوه وأطاعوه ، صدق ما ظنه ، أي فيهم"^(٨) .

(١) سورة النساء : ١٠٥ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠ .

(٣) سورة الانفطار : ٦ .

(٤) سورة الانشقاق : ٦ .

(٥) سورة الزمر : ٨ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٦٩-٢٧٣) .

(٧) سورة سبأ : ٢٠ .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٣٥٦) .

يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا أُضِلُّهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ ءَاذَانَ

الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَمَّهُمْ فليُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾^(١).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾^(٢) : " من الشياطين بالنجوم"^(٣).

إشارةً إلى قوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ ﴾^(٥).

وقد أكد الإمام ابن قتيبة على هذا الجانب التطبيقي من تفسير القرآن بالقرآن في مصنفاته من الناحية النظرية ؛ فقال : " ونحن نقول إن كتاب الله تعالى يأتي بالإيجاز والاختصار ، وبالإشارة والإيماء ، ويأتي بالصفة في موضع ولا يأتي بها في موضع آخر ، فيستدل على حذفها من أحد المكانين بظهورها في المكان الآخر"^(٦).

(١) سورة النساء : ١١٩ .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٢ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٢٨٦) .

(٤) سورة الحجر : ١٧ .

(٥) سورة الملك : ٥ .

(٦) تأويل مختلف الحديث (ص١٦٦) .

المبحث الثاني

أوجه تفسير القرآن بالقرآن عند ابن قتيبة

المتبع لتفسير الإمام ابن قتيبة في مصنفاته المتعددة يجد فيه أوجهاً متعددة من تفسير القرآن بالقرآن استخدمها في تفسيره لآيات القرآن الكريم ، وقد جعلت هذه الأوجه في ثمانية مطالب :

المطلب الأول : بيان المجمع .

المجمع لغة : المجموع ، ومنه يقال : أجملت الشيء إجمالاً ، أي جمعته من غير تفصيل^(١).

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : "جمل : الجيم والميم واللام أصلان : أحدهما تجمّع وعظم الخلق، والآخر حُسن، فالأول قولك: أجملت الشيء، وهذه جملة الشيء، وأجملته: حصلته، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾^(٢)، والأصل الآخر الجمال ، وهو ضد القبح"^(٣).

والمجمع من الأصل الأول الذي يدل على التجمع ، وسمي بذلك لأن فيه جمعاً للمعاني.

وفي الاصطلاح عرّفه العلماء بتعريفات كثيرة^(٤)، من أحسنها وأجمعها ما ذكره فضيلة شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ) رحمه الله، حيث يقول في تعريفه:

(١) انظر : مادة (جمل) في : كتاب العين (ص١٥٥)، مختار الصحاح (٤٧/١)، لسان العرب (١١/١٢٣)، القاموس المحيط (ص١٢٦٥) .

(٢) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٣) معجم مقاييس اللغة (ص٢٠٨) .

(٤) انظر في تعريف المجمع : المعتمد في أصول الفقه (١/٢٩٣)، أصول السرخسي (١/١٦٨)، البرهان للجويني (١/٢٨١)، التمهيد للإسنوي (١/٩)، قواطع الأدلة للسمعاني (١/٢٩٠)، مختصر ابن الحاجب (٢/١٥٨)، جمع الجوامع (٢/٥٨)، الإحكام لابن حزم (٣/١١)، المستصفى (ص١٨٧)، روضة الناظر (٢/٥٧٠)، شرح الكوكب المنير (٣/٤١٤)، مذكرة الشنقيطي (ص٣١٥) .

"ما يتوقف فهم المراد منه على غيره ، إما في تعيينه ، أو بيان صفته ، أو مقداره" ، ثم
مثّل لذلك فقال : "مثال ما يحتاج إلى غيره في تعيينه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ
يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾^(١) ، فإن القرء لفظ مشترك بين الحيض والطمهر ، فيحتاج
في تعيين أحدهما إلى دليل .

ومثال ما يحتاج إلى غيره في بيان صفته ، قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾^(٢) ،
فإن كيفية إقامة الصلاة مجهولة تحتاج إلى بيان .

ومثال ما يحتاج إلى غيره في بيان مقداره قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾^(٣) ، فإن
مقدار الزكاة الواجبة مجهولة يحتاج إلى بيان"^(٤) .

والجمل واقع في القرآن الكريم ، قال أبو بكر الصيرفي (ت ٤٦٦ هـ) : "ولا أعلم أحداً
أبى هذا غير داود الظاهري (ت ٢٧٠ هـ)"^(٥) .

وقال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨ هـ) : "العلماء متفقون على أن الجمل في القرآن يفهم
معناه ويعرف ما فيه من الإجمال"^(٦) .

ومن أوجه تفسير القرآن بالقرآن : بيان الجمل بالمبيّن ، بأن تأتي بعض الآيات مجملة ،
ثم يأتي بيانها وتفصيلها بآيات أخرى .

يقول شيخ الإسلام : "أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في
مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر"^(٧) .

وقد استعمل الإمام ابن قتيبة هذا الوجه من تفسير القرآن بالقرآن كثيراً ، ومن ذلك :

(١) سورة البقرة : ٢٢٨ .

(٢) سورة البقرة : ٤٣ .

(٣) سورة البقرة : ٤٣ .

(٤) الأصول من علم الأصول (ص ٤٦) ، وهو قريب من التعريف الذي اختاره الشوكاني في "إرشاد الفحول" (٧٢٢/٢)

(٥) انظر : البحر المحيط للزركشي (٣/٤٥٥) ، إرشاد الفحول للشوكاني (٢/٧٢٥) .

(٦) مجموع الفتاوى (١٧/٤٠٩) .

(٧) المصدر السابق (١٣/٣٦٣) .

قوله في تفسير "الآخرة والأولى" في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾^(١): "إحداهما قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢)، والأخرى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٣)»^(٤).

وقوله: "﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾^(٥)"، يعني في سورة المائدة من الميتة والموقوذة والمتردية والنطيحة"^(٦).

يشير إلى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصْبِ وَأَنْ تَسْنَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾^(٧).

ومثله قوله في تفسير سورة المائدة: "﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾^(٨)"، مما حُرِّمَ، ثم تلا ما حُرِّمَ عليهم، وهو الذي استثناه فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾^(٩)»^(١٠).

وقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^(١١): "أي ثمانية أصناف، وهي التي ذكرها الله تعالى في سورة الأنعام"^(١٢).

(١) سورة النازعات : ٢٥ .

(٢) سورة النازعات : ٢٤ .

(٣) سورة القصص : ٣٨ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص٥١٣) .

(٥) سورة الحج : ٣٠ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص٢٩٢) .

(٧) سورة المائدة : ٣ .

(٨) سورة المائدة : ١ .

(٩) سورة المائدة : ٣ .

(١٠) تفسير غريب القرآن (ص١٣٨) .

(١١) سورة الزمر : ٦ .

(١٢) تفسير غريب القرآن (ص٣٨٢) .

فبين الجمل في قوله: "ثمانية أزواج" ، بما فُصِّل في قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ
الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ
الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴿١﴾ .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ اسْمًا لِّذِكْرِ ابْنٍ﴾ ^(٢) ، قال : "هو السور الذي
يسمى الأعراف" ^(٣) ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمًا
بِسْمِئِهِمْ﴾ ^(٤) ^(٥) .

المطلب الثاني : تخصيص العام .

العام لغة : الشامل ، يقال : "عمَّهم الأمر يعمهم عموماً ؛ أي شملهم ، و"عمهم
بالعطية" شملهم ، و"رجل معم" يعم القوم بخيره ويشملهم ^(٦) .
فهذه الإطلاقات فيها معنى الشمول ، وهذا المعنى متحقق في تعريف العام عند
الأصوليين .

وأما في الاصطلاح فقد عرّفه ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) بأنه : "اللفظ المستغرق لجميع
ما يصلح له" ^(٧) ، وقد اعترض عليه بأنه غير مانع من دخول غيره فيه ، ولذلك زاد الرازي

(١) سورة الأنعام ، الآيتين : ١٤٣-١٤٤ .

(٢) سورة الحديد : ١٣ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٤٥٣) .

(٤) سورة الأعراف : ٤٦ .

(٥) للاستزادة من الأمثلة ، انظر : تفسير غريب القرآن (ص ٤٠، ٤٩، ١٢٧، ١٤٦، ١٥٦، ٢٦٧، ٣٥٦، ٥٠٥،
٥٤٢) ، تأويل مشكل القرآن (ص ١٦٢، ٣١١، ٣٣٩، ٣٥١، ٤٦٧) ، المسائل والأجوبة (ص ٢٧٠) .

(٦) انظر : مادة (عمم) في : مختار الصحاح (ص ١٩١) ، لسان العرب (١٢/٤٢٦) ، القاموس المحيط (ص ١٤٧٣) .

(٧) روضة الناظر (٢/٦٦٢) ، وهو تعريف أبي الحسن البصري في المعتمد (١/١٨٩) ، واختاره أبو الخطاب في التمهيد
(٥/٢) .

(ت ٦٠٦هـ) قيماً فيه وهو : "بحسب وضع واحد"^(١)، ثم جاء الشوكاني (ت ١٣٩٣هـ) فزاد قيماً جديداً وهو "دفعاً"^(٢)، ثم أضاف الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) قيماً ثالثاً وهو "بلا حصر" فصار تعريف العام : "اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد دفعاً بلا حصر"^(٣).

وهذا التعريف هو أحسن التعاريف وأقربها^(٤)، فهو تعريف تام جامع مانع .

يقول الشنقيطي في شرح محترزات هذا التعريف :

"فخرج بقوله : "مستغرق لجميع ما يصلح له" ما لم يستغرق نحو : بعض الحيوان إنسان .

وخرج بقوله : "دفعاً" النكرة في سياق الإثبات ، كرجلٍ ، فإنها مستغرقة ، ولكن استغراقها بدليلاً لا دفعاً واحدة .

وخرج بقوله : "بلا حصر" لفظ "عشرة" - مثلاً - لأنه محصور باللفظ فلا يكون من صيغ العموم ، على رأي الأكثرين .

وخرج بقوله : "بحسب وضع واحد" المشترك "كالعين" فلا يُسمى عاماً بالنسبة إلى شموله الجارية والباصرة ، لأنه لم يوضع لهما وضعاً واحداً ، بل لكل منهما وضع مستقل"^(٥) .
وأما التخصيص فقد عرّفه الشنقيطي بقوله : "قصر العام على بعض أفراده بدليل يدل على ذلك"^(٦) .

وقد ورد العموم في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما بقي على عمومته ، وهو عزيز في الأحكام الفرعية ، كما ذكر السيوطي (ت ٩١١هـ)^(١) .

(١) المحصول (٥١٣/٢) .

(٢) إرشاد الفحول (٥١١/٢) .

(٣) مذكرة الشنقيطي (ص ٣٥٩) .

(٤) انظر - تعريفات الأصوليين للعام - : الإحكام لابن حزم (٤٢/١)، العدة (١٤٠/١)، مختصر ابن الحاجب (٩٩/٢)، نهاية الوصول (٤٣٧/١)، لباب المحصول (٥٥٢/٢)، شرح مختصر الروضة (٤٥٥/٢)، البحر المحيط للزرکشي (٥/٣)، الأصول للشيخ العثيمين (ص ٣٤) .

(٥) مذكرة الشنقيطي (ص ٣٥٩-٣٦٠) .

(٦) المصدر السابق (ص ٣٨٦) .

القسم الثاني : العام المراد به الخصوص .

وقد بينه ابن قتيبة ومثّل له في "تأويل مشكل القرآن" ، فقال : "ومنه عام يراد به خاص، كقوله سبحانه حكاية عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٢) ، وحكاية عن موسى : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) ، ولم يرد كل المسلمين والمؤمنين ؛ لأن الأنبياء قبلهما كانوا مؤمنين ومسلمين ، وإنما أراد مؤمني زمانه ومسلميه .

وكقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٤) ، ولم يصطفهم على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أمهم على أمته ، ألا تراه يقول: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾^(٥) ، وإنما أراد على أزمته .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾^(٦) ، وإنما قاله : "نعيم بن مسعود (ت نحو ٣٠ هـ)" لأصحاب محمد صلى الله عليه ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ ، يعني أبا سفيان (ت ٣١ هـ)، وعُيَيْنة بن حصن (ت في خلافة عثمان) ، ومالك بن عوف (ت ٢٠ هـ) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾^(٧) ، يريد النبي صلى الله عليه وسلم وحده^(٨) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾^(١) : "وكل هاهنا ليس على العموم ، ومثّل هذا قوله تعالى : ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾^(٢)"^(٣) .

(١) الإتيان (٤٩/٣) .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٣ .

(٣) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٤) سورة آل عمران : ٣٣ .

(٥) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٦) سورة آل عمران : ١٧٣ .

(٧) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨١-٢٨٢) .

ويقول أيضاً: "وكل" بمعنى "بعض" في قوله تعالى: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٤)،
وقوله: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾^(٥)، وقال: ﴿ تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾^(٦)^(٧).

القسم الثالث: العام المخصوص، وهو المراد في هذا المطلب.

ومن أمثلة هذا الوجه - تخصيص العام - من تفسير القرآن بالقرآن عند ابن قتيبة:

قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾^(٨): "هذا في يوم القيامة، يريد أنه إذا بُعث الناس
من قبورهم خرجوا مسرعين، يقول الله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى
نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴾^(٩)، أي يسرعون، إلا أكلة الربا فإنهم يقومون ويسقطون، كما يقوم الذي
يتخبطه الشيطان ويسقط؛ لأنهم أكلوا الربا في الدنيا، فأرياه الله في بطونهم يوم القيامة
حتى أثقلهم، فهم ينهضون ويسقطون، ويزيدون في الإسراع فلا يقدرون"^(١٠).

فهنا خصص ابن قتيبة عموم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾، بما
استثناه من أكلة الربا في سورة البقرة.

المطلب الثالث: تقييد المطلق.

(١) سورة النحل: ٦٩.

(٢) سورة الأحقاف: ٢٥.

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٢٦٤).

(٤) سورة النمل: ٢٣.

(٥) سورة النحل: ١١٢.

(٦) سورة الأحقاف: ٢٥.

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٠).

(٨) سورة البقرة: ٢٧٥.

(٩) سورة المعارج: ٤٣.

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٣٥).

المطلق لغة : اسم مفعول ، مأخوذ من مادة (طلق) ، والتي يدور معناها في وجوه تصاريفها المختلفة على معنى الانفكاك والتخلية^(١).

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : " (طلق) الطاء واللام والقاف أصل صحيح مطرد واحد، وهو يدل على التخلية والإرسال، يقال انطلق الرجل ينطلق انطلاقاً، ثم ترجع الفروع إليه، تقول أطلقته إطلاقاً، وأطلق الشيء الحلال، كأنه خلي عنه فلم يُخْظَر" ^(٢).

وهذا المعنى اللغوي متحقق في تسمية المطلق عند الأصوليين ؛ فإن اللفظ فيه قد أُرسِل من غير تقييد .

المطلق اصطلاحاً : عرّفه ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) بأنه : "المتناول لواحد لا بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه" ^(٣).

وهذا التعريف ارتضاه كثير من العلماء ^(٤).

فقوله: "اللفظ المتناول" يراد به تناول البدلي، وهو أن يكون اللفظ صالحاً للدلالة على أفراد كثيرة غير محصورة، وغير معينة من ذات اللفظ، ولكن مفهومه يتحقق بواحد منها، أيّ واحد كان، مثل قولنا: "أكرم طالباً"، المتناول لجميع الطلاب بدون تعيين، ولكن مفهومه يصدق بإكرامك واحداً منهم أيّ كان هو، وبهذا القيد يخرج عن حدّ المطلق "العام"، لأنه يتناول أفراداً كثيرة دفعة واحدة.

وقوله : "لواحد لا بعينه" : أخرج المعارف لما فيها من التعيين، وأسماء العدد لدلالاتها على أكثر من واحد، والمقيد لأن فيه بعض التعيين.

وقوله: "باعتبار حقيقة شاملة لجنسه" : أخرج المشترك؛ لأنه وإن تناول أكثر من واحد لا بحسب حقيقته، بل بحسب الوضع ^(٥).

(١) انظر مادة (طلق) في : كتاب العين (ص ٥٧٤)، لسان العرب (٢٢٥/١٠)، القاموس المحيط (ص ١١٦٧) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص ٥٩٩) مادة (طلق) .

(٣) روضة الناظر (٧٦٣/٣) .

(٤) انظر : المسودة (٣٣٧/١)، شرح مختصر ابن الحاجب (١٥٥/٢)، الإحكام للآمدي (٥/٣)، نهاية الوصول (٤٩٧/٢)، شرح مختصر الروضة (٦٣٠/٢)، التقرير والتحرير (٣٦١/١) ، الإيضاح (١٩٢/٢)، الإتقان (٧٣٦/٢)، شرح الكوكب المنير (٣٩٢/٣)، إرشاد الفحول (٧٠٩/٢) .

وأما المقيد فقد عرّفه بأنه : "المتناول لمعيّن ، أو لغير معيّن موصوف بأمر زائد على الحقيقة الشاملة لجنسه"^(٢).

ومن أوجه تفسير القرآن بالقرآن : تقييد المطلق ، بأن تأتي بعض الآيات مطلقة ، ثم يأتي تقييدها في آية أخرى ، وهو ما عناه ابن قتيبة بقوله :

"ونحن نقول : إن كتاب الله تعالى ... يأتي بالصفة في موضع ولا يأتي بها في موضع آخر ، فيستدل على حذفها من أحد المكانين بظهورها في المكان الآخر".

وقد مثل ابن قتيبة لهذا الوجه ؛ فقال :

"ومما أتت فيه الصفة ولم تأت في مثله فاستدل بأحدهما على الآخر قوله تعالى :

﴿ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾^(٣) ، وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَأَسْتَشْهَدُوا

شَهِيدِينَ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾^(٤) ، ولم يقل عدلين اقتصاراً على ما وصف في المكان الآخر ،

وقال في موضع : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾^(٥) ، وفي موضع آخر : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن

قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ﴾^(٦) ، ولم يقل مؤمنة"^(٧).

ففي المثال الأول جاءت الشهادة مطلقة في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدِينَ مِّن

رِّجَالِكُمْ ﴾ ، ومقيدة بالعدالة في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ ، فقيّد

المطلق بالعدالة واشترطه في كل شهادة .

(١) انظر شرح التعريف ومحتزاته : نزهة الخاطر العاطر (١٦٥/٢) ، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر (١٩٧٩/٣) ، المهذب في علم أصول الفقه المقارن للنملة (١٧٠٣/٤) ، المطلق والمقيد وأثرهما في اختلاف الفقهاء ، د. حمد الصاعدي (ص ١٢١) .

(٢) روضة الناظر (٧٦٣/٢) ، وانظر : تعريفات الأصوليين للمقيد في : الإحكام (٦/٣) ، شرح مختصر ابن الحاجب (١٥٥/٢) ، شرح مختصر الروضة (٦٣٠/٢) ، نهاية الوصول (٤٩٧/٢) ، الإيضاح (٢٠٠/٢) ، التقرير والتحبير (٣٦٣/١) ، مختصر ابن اللحام (ص ١٢٥) ، شرح الكوكب المنير (٣٩٢/٣) .

(٣) سورة الطلاق : ٢ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٥) سورة النساء : ٩٢ .

(٦) سورة المجادلة : ٣ .

(٧) تأويل مختلف الحديث (ص ١٦٦-١٦٧) .

وفي المثال الثاني ورد لفظ "الرقبة" مطلقاً في قوله : ﴿ فَتَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَا ﴾ ، وورد في الآية الأولى مقيداً بكونها مؤمنة ، فحَمَلَ المطلق على المقيد واشترط صفة الإيمان في كل رقبة محررة.

المطلب الرابع : تفسير الألفاظ الغريبة .

تفسير غريب القرآن بآيات القرآن الكريم من الأوجه التي أكثر الإمام ابن قتيبة من استعمالها في تفسيره ، وله في ذلك طريقتان :

الطريقة الأولى: تفسير لفظة آية بلفظة آية أخرى مع بيان المعنى فيهما، ومن أمثلته:

قوله : " ﴿ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ ﴾ ^(١) ، مثل قوله : ﴿ أَنْفٌ يُصْرَفُونَ ﴾ ^(٢) ، أي يصرفون عن الحق ويعدلون ، يقال : أفك الرجل عن كذا : إذا عدل عنه ، وأرض مأفوكه : أي محرومة المطر والنبات ، كأن ذلك عدل عنها وصُرف ^(٣) .

وقوله : " ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ^(٤) ، جمع أغلف ، أي كأنها في غلاف لا تفهم عنك ولا تعقل شيئاً مما تقول ، وهو مثل قوله : ﴿ قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ^(٥) ، يقال: غَلَفْتُ السيفَ : إذا جعلته في غلاف ، فهو سيف أغلف ^(٦) .

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ ^(٧) : "ومثل هذا قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِيْ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ^(٨) ، والأكنة : الأغطية ^(٩) .

(١) سورة التوبة : ٣٠ .

(٢) سورة غافر : ٦٩ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ١٤٥) .

(٤) سورة البقرة : ٨٨ .

(٥) سورة فصلت : ٥ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٥٧) .

(٧) سورة الكهف : ١٠١ .

(٨) سورة الأنعام : ٢٥ .

(٩) المسائل والأجوبة (ص ٢٥٢) .

وقوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴾^(١) ، أي الهالكون ، وقال : ﴿ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾^(٢) ، أي هلكة ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾^(٣) ، أي هلكة^(٤) .

الطريقة الثانية : تفسير اللفظة الغريبة ، وذكر الآيات المؤيدة لهذا التفسير .

من المعالم البارزة من منهج ابن قتيبة في التفسير أن يفسر اللفظ الغريب ، ثم يكثر ذكر الآيات التي ورد فيها ذلك اللفظ أو اشتقاقه تأييداً لما ذكره من تفسير ، ومن أمثلته :

قوله : ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾^(٥) : دعاؤه ، وكذلك قوله : ﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ ﴾^(٦) ، أي : ادع لهم ، ﴿ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾^(٧) ، أي دعاؤك تثبت لهم وطمأنينة^(٧) .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾^(٨) ، أي حتى تستأذنوا ﴿ وَتُسَلِّمُوا ﴾ ، الاستئناس : الاستئناس : أن يعلم من في الدار ، تقول : استأنست فما رأيت أحداً ، أي استعلمت وتعرفت ، ومنه : ﴿ فَإِنَّ أَسْمَ مِنْهُمْ رَشْدًا ﴾^(٩) ، أي علمتم^(١٠) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعُوهُمْ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(١١) : "ومتعة المطلقة هو نفعها شيئاً ، وكل من نفعته أو أرفقته فقد متَّعته ،

(١) سورة التوبة : ٦٩ .

(٢) سورة هود : ٦٣ .

(٣) سورة هود : ١٠١ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٣٠) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٤٠٧ ، ٣٢٤ ، ٤١٧ ، ٤٦١) ، تأويل مشكل

القرآن (ص ٤٦١) ، المسائل والأجوبة (ص ١٩٩) .

(٥) سورة التوبة : ٩٩ .

(٦) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ١٩١) .

(٨) سورة النور : ٢٧ .

(٩) سورة النساء : ٦ .

(١٠) تفسير غريب القرآن (ص ٣٠٣) .

(١١) سورة البقرة : ٢٣٦ .

ومنه قول الله جلّ وعزّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾^(١)، يعني بيوت الخانات، يقول: تنفعكم وتكتكم من الحر والبرد، وكذلك قوله جلّ وعزّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾^(٢)، يريد ابتغاء منفعة، وكذلك قوله في النار: ﴿جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتَعًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، أي تذكركم جهنم وتنفعكم إذا سافرتهم^(٤).

ويقول: "﴿أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(٥)، أي: تنسى إحداهما الشهادة، فتذكرها الأخرى، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(٦)، أي: من الناسين"^(٧).

وقوله: "﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾^(٨)، أي بطلان، وكذلك: الحسران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٩)، وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾^(١٠)»^(١١).

(١) سورة النور: ٢٩.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

(٣) سورة الواقعة: ٧٣.

(٤) غريب الحديث (٢١٣/١).

(٥) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٦) سورة الشعراء: ٢٠.

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٩٩).

(٨) سورة غافر: ٣٧.

(٩) سورة المسد: ١.

(١٠) سورة هود: ١٠١.

(١١) تفسير غريب القرآن (ص ٣٨٧)، وانظر - للاستزادة -: (ص ٧٩، ٨٣، ١٠١، ١١٦، ١٣٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٧٣، ١٨٨، ١٩٨، ٢٠٩، ٢٢٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٥٧، ٣٨٢، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٥٠، ٤٦٩، ٤٨٨، ٥٤٠)، تأويل مشكل القرآن (ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٣).

المطلب الخامس : تفسير معنى آية بآية أخرى .

وهذا الوجه من تفسير القرآن بالقرآن يجده القارئ بكثرة في مصنفات الإمام ابن قتيبة ، ومن أمثلته :

قوله في تفسير سورة التين : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ، والسافلون : هم الضعفاء والزمنى والأطفال ، ومن لا يستطيع حيلة ، ولا يجد سبيلا ، وتقول : سفل يسفل فهو سافل ، وهم سافلون ، كما تقول : علا يعلو فهو عالٍ وهم عالون ، وهو مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِدُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْعُمْرِ ﴾^(١) .

وأراد : أنّ الهرم يخرف ويهترئ وينقص خلقة ، ويضعف بصره وسمعه ، وتقل حيلته ، ويعجز عن عمل الصالحات ، فيكون أسفل من هؤلاء جميعاً .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، في وقت القوة والقدرة ، فإنهم في حال الكبر غير منقوصين ؛ لأننا نعلم أنا لو لم نسلبهم القدرة والقوة لم يكونوا ينقطعون عن عمل الصالحات ، فنحن بُحري لهم أجر ذلك ولا نمته ، أي لا نقطعه ولا ننقصه ، وهو معنى قول المفسرين ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، والخسر : النقصان ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾^(٢) ، فإنهم غير منقوصين^(٣) .

وقوله : ﴿ وَنَكَتِبُ مَا قَدَّمُوا ﴾^(٤) ، من أعمالهم ﴿ وَعَاثَرَهُمْ ﴾ : ما اسئس به بعدهم من سننهم ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ يُبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾^(٥) ، أي بما قدّم من عمله وأخّر من أثرٍ باقي بعده^(٦) .

(١) سورة النحل : ٧٠ .

(٢) سورة العصر : ٢-٣ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٤٢-٣٤٣) .

(٤) سورة يس : ١٢ .

(٥) سورة القيامة : ١٣ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٣٦٤) .

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾^(١):
يعني نطفاً في الأرحام ، ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ ، في الأرحام وفي الدنيا ، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ، في البعث ، ومثله قوله حكاية عنهم : ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ ﴾^(٢) ، فالميتة الأولى : إخراج النطفة وهي حية من الرجل ، فإذا صارت في الرحم فهي ميتة ، فتلك الإمامة الأولى ، ثم يحييها في الرحم وفي الدنيا ، ثم يميتها ثم يحييها يوم القيامة^(٣) .

وقوله : ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾^(٤) ، أي رملاً سائلاً ، ومثله : ﴿ وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾^(٥) .

وقد استعمل الإمام ابن قتيبة هذا الوجه من تفسير القرآن بالقرآن في تفسير بعض الأمثال القرآنية ، إذ فسّر بعض الأمثال ببعض ، كقوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾^(٦) :
﴿ فَاحْتَرَقَتْ ﴾^(٧) : " هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للمنافقين والمرائين بأعمالهم لا يريدونه بشيء منها .

يقول : يَرُدُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ قَدْ حَقَّقَهَا اللَّهُ وَأَبْطَلَهَا ، ووكلمهم في ثوابها إلى من عَمِلُوا لَهُ ، أحوج ما كانوا إلى أعمالهم ، فمثلهم كمثل رجل كانت له جنة فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكِبَرُ فضعف عن الكسب ، وله أطفال لا يُجِدُونَ عَلَيْهِ وَلَا يَنْفَعُونَهُ ،

(١) سورة البقرة : ٢٨ .

(٢) سورة غافر : ١١ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤) .

(٤) سورة المزمل : ١٤ .

(٥) سورة الواقعة : ٥-٦ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٤٩٤) .

(٧) سورة البقرة : ٢٦٦ .

فأصابها إعصارٌ فيه نار فاحترقت، ففقدتها أحوج ما كان إليها عند كبر السن، وضعف الحيلة ، وكثرة العيال وطفولة الولد.

وقد ضرب الله لهم قبل هذا مثلاً فيه هذا المعنى بعينه، فقال: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾^(١).

يريد الله سبحانه : أنه محق كسبهم ، فلم يقدروا عليه حين حاجتهم إليه ، كما أذهب المطر التراب عن الصفا ، ولم يوافق في الصفا منبتاً^(٢).

المطلب السادس : تفصيل القصص .

يتميز القصص القرآني عن سائر القصص بخصائص يعلو بها جلالة ، ويزداد بها بلاغة وإعجازاً ، ويعظم بها أهمية وتأثيراً ، وبهذه الخصائص وُسم بأحسن القصص، كما قال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(٣) ، ومن أهم خصائص القصص القرآني: التكرار الهادف المعجز ، إذ تتكرر القصة في القرآن ، فتأتي بالإيجاز تارة ، وبالتفصيل تارة أخرى ، كما تأتي بالإضافة في بعض المواضع ، وقد ذكر العلماء الأغراض والحكم من تكرار القصص القرآني ، ومنها :

١ . أن القصة إذا كُررت فإنها تشتمل على فائدة خلت عنها في الموضع السابق، ومن أمثلة ذلك : عصا موسى عليه السلام ، فقد وصفها الله عز وجل بأنها : ﴿حِيَّةٌ تَسَعَى﴾^(٤) ، وبأنها ﴿تُعْبَانُ مَبِينٌ﴾^(٥) ، وبأنها ﴿تَهْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾^(٦) ، فهي حية باعتبار

(١) سورة البقرة : ٢٦٤ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٢٤-٣٢٥) .

(٣) سورة يوسف : ٣ .

(٤) سورة طه : ٢٠ .

(٥) سورة الأعراف : ١٠٧ .

(٦) سورة النمل : ١٠ .

سعيها، وثعبان من حيث الضخامة والقوة ، وهي كالجان - وهو صغار الحيات - باعتبار الخفة وسرعة الحركة^(١).

٢. أن القصة المكررة تكون متجهة إلى هدف غير الهدف الذي تتجه إليه القصة في مواضع أخرى ، أو تتحدث من جهة غير الجهة التي تعرضت إليها في مواضع أخرى، وذلك لأن القرآن الكريم كتاب هداية وعبرة ، وليس كتاب سرد تاريخي ، فتكون القصة فيه وسيلة لتحقيق تلك الأهداف المتعددة ، متجهة نحو الغرض الذي سيقت من أجله.

"ومن ذلك قصة موسى عليه السلام ، وردت في سورة طه ، والشعراء ، والقصص وغيرها، ولكنها وردت في سورة طه ، وقد فصل موقف موسى مع السحرة قبل الإلقاء، أما ظفر موسى ونهاية فرعون التعيسة ، فنجد أنه قد أوجز إيجازاً واضحاً في هذه السورة، أما في سورة الشعراء ، فنجد العكس ، فموقف موسى مع السحرة قبل الإلقاء موجز جداً، أما ظفر موسى ونهاية فرعون فقد جاء بإطناب ، ولعل السر في ذلك الذي من أجله فصل موضوع السحرة قبل الإلقاء في سورة طه في حوارهم مع موسى، وأوجز في موضوع نهاية فرعون على النقيض منها في سورة الشعراء ، أن سورة طه سيقت أساساً لتسليية النبي -

صلى الله عليه وسلم - ولذا جاء في مطلعها: ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ ، وقال فيها: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٣﴾ 》.

من هنا كان في حكاية ما يتعلق بنبي الله موسى عليه السلام من ولادته ، ووضعه في التابوت ، وإلقائه في اليم ، ثم رجوعه إلى أمه ، ثم قتله للقبطي ، ثم هربه إلى مدين ، ثم بعثته بعد ذلك إلى فرعون الذي فرّ من تعسفه وجوره ، ما يُذهّب بعض الوجود من نفس النبي صلى الله عليه وسلم ويسليه .

ومن هنا كان شرح موقف موسى مع السحرة، وكيف ألقى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون يحتاج إلى إطناب.

^(١) انظر : أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل للرازي (ص٣٢٧) ، كشف المعاني في المتشابه من

المثاني (ص٢٨٢) .

^(٢) سورة طه : ١-٢ ، ٩ .

أما في موضوع نهاية فرعون فيكفي شرح حاله ، وأنه قد نزل به الهلاك ، وفي هذا كفاية .

أما في سورة الشعراء فإنها قد سيقت للتثبيت ، ولذا جاء في مطلعها ﴿ لَعَلَّكَ بَنِعْجٌ ﴾ (١).

وبما أن السورة قد سيقت أساساً لهذا المطلب ، لذا ساق المولى عز وجل فيها أخبار العديد من الأنبياء كقصة نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وكل ذلك ليأخذ النبي صلى الله عليه وسلم مشرباً من هؤلاء الرسل ، وكيف صبروا على أذى قومهم بالرغم من تعسفهم عليهم ...

من هنا كان الاسترسال في حكاية نهاية فرعون وقومه ، وما حلّ بهم أمر مطلوب ليتضح للنبي صلى الله عليه وسلم نهاية المكذبين ، وخاتمهم فيثبت ويصبر .
أما ما دار بين موسى والسحرة قبل أن تتم عملية السحر فلا حاجة للإطناب فيه" (٢).

٣ - إظهار الإعجاز القرآني ؛ إذ إن عرض القصة الواحدة في أساليب كثيرة متلونة وصور بيانية متنوعة دون أن يختل نظمه ، أو يضطرب معناه أو يضعف مستواه هو مما يعجز عنه أبلغ الفصحاء ، وفي هذا المعنى يقول الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) في "إعجاز القرآن": "إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين به البلاغة" (٣). (٤)

٤ - ومن الحكم ما ذكره ابن قتيبة بقوله : "وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ، صلى الله عليه للإسلام ، فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن، فيكون ذلك كافياً لهم.

(١) سورة الشعراء : ٣ .

(٢) الجانب الفني في قصص القرآن الكريم ، د. عمر باحاذق (ص ٦٣-٦٥) بتصرف يسير .

(٣) (ص ٦١) .

(٤) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٧/٣)، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، عبدالكريم الخطيب (ص ٢٣١)، بحوث في قصص القرآن، السيد عبدالحافظ عبد ربه (ص ١٨٠)، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم (ص ٦٣)، بدائع الإضمار في القصص القرآني الكريم ، كاظم الظواهري (ص ٥٣) .

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مُثَنَّة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم .

فأراد الله ، بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير^(١).

ولتكرر القصص القرآني فإن المفسر بحاجة إلى جمع تفاصيل القصة الواحدة ، ويعد هذا وجهاً من أوجه تفسير القرآن بالقرآن ، وقد استعمله الإمام ابن قتيبة في بعض المواضع منها :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾^(٢) : "فالوحي ما أراه الله الأنبياء في منامهم ، والكلام من وراء الحجاب كلمه موسى عليه السلام ، وإرساله بالوحي ، إرساله جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأمثاله من الرسل ، فأعلمنا أنه كلم موسى من وراء حجاب، وأعلمنا في سورة أخرى أن موسى لقيه حين كلمه إذ قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾^(٣) ، أي لا تكن في شك من لقاء موسى صلى الله عليه ربه حين كلمه من الشجر وكتب له في الألواح، قال الله جلّ وعزّ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٤)^(٥).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٤) .

(٢) سورة الشورى : ٥١ .

(٣) سورة السجدة : ٢٣ .

(٤) سورة الأعراف : ١٤٥ .

(٥) المسائل والأجوبة (ص ١٤٠) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) : "والطور : الجبل ، ورفع فوقهم مبيّن في سورة الأعراف" ^(٢) .

يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(٣) .

المطلب السابع : الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف .

للإمام ابن قتيبة تميز ظاهر في هذا الوجه من تفسير القرآن بالقرآن ، فقد قصد في كتابه "تأويل مشكل القرآن" جمع الآيات المشكلة التي توهم اختلافها ، وضمن كتابه "المسائل والأجوبة" بعضاً منها ، وأجاب فيهما عن الآيات المشكلة بأجوبة كافية شافية ، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله : "فأما ما تحلوه من التناقض في مثل قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ ^(٤) ، وهو يقول في موضع آخر : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥) .

فالجواب في ذلك : أن يوم القيامة كما قال الله تعالى : ﴿ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ^(٦) ، ففي مثل هذا اليوم يُسألون وفيه لا يسألون ؛ لأنهم حين يُعرضون يوقفون على الذنوب ويُحاسبون ، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة : ﴿ أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً

(١) سورة البقرة : ٦٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٥٢) .

(٣) سورة الأعراف : ١٧١ .

(٤) سورة الرحمن : ٣٩ .

(٥) سورة الحجر : ٩٢-٩٣ .

(٦) سورة المعارج : ٤ .

كَالِدِهَانٍ ﴿١﴾ ، وانقطع الكلام ، وذهب الخصام ، واسودَّت وجوه قوم، وبيضت وجوه آخرين، وعُرف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت الصحف من الأيدي: فأخذ ذات اليمين إلى الجنة ، وأخذ ذات الشمال إلى النار.

وقوله : ﴿ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣﴾ ، وهو يقول في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ ﴾ (٤) ، ويقول: ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥).

والجواب عن هذا كله نحو جوابنا الأول ؛ لأنهم يختصمون ويدعي المظلومون على الظالمين ، ففي تلك الحال يختصمون ، فإذا وقع القصاص وثبت الحكم قيل لهم: لا تختصموا ولا تنطقوا، ولا تعتذروا، فليس ذلك بمغني عنكم ولا نافع لكم، فَيُخْسِئُونَ" (٦).

ويقول : "وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴿٧﴾ ، فدلت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السماء السماء .

(١) سورة الرحمن : ٣٧ .

(٢) سورة ق : ٢٨ .

(٣) سورة المرسلات : ٣٥-٣٦ .

(٤) سورة الزمر : ٣١ .

(٥) سورة البقرة : ١١١ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٥-٦٦) .

(٧) سورة فصلت : ٩-١١ .

وقال في موضع آخر : ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۚ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا (٢٨) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) ﴾^(١) ، فدلّت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض .

وليس على كتاب الله تحريف الجاهلين ، وغلط المتأولين ، وإنما كان يجد الطاعن متعلّقاً ومقالاتاً لو قال : والأرض بعد ذلك خلقها أو ابتدأها أو أنشأها ، وإنما قال : ﴿ دَحَاهَا ﴾ ، فابتدأ الخلق للأرض على ما في الآي الأولى في يومين ، ثم خلق السموات وكانت دُحاناً في يومين ، ثم دحا بعد ذلك الأرض ، أي بسطها ، ومدّها ، وكانت ربوةً مجتمعة ، وأرساها بالجبال ، وأنبت فيها النبات في يومين ، فتلك ستة أيام سواء للسائلين ، وهو معنى قول ابن عباس (ت ٦٨ هـ) " (٢) .

المطلب الثامن : جمع الآيات في الموضوع الواحد .

يجد القارئ لتفسير ابن قتيبة أنه يعتمد في بعض المواضع إلى جمع الآيات في الموضوع الواحد ، إلا أنه لم يتقصّد الحصر والإحاطة في تلك المواضع ، نظراً لكونه يميل إلى الاختصار وعدم الإطالة - كما سبق في خصائص التصنيف - ، ومن الأمثلة على هذا الوجه :

قوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَنْظِلُّوا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ (٢٩) أَنْظِلُّوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شَعْبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جَمَلٌ صَفْرٌ (٣٣) ﴾^(٣) :

(١) سورة النازعات : ٢٧-٣٠ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٧-٦٨) ، وانظر للاستزادة من الأمثلة : (ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥) ، المسائل والأجوبة (ص ١١٠ ، ١٤٤ ، ٢٣٣ ، ٢٥٨) ، الاختلاف في اللفظ (ص ١١٦) .

(٣) سورة المرسلات : ٢٩-٣٣ .

"هذا يقال في يوم القيامة للمكذبين ، وذلك أن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق ، وليس عليهم يومئذ لباس ، ولا لهم كِتَانٌ ، فَتَلْفَحُهُمُ الشَّمْسُ وَتَسْفَعُهُمْ وَتَأْخُذُ بِأَنْفُسِهِمْ ، ومَدَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَلَيْهِمْ وَكَرَبَهُ ، ثم يَنْجِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ إِلَى ظِلٍّ مِنْ ظِلِّهِ ، فهناك يقولون: ﴿ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾^(١) ، ويقال للمكذبين: ﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾^(٢) ، من عذاب الله سبحانه وعقابه، انطلقوا من ذلك إلى ظل من دخان نار جهنم قد سطع ثم افترق ثلاث فرق ، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب ، فيكونون فيه إلى أن يفرغ من الحساب ، كما يكون أولياء الله في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل إلى أن يفرغ من الحساب ، ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقره من الجنة أو النار .

ثم وصف الظل فقال : ﴿ لَا ظِلِيلٍ ﴾ ، أي : لا يظلكم من حرِّ هذا اليوم ، بل يدينكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس ، ولا يغني عنكم من اللهب . وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴾^(٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ^(٤) ، واليحموم: الدخان ، وهو سُرادقُ أهل النار فيما ذكر المفسرون^(٥) .

ويقول في وصف الجنة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٦) : "ويقول تعالى حين شوقنا إليها : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾^(٧) ، وقال حين ذكر المقربين : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾^(٨) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ^(٩) لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ^(١٠) وَفِيكِهِمْ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ^(١١) وَلِحَرِّ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ^(١٢) وَحُورٌ عِينٌ^(١٣)

(١) سورة الطور : ٢٧ .

(٢) سورة المرسلات : ٢٩ .

(٣) سورة الواقعة : ٤٣-٤٤ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٣١٩-٣٢٠) .

(٥) سورة آل عمران : ١٣٣ .

(٦) سورة الزخرف : ٧١ .

كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيْلًا سَلْمًا سَلْمًا ﴿٢٦﴾ ﴿^(١)﴾ .

وقال تعالى في أصحاب اليمين : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ^(٢) ،
وقال تعالى : ﴿ يَحْلَتُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْ لُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ^(٣) ^(٤) .

وقوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ^(٥) : "ولا تنفعها شفاعة " هذا للكافر، فليس له له شافع فينفعه ، ولذلك قال الكافرون : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ ^(٦) ، حين رأوا تشفيع الله في المسلمين " ^(٧) .

(١) سورة الواقعة : ١٨-٢٦ .

(٢) سورة الواقعة : ٢٨-٣٣ .

(٣) سورة فاطر : ٣٣ .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٠٥-٤٠٦) .

(٥) سورة البقرة : ١٢٣ .

(٦) سورة الشعراء : ١٠٠-١٠١ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٦٢) ، وانظر للاستزادة من الأمثلة : (ص ٧، ٢٠، ٣٨، ٤١، ٢٤٦، ٢٨٧، ٣٩٢، ٤٥٤، ٥١١) ، تأويل مشكل القرآن (ص ٨٣، ١٠٥، ١١٣، ١٢١، ١٤٧، ١٧١، ١٨٧، ٢٠٥، ٣١٤، ٣٢٢، ٣٥٩، ٣٧٣، ٣٧٩، ٤٩٨) ، تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) ، غريب الحديث (١/٣٨، ٢٣٤) ، المسائل والأجوبة (ص ١٨٦، ٢٠٥، ٢٥٩، ٢٦٩) .

الفصل الثاني

تفسير القرآن بالسنة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالسنة .
المبحث الثاني : أوجه تفسير القرآن بالسنة عند ابن قتيبة ،

وفيه ستة مطالب :

- المطلب الأول : بيان المجمع .
- المطلب الثاني : بيان المبهم .
- المطلب الثالث : تفسير الألفاظ .
- المبحث الرابع : تأكيد المعنى .
- المبحث الخامس : بيان المشكل وإزالة اللبس .
- المبحث السادس : بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم.

المبحث الأول

عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالسنة

أصح طرق التفسير وأحسنها بعد القرآن تفسيره بالسنة النبوية ، إذ هي شارحة للقرآن وموضحة له ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) .

ثم إن السنة وحي من الله تعالى ، فهي بمنزلة القرآن في الاستدلال ، وأصل في فهم القرآن ، وما يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم من التفسير فهو وحي ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه ، ألا لا يجل الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السباع ، ولا لقطعة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها"^(٤) .
ويقول الشافعي (ت ٢٠٤هـ) : "كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن"^(٥) .

كما أن من تفسير القرآن ما لا يتوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال ابن جرير (ت ٣١٠هـ) : "فقد تبين بيان الله جلّ ذكره أن مما أنزل الله من

(١) سورة النحل : ٤٤ .

(٢) سورة النحل : ٦٤ .

(٣) سورة النجم : ٤ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنة ، باب لزوم السنة ح (٤٦٠٤) (ص ١٥٦١) ، وابن ماجه في السنة ، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتغليظ على من عارضه ح (١٢) (ص ٢٤٧٧) ، والإمام أحمد في المسند (٤١٠/٢٨) من حديث المقدم بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه ، وقد صححه الألباني في [السلسلة الصحيحة (٨٧١/٦) ، صحيح ابن ماجه (٢١/١)] .

(٥) نقلاً عن شيخ الإسلام في الفتاوى (٣٦٣/١٣) .

القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره : واجبه وندبه وإرشاده ، وصنوف نهيته ، وما أشبه ذلك من أحكام آيه التي لم يُدرك علمها إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأئمة" (١).

ولهذا فقد اتفق الصحابة والتابعون على أن السنة تفسر القرآن وتبينه ، وتدل عليه ، قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨) : "وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عن مجمله ، وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والنهي" (٢).

وعلى طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من مفسري السلف سار الإمام ابن قتيبة على اعتبارها المصدر الثاني للتفسير بعد تفسير القرآن بالقرآن ، وذلك لما يراه من منزلة السنة ، وأهمية موقعها من القرآن ؛ من حيث كونها شارحة لما خفي من معناه ، وموضحة لما أشكل من فهمه ، وقد قرر ابن قتيبة ذلك في غير موضع من مصنفاته ؛ فقال : "وحدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُبَيَّنَّ للكتاب ودالَّ على ما أُريد فيه ... ، ومما استُدل عليه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صفات الصلوات وكيف الركوع والسجود والتشهد وكم العدد ، وما في المال من الصدقات والزكوات ، ومقدار ما يُقطع فيه السارق ، وما يجرم من الرضاع ، وأشباه هذا كثير" (٣).

وقال أيضاً : "ولولا هذه الأحاديث المنقولة إلينا لم نعرف بالكتاب أكثر ديننا ، لأنه يأتي فيه مُجْمَلٌ يُفصِّلُه الحديث ، ومُشْكَلٌ يُبيِّنُ مراد الله فيه الرسول ، وهذا بيِّن كثير لا يحتاج إلى الإطالة" (٤).

وقال أيضاً : "إن الكتاب يأتي بجمل يكشفها الحديث ، واختصارٍ تدل عليه السنة" (٥).

(١) تفسير الطبري (١/٧٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٤٣٢) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٦٧) .

(٤) المسائل والأجوبة (ص ٣٣٥) .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٥) .

وهذه الأقوال من ابن قتيبة تبين أهمية هذا الطريق من التفسير ، لذا فقد استعمله في تفسير الآيات ، وأكثر منه ، إما بالنص على الحديث المفسّر وهو الغالب ، وإما بالإشارة إلى معناه - على ما سيأتي في الأمثلة - مما يظهر عظيم عنايته بتفسير القرآن بالسنة.

المبحث الثاني

أوجه تفسير القرآن بالسنة عند ابن قتيبة

كما تعددت أوجه تفسير القرآن بالقرآن عند ابن قتيبة ، فكذلك أوجه تفسير القرآن بالسنة عنده كثيرة متنوعة ، وقد جعلتها في ستة مطالب :

المطلب الأول : بيان المجمع .

من السنة ما جاء بياناً لمحمل القرآن ، وذلك بأن ترد بعض الآيات مجملة ويأتي بيانها وتفصيلها في السنة ، وهذا كثير جداً ، لا سيما في الأحكام الشرعية ، إذ جاء غالب تفاصيلها مُبَيَّنًا في السنة النبوية ، ولهذا قال ابن قتيبة :

"ولولا هذه الأحاديث المنقولة إلينا لم نعرف بالكتاب أكثر ديننا ، لأنه يأتي مجمل يُفصِّله الحديث"^(١).

وقد مثَّل له ابن قتيبة بقوله : "وحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبين للكتاب ، ودال على ما أريد فيه ، ومما استُبدِل عليه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صفات الصلوات وكيف الركوع والسجود والتشهد وكم العدد ، وما في المال من الصدقات والزكوات ، ومقدار ما يقطع فيه السارق ، وما يحرم من الرضاع ، وأشبه هذا كثير"^(٢).

يشير إلى بيان النبي صلى الله عليه وسلم ما أجمل في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾^(٣) ، بتفصيل شروطها وأركانها وواجباتها ومواقيتها ، كقوله صلى الله عليه وسلم في حديث المسيء صلاته : "إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن ركعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم

(١) المسائل والأجوبة (ص ٣٣٥) .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٦٧) .

(٣) سورة البقرة : ٤٣ .

ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها" (١).

كما بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أجمل في قوله : ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (٢) ، بيان أنصبة ومقادير الزكاة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : "ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الإبل ، وليس فيما دون خمس أواق صدقة ، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة" (٣).

وما أجمل في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٤) ، جاء بيانه في السنة بتحديد قدر النصاب الذي تقطع به يد السارق ، بقوله صلى الله عليه وسلم : "تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً" (٥).

والإجمال في التحريم في قوله : ﴿ وَأَمْهَتِكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ ﴾ (٦) ، بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحديد ما يحرم من الرضاع ، كقوله صلى الله عليه وسلم : "لا تُحْرَمُ الرضعة أو الرضعتان ، أو المصاة أو المصتان" (٧).

(١) أخرجه البخاري في الأذان ، باب أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يتم ركوعه بالإعادة ح (٧٩٣) (ص ٦٣) ، ومسلم في الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ح (٨٨٥) (ص ٧٤١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سورة البقرة : ٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ، باب زكاة الورق ح (١٤٤٧) (ص ١١٤) ، ومسلم في الزكاة ، باب ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة ح (٢٢٦٣) (ص ٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) سورة المائدة : ٣٨ .

(٥) أخرجه البخاري في الحدود ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، وفي كم يقطع ح (٦٧٨٩) (ص ٥٦٦) ، ومسلم في الحدود ، باب حد السرقة ونصابها ح (٤٤٠٠) (ص ٩٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٦) سورة النساء : ٢٣ .

(٧) أخرجه مسلم في الرضاع ، باب في المصاة والمصتان ح (٣٥٩٣) (ص ٩٢٢) ، من حديث أم الفضل رضي الله عنها .

المطلب الثاني : بيان المبهم .

المبهم لغة : اسم مفعول من الإبهام ، وهو الخفاء ، يقال : ليل بهيم ، لخفاء ما فيه من الرؤية ، وأبهم الكلام إبهاماً أي لم يُبيِّنْه ، واستبهم عليه الكلام إذا استغلق ، وأمر مبهم : إذا كان ملتبساً لا يُعرف معناه"^(١) .

وفي الاصطلاح : عرّفه السهيلي (ت ٥١٨هـ)^(٢) بقوله : "ما تضمنه كتاب الله العزيز من ذكر من لم يُسمَّه الله فيه باسمه العلم ، أو بلد أو كوكب أو شجر أو حيوان له اسم علم ، قد عُرف عند نَقْلَةِ الأخبار ، والعلماء الأخيار"^(٣) .

وزاد ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ)^(٤) : أو عدد لم يُحدد ، أو زمن لم يُبين ، أو مكان لم يُعرف"^(٥) .

والإبهام واقع في القرآن الكريم ، وقد حصر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) أسبابه فأوصلها إلى سبعة^(٦) ، وتابعه عليها السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٧) ، وهي :

(١) انظر مادة (بهم) في : معجم مقاييس اللغة (٣١١/١) ، تهذيب اللغة (٣٣٥/٦) ، لسان العرب (٥٦/١٢) .
(٢) أبو القاسم وأبو زيد عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي السهيلي ، الحافظ ، النحوي ، العالم باللغة والسير ، صاحب التصانيف ، ولد في مالقه ، وعمي وعمره ١٧ سنة ، ونبغ ، فاتصل بخبره بصاحب مراكش ، فطلبه إليها وأكرمه ، فأقام يصنف كتبه إلى أن توفي بها سنة ٥٨١هـ ، له من المصنفات : "الروض الأنف" في شرح سيرة ابن هشام ، و"التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام" ، و"نتائج الفكر" . [إنباه الرواة (١٦٢/٢) ، وفيات الأعيان (١٤٣/٣) ، العبر للذهبي (٨٢/٣)] .

(٣) التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام (ص ٥٠) .

(٤) أبو عبدالله محمد بن الشيخ الإمام الزاهد أبي إسحاق إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكنايني الحموي الأصل ، قاضي القضاة ، العالم ، صاحب التصانيف ، سمع الحديث ، واشتغل بالعلم فحصل فنوناً متعددة ، وتقدم وساد أقرانه ، ولي الحكم والخطابة بالقدس الشريف ، ثم نُقل منه إلى قضاء مصر بعد الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ، توفي بمصر سنة ٧٣٣هـ ، له من المصنفات : "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم" ، و"المنهل الروي في علوم الحديث النبوي" ، و"مناسبات تراجم البخاري" وغيرها . [الوافي بالوفيات (١٦/٢) ، البداية والنهاية (٣٥٧/١٨) ، الدرر الكامنة (٢٨٢/٣)] .

(٥) غرر البيان فيمن لم يسم في القرآن (ص ١٩١) .

(٦) البرهان في علوم القرآن (١٥٥/١) .

(٧) الإبتقان (٢٠١٨/٦) ، مفحمت الأقران (ص ٩) .

١ . الاستغناء ببيانه في موضع آخر ، كقوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾^(١) ، فإنه مبين في قوله تعالى : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾^(٢) .

٢ . أن ييهم الأمر لاشتهاره وعدم الحاجة إلى توضيحه ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾^(٣) ، ولم يقل : حواء ؛ لأنه ليس له غيرها .

٣ . أن ييهم لقصد الستر عليه ، ليكون أبلغ في استعطافه ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٤) ، قال المفسرون : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي (ت قريباً من ١٤ هـ) ، وكان قد أظهر الإسلام عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ومتر بزرع لقوم مسلمين وبخمر ، فأحرق الزرع ، وعقر الحمر ، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه^(٥) .

٤ . ألا يكون في تعيينه كبير فائدة ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾^(٦) ، وقوله : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾^(٧) .

٥ . أن ييهم الأمر للتنبية على عمومته ، وأنه غير خاص بمن ورد فيه الإبهام ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾^(٨) ، قيل : إنها نزلت في ضمرة بن العيص ، كان من المستضعفين بمكة ، وكان شيخاً

(١) سورة الفاتحة : ٧ .

(٢) سورة النساء : ٦٩ .

(٣) سورة البقرة : ٣٥ .

(٤) سورة البقرة : ٢٠٤ .

(٥) تفسير الطبري (٤/٢٢٩) ، تفسير البغوي (١/٢٣٥) .

(٦) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(٧) سورة الأعراف : ١٦٣ .

(٨) سورة النساء : ١٠٠ .

كبيراً ، فلما نزلت آية الهجرة خرج من مكة فمات بالتنعيم^(١).^(٢)
فإن إبهام الاسم في هذا الموضع لإفادة عموم الأجر لكل من نوى الهجرة فمات دون
أن يبلغ ما هاجر إليه.

٦ . أن ييهم الأمر لقصد تعظيمه بذكر الوصف الكامل له دون اسمه، كقوله تعالى:
﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولَ الْأَفْضَلِ مِنْكُمْ ﴾^(٣)، وقوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾^(٤)، والمراد به
به أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ) رضي الله عنه^(٥)، وإنما أجهم اسمه تعظيماً له.

٧ . أن ييهم الأمر لقصد تحقيره ، بذكر الوصف الناقص دون اسمه، كقوله تعالى: ﴿
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾^(٦)، والمراد به العاص بن وائل السهمي ، كما ذكر
المفسرون^(٧).

أما طريق معرفة المبهمات فهو النقل المحض ، إذ لا مجال للرأي فيه ، فلا سبيل إلى
معرفته إلا بالرجوع إلى القرآن نفسه ، أو بالرجوع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم، أو بما
أثر عن الصحابة والتابعين^(٨).

ولهذا فإن من أوجه تفسير القرآن بالسنة : بيان المبهم ، وقد استعمل الإمام ابن قتيبة
هذا الوجه ، ولكن على قلة ، وقد اكتفى في هذه المواضع بالإشارة إلى مضمون الحديث
دون أن ينص عليه ، ومن ذلك :

(١) التنعيم : موضع بمكة في الحل ، سمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم، وآخر عن شماله يقال له ناعم ،
والوادي نعمان ، وفيه مسجد عائشة رضي الله عنها، ومنه يحرم المكيون بالعمرة . [معجم البلدان (٤٩/٢)،
أطلس الحديث النبوي ، د. شوقي أبو خليل (ص ٩٤)].

(٢) تفسير الطبري (١١٤/٩) .

(٣) سورة النور : ٢٢ .

(٤) سورة التوبة : ٤٠ .

(٥) تفسير ابن كثير (١٥٤/٤)، (٢٠/٦) .

(٦) سورة الكوثر : ٣ .

(٧) تفسير الطبري (٦٥٦/٢٤)، تفسير البغوي (٥٦٠/٨) .

(٨) انظر : مفحمت الأقران للسيوطي (ص ٨) .

قوله في تفسير سورة الفاتحة: ﴿الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، اليهود، و﴿الضَّالِّينَ﴾^(١)،
النصارى^(٢).

وقد جاء بيان المبهم في هذه الآية بقوله صلى الله عليه وسلم: "إن المغضوب عليهم
اليهود، وإن الضالين النصارى"^(٣).

وقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٤):
"هي صلاة العصر، وإنما سميت وسطى: لأنها بين صلاتين في الليل وصلاتين في
النهار، وسميت باسم الوقت كما سميت الظهر باسم الوقت"^(٥).

فهنا بين الإمام ابن قتيبة المبهم في قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، بأنه: صلاة
العصر، وهو ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لما حبسه المشركون يوم الأحزاب
عن صلاة العصر: "شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم
ناراً"^(٦).

(١) سورة الفاتحة: ٧ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب من سورة فاتحة الكتاب ح(٢٩٥٤) (ص ١٩٤٩)، والإمام أحمد في
المسند (١٢٣/٣٢) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي
(١٨٣/٣)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٨١/٧)] .

(٤) سورة البقرة: ٢٣٨ .

(٥) غريب الحديث (١٧٩/١) .

(٦) أخرجه مسلم في المساجد، ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر
ح(١٤٢٦) (ص ٧٧٥) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

المطلب الثالث : تفسير الألفاظ .

التأكيد على تفسير ألفاظ القرآن بالسنة من الأوجه الظاهرة في تفسير الإمام ابن قتيبة ؛ إذ كان من منهجه أن يُفسّر اللفظ الغريب في القرآن ، ثم يذكر الأحاديث التي ورد فيها ذلك اللفظ أو اشتقاقاته بغرض التأييد لما ذكره من التفسير ، وهذا كثير جداً عنده ، ومنه :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ ﴾^(١) : " لا تعير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم ، وأصل الثريب : الإفساد، يقال : ثرّب علينا ؛ إذا أفسد، وفي الحديث : "إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ، ولا يُثْرَب" ^(٢) ، أي : لا يُعَيَّرُها بالزنا"^(٣) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنْتَرٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ۖ ﴾^(٤) : "أي أمن هو مُصلٍّ ، فسميت الصلاة قنوتاً ، لأنها بالقيام تكون .

وروي عنه عليه السلام أنه قال : "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القانت الصائم"^(٥) ، الصائم"^(٥) ، يعني المصلي الصائم"^(٦) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ ﴾^(٧) ، يقول : "أي : مبتدئهما، مبتدئهما، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة"^(٨) ، أي على على ابتداء الخلقة ، يعني الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم"^(٩) .

(١) سورة يوسف : ٩٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الحدود ، باب لا يثرب على الأمة إذا زنت ولا تُثْنَى ح(٦٨٣٩) (ص٥٧١)، ومسلم في الحدود ، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا ح(٤٤٤٥) (ص٩٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص٢٢٢) .

(٤) سورة الزمر : ٩ .

(٥) سبق تخريجه (ص٥٧) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص٤٥١) .

(٧) سورة الشورى : ١١ .

(٨) سبق تخريجه (ص٩٥) .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص١٥١) .

وقوله : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾^(١) ، أي لا شوك فيه ، كأنه خُضِدَ شوكه ، أي قطع ،
ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " لا يُخْضَدُ شوكها ، ولا يُعْضَدُ شجرها"^(٢) " (٣) .
شجرها"^(٢) " (٣) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾^(٤) : " أي ذو قوة ، ومنه الحديث : " لا
تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ"^(٥) " (٦) .

المطلب الرابع : تأكيد المعنى .

وهو من أوجه تفسير القرآن بالسنة التي أكثر من استعمالها الإمام ابن قتيبة ، إذ كان
في مواضع عديدة يُبَيِّنُ معنى الآية ثم يؤكد ويقويه بذكر الأحاديث التي توافق ذلك المعنى ،
ومن أمثلته :

قوله : " قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ : أي لا يأكل بعضكم
مال بعض بشهادات الزور ، ﴿ وَتُدْءُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾^(٧) ، أي تدلي بمال أخيك

(١) سورة الواقعة : ٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الديات ، باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ح (٦٨٨٠) (ص ٥٧٣) ، ومسلم في الحج ،
باب تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاتها وشجرها ولقطنها ح (٣٣٠٦) (ص ٩٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله
عنه ، ولفظ البخاري : " لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها" ، وعند مسلم : " لا يخبط شوكها ، ولا يعضد
شجرها" ، أما اللفظ الذي ذكره ابن قتيبة فلم أجده في شيء من دواوين السنة .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٧) .

(٤) سورة النجم : ٦ .

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة ، باب من يُعْطَى من الصدقة وحد الغني ح (١٦٣٤) (ص ١٣٤٥) ، والترمذي في الزكاة ،
باب ما جاء ممن لا تحل له الصدقة ح (٦٥٢) (ص ١٧١٠) ، وابن ماجه في الزكاة ، باب من سأل عن ظهر غني
ح (١٨٣٩) (ص ٢٥٨٧) ، والإمام أحمد في المسند (١١/٨٤) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ،
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود (١/٤٥٤) ، صحيح سنن الترمذي (١/٣٥٥) ، إرواء الغليل
(٣/٣٨١)] .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٧) ، انظر للاستزادة من الأمثلة : (ص ٥٩ ، ١١٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٥ ، ٢٤٠ ، ٣٠٧ ،
٣٧٩ ، ٤٣٣ ، ٥٠٦) ، تأويل مشكل القرآن (ص ٤٦١) .

(٧) سورة البقرة : ١٨٨ .

إلى الحاكم ليحكم لك به ، وأنت تعلم أنك ظالم له ، فإن قضاءه باحتيالك في ذلك لا يحل لك شيئاً كان محرماً عليك ، وهو مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار" (١) " (٢).

ويقول : " قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ ﴾ ، يعني الفاحشة ، ﴿ فَأَذُوهُمَا ﴾ ، أي عزروهما ، ويقال : حدّوهما ، ﴿ فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا ﴾ (٣) ، أي : لا تعيروهما بالفاحشة ، ونحو هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فليجلدها الحد ولا يعيرها" (٤) " (٥).

ويقول في تفسير سورة التين : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٦) ، في وقت القوة والقدرة ، فإنهم في حال الكبر غير منقوصين ، لأننا نعلم أننا لو نسلبهم القدرة والقوة لم يكونوا ينقطعون عن عمل الصالحات ، فنحن نجري لهم أجر ذلك ولا نمثه ، أي لا نقطعه ولا ننقصه ، ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله للكرام الكاتبين : إذا مرض عبدي فاكتبوا له ما كان يعمل في صحته ، حتى أعافيه أو أقبضه" (٧) " (٨).

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ، باب موعظة الإمام للخصوم ح(٧١٦٩) (ص٥٩٧)، ومسلم في الأفضية، باب بيان أن حكم الحاكم لا يُعَيَّرُ الباطن ح(٤٤٧٣) (ص٩٨١) .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص٧٥) .

(٣) سورة النساء : ١٦ .

(٤) سبق تخريجه (ص٣٠٣) .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص١٢٢) .

(٦) سورة التين : ٦ .

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ح(١٠٩١٧) (٩٧/٧)، وقال محققه محمد عوامة : "إسناده مرسل، وهو صحيح إلى عطاء بن يسار"، وله شاهد من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً: "ما من أحد من المسلمين يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة الذي يحفظونه، قال: اكتبوا العبد في كل يوم وليلة مثل ما كان يعمل من الخير ما دام محبوساً في وثاقي"، أخرجه أحمد في المسند (١٩/١١)، وابن أبي شيبة في مصنفه ح(١٠٩٠٩) (٩٢/٧)، والحاكم في المستدرک ح(١٢٨٧) (٤٩٩/١)، وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص٣٤٣) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾^(١) :
 "معناه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة على عنقه شاة لها ثغاء ، ولا أعرفن كذا ، لا أعرفن كذا ، فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت"^(٢) ، يريد : أن من غلّ شاة أو بقرة أو ثوباً أو غير ذلك ؛ أتى به يوم القيامة يحمله"^(٣) .

وقوله : " قال الله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾^(٤) ، يريد أنها تعم فتصيب الظالم وغيره ، وقال الله عز وجل : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾^(٥) ، وقالت أم سلمة : يا رسول الله أهلك وفينا الصالحون ، فقال : " نعم إذا كثُرَ الحَبْثُ "^(٦)"^(٧) .

المطلب الخامس : بيان المشكل وإزالة اللبس .

وللإمام ابن قتيبة تميز في هذا الوجه من تفسير القرآن بالسنة ، يظهر ذلك جلياً في مصنفاته في "المشكل" ، لا سيما "تأويل مختلف الحديث" ، حيث ذكر فيه جملة من الآيات التي تُوهم التعارض بينها وبين السنة ، فبيّن الإشكال وأزال اللبس ، وذلك بدفع التوهم والجمع بينهما ، ومن ذلك :

(١) سورة آل عمران : ١٦١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ، باب الغلول ح(٣٠٧٣) (ص٢٤٧)، ومسلم في الإمارة باب غلظ تحريم الغلول ح(٤٧٣٤) (ص١٠٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص١١٥) .

(٤) سورة الأنفال : ٢٥ .

(٥) سورة الروم : ٤١ .

(٦) أخرجه البخاري في المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ح(٣٥٩٨) (ص٢٩٣)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ح(٧٢٣٧) (ص١١٧٧) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها وهي السائلة، وأخرجه مالك في الموطأ ح(٣٦٣٥) (١٤٤٢/٥) من حديث أم سلمة ، وهي السائلة كما ذكر ابن قتيبة .

(٧) تأويل مختلف الحديث (ص١٦٨)، وانظر للاستزادة من الأمثلة : (ص٢٧، ٣٩، ٢١٨) ، غريب القرآن (ص٣٨٩، ٤٦٥) .

قوله : "قالوا - أي أهل الكلام - رويتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة"^(١).

وهذا خلاف قول الله عز وجل ، حكاية عن زكريا : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۗ ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۗ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۗ ﴿٦﴾ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۗ ﴿٧﴾ ﴾^(٢).

وخلاف قوله عز وجل: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾^(٣).

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" ليس مخالفاً لقول زكريا عليه السلام: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۗ ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۗ ﴾ ؛ لأن زكريا عليه السلام لم يُرد : "يرثني مالي" فيكون الأمر على ما ذهبوا إليه .

وأبي مال كان لزكريا عليه السلام ، يرضى به عن عصبته ، حتى يسأل الله تعالى أن يهب له ولداً يرثه؟ .

لقد جلّ هذا المال إذاً ، وعظم - عنده - قدره ، ونافس عليه منافسة أبناء الدنيا الذين لها يعملون ، وللمال يكدحون.

وإنما كان زكريا بن آذن نجاراً ، وكان حبراً كذلك ...

^(١) أخرجه البخاري في الفرائض ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : "لا نورث، ما تركنا صدقة" ح(٦٧٣٠) (ص٥٦٢)، ومسلم في الجهاد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : "لا نورث ما تركنا صدقة" ح(٤٥٧٩) (ص٩٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: "لا نورث، ما تركنا صدقة"، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب الفرائض ، باب ذكر موارث الأنبياء ح(٦٣٠٩) (٦٤/٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ "إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة".

^(٢) سورة مريم : ٥-٧ .

^(٣) سورة النمل : ١٦ .

وقد قال ابن عباس (ت ٦٨هـ) ، في رواية أبي صالح (ت ١٢١هـ) عنه ؛ في قوله عزّ وجل : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَا كَافِرِينَ يَرِثُنِي ۖ ﴾ ، أي: يرثني الحبورة، وكان حبراً، ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ ﴾ أي : يرث الملك، وكان من ولد داود، من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، فأجابه الله عزّ وجل إلى وراثة الحبورة ، ولم يجبه إلى وراثة الملك.

وكان زكريا عليه السلام كره أن يرثه ذلك عصبتُهُ ، وأحبّ أن يهب الله تعالى له ولداً يقوم مقامه ، ويرثه علمه.

وقال الله جلّ وعزّ : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۗ ﴾ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ ﴿٩٠﴾^(١).

وأما قوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ۖ ﴾^(٢) ، فإنه أراد ورثه الملك والنبوة والعلم، وكلاهما كان نبياً ومملكاً ، والمملك : السلطان والحكم والسياسة ، لا المال. ولو كان أراد وراثة ماله ، ما كان في الخبر فائدة ؛ لأن الناس يعلمون أن الأبناء يرثون الآباء أموالهم ، ولا يعلمون أن كل ابن يقوم مقام أبيه في العلم والملك والنبوة"^(٣).

وقوله : "قالوا - أي أهل الكلام - : رويتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم ، ورجمت الأئمة بعده ، والله تعالى يقول في الإماماء : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۗ ﴾^(٤) ، والرجم إتلاف للنفس لا يتبعّض ، فكيف يكون على الإماماء نصفه؟ .

وذهبوا إلى أن المحصنات : ذوات الأزواج ، قالوا: وفي هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد.

(١) سورة الأنبياء : ٨٩-٩٠ .

(٢) سورة النمل : ١٦ .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٢٠٣) .

(٤) سورة النساء : ٢٥ .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن المحصنات لو كنّ في هذا الموضع ، ذوات الأزواج لكان ما ذهبوا إليه صحيحاً ، ولزمت به هذه الحجة ، وليس المحصنات ههنا إلا الحرائر .
 وسمّين محصنات ، وإن كن أبكاراً ، لأن الإحصان يكون لهن وبهن ، ولا يكون بالإماء .
 فكأنه قال : "فعليهن نصف ما على الحرائر من العذاب" يعني: الأبكار .
 وقد تسمى العرب البقرة "المثيرة" وهي لم تثر من الأرض شيئاً ؛ لأن إثارة الأرض تكون بما دون غيرها من الأنعام .
 وتسمى الإبل في مراعيها "هَدْيًا" لأن الهدى إلى الكعبة يكون منها فتسمى بهذا الاسم وإن لم تهدّ .

ومما يشهد لهذا التأويل الذي تأولناه في المحصنات ، وأنهن - في هذا الموضع - الحرائر الأبكار ، قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾^(١) ، والمحصنات - ههنا - الحرائر ولا يجوز أن يكنّ ذوات الأزواج لأن ذوات الأزواج لا ينكحن^(٢) .
 وقوله : "فمن ذلك حديث ، ذكروا - أي أهل الكلام - أنه يخالف كتاب الله تعالى .
 قالوا : رويتم : "أن الله تعالى مسح على ظهر آدم عليه السلام ، وأخرج منه ذريته إلى يوم القيامة ، أمثال الذرّ ، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى"^(٣) .

(١) سورة النساء : ٢٥ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٠) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة ، باب في القدر ح(٤٧٠٣) (ص ١٥٦٩) ، والترمذي في التفسير ، باب من سورة الأعراف ح(٣٠٧٥) (ص ١٩٦٢) ، والنسائي في السنن الكبرى ، في التفسير ، باب سورة الأعراف ح(١١١٩٠) (٣٤٧/٦) ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها: فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم ثم مسح على ظهره يمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل الجنة يعملون، ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون"، وقد صححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود (١٥٠/٣)].

وهذا خلاف قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ ﴾^(١) ، لأن الحديث يخبر أنه أخذ من ظهر آدم والكتاب يخبر أنه أخذ من ظهور بني آدم .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن ذلك ليس كما توهموا ، بل المعنيان متفقان بحمد الله ومثله ، صحيحان لأن الكتاب يأتي بجمل يكشفها الحديث ، واختصار تدل عليه السنة .
ألا ترى أن الله تعالى حين مسح ظهر آدم عليه السلام ، على ما جاء في الحديث فأخرج منه ذريته أمثال الذر إلى يوم القيامة ، إن في تلك الذرية الأبناء ، وأبناء الأبناء ، وأبناءهم إلى يوم القيامة .

فإذا أخذ من جميع أولئك العهد وأشهدهم على أنفسهم ، فقد أخذ من بني آدم جميعاً ، من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم .

ونحو هذا قول الله تعالى في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ۖ ﴾^(٢) ، فجعل قوله للملائكة : "اسجدوا لآدم" بعد "خلقناكم" و"صورناكم" .

وإنما أراد بقوله تعالى : "خلقناكم" و"صورناكم" خلقنا آدم ، وصورناه ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .

وجاز ذلك ؛ لأنه حين خلق آدم خلقنا في صلبه ، وهيانا كيف شاء ، فجعل خلقه لآدم ، خلقه لنا ، إذ كُنَّا منه^(٣) .

المطلب السادس : بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم .

من الأوجه المعتمدة عند أهل العلم في بيان القرآن بالسنة : بيان الأحكام الزائدة على ما جاء في القرآن الكريم ، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من مخالفة الأحكام ، التي

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١١ .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص٥٩) ، وانظر - للاستزادة - : (ص٨١ ، ٨٢ ، ١٠٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٢ ،

٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٠) .

أتى بها وليس لها ذكر في القرآن ، فقال : "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا لا يجل الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها"^(١).

يقول ابن قتيبة في معناه - في معرض حديثه عن نسخ الكتاب بالسنة - : "يريد أنه أوتي الكتاب ، ومثل الكتاب من السنة ، ولذلك قال الله عزّ وجل: ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(٢) .
وقد علم الله عزّ وجل أنا نقبل منه ما بلغنا عنه من كلام الله تعالى، ولكنه علم أنه سينسخ بعض القرآن بالوحي إليه .

فإذا وقع ذلك ، قدح في بعض القلوب، وأثر في بعض البصائر ، فقال لنا: ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ ، أي : ما آتاكم به الرسول ، مما ليس في القرآن، أو مما ينسخ القرآن ، فاقبلوه"^(٣).

وعليه يجب الأخذ بما جاءت به السنة ، وإن كان زائداً عما في القرآن، بل إن ما جاءت به السنة هو مما جاء به القرآن ، كما استدل بذلك عبدالله بن مسعود(ت ٣٢هـ) رضي الله عنه، مجيباً للمرأة التي قالت له : إنني لا أجد اللعن - أي لعن الواشمتين والمستوشمتين - في كتاب الله ، فقال: هو في كتاب الله، ثم تلا عليها قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(٤) .^(٥)

وقد تحدث الإمام ابن قتيبة عن هذا الوجه وقرّره ومثّل له في كثير من المواضع، منها:
قوله : "وكذلك نقول في تحريمه صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، وذي مخلب من الطير ، مع قول الله جل وعزّ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا

(١) سبق تخريجه (ص ٢٩٤) .

(٢) سورة الحشر : ٧ .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٢) .

(٤) سورة الحشر : ٧ .

(٥) أخرجه البخاري في التفسير [سورة الحشر] ، باب ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ ح(٤٨٦) (ص ٤١٨)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة ح(٥٥٧٣) (ص ١٠٥٨) .

أَوْحَىٰ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۗ ﴿١﴾

أراد أنه لا يجد في وقت نزول هذه السورة ، أكثر من هذا في التحريم .

ثم نزلت المائدة ، ونزل فيها تحريم المنخقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم.

فزادنا الله تعالى ، فيما حرم بالكتاب، وزادنا في ذلك - على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم - تحريم سباع الوحش والطيور والحمر الأهلية^(٢).

وقوله : "والكتاب هو القرآن ، ومثله يعني السنن التي كان يأتيه بها جبريل صلى الله عليه وسلم ، وليست في الكتاب كرجم المحصن ، ونفي البكر ، وتحريم نكاح المرأة على عمته وخالتها ، ومقدار ما يُقطع من يد السارق ، وأشباه ذلك هذا مما يعمل به المسلمون، وليس له ذكر في الكتاب"^(٣).

ففي هذه المواضع ذكر الإمام ابن قتيبة جملة من الأحكام جاء بيانها في السنة، وهي:

١ . تحريم الحمر الأهلية .

جاء تحريمها في السنة ، كما في حديث عبدالله بن عمر (ت ٧٤هـ) رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية^(٤).

٢ . تحريم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير .

جاء في حديث ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما ، قال : "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع ، وعن كل ذي مخلب من الطير"^(٥).

(١) سورة الأنعام : ١٤٥ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص١٣٤) .

(٣) المسائل والأجوبة (ص١٨٨) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ، باب غزوة خيبر ح(٤٢١٥) (ص٣٤٦)، ومسلم في الصيد والذبائح، باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية ح(٥٠٠٨) (ص١٠٢٤) .

(٥) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح ، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ح(٤٩٩٤) (ص١٠٢٣) .

٣ . رجم المحصن ، ونفي البكر .

جاء في حديث عبادة بن الصامت (ت ٥٣٤هـ) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا، الثيب بالثيب، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة"^(١).

٤ . تحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها .

جاء في حديث أبي هريرة (ت ٥٥٧هـ) رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يُجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها"^(٢).

٥ . مقدار ما يقطع من يد السارق .

ولا يصح هذا الحكم مثلاً لهذا الوجه من بيان القرآن بالسنة ، إذ لا يُعدُّ حكماً زائداً على ما جاء في القرآن الكريم ، بل هو من بيان المجمل المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾^(٣) ، حيث بيّنت السنة هذا المجمل بتوضيح مقدار ما يقطع من يد السارق ، كما جاء في حديث عدي بن حاتم (ت ٦٦٨هـ) رضي الله عنه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم قطع يد سارق من المفصل"^(٤).

(١) أخرجه مسلم في الحدود ، باب حد الزنا ح(٤٤١٦) (ص٩٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ، باب لا تنكح المرأة على عمتها ح(٥١٠٩) (ص٤٤٢) ، ومسلم في النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ح(٣٤٣٦) (ص٩١٢) .

(٣) سورة المائدة : ٣٨ .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ح(١٧٧٠٩) (٢٧٠/٨) ، قال الألباني في الإرواء (٨٢/٨): "رجال الإسناد كلهم ثقات" ، وله شاهد في كتاب الحدود لأبي الشيخ من طريق نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعثمان كانوا يقطعون من المفصل.

الفصل الثالث

تفسير القرآن بأقوال السلف

وفيه تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول: عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بأقوال السلف

المبحث الثاني: منهجه في عرض أقوال السلف والاحتجاج

بها .

التمهيد

تعريف السلف لغةً:

تدور مادة "سلف" في اللغة على معنى السبق والتقدم .
قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : "السين واللام والفاء أصل يدل على تقدّم وسبق، من ذلك السلف : الذين مضوا ... والسَّلُوف : الناقة تكون في أوائل الإبل إذا وَرَدَتْ"^(١).
وفي كتاب "العين" : "السَّلْفُ : كل شيء قدّمته فهو سَلْفٌ ، والقوم إذا أرادوا أن ينفروا فمن تقدّم من نفيهم فسَبَقَ فهو سَلْفٌ لهم"^(٢).
وقال أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ) : "وللسلف معنيان آخران ، أحدهما: أن كل شيء قدّمه العبد من عمل صالح ، أو ولد فرط تقدّمه فهو سَلْفٌ ، وقد سَلَفَ له عملٌ صالح .
والسلف أيضاً : من تقدّمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل ، واحدهم : سالف"^(٣).
وهذه المعاني تدور حول معنى السبق والتقدم ، وهذا المعنى متحقق في التعريف الاصطلاحي للسلف .

تعريف السلف اصطلاحاً :

تفاوتت أقوال العلماء في تحديد مصطلح "السلف" وتعيين المراد به على أقوال، أهمها:

(١) مقاييس اللغة ، مادة "سلف" (٩٥/٣) .

(٢) كتاب العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، مادة "سلف" (ص ٤٤٠) .

(٣) تهذيب اللغة ، مادة "سلف" (٤٣١/١٢) .

الأول : أنهم الصحابة والتابعون ، وبه قال الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ^(١).^(٢)
 الثاني : أنهم الصحابة والتابعون وتابعوهم ، أهل القرون الثلاثة الأولى ، ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين ، وبه قال جمع من العلماء : كالإمام الآجري (ت ٣٦٠هـ) ^(٣)، وابن بطة (ت ٣٨٧هـ) ^(٤)، واللالكائي (ت ٤١٨هـ) ^(٥)، وشيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) ^(٦)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ) ^(٧)، وابن القيم (ت ٧٥١هـ) ^(٨)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ^(٩)، والشاطبي (ت ٧٩٠هـ) ^(١٠)، والسفاري (ت ١١٨٨هـ) ^(١١).

والملاحظ على هذين القولين : أنهما يعتمدان على الناحية اللفظية - وأعني به المعنى اللغوي وهو السبق والتقدم - ، وعلى الناحية الزمنية والتاريخية ، المستندة في الأصل إلى قوله صلى الله عليه وسلم : "خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم" ^(١٢)، ولكن ينبغي عدم الاكتفاء بهاتين الناحيتين ، بل لا بد من مراعاة الناحية العقدية، ولذلك ينبغي إضافة قيد "الالتزام بالكتاب والسنة وعدم الابتداع" ؛ فيكون التعريف الأصح الأمثل

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي ، برع في أغلب العلوم ، له عدة مؤلفات؛ منها: إحياء علوم الدين ، المستصفى، المنحول ، توفي سنة ٥٠٥هـ. [طبقات الشافعية للسبكي (١٠١/٤)، طبقات الشافعية للإسنوي (١١/٢)، سير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٩)].

(٢) إجماع العوام عن علم الكلام (ص ٥٣).

(٣) الشريعة (١/١٢٤، ١٨٣، ١٩٩).

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (١/١٨٦).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٧، ١٣، ١٥، ١٧٠).

(٦) مجموع الفتاوى (٤/١٥٧).

(٧) العلو (١/١٣).

(٨) إعلام الموقعين (٢/٩٢، ٣٢١).

(٩) تفسير ابن كثير (١/٢٣٢، ٢٤٣، ٣٨٨).

(١٠) الموافقات (١/٥٥، ١٨٤) (٢/٩٤، ١٢٧).

(١١) لوائح الأنوار السنية (١/١٢٠).

(١٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن صحب النبي صلى الله عليه وسلم ، أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه ح(٣٦٥١) (ص ٢٩٧)، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ح(٦٤٦٩) (ص ١١٢١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

للسلف : "أنهم الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين ، ممن التزم بالكتاب والسنة ولم يلتبس ببدعة ، ومن تبع نهجهم والتزم فهمهم بإحسان"^(١).

قال السفاريني (ت ١١٨٨هـ)^(٢) : "وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وسائر أصحاب النبي المختار صلى الله عليه وسلم ، والذين اتبعوهم بإحسان، وأئمة الهدى بعد هؤلاء ، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم ، وتقدمهم والاقتداء بهم، واتباعهم والسير بسيرهم ، والنهج على منوالهم"^(٣).

ويظهر أن هذا هو مفهوم "السلف" عند الإمام ابن قتيبة ، يدل ذلك عليه ثناؤه على الصحابة والتابعين وأئمة أهل القرن الثالث ممن سار على نهجهم ، ونصه على وجوب الاقتداء بهم في مواضع كثيرة منها :

قوله في الثناء على أيوب السخيتاني (ت ١٣١هـ)، وعبدالله بن عون (ت ١٥١هـ)، ويونس بن عبيد (ت ١٤٠هـ)، وسليمان التيمي (ت ١٤٣هـ): "وهؤلاء الأربعة عُرة أهل زمانهم في العلم والفقه ، والاجتهاد في العبادة ، وطيب المطعم، وقد درجوا على ما كان عليه مَنْ قبلهم من الصحابة والتابعين"، ثم قال - رداً على المعتزلة - : "ألا تعلقتم بعلي (ت ٤٠هـ)، وابن مسعود (ت ٣٥هـ)، وأبي عبيدة (ت ١٨هـ)، ومعاذ (ت ١٨هـ) - رضي الله عنهم - وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ)، وأشباه هؤلاء فإنهم كانوا أعظم في القدوة ، وأثبت في الحجّة"^(٤).

(١) انظر : استدراقات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى ، نايف الزهراني (ص ١٠-١٧)، من معالم التيسير في تفسير السلف ، د. عيسى الدريبي (ص ١٦٣-١٦٥) ضمن مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الثالث، السنة الثانية ، عقيدة الإمام ابن قتيبة (ص ١٣٠) .

(٢) أبو العون محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني نسبة إلى سقارين ، من قرى نابلس بفلسطين ، العلامة الفقيه ، قال عنه تلميذه محمد كمال الدين الغزي : "شيخنا الشيخ الإمام والحرر التحرير ... العلامة العالم صاحب التأليف الكثيرة والتصانيف الشهيرة ... ، وبالجملة فقد كان عُرة عصره وشامة مصره ، لم يظهر في بلاده بعده مثله"، له تصانيف عديدة ، منها: البحور الزاهرة في علوم الآخرة ، الدرّة المضيئة في عقد الفرقة المرضية وشرحها ، لوائح الأنوار البهية . [النعمة الأكمل لأصحاب الإمام أحمد (ص ٣٠١-٣٠٣)، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (ص ٣٤٠)].

(٣) لوائح الأنوار السنّية ولوائح الأفكار السنّية (١/١٢٠) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) .

وقوله : "وأما الإيتساء فبالعلماء المبرزين ، والفقهاء المتقدمين ، والعباد المجتهدين الذين لا يُجارون ، ولا يُبلغ شأوهم .

مثل سفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ومالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، والأوزاعي (ت ١٥٧هـ)، وشعبة (ت ١٦٠هـ)، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ)، والفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ)، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، وبشر الحافي (ت ٢٢٧هـ)، وأمثال هؤلاء ممن قُرِبَ من زماننا.

فأما المتقدمون فهم أكثر من أن يبلغهم الإحصاء ويجوزهم العدد"^(١).

ومع هذا فإن الإمام ابن قتيبة قد يطلق لفظ "السلف" ويريد به الصحابة دون غيرهم، من ذلك :

قوله : " وليس هكذا كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خيار السلف ، ولا التابعين ، ولا القراء العالمين ، بل كانت قراءتهم سهلة رَسَلَةً"^(٢).

وقوله : "سميت الرافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي (ت ١٢٢هـ) وتركوه ، ثم لزم هذا الاسم كلٌّ من غلا منهم في مذهبه وتنقّص السلف"^(٣) ، أي تنقص الصحابة .

فضل السلف في القرآن والسنة ، وفي كلام الأئمة :

لقد كانت هذه الأمة مرحومةً في أول عهدها ، جمعها الله على الهدى ، وألّف بين قلوب أفرادها، وحماها من الهوى، حيث استقامت على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أولئك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أبر هذه الأمة قلوباً، وأصدقهم بياناً، وأحسنهم فهماً، وأسلمهم مقصداً في أخلاقهم وسلوكهم وأقوالهم، ولا عجب في ذلك، فقد أثنى الله عليهم، وأمر باتباعهم بإحسان ، وتوعّد من اتبع غير سبيلهم بالوعيد الشديد؛

فقال: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ

نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۗ ﴾^(٤)، وقال عزّ وجل:

(١) المصدر السابق (ص ٦٥) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٠) .

(٣) غريب الحديث (٢٥٢/١) ، وانظر - للاستزادة - : الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٦) .

(٤) سورة النساء : ١١٥ .

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١)، وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزكاهم ؛ فقال: "خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم"^(٢)، وأمر بلزوم سنتهم ؛ فقال: "فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ"^(٣).

وصدق عبدالله بن مسعود (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه حين قال: "إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيّه ، يُقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً ؛ فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً ؛ فهو عند الله سيء"^(٤).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ): "ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة ، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف ، أن خير قرون هذه الأمة - في الأعمال والأقوال ، والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة - أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم ، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة،

(١) سورة التوبة : ١٠٠ .

(٢) سبق تخريجه (ص ٣١٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة ، باب في لزوم السنة ح(٤٦٠٧) (ص ١٥٦١)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ح(٢٦٧٦) (ص ١٩٢١)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في السنة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ح(٤٢) (ص ٢٤٧٩)، وأحمد في المسند (٣٧٣/٢٨) من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني [صحيح سنن أبي داود (١١٩/٣)]، صحيح سنن ابن ماجه (٣٢/١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٨٤/٦)، والطبراني في الكبير ح(٨٥٨٢) (١١٨/٩)، والبخاري في مسنده ح(١٨١٦) (٢١٢/٥)، قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٧٧/١): "رواه أحمد والبخاري، ورجاله موثوقون"، وحسنه الألباني [سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٧/٢)] .

وأهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام...، وما أحسن ما قال الشافعي (ت ٢٠٤هـ) رحمه الله في رسالته: "هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا!"^(١).

ويقول ابن رجب (ت ٧٩٥هـ) مبيناً منزلة علم السلف: "أفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثوراً عن الصحابة والتابعين وتابعيهم... فضبط ما روي عنهم في ذلك أفضل العلم مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه... وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يُبَيِّن بطلانه لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدي إليه من بعدهم ولا يُلمُّ به"^(٢).

وقد تحدث الإمام ابن قتيبة عن فضل السلف في كثير من المواضع، منها ما نقلته سابقاً عند تحديد مفهوم "السلف" عنده^(٣)، ومنها أيضاً: قوله: "وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم"^(٤).

وعندما تحدث عن فضائل علي (ت ٤٠هـ) رضي الله عنه؛ قال: "من غير أن تتجاوز به الموضوع الذي وضعه به خيار السلف، مع ما تسمعه من كثير فضائله، فهم كانوا أعلم به وبغيره، ولأن ما أجمعوا عليه هو العيان الذي لا يشك فيه"^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٥٧/٤).

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف (٢٣/٣-٢٤) ضمن مجموع رسائل ابن رجب.

(٣) انظر: (ص ٣١٦) من هذه الرسالة.

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٣).

(٥) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٦-١٢٧).

المبحث الأول

عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بأقوال السلف

الصحابة رضوان الله عليهم أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ القرآن ومعانيه ، ولا غرو في ذلك ، فقد أوتوا من الدراية بالقرآن ما لم يؤت أحد بعدهم ، فهم قد شهدوا تنزل القرآن وعاشوا ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يتلوه عليهم آناء الليل وأطراف النهار ويفسره لهم ، ويجب عن تساؤلهم ، بالإضافة إلى معرفتهم التامة باللغة العربية ؛ فهم العرب الخالص ، وقد نزل القرآن بلغتهم ، كما رزقوا ثمرة فهمهم للقرآن ، وهو العمل به ، فكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يعلموا ما فيها ، ثم يعملون بهذا العلم ، قال ابن مسعود (ت ٣٥هـ): "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "وحيث إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة ؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح"^(٢).
والعلماء على وجوب الأخذ بقول الصحابي إذا لم يكن للرأي فيه مجال ، كأسباب النزول وأحوال الآخرة ونحوها، ويجعلون له حكم الرفع، ولا يجيزون ردّه"^(٣).

وقد نصّ على هذا الإمام ابن قتيبة بقوله عن أثر عبدالله بن مسعود (ت ٣٥هـ): "إن أحدكم ليُجلس في قبره إجلاساً ، فيقال له: من أنت؟ فيقول: أنا عبدالله حياً وميتاً، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقال له: صدقت، فيُفسح له في قبره ما

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧٤/١)، وصححه في (٨٣/١) .

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص ٥٨) .

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم (ص ٢٠)، النكت على ابن الصلاح (٥٣٠/٢)، الإتيان (٢٢٨٦/٦) .

شاء الله ، ويُرى مكانه من الجنة، وأما الآخر فيقال له: من أنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال له : لا دريت ، فيُضَيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلعه"^(١).

وهذا مما لا يعلمه إلا نبي ، ولم يكن عبد الله ليحكىه إلا وقد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٢).

ويقول الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ): "والحق أن ضابط ما يفسره الصحابي إن كان مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا منقولاً عن لسان العرب ؛ فحكمه الرفع، وإلا فلا، كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق وقصص الأنبياء ، وعن الأمور الآتية كالملاحم والفتن، والبعث ، وصفة الجنة والنار، والإخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص، أو عقاب مخصوص فهذه الأشياء لا مجال للاجتهاد فيها فيحكم لها بالرفع"^(٣).

أما تفسير الصحابي فيما للرأي والاجتهاد فيه مجال ، فهو موقوف على الصحابي ما دام لم يسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه يجب الأخذ به على القول الراجح.

قال الحافظ العلائي (ت ٧٦١هـ): "فأما القول بكونه حجة - أي قول الصحابي - فهو مذهب مالك (ت ١٧٩هـ)، وجمهور أصحابه، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، وجمهور أهل الحديث، وكثير من الحنفية كأبي يوسف (ت ١٨٢هـ)، وأبي سعيد البردعي (ت ٤٠٠هـ)، وعزاه الأصحاب إلى القديم من قولي الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، وهو رواية مشهورة عن أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، وبه قال أكثر أصحابه ، وهو مقتضى أجوبته وتصرفاته في كثير من المسائل"^(٤).

ويقول ابن القيم (ت ٧٥١هـ): "فإن قيل ما تقولون في أقوالهم - أي الصحابة - في تفسير القرآن؟ هل هي حجة يجب المصير إليها؟ .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح(١٢١٧٣) (٤٦٠/٧)، وقال محققه محمد عوامة: "الحديث موقوف على ابن مسعود لفظاً، وهو مرفوع حكماً ، وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود" .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص١٦٨) .

(٣) النكت على كتاب ابن الصلاح (٢/٥٣١) .

(٤) إجمال الإصابة في أقوال الصحابة (ص٣٦)، وانظر: كشف الأسرار للبخاري (٣/٢١٧)، الموافقات (٤/٨٠)، كتاب الأم للشافعي (٧/٢٦٥)، قواطع الأدلة للسمعاني (٣/٢٩٠)، المسودة لآل تيمية (ص٣٠٠)، العدة لأبي يعلى (٤/١١٨١)، البرهان في علوم القرآن (٢/١٧٢)، الإقتان (٦/٢٢٧٥) .

قيل : لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم ، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تفسيرهم في حكم المرفوع ، قال أبو عبدالله الحاكم (ت ٤٠٥هـ) في "مستدرکه" : "وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع" ومراده أنه في حكمه في الاستدلال به والاحتجاج ، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولاً فلنا أن نقول: هذا القول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله وجه آخر، وهو أن يكون في حكم المرفوع بمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لهم معاني القرآن وفسّره لهم كما وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١)، فبيّن لهم القرآن بياناً شافياً كافياً ، وكان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأله عنه فأوضحه له، ... فإذا نقلوا لنا تفسير القرآن فتارة ينقلونه عنه بلفظه ، وتارة بمعناه ، فيكون ما فسّروه بألفاظهم من باب الرواية بالمعنى ، كما يروون عنه السنة تارة بلفظها وتارة بمعناها ، وهذا أحسن الوجهين ، والله أعلم^(٢).

ثم يأتي بعد تفسير الصحابة تفسير التابعين ، فقد كان عهدهم قريباً من عصر النبوة، وحملوا العلم عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلموا عليهم ، وتأدبوا بأدبهم، مع ما أوتوا وعُرفوا به من الدين ، والصدق والأمانة ، وصحة الاعتقاد ، وسلامة المنهج، والبعد عن التكلف .

وقد اختلف العلماء في حكم تفسير التابعي ؛ فذهب بعضهم إلى أنه لا يجب الأخذ به ، حيث لا يحتمل سماعهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما في تفسير الصحابي، ولم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، وعدالتهم غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة^(٣).

(١) سورة النحل : ٤٤ .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٦/٣١-٣٣) .

(٣) انظر : الفصول في الأصول للجصاص (٣/٣٣٥)، المسودة (ص١٥٩)، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/٢٢٤)، إعلام الموقعين (٦/٣٨)، البرهان في علوم القرآن (٢/١٥٨)، الإقتان (٦/٢٢٨٦) .

فيما ذهب آخرون إلى وجوب الأخذ بأقوالهم ؛ لأنهم تلقوا غالب تفسيرهم من الصحابة ، كما روي عن مجاهد (ت ١٠٤هـ) قوله: "عرضت المصحف على ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنه ثلاث عرضات أوقفه عند كل آية وأسأله عنها"^(١).

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ): "إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة ؛ فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"^(٢).

والأظهر أن تفسيرهم يعتبر حجة يجب الأخذ به إذا أجمعوا على ذلك، أما إذا اختلفوا فلا يعتبر ذلك حجة ، بل لا بد من عرضه على الكتاب والسنة، ولغة العرب، وأقوال الصحابة، ودراسته سنداً ومتناً، فإذا ثبت صحته وموافقته للمنقول والمعقول وجب اعتباره والأخذ به وتقديمه على من جاء بعدهم.

يقول شيخ الإسلام : "قال شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ) وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة ؛ فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ، ولا من بعدهم ، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك"^(٣).

ونظراً لأهمية تفسير السلف ومكانته العالية فقد اعتمد عليه الإمام ابن قتيبة في تفسيره اعتماداً كبيراً ، وقدّمه على غيره، بل واقتصر عليه في كثير من المواضع، وقد تمثلت عنايته بتفسير السلف في جوانب كثيرة ؛ منها :

أولاً : الاعتماد على تفسير السلف في مصنفاته ، والإكثار من النقل عنهم .

يعد ابن قتيبة من أوائل الأئمة الذين اعتمدوا بتفسير السلف ، وأكثروا من النقل عنهم، ولا أعلم أحداً من اللغويين سبقه إلى مثل ذلك ، وقد نصّ في مقدمة مصنفاته في القرآن وعلومه على اعتماده فيها على المفسرين ، يريد بهم مفسري السلف - كما سيأتي - ؛

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ح(٣٠٩١٧، ٣٠٩١٨) (٥٥٨/١٥)، والدارمي في السنن ح(١١٦٠)

(١/٧٢٥)، وقال محققه حسين سليم الداراني : "إسناده صحيح" ، والحاكم في المستدرک ح(٣١٠٥) (٣٠٧/٢).

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص٦٢) .

(٣) المصدر السابق (ص٦٣) .

فيقول في مقدمة "تأويل مشكل القرآن" : "فألفت هذا الكتاب ، جامعاً لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح"^(١).

ويقول في مقدمة "تفسير غريب القرآن" : "وكتابتنا هذا مستنبط من كتب المفسرين، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بقصة الآية"^(٢).

والمطلع على هذه المصنفات يجد مصداق ذلك ، وأنه اعتمد بشكل كبير على تفسير السلف ، وأكثر من نَقَلَ عنهم من مفسري السلف خمسة ، ترددت أسماءهم بكثرة، ترتيبهم بحسب نقله عنهم كالتالي :

١ . ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما.

عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هشام ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ترجمان القرآن ، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفهم في القرآن ؛ بقوله: "اللهم علّمه الكتاب"^(٣)، وفي رواية "اللهم فقه في الدين"^(٤)، وفي رواية "اللهم علّمه الحكمة"^(٥)، فكان يسمى البَحْر والحَبْر لسعة علمه^(٦).

يدل على فضله وملكوته التفسيرية ما جاء عنه في قوله : "كان عمر (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم : لم تدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله، فقال: إِنَّهُ مَنّ قَدْ عَلِمْتُمْ، قال : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رُئيتُهُ دعاني يومئذ إلا ليريهم مَيِّ ، فقال: ما تقولون في ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾

(١) (ص٢٣) .

(٢) (ص٤) .

(٣) أخرجه البخاري في العلم ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم علّمه الكتاب" ح(٧٥) (ص٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء ، باب وضع الماء عند الخلاء ح(١٤٣) (ص١٥) .

(٥) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ح(٣٧٥٦) (ص٣٠٦) .

(٦) انظر ترجمته في: الإصابة في تمييز الصحابة (٤/١٤١)، أسد الغابة (٣/٢٩٠)، سير أعلام النبلاء (٣/٣٣١)، طبقات المفسرين للداودي (١/٢٣٢) .

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿١﴾ ، حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصِرنا وُفُتِح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا ، قال: فما تقول؟ قلت: هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلّمه الله له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، فتح مكة فذاك علامة أجلك ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم" (٢).

ونقل الإمام ابن قتيبة عن الحسن البصري (ت ١١٠هـ) قوله عن ابن عباس: "كان أول من عُرف بالبصرة ، صعد المنبر فقرأ "البقرة" و"آل عمران" وفسرهما حرفاً حرفاً، وكان مَشْجَأً يسيل غزياً" (٣).

ونظراً لأهمية تفسير ابن عباس رضي الله عنه ، فقد أولاه ابن قتيبة عناية فائقة، وأعطاه الأولوية في تفسيره ، فكان أكثر من نَقَلَ عنه، وكان غالباً ما يُصدّر بتفسيره الآية، بل بلغ به الأمر أن ينقل عنه أكثر من رواية في تفسير الآية الواحدة .

ومن الأمثلة على ما نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يلي :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (٤) ؛ قال :
 "قال ابن عباس : "يريد لا أسألكم على ما آتيتكم به من الهدى أجراً إلا أن تؤدوني في القرابة منكم" ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولادات كثيرة في بطون قريش،
 وقال الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٥).

(١) سورة النصر : ١-٢ .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير "سورة إذا جاء نصر الله" في باب منه ح(٤٩٧٠) (ص٤٣١) .

(٣) غريب الحديث (٣٥٤/٢)، وفسره ابن قتيبة، فقال: "وكان مشجأً، هو من الشَّجَّ ، والشَّجُّ : السيلان، يريد أنه يصب الكلام صباً ، و"يسيل غزياً" أي يسيل فلا ينقطع" .

والأثر أخرجه عبدالرزاق في المصنف ح(٨١٢٤) (٤/٣٧٧) .

(٤) سورة الشورى : ٢٣ .

(٥) سورة التوبة : ١٢٨ .

قال ابن عباس : "قالت قريش : يسألنا أن نؤدّه في القرابة ، وهو يشتم آهتنا ويعيبها؟!، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ ﴾^(١)"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾^(٣) ؛ قال : "أي وثيقة ، قال ابن عباس : "هو تزوجهن على إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان"^(٤).

٢ . مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ).

أبو الحجاج مجاهد بن جبر القرشي المخزومي مولاهم، المكي، الثقة، الإمام في التفسير وفي العلم، من كبار تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما، أخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول مجاهد: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية منه، وأسأله عنها فيم نزلت؟ وكيف كانت؟".

قال قتادة (ت ١١٧هـ): "أعلم من بقي بالتفسير مجاهد".

وقال الثوري (ت ١٦١هـ): "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"^(٥).

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ): "ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، والبخاري (ت ٢٥٦هـ)، وغيرهما من أهل العلم"^(٦).

وقد أكثر الإمام ابن قتيبة من النقل عنه ، ويأتي في درجة ثانية بعد ابن عباس رضي الله عنهما من حيث النقل عنه.

ومن الأمثلة على ما نقله عن مجاهد ؛ ما يلي :

(١) سورة سبأ : ٤٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٥٠) .

(٣) سورة النساء : ٢١ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ١٢٣)، وانظر - للاستزادة - : (ص ١١، ٢٣، ٤٦، ١٢٣، ٢٠٧، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٨٣، ٣٠٩، ٣١١، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٧٦، ٤١٢، ٤٢١، ٤٥٩، ٥٠٧)، تأويل مشكل القرآن (ص ٧٢، ٨١، ١٥١، ١٥٩، ٢٤٢، ٢٦٢، ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٨٢، ٤٠٩، ٤٥٠)، تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٠، ٢٠٥).

(٥) انظر: ترجمته في : المعارف (ص ٢٥٣)، سير أعلام النبلاء (٤/٤٤٩)، البداية والنهاية (٩/٢٢٤) .

(٦) مقدمة في أصول التفسير (ص ١٨) .

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴾^(١)؛ قال:
 "قال مجاهد : "فخرت قريش أن صدّت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت في
 الشهر الحرام في البلد الحرام ، فأقصه الله فدخل عليهم من قابل في الشهر الحرام في البلد
 الحرام إلى البيت الحرام ، وأنزل الله : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴾"^(٢).
 وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾^(٣)؛ قال:
 "قال مجاهد : عَلِمَ أَنَّ فِي أَصْلَابِهِمْ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ"^(٤).
 ٣ . قتادة (ت ١١٧هـ).

أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز السدوسي البصري، حافظ العصر،
 وقدوة المفسرين، كان من أوعية العلم ، وممن يُضرب به المثل في قوة الحفظ، يقول عن نفسه:
 "ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً"، ويقول - أيضاً - : "ما سمعت شيئاً إلا
 وحفظته".

ويقول محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ): "قتادة أحفظ الناس".
 وقال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ): "كان قتادة عالماً بالتفسير، وباختلاف العلماء"^(٥).
 وهو من مفسري السلف الذين أكثر ابن قتيبة من النقل عنهم ، ومن الأمثلة على
 ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى
 الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾^(٦)؛ قال :

(١) سورة البقرة : ١٩٤ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص٧٧).

(٣) سورة الأنفال : ٣٣ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص٧٢)، وانظر - للاستزادة - : (ص٣٧٣، ٤١٠، ٤٤٩)، تفسير غريب القرآن (ص٤٧،

١٠٢، ١٠٨، ٢٥٦، ٢٩٦، ٣٩٠، ٤٨٩)، غريب الحديث (٢/٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨) .

(٥) انظر ترجمته في: المعارف (ص٢٦٢)، سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٩)، طبقات المفسرين (٢/٤٣) .

(٦) سورة آل عمران : ٧٢ .

"قال قتادة : "قال بعضهم لبعض : أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار ، واكفروا بالعشي ، فإنه أجدر أن تصدقكم الناس ، ويظنوا أنكم قد رأيتم منهم ما تكرهون فرجعتم ؛ وأجدر أن يرجعوا عن دينهم " (١).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ (٢) ؛ قال :
"قال قتادة : "الفقير الذي به زمانة ، والمسكين : الصحيح المحتاج " (٣).

٤ . الحسن البصري (ت ١١٠هـ).

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، الأنصاري ، مولاهم ، تابعي ، ثقة ، فقيه ، فاضل ، مشهور ، إمام في التفسير ، شبّ في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال أنس بن مالك (ت ٩٣هـ) : "سلوا الحسن ، فإنه حفظ ونسينا" ، وقال قتادة (ت ١١٧هـ) : "كان الحسن من أعلم الناس بالحلال والحرام" (٤).

وقال ابن جزى الكلبي (ت ٧٤١هـ) : "وأحسنهم كلاماً في التفسير الحسن البصري" (٥).

وقال الزركشي (ت ٧٩٤هـ) : "ومن المبرزين في التابعين الحسن" (٦).
نقل عنه الإمام ابن قتيبة كثيراً عند تفسيره الآيات ؛ من ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٧) ؛ قال :

(١) تفسير غريب القرآن (ص ١٠٦) .

(٢) سورة التوبة : ٦٠ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ١٨٨) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٥٢ ، ٧٢ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٤٥٨ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥٣٣) ، تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٥ ، ١٨٦ ، ٢٨٣) ، غريب الحديث (٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥) .

(٤) انظر ترجمته في : المعارف (ص ٢٥٠) ، سير أعلام النبلاء (٤/٥٦٣) ، طبقات المفسرين (١/١٤٧) .

(٥) التسهيل في علوم التنزيل (ص ١٣) .

(٦) البرهان في علوم القرآن (٢/١٥٨) .

(٧) سورة النور : ٦١ .

"قال الحسن : لَيْسَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١)» (٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ﴾ (٣)؛ قال :
"أي بكتابهم الذي فيه أعمالهم ، على قول الحسن" (٤).
٥ . عكرمة (ت ١٠٥هـ).

أبو عبدالله عكرمة ، مولى ابن عباس رضي الله عنهما ، أصله بربري ، ثقة ثبت ، عالم بالتفسير ، تعهده ابن عباس رضي الله عنهما بالتربية والتعليم منذ صغره حتى صار أحد الأئمة الأعلام ، وربما قسا عليه في ذلك ، حتى أنه يقول : "كان ابن عباس يجعل في رجليَّ الكِبْلُ ، ويعلمني القرآن والسنن" ، ويقول - أيضاً - : "كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس" ، ويقول : "لقد فسرتُ ما بين اللوحين" أي ما بين دفتي المصحف .
قال الشعبي (ت ١٠٣هـ) : "ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة" (٥).

نقل عنه ابن قتيبة في عدد من مصنفاته؛ من ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (٦)؛ قال :

"قال عكرمة : "العَضَةُ : السحر ، بلسان قريش ، يقولون للساحرة : عاضِهُهُ" (٧).

وفي تفسير "فضحكت" في قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا

بِإِسْحَاقَ ﴾ (٨)؛ قال :

(١) سورة النساء : ٢٩ .

(٢) تفسير غريب القرآن (٣٠٩) .

(٣) سورة الإسراء : ٧١ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٩)، وانظر - للاستزادة - : (ص ١٩٢ ، ٣٠٩ ، ٣٥١ ، ٤٨٤ ، ٤٩٥ ، ٥١٢ ، ٥١٣)، تأويل مشكل القرآن (ص ١٥٥ ، ٣٣٠ ، ٤٢٥).

(٥) انظر ترجمته في : المعارف (ص ٢٥٨)، سير أعلام النبلاء (١٢/٥)، طبقات المفسرين (١/٣٨٠) .

(٦) سورة الحجر : ٩١ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٤٠) .

(٨) سورة هود : ٧١ .

"قال عكرمة : "حاضت ، من قولهم : ضحكت الأرنب: إذا حاضت" (١).

- كما نقل ابن قتيبة عن غيرهم من الصحابة والتابعين ، إلا أن روايته عنهم قليلة بالنسبة لما نُقِلَ عَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمُكْثَرِينَ ، وممن نقل عنهم:
- ١ . عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه (٢).
 - ٢ . عبدالله بن مسعود (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه (٣).
 - ٣ . علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) رضي الله عنه (٤).
 - ٤ . عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٨هـ) رضي الله عنها (٥).
 - ٥ . أنس بن مالك (ت ٩٣هـ) رضي الله عنه (٦).
 - ٦ . مسروق بن الأجدع (ت ٦٣هـ) (٧).
 - ٧ . سعيد بن جبير (ت ٩٤هـ) (٨).
 - ٨ . إبراهيم النخعي (ت ٩٦هـ) (٩).
 - ٩ . عامر الشعبي (ت ١٠٣هـ) (١٠).
 - ١٠ . طاوس بن كيسان (ت ١٠٦هـ) (١١).
 - ١١ . عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) (١٢).
 - ١٢ . محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٥هـ) (١).

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠٥)، وانظر - للاستزادة - : (ص ٢٤٠، ٢٤٢، ٤٥٩)، غريب الحديث (١/١٦٧).

(٢) انظر : غريب القرآن (ص ٤٩١) .

(٣) المصدر السابق (ص ٦٧، ١٣٣، ٢٠٢، ٢٣١، ٣٦٩)، غريب الحديث (١/٢٣٧، ٢٥٦).

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٥٣٥)، تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠٩) .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٣٣، ٤١٠) .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٢٣٢)، تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٣) .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٨) .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٢٣، ٣٦٤)، غريب الحديث (٢/٢٨٥) .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥)، تأويل مشكل القرآن (ص ٦٢، ١٣٧) .

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ١٥٩، ٤٢٤) .

(١١) تفسير غريب القرآن (ص ٧٣، ٣٥٦) .

(١٢) المصدر السابق (ص ٤٥٢) .

١٣ . إسماعيل بن عبدالرحمن السدي (ت ١٢٧ هـ) ^(٢) .

١٤ . سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) ^(٣) .

ثانياً : الاقتصار على تفسيرهم في كثير من الآيات .

من مظاهر عناية ابن قتيبة بتفسير السلف أنه كان في كثير من الآيات يقتصر على تفسيرهم ولا يجاوزه إلى غيره ، ومن أمثلة ذلك :

. عند تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا

جَاءَهُمْ نَصْرًا فَجِيَّ مَن نَّشَاءُ ۗ ﴾ ^(٤) ؛ قال : "قد تكلم المفسرون في هذه الآية بما فيه مَفْنَعٌ وغناء عن أن يوضح بغير لفظهم :

فمن قتادة (ت ١١٧ هـ) أنه قال : ﴿ اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ من قومهم ﴿ وَظَنُّوا ﴾

أي : علموا ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا ﴾ ، وكان يقرؤها بالتشديد ^(٥) .

وعن عائشة (ت ٥٨ هـ) أنها قالت : "استيسس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم، وظنت الرسل أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك، وكانت تقرأ ﴿ فَكُذِّبُوا ﴾ ، بضم الكاف وتشديد الذال .

وعن عائشة أنها قالت : لم يزل البلاء بالرسول حتى خافوا أن يكون من معهم من المؤمنين قد كذبوهم .

وعن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) : "أنه قرأها ﴿ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ بفتح الكاف والذال وتخفيف

الذال ^(٦) ، يريد : حتى إذا استيسس الرسول من إيمان قومهم ظنَّ قومهم أن الرُّسُلَ قد كَذَّبُوا فيما بلَّغوا عن الله عزَّ وجل .

^(١) المصدر السابق (ص ٧٦ ، ١٨٦) ، تأويل مشكل القرآن (ص ٣٣٣ ، ٤٢٩) .

^(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٧٧) .

^(٣) المصدر السابق (ص ٣٣٩ ، ٣٧٤ ، ٤٦٩ ، ٤٩٥ ، ٥٤٠) .

^(٤) سورة يوسف : ١١٠ .

^(٥) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب [المبسوط في القراءات العشر (ص ٢٤٨) ، النشر

(٢٢٢/٢) ، الكشف عن وجوه القراءات السبع (١٥/٢)] .

^(٦) قرأ بها ابن عباس ومجاهد والضحاك . [المحتسب (٣٥٠/١) ، مختصر ابن خالويه (ص ٧٠)] .

وعن ابن عباس (ت ٦٨هـ) أنه قرأ: ﴿كُذِّبُوا﴾ بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها^(١)، وقال: كانوا بشراً، يعني الرسل، يذهب إلى أن الرسل ضَعُفُوا فَظُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ أُخْلِفُوا^(٢).

. عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾^(٣)،

قال: "﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾"، قال مجاهد (ت ١٠٤هـ): يعني مكة، وفي تفسير أبي صالح^(٤): "أن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتشتاق إلى مولدك ووطنك، يعني مكة؟ قال: نعم، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: وهو فيما بين مكة والمدينة".

وقال الحسن (ت ١١٠هـ)، والزُّهري (ت ١٢٥هـ) - أحدهما: "معاده: يوم القيامة"؛ والآخر: "معاده: الجنة".

وقال قتادة (ت ١١٧هـ): "هذا مما كان ابن عباس (ت ٦٨هـ) يكثمه"^(٥).

(١) وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف وأبي جعفر. [المبسوط في القراءات العشر (ص ٢٤٨)، النشر (٢/٢٢٢)، الكشف عن وجوه القراءات السبع (١٥/٢)].

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٠-٤١٢)، قال الطبري في تفسيره (٣٠٦/١٦) - عن قول ابن عباس - : "وهذا تأويل، وقول غيره من أهل التأويل أولى عندي بالصواب، وخلافه من القول أشبه بصفات الأنبياء، والرسل إن جاز أن يرتابوا بوعد الله إياهم، ويشكوا في حقيقة خبره مع معايتهم من حجج الله وأدلته ما لا يعاينه المرسل إليهم - فيعذروا في ذلك - إن المرسل إليهم لأولى في ذلك منهم بالعدر، وذلك قول إن قاله قائل لا يخفى أمره، وقد ذُكِرَ هذا التأويل لعائشة فأنكرته أشد النكرة، وقالت: معاذ الله، ما حدث الله رسوله شيئاً قط إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى ظن الأنبياء أن من تبعهم قد كذبوهم، وكان تقرؤها: ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ تنقلها".

(٣) سورة القصص: ٥٨.

(٤) أبو صالح باذام، ويقال: باذان، مولى أم هانئ، روى عنها وعن أبي هريرة وابن عباس، مفسّر، يروي عن ابن عباس كثيراً، وقلَّ ما له من المسند، توفي سنة ١٢١هـ. [سير أعلام النبلاء (٦/١٦٩)، تهذيب التهذيب (١/٢١١)].

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٣٣٦)، وانظر للاستزادة من الأمثلة: (ص ١٦٢، ١٦٣، ٣٢٣، ٣٣٢، ٤٢٥).

ثالثاً : قصر وصف "المفسرين" عليهم .

تبين لي بعد نظر وتتبع أن الإمام ابن قتيبة عندما يطلق لفظ "المفسرين" فإنه يريد به مفسري السلف ، وهذا لا شك يدل على عظيم عنايته واحتفائه بتفسيرهم، ففي المثال السابق في تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ ﴾^(١) ، قال: "قد تكلم المفسرون في هذه الآية بما فيه مَنَعٌ وغناء عن أن يوضَّحَ بغير لفظهم" ، ثم ذكر أقوال عائشة (ت ٥٨هـ) رضي الله عنها، وابن عباس (ت ٦٨هـ)، رضي الله عنهما، وقتادة (ت ١١٧هـ)، ومجاهد (ت ١٠٤هـ)^(٢) .
ويدل على ذلك - أيضاً - أنه قد ينقل بعض أسباب النزول وينسبها إلى "المفسرين" ، ومثل هذا لا يقبل إلا من مفسري السلف من الصحابة والتابعين ، وقد ظهر بعد التتبع أنها صادرة عنهم، ومن ذلك:

قوله : وقال المفسرون في قول الله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِينَ ﴾^(٣) : "إن حواء لما أثقلت أتاها إبليس في صورة رجل ، فقال لها: ما هذا الذي في بطنك ؟ وذلك أول حملها، فقالت: ما أدري، فقال لها : أرايت إن دعوت ربي فولدته إنساناً أتسمينه بي؟ فقالت: نعم، وقالت هي وآدم : ﴿ لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِينَ ﴾ ، أي: لئن خلقتة بشراً مثلنا ولم تجعله بهيمةً ، فلما ولدته أتاها إبليس ليسألها الوفاء؛ فقالت: ما اسمك؟ قال: "الحارث" ، فتسمى بغير اسمه، ولو تسمى باسمه لعرفته ، فسمته "عبد الحارث" ، فعاش أياماً ثم مات، فقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾^(٤) ،

(١) سورة يوسف : ١١٠ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٠-٤١٢) .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٩ .

(٤) سورة الأعراف : ١٩٠ .

وإنما جعل له الشرك بالتسمية لا بالنية والعقد"^(١).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾^(٢)، قال: "ذكر المفسرون: أنها أنزلت في "حاطب بن أبي بلتعة (ت ٣٠هـ)" وكان كتب إلى المشركين بمكة يخبرهم بمسير الرسول صلى الله عليه وإليه ؛ لأن عياله كانوا بمكة، ولم يكن لهم عشيرة تمنع منهم ، فأراد أن يتقرب إليهم ليكفوا عن عياله، فأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾^(٣).

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾^(٤)، قال: "وقال المفسرون" في التي نقضت غزلها: هي امرأة من قريش وكانت حمقاء، فكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر بمغزل في غلظ الدراع ، وصنارة في قدر الإصبع، وفلكة عظيمة، فإذا أَحَكَمْتُهُ أَمَرْتِ خَادِمَهَا فنقضته"^(٥).

وأظهر الأدلة على أنه يقصد السلف بوصف "المفسرين" ، أنه يمايز دائماً بين المفسرين من أهل اللغة وبين المفسرين من السلف ، فيطلق على الأولين "أهل اللغة" ، أو يذكرهم بأسمائهم ، ويقصر وصف "المفسرين" على السلف، وظهر ذلك في كثير من المواضع ، منها:

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٥٨)، وقد أخرج الطبري في تفسيره (١٠/٦٢٦) عن سعيد بن جبير نحوه .

(٢) سورة الممتحنة : ١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٥٦-٣٥٧)، وقد روي هذا عن علي وابن عباس رضي الله عنهما [تفسير الطبري (٢٢/٥٥٩-٥٦١)].

(٤) سورة النحل : ٩٢ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٨٧)، وقد روي عن عبدالله بن كثير والسدي ومقاتل [تفسير الطبري (٤٤/٣٤٢)]، زاد المسير (٤/٤٨٥).

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾^(١)، قال: "قال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ): حظُّه، وقال المفسرون: ما عمل من خير أو شر الزمناه عنقه"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾^(٣)، قال: "أي ندماً، هذا قول أبي عبيدة، وقول المفسرين: سرفاً، وأصله العجلة والسبق، يقال: فرط مني قول قبيح، أي سبق، وفرس فرط، أي: متقدم"^(٤).

وقوله: "قوله تعالى: ﴿ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾^(٥)، يقال في التفسير: بيَّنَّا لهم، لهم، وعرفهم منازلهم منها، وقال أصحاب اللغة: "عرَّفها لهم": طيَّبها"^(٦)، يقال: طعام مُعرَّف، أي مُطيَّب"^(٧).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾^(٨)، قال: "قال أبو عبيدة: "مسرعين"، وفي التفسير: ناظرين قد دفعوا رؤوسهم إلى الداعي"^(٩).

رابعاً: التقليل من قيمة المنقول عن غيرهم، والتوقف عن بعض التفسير لكونه لم ينقل عنهم.

وهذا يلمحه القارئ في بعض المواضع من مصنفات ابن قتيبة؛ ومن ذلك: قوله السابق: "قد تكلم المفسرون في هذه الآية بما فيه مقنع وغناء أن يوضح بغير لفظهم"^(١٠).

(١) سورة الإسراء: ١٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٢) .

(٣) سورة الكهف: ٢٨ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٢٦٦) .

(٥) سورة محمد: ٦ .

(٦) نسبه الحري في غريب الحديث (١٨٩/١) للخليل .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٤٠٩) .

(٨) سورة القمر: ٨ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٤٣١) .

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٠) .

وقوله : "ومن ذهب في قول الله عز وجل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْعِقُونَ بِمَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾^(١)، إلى أنه شبَّههم براعي الضأن في الجهل ، وكان على مذهب العرب العرب وجهاً ، غير أنه لم يذهب إليه أحد من العلماء فيما نعلم"^(٢).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾^(٣) : "تتخذون منه سكرًا أي : خمرًا، ونزل هذا قبل تحريم الخمر، "ورزقًا حسنًا" يعني التمر والزبيب ، وقال أبو عبيدة: السُّكْرُ : الطُّعْم ، ولست أعرف هذا في التفسير"^(٤).

(١) سورة البقرة : ١٧١ .

(٢) غريب الحديث (٥٢/٢) .

(٣) سورة النحل : ٦٧ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٢٤٥) .

المبحث الثاني

منهجه في عرض أقوال السلف والاحتجاج بها

سبق أن الإمام ابن قتيبة نقل الكثير من تفسير السلف ، وأن مصنفاته مليئة بآثارهم، وأهم ملامح منهجه في نقله واحتجاجه بتفسير السلف ما يلي :

١ . أن الإمام ابن قتيبة قد يورد تفسير السلف بالإسناد ، إما عن طريقه ؛ وهو قليل جداً ، وإما عن طريق غيره .
فمما نقله بإسناده :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا

بِهِ ﴾ ^(١) ، قال : "حدثني محمد بن عبدالعزيز - ابن أبي رزمة المروزي - (ت ٢٤١هـ) ، عن موسى بن مسعود (ت ٢٢٠هـ) ، عن شبل - بن عباد - (ت ٤٨هـ) ، عن ابن أبي نجيح (ت ١٣١هـ) ، عن مجاهد (ت ١٠٤هـ) قال : "تعلمونه وتقولون آمنا به" ^(٢) .

وقال : "حدثنا محمد بن هارون (ت ٢٥٨هـ) ، قال : أخبرنا إبراهيم بن بشار (ت ٢٢٤هـ) ، قال : أخبرنا ابن عيينة (ت ١٩٨هـ) ، عن أبي معاوية - البجلي - (ت ١٣٣هـ) ، عن ابن أبي نجيح (ت ١٣١هـ) ، عن مجاهد (ت ١٠٤هـ) في قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ^(٣) ، قال : تدور دوراً" ^(٤) .

ومما نقله عن طريق غيره :

قوله : "وروى المنهال - بن عمرو - (ت ١١٠هـ) ، عن سعيد بن جبير (ت ٩٤هـ) ، عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) ، في قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام ﴿ لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ ^(٥) : لم ينس ولكنها من معاريف الكلام" ^(١) .

(١) سورة آل عمران : ٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٠) .

(٣) سورة الطور (٩) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٥٣) .

(٥) سورة الكهف : ٧٣ .

وقال في تفسير " اللمم " في قوله تعالى : ﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ^٢ ﴾ : "وروى شعبة (ت ١٦٠هـ)، عن الحكم - بن عيينة - (ت ١١٣هـ)، عن ابن عباس (ت ٦٨هـ)، أنه قال في ذلك : ما دون الحدين، حد الدنيا، وحد الآخرة" (٣).
٢ . وتارة ينقل تفسير السلف مع النسبة دون إسناد ، وهو كثير ؛ ومنه :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ^٤ ﴾ ، قال : "قال ابن مسعود (ت ٣٥هـ) : "مستقرها: الأرحام، ومستودعها: الأرض التي تموت فيها" (٥).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْعَدِيدِ صُبْحًا ^٦ ﴾ ؛ قال : "العاديات: الخيل، والضبح: صوت حلوقها إذا عدت ، وكان علي (ت ٤٠هـ) رضي الله عنه يقول: هي الإبل تذهب إلى وقعة بدر ، وقال : ما كان معنا يومئذ إلا فرس عليه المقداد - بن الأسود - رضي الله عنه (ت ٣٣هـ)" (٧).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ^٨ ﴾ ؛ قال : "قال ابن عباس : "أراد المساجد ، إذا دخلتها فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين"، وقال الحسن (ت ١١٠هـ) : "لِئَسَلَّمَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ^٩﴾ ^(٩) (١٠)".

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٦٧) .

(٢) سورة النجم : ٣٢ .

(٣) غريب الحديث (٢/٢٢٩) ، وانظر - للاستزادة - : تأويل مشكل القرآن (ص ٨٢، ٩٩، ١٠٠، ٢٣٣، ٢٦٧، ٣٢٨، ٣٥٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤٢٩)، تفسير غريب القرآن (ص ٥٤٤)، غريب الحديث (٢/٢٩٩، ٢٦٥).

(٤) سورة هود : ٦ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠٢) .

(٦) سورة العاديات : ١ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٥٣٥) .

(٨) سورة النور : ٦١ .

(٩) سورة النساء : ٢٩ .

(١٠) تفسير غريب القرآن (ص ٣٠٩) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّنَا ﴾^(١) ؛ قال : "قال مجاهد (ت ١٠٤هـ) : "جلال ربنا" ، وقال قتادة (ت ١١٧هـ) : "عظمته" "^(٢).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَطَلِّحَ مَنُضُورٍ ﴾^(٣) ؛ قال : "قال مجاهد (ت ١٠٤هـ) : "أعجبهم طلع "وَجَّ" وحسنه، فقيل لهم: ﴿ وَطَلِّحَ مَنُضُورٍ ﴾ ، وقال المفسرون: الطلح هاهنا : الموز ، وقال مسروق (ت ٦٣هـ) : "أنهار الجنة تجري في غير أحود ، وشجرها نضيد من أسفلها إلى أعلاها" "^(٤).

٣ . وتارة ينقل عن السلف ويُبهم، فيقول: "قال بعض السلف"، أو "قال بعض المفسرين" ، ومن أمثلته:

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾^(٥) ؛ قال : "وقال بعض المفسرين : هو مثل للمؤمن والكافر ، فالعبد هو الكافر ، والمرزوق هو المؤمن" "^(٦).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾^(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ^(٧) ، قال : "وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد الشياطين بأعيانها، شبه ثمر هذه الشجرة في قبحه برؤوسها ، وهي إن لم تُر ، فإنها موصوفة بالقبح ، معروفة به" "^(٨).

(١) سورة الجن : ٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٤٨٩) .

(٣) سورة الواقعة : ٢٩ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٨)، وانظر للاستزادة من الأمثلة : الإحالات في (ص ٣٢٥) من هذه الرسالة.

(٥) سورة النحل : ٧٥ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٨٤) .

(٧) سورة الصافات : ٦٤-٦٥ .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٩٠) .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَطَلِحَ مَنْضُودٌ ﴾ ^(١) : " وكان بعض السلف يقرأه : " وطلع منضود" ^(٢) ، واعتبره بقوله في سورة "ق" : ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ ^(٣) ^(٤) .

٤ . وتارة ينقل عن السلف تفسيرهم دون نسبة ، وهو كثير ؛ ومنه :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ ^(٥) ؛ قال : " أي تدلي بمال أخيك إلى الحاكم ليحكم لك به وأنت تعلم أنك ظالم له ، فإن قضاءه لك باحتيالك في ذلك لا يُجِلُّ لك شيئاً كان محرماً عليك" ^(٦) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْسَعُ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ^(٧) : "أي مطالبة بالمعروف" ^(٨) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ^(٩) : "يقول : الشرك أشد من من القتل في الحرم" ^(١٠) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ^(١١) ؛

(١) سورة الواقعة : ٢٩ .

(٢) قرأ بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال ابن خالويه : " قرأ بها علي المنبر ، فقبل له : أفلا تغیره في المصحف ، قال : ما ينبغي للقرآن أن يُهاج ، أي : لا يُعَيَّر" . [مختصر ابن خالويه (ص ١٥١)] .

(٣) سورة ق : ١٠ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٨) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٣١٠ ، ٣٥٢ ، ٤٠٩ ، ٤٣١) ، تأويل مشكل القرآن (ص ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢٥٨ ، ٣٥٦ ، ٥٤٦) ، غريب الحديث (٣١٥/٢-٣١٦) .

(٥) سورة البقرة : ١٨٨ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٧٥) ، وهذا نص تفسير قتادة ، أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢٧٨/٣) .

(٧) سورة البقرة : ١٧٨ .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٧١) ، وهو تفسير ابن عباس ، أخرجه عنه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٤٧٩/١) .

(٩) سورة البقرة : ١٩١ .

(١٠) تفسير غريب القرآن (ص ٧٦) ، وهو نص تفسير قتادة ، أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢٩٤/٣) .

(١١) سورة الرعد : ٤١ .

قال: "أي يموت العلماء والعباد"^(١).

٥ . لم يكن الإمام ابن قتيبة مجرد ناقل لتفسير السلف ، بل كان يمتحس تفسيرهم، ويرد ما كان منكراً أو مكذوباً عليهم ، وقد نصّ على هذا في مقدمة "تفسير غريب القرآن" ، فقال: "ونبذنا مُنكراً التأويل ، وَمَنحوْلَ التفسير ، فقد نَحَل قومُ ابن عباس أنه قال في قول الله جلّ وعز : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾^(٢) : إنها عُورَتْ ؛ من قول الناس بالفارسية : كُورَ بِكرد.

وقال آخر في قوله: ﴿ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً ﴾^(٣) : أراد سَلَنِي سبيلاً إليها يا محمد. وقال الآخر في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾^(٤) : إن النعيم : الماء الحار في الشتاء.

وقال الآخر في قوله : ﴿ حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾^(٥) : إن الزينة : المشطُ. وقال آخر في قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ ﴾^(٦) : إنها الآرابُ التي يسجد عليها المرء، المرء، وهي جبهته ويداه وركبته وقدماه. مع أشباهٍ لهذا كثيرة ؛ لا ندري : أمن جهة المفسرين لها وَقَعَ الغلط ؟ أو من جهة النقلة"^(٧).

٦ . تعددت الميادين التي احتج فيها ابن قتيبة بتفسير السلف ، فتارة ينقل تفسيرهم لتفسير لفظ ، وتارة لبيان معنى ، وتارة لبيان سبب نزول ، أو لبيان القصص والأخبار، وأخرى لتوجيه قراءة ، أو لدفع إشكال ، أو لترجيح قول.

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٢٢٩)، وهو تفسير مجاهد، أخرجه عنه الطبري في تفسيره (١٣/٥٧٩)، وانظر للاستزادة من الأمثلة : تفسير غريب القرآن (ص ٣٨٩، ٤٥٢، ٤٧٧، ٤٨٤، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٦، ٥٣٩).

(٢) سورة التكوير : ١ .

(٣) سورة الإنسان : ١٨ .

(٤) سورة التكاثر : ٨ .

(٥) سورة الأعراف : ٣١ .

(٦) سورة الجن : ١٨ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٤-٥) .

الفصل الرابع

تفسير القرآن باللغة

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن باللغة .
- المبحث الثاني: ضوابط التفسير اللغوي عند ابن قتيبة .
- المبحث الثالث : قيمة التفسير اللغوي لابن قتيبة .

المبحث الأول

عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن باللغة

تعد اللغة العربية من أهم مصادر تفسير القرآن الكريم ، لأنه نزل بلغة العرب ، وعلى النبي العربي صلى الله عليه وسلم ، جرياً على سنة الله في إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾^(١) ، وذلك ليكمل الاتصال بين الداعي والمدعو ، وقد جاءت الكثير من الآيات تنص على عربية القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ كَتَبْنَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٥) .

ومن هنا تتبين أهمية معرفة اللغة العربية في فهم القرآن وتفسيره ، ولذلك كان من أهم أدوات الصحابة رضوان الله عليهم في التفسير الرجوع إلى اللغة العربية ومعرفة أوضاعها وألفاظها ومصطلحاتها ، ومعرفة أشعار العرب ونثرهم وعاداتهم في مخاطباتهم ، والاستشهاد به في تفسيرهم .

يقول عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه : "تعلموا السنة والفرائض واللحن كما تعلمون القرآن"^(٦) .

(١) سورة إبراهيم : ٤ .

(٢) سورة يوسف : ٢ .

(٣) سورة الشعراء : ١٩٣-١٩٥ .

(٤) سورة الزخرف : ٣ .

(٥) سورة فصلت : ٣ .

(٦) أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث (٦١/٢) .

ويقول ابن قتيبة - في شرح هذا الأثر - : "اللعن ها هنا : اللغة ، يقول : تعلموا اللغة ، يعني الغريب والنحو كما تتعلمون القرآن ؛ لأن في اللغة علم غريب القرآن ومعانيه ومعاني الحديث والسنة ، ومن لم يعرف اللغة لم يعرف أكثر كتاب الله ولم يُقْمَهُ ، ولم يعرف أكثر السنن"^(١).

وقال ابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما : "الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"^(٢).

وعنه أنه قال : "ما كنت أدري ما قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾"^(٣) ، حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول: أفاتحك، يعني أقاضيك"^(٤)، وعنه -أيضاً- : "ما كنت أدري ما ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾"^(٥) حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتهما ، يعني ابتدأتهما"^(٦).

وقد نص العلماء على أهمية اللغة العربية واشتراط معرفتها لمن أراد تفسير القرآن الكريم ؛ فقال مجاهد (ت ١٠٤ هـ) : "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"^(٧).

وقال مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) : "لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا"^(٨).

وقال ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) : "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب ، حتى لا غناء بأحدٍ منهم عنه ، وذلك أن القرآن نازل

(١) المصدر السابق (٦١/٢) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢٩٤/١) ، الإتيان (٣٨٢/١) ، والأثر أخرج نحوه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢٩٥/٢) .

(٣) سورة الأعراف : ٨٩ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٢٠/١٠) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٢٣/٥) .

(٥) سورة الأنعام : ١٤ .

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧٥/٩) .

(٧) البرهان في علوم القرآن (٢٩٢/١) .

(٨) المصدر السابق (١٦٠/٢) .

بلغة العرب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي ، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جل وعز ، وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب ، لم يجد من العلم باللغة بُدًّا " (١).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) : "فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي ، وجعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي ، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به ، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان ، وصارت معرفته من الدين" (٢).

ويقول أيضاً : "إن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" (٣).

وقد أدرك الإمام ابن قتيبة ذلك ، وقرر هذه الأهمية للغة العربية في تفسير القرآن الكريم من الناحية النظرية ، وطبّقه من الناحية العملية ، واعتنى به عناية فائقة في تفسيره. فمن الناحية النظرية أطال الحديث في مقدمة "تأويل مشكل القرآن" عن أهمية معرفة اللغة العربية في فهم القرآن وتفسيره ؛ حيث يقول :

"وإنما يَعْرِفُ "فضل القرآن" من كَثْرَ نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنائها في الأساليب ، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات ؛ فإنه ليس في جميع الأمم أُمَّةٌ أوتيت من العارضة (٤) ، والبيان ، واتساع المجال ، ما أُتِيَتْهُ العربِ خِصِيصِي من الله ، لما أَرْهَصَهُ (٥) في الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نُبُوَّتِهِ بالكتاب ، فجعله عِلْمَهُ كما جعل جعل عِلْمَ كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه ...

وللعرب "المجازات" في الكلام ، ومعناه : طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ،

(١) الصاحبي في فقه اللغة (ص ٥٠) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٤٥٠) .

(٣) المصدر السابق (١/٥٢٧) .

(٤) العارضة : قوة الكلام وتنقيحه ، والرأي الجيد . [اللسان ، مادة (عرض) (٧/١٦٥)] .

(٥) "وقد أرهص الله فلاناً للخير أي جعله معدناً للخير ومأتمى" [جاء في اللسان ، مادة (رهص) (٧/٤٣)] .

والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص؛ مع أشياء كثيرة سترها في "أبواب المجاز" إن شاء الله تعالى.

وبكل "هذه المذاهب" نزل القرآن؛ ولذلك لا يقدر أحدٌ من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نُقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرُومية، وتُرجمت التوراة والزيور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية؛ لأن "العجم" لم تتسع في "المجاز" اتساع العرب.

ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأُنْذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾^(١)، لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدّيةً عن المعنى الذي أُودِعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها؛ وتظهر مستورها، فتقول: إن كان بينك وبين قوم هُدنةٌ وعهد، فخفت منهم خيانةً ونقضاً، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وأذنبهم بالحرب؛ لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء^(٢).

وبعد هذا التعميد النظري من الإمام ابن قتيبة نجد التطبيق العملي عنده في غاية الوضوح، فقد أولى الجوانب اللغوية عناية تامة، واعتمد عليها اعتماداً كبيراً في تفسيره للآيات، ويظهر اهتمام الإمام ابن قتيبة في اللغة من خلال الجوانب الآتية:

أولاً: بيان الأصل اللغوي للألفاظ.

ثانياً: كثرة الشواهد الشعرية.

ثالثاً: كثرة الشواهد النثرية.

رابعاً: بيان الأساليب العربية.

خامساً: بيان الفروق اللغوية.

سادساً: بيان الأضداد في اللغة.

سابعاً: بيان الوجوه والنظائر.

ثامناً: اهتمامه بالإعراب، وبيان أهميته في تفسير القرآن الكريم.

تاسعاً: اهتمامه بالاشتقاق.

(١) سورة الأنفال: ٥٨.

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٢-٢١).

عاشراً : اهتمامه بالجوانب البلاغية .
وسياًتي - إن شاء الله تعالى - تفصيل هذه الجوانب في الباب الثالث : "اهتمامات
ابن قتيبة في التفسير"^(١).

^(١) انظر (ص ٤٧٤) من هذه الرسالة .

المبحث الثاني

ضوابط التفسير اللغوي عند ابن قتيبة^(١)

مع الأهمية العظمى للغة العربية في تفسير القرآن الكريم ، إلا أن هذا اللون من التفسير - أعني به التفسير اللغوي - دخله الكثير من الخطأ وكان سبباً في تحريف كثير من النصوص الشرعية ، ومن ثمَّ كان لزاماً على العلماء وضع القيود والضوابط التي تمنع من هذا الزلل ، وكان للإمام ابن قتيبة قصب السبق في هذا الميدان ، إذ له يد طولى في بيان خطأ كثير من اللغويين وغيرهم ممن توسع في اعتماد هذا الطريق ، كما ردَّ على المبتدعة والفلاسفة والزنادقة عقائدهم الباطلة وتأويلاتهم الفاسدة ، وذلك بوضع ضوابط التفسير اللغوي التي تكشف زيغهم وتبيِّن عورهم .

(١) يرى بعض أهل العلم التفريق بين القاعدة والضابط ، ويذكرون من الفروقات بينهما :

١ . أن القاعدة تجمع فروعاً في أبواب شتى ، والضابط يجمعها من باب واحد ، وعليه فالقاعدة أوسع من الضابط .
٢ . أن الخلاف الواقع في الضابط من حيث قبوله أو رده أكثر من الخلاف الواقع في القاعدة ، لأن القواعد يقع الخلاف غالباً في بعض تفاصيلها لا في أصلها ، أما الضوابط فيقع الخلاف كثيراً في أصولها ، وذلك لكونها محدودة ، فهي كالأجزاء بالنسبة للقاعدة .

وذهب آخرون إلى عدم التفريق بين القاعدة والضابط .

[قواعد التفسير، د.خالد السبت (٣١/١)، شرح الكوكب المنير (٣٠/١)، القواعد للمقري (١٠٨/١)، القواعد الفقهية للندوي (ص ٤٦)] .

يقول د.خالد السبت: "هذا ومن حيث الواقع فإن الناظر في الكتب المصنفة في القواعد يجد أصحابها يذكرون كثيراً من الضوابط على أنها من عداد القواعد ، والحاصل أن المسألة اصطلاح ، فمن رأى التفريق فلا مشاحة في الاصطلاح ، لكن عليه أن يلتزم الأصل الذي اصطلاح عليه ولا يخرج عنه ، ومن رأى عدم التفريق فله ذلك" [قواعد التفسير (٣٢/١)] .

وعليه فإني أريد بالضوابط هنا القواعد، وإنما أسميتها ضوابط لأنها بما ضبطاً لتفسير القرآن باللغة .

هذا وسيكون الحديث عن هذه الضوابط مقتضياً في هذا المبحث ، إذ أشرت في منهج البحث إلى أن تفصيل الحديث عن قواعد التفسير عند ابن قتيبة والتمثيل لها سيكون ضمن فصل خاص بالقواعد، وقد آثرت ذلك في الرسالة كاملة مراعاة للترتيب والتنظيم وذلك بجمع القواعد المتنوعة تحت باب واحد.

وتتضح قيمة هذه الضوابط التي أشار إليها الإمام ابن قتيبة من خلال بيان أهم أسباب الخطأ في التفسير ، وكيف كانت هذه الضوابط سداً منيعاً من الوقوع في تلك الأخطاء والمزالق ، والتي تعود في مجملها إلى أمور ثلاثة :

أحدها : الجهل بلغة العرب .

الثاني : اعتماد اللغة مجردة عن غيرها من المصادر .

الثالث : الانحراف العقدي .

فهذه الأمور الثلاثة هي الأسباب الرئيسة لوقوع الخطأ في التفسير، وقد عالج ابن قتيبة هذه الأسباب بجملة من الضوابط ، وتفصيل هذه الأسباب وما ذكره من ضوابط كالتالي :

أولاً : الجهل بلغة العرب^(١) .

لا ريب أن فهم القرآن موقوف على فهم لغة العرب ، وأن المرء كلما ازداد فهماً للغة ، زاد فهمه لنصوص الشريعة ، وإن نقص فهمه في اللغة كان نصيبه من نصوص الشريعة بمقدار فهمه ، يقول الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) :

"الشريعة عربية ، وإذا كانت عربية ؛ فلا يفهمها حقّ الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم ، لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز ، فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية ، فهو مبتدئ في فهم الشريعة ، أو متوسطاً ؛ فهو متوسط في فهم الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية ، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة ، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة ، فمن لم يبلغ شأوهم ؛ فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة ، ولا كان قوله فيها مقبولاً"^(٢) .

لذا فإن فهم اللغة حصن يمنع صاحبه من الخطأ والزيغ والضلال في مسائل الشريعة، وعليه ينبغي أن لا يتكلم على معاني القرآن ولا يستنبط منه إلا من كان عربياً أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب، بالغاً فيه مبالغ العرب في فهم العربية ومعرفتها، إذ إن الجهل باللغة

(١) انظر : أسباب الخطأ في التفسير ، د. طاهر يعقوب (٢/٩٨١)، الأقوال الشاذة في التفسير ، د. عبدالرحمن الدهش (ص ١٢٧).

(٢) الموافقات (٥/٥٣) .

العربية والقصور في معرفة قواعدها يؤدي إلى الجهل بألفاظ الشرع وأحكامه، وإلى الفهم الخاطيء لنصوص الكتاب والسنة، ومن ثمَّ إلى تكوين أفكار فاسدة، وفلسفات ملحدة، ولذلك عُدَّ الجهل باللغة من أهم أسباب الخطأ في التفسير، ومن عوامل الانحراف في فهم الآيات القرآنية، ومن دواعي ظهور الفهومات الزائفة للنصوص الشرعية.

وقد أدرك السلف الصالح والأئمة الأعلام خطورة العُجْمَة والضعف في اللغة العربية، وحذروا من الوقوع فيها مشيرين إلى آثارها السيئة ونتائجها الوخيمة، فهاهو الحسن البصري (ت ١١٠هـ) يقول - مبيناً سبب ضلال أهل الأهواء - : "أهلكتهم العجمة، يقرأ أحدهم الآية فيعياً بوجوهها حتى يفترى على الله فيها"^(١).

وقال الأصمعي (ت ٢١٤هـ) : "جاء عمرو بن عبيد (ت ١٤٣هـ) إلى أبي عمرو بن العلاء (ت ١٤٥هـ) فقال له : يا أبا عمرو، الله يُخْلِفُ وعده ؟ .

قال : لن يخلف الله وعده .

قال عمرو : فقد قال .

قال : أين ؟ ، فذكر آية وعيد لم يحفظها أبو عمرو .

فقال أبو عمرو : من العُجْمَة أُتِيَتْ ، الوعدُ غير الإيعاد ، ثم أنشد أبو عمرو :

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتَهُ أَوْ وَعَدْتُهُ سَأَخْلِفُ إِيْعَادِي وَأُنْجِزُ مَوْعِدِي"^(٢).

ويقول الشافعي (ت ٢٠٤هـ) : "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس"^(٣)«^(٤).

(١) السنة للمروزي (ص ٤٣)، وأخرج نحوه سعيد بن منصور في سننه (١٦٧/١) ح (٣٨)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٣٥٠).

(٢) القصة رواها البيهقي في شعب الإيمان (٤٧١/١) ح (٢٩٤) بسنده إلى الأصمعي .

(٣) أرسطو : يقال له أرسطاطاليس بالإغريقية، فيلسوف إغريقي، تتلمذ على يد أفلاطون، وكان معلماً للإسكندر الأكبر، يعد من أهم الشخصيات في تأسيس الفلسفة الغربية، حيث كان أول من أنشأ نظاماً شاملاً للفلسفة الغربية، يشمل الأخلاق والمنطق والعلم والسياسة، مات عام ٣٢٢ ق.م . [موسوعة الفلسفة، د.عبدالرحمن بدوي (١/٩٨)].

(٤) صون المنطق والكلام للسيوطي (ص ١٥) .

وقال السيوطي (ت ٩١١هـ) تعليقاً على هذا الكلام : "أشار الشافعي بذلك إلى ما حدث زمن المأمون (ت ٢١٨هـ) من القول بخلق القرآن، ونفي الرؤية، وغير ذلك من البدع، وأن سببها الجهل بلسان العرب الجاري عليه نصوص القرآن والسنة، وتخريج ما ورد فيهما على لسان اليونان ومنطق أرسطاطاليس، الذي هو في حيز ولسان العرب في حيز، ولم ينزل القرآن إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب، والاحتجاج والاستدلال، لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح، فمن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره وخرّج الوارد من نصوص الشرع عليه جهل وضلّ، ولم يصب القصد، فإن كان في الفروع نُسب إلى الخطأ، وإن كان في الأصول نُسب إلى البدعة"^(١).

وقد نتج عن هذا الأمر الذي حذر منه السلف خطآن جسيمان في التفسير :

أحدهما : أن يُفسّر القرآن بما لا يُعرف في لغة العرب .

الثاني : أن يُفسّر القرآن بالشاذ أو الضعيف دون الأغلب والأشهر .

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل الأئمة الذين تفتنوا لهذين الخطأين، ولذلك أشار إلى

ضابطين مهمين يمنعان من الوقوع فيهما ؛ هما :

١ . لا يجوز تفسير القرآن بما لا يعرف بلغة العرب .

٢ . عند تفسير القرآن باللغة يراعى المعنى الأشهر والأغلب دون الشاذ والقليل^(٢).

ثانياً : اعتماد اللغة مجردة عن غيرها من المصادر^(٣).

كما أن الجهل بلغة العرب سبب رئيس في وقوع الخطأ في التفسير ، فكذلك الاعتماد على اللغة مجردة عن غيرها من المصادر يوقع في الغلط ، لأن اللغة لا تستقل بفهم القرآن ، فمتى اعتمد المفسر عليها دون نظر في تفسير السلف وأسباب النزول وقصص الآي والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك ، ودون اعتبار للسياق فهو واقع في الخطأ لا محالة، لأن التفسير

(١) المصدر السابق (ص ١٥) .

(٢) انظر تفصيل هذين الضابطين (ص ٩٢٧، ٩٢٩) من هذه الرسالة .

(٣) انظر : أسباب الخطأ في التفسير (١/٢١٥)، الأقوال الشاذة في التفسير (ص ١١٦)، التفسير اللغوي، د.مسعود

الطيار (ص ٦٣٣) .

الصحيح قد يكون من جهة المصادر التي أغفلها ، أو تكون هذه المصادر مُحدّدة للمعنى الصحيح عند تعدد الاحتمالات اللغوية.

وقد حذر العلماء من هذا الخطأ ؛ فها هو ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) يشتد في إنكاره على أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) لاعتماده على الدلالة اللغوية المجردة في التفسير؛ فيقول: "وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل ممن يُفسّر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب ، يوجّه معنى قوله تعالى : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾^(١) ، إلى : وفيه ينجون من الجذب والقحط بالغيث، وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين"^(٢).

وقال ابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) : "وإنما النهي - عن تفسير القرآن بالرأي - يُحمّل على أحد وجهين :

الوجه الأول : أن يكون له في الشيء رأي ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه .

والوجه الثاني : أن يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر اللغة العربية من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار ، والحذف والإضمار ، والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلظه ، ودخل في زمرة من فسّر القرآن بالرأي"^(٣).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) مبيناً أهم أسباب الخطأ في التفسير : "والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر للمتكلم ، والمنزل عليه، والمخاطب به، فراعوا مجرد اللفظ ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ، ولسياق الكلام"^(٤).

(١) سورة يوسف : ٤٩ .

(٢) تفسير الطبري (١٩٧/١٣) .

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول (٥/٢) .

(٤) مقدمة أصول التفسير (ص١٣٩) مع شرحها ، د.مسعود الطيار .

ويقول - أيضاً - : "وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يُبيِّن معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين ، لا سيما في كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطاً من المفسرين المشهورين ، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرون"^(١).

قلت : وهذا الخطأ - أعني به اعتماد اللغة مجردة عن غيرها من المصادر - وإن وقع فيه بعض اللغويين عن غير قصد ، إلا أنّ فريقاً كثيراً من أهل البدع قصدوه عمداً احتجاجاً لبدعتهم وترويجاً لضلالتهم ، ومن ثمّ رأينا سبباً ثالثاً من أسباب الخطأ في التفسير.

ثالثاً : الانحراف العقدي^(٢).

باعتبار أن العقيدة سابقة على الاستدلال في أفهام أهل البدع ومن نحأ نحوهم ، خلافاً لما هو الواجب في مثل هذا ، وهو أن يسبق الاستدلال الاعتقاد ، جرى توظيف النصوص لخدمة المعتقد ، وكان هذا من أهم أسباب الخطأ في التفسير ، حيث عمد أهل البدع إلى حمل النصوص القرآنية على مسبقاتهم العقدية ، كما أوجبوا تأويل كل آية من آيات القرآن تتعارض مع آرائهم وأفكارهم ليطباقوها على المعاني والمفاهيم التي أرادوا إثباتها، متخذين من رحابة اللغة واتساعها مطية ومدخلاً لتأصيل عقائدهم وبث أفكارهم.

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل أئمة أهل السنة الذين تفتنوا لهذه الحيلة ، حيث أشار إلى منهج أهل البدع والأهواء في التفسير قائلاً :

"وفسروا القرآن بأعجب تفسير يريدون أن يردّوه إلى مذاهبهم ، ويحملوا التأويل على نحلهم" ، ثم ذكر جملة من تأويلاتهم وردّها ، ثم قال :

"ولم يكن قصدي في هذا الكتاب الإخبار عن هذه الحروف ، وأشباهها، وإنما كان القصد به الإخبار عن جهلهم وجرأتهم على الله تعالى بصرف الكتاب إلى ما يستحسنون وحمل التأويل على ما ينتحلون"^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٩٤/١٥) .

(٢) انظر : أسباب الخطأ في التفسير (١٩٧/٢)، الأقوال الشاذة في التفسير (ص ٢٢٥)، التفسير اللغوي (ص ٥١٧).

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٦-٤٨) .

ويقول في "الاختلاف في اللفظ" : "ولما اطرد لهم - أي المبتدعة - القول على ما أصّلوه ورأوه حسن الظاهر قريباً من النفوس ، يروق السامعين ، ويستهل قلوب الغافلين ، نظروا في كتاب الله فوجدوه ينقض ما قاسوا ويبطل ما أسسوا ، فطلبوا له التأويلات المستكرهة والمخارج البعيدة ، وجعلوه عويصاً وألغازاً ، وإن كانوا لم يقدروا من تلك الحيل على ما يصح في النظر ولا في اللغة"^(١).

وقد قال الإمام الدارمي (ت ٢٨٠هـ) في ردّه على بشر المريسي (ت ٢١٨هـ)^(٢):

"ونحن قد عرفنا - بحمد الله - من لغات العرب هذه المجازات التي اتخذتموها دُلسَةً وأغلوطَةً على الجهّال ، تنفون بها عن الله تعالى حقائق الصفات بعلل المجازات ، غير أنّنا نقول: لا يُحكّم للأغرب من كلام العرب على الأغلب ، ولكن نصرف معانيها إلى الأغلب ، حتى يأتوا ببرهان أنه عني بها الأُغرب ، وهذا هو المذهب الذي إلى الإنصاف والعدل أقرب ، لا أن نعترض صفات الله المعروفة المقبولة عند أهل البصر فنصرف معانيها بعلة المجازات إلى ما هو أنكر ، وتُرَدُّ على الله بداحض الحجاج وبالتالي هي أعوج"^(٣).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) موضحاً طريقة أهل الضلال في التفسير: "يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل ، ويجعلون ما قال الله ورسوله تبعاً لهم ، فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ، ويقولون: نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة ، يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ، ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه ... ، وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار

(١) (ص ١٠٠) .

(٢) بشر بن غياث بن أبي كريمة أبو عبدالرحمن المريسي ، مولى زيد بن الخطاب ، من أصحاب الرأي ، أخذ الفقه عن أبي يوسف القاضي ، إلا أنه اشتغل بالكلام ، ودعا إلى القول بخلق القرآن ، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم ، فمقتته أهل العلم وكفّره أكثرهم ، وصنف الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي مجلداً في الرد عليه ، قال الذهبي : "هو بشر الشر ، وبشر الحافي بشر الخير ، كما أن أحمد بن حنبل هو أحمد السنة ، وأحمد بن أبي داود أحمد البدعة" ، مات سنة ٢١٨هـ . [تاريخ بغداد (٥٣١/٧) ، سير أعلام النبلاء (١٠/١٩٩) ، البداية والنهاية (٢٣٣/١٤)] .

(٣) رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد (ص ١٩٧) .

والصغار ، فهي طريقة الجهمية والمعتزلة ، ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة^(١).

والإمام ابن قتيبة في معرض ردّه على المبتدعة ، وفي ردّه - أيضاً - على من اعتمد من اللغويين على مجرد الدلالة اللغوية أشار إلى جملة من الضوابط ، تمنع من السببين الأخيرين من أسباب الخطأ في التفسير ، وهي:

- ١ . ما كل ما جاز في اللغة جاز في القرآن .
 - ٢ . تحمل نصوص الكتاب على معهود الأئمة في الخطاب .
 - ٣ . لا يجوز حمل كلام الله عزّ وجل على مجرد الاحتمال اللغوي أو النحوي .
 - ٤ . كل تفسير يخالف القرآن أو السنة أو سلف الأمة فهو رد .
 - ٥ . كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد^(٢).
- فهذه الضوابط وغيرها تكررت الإشارة إليها في مواضع كثيرة من مصنفات ابن قتيبة ، حيث استعان بها في بيان التفسير الصحيح ، وفي غلق باب التأويلات الفاسدة والتفاسير الباطلة ، وقد ردّ الإمام ابن قتيبة الكثير من التفسير لا سيما تفسير المبتدعة لمخالفته لهذه الضوابط ، ومن ذلك :

- . ردّه على تأويل ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) : ينسبهم إلى الضلال^(٤).
- . ردّه على تأويل ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾^(٥) : دفعنا وألقينا^(٦).
- . ردّه على تأويل ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا﴾^(٧) : خلقناه^(٨).

(١) مجموع الفتاوى (٣٥٥/١٧) .

(٢) انظر تفصيل هذه الضوابط : (ص ٩٣١-٩٣٩) من هذه الرسالة .

(٣) سورة الرعد : ٢٧ .

(٤) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ١٠١) .

(٥) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٦) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ٤٧)، الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٣) .

(٧) سورة الزخرف : ٣ .

(٨) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ١١٠) .

- . ردّه على تأويل ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ^(١): أنه الأمر ^(٢).
- . ردّه على تأويل ﴿ وَأَخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ^(٣): أي فقيراً ^(٤).
- . ردّه على تأويل ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(٥): أي منتظرة ^(٦).
- . ردّه على تأويل ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ^(٧): أي استولى ^(٨).
- . ردّه على تأويل ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٩): إلا بعلم الله ^(١٠).
- . ردّه على تأويل صفة اليد بالنعمة ^(١١).

^(١) سورة الحجر : ٢٩ .

^(٢) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص١١٤) .

^(٣) سورة النساء : ١٢٥ .

^(٤) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٤٨)، الاختلاف في اللفظ (ص١١٩) .

^(٥) سورة القيامة : ٢٢-٢٣ .

^(٦) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص١١٥) .

^(٧) سورة طه : ٥ .

^(٨) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص١٢٠) .

^(٩) سورة البقرة : ١٠٢ .

^(١٠) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص١٠١) .

^(١١) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٤٨)، الاختلاف في اللفظ (ص١١٢) .

المبحث الثالث

قيمة التفسير اللغوي لابن قتيبة

حظي التفسير اللغوي للإمام ابن قتيبة بمنزلة رفيعة ، حيث نال اهتمام اللغويين وعناية المفسرين نظير ما تميز به من قيمة علمية ، وتبرز قيمة التفسير اللغوي للإمام ابن قتيبة من خلال الأمور التالية :

١ . إمامته في اللغة ، وتمكنه من أدائها ، يظهر ذلك جلياً من خلال الشراء اللغوي الذي تزخر به مصنفات ابن قتيبة ، حتى طغى عليها الطابع اللغوي ، وقد أسهم في هذا المحصول اللغوي الوافر عند ابن قتيبة - بشكل مباشر أو غير مباشر - كبار أئمة اللغة كأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)، والأصمعي (ت ٢١٤هـ)، وأبي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ)، وأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، والرياشي (ت ٢٥٧هـ)، ومن ثم لا عجب فيما وصل إليه ابن قتيبة من إمامة في اللغة ، وهذا لا شك يضيفي قيمة عالية لتفسيره اللغوي .

٢ . التزامه بضوابط التفسير اللغوي - آفة الذكر - لا سيما عدم اعتماده على اللغة مجردة عن غيرها من مصادر التفسير الأخرى، وهذا من أعظم مزايا التفسير اللغوي عند ابن قتيبة ، إذ تميز عن غالب اللغويين باعتماده على دقته اللغوية التي تنطلق من المعنى القرآني المراد لا النظر اللغوي المجرد ، فتجده لا يرتضي أي قول من أقوال اللغويين حتى يرى مدى موافقته للسياق وعدم مخالفته لأسباب النزول وقصص الآي ونحو ذلك، وقد نصّ على هذا في مواضع كثيرة ، منها :

قوله في مقدمة "تفسير غريب القرآن" :

"وكتابتنا هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا في شيء فيه بأرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بقصة الآية"^(١).

وهذا يدل على أن اختيار القول في الآية ينبني على أمرين :

(١) (ص ٤) .

أحدهما : أن يكون صحيحاً في اللغة .

الثاني : أن يكون موافقاً لسياق الآية .

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ

الْوَصِيَّةِ ﴾^(١) : " قد اختلف الناس قديماً في تأويل هذه الآية والسبب الذي نزلت فيه ، وأنا مخبرٌ من تلك المذاهب والتأويلات ، بأشبهها بلفظ الكتاب ، وأولها بمعناه"^(٢) .

٣ . أسبقية الإمام ابن قتيبة للغويين في الاعتماد على تفسير السلف ، والإكثار من النقل عنهم ، من المزايا الجليلة لتفسير ابن قتيبة ، والمطلع على تفسيره يجد منهجاً جلياً يتمثل في تقديم المأثور عن السلف في التفسير وردّ كل تفسير لغوي يتعارض معه ، بل ويتوقف في بعض التفسير اللغوي لكونه لم ينقل عن السلف ، وبناءً عليه يمكن القول : إن الإمام ابن قتيبة يتخذ التفسير اللغوي وسيلة لترجيح أحد التفسيرات المأثورة لا لاختراع وجه تفسيري آخر ، ومن ثمّ فإن ابن قتيبة يجعل الضابط اللغوي أساساً مكيناً في التفسير في حال لم يتعارض مع التفاسير المأثورة ، فإن حصل هذا التعارض فإن ابن قتيبة يعطي الأولوية لتفسير السلف ، وهذا هو محل الخلاف بينه وبين الكثير من المفسرين ، وبناءً على هذه المقدمة يمكن القول - أيضاً - : إنّ غالب تفسير ابن قتيبة اللغوي له أصل مأثور عن السلف ، وهذا لا شك يضيف الكثير لتفسيره اللغوي .

٤ . تبرز قيمة التفسير اللغوي عند ابن قتيبة من خلال الاحتجاج به في المسائل العقديّة ، فبواسطة هذا التفسير اللغوي كان ابن قتيبة من أوائل الأئمة الذين أسسوا لمذهب أهل السنة والجماعة من جهة اللغة ، وبه استحق أن يوصف بخطيب أهل السنة ، حتى إنه بنى كتابه "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة" على التفسير اللغوي ، وفيه ردّ على القدريّة ثم على الجبريّة ثم على نفاة الصفات والقائلين بالمجاز فيها ، ثم ردّ على القائلين بخلق القرآن ، ثم على المشبهة ، ثم على النواصب والروافض ، كل أولئك كان ردّه عليهم في غالبه تفسيراً لغوياً ، وهذا يدل على القيمة العالية لهذا التفسير ، ومن هنا كان كبار الأئمة يستشهدون بتفسير ابن قتيبة اللغوي في المسائل العقديّة التي طرّقوها في مصنفاتهم ، كشيخ

(١) سورة المائدة : ١٠٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٧٧) .

الإسلام (ت ٧٢٨هـ)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، والسفاري (ت ١١٨٩هـ)، والشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ)، وغيرهم.

٥ . من مزايا التفسير اللغوي عند ابن قتيبة : التوسع والتنوع ، وذلك أن الإمام ابن قتيبة توسع في اعتماد التفسير اللغوي حتى لا يكاد باب من أبواب اللغة والدلالة في فروع البحث اللغوي المختلفة إلا وقف عليه واستعمله في تفسيره آيات القرآن الكريم، فكان كلما تناول كلمة في تفسيره تحدث عن أصلها اللغوي واشتقاقها ومعناها والمعاني التي تحملها ، كما تطرق للوجوه والنظائر والفروق اللغوية ، وللأضداد في اللغة، كما شملت البحوث اللغوية في تفسيره مباحث متنوعة من الدلالة ، فتعرض لدلالات الأساليب كالاستثناء والاستفهام والقسم والقصر وغيرها، وتعرض لدلالات الصيغ فعلية واسمية والفروق الاشتقاقية ، كما نثر ابن قتيبة في تفسيره مادة لغوية كثيرة تمثلت بالشواهد الشعرية والنثرية وبنقولته عن أئمة اللغة ، ورواة العرب .

٦ . يدل على قيمة تفسير ابن قتيبة اللغوي ثناء العلماء على تفسيره وفهمه للغة وعلمه بها ، ومن ذلك :

قول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) : "وابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) هو أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ، ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة ، وقصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة ، وليس هو أعلم بمعاني القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك ، وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة"^(١).

وقال ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) : "كان عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه"^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٤١١/١٧) .

(٢) الفهرست (ص ٨٥) .

وقال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) : "كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ثقة ديباً فاضلاً"^(١).

وقال أبو البركات ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) : "كان فاضلاً في اللغة والنحو والشعر ، متقناً في العلوم"^(٢).

٧ . تتجلى قيمة تفسير الإمام ابن قتيبة ومكانته العالية من خلال أثره الظاهر في التفاسير والمعاجم وكتب اللغة والفنون المختلفة ، فقد اعتمد على تفسيره اللغوي جمع من المفسرين ، كالتحاس (ت ٣٣٨هـ) ، والسمرقندي (ت ٣٧٥هـ) ، والثعلبي (ت ٤٢٧هـ) ، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) ، والماوردي (ت ٤٥٠هـ) ، والواحدي (ت ٤٦٨هـ) ، والبغوي (ت ٥١٦هـ) ، وابن عطية (ت ٥٤٦هـ) ، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، والقرطبي (ت ٦٧١هـ) ، وأبي حيان (ت ٧٤٥هـ) ، والسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، وفي اللغة وغريبها أفاد منه جمع من العلماء كأبي منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ) ، والخطابي (ت ٣٨٨هـ) ، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، وأبي عبيد الهروي (ت ٤٠١هـ) ، وابن سيده (ت ٤٥٨هـ) ، والزنجشيري (ت ٥٣٨هـ) ، وابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) ، وابن منظور (ت ٧١١هـ) ، كما لم يقتصر أثره على كتب التفسير واللغة ، بل تعداه إلى كتب العقيدة والحديث والفقهاء وغير ذلك^(٣).

(١) تاريخ بغداد (١١/٤١١) .

(٢) نزهة الألباء (ص ١٥٩) .

(٣) انظر : فصل "أثر ابن قتيبة فيمن بعده" (ص ٢٠١) من هذه الرسالة .

الفصل الخامس

الإسرائيليات

وفيه تمهيد ومبحثان :

- المبحث الأول: مصادر ابن قتيبة في الإسرائيليات .
- المبحث الثاني: منهجه في إيراد الإسرائيليات .

التمهيد

تعريف الإسرائيليات :

الإسرائيليات لغة : جمع إسرائيلية ، نسبة إلى بني إسرائيل ، وإسرائيل : كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة ، ومن (إيل) وهو الله عزّ وجل^(١) ، فيكون المعنى: عبدالله وصفوته في خلقه ، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، وبنو إسرائيل : هم أبناء يعقوب ، ومن تناسلوا منهم فيما بعد^(٢) .
الإسرائيليات اصطلاحاً :

كل ما تطرّق إلى التفسير والحديث من أساطير وقصص وأخبار من التراث اليهودي والنصراني ، وكل دخيل على التفسير مما فيه دس وكذب وتحريف ، ولو كان مروياً عن غير أهل الكتاب ، أو متعلقاً بقصص غير واردة في أسفار أهل الكتاب ، كقصص هود وصالح وشعيب ولقمان وغير ذلك ، وإنما سمّيت هذه الأخبار على اختلاف مصادرها بالإسرائيليات تليها للجانب اليهودي الذي اشتهر أمره فكثير النقل عنه ، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين، منذ بدء الإسلام إلى أن بسط نفوذه على كثير من أقطار العالم^(٣) .

تأريخ الإسرائيليات وأسباب الإكثار منها في التفسير :

يرجع دخول الإسرائيليات في التفسير إلى عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وذلك لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض القصص والأخبار ، مع فارق كونها موجزة في القرآن ومبسوطة ومفصلة في التوراة والإنجيل ، فكان بعض الصحابة إذا مرّ على قصة من تلك القصص يجد في نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه إلا مسلمة أهل الكتاب ، الذين حملوا إلى المسلمين تفاصيل تلك القصص

(١) ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب (ص ٦١) .

(٢) انظر : الإسرائيليات في التفسير والحديث ، د.محمد حسين الذهبي (ص ١٣)، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، د.محمد أبو شهبة (ص ١٢) .

(٣) انظر : الإسرائيليات في التفسير (ص ١٣)، الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ، د.رمزي نعاية (ص ٧٤) .

، فكان سؤال الصحابة رضوان الله عنهم لا يتجاوز أن يكون توضيحاً وتفصيلاً للقصة التي ذكرها القرآن مجملة ، وكان هذا السؤال مباحاً ، فهو لم يخرج عن الدائرة التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"^(١) . أما بالنسبة للتابعين فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب ، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، ثم جاء بعد عصر التابعين من شغف بالإسرائيليات وأفرط في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولاً ولا ينكرون خبراً منها ، واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات إلى أن جاء دور التدوين للتفسير ، فتساهل بعض المفسرين في تدوينها ، فضمن تفسيره الكثير من الأساطير والخرافات التي لا يقبلها عقل، والتي كان مصدرها أهل الكتاب^(٢) .

أما أسباب الإكثار من الإسرائيليات في التفسير فقد أرجعها ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في مقدمته إلى عدة اعتبارات^(٣) ، لخصها الدكتور/ محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٨هـ) بقوله : "ومن هذا يتضح لنا أن ابن خلدون أرجع الأمر إلى عدة اعتبارات اجتماعية وأخرى دينية، فعَدَّ من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب^(٤) ، وتشوقهم لمعرفة

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ، باب ما ذُكِرَ عن بني إسرائيل ح (٣٤٦١) (ص ٢٨٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) انظر : الإسرائيليات في التفسير (ص ١٥-٢٥)، منهج ابن كثير في التفسير ، د. سليمان اللاحم (ص ٣٣٥) .

(٣) أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي المعروف بـ"ابن خلدون" المؤرخ والعالم الاجتماعي، مولده ونشأته في تونس ، رحل إلى فارس وخراسان والأندلس وتولى فيها أعمالاً ثم توجه إلى مصر وولي فيها قضاء المالكية، له عدة مصنفات ، أشهرها : كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر" افتتحه بمقدمة اشتهرت بـ"مقدمة ابن خلدون"، تُعدُّ من أصول علم الاجتماع، وله "شفاء السائل لتهذيب المسائل" ، توفي في القاهرة سنة ٨٠٨هـ . [الضوء اللامع للسخاوي (٤/١٤٥)، المنهل الصافي (٧/٢٠٥)، شذرات الذهب (٧/٧٦)] .

(٤) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٩٠-٤٩١) .

(٥) قلت : وهذا الذي ذكر ابن خلدون في الاعتبارات الاجتماعية لا أدري كيف مرَّ على كثير من الباحثين دون تعقيب أو رد؟! فإن ابن خلدون له رأي معروف في العرب ، فهو ينتقصهم ويحقر أمرهم، وهذا السبب الذي ذكره من "غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية" ليس صحيحاً في حصره على العرب فإن الفضول والشغف تشترك فيه الإنسانية جمعاء، وليس للأمة أو البدوي دون غيره، وإنما أراد بهذا

ما تشوق إليه النفوس البشرية، من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، وهم يسألون في ذلك أهل الكتاب قبلهم، وعدّ من الاعتبارات الدينية التي سوغت لهم تلقي المرويات في تساهل وعدم تحرّ للصحة أن هذه المنقولات ليس مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل"^(١).

كما أن من أهم أسباب الإكثار من الإسرائيليات - ما ذكر سابقاً - من كون القرآن جاء موجزاً بجمالاً في كثير من القصص ، بينما الكتب السماوية السابقة جاءت فيها هذه القصص مفصلة ، ومن ذلك - أيضاً - ترجمة التوراة وشروحيها^(٢).

وأشار الإمام ابن قتيبة إلى سبب آخر وهو وجود طائفة من القصاص الذين لهم شوق وشغف برواية الإسرائيليات^(٣).

أقسام الإسرائيليات وحكم روايتها :

أجمل شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) الحديث عن أقسام الإسرائيليات وحكم روايتها بقوله :

"فإنها - الإسرائيليات - على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به،

ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم"^(٤).

وقد وافقه الكثير من أهل العلم على هذا التقسيم^(٥)، وتفصيل هذه الأقسام كالتالي :

الانتقاص من العرب والإيجاء بأن المعرفة تنقصهم ، ومن ثمّ فهم بحاجة إلى سؤال غيرهم من الأمم ممن يملك تلك المعرفة .

(١) التفسير والمفسرون (١/١٢٩-١٣٠) .

(٢) انظر : التفسير والمفسرون للذهبي (١/١٢٣)، الإسرائيليات وأثرها في التفسير (ص١٦٤) .

(٣) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص١٨٨) .

(٤) مقدمة التفسير (ص٢٥٦) مع شرحها للطيار .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير (١/٩)، أضواء البيان للشنقيطي (٤/١٨٧)، الإسرائيليات في التفسير للذهبي (ص٥٢)،

الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير (ص٨٢) .

القسم الأول: ما ثبت أنه صحيح في جملة حيث وافق ما جاء في شريعتنا ، كخلق آدم، وخروجه من الجنة، وقصة أهل الكهف، وهلاك فرعون.
فهذا القسم وإن كان صحيحاً إلا أنه لا فائدة من ذكره وروايته عن طريق الإسرائيليات ، ولا يزداد القارئ بمعرفته علماً ولا يقيناً .
قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : "فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا"^(١).

القسم الثاني : ما تعارض مع ما ورد في الكتاب والسنة، وثبت قطعاً أنه باطل.
وأكثر هذا القسم يتعلق بذات الله تعالى وبعضة الأنبياء ، فقد تضمنت الإسرائيليات الكثير من المزاعم والأكاذيب حول هذين الأمرين، وهذا باطل قطعاً، لا تجوز روايته إلا على سبيل التنبيه على بطلانه .

قال ابن كثير : "وما شهد له شرعنا منها بالبطلان ، فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال ، فإذا كان الله سبحانه وله الحمد قد أغنانا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما قد وقع فيه خبط وخلط ، وكذب ووضوح ، وتحريف وتبديل ، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير"^(٢).

القسم الثالث : ما يتعذر تصديقه أو تكذيبه لإغفال الكتاب والسنة له ، كأسماء أهل الكهف ، وأسماء الطيور التي جعل إبراهيم عليه السلام على كل جبل منهن جزءاً، واسم قتيل بني إسرائيل.

وأغلب الإسرائيليات الموجودة في التفسير من هذا النوع الذي لا يتضمن أي فائدة، ولا يضيف العلم به جديداً ينتفع به .

قال شيخ الإسلام - عن هذا القسم - : "وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر

ديني.

(١) البداية والنهاية (٨/١) .

(٢) المصدر السابق (٨/١) .

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم، وعِدَّتْهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرب به القتل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ودينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز"^(١).

(١) مقدمة التفسير (ص ٩١)، ت. زمري .

المبحث الأول

مصادر ابن قتيبة في الإسرائيليات

المتتبع للإسرائيليات في مصنفات ابن قتيبة يجد أنه قد اعتمد فيها - بشكل عام - على نوعين من المصادر :

أحدهما : المرويات ، إما عن السلف كابن عباس (ت ٦٨هـ) ، وعبدالله بن عمرو (ت ٦٥هـ) رضي الله عنهما ، الذين أخذوا عن مسلمة أهل الكتاب ، وإما عن أقطاب الإسرائيليات - كما يسميهم الذهبي (ت ١٣٩٨هـ) ^(١) - كوهب بن منبه (ت ١١٤هـ) وكعب الأحبار (ت ٣٢هـ) مباشرة .

الثاني : ينقل عن كتب أهل الكتاب مباشرة ، وهذا كثير وظاهر في كتبه ، ولا أعلم أحداً من المفسرين سبقه إلى فعل ذلك ، وهذا مسلك لا شك أنه ينتقد عليه ^(٢) ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ما تأثر به من الروايات التاريخية التي عالجها في بحوثه التاريخية الواسعة ، والتي استعان فيها بنقول كثيرة عن الكتب السماوية السابقة ، فتسرت تلك النقول من كتب التاريخ إلى كتب التفسير والحديث التي صنّفها الإمام ابن قتيبة ، ومن ثم رأينا تلك النقول في مصنفاته "تفسير غريب القرآن" ، و"تأويل مشكل القرآن" ، و"تأويل مختلف الحديث" ، و"غريب الحديث" .

أما تفصيل مصادر ابن قتيبة في الإسرائيليات ، فهو كالتالي :

أولاً : عبدالله بن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما :

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَبَّ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا ما بأيديهم من الكتاب ، فقالوا : ﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ^(٣) ، أفلا ينهاكم بما جاءكم

(١) التفسير والمفسرون (١/١٣٣) .

(٢) انظر : (ص ٣٧٦) من هذه الرسالة .

(٣) سورة البقرة : ٧٩ .

من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم" (١).

ومع هذا النهي الصريح عنه في الأخذ عن بني إسرائيل إلا أنه رضي الله عنه روي عنه الكثير من الإسرائيليات ، مما جعل أهل العلم يوجهون نهييه بعدة توجيهات ، منها:

١ . أن نهييه إنما هو في سؤالهم عما لا نصّ فيه، لأن شرعنا مُكْتَفٍ بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم (٢).

٢ . أن ابن عباس رضي الله عنه كان يُحذّر لئلا يُسأل من ليس بأهل فيقع في شك أو حيرة، في حين أن العالم المتمكّن الذي لا يُخشى عليه من ذلك له أن يسأل مستفيداً من الرخصة في الحديث عن بني إسرائيل (٣).

قلت : يمكن أن يوجه نهييه رضي الله عنه عن السؤال فيما جاء بيانه وإيضاحه في شرعنا، وأولى الأمور في الدخول في ذلك : العقيدة والأحكام التشريعية، إذ لا مجال للإسرائيليات فيها ، فقد جاء بيانها بوضوح في كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا مجال للسؤال عنها خارج دائرة الشرع ، ولذلك لم يسأل الصحابة رضوان الله عليهم أبداً في هذين الموضوعين ، أما مجال القصص والأخبار فإنها قابلة للمزيد من التفصيلات ، ولذلك كان الصحابة لا يتخرجون في سؤال أهل الكتاب عن شيء من هذه التفاصيل المتعلقة بالأخبار والقصص مع الحيطنة التامة وعدم التسليم بصحة ما ينقل لهم، وعلى هذا يحمل فعل ابن عباس رضي الله عنه من رواية الإسرائيليات.

وعلى كل حال فإن ابن عباس رضي الله عنه ممن نقل عن أهل الكتاب بعض القصص ، وكتب التفسير بالأثر حوت الكثير من تلك الروايات - مع الأخذ بالاعتبار أن الكثير من تلك المرويات كانت بأسانيد ضعيفة عنه - وكانت هذه المرويات مادة خصبة

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ح(٢٦٨٥) (ص٢١٣)، وفي الاعتصام ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء" ح(٧٣٦٣) (ص٦١٢).

(٢) انظر : فتح الباري (٣٣٤/١٣) .

(٣) انظر : تفسير التابعين (٨٨٦/٢) .

للإمام ابن قتيبة ، واعتمدها كأهم مصادره في الإسرائيليات ، ولذلك أكثر من النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه من الإسرائيليات ، ومن ذلك :

عندما عدّد الأقوال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ

لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ۗ ﴾^(١) ، قال :

"وفي رواية أبي صالح (ت ١٢١هـ) عن ابن عباس : أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان أمراً بالمسير إلى نينوى^(٢) ، ليدعو أهلها بأمر شعياء النبي عليه السلام ، فأنف من أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحدٍ غير الله تعالى ، فخرج مغاضباً للملك ، فعاقبه الله بالتقام الحوت"^(٣).

ثانياً : عبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ) رضي الله عنه^(٤).

مع ندرة المنقول من الإسرائيليات عن عبدالله بن عمرو إلا أنه اشتهر عند أهل العلم أنه أصاب زاملتين^(٥) من كتب أهل الكتاب ، وأنه كان يُحدّث منهما فيما فيه رخصة في الحديث عن بني إسرائيل.

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) : "حيث قال - صلى الله عليه وسلم - : "بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" رواه البخاري (ت ٢٥٦هـ) عن عبدالله بن عمرو"^(٦).

ولهذا كان عبدالله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ،

(١) سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٢) قال الحموي في معجم البلدان (٣٣٩/٥) : "هي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل" بالعراق .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٩) ، وانظر للاستزادة مما نقله عن ابن عباس : تأويل مختلف الحديث (ص ١٢٣) ، ١٥٠ ، ١٦٩ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ .

(٤) ذكرته ثانياً وقدمته بالذكر على من بعده مع قلة المنقول عنه لصحبته رضي الله عنه .

(٥) الزاملة : الحُمولة ، يقال الزاملة للدابة التي يُحمل عليها من الإبل وغيرها ، ومنه الزمولة : العير التي عليها أحمالها ، فأما العير : فهي ما كان عليها أحمالها وما لم تكن . [مادة (زمل) المحكم والمحيط الأعظم (٥٦/٩) ، لسان العرب (٣٠٩/١١)] .

(٦) سبق تحريجه (ص ٣٦٤) .

فكان يُحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك^(١).
وقد أثار خبر الزاملتين هذا الكثير من التساؤلات عند الباحثين ، فيقول الدكتور
مساعد الطيار :

"وإذا كان أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فإنه يلزم أحد أمرين :
الأول : أنه كان يعرف الرسم الذي كُتبت به هذه الكتب ، وهذا احتمال بعيد.
الثاني : أنها كانت تُترجم له .

وإذا كانت تترجم له ، فمن ذا الذي كان يُترجم له ؟
هذه الأسئلة تحتاج إلى بحث خاص ، وهي جدية بالعناية ، لأنها تحلُّ غموضاً في سيرة
عبدالله بن عمرو وهاتين الزاملتين ، وما ترتب عنهما من أنه كان يُحدِّث عن بني
إسرائيل"^(٢).

قلت : وقد وجدتُ في كلام ابن قتيبة ما يقوي الأمر الأول ، حيث يقول : " ... أن
يكون خصَّ بهذا عبدالله بن عمرو لأنه كان قارئاً للكتب المتقدمة ، ويكتب بالسريانية^(٣)
والعربية"^(٤).

(١) مقدمة التفسير (ص ٢٥٥) .

(٢) شرح مقدمة التفسير لابن تيمية (ص ١٦٦) .

(٣) يقول د.رمزي نعاة :

وروى ابن سعد في طبقاته (٢٦٦/٤) عن شريك بن خليفة الخطابي السدوسي ، قال : "رأيت عبدالله يقرأ
بالسريانية" .

أما متى تعلم عبدالله بن عمرو السريانية ، فيرجح أنه تعلمها أثناء فتوحات الشام، فقد كان عمرو بن العاص أحد
القواد الذين وجههم أبو بكر الصديق لفتح الشام ، وقد شهد عبدالله مع أبيه هذه الفتوحات وكانت معه راية أبيه
يوم اليرموك ، وقد كانت اللغة السريانية منتشرة في هذه البقاع على يد اليعاقبة ومُدوّن بها كثير من المؤلفات
القديمة" . [الإسرائيليات وأثرها في كتب الحديث (ص ١٤٦)] .

قلت : السريانية لغة قديمة كُتبت بها الإنجيل ، وبعض كتب أهل الكتاب السابقة ، ولهذا قال ابن قتيبة : "وبكل
هذه المذاهب - أي الأساليب اللغوية المتنوعة - نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى
شيء من الألسنة ، كما نُقلَ الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية" . [تأويل مشكل القرآن (ص ٢١)] .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٩٣) .

وهذا يدل على أنه كان قارئاً للكتب المتقدمة ، وأنه كان عارفاً بلغتها ، ومع هذا فإن المنقول عن عبدالله بن عمرو من الإسرائيليات نادرٌ جداً .
ومما نقله الإمام ابن قتيبة عنه من الإسرائيليات :

عند تفسير قوله تعالى - على لسان زكريا عليه السلام - ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۗ ﴾ ^(١) ، قال : "ومن الدليل أيضاً على أن يحيى - عليه السلام - لم يرثه مالا أن يحيى عليه السلام دخل بيت المقدس - وهو غلام صغير - فكان يخدم فيه ، ثم اشتدَّ خوفه فساح ولزم أطراف الجبال وغيران الشَّعاب .

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : دخل يحيى بن زكريا بيت المقدس ، وهو ابن ثماني حجج ، فنظر إلى عبّاد بيت المقدس ، قد لبسوا من مدارع الشعر ، وبرانس الصوف ، ونظر إلى متهجديهم قد خرقوا التراقي ، وسلكوا فيها السلاسل ، وشدّوها إلى حنايا بيت المقدس ، فهاله ذلك ، ورجع إلى أبويه ، فمرّ بصبيان يلعبون ، فقالوا : يا يحيى ، هلمّ فلنلعب ، قال : إني لم أخلق للعب ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۗ ﴾ ^(٢) .
فأتى أبويه فسألهما أن يدرّعاها الشعر ففعلا ، ثم رجع إلى بيت المقدس ، فكان يخدم فيه نهاراً ، ويسبّح فيه ليلاً ، حتى أتت له خمس عشر حجة وأتاه الخوف ، فساح ، ولزم أطراف الأرض ، وغيران الشَّعاب ... إلى آخر القصة" ^(٣) .

ثالثاً : وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ) :

أبو عبدالله وهب بن منبه بن كامل اليماني الدّماري الصنعاني ، التابعي الإخباري القصصي ، أخذ عن ابن عباس ، وأبي سعيد الخدري وعبدالله بن عمر وجابر رضي الله عنهم ، وعنه : عمرو بن دينار وسمّاك بن الفضل وعاصم بن رجاء بن حيوة ، وأخواه إسماعيل وهمام ، وأخرج له الجماعة .

(١) سورة مريم : ٥-٦ .

(٢) سورة مريم : ١٢ .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٢٠٣) ، وانظر للاستزادة : غريب الحديث (١/٤٤٥) .

كان واسع العلم ، كثير الاطلاع على كتب الأولين ، يقول ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) : "كانت له معرفة بأخبار الأوائل ، وقيام الدنيا ، وأحوال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وسير الملوك"^(١).

وقال الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : "وروايته للمسند قليلة ، وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات ، ومن صحائف أهل الكتاب"^(٢).

نُسب له بعض المؤلفات في القصص والأخبار كـ"أحاديث الأنبياء"^(٣) ، و"كتاب المبدأ"^(٤) ، و"ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم"^(٥).

يعد وهب بن منبه من أهم مصادر ابن قتيبة في الإسرائيليات ، حيث : اعتمد عليه بشكل كبير عند حديثه عن بدء الخلق وقصص الأنبياء ، وكان مصدره الأساس فيما ذكر من ذلك في كتابه "المعارف" ، ولم يقتصر على مجرد النقل عنه ، بل جاوزه إلى مقارنة ما نقله بما في التوراة ، ومن ذلك ، قوله في نسب إبراهيم عليه السلام :

"هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن أشرع بن أرعو بن فالغ بن عاشر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، هكذا قال وهب .

قال أبو محمد - ابن قتيبة - : وقابلت بهذه النسبة ما في التوراة ، فوجدتها موافقة إلا أنني وجدت مكان أشرع شاروغ"^(٦).

ومما نقله ابن قتيبة عن وهب بن منبه من الإسرائيليات ؛ قوله :
"وكان وهب بن منبه يقول في ذي القرنين : إنه رجل من أهل الإسكندرية ، واسمه الاسكندروس ، وإنه كان حلم حليماً رأى فيه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في

(١) وفيات الأعيان (٦/٣٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٥٤٥) .

(٣) ذكره ابن سعد في الطبقات (٧/٩٧) .

(٤) ذكره المسعودي في مروج الذهب (٥/١٢٧) .

(٥) ذكره الحموي في معجم الأدباء (٦/٢٨٠٢) .

(٦) المعارف (ص ١٩) .

شرقها وغربها ، فقصَّ رؤياه على قومه فسمَّوه ذا القرنين ، وأراد بأخذه بقرنيها أنه أخذ بجانبها"^(١).

رابعاً : كعب الأحبار (ت ٣٢٢هـ) :

أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري اليماني ، العلامة الحبر ، كان يهودياً عالماً بكتبهم حتى قيل له : كعب الأحبار ، أسلم في خلافة عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه ، وقدم المدينة من اليمن ، فجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية ، ويأخذ السنن عن الصحابة ، حدّث عن عمر وصهيب رضي الله عنهما ، وعنه بعض الصحابة كأبي هريرة وابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم^(٢).

قال الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : "كان خبيراً بكتب اليهود ، له ذوق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة ، سكن الشام بأخوّة ، وكان يغزو مع الصحابة ، توفي بجمص ذاهباً للغزو في أواخر خلافة عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه ، وكان من أوعية العلم"^(٣).

نقل عنه الكثير من المفسرين والمؤرخين ما ذكره من إسرائيليّات ، وممن نقل عنه الإمام ابن قتيبة ، فهو أحد مصادرهم في الإسرائيليات ، وإن كان نقله عنه على قلة ، ومن ذلك : قوله : "عن كعب ، قال : "إنَّ وَجّاً"^(٤) مقدس ، ومنه عرج الرب إلى السماء يوم قضى قضى خلق الأرض"^(٥).

وقال : "ويروى عن كعب ، أنه ذكر الدجال فقال : يُسَخَّرُ معه جبلٌ ماتع"^(٦) ، جلالته ثريد"^(١).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٨٦)، وانظر للاستزادة : (ص ٢٤، ١٢٢، ١٩٤، ٢٠٣)، غريب الحديث (٣٨٤/١)، كتاب المعارف (ص ١٠، ١١، ١٢، ١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٥).

(٢) انظر ترجمته في : طبقات ابن سعد (٧/٤٤٥)، المعارف (ص ٢٤٤)، تهذيب التهذيب (٨/٣٩٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٤٩١).

(٤) وَجٌّ : بالفتح ثم التشديد ، وادي الطائف قيل سميت وجّاً بوجّ بن عبد الحق من العمالقة ، وقيل من خزاعة ، يمر وادي وج في طرف الطائف من الجنوب الغربي ، ثم يتجه إلى الشرق ، وتسمى الطائف باسم هذا الوادي وَجٌّ .

[معجم البلدان (٥/٣٦١)، أطلس الحديث النبوي (ص ٣٧٤)].

(٥) غريب الحديث (١/٤١٠).

(٦) الماتع : الطويل الشاهق ، ومنه يقال في الدعاء : أمتع الله بك . [غريب الحديث لابن قتيبة (١/٥٩٧)، النهاية في

غريب الحديث (٤/٢٩٣)].

وهذه النقول عن كعب تدل على عدم صحة ما ذكره أحمد أمين (ت ١٣٧٣هـ) في "فجر الإسلام" من نفي نقل الإمام ابن قتيبة عن كعب الأحبار ، وهو يريد بذلك الطعن على كعب الأحبار ، حيث يقول : "وقد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووي (ت ٦٧٦هـ) لا يروي عنه أبداً ، وابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) يروي عنه قليلاً"^(٢).

خامساً : التوراة .

إن مما يثير الانتباه في مصنفات ابن قتيبة كثرة نقوله عن كتب أهل الكتاب، فقد اعتمدها كأهم مصادره في القصص والأخبار ، فتجده ينقل نقولاً مباشرة عنها، وكانت أكثر نقوله تلك من التوراة ، ومما نقله عنها ؛ قوله في قصة نوح عليه السلام :
 "وقرأت في التوراة : أنه لما كان بعد أربعين يوماً فتح نوح - عليه السلام - كوة الفُلك التي صنع ، ثم أرسل الغراب فخرج ولم يرجع ، حتى يبس الماء عن الأرض ، وأرسل الحمامة مرة بعد مرة ، فرجعت حين أمست ، وفي منقارها ورقة زيتون، فعلم أن الماء قد قلّ عن وجه الأرض"^(٣).

وأحياناً لا يقتصر على مجرد النقل ، بل يتعداه إلى شرح ما في التوراة ، ومن ذلك :
 قوله في قصة موسى عليه السلام : "وهذه التوراة فيها أن الله تعالى قال لموسى : اذهب إلى فرعون فقل له : أخرج إليّ بني بكرى بني إسرائيل من أرض كنعان إلى الأرض المقدسة ، ليحمدوني ويمجدوني ويقدموني ..."
 قال أبو محمد : بكرى أي : هو لي ، بمنزلة أول أولاد الرجل ، وهو بكرى أي : أول من اخترته"^(٤).

(١) غريب الحديث (١/٥٩٨) ، انظر للاستزادة : (٢/٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦) ، تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٥).

(٢) فجر الإسلام (ص ١٦١) .

(٣) غريب الحديث (١/٣٢٧) ، وانظر للاستزادة : تأويل مختلف الحديث (ص ٢٤ ، ٢٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢٢١ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٣٢١) ، المعارف (ص ٧ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦) ، تأويل مشكل القرآن (ص ٨١ ، ١٠٤) ، عيون الأخبار (٢/٦٥٠ ، ٦٥١) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٢٤) .

ومما لا شك فيه أن كثرة هذه النقول من كتب أهل الكتاب من المآخذ التي تؤخذ على الإمام ابن قتيبة ، خاصة وأنه على يقين بأن يد التحريف والتبديل قد نالت تلك الكتب ، ولهذا نصّ العلماء على عدم جواز قراءة الكتب السابقة إلا على سبيل الرد على أهلها ، وذلك للعالم دون غيره .

قال ابن مفلح (ت ٧٦٣هـ) ^(١):

"فصل في قراءة التوراة والإنجيل والزيور ونحو ذلك كما يفعله بعض القُصّاص .

سئل الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) عن هذه المسألة في رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانئ النيسابوري (ت ٢٧٥هـ) فغضب ؛ فقال : "هذه مسألة مُسلم !؟ وغضب" .
وظاهره الإنكار ، وذكره القاضي أبو يعلى (ت ٥٢٦هـ) ، ثم أحتج بأنه عليه الصلاة والسلام لما رأى في يد عمر (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه قطعة من التوراة غضب ، وقال : "ألم أت بها بيضاء نقية" ^(٢) الحديث .

ولأنها كتبت مبدلة مغيرة ، فلم تجزُ قراءتها والعمل عليها ، قال : وهذه مسألة جرت بين شيوخنا العُكْبَرِيِّين ^(٣) ، فكان ابن هرمز والد القاضي أبي الحسين (ت ٤٢٤هـ) ^(٤) يُقصُّ بهذه الكتب ، وكانت مُعَرَّبة ، فأنكر عليه أبو عبدالله بن بطة (ت ٣٨٧هـ) ذلك ، وصنّف فيه

^(١) أبو عبدالله محمد بن مفلح بن محمد المقدسي ثم الصالحي ، العلامة الفقيه ، شيخ الحنابلة في وقته ، تتلمذ على المري والذهبي ، وكانا يعظمانه ، وحضر عند شيخ الإسلام ابن تيمية ونقل عنه كثيراً ، وكان يقول له : ما أنت ابن مفلح أنت مُفْلِح ، وكان أخبر الناس بمسائله واختياراته حتى إن ابن القيم يراجع في ذلك ، وقال عنه ابن القيم : ما تحت قُبَّة الفَلَك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح ، له عدة مصنفات ، من أشهرها : "الفروع" ، و"الآداب الشرعية" ، توفي سنة ٧٦٣هـ . [المقصد الأرشد (٢/٥١٨) ، الدرر الكامنة (٤/٢٦١) ، شذرات الذهب (٨/٣٤)] .

^(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣٣٨ ، ٣٧٨) ، وابن أبي شيبة في مصنفه ح (٢٦٩٤٩) (١٣/٤٥٨) ، وابن أبي عاصم في السنة (ص ٥٠) ، من طريق مجالد بن سعيد الهمداني عن الشعبي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، فذكر القصة ، قال الألباني في "ظلال الجنة في تخريج السنة لأبي عاصم" (١/٢١) : "حديث حسن ، إسناده ثقات غير مجالد وهو ابن سعيد فإنه ضعيف ، ولكن الحديث حسن له طرق" .

^(٣) نسبة إلى عُكْبَرَا بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الباء ، ويقصر على السوء ، قال الحموي : "والظاهر أنه ليس بعربي" ، وعكبرا مدينة صغيرة على شرق دجلة بين بغداد والموصل . [معجم البلدان (٤/٤٢) (١)] .

^(٤) هو محمد بن هرمز أبو الحسين القاضي العُكْبَرِي ، كانت له رئاسة وجمالية في المذهب الحنبلي ، توفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة . [طبقات الحنابلة (٢/١٧٩)] .

جزءاً ذكر فيه ما حكينا من رواية إسحاق ، وذكر فيه أيضاً عن أحمد رواية أبي يحيى - زكريا بن يحيى - الناقد (ت ٢٨٥هـ)، قال : سمعت أحمد يقول : الاشتغال بهذه الأخبار القديمة يقطع عن العلم ، وذكر حديث عمر رضي الله عنه^(١).

وقال الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : "ولا يُشرع لأحدٍ بعد نزول القرآن أن يقرأ التوراة ولا أن يحفظها ، لكونها مبدلة محرّفة منسوخة عن العمل ، قد اختلط فيها الحق بالباطل ، فلتجتنب ، فأما النظر فيها للاعتبار وللدرد على اليهود فلا بأس بذلك للرجل العالم قليلاً، والإعراض أولى"^(٢).

والمشكل أن الإمام ابن قتيبة لم يقتصر على مجرد نقل القصص والأخبار من كتب أهل الكتاب ، بل بلغ به الأمر أن ينقل بعض النقول من التوراة والإنجيل في المسائل العقديّة، وإن كان الغالب من صنيعة الاستئناس بها وليس الاحتجاج ، ومن ذلك :

قوله بعد تقريره أن الله في السماء والاستدلال على ذلك من الكتاب والسنة:
 "والأمم كلها عربها وعجميها تقول : إن الله تعالى في السماء ، ما تُركت على فطرها ، ولم تُنقل عن ذلك بالتعليم ، وفي الإنجيل : أن المسيح عليه السلام قال: لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسي الله تعالى ، وقال للحواريين : إن أنتم غفرتم للناس فإن ربكم الذي في السماء يغفر لكم ظلمكم ، انظروا إلى طير السماء ، فإنهن لا يزرعن ولا يحصدن ولا يجمعن في الأهواء ، وربكم الذي في السماء هو يرزقهن"^(٣).

وقوله في مسألة إثبات رؤية المؤمنين لله عزّ وجل يوم القيامة :
 "وقرأت في الإنجيل أن المسيح عليه السلام حين فتح فاه بالوحي قال: طوبى للذين يَرَحْمُونَ ، فعليهم تكون الرحمة ، طوبى للمخلصه قلوبهم ، فإنهم الذين يرون الله تبارك وتعالى"^(٤).

سادساً : الإنجيل .

(١) الآداب الشرعية (٢/١٠٠) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٨٦) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص١٨٤) .

(٤) المصدر السابق (ص١٤٠) .

كما نقل ابن قتيبة عن التوراة بعض القصص والأخبار ، فإنه كذلك نقل عن الإنجيل، وإن كان بدرجة أقل، لكن يبقى من مصادره المهمة التي ينقل عنها الإسرائيليات، ومن ذلك قوله :

"وفي الإنجيل : أن الملك الذي خافته مريم على عيسى عليه السلام هُرادس ، وكان عيسى عليه السلام ولد في بيت لحم يهوذا وهو بيت الشام ، فلما مات هرادس رأى يوسف النجار في النوم أن يذهب به وبأمه إلى أرض الخليل ، وهو موضع بالشام ، فانطلق فسكن في قرية تدعى ناصرة ، فلذلك قيل النصارى"^(١).

ولم يقتصر في نقله عن الكتب السابقة على التوراة والإنجيل ، بل نقل في مواضع قليلة عن الزبور^(٢).

وهذه المصادر المتقدمة هي أهم مصادر الإمام ابن قتيبة في الإسرائيليات ، وإلا فهناك مصادر أخرى نقل عنها على قلة ، منها : مرويات السلف كسعيد بن المسيب (ت ٩٤ هـ)^(٣)، والحسن (ت ١١٠ هـ)^(٤)، ومنها المرويات الشفهية للأخبار القديمة^(٥).

(١) المعارف (ص ٣١)، وانظر للاستزادة : تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٣)، تأويل مختلف الحديث (ص ١٠٠، ١٤٠،

١٤٤)، غريب الحديث (١٠/٢)، عيون الأخبار (٥١٦/٢، ٦٥٢)، (٣٤/٣) .

(٢) انظر : تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٣)، عيون الأخبار (٦٤٧/٢، ٦٩٤) .

(٣) غريب الحديث (١١/٢) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٩٢) .

(٥) غريب الحديث (٤٩٩/١) .

المبحث الثاني

منهجه في إيراد الإسرائيليات

تعرض الإمام ابن قتيبة للإسرائيليات في مصنفاته في القرآن وعلومه، وفي غيرها من المصنفات، وكانت له فيها وقفات محمودة، كما كانت له بعض الهنات التي يؤاخذ عليها، ولعل أبرزها كثرة نقوله عن كتب أهل الكتاب، ويمكن الحديث عن أهم ملامح منهج الإمام ابن قتيبة من خلال الأمور التالية:

أولاً: تنوع منهج ابن قتيبة في إيراد الإسرائيليات.

أ. فتارة يورد الإسرائيليات بالإسناد، وهو قليل جداً، ومن ذلك:

قوله: "حدثني محمد بن عبيد (ت ٢٤٩هـ)، قال: حدثنا خلف بن تميم (ت ٢١٣هـ)، عن أبي عصمة الشامي (ت ١٧٣هـ)، عن ابن أخت وهب بن منبه عن وهب (ت ١١٤هـ) قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له "إرمياء" حين ظهرت فيهم المعاصي: أن قُم بين ظهراي قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون، وأعيناً ولا يبصرون، وآذاناً ولا يسمعون..."^(١).

ب. وتارة يورد الإسرائيليات مع نسبتها لمصادرها ورواتها، وهذا كثير جداً، وسبق الكثير من الأمثلة على هذا في المبحث السابق.

ج. وتارة يورد الإسرائيليات ويهم مصدرها، فيقول: "قال بعض المفسرين"، أو "جاء في التفسير"، ومن ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾^(٢)، قال: "أي اضربوا القليل ببعض البقرة، قال بعض المفسرين: "فضربوه بالذنب"، وقال بعضهم: "بالفخذ فحبي"^(٣).

(١) عيون الأخبار (١/٦٤٦)، وانظر للاستزادة: (١/٦٤٧، ٦٥٣، ٦٥٦)، تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٥، ١٩٢، ٢٠٤)، غريب الحديث (١/٤١٠، ٤٤٤)، (٢/٤٩٩).

(٢) سورة البقرة: ٧٣.

(٣) تفسير غريب الحديث (ص ٥)، وانظر للاستزادة (ص ١٠٤، ٣٢٥، ٣٣٥)، تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨٧)، غريب الحديث (١/٢٣٢، ٤٩٩).

د . وتارة يورد الإسرائيليات دون نسبة ، وهذا كثير ، ومن ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾^(١) ، قال :
"يعنون يوسف - عليه السلام - وكان سرق صنماً يُعبد ، وألقاه"^(٢) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾^(٣) ، قال : "كان العصر الذي بعث الله عز وجل فيه إبراهيم صلى الله عليه عصر نجوم وكهانة ، وإنما أمر نمrod بقتل الولدان في السنة التي وُلد فيها إبراهيم صلى الله عليه ، لأن المنجمين والكهّان قالوا : إنه يولد في تلك السنة من يدعو إلى غير دينه ، ويَزْغَب عن سنّته"^(٤) .

هـ . وربما أورد بعض الإسرائيليات بصيغة التمريض ، فيقول : "روي في .." أو "يُروى عن ... ، ومن ذلك :

قوله في قصة يونس عليه السلام : "وقد رُوِيَ في الحديث أنه كان ضيق الصدر ، فلما حُمِلَ أعباء النبوة تَفَسَّخَ تحتها تَفَسَّخَ الرُّبْعَ تحت الحِمْلِ الثَّقِيلِ"^(٥) ، فمضى على وجهه مُضِيًّا
الآبِق النَّادِ"^(٦) ، يقول الله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾^{(٧) (٨)} .

(١) سورة يوسف : ٧٧ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٢٠) .

(٣) سورة الأنعام : ٧٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٣٥) ، وانظر للاستزادة : (ص ٩٦ ، ١٠٠) ، تفسير غريب القرآن (ص ٥٩ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٢٩ ، ١٧٤ ، ٢٢٠) ، المسائل والأجوبة (ص ٢٠٤) .

(٥) تفسخ : أي ضَعْفَ وَعَجَزَ ، والرُّبْعُ : الفصيل الذي ينتج في الربيع ، تحت الحمل الثقيل ، وذلك إذا لم يطقه . [مادة (فسخ) لسان العرب (٣/٤٤) ، تاج العروس (٧/٣٢٠)] .

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/٣٧٦) عن وهب بن منبه .

(٧) سورة الصافات : ١٣٩-١٤٠ .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٨) ، وانظر للاستزادة : (ص ٢٨٧ ، ٣٣٨) ، غريب القرآن (ص ١٠٤) .

ثانياً : تحدث الإمام ابن قتيبة بكلام نفيس عن الإسرائيليات ، حيث أوضح أوجه الضعف والفساد التي تدخل عليها ، ومن خلالها يتضح موقف ابن قتيبة من الإسرائيليات، وهي من الأمور التي تُحمد له في هذا المجال .

يقول ابن قتيبة : " ونحن نقول إن هذا الحديث لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن صحابته ، وإنما هو خبر من الأخبار القديمة ، التي يرويها أهل الكتب، سمعه قوم منهم على قديم الأيام ، فتحدثوا به .

والحديث يدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة .

منها: الزنادقة واجتياهم للإسلام، وتهجينه^(١) بدس الأحاديث المستشعنة والمستحيلة.

والوجه الثاني : القصاص على قديم الأيام ، فإنهم يُميلون في وجوه العوام إليهم ويستدرون ما عندهم ، بالمناكير، والغريب، والأكاذيب من الأحاديث .

ومن شأن العوام القعود عند القاصِّ ، ما كان حديثه عجيباً ، خارجاً عن فطرِ العقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ، ويستغزر العيون.

فإذا ذكر الجنة ، قال فيها الحوراء من مسك ، أو زعفران ، وعجيزتها ميل في ميل.

ويقول: لأصغر من في الجنة منزلة عند الله ، من يعطيه الله تعالى مثل الدنيا كذا وكذا ضعفاً ، وكلما كان من هذا أكثر ، كان العجب أكثر ، والقعود عنده أطول، والأيدي بالعتاء إليه أسرع.

والله تبارك وتعالى يخبرنا في كتابه ، بما في جنته بما فيه مقنع عن أخبار القصاص، وسائر الخلق ، حين وصف الجنة بأنَّ عرضها السموات والأرض ، يريد سعتها.

فكيف يكون عرضها السموات والأرض ، ويعطي الله تعالى أحسن من فيها منزلة مثل الدنيا أضعافاً؟! .

وأما الوجه الثالث : الذي يقع فيه فساد الحديث فأخبار متقدمة كان الناس في الجاهلية يروونها ، تشبه أحاديث الخرافة ، كقولهم : "إن الضبَّ كان يهودياً عاقاً ، فمسخه الله تعالى ضباً" ، ولذلك قال الناس : "أعقُّ من ضب" .

(١) تهجين الأمر أي تقيحه . [مادة (هجن) مختار الصحاح (ص ٧٠٥)] .

ولم تقل العرب : "أعق من ضب" لهذه العلة ، وإنما قالوا ذلك لأنه يأكل حُسُوله^(١) إذا جاع.

وكقولهم في الهدهد : "إن أمه ماتت" فدفنها في رأسه ، فلذلك أنتنت ريحه^(٢).

ثالثاً : نتيجة للموقف المتقدم من ابن قتيبة حول الإسرائيليات تجده يَرُدُّ بعض الإسرائيليات الواردة في التفسير ، وغالب رده لها يتمحور حول أمرين :

أحدهما : رد الإسرائيليات التي تطعن في الأنبياء وتقذح في عصمتهم ، ومن ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِيَّةَ ﴾ الآيات^(٣) ، قال :

"ومن الناس من يذهب إلى أن إبراهيم صلى الله عليه كان في تلك الحال على ضلال وحيرة .

وكيف يتوهم ذلك على مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَطَهَّرَهُ فِي مَسْتَقَرِّهِ وَمَسْتَوْدَعِهِ !؟ .

والله سبحانه يقول : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾^(٤) ، أي : لم يُشْرِكْ به قط ، كذلك قال المفسرون ، أو من قال منهم .

ويقول في صدر الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ

مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾^(٥) ، ثم قال على أثر ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾^(٦) .

أفترى الله أراه الملكوت ليوقن ، فلما أيقن رأى كوكباً فقال : هذا ربي على الحقيقة والاعتقاد !؟^(٧) .

(١) حُسُول: جمع حِسْل ، وهو ولد الضب حين يخرج من بيضته . [مادة (حسل) لسان العرب (١١/١٥١)] .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٨-١٩٢) .

(٣) سورة الأنعام : ٧٦-٧٩ .

(٤) سورة الصافات : ٨٤ .

(٥) سورة الأنعام : ٧٥ .

(٦) سورة الأنعام : ٧٦ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٣٧-٣٣٨) .

الأمر الثاني : رد الإسرائيليات التي تُحيلها العقول السليمة ، وتُنكرها الأفهام الصحيحة ، وهي أقرب إلى الخرافة والكذب .
 كان ظاهراً من منهج ابن قتيبة ردُّ كلِّ ما لا يقبله العقل ويستحيله من الإسرائيليات ، ونصَّ على هذا في كثير من المواضع ، منها :
 قوله : "ثم يذكر - بعض القُصَّاص - آدم عليه السلام ، ويصفه فيقول : كان رأسه يبلغ السحاب أو السماء ، ويحاكها ، فاعتراه لذلك الصلع ، ولما هبط إلى الأرض ، بكى على الجنة ، حتى بلغت دموعه البحر ، وجرت فيها السفن .
 ويذكر داود عليه السلام فيقول : سجد لله تعالى أربعين ليلة ، وبكى حتى نبت العشب بدموع عينيه ، ثم زفر زفرة ، هاج له ذلك النبات .
 ويذكر عصا موسى عليه السلام ، فيقول : كان نابها كمنخلة سحوق ، وعينها كالبرق الخاطف ، وعُرفها كذا .

والله تعالى يقول : ﴿ كَانَتْهَا جَانٌّ ﴾^(١) ، و"الجان" خفيف الحيات .
 وذكرها في موضع آخر ، فقال : ﴿ فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ ﴾^(٢) .
 ويذكر عبادة أتاهم يونس عليه السلام في جبل لبنان ، فيخبرهم عن الرجل منهم أنه كان يركع ركعة في سنة ، ويسجد نحو ذلك ، ولا يأكل إلا في كذا وكذا من الزمان .
 وقد ذكر الله تبارك وتعالى الذين قبلنا ، فقال : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ ﴾^(٥) .
 ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾^(٥) .

(١) سورة النمل : ١٠ .

(٢) سورة الأعراف : ١٠٧ .

(٣) سورة التوبة : ٦٩ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٤ .

(٥) سورة الشعراء : ١٢٨-١٣٠ .

وليس في شيء مما وصف الله تعالى به من قبلنا ، ما يقارب هذا الإفراط .
 وقد نعلم أنهم كانوا أعظم منّا أجساماً ، وأشدّ قوّة ، غير أن المقدار فيما بيننا وبينهم
 مقدار ما جعله الله بين أعمارنا وأعمارهم .
 وقد جعل الله تعالى لنا معتبراً بآثارهم في الأرض ، وما بنوه من مدنهم وحصونهم
 ونقّبوه في الجبال الصمّ من أبوابهم ونحتوه من درجهم .
 وليس في ذلك من التفاوت بيننا وبينهم ، إلا كما بين أعمارنا وأعمارهم ، وكذلك
 الخلق" (١) .

ومن هذا الوجه ردّ الإمام ابن قتيبة قصة عُوج بن عُوق (٢) ، التي امتلأت بها كتب
 التفسير ، وذكرها الطبري (ت ٣١٠ هـ) (٣) ، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) (٤) ، والبغوي (ت
 ٥١٦ هـ) (٥) ، والقرطبي (ت ٦٧١ هـ) (٦) ، وغيرهم ، وقد شنع أهل الكلام والفلاسفة على
 أهل الحديث روايتهم لهذه القصة كما ذكر ابن قتيبة إذ يقول:
 "قالوا - أي أهل الكلام والفلاسفة - رويتم أن عُوجاً اقتلع جبلاً قدره فرسخ في
 فرسخ على قدر عسكر موسى عليه السلام ، فحمله على رأسه ليطبقه عليهم فصار طوقاً
 في عنقه حتى مات ... ،
 قالوا : وهذا كذب بيّن لا يخفى على عاقل ولا على جاهل وكيف صار في زمن موسى
 عليه السلام من خالف أهل الزمان هذه المخالفة" (٧) .
 وقد ردّ عليهم ابن قتيبة ؛ فقال :

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٩-١٩١) .

(٢) منهم من يقول : عُوج بن عُوق ، ومنهم من يقول : عُوج بن عُوق كما هو عند البغوي وابن كثير .

قال الفيروزآبادي : "عُوج ، عُوق بضمهما - أي العينين - رجل ولد في منزل آدم ، فعاش إلى زمن موسى ، ودُكِرَ
 من عظيم خلقه شناعة ... ، ومن قال عُوج بن عُوق فقد أخطأ" . [القاموس المحيط (ص ٢٥٦ ، ١١٧٩)] .

(٣) تفسير الطبري (٨/٣١٤ ، ٣١٥) .

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٨/٢٧٩١) .

(٥) تفسير البغوي (٣/٢٩) .

(٦) تفسير القرطبي (٦/١٢٦) .

(٧) تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٧) .

"ونحن نقول إن هذا حديث لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن صحابته ، وإنما هو خبر من الأخبار القديمة التي يرويها أهل الكتب ، سمعه قوم منهم على قدم الأيام فتحدثوا به ، وأما الوجه الثالث الذي يقع فيه فساد الحديث فأخبار متقدمة كان الناس في الجاهلية يروونها تشبه أحاديث الخرافة ، وحديث عوج عندنا من هذه الأحاديث"^(١).

رابعاً : يختلف منهج الإمام ابن قتيبة في إيرادهِ للإسرائيليات من حيث القلة والكثرة ومن حيث التعقيب عليها وردّها باختلاف المجال المطروقة فيه ، ففي مجال التفسير والحديث تراه مقلاً في إيراد الإسرائيليات ويُعقّب ويُنبّه في الغالب على ما أورده منها، وأكثر ردّه للإسرائيليات - كما سبق - كان في هذا المجال ، أما المجال التاريخي فيختلف منهجه فيه بشكل كبير ، فتجده يتوسع في إيراد الإسرائيليات ويسوقها دون أن يُنبّه عليها أو يتعقبها بشيء ، ويكفي شاهداً على هذا ما ذكره عن بدء الخلق وقصص الأنبياء في مقدمة كتابه "المعارف"^(٢).

خامساً : كان الإمام ابن قتيبة يورد الإسرائيليات أحياناً ليستشهد بها على ترجيح قول أو تقويته ، ومن ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾^(٣) ، قال :

"فضحكت ، قال عكرمة (ت ١٠٥هـ) : حاضت ، من قولهم : ضحكت الأرنب : إذا حاضت .

وغيره من المفسرين يجعله الضحك بعينه ، وكذلك هو في التوراة ، وقرأت فيها : "أنها حين بُشّرت بالغلام ضحكت في نفسها، وقالت: من بعد ما بليت أعود شابةً ، وسيدي إبراهيم قد شاخ ، فقال الله لإبراهيم عليه السلام : لم ضحكت سراً - وسراً اسمها في التوراة

(١) المصدر السابق (ص ١٨٨-١٩١) .

(٢) انظر : (ص ٧-٣٤) .

(٣) سورة هود : ٧١ .

، يعني سارة - وقالت أحق أن ألد وقد كبرت؟ فحدثت سرًا ، وقالت: لم أضحك، من أجل أنها خشيت ، فقال: بلى لقد ضحكت" (١).

وعند تفسير قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۗ ﴾ (٢)، بين أنه لا يتعارض مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنّا معشر الأنبياء لا نورث" (٣)، وعلل واستشهد لذلك فقال : "لأن زكريا عليه السلام لم يُرِدْ يرثني مالي فيكون الأمر على ما ذهبوا إليه - أي تعارض النصين - وأي مال كان لزكريا عليه السلام يَضُرُّ به عن عصبته حتى يسأل الله تعالى أن يهب له ولدًا يرثه ، لقد جلّ هذا المال إذا وعظم قدره عنده ونافس عليه منافسة أبناء الدنيا الذين لا يعملون وللمال يكدحون ، وإنما كان زكريا بن آذن نجاراً وكان حبراً ، كذلك قال وهب بن منبه (ت ١١٤هـ)، وكلا هذين الأمرين يدل على أنه لا مال له ، ومن الدليل - أيضاً - على أن يحيى - عليه السلام - لم يرثه مالا أن يحيى عليه السلام دخل بيت المقدس وهو غلام صغير ، فكان يخدم فيه ، ثم اشتد خوفه فساح ولزم أطراف الجبال وغيران الشعاب ، ثم ذكر قصة يحيى عليه السلام طويلة ومفصلة عن عبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ) رضي الله عنه" (٤).

سادساً : كان الإمام ابن قتيبة يلجأ أحيانا للجمع والتوفيق بين ما ورد في القرآن والكتب السابقة ، ومن ذلك :

قوله : "سألت عن قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ ﴾ (٥)، قلت: وهو في التوراة وفي جميع الكتب المتقدمة وروايات التُّسَاب "تاريخ" ، ثم قال - ابن قتيبة - جواباً لسؤاله : "ونحن نقول في أبي إبراهيم : إن اسمه كما ذكروا في التوراة "تاريخ"، ولا نعلم

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) سورة مريم : ٥-٦ .

(٣) سبق تخرجه (ص ٣٠٧) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٢٠٣-٢٠٤)، وانظر للاستزادة : (ص ١٤٩، ١٩٦)، تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٨)

(٥) سورة الأنعام : ٧٤ .

كيف اسمه في غيرها من الكتب ، ولا يَبْعُدُ أيضاً أن يكون اسمه "آزُرُ" لأنَّ الرجل قد يكون له الاسمان ، ويكون له الكنيتان ، ويكون له الاسم ، والوصف ، فيُدْعَى بالوصف إذا غَلَبَ عليه ، ويُتْرَكُ الاسم، فهذا إدريس اسمه في التوراة خَنُوحُ ، ويعقوب اسمه إسرائيلُ ، وعيسى يدعى المسيح، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لي خمسة أسماءٍ أنا محمد وأحمد والمحي والعاقب والحاشر"^(١)، وقال الله عزَّ وجل حكاية عن المسيح : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ﴾^(٢) ، وقال عزَّ وجل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾^(٣) .

وقد تكون للرجل الكنيتان كما كان له اسمانٍ ، فحمزة بن عبد المطلب (ت ٥٣هـ) يُكْتَبُ أبا يعلى ، وأبا عُمارة ، وعبد العُزَّى بن عبد المطلب (ت ٥٢هـ) يُكْتَبُ أبا لُحْبٍ وأبا عُثْبَةَ ، وصخر بن حرب (ت ٣١هـ) أبو معاوية يُكْتَبُ أبا سفيان وأبا حَنْظَلَةَ ، وهذا كثير في العرب ، فما يُنَكَّرُ من أن يكون لأبي إبراهيم اسمان بأيهما دعوته كنت صادقاً، أو اسم وصفة فتدعوه بالصفة تارة ، وبالاسم تارة ، كما قلت في عيسى والمسيح، وخنوخ وإدريس .

وقد كان بعض القراء^(٤) يقرأ : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزُرُ)^(٥) ، يرفع آزرَ على نية النداء كأنه : يا آزرُ ﴿ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾^(٦) ، وعلى هذه القراءة يجوز أن يكون دَعَاهُ لصفة كأنه قال : يا ضعيفُ ، أو يا جاهلُ إن كان ذمُّهُ ، وما أشبه هذا، أو قال: يا مؤازري ، ويا مصاحبي ، إن لم يكن ذمُّهُ ، ويا شيخي ، وما أشبهه"^(٧) .

سابعاً : مع الوقفات الكثيرة المحمودة للإمام ابن قتيبة في الإسرائيليات إلا أنه وقع - كما وَقَعَ كثير من المفسرين - في بعض الهنات التي لن يسلم منها مَنْ خاض في

(١) أخرجه البخاري في المناقب ، باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم ح(٣٥٣٢) (ص٢٨٨)، وفي التفسير [سورة الصف]، باب "من بعدي اسمه أحمد" ح(٤٨٩٦) (ص٤١٩)، ومسلم في الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم ح(٦١٠٥) (ص١٠٩١) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه .

(٢) سورة الصف : ٦ .

(٣) سورة الفتح : ٢٩ .

(٤) قرأ يعقوب وحده بضم الراء "آزرُ" وقرأ الباقر بفتح الراء "آزرُ" . [المبسوط (ص١٩٦)، النشر (٢/١٩٥)].

(٥) سورة الأنعام : ٧٤ .

(٦) سورة الأنعام : ٧٤ .

(٧) المسائل والأجوبة (ص٢٠٢-٢٠٤) .

الإسرائيليات وأوردها في تفسيره ، وأشد ما ينتقد عليه ابن قتيبة في ذلك إيراد بعض الإسرائيليات التي لا تثبت ولا تتفق مع النقل والعقل كالأخبار والقصص التي تناقض عصمة الأنبياء عليهم السلام ، أو تخالف أصلاً من أصول العقيدة أو تأبها العقول السليمة، والأفهام الصحيحة ، ومن الإسرائيليات الباطلة التي نقلها ابن قتيبة دون أن يُرَدِّدَهَا أو يُعَقِّبَ عليها :

١ . قصة هاروت وماروت :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ إِلَّا بِالْهَرُونَ وَمَرُوتٌ ۗ ﴾^(١) ، نقل عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنه قوله : "هما ملكان أهبطا إلى الأرض حين عمل بنو آدم المعاصي ليقضيا بين الناس وألقي في قلوبهما شهوة النساء إلى آخر القصة"^(٢).

وهذه قصة مكذوبة مختلقة لا تتفق مع ما قرره الشرع من أن الملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر ، وقد حكم بوضع هذه القصة ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)^(٣) ، والقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)^(٤) ، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)^(٥) ، ونصَّ الحافظ العراقي (ت ٨٠٦هـ) على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر بالله العظيم، فإن الملائكة معصومون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"^(٦).

وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) : "هذا كله ضعيف ، ولا يصح منه شيء ؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله"^(٧).

٢ . قصة الغرائيق :

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٢٤) .

(٣) الفصل في الملل والنحل (٤/٢٦) .

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/١٧٥) .

(٥) الموضوعات (١/١٨٦) .

(٦) نقله الألويسي في روح المعاني (١/٣٤٠) .

(٧) تفسير القرطبي (٢/٥٢) .

يقول ابن قتيبة : " فقد قرؤوا في كتاب الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ^(١) ، يريد إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته ، يُعزِّيه عما ألقاه الشيطان على لسانه حين قرأ في الصلاة " وتلك الغرائيق ^(٢) العلى وإن شفاعتهن لترجي " ^(٣) .

وهذه قصة مكذوبة تقدح في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نبه العلماء على وضعها واختلاقها وما يترتب عليها من محاذير .

قال الإمام ابن خزيمة (ت ٣١١هـ) : " هذه القصة من وضع الزنادقة " ^(٤) .

وقال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) : " وأما الحديث الذي فيه : وإنهن الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لترجي " فكذب بحت موضوع ، لأنه لم يصح قط من طريق النقل ، ولا معنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد " ^(٥) .

وقال الألويسي (ت ١٢٧٠هـ) : " يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبي صلى الله عليه وسلم - بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك - أمور منها : تسلط الشيطان عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم بالإجماع معصوم من الشيطان ، لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ^(٦) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ^(٧) ، إلى غير ذلك ، ومنها : زيادته صلى الله عليه وسلم في

(١) سورة الحج : ٥٢ .

(٢) الغرائيق : المراد بها الأصنام ، وهي في الأصل الذكور من طير الماء ، واحدها غرنوق وغرنيق ، سُمِّي به لبياضه ، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقرهم من الله وتشفع لهم ، فشُبِّهت بالطيور التي تعلق في السماء وترتفع . [النهاية في غريب الحديث (٣/٣٦٤)] .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٢٢) .

(٤) نقله الفخر الرازي في تفسيره (٤٤/٢٣) .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٨) .

(٦) سورة الحجر : ٤٢ .

(٧) سورة النحل : ٩٩ .

القرآن ما ليس منه ، وذلك مما يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم؛ لمكان العصمة، ومنها: اعتقاد النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس بقرآن أنه قرآن، مع كونه بعيد الالتمام، متناقضاً، ممتزج المدح بالذم، وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يُتساهل في نسبته إليه صلى الله عليه وسلم، ومنها: أنه إما أن يكون عليه الصلاة والسلام عند نطقه بذلك معتقداً ما اعتقده المشركون ، من مدح آهتهم بتلك الكلمات؛ وهو كفر محال في حقه صلى الله عليه وسلم، وإما أن يكون معتقداً معنى آخر، مخالفاً لما اعتقده، ومبايناً لظاهر العبارة، ولم يُبيّن لهم مع فرحهم وادعائهم أنه مدح آهتهم ؛ فيكون مُقَرِّراً لهم على الباطل، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يُقَرَّر على ذلك ، ومنها : كونه صلى الله عليه وسلم اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه الملك، وهو يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام على غير بصيرة فيما يُوحى إليه، ويقتضي أيضاً جواز تصوّر الشيطان بصورة الملك ، مُلبّساً على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح ذلك، ومنها: التقوّل على الله تعالى إما عمداً أو خطأً أو سهواً، وكل ذلك محال في حقه عليه الصلاة والسلام، وقد أجمعت الأمة على ما قال القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال عن الإخبار بخلاف الواقع ، لا قصداً ولا سهواً، ومنها: الإخلال بالوثوق بالقرآن، فلا يؤمن فيه التبديل والتغيير ولا يندفع" (١).

(١) روح المعاني (١٦٩/٩) .

الباب الثالث

اهتمامات ابن قتيبة في التفسير

وفيه خمسة فصول:

- الفصل الأول: اهتمام ابن قتيبة بالجانب العقدي .
- الفصل الثاني: اهتمام ابن قتيبة بالجانب اللغوي .
- الفصل الثالث: اهتمام ابن قتيبة بالجانب البلاغي .
- الفصل الرابع: اهتمام ابن قتيبة بالجانب النحوي
والصرفي.
- الفصل الخامس : اهتمام ابن قتيبة بدفع الإشكال عن
آيات القرآن الكريم .

الفصل الأول

اهتمام ابن قتيبة بالجانب العقدي

وفيه ثمانية مباحث :

- المبحث الأول: منهج ابن قتيبة في توضيح العقيدة .
- المبحث الثاني: تقرير منهج السلف في الأسماء والصفات .
- المبحث الثالث : تقرير منهج السلف في بقية مسائل الاعتقاد .
- المبحث الرابع : منع القياس العقلي في باب الاعتقادات .
- المبحث الخامس : ذم علم الكلام .
- المبحث السادس : الرد على تأويلات المعتزلة .
- المبحث السابع : الرد على تأويلات الرافضة .
- المبحث الثامن : الرد على تأويلات الخوارج .

المبحث الأول

منهج ابن قتيبة في توضيح العقيدة

الإمام ابن قتيبة أحد أئمة أهل السنة والجماعة الذين دعوا إلى التزام الدليل ، وإلى اعتقاد السلف الصالح جملة وتفصيلاً ، سواء فيما يختص بتوحيد الربوبية أو توحيد الألوهية أو توحيد الأسماء والصفات أو إثبات مسائل الغيبات ومشاهد الآخرة، وما يجري مجراها مما أجمع عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة.

وحسبك أن تنظر إلى مصنفه "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة" أو في كلماته التي نثرها في مصنفاته الأخرى كـ "تأويل مختلف الحديث" و "تفسير غريب القرآن" و "تأويل مشكل القرآن" لتستبصر منهجه الذي كان عليه ، والذي دعا إليه .

وهذا المنهج الذي انتهجه ابن قتيبة قائم على التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى تقديم النقل على العقل في مسائل الدين جميعاً، والاحتجاج بفهم السلف الصالح للنصوص الشرعية ، وأن الأصل هو حمل نصوص الكتاب والسنة على ظاهرها ؛ لأنه المعنى الذي أراد الله منا فهمه والإيمان به .

ويمكن تفصيل الحديث عن الأسس التي يبني عليها منهج الإمام ابن قتيبة في العقيدة من خلال الأمور التالية:

أولاً : التمسك بنصوص الكتاب والسنة ، والتعظيم والتسليم لها .

إن أهم ما تميز به السلف أنهم كانوا وقّافين عند نصوص الكتاب والسنة، فلا يعارضونها بأرائهم واجتهاداتهم ، ولا يترددون في الأخذ بها ، بل يعظمونها ويسلمون لها، ويرون الزيغ والهلاك في مخالفتها ، وذلك امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(١) ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

(١) سورة النساء : ٦٥ .

أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ^ط وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿١﴾،
 وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ
 ﴾^(٢)، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٣)، وامثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم : "إني قد خلّفت فيكم ما لن
 تضلوا بعدهما ما أخذتم بهما أو عملتم بهما كتاب الله وسنتي"^(٤).

ولهذا تظافر كلام السلف بلزوم الكتاب والسنة وعدم تجاوزهما وأنكروا على من لم
 يأخذ بهما ، وكان الإمام ابن قتيبة من هؤلاء الأئمة الذين نصّوا على وجوب التمسك
 بالكتاب والسنة والتسليم لهما ، وذلك في مواضع كثيرة منها :

قوله - حين تحدث عن الاختلاف بين أهل الحديث وأهل الكلام - : "إن أهل
 المقالات وإن اختلفوا ورأى كل صنف منهم أن الحق فيما دعا إليه فإنهم مجتمعون لا يختلفون
 على أن من اعتصم بكتاب الله عزّ وجل وتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد
 استضاء بالنور واستفتح باب الرشد وطلب الحق من مظانه"^(٥).

وكذلك قرر في كثير من المواضع أن السنة مثل القرآن يجب الأخذ بها والتسليم لها،
 وأنها تُبَيِّن الكتاب وتُفَسِّرُه ، بل يتوقف فهم مجمل القرآن على تفصيل السنة، وقد تأتي
 السنة بأحكام لم ترد في القرآن ، فيوجب ذلك الأخذ بالكتاب والسنة جميعاً دون تفريق
 بينهما ، فكلاهما وحى من عند الله تعالى^(٦)، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ءَأَنزَلْنَاكَ إِلَّا رِسْوَلًا

(١) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٢) سورة الأنفال : ٢٠ .

(٣) سورة النور : ٦٣ .

(٤) أخرجه الدارقطني في سننه ح(٤٦٠٦) (٤٤٠/٥)، والحاكم في المستدرک ح(٣١٩) (١٦١/١)، والبيهقي في
 السنن الكبرى ح(٢٠٣٣٧) (١٩٥/١٠)، والبزار في مسنده ح(٨٩٩٣) (٣٨٥/١٥) من حديث أبي هريرة
 رضي الله عنه، ورواه مالك في الموطأ ح(٣٣٣٨) (١٣٢٣/٥) مرسلًا .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص٥٩)، وانظر - للاستزادة - : (ص١٥٥)، المسائل والأجوبة (ص٢٠٦) .

(٦) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص١٣٢، ١٣٤، ١٦٧)، المسائل والأجوبة (ص٣٣٥) .

فَخَذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا ﴿١﴾ ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" (٢) .

ويقول ابن قتبية في رده طعن المبتدعة في بعض الأحاديث لكونها تخالف ما قرره في مذاهبهم :

"ونحن نقول إن هذا الحديث صحيح لا يجوز على مثله الكذب لتتابع الروايات عن الثقات به من وجوه كثيرة ، ولو كان يجوز أن يكون مثله كذباً جاز أن يكون كل ما نحن عليه من أمور ديننا في التشهد الذي لم نعلمه إلا بالخبر ، وفي صدقة النعم ، وزكاة الناض من الأموال والطلاق والعتاق وأشباه ذلك من الأمور التي وصل إلينا علمها بالخبر ولم يأت بها بيان في الكتاب باطلاً" (٣) .

ويقول في حديث الصورة :

"والذي عندي والله تعالى أعلم أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين وإنما وقع الإلف لتلك لمحيئها في القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن ، ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد" (٤) .

ويقول في عبارة تدل على تعظيمه للسنة ، وعدم التأويل أو التنازع فيها :

"فإن صحت رواية ابن عمر (ت ٧٤هـ) عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تأويل ولا تنازع فيه" (٥) .

ولم يخرج الإمام ابن قتبية أبداً عن هذا الذي قرره ، فلم يستند في إثبات العقائد إلى عقل محض ، ولم يخرج عن نص من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكل ما أثبتته الله ورسوله من أمور العقيدة أثبته ، وكل ما نفاه الله ورسوله نفاه ، وهو حين يلتزم

(١) سورة الحشر : ٧ .

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٩٤) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٨) .

(٤) المصدر السابق (ص ١٥٠) .

(٥) المصدر السابق (ص ١٤٩) .

النصوص لا يعدوها ولا يعطلها ولا يؤولها ولا يفسرها بغير ظاهرها ، بل يلتزم بها التزاماً كاملاً في باب العقائد .

وتطبيقاً لهذا الأمر - الالتزام بنصوص الكتاب والسنة - نجد الإمام ابن قتيبة يأخذ بخبر الآحاد في أبواب الاعتقاد ، كما هو مذهب السلف ، وقد حُكي إجماعهم على ذلك^(١)، خلافاً للمبتدعة الذين لا يأخذون بالآحاد لكي تسلم لهم أصولهم الفاسدة التي أصّلوها في باب العقائد ، فتجدهم يردون كل ما يخالف مذاهبهم بحجة أنها أخبار آحاد لا تفيد القطع ، والعقائد لا بد فيها من القطع واليقين^(٢).

ففي مقدمة "تأويل مختلف الحديث" حين عرّض لاختلاف أهل الكلام واضطرابهم، تحدث عن مسألة ثبوت الخبر ، فقال : "واختلفوا في ثبوت الخبر فقال بعضهم: يثبت الخبر بالواحد الصادق.

وقال آخر : يثبت باثنين ، لأن الله تعالى أمر بإشهاد اثنين عدلين .

وقال آخر : يثبت بثلاثة ، لأن الله عزّ وجل قال: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾^(٣).

قالوا : وأقل ما تكون الطائفة ثلاثة .

قال أبو محمد : وغلطوا في هذا القول ، لأن الطائفة تكون واحداً، واثنين، وثلاثة، وأكثر، لأن الطائفة بمعنى القطعة، والواحد قد يكون قطعة من القوم.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلِيَشْهَدَ عَدَابُهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤)، يريد الواحد والاثنين.

وقال آخر: يثبت بأربعة، لقول الله تعالى: ﴿ لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ ﴾^(٥).

(١) حكاة الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية (١/١٢٩)، وابن عبد البر في التمهيد (١/٢)، وانظر: الرسالة للشافعي (ص ١٧٥)، العدة للقاضي أبي يعلى (٣/٨٦١)، مجموع الفتاوى (٢٠/٢٥٩)، شرح الكوكب المنير (٢/٣٦٩).

(٢) انظر : مذكرة أصول الفقه للشنقيطي (ص ١٠٥)، موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة (١/٢١٠).

(٣) سورة التوبة : ٢٢ .

(٤) سورة النور : ٢ .

(٥) سورة النور : ١٣ .

وقال آخر : يثبت باثني عشر ، لقول الله تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾^(١) .

وقال آخر : يثبت بعشرين رجلاً ، لقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴾^(٢) .

وقال آخر : يثبت بسبعين رجلاً ، لقول الله عز وجل : ﴿ وَأَخْنَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴾^(٣) .

فجعلوا كل عدد ذكر في القرآن حجة في صحة الخبر ...

وهذه الاختيارات إنما اختلفت هذا الاختلاف ، لاختلاف عقول الناس ، وكل يختار على قدر عقله .

ولو رجعوا إلى أن الله تعالى إنما أرسل إلى الخلق كافة رسولاً واحداً وأمرهم باتباعه وقبول قوله ، وأنه لم يرسل اثنين ولا أربعة ، ولا عشرين ولا سبعين في وقت واحد، لدلهم ذلك على أن الصادق العدل ، صادق الخبر ، كما أن الرسول الواحد المبلغ عن الله تعالى صادق الخبر ، ولم يكن قصدنا لهذا الباب ، فنطيل فيه^(٤) .

ثانياً : تقديم النقل على العقل .

من الركائز الأساسية لمنهج ابن قتيبة في العقيدة : تقديم النقل على العقل ، وهو ما كان عليه السلف ، إذ كانوا يقدمون الشرع على العقل ، ويرون أن كل ما خالف الشرع فهو أوهام لا حقائق ، ذلك أن ما صح وثبت من الشرع لا يمكن أن يرد عليه الخطأ ، بخلاف

(١) سورة المائدة : ١٢ .

(٢) سورة الأنفال : ٦٥ .

(٣) سورة الأعراف : ١٥٥ .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٥-٤٦) .

عقول الناس وأفهامهم ، فهي معرضة للخطأ والهوى والجهل وغير ذلك مما يرد على العقل البشري الضعيف ، ولهذا لم ينظر السلف فيما خالف الشرع أياً كان مصدره^(١).

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بدوق ووجد ومكاشفة ، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل ، فضلاً عن أن يقول : فيجب تقديم العقل"^(٢).

وقد سلك ابن قتيبة هذا المنهج ودعا إليه وبنى عليه استدلالاته وردوده العقديّة، ومصنفاته شاهدة على سلوكه هذا السبيل ، ومن ذلك :

قوله - في إنكاره على أهل الكلام استدلالهم بالأدلة العقلية وتقديمها على النقل في باب العقائد - :

"ولكن اختلافهم - أي أهل الكلام - في التوحيد وفي صفات الله تعالى وفي قدرته وفي نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وعذاب البرزخ وفي اللوح ، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى ، ولن يعدم هذا من ردّ مثل هذه الأصول إلى استحسانه ونظره وما أوجبه القياس عنده ، لاختلاف الناس في عقولهم وإرادتهم واختياراتهم"^(٣).

وسياًتي لهذا الأمر زيادة بيان في مبحث "منع القياس العقلي في باب الاعتقادات"^(٤).

ثالثاً : حمل نصوص الكتاب والسنة على الظاهر .

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الله خاطبنا بما نفهم ، وأراد منا اعتقاد ظاهر النصوص على الوجه اللائق ، إذ لو كان ظاهر النصوص غير مراد لما خاطبنا به سبحانه وتعالى، ولما

(١) انظر : الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٢/٥٤٩)، درء التعارض (٥/٢٥٥)، الصواعق المرسلّة (٢/٧٤١)، قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي ، د.مصطفى حلمي (ص١٥٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٨) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص١٣) .

(٤) انظر : (ص٤٣٨) من هذه الرسالة .

أمرنا بتدبر كتابه ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(١).

والمراد بظاهر النصوص هنا مدلولها المفهوم بمقتضى الخطاب العربي ، لا ما يقابل النص عند متأخري الأصوليين ، إذ الظاهر عندهم ما احتمال معنى راجحاً وآخر مرجوحاً ، والنص هو ما لا يحتمل إلا معنى واحداً^(٢).

فالواجب في نصوص الوحي إجراؤها على ظاهرها المتبادر من كلام المتكلم ، واعتقاد أن هذا المعنى هو مراد المتكلم ، وصرفُ الكلام عن ظاهره المتبادر - من غير دليل يوجبه أو يُبين مراد المتكلم - تحكُّم غير مقبول ، دافعه الجهل أو الهوى ، وهو وإن سمّاه المتأخرون تأويلاً إلا أنه أقرب إلى التحريف منه إلى التأويل^(٣).

وقد التزم الإمام ابن قتيبة هذا المسلك في تفسيره لنصوص الشرع ، وردّ الكثير من التأويلات لمخالفتها ظاهر النصوص ، ومن ذلك :
قوله - في الرد على من قال بأن النبي صلى الله عليه وسلم أُسري بروحه دون جسده ليلة الإسراء - :

"وكيف يكون ذلك كما تأولوا ، والله عزّ وجل يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ الآية^(٤) ، وهذا لا يجوز أن يُتأول فيه هذا التأويل ، ولا يُدفع بمثل هذه الأحاديث ، ونحن نعوذ بالله أن نتعسف فتأول فيما جعله الله فضيلةً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن نُسلم للحديث ونحمل الكتاب على ظاهره"^(٥).

(١) سورة ص : ٢٩ .

(٢) انظر - في تعريف الظاهر عند الأصوليين - : روضة الناظر لابن قدامة (٥٦٣/٢) ، العدة (١٤٠/١) ، الواضح في أصول الفقه لابن عقيل (٣٤/١) ، المسودة (١٠٠٢/٢) .

(٣) انظر : درء التعارض (٨٦/٥) ، موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة (٧٣/١) ، ملامح رئيسية للمنهج السلفي ، د. علاء بكر (ص ٩٤) .

(٤) سورة الإسراء : ١ .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٧) .

وكان لهذا الأمر - الأخذ بظاهر النصوص - أثره في اختيار ابن قتيبة لمعنى المتشابه، إذ ذهب إلى أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ، إذ أن ظاهر القرآن معلوم، وليس فيه آيات لا يُعلم معناها ، وفي ذلك يقول :

"ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم ، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى ، ولم يُنزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدلّ به على معنى أرادته ، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره لَلزَمْنَا للطاعن مقال ، وتعلّق علينا بعة. وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المتشابه؟! ، وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(١) ، جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ...

وبعد ، فإننا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمرّوه كله على التفسير ، حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور ، وأشباه ذلك"^(٢).

وسيظهر التزام ابن قتيبة بهذه القاعدة بشكل جلي في باب الصفات ، إذ كان يجريها على ظاهرها بلا كيف ولا تمثيل كما هو مذهب أهل السنة والجماعة . يقول ابن قتيبة :

"إن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفاته أو حيث انتهى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب ونضعه عليه ونمسك عما سوى ذلك"^(٣).

رابعاً : التمسك بفهم السلف الصالح للنصوص الشرعية :

اعتصم أهل السنة والجماعة بحجية فهم السلف الصالح للنصوص الشرعية فعصمهم هذا من التفرّق والضلال ، فقالوا بما قال به السلف ، وسكتوا عما سكتوا عنه، ووسعهم ما وسع السلف.

(١) سورة آل عمران : ٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٩٨-١٠٠) .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٥) .

أما أهل الضلال والابتداع فمذهبهم الطعن في السلف والتكبر لطريقهم ، فكان الضلال والزيغ عاقبة أمرهم^(١).

قال الأوزاعي (ت ١٥٧هـ):

"اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقُل بما قالوا ، وكفَّ عما كَفَّوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم"^(٢).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) - فيما يحتاجه المسلمون في شأن العقيدة - :

"لهذا يحتاج المسلمون إلى معرفة ما أراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بألفاظ الكتاب والسنة بأن يعرفوا لغة القرآن التي نزل بها ، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ ، فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة ، عزَّفهم ما أراد بتلك الألفاظ ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه ، وقد بلَّغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلَّغوا حروفه ، فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين ، مثل معنى التوحيد ، ومعنى الواحد والأحد والإيمان والإسلام ونحو ذلك ... فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك ، فإن معرفته أصل الدين"^(٣).

ولهذا كان من أهم أسس منهج ابن قتيبة في العقيدة الاعتماد على فهم السلف الصالح في مسائل الاعتقاد ، والمتتبع لكلامه في تلك المسائل يظهر له جلياً توقيره التام للسلف الصالح ، إذ لا يعدل بهم أحداً ، ويرى أنهم أصح الناس علماً وفهماً ، وأن قولهم في نصوص الشرع حجة يجب الأخذُ به ، وردُّ كل ما خالفه مما أحدثه الخلف بعدهم، كما أثني عليهم ونصَّ على وجوب الاقتداء بهم، لا سيما في مسائل الاعتقاد.

فها هو في مسألة القدر يُردُّ على المعتزلة ، ويقول :

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١/١٥٧)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/٢٣)، فضل علم السلف على علم الخلف

(٢) (٣/٢٣)، قواعد المنهج السلفي (ص٧٧)، ملامح رئيسية للمنهج السلفي (ص١١٠).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/١٧٤) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/٣٥٣) .

"ألا تعلقتم بعلي (ت ٤٠هـ)، وابن مسعود (ت ٣٥هـ)، وأبي عبيدة (ت ١٨هـ)، ومعاذ (ت ١٨هـ) رضي الله عنهم، وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ)، وأشباه هؤلاء ، فإنهم كانوا أعظم في القدوة وأثبت في الحجّة"^(١).

وعند الحديث عن فضائل علي رضي الله عنه ردّ على الروافض والنواصب ؛ وقال: "وأنت تعرف له مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع مكانته في العلم والدين والبأس والفضل من غير أن تتجاوز به الموضع الذي وضعه به خيار السلف ، مع ما تسمعه من كثير فضائله ، فهم كانوا أعلم به وبغيره ، ولأنّ ما أجمعوا عليه هو العيان الذي لا يشك فيه"^(٢).

خامساً : بيان أن أهل الحديث هم أصحاب العقيدة السليمة ، والانتصار لمذهبهم ، والذب عنهم .

نتيجة للأمر السابق - التمسك بفهم السلف الصالح للنصوص الشرعية - وجد الإمام ابن قتيبة أن أهل الحديث هم أهل العقيدة السليمة ، لتمسكهم بفهم السلف ، وبيّن ذلك في كثير من مصنفاته ، وانتصر لمذهبهم ، وذبّ عنهم ، وردّ على مخالفيهم. وسبب كون أهل الحديث هم أصحاب العقيدة السليمة ، هو أنهم يتبعون الدليل من الكتاب والسنة ويعملون بهما، ويقدمونهما على كل قول ، ولا يعارضونهما بعقولهم وآرائهم وخواطيرهم ، كما يفعل أهل الباطل ، ولأنهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفاً عن سلف وقرناً عن قرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) : "إن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله ، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) .

(٢) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٦) .

(٣) انظر : شرح اعتقاد أهل السنة (٢٤/١)، الحجّة في بيان الحجّة (٢٦٢/١) .

وأهل معرفة بمعانيها ، واتباع لها : تصديقاً وعملاً وحباً وموالاةً لمن والاهها ومعاداة لمن عاداهها"^(١).

وقد عرّف لهم الإمام ابن قتيبة هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية ، وألّجج بالثناء عليهم في كثير من كتبه ، واعتمد آراءهم في المسائل العقدية ، ويكفي في الدلالة على ذلك أنه ألّف كتابه "تأويل مختلف الحديث" للانتصار لمذهب أهل الحديث ، والذب عنهم، والردّ على مخالفيهم من أهل الكلام والابتداع ، ومما ذكره فيه :

قوله : "إن أهل المقالات وإن اختلفوا ، ورأى كل صنف منهم أن الحق فيما دعا إليه ، فإنهم مجموعون لا يختلفون ، على أن من اعتصم بكتاب الله عزّ وجل، وتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد استضاء بالنور ، واستفتح باب الرشد ، وطلب الحق من مظانه .

وليس يدفع أصحاب الحديث عن ذلك إلا ظالم ، لأنهم لا يردّون شيئاً من أمر الدين إلى استحسان ، ولا قياس ونظر، ولا إلى كتب الفلاسفة المتقدمين ، ولا إلى أصحاب الكلام المتأخرين"^(٢).

وقال : "فأما أصحاب الحديث فإنهم التمسوا الحقّ من وجهته ، وتتبعوه من مظانه، وتقربوا إلى الله تعالى باتباعهم سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلبهم لآثاره، وأخباره، براً وبحراً ، وشرقاً وغرباً.

يرحل الواحد منهم راجلاً مُقْوِيّاً"^(٣) في طلب الخبر الواحد ، أو السنة الواحدة، حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة.

ثم لم يزالوا في التنقيب عن الأخبار والبحث لها ، حتى فهموا صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها ، وعرفوا من خالفها من الفقهاء في الرأي .

فنبّهوا على ذلك حتى بجمّ الحقّ بعد أن كان عافياً ، وبسّق بعد أن كان دارساً^(١)، واجتمع بعد أن كان متفرقاً، وانقاد للسُنن من كان عنها معرضاً ، وتنبّه عليها من كان عنها

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٧) .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ٥٩) .

(٣) مقويّاً : أي مسافراً ، سُمّي بذلك لنزوله القواء ، وهو القفر. [انظر: مادة (قوا)، لسان العرب (١٥/٢٠٦)].

غافلاً ، وحُكِمَ بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان يُحَكِّمُ بقول فلان وفلان وإن كان فيه خلاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٢).

وقال : "أما الفطر ، فإن رجلاً لو دخل المصر ، واستدل على القدرية فيه ، أو المرجئة ، لدله الصبي والكبير ، والمرأة والعجوز ، والعامي والخاصي ، والحشوة والرغاع ، على المسمين بهذا الاسم ، ولو استدل على أهل السنة ، لدلوه على أصحاب الحديث .

ولو مرت جماعة فيهم القدري ، والسني ، والرافضي ، والمرجئي ، والخارجي ، فقذف رجل القدرية ، أو لعنهم ، لم يكن المراد بالشتيم أو اللعن عندهم أصحاب الحديث ، هذا أمر لا يدفعه دافع ، ولا ينكره منكر" (٣).

ويقول : "ولو أردنا رحمك الله أن نتقل عن أصحاب الحديث ونُرْعَبَ عنهم إلى أصحاب الكلام ، ونُرْعَبَ فيهم ، لخرجنا من اجتماع إلى تشتت ، وعن نظام إلى تفرق ، وعن أنس إلى وحشة ، وعن اتفاق إلى اختلاف ، لأن أصحاب الحديث كلهم مجتمعون على أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وعلى أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وعلى أن الله يرى يوم القيامة ... ، لا يختلفون في هذه الأصول ، ومن فارقهم في شيء منها نابذوه وباغضوه وبدعوه وهجروه" (٤).

سادساً : الاحتجاج باللغة في تقرير مسائل الاعتقاد .

لأهل السنة والجماعة منهج واضح في التعامل مع اللغة العربية في تقرير العقائد ، يقوم على أسس ثابتة ؛ وهي : اعتبار اللغة العربية أصلاً في فهم النصوص الشرعية ، والتثبت من روايتها ورواتها ، والاحتكام إلى قوانين العربية وقواعدها ، والأخذ بالظاهر ، وبما تفهمه العرب من خطابها دون الشاذ والغريب والبعيد إلا بقريئة ، والابتعاد عن المصطلحات الكلامية المستحدثة ، ومراعاة دلالة السياق وأصول المتكلم والمخاطب والقرائن في الألفاظ اللغوية

(١) دارساً: مطموساً لا أثر له . [انظر : مادة (درس) لسان العرب (٦/٧٩)] .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ٥١) .

(٣) المصدر السابق (ص ٥٦) .

(٤) المصدر السابق (ص ١٤) .

والشرعية ، وتقديم المدلولات الشرعية على اللغوية، والاعتماد في تفسير ألفاظ الكتاب والسنة والآثار واللغة على الكتاب والسنة وأقاويل السلف لا على اللغة المجردة^(١).

وقد سبق أن الإمام ابن قتيبة له يد طولى في تقرير هذا المنهج عند أهل السنة والجماعة، حتى لقبه شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) بـ "خطيب أهل السنة"، والمتتبع لحديث ابن قتيبة في المسائل العقديّة في مصنفاته المتعددة تبين له إمامته في اللغة ، التي اتكأ عليها بشكل كبير في تقرير مسائل الاعتقاد^(٢).

ولما كان منهج أهل الضلال والابتداع في التعامل مع اللغة العربية في مسائل الاعتقاد على النقيض من منهج أهل السنة والجماعة ، حيث يقوم منهجهم على : الاعتماد على العقل أو اللغة المجردة في تفسير المفردات اللغوية الشرعية، وتجريد الألفاظ العربية من المعاني التي تدل عليها وحملها على ما يتوافق مع عقائدهم من غير مراعاة للسياق، والتصرف في معاني الألفاظ الشرعية بالوجوه الإعرابية والقراءات الشاذة، وتحريف دلالات الصيغ والأدوات والحروف حتى تنسجم مع مبادئهم ، والتحكم في سياقات اللغة العربية بالتأويل والتقدير، ورد دلالات الألفاظ الشرعية بالأساليب البلاغية المستحدثة ، وعدم الأخذ بتفسير السلف ورده^(٣).

فلما كان منهجهم يقوم على هذه المزالق المهلكة ، ظهر لنا دور آخر من الأدوار الرائدة التي يقوم بها الإمام ابن قتيبة في المجال اللغوي في الجانب العقدي ، حيث كان سداً منيعاً دون تحريف النصوص وتأويلها بغير حق ، ومصنفة "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة" شاهداً على هذا ، حيث عرّض فيه لتأويلات القدرية والجبرية والجهمية والمشبهة وغيرهم من أهل الضلال ، فبدأ ببيان اعوجاج منهجهم في الاستدلال اللغوي، ثم أعقبه برد تأويلاتهم الفاسدة من جهة اللغة.

وبهذا يظهر أن الاحتجاج باللغة من المعالم البارزة في منهج ابن قتيبة في توضيح العقيدة ، وكان له تميز ظاهر في هذا الجانب.

(١) انظر : مناهج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع ، محمد الشيخ عليو محمد (ص ٤٨) .

(٢) انظر : (ص ٣٥٩) من هذه الرسالة .

(٣) مناهج اللغويين في تقرير العقيدة (ص ٦٥) .

ونخلص من هذا المبحث : أن المنهج الذي سار عليه الإمام ابن قتيبة في توضيح العقيدة ، هو منهج سلفي خالص ، اعتمده وسار عليه أئمة الدين والهدى كالإمام الثوري (ت ١٦١هـ)، ومالك (ت ١٧٩هـ)، والشافعي (ت ٢٠٤هـ)، وأبي عبيد القاسم ابن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وإسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ)، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وابن القيم (ت ٧٥١هـ)^(١).

(١) للاستزادة - انظر - : عقيدة الإمام ابن قتيبة ، د.علي العلياني (ص١٣٤-١٥٣) .

المبحث الثاني

تقريره منهج السلف في الأسماء والصفات

موضوع الأسماء والصفات من أهم أبواب العقائد في الإسلام ، كثر فيه الكلام ، وطال النزاع ، وحاترت فيه الأفهام ، وزلت الأقدام ، وفسدت الأفكار في هذا الموضوع ، وما ذاك إلا للبعد عن منهج السلف الصالح ، والخلل في الاستدلال بالنصوص الشرعية .

وتبرز أهمية هذا الموضوع وخطورته في أن الكلام في الصفات كالكلام في الذات .

وقد خاض أهل البدع في هذا الباب بعلم وبغير علم ، وصاحب ذلك هوى وشبهات ، وقلة تحقيق في ذلك ، فلبسوا الحق بالباطل ، وزينوا لغيرهم ، وما ذلك إلا لتعلقهم بالشبه والضلالات العقلية ، وعدم اقتصارهم على النصوص الشرعية^(١) .

وموقف أهل السنة والجماعة من نصوص الأسماء والصفات واضح بين لا غموض فيه ولا إهام ، ولا تعقيد ولا تحريف ، دلّ عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين .

وقد أوضح شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) منهج السلف في هذا الباب ؛ فقال :

"وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل ، إثبات الصفات ، ونفي مماثلة المخلوقات ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، فهذا رد على الممثلة ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢) ، رد على المعطلة"^(٣) .

وهذا المنهج الحق في باب الأسماء والصفات هو الذي كان عليه ابن قتيبة ، وكان أحد

أئمته الذين قرروه ودعوا إليه ، وما أجمل ما ذكره حين ردّ على المعطلة والممثلة ؛ فقال:

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٦/٤) ، موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة (٥٢٩/٢) ، أسباب

الخطأ في التفسير (ص ٤١٥) .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) منهاج السنة النبوية (٥٢٣/٢) .

"ولما رأى قوم من الناس إفراط هؤلاء - المعطلة - في النفي عارضوهم في التمثيل، فقالوا بالتشبيه المحض والأفطار والحدود ، وقالوا بالكيفية فيها ، وكلا الفريقين غالط ، وقد جعل الله التوسط منزلة العدل ، ونهى عن الغلو فيما دون صفاته من أمر ديننا فضلاً عن صفاته ، ووضعنا عنّا أن نفكر فيه كيف كان ؟ وكيف قدر ؟ وكيف خلق؟ ولم يكلفنا ما لم يجعله في تركيبنا ووسعنا .

وعدّل القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صحّ منها بنقل الثقات ، فنؤمن بالرؤية وأنه يعجب وينزل إلى السماء ، وأنه على العرش استوى ، وبالنفس واليدين من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بحدٍ أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت" (١).

ويقول : "إن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفته أو حيث انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب، ونضعه عليه ونمسك عما سوى ذلك" (٢).

والمتبع لكلام الإمام ابن قتيبة في باب الأسماء والصفات يجد أن منهجه فيه يقوم على خمسة أسس، تفصيلها كالتالي :

أولاً : أن الإمام ابن قتيبة يثبت ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته رسوله صلى الله عليه وسلم من غير أن يقول في ذلك بكيفية ، وقد نصّ على هذا في مواضع كثيرة، منها:
قوله : "فنحن نقول كما قال الله تعالى ، وكما قال رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نتجاهل ولا يحملنا ما نحن فيه من نفي التشبيه على أن ننكر ما وصف به نفسه ، ولكننا لا نقول كيف" (٣).

ويقول : "نحن لا ننتهي في صفاته جلّ جلاله إلا إلى حيث انتهى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ندفع ما صح عنه لأنه لا يقوم في أوهامنا ولا يستقيم على نظرنا، بل نؤمن بذلك من غير أن نقول فيه بكيفية أو حد أو نقيس على ما جاء ما لم يأت" (٤).

(١) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٣) .

(٢) المصدر السابق (ص ١١٥) .

(٣) المصدر السابق (ص ١١٣) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) .

ويقول - في نفي الكيفية - : "إن الله وضع عنا أن نفكر فيه كيف كان؟ وكيف قدر؟ وكيف خلق؟ ولم يكلفنا ما لم يجعله في تركيبنا ووسعنا"^(١).

وهذا الأساس من أجل الأسس التي سار عليها السلف في الأسماء والصفات، وتطافت أقوال علماء أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً في تقرير هذا الأمر.

قال الإمام أبو الحسن الأشعري^(٢) (ت ٣٢٤هـ) :

"وأجمعوا على وَصَفِ اللَّهِ تَعَالَى بِجَمِيعِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَوَصَفَهُ بِهِ نَبِيهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ فِيهِ ، وَلَا تَكْيِيفٍ لَهُ ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ وَاجِبٌ ، وَتَرَكَ التَّكْيِيفَ لَهُ لِأَنَّهُ لَازِمٌ"^(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الأصبهاني^(٤) (ت ٥٣٥هـ) :

"الكلام في صفات الله عز وجل : ما جاء منها في كتاب الله ، أو روي بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمذهب السلف رحمة الله عليهم أجمعين إثباتها وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها"^(٥).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ... ، قال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) : "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو

(١) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٣) .

(٢) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر ، ينتسب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، كان له ثلاث أحوال، كان في أولها معتزلياً ، وسلك في الثانية مذهب ابن كلاب ، ورجع أخيراً إلى معتقد السلف ، وألّف عدة كتب في نصرة معتقدتهم ، كـ "الإبانة" ، و"رسالة إلى أهل الثغر" ، و"مقالات الإسلاميين" ، توفي ببغداد سنة ٣٢٤ هـ . [سير أعلام النبلاء (١٥/٨٥) ، البداية والنهاية (١٥/١٠١) ، مقدمة تحقيق عبدالله شاکر الجنيدى لـ "رسالة إلى أهل الثغر" (ص ٢١-٨٥)] .

(٣) رسالة إلى أهل الثغر (ص ٢٣٦) .

(٤) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي التيمي الأصبهاني ، كان إماماً كبيراً في التفسير والحديث والأدب، لُقّب بـ "قوام السنة" لما عرف عنه من كثرة تصانيفه في السنة وحفظها والذب عنها وعن أهلها، قال تلميذه أبو موسى المدني : "أبو القاسم إسماعيل الحافظ إمام أئمة وقته، وأستاذ علماء عصره، وقدوة أهل السنة في زمانه" ، له مصنفات كثيرة ، منها : "الإيضاح في التفسير" ، و"الحجة في بيان المحجة" ، و"دلائل النبوة" ، توفي سنة ٥٣٥ هـ . [سير أعلام النبلاء (٢٠/٧٠) ، الكامل في التاريخ (٩/٣١٨) ، طبقات المفسرين (١/٣٧)] .

(٥) المحجة في بيان المحجة (١/١٨٨) .

وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز القرآن والحديث"، ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل^(١).

ثانياً : أن الإمام ابن قتيبة ينزه الله عما نَزَّه الله نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد نفى التشبيه والتمثيل من غير أن يعطل النصوص عن معانيها الواردة لها في لسان الشرع .

يدل على ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾^(٢) : "أي ليس كهو شيء"^(٣)، وقال في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(٤) : "أي مثيلاً"^(٥)، ويقول في قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾^(٦) : "أي شبيهاً"^(٧).^(٨) ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾^(٩) : "أي لا تصفوه بصفات غيره ، ولا تشبهوه"^(١٠).

ويقول - عند إثبات صفة الأصابع - : "ولا نقول إصبع كأصابعنا ، ولا يدُّ كأيدينا، ولا قبضة كقبضاتنا ؛ لأن كل شيء منه - عز وجل - لا يشبه شيئاً منا"^(١١).

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/٥) .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٣٩١) .

(٤) سورة الإخلاص : ٤ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٥٤٢) .

(٦) سورة مريم : ٦٥ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٧٢) .

(٨) انظر : عقيدة الإمام ابن قتيبة (ص ١٣٦) .

(٩) سورة النحل : ٧٤ .

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٩٧) .

(١١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤١) .

وهذا من الأسس المهمة التي تَبَّه عليها أئمة أهل السنة والجماعة^(١). يقول الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ): "إن مبحث آيات الصفات دلّ القرآن العظيم أنه يرتكز على ثلاثة أسس ، أحد هذه الأسس الثلاثة تنزيه خالق السموات والأرض جلّ وعلا عن مشابهة خلقه في شيء من ذواتهم أو صفاتهم أو أفعالهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وهذا الأساس الأعظم للعقيدة الصحيحة ، صرح الله به في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ، وقوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(٢) ، ومن وفقه الله لفهم هذا الأساس الأعظم ، ونزه خالقه عن مشابهة الخلق تنزيهاً تاماً جازماً به قلبه ، فإن قلبه يكون طاهراً من أقدار التشبيه ، وتكون عقيدته مبنية على أساس صحيح ، وهو تنزيه خالق السموات والأرض عن مشابهة خلقه"^(٣).

ثالثاً : أن الإمام ابن قتيبة يُمسك عما لم يرد ذكره في الكتاب ولا في السنة من إثبات أو نفي ، وقد نصّ على هذا بقوله : "وإن سئلنا نقتصر على جملة ما قال الله ، ونُمسك عما لم يقل"^(٤).

وقوله : "إن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفاته أو حيث انتهى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب ، ونضعه عليه ونمسك عما سوى ذلك"^(٥).

وهذه - أيضاً - قاعدة جلييلة من قواعد المنهج السلفي في الصفات ، وهذا يُظهر انقيادهم التام لنصوص الوحيين ، فيثبتون ما فيها من إثبات ، وينفون ما فيهما من نفي ، ويُمسكون عما سوى ذلك .

(١) انظر : الرسالة التدمرية (ص ١٩) .

(٢) سورة النحل : ٧٤ .

(٣) آداب البحث والمناظرة (ص ١٥١) .

(٤) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٣) .

(٥) المصدر السابق (ص ١١٥) .

يقول عبدالعزيز بن الماجشون (ت ١٦٤هـ)^(١) : "اعلم رحمك الله أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك ، ولا تتجاوز ما قد حدّ لك، فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر ، فما بَسِطَتْ عليه المعرفة وَسَكَنَتْ إليه الأفتدُة ودُكِرَ أصلُهُ في الكتاب والسنة وتوارثت علمه الأمة فلا تخافنّ في ذكره وصفته من ربك ما وَصَفَ من نفسه عيباً ، ولا تكلفنّ بما وُصِفَ لك من ذلك قَدْرًا وما أنكرتُهُ نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك ولا في حديث نبيك - من ذكر صفة ربك - فلا تكلفن علمه بعقلك ، ولا تصفه بلسانك واصمت عنه، كما صَمَتَ الربُّ عنه من نفسه ، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه فكذلك أعْظِمَ تَكَلَّفَ ما وصف الواصفون مما لم يصف منها"^(٢).

ويقول الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) : "ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه، بلا حدّ ولا غاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾"^(٣)، ونقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه ، لا نتعدى ذلك ، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شُنِعت ولا نتعدى القرآن والحديث ، ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيت القرآن"^(٤).

رابعاً : يعتقد الإمام ابن قتيبة أن صفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة هي على الحقيقة كما يليق بجلاله وعظمته لا مجاز فيها ، وفي ذلك يقول:
"وذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني وصرفه في كثير من القرآن إلى المجاز ، وقد تَبَيَّنَ لمن عرف اللغة أن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا تُؤكَّد بالتكرار ، والله تعالى يقول : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾

(١) أبو عبدالله عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون ، الإمام المفتي الكبير ، روى عن الزهري وابن المنكدر وآخرين، قال الذهبي : "ولم يكن بالمكثر من الحديث ولكنه فقيه النفس فصيح كبير الشأن"، وعنه الليث بن سعد ووكيع وابن المهدي وآخرون، توفي ببغداد سنة ١٦٤هـ . [سير أعلام النبلاء (٧/٣١٠)، تهذيب التهذيب (٣٤٤/٦) .

(٢) نقله شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤٢/٥) .

(٣) سورة الشورى : ١١ .

(٤) نقله ابن قدامة في لمعة الاعتقاد (ص ٥١) .

تَكْلِيمًا ﴿^(١)﴾، فوَكَّدَ بالمصدر معنى الكلام ونفى عنه المجاز ، وقال : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿^(٢)﴾، فوَكَّدَ القول بال تكرار ووَكَّدَ المعنى بإنما" ^(٣).
ويؤكد موقفه هذا ، أن الإمام ابن قتيبة مع كونه يستعمل المجاز بمعناه المتقدم الموسَّع، وقد عقد له باباً كاملاً في "تأويل مشكل القرآن" بعنوان "باب القول في المجاز"، ذكر فيه صوراً كثيرة من أساليب المجاز ، ومع ذلك لم يورد فيه شيئاً من الصفات مما يدل على أنه يرى أن صفات الله تعالى على الحقيقة لا على المجاز ، وهذا أمر مجمع عليه عند السلف، وقاعدة عظيمة تُجرى على كل الصفات ، فثُبَّتْ على الحقيقة كما يليق بجلاله وعظمته ، ولا تؤول أو تفوض بحجة أنها مجاز .

قال ابن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) :

"أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة ، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة" ^(٤).

وقال الذهبي (ت ٧٤٨هـ) معلقاً على كلام ابن عبدالبر :

"صدق والله ، فإن من تأول سائر الصفات ، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام أذاه ذلك السلب إلى تعطيل الرب ، وأن يشابه المعدوم ، كما نُقِلَ عن حماد بن زيد (ت ١٧٩هـ) أنه قال: "مثل الجهمية ، كقوم قالوا: في دارنا نخلة ، قيل: بها سعف؟ قالوا: لا، قيل: فلها كرب؟ قالوا: لا، قيل: لها رطب وقنو؟ قالوا: لا ، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة" ^(٥).

(١) سورة النساء : ١٦٤ .

(٢) سورة النحل : ٤٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١١٠-١١١) .

(٤) التمهيد (٧/١٤٥) .

(٥) العلو للعلي الغفار (ص ٢٥٠) .

خامساً : أن الإمام ابن قتيبة يجري نصوص الصفات على ظاهرها ، مع اعتقاده بأن ظاهرها يليق بالله ولا يدل على المشابهة .

يقول ابن قتيبة : "الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفته أو حيث انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب، ونضعه عليه ونمسك عما سوى ذلك"^(١).

فقوله : "ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب ونضعه عليه" يدل على أنه يُجري الصفات على ظاهرها ، وهو ما يتفق مع مذهب السلف في الصفات.

يقول أبو سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـ) :

"فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة ، فإن مذهب السلف إثباتها وإجرائها على ظاهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها"^(٢).

ويقول القاضي أبو يعلى (ت ٥٢٦هـ) :

"لا يجوز رد هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها ، والواجب حملها على ظاهرها وأنها صفات لله لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من سائر الخلق ولا يعتقد التشبيه فيها"^(٣).

ويقول الحافظ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) :

"وأما الكلام في الصفات ؛ فما روي في السنن والصحاح ؛ فمذهب السلف إثباتها وإجرائها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها"^(٤).

وبهذا يتبين أن الأسس الخمسة التي كان عليها منهج ابن قتيبة ، هي ذات الأسس التي قام عليها منهج السلف في الأسماء والصفات ، وبهذا كان ابن قتيبة في جميع ما يقرره من صفات على مذهب أهل السنة والجماعة ، لم يفارقهم في شيء من ذلك^(٥).

والمواضع التي أثبت فيها ابن قتيبة صفات الله عز وجل وفق منهج السلف كثيرة جداً، وليس الغرض هنا حصرها واستقصاؤها ، فإن هذا يحتاج إلى بحوث مستقلة ، وإنما القصد

(١) الاختلاف في اللفظ (١١٥) .

(٢) من "رسالة الغنية عن الكلام وأهله" ، نقلاً عن شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٥٨/٥) .

(٣) إبطال التأويلات لأخبار الصفات (٤٣/١) .

(٤) نقلاً عن الذهبي في رسالته "إثبات اليد لله سبحانه" (ص ٤١) .

(٥) انظر - للاستزادة - : عقيدة الإمام ابن قتيبة (ص ١٣٤-١٥٣) .

ذكر نماذج تُجلي حقيقة منهجه في الصفات ، وتبرز تمسكه وتقديره لمنهج السلف في هذا الباب ، ومن ذلك :

١ . صفة العلو والفوقية :

صفة العلو من الصفات الثابتة لله سبحانه وتعالى بدلالة الفطرة والعقل والشرع، وقد جاء في الكتاب والسنة ما يدل على ثبوت هذه الصفة بطرق متنوعة أوصلها بعضهم إلى عشرين نوعاً ؛ من ذلك:

التصريح بالفوقية مقروناً بأداة "مِنْ" الدالة على الفوقية، ومجرداً عنها، ومنها التصريح بالعروج، وبالصعود لبعض المخلوقات إليه، وكذلك بالرفع، ومنها التصريح بتنزيل الكتاب منه ، والتصريح بأنه في السماء ، وباستوائه على العرش ، ومنها التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وقدرراً وشرفاً^(١).

والإمام ابن قتيبة - مثل السلف الصالح - يثبت هذه الصفة لله سبحانه وتعالى على ما يليق به جل في علاه ، يقول في ذلك:

"والأمم كلها عربيتها وعجميتها تقول : إن الله تعالى في السماء ، ما تُركت على فطرها ، ولم تُنقل عن ذلك بالتعليم ، وفي الحديث أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمة أعجمية للعتق ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الله؟ فقالت: في السماء ، قال: "فمن أنا" ، قالت: أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: "هي مؤمنة" ، وأمره بعنتها^(٢)"^(٣).

ويقول - في الرد على أصحاب الحلول ومنكري العلو - :

"كيف يسوغ لأحد أن يقول إنه بكل مكان على الحلول مع قوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى

الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾^(٤) أي استقر كما قال : ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾^(٥)

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢/٣٨٠-٣٨٦) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ح(١١٩٩) (ص٧٦١)، من حديث معاوية بن الحكم .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص١٨٣) .

(٤) سورة طه : ٥ .

(١) أي استقررت ومع قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١) وكيف يصعد إليه شيء هو معه ، أو يرفع إليه عمل وهو عنده ، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه يوم القيامة ، وتعرج بمعنى تصعد ، يقال: عرج إلى السماء إذا صعد والله عز وجل ذو المعارج والمعارج الدُّرَج ، فما هذه الدُّرَج ، وإلى من تؤدي الأعمال الملائكة إذا كان بالحل الأعلى مثله بالحل الأدنى ، ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم وما رُكِّبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق سبحانه لعلموا أن الله تعالى هو العلي وهو الأعلى وهو بالمكان الرفيع ، وأن القلوب عند الذكر تسمو نحوه والأيدي تُرفع بالدعاء إليه ومن العلو يُرجى الفرج ويُتوقع النصر ويُنزل الرزق ، وهنالك الكرسي والعرش والحجب والملائكة ، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(٢) ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٣) ، وقال في الشهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٤) ، وقيل لهم شهداء : لأنهم يشهدون ملكوت الله تعالى ، واحدهم شهيد كما يقال عليم وعلماء وكفيل وكفلاء"^(٥).

ويقول في الرد على احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾^(٦) : "إنه معهم بالعلم بما هم عليه ، كما تقول للرجل وجهته إلى بلد شاسع ووكلته بأمر من أمورك : احذر التقصير والإغفال لشيء مما تقدمت فيه إليك فإني معك ، تريد أنه لا يخفى عليّ تقصيرك أو جدك ، للإشراف عليك والبحث عن أمورك ، وإذا جاز هذا في المخلوق الذي لا يعلم الغيب ، فهو في الخالق الذي يعلم الغيب أجوز"^(٧).

(١) سورة المؤمنون : ٢٨ .

(٢) سورة فاطر : ١٠ .

(٣) سورة الأنبياء : ١٩-٢٠ .

(٤) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٢-١٨٣) .

(٦) سورة المجادلة : ٧ .

(٧) تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٢) .

ويرد - أيضاً - احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَهٌُ ﴾^(١) ، فيقول : "فليس في ذلك ما يدل على الحلول بها ، وإنما أراد به أنه إله السماء
وإله من فيها ، وإله الأرض وإله من فيها ، ومثل هذا الكلام قولك : هو بخراسان أمير
وبمصر أمير ، فالإمارة تجتمع له فيهما ، وهو حالّ بإحدهما أو بغيرهما ، وهذا واضح لا
يخفى"^(٢) .

ويقول - أيضاً - مستهزئاً بأصحاب الحلول : "والعجب لقوم لا يؤمنون إلا بما يصح
في المعقول ، ثم خرجوا من كل معقول بقولهم : إن الله في كل مكان بغير مماسة ولا مباينة ،
وبغير موافقة ولا مفارقة"^(٣) .

وهذا الذي قرره ابن قتيبة في صفة العلو لله عز وجل ، هو الحق الذي دلّت عليه
النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة وشهادة العقل والفطرة - كما
سبق - .

قال ابن أبي العز (ت ٧٩٢هـ)^(٤) :

"وإنكار ذلك - أي العلو - إنكار لما هو من أجلّ البدهيات الضرورية بلا ريب ...
، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً ، فكيف إذا كان لا
يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله ، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك؟! فكيف
إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة ، والنصوص الواردة المتنوعة
المحكّمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده التي تقرب من عشرين نوعاً"^(٥) .

(١) سورة الزخرف : ٨٤ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٤) .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٨) .

(٤) أبو الحسن علي بن علي بن محمد بن أبي البركات الدمشقي الصالح الحنفي ، المعروف بابن أبي العز ، الإمام
العلامة ، أتمن العلوم في سن مبكرة ، وتولى قضاء الحنفية في دمشق ومصر ، له من المؤلفات : "شرح العقيدة
الطحاوية" ، و"الاتباع" ، و"التنبية على مشكلات الهداية" ، توفي سنة ٧٩٢هـ . [إنباء الغمر بأبناء العمر
(٩٥/٢) ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٢/١٨٥) ، مقدمة تحقيق د. عبدالله التركي وشعيب الأرنؤوط ل
"شرح العقيدة الطحاوية" (ص ٦٣-١٠٣)] .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٣٨٠) .

٢ . صفة اليدين :

صفة اليدين صفة ذاتية حقيقية ثابتة لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، دلت الآيات والأحاديث النبوية الكريمة على هذه الصفة لله سبحانه وتعالى ، منها : قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٢) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : "إن الله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها"^(٣) . والإمام ابن قتيبة يثبت هذه الصفة لله عز وجل على منهج السلف الصالح ، فيقول في

تفسير قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٤) :

"فإن قيل لنا : ما اليدان ههنا؟ قلنا له : هما اليدان اللتان تعرف الناس ، كذلك قال ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في هذه الآية: "اليدان اليدان" ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كلتا يديه يمين"^(٥) ، فهل يجوز لأحد أن يجعل اليدين ههنا نعمة أو نعمتين ؟ ، وقال تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ ﴾^(٦) ، فنحن نقول كما قال الله تعالى ، وكما قال رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نتجاهل ، ولا يحملنا ما نحن فيه من نفي التشبيه على أن ننكر ما وصف به نفسه ، ولكننا لا نقول: كيف اليدان ؟ ، وإن سئِلنا نقتصر على جملة ما قال ، ونمسك عما لم يقل"^(٧) .

ويقول - رداً على من أنكر صفة اليدين وتأولها بمعنى النعمة أو القوة - :

(١) سورة ص : ٧٥ .

(٢) سورة المائدة : ٦٤ .

(٣) أخرجه مسلم في التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ح(٦٩٨٩) (ص١١٥٦) ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٤) سورة المائدة : ٦٤ .

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة ، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر ح(٤٧٢١) (ص١٠٠٥) من حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما .

(٦) سورة ص : ٧٥ .

(٧) الاختلاف في اللفظ (ص١١٣) .

"وفعلوا في كتاب الله أكثر مما فعل الأولون في تحريف التأويل عن جهته، فقالوا في قول الله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾^(١)، إن اليد ههنا النعمة، وما ننكر أن اليد قد تتصرف على ثلاثة وجوه من التأويل؛ أحدها: النعمة، والآخر: القوة من الله ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾^(٢)، يريد أولي القوة في دين الله والبصائر، ومنه يقول الناس ما لي بهذا الأمر يدان يعنون ما لي به طاقة.

والوجه الثالث: اليد بعينها، ولكنه لا يجوز أن يكون أراد في هذا الموضع النعمة، لأنه قال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾^(٣)، والنعم لا تُعَلَّ، وقال: غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ معارضة بمثل ما قالوا، ولا يجوز أن يكون أراد غَلَّتْ نعمتهم، ثم قال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، ولا يجوز أن يريد نعمته مبسوطتان، وكان مما احتجوا به للنعمة قوله: ﴿ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾، لو أراد اليد بعينها لم يكن في الأرض يهودي غير مغلول اليد، فما أعجب هذا الجهل والتعسف في القول بغير علم، ألم يسمعوا بقول الله تعالى: ﴿ قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴾^(٤)، ويقول: ﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ ﴾^(٥)، وقوله: ﴿ وَلِعِنَّا لَمَّا قَالُوا ﴾^(٦)، واللعن: الطرد فهل قتل الله الناس جميعاً؟! وهل قتل قوماً وطرد آخرين؟!، ألم يسمعوا بقول العرب قاتله الله ما أبطشه، وأخزاه الله ما أشعره"^(٧).

واعتماد ابن قتيبة في هذه الصفة - كما أسلفت - هو اعتقاد جميع أئمة السلف.

قال الإمام ابن خزيمة (ت ٣١١هـ):

(١) سورة المائدة: ٦٤ .
 (٢) سورة ص: ٤٥ .
 (٣) سورة المائدة: ٦٤ .
 (٤) سورة عبس: ١٧ .
 (٥) سورة التوبة: ٣٠ .
 (٦) سورة المائدة: ٦٤ .
 (٧) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٢-١١٣) .

"نحن نقول : الله جل وعلا له يدان كما أعلمنا الخالق البارئ في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ونقول : كلتا يديه ربنا عز وجل يمين"^(١).

وقال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"وقد تواتر في السنة مجيء اليد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فالمفهوم من هذا الكلام أن الله تعالى يدين مختصتين به ذاتيتين له كما يليق بجلاله ، وأنه سبحانه خلق آدم بيديه دون الملائكة وإبليس ، وأنه سبحانه يقبض الأرض ويطوي السماء بيده اليمنى، وأن يديه مبسوطتان ، ومعنى بسطهما بذل الجهد وسعة العطاء"^(٢).

٣ . صفة الأصابع لله تعالى .

يثبت الإمام ابن قتيبة صفة الأصابع لله عز وجل على وجه يليق به سبحانه وتعالى، كما وردت بذلك النصوص الصحيحة الصريحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول ابن قتيبة - في إثبات هذه الصفة والرد على من أنكروها وتأولوها بمعنى النعم - :
"قالوا - أي الجهمية - : رويتم "أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل"^(٣)، فإن كنتم أردتم بالأصابع ههنا النعم ، وكان الحديث صحيحاً فهو مذهب، وإن كنتم أردتم الأصابع بعينها فإن ذلك يستحيل ، لأن الله تعالى لا يوصف بالأعضاء ولا يشبهه بالملخوقين ، وذهبوا في تأويل الأصابع إلى أنه النعم ، لقول العرب : "ما أحسن إصبع فلان على ماله"، يريدون أثره، وقال الراعي في وصف إبله:

ضَعِيفُ الْعَصَا بَادِي الْعُرُوقِ تَرَى لَهُ

عَلَيْهَا إِذَا مَا أَحْمَلُ النَّاسُ إِصْبَعًا^(٤)

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/١٩٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٣٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ح(٦٧٥٠) (ص ١١٤٠)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرج الإمام أحمد في المسند (٦/٢٥٠) عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك، فقالت له : إنك تكثر أن تقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك ، فقال: وما يؤمنني ، وإنما قلوب العباد بين أصبعي الرحمن ..".

(٤) ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٣/٥٢)، والقالي في الأمالي (٢/٣٥٧)، كما أنشده في اللسان مادة (ص ب ع)

أي : ترى له عليها أثراً حسناً .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن هذا الحديث صحيح وإن الذي ذهبوا إليه في تأويل الأصبع لا يشبه الحديث، لأنه - عليه السلام - قال في دعائه : "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، فقالت له إحدى زوجاته : "أَو تخاف يا رسول الله على نفسك؟"، فقال: "إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل".

فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله - تعالى - فهو محفوظ بتينك نعمتين فلاي شيء دعا بالثبوت ؟ ولم احتج على المرأة التي قالت له : "أتخاف على نفسك"، بما يؤكد قولها؟ وكان ينبغي أن لا يخاف إذا كان القلب محروساً بنعمتين.

فإن قال لنا : ما الأصبع عندك ههنا؟ قلنا : هو مثل قوله في الحديث الآخر: "يحمل الأرض على إصبع"^(١)، وكذا على إصبعين ، ولا يجوز أن تكون الأصبع هاهنا نعمة .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾^(٢)، ولم يجوز ذلك ، ولا نقول إصبع كأصابعنا ولا يد كأيدينا ولا قبضة كقبضاتنا ، لأن كل شيء منه - عز وجل - لا يشبه شيئاً منا"^(٣).

وإثبات هذه الصفة من الإمام ابن قتيبة موافق لما عليه سلف الأمة من إثباتها.

سئل الإمام سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) عن حديث عبدالله بن مسعود (ت ٣٥ هـ) رضي الله عنه : "إن الله عز وجل يجعل السماء على إصبع"^(٤)، وحديث : "إن قلوب بني

^(١) أخرجه البخاري في التفسير [سورة الزمر] ، باب قوله : "وما قدروا الله حق قدره" ح (٤٨١١) (ص ٤٠٩)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ، باب صفات المنافقين وأحكامهم ح (٧٠٤٦) (ص ١١٦٣)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

^(٢) سورة الزمر : ٦٧ .

^(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤١) .

^(٤) سبق تخريجه (ص ٤٢٢) .

آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن"^(١)، فقال: "هذه الأحاديث نرويها ونقر بها كما جاءت بلا كيف"^(٢).

وعقد الإمام ابن خزيمة (ت ٣١١هـ) في كتابه "التوحيد" بابين ، أحدهما: بعنوان "إثبات الأصابع لله عزّ وجل"^(٣)، والآخر : بعنوان "باب ذكر إمساك الله تبارك وتعالى اسمه وجلّ ثناؤه السموات والأرض وما عليها على أصابعه"؛ وقال فيه: "جلّ ربنا أن تكون أصابعه كأصابع خلقه ، وعن أن يشبه شيء من صفات ذاته صفات خلقه"^(٤).

ومن الصفات - أيضاً - التي تُحدث عنها ابن قتيبة وقررها على منهج السلف الصالح:

. صفة الكلام لله عزّ وجل^(٥).

. صفة النزول لله تعالى^(٦).

. صفة الاستواء^(٧).

. صفة المعية^(٨).

. صفة الضحك لله تعالى^(٩).

. صفة العَجَب^(١٠).

. حديث خلق الله آدم على صورته^(١١).

(١) سبق تخريجه (ص ٤٢١) .

(٢) أخرجه الدارقطني في الصفات (ص ٤٢) .

(٣) التوحيد (١/١٨٧) .

(٤) المصدر السابق (١/١٧٨) .

(٥) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١٧٥)، الاختلاف في اللفظ (ص ١١٠، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٢)، المسائل

والأجوبة (ص ٢٥٣) .

(٦) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٣) .

(٧) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٢)، الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٠) .

(٨) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١٨٢) .

(٩) انظر : المصدر السابق (ص ١٤٣) .

(١٠) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٣)، الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٣) .

(١١) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٧-١٥٠) .

- . صفة القدرة^(١).
- . صفة الحلم^(٢).
- . صفة العفو^(٣).
- . صفة السمع والبصر^(٤).

(١) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٩) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٠٩) .

(٣) المصدر السابق (ص ١٠٩) .

(٤) المصدر السابق (ص ١٠٩) .

المبحث الثالث

تقريره منهج السلف في بقية مسائل الاعتقاد

كما قرر الإمام ابن قتيبة منهج السلف في باب الصفات ، فإنه كذلك عرّضَ لجملة من مسائل الاعتقاد في أبواب مختلفة وقررها على منهج السلف الصالح ، وليس الغرض هنا الحصر والاستقصاء لهذه المسائل ، وعليه سأكتفي بذكر أربع مسائل من أبواب متفرقة في العقيدة ؛ تؤكد حقيقة تمسكه بمذهب السلف ، وتبرز جهوده في تقرير عقيدة السلف في المسائل العقدية ، وتفصيل هذه المسائل كالتالي :

١ . القضاء والقدر .

الإيمان بالقضاء والقدر أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، وركن من أركان الإيمان الستة الواردة في حديث جبريل عليه السلام ، وفيه أن الإيمان : "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"^(١).

والناس في القدر طرفان ووسط ، فطرف أثبتوا قدر الله تعالى وغالوا فيه ، حتى جعلوا العبد مجبوراً على فعله ، فلم يثبتوا له فعلاً ولا كسباً على الحقيقة ، وقالوا بأن كل ما نُسب إليه من الفعل فهو على المجاز ، كما يُنسب للجمادات فيقال سقط الجدار ومال الحائط ، ونحو ذلك ، وهؤلاء هم الجبرية ، وطرف غالوا في نفي قدر الله ، وجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله ، وهؤلاء هم القدرية ، وهدى الله أهل السنة والجماعة فكانوا وسطاً بين أهل الإفراط والتفريط ، وقالوا بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ، وأنه تعالى الفعّال لما يريد ، لا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، وأن كل أمر مخطوط في اللوح المحفوظ ، وأنه تعالى خالق أفعال العباد ، وعالم بجميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق

^(١) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ح(٩٣) (ص٦٨١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

والآجال ، وأنه سبحانه يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته ، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون^(١) .

والإمام ابن قتيبة من أئمة أهل السنة والجماعة الذين قرروا هذه العقيدة في مصنفاتهم ودلّلوا عليها ، وردّوا على من خالفها ، ومن ذلك :

قوله : "وما لأحد على الله حجة ولا قبله حق ولا فيما خلق شرك ، بل له الحجة البالغة ، وهو الفعال لما يريد ، وعدل القول في القدر أن تعلم أن الله عدل لا يجور، كيف خلق وكيف قدر وكيف أعطى وكيف منع ، وأنه لا يخرج من قدرته شيء ولا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلا ما أراد ، وأنه لا دين لأحد عليه ولا حق لأحد قبله، فإن أعطى بفضله ، وإن منع فبعده ، وأن العباد يستطيعون ويعملون ويُجزون بما يكسبون ، وأن لله لطيفة يتدبّر بها من أراد ويتفضل بها على من أحب ، يوقعها في القلوب فيعود بها إلى طاعته ، ويمنعها من حَقَّت عليه كلمته ، فهذه جملة ما ينتهي إليه علم ابن آدم من قدر الله عزّ وجل ، وما سوى ذلك مخزون عنه"^(٢) .

ويقول : "ونحن نعلم أن كل شيء بقدر الله وقضائه غير أننا ننسب الأفعال إلى فاعليها ، ونحمد المحسن على إحسانه ، ونلوم المسيء بإساءته ، ونعتد على المذنب بذنوبه"^(٣) .
ويقول في رده على القدرية والجبرية :

"ألا ترى أن أهل القدر حين نظروا في قدر الله الذي هو سرُّه بآرائهم ، وحملوه على مقاييسهم ، أرتهم أنفسهم قياساً على ما جعل في تركيب المخلوق من معرفة العدل من الخلق على الخلق ، أن يجعلوا ذلك حكماً بين الله وبين العبد ، فقالوا بالتخلية والإهمال ، وجعلوا العباد فاعلين لما لا يشاء ، وقادرين على ما لا يريد ، كأنهم لم يسمعوا بإجماع الناس على "ما يشاء الله كان وما لا يشاء لا يكون" ، ولما رأى قوم من أهل الإثبات إفراط هؤلاء في القدر وكثر بينهم التنازع ، حمل البغض لهم واللجاج على أن يقابلوا غلوهم بغلو ،

(١) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ٩٩-١٠٩) ، شفاء العليل لابن القيم (١٧/١) ، عقيدة الإمام ابن قتيبة (ص ١٩٠) .

(٢) الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٨) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٦٠) .

وعارضوا إفراطهم بإفراط ، فقالوا بمذهب جهم (ت ١٢٨هـ)^(١) ، في الجبر ، وجعلوا العبد المأمور والمنهي المكلف لا يستطيع من الخير والشر شيئاً على الحقيقة ، ولا يفعل شيئاً على الصحة ، وذهبوا إلى أن كل فعل ينسب إليه وإنما ينسب إليه على المجاز كما يقال في الموات^(٢) ، مال الحائط ، وإنما أراد أميل ... ، وكلا الفريقين غالط ، وعن سوء الحق حائد^(٣) .

وقد توسع الإمام ابن قتيبة في رده على القدرية المخالفين في باب القدر ، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في مبحث "الرد على تأويلات المعتزلة"^(٤) .

وبهذا يتبين أن هذا الاعتقاد من ابن قتيبة في باب القدر هو اعتقاد السلف الصالح ، وقد نقل اللالكائي (ت ٤١٨هـ) إجماعهم على ذلك ، فقال :

"سياق ما فُسر من الآيات في كتاب الله عزّ وجل ، وما روي من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إثبات القدر ، وما نُقل من إجماع الصحابة والتابعين والخالفين لهم من علماء الأمة أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله عزّ وجل طاعاتها ومعاصيها"^(٥) .

ويقول ابن القيم (ت ٧٥١هـ) : "وأما حزب الله ورسوله وأنصار سنته .. فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشئته العامة ، وينزهونه أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ، ولا هو واقع تحت مشئته ، ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون ما قدره الله وقضاه وفرغ منه ، وأنه لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه"^(٦) .

(١) الجهم بن صفوان ، أبو محزر الراسبي ، مولا هم السمرقندي ، الكاتب المتكلم ، أس الضلالة ورأس الجهمية ، كان صاحب جدال ، وكان منكرًا للصفات ، قائلاً بخلق القرآن ، وأن الله في كل مكان ، قتله مسلم بن أحوز سنة ١٢٨هـ . [ميزان الاعتدال (٤٢٦/١) ، لسان الميزان (١٤٢/٢) ، البداية والنهاية (٢١٦/١٣)] .

(٢) جاء في اللسان مادة (موت) (٩٠/٢) : "الموات: الأرض التي لم تُزرع ولم تُعمر ولا جرى عليها ملك لأحد" .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ٩٩-١٠٦) .

(٤) انظر : (ص ٤٤٩) من هذه الرسالة .

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥٨٩/٣) .

(٦) شفاء العليل (١٥١/١) .

٢ . رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة .

أعظم نعم الجنة وملذاتها رؤية المؤمنين وجه ربهم الكريم الذي ليس كمثلته شيء، وهذه الرؤية ثابتة بالكتاب والسنة المتواترة ، واتفق على القول بها جميع الصحابة والتابعين ومن تبعهم من أئمة الهدى والدين .

وقد قرر ابن قتيبة هذه المسألة واستدل لها ، وردّ على من خالفها ؛ فقال: "إن الله عزّ وجل احتجب عن جميع خلقه في الدنيا ، ويتجلى لهم يوم الحساب ، ويوم الجزاء والقصاص ، فيراه المؤمنون كما يرون القمر في ليلة البدر ، ولا يختلفون فيه كما لا يختلفون في القمر"^(١).

واستدل لهذه المسألة فقال : "والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، ويقول في قوم سخط عليهم : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، أفما في هذا القول دليل على أن الوجوه الناصرة التي هي إلى ربها ناظرة هي التي لا تُحجب إذا حُجبت هذه الوجوه"^(٢).

كما استدل على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : "ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته"^(٣)؛ وقال :

"إن هذا الحديث صحيح لا يجوز على مثله الكذب لتتابع الروايات عن الثقات به من وجوه كثيرة ، ولو كان يجوز أن يكون مثله كذباً ، جاز أن يكون كل ما نحن عليه من أمور ديننا - في التشهد الذي لم نعلمه إلا بالخبر ، وفي صدقة النعم وزكاة الناض من الأموال ، والطلاق ، والعتاق ، وأشبه ذلك من الأمور التي وصل إلينا علمها بالخبر ، ولم يأت لها بيان في كتاب - باطلاً ، ولم يقع التشبيه بها على كل حالات القمر في التدوير والمسير والحدود

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٩) .

(٢) سورة القيامة : ٢٢-٢٣ .

(٣) سورة المطففين ١٥-١٦ .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) .

(٥) سبق تخريجه (ص ٦٨) .

وغير ذلك ، وإنما وقع التشبيه بها على أنا ننظر إليه عز وجل كما ننظر إلى القمر ليلة البدر لا يُختلف في ذلك كما لا يُختلف في القمر ... " (١).

ولم يكتب الإمام ابن قتيبة بمجرد الاستدلال لهذه المسألة ، بل تناول حجج المخالفين وتأويلاتهم للنصوص الشرعية المثبتة للرؤية ، ففتدها ، وردّ عليها ، وفي ذلك يقول : "وأما قولهم إن الرؤية في قوله : "ترون ربكم يوم القيامة" بمعنى العلم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ، يريد ألم تعلم ، فإنه يستحيل لأنا نعلمه في الدنيا أيضاً ، فأى فائدة في هذا الخبر إذا كان الأمر يوم القيامة وفي الدنيا واحداً" (٣).

وردّ على استدلال المخالفين بقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَرِنِّي ﴾ (٤) ، على نفي الرؤية مطلقاً في الدنيا والآخرة ؛ فقال : "وفي قول موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٥) ، أبين الدلالة على أنه يرى يوم القيامة ، ولو كان الله تعالى لا يُرى في حال من الأحوال ولا يجوز عليه النظر لكان موسى عليه السلام قد خفي عليه من وصف الله تعالى ما علموه ... لا لعمر الله لا يجوز أن يجهل موسى عليه السلام من الله عز وجل مثل هذا لو كان على تقديرهم ، ولكن موسى عليه السلام علم أن الله تعالى يُرى يوم القيامة ، فسأل الله عز وجل أن يجعل له في الدنيا ما أجّله لأنبيائه وأوليائه يوم القيامة ، فقال له : ﴿ لَنْ تَرِنِّي ﴾ ، يعني في الدنيا ﴿ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي ﴾ (٦) ، فأعلمه أن أن الجبل لا يقوم لتجليه حتى يصير دكاً ، وأن الجبال إذا ضعفت عن احتمال ذلك فابن آدم أخرى أن يكون أضعف إلى أن يعطيه الله تعالى يوم القيامة ما يقوى به على النظر ويكشف عن بصره الغطاء الذي كان في الدنيا" (٧).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٨-١٣٩) .

(٢) سورة البقرة : ١٠٦ .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٠) .

(٤) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٥) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٦) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٧) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٩-١٤٠) .

وردّ عليهم تأويلهم قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ، بأنها منتظرة لثوابه ؛ فقال : "وما ننكر أن نظرت قد تكون بمعنى انتظرت ، وأن الناظرة قد يكون بمعنى المنتظرة ، غير أنه يقال : أنا لك ناظر أي أنا لك منتظر ، ولا يقال : أنا إليك ناظر أي إليك منتظر إلا أن يريد نظر العين ، والله يقول : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ، ولم يقل : لربها ناظرة ؛ فيحتمل ما تأولوا" (٢).

واعتماد ابن قتيبة في مسألة الرؤية هو اعتقاد جميع أئمة السلف .

قال الدارمي (ت ٢٨٠هـ) بعد أن ذكر الأحاديث الدالة على الرؤية :

"فهذه الأحاديث كلها أو أكثر منها قد رويت في الرؤية ، على تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا ، ولم يزل المسلمون قديماً وحديثاً يروونها ويؤمنون بها ولا يستنكرونها ولا ينكرونها ... وقد صحّت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن بعده من أهل العلم ، وكتاب الله الناطق به ، فإذا اجتمع الكتاب وقول الرسول صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة لم يبق لمتأول تأول إلا لمكابر أو جاحد" (٣).

وقال ابن أبي العز (ت ٧٢٩هـ) : "وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، وأهل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبين إلى السنة والجماعة ، وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلّها ، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون ، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مطرودون" (٤).

٣ . عصمة الأنبياء .

يذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر والكبائر ، وفي كل ما يتعلق بالتبليغ ويجوزون ما عدا ذلك من صغائر الذنوب والسهو والنسيان ، غير أنهم يقولون أن الأنبياء عليهم السلام لا يقرون على خطأ ، وإذا صدر منهم

(١) سورة القيامة : ٢٢-٢٣ .

(٢) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٦) .

(٣) الرد على الجهمية (ص ١٠٣-١٠٤) .

(٤) شرح الطحاوية (١/٢٠٧) .

شيء من الصغائر فإنهم يسارعون إلى التوبة إلى الله والإنابة إليه ، فتكون كأن لم تكن، وينالون بذلك منزلة أعلى من منزلتهم السابقة، كما قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ

﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ. فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١﴾. (٢)

والإمام ابن قتيبة على هذا الاعتقاد ، ومما يدل على اعتقاده عصمة الأنبياء من الكفر

والكبائر قوله -رداً على من قال بأن إبراهيم عليه السلام لما قال: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ (٣)

للكوكب ؛ قاله عن اعتقاد - : "ومن الناس من يذهب إلى أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان في تلك الحال على ضلال وحيرة ، وكيف يتوهم ذلك على من عصمه الله وطهره في

مستقره ومستودعه ، والله سبحانه يقول: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٤) ، أي لم يشرك

به قط، ويقول في صدر الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٥) ، ثم قال إثر ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ (٦) ، أفترى الله

الله أراه الملكوت ليوقن ، فلما أيقن رأى كوكباً فقال هذا ربي على الحقيقة والاعتقاد" (٧).

ويجوز الإمام ابن قتيبة النسيان على الأنبياء عليهم السلام ، وفي ذلك يقول : "والنبي

صلى الله عليه وسلم نفسه ربما سهى ، وكان ينسى الشيء من القرآن ، حتى قال الله تعالى

: ﴿ سَفَرْتُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ (٨) ، وقيل الفدية في يوم بدر فنزل قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ

مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٩) ، وقال : "لو نزل عذاب ما نجا إلا

(١) سورة طه : ١٢١-١٢٢ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٤/٣١٩) ، منهاج السنة (١/٣٣٩) ، أضواء البيان للشنقيطي (٤/٥٢٢).

(٣) سورة الأنعام : ٧٦ .

(٤) سورة الصافات : ٨٤ .

(٥) سورة الأنعام : ٧٥ .

(٦) سورة الأنعام : ٧٦ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص٣٣٧-٣٣٨) .

(٨) سورة الأعلى : ٦ .

(٩) سورة الأنفال : ٦٨ .

عمر (ت ٢٣هـ)^(١)، لأنه أشار عليه بالقتل وترك أخذ الفداء ، ... وهكذا الأنبياء المتقدمون عليهم السلام في السهو والنسيان وتعداد هذا يطول ويكثر وليس به خفاء على من علمه^(٢).

ويقول - منتقداً من يقول بعصمة الأنبياء من الكبائر والصغائر على الإطلاق ، ثم يحمله هذا القول على تحريف النصوص الشرعية لتوافق ما ذهب إليه - :
"يستوحش كثير من الناس أن يُلْحِقُوا بِالْأَنْبِيَاءِ ذُنُوباً ، ويحملهم التنزيه لهم صلوات الله عليهم على مخالفة كتاب الله جل ذكره ، واستكراه التأويل ، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة"^(٣).
ومما انتقده عليهم في ذلك :

قوله : "كتأولهم في قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾^(٤) ، أي : بِشَمٍ^(٥) من من أكل الشجرة ، وذهبوا إلى قول العرب : غوى الفصيلُ : إذا أكثر من اللبن حتى يبشَمَ ، وذلك غوى - بفتح الواو - يَغْوِي غِيًّا ، وهو من البَشَمِ غَوِي - بكسر الواو - يَغْوِي غَوًى .

ولو وُجِدَ أيضاً في "عصى" مثل هذا السَّنن لركبوه ، وليس في "غوى" شيء إلا ما في "عصى" من معنى الذنب ، لأن العاصي لله التارك لأمره غاؤٍ في حاله تلك ، والغاوي عاصٍ ، والغِيُّ ضدُّ الرِّشد ، كما أن المعصية ضد الطاعة .

وقد أكل آدم ، صلى الله عليه وسلم ، من الشجرة التي نُهي عنها باستئلال إبليس وخدائعه إيَّاه بالله والقسم به إنه لمن الناصحين ، حتى دلَّاهُ بِغُرُورٍ ، ولم يكن ذنبه عن إرصادٍ ، وعداوة وإرهاص^(٦) ، كذنوب أعداء الله ، فنحن نقول : "عصى وغوى" كما قال الله تعالى ، ولا نقول : آدم "عاصٍ وغاؤٍ" لأن ذلك لم يكن عن اعتقاد متقدِّم ولا نيَّة صحيحة

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٨٣/١١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥/٥) .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٠٨) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٢) .

(٤) سورة طه : ١٢١ .

(٥) البشم : هو التخممة ، وقيل هو أن يكثر من الطعام حتى يكرهه . [لسان العرب ، مادة "بشم" (٥٠/١٢)] .

(٦) الإرهاص على الذنب : الإصرار عليه . [لسان العرب ، مادة (رهص) (٤٣/٧)] .

كما تقول لرجل قطع ثوباً وخاطه : قد قطعه - وخاطه - ، ولا تقل "خاط ولا خياط" حتى يكون مُعاوداً لذلك الفعل ، معروفاً به^(١).

وردّ على من تأوّل قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِبًا ﴾^(٢) ، بأنه غاضب قومه ؛ فقال : "فإن كان نبي الله ، صلى الله عليه ، ذهب مُغاضباً على قومه قبل أن يؤمنوا ، فإنما راعم من استحق في الله أن يُراعَمَ ، وهجر من وجب أن يهجر ، واعتزل من علم أن قد حقت عليه كلمة العذاب ، فبأيّ ذنبٍ عُوقب بالتهام الحوت ، والحبس في الظلمات ، والغمّ الطويل؟ .

وما الأمر الذي ألام فيه فنعاه الله عليه إذ يقول : ﴿ فَالْنَقَمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ ﴾^(٣) ، والمليم : الذي أجرم جرماً استجوب به اللوم.

وإن كان الغضب عليهم بعد أن آمنوا ، فهذا أغلظ مما أنكروا ، وأفحش مما استقبحوا ؛ كيف يجوز أن يغضب على قومه حين آمنوا، ولذلك انتجّب ؛ وبه بُعث ؛ وإليه عاد؟! . وما الفرق بين عدو الله ووليّه ، إن كان وليّه يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون؟^(٤).

وكذلك رد الإمام ابن قتيبة على من ينكر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سُحر ، ظناً منهم أن ذلك ينافي العصمة ، فيحمله ذلك على الطعن في النصوص المثبتة لذلك ؛ فيقول رداً عليه :

"وليس هذا مما يجترّ^(٥) الناس به إلى أنفسهم نفعاً ولا يصرفون عنها ضرراً ، ولا يُكسبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثناءً ومدحاً، ولا حملة هذا الحديث^(٦) كذايين

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٢-٤٠٣) .

(٢) سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٣) سورة الصافات : ١٤٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٥-٤٠٦) .

(٥) يجترّ : أي يجر ويجلب [لسان العرب ، مادة (جر) (٤/١٢٥)] .

(٦) يريد ما أخرجه البخاري في الطب ، باب السحر ح (٥٧٦٣) (ص ٤٩٢)، ومسلم في السلام ، باب السحر ح (٥٧٠٣) (ص ١٠٦٦)، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سَخَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بني زريق ، يقال له لبيد بن الأعصم

ولا متهمين ولا مُعادين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُنكر أن يكون لبيد بن الأعصم هذا اليهودي سَحَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قتلت اليهود قبله زكريا بن آذن في جوف شجرة قطعته قطعاً بالمنشير ، وقتلت بعده ابنه يحيى بقول بغيّ واحتياها في ذلك ، وادّعت - يعني اليهود - أنها قتلت المسيح وصلبته ، ولو لم يقل الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾^(١) ، لم نعلم نحن أن ذلك شبهه ، وقتلت الأنبياء وطبختهم وعذبتهم أنواع العذاب ، ولو شاء الله جل وعزّ لعصمهم منهم ، وقد سُمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذراع شاة مشوية سمته يهودية^(٢) ، والسحر أيسر خطباً من القتل والطبخ والتعذيب^(٣) .

وما ذهب إليه ابن قتيبة في عصمة الأنبياء موافق لما ذهب إليه جمهور السلف ، يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"والقول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام كما ذكر أبو الحسن الأمدي (ت ٦٣١هـ)^(٤) ، أن هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول"^(٥) .
القول"^(٥) .

ويقول - أيضاً - : "السلف متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى ، ومتفقون على أنهم لا يقرون خطأ في الدين أصلاً ، ولا على فسق ولا كذب ، ففي

(١) سورة النساء : ١٥٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين ح(٢٦١٧) (ص٢٠٦) ، ومسلم في السلام ، باب السم ح(٥٧٠٥) (ص١٠٦٧) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص١٢١-١٢٢) بتصرف .

(٤) أبو الحسن علي بن أبي علي الأمدي ، الأصولي المتكلم ، من كبار فقهاء الشافعية ، ومتكلمي الأشاعرة ، برع في الأصول ، وله اختيارات خاصة به ضمّن أكثرها في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام" ، توفي سنة ٦٣١هـ .
[طبقات الشافعية للإسنوي (١/١٣٧)] .

(٥) مجموع الفتاوى (٤/٣١٩) .

الجملة كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله تعالى ، فهم متفقون على تنزيههم عنه، وعامة الجمهور الذين يجوّزون عليهم الصغائر يقولون إنهم معصومون من الإقرار عليها .. ، وأما النسيان والسهو في الصلاة فذلك واقع منهم ، وفي وقوعه حكمة استنان المسلمين بهم، كما روي في موطأ مالك "إنما أنسى ، أو أنسى لِأَسْنٍ" (١) " (٢).

٤ . عذاب القبر ونعيمه ، وسؤال الملكين .

عذاب القبر ونعيمه من الأمور الغيبية التي لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق النصوص الثابتة من الكتاب والسنة ، ولذلك كان السلف لا يخوضون ولا يتكلمون في ذلك إلا بما وردت به النصوص ، فهم يؤمنون بما ثبت في الكتاب والسنة من عذاب القبر ونعيمه ، وكذلك يؤمنون بسؤال الملكين كما وردت بذلك النصوص ، والإمام ابن قتيبة يسير على نهجهم ويقتفي آثارهم ، ويقرر ما قرره من عذاب القبر ونعيمه ، ومن سؤال الملكين ، وفي ذلك يقول - منكرًا على المعتزلة - :

"ومثل هذا النظر أنكروا عذاب القبر ومساءلة الملكين وحياة الشهداء عند ربهم يرزقون ... ، وأخشى أن يكون معتقد هذا والقائل به يُرْفَقُ عن صَبُوح^(٣) ، ويُسِرُّ حَسَنًا في ارتغاء^(٤) .

وما على من آمن بالبعث بعد الممات : أن يؤمن بعذاب البرزخ ، وقد خَبَّرَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله قاضٍ على الكتاب ، و- على من آمن - بمسألة الله يوم القيامة : أن يؤمن بمسألة الملكين في القبر"^(٥).

ويقول مستدلًا على ذلك :

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ح(٣٣١) (١٣٦/٢) مرسلًا .

(٢) منهاج السنة (١/٣٣٩) .

(٣) قال الأزهري في تهذيب اللغة ، مادة (صبح) (٤/٢٦٧) : "أَعْرَضَ صَبُوحٌ يُرْفَقُ : يضرب مثلاً لمن يُجْمَعُ ولا يُصْرَحُ ، وقد يُضْرَبُ لمن يُؤَزَّى عن الخطب العظيم بكناية عنه" [وانظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري (ص٧٥)] .

(٤) قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ، مادة (حسو) (٢/٥٨) : "والعرب تقول في أمثالها : "هو يسر حسواً في ارتغاء" ، أي أنه يوهم أنه يتناول رغوّة اللبن ، وإنما الذي يريده شرب اللبن نفسه ، ويُضْرَبُ ذلك لمن يمكر ، يُظْهِرُ أمراً وهو يريد غيره" .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص١١٦-١٢٠) .

"ونحن نقول إنه إذا جاز في المعقول، وصح في النظر، وبالكتاب والخبر، أن الله تعالى يبعث من في القبور، بعد أن تكون الأجساد قد بليت، والعظام قد رَمَتْ ، جاز أيضاً في المعقول وصح في النظر وبالكتاب والخبر، أنهم يعذبون بعد الممات في البرزخ.

فأما الكتاب فإن الله تعالى يقول: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(١)، فهم يعرضون بعد مماتهم على النار غدوا وعشيا قبل يوم القيامة، ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب.

والله عز و جل يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١١٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٧٠)^(٢).

.... فإذا جاز أن يكون هؤلاء الشهداء، أحياء عند ربهم يرزقون، وجاز أن يكونوا فرحين ومستبشرين، فلم لا يجوز أن يكون أعداؤهم الذين حاربوهم وقتلوهم، أحياء في النار يعذبون.

وكثرة الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم في منكر ونكير، وفي عذاب القبر، وفي دعائه: "أعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة المسيح الدجال"^(٣). وهذه الأخبار صحاح، لا يجوز على مثلها التواطؤ، وإن لم يصح مثلها، لم يصح شيء من أمور ديننا، ولا شيء أصح من أخبار نبينا صلى الله عليه وسلم"^(٤).

وإثبات عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين هو عقيدة السلف ، يقول أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ):

"وأنكرت المعتزلة عذاب القبر ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة ، وروي عن أصحابه رضي الله عنهم ، وما روي عن أحد منهم أنه أنكروه ونفاه

(١) سورة غافر : ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٩-١٧٠ .

(٣) سبق تخريجه (ص ٧٢) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٠٢-١٠٤) .

وجحده ، فوجب أن يكون إجماعاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والأدلة الثابتة على عذاب القبر أشهر من أن تذكر لكثرتها وشهرتها"^(١).

ويقول ابن أبي العز (ت ٧٩٢هـ) : "وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه ، لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك ، والإيمان به ، ولا نتكلم في كفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كفيته لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما يحيله المعقول ، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول"^(٢).

ومن المسائل العقديّة التي عرّضَ لها الإمام ابن قتيبة وقررها على منهج السلف الصالح:

- مسمى الإيمان^(٣).
- زيادة الإيمان ونقصانه^(٤).
- حكم مرتكب الكبيرة^(٥).
- الإيمان بالملائكة^(٦).
- الإيمان بالغيب^(٧).
- الثناء على الصحابة وتعديلهم^(٨).
- فضائل علي رضي الله عنه ، والموقف من آل البيت^(٩).
- إثبات حقيقة السحر^(١٠).

(١) الإبانة عن أصول الديانة (ص ٧٠) .

(٢) شرح الطحاوية (٢/٥٧٨) .

(٣) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١١٦)، تأويل مشكل القرآن (ص ٤٨١) .

(٤) انظر : المسائل والأجوبة (ص ٢٥٧، ٣٣١) .

(٥) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١١٦) .

(٦) انظر : المصدر السابق (ص ١٨٦) .

(٧) انظر : المصدر السابق (ص ٨٧) .

(٨) انظر : المصدر السابق (ص ١٩، ١٥٩، ٢٠٦)، غريب الحديث (١/٩٧) .

(٩) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٣، ١٢٥) .

(١٠) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١٢٠-١٢٢) .

- . نزول عيسى عليه السلام ^(١) .
. النهي عن الخروج على السلطان ^(٢) .

^(١) انظر : تفسير غريب القرآن (ص ١٣٧) .

^(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ١٠٥ ، ١٣٨) ، تأويل مشكل القرآن (ص ١١٥-١١٦) .

المبحث الرابع

منع القياس العقلي في باب الاعتقادات

سبق الحديث عن أن منهج السلف يقوم على الاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما، وعدم معارضتهما بآراء وشبهه، وعقول وأوهام، وأنهم يجعلون كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هو الأصل الذي يُعتمد عليه، ويُرد ما يتنازع فيه الناس إليه؛ فما وافقه كان حقاً، وما خالفه كان باطلاً، إذ نصوص الوحي أكبر وأعظم في صدورهم من أن يقدموا عليها عقلاً أو شبهاً.

ولذلك فإن من أصول أهل السنة والجماعة: أن العقل المجرد ليس له إثبات شيء من العقائد والأحكام، وإنما مرجع ذلك إلى السمع الذي هو المنقول عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأما العقل فهو آلة الفهم، وبهذا افترقوا عن أهل البدع والضلال^(١). قال أبو المظفر السمعاني (ت ٤٨٩هـ)^(٢):

"اعلم أن مذهب أهل السنة أن العقل لا يوجب شيئاً على أحد، ولا يرفع شيئاً عنه، ولا حظ له في تحليل أو تحريم، ولا تحسين ولا تقبيح، ولو لم يرد السمع ما وجب على أحد شيء ولا دخلوا في ثواب ولا عقاب"^(٣).

وقال - أيضاً - : "اعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا المأثور تبعاً للمعقول، وأما أهل السنة فقالوا: الأصل في الدين الاتباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء"^(٤).

(١) انظر: الصواعق المرسله (٣/٩٩١-٩٩٢).

(٢) منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي السمعاني المروزي، المشهور بـ"أبي المظفر السمعاني"، مفتي خراسان، وشيخ الشافعية، كان زاهداً ورعاً حجة لأهل السنة، له مصنفات منها: "قواطع الأدلة في الأصول"، "تفسير القرآن"، توفي سنة ٤٨٩هـ. [سير أعلام النبلاء (١٩/١١٤)، البداية والنهاية (١٦/١٥٩)، طبقات المفسرين (٢/٣٣٩)].

(٣) نقله قوام السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (١/٣٤٧).

(٤) نقله قوام السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (١/٣٤٧).

وكان صدر الإسلام الأول من الصحابة والتابعين على هذا المنهج السوي ، فلم يظهر في الأمة حينئذ الافتراق والتنازع ، حتى ظهر أهل البدع ، فأخذوا يشكون في حجية الكتاب والسنة لا سيما في نصوص الصفات ، وأول من عُرف عنهم معارضة النقل بالعقل وعدم الاحتجاج بصحيح المنقول هم الجهمية ، وانتقل التحم إلى المعتزلة ثم إلى بقية طوائف المبتدعة ، فصاروا لا يحتجون إلا بما وافق معقولاتهم التي عارضوا بها صحيح المنقول ، ولم يسبق الجهمية أحد في معارضة النقل بالعقل ، حتى الخوارج والشيعة - في بدء نشأتهم - لم يعارضوا النقل بالعقل ، وإنما كانوا ينتحلون النصوص ويستدلون بها على أقوالهم .

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) : "ومعلوم أن عصر الصحابة وكبار التابعين لم يكن فيه من يعارض النصوص بالعقليات ، فإنَّ الخوارج والشيعة حَدَّثُوا في آخر خلافة علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) رضي الله عنه ، والمرجئة والقدرية حَدَّثُوا في أواخر عصر الصحابة ، وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص ويستدلون بها على أقوالهم ، لا يدَّعون أن عندهم عقليات تعارض النصوص ، ولكن لما حدثت الجهمية في أواخر عصر التابعين كانوا هم المعارضون للنصوص برأيهم ، ومع هذا كانوا قليلين مقموعين في الأمة"^(١).

ونتيجة لظهور هذا المنهج المعوج من معارضة النقل بالعقل تفسى الابتداع واتباع الأهواء المختلفة وفساد الاعتقاد ، إذ اتخذها الضلال وسيلة لرد نصوص الوحي التي تخالف أهواءهم ومعتقداتهم بحجة مخالفتها للعقل ، ولذلك أسسوا دينهم وعقيدتهم على تقديم العقل ، وجعلوا النقل تابعاً لمقررات العقول ، فمتى عارض النقل هذه المقررات وأمكن دفعه دُفِعَ فوراً وإلا كان المصير إلى التأويل^(٢).

وقد أشار الإمام ابن قتيبة إلى منهج أهل الأهواء والبدع هذا ؛ فقال : "نظروا في كتاب الله فوجدوه ينقض ما قاسوا ، ويُبطل ما أسسوا ، فطلبوا له التأويلات المستكرهة والمخارج البعيدة ، وجعلوه عويصاً وألغازاً ... فهذا مذهب القوم في تأويل الكتاب بأرائهم ، وعلى ما أصّلوا من قولهم ، وأما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم اعترضوه

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٤٤) .

(٢) انظر : الصواعق المرسله (١/٢٣٠) ، جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية (ص ٤٦) .

بالنظر ، فما كان له وجه في النظر من هذه الجهة - أي التأويل - صدّقوا به ، وما لم يكن له مخرج ردّوه واستشنعوه وكذبوا ناقله ، ولم يلتفتوا إلى صحيح من الحديث ولا سقيم^(١) .
فهاهو الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) يؤلف كتاب "أساس التقديس" وبينه على قانون أعرج^(٢) ، يقول فيه :

"اعلم أن الدلائل العقلية القطعية إذا قامت على ثبوت شيء ثم وجدنا أدلة نقلية يُشعر ظاهرها بخلاف ذلك ، فهنا لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة : إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل ، فيلزم تصديق النقيضين وهو محال ، وإما أن يطلأ فيلزم تكذيب النقيضين وهو محال ، وإما أن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية وذلك باطل ... إذ لو جوّزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهماً غير مقبول ... ولما بطلت الأقسام الثلاثة لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية إما أن يقال: إنها غير صحيحة ، أو يقال: إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها"^(٣) .

ونتيجة لهذا القانون الباطل فقد امتأأ كتابه بالتأويلات الفاسدة للنصوص الشرعية لا سيما في باب الصفات ، ومن ذلك :

قوله في صفة الاستواء : "إن الدلائل العقلية القاطعة التي قدمنا ذكرها تبطل كونه تعالى مختصاً بشيء من الجهات ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه ليس المراد من الاستواء الاستقرار ، فوجب أن يكون المراد هو الاستيلاء والقهر ، ونفاذ القدر وجريان أحكام الإلهية"^(٤) .

ولهذه المزلق والمهالك اشتد نكير أئمة السلف على المتكلمين في تقديمهم العقل على النقل ، وحذروا من فتنهم أشد تحذير ، وبيّنوا ما يترتب على مذهبه من أباطيل ، ومن هؤلاء الأئمة : الإمام ابن قتيبة ، إذ خصص جزءاً من مقدمة كتابه "تأويل مختلف الحديث"

(١) الاختلاف في اللفظ (١٠٠-١٢١) .

(٢) وقد أّلف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه "درء تعارض العقل والنقل" للرد على قانون الرازي في كتابه "أساس التقديس" فذكر أربعة وأربعين وجهاً في ردّه ، كما أّلف ابن القيم كتابه "الصواعق المرسلّة" للرد على هذا القانون ، فذكر مائتين وواحداً وأربعين وجهاً .

(٣) أساس التقديس (ص ٢٢٠) .

(٤) المصدر السابق (ص ٢٠٢) .

للتشيع على من يسلك هذا المنهج ، وفيه بيّن أن أصول الدين ينبغي الاعتماد فيها على النقل ، وأن العقل لا يثبت شيئاً منها لتفاوت الناس في عقولهم ، وفي ذلك يقول :

"ولكن اختلافهم في التوحيد وفي صفات الله تعالى وفي قدرته وفي نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وعذاب البرزخ وفي اللوح ، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحى من الله تعالى ، ولن يعدم هذا من ردّ مثل هذه الأصول إلى استحسانه ونظره وما أوجبه القياس عنده لاختلاف الناس في عقولهم وإراداتهم واختياراتهم ، فإنك لا تكاد ترى رجلين متفقين حتى يكون كل واحد منهما يختار ما يختاره الآخر ويرذل ما يرذله الآخر إلا من جهة التقليد" (١).

ويقول ابن قتيبة مبيناً هشاشة مذهبهم في الاعتماد على المقاييس العقلية ، وأنه لا يقوم على أس ثابت :

"وكنتم أسمعهم يقولون : إن الحق يُدرك بالمقاييس والنظر ، ويلزم من لزمته الحجة أن ينتقاد لها ، ثم رأيتهم في طول تناظرهم وإلزام بعضهم بعضاً الحجة في كل مجلس مرات لا يزولون عنها، ولا ينتقلون ... وسأل آخر آخر عن العلم ، فقال له: أتقول إن سميعاً في معنى عليم؟ قال : نعم ، قال : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ (٢) ، هل سمعه حين قالوه؟ قال : نعم، قال: فهل سمعه قبل أن يقولوا؟ قال: لا، قال: فهل علمه قبل أن يقولوه؟ قال: نعم، قال له: فأرى في سميع معنى غير معنى عليم، فلم يجب .

قال أبو محمد : قلت له ولالأول قد لزمكما الحجة ، فلم لا تنتقلان عما تعتقدان على ما ألزمتكما الحجة ، فقال أحدهما : لو فعلنا ذلك لانتقلنا في كل يوم مرات، وكفى بذلك حيرة ، قلتُ : فإذا كان الحق إنما يُعرف بالقياس والحجة ، وكنتم لا تنقاد لها بالاتباع كما تنقاد بالانقطاع ، فما تصنع بهما ، التقليد أريح لك والمقام على أثر الرسول صلى الله عليه وسلم أولى بك" (٣).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣-١٤) .

(٢) سورة آل عمران : ١٨١ .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٤-٤٥) .

كما بيّن الإمام ابن قتيبة أن سبب الضلال في كثير من المسائل الشرعية يعود إلى تكذيب النصوص وتعطيلها نتيجة المقاييس العقلية ومحاولة تطبيق النصوص على المشاهدة والنظر ، ومن ذلك قوله :

"إن من حمّل أمر الدين على ما شاهد ، فجعل البهيمة لا تقول ، والطائر لا يُسبّح والبقعة من بقاع الأرض لا تشكو إلى أختها ، والذباب لا يعلم موضع السم وموضع الشفاء ، واعترض على ما جاء في الحديث مما لا يفهمه ؛ فقال : كيف يكون قيراط مثل أحد؟ ، وكيف يتكلم بيت المقدس ؟ ، وكيف يأكل الشيطان بشماله ويشرب بشماله؟ وأي شمال له ، وكيف لقي آدم موسى عليهما السلام حتى تنازعا في القدر ؟ وبينهما أحقاب ، وأين تنازعا ؟ فإنه منسلخ من الإسلام معطل" - غير أنه يستتر بمثل هذا وشبهه من القول واللغو والجدال ودفع الأخبار والآثار - مخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما درج عليه الخيّر من صحابته والتابعون"^(١).

ويقول - أيضاً - مبيناً سبب الضلال : "والذي عندي أن الناس لم يُؤتوا في هذا الباب إلا من جهة تشبيههم أمر الله بأمر الناس ، وعلمه بعلمهم ، وقد جلّ تبارك وتعالى عن ذلك لعلمه الشيء قبل أن يكون ، وجهلهم الشيء حتى يكون"^(٢).

(١) المصدر السابق (ص ١٥٥) .

(٢) المسائل والأجوبة (ص ٣٩٩) .

المبحث الخامس

ذم علم الكلام

لقد ذم السلف علم الكلام^(١) أيما ذم ، وبالغوا في التشنيع عليه ، والتحذير منه ، ومحاربتة ، وبينوا ما يترتب عليه من زيغ وضلال ، نصيحة للأمة ، وحفاظاً عليها ، وأداءً لما يجب من حق الله تعالى في ذلك .

قال الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) : "لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلموا في الأحكام والشرع ، ولكنه باطل يدل على باطل"^(٢).

وقال الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) : "حُكْمِي فِي أَصْحَابِ الْكَلَامِ أَنْ يَضْرِبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنَّعَالِ ، وَيُحْمَلُوا عَلَى الْإِبِلِ ، وَيَطَافُ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ ؛ فَيُنَادَى عَلَيْهِمْ: هَذَا جِزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، وَأَخَذَ فِي الْكَلَامِ"^(٣).

وقال - أيضاً - : "لأن يُبْتَلَى المرءُ بكلِّ ما نهى الله عنه ما عدا الشرك به ، خيرٌ من النظر في الكلام ، فإنِّي اطَّلَعْتُ من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط"^(٤).

وقال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) : "لا يفلحُ صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً

(١) أصدق ما يُعرَف به علم الكلام أنه : تقرير مسائل الاعتقاد والدفاع عنها بالعقل سواء وافقتها نصوص الوحي أم خالفها ، وأما الفرق بينه وبين الفلسفة فهو : أن علم الفلسفة عام بالنسبة للوجود والحياة ، وأما علم الكلام فإنه خاص بالعقائد الدينية ، وسبب التداخل بينهما يرجع إلى تأثر المتكلمين بالفلسفة ، حيث أدخلوا الكثير من جوانب الفلسفة في أبواب العقائد التي طرقوها .

وأما أهل الكلام فهم : الطوائف الذين ارتضوا علم الكلام منهجاً في الاستدلال على مسائل الاعتقاد ، وأشهر هذه الطوائف : الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية . [انظر: مجموع الفتاوى (٤٦١/١٢)، الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، د.علي عبدالفتاح المغربي (ص ١١)، أثر علم الكلام على المنتسبين إليه وموقف أهل السنة وكبار المتكلمين منه "رسالة ماجستير"، وليد باصمد (ص ٢٢)، منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل، جابر إدريس أمير (٤٩/١)] .

(٢) نقله البغوي في شرح السنة (٢١٧/١) .

(٣) نقله ابن قدامة في تحريم النظر في كتب الكلام (ص ٤١) .

(٤) نقله البغوي في شرح السنة (٢١٧/١) .

نظر في الكلام إلاّ وفي قلبه دغل^(١)»^(٢).

جديراً بالذكر أن الكلام الذي ذمّه السلف ليس هو مطلق النظر والاحتجاج والمناظرة ، فإن ذلك مشروع بالكتاب والسنة ، وإنما ذمهم كان لما ابتدعه المتكلمون من المسائل والأصول التي تخالف الكتاب والسنة .

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ):

"والسلف لم يذموا جنس الكلام ، فإن كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله ، والاستدلال بما بيّنه الله ورسوله ، بل ولا ذموا كلاماً هو حق ، بل ذموا الكلام الباطل ، وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً ، وهو الباطل ، فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل وهو المخالف للشرع والعقل"^(٣).

وللإمام ابن قتيبة جهد عظيم ودور بارز في هذا الباب ، فقد ذمّ أهل الكلام وشنّع عليهم ، وحذّر من علومهم ، وبيّن ما هم عليه من زيغ وضلال وانحراف ، وتبّه على أن الهلاك وفساد المعتقد أتى من جهتهم ؛ فقال :

"فأما الكلام فليس من شأننا ، ولا أرى أكثر من هلك إلاّ به"^(٤).

وهو في رده ونقده لهم ليس مقلداً لأحد ، بل عايشهم ، وحضر مجالسهم في بداية طلبه ؛ فعرف ما يدور في حلقاتهم ، وأدرك ما هم فيه من زيغ وباطل ، وبصر خطأهم عن كتب مشاهدة وليس الخبر كالمعاينة ، وفي ذلك يقول :

"وقد كنت في عنفوان الشباب وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم .

فربما حضرتُ بعض مجالسهم ، وأنا مغترّ بهم ، طامع أن أصدر عنه بفائدة ، أو كلمة تدل على خير ، أو تهدي لرشد .

(١) الدغل في الشيء هو الفساد [معجم مقاييس اللغة مادة (دغل) (٢/٢٨٤)].

(٢) نقله ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/٥٣٩) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/١٤٧) .

(٤) الاختلاف في اللفظ (ص ٩٩) .

فأرى من جرأتهم على الله تبارك وتعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظام لطرده القياس ، أو لئلا يقع انقطاع ما أرجع معه خاسراً نادماً .

وقد ذكرهم محمد بن بشير الشاعر^(١) ، وقد أصاب في وصفهم ، حين يقول :

دَعَّ مَنْ يَقُولُ الْكَلَامَ نَاحِيَةً فَمَا يَقُولُ الْكَلَامَ ذُو وَرَعٍ
كُلُّ فَرِيْقٍ بَدُوهُمْ حَسَنٌ ثُمَّ يَصِيْرُونَ بَعْدُ لِلشُّنْعِ
أَكْثَرُ مَا فِيهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ لَمْ يَكُ فِي قَوْلِهِ بِمَنْقَطِعٍ^(٢)

وقد ألف ابن قتيبة كتابه "تأويل مختلف الحديث" ابتداءً للرد على أهل الكلام وذمّ علمهم ، والانتصار لأهل الحديث ، كما جاء في مقدمة الكتاب ؛ إذ قال فيها:

"فإنك قد كتبت إليّ تُعلمني ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم ، وإسهابهم في الكتب بدمهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض ... ، هذا ما حكيت من طعنهم على أصحاب الحديث ، وشكوت تطاول الأمر بهم على ذلك، من غير أن ينضح عنهم ناضح ويحتج بهذه الأحاديث محتج .."^(٣).

ثم افتتح مقدمة الكتاب بباب "ذكر أصحاب الكلام" ذكر فيه جملة من مثالب أهل الكلام، ومن ذلك :

قوله : "وقد تدبرْتُ رحمك الله مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويصرون القذى في عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجداع ، ويتهمون غيرهم في النقل ، ولا يتهمون آراءهم في التأويل"^(٤).

ويقول عنهم بكلام حقه أن يكتب بماء ذهب : "ومعاني الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يُدرك بالطرفة والتولد والعرض والجوهر والكيفية

(١) محمد بن بشير بن محمد ، أبو بكر المعافري (الشاعر) ، وهو قاضي أندلسي ، من أهل باجة ، كان كاتباً لأحد الوزراء ، وحج ولقي مالك بن أنس، ولما عاد إلى الأندلس أصبح قاضياً وبقي كذلك إلى وفاته عام ١٩٨هـ.

[ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/٣٢٧)، تاريخ قضاة الأندلس (ص٤٧)].

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص٤٣) .

(٣) المصدر السابق (ص٥-١٢) .

(٤) المصدر السابق (ص١٢-١٣) .

والكمية والأبنية ، ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما وضع لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة وحب الاتباع واعتقاد الإخوان بالمقالات ، والناس أسراب طير يتبع بعضهم بعضاً^(١) .

ثم يقول منتقداً علمهم ومستهزئاً بمنهجهم : "وقد كان يجب مع ما يدعونه من معرفة القياس وإعداد آلات النظر أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُساب والمساح والمهندسون ؛ لأن آلتهم لا تدل إلا على عدد واحد ، وإلا على شكل واحد ، وكما لا يختلف حُذاق الأطباء في الماء وفي نبض العروق ، لأن الأوائل قد وقفوهم من ذلك على أمر واحد ، فما بالهم أكثر الناس اختلافاً، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين، فأبو الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ) يخالف النظام (ت ٢٣١هـ)، والنجار (ت ٢٢٠هـ)^(٢)، يخالفهما ، وهشام بن الحكم (ت ١٩٠هـ) يخالفهم، ... ليس منهم واحد إلا وله مذهب في الدين يُدان برأيه وله عليه تبع"^(٣) .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن رؤسائهم ، فبدأ بالنظام ، فأبي هذيل العلاف، ثم إلى عبيد الله بن الحسن (ت ٢٣٠هـ)، ثم إلى بكر^(٤)، صاحب البكرية، ثم إلى هشام بن الحكم ، فثمامة بن أشرس (ت ٢١٣هـ) ، ثم محمد بن الجهم البرمكي (ت ٢١٨هـ)، وفيه قال: "فوجد مصحفه كتب أرسطاطاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق، بها يقطع دهره ، ولا يصوم شهر رمضان ، لأنه فيما ذكر لا يقدر على الصوم"^(٥)، ثم ختم بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وعنه قال: "وهو آخر المتكلمين ، والمعيار على المتقدمين،

(١) المصدر السابق (ص ١٣) .

(٢) الحسين بن محمد بن عبد الله النجار من أهل قم بإيران الآن، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة ، وإليه تنسب ، يوافق المعتزلة في مسائل منها : القول بخلق القرآن، ونفي الرؤية وغيرها، مات سنة ٢٢٠هـ. [الملل والنحل للشهرستاني

(١/١١٣)، الأعلام (٢/٢٥٣)] .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣) .

(٤) بكر بن أخت عبد الواحد بن زياد ، رأس الفرقة البكرية ، وإليه تنسب ، انفرد بضلالات كفرته الأمة فيها، منها قوله: إن الله تعالى يُرى في القيامة في صورة يخلقها ويكلم عباده من تلك الصورة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

- [الفرق بين الفرق (ص ٢٠٠)] .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص ٣٦) .

وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يَعْظُم، وتصغير العظيم حتى يصغر ... وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل" (١).

وكان يقف عند كل واحد من هؤلاء فيذكر طرفاً من آرائه وجمالاً من أقواله ، ثم يطيل النفس في مناقشتها، ويفيض في تعقبها ، مبيناً فسادها وبطلانها عقلاً ونقلاً (٢).

ثم عرض بعد ذلك لموضوع الكتاب ، وهي الأحاديث التي ادعى أهل الكلام عليها التناقض ، وانتقدوا أهل الحديث لروايتها ، فبيّن أن بعضها مكذوب وضعه الزنادقة وأعداء الإسلام ، وهي قليلة جداً ، وأما الصحيح منها فبيّن ألا تعارض بينها ، وساق الأدلة وأورد الشواهد وأقام الحجج التي تبطل دعوى التناقض بينها .

ونجد الإمام ابن قتيبة في مقدمة كتابه الآخر "الاختلاف في اللفظ" يُعَرِّضُ بأهل الكلام ويذم علمهم ، ويُشير إلى أنه سبب الضلال والزيغ والهلاك ، كيف لا ؟ وهو يقول في المقدمة - : "فأما الكلام فليس من شأننا ولا أرى أكثر من هلك إلا به" (٣) ، ويقول - أيضاً - فيها : "وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر والشكر ، وفي تفضيل أحدهما على الآخر ، وفي الوسوس والخطرات ، ومجاهدة النفس وقمع الهوى ، فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر ، فهم دائبون يخبطون في العشوات" (٤) ، قد تشعبت بهم الطرق وقادهم الهوى بزمام الردى" (٥).

ولله در ابن قتيبة حين قال في ذمه أهل الكلام - ولو لم يقل في ذمهم إلا ما قال هنا لكفى - : "... وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله عز وجلّ بالطعن ، وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب وهو لا يدري مَنْ نَقَلَهُ ، قد رَضِيَ عوضاً من الله تعالى ، ومما عنده بأن يقال: "فلان لطيف" ، و"فلان دقيق النظر" يذهب إلى أن لُطْفَ النظر قد أخرجته عن جملة الناس

(١) المصدر السابق (ص ٤١-٤٢) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٥-٤٨) .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ٩٩) .

(٤) يخبط في العشوات ، أي يخبط في الظلمات ، يقال لمن يسير على غير هدى . [لسان العرب، مادة (عشا)]
 . [٥٦/١٥]

(٥) الاختلاف في اللفظ (ص ٩٦-٩٨) .

وبلغ به علم ما جهلوه ؛ فهو يدعوهم الرِّعَاع والعُتَاء والعُتْر^(١)، وهو - لعمرُ الله - بهذه الصفات أولى ، وهي به أليق ؛ لأنه جهل وظنّ أن قد علم، فهاتان جهالتان ؛ ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون ، ولو أن هذا المعجب بنفسه ، الزاري على الإسلام برأيه ، نظر من جهة النظر لأحياء الله بنور الهدى وتلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وعلوم العرب ولغاتها وآدابها، فنصب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلّمه له ولأمثاله المسلمون ، وقلّ فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ، فإذا سمع العُمُر والحَدَثُ الغُرُّ قوله: الكون والفساد ، وسمع الكيان ، والأسماء المفردة ، والكيفية والكمية والزمان، والدليل ، والأخبار المؤلفة ، راعه ما سمع ، فظنّ أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يخلّ منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه، والعرض لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم ... مع هذيان كثير ، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالاً على لفظه ، وقيداً للسان، وعيياً في المحافل ، وعُقْلَةً^(٢) عند المتناظرين ... ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقهِ والفرائض والنحو لعدّ نفسه من البُكْم ، أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب"^(٣).

(١) قال ابن سيد البطلوس في شرحه لأدب الكاتب (ص ٥٢): "العُتْر: الجهال والأغبياء ، واحدهم عُتْر".

(٢) قال الجواليقي في شرحه لأدب الكاتب (ص ٤١): "وعُقْلَةً أي : حُبسة ، والعقل في اللغة الحبس".

(٣) أدب الكاتب (ص ٩-١٠) .

المبحث السادس الرد على تأويلات المعتزلة

أولاً : تعريف المعتزلة في اللغة والاصطلاح .

الاعتزال في اللغة : مأخوذ من اعتزل الشيء وتعزله بمعنى تنحى عنه، ومنه تعازل القوم أي تنحى بعضهم عن بعض، وكنت بمعزل عن كذا وكذا ، أي وكنت في موضع عزلة منه ، واعتزلت القوم أي فارقتهم وتنحيت عنهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴾^(١) ، أي إن لم تؤمنوا بي فلا تكونوا معي^(٢) .

وعلى هذا يكون الاعتزال في اللغة بمعنى : الانفصال والتنحي، وهذا المعنى اللغوي شديد الالتصاق بالمعنى الاصطلاحي للمعتزلة ؛ فرأسهم واصل بن عطاء^(٣) (ت ١٣١هـ) انفصل وتنحى عن مجلس الحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وهم كفرقة انفصلوا عن أهل الحق وأهل الفطر السليمة بالقول بنفي القدر ، وهو أعظم أصولهم وبه عُرفوا ولُقّبوا. المعتزلة اصطلاحاً : اسم يطلق على فرقة ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني، وسلكت منهجاً عقلياً محضاً في بحث العقائد الإسلامية ، وهم أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري^(٤) .

ويذهب ابن قتيبة إلى أن معتزل مجلس الحسن هو عمرو بن عبيد (ت ١٤٣هـ)، حيث يقول في ترجمته : "وكان يرى رأي القدر ويدعو إليه، واعتزل الحسن هو وأصحاب له فسموا المعتزلة"^(٥) .

(١) سورة الدخان : ٢١ .

(٢) انظر : مادة (عزل) في : معجم مقاييس اللغة (٣٠٧/٤)، تهذيب اللغة (١٣٣/٢)، لسان العرب (٤٤٠/١١) .

(٣) أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزالي مولى بني ضَبَّةَ ، ولد سنة ٨٠هـ، وتلمذ على الحسن البصري، ولم يفارقه إلا بعد أن أظهر مقالته في المنزلة بين المنزلتين ، وهو مؤسس فرقة المعتزلة، وواضع الأصول الخمسة التي يركز عليها الاعتزال ، توفي سنة ١٣١هـ . [الفرق بين الفرق (ص ١٢٠)، الملل والنحل (١/٥٩)، لسان الميزان (٨/٣٦٩)] .

(٤) انظر : التعريفات للجرجاني (ص ٢٨٢)، الفرق بين الفرق (ص ٢٠)، الملل والنحل (١/٥٦) .

(٥) كتاب المعارف (ص ٢٧٢) .

ثانياً : ألقابهم وأصول عقيدتهم :

للمعتزلة ألقاب كثيرة ، ذكر الإمام ابن قتيبة منها لقبين ، وبيّن علة التسمية بهما ، وهذان اللقبان هما :

أ . القدرية : يُلقَّب المعتزلة بالقدرية لأنهم يسندون أفعال العباد إلى قدرتهم وخلقهم ، وينكرون القدر فيها .

يقول عبدالقاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) - وهو يسوق ما أجمعت عليه المعتزلة - :
 "وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرّون أكسابهم وأنه ليس لله عزّ وجلّ في أكسابهم وفي أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير ، ولأجل هذا القول سمّاهم المسلمون قدرية"^(١) .
 إلا أن المعتزلة لا يرضون بهذا لقباً لهم ، ويقولون : إن الذي يُثبت القدر لله تعالى أحق أن يُنسب إليه من نافية .

وقد ردّ الإمام ابن قتيبة قولهم هذا ؛ فقال : "وأما القدرية : فإنهم منسوبون إلى القدر ، ... وقد كان فريق منهم يزعمون أن هذا الاسم لا يلزمهم باللغة ، وإنما يلزم غيرهم ، واحتجوا في ذلك أنه يُدعى عليهم أنهم يقولون : لا قدر ، فكيف ينسبون إلى ما يجحدون ، وهذا تمويه من المحتج ، وإنما لزمهم لأنهم يضيفون إلى أنفسهم القدر ، وغيرهم يجعله الله عزّ وجلّ دون نفسه ، ومُدّعي الشيء لنفسه أخرى بأن يُنسب إلى ذلك الشيء ممن جعله لغيره"^(٢) .

ب . الجوسية : وقد ذكر الإمام ابن قتيبة أن هذا اللقب جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما في حديث ابن عمر (ت ٧٤هـ) رضي الله عنهما مرفوعاً : "القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم"^(٣) .

(١) الفرق بين الفرق (ص ١١٥) .

(٢) غريب الحديث (٢٥٥/١) ، وانظر: تأويل مشكل القرآن (ص ١٣١) ، تأويل مختلف الحديث (ص ٥٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة باب القدر ح (٤٦٩١) (ص ١٥٦٧) ، والحاكم في المستدرک ح (٢٨٦) (١٥٩/١) ، والبيهقي في السنن الكبرى ح (٢٠٦٥٨) (٢٠٣/١٠) ، وابن أبي عاصم في السنة ح (٣٣٨) (١٤٩/١) ، ضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٢/١) وحسنه الألباني في [صحيح سنن أبي داود (١٤٣/٣) ، ظلال الجنة (ص ١٤٤)] .

ثم علّل التسمية فقال : "لأن الحديث جاءنا بأنهم مجوس هذه الأمة ، وهم أشبه قوم بالجوس ، لأن الجوس تقول بالهين ، وإياهم أراد الله بقوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْهَيْنَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ ﴾^(١) ، وقالت القدرية : نحن نفعل ما لا يريد الله تعالى ونقدر على ما لا يقدر"^(٢).

ويقول الخطابي (ت ٣٨٨هـ) - في تعليل التسمية - : "وإنما سماهم مجوساً لمضاهاة بعض ما يذهبون إليه مذاهب الجوس في قولهم بالأصلين : وهي النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة ، فصاروا ثنوية ، كذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره"^(٣).

ومن ألقاب المعتزلة أيضاً : الوعيدية ، والمعطلة ، والجهمية ، والعقلانية^(٤).

أما عقيدتهم فتقوم على خمسة أصول متفق عليها بينهم ، والتي يستحق بها المرء منهم أن يُسمى معتزلياً ، كما يقرّر ذلك الخياط (ت ٢٩٠هـ)^(٥) ، بقوله : "لكن ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال ؛ حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كُملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي"^(٦).

والأصول الخمسة باختصار هي:

التوحيد: وهو عندهم يدور حول ما يثبت لله وما ينفي عنه من الصفات ، ولم يفهم

(١) سورة النحل : ٥١ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ٥٥-٥٦) .

(٣) نقله البيهقي في السنن الكبرى (٣٥٠/١٠) .

(٤) انظر : الجهمية والمعتزلة ، د. ناصر العقل (ص ١٣٣-١٣٤) ، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، عواد المعتق (ص ٢٢-٢٥) .

(٥) أبو الحسين عبدالرحيم بن محمد بن عثمان البغدادي ، المعروف بالخياط ، أحد كبار شيوخ المعتزلة، وإليه تنسب فرقة الخياطية منهم ، أفرط في قوله في صفة المعلوم حتى زاد فيه على جميع القدرية فوصف المعلوم بأنه جسم ، من مصنفاته : "الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد"، توفي سنة ٢٩٠هـ . [الفرق بين الفرق (ص ١٦٣) ، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢٧/٥) ، التبصير في الدين للإسفريني (ص ٨٤)] .

(٦) الانتصار للخياط (ص ١٢٦) .

المعتزلة من التوحيد سوى أنه صفة سلب ، وبناءً على فهمهم هذا : نفوا عن الله عزّ وجل جميع الصفات ، وقالوا بأن القرآن مخلوق ، وباستحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .
العدل : والمراد به عندهم هو نفي أن يكون الله عزّ وجل خالقاً لأفعال العباد، لأن ذلك - بزعمهم - ظلمٌ مناف للعدل ، وجعلوا العبد حراً مختاراً يفعل ما يشاء، ويدع ما يشاء ، ونتج عن ذلك نفي قضاء الله وقدره ، وإثبات أن العباد يخلقون أفعالهم ، لأنه ليس لله تعالى قدرة عليهم .

الوعد والوعيد: ومرادهم به أنه يجب على الله عزّ وجل إنفاذ وعده ووعيده وإلا كان مخالفاً للميعاد - تعالى الله عن ذلك - ، ورتبوا على هذا : وجوب معاقبة العاصي الذي مات ولم يتب ، والحكم بعدم جواز خروجه من النار ، وإنكار شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته .

المنزلة بين المنزلتين : ومعناه أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً، ولكنه في منزلة بين الإيمان والكفر هذا حكمه في الدنيا ، أما في الآخرة فيدخل النار ويُجَلد فيها تنفيذاً للأصل الثالث .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وقد بالغوا في هذا الأصل حتى قالوا بوجوب الخروج على أئمة المسلمين وقتالهم بالسيف^(١) .

ثالثاً : جهود الإمام ابن قتيبة في الرد على المعتزلة :

للإمام ابن قتيبة جهود جبّارة في التصدي للمعتزلة والرد عليهم، ويعد من أوائل المصنفين من أئمة أهل السنة والجماعة في هذا المجال ، ويكفي أن نعلم أن من جهوده أنه نقض أصولهم الخمسة - آفة الذكر - ، ففي نقض الأصل الأول - التوحيد - توسع في الرد على نفاة الصفات ، فعرض شبهاتهم ونقضها الواحدة تلو الأخرى^(٢) ، كما أطنب في

(١) انظر - تفصيل الأصول الخمسة - في : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ١٢٤-٢٠٠)، الملل والنحل للشهرستاني (١/٥٢-٥٣)، الفرق بين الفرق (ص ١١٤-١١٦)، مقدمة التفسير لشيخ الإسلام (ص ١٤٢-١٤٣) مع شرحها لفضيلة الشيخ الطيار، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها (ص ٨١-٢٧٩).

(٢) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٩-١٢٣)، تأويل مختلف الحديث (ص ١٤١-١٥١) .

الحديث عن مسألة خلق القرآن ، وبيّن فيها ضلالهم^(١)، وأطال في مسألة رؤية الله عزّ وجل يوم القيامة وتناول حججهم فردّها جملة وتفصيلاً^(٢).

وفي نقض الأصل الثاني - العدل - أطال النفس في مسألة القدر وفي خلق أفعال العباد ، فدلل لإثبات القدر ، وعرض لشبهاتهم وتأويلاتهم في هذا الباب ففندّها ونقضها كاملة^(٣).

وفي نقض الأصول الثالث والرابع - الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين - تحدّث عن مسألة حكم مرتكب الكبيرة ، فأوضح منهج السلف فيها ، وذكر حجج المعتزلة وتأويلاتهم فردّها وبيّن فسادها^(٤).

وفي نقض الأصل الخامس - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - تحدّث عن مسألة الخروج على السلطان ، فقرّر عقيدة السلف ، وردّ ما احتج به المعتزلة في هذه المسألة^(٥).

ومن الجهود - أيضاً - التي تُحمد لابن قتيبة في هذا الباب : أنه عرض لرؤوس المعتزلة - كعمرو بن عبيد (ت ١٤٣ هـ)، والنظام (ت ٢٣١ هـ)، وأبي هذيل العلاف (ت ٢٣٥ هـ)، وثمامة بن أشرس (ت ٢١٣ هـ)، والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) - فذكر مثالبهم وما هم فيه من ضلال ، وذكر شيئاً من مسائلهم وأقوالهم التي نابذوا فيها صريح الأدلة وصحيح النقول وإجماع الأمة ، فأطال النفس في مناقشة هذه المسائل وأفاض في تعقب أصحابها ونقض أقوالهم وأدلتهم عقلاً ونقلًا^(٦).

وأعظم جهود الإمام ابن قتيبة في هذا الباب هو ردوده على المعتزلة في تأويلاتهم المنحرفة للقرآن الكريم ، ومعلوم أن المعتزلة من أكثر الطوائف والنحل المنحرفة تأويلاً للقرآن الكريم لتأييد آرائهم وتحقيق مذاهبهم ، وقد أتى الإمام ابن قتيبة على جملة من تأويلاتهم فنقضها وردّها من جهة اللغة والنقل والعقل ، ومن ذلك :

(١) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص١٢٧-١٣٧) .

(٢) انظر : المصدر السابق (ص١١٥-١١٧)، تأويل مختلف الحديث (ص١٣٨-١٤١) .

(٣) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص٩٩-١٠٨) .

(٤) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص١١٥-١١٧)، المسائل والأجوبة (ص٣٣١-٣٣٢) .

(٥) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص١٠٥، ١٣٨) .

(٦) انظر : المصدر السابق (ص١٥-٤٣) .

١ . يتأول المعتزلة كل ما جاء في القرآن من نسبة الإضلال إلى الله عزّ وجلّ كقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ﴾^(٢) ، بأنه بمعنى : ينسبهم إلى الضلال .

وقد ردّ الإمام ابن قتيبة تأويلهم هذا ، وبين بطلانه فقال :

" وذهب أهل القدر في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٣) ، إلى أنه على جهة التسمية والحكم عليهم بالضلالة ، ولهم بالهداية . وقال فريق منهم : يضلهم : ينسبهم إلى الضلالة ، ويهديهم : يُبَيِّن لهم ويرشدهم ، فخالفوا بين الحكمين ، ونحن لا نعرف في اللغة أَفْعَلْتُ الرجل : نَسَبْتُهُ وإنما يقال إذا أردت هذا المعنى : فَعَلْتُ ، تقول : شَجَعْتُ الرجل وجَبَنْتَهُ وسَرَقْتَهُ وخطأته وكفرتَه وضلّلتَه وفسقتَه وفجرتَه وحتّته"^(٤) .

وقال في موضع آخر : "نظروا في كتاب الله فوجدوه ينقض ما قاسوا، ويُطل ما أسسوا ، فطلبوا له التأويلات المستكرهة والمخارج البعيدة ، وإن كانوا لم يقدروا من تلك الحيل على ما يصح في النظر ولا في اللغة ؛ كقولهم في ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : ينسبهم إلى الضلال ، ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٥) ، ينسبهم إلى الهداية ، وما في نسبتهم إلى ذلك؟! حتى يعيد وييدي ، ولو أراد النسبة لقال : يضلّهم، كما يقال : يخونهم ويفسّقهم، ويظلمهم ، أي ينسبهم إلى الظلم"^(٦) .

٢ . يعمد المعتزلة إلى تأويل "الإذن" في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٧) ، إلى أنه بمعنى العلم ، أي : ما كان لها أن تؤمن إلا بعلم الله .

(١) سورة النحل : ٩٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦ .

(٣) سورة النحل : ٩٣ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ١٢٣) .

(٥) سورة النحل : ٩٣ .

(٦) الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٠) .

(٧) سورة يونس : ١٠٠ .

وقد ردّ الإمام ابن قتيبة هذا التأويل وبيّن فساده ، فقال : "وقالوا في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، أي ما كان لها أن تؤمن إلا بعلم الله ، وعلموا ما يلزمهم إن جعلوا الإذن ههنا : المشيئة والإطلاق ، وذهبوا إلى قول القائل : (أذنتك بالأمر) أي أعلمتك .

وهذا من تأويلهم لا يصح في نظر ولا في لغة :

أما النظر : فإنه لم يقل أحد من الناس إن شيئاً يحدث في الأرض لا يعلمه الله ، فيقول : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بعلم الله ، وإنما اختلفوا في الإذن الذي هو المشيئة والإطلاق ، فقال المثبتون : لم يشأ الله أن يؤمن جميع الناس ، ولو شاء لآمنوا فليس لنفس أن تؤمن حتى يشاء الله ذلك ويطلقه .

وقال أهل القدر : قد شاء الله هذا لكل نفس ، وأطلقه ، فلها أن تؤمن إن شاءت ، وفي صدر هذا الكلام دليل على ما قال أهل الإثبات ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجب إيمان قريش ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ^(١) ، ثم قال على إثر ذلك : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، يريد بمشيئته وإطلاقه .

فأول الكلام دليل على آخره ، والناس مجمعون لا يختلفون على أن القائل إذا قال : لو شئت لأتيتك أنه لم يشأ إتيانه ، ولو شئت لحججت أنه لم يشأ الحج ، ولو شئت لتزوجت أنه لم يشأ الزواج ، فكذلك يلزم في : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٣) ، أنه لم يشأ ذلك ، ومثله : ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ^(٤) ، و﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا

(١) سورة يونس : ٩٩ .

(٢) سورة يونس : ١٠٠ .

(٣) سورة يونس : ٩٩ .

(٤) سورة الرعد : ٣١ .

لَا يَتَنَاكُلُ نَفْسٍ هَدَيْتَهَا ﴿١﴾، فإن قال : أراد لو شاء لآمنوا إجباراً، ولكنه لم يشأ أن يجبرهم على ذلك ، قيل له : لم يشأه على حال فاجعله بأي وجه شئت" (٢).

٣ . يذهب المعتزلة في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (٣)، إلى أن الإرادة في "الهدى" و"الإضلال" إنما هي للعبد لا لله عز وجل.

وقد رد الإمام ابن قتيبة هذا التأويل ، وبين أنه غلط فاحش ؛ فقال :

" وقالوا في قوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ ، فجعلوا الإرادة في الهداية والإضلال للعبد، لا لله ، وركبوا في ذلك أفحش غلط وأحول كلام، والإرادة لا تجوز أن تكون للعبد وقد وليها اسم الله وهو مرفوع بإجماع القراء ، ولو كان أحد منهم نصّب الله لكان أقرب من المعنى الذي أراده، وإن كان لا يجوز أيضاً لأنه يضم في الكلام (من) فيكون معناه "من يريد من الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" ، ثم يحذف (من) وينصب الله لما نزع حرف الصلة كما يقال : (من يسرق القوم ما لهم يقطع) أي يسرق من القوم ما لهم وهذا ليس يجوز إلا مع حروف معدودة محكية عن العرب، لا نحمل عليها غيرها ونقيسه عليها" (٤).

٤ . يتأول المعتزلة قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾

﴿٥﴾، إلى أنه بمعنى : لقد دفعنا وألقينا .

وقد أوضح الإمام ابن قتيبة بطلان هذا التأويل ؛ فقال :

" وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ ،

(١) سورة السجدة : ١٣ .

(٢) الاختلاف في اللفظ (ص ١٠١-١٠٢) .

(٣) سورة الأنعام : ١٢٥ .

(٤) الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٢-١٠٣) .

(٥) سورة الأعراف : ١٧٩ .

دفعنا وألقينا ، واحتج من احتج منهم بقول المثقب العبدى^(١) حكاية عن ناقته:
تَقُولُ إِذَا ذَرَأْتُ لَهَا وَصِيْبِي ... أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي^(٢)

وهذا جهل باللغة وتصحيف ، وإنما هو ذرأت بالدال غير المعجمة والله يقول : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا بِالذَّالِ ، وَأَحْسَبُهُمْ سَمِعُوا بِقَوْلِ الْعَرَبِ : "أَذْرَتْهُ الدَّابَّةُ عَنْ ظَهْرهَا" ، أَي أَلْقَتْهُ ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّ "ذَرَأْنَا" مِنْ ذَلِكَ ، وَذَرَأْنَا فِي تَقْدِيرِ فَعَلْنَا غَيْرَ مَهْمُوزٍ ، وَلَوْ أُرِيدَ ذَلِكَ الْمَعْنَى لَكَانَ : "وَلَقَدْ أَذْرَيْنَا لَجَهَنَّمَ" وَسَمِعُوا بِقَوْلِهِمْ : ذَرَتْهُ الرِّيحُ ، وَيَقُولُ اللَّهُ : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ ﴾^(٣) أَي تَنْسِفُهُ وَتَلْقِيهِ فَتَوَهَّمُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ أُرِيدَ ذَلِكَ لَكَانَ : وَلَقَدْ ذَرَوْنَا لَجَهَنَّمَ ، وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَرَأْنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَّا خَلَقْنَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ ذَرَأُكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٤) ، وَقَالَ : ﴿ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ﴾^(٥) أَي يَخْلُقُكُمْ فِي الرَّحْمِ ، وَمِنْهُ قِيلَ ذَرِيَّةَ الرَّجُلِ لَوْلَدِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَلَقَ اللَّهُ ...^(٦)

(١) المثقب العبدى : هو شاعر جاهلي ، واسمه عائذ الله محسن بن ثعلب ، عاش في زمن الملك العربي عمرو بن هند ، وتوفي سنة ٥٢٠ م . [الشعر والشعراء (٢/٣٩٥) ، طبقات الشعر للجمحي (ص٦٩)] .

(٢) البيت في ديوانه (ص١٩٥) ، ذرأته : أزلته عن موضعه ، والوصيني للرجل بمنزلة الخزام للسرّج ، يقول التبريزي : "يريد أن ناقته سئمت كثرة ما يرحلها ، فإذا شدّ عليها الوضين ضجت ، فكأنها في حالة الذي لو تكلم لنطق بهذا القول وشكا حاله" . [الألفاظ لابن السكيت (ص٤٥٩) ، تهذيب الألفاظ للتبريزي (ص٦١٨)] .

(٣) سورة الكهف : ٤٥ .

(٤) سورة المؤمنون : ٧٩ .

(٥) سورة الشورى : ١١ .

(٦) الاختلاف في اللفظ (ص١٠٣-١٠٤) ، وانظر للاستزادة من ردوده : (ص١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦) ، تأويل مختلف الحديث (ص٥٧ ، ١٦٠) ، إصلاح غلط أبي عبيد (ص٥٨ ، ٥٩) .

المبحث السابع

الرد على تأويلات الرافضة

أولاً : تعريف الرافضة في اللغة والاصطلاح .

الرافضة لغة : من الترك ، تقول: رفض الشيء يرفضه : إذا تركه وفارقه ^(١).

يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"الراء والفاء والضاد أصل واحد وهو الترك ، ثم يشتق منه ، يقال: رَفَضْتُ الشيء: تركته، هذا هو الأصل، ثم يشتق منه ارفضُّ الدمع من العين : سال ؛ كأنه ترك موضعه، والروافض: جنودٌ تركوا أميرهم وانصرفوا، ويقال: رجلٌ رُفِضَ ، للذي يُمَسَّك الشيء ثم لا يلبث أن يدَعَه" ^(٢).

وهذا المعنى اللغوي متحقق في المعنى الاصطلاحي للرافضة .

الرافضة اصطلاحاً : إحدى الفرق المنتسبة للتشيع لآل البيت ، مع البراءة من أبي بكر (ت ١٣هـ)، وعمر (ت ٢٣هـ) وسائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكفيرهم وسبهم إياهم ^(٣).

قال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) لما سأله ابنه عبدالله (ت ٢٩٠هـ): مَنْ الرافضة؟ قال: "الذين يشتمون أو يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما" ^(٤).

وقال أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) : "وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما" ^(٥).

وأما سبب إطلاق هذه التسمية عليهم فهو راجع إلى الحادثة التاريخية التي حدثت بينهم وبين زيد بن علي بن الحسين (ت ١٢١هـ) لما خرج على هشام بن عبد الملك (ت

^(١) انظر مادة (رفض) في : تهذيب اللغة (١٥/١٢)، لسان العرب (١٥٦/٧) .

^(٢) معجم مقاييس اللغة ، مادة (رفض) (٤٢٢/٢) .

^(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٤٣٥/٤)، مقالات الإسلاميين (ص ٩٠)، الملل والنحل (٢١٩/١) .

^(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول (١٠٥٥/٣) .

^(٥) مقالات الإسلاميين (ص ٨٧) .

١٢٥هـ)، وتبعه جماعة من الشيعة، وطلبوا منه أن يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فأبى زيد ذلك، وقال: إنه يتولاها، وذكرهما بالخير، وترحم عليهما، فتركوه، وانفضوا عنه، فسموا رافضة لرفضهم زيد بن علي بن الحسين^(١).

وقد أشار إلى هذه الحادثة الإمام ابن قتيبة، بقوله: "بلغني عن الأصمعي (ت ٢١٤هـ) أنه قال: "إنما سميت الرافضة، لأنهم رفضوا زيد بن علي وتركوه"، ثم لزم هذا الاسم كل من غلا منهم في مذهبه وتنقص السلف"^(٢).

وقد ذكر ابن قتيبة أن هذه التسمية جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في حديث ابن عباس (ت ٦٨هـ) مرفوعاً: "يكون قوم في آخر الزمان يسمون الرافضة، يرفضون الإسلام، ويلفظونه، فاقتلوهم فإنهم مشركون"^(٣).

ثانياً: ذم الإمام ابن قتيبة للرافضة.

الرافضة من أرذل الفرق وأرداها، ويكفي في الدلالة على رذالتها ورداءتها أنها من إحداه الزنادقة والمنافقين، إذ يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ):

"إذ كان أصل المذهب من إحداه الزنادقة المنافقين الذين عاقبهم في حياته علي (ت ٤٠هـ) أمير المؤمنين رضي الله عنه فحرق منهم طائفة بالنار، وطلب قتل بعضهم، ففروا من سيفه البتار، وتوعد بالجلد طائفة مفترية فيما عُرف عنه من الأخبار"^(٤).

وقال: "وأما الرافضة فأصل بدعتهم عن زندقة وإلحاد"^(٥).

وقال - أيضاً - : "ولهذا قال أهل العلم: إن الرافضة دسيسة الزندقة، وإنه وُضع عليها"^(٦).

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/١٣)، منهاج السنة النبوية (٣٥/١).

(٢) غريب الحديث (٦٠/١).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ح (٩٨١) (٤٧٥/٢)، وأبو يعلى في مسنده ح (٢٥٨٦) (٤٥٩/٤)، والطبراني في الكبير ح (١٢٩٩٧) (٢٤٢/١٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٤٨/٦) وضعفه، وقال الألباني: إسناده ضعيف جداً [سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥٧٠/١٣)].

(٤) منهاج السنة (١١/١).

(٥) المصدر السابق (٦٧/١).

(٦) المصدر السابق (٤٥٩/٧).

ولهذا فقد ذمهم الإمام ابن قتيبة ، وبين ما هم فيه من ضلال وافتراق وجهل وغباوة، وذكر شيئاً من أباطيلهم التي لم يسبقهم أحد من أهل البدع عليها، وفي ذلك يقول:

"ولا نعلم في أهل البدع والأهواء أحداً ادعى الربوبية لبشر غيرهم، فإن عبد الله بن سبأ (ت ٤٠ هـ)^(١)، ادعى الربوبية لعلي رضي الله عنه، فأحرق علي أصحابه بالنار، وقال في ذلك:

لما رأيتُ الأمرَ أمراً منكرًا أجمعتُ ناري ودعوتُ قنبرًا

ولا نعلم أحداً ادعى النبوة لنفسه غيرهم، فإن المختار بن أبي عبيد (ت ٦٧ هـ)^(٢)، ادعى النبوة لنفسه ، وقال: "إن جبريل وميكائيل يأتيان إلى جهته، فصدقه قوم واتبعوه وهم الكيسانية"^(٣) (٤).

وقال في ذمهم - أيضاً - : "وهم أكثر أهل البدع افتراقاً ونحلاً ، فمنهم قوم يقال لهم "البيانية"^(٥)، ينسبون إلى رجل يقال له "بيان"^(١)، قال لهم : إلي أشار الله تعالى إذ قال: ﴿

(١) عبد الله بن سبأ الحميري ، رأس الطائفة السيئية ، أصله من اليمن ، قيل كان يهودياً، أظهر الإسلام، رحل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة فدمشق، فأخرجه أهلها، ثم انصرف إلى مصر وجهر ببدعته، ذكر ابن قتيبة أنه أول من كفر من الرافضة ، وقال بربوبية علي، وقال ابن حجر: "وهو من غلاة الزنادقة، ضال مضل، أحسب أن علياً رضي الله عنه حرّقه بالنار"، توفي سنة ٤٠ هـ . [كتاب المعارف (ص ٣٤٠)، ميزان الاعتدال (١٠٥/٤)، لسان الميزان (٤٨٤/٤)].

(٢) المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمر الثقفي، ولد سنة الهجرة في الطائف، ضال مضل، كان يزعم أن جبريل عليه السلام ينزل عليه، قال ابن حجر: "يقال: إنه الكذاب الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "يخرج من ثقيف كذاب ومبير" والحديث في صحيح مسلم"، قُتل سنة ٦٧ هـ. [كتاب المعارف (ص ٢٢٦)، ميزان الاعتدال (٣٨٥/٦)، لسان الميزان (١٢/٨)].

(٣) الكيسانية: أصحاب كيسان مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يزعمون له العلم بالأسرار المقتبسة من موله، وحملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية، والقول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت. [الملل والنحل (١٤٦/١)، فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام، د. غالب العواجي (١/٣٢٨)].

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٥٠).

(٥) البيانية : أتباع بيان بن سمعان التميمي، من غلاة الرافضة، زعموا أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى بيان بن سمعان بوصيته إليه، واختلفوا في بيان، فمنهم من زعم أنه كان نبياً وأنه نسخ بعض شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم من زعم أنه كان إلهاً، وذكروا عنه أنه قال: إن روح الإله تناسخت في الأنبياء والأئمة . [الملل والنحل (١٤٩/١)، الفرق بين الفرق (ص ٢٢٧)، التبصير في الدين (ص ١٢٤)].

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(٢)، وهم أول من قال بخلق القرآن، ومنهم "المنصورية"^(٣)، أصحاب أبي منصور الكسف^(٤)، وكان قال لأصحابه في نزل قوله : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾^(٥)، ومنهم "الحنّاقون"^(٦)، ومنهم "الغرابية"^(٧)، وهم الذين ذكروا أن علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب، فغلط جبريل عليه السلام حين بُعث إلى عليّ لشبهه به^(٨).

ويقول - أيضاً - : "وقد رأيت هؤلاء حين رأوا غلو الرافضة في حُبِّ علي رضي الله عنه وتقديمه على من قدّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته عليه، وادّعاءهم له شركة النبي صلى الله عليه وسلم في نبوته ، وعلم الغيب للأئمة من ولده، وتلك الأقاويل التي

(١) بيان بن سمعان النهدي التميمي ، الزنديق، ظهر بالعراق بعد المائة، كان يدّعي لنفسه الإلهية على معنى الحلول، وكان يدّعي أنه يعرف اسم الله الأعظم، وأنه يدعو به الزهرة فتجيئه، ولما وصل خبره إلى خالد بن عبد الله القسري قتله وصلبه سنة ١١٩هـ. [الكامل في التاريخ (٤/٤٢٨)، لسان الميزان (٢/٣٧٤)].
(٢) سورة آل عمران : ١٣٨ .

(٣) المنصورية : أتباع أبي منصور العجلي ، من غلاة الرافضة ، قالوا: الإمامة صارت له وعُرج به إلى السماء، ومسح الله رأسه بيده، وقال: بني اذهب وبلغ عني، ثم أهبطه إلى الأرض فهو الكسف الساقط من السماء، وقالوا: الرسل لا تنقطع، وكفرت هذه الطائفة بالقيامة والجنة والنار، وتألّوا الجنة على نعيم الدنيا، والنار على محن الناس في الدنيا. [الفرق بين الفرق (ص٢٤٣)، الملل والنحل (١/٢١٣)، مقالات الإسلاميين (ص٧٤)].

(٤) أبو منصور العجلي، رجل من عبد القيس ، كان يسكن الكوفة ، وكان أمياً لا يقرأ ونشأ بالبادية، فلما مات أبو جعفر الباقر ادّعى لنفسه الإمامة، ثم تجاوز ذلك فادّعى أنه نبي ورسول، وأن جبريل يأتيه بالوحي من الله، وزعم أن الله تعالى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالتنزيل وأرسله هو بالتأويل، واستمرت فتنته حتى وقف على عوراته يوسف بن عمر الثقفي فأخذه وصلبه. [الفرق بين الفرق (ص٢٤٣)، فرق الشيعة للنوبختي (ص٤٩)].
(٥) سورة الطور : ٤٤ .

(٦) قال الآجري في الشريعة (٥/٤٣٨): "وأما الشيعة فهم أصناف كثيرة ... ، منهم الحنّاقون: الذين يخنقون الناس ويستحلون أموالهم"، وهم فرقة من المنصورية .

(٧) الغرابية : من غلاة الرافضة ، كانوا يقولون إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى علي رضي الله عنه فغلط وجاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه يشبهه، وكان أشبه به من الغراب بالغراب، ولأجله كانوا يلعنون جبريل - عليهم من الله ما يستحقون - ومنهم قوم يقال لهم المفوضة ، يقولون: إن الله تعالى خلق محمداً صلى الله عليه وسلم وفوّض إليه تدبير العالم، فكان هو الخالق للعالم، ثم إنّه فوّض بعده إلى علي تدبير العالم. [الفرق بين الفرق (ص٢٥٠)، التبصير في الدين (ص١٢٨)، لوامع الأنوار الإلهية (١/٨٢)].

(٨) تأويل مختلف الحديث (ص٥٠) .

جمعت إلى الكذب والكفر إفراط الجهل والغباوة ، ورأوا شتمهم خيار السلف وبغضهم ، وتبرؤهم منهم ... " (١) .

ثالثاً : ردّ الإمام ابن قتيبة لتأويلات الرافضة .

تعد الرافضة من الفرق الموغلة في التأويل ، وقد ساعدها على ذلك ما تدّعيه من أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً ، ولذلك تأولت الكثير من الآيات لنصرة مذهبها ، وتأييد معتقداتها، فتجدها تأتي بالتأويلات العجيبة الغريبة التي لا يخالج أحد الشك في بطلانها لشدة ما فيها من الغرابة والسخافة ، ولمعارضتها النقل الصحيح والعقل السليم وسياق الكلام، وقد نبّه الإمام ابن قتيبة على هذه التأويلات وردّها ؛ بقوله :

"وأعجب من هذا تفسير الروافض للقرآن ، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر (٢) ، ... وهو جلد جفر ، ادّعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه علمه ، وكل ما يكون إلى يوم القيامة .

فمن ذلك قولهم في قول الله عزّ وجل : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ (٣) ، أنه الإمام، وورث النبي صلى الله عليه وسلم علمه.

وقولهم ، في قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ (٤) ، أنها عائشة عائشة (ت ٥٥٨ هـ) رضي الله عنها.

وفي قوله تعالى : ﴿ فَكُلْنَا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَبَعَضَ رَبُّهُمْ أَرْتَفًا فَوَقَّاعًا ﴾ (١) ، أنه طلحة (ت ٣٦ هـ) ، والوزير (ت ٣٦ هـ) .

(١) الاختلاف في اللفظ (ص ١٢٣-١٢٤) .

(٢) الجفر: من الكتب التي يعتمدها الإمامية وغيرهم من الرافضة ، وهو ينسب كذباً وزوراً إلى علي رضي الله عنه، وتارة ينسب إلى جعفر الصادق، وفيه زعم الإمامية أن جعفر كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع إلى يوم القيامة ، ونسبة هذا الكتاب باطلة ، يقول شيخ الإسلام : "وأما الكذب والأسرار التي يدّعونها عن جعفر الصادق ، فمن أكبر الأشياء كذباً حتى يقال: ما كُذِبَ على أحد ما كُذِبَ على جعفر، ومن هذه الأمور المضافة كتاب "الجفر" الذي يدّعون أنه كتب فيه الحوادث" [مجموع الفتاوى (٧٨/٤)، التفسير والمفسرون (١٥/٢)] .

(٣) سورة النمل : ١٦ .

(٤) سورة البقرة : ٦٧ .

وقولهم في الخمر والميسر : أنهما أبو بكر (ت ١٣هـ) وعمر (ت ٢٣هـ)، رضي الله عنهما، والجبث والطاغوت : أنهما معاوية (ت ٦٠هـ)، وعمرو بن العاص (ت ٤٣هـ)، مع عجائب أرغب عن ذكرها، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعه.

وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر، فإنه قال ذات يوم: ما سمعتُ بكاذب من بني تميم، زعموا أن قول القائل:

بَيْتًا زُرَّارَةٌ مُحْتَبٍ بِفَنَائِهِ ومجاشعٌ وأبو الفوارسِ نَهْشَلُ^(٢)

أنه في رجال منهم، قيل له : فما تقول أنت فيهم! قال : البيت بيت الله، وزرارة: الحجر، قيل: فمجاشع؟ قال: زمزم ، جُشِعَتِ بالماء .

قيل: فأبو الفوارس؟ قال: أبو قبيس .

قيل له: فنهشل؟ قال: نهشل أشدُّه، وفكر ساعة ، ثم قال: نهشل مصباح الكعبة، لأنه طويل أسود، فذلك نهشل"^(٣).

ويقول الإمام ابن قتيبة متعجباً من تأويلاتهم لقوله تعالى : ﴿يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ

فُلَانًا خَلِيلًا﴾^(٤) :

"ذهبوا إلى أنه عمر (ت ٢٣هـ)، وتأولوا الآية فقالوا : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى

يَدَيْهِ﴾ ، يعني أبا بكر (ت ١٣هـ) رضي الله عنه ، ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ

سَيِّئًا﴾^(٥) ، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، ﴿يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾^(٦) ،

يعني عمر رضي الله عنه، ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾^(٧) ، يعني علياً.

(١) سورة البقرة : ٧٣ .

(٢) البيت للفرزدق ، وهو في ديوانه (٣١٨/٢)، قال أبو عبيدة : "قوله : زُرَّارَةٌ ، يعني زرارة بن عُذْس بن زيد ابن عبدالله بن دارم بن مالك، ومجاشع بن دارم ، ونهشل بن دارم". [شرح النقائض (٢٩٢/١)] .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٨-٥٠) .

(٤) سورة الفرقان : ٢٨ .

(٥) سورة الفرقان : ٢٧ .

(٦) سورة الفرقان : ٢٨ .

(٧) سورة الفرقان : ٢٩ .

قال أبو محمد : ونقول في الردّ على أولئك - أي الشعوبية - إذ كان غلطهم من وجهة قد يغلط في مثلها من رِقِّ علمه، فأما هؤلاء - الرافضة - ففي قولهم ما أنبأ عن نفسه ، ودلّ على جهل متأوله .

كيف يكون علي رحمة الله عليه ذكراً؟، وهل قال أحد : إن أبا بكر لم يسلم، ولم يتخذ بإسلامه مع الرسول سبيلاً؟ .

وليس هذا التفسير بُنكر من تفسيرهم وما يدعونه من علم الباطن ، كادعائهم في الجبت والطاغوت أهما رجلاّن ، وأن الخمر والميسر رجلاّن آخران .
وأن العنكبوت غير العنكبوت ، والنحل غير النحل ، في أشباه كثيرة من سخفهم وجهالاتهم .

وقال ابن عباس (ت ٦٨هـ) في تفسير هذه الآية : إنّ عُقبة بن أبي مُعَيْط صنع طعاماً ودعا أشراف أهل مكة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، فامتنع من أن يطعم أو يشهد عُقبة بشهادة الحقّ ، ففعل ذلك ، فاتاه أُبَيُّ بن حَلَف ، وكان خليله، فقال: صبأت؟ فقال: لا ولكن دخل عليّ رجلٌ من قريش فاستحييت من أن يخرج من منزلي ولم يطعم .
فقال: ما كنت لأرضى حتى تبصق في وجهه وتفعل به وتفعل ذلك^(١)، فأنزل الله هذه الآية عامة، وهذان الرجلان سبب نزولها .

كما أنه قد كانت الآية ، والآي تنزل في القصة تقع: وهي لجماعة الناس .
والمفسرون على أن هذه الآية نزلت في هذين الرجلين ، وإنما يختلفون في ألفاظ القصة، فأراد الله سبحانه بـ "الظالم" كل ظالم في العالم، وأراد بـ "فلان" كل من أُطِيعَ بمعصية الله وأُرضِيَ بإسقاط الله ، و"الظالم" دليل على جماعة الظالمين، كقوله: ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾^(٢)، يريد جماعة الكافرين^(٣) .

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/٤٤١)، مختصراً، وأخرج القصة بطولها ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٦٨٤)، عن عمرو بن ميمون، وذكرها الواحدي في أسباب النزول (ص٣٤٧) .

(٢) سورة النبأ : ٤٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص٢٦١-٢٦٣) .

المبحث الثامن الرد على تأويلات الخوارج

أولاً: تعريف الخوارج في اللغة والاصطلاح .

الخوارج لغةً : مشتق من الخروج ، بمعنى النفاذ عن الشيء ^(١).

يقول ابن فارس (ت ٣٩٥) :

"الخاء والراء والجيم أصلان، فالأول : النفاذ عن الشيء ، يقال: خرج يخرج خروجاً، والخُراج بالجدد، والخُراج والخُرج : الإتاوة؛ لأنه مال يخرج المعطي، والخارجي: الرجل المسود بنفسه، من غير أن يكون له قسم، كأنه خرج بنفسه، ويقال: ناقة مُخْتَرَجَةٌ إذا خرجت على خَلْقَةِ الجمل، والخُروج: الناقة تخرج من الإبل، تبرك ناحية؛ وهو من الخروج" ^(٢).

وهذا المعنى اللغوي للخروج متحقق في المعنى الاصطلاحي للخوارج، وذلك لتنجيهم عن الجماعة وخروجهم عن الحق ، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن قتيبة ؛ فقال: "وأما الخوارج فإنهم سموا بذلك لخروجهم عن البيضة وشقتهم العصا، ولذلك سمّاهم المارقين، والمروق: الخروج" ^(٣).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) : "ولهم خاصتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم :

أحدهما : خروجهم عن السنّة ، وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة ، أو ما ليس بحسنة حسنة ، وهذا هو الذي أظهره في وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قال له ذو

^(١) انظر مادة (خرج) في : تهذيب اللغة (٤٧/٧)، لسان العرب (٢٤٩/٢) .

^(٢) معجم مقاييس اللغة ، مادة (خرج) (١٧٥/٢) .

^(٣) غريب الحديث (٦٠/١) .

الخويصرة التميمي^(١) (ت ٥٣٧هـ): اعدل فإنك لم تعدل ، حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم : "ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل"^(٢) ...
الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع : أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم وأن دار الإسلام دار حرب ودارهم هي دار الإيمان"^(٣).

وقال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) : "أما الخوارج فهم جمع خارجة، أي طائفة، وهم قوم مبتدعون ، سموا بذلك لخروجهم عن الدين وخروجهم على خيار المسلمين"^(٤).
الخوارج اصطلاحاً :

أول إطلاق للخوارج كان على النفر الذين خرجوا على علي (ت ٤٠هـ) رضي الله عنه بعد قبوله التحكيم بعد موقعة صفين^(٥)، ولذلك عرّف بعضهم الخوارج بأنهم: "الذين أنكروا على علي التحكيم ، وتبرؤوا منه ومن عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه وذريته وقتلوهم"^(٦).
ويذهب الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) إلى أن اسم الخارجي يتعدى إلى كل من أشبه أولئك النفر الذين خرجوا على علي رضي الله عنه وشاركهم في معتقدتهم ؛ فقال: "ومن

^(١) عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي، وقيل اسمه: حرقوص بن زهير ، قال ابن حجر: "وعندي في ذكره في الصحابة وقف"، قُتل مع الخوارج يوم النهروان ، سنة ٣٧هـ . [البداية والنهاية (١٠/٦١٨)، الإصابة في تمييز الصحابة (٤١١/٢)].

^(٢) أخرجه البخاري في المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ح(٣٦١٠) (ص٢٩٣)، ومسلم في الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ح(٢٤٥١) (ص٨٤٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

^(٣) مجموع الفتاوى (٧٢/١٩) .

^(٤) فتح الباري (٢٨٣/١٢) .

^(٥) أخرج الطبري عن الزهري أنه قال: "إن أهل الشام نشروا المصاحف حين كاد أهل العراق أن يغلبوهم ودعوا إلى ما فيها ، فهاب أهل العراق ، فعند ذلك حكموا الحكمين ، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، واختار أهل الشام عمرو بن العاص رضي الله عنه، ففرق أهل صفين حين حُكِّم الحكمان، فلما انصرف علي رضي الله عنه خالفت الحرورية وخرجت - وكان ذلك أول ما ظهرت - فأذنوه بالحرب، وقالوا: لا حكم إلا لله".

[تاريخ الطبري (٥٧/٥)] .

^(٦) انظر : هدي الساري ، مقدمة فتح الباري (ص٤٥٩) .

وافق الخوارج من إنكار التحكيم وتكفير أصحاب الكبراء والقول بالخروج على أئمة الجور ، وأن أصحاب الكبراء مخلدون في النار، وأن الإمامة جائزة في غير قريش فهو خارجي"^(١).
وأما الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) فيعرّف الخوارج بتعريف عام، يقول فيه : "كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان"^(٢).

ومن هنا يتبين أن اسم "الخوارج" قد أطلق على جماعة معينة ظهرت في الفترة التي أعقبت التحكيم، ثم أُطلقت بعد ذلك على كل من شابه تلك الجماعة وشاركها في اعتقادها ؛ بل حتى الألقاب الأخرى التي عُرف بها الخوارج كـ "الحرورية"^(٣) ، و"الشرأة"^(٤) ، و"المحكمة"^(٥) ، لها ارتباط وثيق بالجماعة الأولى التي خرجت على علي رضي الله عنه.

ثانياً : فرق الخوارج التي ذكرها ابن قتيبة .

لقد تشعبت الخوارج إلى فرق عدة، أوصلها بعضهم إلى عشرين فرقة^(٦) ، وقد ذكر الإمام ابن قتيبة ثلاثاً من تلك الفرق ؛ وهي:
١ . الأباضية^(٧) :

يقول ابن قتيبة في نسبتهم : "الأباضية من الخوارج ، ينسبون إلى عبدالله بن أباض (ت ٨٦ هـ)^(٨) ، وهو من بني مرة بن عبيد من بني تميم"^(٩).

^(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٢٧٠) .

^(٢) الملل والنحل (١/١٣٣) .

^(٣) سموا بذلك لانحيازهم في أول أمرهم إلى قرية "حروراء" بالقرب من الكوفة .

^(٤) لُقّبوا بذلك لقولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله، أي : بعناها بالجنة .

^(٥) لُقّبوا بذلك لإنكارهم الحكمين ، وقولهم : لا حكم إلا لله . [انظر: ألقاب الخوارج في: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، د. أحمد جلي (ص ٥١)] .

^(٦) انظر هذه الفرق في : الفرق بين الفرق (ص ٧٢)، الملل والنحل (١/١٣١)، مقالات الإسلاميين (ص ١٦٩) .

^(٧) الأباضية، أو الإباضية كلاهما صحيح ، وأهل المشرق يفتحون الهمزة "الأباضية" ، وأهل المغرب يكسرون الهمزة "الإباضية" . [انظر: الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، د. عوض خليفات (ص ٩)] .

^(٨) عبدالله بن أباض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي ، من بني مرة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس، إليه تنسب الأباضية، اختلف المؤرخون في سيرته وتاريخ وفاته، كان معاصراً لمعاوية، وعاش إلى أواخر عصر عبد الملك بن

وهي أكبر فرق الخوارج ، ولها أتباع وتراث عقدي وفقهي وتاريخي^(٢)، وللأباضية آراء تميزوا بها من بين فرق الخوارج ، فهم يقولون: "إن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح عند الحرب حلال ، وما سواه حرام، وحرام قتلهم وسبيهم في السر غيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحججة ، ويقولون : إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي ، وأجمعوا على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر النعمة لا كفر الملة ، وتوقفوا في أطفال المشركين وجوزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام ، وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلاً"^(٣).

٢ . الأزارقة :

يقول ابن قتيبة في نسبتهم : "الأزارقة من الخوارج ينسبون إلى نافع بن الأزرق (ت ٦٥هـ)، وهو من الدؤل بن حنيفة ولا عقب له، وقام بعده من الخوارج عبيد الله بن الماحوز"^(٤)، فقتله المهلب - بن أبي صفرة - (ت ٨٣هـ) بقرب الأهواز"^(٥).

يقول الأزارقة - كما يقول سائر الخوارج - : أن من ارتكب كبيرة من الكبائر يكفر كفر ملة ، ويخرج بذلك من الإسلام ، ويكون مخلداً في النار مع سائر الكافرين، وزاد الأزارقة عليهم ، فذهبوا إلى أن مخالفيهم مشركون ، وألحقوا بهم في الشرك أطفالهم، وأنهم جميعاً مخلدون في النار ، ومن ثم يحل قتلهم وقتالهم ، وأن دار مخالفيهم دار حرب يستباح فيها ما

مروان، وتوفي على الأرجح سنة ٨٦هـ . [الملل والنحل (١/١٥٦)، لسان الميزان (٤/٤١٨)، الأعلام للزركلي (٦١/٤)] .

(١) كتاب المعارف (ص ٣٣٩) .

(٢) انظر : الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، د. ناصر العقل (ص ٥٨) .

(٣) الملل والنحل (١/١٥٦)، وانظر: مقالات الإسلاميين (ص ١٧٠)، الفرق بين الفرق (ص ١٠٣) .

(٤) عبيد الله بن الماحوز التميمي ، وبنو الماحوز هم الزبير وعثمان وعلي وعبدالله وعبيد الله بنو بشير بن يزيد المعروف بـ"الماحوز" وهم من بني الحارث بن سليط، وكلهم من أمراء الأزارقة. [الملل والنحل (١/١٣٨)] .

(٥) كتاب المعارف (ص ٣٣٩) .

يستباح في دار الحرب من قتل الأطفال والنساء وسلب الذراري وغنيمة الأموال، وأن من أقام في دار الكفر وقعد عن اللحاق بهم، وإن كان على رأيهم اعتبروه مشركاً^(١).

٣. البيهسية :

يقول ابن قتيبة في نسبتهم : "البيهسية من الخوارج ، ينسبون إلى أبي بيهس من بني سعد بن ضبيعة بن قيس ، واسمه هيصم بن جابر (ت ٩٤ هـ)^(٢)، وكان عثمان بن حيان (ت ١٥٠ هـ) والي المدينة قطع يديه ورجليه"^(٣).

قال أصحاب هذه الفرقة : إن الإيمان هو الإقرار والعلم بالله وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنّ من وقع فيما لا يعرف أحلال هو أم حرام فهو كافر لوجوب الفحص عليه، وقال بعضهم: لا يكفر حتى يرفع إلى الإمام فيحده، وقالوا: إذا كفر الإمام كفرت الرعية حاضراً أو غائباً، وبأن الأطفال كأبائهم إيماناً وكفراً^(٤).

ثالثاً : رد الإمام ابن قتيبة على الخوارج .

يميل عامة الخوارج إلى التمسك الشديد بظواهر الألفاظ من غير التفات إلى المعاني والاستنباطات التي تطلب من وراء الألفاظ^(٥)، وقد وصف محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) هذا التمسك عند حديثه عن الخوارج ، فقال :

"وهم في دفاعهم وتهورهم متمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها ، وظنوا هذه الظواهر ديناً مقدساً لا يجيد عنه مؤمن" ، ثم مضى يقول : "ولأنهم يتمسكون بظواهر الألفاظ نرى

(١) انظر : مقالات الإسلاميين (ص ١٥٨)، الفرق بين الفرق (ص ٨٤)، الملل والنحل (١/١٣٧)، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (ص ٦٩) .

(٢) أبو بيهس ، الهيصم بن جابر الضبيعي ، من كبار الخوارج ، كان الحجاج طلبه أيام الوليد فهرب إلى المدينة، فطلبه بها عثمان بن حيان المزني ، فظفر به وحبسه ، فكتب إليه الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله، ففعل، وكان ذلك في سنة ٩٤ هـ. [الملل والنحل للشهرستاني (١/١٢٤)، الأعلام للزركلي (٨/١٠٥)] .

(٣) كتاب المعارف (ص ٣٣٩) .

(٤) انظر : مقالات الإسلاميين (ص ١٧٧)، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٥/٥٤)، الملل والنحل (١/١٤٤)، التبصير في الدين (ص ٥٧) .

(٥) انظر : الخوارج : تاريخهم وآراؤهم العقدية وموقف الإسلام منها (ص ٢٢٥) .

علياً (ت ٤٠ هـ) رضي الله عنه عندما ناقشهم في هذا لم يجادلهم بالنصوص، لأنهم لا يأخذون إلا بظواهرها ، بل كان يناقشهم بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم^(١).

وقد كان من أثر هذا التمسك والجمود عند ظواهر النصوص القرآنية أنهم لم يأخذوا بما جاء في السنة النبوية ناسخاً لبعض آيات الكتاب ، أو مخصصاً لبعض عموماته، أو زائداً على بعض أحكامه، كما كان من أثره أنهم لم يلتفتوا إلى إجماع الأمة ولم يعتدوا به^(٢)، ولهذا قال الإمام ابن قتيبة - رداً عليهم - :

"قالوا أحكام قد أُجمع عليها يبطلها القرآن ويحتج بها الخوارج ، ١. حكم في الرجم يدفعه الكتاب .

قالوا: رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم ، ورجمت الأئمة من بعده، والله تعالى يقول في الإماء : ﴿ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾^(٣)، والرجم إتلاف للنفس ، لا يتبعض ، فكيف يكون على الإماء نصفه؟ .
وذهبوا إلى أن المحصنات : ذوات الأزواج ، قالوا: وفي هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن المحصنات لو كنَّ في هذا الموضع ، ذوات الأزواج، لكان ما ذهبوا إليه صحيحاً، ولزمت به هذه الحجة - وليس المحصنات - ههنا إلا الحرائر .
وُسُمِّيَ محصنات ، وإن كن أبكاراً ، لأن الإحصان يكون لهن وبهن، ولا يكون بالإماء .
فكأنه قال: "فعليهن نصف ما على الحرائر من العذاب" يعني: الأبكار.

ومما يشهد لهذا التأويل الذي تأولناه في المحصنات ، وأنهن - في هذا الموضع - الحرائر الأبكار ، قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾^(٤)، والمحصنات - ههنا - الحرائر ، ولا يجوز أن يكنَّ ذوات الأزواج ؛ لأن ذوات الأزواج لا ينكحن.

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية (ص ٦٦-٧٣) .

(٢) انظر : التفسير والمفسرون للذهبي (٢/٢٣١) .

(٣) سورة النساء : ٢٥ .

(٤) سورة النساء : ٢٥ .

٢ . حكم في الوصية يدفعه الكتاب .

قالوا: رويتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا وصية لوارث"^(١).

والله تعالى يقول: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا
الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾^(٢).

والوالدان وارثان على كل حال، لا يحجبهما أحد عن الميراث، وهذه الرواية، خلاف كتاب الله عزّ وجل.

قال أبو محمد: ونحن نقول: إن هذه الآية منسوخة ، نسختها آية الموارث.

فإن قال : وما في آية الموارث من نسخها، فإنه قد يجوز أن يُعطى الأبوان حظهما من الميراث ، ويعطيا أيضاً الوصية التي يوصى بها لهما.

قلنا له : لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى جعل حظهما من ذلك الميراث، المقدر الذي نالهما بالوراثة .

وقال عزّ وجل : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا
فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِمٌ ﴿١٤﴾ ﴾^(٣).

فوعد على طاعته - فيما حد من الموارث - أعظم الثواب ، وأوعد على معصيته -
فيما حد من الموارث - بأشد العقاب .

فليس لأحد أن يوصي إلى وارث من المال ، أكثر مما حد الله تعالى وفرض.

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ، باب تضمين العارية ح(٣٥٦٥) (ص١٤٨٧)، والترمذي في الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث ح(٢١٢٠) (ص١٨٦٤)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في الفرائض، باب لا وصية لوارث ح(٢٧١٢) (ص٢٦٤٠)، والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٦٧)، وصححه الألباني [إرواء الغليل ح(١٦٥٥) (٨٧/٦)].

(٢) سورة البقرة : ١٨٠ .

(٣) سورة النساء : ١٣-١٤ .

وقد يقال: إنها منسوخة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا وصية لوارث"^(١).
ثم مضى في ردّه على الخوارج ، فتحدّث عن ثبوت النسخ والحكمة منه مبيناً جواز
نسخ الكتاب بالسنة، خلافاً لما عليه الخوارج ، ثم ختم حديثه ببيان أهمية تفسير القرآن
بالسنة، وبوجوب العمل بما جاء في السنة من أحكام زائدة على ما في القرآن^(٢).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٠-١٣١).

(٢) المصدر السابق (ص ١٣١-١٣٤).

الفصل الثاني

اهتمام ابن قتيبة بالجانب اللغوي

وفيه سبعة مباحث :

- المبحث الأول: بيان الأصل اللغوي للألفاظ .
- المبحث الثاني: كثرة الشواهد الشعرية .
- المبحث الثالث : كثرة الشواهد النثرية .
- المبحث الرابع: بيان الأساليب العربية .
- المبحث الخامس : بيان الفروق اللغوية .
- المبحث السادس : بيان الأضداد في اللغة .
- المبحث السابع : بيان الوجوه والنظائر .

المبحث الأول

بيان الأصل اللغوي للألفاظ

من الظواهر اللغوية البارزة عند ابن قتيبة : بيان الأصل اللغوي للألفاظ ، وكان له عناية فائقة في هذا الجانب ، فتجده في كثير من الألفاظ بعد أن يُبيّن معناها يتجه إلى بيان أصلها اللغوي الذي اشتقت منه ، ثم يذكر شيئاً من اشتقاقاته ويُبيّن معناها الذي لا يخرج عن أصله اللغوي ، مُشبعاً ذلك بذكر الشواهد من الكتاب والسنة ، ومن الشعر والنثر وأقوال اللغويين . وهذه الفكرة - الأصل اللغوي - التي ظهرت بواكيرها على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ، وتطورت وظهرت بجلاء عند ابن قتيبة ، كان لها الأثر البالغ على ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) في تصنيفه كتابه "مقاييس اللغة" الذي أسسه على الأصول اللغوية وما يتفرع عنها من دلالات ، وقال في مقدمته :

"إن للغة العرب مقاييس صحيحة ، وأصولاً تتفرع منها فروع ، وقد أَلَّفَ الناس في جوامع اللغة ما أَلَّفوا ، ولم يُعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس ، ولا أصل من الأصول ، والذي أومأنا إليه باب من العلم جليل ، وله خطر عظيم ، وقد صدّرنا كل فصلٍ بأصله الذي يتفرع منه مسائله ، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل ، ويكون الجيبُ عما يُسأل عنه مجيباً عن الباب المبسوط بأوجز لفظ وأقربه"^(١).

ويقول السيد صقر (ت ١٤١٠هـ) - مبيناً أسبقية الإمام ابن قتيبة وأثره على ابن فارس

في هذا الباب :

"... وبذلك يكون لابن قتيبة فضل السبق إلى القول برد مفردات المادة اللغوية إلى أصولها المعنوية المشتركة ، لأنه أسبق من ابن جني (ت ٣٩٢هـ) ، ومن أستاذه أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) ، ومن ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، بل إني أذهب إلى أن فكرة ابن قتيبة هذه ، هي التي أوحى إلى ابن فارس تأليف كتابه "مقاييس اللغة"^(٢).

ومن الأمثلة على بيان الأصل اللغوي عند ابن قتيبة ما يلي :

(١) مقاييس اللغة (١/١) .

(٢) مقدمة تأويل مشكل القرآن (ص ٨٣) .

. عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾^(١)؛ قال :

"ليس السبات ههنا : النوم ؛ فيكون معناه : وجعلنا نومكم نوماً ، ولكن السبات الراحة ، أي جعلنا نومكم راحة لأبدانكم ، ومنه قيل : يوم السبت ؛ لأن الخلق اجتمع في يوم الجمعة ، وكان الفراغ منه يوم السبت ، فقيل لبني إسرائيل : استريحوا في هذا اليوم ولا تعملوا شيئاً ، فسمي يوم السبت ، أي يوم الراحة .

وأصل السَّبْت : التمدُّد ، ومن تَمَدَّدَ استراح ، ومنه قيل : رجل مَسْبُوت ، ويقال : سَبَّتَ المرأة شعرها : إذا نقضته من العقص وأرسلته ، قال أبو وجزة السعدي (ت ١٣٠هـ)^(٢) :
 وَإِنْ سَبَّتَهُ مَالٌ جَثَلًا كَأَنَّهُ سَدَى وَإِثْلَاتٍ مِنْ نَوَاسِجٍ خَثَعَمًا^(٣)
 خَثَعَمًا^(٣)

ثم قد يُسمى النوم سباتاً ؛ لأنه بالتمدُّد يكون"^(٤).

. وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾^(٥)؛ قال :

"إنما يريد بالكفار ههنا : الزُّراع ، واحدهم كافر ، وإنما سُمِّيَ كافراً لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كَفَرَهُ ، أي غَطَّاه ، وكل شيء غَطَّيْتَهُ فقد كَفَرْتَهُ ، ومنه قيل : تَكَفَّرَ فلان في السلاح : إذا تَعَطَّى ، ومنه قيل لليل كافر ؛ لأنه يستر بظلمته كل شيء ، ومنه قول الشاعر :

(١) سورة النبأ : ٩ .

(٢) أبو وجزة يزيد بن عبيد السلمي السعدي ، أصله من بني سليم ، نشأ في بني سعد بن بكر بن هوازن ، فُنسب إليهم ، قال ابن قتيبة : "كان شاعراً مجيداً ، رواية للحديث" ، وثقه ابن معين وابن حبان ، وقال ابن سعد : "كان ثقة قليل الحديث شاعراً عالماً" ، توفي بالمدينة سنة ١٣٠هـ . [الشعر والشعراء (٢/٧٠٢) ، الطبقات الكبرى (٧/٤٨٥) ، تهذيب التهذيب (٤/٤٢٣)] .

(٣) البيت غير منسوب في أمالي المرتضى (٢/١٥) ، وفي البحر المحيط (٨/٤٠١) ، وقال : "أي : إن مدَّت شعرها مال والتف كالتفاف السدَى بأيدي نساء ناسجات" .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٧٩-٨٠) .

(٥) سورة الحديد : ٢٠ .

يَعْلُو طَرِيقَةً مَّتْنِهَا مَتَوَاتِرًا فِي لَيْلَةٍ كَفَّرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا^(١)

أي غطّاها ، ومثل هذا في قوله : ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾^(٢) «(٣)» .

. ويقول في تفسير معنى "الإفك" في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾^(٤) :
"والإفك: الكذب ؛ لأنه كلام قُلب عن الحق ، وأصله من أفكّت الرجل إذا صرفته عن

رأى كان عليه ، ومنه قيل لمدائن قوم لوط "المؤتفكات" لانقلابها، ومنه قول الله جلّ وعز : ﴿

فَأَنِّي تُوفِّكُونَ ﴾^(٥) ، أي : من أين تحرمون وتُصرفون عن الحق ، قال الشاعر:

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ فُوكًا فَفِي آخِرِينَ قَدْ أُفْكُوا^(٦)

أي: إن تك عن أحسن الصنوعة معدولا^(٧) .

. ويقول في تفسير لفظ "الجن" :

"الجن من الاجتنان ؛ وهو الاستتار ، يقال للدرع: جُنَّةٌ ؛ لأنها سَتَرَتْ ، ويقال : أَجَنَّهُ الليل ، أي جعله من سواده في جُنَّةٍ ، وجَنَّنَ عليه الليل ، وإنما سُموا جِنًّا لاستتارهم عن أبصار الإنس .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ

أَمْرِ رَبِّهِ ﴾^(٨) ، أي : من الملائكة ، فسَمَّاهم جِنًّا ، لاجتنانهم واستتارهم عن الأبصار.

وقال الأعشى (ت ٥٧هـ) يذكر سليمان عليه السلام :

(١) البيت للبيد بن ربيعة ، وهو في ديوانه (ص ١١١) ، وهو من معلقته ، قال التبريزي في شرح القصائد العشر (ص ١٤٧) : "أي يعلو طريقة متن هذه البقرة مطر متتابع ، والطريقة : خطة مخالفة للونها، والمتنان: مكتنفا الظهر، وكَفَّرَ: غَطَّى، يريد أنها ليلة مظلمة وقد غطى السحاب فيها النجوم".

(٢) سورة الفتح : ٢٩ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٧٥-٧٦) .

(٤) سورة النور : ١١ .

(٥) سورة الأنعام : ٩٥ .

(٦) البيت لعروة بن أذينة ، وهو في ديوانه (ص ٣٤٣) ، جمع د. يحيى الجبوري ، وهو منسوب له في اللسان (٣٩٠/١٠) ،
والصالح (٤/١٥٧٣) ، وفيه : "يقول: إن لم توفق للإحسان فأنت في قوم قد صُرفوا عن ذلك أيضاً".

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٣٠-٣١) .

(٨) سورة الكهف : ٥٠ .

وَسَخَّرَ مِنْ جِنَّ الْمَلَائِكِ تِسْعَةً قِيَاماً لَدِيهِ يَعْمَلُونَ بِلَا أَجْرِ^(١)»^(٢)

. ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيئُوا ظِلَّهُ عَنِ

الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾^(٣) :

"تَفِيئُ الظَّلَالِ : رجوعها من جانب إلى جانب ، فهي مرة بُجَاهِ الشَّخْصِ ، ومرة وراءه، ومرة عن يمينه، ومرة عن شماله.

وأصل الفياء: الرجوع، ومنه قيل للظل في العشي: فَيء ؛ لأنه فاء ، أي رجع من جانب إلى جانب ، ومنه الفياء في الإيلاء^(٤) إنما هو : الرجوع إلى المرأة .

وأصل السجود : التَطَّاطُؤُ والميل، يقال: سجد البعير وأُسجد: إذا طُوطِئَ لِيُرَكَّبَ، وسجدت النخلة: إذا مالت. قال لبيد - بن ربيعة - (ت ٤٠ هـ) يصف نخلاً :

عُلبٌ سَوَاجِدٌ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الحِصْرُ^(٥)

فالعُلب : الغلاظ الأعناق، والسَّوَاجِد: الموائل.

ومن هذا قيل لمن وضع جبهته بالأرض: ساجد؛ لأنه تطامن في ذلك ، ثم قد يُستعار السجودُ فيوضع موضع الاستسلام والطاعة والذل، كما يستعار التَطَّاطُؤُ والتَّطَامُنُ فيوضعان موضع الخشوع والخضوع والانقياد والذل، فيقال: تطامنَ للحق ؛ أي أخضع له، وتطاطأ لها تَحَطُّكٌ ، أي تدلُّ لها ولا تعزَّز^(٦).

(١) البيت في ديوانه (ص ٢٤٣)، ومنسوبٌ له في الزاهر لابن الأنباري (٢/٢٦٩)، واللسان (١٣/٩٢).

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢١).

(٣) سورة النحل : ٤٨ .

(٤) الإيلاء : الحلف ، يقال: آليت من امرأتي أولي إيلاء : إذا حلف أن لا يجامعها. [تهديب اللغة، مادة "فاء" (٤١٤/١٥)].

(٥) البيت في ديوانه (ص ٣٨)، وغلب: أي أعناقها غلاظ، وسواجد: أي مائلة، يقال: نخلة ساجدة: إذا أمالها حملها. [تهديب اللغة (١٠/٣٠٢)، لسان العرب (٣/٢٠٤)].

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٦-٤١٧).

. ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾^(٢) .

"فهم يوزعون: أي يدفعون، وأصل الوَزْع : الكفُّ والمنع، يقال: وَرَعْتُ الرجل ؛ إذا كففته، ووازعُ الجيش هو الذي يكفُّهم عن التفرق ويردُّ من شدَّ منهم .

وقوله : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي ألهمني ، وأصل الإيزاع: الإغراء بالشيء، يقال: أَوْزَعْتُهُ بكذا، أي أغريته به ، وهو موزعٌ بكذا ، ومولعٌ بكذا، ومنه قول أبي ذؤيب (ت ٥٢٧هـ) في الكلاب :

أولى سوابقها قريباً تُوزَعُ^(٣)
أي تُغرى بالصيد"^(٤) .

(١) سورة النمل : ١٧ .

(٢) سورة النمل : ١٩ .

(٣) البيت في ديوانه من ديوان الهذليين (١/١١)، وصدرة : "فَعَدَا يُسَرِّقُ مَتْنَهُ فَبَدَا لَهُ" ، وفيه : "فَعَدَا الثور يُسَرِّقُ مَتْنَهُ للشمس ليحفظ ما عليه من الندى، فظهر له أولى سوابق الكلاب قريباً تُوزَعُ" ، قال الأصمعي : "توزع: تُكفَّ ليجتمع بعضها إلى بعض" ، وقال غيره: "تُغرى" .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص٣٢٣)، وانظر - للاستزادة - : (ص٤٢، ٤٧، ٦٩، ٨٩، ١١٣، ١٢٦، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٥، ١٦١، ١٦٥، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٣، ٢٠١، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٩٧، ٣٢٥، ٤١٧، ٤٤٦، ٥٠٠، ٥٠٦)، تأويل مشكل القرآن (ص١٤٠، ١٤١، ١٥٠، ١٨٢، ٣٤٤، ٣٥١، ٤٢٥، ٤٣٢، ٤٤٢، ٤٦٧، ٤٨٤)، غريب الحديث (١/١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٥، ٣٦، ٣٨)، المسائل والأجوبة (ص٣٦، ١٩٩، ٢٢٩) .

المبحث الثاني

كثرة الشواهد الشعرية

تحدث الإمام ابن قتيبة في مقدمة "تأويل مشكل القرآن" عما تميز به العرب ؛ فذكر الشعر ووصفه ، فقال :

"وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها ، وجعله لعلومها مستودعاً ، ولآدابها حافظاً ، ولأنسابها مقيّداً ، ولأخبارها ديواناً لا يَرْتُ^(١) على الدهر، ولا يبید على مر الزمان.

وَحَرَسَهُ بالوزن والقوافي ، وحُسِّنَ النظم، وجودة التعبير من التدليس والتغيير، فمن أراد أن يُحدث فيه شيئاً عَسُرَ ذلك عليه ، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور"^(٢).

وأشار إلى قضية الاحتجاج بالشعر في كتابه "الشعر والشعراء" ، فذكر في مقدمته أنه سيقصر في كتابه على المشهورين من الشعراء "الذين يعرفهم جُلُّ أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو ، وفي كتاب الله عزّ وجل، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٣).

ويعد الاحتجاج بالشعر من أوائل صور الاحتجاج اللغوي، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم كثيراً ما يستشهدون بالشعر، وينبهون على أهميته في تفسير القرآن الكريم.

قال سعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ) : "بينما عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه على المنبر ، قال : يا أيها الناس ما تقولون في قول الله - عزّ وجل - ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى

تَخَوُّفٍ ﴾^(٤) ، فسكت الناس ، فقال شيخ من بني هذيل : هي لغتنا يا أمير المؤمنين ،

(١) الرّت: الخلق البالي، ولا يرتُ: أي لا يخلق ولا يبلى على مر الزمان. [تهذيب اللغة مادة "رت" (٤٤/١٥)].

(٢) (ص١٧-١٨) .

(٣) (ص٥٩) .

(٤) سورة النحل : ٤٧ .

التخوف: التنقص، ... قال شاعرنا أبو بكر الهذلي^(١)، يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد اكتنازه:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كما تَخَوَّفَ عُوْدَ النَّبْعَةِ السَّفْنُ^(٢)

فقال عمر : يا أيها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم"^(٣).

ويقول ابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما :

"الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"^(٤).

وقد طبق ابن عباس رضي الله عنهما هذا المنهج ، وتوسّع في الاستشهاد بالشعر حتى نُقِلَ عنه "أنه كان يُسأل عن القرآن فَيُنشِدُ الشعر"^(٥)، قال أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ) : "يعني كان يستشهد به على التفسير"^(٦).

وجرى على هذا المنهج - الاحتجاج بالشعر - أئمة السلف وعلماء التفسير واللغة، حتى أصبح الشاهد الشعري من أبرز وأهم الشواهد التي استعانوا بها في مجال المعنى والدلالة^(٧).
والدلالة^(٧).

(١) أبو كبير عامر بن الحُلَيْسِ الهذلي ، من بني سهل بن هذيل ، شاعر جاهلي فحل ، وقيل: أدرك الإسلام وأسلم، وله خبر مع النبي صلى الله عليه وسلم . [الشعر والشعراء (٢/٦٧٠)، الإصابة في تمييز الصحابة (٧/١٦٢)].

(٢) نسبه القرطبي (١٢/٣٣٢) لأبي كبير الهذلي ، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة (٧/٥٩٤) لابن مقبل، وهو في ديوانه (ص ٤٠٥)، ونسبه في الصحاح (٥/٢١٣٦) لذي الرُّمة ، ونسبه الزمخشري في أساس البلاغة (ص ١٧٨) إلى زهير ، وأورده الطبري (١٤/٢٣٥) ولم ينسبه .

التامك : السنام ، وناقطة تامك : عظيمة السنام ، والقرد : ما تمعط من الوبر والصوف وتلبّد ، والنبعة : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي ، والسفن : الحديدية التي تُبرد بها القسي . [لسان العرب (٩/٩٩)، (١٣/٢٠٩)].

(٣) تفسير القرطبي (١٢/٣٣٢)، وأخرج الطبري في تفسيره (١٤/٢٣٦) بنحوه عن رجل عن عمر رضي الله عنه.

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/٢٩٤)، والأثر أخرج نحوه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٤/٣٤٦).

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٣٤٣) .

(٦) المصدر السابق (ص ٣٤٣) .

(٧) انظر - للاستزادة - : الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم ، د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري .

وقد أدرك الإمام ابن قتيبة هذه الأهمية ، فأكثر من استخدام الشواهد الشعرية في شروحه وتفسيراته ، ولا أدل على ذلك من أن عدد الشواهد الشعرية في "تفسير غريب القرآن" فقط بلغ مائة وأربعة وثمانين شاهداً^(١).

ونجد قريباً من ضعف هذا العدد في كتابه "تأويل مشكل القرآن" ، ولا شك أن لإمامته في اللغة والأدب والشعر أثراً بالغاً في الاستعانة بهذا الكم الوافر من الشواهد الشعرية، وتتجلى ملكته وتمكنه من هذه العلوم حين لا يكتفي بإيراد هذه الشواهد فقط ، بل يُعَلِّق عليها بتعليقات نفيسة تتعلق بشرح غريبها ، وبيان معناها وموضع الشاهد منها.

وقد تعددت أغراض الإمام ابن قتيبة في الاستشهاد بالشعر ، وأهم هذه الأغراض:

١ . الغرض اللغوي .

وهو الغالب في الشواهد الشعرية عند الإمام ابن قتيبة ، لا سيما في كتابه "تفسير غريب القرآن" ؛ إذ استشهد بالشعر كثيراً على ما يفسره من المفردات والمعاني، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾^(٢) :

"يريد سعتها ، ولم يرد العرض الذي هو خلاف الطول ، والعرب تقول : بلاد عريضة أي واسعة ، وقال الشاعر :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلٍ^(٣)

وأصل هذا من العَرْض الذي هو خلاف الطول ، وإذا عَرَضَ الشيءُ اتسع، وإذا لم يَعْرِضْ ضاق ودق"^(٤).

(١) أحصت هذا العدد الباحثة: سوسن الهندي في رسالتها "موازنة بين كتابي تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، والمفردات للراغب الأصفهاني" (ص ٢٧٢) .

(٢) سورة آل عمران : ١٣٣ .

(٣) نسبه الأصفهاني في الأغاني (١٨٢/١٣) لعبدالله بن الحجاج ، ونسبه الحموي في معجم الأدباء (١٣٠٦/٣) لرزين ابن زندورد العروضي، وهو غير منسوب في الكامل (٩٨/٣)، واللسان (٣٠١/٩)، وفيه "الحابل: الصائد، وكفته هي حبالته التي يصيد بها" .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ١١١-١١٢) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾^(١) ؛ قال :
 "أوفوا بالعقود ، أي بالعهود، يقال: عقدَ لي عقداً ، أي جعل لي عهداً، قال الحطيئة
 (ت نحو ٤٥ هـ)^(٢) :

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لَجَّارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكُرْبَا^{(٣)»(٤)}
 الْكُرْبَا^{(٣)»(٤)}

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءِثْرِهِمْ ﴾^(٥) ؛ قال :
 "باخع نفسك ، أي قاتل نفسك ومهلك نفسك ، قال ذو الرُّمَّةِ (ت ١١٧ هـ):
 أَلَا أَيُّهَا الْبَاخِعُ الْوَجْدُ نَفْسَهُ لَشَيْءٍ نَحْتَهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ^{(٦)»(٧)}
 الْمَقَادِرُ^{(٦)»(٧)}

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّيْتُمْ بِهِ رِبِّ الْمُنُونِ ﴾^(٨) ؛ قال :
 "أي حوادث الدهر وأوجاعه ومصائبه، والمنون: الدهر، قال أبو ذؤيب (ت ٢٧ هـ):
 أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَبِّهِ تَتَوَجَّعُ وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنِ يَجْنَعُ^{(٩)»(١٠)}

(١) سورة المائدة : ١ .

(٢) جردول بن أوس بن مالك العبسي ، أبو مليكة ، لُقِّبَ بالحطيئة ، لقصره وقربه من الأرض ، شاعر مخضرم ، أدرك
 الجاهلية والإسلام ، وكان راوية زهير ، كان هجاءً عنيفاً ، لم يكذب يسلم أحد من لسانه، توفي نحو سنة ٤٥ هـ .
 [الشعر والشعراء (١/٣٢٢)] .

(٣) البيت في ديوانه (ص ١٥)، ونسبه له ابن قتيبة في المعاني الكبير (١١٠٦/٢)، وقال : "أي إذا عقدوا أوفوا لمن عقدوا
 له وكان عقدهم وثيقاً ، والعجاج : حبل أو بطن يجعل في أسفل الدلو، تشد به العراقي ليكون عوناً للوادم، والوادم:
 السيور التي بين أطراف العراقي وآذان الدلو، والكرب: عقد مثني يشد على العراقي " .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ١٣٨) .

(٥) سورة الكهف : ٦ .

(٦) البيت في ديوانه (ص ٢٥١)، ومنسوب له في العين (٣/٣٠٣)، وتهديب اللغة (٥/١٦٣)، وفيه: "نحته أي باعدته" .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٦٣) .

(٨) سورة الطور : ٣٠ .

(٩) البيت في ديوانه من ديوان المهذليين (١/١) من مطلع قصيدة قالها لما هلك له سبعة بنين في يوم واحد حين شربوا من
 لبن شربت منه حية ثم ماتت فيه ، وهي في المفضليات (ص ٤٢١) .

٢ . الغرض البلاغي :

ويأتي في الدرجة الثانية من حيث كثرة الاستعمال بعد الشواهد اللغوية ، وغالب الشواهد لهذا الغرض في مصنفه "تأويل مشكل القرآن" إذ تطرق فيه لكثير من الأبواب البلاغية ، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله في باب الاستعارة :

"ومنه قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾^(٢)، أي طهر نفسك من الذنوب ، فكأن عن الجسم بالثياب ؛ لأنها تشتمل عليه.

قالت ليلي الأخيلية (ت نحو ٨٠هـ)^(٣) وقد ذكرت إبلاً :

رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خِفَافٍ فَلَا تَرَى
لَهَا شَبَهًا إِلَّا النَّعَامَ الْمُنْقَرًا^(٤)
أي ركبوها فرموها بأنفسهم.

وقال آخر :

لَا هُمْ إِنَّ عَامِرَ بْنَ جَهْمٍ
أَوْ ذَمَّ حَجًّا فِي ثِيَابٍ دُسْمٍ^(٥)
أي هو متدنس بالذنوب^(٦).

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٤٢٥)، وانظر للاستزادة : (ص ٤٢، ٥٣، ١٣٣، ١٦٨، ١٩٣، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٦٣، ٢٧٣، ٢٧٩، ٣١٤، ٣١٨، ٣٥٥، ٣٨٨، ٤٠٩، ٤٤٣، ٥٠٣، ٥٠٩)، وتأويل مشكل القرآن (ص ١١١، ١١٤، ١٣٨، ١٨٦، ٣٨٨، ٤٠٢)، المسائل والأجوبة (ص ١١٧، ١٧٢، ٢٠٧، ٢٢٩، ٢٣٤).

(٢) سورة المدثر : ٤ .

(٣) ليلي بنت عبد الله بن الرّحال بن شداد بن كعب الأخيلية، من بني عامر بن صعصعة ، شاعرة فصيحة، قال ابن قتيبة: "هي أشعر النساء، لا يُقدّم عليها غير خنساء"، كانت بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة، ماتت نحو سنة ٨٠هـ. [الشعر والشعراء (١/٤٤٨)].

(٤) نسبة ابن قتيبة لها في المعاني الكبير (١/٤٨٦)، وفيه: "يعني بأجسام خفاف، يريد ركبوها" ومنسوب لها في الصناعتين لأبي هلال العسكري (ص ٢٧٧)، والفائق للزمخشري (١/٤٠)، وهو غير منسوب في اللسان (١/٢٤٣)، وفيه : "رموها، يعني الركاب بأبدانهم".

(٥) البيت غير منسوب في تهذيب اللغة (١٥/٢٣)، والصحاح (٥/٢٠٥٠)، وأساس البلاغة (١/٢٧١)، وذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير (١/٤٨١)، وقال : "أوذم: أوجب وعقد، في ثياب: أي في جسم غير طاهر"، وجاء في اللسان (١٢/٦٣٢): "أي متلطخة بالذنوب ، يعني أحرم بالحج وهو مُدَنَّسٌ بالذنوب".

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ١٤٢) .

وقوله : "ومن الاستعارة: اللسان يوضع موضع قول ، لأن القول يكون بها ، قال الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾^(١) ، أي: أي: ذِكْرًا حسنًا ، وقال الشاعر :

إِنِّي أَتَانِي لِسَانٌ لَا أُسْرُ بِهَا مِنْ عَلَوٍ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخْرُ^(٢)
سَخْرُ^(٢)

أي أتاني خبرٌ لا أُسْرُ به"^(٣).

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٤):

"(والأغلال) تحريم الله عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وجعله أغلالاً ؛ لأن التحريم يمنع كما يقبض العُلُّ اليد ، فاستعير .
قال أبو ذؤيب (ت ٥٢٧هـ):

فليس كعهد الدارِ يا أم مالكٍ ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ
وعاد الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ سوى العَدَلِ شيئاً فاستراح العواذِلُ^(٥) ^(٦)
العواذِلُ^(٥) ^(٦)

(١) سورة الشعراء : ٨٤ .

(٢) البيت لأعشى باهلة - عامر بن الحارث بن رباح الباهلي - من مطلع قصيدة في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب الباهلي ، وهي في الكامل للمبرد (٤/٥٥)، وجهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام (٢/٧١٤)، وأمالي المرتضى (٣/١٠٥)، و"علو" : أي مكان عال، و"لا سخر" ، أي : لا أقول ذلك سخريه . [اللسان، مادة "سخر" (٤/٣٥٢)].

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١٤٦) .

(٤) سورة الأعراف : ١٥٧ .

(٥) البيتان ليسا لأبي ذؤيب الهذلي، وإنما هما لأبي خراش الهذلي، خويلد بن مرة ، من قصيدة يرثي بها زهير بن العجوة، كما في ديوان الهذليين (٢/١١٦)، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني (٢١/٢١٠)؛ وقال: "قال الأصمعي وأبو عمرو في روايتهما جميعاً : أخذ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم حنين أسارى ، وكان فيهم زهير بن العجوة، فمّر به جميل بن معمر بن حبيب وهو مربوط في الأسرى، وكانت بينهما إحنةٌ في الجاهلية، فضرب عنقه، فقال أبو خراش يرثيه" فذكر القصيدة .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ١٤٨)، وانظر للاستزادة : (ص ٦٩، ١٠٩، ١٣٤، ١٤١، ١٥٦)، تفسير غريب القرآن (ص ٣٧١، ٤٦٨).

٣ . الغرض النحوي .

ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ ﴾^(١) ؛ قال :

"أي من يرد فيه إلحاداً، وهو الظلم والميل عن الحق، فزيدت الباء ، كما قال : ﴿ تَنْبُتُ

بِالذُّهْنِ ﴾^(٢) ، وكما قال الآخر :

سُوْدُ الْمَاجِرِ لَا يَقْرَأُ بِالسُّورِ^(٣)

أي لا يقرأ السور ، وقال الآخر :

نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ^{(٤)»(٥)}

ويقول : "واو النسق قد تزداد حتى يكون الكلام كأنه لا جواب له ، كقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا

جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾^(٦) ، والمعنى : قال لهم خزنتها .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِءٍ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾^(٧) ، وقوله

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾^(٨) ، وكقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ

(١) سورة الحج : ٢٥ .

(٢) سورة المؤمنون : ٢٠ .

(٣) البيت للراعي النميري ، وهو في ديوانه (ص ١٠١) ، ونسبه له ابن قتيبة في أدب الكاتب (ص ٢٣٩) ، وابن منظور في اللسان (٣٨٤/٤) ، صدره : "هُنَّ الْحَرَائِرُ لَا رِيَاءَ أَمْهَرَةٍ" ، جاء في اللسان ، مادة "حجر" (١٦٥/٤) : "المحاجر جمع محجر ، ومحجر العين ما دار بها وبدا من البرقع من جميع العينين ، وقيل : هو ما يظهر من نقاب المرأة" .

(٤) صدره : نحن بنو جعدة أصحاب الفلج ، وهو للناطقة الجعدي ، في ديوانه (ص ٢١٦) ، ومنسوب له في خزانة الأدب (٥٢٠/٩) .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٢٩١-٢٩٢) ، وانظر : تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٨-٢٤٩) .

(٦) سورة الزمر : ٧٣ .

(٧) سورة يوسف : ١٥ .

(٨) سورة الصافات : ١٠٣ .

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿٩٧﴾، وقوله

وقوله : ﴿ أَتَبِعُوا سَيِّلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ ﴾^(١)، أي لنحمل خطاياكم عنكم .

قال "امرؤ القيس" :

فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحى بنا بطُنْ خَبْتِ ذِي قَفَافٍ عَقَنْقَلٍ^(٢)

أراد انتحى .

وقال آخر :

حَتَّى إِذَا قَمَلَتْ بُطُونُكُمْ وَرَأَيْتُمْ أَنْبَاءَكُمْ شَبُّوا

وقلبتم ظهر المجن لنا إن اللئيم العاجز الحَبُّ^(٣)

أراد : قلبتم^(٤) .

ومنه حديثه عن حرف "الباء" وأنه قد يأتي متضمناً معنى "من" ، وفي ذلك يقول :

"نقول العرب : شربت بماء كذا وكذا ، أي من ماء كذا .

قال تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾^(٥) ، و﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾^(٦) ،

^(٧) ، ويكون بمعنى يشربها عباد الله ويشرب منها .

قال الهذلي - أبو ذؤيب (ت ٢٧٧هـ) - وذكر السحائب :

(١) سورة الأنبياء : ٩٦-٩٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ١٢ .

(٣) البيت في ديوانه (ص ٣٩)، وهو من معلقته ، قال الزوزني في شرح المعلقات السبع (ص ٢٣) : "يقول : فلما جاوزنا ساحة الحي وخرجنا من بين البيوت وصرنا إلى أرض مطمئنة بين حقاف ، يريد مكاناً مطمئناً أحاطت به حقاف أو قفاف ، والعقنقل من صفة الخبت" .

(٤) أنشده ابن قتيبة في المعاني الكبير (١/٥٣٣)، وقال "قملت : كثرت، البطون: القبائل، وأراد: قلبتم ظهر المجن لنا، ثم أدخل الواو .." ، وهو أيضاً غير منسوب في معاني القرآن للفراء (١/١٠٧)، وفي اللسان (١١/٥٦٨)، وفيه : "الحَبُّ الخداع" .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٥٢-٢٥٤) .

(٦) سورة المطففين : ٢٨ .

(٧) سورة الإنسان : ٦ .

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ
 أَي شَرِبْنَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ .
 وقال عنتره :

شَرِبْتُ بِمَاءِ الدُّخْرَضَيْنِ فَأَصْبَحْتُ
 زُورَاءَ تَنْفِرُ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ^(٢)^(٣)
 الـدَّيْلَمِ^(٢)^(٣)

٤ . الغرض الصرفي :

ومن الأمثلة على ذلك :

قوله : "والشيطان" تقديره ، فَيَعَال ، والنون من نفس الحرف ، كأنه من شَطَنَ ، أي :
 بَعُدَ ...

والدليل على أن النون من شيطان من نفس الحرف قول أمية بن أبي الصلت (ت ٥٥هـ)
 في وصف سليمان النبي عليه السلام:

أَيُّمَا شَاطِينٍ عَصَاهُ عَكَاهُ
 ثُمَّ يُلْقَى فِي السَّحَنِ وَالْأَغْلَالِ^(٤)
 فجاء به على فاعل من شطن^(٥) .
 وقوله في "آمين" :

"وهكذا يختار أصحاب اللغة في "آمين" أن يقصروا الألف ولا يطوّلوا ، وأنشدوا فيه:
 تَبَاعَدَ مَنِّي فُطْحُلٌ إِذْ سَأَلْتُهُ
 أَمِينَ فزادَ اللهُ ما بيننا بُعْدًا^(١)^(٢)
 بُعْدًا^(١)^(٢)

(١) البيت في ديوانه من ديوان الهذليين (٥٢/١)، ومنسوب له في أدب الكاتب (ص٢٣٦)، وشرح الاقتضاب (ص٤٤٧)، وفيه : وصف سحاباً ارتفعت من البحر ، وهذيل كلها تصف أن السحاب تستقي من البحر ثم تصعد في الجو ، والنثيج : المر السريع معه صوت".

(٢) البيت في ديوانه (ص٨١)، وهو من معلقته ، قال الزوزني في شرح المعلقات السبع (ص١٣٥): "النور: الميل، والفعل زور يزور ، والنعت: أزور ، والأنتى: زوراء ، مياه الديلم: مياه معروفة، وقيل: العرب تسمي الأعداء ديلماً لأن الديلم صنّف من أعدائها، يقول: شربت هذه الناقة من مياه هذا الموضوع ، فأصبحت مائلة نافرة عن مياه الأعداء".

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص٥٧٥) ، وانظر للاستزادة : (ص١٠١ ، ٢٢٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٧) .

(٤) البيت له في معجم مقاييس اللغة (٣/١٨٥) ، وتهذيب اللغة (٣/٢٧) ، واللسان (١٥/٨٢) ، وفيه "عكاه: شده في الوثاق".

(٥) تفسير غريب القرآن (ص٢٣-٢٤) .

وتحدث عن الصَّيغ ، وأن بعضها قد يأتي بمعنى بعض ؛ فقال :

"ومنه أن يجيء المفعول به على لفظ الفاعل ، كقوله سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾^(٣) ، أي لا معصوم من أمره .

وقوله : ﴿ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾^(٤) ، أي مدْفوق .

وقوله : ﴿ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾^(٥) ، أي مَرْضِيٍّ بها .

وقوله : ﴿ أَوْلَمَ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾^(٦) ، أي مأموناً فيه .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾^(٧) ، أي مبصراً بها .

والعرب تقول : ليل نائم ، وسرُّ كاتم ، قال وَعَلَةُ الْجَزْمِيِّ^(٨) :

ولما رأيتُ الحَيْلَ تَثْرَى أَثَايَجًا علمتُ بأنَّ اليومَ أَحْمَسُ فَاجِرٌ^(٩)

أي يوم صعب مفعورٌ فيه .

وأن يأتي فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ :

نحو قوله : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١٠) ، أي مبدعها .

(١) البيت لجبير بن الأضبط - وكان سأل فطحلاً الأسدي في حمالة فحرمه - في : التلويح في شرح الفصيح للهرودي (ص ٨٦) ، شرح الفصيح لابن هشام (ص ٢٤٤) ، تهذيب إصلاح المنطق (٤٢/٢) ، ومن غير نسبة في : إصلاح المنطق (ص ١٧٩) ، معجم مقاييس اللغة (١/١٣٥) ، تهذيب اللغة (١٥/٣٦٧) ، الصحاح (٥/١٧٩٢) ، اللسان (٢١/١٣) .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ١٢-١٣) .

(٣) سورة هود : ٤٣ .

(٤) سورة الطارق : ٦ .

(٥) سورة الحاقة : ٢١ .

(٦) سورة العنكبوت : ٦٧ .

(٧) سورة الإسراء : ١٢ .

(٨) وعلة بن الحارث الجرمي ، من جرم قضاة ، شاعر جاهلي ، قال أبو الفرج الأصفهاني : "كان وعلة وابنه الحارث من فرسان قضاة وأبجادهما وأعلامهما" . [الأغاني (٢٢/٢٢١)] .

(٩) البيت له في العقد الفريد (٥/٢٣١) ، والأغاني (٢٢/٢٢٢) ، ونسبه له ابن قتيبة في المعاني الكبير (٢/٩٤٦) ، وقال : "أثايح : جماعات ، أحمس : شديد ، فاجر : يركب فيه الفجور ولا يبق فيه مُحَرَّم ، أراد مفعور فيه" .

(١٠) سورة البقرة : ١١٧ .

وكذلك : ﴿عَذَابُ أَلِيمٌ﴾^(١) ، أي مؤلم .

وقال عمرو بن معديكرب (ت ٢١٥هـ)^(٢) :

أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤَرِّفُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ؟^(٣)
يريد الداعي المسموع"^(٤) .

(١) سورة البقرة : ١٠ .

(٢) عمرو بن معديكرب بن عبدالله بن عمرو الزبيدي ، الشاعر الفارس المشهور ، قال أبو نعيم : "له الوقائع المذكورة في الجاهلية ، وأدرك الإسلام ، فقدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلمه التلبية ، وله في الإسلام بالقادسية بلاء حسن" ، توفي سنة ٢١٥هـ . [الشعر والشعراء (١/٣٧٢) ، معرفة الصحابة (٤/٢٠١٧) ، الإصابة في تمييز الصحابة (٤/٦٨٦)] .

(٣) البيت له - في أخته ريحانة بنت معديكرب لما سبها الصمة بن بكر - في : الأصمعيات (ص ١٩٠) ، تحذيب اللغة (٢/٧٤) ، اللسان (٨/١٦٢) ، ونسبه له ابن قتيبة في الشعر والشعراء (١/٣٧٢) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٩٦-٢٩٧) ، وانظر للاستزادة : (ص ٣٧٤) ، تفسير غريب القرآن (ص ٢٢٠) .

المبحث الثالث

كثرة الشواهد النثرية

للشواهد النثرية أهمية بالغة في التفسير ، إذ يُعتمد عليها في تفسير المفردات وبيان المعاني ، وتتجلى ملكة الإمام ابن قتيبة اللغوية من خلال وفرة الشواهد النثرية التي اعتمد عليها في تفسيره ، ويظهر ذلك جلياً عند تفسير الغريب من القرآن ؛ إذ يُفسَّره ثم يعقبه بإيراد ما يشهد له من منشور كلام العرب ، وغالباً ما يُصدَّر ذلك بقوله : "تقول العرب" أو "يقال" ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾^(١) ، قال :

"أي : لم تلتفتوا إلى ما جئكم به عنه ، تقول العرب : جعلتني ظهرياً ، وجعلت حاجتي منك بظهر ، إذا عرضت عنه وعن حاجته"^(٢) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾^(٣) :

"أي ندماً ، هذا قول أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) ، وقول المفسرين : سرفاً ، وأصله العجلة والسبق ، يقال : فُرْطَ مني قول قبيح ، أي : سَبَقَ ، وفرسٌ فُرْطٌ : أي متقدم"^(٤) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾^(٥) :

"فأتبعوهم : لحقوهم ، مشرقين : مصبحين حين شَرَقَت الشمس ، أي طلعت ، يقال : أشرقنا ؛ أي دخلنا في الشروق ، كما يقال : أمسينا وأصبحنا ، إذا دخلنا في المساء والصباح ، ومنه قول العرب في الجاهلية : "أشرق ثبيرٌ كيما نغيرٌ" ، أي ادخل في شروق الشمس"^(٦) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾^(١) ، يقول :

(١) سورة هود : ٩٢ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠٩) .

(٣) سورة الكهف : ٢٨ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٢٦٦) .

(٥) سورة الشعراء : ٦٠ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٣١٧) .

"أي خالية ، فقد أمكن من أراد دخولها ، وأصل العورة : ما ذهب عنه السُّتْرُ والحفظ؛ فكأن الرجال سترٌ وحفظٌ للبيوت ، فإذا ذهبوا أغورت بيوتهم ، تقول العرب: أَعَوَرَ مَنْزِلَكَ ؛ إذا ذهب سِتْرُهُ ، أو سقط جداره ، وأَعَوَرَ الْفَارِسُ ؛ إذا بدا فيه موضع خلل للضرب بالسيف أو الطعن"^(٢).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾^(٣):

"يعني : قرناءهم، والعرب تقول: زَوَّجَت الْبَعِيرَ بِالْبَعِيرِ، إذ قرنت أحدهما بالآخر"^(٤).

والمتتبع للشواهد النثرية عند الإمام ابن قتيبة يجد أن الأمثال العربية تأتي في مقدمة هذه الشواهد ، وتكمن أهمية المثل في أنه قول موجز يتسع ميدان استخدامه فلا يقتصر على حالة واحدة ، وإنما يمكن إطلاقه على كل الحالات المشابهة ، كما أن إيجازه ألبسه خواص أسلوبية كانت محل دراسة من العلماء في ثنايا كتبهم ، وقد اهتم ابن قتيبة بالمثل العربي في تفسيره وجعله مادة استشهاد على ما يذهب إليه من التفسير والبيان ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾^(٥)، قال :

"يوم الدين: يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يوم الجزاء والحساب ، ومنه يقال: دِنْتُهُ بما صَنَعَ أي جازيته، ويقال في مَثَلٍ: "كما تدين تُدان"، يراد كما تَصْنَعُ يُصْنَعُ بك، وكما تجازي بُجَازِي"^(٦).

(١) سورة الأحزاب : ١٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٤٩) .

(٣) سورة الصافات : ٢٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢٣)، وانظر للاستزادة : (ص ٧، ١٢٥، ١٣١، ١٣٣، ١٤٢، ١٥٠، ١٦٧، ١٩٤، ٢٣٤، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٨، ٥٦٩، ٥١٧)، تفسير غريب القرآن (ص ١١١، ١٣١، ٢٠٩، ٣٦٧، ٣٧٧، ٣٩٠، ٥٠٣، ٥١٠، ٥١٣)، المسائل والأجوبة (ص ٥٣) .

(٥) سورة الفاتحة : ٤ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٣٨) .

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(١):
 "لا فارض" أي لا مسنة، "ولا بكر" أي ولا صغيرة لم تلد، ولكنها "عوان" بين تينك،
 ومنه يقال في المثل: "العوان: لا تُعَلِّمُ الحِمْرَةَ"^(٢)، يراد أنها ليست بمنزلة الصغيرة التي لا تحسن
 أن تُحْتَمِرَ"^(٣).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزِقٍ﴾^(٤):
 "فجعلناهم أحاديث" أي عظة ومُعْتَبَرًا، "ومزقناهم كل ممزق" أي فرقناهم في كل وجه،
 ولذلك قالت العرب للقوم إذا أخذوا في وجوه مختلفة: "تفرقوا أيدي سبأ"^(٥)، وأيدي بمعنى:
 مذاهب وطرق"^(٦).

(١) سورة البقرة: ٦٨ .

(٢) يُضْرَبُ للعارف المحرب للأمر، قال أبو عبيد: "العوان هي امرأة ثيب، ويقول: فتلك قد عرفت كيف تختمر، لا تحتاج
 أن تُعَلِّمَ، وكذلك الرجل المسن المحرب". [انظر: الأمثال لأبي عبيد (ص ١٠٨)، جمهرة الأمثال (٣٨/٢)].

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٥٢-٥٣) .

(٤) سورة سبأ: ١٩ .

(٥) جاء في المعجم الوسيط (٤١١/١): "وفي المثل: تفرقوا أيدي سبأ، وأيدي سبأ، ضُربَ بهم المثل في التفرق لأنه لما
 غرق مكائهم وذهبت جثاتهم تبددوا في البلاد، فأخذت كل طائفة منهم طريقاً".

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٣٥٦)، وانظر للاستزادة (ص ١٦٨، ٢٢٦) .

المبحث الرابع

بيان الأساليب العربية

يلحظ القارئ لمصنفات ابن قتيبة مظهراً آخر من مظاهر اهتمامه بالجانب اللغوي في تفسيره يتمثل ببيان الأساليب العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، إذ يحرص في كثير من المواضع على إبرازها عند تفسيره الآيات ، وغالباً ما يكون لهذه الأساليب أثر في بيان المعنى وإيضاحه ، أو في إظهار جمال الكلام وبلاغته ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ

الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ ۗ ﴾^(١)؛ قال :

"فيه تأويلان :

أحدهما: أن تكون المخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره من الشُّكَّاك؛ لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم ، وهم قد يخاطبون الرجل بالشَّيء ويريدون غيره ، ولذلك يقول مُتَمَثِّلُهُمْ : "إياك أعني واسمعي يا جارة"^(٢).

ومثله قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۗ ﴾^(٣)، ومثل هذا قول الكُمَيْتِ^(٤) (ت ١٢٦ هـ) في مدح الرسول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) سورة يونس : ٩٤ .

(٢) يضرب لمن يتكلم بكلام لشخص ويريد به غيره . [انظر: الأمثال لأبي عبيد (ص ٦٥)، فصل المقال (ص ٧٦)، مجمع الأمثال (٤٩/١)] .

(٣) سورة الأحزاب : ١ .

(٤) الكميت بن زيد بن خنس الأسدي ، أبو المستهل ، شاعر الهاشميين ، متشيع لآل البيت ، كان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها ، قال أبو عبيدة : "لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت لكفاهم" ، توفي سنة ١٢٦ هـ .

[الشعر والشعراء (٥٨١/٢)] .

إلى السَّراجِ المنيرِ أَحْمَدَ ، لا
عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَوْ رَفَعَ النَّـ
وَقِيلَ: أَفْرَطْتَ، بَلْ قَصَدْتُ،
لَجَّ بِتَفْضِيلِكَ اللِّسَانُ، وَلَوْ
أَنْتَ المصطفى المحضُ المهذبُ في النَّسبِ
يَعْدِلُنِي رَغْبَةً وَلَا رَهْبًا
سَأَسُّ إِلَى الْعُيُونِ وَارْتَقَبُوا
وَلَوْ عَنَّفَنِي الْقَائِلُونَ أَوْ ثَلَبُوا
أَكْثَرَ فَيْكَ اللَّجَّاجُ وَاللَّجَبُ
سَبَّةٌ إِنْ نَصَّ قَوْمَكَ النَّسَبُ^(١)

فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد أهل البيت ، فَوَرَى عن ذكرهم به .
وليس يجوز أن يكون هذا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ليس أحدٌ من المسلمين
يسوءه مدحُ الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يُعَنَّفُ قائلاً عليه، ومن ذا يساوى به، ويفضِّلُ
عليه؟! حتى يكثرُ في مدحه الضَّجَّاجُ واللَّجَبُ^(٢)... ولكنه أراد أهل بيته^(٣).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(٤):
"خُوِّطَ به النبي صلى الله عليه وسلم وَحَدَّه على مذهب العرب في مخاطبة الواحد
خطاب الجمع"^(٥).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾^(٦):
"هو من استيفاء العدد ، واستيفاء الشيء إذا استقصيته كله ، يقال: توفيته واستوفيته،
كما يقال: تَيَقَّنْتَ الخبر واستيقنته ، ... وهذا هو الأصل ، ثم قيل للموت : وفاة وتوفٍّ ،
والعرب تسمي الدمَ نفساً لاتصال النفس به على مذهبهم في تسمية الشيء بما اتصل به أو
جاوره أو كان سبباً له"^(٧).

(١) الأبيات له في الهاشميات (١٩٩/٤)، ونسبها له الجاحظ في الحيوان (١٧٠/٥)، وابن رشيقي القيرواني في العمدة في
محاسن الشعر (١٤٣/٢) .

(٢) اللُّجَبُ : الصوت والصياح والجلبة . [لسان العرب ، مادة "الجب" (٧٣٥/١)] .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٠-٢٧٢) .

(٤) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٢٩٧) .

(٦) سورة الزمر : ٤٢ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٤-٢٥) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّإِنْسَانٍ أَلْرَمْنَهُ طَبْرَهُ فِي عُنُقِهِ ۚ ﴾^(١)؛ قال :
 "والمعنى فيما أرى - والله أعلم - : أن لكل امرئ حظاً من الخير والشر قد قضاه الله
 عليه ، فهو لازم عنقه ، والعرب تقول لكل ما لزم الإنسان : قد لزم عنقه، وهو لازم صليفاً^(٢)
 عنقه ، وهذا لك عليّ ، وفي عنقي حتى أخرج منه ، وإنما قيل للحظ من الخير والشر : طائر؛
 لقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير ، وجرى له الطائر بكذا من الشر؛ على طريق
 الفأل والطيرة، وعلى مذهبهم في تسمية الشيء بما كان له سبباً ؛ فحاطبهم الله بما يستعملون ،
 وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر ، هو مُلْزِمُهُ أَعْنَاقَهُمْ"^(٣).
 ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۗ ﴾^(٤) :
 "أي ليس كهُو شيء ، والعرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول: مثلي لا يُقال له هذا؛
 أي أنا لا يُقال لي"^(٥).

(١) سورة الإسراء : ١٣ .

(٢) صليفاً عنقه ، أي : جانبه . [لسان العرب ، مادة "صلف" (١٩٦/٩)] .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٢) .

(٤) سورة الشورى : ١١ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٣٩١)، وانظر للاستزادة : (ص ٥١، ١١١، ٤٤٠)، تأويل مشكل القرآن (ص ١٣، ٧٦،

٢٩٣، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦)، المسائل والأجوبة (ص ٥٨، ١٤٠، ١٩١) .

المبحث الخامس

بيان الفروق اللغوية

يُعبرُ بالفروق اللغوية عن ظاهرة من ظواهر اللغة ، يراد بها تلك المعاني الدقيقة التي يلتبسها اللغويون بين الألفاظ المتقاربة المعاني والتي يُظنُّ ترادفها^(١) .

وقد كان للترادف والتأليف فيه أثر كبير في نشوء هذه الظاهرة ؛ إذ اهتم بعض اللغويين كقطرب (ت ٢٠٦هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٤هـ) ، وابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)^(٢) ، وعلي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤هـ)^(٣) ، بجمع الألفاظ المترادفة وتدوينها في فصول أو كتب كاملة اهتماماً بالغاً ، وكانت كل طبقة منهم تأخذ ما جمعه سابقته من المترادفات وتزيد عليها ، فأدّت مبالغة هؤلاء العلماء وغيرهم في الاعتداد بظاهرة الترادف إلى ظهور طائفة أخرى من العلماء ترفض ظاهرة الترادف في العربية ، وتقول بالفروق اللغوية ؛ منهم: ابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) ، وثعلب (ت ٢٩١هـ) ، وابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) ، وأبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) ، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، وأبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)^(٤) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)^(٥) .

(١) انظر : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني ، محمد ياس خضر الدوري (ص٧) .

(٢) أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه ، لغوي من كبار النحاة ، قرأ القرآن على ابن مجاهد ، والنحو والأدب على ابن دريد ونفطويه وابن الأنباري ، قال الداني عنه : "عالم بالعربية ، حافظ للغة ، بصير بالقراءة ، ثقة مشهور" ، له مصنفات ؛ منها : "مختصر في شواذ القرآن" ، و"إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز" ، و"ليس في كلام العرب" ، توفي بحلب سنة ٣٧٠هـ . [إنباه الرواة (١/٣٢٤) ، بغية الوعاة (١/٥٢٩) ، غاية النهاية (١/٢١٥)] .

(٣) أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبدالله الرماني ، كان إماماً في العربية ، علامة في الأدب ، مفسراً معتزلياً ، أخذ عن الزجاج وابن السراج وابن دريد ، له مصنفات كثيرة ؛ منها : "النكت في إعجاز القرآن" ، و"معاني الحروف" ، و"شرح سيبويه" ، توفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ . [تاريخ بغداد (١٣/٤٦٢) ، سير أعلام النبلاء (١٦/٥٣٣) ، بغية الوعاة (٢/١٨١)] .

(٤) انظر : الصاحبي في فقه اللغة (ص٥٩-٦٢) ، المزهر في علوم اللغة للسيوطي (١/٤٠٢-٤١٣) ، فصول في فقه العربية ، د. رمضان عبدالنواب (ص٣٠٩-٣٢٤) ، في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس (١٧٤-١٨٤) ، الفروق اللغوية وأثرها في القرآن الكريم ، د. محمد الشايح (ص٢٥-١١٣) ، فقه اللغة: مفهومه ، موضوعاته ، قضاياها ، محمد الحمد (ص١٩٧-٢٠٤) .

(٥) مقدمة في أصول التفسير (ص٦٩) .

ويعد ابن قتيبة من أرباب هذا الاتجاه ؛ إذ كان من أوائل الأئمة الذين أشاروا إلى قضية الفروق اللغوية ، بل كانت هذه القضية من الأسباب الرئيسة لتصنيفه "أدب الكاتب" ، ولذلك فقد صدر كتابه بباب "معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه" ، وفيه بيّن الفروق بين جملة من الألفاظ التي يستعملها الناس بمعنى واحد ، ومن ذلك : الفرق بين الظل والفيء ، وفيه يقول : "يذهب الناس إلى أنهما شيء واحد ، وليس كذلك ، لأن الظل يكون عُذْوَةً وَعَشِيَّةً ، ومن أول النهار إلى آخره ، ومعنى الظل : الستر ، والفيء لا يكون إلا بعد الزوال ، ولا يقال لما قبل الزوال فيء ، وإنما سُمِّي العشي فيئاً لأنه ظل فاء عن جانب إلى جانب ، أي : رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق ، والفيء هو الرجوع ، ومنه قول الله عزّ وجل : ﴿ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾^(١) ، أي : ترجع إلى أمر الله"^(٢) .

ومنه الفرق بين الحمد والشكر ، وفيه يقول :

"لا يفرق الناس بينهما ، فالحمد الثناء على الرجل بما فيه من حسن ، تقول : حمدت الرجل ؛ إذا أثنت عليه بكرم أو حسب أو شجاعة ، وأشباه ذلك ، والشكر له : الثناء عليه بمعروف أو لاك ، وقد يوضع الحمد موضع الشكر ، فيقال : حمدته على معرفته عندي ، كما يقال : شكرت له ، ولا يوضع الشكر موضع الحمد ، فيقال : شكرت له على شجاعته"^(٣) .

كما ذكر الفروق - في الباب نفسه - بين الفقير والمسكين ، والآل والسراب ، والخلف والكذب ، والخائن والسارق ، والبخيل واللئيم ، والمألوم والملميم ، والأعجمي والعجمي ، والأعرابي والعربي ، وغير ذلك^(٤) .

كما عالج قضية "الفروق اللغوية" في "أدب الكاتب" فخصّص فيه أبواباً عنونها بها "أبواب الفروق" تناول فيها الفروق في خلق الإنسان والحيوان وما يتصل بهما^(٥) ، ثم ختم هذه

(١) سورة الحجرات : ٩ .

(٢) أدب الكاتب (ص ١٩) .

(٣) المصدر السابق (ص ٢٣) .

(٤) انظر : المصدر السابق (ص ١٧-٢٥) .

(٥) انظر : المصدر السابق (ص ٧٥-١٠٧) .

الأبواب بباب "الأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى" ، وفيه بين الفروق الدقيقة بين هذه الكلمات المتقاربة ، ومن ذلك قوله :

"(النَّضْح) أكثر من (النَّضْح)، ولا يقال من النضخ فَعَلَتْ .
و(الحَزْم) من الأرض : أرفع من (الحَزْن) .
و(القَبْضُ) بجميع الكف ، و(القَبْصُ) بأطراف الأصابع .
و(الحِضْمُ) بالفم كلّه ، و(القِضْم) بأطراف الأسنان .
و(الرَّجْز) العذاب ، و(الرَّجْس) التَّنُّ"^(١).

وكانت هذه الظاهرة اللغوية بارزةً في تفسير الإمام ابن قتيبة ، فقد تطرق في كثير من المواضع إلى الفروق اللغوية بين الألفاظ التي تناولها في التفسير ، ومن الأمثلة على ذلك :

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ كَلَّمَا خَبَتِ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴾^(٢) :

"كلما خبت " أي سكنت ، يقال : خَبَتِ النار ، إذا سكن لهبها ، تَخَبَوْ ، فإن سكن اللهب ولم يطفأ الجمر قلت : خمدت تَخْمُدُ خُمُودًا ، فإن طفئت ولم يبق منها شيء قيل : هَمَدَت تَهْمِدُ هُمُودًا"^(٣).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾^(٤) ؛ قال :

"السَّنة: النعاس من غير نوم ، قال ابن الرِّقَاع^(٥) (ت نحو ٩٥هـ) :

وَسَنَانٌ أَفْصَدُهُ النِّعَاسُ فَرَنْقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ^(٦)

(١) المصدر السابق (ص ١٠١-١٠٢) .

(٢) سورة الإسراء : ٩٧ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٢٦١) .

(٤) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٥) عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرِّقَاع ، شاعر كبير من أهل دمشق ، لقبه ابن دريد في الاشتقاق (ص ٣٧٥) بـ "شاعر أهل الشام" ، كان معاصراً لجرير ، مهاجياً له ، مُقَدِّماً عند بني أمية ، خاصاً بالوليد بن عبد الملك ، توفي نحو سنة ٩٥هـ . [الشعر والشعراء (٢/٦١٨)] .

(٦) البيت في ديوانه (ص ١٢٢) ، ومنسوب له في الشعر والشعراء (٢/٦٢٠) ، واللسان (١٠/١٢٦) (١٣/٤٤٩) ، وفيه : الوسان : النعاس ، أَفْصَدُهُ : أي بلغ منه وجهه ، ورَنْقَتْ : دارت وماجت ، ورَنْقَ النوم في عينه : خالطها .

فأعلمك أنه وسنان ؛ أي : ناعس ، وهو غير نائم ، وفَرَّقَ اللهُ سبحانه بين السُّنَّة والنوم يدللك على ذلك" (١).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً ﴾ (٢) :

"السَّرَاب : ما رأيتَه من الشمس كالماء نصف النهار ، والآل : ما رأيتَه في أول النهار وآخره" (٣).

كما عرض الإمام ابن قتيبة في تفسيره للفروق الدلالية التي كانت الحركة سبباً في تباينها ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ (٤) ؛ قال :

"الكَرْه ههنا بمعنى الإكراه والقهر ، فأما الكَرْه - بالضم - فبمعنى المشقة ، يقول الناس : لتفعلن ذلك طَوْعاً أو كَرْهًا ، أي طائِعاً أو مُكْرَهًا ، ولا يقال : طَوْعاً ، أو كَرْهًا بالضم" (٥).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٦) :

"يقال : بَعَدَ يَبْعُدُ ؛ إذا كان بُعْدُ هلكة ، وَبُعْدَ يَبْعُدُ : إذا نَأَى" (٧).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (٨) ؛ يقول :

"مقرنين ، أي مطيقين ، يقال : أنا مُقْرِنٌ لكَ ، أي مطيق لك ، ويقال : هو من قولهم : أنا قِرْنٌ لفلان ؛ إذا كنت مثله في الشدة ، وإن فتحت فقلت : أنا قَرْنٌ لفلان ؛ أردت : أنا مثله في السن" (٩).

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٩٣) .

(٢) سورة النور : ٣٩ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٣٠٥) ، وانظر : أدب الكاتب (ص ٢٠) .

(٤) سورة النساء : ١٩ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ١٢٢) .

(٦) سورة هود : ٩٥ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠٩) .

(٨) سورة الزخرف : ١٣ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٣٩٥) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾^(١)؛ قال :

"الغُرور: الشيطان ، والغُرور - بضم الغين - : الباطل"^(٢).

ويقول في الفرق بين الهون والهون :

"الهون بفتح الهاء : الرفق ، قال الله عز وجل : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾^(٣)، فإذا ضممت الهاء - الهون - فهو الهوان ، قال تعالى : ﴿ عَذَابَ الْهَوْنِ

﴿^(٤)﴾^(٥).

كما عرض ابن قتيبة في تفسيره للفرق الدلالية لبعض الأفعال لاختلاف الصيغ فيها ،

ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾^(٦)؛ قال :

"القاسطون : الجائرون ، يقال : قَسَطَ ، إذا جار ، وأَقْسَطَ : إذا عدَلَ"^(٧).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾^(٨) :

"عائلاً: فقيراً، والعائل: الفقير كان له عيالٌ أو لم يكن ، يقال: عال الرجلُ ؛ إذا افتقر،

وأعال: إذا كثر عياله"^(٩).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾^(١٠)؛ قال :

(١) سورة لقمان : ٣٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٤٥) .

(٣) سورة الفرقان : ٦٣ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٥) غريب الحديث (٢١٣/١) .

(٦) سورة الجن : ١٤ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٤٩٠) .

(٨) سورة الضحى : ٨ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٥٣١) .

(١٠) سورة عبس : ٢١ .

"أي جعله ممن يُقبر ، ولم يجعله ممن يُلقى بوجه الأرض كما تلقى البهائم، يُقال: قُبرْتُ الرجل ؛ أي دفنته ، وأقبرته: جعلتُ له قبراً يُدفن فيه"^(١).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾^(٢):

"يقال: خَطِئَ الرجلُ يَخْطِئُ خِطْئاً إِذَا تَعَمَّدَ الذَّنْبَ فَهُوَ خَاطِئٌ ، وَالْخَطِيئَةُ مِنْهُ ، وَأَخْطَأَ يَخْطِئُ إِذَا غَلَطَ وَلَمْ يَتَعَمَّدَ ، وَالْأَسْمُ مِنْهُ الْخِطْأُ"^(٣).

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٥١٤) .

(٢) سورة يوسف : ٢٩ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٢١٥) .

المبحث السادس بيان الأضداد في اللغة

الأضداد في اللغة :

قال أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) : "الأضداد جمع ضدّ، وضدّ الشيء ما نفاه، نحو البياض والسواد ، والسخاء والبخل ... ، وليس كل ما خالف الشيء ضدّاً له ، ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان وليسا ضدّين"^(١).

وأما في الاصطلاح :

فقد عرّفه ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) بأنه: "الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة ، فيكون الحرفُ منها مؤدياً عن معنيين مختلفين"^(٢).

ويقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) - مبيناً أن هذا من سنن العرب في كلامها - :

"ومن سنن العرب في الأسماء أن يُسْمُوا المتضادين باسم واحد ، نحو: الجَوْنُ للأسود، والجَوْنُ للأبيض"^(٣).

ويبدو أن ابن فارس قد أفاد هذا من الإمام ابن قتيبة - كما أفاد منه في كثير من مباحثه اللغوية في الصحاحي في فقه اللغة ، دون إشارة إليه - الذي تحدث في كتابه "تأويل مشكل القرآن" عن سنن العرب في الكلام ، فذكر منها :

"ومن ذلك أن يسمى المتضادان باسم واحد ، والأصل واحد"^(٤).

وتعد الأضداد نوعاً من المشترك اللفظي الذي يقع على شيئين ضدّين ، والفرق بينها وبين المشترك ، هو أن المشترك أعم من الأضداد ، فالأضداد نوع منه ، فكلّ ضدّ مشترك، ولا عكس ، كما أن المشترك يدل على عدة معان ، ولا يلزم أن تكون متضادة ؛ كلفظ "العين" يطلق على معان عديدة ، ولا يلزم منها التضاد ، وأما الأضداد فتدل على معنيين ، ولا بد أن

(١) الأضداد في كلام العرب (ص ٣٣) .

(٢) الأضداد لابن الأنباري (ص ١) .

(٣) الصحاحي في فقه اللغة (ص ٦٠) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ١٨٦) .

يكونا متضادين ، كلفظ "البَيِّن" يطلق على الفرقة ، ويطلق على الوصل ، فهو بهذا الاعتبار من الأضداد ، لأنه يدل على معنيين متضادين^(١).

وقد جاء في كلام ابن قتيبة ما يشير إلى أن الأضداد نوع من المشترك اللفظي ، وذلك حين تحدث عن المشترك ، فذكر من أمثله بعض الألفاظ المتضادة ، وفيه بين أن المعنى المراد من هذه الألفاظ يحدده السياق أو التوقيف ، وفي ذلك يقول :

"وسألت هل تختلف العرب في الاسم الذي يحتمل معنيين ، فيظنُّ واحدٌ أحد المعنيين، ويظنُّ آخرُ المعنى الآخر؟".

وقد يقع هذا في جميع هذه الحروف ذوات الوجوه ، وإنما يُستدلُّ على معانيها بما يتقدم قبلها من الكلام ويتأخر ، وربما لم يُستدلَّ بذلك ، فيحتاج حينئذ إلى التوقف ، كـ"القرء" هو في كلام العرب الحيض ، وهو الطهر أيضاً ، .. ومثل القرء قوله عزَّ وجل: ﴿وَأَلِّلْ إِذَا عَسَّعَسَ﴾^(٢) ، يكون إذا قبل ، ويكون إذا أدبر ، والقرء والفرض لا يُعلم إلا توقيفاً ؛ لأن المخرجين مخرجٌ واحدٌ ما لم يُبين ذلك الرسولُ صلى الله عليه وسلم ، وفي القرآن أيضاً أشياء من الأمر والنهي تخرج مخرجاً واحداً وهي لا تستوي في المعاني ... ، وهذا شيء لا يُعلم إلا بتوقيف^(٣).

وقد اختلف أهل اللغة في ظاهرة التضاد في اللغة ، فمنهم من أنكرها ، كما روي عن ثعلب (ت ٢٩١هـ) أنه قال : "ليس في كلام العرب ضدّ ، لأنه لو كان فيه ضد لكان الكلام محالاً"^(٤) ، ومن المنكرين ابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) الذي ألف كتاباً في إبطال الأضداد ، كما جاء في "المزهر" للسيوطي (ت ٩١١هـ) حيث يقول: "قال ابن درستويه في شرح الفصيح : النوء : الارتفاع بمشقة وثقل ، ومنه قيل للكوكب : قد ناء؛ إذا طلّع ، وزعم قومٌ من اللغويين أن النوء السقوط أيضاً ، وأنه من الأضداد ، وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا إبطال الأضداد"^(٥).

(١) انظر : المزهر للسيوطي (٣٨٧/١) ، فقه اللغة ، محمد الحمد (ص١٨٧-١٨٨) .

(٢) سورة التكويد : ١٧ .

(٣) المسائل والأجوبة (ص٥٤-٥٥) .

(٤) نقله الجواليقي في شرح أدب الكاتب (ص٢٠٥) .

(٥) المزهر في علوم اللغة (٣٩٦/١) ، وانظر - للاستزادة - : الأضداد وموقف ابن درستويه منها ، د. عبدالله الجبوري ، بحث

ضمن مجلة المورد ، العدد (٧٣) ، السنة ١٩٧٣م ، (ص٤٢-٤٨) .

وأما جمهور أهل اللغة فيثبتون ظاهرة التضاد في اللغة ، ومنهم من أفرد هذه الظاهرة بالتصنيف ، فألف كتاباً في الأضداد ك: قطرب (ت ٢٠٦هـ)^(١) ، والأصمعي (ت ٢١٤هـ) ، وابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) ، وأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)^(٢) ، وابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)^(٣) ، وأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ)^(٤) ، والصاغاني (ت ٦٥٠هـ)^(٥) .

وإمامنا ابن قتيبة يعد من أركان هذا الفريق ، فقد توسع في حديثه عن الأضداد ، فأفرد لها باباً في كتاب "أدب الكاتب" بعنوان "باب تسمية المتضادين باسم واحد" ، ذكر فيه جملة من الأضداد واستشهد لها من القرآن الكريم ، ومن الشعر والنثر^(٦) .

كما أسهب في حديثه عن ظاهرة التضاد في "تأويل مشكل القرآن" ، ومنه قوله: "ومن ذلك أن يسمى المتضادان باسم واحد ، والأصل واحد . فيقال للصبح : صَرِيْمٌ ، وللليل : صَرِيْمٌ ، قال الله سبحانه : ﴿ فَاصْبَحْ كَالصَّرِيْمِ ﴾^(٨) ، أي سوداء كالليل ؛ لأن الليل ينصرم عن النهار ، والنهار ينصرم عن الليل .

وللظلمة : سُدْفَةٌ ، وللضوء : سُدْفَةٌ ، وأصل السُدْفة : السُّترة ، فكأن الظلام إذا أقبل سِتْرٌ للضوء ، والضوء إذا أقبل سِتْرٌ للظلام .

وللمستغيث : صارخ ، وللمغيث : صارخ ؛ لأن المستغيث يصرخ في استغاثته ، والمغيث يصرخ في إجابته .

(١) طبع الكتاب المستشرق هانز كوفلر في مجلة إسلاميكيا (المجلد الخامس) ، سنة ١٩٣١ م .

(٢) طبعت كتب الأضداد للأصمعي وابن السكيت وأبي حاتم السجستاني مجموعة ، بتحقيق المستشرق أوغست هفتر سنة ١٩١٣ م .

(٣) طبع بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم سنة ١٩٦٠ م .

(٤) طبع بتحقيق د.عزة حسن ، سنة ١٩٦٣ م .

(٥) الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي الصاغاني الحنفي ، كان فقيهاً محدثاً لغوياً نحويًا ، ولد في لاهور بالهند ، ورحل إلى بغداد واليمن ، له مصنفات كثيرة ، منها : "مشارك الأنوار" ، و"الأضداد" ، و"شرح صحيح البخاري" ، و"التكملة" لصحاح الجوهرية ، توفي ببغداد سنة ٦٥٠هـ . [النجوم الزاهرة (٢٦/٧)] .

(٦) طبعه المستشرق أوغست هفتر سنة ١٩١٣ م ، وجعله ذيلًا لمجموعة الكتب الثلاثة في الأضداد للأصمعي وابن السكيت وأبي حاتم السجستاني .

(٧) انظر : أدب الكاتب (ص ١٠٥-١٠٧) .

(٨) سورة القلم : ٢٠ .

ولليقين : ظنٌّ ، وللشك : ظنٌّ ؛ لأن في الظنَّ طرفاً من اليقين ، قال الله عزَّ وجل : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ ﴾^(١) ، أي يَستيقنون ، وكذلك : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْتَقٍ بِحَسَابِيهِ ﴾^(٢) ، ﴿ وَرَاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾^(٣) ، ﴿ إِن ظَنَّا أَن لَّنَا حُدُودٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾^(٤) ، هذا كله في معنى "اليقين" ^(٥).

كما اهتم الإمام ابن قتيبة بهذه الظاهرة في تفسيره "تفسير غريب القرآن" فبيّن جملة من الأضداد اللغوية عند تفسير الآيات ، ومن ذلك :

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾^(٦) : "أي باعوها، يقال: شريتُ الشيء ، وأنت تريد اشتريته وبعته ، وهو حرف من حروف الأضداد"^(٧).

ومثله قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾^(٨) :

"أي يبيعها ، يقال: شريتُ الشيء إذا بعته واشتريته ، وهو من الأضداد"^(٩).

ويقول في تفسير "القرء" في قوله تعالى : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾^(١٠) : "وهي : الحيض ، وهي : الأطهار أيضاً ، واحدا قرء، ويجمع على أقراء ، قال الأعشى (ت ٥٧) :

-
- (١) سورة البقرة : ٢٤٩ .
(٢) سورة الحاقة : ٢٠ .
(٣) سورة الكهف : ٥٣ .
(٤) سورة البقرة : ٢٣٠ .
(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ١٨٦-١٩٠) .
(٦) سورة البقرة : ١٠٢ .
(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٦٠) .
(٨) سورة البقرة : ٢٠٧ .
(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٨١) .
(١٠) سورة البقرة : ٢٢٨ .

وفي كلِّ عام أنت جاشِمْ عَزْوَةَ تَشُدُّ لَأَقْصَاها عَزَائِكَا
 مُورِّتَةً مَالاً وفي الحَيِّ رَفْعَةً لِمَا ضَاعَ فِيها من قُرُوءِ نِسَائِكَا^(١)
 فالقُروء في هذا البيت الأَطْهَار ؛ لأنه لما خرج للغزو ؛ لم يغش نساءه ، فأضاع قُرُوءَهُنَّ ؛
 أي أطْهَرَهُنَّ .

وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المستحاضة : "تقعد عن الصلاة أيام
 أقرئها"^(٢)؛ يريد أيام حيضها، قال الشاعر :
 يا رَبِّ ذِي ضِعْنِ عَلِيٍّ فَارِضٍ له قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الحَائِضِ^(٣)
 فالقُروء في هذا البيت : الحَيْضُ ، يريد: أن عداوته تهيج في أوقات معلومة ، كما تحيض
 المرأة لأوقات معلومة .

وإنما جُعِلَ الحَيْضُ قُرْأً والطهر قُرْأً : لأن أصل القرء في كلام العرب : الوقت ، يقال:
 رجع فلان لقرئه ، أي لوقته الذي كان يرجع فيه، ورجع لقرائه أيضاً، قال الهذليّ - مالك ابن
 الحارث -:

كِرِهْتُ العَقْرَ عَقْرَ بني شُلَيْلٍ إذا هَبَّتْ لِقَارِئِها الرِّيحُ^(٤)
 أي لوقتها فالحيض يأتي لوقت ، والطهر يأتي لوقت^(٥).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾^(١) :

(١) البيتان في ديوانه (ص ٩١)، ومنسوب له في الأضداد لابن الأنباري (ص ٣٠)، وفيه: "معناه من أطهار نساءك، أي
 ضيّعت أطهار النساء ، فلم تغشهن مؤثراً الغزو فأورثك ذاك المال والرفعة".

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة ، باب من قال تغتسل من طهر إلى طهر ح (٢٩٧) (ص ١٢٤٤)، والترمذي في الطهارة،
 باب ما جاء أن المستحاضة تتوضأ لكل صلاة ح (١٢٦) (ص ١٦٤٥)، وابن ماجه في الطهارة، باب ما جاء في
 المستحاضة إذا اختلط عليها الدم فلم تقف على أيام حيضها ، من حديث عدي بن ثابت عن أبيه عن جده دينار،
 وصححه الألباني [صحيح سنن أبي داود (٩٣/٢)].

(٣) البيت غير منسوب ، أنشده الجاحظ في الحيوان (٦٧/٦)، وابن سيده في المحكم والمحيط الأعظم (٤١٥/٥)، نقلاً عن
 ثعلب ، وابن منظور في اللسان (٢٠٢/٧) نقلاً عن ابن الأعرابي ، وأنشده ابن قتيبة في المعاني الكبير (٨٥٠/٢)؛
 وقال: "فارض: ضخم، وقروء: أي أوقات تهيج فيها عداوته، يقال: رجع فلان لقرئه أي لوقته".

(٤) البيت في ديوانه من ديوان الهذليين (٨١/٣)، وفي شرحه : "العقر: مكان ، وكِرِهَهُ لأنه قُوتِلَ فيه، وشُلَيْل: جدُّ جرير
 بن عبدالله البجلي" ، ونسبه له ابن قتيبة في المعاني الكبير (٨٥١/٢) .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٨٦) .

"أي أظهرها، يقال: أسررت الشيء: أخفيته، وأظهرته، وهو من الأضداد"^(٢).
ومن ذلك تفسيره لـ "وراء" بمعنى "أمام" في ثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾^(٥).

(١) سورة يونس: ٥٤ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٥٧) .

(٣) سورة إبراهيم: ١٦ ، وانظر تفسيرها في: تفسير غريب القرآن (ص ٢٣١) .

(٤) سورة الكهف: ٧٩ ، وانظر تفسيرها في: تفسير غريب القرآن (ص ٢٧٠) .

(٥) سورة الجاثية: ١٠ ، وانظر تفسيرها في: تفسير غريب القرآن (ص ٤٠٦) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٤٧ ، ٨٨ ،

٩٣ ، ١٩٣ ، ٢٦٩ ، ٤٠٦ ، ٤٩٠ ، ٥١٠) ، تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٠ ، ٤٦٩) ، غريب الحديث (١/٣٤ ، ٦٠ ،

٢٣٣) ، المسائل والأجوبة (ص ٢٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٥٥ ، ٢١٦ ، ٣٥٦) .

المبحث السابع بيان الوجوه والنظائر

الوجوه والنظائر لغةً :

الوجوه لغة: جمع وجه، ووجه كل شيء مستقبله، يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ):
"الواو والجيم والهاء : أصل واحد يدل على مقابلة لشيء ، والوجه مستقبل لكل شيء،
يقال : وجه الرجل وغيره ، وواجهتُ فلاناً ، جعلتُ وجهي تلقاء وجهه، والوجهة: كل موضع
استقبلته"^(١).

والنظائر لغة : جمع نظير ، وهو المماثل والشبيه ، يقول ابن فارس : "النون والطاء والراء
: أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد ، وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويتسع فيه
، ... وهذا نظير هذا ، من هذا القياس ، أي أنه إذا نُظِرَ إليه وإلى نظيره كانا سواءً"^(٢).

وهذا المعنى اللغوي للوجوه والنظائر متحقق في المعنى الاصطلاحي - كما سيأتي - .
الوجوه والنظائر اصطلاحاً :

جاء في كلام الإمام ابن قتيبة ما يُشير إلى المراد بالوجوه والنظائر ، حين عنون للألفاظ
التي جمعها في هذا الباب بـ "اللفظ الواحد للمعاني المختلفة"^(٣).

وهذا المعنى الذي ذكره ابن قتيبة للوجوه نجد بيانه وتفصيله في أول تعريف للوجوه
والنظائر ، وهو تعريف ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، حيث يقول: "أن تكون الكلمة الواحدة،
ذُكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد ، وحركة واحدة ، وأريد بكل مكان معنى غير
الآخر ، فلفظ كل كلمة ذُكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر ،
وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الآخر هو الوجوه"^(٤).

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة "وجه" (١٨٨/٦) .

(٢) المصدر السابق ، مادة "نظر" (٤٤٤/٥) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٣٩) .

(٤) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص ٨٣) .

ونظراً لأهمية علم الوجوه والنظائر فقد اعتنى به العلماء عناية خاصة فأفرده بعضهم بالتصنيف ، كمقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) ، وهارون بن موسى الأعور (ت تقريباً ١٧٠هـ)^(١) ، ويحيى بن سلام البصري (ت ٢٠٠هـ)^(٢) ، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، والسيوطي (ت ٩١١هـ) .

كما خصّص بعض العلماء الحديث عن الوجوه والنظائر في فصول وأبواب من مصنفاتهم ، وعلى رأس هؤلاء الإمام ابن قتيبة ؛ فقد أسهم إسهاماً كبيراً في علم الوجوه والنظائر حين توسع في الحديث عنه وعقد له باباً في "تأويل مشكل القرآن" ، عنون له بـ"باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة" تناول فيه الوجوه والنظائر لأربعة وأربعين لفظاً في القرآن الكريم وهي : [القضاء ، الهدى ، الأمة ، العهد ، الإل ، القنوت ، الدين ، المولى ، الضلال ، الإمام ، الصلاة ، الكتاب ، السبب والحبل ، الظلم ، البلاء ، الرجز والرجس ، الفتنة ، الفرض ، الخيانة ، الإسلام ، الإيمان ، الضر ، الحرج ، الروح ، الوحي ، الفرج ، الفتح ، الكريم ، المثل ، الضرب ، الزوج ، الرؤية ، النسيان ، الصاعقة والصعق ، الأخذ ، السلطان ، البأس والبأساء ، الخلق ، الرجم ، السعي ، المحصنات ، المتاع ، الحساب ، الأمر]^(٣) .

أما التميز والأسبقية للإمام ابن قتيبة في هذا الباب فتتمثل في محاولته إرجاع الوجوه المختلفة للفظ الواحد إلى أصل واحد نشأت منه وتفرعت عنه ، ولهذا تجده في نهاية الوجوه يقول: "وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد" ، أو "وهذا كله وإن اختلف فأصله واحد" ، أو

(١) هارون بن موسى الأزدي العتكي مولاهم ، أبو عبدالله ، ويقال: أبو موسى النحوي البصري الأعور، كان يهودياً فأسلم وقرأ القرآن ، وحفظ النحو وحدّث ، روى عن أبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وثابت البناني، وعنه شعبة وحماد بن زيد ووكيع ، قال شعبة : "هارون النحوي من أصحاب القرآن" ، وقال ابن معين: "هارون صاحب قراءة ثقة" ، توفي نحو سنة ١٧٠هـ . [تاريخ بغداد (٥/١٦) ، إنباه الرواة (٣/٣٦١) ، تهذيب التهذيب (٤/٢٥٨) ، الأعلام (٦٣/٨)] .

(٢) يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي البصري ثم الإفريقي ، مفسر فقيه عالم بالحديث واللغة ، قال ابن الجوزي : "سكن إفريقية دهرًا وأسمع الناس بما كتبه في تفسير القرآن وليس لأحد من المتقدمين مثله ، وكان ثقة ثبتاً ذا علم بالكتاب والسنة ومعرفة اللغة والعربية صاحب سنة" ، وقال ابن حجر: "ضعفه الدارقطني وذكره ابن حبان في الثقات وقال: "ربما أخطأ" ، له مصنفات ؛ منها: "تفسير القرآن" و"الجامع" ، توفي بمصر بعد رجوعه من الحج سنة ٢٠٠هـ . [لسان الميزان (٤٤٧/٨) ، غاية النهاية (٢/٣٢٥)] .

(٣) انظر : تأويل مشكل القرآن (ص٤٣٩-٥١٥) .

"وبعض هذا قريب من بعض" ونحو هذا، ولا أعرف أحداً من المصنفين سبقه إلى فعل ذلك ،
ومن الأمثلة على هذا :

قوله في تفسير لفظ "الأمة" :

"أصل الأمة : الصنف من الناس والجماعة ، كقوله عز وجل : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(١) ، وكقوله عز وجل : ﴿ إِلَّا أُمَّمَ امْتَلَأْتُمُ ﴾^(٢) ، أي : أصناف ، وكل صنف من الدواب الدواب والطيور مثل بني آدم في المعرفة بالله ، وطلب الغذاء ، وتوقّي المهالك ، والتماس الذرء ، مع أشباه لهذا كثيرة .

ثم تصير الأمة : الحين ، كقوله عز وجل : ﴿ وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾^(٣) ، وكقوله : ﴿ وَلَئِن آخَرْنَا آخَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾^(٤) ، أي : سنين معدودة ، كأن الأمة من الناس القرن ينقرضون في حين فتقام "الأمة" مقام "الحين" .

ثم تصير الأمة : الإمام والرّباني ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾^(٥) ، أي : إماماً يقتدي به الناس ؛ لأنه ومن اتبعه أمة ، فسُمّي أمة لأنه سبب الاجتماع .

وقد يجوز أن يكون سُمّي أمة : لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة ، ومن هذا يقال : فلان أمة وحده ، أي : هو يقوم مقام أمة .

وقد تكون الأمة : جماعة العلماء ، كقوله : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾^(٦) ، أي : يُعلّمون .

(١) سورة البقرة : ٢١٣ .

(٢) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٣) سورة يوسف : ٤٥ .

(٤) سورة هود : ٨ .

(٥) سورة النحل : ١٢٠ .

(٦) سورة آل عمران : ١٠٤ .

والأمة : الدين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾^(١) ، أي : على دين ، قال النابغة - الذبياني - :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَهَلْ يَأْتُمُنْ ذُو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعٌ؟^(٢)
أي : ذو دين .

والأصل أنه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد : أمة ، فتقام الأمة مقام الدين ، ولهذا قيل للمسلمين : أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم على أمر واحد ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(٣) ، مجتمعة على دين وشريعة ، وقال الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(٤) ، أي : مجتمعة على الإسلام"^(٥) .
ويقول في بيان الوجوه للفظ "الفرح" :

"الفرح : المسرة ، قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِيَمِّ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾^(٦) ، أي سُرُوا .

والفرح : الرضا ؛ لأنه عن المسرة يكون ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾^(٧) ، أي راضون ، وقال : ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾^(٨) ، أي رضوا .
والفرح : البطر والأشر ؛ لأن ذلك عن إفراط السرور ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾^(٩) ، وقال : ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾^(١٠) ، وقال : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

(١) سورة الزخرف : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) البيت في ديوانه (ص ٧٧) .

(٣) سورة المؤمنون : ٥٢ .

(٤) سورة النحل : ٩٣ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٤٥-٤٤٦) .

(٦) سورة يونس : ٢٢ .

(٧) سورة المؤمنون : ٥٣ .

(٨) سورة غافر : ٨٣ .

(٩) سورة القصص : ٧٦ .

(١٠) سورة هود : ١٠ .

تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ .

وقد تبدل "الحاء" في هذا المعنى "هاء" فيقال: فِرَةٌ أي بَطْرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ ^(٢)، أي: أَشْرِينَ بَطْرِينَ، و"الهاء" تبدل من "الحاء" لقرب مخرجيهما، تقول: "مدحته"، و"مدهته"، بمعنى واحد ^(٣).
ويقول في لفظ "الفتح":

"الفتح: أن يُفْتَحَ المغلق، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ^(٤).

والفتح: النَّصْر، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ ^(٥)، وقوله: ﴿فَعَسَىٰ

اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ ^(٦)؛ لأن النصر يفتح الله به أمراً مغلقاً .

والفتح: القضاء؛ لأن القضاء فصل للأمر، وفتح لما أشكل منها، قال الله جلَّ ذكره:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٧) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِيْمَانَهُمْ ^(٧)، يعني يوم القيامة؛ لأنه يقضي الله فيه بين عباده .

ويقال: أراد فتح مكة لا يفتح الذين كفروا إيمانهم من خوف السيف، فلم يفتحهم ذلك

وقتلهم خالد بن الوليد (ت ٢١ هـ) رضي الله عنه.

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ ^(٨)، أي: يقضي، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

الْفَاتِحِينَ﴾ ^(٩)، أي خير القضاة .

وقال "أعرابي" لآخر ينازعه: بيني وبينك الفتح، يعني الحاكم ^(١٠).

(١) سورة غافر: ٧٥ .

(٢) سورة الشعراء: ١٤٩ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٩١) .

(٤) سورة الزمر: ٧٣ .

(٥) سورة النساء: ١٤١ .

(٦) سورة المائدة: ٥٢ .

(٧) سورة السجدة: ٢٨-٢٩ .

(٨) سورة سبأ: ٢٦ .

(٩) سورة الأعراف: ٨٩ .

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٩٢) .

الفصل الثالث

اهتمام ابن قتيبة بالجانب البلاغي

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

- . المبحث الأول: اهتمامه بعلم البيان .
- . المبحث الثاني: اهتمامه بعلم البديع .
- . المبحث الثالث : اهتمامه بعلم المعاني .

التمهيد

علم البلاغة فيه بيان للسان العرب وأساليهم ونظمهم ، وكتاب الله تعالى نزل بهذا اللسان العربي، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(١)، ولهذا يُعدُّ يُعد علم البلاغة من العلوم التي يحتاج إليها المفسر ، إذ به يستطيع استخراج درر القرآن البلاغية ، ومعانيه العظيمة ، ومن خلاله تبين وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وتصرفه في فنون الكلام وأساليبه ، وقد تضافرت أقوال أهل العلم في بيان أهمية البلاغة وأثرها في تفسير القرآن، قال أبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) :

"إن أحق العلوم بالتعلم ، وأولها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشاد ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة وجلّله من رونق التلاوة ، مع سهولة كلمة وجزالتها ، وعدوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيّرت العقول فيها"^(٢).

ويقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) مبيناً أهمية علمي المعاني والبيان من علوم البلاغة في تفسير القرآن :

"إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح ، وأنقضها بما يبهر الأبواب القوارح ، من غرائب نكت يلفظ مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ، فالفقيه وإن بزَّ على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري (ت ١١٠هـ) أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه (ت ١٨٠هـ)، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك

(١) سورة يوسف : ٢ .

(٢) كتاب الصناعتين (ص ٢) .

الحقائق ؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقيح عنهما أزمته"^(١).

ونصّ الزركشي (ت ٧٩٤هـ) على أن علم البلاغة من أهم العلوم التي ينبغي أن يحيط بها المفسر ، وفي ذلك يقول :

"وهذا العلم أعظم أركان المفسر ، فإنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف النظم ، وأن يؤاخي بين الموارد ويعتمد ما سبق من الكلام حتى لا يتنافر وغير ذلك ... ، واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله ، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة"^(٢).

وقد أدرك الإمام ابن قتيبة أهمية علم البلاغة في التفسير ، ونصّ في كثير من المواضع على هذه الأهمية ، كما بيّن أن الجهل بها سبب لوقوع الخطأ والزلل في فهم القرآن الكريم، ولذلك جاء الإمام ابن قتيبة في مقدمة العلماء الذين عنوا بتأسيس قواعد البلاغة والبيان، وكتبه المختلفة شاهدة على هذا ، لا سيما كتابه "تأويل مشكل القرآن" الذي بناه في أغلب فصوله على علم البلاغة ، حتى عُدَّ الكتاب من أصول علم البلاغة ، وقد ظهرت عناية ابن قتيبة بالجانب البلاغي في هذا الكتاب من خلال الأمور التالية :

١ . نصّ في مقدمة الكتاب على أهمية معرفة لغة العرب والعلم بأساليبها وفنونها البلاغية ، وبيّن أن فهم القرآن وإدراك إعجازه متوقف على معرفة ذلك ، وفي هذا يقول :

"وإنما يعرف فضل القرآن" من كثرة نظره، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنائها في الأساليب ، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات ؛ فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان ، واتساع المجال ، ما أوتيته العرب خصيصاً من الله ، لما أرهصه في الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نُبوته بالكتاب ، فجعله عَلمَه ، كما جعل عَلمَ كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه .

(١) الكشاف (٩٦/١) بتصرف يسير ، وقد نقله أبو حيان في مقدمة تفسيره (١١١/١) في معرض بيانه لأهمية البلاغة في تفسير القرآن .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣١١/١-٣١٢) .

فكان "لموسى" فلقُّ البحر ، واليد ، والعصا ، وتفجَّرُ الحجر في الثَّيِّه بالماء الرَّوَّاءِ^(١) ؛ إلى سائر أعلامه زمن السَّحَر ...

وكان "محمد" صلى الله عليه وسلم ، الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، لم يأتوا به ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؛ إلى سائر أعلامه زمن البيان^(٢).

٢ . ذكر في ذات المقدمة عدداً من الأساليب البلاغية ، عنون لها بـ"المجازات" ، وأوضح أن القرآن الكريم نزل بها ، وفي ذلك يقول :

"وللعرب "المجازات" في الكلام ، ومعناها : طرق القول ومآخذه ، ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكنائية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، ولفظ العموم لمعنى الخصوص .

وبكل هذه المذاهب نزل القرآن؛ ولذلك لا يقدر أحدٌ من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نُقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرُّومية، وتُرجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية ؛ لأن العجم لم تتسع في المجاز اتَّساع العرب^(٣).

ثم بيّن أن الجهل بهذه الأساليب والفنون البلاغية سبب رئيس للزيغ والضلال، وتأكيداً لهذا الأمر فقد صدر كتابه بتفصيل الحديث عن هذه الأساليب ضمن أبواب بلاغية مختلفة، ثم شرع بعد ذلك بمقصود الكتاب ، وهو دفع الإشكال وتأويله ، وكأنه يشير بهذا الصنيع إلى أن الجهل بالأساليب البلاغية مع الهوى والزيغ حمل الملاحظة والزنادقة على الطعن في كتاب الله تعالى، وادّعاء تناقضه واضطرابه نتيجة جهلهم بهذه الأساليب ، ولذلك قال :

"وقد بينتُ ما غمض من معناه لالتباسه بغيره ، واستتار المعاني المختلفة تحت لفظه، وتفسير المشكل الذي ادّعي على القرآن فسادُ النظم فيه ، وقدّمت قبل ذلك أبواب المجاز؛ إذ كان أكثر غلط المتأولين من جهته"^(٤).

(١) في اللسان (٣٤٥/١٤) مادة "روى" : "ماء رواء - ممدود مفتوح الراء - أي عذب" .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٢) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٠-٢١) .

(٤) المصدر السابق (ص ١٠٢) .

٣ . ظهرت عنايته البالغة بالجانب البلاغي من خلال توسعه في المباحث البلاغية المتنوعة في الكتاب ، والتي لم تكن معهودة قبله إلا ما كان في كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فبدأ بباب المجاز ، فبيّن مفهومه وشروطه وضوابطه ، ذاكراً الكثير من الأمثلة في هذا الباب، ثم عرض لصور قرآنية مما يدخل في المجاز المرسل والاستعارة ، ثم تحدث عن المقلوب، فذكر صوره وأنواعه ، ومثّل لذلك كلّ من القرآن الكريم، وخرج من ذلك إلى الحديث عن التقديم والتأخير وأمثله في كتاب الله ، ثم تحدث عن الحذف والاختصار وعدّد أنواعاً كثيرة تندرج تحت هذا الباب ، ثم توسع في الحديث عن تكرار الكلام ، والزيادة فيه ، فبدأ بتكرار الأنباء والقصص والحكمة منه ، ثم بتكرار الكلام من جنس واحد ، ثم بالإشباع والتوكيد وصوره وأمثله ، ثم عقد باباً للكناية والتعريض ، فتوسع في بيان أنواعه وصوره ، ثم أطال الحديث في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، فبدأ بأمثلة على المشاكلة ، ثم ذكر صوراً لمخالفة ظاهر اللفظ معناه؛ فقال : "ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام ، وهو تقرير، أو تعجب، أو توبيخ ، ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد ، أو تأديب ، أو إباحة، ومنه عام يراد به خاص ، ومنه جميع يراد به واحد واثنان ، ومنه واحد يراد به جمع، وأن يوصف الجميع بصفة الواحد ، أو يوصف الواحد بصفة الجميع" ، وكان يقف عند كل صورة من هذه الصور ويمثّل لها من القرآن الكريم ، ثم ذكر صوراً من الجمع والتفريق ، ثم انتقل إلى الالتفات ، ثم أساليب الخطاب ، متمثلاً لذلك من الكتاب العزيز^(١).

٤ . بالإضافة إلى الأبواب المتقدمة التي عقدها خاصة لفنون البلاغة ، فإن بقية أبواب الكتاب لا تخلو من النكت البلاغية والإشارات البيانية التي تظهر عظيم عنايته بهذا الجانب. ومثل هذا يقال عن بقية مصنفاته ، إذ حوت الكثير من الإشارات البلاغية والأفانين البيانية ، التي تظهر تمكن هذا الإمام الجليل من علوم البلاغة ، وتبرز جهوده في تقرير هذه العلوم وتطورها .

كما كان من جهوده في هذا الجانب البلاغي أنه أفرد كتاباً من كتب "عيون الأخبار" وسمه بـ "كتاب العلم والبيان" ؛ جمع فيه بعض الأقوال والأخبار والقصص والصور التي تندرج تحت علم البيان .

(١) انظر : المصدر السابق (ص ١٠٣-٢٩٨) .

وهذه الجهود العظيمة لها قيمة تاريخية كبيرة تتعلق بنشأة البلاغة وتطورها، إذ يُعْغَلُ الكثير من المؤرخين لنشأة البلاغة الدورَ الرائد الذي قام به الإمام ابن قتيبة ؛ فيُغفلون ذكره مع أنه أسهم في تكوين هذه العلوم وتطورها ، ولا أدل على ذلك مما صنعه في "تأويل مشكل القرآن" حين استخرج ما في القرآن من فنون بلاغية وجعله ضمن أبواب مفصلة، وهو الصنيع الذي لم يسبقه إليه أحد ، وكان أثره جلياً على من جاء بعده ممن صنّف في البلاغة فجرى على طريقته وتبويبه^(١).

وسيكون بيان جهود الإمام ابن قتيبة واهتماماته بالجانب البلاغي في هذا الفصل ضمن ثلاثة مباحث ؛ تتعلق بعلوم البلاغة الثلاثة ، وبالخصوص فيما يرتبط بدراساته القرآنية:

١ . علم البيان :

وهو العلم الذي يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه^(٢). وهو بهذا المفهوم الذي حدّه به علماء البلاغة يختلف عن علم المعاني الذي يبحث في بناء الجمل وتنسيق أجزائها تنسيقاً يطابق مقتضى حال الكلام ، كما يختلف عن علم البديع الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، وبهذا المفهوم صار علم البيان يتناول التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية^(٣).

٢ . علم البديع :

وهو العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ، وهو على نوعين : معنوي ولفظي ، فالبديع المعنوي ما كان التحسين فيه يرجع إلى المعنى كالمطابقة والمبالغة والتقسيم والتفريق ومراعاة النظر ، والبديع اللفظي ما كان التحسين فيه يرجع إلى اللفظ كالجناس والسجع وردّ العجز على الصدر^(٤).

(١) انظر : مقدمة تأويل مشكل القرآن ، السيد صقر (ص ٨٢-٨٣)، البحث البلاغي عند ابن قتيبة ، د.محمد الصامل (ص ٢٢٧)، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة ، د.محمد الصامل (ص ٢٥)، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن، د.محمد رفعت (ص ١٤٦).

(٢) انظر : مفتاح العلوم للسكاكي (ص ١٦٢)، التلخيص في علوم البلاغة للقرظيني (ص ٢٣٥) .

(٣) انظر : معجم المصطلحات البلاغية (١/٤٠٩)، علم البيان "دراسة تحليلية"، د.بسيوني عبدالفتاح فيود (ص ١٠).

(٤) انظر : مفتاح العلوم للسكاكي (ص ٤٢٣)، الإيضاح في علوم البلاغة للقرظيني (ص ٣٤٨)، المعجم المفصل في علوم البلاغة ، د.إنعام فوّال عكاوي (ص ٢٥٧)، علم البديع، د.محمود المراغي (ص ٩) .

٣ . علم المعاني :

هو العلم الذي يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال، والمراد بأحوال الألفاظ ما يشمل على أحوال الجملة بطرفيها من الفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة، وما يشمل أحوال طرفيها كالذكر والحذف والتقديم والتأخير، وما يشمل أحوال الإسناد كالتأكيد والقصر ، وقد خرج بهذا التعريف علم البديع ، لأنه يرجع إلى تلك المحسنات السابقة ، وكذا علم البيان لأن علم المعاني يتعلق بالأمر اللفظية من الذكر والحذف ونحوهما، وعلم البيان يتعلق بالأمر المعنوية من التشبيه والمجاز وغيرهما^(١).

(١) انظر : مفتاح العلوم (ص ١٦١)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص ١٥)، معجم المصطلحات البلاغية (٣/٢٧٦)،

البلاغة العالية: علم المعاني ، عبدالمعتل الصعيدي (ص ٣٨) .

المبحث الأول اهتمامه بعلم البيان

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التشبيه .

أولاً : تعريف التشبيه :

يعد التشبيه من المصطلحات الأولى التي عرفت بها البلاغة العربية وأقدم الإشارات إليه جاءت في "الكتاب" لسيبويه (ت ١٨٠هـ)^(١)، و"معاني القرآن" للفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٢)، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ)^(٣)، و"البيان والتبيين"^(٤)، و"الحيوان"^(٥) للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، و"الشعر والشعراء"^(٦)، لابن قتيبة ، وتعد هذه المصنفات اللبنة الأولى التي تركزت عليها دراسات البلاغيين حول التشبيه^(٧).

وكان المبرد (ت ٢٨٥هـ) من أوائل اللغويين الذين حاولوا وضع تعريف للتشبيه؛ فقال: "واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشياء تتشابه من وجوه، وتباين من وجوه، وإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع"^(٨).

ثم تطور هذا التعريف عند اللغويين ، وأصبح أكثر دلالة على المراد ، ومن ذلك تعريف أبي هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) :

"التشبيه : الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، ناب منابه أم

(١) انظر : (٢٨/٢) .

(٢) انظر : (١٥٥ ، ٦٩/٣) .

(٣) انظر : (٣٧٥ ، ٧٩ ، ٧٣/١) .

(٤) انظر : (ص ٢١ ، ٧٩) .

(٥) انظر : (١٥٣/١) ، (٥٣/٣) ، (٢٣٩ ، ٣٠٥/٤) .

(٦) انظر : (١٢٨/١) ، (١٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٨ ، ٢٨٤) .

(٧) انظر : حياة المبرد وجهوده العلمية والبلاغية ، هبية بن قو (ص ٤٠) .

(٨) الكامل في اللغة والأدب (٤١/٣) .

لم ينب ، ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة ، وإن شابه من وجه واحد^(١) .
ثم توالى التعريفات للتشبيه من عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)^(٢) ، والسكاكي (ت ٦٢٦هـ)^(٣) ، والقزويني (ت ٧٣٩هـ)^(٤) ، وغيرهم ، واتفقت على أن التشبيه: هو بيان بيان مشاركة أمر لآخر في معنى أو أكثر وإن اختلفا في أمور أخرى^(٥) .

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بالتشبيه .

أولى الإمام ابن قتيبة التشبيه أهمية كبيرة في مصنفاته ؛ فبالرغم من أنه لم يعقد باباً أو فصلاً للتشبيه كما فعل في الفنون البلاغية الأخرى ، إلا أن حديثه المتفرق في هذه المصنفات كان مادة خصبة للبلاغيين في موضوع التشبيه .

وقد نصّ الإمام ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" على منزلة التشبيه الرفيعة وجعله من مزايا الشعر الفاضل الذي يختار ويحفظ، وفي ذلك يقول:

"وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب ، منها : الإصابة في التشبيه ، كقول القائل في وصف القمر :

بَدَأَ نَبَاً وَابْنُ اللَّيَالِي كَأَنَّهُ حُسَامٌ جَلَّتْ عَنْهُ الْعُيُونُ صَقِيلٌ
فَمَا زِلْتُ أَفْنِي كُلَّ يَوْمٍ شَبَابَهُ إِلَى أَنْ أَتَتْكَ الْعَيْسُ وَهُوَ ضَيْلٌ^(٦)^(٧)

(١) كتاب الصناعتين (ص ١٨٠) .

(٢) أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني اللغوي النحوي البلاغي ، شافعي المذهب، أشعري المعتقد، له مصنفات كثيرة منها: "أسرار البلاغة" ، "ودلائل الإعجاز" ، توفي سنة ٤٧١هـ . [نزهة الألباء (ص ٢٦٤)، سير أعلام النبلاء (٤٠٤/٣٥)، فوات الوفيات (٣٧٨/١)] .

(٣) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي ، اللغوي البلاغي، قال السيوطي: "كان علامة بارعاً في فنون شتى خصوصاً المعاني والبيان، وله كتاب "مفتاح العلوم" فيه اثنا عشر علماً من علوم العربية"، مات بخوارزم سنة ٦٢٦هـ . [بغية الوعاة (٣٦٤/٢)، شذرات الذهب (٢١٥/٧)] .

(٤) أبو المعالي محمد بن عبدالرحمن بن عمر، جلال الدين القزويني الشافعي ، المعروف بـ "خطيب دمشق" ، فقيه أديب، لغوي، ولي القضاء في دمشق ومصر ، قال ابن كثير: "كانت له يد طولى في المعاني والبيان، ويُفتي كثيراً، وله مصنفات في المعاني، ومصنف مشهور اختصر فيه "مفتاح السكاكي" ، توفي سنة ٧٣٩هـ . [البداية والنهاية (٤١١/١٨)، بغية الوعاة (١٥٦/١)] .

(٥) انظر : أسرار البلاغة للجرجاني (ص ٩٠)، مفتاح العلوم للسكاكي (ص ٣٣٢)، الإيضاح للقزويني (ص ٢١٧)، معجم المصطلحات البلاغية (١٦٦/٢)، المعجم المفصل في علوم البلاغة (ص ٣٢٢) .

ض_____ئيل^(١)"(٢)

ولهذا كان "التشبيه" أكثر الفنون البلاغية وروداً في الكتاب ، وقد تفنن في صورته وأمثله ، ومن ذلك :

عندما تناول بيت امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهِا العُنَابُ والحَشْفُ البَالِي^(٣)
عده من التشبيهات الحسنة ؛ وقال : "شبهه شيعين بشيعين في بيت واحد، وأحسن التشبيه".

وذكر من صور التشبيه : تشبيه شيء بثلاثة أشياء ؛ وقال :

"وشبهه زهيراً امرأةً في الشعر بثلاثة أوصاف في بيت واحد، فقال :

تَنَازَعَتِ المَهَا شَبَهَا وَدُرُّ الب لَدورِ وشَاكَهَتْ فِيه الطُّبَاءُ
ثم قال ففسر :

فَأَمَّا مَا فَوْقَ العَقْدِ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءٍ مَرَّتَعُهَا الحَلَاءُ
وَأَمَّا المِثْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاةٍ وللدُّرِّ المَالَاخَةُ والصِّفَاءُ^(٤)"(٥)

والحديث عن التشبيه عند الإمام ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" أكثر من أن يحتويه مبحث أو فصل ، وليس هو المراد هاهنا ، وإنما الذي يهم في هذا المبحث التشبيهات القرآنية التي وقف عليها ، وظهر من خلالها ذائقته اللغوية والفنية الفائقة ، حيث كان يقف عند الآيات التي تنطوي على هذا اللون من البيان العربي ، ويستعمل - كغيره من العلماء - مصطلحات "التشبيه، والتمثيل، والمثل" - فهي عنده سواء^(٦) - للدلالة على صورة التشبيه في

(١) البيتان غير منسوبين في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (٤٨١/٢)، والعيس هي الإبل . [لسان العرب، مادة "عيس" (١٥٢/٦)] .

(٢) الشعر والشعراء (٨٤/١) .

(٣) البيت في ديوانه (ص ١٣٩) ، والعُنَاب هو ثمر الآراك ، وبه شُبِّهت قلوب الطير الرطبة ، والحشف البالي هو الرطب اليابس ، وبه شُبِّهت قلوب الطير اليابسة . [لسان العرب ، مادة "عنب" (٦٣٠/١) ، مادة "حشف" (٤٧/٩)] .

(٤) الأبيات في ديوانه (ص ١٠) ، أدماء : أي ظبية بيضاء . [لسان العرب ، مادة "أدم" (٨/١٢)] .

(٥) الشعر والشعراء (١٤٠/١) .

(٦) انظر : تفسير غريب القرآن (ص ٢٣١ ، ٢٤٨) ، تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٥) .

النص القرآني ، وكان الغالب في منهجه في هذه الآيات أن يوضح طرفيها: المشبَّه والمشبَّه به ، ويُحدِّد وجه الشبه فيها ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢٤) ﴿ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٥) ومثل كلمة خَيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٢٦) ؛ قال :

"شبهه كلمة الإيمان في نفعها وفضلها بالنخلة في علوها وثباتها وحملها ، وشبهه كلمة الشرك بحنظلة قطعت ؛ فلا أصل لها في الأرض ولا فرع لها في السماء ولا حمل" (٢).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَرْمِي بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴾ (٣) ؛ قال :

"وقع تشبيه الشَّرِّ بالقصر في مقاديره ، ثم شَبَّهَهُ في لونه بالجمالات الصُّفْر ، وهي السود ، والعرب تسمي السود من الإبل صُفْرًا ، وإنما سميت السود من الإبل صُفْرًا ؛ لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة ... ، والشَّرُّ إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السُّود ؛ لما يشوبها من الصفرة" (٤).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٥) :

"العرب تُشَبَّه النساءَ ببيض النعام ، قال امرؤ القيس :

كِبْكِرِ الْمُقَانَاةِ الْبِيَاضُ بِصُفْرَةٍ غَدَاها نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرَ مُحَلَّلِ (٦)

والمكنون : المصون ، يقال: كَنَنْت الشيءَ إذا صُنْتُهُ ، وَأَكْنَنْتُهُ : أَخْفَيْتُهُ" (٧).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴾ (١) :

(١) سورة إبراهيم : ٢٤-٢٦ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٣٢) .

(٣) سورة المرسلات : ٣٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٢٠-٣٢١) .

(٥) سورة الصفات : ٤٩ .

(٦) البيت في ديوانه (ص ٤١)، ومنسوب له في اللسان (٢٠١/١٥)، وفيه : "أراد كالبكر المقاناة البيضاء بصفرة، أي كالبليضة التي هي أول بيضة باضتها النعامة ، ثم قال: المقاناة ، أي التي تُؤني بياضها بصفرة، أي مُخلط بياضها بصفرة، فكانت صفراء بيضاء" .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٣٧١) .

"وإذا صار القمر في آخر منازل دَقَّ حتى يعود كالعرجون القديم؛ وهو العِدْق اليابس، والعرجون إذا يبس دَقَّ واستقوس حتى صار كالقوس انحناءً؛ فَشَبَّه القمر به ليلة ثمانية وعشرين"^(٢).

ومما يدلنا على براعة الإمام ابن قتيبة واكتمال صور التشبيه عنده، أنه لم يقتصر في بيانه على التشبيهات الواضحة المشتملة على أدوات التشبيه، بل جاوزه إلى بيان التشبيهات الحالية من أدوات التشبيه، ومن الأمثلة على ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِبَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا ۝١٦﴾^(٣)؛ قال:

"... فأعلمنا أن هناك أكواباً لها بياض الفضة وصفاء القوارير، وهذا على التشبيه، أراد قوارير كأنها من فضة، كما تقول: أتانا بشراب من نُور، أي كأنه نُور"^(٤).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٥﴾^(٥):

"ولم يردن بهذا القول أنه ليس من البشر على الحقيقة، وأنه من الملائكة على الحقيقة، وإنما قلنه على التشبيه، كما يقول القائل في رجل يصفه بالجمال: ما هو إلا الشمس، وما هو إلا القمر، وفي آخر يصفه بالشجاعة: ما هو إلا الأسد"^(٦).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝٧﴾^(٧)؛ فسره على وجهين، أحدهما: على التشبيه، فقال:

"الصديد: القيح والدم، أي: يسقى الصديد مكان الماء، كأنه قال: يجعل ماءً صديداً.

(١) سورة يس: ٣٩.

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣١٧).

(٣) سورة الإنسان: ١٥-١٦.

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٨٠).

(٥) سورة يوسف: ٣١.

(٦) تأويل مختلف الحديث (ص ٢١٥).

(٧) سورة إبراهيم: ١٦.

ويجوز أن يكون على التشبيه ، أي : يسقى ماءً كأنه صديد" (١).

وعند قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (٢) ، بين التشبيه بقوله :

"يريد أنها تُجمع وتُسَيَّر ، فهي لكثرتها كأنها جامدة واقفة في رأي العين ، وهي تسير سير السحاب .

وكل جيش غَصَّ الفضاء به لكثرتِه ويُعَدِّ ما بين أطرافه ، فَقَصَّرَ عنه البصر ، فكأنه في حساب الناظر واقف ، وهو يسير" (٣).

المطلب الثاني : الاستعارة .

أولاً : تعريف الاستعارة .

الاستعارة لون من ألوان علم البيان ، وهي باب من أبواب المجاز اللغوي عند أغلب البلاغيين ، وقد جرت عادة البلاغيين في التوبيخ على إيراد الاستعارة بعد التشبيه لما بينهما من صلة ؛ إذ إن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه إما المشبَّه أو المشبَّه به ، وبهذا يعرف الفرق بين الاستعارة والتشبيه ، فالتشبيه لا بد فيه من ذكر المشبه والمشبه به ، أما الاستعارة فلا بد فيها من حذف أحدهما (٤).

ويعد الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) أول من عرّف الاستعارة كفن بلاغي ، إذ يقول:

"الاستعارة : تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه" (٥).

ثم جاء إمامنا ابن قتيبة فعرّف الاستعارة تعريفاً يقترب به كثيراً إلى المعنى الاصطلاحي المتأخر ؛ فقال : "فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة ، إذا كان المسمّى بها بسبب من الأخرى أو مجاوراً لها ، أو مشاكلاً ، فيقولون للنبات : نوء ؛ لأنه يكون عن النوء عندهم ، ... ويقولون للمطر : سماء ؛ لأنه من السماء ينزل ، فيقال : ما زلنا نطأ السماء ، حتى أتيناكم

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٢٣١) .

(٢) سورة النمل : ٨٨ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٦)، وانظر - للاستزادة - : البحث البلاغي عند ابن قتيبة (ص ٢٠٠-٢١٠) .

(٤) انظر : أسرار البلاغة للجرجاني (ص ٢٢٣)، المعجم المفصل في علم البلاغة (ص ٩١) .

(٥) البيان والتبيين (١/١٥٣) .

، ... ويقولون : ضحكت الأرض : إذا أنبتت ؛ لأنها تُبدي عن حُسن النبات ، وتفتق عن الزهر ، كما يفتتر الضاحك عن الثغر ؛ ولذلك قيل لطلع النخل إذا انفتق عنه كافورُهُ : الضَّحْكُ ؛ لأنه يبدو منه للناظر كيباض الثغر ، ويقال : ضحكت الطَّلعة^(١).

وهذا التعريف أعم من المعنى الاصطلاحي المتأخر ؛ إذ يدخل فيه مجاز المرسل ، وذلك أن العلاقات الأربع التي ذكرها ابن قتيبة في التعريف ؛ وهي : السببية^(٢) ، والمسببية^(٣) ، والمجاورة^(٤) ، والمشاكلة^(٥) ، عدّ البلاغيون المتأخرون العلاقات الثلاث الأولى منها من علاقات المجاز المرسل ، فيما كانت علاقة المشاكلة هي العلاقة الخاصة بالاستعارة عندهم^(٦).

ومع أن هذا التعريف أعم من المعنى المتأخر للاستعارة - وله كامل العذر في ذلك ، فإن غالب التعريفات للعلوم والمصطلحات لم تنضج بعد في حينه - ؛ إلا أنه يعد مقارنة بتعريف الجاحظ أوضح وأدق وأبين للنوع وأكثر تحديداً ، وأدل على كشف العلاقة بين المعنى المنقول منه اللفظ والمنقول إليه ، بل يمكن القول : إن هذا التعريف كان من اللبنة الأساسية التي بنى عليها البلاغيون في تعريفهم الاستعارة ، وكانت تعاريفهم تلك وإن اختلفت في اللفظ والتعبير فإنها تتفق بشكل كبير في الدلالة على معنى الاستعارة ، ومن أدق تلك التعريفات ، تعريف السكاكي (ت ٦٢٦هـ) ، وفيه يقول:

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ١٣٥-١٣٦) .

(٢) السببية : هو أن يطلق لفظ السبب ، ويراد المُسَبَّب ، نحو : "رعينا الغيث" أي المطر، وهو لا يُرعى، وإنما يرعى النبات ، وهو المقصود ، والغيث سبب النبات .

(٣) المسببية : وهو أن يطلق لفظ المسبب ويراد السبب ، نحو : "أمطرت السماء نباتاً" ، والمراد المطر الذي هو سبب النبات .

(٤) المجاورة : تسمية الشيء بما جاوره ، ومن ذلك قول ابن قتيبة : "والعرب تسمي الدَّم نفساً لاتصال النفس به على مذهبهم في تسمية الشيء بما اتصل به أو جاوره" [تفسير غريب القرآن (ص ٢٥)] .

(٥) المشاكلة : تسمية الشيء بما مثله وشابهه، وينطبق على ما مثل به ابن قتيبة بقوله : "ضحكت الأرض: إذا أنبتت".

[تأويل مشكل القرآن (ص ١٣٥)] ، [انظر تعريف هذه العلاقات في : معجم المصطلحات البلاغية (٣/٢٠٨)،

المعجم المفصل في علوم البلاغة (ص ٦٤٠)] .

(٦) انظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة (ص ٢٤٥) .

"الاستعارة هي : أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مُدَّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به"^(١).

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بالاستعارة .

اعتنى الإمام ابن قتيبة بالاستعارة عناية فائقة ، وكانت دراسته للاستعارة تفوق بشكل كبير دراسة من سبقه ، ويدل على هذا التفوق الأولويات التي تُحسب له في هذا الباب ؛ ومنها :

١ . يعد الإمام ابن قتيبة أول من خصَّص باباً للاستعارة ؛ عرّف فيه الاستعارة وتوسع في الحديث عن صورها والتمثيل لها .

٢ . ويعد أول من عرّف الاستعارة تعريفاً اصطلاحياً دقيقاً ، والجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وإن سبقه بالتعريف إلا أن تعريفه أقرب للمعنى اللغوي منه إلى المعنى الاصطلاحي بخلاف تعريف ابن قتيبة فإنه انتقل به من المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي^(٢).

٣ . انفرد الإمام ابن قتيبة بذكره نوعاً جديداً من الاستعارة ، هو استعارة الحرف في الكلمة الواحدة ، وقاس ذلك على استعارة الكلمة في الكلام ، وفي ذلك يقول:

"وقلما تفعلُ العرب شيئاً في الكلام المتصل الكثير إلا فعلت مثله في الحرف الواحد المنقطع ، فكما يستعيرون الكلمة فيضعونها مكان الكلمة لتقارب ما بينهما ؛ أو لأن إحداهما سبب للأخرى ، كذلك يستعيرون الحرف في الكلمة مكان الحرف ، فيقولون : مَدَّهُتُهُ، بمعنى مدحته، لأن الحاء والهاء يخرجان جميعاً من مخرج واحد ، ويقولون للقبر : جَدْتُ، وجَدَفْتُ ، ويقولون : ثومٌ وفوم، ومغاثير ومغافير، لقرب مخرج الفاء من الثاء ، ... وفي أشباه لهذا كثيرة يدلون فيها الحرف من الحرف لتقارب ما بينهما"^(٣).

وهذا النوع الذي ذكره ابن قتيبة يعد من الاستعارة بالمعنى اللغوي لا المعنى الاصطلاحي المتأخر .

(١) مفتاح العلوم (ص ٣٦٩) .

(٢) انظر : مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين ، د. أحمد الصاوي (ص ٢٦) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠٢-٣٠٣) .

٤ . يعد الإمام ابن قتيبة مع الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) أول من أطلق الاستعارة على الأمثلة القرآنية ، ومن سبقهما لم يصرح بلفظ الاستعارة^(١)، وبالإضافة إلى هذه الأولوية فقد كان للإمام ابن قتيبة تميز ظاهر في الإكثار من هذه الأمثلة القرآنية ، وكان في الغالب يُبيِّن المستعار منه والمستعار له ، ومن ذلك :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾^(٢) :

"قوله عز وجل : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ أي كان كافرًا فهديناه وجعلنا له إيماناً يهتدي به سبل الخير والنجاة ، ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ، أي في الكفر ، فاستعار "الموت" مكان الكفر، و"الحياة" مكان الهداية، و"النور" مكان الإيمان"^(٣) .
وقوله :

"ومنه - أي الاستعارة - قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾^(٤) ، أي إثمك ، وأصل الوزر : ما حمله الإنسان على ظهره ، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾^(٥) ، أي أحمالاً من حُلِيِّهم ، فشبه الإثم بالحمل ، فجعل مكانه ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾^(٦) ، يريد آثامهم"^(٧) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا

(١) انظر : مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين (ص ٢٦-٢٧) ، البحث البلاغي عند ابن قتيبة (ص ٢٤٤-٢٥٧) .

(٢) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١٤٠) .

(٤) سورة الشرح : ٢ .

(٥) سورة طه : ٨٧ .

(٦) سورة العنكبوت : ١٣ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ١٤٠) .

يَصْنَعُونَ ﴿^(١)﴾؛ قال :

"أصل الذوق بالفم ، ثم قد يُستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار ، تقول في الكلام: ناظرٌ فلاناً ودُقُّ ما عنده ، أي تعرّف واختبر ، واركب الفرس ودُقّه ، قال الشماخ (ت ٢٢ هـ) في وصف قوس :

فَذَاقَ فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللَّيْنِ جَانِباً كَفَى وَهَذَا أَنْ تُعْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ^(٢)

يريد : أنه ذاق القوسَ بالنزَعِ فيها ليعلم أليّنة هي أم صلبة"^(٣).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوْاقٍ ﴾^(٤) :

"أي ما لها من تنظُرٍ وتمكثٍ إذا بدأت ، ولذلك سمّاها ساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة، وأصل الفواق أن تُحلب الناقة ثم تترك ساعة حتى يجتمع اللبن ثم تُحلب ، فما بين الحلبتين فواق ، فاستعير الفواق في موضع الانتظار"^(٥).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾^(٦)؛

قال:

"أي كلّ ذي مخلب من الطير ، وكل ذي حافر من الدواب ، كذلك قال المفسرون، وسمّي الحافر ظفراً على الاستعارة ، كما قال الآخر - وذكر ضعفاً طرقه - :

فَمَا رَقَدَ الْوَلَدَانُ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبَكْرِ يَمْرِيهِ بِسَاقٍ وَحَافِرٍ^(٧)

فجعل الحافر موضع القدم"^(٨).

(١) سورة النحل : ١١٢ .

(٢) البيت في ديوانه (ص ١٩٠) ، وأنشده ابن قتيبة في المعاني الكبير (١٠٤٢/٢) ، وقال: "كفى ذلك اللين منها" ، وإن أراد أن يعرق النبلَ فيها منعت ذاك ، أي فيها لين وشدة" .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١٥) .

(٤) سورة ص : ١٥ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ١٥٠) .

(٦) سورة الأنعام : ١٤٦ .

(٧) البيت غير منسوب في الصناعتين (ص ١٢١) ، وفي اللسان (٢٠٤/٤) ، وفيه: "الحافر: واحد حوافر الدابة، وقد استعاره الشاعر في القدم ، ومعنى يمرّيه: يستخرج ما عنده من الجزي" .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ١٥٣) .

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾^(١):
 "أي خطأ ونصيياً ، وأصل الذنوب : الدلو ، وكانوا يستقون الماء ، فيكون لها ذنوب
 ولهذا ذنوب، فاستعير في موضع النصيب، وقال الشاعر :
 إنا إذا نازعنا شريباً لنا ذنوبٌ وله ذنوبٌ"^(٢)
 وفي قوله تعالى : ﴿وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مِتْكَأً﴾^(٣)؛ قال :
 "أي طعاماً ، يقال: اتكأنا عند فلان ، أي طعمنا، وقال جميل (ت ٥٨٢هـ):
 فَظَلَّلْنَا بِنِعْمَةٍ وَأَتَكَّأْنَا وَشَرَبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلُوبِ^(٤)
 والأصل : أن من دعوته ليطعم أعددت له التكاة للمقام والطمأنينة، فسَمِيَ الطعام
 متكئاً على الاستعارة"^(٥).

المطلب الثالث : الكناية .

أولاً : تعريف الكناية .

الكناية مصطلح قديم ، فقد نقل الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) عن شريح الكندي (ت ٥٧٢هـ)،
 قوله: "الحدة كناية عن الجهل"^(٦).
 وقد تردد استعمالها والحديث عنها عند جمع من اللغويين كأبي عبيدة(ت ٢١٠هـ)^(٧)،
 والجاحظ وابن قتيبة والمبرد (ت ٢٨٥هـ)^(٨)، وابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)^(٩)، وأبي هلال

(١) سورة الذاريات : ٥٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٥٠)، وانظر: تفسير غريب القرآن (ص ٤٢٣) .

(٣) سورة يوسف : ٣١ .

(٤) البيت في ديوانه (ص ١٠٦) .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ١٨٠-١٨١)، وانظر - للاستزادة من الأمثلة - : (ص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١،
 ١٤٧، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٣، ٤١٧، ٥٠٢، ٥٠٨)، تفسير غريب القرآن
 (ص ٣٤٥، ٢٦٥، ٣٦٠، ٣٧٨، ٤٢٣) .

(٦) البيان والتبيين (١/٢٦٣) .

(٧) مجاز القرآن (١/٧٣، ١٢٨، ١٥٥، ٢١٢) .

(٨) الكامل في اللغة والأدب (٥/٢) .

(٩) البديع (ص ١١٥) .

العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)^(١)، وابن رشيق (ت ٤٦٣هـ)^(٢)، والقاسم المشترك عند هؤلاء أن الكناية عندهم لم تكن بالمعنى الاصطلاحي المتأخر، بل كانت مختلطة ومتداخلة مع غيرها من الفنون البلاغية، وظلت كذلك حتى مجيء عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، الذي قال في تعريفها:

"الكناية: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورذفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: "هو طويل النجاد"، يريدون طويل القامة، و"كثير رماد القدر"، يعنون كثير القرى، وفي المرأة "نؤوم الضحى"، والمراد أنها مترفة مخدومة، فقد أرادوا في هذا كله معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثرت القرى كثرت رماد القدر، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها، ردف ذلك أن تنام إلى الضحى"^(٣).

قلت: وهذه الأمثلة التي ذكرها الجرجاني تُظهر أثر الإمام ابن قتيبة في هذا الباب؛ إذ يبدو أن الجرجاني وغيره من البلاغيين أفادوا هذه الأمثلة من ابن قتيبة حين تحدّث عن الكناية وسمّاه إيماءً وإشارة وتشبيهاً، ثم مثل بهذه الأمثلة الخاصة بالكناية، ثم بأمثلة قرآنية صريحة في الكناية، وفي ذلك يقول:

"وكلام العرب إيماء وإشارة وتشبيه، يقولون: فلان طويل النجاد، والنجاد حمائل السيف، وهو لم يتقلد سيفاً قط، وإنما يريدون أنه طويل القامة، فيدلون بطول نجاده على طوله، لأن النجاد القصير لا يصلح على الرجل الطويل، ويقولون فلان عظيم الرماد، ولا رماد في بيته ولا على بابه، وإنما يريدون أنه كثير الضيافة، فناره وارية أبداً، وإذا كثر وقود النار كثرت الرماد، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(٤)، فدلنا بأكلهما الطعام

(١) كتاب الصناعتين (ص ٢٩٠).

(٢) العمدة في محاسن الشعر (١/٣٠٥).

(٣) دلائل الإعجاز (ص ٦٦).

(٤) سورة المائدة: ٧٥.

على معنى الحدث ، لأن من أكل طعاماً فلا بد له أن يحدث ، وقال الله تعالى حكاية عن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾^(١) ، فكنتي بمشيه في الأسواق عن الحوائج التي تعرض للناس فيدخلون لها الأسواق ، كأنهم أرادوا أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعثه الله تعالى أغناه عن الناس وعن الحوائج إليهم^(٢) .

وهو في هذا الموضوع وكذا في مواضع أخرى أشار إلى نوع جديد من أنواع الكناية، وهو الكناية المركبة ؛ أي الكناية بجملة عن معنى من المعاني^(٣) ، ومن أمثله - بالإضافة إلى ما سبق - قوله :

"قولهم : "جبلك على غاربك" ، والغارب مقدم السنام ، والأصل فيه أن يلقي جبل الناقة على غاربها وتترك تسرح وتذهب وتجيء حيث شاءت فكنتي بذلك عن الطلاق"^(٤) .

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بالكناية .

بالإضافة إلى إشارته إلى نوع جديد من الكناية ، وهو الكناية المركبة - كما سبق - فقد تجلت عناية الإمام ابن قتيبة بالكناية من خلال إفراده لها بباب خاص في "تأويل مشكل القرآن" توسع فيه بالحديث عنها وعن أنواعها والتمثيل لها^(٥) ، كما تحدث عنها في مواضع من كتبه الأخرى ، وكان ظاهراً في ذلك أنه يستعمل الكناية بمفهومها الواسع الذي يختلط بغيره من أنواع البيان كالاستعارة ، والمجاز .

يقول د. محمد الصامل - مبيناً جهود الإمام ابن قتيبة وإضافته في باب الكناية - :

"إن ابن قتيبة قد وضع مادة جيدة في الكناية بين يدي العلماء من بعده ، حيث قاموا بتنظيمها وتعريفها .

(١) سورة الفرقان : ٧ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١١١) .

(٣) انظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة (ص ٢٦٢) .

(٤) غريب الحديث (٨١/٢) .

(٥) انظر : تأويل مشكل القرآن (ص ٢٥٦-٢٧٤) .

وخلاصة الجديد الذي جاء به ابن قتيبة أنه أطلق الكناية على تراكيب يراد بها لازم معناها ؛ كطويل النجاد وكثير الرماد .

إضافة إلى أفراد الكناية بباب منفصل ، وقوله : إنها أنواع ، وقد سبقه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في اقتران لفظ التعريض بالكناية^(١)، إلا أن ابن قتيبة لم يكتف - كالجاحظ - بإطلاق عبارات دون التعليق عليها، بل قام بتفسير ما يقول مدعماً كلامه بالأمثلة^(٢).

كما ظهرت عناية ابن قتيبة بالكناية في مصنفه "تفسير غريب القرآن" إذ اهتم بهذا اللون البلاغي عند تفسيره الآيات الكريمة ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾^(٣)؛ قال :

"الغائط : الحدث ، وأصل الغائط : المطمئن من الأرض ، وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا غائطاً من الأرض ففعلوا ذلك فيه، فكثرت عن الحدث بالغائط"^(٤).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾^(٥) :

" ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ كناية ، وأصل الحرث : الزرع ، أي : هُنَّ للولد كالأرض للزرع"^(٦).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٧)؛ قال :

(١) انتقد ابن الأثير الكاتب في المثل السائر (٤٩/٣) من خلط بين الكناية والتعريض ، ولم يفرق بينهما ، ثم قال في التفريق بينهما: "والتعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم ، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي ، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي من جانبه ، واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتي على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة".

(٢) البحث البلاغي عند ابن قتيبة (ص ٢٦٥) .

(٣) سورة النساء : ٤٣ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ١٢٧) .

(٥) سورة البقرة : ٢٢٣ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٨٤) .

(٧) سورة فصلت : ٢٠ .

"وجلودهم : كناية عن الفروج"^(١).

وأعاد ما ذكره في "تأويل مختلف الحديث" عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ أَبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾^(٢)، إلا أنه نصّ على الكناية في هذا الموضع ؛ فقال :

"وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ ، هذا من الاختصار والكناية، وإنما نبّه بأكل الطعام على عاقبته وعلى ما يصير إليه وهو الحدث ؛ لأن من أكل الطعام فلا بد له أن يحدث"^(٣).

وبقي من الموضوعات البيانية : الجواز ، وسأرجئ الحديث عنه إلى مبحث "الحقيقة والجواز" في الفصل الثاني - من الباب الخامس - : "جهود ابن قتيبة في أصول التفسير"^(٤).

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٣٨٩) .

(٢) سورة المائدة : ٧٥ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ١٤٥) .

(٤) انظر : (ص ٩٠٤) من هذه الرسالة .

المبحث الثاني اهتمامه بعلم البديع

المطلب الأول : المشاكلة .

أولاً : تعريف المشاكلة .

المشاكلة من المحسنات المعنوية ، وهي في اصطلاح البلاغيين : "ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً"^(١)، وكانت أولى الإشارات لهذا اللون البلاغي عند الفراء (ت ٢٠٧هـ) وابن قتيبة دون أن يسمياه ، وسمّى المبرد (ت ٢٨٥هـ) هذا اللون "المزج"^(٢)، وأطلق عليه ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) "رد الأعجاز على الصدور"^(٣)، وكان أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) أول من أطلق عليه اسم "المشاكلة"^(٤)، ثم استقر هذا الإطلاق عند البلاغيين بعد ذلك .

والمشاكلة - بناءً على التعريف السابق - نوعان :

أحدهما: المشاكلة التحقيقية: وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً.

الثاني: المشاكلة التقديرية: وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تقديراً^(٥).

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بالمشاكلة .

تحدث الإمام ابن قتيبة عن المشاكلة في "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه" ، وعبر عنها بـ"الجزء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان"^(٦)، وهذا قريب جداً من التعريف الاصطلاحي للمشاكلة، ثم ساق الأمثلة على المشاكلة ، وكانت جميعها - في هذا الباب - تندرج تحت نوع المشاكلة التحقيقية ، ومن ذلك :

(١) انظر : مفتاح العلوم للسكاكي (ص٤٢٤)، التلخيص للقرظيني (ص٣٥٦)، المعجم المفصل في علوم البلاغة (ص٦٤٩).

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه (ص٥٧) .

(٣) البديع (ص٤٨) .

(٤) نصّ على هذه الأولوية د.أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية (٢٥٨/٣) .

(٥) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة (ص٣٦٠)، الإتيان في علوم القرآن (١٧٧١/٥) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص٢٧٧) .

قوله : "ومن ذلك الجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان ، ... نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۗ ﴾^(١) ، هي من المبتدئ سيئة ، ومن الله عز وجل جزاء ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ۗ ﴾^(٢) ، فالعدوان الأول : ظلم ، والثاني : جزاء ، والجزاء لا يكون ظلماً ، وإن كان لفظه كلفظ الأول"^(٣).

فالمثال الأول : في قوله : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۗ ﴾ ، سمى الثانية سيئة لأجل مشاكلة الأول باللفظ لا المعنى ، وهذه المشاكلة تحقيقية لوقوع اللفظ تحقيقاً .

والمثال الثاني : في قوله ﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ۗ ﴾ ، سمى رد العدوان عدواناً لأجل مشاكلة الأول باللفظ لا المعنى ، وهي - أيضاً - من المشاكلة التحقيقية لوقوع اللفظ تحقيقاً .

أما النوع الثاني : المشاكلة التقديرية ، فقد ذكر ابن قتيبة المثال الذي ذكره جُلُّ البلاغيين تحت هذا النوع ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۗ ﴾^(٤) ، وفيه يقول :

"يريد الختان ، فسماه صبغة ؛ لأن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في ماء ، ويقولون : هذا طهرة لهم كالختان للحنفاء ، فقال الله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ۗ ﴾ ، أي الزموا صبغة الله لا صبغة النصارى أولادهم ، وأراد بها ملة إبراهيم عليه السلام"^(٥).

فهذا اللفظ المشاكَلُ به غير موجود ، وإنما يفهم من السياق ، وقد لاحظ الإمام ابن قتيبة هذه المشاكلة التقديرية بين صبغة النصارى لأولادهم ليطهروهم بها ، وبين تطهير أولاد المسلمين بالختان ، وسمى ذلك "صبغة" للمشاكلة.

(١) سورة الشورى : ٤٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٤ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٧) .

(٤) سورة البقرة : ١٣٨ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٩٧) .

المطلب الثاني : المبالغة .

أولاً : تعريف المبالغة .

المبالغة من المحسنات المعنوية ، عرّفها أبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) في "الصناعتين" فقال: "المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه أدنى منازل وأقرب مراتبه"^(١).

وعرّفها القزويني (ت ٧٣٩هـ) بقوله : "أن يُدعى الوصف ببلوغه في الشدة والضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً ، لئلا يُظنُّ إنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف"^(٢).

وللمبالغة عند البلاغيين تسميات أخرى كـ"الإفراط" ، و"الغلو" ، و"الإيغال"^(٣).

ثانياً : اهتمام الإمام ابن قتيبة بالمبالغة .

لم يفرد الإمام ابن قتيبة للمبالغة باباً أو فصلاً كما فعل في غالب الفنون البلاغية، وإنما كان حديثه عنها في مواضع متفرقة من كتبه ، وقد كان لحديثه هذا أهمية بالغة عند البلاغيين؛ إذ يعد الإمام ابن قتيبة أول من أطلق على هذا اللون البلاغي تسمية "المبالغة" وكذا تسميته "الإفراط"^(٤)، وربما أسماه "الإسراف في القول".

أما إطلاق "المبالغة" فكان عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾

وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٥﴾ ، في قوله :

"تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عامّ النفع، كثير الصنائع : أظلمت الشمس له ، وكسَفَ القمر لفقده ، وبكته الريح والبرق والسماء والأرض .

(١) (ص٢٨٧) .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة (ص٣٧٦) .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية (٣/١٨٥)، المعجم المفصل في علوم البلاغة (ص٦٣٧)، علم البديع، د.محمود المراغي (ص٨٢) .

(٤) نصّ على هذه الأولوية الدكتور أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية (٣/١٨١) .

(٥) سورة الدخان : ٢٩ .

يريدون المبالغة في وصف المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمّت ، وليس ذلك بكذب؛ لأنهم جميعاً متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه.

وهكذا يفعلون في كل ما أرادوا أن يعظّموه ويستقصوا صفته ، وتبيّنهم في قولهم : أظلمت الشمس ، أي كادت تظلم ، وكسف القمر ، أي كاد يكسف ، ومعنى "كاد" همّ أن يفعل ولم يفعل^(١).

ثم يذكر جملة من الشواهد الشعرية على هذا اللون البلاغي ، ويُبيّن رأيه في هذه المبالغة؛ فيقول :

"وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار ، وما أرى ذلك إلا جائزاً حسناً على ما بيناه من مذاهبهم" ، ثم يبين سبب الجواز ، فيقول : "هذا كله على المبالغة في الوصف ، وينوون في جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد به"^(٢).

قال د. محمد الصامل معلقاً على هذا الموضوع :

"وهكذا يكون حديث ابن قتيبة عن المبالغة حديثاً ذا قيمة عالية ؛ لإيضاحه أنّ المبالغة في الوصف جائزة ، ولو كان ظاهرها الإفراط وتجاوز المقدار ، لتقديره لفظ "يكاد" وهذا مُقَرَّب لصحة المعنى ، وبذلك يُعدّ ابن قتيبة - فيما نعلم - أوّل من أشار إلى تقدير ما يُقَرَّب صحة المعنى ، وتبعه بعد ذلك البلاغيون"^(٣).

أما مصطلح "الإفراط" - وهو الذي ارتضاه ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) في بديعه^(٤) - فقد أطلقه ابن قتيبة على الأبيات الشعرية التي تشتمل على المبالغة الشديدة ، ومن ذلك :

عندما أورد قول النابغة - الذياني - :

يُقَدُّ السَّلُوقِيَّ المِضَاعَفَ نَسْجُهُ وَيُوقِدُنَ بالصَّفَاحِ نارَ الحُبَّاحِبِ^(٥)

قال - معلقاً - :

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ١٦٧-١٦٨) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٦٩-١٧٨) .

(٣) البحث البلاغي عند ابن قتيبة (ص ٢٧٣) .

(٤) البديع (ص ٥٨) .

(٥) البيت في ديوانه (ص ١٥) .

"الصفاح : الحجارة العراض ، يقول تقطع هذه السيوف الدروع وكل شيء حتى تصل إلى الحجارة فتوري فيها النار ، ونار الجباحب : ما توربه الحجاره ، وهذا من إفراط العرب ، كقول قيس بن الخطيم يصف الطعنة :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا^(١)^(٢)

وكان عَقَبَ على بيت ابن الخطيم هذا في موضع سابق ؛ فقال :
"ملكنت : شددت ، ... أراد أن البصر ينفذ فيها - أي الطعنة - وهذا من إفراط الشعر"^(٣).

وربما أطلق على المبالغة لفظ "الإسراف" ، وهذا في مواضع قليلة منها :
عندما أورد قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحٍ قَدْ أَيَّقَنَّ أَنْ قَبِيلَهُ إِذَا مَا التَّقَى الْجُمُعَانَ أَوَّلَ غَالِبٍ^(٤)

عَقَّبَ عليه ؛ فقال : "وهذا إسراف في القول"^(٥).

(١) البيت في ديوانه (ص ٤٦) .

(٢) المعاني الكبير (٢/١٠٨٠) .

(٣) المصدر السابق (٢/٩٧٨) .

(٤) البيتان في ديوانه (ص ١٤) .

(٥) المعاني الكبير (١/٢٨٣) .

المبحث الثالث

اهتمامه بعلم المعاني

المطلب الأول : الالتفات .

أولاً: تعريف الالتفات .

الالتفات : من الأساليب العربية العريقة ، المستعملة في شعر العرب ونثرها ، ومنه قول امرئ القيس :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِ دِ وَنَامَ الْخُلْيُيُّ، وَلَمْ تَرْفُ دِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ، الْأَزْمِ دِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأِ جَاءِنِي وَخُبْرُنُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ^(١)

قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ):

"وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات ... وتلك على عادة افتنائهم في الكلام ، وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، وقد تختص مواقعته بفوائد"^(٢).

وذكر ابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧هـ)^(٣) أن الالتفات يسمى "شجاعة العربية" وقال: وقال: "وإنما سُمِّيَ بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام ، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورّد ما لا يتورّده سواه ، وكذلك هذا الالتفات في الكلام ، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات"^(٤).

(١) الأبيات في ديوانه (ص ٨٧) .

(٢) الكشف (١١٩/١) .

(٣) أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري ، المعروف بـ "ابن الأثير الكاتب" ، وزير من العلماء الكتاب المترسلين ، تعلم بالموصل حيث نشأ أخواه المؤرخ "علي" والمحدث "المبارك" ، قال ابن خلكان : "ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبهه كتابه الذي سمّاه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" وهو في مجلدين جمع فيه فأوعب، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره" ، توفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ . [وفيات الأعيان (٣٨٩/٥) ، شذرات الذهب (٣٢٩/٧)] .

(٤) المثل السائر (١٦٨/٢) .

والالتفات كأسلوب بلاغي ذكره بعض اللغويين دون أن يسموه بهذا الاسم، منهم: الفراء (ت ٢٠٧هـ)^(١)، وأبو عبيدة (ت ٢١٠هـ)^(٢)، والأخفش (ت ٢١٥هـ)^(٣)، والإمام ابن قتيبة، والمبرد (ت ٢٨٥هـ)^(٤)، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ)^(٥).

ولعل أقدم إشارة لهذا المصطلح "الالتفات" جاءت عن الأصمعي (ت ٢١٤هـ)، فيما يرويّه عنه إسحاق الموصلي (ت ٢٣٥هـ)^(٦)، إذ يقول:

"قال الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير (ت ١١٠هـ)؟، قلت: وما هو؟ فأنشدني:

أَتَنْسَى إِذْ تُودِّعُنَا سُلَيْمَى بَعُودِ بِشَامَةٍ سُقِيَّ الْبِشَامِ^(٧)

ثم قال: أما تراه مقبلاً على شعره إذ التفت إلى البشام فدعا له"^(٨).

إلا أن استعمال الأصمعي هنا كان استعمالاً لغوياً، لم يُعبّر به عن حقيقة الالتفات بمعناه الاصطلاحي عند البلاغيين، وإنما عني به الأسلوب اللغوي الذي يدل على التحول من معنى إلى معنى آخر، إذ ينتقل الشاعر من توديع سلمى له إلى الدعاء للبشام، وهو عود الأراك.

ويعد ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) أول من عرّف الالتفات كفن بلاغي، وقال في تعريفه: "هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك"^(٩).

(١) معاني القرآن (٢١١/٣).

(٢) مجاز القرآن (٩/١، ١٨).

(٣) معاني القرآن للأخفش (٣٧١/١).

(٤) الكامل (٢٢/٣).

(٥) الصاحي في فقه اللغة (ص ١٦٣، ١٦٤).

(٦) أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي، كتب الحديث عن سفيان بن عيينة، وهشيم بن بشير، وأخذ الأدب عن الأصمعي وأبي عبيدة، قال البغدادي: "كان حسن المعرفة، حلو النادرة، مليح المحاضرة، جيد الشعر، مذكوراً بالسخاء، معظماً عند الخلفاء"، مات سنة ٢٣٥هـ. [تاريخ بغداد (٣٥٤/٧)، معجم الأدباء (٥٩٤/٢)].

(٧) البيت في ديوانه (ص ٤١٧).

(٨) العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق (٤٦/٢).

(٩) البديع (ص ٥٨).

ثم تعدد بعد ذلك التعريفات وتختلف المفاهيم حوله ما بين مضيّق وموسّع، فجمهور البلاغيين يقصره على الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث : الحكاية والخطاب والغيبة إلى الأخرى، كما هو ظاهر من تعريف ابن المعتز ، وأما الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، والسكاكي (ت ٦٢٦هـ) وابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، وغيرهم فيمتدون به ، ويجعلونه الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، أو حتى التعبير على نحو لم يكن حسب ما يقتضيه الظاهر^(١).

يقول ابن الأثير - وهو أكثر من توسع في الحديث عن الالتفات - في تعريفه: "وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة ، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر ، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماضٍ ، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلاً"^(٢).

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بالالتفات .

تحدث ابن قتيبة عن الالتفات من غير تصريح بلفظه ، وذكر ثلاثة من أنواعه ، أجمال الحديث عنها في "المسائل والأجوبة" حين تحدث عن أساليب العرب في ذلك ؛ فقال: "وإنما يجوز أن تُحوّل الخطاب للشاهد إلى الغائب ، وللغائب إلى الشاهد ، وتُخاطب شاهداً وأنت تريد شاهداً آخر"^(٣).

ثم فصلّ الحديث عن هذه الأنواع في "تأويل مشكل القرآن" ، فعقد باباً أسماه "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه" ، ذكر فيه جملة من الأساليب من ضمنها هذه الأنواع الثلاثة التي تدرج تحت المعنى الاصطلاحي للالتفات ؛ وتفصيلها كالاتي :

١ . الالتفات من الخطاب إلى الغيبة .

وفيه يقول ابن قتيبة :

"ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب ، كقوله عزّ

(١) انظر : الكشاف (١/١٢٠)، مفتاح العلوم (ص١٩٩)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص٧٥)، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي (ص٧٤)، معجم المصطلحات البلاغية (١/٢٩٤)، المعجم المفصل (ص٢٠٧) .

(٢) المثل السائر (١/١٦٧) .

(٣) (ص٢٢٦) .

وجل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ يَبْرِجُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا ﴾^(١)، وقوله: ﴿ وَمَا
 وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ
 وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾^(٢)، وقوله: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمْنَنَ وَزَيْنَهُ فِي
 فِي قُلُوبِكُمْ ﴾، ثم قال: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾^(٣)، وقال الشاعر:

يا دار مِيَّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ^{(٤)»(٥)}
 الْأَبْدِ^{(٤)»(٥)}

ففي هذه الآيات كان الانتقال من الخطاب في "كنتم" و"وما آتيتم" و"حب إليكم" إلى
 الغيبة في "وجرين بهم"، و"فأولئك هم المضعفون"، و"أولئك هم الراشدون". وفي الشاهد
 الشعري انتقل من الخطاب في "يا دار مية" إلى الغيبة في "أقوت وطال عليها".

٢. الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

وفيه يقول ابن قتيبة:

"وكذلك - أيضاً - تجعل خطاب الغائب للشاهد، كقول - أبي كبير - الهذلي:
 يا وَيْحَ نَفْسِي كَانَ جِدَّهُ خَالِدٍ وَبِياضُ وَجْهِكَ لِلتَّرَابِ الْأَعْفَرِ^{(٦)»(٧)}
 الْأَعْفَرِ^{(٦)»(٧)}

ففي هذا الشاهد كان الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، كما بينه ابن جرير الطبري (ت

٣١٠هـ) بقوله:

"فرجع إلى الخطاب بقوله: "وبياض وجهك" بعدما قد قضى الخبر عن خالد على معنى

الخبر عن الغائب"^(٨).

(١) سورة يونس: ٢٢.

(٢) سورة الروم: ٣٩.

(٣) سورة الحجرات: ٧.

(٤) البيت للنابعة كما في ديوانه (ص ٣٢).

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨٩).

(٦) البيت في ديوانه (١٠١/٢) من ديوان الهذليين.

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٩٠).

(٨) تفسير الطبري (١/١٥٦).

ولم يمثل الإمام ابن قتيبة لهذا النوع من القرآن الكريم ، ومن الأمثلة عليه :

قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾^(١) ، وفيه التفتت عن الغيبة في ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ إلى الخطاب في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَقَمُ رِجْمِهِمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾^(٢) ، وفيه التفتت عن الغيبة الغيبة في " رجمهم " إلى الخطاب في " لكم " .

وهذان النوعان اللذان ذكرهما الإمام ابن قتيبة يندرجان ضمن الالتفات في الضمائر ، وهو الذي يُجمع البلاغيون على أنه من صور الالتفات .

٣ . أما النوع الثالث فعنون له ابن قتيبة بقوله : " ومنه أن يخاطب الرجل بشيء ثم يجعل الخطاب لغيره " .

ثم مثل له ؛ فقال :

" كقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ ، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للكفار : ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، يدل ذلك على ذلك قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى ﴾^(٤) ، وقال : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾^(٥) ، وقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، ثم قال : ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾^{(٦) (٧)} .

(١) سورة الفاتحة : ٤-٥ .

(٢) سورة الإنسان : ٢١-٢٢ .

(٣) سورة هود : ١٤ .

(٤) سورة طه : ٤٩ .

(٥) سورة طه : ١١٧ .

(٦) سورة الفتح : ٨-٩ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٩٠) .

وهذا النوع الثالث الذي ذكره ابن قتيبة كان عاماً اشتمل على ألوان مختلفة من الالتفات ، ففي الآية الأولى التفت من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الكفار، وهذا التفتات من مخاطب إلى مخاطب آخر، أما الآيات المتبقية فكانت أمثلة على الالتفات في الأعداد ، ففي الآيتين الثانية والثالثة كان الالتفات من التثنية في "ربكما" و"فلا يخرجنكما" إلى الأفراد في "يا موسى"، و"فتشقى".

أما الآية الرابعة فكان الانتقال من الأفراد في "أرسلناك" إلى الجمع في "لتؤمنوا".

المطلب الثاني : الإيجاز .

أولاً : تعريف الإيجاز .

أسلوب الإيجاز من أهم خصائص اللغة العربية ، فقد كان العرب لا يميلون إلى الإطالة والإسهاب ، وكان بعضهم يعد الإيجاز هو البلاغة .

يقول ابن قتيبة : "سئل بعض الحكماء عن البلاغة ؛ فقال : من أخذ معاني كثيرة فأداها بألفاظ قليلة"^(١).

وَنَقَلَ عن صحار بن عياش العبدي (ت ٤٠ هـ) أن معاوية (ت ٦٠ هـ) رضي الله عنه سأله "ما تعدون البلاغة فيكم؟" ، فقال: "الإيجاز" ، قال له معاوية: "وما الإيجاز؟" ، قال صحار: "أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ"^(٢).

ويقول عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) عن الحذف - أحد قسمي الإيجاز - :
"باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، ترى به ترك الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبين"^(٣).

والإيجاز وإن كان من أرقى أنواع البلاغة إلا أنه ليس بمحمود في كل موضع ، ولا بمختار في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، وإلى هذا أشار ابن قتيبة بقوله :

(١) عيون الأخبار (٢/٥٧٧) .

(٢) المصدر السابق (٢/٥٦٨) .

(٣) دلائل الإعجاز (ص ١٤٦) .

"لو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام"^(١).

ويقول في موضع آخر :

"فالخطيب من العرب، إذا ارتجل كلاماً في نكاح، أو حمالة^(٢)، أو تحضيض، أو صلح، أو ما أشبه ذلك، لم يأت به من وادٍ واحد، بل يفترّ: فيختصر تارة لإرادة التخفيف، ويُطيل تارة لإرادة الإفهام، ويكرّر تارة لإرادة التوكيد، ويُخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين، ويشير إلى الشيء ويكفي عن الشيء.

وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الخُلق، وكثرة الحُشد، وجلالة المقام. ثم لا يأتي بالكلام كلّ مهذباً كلّ التهذيب، ومصمّياً كلّ التصفية، بل تجده يمزج ويشوب^(٣)؛ ليُدلّ بالناقص على الوافر، وبالغثّ على السمين، ولو جعله كلّ بجرّاً^(٤) واحداً، لَبَحَسَهُ بهاءه، وسلّبه ماءه"^(٥).

والإيجاز في اصطلاح البلاغيين هو : عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح^(٦).

وهذا هو مفهوم الإيجاز عند ابن قتيبة، يدل عليه حين نقل قول أبرويز لكتابه: "واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول"، عبّ عليه ابن قتيبة، فقال: "يريد الإيجاز"^(٧).
وحين يتحدث ابن قتيبة عن الإيجاز فإنه غالباً ما يطلق عليه "الحذف والاختصار"، وكأنه يشير بذلك إلى نوعي الإيجاز، فكلمة "الحذف" تدل على "إيجاز الحذف" بدليل أن

(١) أدب الكاتب (ص ١٩).

(٢) جاء في اللسان (١٧٤/١١) مادة "حمل": "الحمالة - بالفتح - ما يحتمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة، مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين".

(٣) جاء في اللسان (٥١٠/١) مادة "شوب": "الشُّوب: الخلط، شاب الشيء شوباً: خلطه".

(٤) التَّنَجْر: اللون، كما في اللسان (١٩٣/٥) مادة "نجر".

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ١٣).

(٦) انظر: مفتاح العلوم (ص ٢٧٧)، المثل السائر (٢/٢٥٩)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص ١٨٤).

(٧) أدب الكاتب (ص ١٩).

جميع أمثله لهذا النوع صدرها بكلمة "الحذف"^(١)، وكلمة "الاختصار" تدل على "إيجاز القصر" بدليل أن الموضوع الذي توسع فيه بالحديث عن هذا النوع وأمثله كثر فيه كلمة "الاختصار" أكثر من مرة^(٢).

وقد اتفق البلاغيون على تقسيم الإيجاز إلى هذين النوعين :

- ١ . إيجاز القصر : وهو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة دون أن يكون في العبارة حذف .
- ٢ . إيجاز الحذف : وهو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة ، وذلك بحذف شيء من التركيب^(٣).

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بالإيجاز .

اعتنى الإمام ابن قتيبة بالإيجاز عناية فائقة ، فأفرد له باباً في "تأويل مشكل القرآن" وسمه بـ"باب الحذف والاختصار" تناول فيه الكثير من صور الإيجاز ، كما نوه في مقدمة الكتاب بأسلوب الإيجاز في القرآن الكريم ، وذكر الكثير من الأمثلة عليه وفصل الحديث عنها، كما تجلّت تلك العناية من خلال الوقفات الكثيرة في "تفسير غريب القرآن" والتي بيّن فيها صور الإيجاز في تلك الآيات التي فسرها .

ويمكن إبراز هذه العناية من خلال نوعي الإيجاز .

النوع الأول : إيجاز القصر .

وظهرت عنايته بهذا القسم في مقدمة "تأويل مشكل القرآن" حيث تطرق إليه، وذكر أنه من خصائص القرآن الكريم ، وأسماء تارة بـ"جوامع الكلم" وتارة "الاختصار" ، واستحضر الكثير من الآيات وفصل الحديث عن بلاغة الإيجاز فيها ، وفي ذلك يقول :

"وجمع الكثير من معانيه - أي القرآن الكريم - في القليل من لفظه ، وذلك معني قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أوتيت جوامع الكلم"^(٤).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢١٠-٢٣١) .

(٢) المصدر السابق (ص ٤-٩) .

(٣) انظر: التلخيص في علوم البلاغة (ص ٢١٤)، معجم المصطلحات البلاغية (١/٣٤٧)، المعجم المفصل (ص ٢٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في التعبير ، باب المفاتيح في اليد ح(٧٠١٣) (ص ٥٨٥)، ومسلم في المساجد باب المساجد ومواضع

الصلاة ح(١١٧٢) (ص ٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) ، كيف جمع له بهذا الكلام كل خُلُقٍ عظيم ؛ لأن في "أخذ العفو" صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين .
وفي "الأمر بالعرف" تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغضّ الطرف عن الحرمات .
وإنما سُمِّيَ هذا وما أشبهه "عُرْفًا" و"معروفًا" ؛ لأن كل نفس تعرفه، وكل قلب يطمئنُ إليه .

وفي "الإعراض عن الجاهلين" : الصبر ، والحلم ، وتنزيه النفس عن مُماراة السفهية، ومنازعة اللجوج .

وقوله تعالى إذ ذكر الأرض فقال : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾^(٢) ، كيف دلّ بشيئين على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام ، من العشب والشجر ، والحب والتمر والحطب ، والعصف^(٣) ، واللباس والنّار والملح ؛ لأن النار من العيدان ، والملح من الماء .

وينبئك أنه أراد ذلك قوله : ﴿ مِنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴾^(٤) .

وفكّر في قوله تعالى : حين ذكر جنات الأرض فقال : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفْضِلٍ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾^(٥) ، كيف دلّ على نفسه ولطفه ، ووحدانيته، وهدى للحجّة على من ضلّ عنه ؛ لأنه لو كان ظُهور الثمرة بالماء والتربة لوجب في القياس ألا تختلف الطعوم ، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد ، إذا نبت في مَغْرَسٍ واحد، وسُقِيَ بماء واحد، ولكنّه صنع اللطيف الخبير .

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٢) سورة النازعات : ٣١ .

(٣) جاء في اللسان (٢٤٧/٩) مادة "عصف" : "العصف : ورق الزرع ، وما لا يؤكل منه" .

(٤) سورة النازعات : ٣٣ .

(٥) سورة الرعد : ٤ .

ونحو قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَنَاطِرَ وَالْمَنَاطِرَ ، والهيئات .^(١) وَاللَّوْنِكُمْ ۚ ﴾ ، يريد اختلاف اللغات ، والمناظر ، والهيئات .

وفي قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ۚ ﴾^(٢) ، يريد أن سافك الدّم إذا أُقيد منه ارتدع من كان يهّم بالقتل ، فكان في القصاص له حياة وهو قتل ، وأخذه المتمثلون فقالوا: "بعض القتل إحياءً للجميع"^(٣) ، وقالوا: "القتل أقلُّ^(٤) للقتل".

وتبيّن قوله في وصف خمّر أهل الجنة : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ۚ ﴾^(٥) ، كيف نفى نفى عنها بھذين اللفظين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : "ولا ينزفون" عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفادّ الشراب .

وقوله في المنافقين : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ۚ ﴾^(٦) ، فدل على جبنهم ، واستشرفهم لكل ناعر^(٧) ، ومُرْهَج^(٨) على الإسلام وأهله .
وأخذه الشاعر - وأنى له هذا الاختصار - فقال :

ولو أنّها عصفورةٌ لحسبتّها مُسومةٌ تدعو عبيداً وأزماً^(٩)

يقول : لو طارت عصفورة لحسبتها من جنك خيلاً تدعو هاتين القبيلتين .
وهذا في القرآن أكثر من أن نستقصيه"^(١٠) .

(١) سورة الروم : ٢٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٩ .

(٣) في البيان والتبيين (٣١٦/٢) ، وقال بعض الحكماء : "قتل البعض إحياءً للجميع" .

(٤) في الصناعتين (ص ١٣١) ، والنكت في إعجاز القرآن (ص ٢) "القتل أنفى للقتل" .

(٥) سورة الواقعة : ١٩ .

(٦) سورة المنافقون : ٤ .

(٧) الناعر ، أي الصائح المصوّت . [لسان العرب ، مادة "نعر" (٢٢٠/٥)] .

(٨) الرهج : الشغب والإثارة . [لسان العرب ، مادة "رهج" (٢٨٤/٢)] .

(٩) البيت للعوام بن شوذب كما في النقائص (ص ٥٨٥) ، واللسان (٢٧٥/١٢) ، وقال ابن قتيبة في المعاني الكبير

(٩٢٧/٢) : "وقال العوام بن شوذب في بسطام بن قيس يصفه بالجن ، وفرّ يوم العظالي : ولو أنّها عصفورة ... أي لو

أن عصفورة طارت لحسبتها من جنك خيلاً معلّمة ، تدعو عبيداً وأزماً" .

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ٤-٩) .

النوع الثاني : إيجاز الحذف .

وقد حظي هذا النوع بمزيد عناية من الإمام ابن قتيبة ، حيث كان غالب حديثه عن الإيجاز - لا سيما في باب الحذف والاختصار - يتعلق بهذا النوع ، وفيه فصل الحديث عن صور الحذف في القرآن الكريم ، وأكثر من التمثيل لكل صورة ، ومما عرض له من صور الحذف ما يلي :

١ . أن تحذف المضاف ، وتقيم المضاف إليه مقامه ، وتجعل الفعل له .

ويقول في التمثيل له :

"كقوله تعالى : ﴿ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾^(١) ، أي سل أهلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَل ﴾^(٢) ، أي حبه .

وكقوله : ﴿ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾^(٣) ، أي ضعف عذاب

عذاب الحياة ، وضعف عذاب الممات .

وقوله : ﴿ مِّن قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ ﴾^(٤) ، أي أخرجك أهلها .

وقوله : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾^(٥) ، أي

أي أجعلتم صاحب سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن ، ويكون يريد : أجعلتم

سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله وجهاده ، كما قال : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾^(٦)^(٧) .

(٦) (٧)

٢ . أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، وتضمير للآخر فعله .

ويقول في التمثيل له :

(١) سورة يونس : ٨٢ .

(٢) سورة البقرة : ٩٣ .

(٣) سورة الإسراء : ٧٥ .

(٤) سورة محمد : ١٣ .

(٥) سورة التوبة : ١٩ .

(٦) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٢١٠-٢١١) .

"كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَؤُوسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَفِيكِهِمْ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، والفاكهة واللحم والهور العين لا يُطاف بها ، وإنما أراد : ويؤتون بلحم طير ، ومثله ومثله قوله تعالى : ﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ^(٣) ، أي : وادعوا شركاءكم ، وكذلك هو في في مصحف عبدالله - بن مسعود - (ت ٥٣٥هـ) .

وأنشء الفراء (ت ٢٠٧هـ) :

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا حَتَّى شَتَّتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا ^(٤)
 أي علفتها تبنًا ، وسقيتها ماءً باردًا .
 وقال آخر :

إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا وَرَجَّحْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعَيُونََا ^(٥)
 والعيون لا تُرَجَّح ، وإنما أراد : وزججن الحواجب وكحلن العيون ^(٦) .

٣ . أن يأتي بالكلام مبنياً على أن له جواباً ، فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب به .

وفي التمثيل له قال :

"كقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَت بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضِ أَوْ كُلم بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ ^(٧) ، أراد : لكان هذا القرآن ، فحذف .

(١) سورة الواقعة : ١٧-١٨ .

(٢) سورة الواقعة : ٢٠-٢٢ .

(٣) سورة يونس : ٧١ .

(٤) البيت غير منسوب في اللسان (٢/٢٨٥) ، وخرزاة الأدب (٣/١٣٢) .

(٥) البيت غير منسوب في الصناعتين (ص١٣٦) ، واللسان (٢/٢٨٥) ، وفيه : "رَجَّحَتِ الْمَرْءَةَ حَاجِبَهَا : دَقَّقَتْهُ وَطَوَّلَتْهُ" .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص٢١٢-٢١٤) .

(٧) سورة الرعد : ٣١ .

وكذلك قوله : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(١) ،
أراد : لعذبكم ، فحذف .

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ عِزِّ رَبِّكَ أَتَى الْقُلُوبَ حَمِيضًا ﴾^(٢) ، ولم يذكر ضدَّ هذا ؛
لأن في قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٣) ، دليلاً على ما أراد .

وقال أبو ذؤيب - الهذلي - (ت ٢٧هـ) :

عَصَيْتُ إِلَيْهَا الْقَلْبَ إِنِّي لِأَمْرِهِ سَمِيعٌ ، فما أدري أُرشدُ طِلَابُهَا^(٤)
أراد : أُرشدُ هو أم غيٌّ ؟ فحذف^(٥) .

٤ . حذف الكلمة والكلمتين .

ومثّل له بإضمار القول في عدد من الآيات ، وفي ذلك يقول :

"كقوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴾^(٦) ، والمعنى ؛ فيقال لهم :

أكفرتم ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا ﴾^(٧) ، والمعنى ؛ يقولون : ربنا أبصرنا ، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾^(٨) ، والمعنى ؛ يقولون : ربنا تقبل منا^(٩) .

كما مثّل له بغير إضمار القول ، ومن ذلك قوله :

(١) سورة النور : ٢٠ .

(٢) سورة الزمر : ٩ .

(٣) سورة الزمر : ٩ .

(٤) البيت في ديوانه (٧١/١) من ديوان الهذليين .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢١٤/٢١٦) .

(٦) سورة آل عمران : ١٠٦ .

(٧) سورة السجدة : ١٢ .

(٨) سورة البقرة : ١٢٧ .

(٩) تأويل مشكل القرآن (ص ٢١٦) .

"وقال الله عز وجل : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾^(١) ، أي
 أي ووصى بالوالدين ، وقوله : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾^(٢) ، أي : أرسلنا ، وقال الله
 الله عز وجل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْأُوا وُجُوهَكُمْ ﴾^(٣) ، أراد : بعثناهم
 ليسوءوا وجوهكم ، فحذفها ، لأنه قال قبل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا
 ﴿^(٤) ، فاكتمى بالأول من الثاني ؛ إذ كان يدل عليه . وكذلك قوله : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ
 الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾^(٥) ، فاكتمى بذكر الثاني عن الأول"^(٦) .

٥ . حذف جواب القسم إذا كان في الكلام ما يدل عليه .

ويقول في التمثيل له :

"كقوله تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ
 الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ٢ أءِذَا مِتْنَا ٣ ، نبعث ، ثم قالوا : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾^(٧) ،
 أي : لا يكون ، وكذا قوله عز وجل : ﴿ وَالنَّزِعَاتِ غَرَقًا ١ وَالنَّشِيطَاتِ نَشَاطًا ٢ وَالسَّيِّحَاتِ
 سَبْحًا ٣ فَالْسَّيِّقَاتِ سَبَقًا ٤ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ٥ ﴾ ، ثم قال : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾^(٨) ،
^(٨) ، ولم يأت الجواب لعلم السامع به ؛ إذ كان فيما تأخر من قوله دليل عليه ، كأنه قال :
 والنازعات وكذا وكذا ، لتبعثن ؛ فقالوا : ﴿ أءِذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴾^(٩) ، نبعث"^(١٠) .

(١) سورة الإسراء : ٢٣ .

(٢) سورة الأعراف : ٧٣ .

(٣) سورة الإسراء : ٧ .

(٤) سورة الإسراء : ٥ .

(٥) سورة ق : ١٧ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٢١٧-٢١٨) .

(٧) سورة ق : ١-٣ .

(٨) سورة النازعات : ١-٦ .

(٩) سورة النازعات : ١١ .

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢٣-٢٢٤) .

٦ . حذف "لا" من الكلام والمعنى إثباتها .

ومثّل له؛ فقال :

"كقوله سبحانه : ﴿ تَاللّٰهِ تَفْتُوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ ﴾^(١) ، أي : لا تزال تذكر

يوسف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَبِيْنَ اللّٰهُ لَكُمْ اَنْ تَضِلُّوْا ﴾^(٢) ، أي : لئلا تضلوا ، وقوله : ﴿

اِنَّ اللّٰهَ يَمْسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ اَنْ تَزُوْلَا ﴾^(٣) ، أي : لئلا تزولا"^(٤) .

وقال ضمن هذه الصورة من الحذف :

"وهي - أي لا - تحذف مع اليمين كثيراً .

قال الشاعر :

فقلْتُ يَمِيْنَ اللّٰهُ اُبْرَحُ قَاعِدًا ولو ضَرَبُوا رَاسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(٥)^(٦)

٧ . الإضمار لغير مذكور .

من صور الحذف عند ابن قتيبة : أن تضم لغير المذكور ، ومثّل له بالكثير من الآيات ،

منها قوله :

"كقول الله جلّ وعزّ : ﴿ حَتّٰى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾^(٧) ، يعني : الشمس ، ولم يذكرها

قبل ذلك . وقوله : ﴿ وَلَوْ يُوَٰخِذُ اللّٰهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾^(٨) ، يريد : على

الأرض . وقال عزّ وجلّ : ﴿ اِنَّا اَنْزَلْنٰهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(٩) ، يعني : القرآن ، فكثّر في أوّل

السورة"^(١٠) .

٨ . حذف الصفات :

(١) سورة يوسف : ٨٥ .

(٢) سورة النساء : ١٧٦ .

(٣) سورة فاطر : ٤١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢٥) .

(٥) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه (ص ١٣٧) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢٥) .

(٧) سورة ص : ٣٢ .

(٨) سورة فاطر : ٤٥ .

(٩) سورة القدر : ١ .

(١٠) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢٦) .

يريد به ابن قتيبة حذف الحروف ، وهو اصطلاح الكوفيين ؛ إذ يطلقون على الحروف صفاتاً ، ومثّل له ابن قتيبة بقوله :

"كقول الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾^(١) ؛ أي : كالوا لهم ، أو وزنوا لهم . وقوله : ﴿ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾^(٢) ؛ أي : اختار منهم . وكقوله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣) ؛ أي : مكنا لهم"^(٤) .

ولم يكتفِ الإمام ابن قتيبة بهذا التنظير والتمثيل لصور الحذف ، بل تجلّت أسمى صور عنايته بالإيجاز من خلال التطبيقات الواسعة لهذا اللون البلاغي في كثير من الآيات التي فسّرها في مصنفاته المتعددة^(٥) .

المطلب الثالث : التكرار .

كما اهتم الإمام ابن قتيبة بالإيجاز اهتماماً بالغاً ؛ فإن عنايته بما يقابل الإيجاز وهو الإطناب كانت عناية فائقة ، تجلّت من خلال الدراسة الموسعة لهذا الأسلوب في "تأويل مشكل القرآن" ، وفيه ذكر أن من مذاهب العرب في الكلام : "الإطالة لإرادة الإفهام" ، ثم بيّن أن من مظاهر هذه الإطالة : "التكرار" ، و"الزيادة للتوكيد" ، ولذلك أفرد لها باباً وسمه بـ"باب تكرار الكلام والزيادة فيه" ، فصّل فيه الحديث عن هذين النوعين من الإطناب تفصيلاً لم يُسبق إليه ، بنى عليه وأفاد منه مَنْ كَتَبَ عن الإطناب من البلاغيين .

(١) سورة المطففين : ٣ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٥ .

(٣) سورة الحج : ٤١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢٨-٢٢٩) .

(٥) انظر : تفسير غريب القرآن (ص ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ٢٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٣٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٧٩) ، المسائل والأجوبة (ص ١٤١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٣ ، ٢٨٩) ، غريب الحديث (١/٣٧ ،

أولاً : تعريف التكرار .

تحدث ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) في "المثل السائر" عن التكرار، وذكر العلاقة بينه وبين الإطناب ؛ فقال :

"والذي يُحْدُ به - أي الإطناب - أن يقال : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، فهذا حدُّه الذي يُمَيِّزه عن التطويل ، إذ "التطويل" هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة. وأما "التكرير" فإنه دلالة اللفظ على المعنى مرّداً ، كقولك لمن تستدعيه: "أسرع أسرع"، فإن المعنى مرّدد واللفظ واحد.

وإذا كان التكرير : هو إيراد المعنى مرّداً ، فمنه ما يأتي لفائدة ، ومنه ما يأتي لغير فائدة؛ فأما الذي يأتي لفائدة فإنه جزء من الإطناب ، وهو أخصُّ منه ، فيقال: إنَّ كل تكرير يأتي لفائدة فهو إطناب ، وليس كل إطناب تكريراً يأتي لفائدة ، وأما الذي يأتي من التكرير لغير فائدة فإنه جزء من التطويل وهو أخص منه"^(١).

وقسم ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧هـ)^(٢) التكرير قسمين :

أحدهما : يوجد في اللفظ والمعنى مثل : "أسرع أسرع" .

الثاني : يوجد في المعنى دون اللفظ ، مثل: "أطعني ولا تعصني"، لأن الأمر بالطاعة هو النهي عن المعصية^(٣).

وعرّف الزركشي (ت ٧٩٤هـ) التكرار بأنه : "إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى"^(٤). ولا شك أن تكرير الكلام يضيف على المعنى الذي تضمنه أهمية توجب له عناية خاصة، فتكرير صفات الله دال على الاعتناء بمعرفتها ، والعمل بموجبها ، وتكرير القصص دال على

(١) المثل السائر (٢/٣٤٤) .

(٢) نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن سعيد ، ابن الأثير ، الحلبي الأصل ، القاهري ، من كُتّاب الإنشاء بمصر ، وممن كان يحضر "دار العدل" بين يدي السلطان ، له مصنفات منها : "جوهر الكنز" اختصر به كتاب "كنز البراعة" لأبيه ، وله "المختصر المختار من وفيات الأعيان" ، توفي بالقاهرة سنة ٧٣٧هـ . [الدرر الكامنة (١/١٠٤) ، الأعلام للزركلي (١/٩٧)] .

(٣) جوهر الكنز "تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة" لابن الأثير الحلبي (ص ٢٥٧) .

(٤) البرهان في علوم القرآن (٣/١٠) .

الاهتمام بالوعظ للإيقاظ والاعتبار ، وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها ، لأن منها ما يحث على الطاعة والإيمان ، ومنها ما يزرع عن الكفر والعصيان .

وكذلك تكرير الوعد والوعيد ، وكذلك تكرير ذكر الأحكام، وكذلك تكرير المدح والذم ، وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات، فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيباً في ثوابها، وتكرير الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيباً من عقابها، وتكرير القرآن بين الوعد والوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء ، فلا يقنطوا من رحمة الله وأفضاله ، ولا يغتروا بحلمه وإمهاله، وتكرير الأحكام يدل على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات ، وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء بالإيضاح والبيان ، وتكرير ذكر النعم يدل على الاعتناء بشكرها^(١).

ثانياً : اهتمام الإمام ابن قتيبة بالتكرار .

تحدث الإمام ابن قتيبة في "باب تكرار الكلام والزيادة فيه" بحديث موسع عن التكرار، بيّن فيه أن التكرار كثير في لغة العرب ، وأنه من فنون القول عندهم ، وأن التكرار واقع في القرآن الكريم ، وفي ذلك يقول :

"فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم ، وعلى مذاهبهم ، ومن مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار : إرادة التخفيف والإيجاز ؛ لأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد"^(٢).

كما بيّن فيه أن التكرار في القرآن الكريم لم يكن من ضروب الفضول ، وإنما جاء لزيادة المعنى أو تأكيده ، ثم ذكر بعضاً من صور التكرار في القرآن واللغة ، وهي كالتالي:

أولاً : تكرار الأنباء والقصص في القرآن الكريم .

تحدث فيه عن تكرار الأنباء والقصص ، وبيّن أسباب هذا التكرار والغاية منه ، فذكر من

هذه الأسباب :

(١) قواعد التفسير ، د.خالد السبت (٢/٧٠٩) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٥) .

١ . أن القرآن الكريم نزل منجّماً في ثلاث وعشرين سنة ؛ تثبيتاً لفؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتيسيراً للعباد وتدرجاً لهم إلى دينهم ، ووعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سُنّة الغفلة ، وشحذاً لقلوبهم بتجدد الموعدة .

٢ . أن وفود العرب كانت تَرِدُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، كما كان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنبياء والقصص مُثَنّاة ومكرّرة لوقعت قصة موسى عليه السلام إلى قوم ، وقصة عيسى عليه السلام إلى قوم ، وقصة نوح عليه السلام إلى قوم ، فأراد الله تعالى بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ، ويلقيها في كل سمع ، ويشبثها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير .

٣ . أن الأنبياء والقصص ليست كالفروض ، "لأن كُتِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تُنفذُ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة ، وعددها وأوقاتها، والزكاة وسنتها ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت ، وهذا ما لا تُعرف كيفيته من الكتاب ، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء - عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم -" (١) .

ومما لا شك فيه أن هذا النوع من التكرار الذي ذكره ابن قتيبة يدخل في باب التكرار اللغوي ، لا التكرار بالمعنى الاصطلاحي عند البلاغيين .
ثانياً : تكرار الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجزئ عن بعض .
يقول ابن قتيبة في التمثيل له :

"تكراره في - سورة - ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (١) ، وفي سورة الرحمن بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ (٢) ، وقال الله عزّ وجل: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ثم ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، وقال: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٥) ، وقال :

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٢-٢٣٥) .

(٢) سورة الكافرون : ١ .

(٣) سورة الرحمن : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، وآيات أخرى .

(٤) سورة التكاثر : ٣-٤ .

(٥) سورة الشرح : ٥-٦ .

وقال : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۖ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۖ ﴾^(١) ، وقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ۗ ﴾^(٢) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ۗ ﴾^(٣) ، كل هذا يراد به التأكيد للمعنى الذي كُرِّرَ به اللفظ .
وقد يقول القائل للرجل : اعجل اعجل ، وللرامي : ارم ارم .
وقال الشاعر :

هَلَا سَأَلْتَ جُمُوعَ كَنَدٍ ... دَهَّ يَوْمَ وَلَّوْا أَيَّنَ أَيْنَا^(٤)

وتحدث عن سبب التكرار في سورة الكافرون ؛ فقال :

"ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه ﴿ قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكٰفِرُونَ ﴾^(٥) ، لأنهم أرادوه على أن يَعْبُدَ ما يَعْبُدُونَ، لِيَعْبُدُوا ما يَعْبُدُ، وأبدؤا في ذلك وأعادوا، فأراد الله عزَّ وجلَّ حَسَمَ أطماعهم ، وإكذاب ظنونهم ، فأبدأ وأعاد في الجواب، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾^(٦) ، أي : تلين لهم في دينك فيلينون في أديانهم"^(٧).

وبيِّنَ حكمة التكرار في قوله : ﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٨) ؛ فقال :

"وأما تكرر ﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، فإنه عدَّد في هذه السورة نعماءه، وأذكَر عباده آلاءه ، ونَبَّههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذَكَرَ كلَّ خَلَّةٍ وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، لِيُفَهِّمَهُمُ النِّعْمَ وَيُقَرِّرَهُمُ بِهَا .

(١) سورة القيامة : ٣٤-٣٥ .

(٢) سورة الانفطار : ١٧-١٨ .

(٣) البيت لعبيد بن الأبرص كما في ديوانه (ص١١٨) ، ونسبه له ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص١٨٦) ، والشعر والشعراء (١/٢٢٤) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص٢٣٥-٢٣٦) .

(٥) سورة الكافرون : ١ .

(٦) سورة القلم : ٩ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص٢٣٧) .

(٨) سورة الرحمن : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، وآيات أخرى .

وهذا كقولك للرجل أحسنت إليه دهرك وتابعت عنده الأيادي، وهو في ذلك يُنكرك ويكفرك : ألم أبوئك منزلاً وأنت طريد؟ أفثنك هذا؟ و: ألم أحملك وأنت راجل؟ ألم أحج بك وأنت صرورة؟ أفنكر هذا؟ .

ومثل هذا تكرر ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾^(١)، في سورة ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾^(٢)، أي: هل هل من معتبر ومتعظ"^(٣).

ثالثاً: تكرر الكلمة الواحدة ، مع تغير حرف منها في ورودها الثاني .
يقول ابن قتيبة :

"وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانية لأنها كلمة واحدة، فغيروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى .

كقولهم : "عَطَشَانُ نَطَشَانُ"، كرهوا أن يقولوا : عطشان عطشان، فأبدلوا من العين نوناً . وكذلك قولهم "حَسَنٌ بَسَنٌ" ، وفي أشباه له كثيرة"^(٤).

وربما كان التكرار للكلمة من دون تغير حروفها، وقد أشار ابن قتيبة لهذا عند تفسير

قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾^(٥) : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾^(٥) ، بقوله:
"وكرر "إيلاف" كما تقول في الكلام : أعطيتك المال لصيانة وجهك صيانةً عن كل الناس، فكرر الكلام للتوكيد"^(٦).

رابعاً : التكرار بذكر الخاص بعد العام .

من وجوه الإطناب عند البلاغيين مجيء الخاص بعد العام ، للتنبية على فضله ، حتى كأنه ليس من جنسه ، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات"^(٧).

وقد أشار ابن قتيبة إلى هذا النوع ، ومثّل له ؛ بقوله :

(١) سورة القمر : ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ .

(٢) سورة القمر : ١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٩-٢٤٠) .

(٤) المصدر السابق (ص ٢٣٦-٢٣٧) .

(٥) سورة قريش : ١-٢ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٥) .

(٧) انظر: معجم المصطلحات البلاغية (١/٢٤٠)، بلاغة التراكيب "دراسة في علم المعاني" د.توفيق الفيصل (ص ٢٥٧).

"كقوله سبحانه : ﴿ فِيهَا فَكِيهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾^(١) ، والنخل والرمان من الفاكهة ، فأفردهما عن الجملة التي أدخلهما فيها ؛ لفضلهما وحسن موقعهما .

وقوله سبحانه : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾^(٢) ، وهي منها ، فأفردها بالذكر ترغيباً فيها ، وتشديداً لأمرها ، كما تقول : ائتني كل يوم ، ويوم الجمعة خاصة .

وقال سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾^(٣) ، والنجوى هو السر ، وقد يجوز أن يكون أراد بالسّر : ما أسروه في أنفسهم ، وبالنجوى : ما تساروا به^(٤) .

المطلب الرابع : الإشباع والتوكيد .

من وجوه الإطناب التي عرض لها الإمام ابن قتيبة في "باب تكرار الكلام والزيادة فيه" ، الزيادة لإشباع المعنى وتوكيده ، وقد نصّ على أول أنواعها بقوله :

"وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين ؛ فلاشباع المعنى والاتساع في الألفاظ ، وذلك كقول القائل : أمرك بالوفاء ، وأنهاك عن الغدر ؛ والأمر بالوفاء هو النهي عن الغدر ، وأمركم بالتواصل ، وأنهاكم عن التقاطع ؛ والأمر بالتواصل هو النهي عن التقاطع"^(٥) .

ثم مثل لهذا بقوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَكِيهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾^(٧) ، ومن أمعن النظر في هذه الأمثلة يجد أنها لا تنطبق تنطبق على هذا النوع ، بل هي من باب ذكر الخاص بعد العام ، وأما هذا النوع الذي نظر له ابن قتيبة فهو من باب توكيد الشيء بالنهي عن ضده ، ومما يُمثل له :

(١) سورة الرحمن : ٦٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٣) سورة الزخرف : ٨٠ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٠-٢٤١) .

(٥) المصدر السابق (ص ٢٤٠) .

(٦) سورة الرحمن : ٦٨ .

(٧) سورة البقرة : ٢٣٨ .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۗ ﴾^(١) ، فأكد الأمر بعبادة الله بالنهي عن الإشراك به . وبقوله : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ ﴾^(٢) ، فأمرهم تعالى بالجماعة ونهاهم عن الفرقة .

وقريب من هذا توكيد الشيء بنفي ضده ، ومن الأمثلة عليه :

قوله عز وجل : ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾^(٣) ، فأكد كمال الضلال بنفي الاهتداء ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾^(٤) ، أكد كمال الضلال بنفي الاهتداء ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٥) ، أكد العدل بنفي الظلم .

وأما النوع الثاني فبينه الإمام ابن قتيبة بقوله :

"وأما الزيادة في التوكيد؛ فكقوله سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

^(٦) ، لأن الرجل قد يقول بالجواز : كلمت فلاناً ، وإنما كان ذلك كتاباً أو إشارة على لسان غيره ، فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم"^(٧) .

ويريد الإمام ابن قتيبة بهذا النوع : الزيادة في التوكيد ؛ أنه قد تزداد بعض التوابع في الكلام دون أن يكون وجودها مؤدياً شيئاً من المعاني الأصلية المقصودة بالبيان ، لكن زيادتها في الكلام تفيد تأكيده وتقديره ، وتحقق أغراضاً بلاغية ، ولهذا عُدَّت تلك الزيادة من الإطناب المفيد البليغ.

(١) سورة النساء : ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٤٠ .

(٤) سورة طه : ٧٩ .

(٥) سورة يونس : ٥٤ .

(٦) سورة آل عمران : ١٦٧ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤١) .

وقد توسع الإمام ابن قتيبة في التمثيل لهذا النوع ، فذكر قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾^(١) ،^(١) وقال في تفسيره : " وكذلك قوله : ﴿ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، لأن الرجل قد يكتب يكتب بالمجاز ، وغيره الكاتب عنه .
ويقول الأمي : كتبتُ إليك ، وهذا كتابي إليك ، وكلُّ فعلٍ أمرت به فأنت الفاعل له ، وإن وليه غيرك .

فأعلمنا أنهم يكتبون بأيديهم ويقولون : هو من عند الله ، وقد علموا يقيناً - إذ كتبوه بأيديهم - أنه ليس من عند الله "^(٢) .

ويقول - أيضاً - في التمثيل لهذا النوع :

" وقال تعالى : ﴿ فَرَأَعٌ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾^(٣) ، لأن في اليمين القوة وشدة البطش ، فأخبرنا عن شدة ضربه بها .

وقال الشمّاح (ت ٢٢ هـ) :

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ
تلقّاهَا عرابُهُ باليمين^(٤)
أي أخذها بقوة ونشاط "^(٥) .

ويشير الإمام ابن قتيبة في هذا المثال إلى أن الزيادة أفادت معنى زائداً على التوكيد، وهو الدلالة على شدة الضرب .

ويسترسل في التمثيل لهذا النوع ؛ فيقول :

" وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾^(٦) ، كما تقول : رأيُّ عيني، وسمعُ أذني .
أذني .

(١) سورة البقرة : ٧٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤١-٢٤٢) .

(٣) سورة الصافات : ٩٣ .

(٤) البيت في ديوانه (ص ٣٣٦) .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٢) .

(٦) سورة الأنعام : ٣٨ .

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١)، كما تقول: نفسي التي بين جنبيّ.
 وقال تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾^(٢)، أراد
 توكيد ما أوجبه عليه من الصيام بجمع العددين وذكّره مجملاً^(٣).

المطلب الخامس : القلب .

أولاً : تعريف القلب .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : "ومن سنن العرب القلبُ ، وذلك يكون في الكلمة،
 ويكون في القصة"^(٤)، فأما الكلمة فقولهم : "جذب ، وجبذ"، و"بكلّ، ولَبَكَّ" ، وهو كثير،
 وقد صنّفه علماء اللغة ، وليس من هذا فيما أظن من كتاب الله جلّ ثناؤه شيء ، وأمّا الذي
 في غير الكلمات فقولهم :

كما عُصِبَ العِلْبَاءُ بالعود^(٥)

ويقولون: "أدخلتُ الخاتمَ في أصبعي"^(٦).

وظاهرة القلب ملمح من ملامح جمال اللغة العربية ، وسمة من سماتها البلاغية، وقد
 جاءت الإشارة إلى هذه الظاهرة في بواكير مصنفات علماء اللغة الأوائل ، كسيبويه (ت
 ١٨٠هـ)^(٧)، والفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٨)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)^(٩)، وكان
 القلب عند هؤلاء الأئمة يراد به - في الغالب - القلب في اللفظة الواحدة ، أي التقديم
 والتأخير في بعض حروفها ، مثل : "جذب وجبذ" ، و"ما أطيبه ، وما أيطبه" ونحو ذلك.

(١) سورة الحج : ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٦ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٣) .

(٤) يريد بالقصة : العبارة ، كما يظهر من الأمثلة على ذلك .

(٥) هو للشماخ كما في ديوانه (ص ١٢٠)، وصدّره : "مِنْهُ جُلْتُ ولم يُوشَبْ به حَسْبِي".

(٦) الصاحبي في فقه اللغة (ص ١٥٣) .

(٧) الكتاب (١/١٨١) .

(٨) معاني القرآن (١/٩٩) .

(٩) مجاز القرآن (١/٦٢) .

ثم جاء الإمام ابن قتيبة فانتقل بالقلب نقلة نوعية واسعة ، حيث انتقل به من البحث في القلب في الكلمة الواحدة إلى القلب في الدلالة اللغوية ، وفي بناء الجملة ، وتوسع في حديثه وتقسيماته للقلب توسعاً ظهر أثره جلياً على من جاء بعده ممن تحدث عن القلب^(١).

ثانياً : اهتمام الإمام ابن قتيبة بالقلب .

للإمام ابن قتيبة عناية فائقة بهذه الظاهرة ، حيث تناولها بإسهاب وتحدث عنها بتفصيل لم يسبق إليه ، وقد أفرد لها باباً في "تأويل مشكل القرآن" ، وسمه بـ"باب المقلوب" ، جعل فيه القلب على أربعة أقسام :

القسم الأول : أن يوصف الشيء ب ضد صفته .

وجعل لهذا القسم ثلاثة أغراض ؛ هي :

١ . التطير والتفأول : كقولهم للديغ "سليم" تطيراً من السقم ، وتفأولاً بالسلامة ، وللعطشان "ناهل" أي سينهل ؛ يعنون أنه سيروى ، وللفلاة "مفازة" ، أي منجاة؛ وهي مهلكة.

٢ . المبالغة في الوصف : كقولهم للشمس "جَوْنَةٌ" لشدة ضوئها ، وللغراب "أعور" لحدّة

بصره .

٣ . الاستهزاء : كقولهم للحبشي "أبو البَيْضاء" وللأبيض "أبو الجون" .

ثم يُمثّل ابن قتيبة لهذا الغرض من القرآن الكريم ؛ فيقول :

"ومن هذا قول قوم شعيب : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾^(٢) ، كما تقول: للرجل

للرجل تستجهله : يا عاقل ، وتستخفه : يا حليم .

قال قتادة (ت ١١٧هـ) :

"ومن الاستهزاء قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾^(٣) لا

تَرْكُضُوا وَأَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ ﴾^(٣) ، وأما قول الله سبحانه

(١) انظر : المزهر في علوم اللغة للسيوطي (٤٧٦/١) ، تاريخ آداب العرب ، مصطفى الرافعي (١٤٨/١) ، جماليات القلب

في البلاغة العربية ، د. صالح بن سعيد الزهراني ، مجلة جامعة الإمام ، عدد (١٩) ، (ص ٣٧١) .

(٢) سورة هود : ٨٧ .

(٣) سورة الأنبياء : ١٢-١٣ .

وتعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾^(١)، فبعض الناس يذهب به هذا المذهب، أي أنت الذليل المهان^(٢).

القسم الثاني : أن يُسَمَّى المتضادان باسم واحد والأصل واحد .

كقوله للصبح : صريم ، ولليل : صريم ، وقولهم للظلمة : سدفة ، وللضوء : سدفة، وقولهم لليقين : ظن ، وللشك : ظن .

وهذا النوع من القلب يعرف عند علماء اللغة باسم "الأضداد"، ويعد ابن قتيبة أول من أدخل "الأضداد" في المقلوب .

وهذان القسمان - الأول والثاني - يندرجان ضمن القلب في المعنى ، ثم يذكر ابن قتيبة القسم الثالث ، وهو من القلب في المكان ، وهو التقديم والتأخير ، ويعرف عند اللغويين بـ"القلب المكاني".

القسم الثالث : التقديم والتأخير ، وهو على نوعين :

أحدهما : التقديم والتأخير في الجملة .

ويقول عن هذا النوع :

"ومن المقلوب : أن يُقَدَّمَ ما يوضِّحه التأخير ، ويؤخَّر ما يوضِّحه التقديم ، كقول الله

تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ ﴾^(٣)، أي مخلف رُسُلِهِ وَعَدَهُ ، وقوله

تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾^(٤)، أي تدلى فدنا^(٥).

وسياقي مزيد بيان لهذا النوع في المطلب القادم : التقديم والتأخير^(٦).

الثاني : التقديم والتأخير في الكلمة الواحدة .

(١) سورة الدخان : ٤٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٨٥-١٨٦) .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٧ .

(٤) سورة النجم : ٨ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٣) .

(٦) انظر : (ص ٥٧٠) من هذه الرسالة .

وهو القسم الذي يقتصر عليه غالب اللغويين - لا سيما المتقدمين - عند حديثهم عن القلب.

وقد تحدث ابن قتيبة عن هذا النوع ؛ فقال :

"وكما يقبلون الكلام ويقدمون ما سبيله أن يؤخّر ، ويؤخرون ما سبيله أن يُقدّم ؛ فكذلك يقدمون الحرف في الكلمة وسبيله التأخير ؛ ويؤخرون الحرف وسبيله التقديم ، فيقولون: جَدَبٌ وَجَبَدٌ ، وبئر عميقة ومَعِيقَةٌ ، وأَحْجَمَت عن الأمر وَأَجْحَمَت ، وَبَتَلْتُ الشيء أي قطعته وَبَلَّتَهُ ، وما أطيبه ، وما أيطبه ، ... وفي أشباه لهذا كثيرة"^(١).

القسم الرابع : ما قُلِبَ على الغلط .

ومثّل له بقول خدّاش بن زهير^(٢) :

وَتَرَكِبُ خَيْلًا لَا هَوَادَةَ بَيْنَهَا وَتَعْصِي الرِّمَاحُ بِالضِّيَاطِرَةِ الحُمْرِ^(٣)

وقال: أي "تعصي الضياطرُ بالرّمّاح ، وهذا ما لا يقع فيه التأويل ، لأن الرماح لا تعصي بالضياطرة ، وإنما يعصي الرجالُ بها ، أي يطعنون"^(٤).

كما مثّل لهذا النوع بقول الشاعر :

كَانَتْ فَرِيضَةٌ مَا تَقُولُ كَمَا كَانَ الزَّيْنَاءُ فَرِيضَةً الرِّجْمِ^(٥)

أي: كان الرجم فريضة الزنا"^(٦).

ثم نقل ابن قتيبة عن بعض اللغويين تأويلهم الآيات على أنها من هذا القسم من القلب ؛ فقال :

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠٣-٣٠٤) .

(٢) خدّاش بن زهير العامري ، من بني عامر بن صعصعة ، شاعر جاهلي ، من أشرف بني عامر وشجعانهم ، كان يلقب بـ"فارس الضحياء" ، يغلب على شعره الفخر والحماسة ، قال أبو عمرو بن العلاء: "خدّاش أشعر من لبيد ، وأبي الناس إلا تقدمة لبيد". [الشعر والشعراء (٦٤٥/)] .

(٣) البيت له في جمهرة أشعار العرب (ص ١٨٩) ، واللسان (٤/٤٨٩) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٨) .

(٥) البيت للناطقة الجعدي ، وهو في ديوانه (ص ١٦٩) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٩) .

"وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾^(١)، إلى مثل هذا في القلب، ويقول: وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام ، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾^(٢)، أي: تنهض بها وهي مُثْقَلَةٌ - أي ما إن العصبة لتنوء بالمفاتيح - .

وقال آخر : في قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾^(٣)، أي: وإن حُبَّهُ للخير لشديد، وفي قوله سبحانه : ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾^(٤)، أي: اجعل المتقين لنا إماماً في الخير"^(٥).

ثم أوضح ابن قتيبة عن رأيه في هذا القسم وأنه لا يمكن وقوعه في كتاب الله تعالى، وفي ذلك يقول - بعد أن أنكر تأويلات اللغويين السابقة - :

"وهذا ما لا يجوز لأحدٍ أن يحكم به على كتاب الله عزّ وجل لو لم يجد له مذهباً؛ لأن الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط ، أو على طريق الضرورة للقافية ، أو لاستقامة وزن البيت ... والله تعالى لا يغلط ولا يُضْطَرُّ"^(٦).

ثم يُبيِّن خطأ تأويلاتهم السابقة وأنه لا قلب فيها ؛ فيقول :

"وإنما أراد تعالى : ومثل الذين كفروا ومثلنا في وعظهم كمثل الناعق بما لا يسمع، فاقصر على قوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(٧)، وحذف ومثلنا ؛ لأن الكلام يدل عليه، ومثل هذا كثير في الاختصار .

(١) سورة البقرة : ١٧١ .

(٢) سورة القصص : ٧٦ .

(٣) سورة العاديات : ٨ .

(٤) سورة الفرقان : ٧٤ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٩-٢٠٠) .

(٦) المصدر السابق (ص ٢٠٠-٢٠٣) .

(٧) سورة البقرة : ١٧١ .

وقال الفراء (ت ٢٠٧هـ) : أراد ومثل واعظ الذين كفروا ؛ فحذف كما قال: ﴿ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾^(١)، أي : أهلها .

وأراد بقوله : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾^(٢)، أي: تُثْمِلُهَا من ثِقْلِهَا .

وأراد بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾^(٣)، أي: وإنه لحب المال لبخيل، والشدة: والشدة: البخل هاهنا، يقال: رجلٌ شديدٌ ومتشددٌ.

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾^(٤)، يريد : اجعلنا أئمة في الخير يقتدي

يقتدي بنا المؤمنون ، كما قال في موضع آخر : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيْمَةَ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا ﴾^(٥)، أي: قادة ، كذلك قال المفسرون .

وقال بعض المفسرين في قوله : ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ، أي: اجعلنا نُقْتَدِي بمن قبلنا حتى يُقْتَدِي بنا من بعدنا ، فهم على هذا التأويل مُتَّبِعُونَ ومُتَّبَعُونَ^(٦).

المطلب السادس : التقديم والتأخير .

أولاً : تعريف التقديم والتأخير .

التقديم والتأخير اصطلاح أطلق على أحد أساليب العرب في كلامهم، ومظهره زوال اللفظ عن مكانه، فيتقدم أو يتأخر^(٧).

ويعد التقديم والتأخير من أهم مباحث علم المعاني ، ومن الظواهر اللغوية التي أولاها البلاغيون اهتمامهم وكشفوا الكثير من أسرارها البلاغية .

(١) سورة يوسف : ٨٢ .

(٢) سورة القصص : ٧٦ .

(٣) سورة العاديات : ٨ .

(٤) سورة الفرقان : ٧٤ .

(٥) سورة السجدة : ٢٤ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٠٣-٢٠٤) .

(٧) الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة ؛ د.خالد بن محمد العثيمين (ص ٤١)، وانظر: معجم المصطلحات

البلاغية (٣٢٥/٢)، المعجم المفصل في علوم البلاغة (ص ٤١١) .

يقول عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) - عن التقديم والتأخير - :
 "هو باب كثير الفوائد ، جمُّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يُفْتَرُّ لك
 عن بديعةٍ ، ويُفْضِي بك إلى لطيفةٍ ، ولا تزال ترى شِعْراً يروك مَسْمَعُهُ ، وَيَلْطَفُ لديك
 موقعه، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولَطَفَ عندك ، أن قُدِّم فيه شيء ، وحوَّلَ عن مكان إلى
 مكان"^(١).

ويقول الزركشي (ت ٧٩٤هـ):

"هو أحد أساليب البلاغة ؛ فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة ، وملكتهم في
 الكلام وانقياده لهم ، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق"^(٢).

وكانت أولى الإشارات إلى هذه الظاهرة عند النحويين القدماء ، فكان سيويه (ت ١٨٠هـ)
 أول من اعتنى بالتقديم والتأخير ، وأشار إلى دلالات بلاغية ، كتقديم الفاعل والمفعول
 للعناية والاهتمام^(٣)، ثم جاءت بعض الإشارات لهذه الظاهرة عند الفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٤)، وأبي
 عبيدة (ت ٢١٠هـ)^(٥)، وتمثلت في بيان موضع التقديم والتأخير عند تفسير بعض الآيات
 الآيات ، ثم جاء الإمام ابن قتيبة فكان من أوائل مَنْ نَظَرَ لهذه الظاهرة وأصل لها، وتبعه المبرد
 (ت ٢٨٥هـ)^(٦) ، حتى وصل البحث إلى عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، فدرس هذه
 الظاهرة دراسة دقيقة مفصلة في "دلائل الإعجاز"^(٧)، ثم تتابعت الدراسات البلاغية للتقديم
 والتأخير حتى بلغت القمة على يد الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)، في
 كتابيهما "البرهان"^(٨)، و"الإتقان"^(٩)، حيث أسهبا في الحديث عن أسباب التقديم والتأخير
 وأنواعه وأقسامه وأغراضه، مستشهدين لذلك كله بالآيات من القرآن الكريم ، وبشعر العرب
 ونثرها ، ومدعمين ذلك بآراء أئمة اللغة .

(١) دلائل الإعجاز (ص ١٠٦) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/٢٣٣) .

(٣) الكتاب (٢/١٢٧-١٢٨) .

(٤) معاني القرآن (٣/٩٥) .

(٥) مجاز القرآن (٢/٣٨) .

(٦) المقتضب (٤/٨٧) .

(٧) (ص ١٠٦-١٤٥) .

(٨) (٣/٢٣٣-٢٨٧) .

(٩) (٤/١٣٩٩-١٤١١) .

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بالتقديم والتأخير .

تحدث الإمام ابن قتيبة عن التقديم والتأخير في "تأويل مشكل القرآن" في "باب المقلوب"، وجعله القسم الثالث من أقسام القلب - لأن التقديم والتأخير في حقيقته قلبٌ في المكان - وذكر الأمثلة على ذلك فقال :

"ومن المقلوب : أن يقدم ما يوضحه التأخير ، ويؤخر ما يوضحه التقديم ، كقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ ﴾^(١) ، أي : مُخْلَف رُسُلِهِ وعده؛ لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل ، فنقول : أخلفتُ الوعد، وأخلفتُ الرُّسل .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) ، أي : فَإِنِّي عَدُوٌّ لَهُمْ؛ لأن كل من عاديته عاداك.

وكذلك قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾^(٣) ، أي : تدلى فدنا ، لأنه تدلَّى للدُّنُو ، ودنا بالتدَلَّى . بالتدَلَّى .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾^(٤) ، أي : بل على الإنسان من نفسه بصيرةٌ ، يريد شهادة جوارحه عليه ؛ لأنها منه ، فأقامه مقامها .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾^(٥) ، أي : بَلَغْتُهُ .

وقال عز وجل : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾^(٦) ، أي : خُلِقَ العجل من الإنسان، يعني العجلة، كذلك قال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) "^(٧) .

ثم عاد في نهاية "باب المقلوب" فذكر أمثلة أخرى على التقديم والتأخير ؛ فقال:

(١) سورة إبراهيم : ٤٧ .

(٢) سورة الشعراء : ٧٧ .

(٣) سورة النجم : ٨ .

(٤) سورة القيامة : ١٤ .

(٥) سورة آل عمران : ٤٠ .

(٦) سورة الأنبياء : ٣٧ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٣-١٩٨) .

"ومن المقدم والمؤخر قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ

عَوَجًا ۗ ﴿١﴾ قَيِّمًا ۗ ﴿١﴾ ، أراد : أنزل الكتاب قَيِّمًا ولم يجعل له عوجًا .

وقوله : ﴿ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقٍ ۗ ﴿٢﴾ ، أي : بشرناها بإسحاق فضحكت .

وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ۗ ﴿٣﴾ ، أي : فعقروها ، فكذبوه بالعقر .

وقد يجوز أن يكون أراد : فكذبوا قوله : إنها ناقة الله ؛ فعقروها .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ۗ ﴿٤﴾ ، أي :

ولولا كلمة سبقت وأجلٌ مسمى ، لكان العذاب لزامًا .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۗ ﴿٥﴾ ،

أراد : لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم

الشیطان" (٦) .

كما اعتنى الإمام ابن قتيبة بهذا اللون البلاغي - التقديم والتأخير - في تفسيره، إذ كان

يقف عند بعض الآيات التي يُفسرها فَيُبيِّن موضع التقديم والتأخير فيها (٧) .

(١) سورة الكهف : ١-٢ .

(٢) سورة هود : ٧١ .

(٣) سورة الشمس : ١٤ .

(٤) سورة طه : ١٢٩ .

(٥) سورة النساء : ٨٣ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٠٥-٢٠٩) .

(٧) انظر : تفسير غريب القرآن (ص ١٠٤، ١٥٩، ٣٦٣، ٢٨٣، ٢٨٦، ٤٩٤)، المسائل والأجوبة (ص ٢٥٩، ٢٧٨)،

تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠٣، ٤٢٥) .

المطلب السابع : خروج الاستفهام عن معناه .

أولاً : تعريف الاستفهام ، ومفهوم خروجه عن معناه .

الاستفهام : طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل ، وهو الاستخبار الذي عرفه ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) بقوله:

"الاستخبار : طلب خبر ما ليس عند المستخبر ، وهو الاستفهام"، ومنهم من فرق بينهما، وقال: إن الاستخبار ما سبق أولاً ولم يُفهم حق الفهم ، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً^(١).

ومع أن الاستفهام في الأصل يكون لطلب الفهم ، والاستفهام عما لا يعلمه السائل؛ إلا أنه قد يخرج عن معناه الحقيقي ، فيقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الفهم ويريد به غير الاستفهام .

وقد ذكر المتقدمون كسيبويه (ت ١٨٠هـ)^(٢)، والفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٣)، وأبي عبيدة (ت عبيدة (ت ٢١٠هـ)^(٤)، والإمام ابن قتيبة والمبرد (ت ٢٨٥هـ)^(٥)، قسماً كبيراً من الأغراض الأغراض التي يخرج فيها الاستفهام عن معناه ، كما حرص المتأخرون كالسكاكي (ت ٦٢٦هـ)^(٦)، والقزويني (ت ٧٩٣هـ)^(٧)، والزرکشي (ت ٩١١هـ)^(٨)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٩)، على^(٩)، على حصر هذه الأغراض وترتيبها في مباحث الاستفهام .

يقول أبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ ﴾^(١٠) :
"هذا باب تفهيم ، وليس باستفهام عن جهل ليعلّمه ، وهو يخرج مخرج الاستفهام، وإنما يُراد به

(١) انظر : الصحاحي في فقه اللغة (ص ١٣٤)، مفتاح العلوم للسكاكي (ص ٣٠٨)، معجم المصطلحات البلاغية (١٨١/١)، المعجم المفصل (ص ١٢٣) .

(٢) الكتاب (٣٤٣/١)، (١٧٩/٢) .

(٣) معاني القرآن (٤/١)، (٢١، ٢٣، ٢٠٢، ٤٦٧) .

(٤) مجاز القرآن (٣٥/١)، (٢٨٧، ١٨٤، ١١٨/٢)، (١٢٣، ١٣٣) .

(٥) المقتضب (٥٣/٢)، (٢٢٨/٣)، (٢٦٤، ٢٦٨، ٢٨٩) .

(٦) مفتاح العلوم (ص ٣٠٨-٣١٧) .

(٧) الإيضاح في علوم البلاغة (ص ١٣٩-١٤٩) .

(٨) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٢٨-٣٥١) .

(٩) الإتيان (٥/١٧٠١-١٧١٢) .

(١٠) سورة المائدة : ١١٦ .

النهي عن ذلك ، ويُتهدَّدُ به ، وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن ، وقال جرير (ت ١١٠هـ):

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونٍ رَاحٍ^(١)
ولم يَسْتَفْهِمَ ، ولو كان استفهماً ما أعطاه عبدالمملك - بن مروان - (ت ٨٦هـ) مائة من الإبل بِرُعَاتِهَا^(٢).

ثانياً : اهتمام ابن قتيبة بخروج الاستفهام عن معناه .

كان الإمام ابن قتيبة من أوائل الذين حرصوا على الوقوف على الأغراض التي يستعمل فيها الاستفهام في غير معناه ، وقد تحدث عن هذه الأغراض في "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه" في كتابه "تأويل مشكل القرآن" وذلك حين تحدث عن أساليب العرب ، فذكر منها أنها قد تستعمل الاستفهام في غير معناه، كما عرض لأغراض أخرى في "تفسير غريب القرآن" حين فسّر الآيات التي خرج الاستفهام فيها عن معناه ؛ ومن الأغراض التي ذكرها في مصنفاته ، ما يلي :

١ . التقرير .

يقول ابن قتيبة : "ومنه - أي مخالفة ظاهر اللفظ معناه - أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام ، وهو تقرير"^(٣).

ثم مثل لهذا الغرض بقوله تعالى : ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ^(٦) .

(١) البيت في ديوانه (ص ٧٧) .

(٢) مجاز القرآن (١/١٨٤) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٩) .

(٤) سورة المائدة : ١١٦ .

(٥) سورة القصص : ٦٥ .

(٦) سورة الأنبياء : ٤٢ .

ويذكر أن الاستفهام لغرض التقرير في قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾^(١)، ثم يقول في تفسير الآية:

"أراد أن يقررهم بخلقه لهم، ويُفهمهم أن من خَلَقَ السماء على عِظَمِها قادرٌ على أن يَخْلُقَ ما دونها"^(٢).

٢. التوبيخ.

يقول ابن قتيبة: "ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو توبيخ، كقوله تعالى:

﴿آتَاتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)^(٤).

وربما ذكر الإمام ابن قتيبة أن الاستفهام يأتي لغرض التقرير والتوبيخ - معاً - في المثال

الواحد، فحين عرض لمعاني "هل" في اللغة؛ قال:

"هل" تكون للاستفهام، ويدخلها من معنى التقرير والتوبيخ ما يدخل الألف التي

يُسْتَفْهَمُ بها، كقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ﴾^(٥)؛ وهذا

وهذا استفهام فيه تقرير وتوبيخ، وكذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ

يُعِيدُهُ﴾^(٦)^(٧).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي

الْأَسْبَابِ﴾^(٨)؛ قال:

"ونحو هذا قوله في موضع آخر: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ

(١) سورة النازعات: ٢٧.

(٢) المسائل والأجوبة (ص ٢٦٢).

(٣) سورة الشعراء: ١٦٥.

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٩).

(٥) سورة الروم: ٢٨.

(٦) سورة يونس: ٣٤.

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٣٨).

(٨) سورة ص: ١٠.

﴿مُبِينٍ﴾^(١)؛ وهذا كله توبيخ وتقرير بالعجز"^(٢).

٣ . التعجب .

يقول ابن قتيبة : "ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام ، وهو تعجب ، كقوله تعالى :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾^(٣)، كأنه قال : عم يتساءلون يا محمد ؟ ثم قال : عن النبأ العظيم يتساءلون"^(٤).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(٥)؛ قال :
"هذا على جهة التعجب ، كما تقول : ألا ترى ما يصنع فلان"^(٦).

وفسر قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهٖ﴾^(٧)، حتى بلغ قوله

تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾^(٨)؛ فقال :

"أي : هل رأيت أحداً كالذي حاج إبراهيم في ربه ، أو كالذي مرَّ على قرية؟! على طريق التعجب"^(٩).

٤ . التعظيم .

وقد ذكر هذا الغرض حين فسر قوله تعالى : ﴿لَأَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾^(١٠)؛ فقال :
"استفهام على التعظيم ؛ كما يقال : ليومٍ أيَّ يوم"^(١١).

(١) سورة الطور : ٣٨ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٥١) .

(٣) سورة النبأ : ١-٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٩) .

(٥) سورة البقرة : ٢٤٣ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٩٢) .

(٧) سورة البقرة : ٢٥٨ .

(٨) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٩٤) .

(١٠) سورة المرسلات : ١٢ .

(١١) تفسير غريب القرآن (ص ٥٠٦) .

ويُحسب للإمام ابن قتيبة في هذا الباب أن غالب حديثه عنه كان مجموعاً في موضع واحد في "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه" ، وهو ما كان مفقوداً عند سابقيه ، إذ كان حديثهم عن هذه الأغراض متفرقاً بحسب الآيات التي يفسرونها ، أو الموضوعات التي يعالجونها^(١).

المطلب الثامن : أساليب الخطاب .

المراد بالخطاب : الكلام الذي يقصد به الإفهام ، أو هو : اللفظ المتواضع عليه ، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه^(٢).

والتنوع في الخطاب والتصرف فيه بألوان التصرف تحسیناً في الكلام أو تقريراً للمعاني المختلفة معروف عند العرب وهو أسلوب من أساليبهم في الكلام ، وقد أشار إلى ذلك الإمام ابن قتيبة بقوله :

"وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها : طرق القول وماأخذه ، ففيها : ... مخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن"^(٣).

وقد نزل القرآن الكريم بهذه الأساليب ، وتنوع الخطاب فيه على وجوه متعددة ، أوصلها بعض أهل العلم إلى نحو أربعين وجهاً^(٤).

وقد ذكر الإمام ابن قتيبة بعض وجوه الخطاب في القرآن الكريم ؛ منها :

١ . خطاب الواحد بلفظ الجمع .

وقد تحدث ابن قتيبة عن هذا النوع في "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه" ؛ فقال :

"ومنه أن يخاطب الواحد بلفظ الجميع، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾^(٥) ، وأكثر وأكثر من يخاطب بهذا الملوك ؛ لأن من مذاهبهم أن يقولوا : نحن فعلنا ، يقوله الواحد منهم

(١) وانظر - للاستزادة - : البحث البلاغي عند ابن قتيبة (ص ١٨٠-١٨٢) .

(٢) الكليات للكفوي (ص ٤١٩) ، علوم القرآن بين البرهان والإتقان (ص ٣٠٤) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٠-٢١) .

(٤) انظر : البرهان في علوم القرآن (٢/٢١٧) ، الإتقان في علوم القرآن (٤/١٤٩٤) .

(٥) سورة المؤمنون : ٩٩ .

يعني نفسه ، فحُوطبوا بمثل ألفاظهم ، يقول الله عز وجل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾^(١)، وقال: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(٢).

ثم مثل لذلك - أيضاً - بقوله عز وجل: ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾^(٣)، وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَتُوا بِآبَائِنَا ﴾^(٥)||^(٦).

وأعاد التذكير بهذا النوع من الخطاب في "تفسير غريب القرآن" حين فسّر قوله تعالى: ﴿

يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾^(٧)؛ فقال:

"خوطف به النبي صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجمع"^(٨).

٢ . خطاب الجمع بلفظ الواحد .

ذكر ابن قتيبة هذا النوع - أيضاً - في "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه"؛ فقال:

"ومنه واحد يراد به جميع" ، ومثّل له من القرآن الكريم^(٩).

وتحدث عنه - أيضاً - عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

فَسَأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾^(١٠)؛ فقال:

(١) سورة يوسف : ٣ .

(٢) سورة القمر : ٤٩ .

(٣) سورة يونس : ٨٣ .

(٤) سورة هود : ١٤ .

(٥) سورة الدخان : ٣٦ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٩٣-٢٩٤) .

(٧) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٨) (ص ٢٩٧) .

(٩) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨٤-٢٨٥) .

(١٠) سورة يونس : ٩٤ .

"... فخطب الله سبحانه هذا الصنف من الناس - أي صنف الشاك في الأمر - فقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فسل أكابر أهل الكتاب والعلماء الذين يقرؤون الكتاب من قبلك،... وَحَدَّ وَهُوَ يريد الجمع، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(١)، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾^(٣)، رَبَّهُ،^(٤) لم يُرد في جميع هذا إنساناً بعينه، إنما هو لجماعة الناس"^(٥).

٣ . خطاب الواحد والجمع بلفظ الاثنين :

وفيه يقول ابن قتيبة : "ومنه أن تأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمرك الاثنين؛ فتقول : افعلوا. قال الله تعالى : ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٥)؛ الخطاب لخزنة جهنم، أو زبانيتهها .
قال الشاعر:

فإن تزجراني يا ابن عَمَّانَ أَنْزَجِرْ وإن تَدَعَانِي أَحْمَ عَرَضاً مُنْعَاً^(٦)

قال الفراء (ت ٢٠٧هـ) :

"ونرى أصل ذلك أن الرُفْقَةَ أدنى ما تكون ثلاثة نفر ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ؛ ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قِيلاً : "يا صاحبيّ ويا خليلي"^(٧).

٤ . خطاب الواحد والاثنين بلفظ الجمع .

وقد تحدث عنه بإسهاب في "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه" ؛ فقال :

(١) سورة الانفطار : ٦ .

(٢) سورة الانشقاق : ٦ .

(٣) سورة الزمر : ٨ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٢-٢٧٣) .

(٥) سورة ق : ٢٤ .

(٦) البيت لسويد بن كراع العُكَلِي كما في اللسان (٣١٩/٥)، وهو غير منسوب في الصاحبي (ص ١٦٦)، وخزانة الأدب

(١٧/١١) .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٩١-٢٩٢) .

"ومنه جميع يراد به واحد واثنان ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِشَهِدَ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ، واحد واثنان فما فوق .

وقال قتادة (ت ١١٧هـ) في قوله تعالى : ﴿ إِن نَّعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ ﴾^(٢) : كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي صلى الله عليه ، ويسير بجانباً لهم ، فسماه الله طائفة وهو واحد^(٣) .

وكان قتادة يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾^(٤) : هو رجل واحد ، ناداه : يا محمد ، إِنَّ مَدْحِي زَيْنٌ ، وَإِنَّ شَتْمِي شَيْنٌ ، فخرج إليه النبي صلى الله عليه ، فقال : "ويلك، ذاك الله جل وعز" ونزلت الآية^(٥) .

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ ﴾^(٦) ، أي أخوان فصاعداً .

وقوله : ﴿ إِن نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾^(٧) ، وهما قلبان^(٨) .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾^(٩) ، يعني عائشة (ت ٥٨هـ) ، وصفوان ابن المعطل (ت ١٩هـ) .

(١) سورة النور : ٢ .

(٢) سورة التوبة : ٦٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري (٥٤٧/١١) .

(٤) سورة الحجرات : ٤ .

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٤٧/٢١) .

(٦) سورة النساء : ١١ .

(٧) سورة التحريم : ٤ .

(٨) روى الواحدي في أسباب نزول القرآن (ص ٤٦٩) بسنده إلى ابن عباس قال : "وجدت حفصة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مع أم إبراهيم في يوم عائشة ، فقالت : لأخبرتها ، فقال رسول الله : هي علي حرام إن قريتها ، فأخبرت عائشة بذلك ، فأعلم الله رسوله ذلك فعرف حفصة بعض ما قالت فقالت له : من أخبرك؟ فقال : ﴿ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ ﴾

الْحَيِّرُ ﴿ فَأَلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ نَسَائِهِ شَهْرًا : فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِن نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

(٩) سورة النور : ٢٦ .

وقال: ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١)، وهو واحد، يدل ذلك على قوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ إِلَيْهِمْ﴾^{(٢) (٣)}.

٥ . خطاب الخاص والمراد به العموم .

وأشهر ما يدخل في هذا النوع من الخطاب : ما خُوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ، وقد تحدث عنه الإمام ابن قتيبة حين فسّر الآيات التي جاء فيها هذا النوع من الخطاب ، ومن ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٤)؛ قال:
"وفيه تأويلان :

أحدهما : أن تكون المخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره من الشكاك، لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم ، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره .

ومثله قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٥)، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالوصية والعظة المؤمنون ، يدل على ذلك أنه قال : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٦)، ولم يقل بما تعمل خبيراً .

ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾^(٧)، أي سل من أرسلنا إليه من قبلك رسلاً من رسلنا، يعني أهل الكتاب، فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد المشركون"^(٨).

(١) سورة النمل : ٣٥ .

(٢) سورة النمل : ٣٧ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨٢-٢٨٤) .

(٤) سورة يونس : ٩٤ .

(٥) سورة الأحزاب : ١ .

(٦) سورة الأحزاب : ٢ .

(٧) سورة الزخرف : ٤٥ .

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢): "الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد غيره"^(٣).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾^(٤)؛ قال:

"وما أصابك من حسنة ، أي من خير ، فمن الله وما أصابك من سيئة ، أي من شر ، فمن نفسك ، أي بذنبك ، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره"^(٥).

ونصّ على عموم الخطاب في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾^(٦)؛ بقوله: "الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو المؤمنون"^(٧).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٠) .

(٢) سورة هود : ١٧ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٩٦) .

(٤) سورة النساء : ٧٩ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٩٢)، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ١٣١) .

(٦) سورة الطلاق : ١ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٤٧٠) .

الفصل الرابع

اهتمام ابن قتيبة بالجانب النحوي والصرفي

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: بيانه أهمية الإعراب في تفسير القرآن الكريم

المبحث الثاني: اهتمامه بالإعراب واستقلالته فيه .

المبحث الثالث : اهتمامه بالصرف .

المبحث الأول

بيانه أهمية الإعراب في تفسير القرآن الكريم

للإعراب صلة وثيقة بالعلوم الشرعية من التفسير والقراءات والحديث والفقہ ، ففي مجال التفسير والقراءات تجد المفسرين قد جعلوا الإعراب أساساً مهماً في التوجيه المعنوي للنص القرآني ، وبيان الأوجه التي تدل على الكلمة ذات التغيرات الإعرابية ، وكان للقراءات أثرها في التعليل الإعرابي لتلك الكلمة ، وفي مجال الحديث اعتمد العلماء الإعراب في كثير من الأحكام التي استنبطوها من الأحاديث ، فضلاً عن أهمية الإعراب في إيضاح المعاني التي يحتملها الحديث ، أما في مجال الفقه فتجد كثيراً من الأحكام الفقهية قد قررها الفقهاء بمقتضى اختلاف الحركة الإعرابية ، وهذا يدل على الأثر العظيم للإعراب في العلوم الشرعية^(١) .

ولهذا فقد اعتنى المفسرون بالإعراب عناية فائقة ، وتضافرت أقوالهم في بيان أهميته وأثره في تفسير القرآن الكريم .

فها هو الفراء (ت ٢٠٧هـ) يضع كتابه "معاني القرآن" لتفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه، ويُعنى فيه عناية خاصة بمسائل النحو والإعراب التي لها ارتباط بالآيات القرآنية الكريمة، وإلى جانب ذلك يتناول القراءات القرآنية ويوجهها توجيهاً نحوياً وإعرابياً، وكان كتابه هذا - بحق - من أجلّ كتب التفسير اللغوي التي تبرز متانة العلاقة بين علمي النحو والتفسير .

ويأتي الإمام مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) فيضع كتابه "مشكل إعراب القرآن" ويُقدّم له فيقول :

"رأيتُ من أعظم ما يجب على طالب علوم القرآن ، الراغب في تجويد ألفاظه وفهم معانيه ، ومعرفة قراءاته ولغاته ، وأفضل ما القارئ إليه محتاج ؛ معرفة إعرابه ، والوقوف على تعرّف حركاته وسواكته ، ليكون بذلك سالماً من اللحن فيه، مستعيناً على إحكام اللفظ به ،

(١) انظر : أهداف الإعراب وصلته بالعلوم الشرعية، د.عبدالقادر بن عبدالرحمن السعدي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، العدد (٢٧)، جمادى الثانية ١٤٢٤هـ، (ص٥٦١)، أصول التفسير وقواعده (ص١٥٦).

مطلعاً على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات ، متفهماً لما أراد الله تبارك وتعالى به من عباده ؛ إذ بمعرفة حقائق الإعراب تُعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد ، ويُفهم الخطاب، وتصحُ معرفة حقيقة المراد"^(١).

وينوّه بهذه الأهمية العكبري (ت ٦١٦ هـ) في مقدمة كتابه "التبيان في إعراب القرآن"؛ فيقول :

"وأفومُ طريق يسلك في الوقوف على معناه - أي القرآن - ويتوصل به إلى تبين أغراضه ومغزاه ؛ معرفة إعرابه ، واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه ، والنظر في وجوه القرآن المنقولة عن الأئمة الأثبات"^(٢).

وقد كان إمامنا ابن قتيبة من أوائل الأئمة الذين تحدثوا عن أهمية الإعراب ، فبيّن في مقدمة "تأويل مشكل القرآن" أن الإعراب من الخصائص التي تميزت بها لغة العرب، وذكر بعض الأمثلة على أثر الإعراب في الدلالة على المعنى المراد ، وفي ذلك يقول :

"ولها - أي العرب - الإعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها ، وحلية لنظامها، وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين ، والمعنيين المختلفين ، كالفاعل والمفعول، لا يُفرق بينهما، إذا تساوت حالهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحدٍ منهما إلا بالإعراب .

ولو أن قاتلاً قال: "هذا قاتلٌ أخي" بالتنوين، وقال آخر: "هذا قاتلٌ أخي" بالإضافة، لدلّ التنوين على أنه لم يقتله، ودلّ حذف التنوين على أنه قد قتله.

ولو أن قارئاً قرأ: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾^(٣)، وترك طريق الابتداء بإنّاً ، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب "أنّ" بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى عن جهته ، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبيّ - عليه السلام - محزوناً لقولهم : إنّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهذا كفرٌ ممن تعمّده ، وضربٌ من اللحن لا تجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمؤمنين أن يتجوّزوا فيه.

(١) (١/١) .

(٢) (١/١) .

(٣) سورة يس : ٧٦ .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يقتل قرشي صبراً" (١) بعد اليوم" (٢).
فمن رواه "جزماً" أوجب ظاهر الكلام للقرشي ألا يُقتل إن ارتد ، ولا يُقتص منه إن قُتل.

ومن رواه "رفعاً" انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش: أنه لا يرتد منها أحدٌ عن الإسلام فيستحق القتل.

أفما ترى "الإعراب" كيف فرّق بين هذين المعنيين" (٣).

كما عقد الإمام ابن قتيبة فصلاً في "كتاب العلم والبيان" من كتب "عيون الأخبار" وسمه بـ "الإعراب واللحن" ذكر فيه جملة من الأخبار والأقوال التي تبين أهمية الإعراب، ونقل في فاتحته خبراً طريفاً عن الأصمعي (ت ٢١٤هـ) يبين أثر الإعراب في تغير المعنى؛ فقال: "حدثني أبو حاتم - السجستاني - (ت ٢٥٥هـ) عن الأصمعي قال: سمعت مولى لآل عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه يقول : أخذ عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) رجلاً (٤)، كان يرى رأي الخوارج رأي شبيب (ت ٧٧هـ) (٥)، فقال له:

ألست القائل :

وَمِنَّا سُؤْيِدٌ وَالبَطِينُ وَقَعْنَبُ وَمِنَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَبِيبٌ (٦)

(١) جاء في اللسان (٤/٤٣٧) مادة "صبر" : "الصَّبْرُ : نَصَبُ الْإِنْسَانِ لِلْقَتْلِ ، وَأَصْلُ الصَّبْرِ : الْحَبْسُ ، وَكُلُّ مَنْ حَبَسَ شَيْئاً فَقَدْ صَبَّرَهُ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلرَّجُلِ يُقَدَّمُ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ ، قُتِلَ صَبْرًا ؛ يَعْنِي : أَنَّهُ أُمْسِكَ عَلَى الْمَوْتِ " .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد ، باب لا يقتل قرشي صبراً بعد الفتح ح(٤٦٢٧) (ص ٩٩٥) من حديث مطيع بن الأسود رضي الله عنه.

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١٤-١٥) .

(٤) هو عثبان الحروري ، كما ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/١٤٧) .

(٥) شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني الخارجي صاحب الشيبية ، كان من أصحاب صالح بن مُسَرِّحِ التميمي رأس الصفرية ، ثم تولى الأمر بعده على جنده ، كان من أهل القوة البالغة والبأس الشديد والمعرفة التامة بأمر الحروب؛ انتصر على جيوش الحجاج الكثيفة ، وقتل خمسة من كبار قواده ، مات غرقاً في دُجَيْل سنة ٧٧هـ حين أراد أن يقتحم بفرسه النهر فسقط فيه، ثم خلفته امرأته غزاة حتى قُتلت . [المعارف (ص ٢٣٢)، سير أعلام النبلاء (٤/١٤٦)، البداية والنهاية (١٢/٢٧٤)] .

(٦) البيت لعثمان بن أصيلة الحروري في "شعر الخوارج" (ص ١٨٢)، وهو غير منسوب في المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٨٥)، وجمهرة اللغة (١/٣٦١)، وسويد بن سليم والبطين بن قعنب وقعنب بن سويد كانوا من قادة جند شبيب.

فقال: إنما قلتُ "ومنا أمير المؤمنين شبيب" بالنصب "أي يا أمير المؤمنين، فأمر بتخليفة سبيله"^(١).

وفيه يقول - أيضاً - :

"يقال: النحو في العلم بمنزلة الملح في القدر ، والرّامك^(٢) في الطيب، ويقال: الإعراب حلية الكلام ووُشْيُهُ ، وقال بعض الشعراء :

النحو يُبْسَطُ من لسانِ الأَلَكَنِ
وإذا طلبت من العلوم أجَلَهَا
والمَرءُ تُكْرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
فأَجَلُهَا منها مُقِيمُ الأَلْسُنِ^{(٣)»}^(٤)

(١) عيون الأخبار (١٥٥/٢) .

(٢) الرّامك : شيء أسود كالقار يخلط بالمشك فيجعل سُكًّا . [تهديب اللغة مادة "رمك" (١٠/١٣٧)] .

(٣) البيتان لإسحاق بن خلف البهراني كما في الكامل للمبرد (١٩/٢) .

(٤) عيون الأخبار (١٥٧/٢) .

المبحث الثاني

اهتمامه بالإعراب واستقلالته فيه

الإمام ابن قتيبة معدودٌ من النحويين المتقدمين ، فقد صَنَّف فيه كتبه "جامع النحو الكبير" ، و"جامع النحو الصغير" ، و"إعراب القرآن" ، وجميعها مفقودة ، والمطلع على بقية مصنفاته يجده على دراية واسعة في هذا العلم ، كيف لا؟ وقد أخذ علم النحو عن ثلاثة من كبار مشايخه ؛ هم :

١ . أبو الفضل الرياشي (ت ٢٥٧هـ) ، الإمام النحوي الذي قرأ على أبي عثمان المازني كتاب سيبويه ، فكان المازني يقول: "قرأ علي الرياشي الكتاب ، وهو أعلم به مني" ، كما أخذ عن الأصمعي (ت ٢١٤هـ) ، وأبي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ) ، وكان يحفظ كتبهما^(١) .

٢ . أبو إسحاق إبراهيم الزبادي (ت ٢٤٩هـ) النحوي اللغوي ، تلميذ سيبويه ، وواسطة ابن قتيبة فيما يرويه عنه .

٣ . أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) الإمام النحوي ، الذي تتلمذ على يد الأخفش (ت ٢١٥هـ) - كبير أئمة النحو بعد سيبويه - وقرأ عليه كتاب سيبويه ، قال المبرد (ت ٢٨٥هـ) : "سمعت أبا حاتم يقول : قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين"^(٢) .

وقال أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) :

"كان أبو حاتم في نهاية الثقة والإتقان ، والنهوض باللغة والقرآن ، مع علم واسع بالإعراب أيضاً ، أخذ ذلك عن الأخفش"^(٣) .

ولأن هؤلاء الأئمة الثلاثة - الذين أثاروا حصيلة ابن قتيبة النحوية - ومشايخهم بصريون ، - وقد ذكر في أكثر من موضع أنه قرأ كتاب سيبويه على البصريين^(٤) - ؛ فقد ظهر أثر ذلك جلياً في مصنفاته ، إذ كان ينقل كثيراً عن البصريين ويقتصر عليهم غالباً في المسائل

(١) انظر : تاريخ بغداد (١٣٨/١٢) ، نزهة الألباء (ص ١٥٢) .

(٢) انظر : نزهة الألباء (ص ١٩٩) ، البداية والنهاية (٣/١١) .

(٣) مراتب النحو (ص ٨٠) .

(٤) انظر : المسائل والأجوبة (ص ٢١٨ ، ٤٠٩) .

النحوية التي يعرض لها^(١)، ومع هذا لم يكن الإمام ابن قتيبة - كغيره من النحاة المتقدمين - ملتزماً بشكل تام بإحدى المدرستين: البصرية والكوفية؛ بل كان يخلط بينهما ويرجح ويختار، وهو بهذا العمل وضع نواة لمدرسة جديدة في النحو، وهي المدرسة البغدادية، التي انتحبت من آراء المدرستين البصرية والكوفية^(٢)، وقد ذكر غير واحد أن رأس هذه المدرسة هو إمامنا ابن قتيبة.

فها هو ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) في "الفهرست" يضع الإمام ابن قتيبة على رأس النحويين الذين خلطوا بين المذهبين؛ ويقول:

"كان ابن قتيبة يخلو في البصريين إلا أنه خلط المذهبين وحكى في كتبه عن الكوفيين، وكان صادقاً فيما يرويه، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه، والشعر والفقهاء"^(٣).

ويقول كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م) في "تاريخ الأدب العربي":

"ويعتبر ابن قتيبة في كتب الأدب إمام مدرسة بغداد النحوية التي خلطت بين مذهبي البصرة والكوفة"^(٤).

ويقول د. محمد حسين الصغير: "... وهذا الملحظ هو الذي امتد به فضل الكوفة وريادتها الأولى إلى بغداد، فأدى إلى تأسيس مدرسة بغداد في اللغة والتفسير والبيان العربي؛ إذ كان رئيس هذه المدرسة ومؤسسها الحقيقي هو ابن قتيبة، وقد ولد في الكوفة وانتقل إلى بغداد، وظل يزاوّل التدريس والتعليم: تفسيراً ونحواً وبلاغة، وهناك ألف كتبه القيمة الثمينة السيارة مع كل جيل، وقد نشأ في ظلال ابن قتيبة وجهوده المبتكرة - وامتد من بعده - كيان مستقل عظيم للقراء في مدرسة بغداد، حتى نشأ أبو بكر بن مجاهد التميمي (ت ٣٢٤هـ) فكان إمام القراء، وهو أول من سبغ القراءات القرآنية في كتابه "القراءات السبع"^(٥).

(١) انظر: أدب الكاتب (ص ١٣١، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦)، غريب الحديث (٣٣/٢).

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان (١٢٧/٢)، المدارس النحوية، د. شوقي ضيف (ص ٢٤٥)، المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي (ص ٢٠٤).

(٣) الفهرست (ص ٨٥).

(٤) (٢٢١/٢).

(٥) نظرات معاصرة في القرآن الكريم (ص ٥٧).

والإمام ابن قتيبة لم يقتصر في مزجه بين المذهبين على المسائل النحوية فحسب ؛ بل يمزج بينهما - أيضاً - في المصطلحات ، فيستعمل الاصطلاح الكوفي تارة ، والبصري تارة أخرى ، كما فعل في "تأويل مشكل القرآن" ، حيث عقد باباً وسمه بـ"باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرف" ، والتعبير بحروف المعاني اصطلاح بصري^(١) ، ثم بصري^(٢) ، ثم أعقب هذا الباب مباشرة بـ"باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض" ، بعض" ، والتعبير بحروف الصفات اصطلاح كوفي^(٣) .

ومع ما تميز به ابن قتيبة من علم ودراية واسعة بالنحو ، إلا أن الملاحظ أنه كان يوجز في ذكر الإعراب في تفسيره جرياً على عاداته في التخصص والميل إلى الاختصار ، فكان عند تفسيره للآيات يعربها إعراباً مختصراً للمشكل فقط ، وغالباً ما يكون لذلك علاقة ببيان المعنى ، ومن الأمثلة على ذلك:

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) ؛ قال:

"أراد: آتينا موسى الكتاب تماماً على المحسنين ، كما تقول: أوصي بمال للذي غزا وحج ، تريد الغازين الحاجين ، ويكون "الذي" في موضع "من" كأنه قال: تماماً على من أحسن .
والمحسنون : هم الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين ، والمؤمنون ، و"على" في هذا الموضع بمعنى "لام الجر" كما يقال: أتمَّ الله عليه وأتمَّ له .
قال الراعي (ت ٩٠ هـ) :

رَعَتْهُ أَشْهُرًا وَخَلَا عَلَيْهَا فَطَارَ الْيَتَّى فِيهَا وَاسْتَعَارَ^(٥)

(١) ذكر المفضل بن سلمة الكوفي في كتابه "البارع" الحروف التي جاءت لمعانٍ بعد أن ذكر أبنية الكلام؛ فقال: "والحد الثالث من الكلام : الأدوات ، وهي التي يُسَمِّيها أهل البصرة "حروف المعاني" . [نقلًا عن الحموي في معجم الأدباء (١٩٦٦/٥)] .

(٢) قال السيوطي في همع الهوامع (٤١٣/٢): "حروف الجر، ويسميتها الكوفيون "حروف الإضافة"؛ لأنها تضيف الفعل إلى الاسم، أي توصله إليه وتربطه به ، و"حروف الصفات"؛ لأنها تحدث صفة في الاسم، فقولك: جلست في الدار، دلت "في" على أن الدار وعاء للجلوس ، وقيل: لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات" .
(٣) سورة الأنعام : ١٥٤ .

(٤) البيت في ديوانه (ص١١٣)، وقال الأزهري في تهذيب اللغة (١٦٤/٨): "معنى استعار في هذا البيت، أي: اشتد وصلب، يعني شحم الناقة ولحمها إذا اكتنز ، كما يستغبرُ الجبلُ إذا أُغبر؛ أي : شُدَّ فَتُلَّهُ" ، واليُّ هو الشحم .

أراد : وخلا لها .

وتلخيصه: آيتنا موسى الكتاب تميماً منا للأنبياء والمؤمنين الكُتُب، ﴿وَتَفْصِيلاً﴾^(١) منا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ .
وقد يكون أن يُجعل "الذي" بمعنى "ما" أي آيتنا موسى الكتاب تماماً على ما أحسن من العلم والحكمة وكتب الله المتقدمة ، وأراد بقوله : ﴿تَمَامًا﴾ على ذلك ، أي زيادة على ذلك"^(١).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٢)؛ قال :
"والشهر منصوب لأنه ظرف ، ولم ينصب بإيقاع "شهد" عليه، كأنه قال: فمن شهد منكم في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم ، لأن الشهادة للشهر قد تكون للحاضر والمسافر"^(٣).
ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٤):
"وساء سبيلاً : أي قبح هذا الفعل فعلاً وطريقاً ، كما تقول: ساء هذا مذهباً ، وهو منصوب على التمييز ، كما قال : ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾^(٥) (٦).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٩٧-٣٩٨) .

(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٧٣) .

(٤) سورة النساء : ٢٢ .

(٥) سورة النساء : ٦٩ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ١٢٣)، وانظر - للاستزادة - : (ص ٢٢، ٣٩، ١٥٠، ٢٤٧، ٢٦٦، ٤١٣، ٤١٧)،

تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢٨، ٤٢٩، ٥١٧، ٥٣٠، ٥٦٥).

المبحث الثالث

اهتمامه بالصرف

اعتنى علماء اللغة والمفسرون بالصرف بعناية فائقة لوشيخته الوثيقة باللغة ، وما يطرأ على مفرداتها من تغيرات، وصيغها المتعددة من أحوال ، وتظافت أقوالهم على بيان أهميته، والحث على تعلمه .

يقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ) :

"التصريف يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم الحاجة ، ولهم إليه أشد فاقة ، لأنه ميزان العربية ، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به"^(١).

ويتحدث ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) عن الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع ؛ فيقول :

"يقع ذلك بين المتخاطبين من وجهين : أحدهما : الإعراب ، والآخر: التصريف ... ، وأما التصريف فإن من فاته علمه فاته المعظم ، لأننا نقول : "وَجَدَّ" وهي كلمة مبهمة ، فإذا صرفنا أفصحنا ، فقلنا في المال : "وُجِدًا" ، وفي الضالة "وَجِدَانًا" وفي الغضب "مُوجِدَةً" وفي الخزن: "وَجْدًا" ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(٣) ؛ كيف تحول المعنى بالتصريف من العدل إلى الجور"^(٤).

ولهذا نصّ الزركشي (ت ٧٩٤هـ) على أهمية التصريف ، ووجوب العلم به لمن أراد تفسير القرآن العظيم ؛ فقال :

(١) المنصف (٢/١) .

(٢) سورة الجن : ١٥ .

(٣) سورة الحجرات : ٩ .

(٤) الصاحبي في فقه اللغة (ص١٤٣-١٤٤) .

"وفائدة التصريف : حصول المعاني المختلفة المتشعبة عن معنى واحد، فالعلم به أهم من معرفة النحو في تعرف اللغة ؛ لأن التصريف نظر في ذات الكلمة ، والنحو نظر في عوارضها، وهو من العلوم التي يحتاج إليها المفسر"^(١).

وقد أدرك الإمام ابن قتيبة هذه الأهمية للصرف وعُني به عناية واضحة في تفسيره ، تدل على قدم راسخة في هذا العلم ، ولا أدل على ذلك من تخصيصه كتاباً كاملاً في "أدب الكاتب" للصرف ، وسمه بـ"كتاب الأبنية"، وهو من أوائل المصنفات ، ويعد من اللبنة الأساسية لهذا الفن اللغوي ، وقد حوى هذا الكتاب تطبيقاً واسعاً ثرياً عميقاً على أبنية الأفعال والأسماء من صيغ واشتقاقات ، ومن الأمثلة على تلك الأبواب التي طرقها في هذا الكتاب :

- . باب "فَعَلْتُ" و "أَفَعَلْتُ" باتفاق المعنى .
- . باب "فَعَلْتُ" و "أَفَعَلْتُ" باتفاق المعنى واختلافهما في التعدي .
- . باب "أَفَعَلْتُ" و "أَفَعَلْتُ" بمعنيين متضادين .
- . باب "فَعَلْتُ" و "فَعَلْتُ" بمعنيين متضادين .
- . باب فَعَلْتُهُ فأنْفَعَلَ وأَفْتَعَلَ .
- . باب أبنية من الأفعال مختلفة بالياء والواو بمعنى واحد .
- . باب ما يهمز أوله من الأفعال ، ولا يهمز بمعنى واحد .
- . باب المبدل .
- . باب شواذ البناء .

وتحدث الإمام ابن قتيبة في مقدمة "تأويل مشكل القرآن" عن خصائص لغة العرب، فذكر الصرف وبيّن أثره في الدلالة على المعنى ؛ فقال :

"وقد يفرقون بحركة البناء في الحرف الواحد بين المعنيين ، فيقولون : "رَجُلٌ لُغْنَةٌ" إذا كان يلعنه الناس، فإن كان هو الذي يلعن الناس، قالوا: "رَجُلٌ لُغْنَةٌ" فحركوا العين بالفتح. و"رَجُلٌ سُبَّةٌ" إذا كان يسبه الناس ، فإن كان هو الذي يسبُّ الناسَ قالوا: "رَجُلٌ سُبَّةٌ".

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٣٧٣) .

وكذلك : "هُزَأٌ، وَهُزَأَةٌ" و"سُخِرَتْ، وَسُخِرَةٌ" و"ضُحِكَتْ وَضُحَكَةٌ" و"خُدَعَةٌ، وَخُدَعَةٌ"

....

وقد يكتنف الشيء معان فيشتق لكل معنى منها اسم من اسم ذلك الشيء ، كاشتقاقهم من البطن للخميص : "مَبْطَنٌ" وللعظيم البطن إذا كان خِلْقَةً: "بَطِينٌ" فإذا كان من كثرة الأكل قيل: "مَبْطَانٌ" ، وللمنهوم : "بَطْنٌ" وللعليل "مَبْطُونٌ".

ويقولون : وَجَدْتُ الضَّالَّةَ ، وَوَجَدْتُ فِي الغُضْبِ ، وَوَجَدْتُ فِي الحِزْنِ، وَوَجَدْتُ فِي الاستِغْنَاءِ ، ثم يجعلون الاسم في الضالة "وُجُوداً" و"وَجْدَاناً" ، وفي الحزن "وَجْداً" ، وفي الغضب "مَوْجِدَةً" ، وفي الاستغناء "وُجْداً" ^(١).

كما تجلت عناية الإمام ابن قتيبة بالصرف في تفسيره في صور كثيرة ؛ منها :

١ . العناية بالوزن الصرفي للكلمة .

والأمثلة على هذه العناية كثيرة ؛ منها :

قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ^(٢):

"ويقال: العابدون ههنا : الغَضَابُ الآنفون ، يقال: عَبِدْتُ من كذا أَعْبَدُ عَبْدًا، وأكثر ما تأتي الأسماء من فَعِلٍ يَفْعَلُ "على فَعِلٍ" كقوله : وَجَلَّ يُوَجِّلُ فهو وَجَلٌّ ، وَفَزَعٌ يَفْزَعُ فهو فَزِيعٌ . وربما جاء على "فاعل" نحو عَلِمَ يعلم فهو عالمٌ .

وربما جاء منه على "فَعِلٍ" و"فاعِلٍ" نحو صَدَيْ يَصْدِي فهو صَدٍ وصادٍ .

كذلك تقول : عَبِدُ يَعْبُدُ فهو عَبْدٌ وَعَابِدٌ ، قال الشاعر :

وَأَعْبُدُ أَنْ تُهْجَى تَمِيمٌ بِدَارِمٍ ^(٣)^(٤).

وعند حديثه عن اشتقاق أسماء الله وصفاته في مقدمة "تفسير غريب القرآن"؛ قال:

"ومن صفاته "الْقَيُّومُ" و"الْقَيَّامُ" وهما "فَيَعُولُ" و"فَيَعَالُ" ، من قُمت بالشيء: إذا وليته،

كأنه القَيِّمُ بكل شيء، ومثله في التقدير ؛ قولهم : ما فيها من دُيُورٍ ولا دِيَارٍ ...

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ١٥-١٧) .

(٢) سورة الزخرف : ٨١ .

(٣) هو للفردق ، كما في مجاز القرآن (٢/٢٠٦)، واللسان (٣/٢٧٣)، وفيه : "أعبد أي آنف" ، وصدده : "أولئك قوم إن هَجَوْنِي هَجَوْهُمْ" .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٧٣-٣٧٤) .

ومن صفاته "سُبُوْح" ، وهو حرف مبني على "فُعُول" ؛ من سَبَّحَ الله : إذا نَزَّهه وَبَرَّاه من كل عيب ...

وكذلك يُقال : "تعالى الله" وهو تفاعلٌ من العُلُو ، و"تبارك الله" هو تفاعلٌ من البركة ، و"الله متعالٍ" ولا يقال : "متبارك" لم نسمعه ، وإنما ننتهي في صفاته إلى حيث انتهى....^(١)

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾^(٢) :
 "واليقطين : الشجر الذي لا يقوم على ساق ، مثل : القرع والحنظل والبطيخ ، وهو "يَفْعِيل" "^(٣) .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾^(٤) ؛ قال :
 "تَدْعُونَ أي تَدْعُونَ ، وهو "تفتعلون" من الدعاء ، يقال : دعوت وادَّعيت ؛ كما يقال : خبرت واختبرت ، ودخرت وادَّخرت"^(٥) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾^(٦) ؛ قال :
 " "ومعين" ؛ ماء ظاهر ، وهو "مفعول" ، من العَيْن ، كأن أصله مَعْيُون ، كما هو يقال : ثوب مَحِيظ ، وُبُرٌّ مَكِيل"^(٧) .
 ٢ . العناية بالجمع والمفرد :

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٧-١٠) .

(٢) سورة الصافات : ١٤٦ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٣٧٥) .

(٤) سورة الملك : ٢٧ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٤٧٥) .

(٦) سورة المؤمنون : ٥٠ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٩٧) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٢٤٩ ، ٣٠٤ ، ٣٢٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٤١٩ ،

٤٨٤ ، ٤٨٧) ، تأويل مشكل القرآن (١٢٤ ، ٤٠٦ ، ٥٢٣) .

وهو من المواضيع الصرفية التي حظيت باهتمام الإمام ابن قتيبة ، حتى إنه احتج بحديث نبوي على مسألة صرفية تتعلق بالجموع ، وذلك حين شرح حديث عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه : "إن هؤلاء النفر رَعَاعٌ غَثْرَةٌ"^(١)؛ فقال :

"قوله: رَعَاعٌ غَثْرَةٌ ، كذا سمعته ، يروى غَثْرَةٌ، كأنه جمع عاثر ، مثل كافر وكَفْرَةٌ، وفاجر وفَجْرَةٌ ، ولم أسمع لغاثر جمعاً ، وإنما يقال رجل أغثر ؛ إذا كان جاهلاً ، وامرأة غَثْرَاءَ، والغثراء عامة الناس ورَعَاعُهُمْ ، والغَثْرَةُ والغُبْرَةُ واحد، يقال: شيء أغثر وأغبر، ... وكان ينبغي على هذا أن يكون رَعَاعٌ غُثْرٌ ، مثل أغْبَرٌ وغُثْرٌ ، ولعله أن يكون يجتمع في الحرف "أفعل وفاعل" كما يقال: واحد وأوحد، ومائل وأمَّيل ، أو يكون "أفعل" قد يُجْمَعُ على "فَعْلَةٌ" ، فإني سمعت في حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما أخاف على قريش إلا أنفسها" ، ثم وصفهم فقال: "أشْحَه بَجْرَةٌ ، يفتنون الناس حتى تراهم بينهم كالغنم بين الحوضين ، إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة"^(٢)، والبَجْرَةُ: العظام البتون"^(٣).

ومن أمثلة اهتمامه بالجموع في تفسيره ما يلي :

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آجْتِبَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٤):

"أنعمه: جمع نُعم، يقال: يوم نُعم ، ويومٌ بؤسٍ ، ويجمع أنعم ، وأبؤس، وليس قول من قال: إنه جمع نعمة ، بشيء ؛ لأن فِعْلَةٌ لا يجمع على أفعل"^(٥).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۚ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾^(١)؛ قال:

(١) رواه ابن قتيبة في غريب الحديث (٧٩/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦٦/٤)، بسنده إلى عمران بن حصين عن أعرابي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند (٢٥٤/٢٥): "إسناده ضعيف لجهالة عمران بن حصين الضبي، ذكره ابن حجر في "تهذيب التهذيب" ، وفي "التقريب" تمييزاً ، وقال في "التقريب" : "تابعي مقبول" ، ولم يذكر في الرواة عنه سوى بلال بن يحيى العبسي ، ولم يؤثر توثيقه عن أحد، وبقية رجاله ثقات .

(٣) غريب الحديث (٧٩/٢) .

(٤) سورة النحل : ١٢١ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٢٤٩) .

"ألد الخصام: أشدهم خصومة ، والخصام جمع خَصَم ، ويجمع على فُعُول ، وفِعَال، يقال : خَصَمَ وَخِصَامَ وَخُصُومًا"^(٢).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾^(٣)؛ قال:

"القنوان : عذوق النخل ، واحدها قِنُو، جمع على لفظ تثنيته، غير أن الحركات تلزم نونه في الجمع ، وهي في الاثني مكسورة ، مثل : صِنُو وصِنَوَان في التثنية، وصِنَوَان في الجمع"^(٤).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ ﴾^(٥):

"خُشْبٌ"^(٦): جمع خَشْبَةٍ ، كما يقال : بَدَنَةٌ وَبُدْنٌ ، وَأَكْمَةٌ وَأُكْمٌ ، وَرَحْمَةٌ وَرُحْمٌ، ومن المعتل : قادة وقُود"^(٧).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾^(٨)؛ قال :

"من حمأ: جمع حمأة ، وتقديرها : حَلْقَةٌ وَحَلَقٌ ، وَبِكْرَةٌ الدَّلْوُ وَبَكْرٌ، وهذا جمع قليل"^(٩).
٣ - العناية بالإبدال والإعلال .

الإبدال : جعل حرف مكان غيره مطلقاً^(١٠).

وأما الإعلال : فهو تغيير حرف العلة ، قصداً للتخفيف ، بالحذف أو القلب أو التسكين^(١١)؛ فهو نوع من الإبدال ، يختص بحروف العلة .

ومن أمثلة اهتمام ابن قتيبة بالإعلال والإبدال في تفسيره ما يلي :

(١) سورة البقرة : ٢٠٤ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٨٠) .

(٣) سورة الأنعام : ٩٩ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ١٥٧) .

(٥) سورة المنافقون : ٤ .

(٦) يسكون الشين ؛ وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ، وقرأ الباقون بالضم . [المبسوط في القراءات العشر (ص ٤٣٦)،

النشر في القراءات العشر (٢/١٦٣)] .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٤٦٧) .

(٨) سورة الحجر : ٢٦ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٢٣٨)، وانظر - للاستزادة - : (ص ٢٧٥ ، ٣٢٠ ، ٣٩٧ ، ٤٥٩) .

(١٠) شرح شافية ابن الحاجب للرضي (٣/١٩٧) .

(١١) المصدر السابق (٣/٦٦) .

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾^(١) :
 "جعله دكاً ، أي: ألصقه بالأرض ، يقال : ناقة دكّاء : إذا لم يكن لها سنام ، كأنَّ
 سنامها دُكَّ ، أي ألصق ، ويقال: إنَّ دكَّكْتُ : دَقَّقْتُ ، فأبدلت القاف فيه كافاً لتقارب
 المخرجين"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا ﴾^(٣) ؛ قال :
 "تتري : أي تتابع بفترة بين كل رسولين ، وهو من التواتر ، والأصل: وتْرى ، فقلبت
 الواو كما قلبوها في التقوى ، والتخمة ، والتكلان"^(٤).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوِنَ ﴾^(٥) :
 "فككببوا: أي ألثوا على رؤوسهم ، وأصل الحرف : كُبيبوا ، من قولك : كَبَيْتَ الإِنَاءَ ،
 فأبدل من الباء الوسطى كافاً ، استثقلاً لاجتماع ثلاث باءات ، كما قالوا: كُمِّمُوا ، من
 الكُمَّة ، وهي : القَلْنَسُوَّة ، والأصل : كُمِّمُوا"^(٦).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾^(٧) ؛ قال :
 "يصدون: يضحجون، يقال: صددتُ أصدُّ صدأً؛ إذا ضججت. والتصدية : منه ، وهو:
 التصفيق ، والياء فيه مبدلة من دال ؛ كأن الأصل فيه: "صَدَّدْتُ" بثلاث دالات ؛ فقلبت
 الأخرى ياءً ، فقالوا : "صَدَّيْتُ" كما قالوا: قَصَّيْتُ أظفاري، والأصل : قَصَّصْتُ"^(٨).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾^(٩) :

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ١٧٢) .

(٣) سورة المؤمنون : ٤٤ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٢٩٧) .

(٥) سورة الشعراء : ٩٤ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٣١٨) .

(٧) سورة الزخرف : ٥٧ .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٤٠٠) .

(٩) سورة القمر : ١٥ .

"أي : معتبر ومتعظ ، وأصله "مُفْتَعِل" ، من الذَّكْر : "مُذْتَكِر" ، فأدغمت الذال في التاء ، ثم قُلبتا دالاً مشددة"^(١) .

٤ . العناية بدلالات الصيغ .

اهتم الإمام ابن قتيبة بدلالات الصيغ في تفسيره ، وكان هذا جلياً لا سيما فيما يتعلق بتناوب الصيغ أي دلالة صيغة على صيغة أخرى ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند حديثه عن اشتقاق أسماء الله وصفاته في مقدمة "تفسير غريب القرآن"؛ قال :
"ومن صفاته ما جاء على "فَعِيل" بمعنى "فاعل" ؛ نحو : "قدير" بمعنى "قادر" ، و"بصير" بمعنى "باصر" ، و"سميع" بمعنى "سامع" ، و"حفيظ" بمعنى "حافظ" ، و"شاهد" بمعنى "شاهد" ، و"عليم" بمعنى "عالم" .

ومن صفاته ما جاء على "فَعِيل" بمعنى "مُفْعِل" ؛ نحو : "بديع الخلق" بمعنى "مُبدِع الخلق" ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾^(٢) ؛ أي : كافياً ، من قولك : قولك : أَحْسَبَنِي هذا الشيء ؛ أي : كفاني ، والله حسيبي وحسيبك ؛ أي : كافينا ، أي : يكون حَكماً بيننا كافياً .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ : "أي محاسباً" ، وهو على هذا التأويل في مذهب "جليس" و"أكيل" و"شريب" و"ندسم" و"قعيد" .
... ومن صفاته : "الودود" ، وفيه قولان :

يقال : هو "فَعُول" بمعنى "مُفْعُول" ؛ كما يقال : رجل هَيُوب ؛ أي : مهيب ، يراد به : مَوْدود .

ويقال : هو "فَعُول" بمعنى "فاعل" ، كقولك : غفور ؛ بمعنى غافر ، أي : يَوُدُّ عباده الصالحين"^(٣) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١) ؛ قال :

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٤٣٢) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ١٦٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٥١ ، ٤٢٨ ، ٤٩٣ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠) ، تأويل مشكل القرآن (ص ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٥٢٢ ، ٥٥٤) .

(٢) سورة النساء : ٨٦ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ١٦-١٨) .

"الحصور : الذي لا يأتي النساء ، وهو "فَعُول" بمعنى "مفعول" كأنه محصور عنهن، أي مأخوذ محبوس عنهن، وأصل الحصر : الحبس، ومثله مما جاء فيه "فَعُول" بمعنى "مفعول": ركوب بمعنى مركوب، وحلوب بمعنى مَحْلُوب، وهيوب بمعنى مَهْيَب"^(٢).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾^(٣) :
 "قال لا عاصم اليوم" أي لا معصوم اليوم "من أمر الله إلا من رحم، ومثله: ﴿ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾^(٤)، بمعنى مدفوق"^(٥).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾^(٦)؛ قال :
 "أي من كل جنس حسن ، يُبْهِج ، أي : يَشْرَح ، وهو فَعِيل في معنى فاعل، يقال: امرأة ذات خَلْقٍ بَاهِجٍ"^(٧).

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَنْفَلَتُ الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾^(٨) :
 "و"قعيد" بمعنى قاعد؛ كما يقال: "قدير" بمعنى قادر ، ويكون بمنزلة "أكيل وشريب وندسم" أي مؤاكل ومشارب ومنادِم، كذلك "قعيد" أي مُقَاعِد"^(٩).

(١) سورة آل عمران : ٣٩ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ١٠٥) .

(٣) سورة هود : ٤٣ .

(٤) سورة الطارق : ٦ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠٤) .

(٦) سورة الحج : ٥ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٩٠) .

(٨) سورة ق : ١٧ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٤١٨) .

الفصل الخامس

اهتمام ابن قتيبة بدفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم

وفيه تمهيد وسبعة مباحث :

- المبحث الأول: دفع الإشكال بدلالة القرآن الكريم .
- المبحث الثاني: دفع الإشكال بدلالة السياق .
- المبحث الثالث : دفع الإشكال بدلالة أسباب النزول .
- المبحث الرابع: دفع الإشكال بدلالة القراءات .
- المبحث الخامس : دفع الإشكال بدلالة السنة النبوية .
- المبحث السادس : دفع الإشكال بأقوال السلف .
- المبحث السابع : دفع الإشكال بدلالة اللغة .

التمهيد

سبق تعريف المشكل ، وأنه يطلق على كل ما غمض في الفهم وخفي ، أيًا كان سبب غموضه ، وأن المشكل في القرآن عام ، يشمل كل إشكال يطرأ على الآية ، سواء كان في اللفظ أم في المعنى ، أو كان لتوهم تعارض ، أو توهم إشكال في اللغة ، أو القراءات أو غير ذلك من أسباب الغموض والخفاء^(١).

وحين يذكر المشكل والجهود في دفعه ، فلا بد أن يذكر الإمام ابن قتيبة ، إذ هو فارس ميدانه ، وسابق أقرانه فيه ، وغالب مصنفاته الشرعية شاهدة على ذلك ، وحسبك أن تنظر في عناوينها - "تأويل مشكل القرآن" ، و"تأويل مختلف الحديث" ، و"تفسير غريب القرآن" ، و"غريب الحديث" ، و"إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث" - لتبين ذلك ؛ إذ حملت هذه العناوين لفظ الإشكال وما في معناه من الاختلاف والغرابة .

أما محتوى هذه المصنفات فيظهر عظيم ما قدّمه الإمام ابن قتيبة من جهود في هذا الباب ، لا سيما ما يتعلق بدفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم ؛ إذ قصد في كتابه "تأويل مشكل القرآن" جمع الآيات المشكّلة ، وضمن كتابه "تأويل مختلف الحديث" بعضاً منها ، كما عرض في كتابه "تفسير غريب القرآن" لجملة منها ، وأجاب في هذه المصنفات عن الآيات المشكّلة بأجوبة كافية شافية ، نالت الاستحسان وتناقلها العلماء وسطروها في مصنفاتهم .

وقد قمتُ باستقراء المواضع التي أجاب فيها عن الآيات المشكّلة ، وحددت المعالم الأساسية التي سلكها في دفع الإشكال ، ووضعتها على هيئة مباحث في هذا الفصل ، هي - بمجموعها - طرق دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم عند ابن قتيبة .

(١) انظر : (ص ٤٧) من هذه الرسالة .

المبحث الأول دفع الإشكال بدلالة القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم هو أول مراتب التفسير بالمأثور وأعلها ، ذلك أن آي القرآن الكريم يوضح بعضها بعضا ، فما جاء مجملاً في آية بُيِّن في آية أخرى ، وما جاء مطلقاً في موضع قُيِّد وحُصِّص في موضع آخر ، وما أشكل وغمض فهمه في آية يأتي إيضاحه وبيان المراد منه في آية أخرى ، ولهذا كان واجباً على المشتغل ببيان المشكل العناية بهذا الجانب ، إذ يُدفع الإشكال عن كثير من الآيات بدلالة آيات أخرى من القرآن الكريم ، ومن هنا عُني الإمام ابن قتيبة بهذا الطريق من دفع الإشكال عناية فائقة ؛ وتجلت تلك العناية في كثير من الآيات التي أزال الإشكال عنها ، وأوضح المراد منها بدلالة القرآن الكريم ، ومن الأمثلة على ذلك :

. في "باب التناقض والاختلاف" من "تأويل مشكل القرآن" ذكر جملةً من الآيات التي زعم الملحدون والطاعنون في القرآن اختلافها وتناقضها ، ويّين بطلان زعمهم فيما ذهبوا إليه من التناقض ، وكان في عدد منها يستدل بآيات القرآن الكريم ، ومن ذلك :

قوله :

"وأما قوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ ^(١) ، فإن "إلا" في هذا الموضع أيضاً بمعنى "سوى" ، ومثله : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدَّ سَلَفَ ﴾ ^(٢) ، يريد سوى ما سلف في الجاهلية قبل النهي .

وإنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا ؛ لأن السُّعداء حين يموتون يصيرون بما شاء الله من لطفه وقدرته ، إلى أسباب من أسباب الجنة ، ويتفاضلون أيضاً في تلك الأسباب على قدر منازلهم عند الله : فمنهم من يُلقَى بالروح والريحان ، ومنهم من يُفتح له بابٌ إلى الجنة ، ومنهم

(١) سورة الدخان : ٥٦ .

(٢) سورة النساء : ٢٢ .

"الشهداء" أرواحهم في حواصل طيرٍ خضر تعلق في الجنة ، أي تأكل ، وجعفر بن أبي طالب (ت ٨هـ) رضي الله عنه ذو الجناحين يطير مع الملائكة في الجنة^(١).

والله يقول : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^(٢).

أفما ترى أنهم عندنا موتى وهم في الجنة متصلون بأسبابها ؟ فكيف لا يجوز أن يستثنى من مكثهم فيها الموتة الأولى؟^(٣).

ويقول - في ذات الباب - :

"وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ

وُدًّا ﴾^(٤) ، فإنه ليس على تأويلهم ، وإنما أراد أنه يجعل لهم في قلوب العباد محبة ، فأنت ترى المخلص المجتهد محبباً إلى البرِّ والفاجر ، مهيباً مذكوراً بالجميل ، ونحوه قول الله سبحانه في قصة موسى صلى الله عليه : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾^(٥) ، لم يُرد في هذا الموضع أنني أحببتك ، وإن كان يحبه ، وإنما أراد أنه حببه إلى القلوب ، وقربه من النفوس ، فكان ذلك سبباً لنجاته من فرعون ، حتى استحياه في السنة التي كان يقتل فيها الولدان^(٦).

ومن الأمثلة - أيضاً - قوله :

" وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾^(٧) ؛ أي أشار إليهم وأوماً.

وقال بعض المفسرين : كتب إليهم .

(١) سبق تخريجه (ص ٧١) .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٧٨-٧٩) .

(٤) سورة مريم : ٩٦ .

(٥) سورة طه : ٣٩ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٧٩) .

(٧) سورة مريم : ١١ .

قال أبو محمد : والتفسير الأول أعجب إليّ ؛ لأنه قال في موضع آخر : ﴿ءَايَاتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾^(١) ، والرمز : تحريك الشفتين أو الحاجبين أو العينين ، ولا يكون كتاباً^(٢) .

. وقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَرُدُّوْا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ﴾^(٣) :

"والمعنى : أي عضوا عليه حنقاً وغيضاً ، كما قال الشاعر :

يَرُدُّونَ فِيْ فِيهِ عَشْرَ الْحَسُودِ^(٤)

يعني : أنهم يغيضون الحسود حتى يعضّ على أصابعه العشر ، واعتباره - أي معنى الآية

- قوله عزّ وجل في موضع آخر : ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾^(٥) .

(١) سورة آل عمران : ٤١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٨٩) .

(٣) سورة إبراهيم : ٩ .

(٤) ذكره ابن قتيبة غير منسوب في المعاني الكبير (٢/٨٣٤) ، وهو كذلك غير منسوب في : تهذيب اللغة (١٧٠/١٤) ، واللسان (٤١٩/١٥) .

(٥) سورة آل عمران : ١١٩ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٢٣١) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٣٠٣ ، ٣٥٠ ، ٤٤٠) ، تأويل مشكل

القرآن (ص ١٦١ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٧٧ ، ٥٠١) .

المبحث الثاني

دفع الإشكال بدلالة السياق

للسياق القرآني أهمية كبرى في التفسير ؛ والغفلة عنه تؤدي للإشكال ، والوقوع في الخطأ ، ولهذا فإن النظر في السياق يعين على بيان المعنى ، ومعرفة المراد ، وبه يُدفع الإشكال في كثير من المواضع ، وقد أشار الزركشي (ت ٧٩٤هـ) إلى أهمية السياق في دفع الإشكال؛ فقال :
 "ومما يُعين على المعنى عند الإشكال أمور :

الرابع : دلالة السياق ؛ فإنها تُرشد إلى تبين الجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام ، وتقبيد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظيره ، وغالط في مناظراته ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾^(١)، كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيقير"^(٢).

وقد أدرك الإمام ابن قتيبة أهمية السياق ، ووظفه واستعان به في دفعه للإشكال عن آيات القرآن الكريم ، وجعله أحد المرجحات في اختياراته في التفسير ، في مواضع في "تأويل مشكل القرآن" ؛ منها :

. قوله : "وأما قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾^(٣)، فإنه لم يرد أن ذلك يكون في الآخرة ، وإنما أراد أنهم يعرضون عليها بعد مماتهم في القبور ، وهذا شاهد من كتاب الله لعذاب القبر ، يدلُّك على ذلك قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ

(١) سورة الدخان : ٤٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٠٠)، وانظر : بدائع الفوائد لابن القيم (٤/١٣١٤)، مشكل القرآن الكريم ، عبد الله المنصور (ص٣٦٩)، السياق في المجالات التشريعية ، المفهوم والدور ، مجموعة بحوث في مجلة الإحياء العدد (٢٥)، جمادى الثانية ، ١٤٢٨ هـ .

(٣) سورة غافر : ٤٦ .

فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١﴾ ، فهم في البرزخ يعرضون على النار غدواً وعشيا ، وفي القيامة يدخلون أشد العذاب" (٢).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ ﴿٢﴾ بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسْوَى بَنَانُهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٣﴾ ؛ قال :

"هذا رد من الله عليهم ، وذلك أنهم ظنوا أن الله لا ينشر الموتى ، ولا يقدر على جمع العظام البالية ، فقال : بلى ، فاعلموا أننا نقدر على رد السُّلَامِيَّاتِ (٤) على صغرها ، ونؤلِّف بينها حتى يستوي البنان ، ومن قدر على هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر .

وأما قوله سبحانه : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ، فقد كثرت فيه التفاسير : فقال سعيد بن جبير (ت ٩٤ هـ) يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب . وقال الكلبي (ت ١٤٦ هـ) : يكثر الذنوب ، ويؤخَّر التوبة . وقال آخرون : يتمنى الخطيئة .

وفيه قول آخر : وهو أن يكون الفجور بمعنى التكذيب بيوم القيامة ، ومن كذَّب بحق فقد فجر .

وأصل الفجور : الميل ، فقيل للكاذب والمكذَّب والفاسق : فاجرٌ ؛ لأنه مال عن الحق . وهذا وجه حسن ؛ لأن الفجور اعتراض بين كلامين من أسباب يوم القيامة ؛ أولهما : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ ، والآخر : ﴿ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، فكأنه قال : أيجب الإنسان أن لن نجمع عظامه في الآخرة ؟ بلى نقدر على أن نجمع ما صغر منها ونؤلف بينها . ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ، أي : ليكذَّب بيوم القيامة وهو أمامه ، فهو يسأل ﴿ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أي متى يكون؟" (١).

(١) سورة غافر : ٤٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٨٣) .

(٣) سورة القيامة : ٣-٦ .

(٤) في اللسان (٢٨٩/١٢) مادة "سلم" : "قال ابن الأعرابي : السلامى ، عظام صغار على طول الإصبع أو قريب منها ، في كل يد ورجل أربع سلاميات أو ثلاث" .

ويرد على من أخطأ في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا^ط ﴾^(٢)؛ فيقول:
 "وكتأويلهم في قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا^ط ﴾ ، أنها همت بالمعصية، وهم هو
 بالفرار منها ، وقال بعضهم : همَّ بضربها ، والله تعالى يقول : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ^ع ﴾^(٣)،
 أفترأه أراد الفرار منها أو الضرب لها ، فلما رأى البرهان أقام عندها وأمسك عن ضربها ،
 هذا ما ليس به خفاء ، ولا يغلط متأولُه .

ولكنها همت منه بالمعصية همَّ نيّة واعتقاد ، وهمَّ نبي الله صلى الله عليه همّاً عارضاً بعد
 طول المراودة ، ولذلك قال يوسف صلى الله عليه : ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي^ع إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ^ط
 بِالسُّوءِ^ط ﴾^(٤)، يريد ما أضمره ، وحدث به نفسه عند حدوث الشهوة ، وقد وضع الله تعالى
 الحرج عمّن همَّ بخطيئة ولم يعملها"^(٥).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ
 الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ^ع ﴾^(٦)؛ قال :
 "فيه تأويلان :

أحدهما : أن تكون المخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره من الشكاك ،
 لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم ، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره .
 والتأويل الآخر : أن يكون الخطاب للشكاك في الأمر ؛ أي : إن كنت أيها الإنسان في
 شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فسل الأكابر من أهل
 الكتاب والعلماء الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، وهذا وإن كان جائزاً حسناً، فإن

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٤٦-٣٤٧) .

(٢) سورة يوسف : ٢٤ .

(٣) سورة يوسف : ٢٤ .

(٤) سورة يوسف : ٥٣ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠٣-٤٠٤) .

(٦) سورة يونس : ٩٤ .

المذهب الأول أعجب إليّ ، لأن الكلام اتصل حتى قال : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ، وهذا لا يجوز أن يكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) .

. ومن الأمثلة على الاستعانة بالسياق في بيان المعنى ودفع الإشكال ؛ قوله في تفسير قوله

تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْنَانِ ذَوَا عَدَلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ ﴾^(٣) :

"والذي عندي أنه لا يجوز أن يكون في هذا الموضع ﴿ مِّنْ غَيْرِكُمْ ﴾ : من غير قبيلتكم ؛ لأنه قال في صدر الآية : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ ﴾ ، وهذا عام لجميع المؤمنين ، والكاف في بينكم للمؤمنين ، ثم قال : ﴿ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ ، يعني أحد المؤمنين ، ثم قال : ﴿ أَشْنَانِ ذَوَا عَدَلٍ ﴾ ، يعني من المؤمنين ، ﴿ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ، يعني من غير المؤمنين ، وغير المؤمنين هم الكافرون ، ولا يجوز أن يكون غير المؤمنين في هذا الموضع المؤمنين ، ولو كان الله عزّ وجل خاطب في صدر الآية خاصاً من الناس لجاز أن يكون من غيركم يعني من غير قبيلتكم .

ومن الدليل أيضاً أنه لو أراد إشهاد غير قبيلته من المؤمنين كان الحكمُ فيهم أن يكونوا أيضاً عدولاً ، كما شرط فيمن كان من أنفسهم وقبيلتهم ، وإذا كانوا مسلمين عدولاً فبأي معنى أمرنا بإحلافهم ؟ والشاهد غير العدل لا يمين عليه ، فكيف العدل ؟ ولم أمر بإحلافهما من بعد الصلاة ؟ يريد صلاة العصر إن نحن ارتبنا في شهادتهما ، ويأثم المسلمون في كل وقت من اليمين الفاجرة ، وإنما يتوقّى الحلف بعد العصر أهل الكتاب ؛ لأنهم يُصَلُّون لطلوع الشمس وغروبها ، ولم جعلنا نرتاب بشهادة المسلمَيْنِ الْعَدْلَيْنِ إذا كانا من غير قبيلتنا ، ولا نرتابُ بهما إذا كانا من قبيلتنا .

(١) سورة يونس : ٩٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧١-٢٧٤) بتصرف يسير .

(٣) سورة المائدة : ١٠٦ .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّ عَثْرَ عَلِيٍّ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾^(١) ، يعني حثناً في اليمين ﴿ فَأَحْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ ، من أولياء الميت ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا ﴾ وكيف صار الوليان من أولياء الميت أصحَّ شهادةً من المؤمنين العدلين وأولى بالقول ، لو كان الأمر على ما ذهبوا إليه ، ولكنهما صارا أحق بقبول القول ، وإبرار القسم لكفر الشاهدين ، وإيمان الوليين ، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ﴾^(٢) ، يعني أهل الذمة ، ولا يجوز أن يكون هذا للمؤمنين العدلين ، لأن المؤمنين العدلين يأتيان بالشهادة على وجهها على كل حال ، ثم قال : ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ، على أولياء الميت ﴿ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ ، فيفضحوا ، أو يُعَرِّمُوا^(٣) .

ويقول في "المسائل والأجوبة" :

"سألت عن قول الله جل وعز في يونس - عليه السلام - : ﴿ فَبَدَّدْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾^(٤) ، وقوله في موضع آخر : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُكُمْ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾^(٥) ، وقلت : هذا خلاف الأول ، لأنه ذكر في الكلام الأول أنه نبذ بالعرء ، وهو سقيم ، وقال في الكلام الثاني : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُكُمْ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ، وهذا يدل على أنه لم ينبذ بالعرء ؟

- ثم أجاب ابن قتيبة - : وليس الأمر كما توهمت ، ولا بين الكلامين اختلافٌ كما ذكرت ؛ لأنه أراد لولا أن تبنا عليه ورحمناه ؛ لنبذناه حين نبذناه بالعرء مذموماً أي على حالته الأولى لم نتب عليه ، ويدلك على ذلك قوله بعد مذموم : ﴿ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٦) ، أي تاب عليه^(١) .

(١) سورة المائدة : ١٠٧ .

(٢) سورة المائدة : ١٠٨ .

(٣) المسائل والأجوبة (ص ١٦٥-١٦٦) .

(٤) سورة الصافات : ١٤٥ .

(٥) سورة القلم : ٤٩ .

(٦) سورة القلم : ٥ .

(١) المسائل والأجوبة (ص ٢٣٣)، وانظر - للاستزادة - : تأويل مشكل القرآن (ص ٦٧، ٧١، ٧٩، ١١٢، ٣٣٨، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٧٧، ٣٨٥، ٣٩٥)، تفسير غريب القرآن (ص ٤، ٣٢٨، ٤٤٠) .

المبحث الثالث

دفع الإشكال بدلالة أسباب النزول

تحدث الكثير من أهل العلم عن أهمية أسباب النزول ، ونبهوا إلى أن معرفة السبب تعين على فهم الآية ، وأنه يتعذر على المفسر فهم الآية دون الوقوف على قصتها .

قال الواحدي (ت ٤٦٨هـ) - مبيناً أهمية أسباب النزول - :

"هي أوفى ما يجب الوقوف عليها ، وأولى ما تُصرف العناية إليها ، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها ، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) :

"ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"^(٢).

ولهذا نصّ الزركشي (ت ٧٩٤هـ) على أن معرفة سبب النزول من أعظم ما يعين على دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم ؛ وذلك حين عدّد الأمور التي تعين على معرفة المعنى عند الإشكال ؛ فقال :

"السادس : معرفة النزول ، وهو من أعظم المعين على فهم المعنى ، وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - والسلف يعتمدونه ، وكان عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ) قد فهم من قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾^(٣) ، أن السعي ليس بركن ، فردت عليه عائشة (ت ٥٨هـ) - رضي الله عنها - ذلك وقالت : "لو كان كما قلت : لقال : فلا جناح عليه ألا يطوف بهما"^(٤) ، وثبت أنه إنما أتى بهذه الصيغة لأنه كان وقع فرع في قلوب طائفة من الناس كانوا يطوفون قبل ذلك بين الصفا والمروة للأصنام ، فلما جاء الإسلام كرهوا الفعل الذي

(١) أسباب النزول (ص ٨) .

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص ١٢٦) مع شرح د. الطيار .

(٣) سورة البقرة : ١٥٨ .

(٤) أخرجه البخاري في الحج ، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله ح (١٦٤٣) (ص ١٢٩) ، ومسلم في الحج ،

باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به ح (٣٠٧٩) (ص ٨٨٩) .

كانوا يشركون به ، فرفع الله ذلك الجناح من قلوبهم فأمرهم بالطواف ، فثبت أنها نزلت ردّاً على من كان يمتنع من السعي"^(١).

وكان الإمام ابن قتيبة مدركاً لهذه الأهمية ، ولهذا استعان بأسباب النزول في إيضاح المعنى ، ودفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم ، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي :

. عندما أشكل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٢) ، على القدرية ؛ إذ فيه نقض لما أصلوه واعتقدوه من نفي القدر ، ولذلك زعموا أن الإذن في الآية بمعنى العلم ، وقد ردّ الإمام ابن قتيبة هذا التأويل ، ودفع ما توهموه من إشكال مستعينا بسبب نزول الآية ، وفي ذلك يقول :

"وقالوا - أي القدرية - في قوله عزّ وجل : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، أي ما كان لها أن تؤمن إلا بعلم الله ، وعلموا ما يلزمهم إن جعلوا الإذن هنا المشيئة والإطلاق ، وذهبوا إلى قول القائل : "آذنتك بالأمر" ، أي أعلمتك ، وهذا من تأويلهم لا يصحّ في نظر ولا لغة .

أما النظر فإنه لم يقل أحد من الناس أن شيئاً يحدث في الأرض لا يعلمه الله ، فيقول :

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

وإنما اختلفوا في الإذن الذي هو المشيئة والإطلاق ، فقال المثبتون - للقدر - : لم يشأ الله أن يؤمن جميع الناس ، ولو شاء الله لآمنوا فليس لنفس أن تؤمن حتى يشاء الله ذلك ويطلقه .

وقال أهل القدر : قد شاء الله هذا لكل نفس ، وأطلقه فلها أن تؤمن إن شاءت ، وفي صدر هذا الكلام دليل على ما قال أهل الإثبات لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يجب إيمان قريش ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً^٤

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٠٢)، وانظر : أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص ، د. عماد الدين الرشيد (ص ٤٥)، أسباب النزول : أسانيد وأثرها في تفسير القرآن الكريم ، الشيخ جمعة سهل (ص ٦١)، مشكل القرآن الكريم (ص ٣٥١) .

(٢) سورة يونس : ١٠٠ .

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ، ثم قال على إثر ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٢) ، يريد بمشيئته وإطلاقه ، فأول الكلام دليل على آخره (٣) .

. وفي باب تأويل الحروف التي ادّعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم ، ذكر قوله

تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ (٤) ، ثم فسره ؛ فقال :

"كان المسلمون في صدر الإسلام حين أمروا بالنصيحة ، ونهوا عن الخيانة وأنزل عليهم :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ (٥) ، أي : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق - أدفوا النظر وأفرطوا في التوقّي وترك بعضهم مؤاكلة بعض ، فكان الأعمى لا يؤاكل الناس ؛ لأنه لا يبصر الطعام فيخاف أن يستأثر ، ولا يؤاكله الناس يخافون لضرره أن يقصر .

وكان الأعرج يتوقّي ذلك ؛ لأنه يحتاج لزمانته إلى أن يتفسّح في مجلسه ، ويأخذ أكثر من موضعه ، ويخاف الناس أن يسبقوه لضعفه .

وكان المريض يخاف أن يفسد على الناس طعامهم بأمور قد تعتري مع المرض : من رائحة تنغيّر ، أو جرح يبيّض (٦) ، أو أنف يذن (٧) ، وأشباه ذلك ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ليس على

(١) سورة يونس : ٩٩ .

(٢) سورة يونس : ١٠٠ .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ١٠١) .

(٤) سورة النور : ٦١ .

(٥) سورة البقرة : ٨٨ .

(٦) يبيّض : يسيل [تهذيب اللغة ، مادة "بض" (١١/٣٢٧)] .

(٧) في اللسان (١٣/١٧٣) ، مادة "ذنن" : "ذَنُّ أَنْفِهِ يَذِنُ : إِذَا سَالَ ، وَالذَّنِينُ : الْمَخَاطُ الرَّقِيقُ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الْأَنْفِ" .

هؤلاء جناح في مؤاكلة الناس ، وهو معنى قول ابن عباس (ت ٦٨ هـ) ، في رواية أبي صالح -
بإدام - (ت ١٢١ هـ) .

وأما عائشة (ت ٥٨ هـ) رضي الله عنها ، فإنها قالت : كان المسلمون يُوعِبُونَ^(١) مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغازي ؛ ويدفعون مفاتيحهم إلى الضمى ، وهم الرّمى ،
ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا في منازلنا ، فكانوا يتوقّفون أن يأكلوا من منازلهم حتى
نزلت الآية^(٢) .

وفي "باب التناقض والاختلاف" ، فسّر قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾^(٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ
يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ^(٤) ؛ فقال :

"وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، ثم قال على إثر ذلك :
﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ ، فإن النضر بن الحارث قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ
الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِنْ سَمَوَاتِكَ ﴾^(٥) ، يريد
أهلكتنا ومحمداً ومن معه عامة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، أي وفيهم قوم يستغفرون ، يعني المسلمين .

يدلّك على ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ
وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾
خاصة ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ^(٦) إِنْ أَوْلِيَاءُ هَؤُلَاءِ
الْمُنْفِقُونَ ﴾^(٧) يعني المسلمين ، فعذبهم الله بالسيف بعد خروج النبي عنهم ، وفي ذلك نزلت : ﴿

(١) في اللسان (٧٩٩/١) ، مادة "وعب" ، "وأوعب القوم : إذا خرجوا كلهم إلى الغزو ، وفي حديث عائشة : كان

المسلمون يوعبون في النفي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي يخرجون بأجمعهم في الغزو" .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٣٢-٣٣٣) ، وانظر : أسباب النزول للواحدي (ص ٣٢٩) .

(٣) سورة الأنفال : ٣٣-٣٤ .

(٤) سورة الأنفال : ٣٢ .

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعٍ ﴿١﴾، أي دعا داعٍ بعذاب واقع، يعني النضر بن الحارث، ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ ﴿٢﴾، يقول: هو للكافرين خاصة دون المؤمنين" (٣).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ ﴿٤﴾:

"كان أناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شيء، يتخرجون من ذلك، وكان الرجل يخرج مُهَلًّا بها فتبدوا له الحاجة فيرجع، فلا يدخل من باب الحجر من أجل السقف، ولكنه يفتحم الجدار من وراء، ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته، وكانت قريش وحلفاؤها الحُمس لا يبالون ذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾؛ أي: برُّ من اتقى، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿٥﴾، أي: برُّ من آمن بالله" (٦).

(١) سورة المعارج: ١ .

(٢) سورة المعارج: ٢ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٧١-٧٢)، وانظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (ص ١٢٦) .

(٤) سورة البقرة: ١٨٩ .

(٥) سورة البقرة: ١٧٧ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٧٦)، وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص ٥٤) .

المبحث الرابع دفع الإشكال بدلالة القراءات

تحدث أهل العلم عن أغراض وفوائد اختلاف القراءات ، وعن أثر ذلك في التفسير ،
ومما ذُكر من الأغراض :

١ . بيان المعنى المراد ، فمن اختلاف القراءات في النص الواحد ما الهدف منه بيان المراد ،
كما في القراءة المحملة ، والقراءة المفسرة ، أو القراءة العامة والقراءة المخصصة ، أو القراءة
المطلقة والقراءة المقيدة .

٢ . ترجيح معنى من المعاني التي تحملها الآية وتوكيده .

٣ . دفع الإشكال وإزالة اللبس ^(١) .

ولقد ظهرت هذه الأغراض بجلاء في تفسير الإمام ابن قتيبة ، لا سيما عند دفعه
للإشكال عن آيات القرآن الكريم ، إذ كان من منهجه الاستعانة بالقراءات في إزالة اللبس
وبيان المعنى المراد وتقويته ، ومن الأمثلة على ذلك :

. في "باب التناقض والاختلاف" عرض لآيات من القرآن الكريم ، زعم الملاحدة تناقضها
واختلافها ، منها : قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ^(٢) ؛ وقال في تفسيرها
:

"وأما قوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، ولم يأتِ بالشيء الذي جعل له
الجنة مثلاً ، فإن أصل المثل ما ذهبوا إليه من معنى المثل ، تقول : هذا مثل الشيء ومثله ، كما
تقول : هذا شبه الشيء وشبهه .

ثم قد يصير المثل بمعنى صورة الشيء وصِفته ، وكذلك المِثَالُ والتِمثالُ ، يقال للمرأة
الرَائِقةُ : كأنها مثال ، وكأنها تَمثالُ ، أي صورة ، كما يقال : كأنها دُمِيَّةٌ ، أي صورة ، وإنما
هي مَثَلٌ ، وقد مَثَلْتُ لك كذا ، أي صورته ووصفته .

(١) انظر : القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ، د.محمد بازمول (١/٣٢٥) ، الاختلاف في القراءات القرآنية وأثره في

اتساع المعاني ، إعاد سالم صالح (ص ٢٠) .

(٢) سورة الرعد : ٣٥ .

فأراد الله بقوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ ، أي صورتها وصفتها .
وروي أن علياً (ت ٤٠ هـ) رحمه الله كان يقرأ : مثلاً الجنة أو أمثال الجنة^(١) ، وهو بمنزلة
مَثَلٍ ، ألا أنه أوضح وأقرب في أفهام الناس إلى المعنى الذي تأولناه في مَثَلٍ^(٢) .
وفي باب تأويل الحروف التي ادّعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم ؛ فسر قوله

تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ٦٥ بَلِ
أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٣﴾ ؛ فقال:

"ومعنى تدارك : تتابع ، و﴿ عِلْمُهُمْ ﴾ : حكمهم على الآخرة ، وحدثهم الظنون ،
وأراد وما يشعرون متى يُبعثون إلا بتتابع الظنون في علم الآخرة ، فهم يقولون تارة : إنها لا
تكون ، وإلى كذا تكون ، وما يعلم غيب ذلك إلا الله تعالى .

ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ بل هم من علمها ﴿ عَمُونَ ﴾ ، وكان ابن عباس
يقرؤها : "بلى أدراك علمهم"^(٤) .

وهذه القراءة أشدّ إيضاحاً للمعنى ، لأنه قال : وما يشعرون متى يبعثون ، ثم قال : بل
تداركت ظنونهم في علم الآخرة ؛ فهم يحدّسون ولا يدرون"^(٥) .

. وذكر في الباب نفسه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بَلِقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٦) ؛ ثم قال في

(١) قرأ علي وابن مسعود - رضي الله عنهما - والسلمي : "أمثال الجنة" على الجمع ، أي صفاتها ، وهي قراءة شاذة .
[مختصر ابن خالويه (ص ٧١) ، البحر المحيط ، لأبي حيان (٣٨٦/٥)] .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٨٣ ، ٨٤) .

(٣) سورة النمل : ٦٥-٦٦ .

(٤) قرأ ابن عباس : "بلى أدراك" يستفهم ويشدد الدال ، كما في معاني القرآن للفراء (٢/٢٩٩) ، وإعراب القرآن للنحاس
(٢١٨/٣) ، والطبري في تفسيره (١٠٨/١٨) ، وقال : "فأما القراءة التي ذكرت عن ابن عباس ؛ فإنها وإن كانت
صحيحة المعنى والإعراب ، فخلافاً لما عليه مصاحف المسلمين ، وذلك أن في "بلى" زيادة ياء في قراءته ليست في
المصاحف ، وهي مع ذلك قراءة لا نعلمها قرأ بها أحد من قراء الأمصار" .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٥٤-٣٥٥) .

(٦) سورة الأنعام : ١٥٤ .

تفسيره :

"أراد : آتينا موسى الكتاب تماماً على المحسنين ، كما تقول : أوصي بمالٍ للذي غزا وحج ، تريد الغازين الحاجين ، ويكون "الذي" في موضع "مَنْ" كأنه قال : تماماً على من أحسن.

والمحسنون : هم الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين ، والمؤمنون ، و"على" في هذا الموضع بمعنى "لام الجر" كما يقال : أتمَّ الله عليه وأتمَّ له.

وتلخيصه: آتينا موسى الكتاب تتماماً منَّا للأنبياء وللمؤمنين الكُتُب، ﴿وَتَقْصِيلاً﴾^(١) منَّا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً﴾.

وقد يكون أن يُجعل "الذي" بمعنى "ما" أي آتينا موسى الكتاب تماماً على ما أحسنَ من العلم والحكمة وكتب الله المتقدمة ، وأراد بقوله : ﴿تَمَاماً﴾ على ذلك ، أي زيادة على ذلك .

والتأويل الأول أعجب إليّ ؛ لأنه في مصحف عبدالله (ت ٣٥ هـ) رضي الله عنه : "تماماً على الذين أحسنوا"^(٢) ، وفي هذا ما دل على ذلك التأويل"^(٣).

. وفي "باب لفظ الواحد للمعاني المختلفة" عرض لمعاني السعي ، فذكر قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٤) ، وفسر السعي بأنه المشي ، مستشهداً بقراءة : "فامضوا إلى ذكر الله"^(٥).

(١) قرأ بها ابن مسعود . [انظر : مختصر ابن خالويه (ص ٤٧)] .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٩٧-٣٩٨) .

(٣) سورة الجمعة : ٩ .

(٤) قرأ بها عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن الزبير رضي الله عنهم ، كما في مختصر ابن خالويه (ص ١٥٧) ، وقال أبو حيان في البحر المحيط (٢٦٥/٨) : "وقرأ كبراء من الصحابة والتابعين : "فامضوا" بدل "فاسعوا" ، وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث إنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي ، ففسروه بالمضي ، ولا يكون قرآناً لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون" .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٠٩) .

المبحث الخامس

دفع الإشكال بدلالة السنة النبوية

لا تخفى منزلة السنة النبوية وأهمية موقعها مع القرآن الكريم ، من حيث كونها شارحة لما خفي من معناه ، وموضحة لما أشكل من فهمه ، لذا فقد حرص أئمة التفسير على الاستعانة بالسنة النبوية في التفسير عموماً ، وفي دفع الإشكال خصوصاً .

يقول ابن العربي (ت ٥٤٣هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾^(١) ، - بعد أن ذكر الأقوال فيها - :

"يحتمل أن يكون السبع من الشُّور ، ويحتمل أن يكون من الآيات ؛ لكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف قناع الإشكال ، وأوضح شعاع البيان ؛ ففي الصحيح عند كل فريق ومن كل طريق أنها أمُّ الكتاب ، والقرآن العظيم - حسبما تقدم من قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب (ت ٣٠هـ) "هي السبع المثاني والقرآن العظيم التي أوتيت"^(٢).

وبعد هذا فالسبع المثاني كثير ، والكل محتمل ، والنصُّ قاطع بالمراد ، قاطع بمن أراد التكليف والعناد ، وبعد تفسير النبي صلى الله عليه وسلم فلا تفسير ، وليس للمتعرض إلى غيره إلا النكير ، وقد كان يمكن لولا تفسير النبي صلى الله عليه وسلم أن أُحرر في ذلك مقالاً وجيزاً ، وأسبك من سنام المعارف إبريزاً ، إلا أنَّ الجواهر الأعلى من عند النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى"^(٣).

ولقد كان ابن قتيبة من أوائل أئمة التفسير الذين تحدثوا عن منزلة السنة من القرآن ، وكونها دافعة للإشكال ورافعة له ، وفي ذلك يقول :

"ولولا هذه الأحاديث المنقولة إلينا لم نعرف بالكتاب أكثر ديننا ، لأنه يأتي فيه مجمل يفصله الحديث ، ومُشكّل يبيّن مراد الله فيه الرسول ، وهذا بيّن كثير لا يحتاج إلى الإطالة"^(٤).

(١) سورة الحجر : ٨٧ .

(٢) سبق تحريجه (ص ٢٦٣) .

(٣) أحكام القرآن (٣/١١٣)، وانظر : مشكل القرآن الكريم (ص ٣٧٩) .

(٤) المسائل والأجوبة (ص ٣٣٥) .

ولهذا اهتم الإمام ابن قتيبة بهذا الطريق ، واستعمله في دفعه للإشكال عن آيات القرآن الكريم ، وفي تقوية ما يذهب إليه من التفسير ، ومن الأمثلة على ذلك :

. في "باب تأويل الحروف التي ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم" ؛ فسّر قوله

تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١﴾﴾^(١) ، وبيّن أن السافلين هم : الضعفاء والزمنى والأطفال ، وأن الهرم يخرّف ويؤثّر وينقص خلقه ، ويضعف بصره وسمعه ، وتقلّ حيلته ، ويعجز عن عمل الصالحات ، فيكون أسفل من هؤلاء جميعاً .

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في وقت القوة والقدرة ، فإنهم في حال الكبر غير منقوصين ، لأنهم لو لم يُسلبوا القدرة والقوة لم يكونوا لينقطعوا عن عمل الصالحات ، فالله عزّ وجل يُجري لهم أجر ذلك ولا يمنه ، أي لا يقطعه ولا ينقصه .

ثم استشهد لذلك من السنة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "يقول الله للكرام الكاتبين : إذا مرض عبدي فاكتبوا له ما كان يعمل في صحته ، حتى أعافيه أو أقبضه"^(٢) .^(٣)

ويقول في تفسير "الصور" في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴿٤﴾﴾^(٤) :

"قال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) : وهو جمع صورة ، يقال : صورة وصور ، وصور ، قال : ومثله سورة البناء وسوره ، وأنشد :

سُرْتُ إِلَيْهِ فِي أَعَالِي السُّورِ^(٥)

وقال غيره : الصُّور : القرْن بلغة قوم من اليمن ، وأنشد :

نَحْنُ نَطْحَنَاهُمْ غَدَاةَ الْجَمْعَيْنِ

بِالضَّابِحَاتِ فِي عُبَارِ النَّعَيْنِ

نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنَطِحِ الصُّورَيْنِ^(١)

(١) سورة التين : ٤-٦ .

(٢) سبق تخرجه (ص ٣٠٥) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٤٢-٣٤٣) .

(٤) سورة النمل : ٨٧ .

(٥) البيت للعجاج في ديوانه (ص ٢٣٠) ، صدره : فُرْبُ ذِي سُرَادِقٍ تَحْجُورِ .

وهذا أعجب إليّ من القول الأول ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنعم؟ وصاحب القُرْن قد التقمه وحنى جَبْهَتَهُ ، ينتظر متى يُؤمر فينْفُحُ" (٢) " (٣) .

. وفسّر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ (٤)، بمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بشهادات الزور ، ثم تدلي بمال أخيك إلى الحاكم ليحكم لك به ، وأنت تعلم أنك ظالم له ، فإن قضاءه لك بذلك لا يُجِلُّ لك شيئاً كان محرماً عليك .

ثم استشهد لذلك من السنة بقوله صلى الله عليه وسلم : "فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار" (٥) . (٦)

. وفسّر قوله تعالى: ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ (٧)؛ فقال :

"واللذان يأتیان الفاحشة فحدوهما ولا تعيروهما بالفاحشة" (٨)، ثم استشهد لذلك من السنة النبوية بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمة : "فليجلدها الحد ولا يعيرها" (٩) .

(١) الرجز بلا نسبة في الصحاح (٢/٧١٦)، وفي اللسان (٤/٤٧١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/٣٢٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/٣٢٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال ابن كثير في تفسيره (٢/١٧١): "وقد روي هذا من غير وجه ، وهو حديث جيد" ، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أخرجه الترمذي في صفة يوم القيامة ، باب ما جاء في شأن الصور ح(٢٤٣١) (ص١٨٩٦)، وقال : "حديث حسن" ، وحسنه البغوي في شرح السنة (١٥/١٠٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٥٧٨) .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص٢٦) .

(٤) سورة البقرة : ١٨٨ .

(٥) سبق تخريجه (ص٣٠٥) .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص٧٥) .

(٧) سورة النساء : ١٦ .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص١٢٢) .

(٩) سبق تخريجه (ص٣٠٣) .

المبحث السادس دفع الإشكال بأقوال السلف

سبق الحديث عن أن الإمام ابن قتيبة موثّر للسلف ، لا يعدل بهم أحداً ، وأنه قد اعتمد على تفسيرهم بشكل كبير في مصنفاته ، واحتج به في جوانب متعددة ؛ منها دفع الإشكال ، وقد ظهر جلياً اهتمامه بهذا الجانب ، إذ اعتمد في مواضع كثيرة على تفسير السلف ومروياتهم في دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم ، ومن الأمثلة على ذلك :

. في "باب التناقض والاختلاف" ، ذكر ما زعموه من التناقض في مثل قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۗ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۗ ﴾^(١) ، وهو يقول في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ ۗ ﴾^(٢) ، وأجاب عنه بقوله :

"روى عبدالرزاق (ت ٢١١هـ) ، عن معمر (ت ١٥٤هـ) ، عن قتادة (ت ١١٧هـ) : أن رجلاً جاء إلى عكرمة ، فقال : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۗ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ ۗ ﴾ فقال : إنها مواقف ، فأما موقف منها : فتكلموا واختصموا ، ثم ختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم ، فحينئذ لا يتكلمون .

وقوله : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۗ ﴾^(٣) ، وهو يقول في موضع آخر : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۗ ﴾^(٤) ، فإنه إذا نُفخ في الصور نفخةً واحدة ، تقطعت تقطعت الأرحام ، وبطلت الأنساب ، وشُغِلوا بأنفسهم عن التَّسَالِ ، وصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فإذا نفخ فيه أخرى : قاموا ينظرون ، ﴿ وَأَقْبَلَ

(١) سورة المرسلات : ٣٥-٣٦ .

(٢) سورة الزمر : ٣١ .

(٣) سورة الطور : ٢٥ ، الصافات : ٢٧ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠١ .

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤﴾ ، وقالوا : ﴿ مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقِدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(١) ، وهو معنى قول ابن عباس (ت ٦٨ هـ) " ^(٢) .

. ثم ذكر ما نخلوه من التناقض في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَةً فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِئَيْدِنَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ^(٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّنَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٤﴾ ، حيث دلت الآيات الأولى على أنه خلق الأرض قبل السماء ، فيما دلت الآيات الأخرى على أنه خلق السماء قبل الأرض ، ثم قال ابن قتيبة ردّاً على ما زعموه من التناقض : "وليس على كتاب الله تحريف الجاهلين ، وغلط المتأولين ، وإنما كان يجد الطاعن متعلقاً ومقالاً لو قال : والأرض بعد ذلك خلقها أو ابتدأها أو أنشأها ، وإنما قال : ﴿ دَحَاهَا ﴾ ، فابتدأ الخلق للأرض على ما في الآي الأولى في يومين ، ثم خلق السماوات وكانت دحاناً في يومين ، ثم دحا بعد ذلك الأرض ، أي بسطها ومدّها ، وكانت ربوة مجتمعة ، وأرساها بالجبال ، وأنبت فيها النبات في يومين ، فتلك ستة أيام سواء للسائلين ، وهو معنى قول ابن عباس (ت ٦٨ هـ) .

وقال مجاهد (ت ١٠٤ هـ) : " بعد ذلك " في هذا الموضع ، بمعنى " مع ذلك " ، و" مع " و" بعد " في كلام العرب سواء" ^(٥) .

(١) سورة يس : ٢٥ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٦-٦٧) .

(٣) سورة فصلت : ٩-١١ .

(٤) سورة النازعات : ٢٧-٣٠ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٧-٦٨) .

. وفي "باب تأويل الحروف التي ادُعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم" ، ذكر قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾^(١) ، وفسره ؛ فقال :
 "لما قال المشركون : لله ولد - تعالى الله عن ذلك - ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله الله على رسوله عليه السلام من التبرؤ من ذلك ، قال الله سبحانه لرسوله عليه السلام : ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ أي : عندكم في ادّعاءكم ، ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ، أي : أول الموحدين ، ومن وَحَدَّ الله فقد عبده ، ومن جعل له ولداً أو ندّاً فليس من العابدين وإن اجتهد .
 قال مجاهد (ت ١٠٤هـ) : "يريد إن كان لله ولد في قولكم ، فأنا أول من عبَدَ الله ووَحَدَه ، وكذّبكم بما تقولون"^(٢) " (٣) .

(١) سورة الزخرف : ٨١ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٥٤/٢٠) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٧٣-٣٧٤) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٦٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ١٥١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ،

٣٥٩ ، ٣٧٩ ، ٤٠٩) .

المبحث السابع

دفع الإشكال بدلالة اللغة

سبق الحديث عن ملكة الإمام ابن قتيبة اللغوية ، ومعرفته التامة بلغة العرب وأساليبها، وعن إفادته الكبيرة من اللغة في جوانب عديدة من التفسير ؛ منها : استخدامه اللغة في دفع الإشكال عن آي القرآن الكريم ، واعتبارها أحد المرجحات في اختياراته في التفسير ، والأمثلة على ذلك كثيرة ؛ منها :

. في "باب التناقض والاختلاف" أجاب عما استشكله الطاعنون في قوله تعالى : ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾^(١)، وقولهم : استثناء المشيئة من الخلود يدل على الزوال ، وإلا فلا معنى للاستثناء ؛ فقال - دفعاً للإشكال - :

"إن للعرب في معنى "الأبد" ألفاظاً يستعملونها في كلامهم ، يقولون : لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار ، وما طمى البحر ، أي ارتفع ، وما أقام الجبل ، وما دامت السماوات والأرض ، في أشباه لهذا كثيرة ، يريدون لا أفعله أبداً ؛ لأن هذه المعاني عندهم لا تتغير عن أحوالها أبداً ، فحاطبهم الله بما يستعملونه فقال : ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ، أي مقدار دوامهما ، وذلك مدة العالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران عن هبئتهما ، يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾^(٢) ، ويقول : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾^(٣).

أراد أنهم خالدون فيها مدة العالم ، سوى ما شاء الله أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم ، ثم قال : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾^(٤) ، أي غير مقطوع .

(١) سورة هود : ١٠٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٨ .

(٣) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٤) سورة هود : ١٠٨ .

و"إلا" في هذا الموضع بمعنى "سوى" ، ومثله من الكلام : لأَسْكَنَنَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ حَوْلًا إِلَّا مَا شِئْتُ ، تريد سِوَى مَا شِئْتُ أَنْ أَزِيدَ عَلَى الْحَوْلِ" (١).

ففي هذا المثال دفع ابن قتيبة الإشكال عن طريق اللغة ، وذلك ببيان أسلوب من أساليب العرب في كلامها ، وهو تعليق الأمر بزائل والمراد التأييد .

. ويسأله سائل في "المسائل والأجوبة" عن قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ (٢) ، فيقول في سؤاله : "أما في قوله : ﴿ لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ ، ما أغنى عن قوله : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ ﴾ ؛ لأن النساء يَدْخُلْنَ فِي الْقَوْمِ ، يقال : هؤلاء قوم فلان للرجال والنساء من عشيرته"

فيجيب ابن قتيبة : "والذي عندي أن أصل القوم للرجال دون النساء ، ثم يُخَالِطُهُمُ النِّسَاءُ فيقال : هؤلاء قوم فلان ، ولا يجوز أن تقول للنساء ليس فيهنّ رجلٌ ، هؤلاء قوم فلان ، ولكن تقول : من قومه لأنّ قومه رجال والنساء منهم ، ويرى أهل النظر أنّه قيل للرجال "قوم" أريد به جماعة قائم ، كما يُقال : زائرٌ وزوّرٌ ، وصائمٌ وصوّمٌ ، ونائمٌ ونوّمٌ ، وسموا قوماً لأنهم يقومون معه في النوائب ، وعند الشدائد وينصرونه .

ومما يدلُّك على أن القوم للرجال ، قول زهير - بن أبي سلمى - :

وما أدري وسوف إخال أدري
أقوّم آل حصنٍ أم نساء^(٣)
يريدُ رجالاً هم أم نساء؟^(٤)

. وسائلٌ آخر يسأله عن قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ

مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ (٥) ، فيقول : "الاستثناء بـ "إن" يدل على الشك

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٧٦-٧٧) .

(٢) سورة الحجرات : ١١ .

(٣) البيت في ديوانه (ص ١٣) .

(٤) المسائل والأجوبة (ص ٢٢٨-٢٣٠) .

(٥) سورة الفتح : ٢٧ .

، والله لا يشك ، و"لتدخلن" تحقيق، فكيف يدخل شك بعد تحقيق؟ .
ويجب ابن قتيبة رداً على إشكال السائل : "والذي عندي في ذلك أن "إن" تقام في كثير
من المواضع مقام "إذ" كقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
﴿^(١)، وكقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢)، يريد إذ كنتم
مؤمنين ، فكأنه قال جل وعزَّ : لتدخلن المسجد الحرام إذا شاء الله دخولكم إياه آمنين، ومثله
قول رسول الله في أهل القبور : "إنا إن شاء الله بكم لاحقون"^(٣)، لا يجوز أن يكون قد شكَّ
في لحوقه بهم، وإيما أراد نحن إذ شاء الله بكم لاحقون"^(٤).

. ويقول في تفسير "الدلوك" في قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ

الَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾^(٥):

" "لدلوك الشمس" : غروبها ، ويقال : زوالها ، والأول أحب إليّ ، لأن العرب تقول:

دَلَّكَ النِّجْمُ ؛ إِذَا غَابَ ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ (ت ١١٧ هـ) :

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا بُحُومٌ ، وَلَا بِالْأَفَلَاتِ الدَّوَالِكِ^(٦)

وتقول في الشمس : دَلَّكَ بَرَّاحٌ ، يريدون غربت ، والناظر قد وضع كفه على حاجبه

ينظر إليها ، قال الشاعر :

والشمس قد كادت تكون دَنَفًا أَدْفَعُهَا بِالرَّاحِ كَيْ تَزْحَلْفَا^(٧)

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٨ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ح(٢٢٥٥) (ص٨٣٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) المسائل والأجوبة (ص٢٥٥) .

(٥) سورة الإسراء : ٧٨ .

(٦) البيت في ديوانه (ص٤٢٥) .

(٧) البيت للعجاج ، وهو في ديوانه (ص٨٢)، ومنسوب له في اللسان (١٣١/٩)، وفيه : "يقال للشمس إذا مالت للمغيب إذا زالت عن كبد السماء نصف النهار : قد تزحلفت".

فشبهها بالمريض في الدَّفْن ، لأنها قد هَمَّت بالغروب ، كما قارب الدَّفْن الموت، وإنما ينظر إليها من تحت الكف ، ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب ويتوقَّى الشعاع بكفه" (١).

(١) تفسير غريب القرآن (ص٢٥٩-٢٦٠)، وانظر - للاستزادة - : (ص٥٣، ٥٤، ٢٦٤، ٣١٠، ٣٩٨)، غريب الحديث (١/٣٧، ٧٧، ٩٣).

الباب الرابع

جهود ابن قتيبة في القراءات

وفيه تمهيد وفصلان :

- الفصل الأول: منهج ابن قتيبة في القراءات .
- الفصل الثاني: آراء ابن قتيبة في القراءات .

التمهيد

أولاً : تعريف القراءات .

عرّفها علماء القراءات بتعاريف متعددة ، من أبرزها :

١ . تعريف الزركشي (ت ٧٩٤هـ) :

" هي اختلاف ألفاظ الوحي في كُتَبه الحروف أو كُفيتها ؛ من تخفيف وتثقيل وغيرهما . (١)"

٢ . تعريف ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) :

" علم بكيفية أداء كلمات القرآن ، واختلافها معزّوفاً لناقله " (٢) .

٣ . تعريف شهاب الدين القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) :

" علم يعرف منه اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب والحذف والإثبات والتحرك والإسكان والفصل والاتصال ، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال من حيث السماع " (٣) .

٤ . تعريف الزرقاني (ت ١٣٧٦هـ) :

" مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم ، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أو في نطق هيئاتها . (٤)"

٥ . تعريف عبدالفتاح القاضي (ت ١٤٠٣هـ) :

" علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية ، وطريق أدائها اتفاقاً واختلافاً مع عزو كل وجه لناقله " (٥) .

والناظر لهذه التعريفات المتعددة يمكنه ملاحظة الأمور التالية :

(١) البرهان (٣٩٥/١) .

(٢) منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزري (ص ٤٩) .

(٣) لطائف الإشارات لفنون القراءات (١٧٠/١) .

(٤) مناهل العرفان (١٨٤/١) .

(٥) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص ٥) .

١. أن من العلماء من عرّف ذات القراءات ، كالزركشي ، والزرقاني ، ومنهم من عرف القراءات كعلم وهم البقية ، ولا يخفى التلازم بين فهم الشيء وفهم العلم الذي يدرسه ويسمى به .

٢. أن تعريف الزركشي والزرقاني لم يعرجا على مواطن الاتفاق بين القراء ، بحيث يفهم منهما أنها مما لا يُعنى به علم القراءات ، والأمر ليس كذلك ، فقد ذكر ذلك غيرهما باللفظ الصريح ، فكان تعريفهما لذلك غير جامع .

٣. أن هذه التعريفات بمجموعها دلت على أن علم القراءات يدور حول أمرين : أحدهما : كيفية أداء الكلمات القرآنية ، سواء أكان ذلك الأداء متفقاً عليه بين الناقلين لهذه الكيفية ، أم مختلفاً فيه .

الثاني : النقل الصحيح عن الأئمة ، الذين تلقوا هذه الكيفية بالأسانيد الصحيحة المتصلة إلى رسول الله ﷺ^(١) .

وعليه يمكن القول : إن تعريف ابن الجزري رحمه الله أقرب للاختيار ، لكونه جامعاً للأمرين ، وموجزاً في الوقت ذاته ، ومعلوم أن التعريف يفضل فيه الاختصار ما أمكن .
فقوله : " كيفية أداء كلمات القرآن " يغني عن عبارة (كيفية النطق وطريقة الأداء) كما في تعريف القاضي ، ويغني أيضاً عن التفصيل الذي ذكره الزركشي ، والقسطلاني ، وغيرهم .

أما قوله : " معزواً لناقله " ، فهو يدل على أن علم القراءات موقوف على النقل والسمع لا على الرأي والاجتهاد ، ولهذا قال ابن الجزري :
" وأن يحذر الإقراء بما يُحسن في رأيه دون النقل ، أو وجه الإعراب ، أو لغة دون رواية " (٢)

ويشمل قوله - رحمه الله - " معزواً لقائله " : القراءات المتواترة والمشهورة والشاذة لأنها معزوة لقائلها .

(١) انظر : هذه الملاحظات : القراءات القرآنية ، تاريخها ، ثبوتها ، حجيتها ، أحكامها لعبدالحليم قابة (ص ٢٥) ، المدخل إلى علم القراءات ، د. شعبان محمد إسماعيل (ص ٢٧) ، علم القراءات (نشأته . أطواره . أثره في العلوم الشرعية) ، د. نبيل آل إسماعيل (ص ٢٨) ، تاريخ القراءات القرآنية ، د. عبدالهادي الفضلي (ص ٥٥) .

(٢) منجد المقرئين (ص ٥٣) .

ثانياً : العلاقة بين القرآن والقراءات .

ذهب نجم الدين الطوفي (ت ٧١٦هـ)^(١) ، والزركشي (ت ٧٩٤هـ) إلى أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، قال الزركشي :

" واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز ، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيتها ؛ من تخفيف وتثقيل وغيرها "^(٢) .

وتبعهما على ذلك بعض العلماء كالقسطلاني (ت ٩٢٣هـ)^(٣) ، والبنا الدمياطي (ت ١١١٧هـ)^(٤) ، وقد استندوا في ذلك على أمور :

١ . أن القراءات على اختلاف أنواعها لا تشمل كلمات القرآن الكريم ، بل هي موجودة في بعض ألفاظه فقط .

٢ . أن القرآن قطعي الثبوت لا نزاع بين المسلمين في تواتره ، أما القراءات فقد وقع فيها نزاع .

وفي مقابل هذا القول نجد من العلماء من يرى أن كلاً من القرآن والقراءات حقيقتان بمعنى واحد ، كابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ) الذي أطلق تسمية القرآن على القراءات ولو كانت شاذة ، بل ويستنكر إطلاق اسم " الشاذ " على القراءة .

ومن المعاصرين الدكتور محمد سالم محيسن الذي أطلق الترادف على القرآن والقراءات حيث يقول : " أرى أن كلاً من القرآن والقراءات حقيقتان بمعنى واحد ، يتضح ذلك بجلاء من تعريف كل منهما ، ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في نزول القراءات "^(٥) .

وقد اتضح من كلام الدكتور حجة هذا الفريق ، وهي :

١ . المعنى اللغوي المشترك للقرآن والقراءات .

(١) شرح مختصر الروضة (٢١/٢) .

(٢) البرهان (٣٩٥/١) .

(٣) لطائف الإشارات (١٧١/١) .

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص ٧) .

(٥) في رحاب القرآن الكريم ، د. محمد سالم محيسن (٢٠٩/١) .

٢ . الأحاديث التي أمر فيها رسول الله ﷺ بأن يقرئ أمته القرآن على سبعة أحرف، وهذه القراءات هي بعض الأحرف السبعة ، فدل هذا على أن القرآن والقراءات وحي منزل من الله عز وجل .

وفي هذين المذهبين نظر ، فإن القول بالتغاير التام بين القراءات والقرآن لا يصح ، إذ القراءات الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول هي ذات القرآن ، وجزء منه ، يطلق على كل واحد منها اسم قرآن ، وتأخذ أحكامه .

كما أنه لا يصح القول بالتوافق التام بين القرآن والقراءات ، فمن القراءات ما لم تتوفر فيه شروط قبول القراءة ، وهذه يقال لها قراءة ، ولا يصح تسميتها قرآناً .

ولهذا نجد جمهور العلماء والمقرئين يفرقون بين القراءة المتواترة ، وغير المتواترة ، فهم يعدون القراءة المتواترة التي استجمعت أركان قبول القراءة قرآناً منزلاً من عند الله تعالى ، أما القراءة غير المتواترة ، فيسمونها قراءةً ، ولا يعدونها قرآناً^(١) .

ثالثاً : أهمية علم القراءات ، وعناية الإمام ابن قتيبة به .

إن شرف العلم من شرف المعلوم وموضوعه ، وإذا كانت القراءات أو علمها يدور حول كلمات القرآن الكريم ، وكيفية أدائها ، فلا شك أن منزلة هذا العلم عظيمة ؛ لأنها تتعلق بكتاب الله عز وجل .

ففضل القرآن الكريم ، وما يتعلق به من كيفية تلاوته ، ووجوه قراءاته من أفضل القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ، كما أن علم القراءات والبحث فيه من أجل العلوم وأنفعها .

قال شهاب الدين القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) :

"فإن القرآن ينبوع العلوم ، ومنشؤها ، ومعدن المعارف ومبدؤها ، ومبنى قواعد الشرع وأساسه ، وأصل كل علم ورأسه ، والاستشراق على معانيه لا يتحقق إلا بفهم رصنه ومبانيه ، ولا يطمع في حقائقها التي لا تنتهي لغرائبها ودقائقها إلا بعد العلم بوجوه قراءاته ، واختلاف رواياته ، ومن ثم صار علم القراءات من أجل العلوم النافعات ، وإذا كان كل علم يَشْرُفُ بِشَرَفٍ متعلقه ، فلا جرم خص أهله ، الذين هم أهل الله وخاصته ، بأنهم المصطفون

(١) انظر : إتقان البرهان ، د. فضل عباس (٢/١٤٠)، القراءات القرآنية لعبدالحليم قابه (ص ٣٢) .

من بريته والمجتبون من خليقته ، وناهيك بهذا الشرف الباذخ والمجد الراسخ، مع ما لهم من الفضائل اللاحقة ، والمنازل السابقة ، فمناقبهم أبداً تتلى ، ومحاسنهم على طول الأمر تُجلى (١) .

ولقد اهتم العلماء بالقراءات قديماً وحديثاً ، فألفوا فيها وصنفوا ، واستدلوا بها وعلموا، فتضمنت كتب التفسير والحديث والفقهاء والأصول واللغة الكثير من القراءات ، وعللها وأحكامها ومسائلها .

كما حظي هذا العلم بعناية اللغويين المتقدمين كالكسائي (ت ١٨٣هـ)، والفراء (ت ٢٠٧هـ)، والأخفش (ت ٢١٥هـ) ، وأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، وغيرهم، وكانت كتبهم حافلة بأنواع القراءات وتوجيهها وما يترتب عليها من فروق معنوية - وإن لم يكن ذلك بالسعة التي كان عليها من تلاهم من اللغويين كالأزهري (ت ٣٧٠هـ)، وابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، وأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) - وكان الإمام ابن قتيبة من هؤلاء الأئمة المتقدمين الذين عنوا بالقراءات عناية فائقة ، ظهر ذلك من خلال إفراده لها بالتصنيف ، ويعد كتابه "القراءات" من أوائل المصنفات في هذا الفن ، كما برز اهتمامه بالقراءات في مصنفاته المتعددة ؛ إذ عرض للكثير من القراءات وما يتعلق بها من توجيه وأحكام ومسائل ، وسيكون تفصيل ذلك من خلال هذا الباب .

(١) لطائف الإشارات لفنون القراءات (٦/١) .

الفصل الأول

منهج ابن قتيبة في القراءات

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول: منهجه في عرض القراءات .
- المبحث الثاني: شروط قبول القراءة عند ابن قتيبة .
- المبحث الثالث : أصول توجيه القراءات عند ابن قتيبة .
- المبحث الرابع : نقده لبعض القُرَّاء والقراءات .

المبحث الأول

منهجه في عرض القراءات

لم يتبع الإمام ابن قتيبة منهجاً واحداً في عرض القراءات ، وإنما تنوعت عباراته ، وتعددت أساليبه ، ويمكن تلخيص معالم منهجه في عرض القراءات فيما يلي :

أولاً : ينسب الإمام ابن قتيبة القراءة إلى أصحابها أحياناً ، وهذا قليل بالنسبة لما أهمله من نسبة وعزو للقراءات ، وبالنظر إلى القراءات المنسوبة نجد بعضها قد نُسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعضها إلى الصحابة رضوان الله عليهم ، وأخر إلى التابعين ومشاهير القراء وغيرهم ، وتفصيل ذلك كالآتي :

أ . ما نُسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

نَسَبَ الإمام ابن قتيبة القراءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في موضع واحد فقط ، وذلك في كتابه "أدب الكاتب" في "باب فَعِلَ يَفْعَلُ وَيَفْعَلُ" ، وذكر منه "حَسِبَ يَحْسَبُ وَيَحْسِبُ" ، ثم قال :

"وقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم - يَحْسِبُ^(١) وَيَحْسِبُونَ^(٢) - بالكسر"^(٣) .

يشير الإمام ابن قتيبة إلى ما جاء عن جابر بن عبد الله (ت ٧٨هـ) رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : "يَحْسِبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ" بكسر السين^(٤) .

^(١) في قوله تعالى : ﴿ يَحْسِبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ [سورة الهمزة : ٣] ، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر "يَحْسِبُ" بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسرها "يَحْسِبُ" . [المبسوط في القراءات العشر (ص ١٥٤) ، النشر (١٧٨/٢)] .

^(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [سورة الكهف : ١٠٤] ، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين "يَحْسِبُونَ" ، وقرأ الباقون بكسرها "يَحْسِبُونَ" . [النشر (٢٣٦/٢) ، الحجة للقراء السبعة للفارسي (٢٠٤/٢)] .

^(٣) أدب الكاتب (ص ٢٢٠) .

^(٤) أخرجه أبو داود في الحروف والقراءات في باب منه ح (٣٩٩٥) (ص ١٥١٥) ، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير باب سورة الهمزة ح (١١٦٩٨) (٥٢١/٦) ، وابن حبان في صحيحه ح (٦٣٣٢) (٢٤٠/١٤) بترتيب ابن بلبان ، والحاكم في المستدرک ح (٣٠١٣) (٢٨١/٢) ، وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم = يخرجاه" ، وعلق

جدير بالذكر أن نسبة القراءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يدل على تواترها، ولا على جواز القراءة بها .

يقول ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) عن القراءات المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم : "وقد تروى قراءات عن النبي صلى الله عليه وسلم بأسانيد صحيحة في كتب الصحيح ، مثل صحيح البخاري ومسلم وأصراهما ، إلا أنها لا يجوز لغير من سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم القراءة بها ، لأنها غير متواترة النقل ، فلا يترك المتواتر للآحاد، وإذا كان راويها قد بلغته قراءة أخرى متواترة تخالف ما رواه وتحقق لديه وجب عليه أن يقرأ بالمروية تواتراً ، وقد اصطلح المفسرون على أن يطلقوا عليها قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها غير منتسبة إلى أحد من أئمة الرواية في القراءات ، ويكثر ذكر هذا العنوان في تفسير محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، وفي الكشاف والمحرر الوجيز لعبدالحق ابن عطية (ت ٥٤٦هـ)، وسبقهم إليه أبو الفتح ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، فلا تحسبوا أنهم أرادوا بنسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أنها وحدها الماثورة عنه ولا ترجيحها على القراءات المشهورة ؛ لأن القراءات المشهورة قد رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم بأسانيد أقوى ، وهي متواترة على الجملة ، كما سنذكره ، وما كان ينبغي إطلاق وصف قراءة النبي عليها ؛ لأنه يوهم من ليسوا من أهل الفهم الصحيح أن غيرها لم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم" (١).

ب. ما نسب إلى الصحابة رضوان الله عليهم .

أغلب ما نسب الإمام ابن قتيبة من قراءات كان للصحابة ، وقد تنوعت عباراته في ذلك ، فتارة يقول : "وفي حرف فلان" ، وتارة "في مصحف فلان" ، أو "قراءة فلان" ، أو "قرأ فلان" ، ومن الأمثلة على ذلك :

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ (٢) :

الذهبي في التلخيص : "عبدالمملك - بن عبدالرحمن الذماري - ضعيف" ، وضعفه الألباني [ضعيف سنن أبي داود

(ص ٣٢٢) .

(١) التحرير والتنوير (١/٥٤-٥٥) .

(٢) سورة محمد : ٢٠ .

"محكمة : أي مُحدثة ، وسميت المحدثه : محكمة ؛ لأنها حين تنزل تكون كذلك حتى يُنسخ فيها شيء ، وهي في حرف عبدالله (ت ٣٢هـ) - رضي الله عنه - : "فإذا أنزلت سورة محدثة" (١) " (٢) .

ويقول : "ومثله قوله : ﴿ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ (٣) ، أي : وادعوا شركاءكم ، وكذلك هو في مصحف عبدالله (٤) " (٥) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (٦) ؛ قال :

"وفي مصحف عبدالله : "تبينت الإنسان أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب" (٧) " (٨) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ (٩) :

"أكاد أخفيها : أي أسترها من نفسي ، وكذلك هي في قراءة أبي (ت ٣٠هـ) - رضي الله عنه - : "أكاد أخفيها من نفسي" (١٠) " (١١) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَلَمًا تَهْجُرُونَ ﴾ (١٢) ؛ قال :

(١) نسبها له الفراء في معاني القرآن (٦٢/٣) ، والطبري في تفسيره (٢٠٩/٢١) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢٠) .

(٣) سورة يونس : ٧١ .

(٤) قرأ ابن مسعود : "فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم" [معاني القرآن للفراء (١/٤٧٣)] .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢١٣) .

(٦) سورة سبأ : ١٤ .

(٧) قرأ بها ابن مسعود وابن عباس . [المحتسب لابن جني (٢/١٨٨)] .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٣٥٥) .

(٩) سورة طه : ١٥ .

(١٠) في مصحف أبي بن كعب ، وابن مسعود ، وقراءة ابن عباس : "أكاد أخفيها من نفسي" . [الكشاف : (٣/٥٦) ، البحر

الحيط (٦/٢٢١)] .

(١١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٧٧) .

(١٢) سورة المؤمنون : ٦٧ .

"تَهْجُرُونَ : تقولون هُجْرًا من القول ؛ وهو اللغو منه والهذيان ، وقرأ ابن عباس (ت ٦٨هـ) : "تُهْجِرُونَ"^(١) - بضم التاء وكسر الجيم - وهذا من الهُجْر ، وهو السَّب والإفحاش في المنطق ، يريد سبهم النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه"^(٢).

ج . ما نسب إلى التابعين ومشاهير القراء .

نسب الإمام ابن قتيبة بعض القراءات للتابعين ، وأكثر من نقل عنه منهم : الحسن (ت ١١٠هـ) ، ومجاهد (ت ١٠٤هـ) ، ومن أمثلة ما نسبته للتابعين :
عند حديثه عن الفروق اللغوية ؛ قال :

"الْقَبْضُ : بجميع الكف ، والقَبْضُ : بأطراف الأصابع ، وقرأ الحسن : "فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثر الرسول"^(٣) "^(٤).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ آلِ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا

لَحْمًا ﴾^(٥) ؛ قال :

"وقرأ الحسن : نُنشِزُهَا"^(٦) ، كأنه من النَّشْر عن الطِّي"^(٧).

(١) قرأ بها ابن عباس [معاني القرآن للفراء (٢/٢٣٤) ، البحر المحيط (٦/٣٩٢)] ، وهي قراءة نافع من العشرة ، وقرأ الباقر "تَهْجُرُونَ" بفتح التاء وضم الجيم . [المبسوط (ص٣١٣) ، معاني القراءات للأزهري (٢/١٩٢)] .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص٢٩٩) ، وانظر - للاستزادة من القراءات المنسوبة للصحابة - : (ص٥١ ، ١٣٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٨٣) ، تأويل مشكل القرآن (ص٢٤ ، ٥٢ ، ١٩٠ ، ٣٥٤) ، غريب الحديث (١/٣٤٧ ، ٣٦٠) ، (٢/٣٤٧ ، ٣٠ ، ٥٠/٢) .

(٣) في سورة طه : ٩٦ ، قرأ عبدالله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وقتادة والحسن : "فَقَبَضْتُ قَبْضَةً" . [المختص (٢/٥٥) ، مختصر ابن خالويه (ص٩٢)] .

(٤) أدب الكاتب (ص١٠١) .

(٥) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(٦) قرأ بها الحسن . [معاني القرآن للفراء (١/١٧٢)] ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب "نُنشِزُهَا" ، وقرأ الباقر من العشرة "ننشِزها" ، بالزاي . [المبسوط (ص١٥١) ، النشر (٢/١٧٤)] .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص٩٦) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ سَرَّابِلُهُمْ مِّن قَطْرَانٍ ﴾^(١)؛ قال :
 "و" سرابيلهم من قَطْرٍ آنٍ"^(٢) قراءة عكرمة (ت ١٠٥هـ)، ومن تابعه ، والقطر: النحاس ،
 ، والآن : الذي قد بلغ منتهى حرّه"^(٣).

وفي "باب ما ادعي على القرآن من اللحن" ؛ قال :
 "وقرأ يحيى بن وثاب (ت ١٠٣هـ)^(٤) : "وإن تُلُوا أو تُعْرَضُوا"^(٥) ، من الولاية ،
 ، ، وقرأ الأعمش (ت ١٤٨هـ) : "وما أنتم بمُصْرِحِيَّ"^(٦) بكسر الياء"^(٧).

كما يجد القارئ لمصنفات الإمام ابن قتيبة بعض القراءات المنسوبة إلى مشاهير القراء من
 السبعة ، كعاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧هـ)، وحمزة (ت ١٥٦هـ)، ونافع (ت ١٦٩هـ)،
 والكسائي (ت ١٨٩هـ)، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله في "تأويل مشكل القرآن" :
 "ومن ذلك قوله في سورة الأنبياء : "كذلك نجى المؤمنين"^(٨)، كتبت في المصاحف بنون
 واحدة ، وقرأها القراء جميعاً : "نُنْجِي" بنونين ، إلا عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧هـ) فإنه
 كان يقرؤها بنون واحدة"^(٩)^(١).

(١) سورة إبراهيم : ٥٠ .

(٢) قرأ بها علي وأبو هريرة وابن عباس وعكرمة وابن جبير وابن سيرين وآخرون . [مختصر ابن خالويه (ص ٧٤)، البحر
 المحيط (٥/٤٢٩)].

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٩) .

(٤) يحيى بن وثاب الأسدي ، الكوفي ، مولاهم ، تابعي ثقة كبير من العباد الأعلام ، روى عن ابن عمر وابن عباس ،
 وتعلم القرآن من عبيد بن نضلة - صاحب عبدالله بن مسعود - آية آية ، قال ابن جرير : "كان مقرئ أهل الكوفة
 في زمانه" ، مات سنة ثلاث ومائة . [المعارف لابن قتيبة (ص ٢٩٤)، غاية النهاية (٢/٣٣١)].

(٥) سورة النساء : ١٣٥ ، قرأ يحيى بن وثاب : "وإن تُلُوا" بضم اللام وبواو واحدة ، وقرأ بها من العشرة: ابن عامر وحمزة
 ، وقرأ الباقر : "وإن تُلُوا" بواو. [المبسوط (ص ١٨٢)، النشر (٢/١٩٠)].

(٦) سورة إبراهيم : ٢٢ ، قرأ الأعمش "بمصرخي" بكسر الياء . [إتحاف فضلاء البشر (٢/١٦٧)]، ووافقه من العشرة:
 حمزة ، وقرأ الباقر بفتح الياء : "بمصرخي" . [المبسوط (ص ٢٥٦)، النشر (٢/٢٢٤)].

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٢) .

(٨) سورة الأنبياء : ٨٨ .

(٩) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم : "نُنْجِي" بنون واحدة مشددة الجيم ، وقرأ الباقر "نُنْجِي" ، بنونين مع تخفيف
 الجيم. [المبسوط (ص ٣٠٣)، النشر (٢/٢٤٣)].

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا نِسْءٌ لِّسَاحِرِينَ ﴾^(٢)؛ قال :
 "على أن القراء اختلفوا في قراءة هذا الحرف ، فقرأه أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) ،
 وعيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ)^(٣) : "إن هذين لساحران"^(٤) " (٥) .
 وفي "باب ما ادعي على القرآن من اللحن" ؛ قال :
 "وقرأ نافع (ت ١٦٩هـ) : "فبم تبشرون"^(٦) بكسر النون ، ... وقرأ حمزة (ت ١٥٦هـ) :
 "ولا يُحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ"^(٧) بالياء"^(٨) .
 ثانياً : من النادر أن ينسب الإمام ابن قتيبة القراءة إلى البلد ، وقد فعل ذلك في
 موضعين ؛ كلاهما لأهل المدينة ، وهما :

. عند تفسير قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾^(٩) ، قال :
 "هنالك تتلوا كل نفس ما أسلفت"^(١٠) أي تقرأ في الصحف ما قدمت من أعمالها ،
 ومن قرأ "تبلوا" بالياء ، أراد : تختبر ما كانت تعمل ، وهي قراءة أهل المدينة ، وكذلك
 حكيت عن مجاهد (ت ١٠٤هـ)^(١) .

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٤) .

(٢) سورة طه : ٦٣ .

(٣) أبو عمر عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري ، عرض القرآن على عاصم الجحدري ، وروى عن ابن كثير وابن
 محيصن حروفاً ، قال أبو عبيد : "كان عالماً بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة
 العامة" ، مات سنة تسع وأربعين ومائة . [المعارف (ص ٢٩٥) ، غاية النهاية (١/٥٤٠)] .

(٤) سورة طه : ٦٣ ، قرأ أبو عمرو : "هذين" بالياء ، وقرأ الباقون "هذان" بالألف . [النشر (٢/٢٤٠) ، المبسوط
 (ص ٢٩٦)] .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٥١) .

(٦) سورة الحجر : ٥٤ ، قرأ نافع : "تبشرون" بكسر النون مخففة ، وقرأ ابن كثير : "تبشرون" بكسر النون مشددة ، وقرأ
 الباقون : "تبشرون" بفتح النون مخففة . [المبسوط (ص ٢٦٠) ، النشر (٢/٢٢٦)] .

(٧) سورة الأنفال : ٥٩ ، قرأ ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر : "ولا يُحْسَبَنَّ" بالياء ، وقرأ الباقون : "ولا تُحْسَبَنَّ" بالتاء
 . [المبسوط (ص ٢٢١) ، النشر (٢/٢٠٨)] .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٣-٦٤) .

(٩) سورة يونس : ٣٠ .

(١٠) قرأ حمزة والكسائي وخلف وروح عن يعقوب : "تتلوا" بالتاء ، وقرأ الباقون "تبلوا" بالياء . [المبسوط (٢٣٣) ، النشر
 (٢/٢١٢)] .

. وفي غريب الحديث ، قال :

"يقال : رَتَعَت الإبل إذا رَعَت ، وأرَتع الرجلُ إذا خَلَّى الركاب ترعى ، ومنه قوله تعالى :
"نَزَعَ ونَلَع" ^(٢) ، والمدنيون يقرؤونه "نَزَعَ" بكسر العين ^(٣) ، كأنه "نفتعل" من : رعيت ، أي :
يحفظ بعضنا بعضاً" ^(٤) .

ثالثاً : الغالب من صنيع ابن قتيبة ألا ينسب القراءة إلى أصحابها ، وقد تنوعت أساليبه
في ذلك :

١ . فتارة يُبهم ، فيشير إلى أنّ قارئاً قرأ بها ، ولكنه يُبهمه ولا يُصرح باسمه ، وقد تعددت
عباراته في الإبهام ، منها :
"قرأ بعض السلف" ، و"قرأ بعض المتقدمين" ، و"قرأ بعض القراء" ، و"قرأ بعضهم" ،
و"قرأ قوم" ، ونحو ذلك ، ومن الأمثلة على ذلك على التوالي :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴾ ^(٥) ؛ قال :

"وقرأ بعض السلف : "والشمس تجري لا مستقر لها" ^(٦) ، والمعنى : أنها لا تقف ولا
تستقر ، ولكنها جارية أبداً" ^(٧) .

وتحدث عن أن العرب قد تحذف الحرف من الكلمة ، فذكر الحذف في الترخيم؛ فقال:

^(١) تفسير غريب القرآن (ص ١٩٧) .

^(٢) سورة يوسف : ١٢ .

^(٣) قرأ نافع وأبو جعفر : "يَزَعُ وَيَلَعُ" بالياء فيهما مع كسر عين الأول ، وقرأ ابن كثير "نَزَعَ وَنَلَعُ" بالنون فيهما
وكسر عين الأول ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر : "نَزَعَ وَنَلَعُ" بالنون فيهما مع سكون العين ، وقرأ الباقر : "يَزَعُ
ويَلَعُ" بالياء فيهما مع سكون العين . [المبسوط (ص ٢٤٥) ، النشر (٢/٢٢٠)] .

^(٤) غريب الحديث (١/٢٠٢) .

^(٥) سورة يس : ٣٨ .

^(٦) قرأ بها ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وعطاء . [المختص (٢/٢١٢)] .

^(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٣١٦) ، وانظر : (ص ٥٠٩) .

"وقرأ بعض المتقدمين : "ونادوا يا مال ليقض علينا ربك" (١)، أي يا مالك" (٢).

وعند حديثه عن نزول عيسى عليه السلام ؛ قال :

"... لأن المسيح صلى الله عليه وسلم نبي متقدم ، رفعه الله تعالى ، ثم ينزله في آخر

الزمان عَلمًا للساعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا ﴾ (٣) ، وقرأ

بعض القراء : "وإنه لَعَلَّمَ للساعة" (٤) " (٥).

ويقول في باب الاستعارة :

"وقوله جل وعز : ﴿ وَإِن كَان مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (٦) ، إكباراً

لمكرهم ، وقرأ بعضهم : "وإن كاد مَكْرُهُمْ" (٧) " (٨).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (٩) ؛ قال :

"أي : لا إثم عليه أن يَتَطَوَّفَ ، وكان المسلمون في صدر الإسلام يكرهون الطواف

بينهما ، لصنمين كانا عليهما ، حتى أنزل الله هذا (١٠) .

وقرأ بعضهم : "ألاَّ يَطَّوَّفَ بهما" (١١) " (١٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ (١٣) ؛ قال :

(١) في سورة الزخرف : ٧٧ ، قرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود - رضي الله عنهما - ويجي والأعمش : "يا مال".
[المختص (٢٥٧/٢)].

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠٦)، وانظر : (ص ٦١) .

(٣) سورة الزخرف : ٦١ .

(٤) قرأ بها أبو هريرة وابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة والضحاك . [مختصر ابن خالويه (ص ١٣٧)] .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص ١٢٧)، وانظر - للاستزادة - : (ص ٨٥)، المسائل والأجوبة (ص ٢٠٤ ، ٢٦٩) .

(٦) سورة إبراهيم : ٤٦ .

(٧) قرأ بها عمر وعلي وأبي وابن عباس - رضي الله عنهم - . [المختص (٣٦٥/١)] .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ١٧١) .

(٩) سورة البقرة : ١٥٨ .

(١٠) انظر : أسباب النزول للواحدي (ص ٤٥) .

(١١) قرأ بها علي وابن مسعود وابن عباس وأنس - رضي الله عنهم - . [مختصر ابن خالويه (ص ١٨)] .

(١٢) تفسير غريب القرآن (ص ٦٦) .

(١٣) سورة الإسراء : ١٦ .

"وقرأ أقوام : "أمَرْنَا"^(١) ، وهي اللغة العالية المشهورة ، أي كَثَرْنَا"^(٢) .

٢ . وتارة يذكر الخلاف في القراءة دون بيان من قرأ بها ، لا تصريحاً باسمه ، ولا إبهاماً بذكر عبارة من العبارات السابقة ، فيقول : "قُرئ" ، و"تُقْرأ" ، و"قراءة" ، و"مَنْ قرأ" ، ونحو ذلك من العبارات التي تشير إلى الخلاف في القراءة ، ومن الأمثلة على ذلك :

. قوله في غريب الحديث :

"وقد قُرئ : "إن ابنك سُرِق"^(٣) ، أي : نُسب إلى السَّرْق أو رمي به"^(٤) .

- وفي "باب الحرفين اللذين يتقاربان في اللفظ وفي المعنى ، ويلتبسان فرما وضع الناس أحدهما موضع الآخر ؛ قال :

"و"الجُهدُ" : الطاقة ، تقول : هذا جُهدِي ؛ أي طاقتي ، و"الجُهدُ" : المشقة ، تقول : فعلتُ ذلك بجُهدٍ ، وتقول : اجُهد جُهدَكَ ، ومنهم من يجعل الجُهد والجُهد واحداً ، ويحتج بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾^(٥) ، وقد قُرئ "جَهْدَهُمْ"^(٦) "^(٧) .

ويقول : "وقرئت "فصُّ رهن إليك"^(٨) بضم الصاد وكسرها^(٩) ، أي : ضمَّهن إليك ، ثم اقطعهن ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً"^(١٠) .

(١) قرأ يعقوب "أمَرْنَا" بمد الهزمة ، وقرأ الباقر بقصرها : "أمَرْنَا" . [المبسوط (ص ٢٦٨) ، النشر (٢/٢٣٠)] .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٣) .

(٣) في سورة يوسف : ٨١ ، قرأ ابن عباس وأبو رزين والكسائي في رواية : "سُرِق" بتشديد الراء مبنياً للمفعول . [مختصر ابن خالويه (ص ٦٩) ، البحر المحيط (٥/٣٢٦)] .

(٤) غريب الحديث (١/١٥٦) .

(٥) سورة التوبة : ٧٩ .

(٦) قرأ بما الأعرج وعطاء ومجاهد . [مختصر ابن خالويه (ص ٥٩)] .

(٧) أدب الكاتب (ص ١٤٤) .

(٨) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(٩) قرأ أبو جعفر وحزمة وخلف ويعقوب برواية رويس : "فَصُرْهُنَّ" بكسر الصاد ، وقرأ الباقر : "فَصُرْهُنَّ" بضم الصاد . [المبسوط (ص ١٥١) ، النشر (٢/١٧٤)] .

(١٠) غريب الحديث (٢/٢٥٦) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاقْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾^(١)؛ قال :

"يقول : إن ذهبت امرأة من نساءكم ، فلاحقت بالمشركين بمكة ، ﴿ فَعاقِبْتُمْ ﴾ ، أي أصبتم منهم عُقبَى أي غنيمة من غزو ، ﴿ فاقْتُوا ﴾ : فأعطوا المسلمين ﴿ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ ﴾ إلى مكة ﴿ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعني المهر من تلك الغنيمة من الخمس .
وَتَقْرَأُ : "فَعَقَبْتُمْ"^(٢) ، من تعقيب الغزو ، وتقرأ "فَاعَقَبْتُمْ"^(٣) "٤".

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾^(٥)؛ قال :

"يريد أنهم لا ينسبونك إلى الكذب في قراءة من قرأ "يُكَذِّبُونَكَ" بالتشديد ، ومن قرأ "يُكَذِّبُونَكَ" بالتخفيف^(٦) ، أراد : لا يجحدونك كذاباً ، ولكنهم بآيات الله يجحدون ، أي ينكرونها بألسنتهم ، وهم مستيقنون أنك لم تكذب ، ولم تأت بها إلا عن الله تبارك اسمه"^(٧).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾^(٨)؛ قال :
"فَأَزَلَّهُمَا : من الزلل ، بمعنى استزلهما ، تقول : زلّ فلان ، وأزَلَّته ، ومن قرأ :
"فَأَزَلَّهُمَا"^(٩) ، أراد نَحَّاهما ، من قولك : أزلتك عن موضع كذا ، أو أزلتك عن رأيك إلى غيره"^(١٠).

(١) سورة الممتحنة : ١١ .

(٢) قرأ بها الأعرج . [مختصر ابن خالويه (ص ١٥٦)] .

(٣) قرأ بها مجاهد والحسن . [مختصر ابن خالويه (ص ١٥٦)] .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٤٦٢) .

(٥) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٦) قرأ نافع والكسائي "يُكَذِّبُونَكَ" بتخفيف الذال وسكون الكاف ، وقرأ الباقون : "يُكَذِّبُونَكَ" بتشديد الذال وفتح

الكاف . [المبسوط (ص ١٩٣)، النشر (٢/١٩٣)] .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٧-٢٨) .

(٨) سورة البقرة : ٣٦ .

رابعاً : لم يلتزم الإمام ابن قتيبة بضبط ما أورده من القراءات ، ولهذا كانت غالب القراءات مهملة ضبط الحروف ، وعندما يعمد إلى ضبط القراءة فإنه يفعل ذلك عند التباس القراءة ومشاكلتها للأخرى ، ومن الأمثلة على ذلك - بالإضافة إلى ما سبق - :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأِهِمْ ﴾^(٣)؛ قال :

"عن عائشة (ت ٥٨هـ) - رضي الله عنها - أنها كانت تقرأ : "كُذِّبُوا" بضم الكاف وتشديد الذال^(٤) .

وعن مجاهد (ت ١٠٤هـ) : أنه قرأها : "قد كُذِّبُوا" بفتح الكاف وتخفيف الذال^(٥) .
وعن ابن عباس (ت ٦٨هـ) أنه قرأ : "كُذِّبُوا" بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها^(٦) (٧) .

خامساً : يحرص الإمام ابن قتيبة في الغالب على توجيه القراءات ، إذ كان لا يوردها في مصنفاته إلا لأغراض دلالية أو تفسيرية أو لغوية ، ومن ثمَّ فهو يُوجِّه القراءة لبيان الغرض الذي سيقته لأجله ، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تفصيل ذلك والأمثلة عليه في مبحث "أصول توجيه القراءات عند ابن قتيبة"^(٨) .

(١) قرأ حمزة "فأزلهما" بألف بعد الزاي وتخفيف اللام ، وقرأ الباقر : "فأزلهما" بحذف الألف وتشديد اللام . [النشر (١٥٨/٢) .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٤٦) .

(٣) سورة يوسف : ١١٠ .

(٤) قرأ بها ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو عمرو ويعقوب . [المبسوط (ص ٢٤٨)، النشر (٢٢٢/٢) .

(٥) قرأ بها مجاهد والضحاك . [المختص (٣٥٠٩/١) .

(٦) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر . [المبسوط (ص ٢٤٨)، النشر (٢٢٢/٢) .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١) .

(٨) انظر : (ص ٦٦١) من هذه الرسالة .

المبحث الثاني

شروط قبول القراءة عند ابن قتيبة

تنقسم القراءات ستة أقسام : المتواترة^(١) ، والمشهورة^(٢) ، والأحادية^(٣) ، والشاذة^(٤) ، والمدرجة^(٥) ، والموضوعة^(٦) ، غير أنها كلها تؤول إلى نوعين :

أحدهما : القراءة المتواترة (المقبولة) .

النوع الثاني : القراءة الشاذة (المردودة) .

وقد حرص علماء القراءات على وضع ضوابط ومقاييس للقراءة المتواترة المقبولة ، ليميزوها بهذه الضوابط عن القراءة الشاذة المردودة .

وقد استقر رأيهم على ثلاثة شروط لقبول القراءة ، هي :

١ . الرواية وصحة السند .

٢ . أن توافق اللغة العربية ولو بوجه .

٣ . أن توافق أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً .

وهذه الشروط التي اعتمدها العلماء لقبول القراءة ، كانت أصولها منذ زمن النبي ﷺ واكتملت بالتحديد بعد العرضة الأخيرة ، حيث لا تجوز القراءة إلا بما قرأ به الرسول ﷺ من أوجه القراءات واتصل به ، ووافق رسم المصحف على مقتضى العرضة الأخيرة ، ووافق لغة العرب^(٧) .

(١) القراءة المتواترة : هي القراءة التي نقلها جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه .

(٢) هي القراءة التي صح سندها ، ولم تبلغ درجة التواتر ، ووافقت الرسم والعربية ، واشتهرت عند القراء فلم يعدوها من الغلط أو الشذوذ .

(٣) هي القراءة التي صح سندها ، وخالفت رسم المصحف أو العربية ، أو كليهما ولم تشتهر الاشتهار المذكور آنفاً .

(٤) هي القراءة التي لم يصح سندها ، أو خالفت الرسم أو لا وجه لها في العربية .

(٥) هي ما زيد في القراءات على وجه التفسير .

(٦) هي ما نسب إلى قائله من غير أصل ، أو هي المكذوبة المختلقة المنسوبة إلى قائلها افتراءً [انظر : الاتقان

(٢٤١/١) ، مناهل العرفان (٢٩٧/١) ، علم القراءات ، د. نبيل آل إسماعيل (ص ٤١-٤٦)] .

(٧) انظر تفصيل ذلك : المنهاج في الحكم على القراءات ، د. إبراهيم الدوسري (ص ١٣) .

وكان علماء القراءة يستندون إلى هذه الشروط في تمييز القراءات منذ بدء عصر التأليف في هذا العلم ، يقول أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٤٤هـ) - وهو أول من ألف كتاباً جامعاً في القراءات - في بيان رأيه في كيفية الوقف على هاء السكت في مثل قوله تعالى : (يتسنّه) ، (حسابه) ، (ماهيه) :

" الاختيار عندي في هذا الباب كله الوقوف عليها بالهاء ، بالتعمد لذلك ، لأنها إن أدرجت في القراءة مع إثبات الهاء كان خروجاً من كلام العرب ، وإن حذفت في الوصل كان خلاف الكتاب ، فإذا صار قارئها إلى السكت عندها على ثبوت الهاءات اجتمعت له المعاني الثلاثة ، أن يكون مصيباً في العربية ، وموافقاً للخط ، وغير خارج من قراءة القراء"^(١) .

وعلى هذه الشروط اعتمد مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) ما يقبل من القراءات وما لا يقبل ، فقال : "إن جميع ما روي من القراءات على ثلاثة أقسام : قسم يقرأ به اليوم ، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال ، وهي : أن ينقل عن الثقات إلى النبي ﷺ ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعاً ، ويكون موافقاً لخط المصحف"^(٢) .

وقال أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) مبيناً أهمية هذه الشروط في التمييز بين القراءات : " فلا ينبغي أن يُعتر بكل قراءة تعزى إلى واحد من هؤلاء الأئمة السابقين ويطلق عليها لفظ الصحة ، وإن هكذا أنزلت إلا إذا دخلت في ذلك الضابط ، وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصنفاً عن غيره ولا يختص ذلك بنقلها عنهم ، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء ، فذلك لا يخرجها عن الصحة ، فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف ، لا عمن تنسب إليه"^(٣) .

ولهذا فقد عُرِّفَت القراءة المتواترة بأنها ما اشتملت على هذه الشروط الثلاثة ، وهي السند ، والرسم ، والعربية .

قال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) :

" كل قراءة وافقت العربية مطلقاً ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية - ولو تقديراً - وتواتر نقلها ، هذه القراءة المتواترة المقطوع بها"^(٤) .

(١) نقلاً عن ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجل (٣١١/١) .

(٢) الإبانة عن معاني القراءات (ص ٣٩) .

(٣) المرشد الوجيز (ص ١٣٥) .

(٤) منجد المقرئين (ص ٧٩) .

وعند النظر في تراث الإمام ابن قتيبة وما يتعلق منه بالقراءات تجد بعضاً من النصوص والإشارات إلى هذه الشروط ، وتفصيل ذلك كالآتي :

الشرط الأول : الرواية وصحة السند .

وقد أشار الإمام ابن قتيبة إلى هذا الشرط فيما نقله عن الفراء (ت ٢٠٧هـ) في قوله

تعالى : ﴿ أَمْرًا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾^(١) :

"أخبرني بعض المشيخة : أنه بلغه أن بعض القراء قرأ : "أما أنا خير" ، وقال لي هذا الشيخ : لو حفظت الأثر لقرأت به ، وهو جيد في المعنى"^(٢).

يريد بذلك أنه لو تأكد من ثبوت القراءة واستفاضتها لقرأ بها، مما يدل على أن ثبوت القراءة شرط في قبولها ، وقد كان السلف من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم يُعبرون عن هذا الشرط بقولهم : القراءة سنة ، أي يأخذها اللاحق عن السابق ، ويقف الإنسان فيها عند المسموع لا يقرأ كما يشاء .

وقد دلّ على هذا حديث علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) : رضي الله عنه ، قال : "إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرؤوا كما علمتم"^(٣) .

وعندما اختلف عمر بن الخطاب (ت ٢٣) مع هشام بن حكيم (ت ١٣) رضي الله عنهما ، واحتكما إلى رسول الله ﷺ ، صوّب قراءة كل واحد منهما بعدما استقرأهما، كما وجّه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أن يقرؤوا كما علموا^(٤) .

وعن زيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) رضي الله عنه ، قال : " القراءة سنة "^(٥) .

(١) سورة الزخرف : ٥٢ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٩٩) .

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائله ، باب عرض القراء للقرآن وما يستحب لهم من أخذه عن أهل القراءة (ص ٣٦١)، وابن حبان في صحيحه ، باب ذكر البيان بأن لا حرج على المرء أن يقرأ بما شاء من الأحرف السبعة ح (٧٤٦) (٢١/٣)، وابن جرير في تفسيره (٢٣/١)، والحاكم في التفسير ح (٢٨٨٥، ٢٨٨٦) (٢/٢٤٣)، وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد"، وعبدالله بن أحمد في "زوائد المسند" (١/١٠٥)، وفي تحقيق المسند (٢/٢٠٠): "إسناده حسن ، عاصم بن أبي النجود حسن الحديث ، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين " .

(٤) انظر : تخريج (ص ٦٩٢) .

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائله ، باب عرض القراء للقرآن وما يستحب لهم من أخذه عن أهل القراءة (ص ٣٦١)، وسعيد بن منصور في سننه في فضائل القرآن ح (٦٧) (٢/٢٦٠)، والحاكم في التفسير ح (٢٨٨٧)

وعن عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ) ، قال : " إنما قراءة القرآن سنة من السنن ، فاقروا كما عُلِّمتموه " (١) .

وعن محمد بن المنكدر (ت ١٣٠هـ) ، قال : " القراءة سنة ، يأخذها الآخر عن الأول " (٢) .

وهذا الشرط وهو الإسناد أهم الشروط ، بل هو كما قال ابن الجزري : " الأصل الأعظم والركن الأقوم " (٣) .

وقال الشيخ سعيد الأفغاني :

" والشرط الأساسي هو الأول - أي صحة السند متواتراً - أما الثاني والثالث فالغالب أنهما أضيفا ليتكون من الثلاثة ما ينطبق تمام المطابقة على القراءات العشر المعروفة ، وليخرج بذلك قراءات متواترة تركها الناس منذ حملهم عثمان رضي الله عنه على مصحفه ، لمخالفتها رسمه " (٤) .

وقد اختلف العلماء في السند، هل يشترط فيه التواتر أم تكفي صحته؟ على قولين:

القول الأول :

أنه لا يكفي لثبوت القرآنية بصحة السند بل يشترط التواتر .

وهو قول الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة ، وقد صرح به ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، وابن عطية (ت ٥٤٦هـ) ، والنووي (ت ٦٧٦هـ) ، والزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، وغيرهم .

(٢/٢٤٤) ، وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " ، والبيهقي في باب وجوب القراءة على ما نزل من الأحرف السبعة دون غيرهن من اللغات ح (٣٨٠٨) (٣٨٥/٢) ، وقال الجديع في " المقدمات الأساسية " (ص ١٩٢) : " أثر حسن " .

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائله ، باب عرض القراء للقرآن وما يستحب لهم من أخذه عن أهل القراءة (ص ٣٦١) ، وابن مجاهد في " السبعة " (ص ٥٢) ، وقال الجديع في " المقدمات الأساسية " (ص ١٩٢) : " أثر حسن " .

(٢) أخرجه ابن مجاهد في " السبعة " (ص ٥٠) ، وقال الجديع في " المقدمات الأساسية " (ص ١٩٢) : " أثر صحيح " .

(٣) النشر (١/١٦) .

(٤) مقدمة تحقيقه لكتاب " حجة القراءات " لابن زنجلة (ص ١٢) .

قال أبو القاسم النويري (ت ٨٤٧هـ) ^(١) :

" القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة هو ما نقل بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً ، وكل من قال بهذا الحد اشترط التواتر . . . ، وحينئذ فلا بد من التواتر عند الأئمة الأربعة ، صرح بذلك جماعات ، كابن عبد البر ، وابن عطية ، والنووي ، والزرکشي ، والسبكي (ت ٧٥٦) ، والإسنوي (ت ٧٧٢) ، والأذري (ت ٧٣١) ، وعلى ذلك أجمع القراء ، ولم يخالف من المتأخرين إلا مكّي وتبعه بعضهم" ^(٢) .

ويتبين من هذا أن من اشترط التواتر فإنه يستدل على ذلك بما هو مجمع عليه من تواتر القرآن الكريم ، فالقراءات قرآن ، فلا تثبت حينئذ إلا بالتواتر ، وما نقل من دون تواتر فليس بقرآن .

القول الثاني :

أنه لا يشترط لثبوت القراءة التواتر ، وإنما يكفي بصحة السند واشتهار القراءة وتلقي

الأمة لها بالقبول .

وهو قول مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) ، وأبي شامة (ت ٦٦٥هـ) ، وابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) .

قال مكّي بن أبي طالب: " وإنما الأصل الذي يعتمد عليه في هذا ما صح سنده واستقام وجهه في العربية، ووافق لفظه خط المصحف فهو من السبعة المنصوص عليها" ^(٣) .

^(١) محمد بن محمد بن علي أبو القاسم ، محب الدين النويري ، فقيه عالم بالقراءات ، ولد في صعيد مصر ، وقدم القاهرة فحفظ القرآن ومختصر ابن الحاجب وألفية ابن مالك والشاطبيتين على الولي العراقي والعز بن جماعة فأجازاه، وتلا بالعرض على غير واحد أهلهم ابن الجزري ، برع في الفقه والأصول والنحو والصرف والعروض والقراءات ، وصنف في أكثرها ، منها : شرح لطيفة النشر في القراءات العشر ، لشيخه ابن الجزري، في مجلدين، والقول الجاذ لمن قرأ بالشاذ ، ومنظومة "الغيث في القراءات الثلاث الزائدة على السبعة" ، توفي سنة ٨٥٧هـ . [الضوء اللامع للسخاوي (٢٤٦/٩)] .

^(٢) نقلاً عن إتحاف فضلاء البشر (ص ٨) .

^(٣) الإبانة (ص ٦٧) .

وقال أبو شامة : " ولا يلزم فيه تواتر ، بل تكفي الآحاد الصحيحة مع الاستفاضة وموافقة خط المصحف ، فكل قراءة ساعدها خط المصحف مع صحة النقل فيها ومجيئها على الفصيح من لغة العرب ، فهي قراءة صحيحة معتبرة " (١) .

وقال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) :

" كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصح سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها " (٢) .

وقال - أيضاً - في معرض رده على من اشترط التواتر :

" وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن ، ولم يكتف فيه بصحة السند ، وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، وأن ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به قرآن ، وهذا مما لا يخفى ما فيه ، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره ، إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ ووجب قبوله وقطع بكونه قرآناً ، سواء وافق الرسم أم خالفه ، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم " (٣) .

وعند التأمل في هذين القولين يتبين أن الخلاف صوري ، فمن نظر إلى أسانيد القراء من جهة نظرية على ما هو موجود في مصنفاتهم وجد كثيراً من أوجه الاختلاف تشتمل على أسانيد آحادية أو مشهورة ، ومن نظر إليها من جهة الوقوع عدها متواترة وأجاب عن انحصارها - ولو كانت آحادية - في طائفة لا يمنع مجيء القراءات عن غيرهم ، وإنما نسبت القراءات إليهم لتصديهم لضبط الحروف وحفظ شيوخهم فيها ، ومع كل واحد منهم في طبقته ما يبلغها حدّ التواتر ، لأن القرآن قد تلقاه من أهل كل بلد الجم الغفير طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل (٤) .

(١) المرشد الوجيز (ص ١٣٣) .

(٢) النشر (١٥/١) .

(٣) المصدر السابق (١٨/١) .

(٤) انظر : منجد المقرئين (ص ٢٠٦) ، إتحاف فضلاء البشر (ص ٩) ، المنهاج في الحكم على القراءات (ص ٣١) .

ثم إن من لم يشترط التواتر ، لم يكتف بصحة السند فقط ، وإنما اشترط معه قرائن بمجموعها تفيد العلم وتقوم مقام التواتر ، ولهذا قال مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ):
 " فإذا اجتمعت هذه الخلال الثلاث قرئ به ، وقطع على مُعَيَّبه وصحته وصدقه ، لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقته لخط المصحف " (١).

ومن هذا الوجه يتبين - أيضاً - أن الخلاف لفظي ، قال الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ):
 " إن هذه الأركان تكاد تكون مساوية للتواتر في إفادة العلم القاطع بالقراءات المقبولة، بيان هذه المساواة أن ما بين دفتي المصحف متواتر وجمع عليه من الأمة في أفضل عهودها وهو عهد الصحابة ، فإذا صحّ سند القراءة ووافقت قواعد اللغة ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر ، كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحاداً .

فكأن التواتر كان يطلب تحصيله في الإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقة متواترة بالقرآن ، أما بعد وجود هذا المصحف المجمع عليه ، فيكفي في الرواية صحتها وشهرتها متى وافقت رسم هذا المصحف ولسان العرب . . .
 وهذا التوجيه الذي وجهنا به الضابط السالف يجعل الخلاف كأنه لفظي " (٢) .

الشرط الثاني : موافقة الرسم العثماني .

وقد نصّ الإمام ابن قتيبة على هذا الشرط في أكثر من موضع ، وردّ الكثير من القراءات لمخالفتها الرسم العثماني ، وبيّن في كثير من المواضع أنه لا تجوز القراءة بما خالف المصحف ، لأن ما ثبت في المصحف هو آخر العرض ، ولا تجوز مخالفته بحال، وفي ذلك يقول بعد أن ذكر وجوه القراءات :

"فإن قال قائل : فهل يجوز لنا أن نقرأ بجميع هذه الوجوه ؟ قيل له : كل ما كان منها موافقاً لمصحفنا غير خارج من رسم كتابته ، جاز لنا أن نقرأ به ، وليس لنا ذلك فيما خالفه ... ، فأما نحن معشر المكلفين فقد جمعنا الله بحسن اختيار السلف لنا على مصحف هو آخر

(١) الإبانة (ص ٣٩) .

(٢) مناهل العرفان (١٩٥/١) ، للاستزادة في هذه المسألة انظر : القراءات القرآنية لقابه (ص ١٦١) ، المدخل إلى علم القراءات، د. شعبان محمد إسماعيل (ص ٦٣)، إتقان البرهان ، د. فضل عباس (١٦٩/٢) .

العَرْض ، وليس لنا أن نَعُدَّوه ، ولو جاز لنا أن نقرأه بخلاف ما ثبت في مصحفنا لجاز أن نكتبه على الاختلاف والزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير ، وهناك يقع ما كرهه لنا الأئمة الموقِّعون رحمة الله عليهم^(١) .

وفي "المسائل والأجوبة" ردّ قراءة ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما : "وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به"^(٢) ، لمخالفتها رسم المصحف ، ثم قال :
 "والاختلاف في القراءات بين ابن مسعود (ت ٣٢هـ) ، وأبيّ (ت ٣٠هـ) ، وزيد (ت ٥٥هـ) ، وعلي (ت ٤٠هـ) - رضي الله عنهم - ، وليس لنا أن نستعمل إلا ما ثبت في مصحفنا ؛ لأنه آخر العَرْض ، ولأن الذي جمعه بين اللوحين أراد جمعنا عليه ، وألا نفرق ونختلف"^(٣) .

وهذا الشرط الذي نصّ عليه ابن قتيبة يجمع عليه عند سلف الأمة وخلفها، وبه حفظ الله هذه الأمة من الفرقة والاختلاف ، وقد ظهر العمل بهذا الضابط بعد جمع عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه ، وذلك أن حذيفة بن اليمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه عندما شهد إرمينية^(٤) ، وأذربيجان^(٥) وجد الناس مختلفين في القرآن، ويقول أحدهم للآخر: قراءتي أصح من قراءتك ، فأفرغه ذلك ، فقدم حذيفة إلى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنهما ، فقال : " يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى "^(٦) .

فقام عثمان رضي الله عنه بكتابة المصحف على اللفظ الذي استقر عليه العمل في العرصة الأخيرة عن النبي ﷺ ، بمشورة من الصحابة - رضوان الله عليهم - واتفق منهم،

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢) .

(٢) في سورة آل عمران : ٧ ، قرأ بها ابن عباس . [تفسير عبدالرزاق (١١٦/١) ، تفسير ابن كثير (١١/٢)] .

(٣) المسائل والأجوبة (ص ٢١٤) .

(٤) اسم لصقع واسع في جهة الشمال ، سمي بذلك نسبة إلى سكانه الأرمن ، وهم أمة كالروم وغيرها ، نقل الحموي عن ابن واضح الأصبهاني أنه لم ير بلداً أوسع منه ، ولا أكثر عمارة ، وهي الآن جمهورية تقع جنوب القوقاز ، وعاصمتها يريفان . [مشارق الأنوار (٥٩/١) ، معجم البلدان (١٦٠/١) ، أطلس دول العالم الكبير (ص ٤٧٥)] .

(٥) قال الحموي : " أذربيجان صقع جميل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وفيه قلاع كثيرة وخيرات واسعة وفواكه جمّة ، ما رأيت ناصية أكثر بساتين منها ، ولا أغزر مياهاً وعيوناً " ، وهي الآن جمهورية تقع في الجزء الشرقي لمنطقة ما وراء جبال القوقاز ، وعاصمتها باكو . [معجم البلدان (١٢٨/١) ، أطلس دول العالم الإسلامي (ص ٩)] .

(٦) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ح (٤٩٨٧) (ص ٤٣٢) .

فأخذ المسلمون بها ، وأحرقوا ما عدا ذلك من مصاحف خاصة قد تكون سبباً - بما فيها من اختلاف - لرجوع التنازع والشقاق في القرآن فتهلك الأمة كما هلك من قبلها باختلافهم في ما أنزل الله إليهم^(١) .

ومن هنا اشترط العلماء موافقة الرسم العثماني ، فكل قراءة خالفت هذا الرسم عند جمهور العلماء لا تعد متواترة عن النبي ﷺ ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة^(٢) .

قال مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) :

" مصحف عثمان الذي أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه ، واطراح ما سواه مما يخالف خطه فقرئ بذلك لموافقة الخط لا يخرج شيء منها عن خط المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه وبعث بها إلى الأمصار ، وجمع المسلمين عليها ، ومنع القراءة بما خالف خطها ، وساعده على ذلك زهاء اثني عشر ألفاً من الصحابة والتابعين ، واتبعه على ذلك جماعة المسلمين بعده ، وصارت القراءة عند جميع العلماء بما يخالفه بدعة وخطأ ، وإن صحت ورويت"^(٣) .

وقال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) :

" وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف ، وترك ما خالفها من زيادة أو نقص أو إبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعة عليهم ، ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن"^(٤) .

الشرط الثالث : موافقة اللغة العربية .

أي أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة ، سواء أكان هذا الوجه فصيحاً أم أفصح ، مجمعاً عليه أو مختلفاً فيه ، فالشرط أن لا تخرج القراءة عن لغة العرب بالكلية.

(١) انظر : النشر (١٣/١) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٣٩٨/١٣) .

(٣) الإبانة عن معاني القراءات (ص ٣٢) .

(٤) النشر (١٣/١) .

قال أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) :

"وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، بل الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل ، والرواية إذا ثبتت لم يرد لها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها" (١) .

قال الزرقاني (ت ١٣٦٧ هـ) معقّباً عليه :

" وهذا كلام وجيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعده من كتاب الله تعالى ، وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة ، كان القرآن هو الحكم على علماء النحو وما قعدوا من قواعد ، ووجب أن يرجعوا هم بقواعدهم إليه ، لا أن نرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة نحكمها فيه ، وإلا كان ذلك عكساً للآية ، وإهمالاً للأصل في وجوب الرعاية" (٢) . (٣)

وهذا الشرط توسع الإمام ابن قتيبة - كغيره من كبار اللغويين - في اعتماده ، حتى أذاه ذلك إلى تلحين القراءات وردّها بحجة مخالفتها للقواعد اللغوية والمقاييس النحوية ، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث "نقده لبعض القراء والقراءات" (٤) .

(١) نقلاً عن ابن الجزري في النشر (١٦/١) .

(٢) مناهل العرفان (٣٤٣/١) .

(٣) انظر : إنكار العلماء على النحاة الذين يردون القراءات المقبولة لمخالفتها القياس بزعمهم : الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١٩٢/٣) ، إبراز المعاني لأبي شامة (٧٠/١) ، التفسير الكبير للرازي (١٩٣/٣) ، الانتصاف على الكشاف لابن المنير (٤٧١/١) ، البحر المحيط لأبي حيان (١٥٦/٣) ، منجد المقرئين (ص ٢٠٠) .

(٤) انظر : (ص ٦٧٢) من هذه الرسالة .

المبحث الثالث

أصول توجيه القراءات عند ابن قتيبة

يعد توجيه القراءات من ألصق علوم القراءات بال تفسير ، إذ يعتمد عليه بشكل كبير ، ومن هنا رأينا العناية التامة من أهل العلم بهذا الفن .

يقول الزركشي (ت ٧٩٤هـ) مبيناً أهمية هذا العلم :

"معرفة توجيه القراءات وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ فن جليل وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها ، وقد اعتنى الأئمة به ، وأفردوا فيه كتباً"^(١).

وقد أطلق العلماء الذين صنفوا في توجيه القراءات عدة إطلاقات لهذا الفن ، ولعل أول استعمال لتلك الإطلاقات هو استعمال "وجوه" ، حيث صنف هارون بن موسى الأعور (ت نحو ١٧٠هـ) كتاباً في "وجوه القراءات" ، وهي ذات التسمية التي ارتضاها ابن قتيبة لمصنفه في القراءات ، ثم أُطلق على هذا العلم بعد ذلك "الاحتجاج" ، ككتاب المبرد (ت ٢٨٥هـ) "احتجاج الثُّرَاء" ، ثم أطلق بعد ذلك "العلل" ككتاب هارون بن موسى الأخصش (ت ٢٩٢هـ)^(٢) ، "قراءة ابن عامر بالعلل" ، ثم أطلق "الحجة" ك"الحجة في القراءات السبع" لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) ، و"الحجة للثُّرَاء السبعة" لأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) ، و"حجة القراءات" لابن زنجلة (ت ٤٠٣هـ)^(٣).

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٣٣٩) .

(٢) أبو عبدالله هارون بن موسى بن شريك التغلبي الدمشقي ، الأخصش ، شيخ المقرئين بدمشق في زمانه ، قرأ على ابن ذكوان ، وأخذ الحروف عن هشام بن عمار ، قرأ عليه خلق كثير ، ورحل إليه الطلبة من الأقطار لإتقانه وتبحره ، قال أبو علي الأصفهاني : "كان هارون الأخصش من أهل الفضل ، صنف كتباً كثيرة في القراءات والعربية ، وإليه رجعت الإمامة في قراءة ابن ذكوان" ، مات في ٢٩٢هـ . [معرفة الثُّرَاء الكبار (١/٤٨٥) ، غاية النهاية (٢/٣٠٢)] .

(٣) أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة المقرئ ، قرأ على ابن فارس كتابه "الصاحبي" سنة ٣٨٢هـ ، بالرقي ، وصنف كتباً منها : "حجة القراءات" ، و"شرف الثُّرَاء في الوقف والابتداء" ، و"تنزيل القرآن وعدد آياته واختلاف الناس فيه" ، توفي حوالي سنة ٤٠٣هـ . [الأعلام للزركلي (٣/٣٢٥) ، مقدمة كتابه "تنزيل القرآن" بتحقيق: د. غانم قدوري الحمد (ص٢٣٥) ، ضمن مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية ، العدد (٢) ، ذو الحجة ، ١٤٢٧هـ] .

وهذه الإطلاقات استعمالات متقاربة ، وألفاظ مترادفة ، تؤدي المعنى نفسه ، ولهذا جمع مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) هذه الإطلاقات في تسمية كتابه "الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها".

ولعل أشهر الإطلاقات وأكثرها استعمالاً وتداولاً قديماً وحديثاً : "التوجيه" ، و"الاحتجاج" ، إلا أن الأولى التعبير بـ "التوجيه" لئلا يُتوهم أن ثبوت القراءة متوقف على صحة الاحتجاج بها^(١).

وقد اعتنى الإمام ابن قتيبة عناية فائقة بتوجيه القراءات ، فقلما تجد قراءة في مصنفاته تخلو من توجيه أو تعليق ، إذ كان التوجيه وسيلة لبيان الأغراض الدلالية أو التفسيرية أو اللغوية التي من أجلها أورد القراءة ، وبالنظر إلى الأسس التي اعتمد عليها في التوجيه يمكن تقسيم أصول توجيه القراءات عند ابن قتيبة إلى ما يلي :

أولاً : الأصول السماعية ، وهي كالتالي :

أ. القرآن الكريم .

ويعد الأصل الأول من أصول الاحتجاج ، لأن أولى ما يُوجّه به القرآن هو القرآن نفسه ، ولهذا اهتم ابن قتيبة بهذا الأصل ، واعتمد عليه في توجيه القراءة في مواضع ؛ منها :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ

أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾^(٢) ، ضعف قراءة :

"ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء"^(٣) ، - بالبناء للمفعول ، بجعل الكافرين هم

الذين اتخذوا الملائكة أولياء من دون الله - من جهة اللغة ، إذ لو كانت "نُتَّخَذَ" حُذِفَتْ

"مِنْ" الثانية ، وكان الوجه "أن نُتَّخَذَ من دونك أولياء" ، ثم بيّن صواب قراءة الجمهور "أن

نُتَّخَذَ" بالبناء للفاعل ، ووجّه القراءة ؛ فقال :

(١) انظر : معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات ، د. إبراهيم الدوسري (ص ٤٦) ، توجيه مشكل القراءات

العشرية الفرشية لغة وتفسيراً وإعراباً ، د. عبدالعزيز الحربي (ص ٦٧) .

(٢) سورة الفرقان : ١٨ .

(٣) قرأ أبو جعفر : "نُتَّخَذَ" بضم النون ، وفتح الخاء على البناء للمفعول ، وقرأ الباقر : "نُتَّخَذَ" بفتح النون وكسر الخاء

، مبنياً للفاعل . [المبسوط (ص ٣٢٢) ، النشر (٢/٢٥٠)] .

"واعتبارها قوله في سورة سبأ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ، أما ترى الملائكة جعلوا الله تبارك وتعالى وليهم دون الكافرين ، كذلك قالوا في الآية الأولى : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، أي : نتخذ الكافرين أولياءً دونك" (٢) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ (٣) ، وجه قراءة : "هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت" (٤) ، أي : تقرأ في الصحف ما قدمت من أعمالها ، ثم قال : "ومن قرأ "تبلوا" بالباء ، أراد تختبر ما كانت تعمل ، وقال أبو عمرو (٥) - ابن العلاء - (ت ١٥٤ هـ) : وتصديقها قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (٦) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَطَلِحَ مَنْضُودٍ ﴾ (٧) ، قال : "وكان بعض السلف يقرأه : "وطلع منضود" (٨) ، واعتبره بقوله في سورة ق : ﴿ هَا طَلَعُ طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ (٩) (١٠) .

ب . الحديث النبوي :

يحتج الإمام ابن قتيبة بالحديث النبوي أحياناً في توجيه القراءة ، ومن ذلك :

(١) سورة سبأ : ٤٠-٤١ .

(٢) المسائل والأجوبة (ص ٢٦٩) .

(٣) سورة يونس : ٣٠ .

(٤) سبق عزو القراءة (ص ٦٤٦) .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ١٩٧) .

(٦) سورة الطارق : ٩ .

(٧) سورة الواقعة : ٢٩ .

(٨) قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : "وطلع منضود" . [مختصر بن خالويه (ص ١٥٣)] ، وفيه أن علياً رضي الله عنه

قرأ بما على المنبر ، فقليل له : أفلا نغيره في المصحف ، قال : "ما ينبغي للقرآن أن يُهَاجَ أي لا يغير .

(٩) سورة ق : ١٠ .

(١٠) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٨) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ٤١٦) .

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾^(١)؛ قال :

"مسوِّمين" - بالكسر - معلِّمين بعلامة الحرب ، يقال : كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم صفراً ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر: "تسوِّموا فإن الملائكة قد تسوِّمت"^(٢).

ومن قرأ "مسوِّمين"^(٣) بالفتح ، أراد : أنه فُعل ذلك لهم"^(٤).

فهنا احتج الإمام ابن قتيبة لقراءة الكسر "مسوِّمين" - على اسم الفاعل - بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه أن الملائكة قد تسوِّمت ، فهي الفاعل .
ج . الآثار .

يحتج الإمام ابن قتيبة في مواضع بالآثار عن الصحابة والتابعين في توجيه القراءات، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَّشَأٍ ^ط ﴾^(٥)؛ قال :

"روى عبدالرزاق (ت ٢١١هـ) عن معمر (ت ١٥٤هـ) عن قتادة (ت ١١٧هـ) أنه قال : استيأس الرسل من قومهم "وظنوا" أي علموا "أنهم قد كُذِّبوا جاءهم نصرنا" وكان يقرؤها بالتشديد.

(١) سورة آل عمران : ١٢٥ .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ح(٢٨٦١) (٣١٠/٢)، وابن أبي شيبه في مصنفه (٢٦١/١٢)، (١١٢/١٤)، (٣٥٨/١٤)، والطبري في تفسيره (٣٤/٦)، من حديث عمير بن إسحاق .

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب "مسوِّمين" بكسر الواو ، وقرأ الباقر بفتحها "مسوِّمين" . [المبسوط (ص١٦٩)، النشر (١٨٢/٢)] .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص١٠٩) .

(٥) سورة يوسف : ١١ .

وعن عائشة (ت ٥٨هـ) أنها قالت : استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدّقوهم ، وظنّت الرسل أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك ، وكانت تقرأ "كُذِّبُوا" بضم الكاف وتشديد الذال .

وعن مجاهد (ت ١٠٤هـ) أنه قرأها : "قد كذبوا" بفتح الكاف والذال وتخفيف الذال ، يريد : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما بلّغوا عن الله عزّ وجلّ .

وعن ابن عباس (ت ٦٨هـ) أنه قرأ : "كُذِّبُوا" بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها^(١) ، وقال : كانوا بشراً ، يعني الرسل ، يذهب على أن الرسل ضَعُفُوا ، فظنوا أنهم قد أُخْلِفُوا^(٢) .

وذكر قراءة ابن مسعود (ت ٣٢هـ) رضي الله عنه : "فناداه الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب"^(٣) ، واحتج له بأثر ابن مسعود : "إذا اختلفتم في الياء والتاء ، فاجعلوه ياء" ؛ وقال : "وهذا مثل قوله في حديث آخر : "القرآن ذَكَرَ فَذَكَرُوهُ"^(٤) ، ووجهه عندي أنه إذا جاء في القرآن حرف يحتمل التانيث والتذكير ، فذكروه ، وكذلك كان مذهبه في قراءته ، كان يُدَكِّر الملائكة في كل القرآن ، وكذلك كل حرف يحتمل المعنيين ، فلا يفارق في الكتاب - أي رسم المصحف - إذا دُكِّر"^(٥) .

د . رسم المصحف .

يعد الاحتجاج برسم المصحف ضرباً من ضروب التزام الأثر الذي هو منهج السلف في توجيه القراءات ؛ لأن موافقة الرسم العثماني شرط من شروط قبول القراءة ، ولهذا احتج الإمام ابن قتيبة بالرسم في توجيه القراءات ، ومن الأمثلة على ذلك - بالإضافة لما سبق عند اشتراطه موافقة الرسم لقبول القراءة - :

(١) سبق عزو القراءات (ص ٣٣٢) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٠-٤١٢) .

(٣) في سورة آل عمران : ٣٩ ، قرأ بها ابن مسعود . [الحجة لابن خالويه (ص ١٠٨) ، معاني القرآن للفراء (١/٢٠٩)] .

(٤) ليس من حديث آخر ، بل هو من ذات الحديث ، فقد أخرج سعيد بن منصور في سننه (٢/٢٥٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/٥٥٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : "القرآن ذكر فذكروه ، وإن اختلفتم في الياء والتاء فاجعلوها ياء" .

(٥) غريب الحديث (٢/٢٢٨) .

قوله : "قوله تعالى في سورة الأنبياء : "كذلك نجي المؤمنين"^(١)، كتبت في المصاحف بنون واحدة ، وقرأها القراء جميعاً "نُنْجِي" بنونين ، إلا عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧ هـ) فإنه كان يقرؤها بنون واحدة^(٢) ، وكان أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ) يختار في هذا الحرف مذهب "عاصم" كراهية أن يخالف الكتاب"^(٣).

ثانياً : الأصول اللغوية ، وهي كالتالي :

أ . نحوية ، ومن الأمثلة عليه عند ابن قتيبة :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾^(٤)؛ قال :

"﴿ تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾^(٥) من نَصَبَ أراد : اتقوا الله الذي تساءلون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها .

ومن حَفَضَ أراد : الذي تساءلون به وبالأرحام ، وهو مثل قول الرجل : نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ وبالرحم"^(٦).

وتحدث عن فتح الهمزة وكسرها في "أنها" في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرْكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٧)؛ فقال :

"وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يُشْعِرْكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يريد : وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون ، فزاد "لا" لأنهم لا يؤمنون إذا جاءت .

ومن قرأها بكسر إن^(١) ، فإنه يجعل الكلام تاماً عند قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرْكُمْ ﴾ ، ثم يتدئ فيقول : "إنها إذا جاءت لا يؤمنون"^(٢).

(١) سورة الأنبياء : ٨٨ .

(٢) سبق عزو القراءات (ص ٦٤٥) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٤-٥٥) .

(٤) سورة النساء : ١ .

(٥) قرأ حمزة: "والأرحام" بكسر الميم ، وقرأ الباقون : "والأرحام" بفتح الميم . [المبسوط (١٧٥)، النشر (١٨٦/٢)].

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ١١٨) .

(٧) سورة الأنعام : ١٠٩ .

وقال في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾^(٣) :
 "وقد كان بعض القراء يقرأ : "وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر"^(٤) برفع "آزر" على نية النداء،
 كأنه : يا آزر "أنتخذ أصناماً آلهة"^(٥).
 وسيأتي - إن شاء الله تعالى - مزيد من الأمثلة على التوجيهات النحوية في مبحث
 "الجواب عما ادعي على القرآن من اللحن"^(٦).

ب. صرفية ، وهي كثيرة جداً عند ابن قتيبة ، ومن الأمثلة على ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾^(٧) ؛ قال :
 "قِطْعًا : جمع قِطْعَةٍ ، ومن قرأها "قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ"^(٨) ، أراد : اسم ما قُطِعَ ، تقول :
 قَطَعْتُ الشَّيْءَ قِطْعًا ، فننصب أول المصدر ، واسم ما قطعت منه فسقط : قِطْعٌ"^(٩).
 وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾^(١٠) ؛ قال :
 "سَلَفًا : قوماً تقدموا ، وقرأها الأعرج^(١١) (ت ١٣٠ هـ) : "سَلَفًا"^(١) ؛ كأنَّ واحده :
 "سَلْفَةٌ" أي عصابة ، وفرقة متقدمة من الناس ، مثل القِطْعَةِ ، تقول : تقدمتْ سَلْفَةٌ من الناس .

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف : "إنها" بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون : "أئها" بفتح الهمزة
 . [المبسوط (ص ٢٠٠)، النشر (١٩٦/٢)] .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٤) .

(٣) سورة الأنعام : ٧٤ .

(٤) قرأ يعقوب : "آزر" بضم الراء ، وقرأ الباقون : "آزر" بفتح الراء . [المبسوط (ص ١٩٦)، النشر (١٩٥/٢)] .

(٥) المسائل والأجوبة (ص ٢٠٤) .

(٦) انظر : (ص ٧٢١) من هذه الرسالة .

(٧) سورة يونس : ٢٧ .

(٨) قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب : "قِطْعًا" بسكون الطاء ، وقرأ الباقون : "قِطْعًا" بفتح الطاء . [المبسوط (٢٣٣)،
 النشر (٢١٢/٢)] .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ١٩٦) .

(١٠) سورة الزخرف : ٥٦ .

(١١) أبو صفوان ، حميد بن قيس الأعرج ، المكي ، القارئ الثقة ، أخذ القراءة عن مجاهد ، وعرض عليه ثلاث مرات ،
 وروى القراءة عنه سفيان بن عيينة ، وأبو عمرو بن العلاء ، توفي سنة ١٣٠ هـ . [غاية النهاية (٢٣٩/١)، معرفة القراء
 الكبار (٢١٩/١)] .

وُقُرَّتْ : "سُلْفًا"^(٢)؛ كما قيل : خَشَبٌ وَخُشْبٌ ، وَثَمْرٌ وَثُمَّرٌ ، ويقال : هو جمع "سَلِيْفٍ" ، وكله من التقدم "^(٣) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾^(٤)؛ قال :

" فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ " جمع "رَهْنٌ" ، ومن قرأ "فَرُهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ"^(٥)، أراد : جمع "رهان" فكأنه جمع الجمع"^(٦) .

ومثله قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴾^(٧) : " في ظلال " : جمع ظِلٍّ، وقراءة " في ظَلَّلٍ"^(٨) : جمع ظَلَّةً"^(٩) .
ج . لغوية (لغات العرب) .

في مواضع ينص الإمام ابن قتيبة على أن اختلاف القراءة مرده إلى اختلاف اللهجات، فيوجه القراءة على أنها لغة من لغات العرب ، ومن الأمثلة على ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾^(١٠)؛ قال :

(١) قرأ الأعرج ومجاهد "سُلْفًا" بضم السين وفتح اللام . [مختصر ابن خالويه (ص١٣٦)] .
(٢) قرأ حمزة والكسائي "سُلْفًا" بضم السين واللام ، وقرأ الباقر : "سُلْفًا" بفتح السين واللام . [المبسوط (ص٣٩٩)، النشر (٢/٢٧٦)] .
(٣) تفسير غريب القرآن (ص٣٩٩) .
(٤) سورة البقرة : ٢٨٣ .
(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو : "فَرُهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ" بضم الراء والهاء ، وقرأ الباقر : "فرهان مقبوضة" بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها . [المبسوط (ص١٥٦) ، النشر (١٧٨)] .
(٦) تفسير غريب القرآن (ص١٠٠) .
(٧) سورة يس : ٥٦ .
(٨) قرأ حمزة والكسائي وخلف : "ظَلَّل" بضم الظاء من غير ألف ، وقرأ الباقر : "ظلال" بكسر الظاء وألف . [معاني القراءات للأزهري (٣١٠/٢) ، النشر (٢/٢٦٦)] .
(٩) تفسير غريب القرآن (ص٣٦٦) ، وانظر - للاستزادة - : (ص٧، ١٥، ١٦، ٥٨، ١٩١، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٨٣، ٣٨٦، ٤٠٠، ٤١٥، ٤٦٨، ٤٩٨) .
(١٠) سورة فصلت : ٤٠ .

"يلحدون : أي يجورون ويعدلون ، ومنه سُمِّي اللحد ، لأنه في ناحية ، ولو كان مستقيماً لكان ضريحاً ، يقال : أَلْحَدْتُ ، وَلَحَدْتُ ، وقد قُرئ باللغتين جميعاً "يُلْحِدُونَ" ، و"يَلْحَدُونَ" (١) و"يَلْحَدُونَ" (٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ (٣) ؛ قال :

"والله أركسهم" ، أي : نكسهم ، وردَّهم في كفرهم ، وهي في قراءة عبدالله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) رضي الله عنه : "رَكَسَهُمْ" (٤) ، وهما لغتان : رَكَسْتُ الشيء ، وَأَرَكَسْتُهُ (٥) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ (٦) ؛ قال :

"بِالْقِسْطَاسِ : الميزان ، يقال : هو بلسان الروم ، وفيه لغة أخرى : "قُسْطَاس" بضم القاف ، وقد قرئ باللغتين جميعاً (٧) (٨) .

وفي "باب تفسير حروف المعاني" ؛ قال :

"كَأَيِّن ، هي بمعنى : كم ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ (٩) ؛ أي وكم من قرية .

وفيها لغتان : "كَأَيِّن" بالهمز وتشديد الياء ، و"كَأَيِّن" على تقدير قائل وبائع ، وقد قُرئ بهما جميعاً في القرآن (١) (٢) .

(١) قرأ حمزة : "يُلْحَدُونَ" بفتح الياء والحاء ، وقرأ الباقون : "يُلْحِدُونَ" بضم الياء وكسر الحاء . [المبسوط (ص ٢١٦) ، النشر (٢٠٥/٢)] .

(٢) غريب الحديث (٥٩/١) .

(٣) سورة النساء : ٨٨ .

(٤) قرأ بها ابن مسعود وأبي بن كعب - رضي الله عنهما - . [معاني القرآن للفراء (٢٨١/١) ، تفسير الطبري (٢٨١/٧)] .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ١٣٣) .

(٦) سورة الإسراء : ٣٥ .

(٧) قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف : "بِالْقِسْطَاسِ" بكسر القاف ، وقرأ الباقون : "القُسْطَاسِ" بضم القاف . [المبسوط (ص ٢٦٩) ، النشر (٢٢٣/٢)] .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٤) .

(٩) سورة الطلاق : ٨ .

د . المعنى اللغوي .

وغالب توجيهات الإمام ابن قتيبة تندرج ضمن الأصول المعنوية ، أي المعنى اللغوي المترتب على اختلاف القراءة ، ومن الأمثلة على ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ ﴾^(٣) ؛ قال :

"خُلُقُ الأولين ، أراد : اختلاقهم وكذبهم ، يقال : خَلَقْتُ الحديثَ واختَلَفْتُهُ ؛ إذا افتعلته ، ومن قرأ : "إِلا خُلُقُ الأولين" ^(٤)، أراد : عادتهم وشأنهم" ^(٥).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾^(٦) ؛ قال :

" "بظنين" ؛ أي بمتهم على ما يُخْبِرُ به عن الله عزّ وجل ، ومن قرأ : "بضنين" ^(٧) ؛ أراد : بيخيل ، أي ليس بيخيل عليكم ؛ يُعَلِّم ما غاب عنكم مما ينفعكم" ^(٨).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾^(٩) ؛

قال :

" "بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" ، كأنها تُبَشِّر ، ومن قرأها : "نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" ^(١)، أراد : جمع نُشُور ، ونَشْرُ الشيء ما تفرّق منه ، يقال : اللهم اضمم إليّ نشري ، أي ما تفرّق من أمري" ^(٢).

(١) قرأ ابن كثير : "وكائِرُنْ" بألف بعد الكاف ثم همزة مكسورة ، وقرأ أبو جعفر كذلك : "وكائِرُنْ" مع تسهيل الهمزة ، وقرأ الباقون : "وكائِنْ" بفتح الهمزة وبعدها ياء مسكورة مشددة دون ألف . [المبسوط (ص ١٦٩)، النشر (٢/١٨٢)] .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٥١٩) .

(٣) سورة الشعراء : ٣٧ .

(٤) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف : "خُلُق" بضم الخاء واللام ، وقرأ الباقون : "خُلُق" بفتح الخاء وسكون اللام . [المبسوط (ص ٣٢٧)، النشر (٢/٢٥٢)] .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٣١٩) .

(٦) سورة التكوير : ٢٤ .

(٧) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس : "بظنين" بالطاء ، وقرأ الباقون : "بضنين" بالضاد . [المبسوط (ص ٤٦٤)، النشر (٢/٢٩٨)] .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٥١٧) .

(٩) سورة الأعراف : ٥٧ .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾^(٣)؛ قال :

"قُبُلًا : جماعة قَبِيل ، أي أصنافاً ، ويقال : القبيل : الكفيل ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ

بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾^(٤) ، أي ضمناً ، ومن قرأها : "قَبِيلًا"^(٥) ، أراد : معاينة"^(٦).

(١) قرأ عاصم "بُشْرًا" بضم الباء وسكون الشين ، وقرأ ابن عامر : "نُشْرًا" بضم النون وسكون الشين ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف : "نُشْرًا" بفتح النون وسكون الشين ، وقرأ الباقون : "نُشْرًا" بضم النون والشين. [المبسوط (ص٢٠٩)، النشر (٢/٢٠٢)].

(٢) تفسير غريب القرآن (ص١٦٩) .

(٣) سورة الأنعام : ١١١ .

(٤) سورة الإسراء : ٩٢ .

(٥) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر : "قَبِيلًا" بكسر القاف وفتح الباء ، وقرأ الباقون : "قُبُلًا" بضم القاف والباء . [المبسوط (ص٢٠٠)، النشر (٢/١٩٦)].

(٦) تفسير غريب القرآن (ص١٥٨)، وانظر - للاستزادة - : (ص٦٠، ٦١، ٦٦، ٧٨، ٩٨، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٨، ٢٣٤، ٢٧٠، ٢٨١، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٣٢، ٣٣٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٧٠، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٤، ٥٠٧)، تأويل مشكل القرآن (ص١٨٢، ٣٢٠، ٤١٠) .

المبحث الرابع نقده لبعض القراء والقراءات

ذهب كثير من اللغويين والنحاة إلى تحكيم القواعد النحوية واللغوية في القراءات ، فأدّاهم ذلك إلى تلحين القراء ، وتضعيف القراءات التي تلقته الأمة بالقبول وردّها .

يقول محمد عبد الخالق عظيمة عن ظاهرة تلحين القراء :

"هذه الحملة على القراء بتلحينهم ، وردّ قراءاتهم استفتح بابها وحمل لواءها نخاة البصرة المتقدمون ، ثم تطاير شررها إلى بعض نخاة الكوفة فأسهم فيها"^(١).

وكان الإمام ابن قتيبة ممن سلك هذا المسلك ، وإن كانت المواضع التي نقد فيها القراءات قليلة ومحدودة بخلاف غيره من كبار النحويين الذين كان نقد القراءات ظاهرة بارزة عندهم من أمثال الفراء (ت ٢٠٧هـ) ، وأبي عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ) ، وأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) ، والمبرد (ت ٢٨٥هـ) ، والزجاج (ت ٢١١هـ) ، والنحاس (ت ٣٣٨هـ) وغيرهم .

ويبدو لي أن ابن قتيبة في المواضع التي نقد فيها القراءات قد تأثر بشكل كبير بشيخه أبي حاتم السجستاني ، الذي يُعدُّ من أكثر اللغويين نقداً للقراءات^(٢) ، بدليل أن ما ذكره ابن قتيبة من نقد للقراءات قد أثر نحوه عن أبي حاتم السجستاني ، وأثر هذا الشيخ - وهو صاحب اختيار في القراءات - على ابن قتيبة في القراءات بشكل عام ظاهر في مصنفاته ، وسيأتي في تفصيل نقد ابن قتيبة لبعض القراء والقراءات ما يدل على أثر أبي حاتم .

أولاً : نقد ابن قتيبة لبعض القراء .

كان أبو حاتم كثير الطعن في حمزة الزيات (ت ١٥٦هـ) ، وكان يتهمه بأنه لا يعرف شيئاً عن كلام العرب .

يقول أبو حاتم : "سألت عن حمزة أبا زيد - الأنصاري - (ت ٢١٥هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٤هـ) ، ويعقوب الحضرمي (ت ٢٠٥هـ) وغيرهم من العلماء ، فأجمعوا على أنه لم يكن

(١) مقدمة تحقيق المقتضب للمبرد (١١٩/١) .

(٢) يقول محمد عبد الخالق عظيمة : "تبين لي أن أكثر النحويين رداً للقراءات هو أبو حاتم السجستاني" . [دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٣٣/١)] .

شيئاً ، ولم يكن يعرف كلام العرب ، ولا النحو ، ولا كان يدّعي ذلك ، وكان يلحن في القرآن ولا يعقله ، ويقول : "وما أنتم بمصرحي" ^(١) ، بكسر الياء المشددة ، وليس ذلك في كلام العرب ، ونحو هذا من القراءة" ^(٢) .

وقد كان لهذا الكلام أثره على ابن قتيبة ، فلا تجد له نقداً حاداً لأحد من أئمة القراءة سوى حمزة ، فقد أثقل في نقده ، وكان حاداً معه - وهو الحلیم العفیف اللسان - واتهم قراءته بالاضطراب ، والتخليط ، والبعد عن مذاهب العرب ؛ فقال :

"وقد كان الناس قديماً يقرؤون بلغاتهم كما أعلمتك ، ثم خلف قوم بعد قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ، ليس لهم طبع اللغة ، ولا علم التكلف ، فهفوا في كثير من الحروف ، وزلوا وقرأوا بالشاذ وأحلوا .

منهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح ، وقربه من القلوب بالدين ، لم أر فيمن تتبعت وجوه قراءته أكثر تخليطاً ، ولا أشد اضطراباً منه ؛ لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره ، ثم يؤصل أصلاً ويخالف إلى غيره لغير ما علة ، ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة .

هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز ، بإفراطه في المد والهمز والإشباع ، وإفحاشه في الإضجاع والإدغام ، وحملة المتعلمين على المركب الصعب ، وتفسيره على الأمة ما يسره الله ، وتضييقه ما فسحه" ^(٣) .

ثم ينقل عن ابن عيينة (ت ١٩٨ هـ) أنه يرى لمن قرأ في صلاته بحرف حمزة أو ائتم بقراءته أن يعيد الصلاة ، وأنه قد وافقه على كراهة قراءة حمزة الكثير من الأئمة ، كالإمام أحمد (ت ٢٤١ هـ) ، وبشر بن الحارث (ت ٢٢٧ هـ) ، ثم يقول متعجباً :

"ومن العجب أن يُقرئ الناس بهذه المذاهب ، ويُكره الصلاة بها ، ففي أي موضع تُستعمل هذه القراءة إن كانت الصلاة لا تجوز بها؟! " ^(٤) .

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ ، وسبق عزو القراءة (ص ٦٤٤) .

(٢) نقله عنه أبو الطيب في مراتب النحويين (ص ٢٦) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٨-٦٠) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٠) .

ثم يذكر أن قراءة حمزة لا يولع بها إلا عوام الناس ، لما فيها من المشقة والصعوبة ؛ فيقول :

"وقد شغف بقراءته عوام الناس وسَوْفُهُمْ ، وليس ذلك إلا لما يرونه من مشقتها وصعوبتها ، وطول اختلاف المتعلم إلى المقرئ فيها ، فإذا رآوه قد اختلف في أمّ الكتاب عشرًا ، وفي مائة آية شهرًا ، وفي السبع الطُول حَوْلًا ، ورأوه عند قراءته مائل الشّدقين، دارّ الوريدين ، راشح الجبينين ، توهموا أن ذلك لفضيلة في القراءة وحِدْق بها .
وليس هكذا كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خيار السلف ولا التابعين ، ولا القراء العالمين ؛ بل كانت قراءتهم سهلة رَسَلَةً ، وهكذا نختار لقراء القرآن في أورادهم ومحاربيهم ، فأما الغلام الرّيّضُ والمِسْتَأْنِفُ للتعلّم فنختار له أن يُؤخَذَ بالتحقيق عليه، من غير إفحاش في مدّ أو همز أو إدغامٍ ؛ لأن في ذلك تذليلًا للسان ، وإطلاقًا من الحُبْسَةِ ، وحلاّ للعُقْدَةِ " (١).

ويبدو أن الإمام ابن قتيبة قد تحامل كثيراً في نقده حمزة ، مما جعل بعض أهل العلم يُصنّف في الرد عليه ، كما فعل أبو القاسم عبدالله بن محمد العكبري (ت ٥١٦هـ) (٢) ، في كتابه "الانتصار لحمزة فيما نسبه إليه ابن قتيبة في مشكل القرآن" (٣).

ويتبين فيما مضى أن كراهته لقراءة حمزة تعود لما فيها من الإفحاش في المد والهمز والإدغام ، وهو ذات السبب الذي لأجله نقد قراءة الكسائي (ت ١٨٩هـ) ، حين عرض لأثر إبراهيم النخعي (ت ٩٦هـ) : "التكبير جزم ، والقراءة جزم ، والتسليم جزم" (٤) ؛ فقال:

(١) المصدر السابق (ص ٦٠-٦١) .

(٢) أبو القاسم عبدالله بن محمد بن أحمد العكبري البغدادي ، الشافعي ، المحدث ، الأديب ، المعروف بـ "ابن المعلم" ، تفقه على الشيخ أبي إسحاق الشافعي ، وسمع الحديث عن جماعة ، توفي سنة ٥١٦هـ . [طبقات الشافعية الكبرى (١٢٩/٧)] .

(٣) ذكره حاجي صاحب كشف الظنون (١٧٣/١) ، والبغدادي في هدية العارفين (٤٥٩/١) ، وكحالة في معجم المؤلفين (١٠٩/٦) .

(٤) أخرجه الترمذي معلقاً في الصلاة ، باب ما جاء أن حذف السلام سنة (ص ١٦٦٨) بلفظ : "التكبير جزم ، والسلام جزم" ، وأخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث (٦٣٣/٢) .

"وأراد إبراهيم بقوله : "القراءة جزم" أي لا تُمدّ المد المُفْرَط ، ولا تُهْمَز الهمز الفاحش ، كنعو قراءة قوم .

وبلغني أن الكسائي حَجَّ مع المهدي (ت ١٦٩ هـ)، فقدمه بالمدينة يصلي بالناس ، فَهَمَزَ ، فأنكر ذلك أهل المدينة ، وقالوا : يَنْبُرُ^(١) في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يُشَدُّ الشعر ... ، وأرادوا أن تكون القراءة سهلة رسالة^(٢) .

والإمام ابن قتيبة قد سبق في نقده هاتين القراءتين ، فقراءة حمزة - بالإضافة لمن سبق من اللغويين - قد نقلت كراحتها عن جماعة من السلف ، كيزيد بن هارون^(٣) (ت ٢٠٦ هـ)، وعبدالرحمن بن مهدي (ت ١٩٨ هـ)، وأبي بكر بن عياش (ت ١٩٣ هـ)، وعبدالله بن إدريس الأودي^(٤) (ت ١٩٢ هـ)، والإمام أحمد (ت ٢٤١ هـ)، وحماد بن زيد^(٥) (ت ١٧٩ هـ) ، وأما قراءة الكسائي ، فقد نقل كراحتها عن الإمام أحمد ، ولا شك أن هذه الكراهة قد أشكلت على ما قرره العلماء من تواتر هاتين القراءتين ، وقد حملهم هذا على الإجابة عن هذه الكراهة بأجوبة منها :

١ . إن حمزة والكسائي لم ينفردا بشيء مما أنكر عليهما ، بل وافقهما في كل حرف أمالاه وأدغماه أو سهلاه أو مداه جماعات ، كما أنهما نقلتا قراءتهما بالسند الصحيح المتصل إلى رسول الله ﷺ ، ويشهد لهذا قول سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) : " ما قرأ حمزة حرفاً إلا بآثره " (٦) .

(١) ينبر : أي يهمز ، يقال : نَبَّرْتُ الحرفَ أنبره نَبْرًا ، إذا همزته . [تهديب اللغة ، مادة "نبر" (١٥٤/١٥)] .

(٢) غريب الحديث (٦٣٣/٢) .

(٣) أبو خالد يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت السلمي ، مولاهم الواسطي ، من حفاظ الحديث الثقات ، سمع شعبة ابن الحجاج ، والحمادين ، وجماعة ، وعنه الإمام أحمد ، وابن المديني ، وابن أبي شيبة ، وجماعة ، قال ابن المديني : " لم أرَ أحفظ من يزيد بن هارون " ، توفي سنة ٢٠٦ هـ . [تاريخ بغداد (٤٩٣/١٦) ، سير أعلام النبلاء (٣٥٨/٩)] .

(٤) أبو محمد عبدالله بن إدريس بن يزيد بن عبدالرحمن الأودي الكوفي ، من أعلام حفاظ الحديث ، سمع الأعمش ، ومالك بن أنس ، وشعبة ، والثوري ، وعنه : عبدالله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وآخرون ، قال عنه يحيى بن معين : " هو ثقة في كل شيء " ، توفي سنة ١٩٢ هـ . [تاريخ بغداد (٦٩/١١) ، سير أعلام النبلاء (٤٢/٩)] .

(٥) انظر - أقوال هؤلاء الأئمة - في : ميزان الاعتدال (٦٠٥/١-٦٠٦) .

(٦) ميزان الاعتدال (٣٧٨/٢) .

٢ . أن بعض الناقلين عن حمزة والكسائي من غير الثقات قد أخطأوا في النقل عنهما، فوقع الإنكار من هؤلاء الأئمة على حمزة والكسائي وإنما الخطأ من الناقل عنهما^(١).

قال ابن الجزري (٨٣٣هـ): "وأما ما ذُكر عن عبدالله بن إدريس وأحمد بن حنبل من كراهة قراءة حمزة، فإن ذلك محمول على قراءة من سمعا منه ناقلاً عن حمزة، وما آفة الأخبار إلا رواها، وقد كان حمزة يكره هذا التكلف والإفراط، وينهى عنه"^(٢).

ويدل على هذا ما نقل عن حمزة من النهي عن التكلف والإفراط ، فقال - لمن بالغ في المد - : "أما علمت أن ما كان فوق البياض فهو برص ، وما كان فوق الجعودة فهو ققط ، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة"^(٣).

٣ . أنه قد استقر الإجماع على قبول قراءتهما، والإنكار على من تكلم في قراءتهما. قال الذهبي (٧٤٨هـ) : " وقد انعقد الإجماع بأخرة على تلقي قراءة حمزة بالقبول ، والإنكار على من تكلم فيها "^(٤).

وعلى هذا فإن الإمام ابن قتيبة ومن سبقه من أئمة السلف معذورون في تقديمهم لعدم ثبوت تواتر القراءة عندهم ، ولهذا فإن من تبين له تواتر القراءة رجع عن كراهيته لها ، كما فعل الإمام أحمد (٢٤١هـ) ، فقد نقل ابن أبي يعلى (٥٢١هـ) عن محمد بن الهيثم المقرئ (٢٩٩هـ) أنه قال : سألت أحمد ما تكره من قراءة حمزة ، قال : الكسر والإدغام ، فقلت له : حدثنا خلف بن تميم (٢٠٦هـ)، قال : كنت أقرأ على حمزة، فمرّ به سفيان الثوري (١٦١هـ) فجلس إليه ، وسأله عن مسألة ، فقال له : "يا أبا عمار ، أما القرآن والفرائض فقد سلمناها لك" ، قال أحمد : "أنتم أهل القرآن ، وأنتم أعلم به"^(٥)، فظاهر هذا الرجوع عن الكراهة .

(١) السبعة لابن مجاهد (ص٧٧) .

(٢) غاية النهاية (٢٦١/١) .

(٣) السبعة لابن مجاهد (ص٧٧) ، غاية النهاية (٢٦١/١) .

(٤) ميزان الاعتدال (٣٧٨/٢) .

(٥) طبقات الحنابلة (٣٢٥/١) .

كما يمكن حمل كراهية السلف لتلك القراءة على الكراهية النفسية ، وليست الشرعية، والكراهية النفسية بمثابة الاختيار ، إذا لم يترتب عليها إسقاط القراءة أو ردّها^(١)، ويقوّي هذا ما نقله ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) عن الأثرم (ت ٣٦٠هـ) أنه قال : "قلت لأبي عبد الله - الإمام أحمد - : إمام يصلي بقراءة حمزة ، أصلي خلفه ؟ قال : لا يبلغ به هذا كله، ولكنها لا تعجبني قراءة حمزة"^(٢).

ثانياً : نقد ابن قتيبة لبعض القراءات المتواترة .

كما نقد الإمام ابن قتيبة بعض القراء ، فإنه كذلك نقد بعض القراءات الثابتة ، ولحن من قرأ بها ، وكان ذلك في مواضع قليلة جداً ، وتفصيلها كالاتي :

١ . قراءة حمزة : "وما أنتم بمصرخي"^(٣) ، بكسر الياء المشددة .

يقول ابن قتيبة في معرض حديثه عن القراءات التي وقع فيها الغلط والوهم : "وقرأ الأعمش (ت ١٤٨هـ) : "وما أنتم بمصرخي" بكسر الياء ، كأنه ظن أن الباء تخفض الحرف كله ، واتبعه على ذلك حمزة"^(٤).

وقد نقد هذه القراءة جمع من اللغويين ، كالأخفش (ت ٢١٥هـ)^(٥)، وأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)^(٦)، والزجاج (ت ٣١١هـ)^(٧)، والنحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٨)، والزنجشري (ت ٥٣٨هـ)^(٩).

يقول أبو الحسن الصفاقسي (ت ١١١٨هـ)^(١٠) - مبيناً سبب تلحين القراءة - :

(١) انظر : المنهاج في الحكم على القراءات (ص ٤٨) .

(٢) المغني (١٦٥/٢) .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ ، وسبق عزو القراءة (ص ٦٤٤) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٢) .

(٥) معاني القرآن للأخفش (٤٠٧/٢) .

(٦) إبراز المعاني لأبي شامة (ص ٥٥٠) .

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١٥٩/٣) .

(٨) إعراب القرآن للنحاس (٣٦٨/٢) .

(٩) الكشف (٥٥١/٢) .

(١٠) أبو الحسن علي بن سالم بن محمد بن سالم النوري الصفاقسي ، مقرئ من فقهاء المالكية ، من أهل صفاقس ، رحل إلى تونس ، ومنها إلى المشرق ، فأخذ عن علماء كثيرين دون أسماءهم في "فهرسة" ، وعاد إلى صفاقس ، فصنف كتباً

"وقد ضعف بعض النحويين قراءة حمزة .. من جهة أن الياء فيه ياء إضافة ، وحكمها الفتح أو السكون ، وإذا تعذر أحدهما تعين الآخر ، والسكون هنا متعذر ، فتعين الفتح . وإنما تعذر السكون لأن أصل "مصرخي" مصرخين جمع مصرخ ، بمعنى مغيث ، أضيف لياء المتكلم ، فحذفت النون للإضافة ، فاجتمع ياء الإعراب وهي ساكنة ، وياء الإضافة ، فلو سكتها لاجتمع ساكنان ، فتعين الفتح ، فاجتمع مثلان ، الأول ساكن ، والثاني متحرك ، فوجب الإدغام ، فصارت ياءً مفتوحة مشددة"^(١).

وقد تصدى لهذا النقد جمع من العلماء ، فدافعوا عن القراءة ، وخرّجوها بأكثر من تخريج ، ومنه :

أ . أن كسر الياء في هذه القراءة على الأصل في التقاء الساكنين ، لأن الأصل في التخلص من التقاء الساكنين كسر أحدهما ، فإذا كسرت الياء عند التقاء الساكنين في "مصرخي" فإنها لم تخرج عن هذا الأصل"^(٢).

ب . أن بعض العرب يزيد بعد ياء المتكلم ياء أخرى ساكنة ، كما تزداد بعد الضمير في "به" ، وفي هذه القراءة زيدت بعد ياء المتكلم ، ثم حذفت هذه الياء للدلالة الكسر عليها . ونص قطرب (ت ٢٠٦ هـ) أن هذه لغة بني يربوع^(٣) ، يزيدون على ياء الإضافة ياءً^(٤) . وإلى هذين التخريجين أشار الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) بقوله :

..... مُصْرِحِيّ اكسِرَ لحمزة مُجْمَلًا
كها وَصَلْ أو للسَّاكِنِينَ وقطربٌ
وقال أبو حيان (ت ٧٤٥ هـ) - بعد أن نقل تلحين النحاة لهذه القراءة - :

، منها : "غيث النفع في القراءات السبع" ، و"تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين" ، توفي سنة ١١١٨ هـ . [الأعلام للزركلي (١٤/٥) ، مقدمة كتاب غيث النفع (٣٨/١)] .

(١) غيث النفع في القراءات السبع (٧٧١/٢) .

(٢) انظر : معاني القرآن للفراء (٧٦/٢) ، إعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه (٣٣٥/١) .

(٣) يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم ، وبنوه هم : رياح ، وثعلبة ، والحارث ، وعمرو ، وصبير ، وكانوا يسمون : الأحمال ، وكليب وشدانة ، والعنبر ، وكانوا يسمون العقداء ؛ لأنهم تعاقدوا على بني أخيهم رياح ، وصار الأحمال مع بني رياح . [جمهرة أنساب العرب (ص ٢٢٤)] .

(٤) انظر : تفسير القرطبي (٣٥٧/٩) ، النشر (٢٢٤/٢) ، إتخاف فضلاء البشر (ص ٣٤٢) .

(٥) حرز الأماني ووجه التهاني "متن الشاطبية" (ص ٦٥) .

"وما ذهب إليه من ذكرنا من النحاة لا ينبغي أن يلتفت إليه واقتفى آثارهم فيها الخلف ، فلا يجوز أن يقال فيها إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة ، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة ، لكن قلّ استعمالها"^(١).

ج . أن الياء كسرت اتباعاً لكسرة الهمزة بعدها في "إني" وإن كان أصلها الفتح، وهي لغة بني تميم ، وبعض بني غطفان ، يتبعون الأول للثاني للتحانس ، وبه قرأ الحسن (ت ١١٠ هـ) في "الحمد لله"^(٢) ، بكسر الدال في الحمد ، وأصلها الضم ، إبتاعاً لحركة اللام في "الله"^(٣).

٢ . قراءة حمزة : "ومكر السيء"^(٤) ، بإسكان الهمزة وصلاً .

يقول ابن قتيبة - في نقد القراءة - :

"وقرأ حمزة : "ومكر السيء" ، ولا يجيق المكر السيء إلا بأهله" ، فحزم الحرف الأول، والجزم لا يدخل الأسماء ، وأعرب الآخر وهو مثله"^(٥).

وقد نقد هذه القراءة جمع من العلماء ، منهم من حثها كالمبرد (ت ٢٨٥ هـ)^(٦) ، والزجاج (ت ٣١١ هـ)^(٧) ، ومنهم من خطأ راويها في النقل، كالنحاس (ت ٣٣٨ هـ)^(٨) ، والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)^(٩).

ويقول الصفاقسي (ت ١١١٨ هـ) - مبيناً سبب تلحين القراءة - :

(١) البحر المحيط (٤١٣/٥) .

(٢) سورة الفاتحة : ١ ، قرأ الحسن ورؤية : "الحمد لله" . [مختصر ابن خالويه (ص ٩)] .

(٣) انظر : التبيان في إعراب القرآن للعكبري (٧٦٨/٢) ، غيث النفع (ص ٢٩٥) ، وانظر - للاستزادة - : توجيه مشكل القراءات العشرية (ص ٢٩٥) ، القراءات التي أتمها النحاة باللحن ، رسالة ماجستير للباحث : أشرف إبراهيم الشوادفي (ص ٢٨٤) .

(٤) سورة فاطر : ٤٣ ، قرأ حمزة وحده "السيء" ساكنة الهمزة ، وقرأ الباقر : "السيء" بكسر الهمزة . [المبسوط (ص ٣٦٧) ، النشر (٢٦٤/٢)] .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٣) .

(٦) البحر المحيط (٢٩٥/٧) .

(٧) معاني القرآن وإعرابه (٢٧٥/٢) .

(٨) إعراب القرآن (٣٧٧/٣) .

(٩) الكشاف (٦١٩/٣) .

"وقد ضعف بعض النحاة قراءة حمزة ، وتجراً بعضهم فقال: "إنها لحن" ، واحتجوا لدعواهم بأن فيها حذف حركة الإعراب ، وهو لا يجوز في نثر ولا شعر ، لأنها اجتلبت للفرق بين المعاني ، وحذفها مخل بذلك"^(١).

وقد ردّ العلماء هذا التلحين ، واحتجوا للقراءة وخروجها على أن التسكين فيها للتخفيف ، وذلك لكثرة الحركات ، وتواليها مع الهمزة والياء ، فسكنت الهمزة تخفيفاً .
يقول الفراء (ت ٢٠٧هـ) :

"وقد جزمها الأعمش وحمزة ، وذلك لكثرة الحركات كما قال : "لا يجرّهم الفرع الأكبر"^(٢).

ويقول ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) - مخرجاً القراءة - :
"إنما فعل ذلك تخفيفاً للحرف لاجتماع الكسرات ، وتواليها مع الهمزة"^(٣).
وقد خرجها أبو حيان (ت ٧٤٥هـ)^(٤) ، والسّمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)^(٥) ، بهذا التخرّيج^(٦).

٣ . قراءة حمزة : "ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون"^(٧).

يقول ابن قتيبة في نقد القراءة :

"وقرأ حمزة : "ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون" بالياء ، ولو أريد بها الوجه الذي ذهب إليه لكانت : ولا يحسبن الذين كفروا أنهم سبقوا إنهم لا يعجزون"^(٨).

(١) غيث النفع (١٠٣٢/٣) .

(٢) معاني القرآن (٣٧١/٢) .

(٣) الحجة في القراءات السبع (ص ٢٩٧) .

(٤) البحر المحيط (٢٩٥/٧) .

(٥) الدر المصون (٢٤١/٩) .

(٦) انظر - للاستزادة من تخرّيج القراءة - : توجيه مشكل القراءات العشرية (ص ٣٩٠) ، القراءات التي أتمها النحاة

باللحن (ص ١٤٠) ، غيث النفع (١٠٢٨/٣) .

(٧) سورة الأنفال : ٥٩ ، وسبق عزو القراءة (ص ٦٤٥) .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٤) .

وهذه القراءة قرأ بها - بالإضافة إلى حمزة - ابن عامر (ت ١١٨هـ)، وحفص (ت ١٨٠هـ)، وأبو جعفر (ت ١٣٠هـ)، وقد تعرض لها بعض النحاة والمفسرين بالتلحين والتغليط ، منهم :

الفراء (ت ٢٠٧هـ) ^(١)، وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) ^(٢)، والطبري (ت ٣١٠هـ) ^(٣)، والزرجاج (ت ٣١١هـ) ^(٤)، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ^(٥).
وسبب تلحين القراءة عند هؤلاء يعود إلى أنه لم يأت ليحسبن بمفعول ، وهو يحتاج إلى مفعولين .

يقول الطبري - مبيناً سبب وصفه للقراءة بأنها غير حميدة - :
"وذلك أن "يحسب" يطلب في كلام العرب منصوباً وخبره ، فقارئ هذه القراءة أصحب "يحسب" خبراً لغير مخبر عنه" ^(٦).

وبالرغم من هذا التلحين للقراءة ، إلا أنها خُرِّجت بأكثر من تخريج ، وُحِّمَتْ على أكثر من وجه ، من ذلك :

أ . المفعولان مذكوران ، والمخذوف هو الفاعل ، والتقدير : ولا يحسبن الرسول ، أو المؤمن، والمفعولان : "الذين كفروا" ، و"سبقوا" ، كما في قراءة الخطاب "ولا تحسبن" ^(٧).
ب . أن في "يحسب" ضمير يعود على "مَنْ خلفهم" في آية سابقة ، ويكون المفعولان كالوجه الذي قبله ، ويكون المعنى : ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ^(٨).
ج . أن يكون "الذين كفروا" فاعلاً ، والمفعول الأول "أنفسهم" ، وهو مقدر ، والمفعول الثاني "سبقوا" ، والمعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا ^(٩).

(١) معاني القرآن (٤١٦/١) .

(٢) إعراب القرآن للنحاس (١٩٢/٢) .

(٣) تفسير الطبري (٢٤١/١١) .

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٤٢١/٢) .

(٥) الكشاف (٢٣١/٢) .

(٦) تفسير الطبري (٢٤١/١١) .

(٧) انظر : البحر المحيط (٤٩٥/٤) ، الدر المصون (٦٢٣/٥) ، حاشية الشهاب (٢٧٨/٤) .

(٨) انظر : إعراب القرآن للنحاس (١٩٢/٢) ، تفسير الرازي (١٤٧/١٥) ، البحر المحيط (٤٩٥/٤) .

(٩) انظر : الكشاف (٢٣١/٢) ، التبيان في إعراب القرآن للعكبري (٩/٢) .

د . أن يكون "الذين كفروا" فاعلاً ، وتضمير "أن" قبل "سبقوا" ، ويكون التقدير: أن سبقوا، فتسد مسد المفعولين^(١).

وبهذه الأوجه تبين أنه لا يصح رد القراءة ولا تلحينها .

٤ . قراءة حمزة وابن عامر (ت ١١٨ هـ) : "وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً"^(٢) ، بواو واحدة في "تلوا"^(٣).

يقول ابن قتيبة في نقد القراءة :

"وقرأ يحيى بن وثاب (ت ١٠٣ هـ) : "وإن تلووا أو تعرضوا" من الولاية ، ولا وجه للولاية هاهنا ، إنما هي "تلووا" - بواوين - من ليك في الشهادة ، وميلك إلى أحد الخصمين عن الآخر ، قال الله عز وجل : ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾^(٤) ، واتبعه على هذه القراءة الأعمش (ت ١٤٨ هـ) وحمزة"^(٥).

وقد طعن في هذه القراءة بعض العلماء ، كالأنخفش (ت ٢١٥ هـ)^(٦) ، وأبي عبيد (ت ٢٢٤ هـ)^(٧) ، والطبري (ت ٣١٠ هـ) الذي ذكر أن هذه القراءة لا تخلو من أحد وجهين : إما أن تكون أصلها "تلئوا" ، ثم أسقطت الهمزة ، وألقيت حركتها على اللام، وإما أن تكون من الولاية ، ثم بين خطأ الوجهين ؛ وقال :

"فإذا كان فساد ذلك واضحاً من كلا وجهيه ، فالصواب من القراءة الذي لا يصلح غيره أن يقرأ به عندنا : ﴿وإن تلووا أو تعرضوا﴾^(٨) ، بمعنى : اللّي الذي هو مَطْل"^(٩).

(١) انظر : معاني القرآن للفراء (١/٤١٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٥٤٤)، وانظر - للاستزادة - : توجيه مشكل القراءات العشرية (ص ٢٣٧)، القراءات التي اهتمها النحاة باللحن (ص ٢١٠) .

(٢) سورة النساء : ١٣٥ .

(٣) سبق عزو القراءة (ص ٦٤٤) .

(٤) سورة آل عمران : ٧٨ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٢) .

(٦) معاني القرآن للأخفش (١/٢٦٨) .

(٧) الدر المصون (٤/١١٩) .

(٨) سورة النساء : ١٣٥ .

(٩) تفسير الطبري (٧/٥٩٢) .

وقد ردّ أهل العلم هذا الطعن ، وخرّجوا القراءة بأكثر من تخريج ، ومن هذه التخريجات

:

أ . أنها من لوى يلوي ، فأصله "تلوا" ، كقراءة الجمهور ، فهُمزت الواو الأولى لانضمامها ، ثم حذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام ، وحذفت الهمزة ، فصارت "تلوا"^(١) .

ب . أنها من لوى يلوي - أيضاً - ، إلا أن الضمة استثقلت على الواو الأولى ، فنقلت إلى اللام الساكنة تخفيفاً ، فالتقى ساكنان ، وهما : الواوان ، فحذفت الأولى منهما^(٢) .

ج . أنها من ولي يلي ؛ لأن ولاية الشيء إقبال عليه ، وهو خلاف الإعراض عنه ، والمعنى : إن تُقبلوا أو تعرضوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، فيجازي المُقبل بإحسانه ، والمعرض المسيء بإعراضه^(٣) .

قال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) : "ولحنّ بعض النحويين قارئ هذه القراءة ، قال : لا معنى للولاية هنا ، وهذا لا يجوز لأنها قراءة متواترة في السبع ، ولها معنى صحيح وتخريج حسن ، فنقول : اختلف في قوله : "وإن تلوا" ، ف قيل : هي من الولاية ، أي : إن وليتم إقامة الشهادة ، أو أعرضتم عن إقامتها ، والولاية على الشيء هو الإقبال عليه ، وقيل : هو من اللبي ، وأصله : تلوا ، وأبدلت الواو المضمومة همزة ، ثم نقلت حركتها إلى اللام ، وحذفت ، ... ، ونقل عن النحاس (ت ٣٣٨هـ) : أنه استثقلت الحركة على الواو ، فألقت على اللام ، وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين"^(٤) .

٥ . قراءة نافع (ت ١٦٩هـ) : "فبم تبشرون"^(٥) ، بكسر النون مخففة^(٦) .

يقول ابن قتيبة في نقد القراءة :

(١) انظر : معاني القرآن للفراء (٢٩١/١) ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١١٨/٢) .

(٢) انظر : إعراب القرآن للنحاس (٤٩٥/١) ، الدر المصون (١١٩/٤) .

(٣) انظر : الحجة لابن خالويه (ص ١٢٧) ، الكشاف (٥٧٥/١) ، وانظر - للاستزادة - : توجيه مشكل القراءات العشرية (ص ١٧٧) ، القراءات التي اتهمها النحاة باللحن (ص ٣٨٧) .

(٤) البحر المحيط (٣٥٧/٣) .

(٥) سورة الحجر : ٥٤ .

(٦) سبق عزو القراءة (ص ٦٤٥) .

"وقرأ نافع "فبم تبشرون" بكسر النون ، ولو أريد بها الوجه الذي ذهب إليه ، لكانت "فبم تبشرونني" ، بنونين ؛ لأنها في موضع رفع"^(١).

وقد لحن هذه القراءة أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)^(٢)، وأبو حاتم (ت ٢٥٥هـ)^(٣)، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ)^(٤)، وغيرهم ، وذكروا سبب تلحينها أن نون الرفع إذا اجتمعت مع نون الوقاية فلا يجوز حذف أحدهما ، وأن هذا الحذف جائز في الشعر خاصة .
يقول مكي بن أبي طالب :

"وهذه القراءة قد طعن فيها جماعة لبعد مخرجها في العربية ؛ لأن حذف النون مع الياء لا يحسن إلا في الشعر"^(٥).

وقد ردّ جمع من العلماء تلحين هذه القراءة ، وخرّجوها على أن الأصل فيها "تبشرونني" ، بنونين ، إحداهما : نون الرفع ، والأخرى : نون الوقاية ، ثم حذفت إحدى النونين تخفيفاً ، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه ، فصارت "تبشرون" ، وقال بهذا التخريج الأخفش (ت ٢١٥هـ)^(٦)، والزجاج (٣١١هـ)^(٧)، وأبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)^(٨)، وأبو حيان (ت ٧٤٥هـ)^(٩)، والسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)^(١٠)، وغيرهم^(١١).

قال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) - بعد أن ذكر قراءة نافع "تبشرون" - : "وغلّطه أبو حاتم - السجستاني (ت ٢٥٥هـ) - وقال : هذا يكون في الشعر اضطراراً ، وخرّجت على أنه حذف نون الوقاية وكسر نون الرفع للياء ، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليها"^(١٢).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٦٣) .

(٢) إعراب القرآن للنحاس (٣٨٣/٢) .

(٣) البحر المحيط (٤٥٥/٥) .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع (٣٠/٢) .

(٥) المصدر السابق (٣١/٢) .

(٦) معاني القرآن للأخفش (٢٥٤/١) .

(٧) معاني القرآن للزجاج (١٨١/٣) .

(٨) الحجة للقراء السبعة (٤٥/٥) .

(٩) البحر المحيط (٤٥٥/٥) .

(١٠) الدر المصون (١٦٦/٧) .

(١١) انظر : توجيه مشكل القراءات العشرية (ص ٣٠٢)، القراءات التي اتهمها النحاة باللحن (ص ١٣٦) .

(١٢) البحر المحيط (٤٥٥/٥) .

فهذه هي القراءات المتواترة التي نقدها الإمام ابن قتيبة ، وهي كما ترى قليلة جداً تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة ، ثم إنك ترى أنه مسبوق في كل ما ذكر من نقد .

الفصل الثاني

آراء ابن قتيبة في القراءات

وفيه سبعة مباحث :

- المبحث الأول: معنى الأحرف السبعة .
- المبحث الثاني: الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف
- المبحث الثالث : لغة القرآن الكريم .
- المبحث الرابع: أنواع اختلاف القراءات .
- المبحث الخامس : حكم القراءة بالشاذ .
- المبحث السادس : الجواب عن الشبه المتعلقة بالقراءات .
- المبحث السابع : الجواب عما ادّعي على القرآن من اللحن

المبحث الأول معنى الأحرف السبعة

حديث "نزل القرآن على سبعة أحرف" حديث عظيم ، اتفق الحفاظ على تواتره، وتظاهرت كتب السنة المطهرة على إيراده ، وقد رُوِيَ هذا الحديث من طرق مختلفة ، وجاء به النقل الصحيح عن جمع كبير من الصحابة ، ومن ذلك :

- عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أقرني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"^(١).

- عن أبي بن كعب (ت ٣٠هـ) رضي الله عنه ؛ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أباي أُرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه : أن هوّن على أمّتي، فردّ إليّ الثانية : اقرأه على حرفين ، فرددت إليه : أن هوّن على أمّتي ، فردّ إليّ الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت : اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم عليه السلام"^(٢).

- وعنه - أيضاً - "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بني غفار"^(٣)، فأثاه جبريل عليه السلام ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمّتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله مغفرته ومعافاته وإن أمّتي لا تطيق ذلك ، ثم

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ح(٤٩٩١) (ص٤٣٣)، ومسلم في فضائل القرآن ، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناها ح(١٩٠٢) (ص٨٠٦) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل القرآن ، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناها ح (١٩٠٤) (ص٨٠٦).

(٣) الأضاة : هي الماء المستنقع كالغدير ، وهي موضع بالمدينة ينسب إلى بني غفار؛ لأنهم نزلوا عنده . [النهاية لابن الأثير (٥٣/١)، فتح الباري (٣٦/٩)] .

جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا" (١).

. وعن أبي بكر (ت ٥١ هـ) رضي الله عنه ، قال : "جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل : استزده حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكل كاف شاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ، نحو : هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل" (٢).

وقد تناول كبار الأئمة موضوع "نزل القرآن على سبعة أحرف" بالدرس والبحث، وكان من أوائل هؤلاء الأئمة الذين أسهبوا في الحديث عن الأحرف السبعة إمامنا ابن قتيبة في مصنفه "تأويل مشكل القرآن" (٣)، وتبعه إمام المفسرين ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، في مقدمة تفسيره (٤)، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ)، في مصنفه "الإبانة عن معاني القراءات القرآنية" (٥)، وأبو شامة المقدسي (ت ٦٦٦ هـ)، في كتابه "المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز" (٦)، وغيرهم الكثير ، كما أفردت المصنفات في هذا الموضوع قديماً وحديثاً (٧)، والمطلع على ما سطر في هذا الموضوع يجد اختلافاً كبيراً في المراد بالأحرف السبعة ، حيث تشعبت الأقوال فيه ، وتعددت ، حتى قال ابن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ) :

(١) أخرجه مسلم في فضائل القرآن ، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناها ح (١٩٠٦) (ص ٨٠٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/١٤ ، ٥١)، وابن أبي شيبه في مصنفه (٦/١٣٨)، والطبري في تفسيره (١/٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٥١): "رواه أحمد والطبراني بنحوه، وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو سيء الحفظ، وقد توبع، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح".

(٣) (ص ٣٣-٤٩).

(٤) (ص ٢٠-٧٠).

(٥) (ص ٣١-١١٤).

(٦) (ص ٢١٧-٣٣٦).

(٧) منها: الأحرف القرآنية السبعة ، د. عبدالرحمن المطرودي، نزول القرآن على سبعة أحرف ، للشيخ مناع القطان، حديث الأحرف السبعة ، د. عبدالعزيز القارئ، الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها ، د. حسن ضياء الدين عتر.

"اختلف الناس فيها على خمسة وثلاثين قولاً"^(١) ، وقال السيوطي (ت ٩١١هـ): "على نحو أربعين قولاً"^(٢).

ولهذا الاختلاف الكثير ذهب بعض أهل العلم إلى أنه من المتشابه الذي لا يعلم معناه، كما قال محمد بن سعدان الكوفي^(٣) (ت ٢٣١هـ)^(٤)، والسيوطي الذي قال عند شرحه الحديث: "والمختار عندي أنه من المتشابه الذي لا يُدرى تأويله"^(٥).

وطريف ما ذكر د.عبدالعزیز القارئ - في الدلالة على أن الموضوع شائك غامض يستعصي فهمه على الكثير ، حتى العلماء منهم - بقوله :

"فقد اشتغلت بهذا البحث الجليل الشأن حقبة طويلة ، أكثر من عشر سنين دأباً ، أجمعُ فيها طرق هذا الحديث ، ورواياته ، وأتتبع كلام العلماء فيه ، حريصاً على التأني، مثابراً على المقارنة والتأمل ، صابراً على مشقته ووعورة مسالكه ، حتى ضاق صدري به يوماً ، فلجأتُ بعد الله تعالى إلى أحد مشايخنا ، وهو صاحب "أضواء البيان" ، الشيخ: محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) ، فسألته عما ترجح لديه في معنى الحديث ، فإذا به يقول : "الذي ترجح لديّ أيّ لا أعرف معناه"^(٦).

ولأن الأقوال في هذه المسألة كثيرة ، وغالبها متداخلة فيما بينها ، وبعضها لا يصلح للاعتبار والنظر ، كما قال أبو الفضل المرسي (ت ٦٥٥هـ)^(٧):

(١) نقلاً عن الزركشي في البرهان في علوم القرآن (٢٢/١) .

(٢) الإتيان في علوم القرآن (٣٠٩/١) .

(٣) أبو جعفر محمد بن سعدان الضير الكوفي النحوي ، كان ثقة ، وكان أحد القراء ، روى عن عبدالله بن إدريس ، وأبي معاوية الضير ، وعنه : محمد بن سعد - صاحب الطبقات - وعبدالله بن أحمد بن حنبل، له كتب في النحو والقراءات ، منها : "الجامع" ، و"المجرد" ، توفي سنة ٢٣١هـ . [تاريخ بغداد (٢٧١/٣) ، غاية النهاية (١٢٧/٢)] .

(٤) نقلاً عن أبي شامة في المرشد الوجيز (ص ٢٤٧) .

(٥) شرح سنن النسائي للسيوطي (١٥٣/٢) .

(٦) حديث الأحرف السبعة ، د.عبدالعزیز بن عبدالفتاح القارئ (ص ٥) .

(٧) أبو الفضل محمد بن عبدالله بن محمد المرسي ، المحدث ، المفسر ، الأديب النحوي ، ولد بمصرية ، وتنقل في الأندلس ، وحج ودخل العراق وخراسان والشام ومصر ، وسمع جماعة كثيرة ، له مصنفات كثيرة ، منها: = "التفسير الكبير" ، "ري الظمان" ، "الكافي" في النحو ، كانت وفاته سنة ٦٥٥هـ . [الوافي بالوفيات (٢٨٢/٣) ، بغية الوعاة (١٤٤/١)] .

"هذه الوجوه أكثرها متداخلة ، ولا أدري مستندها ، ولا عمن نقلت ، ولا أدري لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف بما ذكر ؛ مع أن كلها موجود في القرآن ، فلا أدري معنى التخصيص ، وفيها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة ، وأكثرها يعارضه حديث عمر (ت ٢٣هـ) مع هشام بن حكيم (ت ١٣هـ) رضي الله عنهما في الصحيح"^(١).

فعليه لن أتوسع في ذكر الأقوال ، وإيراد أدلة كل فريق ، وما أُورد عليه من مناقشة؛ إذ لا يخلو قول من هذه الأقوال من مناقشة ونظر ، وعليه سأكتفي ببيان ابن قتيبة للمسألة، وبما أورده من أقوال وأدلة في ذلك ، وتفصيله كالتالي :

عرض الإمام ابن قتيبة لموضوع "الأحرف السبعة" في مصنفه "تأويل مشكل القرآن" الذي وضعه في الرد على الزنادقة والملاحدة الذين طعنوا في القرآن الكريم ، ورموه بالتناقض، والاختلاف واللحن ، وكان مما جذبوا به القرآن اختلاف القراءات فيه ، وكان ذلك أول الطعون التي صدر بها ابن قتيبة "باب الحكاية عن الطاعنين" ؛ فقال :

"وكان مما بلغنا عنهم أنهم يحتجون بقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ أَحْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٢) ، وقالوا : وجدنا الصحابة ومن بعدهم يختلفون في الحرف، والقراء يختلفون : فهذا يرفع ما ينصبه ذلك ، وهذا يخفض ما يرفعه هذا ، وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين ، فأبي شيء بعد هذا الاختلاف تريدون ؟ وأي باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون"^(٣).

ثم أفرد في الرد عليهم باباً وسمه بـ "باب الرد عليهم في وجوه القراءات" ، مبيناً أن الاختلاف في وجوه القراءات عائد للأحرف السبعة ، التي نزل بها القرآن ، وقد أُطلق لهم القراءة بأي هذه الأحرف ، وفي ذلك يقول ابن قتيبة :

(١) نقلاً عن السيوطي في الإتقان (١/٣٣٣) .

(٢) سورة النساء : ٨٢ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤-٢٥) .

"أما ما اعتلوا به في وجوه القراءات من الاختلاف ، فإننا نحتج عليهم فيه بقول النبي صلى الله عليه وسلم : "نزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شافٍ كافٍ فاقروا كيف شئتم"^(١).

وكل هذه الحروف كلام الله تعالى ، نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام ، وذلك أنه كان يُعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن ، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء ، وينسخ ما يشاء ، ويُيسّر على عباده ما يشاء ، فكان من تيسيره : أن أمره أن يقرئ كل قوم بلغتهم ، وما جرت عليه عادتهم"^(٢).

ثم بدأ الإمام ابن قتيبة بعرض الأقوال في معنى الأحرف السبعة ، فبدأ بالأقوال المغلوطة في رأيه ؛ فقال :

"وقد غلط في تأويل هذا الحديث قوم ، فقالوا : السبعة الأحرف : وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

وقال آخرون : هي سبعة لغات في الكلمة .

وقال قوم : حلال ، وحرام ، وأمر ، ونهي ، وخبر ما كان قبل ، وخبر ما هو كائن بعد ، وأمثال .

وليس شيء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل"^(٣).

ثم أفصح عن رأيه واختياره في معنى الأحرف السبعة ؛ فقال :

"وإنما تأويل قوله صلى الله عليه وسلم : "نزل القرآن على سبعة أحرف" ، أي : على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن ، يدل ذلك على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاقروا كيف شئتم" .

وقال عمر (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه : "سمعت هشام بن حكيم بن حزام (ت ١٣هـ) رضي الله عنه يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال له : "اقرأ" ، فقرأ تلك القراءة ،

(١) سبق تحريجه (ص ٦٨٨) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٣-٣٩) .

(٣) المصدر السابق (ص ٣٣) .

فقال : "هكذا أنزلت" ، ثم قال لي : "اقرأ" فقرأت ، فقال : "هكذا أنزلت" ، ثم قال : "إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، فاقراءوا منه ما تيسر" (١) " (٢) .

وهذا الرأي من ابن قتيبة سبقه إليه أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ، فقد قال في "غريب الحديث" :

"قوله : "سبعة أحرف" ، يعني سبع لغات من لغات العرب ، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، هذا لم نسمع به قط ، ولكن نقول : هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن ، فبعضه نزل بلغة قريش ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة أهل اليمن ، وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كله واحدة" (٣) .

وإلى هذا القول ذهب أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) (٤) ، وثعلب (ت ٢٩١هـ) (٥) ، والأزهري (ت ٣٧٠هـ) (٦) ، وصححه البيهقي (ت ٤٥٨هـ) (٧) ، ورجّحه ابن عطية (ت ٥٤٦هـ) في تفسيره (٨) ، واعتمده أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) في أرجوزته المنبهة ، فقال :

والأحرف التي بها الكتاب منزل وكلها صواب

على الذي أتى عن الأثبات فسبعة من أفصح اللغات (٩)

وبعد أن فرغ الإمام ابن قتيبة من بيان معنى الأحرف السبعة ، عرض لوجوه الاختلاف في القراءات — لأن الاختلاف في القراءات ناتج من رخصة الأحرف السبعة — فعدها سبعة أوجه ، وهي :

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ح (٤٩٩٢) (ص ٤٣٣) ، ومسلم في فضائل القرآن ، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وبيان معناها ح (١٨٩٩) (ص ٨٠٥) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٤) .

(٣) غريب الحديث (١٥٩/٣) .

(٤) المرشد الوجيز (ص ٢٤٨) .

(٥) فنون الأفيان لابن الجوزي (ص ٢١٤) .

(٦) المرشد الوجيز (٣٢٠/١) .

(٧) شعب الإيمان (٥٣٥/٣) .

(٨) المحرر الوجيز (٤٥/١) .

(٩) الأرجوزة المنبهة (ص ٩٠) .

الوجه الأول : الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ، ولا يُغيّر معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ هَتُوْلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾^(١) ، بالضم بالضم والفتح^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ ﴾^(٣) ، وقراءة : "هل يُجْزَى إِلَّا إِلَّا الْكُفُورَ"^(٤) .

الوجه الثاني : الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها دون صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا ﴾^(٥) ، قرئ : "بَاعَدَ"^(٦) ، و ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾^(٧) ، و "إِذْ تَلَقُّوْنَهُ"^(٨) .

الوجه الثالث : الاختلاف في حروف الكلمة بما يغير معناها ولا يزيل صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ﴾^(٩) ، و قرئ "نُنْشِرُهَا"^(١٠) ، و ﴿ إِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾^(١١) ، وقراءة "فُرِّغَ"^(١٢) .

(١) سورة هود : ٧٨ .

(٢) قراءة الضم "أطهر" هي قراءة الأئمة العشرة ، وقرأ سعيد بن جبير والحسن وعيسى بن عمر بالفتح "أطهر" على النصب . [المختضب (١/٣٢٥)] .

(٣) سورة سبأ : ١٧ .

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وحفص : "نجازي" بالنون مع كسر الزاي ، وبنصب "الكفور" ، وقرأ الباقون : "يُجْزَى" بالياء وفتح الزاي ، ورفع "الكفور" . [المبسوط (ص٣٦٢) ، النشر (٢/٢٦٢)] .

(٥) سورة سبأ : ١٩ .

(٦) قرأ يعقوب "رئنا" برفع الباء ، "بَاعَدَ" بالألف ، وفتح العين والبدال ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو وهشام "رئنا بَعَدَ" بنصب في الباء في "رئنا" ، وحذف الألف وتشديد العين وإسكان الدال ، وقرأ الباقون : "رئنا بَاعَدَ" بالألف وتخفيف العين . [المبسوط (ص٣٦٢) ، النشر (٢/٢٦٢)] .

(٧) سورة النور : ١٥ .

(٨) قرأت بها عائشة رضي الله عنها . [مختصر ابن خالويه (ص١٠٢)] .

(٩) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(١٠) سبق عزو القراءة (ص٦٤٣) .

(١١) سورة سبأ : ٢٣ .

(١٢) قرأ بها عبدالله بن عمر والحسن وأيوب السخيتاني وقتادة . [المختضب (٢/١٩٢) ، البحر المحيط (٧/٢٥٥)] .

الوجه الرابع : الاختلاف في الكلمة بما يُغيّر صورتها ولا يُغيّر معناها ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ ^(١)، قرئ : "كالصوف المنفوش" ^(٢)،

و﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ ^(٣)، قرئ : "إلا زقية واحدة" ^(٤).

الوجه الخامس : الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ومعناها ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَطَلِحَ مَنُضُودٍ ﴾ ^(٥)، قرئ : "وطلع منضود" ^(٦).

الوجه السادس : الاختلاف في التقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ

أَلْمَوْتُ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٧)، قرئ : "وجاءت سكرة الحق بالموت" ^(٨).

الوجه السابع : الاختلاف في الزيادة والنقصان ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ

الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ^(٩)، قرئ : "فإن الله الغني الحميد" ^(١٠)، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمَلَتْهُ

أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(١١)، قرئ : "وما عملت أيديهم" ^(١٢).

ومن الخطأ الشائع عند كثير من الباحثين في "الأحرف السبعة" عدُّ هذه الأوجه

(١) سورة القارعة : ٥ .

(٢) قرأ بها ابن مسعود رضي الله عنه . [مختصر ابن خالويه (ص ١٧٩)] .

(٣) سورة يس : ٢٩ .

(٤) قرأ بها ابن مسعود رضي الله عنه . [مختصر ابن خالويه (ص ١٢٥)] .

(٥) سورة الواقعة : ٢٩ .

(٦) سبق عزو القراءة (ص ٦٦٣) .

(٧) سورة ق : ١٩ .

(٨) قرأ بها أبو بكر رضي الله عنه ، وسعيد بن جبير وطلحة . [المختص (٢٨٣/٢)] .

(٩) سورة الحديد : ٢٤ .

(١٠) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر : "فإن الله الغني الحميد" بحذف "هو" ، وقرأ الباقر : بإثباتها . [المبسوط

(ص ٤٣٠)، النشر (٢٨٧/٢)] .

(١١) سورة يس : ٣٥ .

(١٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر : "وما عملت" بغير هاء الضمير ، وقرأ الباقر : "وما عملته" بالهاء .

[المبسوط (ص ٧٣)، النشر (٢٦٥/٢)] .

السبعة التي ذكرها ابن قتيبة اختياراً له في معنى الأحرف السبعة^(١) ، وليس الأمر كذلك ، فإن ابن قتيبة عنون لها ، فقال: "وجوه الخلاف في القراءات" ، ولم يقل الأحرف ، وهناك فرق بين القراءات والأحرف، ومن الخطأ تفسير الأحرف بالقراءات .

واختيار ابن قتيبة في معنى الأحرف السبعة ، أفصح عنه - كما سبق - بقوله:
 "وإنما تأويله : نزل على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن ، يدل ذلك على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاقرءوا كيف شئتم" ^(٢).

وأكدّ هذا الاختيار حين تحدث عن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف، فبيّن أن ذلك تيسير من الله عزّ وجل ، حيث أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقرئ كل قوم بلغتهم ، ولو أن كل فريق أمر أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده منذ أن كان طفلاً لاشتد ذلك عليه ، فأراد الله عزّ وجل أن يجعل لهم متسعاً من اللغات بإنزال القرآن على سبعة أحرف^(٣).

وفي هذا البيان من ابن قتيبة ما يؤكد حقيقة اختياره في معنى الأحرف السبعة ، وهو أنها سبعة أوجه من اللغات .

أما الأوجه السبعة التي ذكرها ابن قتيبة فإنه أراد بها بيان أوجه اختلاف القراءات، ثم أوضح بعد ذلك أنواع اختلاف القراءات ، يريد بذلك الرد على الزنادقة والملاحدة الذين طعنوا في القرآن الكريم من جهة اختلاف القراءات فيه .

(١) انظر : الأحرف القرآنية السبعة ، د.عبدالرحمن المطرودي (ص٥٦)، نزول القرآن على سبعة أحرف ، د.مناع

القطان (ص٥٩)، حديث الأحرف السبعة ، د.عبدالعزیز القارئ (ص٤٥) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص٣٤) .

(٣) المصدر السابق (ص٣٩-٤٠) .

المبحث الثاني

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف

بعد أن فرغ الإمام ابن قتيبة من بيان معنى الأحرف السبعة ، تحدث عن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف ، فبيّن أن ذلك توسعة من الله على عباده ، ورحمة لهم ، وتخفيفاً عنهم ، وفي ذلك يقول :

"كان من تيسيره أن أمره بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم :

فاللهذي يقرأ : "عَتَى حِينَ" ^(١) ، يريد ﴿حَتَّى حِينَ﴾ ^(٢) ؛ لأنه هكذا يلفظ بها

ويستعملها.

والأسديّ يقرأ : تَعْلَمُونَ وَتَعْلَم ، و"تَسْوَدُّ وُجُوهُ" ^(٣) ، و"أَلَمْ إِعْهَدْ إِلَيْكُمْ" ^(٤) .

والتميميّ يهمز ، والقرشيّ لا يهمز .

ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طِفْلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولا يمكنه إلا بعد رياضةٍ للنفس طويلة، وتذليل للسان ، وقطعٍ للعادة ، فأراد الله ، برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ، ومتصرفاً في الحركات ، كتيسيره عليهم في الدين حين أجاز لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا باختلاف العلماء من صحابته في فرائضهم وأحكامهم، وصلاتهم وصيامهم ، وزكاتهم وحجّهم ، وطلاقهم وعتقهم وسائر أمور دينهم" ^(٥) .

وقد اقتصر ابن قتيبة على هذه الحكمة ، وهي أظهر الحكم وأشهرها ، وأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف صريحة في الدلالة على هذا ، كما جاء في حديث أبي بن كعب

(١) قراءة ابن مسعود في [مختصر ابن خالويه (ص ٦٨)، المحتسب (١/٣٤٣)].

(٢) سورة يوسف : ٣٥ .

(٣) في سورة آل عمران : ١٠٦ ، قرأ يحيى بن وثاب ، وأبو رزين العقيلي ، وأبو نهيك : "تَبِ يَضُّ ، تَسْوَدُّ" بكسر التاء فيهما ، وهي لغة تميم وأسد . [البحر المحيط (٣/١٦)].

(٤) في سورة يس : ٦٠ ، قرأ يحيى بن وثاب : "أَلَمْ إِعْهَدْ" بكسر الهمزة . [مختصر ابن خالويه (ص ١٢٦)].

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٩-٤٠) .

(ت ٣٠هـ) رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقي جبريل عليه السلام ، فقال : "يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين ، منهم الشيخ الفاني والعجوز الكبيرة والغلام" ، قال: "فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف"^(١)، وفي حديث آخر يقول النبي صلى الله عليه وسلم : "أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك"^(٢)، وفي آخر : "أن هوّن على أمتي"^(٣).

ولنزول القرآن على سبعة أحرف حكم أخرى ، ذكرها أهل العلم ، من أهمها :

١ . بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم الأخرى ، إذ تعد هذه السبعة الأحرف من خصائص هذه الأمة ، ومن المناقب التي تفضل الله بها عليها ، إذ كانت الكتب السماوية السابقة تنزل على حرف واحد .

يقول الطبري (ت ٣١٠هـ) :

"أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عما خصّه الله تعالى به ، وأمته من الفضيلة والكرامة التي لم يؤتها أحداً في تنزيله ، وذلك أن كلّ كتاب تقدّم كتابنا نزوله على نبي من أنبياء الله صلى الله عليه عليهم ، فإنما نزل بلسان واحدٍ ، متى حُوّل إلى غير اللسان الذي نزل به كان ذلك له ترجمة ، وتفسيراً ، لا تلاوة له على ما أنزله الله ، وأنزل كتابنا بألسنٍ سبعة ، بأي تلك الألسن السبعة تلاه التالي كان له تالياً على ما أنزله الله ، لا مُترجماً ولا مُفسّراً ، حتى يحوّل عن تلك الألسن السبعة إلى غيرها ، فيصير فاعلاً ذلك حينئذٍ - إذا أصاب معناه - له مترجماً ، كما كان التالي بعضَ الكتب التي أنزلها الله بلسان واحدٍ ، إذا تلاه بغير اللسان الذي نزل به ، له مترجماً ، لا تالياً على ما أنزله الله به"^(٤).

٢ . أن ذلك من أكبر الدلائل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغه القرآن ، إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه ، لم يتطرق إليه تضاد ولا تعارض ، بل كله

(١) أخرجه الترمذي في القراءات ، باب ما جاء أن القرآن نزل على سبعة أحرف ح(٢٩٤٤) (ص١٩٤٧)، وقال : "هذا حديث حسن صحيح" ، والإمام أحمد في مسنده (١٣٢/٥)، والطبري في تفسيره (٣١/١)، وصححه الألباني [صحيح سنن الترمذي (١٧٦/٣)] .

(٢) سبق تخريجه (ص٦٨٧) .

(٣) سبق تخريجه (ص٦٨٧) .

(٤) تفسير الطبري (١/٦٤-٦٥) .

يصدق بعضه بعضاً ، وما ذاك إلا آية بالغة وبرهان قاطع على صدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ . أن في تعدد الأحرف كمال الإعجاز مع غاية الإيجاز ، إذ إن كل حرف بالنسبة إلى الآخر بمنزلة آية مستقلة ، ولا يخفى أن تنوع المعاني تابع لتنوع الألفاظ ، ولو كان كل حرف آية مستقلة لكان في ذلك إطالة وإطناب ، يتعارضان مع جمال الإيجاز وكمال الإعجاز .

٤ . أن في تعدد الأحرف تيسيراً لحفظ القرآن ونقله على هذه الأمة ، فإن من يحفظ آية واحدة في كلماتها أوجهاً متعددة يجد من اليسر والسهولة ما لا يجده لو كان كل وجه في آية مستقلة .

٥ . أن في تعدد الأحرف علامة بارزة على فضل هذه الأمة وتقدمها على سائر الأمم، يتجلى ذلك من خلال عنايتهم الفائقة بهذا الكتاب ، والتنقيب عنه لفضة لفضة، وحركة حركة، ونقلهم ذلك مسنداً عن الثقات إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحموا كتاب ربهم من أي خلل أو تحريف ، أو تغيير أو تبديل .

٦ . إعظام أجور هذه الأمة ، من حيث إنهم يفرغون جهدهم في تتبع معاني ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ ، واستخراج كمين أسراره ، وإمعانهم النظر فيه ، والكشف عن التوجيه والتعليل والتفصيل ، بقدر ما يبلغ غاية علمهم ، ويصل إليه نهاية فهمهم ، والأجر على قدر المشقة^(١) .

(١) انظر - هذه الفوائد - في : الأحرف السبعة للقرآن للداني (ص ٣١)، النشر في القراءات العشر (١/٤٧)، حديث الأحرف السبعة ، د.عبدالعزیز القارئ (ص ٨١)، الأحرف القرآنية السبعة ، د.المطرودي (ص ٩٧)، نزول القرآن على سبعة أحرف للشيخ مناع القطان (ص ١٠١) .

المبحث الثالث

لغة القرآن الكريم

مسألة تحديد اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم من المسائل المتعلقة بموضوع "نزول القرآن على سبعة أحرف" ، ولذلك يعرض لها أهل العلم عند حديثهم عن الأحرف السبعة، وقد اختلف أهل العلم في هذه المسألة ، فمنهم من قال : نزل القرآن بلسان قريش خاصة ، وهو مروى عن جمع من الصحابة والتابعين ، كعمر (ت ٢٣هـ)^(١) ، وعثمان (ت ٣٥هـ)^(٢) ، رضي الله عنهما ، ومجاهد (ت ١٠٤هـ)^(٣) ، وقال به أبو علي الأهوازي^(٤) (ت ٤٤٦هـ)^(٥) ، ورجحه الألويسي (ت ١٢٧٠هـ)^(٦) ، والزرقاني (ت ١٣٦٧هـ)^(٧) .

وقد اتفق العلماء على أن قريش أفصح ألسنة العرب ، وأصفاها لغة ، وذلك لأسباب عديدة :

- منها : الديني المتمثل في كون قريش تقطن مكة ، وكانت العرب تفد إليها في كل عام في موسم الحج ، فتختلط بهم قريش ، وتسمع منهم ، وتقتبس من كلامهم ما تستحسنه ، وتتجنب رديء كلامهم وسقيمه .

- ومنها : الاقتصادي المتمثل بأسواق مكة وشهرتها الاقتصادية ، وقيامها بين الشام واليمن .

(١) التمهيد لابن عبد البر (٢٨٠/٨) .

(٢) المرشد الوجيز (ص ٢٤٣) .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٤٦٩/١٠) .

(٤) أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزيد الأهوازي ، شيخ القراء في عصره ، قال الداني : "أخذ القراءات عرضاً وسماعاً من أصحاب ابن شنبوذ ، وابن مجاهد ، وكان واسع الرواية ، حافظاً ضابطاً ، أقرأ دهرأ بدمشق" ، وقال الذهبي : "كان رأساً في القراءات ، معمرأ ، بعيد الصيت ، صاحب حديث ورحلة وإكثار ، وليس بالمتقن له ولا المحوّد ، بل هو حاطب ليل ، ومع إمامته في القراءات فقد تُكلم فيه" ، توفي سنة ٤٤٦هـ [غاية النهاية (٢٠٠/١) ، سير أعلام النبلاء (١٣/١٨)] .

(٥) المرشد الوجيز (ص ٢٤٧) .

(٦) روح المعاني (١٧٧/٧) .

(٧) مناهل العرفان (١٤٧/١) .

. ومنها : الجغرافي : المتمثل في بعدها عن مجاورة الأمم الأعجمية ، فسلمت بذلك من التأثر بالعجمة ^(١) .

ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات وأبعدها عن اللهجات المعيبة .

يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرؤاه لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومخالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنةً وأصفاهم لغةً. وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم. فجعل قريشاً قطان حرمه، وجيران بيته الحرام، وولائته. فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم. وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم.

ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها أهل الله لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام، لم تشبهم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبتهم ناقلة، فضيلة من الله - جل ثناؤه - لهم وتشريفاً. إذ جعلهم رهط نبيه الأذنين، وعترته الصالحين.

وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها ورفقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم ^(٢) وسلائقهم التي طبعوا عليها. فصاروا بذلك أفصح العرب.

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ^(٣)، ولا عجرية قيس ^(٤)، ولا كشكشة أسد ^(٥)، ولا كسكسة ربيعة ^(٦)، ولا الكسر الذي سمعه من أسد وقيس مثل: "تعلمون" و"نعلم" ومثل "شعير" و"بعير" ^(٧) .

(١) انظر : حديث الأحرف السبعة (ص ٩٢)، فقه اللغة، محمد الحمد (ص ١٢١) .

(٢) النحائز : جمع نحيزة ، ونحيزة الرجل : طبيعته . [كتاب العين ، مادة "نحز" (١٦٣/٣)] .

(٣) عننة تميم : هي قلبهم الهمزة في بعض كلامهم عيناً ، يقولون : سمعت عن فلاناً قال كذا" يريدون "أن" . [الصاحبي (ص ٢٩)] .

(٤) عجرية قيس : هي تقعرهم وطلبهم الغريب الوحشي من الكلام . [اللسان (٢٣٤/٩)] .

(٥) كشكشة أسد : هي إبدالهم الكاف شيئاً ، فيقولون : "عليش" بمعنى "عليك" [الصاحبي (ص ٢٩)] .

(٦) كسكسة ربيعة : هي أن يصلوا بالكاف شيئاً ، فيقولون : عليكس . [الصاحبي (ص ٢٩)] .

(٧) الصاحبي (ص ٢٨-٢٩) .

وقد احتج القائلون بأن القرآن نزل بلسان قريش خاصة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾^(١) ، وقوم النبي صلى الله عليه وسلم قريش .

يقول الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) : "وكون المتبادر من قومه عليه الصلاة والسلام قريشاً ، مما لا أظن أن أحداً يمتري فيه"^(٢) .

كما احتجوا ببعض الآثار التي تدل على أن القرآن نزل بلسان قريش ، ومنها ما نقله ابن قتيبة عن عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه ، أن رجلاً قرأ عليه حرفاً فأنكره ، فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال : أبو موسى الأشعري (ت ٤٢هـ) رضي الله عنه ، فقال : "إن أبا موسى لم يكن من أهل البهش"^(٣) ، ثم قال في شرحه :

"البهش : المقل ما كان رطباً ، وإنما أراد أن أبا موسى ليس من أهل الحجاز ، والمقل ينبت بالحجاز ، يريد : أن القرآن نزل بلغة قريش ، ونحو منه قوله لعبدالله بن مسعود (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه ، حين بلغه أنه يقرئ الناس "عئى حين"^(٤) ، يريد "حتى حين"^(٥) : "إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش"^(٦) .

ويحتجون أيضاً بقول عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه ، للرهط القرشيين الثلاثة ، الذين كلفهم بنسخ القرآن في المصاحف مع زيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) رضي الله عنه : "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من عريية القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإن القرآن نزل بلسانهم"^(٧) .

(١) سورة إبراهيم : ٤ .

(٢) روح المعاني (١٧٧/٧) .

(٣) رواه ابن قتيبة في غريب الحديث (٦٢٠/١) .

(٤) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٦) .

(٥) سورة يوسف : ٣٥ .

(٦) غريب الحديث (٦٢٠/١) .

(٧) أخرجه البخاري في المناقب ، باب نزول القرآن بلسان قريش ح (٣٥٠٦) (ص ٢٨٦) .

وقد نُسب هذا القول - نزول القرآن بلغة قريش خاصة - للإمام ابن قتيبة ، فقد نقل أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) في "المرشد الوجيز" عن أحمد ابن الإمام ابن قتيبة (ت ٣٢٢هـ) قوله:

"سمعت أبي يقول : وهذا القول - القول بأن القرآن نزل على سبع لغات من لغات العرب - عظيم من قائله ، لأنه غير جائز أن يكون في القرآن لغة تخالف لغة قريش ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾^(١) ، إلا أن يكون القائل لهذا أراد ما وافق من هذه اللغات لغة قريش"^(٢).

قلت : ومن نظر في تراث الإمام ابن قتيبة لا بد وأن يشك في صحة هذه الرواية، وذلك لثلاثة أمور :

أحدها : أن هذا الكلام نُقل عن ابن قتيبة رداً على قول أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) : "معنى سبعة أحرف : سبع لغات من لغات العرب" ، ورأي أبي حاتم هذا ، هو الرأي ذاته الذي يختاره ابن قتيبة - كما سبق - ، فكيف يرد عليه ، بل ويصفه ، فيقول: "وهذا القول عظيم من قائله" .

الثاني : أنه صرح بموقفه بوجود أكثر من لغة في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله :

"والقرآن يأتي باللغتين المختلفتين ؛ كقوله في موضع : ﴿ تَمَلَّى عَلَيْهِ ﴾^(٣) ، وفي موضع آخر: ﴿ فَلْيَمَلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ ﴾^(٤)"^(٥).

الثالث : وجود جملة من لغات القبائل التي أشار إليها ابن قتيبة في تفسيره يُرجح أنه يقول بورود غير لغة قريش في القرآن ، ومن الأمثلة لما أشار إليه من اللغات :

. في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾^(٦)؛ قال : "الصور : القرن بلغة قوم من

(١) سورة إبراهيم : ٤ .

(٢) المرشد الوجيز (ص ٢٤٩) .

(٣) سورة الفرقان : ٥ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٤١٦) .

(٦) سورة النمل : ٨٧ .

من أهل اليمن" (١).

. وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَأْتِئِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (٢)؛ قال : "أي : أفلم يعلم ، ويقال : هي لغة للنخع" (٣).

. وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (٤)؛ قال : "البور في لغة أزد عمان: الفاسد" (٥).

. وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ (٦)؛ قال : "العرم المسناة" (٧) بلغة اليمن" (٨).

. وفي قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (٩)؛ قال : "تفكّهون: تَنَدَّمون، مثل - قراءة - "تَفَكَّهون" (١٠)، وهي لغة لعُكَل" (١١).

ولهذا فإن ابن قتيبة يقول بنزول بعض القرآن بغير لغة قريش ، وهو القول الذي عليه جمهور أهل العلم ، منهم : أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) (١٢)، وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) (١٣)، والخطابي (ت ٣٨٨هـ) (١٤)، والباقلاني (ت ٤٠٣هـ) (١٥)،

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٢٦) .

(٢) سورة الرعد : ٣١ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٢٢٧) .

(٤) سورة الفتح : ١٢ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٤١٢) .

(٦) سورة سبأ : ١٦ .

(٧) المسناة : ضغيرة تبنى للسيل لترد الماء . [لسان العرب ، مادة "ضفر" (٤/٤٨٩)] .

(٨) غريب الحديث (٦١/٢)، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ٣٥٥) .

(٩) سورة الواقعة : ٦٥ .

(١٠) قرأ بها أبو حرام العكلي . [مختصر ابن خالويه (ص ١٥٢)] .

(١١) تفسير غريب القرآن (ص ٤٥٠) .

(١٢) غريب الحديث لأبي عبيد (٣/١٥٩) .

(١٣) المرشد الوجيز (ص ٢٤٨) .

(١٤) المصدر السابق (ص ٢٤٨) .

(١٥) فتح الباري (٩/٩) .

وابن عبدالبر (ت ٤٦٢هـ) ^(١)، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ^(٢)، وأبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) ^(٣).

ويدل لهذا القول الآثار المستفيضة عن الصحابة والتابعين في نسبة بعض الكلمات في القرآن إلى لغات غير لغة قريش ، وكذلك لو كان القرآن نزل بلسان قريش خاصة لما خفي معنى بعض الكلمات على كبار الصحابة من قريش ، كأبي بكر (ت ١٣هـ)، وعمر (ت ٢٣هـ) رضي الله عنهما ، ولو كان كذلك لما رجع ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما - وهو ترجمان القرآن - إلى بعض الأعراب يسألهم عن ألفاظ وردت في القرآن الكريم.

أما ما احتج به أصحاب القول الأول فيحاج عنه بما يلي :

أما الآية التي احتجوا بها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ^(٤)، فإنها دليل وحجة على نزول القرآن بلسان العرب ، لا بلسان قريش ، أو بلسان قبيلة معينة، وقد جاء بيان هذا اللسان في قوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ^(٥).

يقول الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) :

"لم تقم دلالة قاطعة على أن جميعه بلسان قريش ، فإن ظاهر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ^(٦)، أنه نزل بجميع ألسنة العرب ، ومن زعم أنه أراد مضر دون ربيعة ، أو هما دون اليمن ، أو قريشاً دون غيرهم ؛ فعليه البيان ، لأن اسم العرب يتناول الجميع تناولاً واحداً ، ولو ساغت هذه الدعوى لساغ لآخر أن يقول نزل بلسان بني هاشم مثلاً ، لأنهم أقرب نسباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم من سائر قريش" ^(٧).

(١) التمهيد (٢٨٠/٨) .

(٢) فنون الأفتان (ص ٢١٧) .

(٣) المرشد الوجيز (ص ٢٦٢) .

(٤) سورة إبراهيم : ٤ .

(٥) سورة الشعراء : ١٩٥ .

(٦) سورة الزخرف : ٣ .

(٧) نقلاً عن ابن حجر في فتح الباري (٩/٩) .

أما الآثار الواردة عن عمر (ت ٢٣هـ) ، وعثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنهما، في أن القرآن نزل بلسان قريش ، فيجاب عنها بأحد وجهين :
الوجه الأول : أن تحمل تلك الآثار على الأغلب ، فيكون المعنى : نزل معظم القرآن أو أكثره بلسان قريش .

يقول ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

"قول من قال : إن القرآن نزل بلغة قريش ، معناه عندي : في الأغلب - والله أعلم - ؛ لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها، وقريش لا تهمز"^(١).

الوجه الثاني : أن يكون المراد بذلك أن القرآن نزل في الابتداء بلسانهم ، ثم أبيح بعد ذلك أن يقرأ بسبعة أحرف .

يقول أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) :

"أشار عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه إلى أول نزوله ، ثم إن الله تعالى سهّله على الناس، فجوّز لهم أن يقرؤوه على لغاتهم ، لأن الكل لغات العرب ، فلم يخرج عن كونه بلسان عربي مبين"^(٢).

وبهذا تبين أن القول بوجود غير لغة قريش في القرآن ، هو الأوجه والأرجح ، لقوة ما استدلل به أصحاب هذا القول ، ثم إنه لا معنى لنزول القرآن على سبعة أحرف ، إذا كان نازلاً بلغة قريش خاصة .

(١) التمهيد (٨/٢٨٠) .

(٢) المرشد الوجيز (ص ٢٦٢) .

المبحث الرابع أنواع اختلاف القراءات

يُحسب للإمام ابن قتيبة في هذا الباب أنه من أوائل الأئمة الذين تحدثوا بإسهاب عن أن اختلاف القراءات اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد^(١) ، ففي "باب الرد عليهم في وجوه القراءات" ، وبعد أن بيّن وجوه الخلاف السبعة في القراءات أثار تساؤلاً ؛ فقال:

"فإن قال قائل : هذا جائز - أي اختلاف وجوه القراءات - في الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحداً ، فهل يجوز أيضاً إذا اختلفت المعاني ؟ "

ثم أجاب عنه مبيناً أنواع الاختلاف ، وأي هذه الأنواع يكون عليه اختلاف القراءات؛ فقال : "قيل له : الاختلاف نوعان : اختلاف تغاير ، واختلاف تضاد ، فاختلف التضاد لا يجوز ، ولست واجده بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ ، واختلاف التغاير جائز"^(٢).

ثم توسع في التمثيل والتدليل على كون اختلاف القراءات اختلاف تغاير ، فقال :

"وذلك مثل قوله : ﴿ وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾^(٣) ، أي بعد حين ، و"بعد أمه"^(٤) ، أي بعد نسيان له ، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان ؛ لأنه ذكر أمر "يوسف" بعد حين وبعد نسيان له ، فأنزل الله على لسان نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، بالمعنيين جميعاً في غرضين.

(١) اختلاف التضاد : هو اختلاف في اللفظ مع تضاد المعنى أو تناقضه ، وهذا ليس له وجود البتة في القراءات .

واختلاف التنوع : أن يختلف اللفظ والمعنى متحد .

واختلاف التغاير : اختلاف القراءات في اللفظ والمعنى معاً ، مع صحة المعنيين كليهما . [معجم المصطلحات في

علمي التجويد والقراءات ، د. إبراهيم الدوسري (ص ٢١)] .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠) .

(٣) سورة يوسف : ٤٥ .

(٤) قرأ بها ابن عباس . [مختصر ابن خالويه (ص ٦٨)] .

وكقوله : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾^(١) ، أي تقبلونه وتقولونه ، "وتَلَقُّونَه"^(٢) ، من الولق ، وهو الكذب ، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان ؛ لأنهم قبلوه وقالوه ، وهو كذب ، فأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ بِالْمَعْنِيِّينَ جَمِيعاً فِي غَرَضِينَ .

وكقوله : ﴿ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا ﴾^(٣) ، على طريق الدعاء والمسألة ، و"رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"^(٤) ، على جهة الخبر ، والمعنيان وإن اختلفا صحيحان ؛ لأن أهل سبأ سألوا الله أن يفرِّقهم في البلاد ، فقالوا : ﴿ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا ﴾ ، فلما فرَّقهم الله في البلاد أَيْدِي سبأ ، وباعدَ بين أسفارهم ، قالوا : رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَأَجَابَنَا إِلَى مَا سَأَلْنَا ، فحكى الله سبحانه عنهم بالمعنيين في غرضين .

وكذلك "نُنشِرُهَا"^(٥) ، و﴿ نُنَشِرُهَا ﴾^(٦) ، ؛ لأن الإِنْشَارَ : الإِحْيَاءَ ، والإِنْشَازَ هُوَ : هُوَ : التَحْرِيكَ لِلنَّقْلِ ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك : ﴿ فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾^(٧) ، و"فُرِّغ"^(٨) ؛ لأنَّ فُرِّعَ : خُفِّفَ عَنْهَا بِالْفُرْعِ ، بِالْفُرْعِ ، وَفُرِّغَ : فُرِّغَ عَنْهَا الْفُرْعَ "^(٩) .

وفيما سبق تجد أن الإمام ابن قتيبة قد أشار إلى نوعين من أنواع اختلاف القراءات ؛

هما :

النوع الأول : الاختلاف في اللفظ والمعنى واحد .

وأشار إليه بقوله : "هذا جائز في الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحداً" .

(١) سورة النور : ١٥ .

(٢) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٣) .

(٣) سورة سبأ : ١٩ .

(٤) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٣) .

(٥) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(٦) سبق عزو القراءة (ص ٦٤٣) .

(٧) سورة سبأ : ٢٣ .

(٨) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٣) .

(٩) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠-٤٢) .

النوع الثاني : الاختلاف في اللفظ والمعنى ، مع جواز اجتماعهما لعدم التضاد بينهما .
وأشار إليه بقوله : "واختلاف التغيرات جائز" ، وزاده تفصيلاً بالأمثلة الكثيرة عليه .
وقد كان لحديث ابن قتيبة هذا أثره العظيم في هذا الباب ، إذ جاء الداني (ت ٤٤٤هـ) فبنى عليه ، وزاده تفصيلاً ونوعاً ثالثاً وتمثيلاً ، فقال :
"وأما على كم معنى يشتمل اختلاف هذه السبعة أحرف ؟ فإنه يشتمل على ثلاثة معانٍ يحيط بها كلها :

أحدها : اختلاف اللفظ والمعنى واحد .

والثاني : اختلاف اللفظ ، والمعنى جميعاً ، مع جواز أن يجتمعا في شيء واحد ؛ لعدم تضاد اجتماعهما فيه .

والثالث : اختلاف اللفظ والمعنى ، مع امتناع جواز أن يجتمعا في شيء واحد ؛ لاستحالة اجتماعهما فيه"^(١) .

ثم قال في التمثيل للنوع الثالث :

"كقراءة من قرأ : "وظنوا أنهم قد كذبوا"^(٢) ، بالتشديد ؛ لأن المعنى : وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم ، وقراءة من قرأ : ﴿ قَدْ كَذَّبُوا ﴾ ، بالتخفيف^(٣) ؛ لأن المعنى : وتوهم المرسل إليهم ، أن الرسل قد كذبوهم ، فيما أخبروهم به من أنهم إن لم يؤمنوا بهم ، نزل العذاب بهم ، فالظن في القراءة الأولى يقين ، والضمير الأول للرسل ، والثاني للمرسل إليهم ، والظن في القراءة الثانية شك ، والضمير الأول للمرسل إليهم ، والثاني للرسل .

وكذا قراءة من قرأ : "لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر"^(٤) ، بضم التاء ، وذلك أنه أسند هذا العلم إلى موسى عليه السلام ، حديثاً منه لفرعون ، حيث قال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾^(٥) ، فقال له موسى عليه

(١) الأحرف السبعة للقرآن (ص ٤٧) .

(٢) سورة يوسف : ١١٠ .

(٣) سبق عزو القراءتين في (ص ٣٣٢) .

(٤) سورة الإسراء : ١٠٢ .

(٥) سورة الشعراء : ٢٧ .

السلام عند ذلك : "لقد علمتُ ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر"، فأخبر عليه السلام عن نفسه بالعلم بذلك ، أي ليس بمجنون ، وقراءة من قرأ : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ بفتح التاء^(١) ، وذلك أنه أسند هذا العلم إلى فرعون ، مخاطباً من موسى له بذلك ، على وجه التقريع والتوبيخ له ، على شدة معاندته للحق ، وجحوده له بعد علمه؛ ولذلك أخبر تبارك وتعالى عنه وعن قومه ، فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾^(٢) ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾^(٣) .

ثم جاء الإمام ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) في مقدمة كتابه "النشر" ، فأفاد من هذا التأصيل ، وزاده تفصيلاً وبياناً وتمثيلاً^(٤) ، كما أفاد منه جمع ممن كتب في القراءات وعلوم القرآن^(٥) .

(١) قرأ الكسائي "علمتُ" بضم التاء ، وقرأ الباقون "علمتُ" بفتح التاء. [المبسوط (ص ٢٧٢)، النشر (٢/٢٣٢)].

(٢) سورة النمل : ١٣-١٤ .

(٣) الأحرف السبعة للقرآن (ص ٥٠-٥١) .

(٤) النشر (١/٤٥) .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى (٣٩١/١٣)، مناهل العرفان (١/١٨٥) .

المبحث الخامس حكم القراءة بالشاذ

أولاً : تعريف القراءة الشاذة .

الشاذ لغة :

اتفقت المعاجم اللغوية على أن مادة "شَذَذَ" تدل على الانفراد والمفارقة.

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : "الشين والذال يدل على الانفراد والمفارقة"^(١).

يقال : شَذَّ يَشُدُّ شذوذاً : إذا انفرد عن الجمهور فهو شاذ ، ويقال : شُدَّان الناس :

أي الذين يكونون في القوم وليسوا من قبائلهم ، وكذلك كل شيء منفرد فهو شاذ^(٢).

القراءة الشاذة في الاصطلاح :

يظهر من اصطلاح المتقدمين أن القراءة الشاذة عندهم هي ما خالف مصحف

عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه ، المجمع عليه مما صح من القراءات المروية عن الصحابة رضوان الله عنهم ، أو المسندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال إسماعيل بن إسحاق المالكي (ت ٢٨٢هـ)^(٣) في كتابه "القراءات" :

"فإذا اختار الإنسان أن يقرأ ببعض القراءات التي رُويت مما يخالف خط المصحف

صار إلى أن يأخذ القراءة برواية واحدٍ عن واحد ، وترك ما تلقته الجماعة عن الجماعة"^(٤).

وقال أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ) :

"من قرأ بحرف شاذ يخالف المصحف وخالف بذلك جمهور القراء المعروفين ، فهو غير

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة "شذذ" (١٨٠/٣) .

(٢) انظر : مادة "شذ" في العين (ص ٤٦٩)، تهذيب اللغة (٢٧١/١١)، لسان العرب (٤٩٤/٣) .

(٣) أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد القاضي ، الأزدي البغدادي ، المالكي ، ثقة ، مشهور ، كبير ، فقيه على مذهب المالكية ، روى القراءة عن قالون ، وعن أحمد بن سهل عن أبي عبيد ، وروى القراءة عنه ابن مجاهد وابن الأنباري ، وآخرون ، صنّف كتاباً في القراءات جمع فيه قراءة عشرين إماماً ، وكتاباً في "أحكام القرآن" ، وقد أثنى المبرد وابن مجاهد على هذين الكتابين ، توفي سنة ٢٨٢هـ . [تاريخ بغداد (٢٨٢/٧)] ، غاية النهاية (١٤٧/١) .

(٤) نقلاً عن مكّي في الإبانة (ص ٢١) .

مصيب ، وهذا مذهب الراسخين في علم القراءات قديماً وحديثاً" (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) :

"وأما القراءة الشاذة الخارجة عن رسم المصحف العثماني ، مثل قراءة ابن مسعود (ت ٣٢هـ) وأبي الدرداء (ت ٣٢هـ) رضي الله عنهما : "والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى ، والذكر والأنثى" (٢) ، كما قد ثبت ذلك في الصحيحين" (٣) . (٤)

وقد سميت القراءة المخالفة لخط المصحف بالقراءة الشاذة ، لأنها جاءت مخالفة لما أجمعت عليه الأمة من نص القرآن الذي نُقل بالتواتر ، ورُسم في المصحف .

يقول ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) :

"والقسم الثاني من القراءة الصحيحة : ما وافق العربية ، وصح سنده ، وخالف الرسم ، كما ورد في "الصحيح" من زيادة لا نقص ، وإبدال كلمة بأخرى ، ونحو ذلك ، كما جاء عن أبي الدرداء (ت ٣٢هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) ، وابن مسعود (ت ٣٢هـ) ، رضي الله عنهم ، وغيرهم ، فهذه القراءات تسمى اليوم : شاذة ، لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه" (٥).

وقد كان هذا المفهوم للقراءة الشاذة شائعاً عند المتقدمين ، ولما صارت القراءة الشاذة قسيمة للقراءة المتواترة ، توسع مفهومها ليشمل كل قراءة فقدت ركناً أو أكثر من أركان القراءة المقبولة .

قال أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) :

"فليس الأقرب في ضبط هذا الفصل إلا ما ذكرناه مراراً ، من أن كل قراءة اشتهرت بعد صحة إسنادها وموافقتها خط المصحف ، ولم تنكر من جهة العربية ، فهي القراءة

(١) تهذيب اللغة (١٤/٥) .

(٢) قرأ بها علي وابن مسعود ، وأبو الدرداء وابن عباس رضي الله عنهم . [مختصر ابن خالويه (ص ١٧٥) ، المحتسب (٣٦٤/٢)] .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير "تفسير سورة "والليل إذا يغشى" ، باب "والنهار إذا تجلّى" ح (٤٩٤٣) (ص ٤٢٧) ، ومسلم في فضائل القرآن ، باب ما يتعلق بالقراءات ح (١٩١٦-١٩١٩) (ص ٨٠٧) .

(٤) مجموع الفتاوى (٣٩٤/١٣) .

(٥) منجد المقرئين (ص ٨٢) .

المعتمد عليها ، وما عدا ذلك داخل في حيز الشاذ والضعيف ، وبعض ذلك أقوى من بعض" (١).

وقال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) في "طيبة النشر" :

فكل ما وافق وجه نحو وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت شدوده لو أنه في السبعة" (٢)

ثانياً : حكم القراءة بالشاذ .

بعد أن تحدث الإمام ابن قتيبة عن الأحرف السبعة ، وبين وجوه الخلاف في القراءات، عرض لمسألة حكم القراءة بما خالف المصحف ، ونص على عدم جواز القراءة بالشاذ ؛ فقال:

"كل ما كان منها - أي من وجوه القراءات - موافقاً لمصحفنا غير خارج من رسم كتابه ، جاز لنا أن نقرأ به ، وليس لنا ذلك فيما خالفه ، لأن المتقدمين من الصحابة والتابعين قرأوا بلغاتهم ، وجروا على عاداتهم ، وخلّوا أنفسهم وسوم طبائعهم ، فكان ذلك جائزاً لهم ، والقوم من القراء بعدهم مأمونين على التنزيل ، عارفين بالتأويل ، فأما نحن معشر المتكلفين ، فقد جمعنا الله بحسن اختيار السلف لنا ، مصحف هو آخر العرّض، وليس لنا أن نعدّوه ... ، ولو جاز لنا أن نقرأه بخلاف ما ثبت في مصحفنا ، لجاز أن نكتبه على الاختلاف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير ، وهناك يقع ما كرهه لنا الأئمة الموقّتون ، رحمة الله عليهم" (٣).

والقول بعدم جواز القراءة بالشاذ قال به الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) في الرواية المشهورة عنه ، وعليها أكثر أصحابه (٤)، وبعض الحنفية كأبي يوسف (ت ١٨٢هـ) (٥)، وهو ظاهر

(١) المرشد الوجيز (ص ٣٩٣) .

(٢) طيبة النشر (ص ٣٢) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢) .

(٤) انظر : المدونة (١/٨٤)، التمهيد (٤/٢٧٨)، مختصر خليل (ص ٤٠)، الفواكه الدواني (١/٢٣٩)، حاشية الدسوقي (١/٣٢٨) .

(٥) انظر : أصول السرخسي (١/٢٧٩)، فتاوى قاضي خان (١/١٥٥) .

مذهب الشافعية ، كما ذكر النووي (ت ٦٧٦هـ)^(١) ، وبه قال الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) في رواية عنه وعليها جمهور أصحابه^(٢) ، وبه قال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)^(٣) ، وهو قول جمهور العلماء والقراء ، بل نقل ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) الإجماع على ذلك ؛ فقال :

"وعلماء المسلمين مجتمعون على ذلك ، إلا قوم شذوا لا يُعْرَج عليهم"^(٤) .

ونقل الإجماع منه - رحمه الله - لا يُسَلَّم ، إذ المسألة ليست محل إجماع ، ففيها أقوال أخرى لأئمة معتبرين ، فقد ذهب بعض أهل العلم إلى جواز القراءة بالشاذ في الصلاة ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، وعليها بعض أصحابه^(٥) ، واختيار شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) ، وابن القيم (ت ٧٥١هـ) .

قال شيخ الإسلام في "الاختيارات" :

"وما خالف المصحف وصح سنده صحت الصلاة به"^(٦) .

وقال ابن القيم :

"وكذلك لا يجب على الإنسان التقييد بقراءة السبعة المشهورين ، باتفاق المسلمين ، بل إذا وافقت القراءة رسم المصحف الإمام ، وصحت في العربية ، وصح سندها جاز القراءة بها ، وصحت الصلاة بها اتفاقاً ، بل لو قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه ، وقد قرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة بعده ، جازت القراءة بها ، ولم تبطل الصلاة بها على أصح الأقوال"^(٧) .

وقد استدل من أجاز القراءة بالشاذ في الصلاة بالأدلة التالية :

(١) انظر : المجموع (٣/٣٤٧) .

(٢) انظر : المغني (٢/١٦٦) ، الشرح الكبير (٣/٤٦٩) ، الفروع (١/٤٢٢) ، الإقناع (١/١١٩) .

(٣) انظر : المحلى (٤/٢٥٥) .

(٤) التمهيد (٨/٢٩٣) .

(٥) انظر : المغني (٢/١٦٦) ، الشرح الكبير (٣/٤٦٩) ، الفروع (١/٤٢٣) ، الإنصاف (٢/٥٨) .

(٦) الاختيارات الفقهية (ص ٥٣) .

(٧) إعلام الموقعين (٤/٢٦٣) .

١ . ما رواه أبو هريرة (ت ٥٧هـ) رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما نزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد"^(١) .
 ووجهه : أن النبي صلى الله عليه وسلم حث على القراءة بقراءة عبدالله بن مسعود (ت ٣٢هـ) رضي الله عنه ، وهذا يدل على جواز القراءة بها في الصلاة وخارجها ، سواء وافقت المصحف أم لم توافق .

٢ . أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، ووجه الاستدلال بها مبني على القول بأن مصحف عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه ، هو أحد الأحرف السبعة ، ووجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز القراءة بالأحرف السبعة ، فدل على جواز القراءة بما خالف المصحف من الأحرف الستة المتبقية .

٣ . أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يُصَلُّون بقراءتهم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وبعده ، وكانت صلاتهم صحيحة بغير شك .

قال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) مُعلقاً على هذا الدليل :

"وكان بعض أئمتنا يقول وعلى قول من حرم القراءة بالشاذ يكون عالم من الصحابة وأتباعهم قد ارتكبوا محرماً بقراءتهم بالشاذ ، فيسقط الاحتجاج بخبر من يرتكب المحرم دائماً، وهم نقلة الشريعة الإسلامية ؛ فيسقط ما نقلوه ، فيفسد على قول هؤلاء نظام الإسلام والعياد بالله ، قال : ويلزم أيضاً أن الذين قرؤوا بالشاذ لم يُصَلُّوا قط ، لأن تلك القراءة محرمة، والواجب لا يتأدى بفعل المحرم"^(٢) .

ويمكن مناقشة هذه الأدلة بما ذكره الإمام ابن قتيبة من أن قراءة الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الشواذ لا يلزم منه جواز القراءة لنا بهذه الشواذ ؛ لأن ما قرأ به الصحابي في حقه لا يعتبر شاذاً ، لتلقيه إياه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما في حقنا فشاذ ؛ لأنه

(١) أخرجه ابن ماجة في السنة ، باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم "فضل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه" ح (١٣٨) (ص ٢٤٨٥)، والإمام أحمد في المسند (٧/١) ، وابن حبان في صحيحه ح (٧٠٦٦) (٥٤٢/١٥) ، وصححه الألباني [صحيح سنن ابن ماجة (٢٩/١)] .

(٢) النشر (٢٠/١) .

لم ينقل لنا بشكل تقوم به الحجة علينا ، ولأنه خالف الإجماع على مصاحف عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه^(١) .

كما يمكن حمل ذلك على أنهم كانوا يفعلونه قبل العرضة الأخيرة ، أو أنه كان قبل إجماعهم على المصحف العثماني ، فيكون عملهم منسوخاً إما بالعرضة الأخيرة ، أو بإجماع الصحابة على المصحف العثماني .

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

" هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الآخرة ، فإنه قد ثبت في الصحاح عن عائشة (ت ٥٨هـ) ، وابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهم أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه به مرتين ، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) رضي الله عنه وغيره ، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر (ت ١٣) ، وعمر (ت ٢٣هـ) وعثمان (ت ٣٥هـ) ، وعلي (ت ٤٠هـ) رضي الله عنهم وأرضاهم - بكتابتها في المصاحف، وكتبها أبو بكر وعمر في خلافة أبي بكر في صحف ؛ أمر زيد بن ثابت بكتابتها ، ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار ، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة "^(٢) .

وفي المسألة قول ثالث ذكره شيخ الإسلام عن جده أبي البركات المجد ابن تيمية (ت ٦٥٣هـ) ، وهو : إن قرأ بها في القراءة الواجبة وهي الفاتحة لم تصح صلاته ، وإن قرأ بها في غيره صحت صلاته^(٣) .

وتعليقه : هو أن المصلي إذا قرأ بالشاذ في القراءة الواجبة في الصلاة ؛ لم يتيقن أداء الواجب من القراءة ؛ لعدم ثبوت القراءة بذلك ، فلا تصح صلاته ، أما إذا قرأ بها فيما لا

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٢)، وانظر : القراءات القرآنية لعبدالحليم قابة (ص ٢١٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩٤/١٣) .

(٣) المصدر السابق (٣٩٨/١٣) .

يجب ، فإنه لم يتيقن أنه أتى في الصلاة بمبطل ؛ لجواز أن يكون ذلك من الأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن^(١).

ويناقش هذا بأنه تفريق بلا دليل ، فإما أن يقال : هو جائز في الواجب وغيره ، وإما أن يقال غير جائز فيهما ، فلا وجه للتفريق بينهما .

وبهذا يتضح أن قول الإمام ابن قتيبة بعدم جواز قراءة الشاذ في الصلاة هو الأرجح - والله أعلم - ؛ لأن القرآن الكريم ثبت بطريق التواتر ، والقراءة الشاذة لم يثبت التواتر بها عندنا ، ولا تُسمى قرآناً ، والتعبد بالتلاوة إنما يكون بالقرآن فقط ، كما أن بعض المحققين اعتبر أن شذوذ القراءات بدأ بعد إجماع الصحابة - رضوان الله عليهم - في عهد عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه ، على ما كتبه في المصاحف ، فما كان قبل ذلك لا تسقط عليه أحكام ما حصل بعده^(٢) ، فحينئذ لا يصح الاحتجاج بقراءة الصحابة بما خالف مصحف عثمان رضي الله عنه .

(١) انظر : المصدر السابق (٣٩٨/١٣)، النشر (١٩/١) .

(٢) انظر : القراءات القرآنية ، قابة (ص ٢١٠) .

المبحث السادس

الجواب عن الشبه المتعلقة بالقراءات

القراءات القرآنية الثابتة كلها على اختلافها كلام الله سبحانه وتعالى ، لا مدخل لبشر فيها ، وكلها منسجمة متسقة ، يؤكد بعضها بعضاً ، ويفسر بعضها الآخر ، لا تصادم بينها ولا تنافي بين مدلولاتها ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(١).

وهذا ينطبق على القرآن الكريم في قراءته على حرف أو على سبعة ، فإنها جميعاً لا تخرج في تفاوتها إلى تناقض النصوص أو تضاد المعاني .

وهذا ما لا يدركه الملاحدة الزنادقة ، الذين طعنوا في القرآن الكريم من جهة اختلاف القراءات فيه ، وهي أعظم الشبه التي أثاروها للدلالة - بزعمهم - على تناقض القرآن واختلافه ، وقد حكى عنهم ابن قتيبة : "أنهم يحتجون بقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ، وبقوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾^(٢).

وقالوا : وجدنا الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم يختلفون في الحرف ، فابن عباس (ت ٦٨ هـ) يقرأ : "وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أَمِهِ"^(٣) ، وغيره يقرأ "بعد أُمَّة"^(٤) ، وعائشة (ت ٥٨ هـ) تقرأ : "إِذْ تَلْفُونَهُ"^(٥) ، وغيرها يقرأ "إِذْ تَلَقَّوْنَهُ"^(٦) ، وأبو بكر الصديق (ت ١٣ هـ)

(١) سورة النساء : ٨٢ .

(٢) سورة فصلت : ٤٢ .

(٣) سورة يوسف : ٤٥ .

(٤) سبق عزو القراءة (ص ٧٠٦) .

(٥) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٣) .

(٦) سورة النور : ١٥ .

يقراً : "وجاءت سكرة الحق بالموت"^(١) ، والناس يقرأون : "وجاءت سكرة الموت بالحق"^(٢).

وقرأ بعض القراء : "وأعتدت لهنّ مُتْكاً"^(٣) ، وقرأ الناس "وأعتدت لهنّ متكناً"^(٤) ، وكان ابن مسعود (ت ٣٢ هـ) يقرأ : "إن كانت إلا زُفِيَةً واحدة"^(٥) ، ويقراً : "كالصوف المنفوش"^(٦).

وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين ، فأيّ شيء بعد هذا الاختلاف تريدون؟ وأي باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون؟"^(٧).

وقد ردّ عليهم الإمام ابن قتيبة ، فعقد باباً وسمه بـ "باب الرد عليهم في وجوه القراءات" ، تحدث فيه عن الأحرف السبعة ، ثم بيّن فيه أن الاختلاف في القراءات اختلاف تنوع وتغاير ، لا اختلاف تضاد ، وفي ذلك يقول :

"الاختلاف نوعان : اختلاف تغاير ، واختلاف تضاد ، فاختلف التضاد لا يجوز ، ولست واجده بحمد الله في شيء من القرآن إلا الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ ، واختلاف التغاير جائز"^(٨).

ثم ذكر القراءات التي زعموا اختلافها ، وبين أن اختلافها اختلاف تنوع وتغاير ، وقد سبق بيانها في مبحث "أنواع اختلاف القراءات"^(٩).

وقد تظافت أقوال أهل العلم على أن الاختلاف في القراءات لا يتضمن تناقض المعنى أو تضاده ، بل هو من باب التنوع والتغاير .

(١) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٤) .

(٢) سورة ق : ١٩ .

(٣) قرأ بها الأعرج . [مختصر ابن خالويه (ص ٦٨)] .

(٤) سورة يوسف : ٣١ .

(٥) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٤) .

(٦) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٤) .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤-٢٥) .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠-٤٢) .

(٩) انظر : (ص ٧٠٦) من هذه الرسالة .

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة ، التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده ، بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً ، كما قال عبدالله بن مسعود (ت ٣٢هـ) : إنما هو كقول أحدكم : أقبل ، وهلم ، وتعال .

وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر ، لكن كلا المعنيين حق ، وهذا اختلاف تنوع وتغاير ، لا اختلاف تضاد وتناقض . ، وهذا كما في القراءات المشهورة "ربنا باعد^(١)" و "باعد^(٢)" ، و "إلا أن يخافاً ألا يقيماً"^(٣) ، و "إلا أن يخافاً ألا يقيماً"^(٤) ، و "إن كان كان مكرهم لتزول منه الجبال"^(٥) ، و "لتزول"^(٦) ، ونحو ذلك .

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقاً من وجه متبائناً من وجه ، كقوله : "يخدعون"^(٧) ، و "يخادعون"^(٨) ، و "لمستم"^(٩) ، و "لامستم"^(١٠) ، و "حتى يطهرون"^(١١) ، و "يطهرون"^(١٢) ، و "يطهرون"^(١٢) ، ونحو ذلك .

(١) سورة سبأ : ١٩ .

(٢) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٣) .

(٣) سورة البقرة : ٢٢٩ .

(٤) قرأ حمزة وأبو جعفر ويعقوب : "يخافاً" بضم الياء ، وقرأ الباقون : "يخافاً" بفتح الياء . [المبسوط (ص ١٤٦) ، النشر (١٧١/٢)] .

(٥) سورة إبراهيم : ٤٦ .

(٦) قرأ الكسائي : "لتزول" بفتح اللام الأولى وضم الثانية ، وقرأ الباقون : "لتزول" بكسر اللام الأولى وفتح الثانية . [المبسوط (ص ٢٥٧) ، النشر (٢٢٥/٢)] .

(٧) سورة البقرة : ٩ .

(٨) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : "وما يخادعون" ، وقرأ الباقون : "يخدعون" . [المبسوط (ص ١٢٧) ، النشر (١٥٦/٢)] .

(٩) سورة النساء : ٤٣ ، سورة المائدة : ٦ .

(١٠) قرأ حمزة والكسائي وخلف : "لمستم" بجذف الألف ، والباقون : بالألف : "لامستم" . [المبسوط (ص ١٨٠) ، النشر (١٨٨/٢)] .

(١١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

(١٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم : "يطهرون" بفتح وتشديد الطاء والهاء ، وقرأ الباقون : "يطهرون" بسكون الطاء وتخفيف الهاء . [المبسوط (ص ١٤٦) ، النشر (١٧١/٢)] .

فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق ، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً ، لا يجوز ترك موجب أحدهما لأجل الأخرى ، ظناً أن ذلك تعارض ، بل كما قال عبدالله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) رضي الله عنه : "من كفر بحرف منه فقد كفر به كله" (١) " (٢).

ويقول ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) :

"وأما حقيقة اختلاف هذه السبعة الأحرف المنصوص عليها من النبي صلى الله عليه وسلم وفائدته ، فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير ، لا اختلاف تضاد وتناقض ، فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ^ع الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ^(٣)﴾" (٤).

وذكر الزرقاني (ت ١٣٦٧ هـ) في "مناهل العرفان" أن اختلاف القراءات أولى الشبه التي أثارها أعداء الإسلام ، وردّ عليها فقال :

"إن نزول القرآن على سبعة أحرف - وتعدد وجوه قراءاته - لا يلزم منه تناقض ولا تخاذل ، ولا تعارض ولا تضاد ، ولا تدافع بين مدلولات القرآن ومعانيه ، وتعاليمه ومراميه ، بعضها من بعض ، بل القرآن كله سلسلة واحدة ، متصلة الحلقات ، محكمة السور والآيات ، متآخذة المبادئ والغايات ، مهما تعددت طرق قراءاته ، ومهما تنوعت فنون أدائه" (٥).

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٤٧٢/٨) ، والطبري في تفسيره (٤٩/١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٣) .

(٣) سورة النساء : ٨٢ .

(٤) النشر (٤٥/١) .

(٥) مناهل العرفان (١٨٥/١) .

المبحث السابع

الجواب عما ادّعي على القرآن من اللحن

بعد أن ردّ الإمام ابن قتيبة الشبهة الأولى : اختلاف القراءات وتناقضها ، عرض للشبهة الثانية ، التي أثارها الطاعنون في القرآن الكريم ، وهي الزعم بوجود اللحن في بعض قراءاته، فحكى عن الطاعنين قولهم :

"والقراء يختلفون : فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا ، وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين ، فأى شيء بعد هذا الاختلاف تريدون؟ وأي باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون"^(١).

ثم أفرد باباً للرد عليهم أسماه بـ "باب ما ادّعي على القرآن من اللحن" ، وذكر فيه القراءات التي لحنوها ، ثم دافع عن تلك القراءات بالكشف عن وجهها ، وبيان صحتها ، ثم عرض لعدد من القراءات تشبه ما لحنوه من القراءات ، فخرّجها وبين سلامتها، تحقيقاً لشرطه الذي ذكره في "باب الحكاية عن الطاعنين" ، فقال :

"وقد ذكرتُ الحجة عليهم في جميع ما ذكروا ، وغيره مما تركوا ، وهو يُشبه ما أنكروا؛ ليكون الكتاب جامعاً للفن الذي قصدت له"^(٢).

ومن القراءات التي عرض لها في هذا الباب ، ما يلي :

١ . قراءة "إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ"^(٣) ، بتشديد "إِنَّ" ، وجعل "هَذَانِ" بالألف، على خلاف المشهور من نصب المثني بالياء^(٤) ، ولهذا لُحنت هذه القراءة .

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٥) .

(٢) المصدر السابق (ص ٣٢) .

(٣) سورة طه : ٦٣ .

(٤) قرأ أبو عمرو: "إِنَّ" مشددة ، "هذنين" بالياء ، وقرأ ابن كثير وحفص : "إِنَّ" ساكنة النون ، "هذَانِ" بالألف، وابن كثير يشدد النون من "هذَانِ" ، وقرأ الباقر : "إِنَّ" مشددة النون ، "هذَانِ" بالألف . [المبسوط (ص ٢٩٦) ، النشر

وقد خرّج الإمام ابن قتيبة هذه القراءة على أنها لغة بني الحارث بن كعب ، التي تُلزمُ
المثنى الألف في جميع الأحوال رفعاً ونصباً وجرّاً ، يقولون : مررت برجلان ، وقبضت منه
درهمان ، وجلس بين يداه ، وأنشدوا :

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أذْنَاهُ ضَرْبَةً دَعْتُهُ إِلَى هَابِي الثَّرَابِ عَقِيمٌ^(١)(٢)

ولهذه القراءة تخریجات أخرى^(٣) ، إلا أن تخریج الإمام ابن قتيبة للقراءة هو اختيار أكثر
العلماء من أهل التوجيه واللغة والتفسير .

يقول النحاس (ت ٣٣٨هـ) عن هذا التخریج :

"من أحسن ما حملت عليه الآية ، إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من
يُرتضى علمه وصدقه وأمانته ، منهم : أبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ) ، وأبو الخطاب
الأخفش (ت ١٧٧هـ) (٤) " (٥) .

واختاره ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) ، فقال في "شرح التسهيل" :

"ولغة بني الحارث بن كعب إلزام المثنى ، وما جرى مجراه في الألف في كل حال ، وبهذه
اللغة قرأ نافع (ت ١٦٩هـ) ، وابن عامر (ت ١١٨هـ) ، والكوفيون إلا حفصاً (ت ١٨٠هـ)
"إنّ هذان لساحران" (٦) .

ووصفه الرازي (ت ٦٠٦هـ) بأنه الوجه الأقوى في تخریج القراءة^(٧) ، وقال أبو حيان

(ت ٧٤٥هـ) :

(١) البيت لهويز الحارثي ، كما في الصحاح (٢٥٣٢/٦) ، واللسان (١٩٧/٨) ، و(٣٥٠/١٥) ؛ وفيه : "الهائي من
التراب: ما ارتفع وذقن" ، والشاهد في البيت : "أذناه" حيث لزمت الألف ، مع أن الأصل فيها "أذنيه" لأنها
مجرورة.

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٠) .

(٣) انظر : توجيه مشكل القراءات العشرية (ص ٣٣١-٣٣٧) ، القراءات التي اهتمها النحاة باللحن (ص ٦٥-٧٥) .

(٤) أبو الخطاب ، عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش الكبير ، من أئمة اللغة والنحو ، له ألفاظ لغوية انفراد بنقلها عن
العرب ، أخذ عنه أبو عبيدة وسيبويه ويونس والكسائي ، قال النحاس : "هو رئيس من رؤساء اللغة" ، توفي سنة
١٧٧هـ . [إنباه الرواة (١٥٧/٢) ، بغية الوعاة (٧٤/٢)] .

(٥) إعراب القرآن (٤٦/٣) .

(٦) شرح التسهيل (٦٣/١) .

(٧) تفسير الرازي (٦٥/٢٢) .

"والذي نختاره في تخريج هذه القراءة أنها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثني بالألف دائماً" (١).

٢. قراءة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِغُونَ﴾ (٢)، برفع "الصائبون" (٣).
وقد خرّج الإمام ابن قتيبة هذه القراءة على أن "الصائبون" معطوف على موضع اسم "إِنَّ" ، لأنه قبل دخول "إِنَّ" كان في موضع رفع .

وفي ذلك يقول : "رفع "الصائبون" لأنه ردُّ على موضع ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، وموضعه رفع ، لأن "إِنَّ" مبتدأة وليست تُحْدِثُ في الكلام معنى كما تُحْدِثُ أخواتها، ألا ترى أنك تقول : زيد قائم ، ثم تقول : إن زيداً قائم ، ولا يكون بين الكلامين فرق في المعنى، وتقول : زيد قائم ، ثم تقول : لعل زيداً قائم، فتُحْدِثُ في الكلام معنى الشك ، وتقول زيد قائم ، ثم تقول : ليت زيداً قائم ، فتُحْدِثُ في الكلام معنى التمني، ويدلُّك على ذلك قولهم : إن عبدالله قائم وزيد، فترفع زيداً ، كأنك قلت : عبدالله قائمٌ وزيدٌ ، وتقول: لعل عبدالله قائمٌ وزيداً ، فتنصب مع "لعل" وترفع مع "إِنَّ" لما أَحْدَثْتَهُ "لعل" من معنى الشك في الكلام ، ولأن "إِنَّ" لم تُحْدِثْ شيئاً ، وكان الكسائي (ت ١٨٩هـ) يميز: إِنَّ عبدالله وزيدٌ قائمان ، وإنَّ عبدالله وزيدٌ قائم، والبصريون يُجيزونه ، ويحكون : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (٤) ، وينشدون:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَعَرِبُ (٥) (٦).

وهذا التخريج هو مذهب الكسائي (ت ١٨٩هـ) (٧) ، والفراء (ت ٢٠٧هـ) (٨).

(١) البحر المحيط (٦/٢٤٣) .

(٢) سورة المائدة : ٦٩ .

(٣) وهي قراءة الأئمة العشرة ، وعليها مصاحف الأمصار . [الدر المصون (٤/٣٥٣)] .

(٤) سورة الأحزاب : ٥٦ ، قرأ عبدالوارث عن أبي عمرو : "وملائكته" بالرفع . [مختصر ابن خالويه (ص ١٢١)] .

(٥) البيت لضائب بن الحارث البرجمي ، كما في تفسير الطبري (١٦/١٠٠) ، واللسان (٥/١٢٤) ، وخرانة الأدب

(٦/٣٢٩) ، و"قيار" اسم لفرسه .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٢-٥٣) .

(٧) معاني القرآن للكسائي (ص ١٢٥) .

(٨) معاني القرآن للفراء (١/٣١٠) .

وللقراءة تخرّيج آخر ، وجهه : أن "الصابئون" مرفوع بالابتداء ، والواو قبله للاستئناف ، والخبر محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز "إن" من اسمها وخبرها .

كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ... ، والصابئون كذلك" (١) .
يقول سيوييه (ت ١٨٠هـ) في "الكتاب" :

"وأما قوله عزّ وجل : "الصابئون" ، فعلى التقديم والتأخير ، كأنه ابتداء على قوله :
والصابئون" بعدما مضى الخبر ، وقال الشاعر بشر بن أبي خازم (٢) :

وإلا فاعلموا أنّا وأنتم بُغاة ما بقينا في شقاقٍ (٣)

كأنه قال : بغاة ما بقينا وأنتم" (٤) .

٣ . قراءة : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ (٥) ، بنصب "المقيمين" (٦) ، وقد جاء بين مرفوعين "المؤمنون" و"المؤتون الزكاة" .

وقد خرّج الإمام ابن قتيبة هذه القراءة بعدة تخرّيجات :

الأول : أنه منصوب على المدح ، والعرب تنصب على المدح والذم .

الثاني : أن الياء في "المقيمين" للخفض عطفاً على "ما" في قوله "يؤمنون بما أنزل إليك" ، فيكون المعنى : يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة .
يقول ابن قتيبة عن هذا الوجه :

"وكان الكسائي (ت ١٨٩هـ) يرده إلى قوله : "يؤمنون بما أنزل إليك" ، "ويؤمنون

(١) انظر : الكشاف (١/٦٦٠) ، تفسير البيضاوي (٢/٣٤٩) ، الدر المصون (٤/٣٥٣) .

(٢) أبو نوفل ، بشر بن أبي خازم ، عمرو بن عوف الأسدي ، شاعر ، جاهلي ، فحل ، من الشجعان من بني أسد ، شهد حرب أسد وطيء ، وشهد هو وابنه نوفل بن بشر الحلف بينهما ، له قصائد في الفخر والحماسة جيدة .
[الشعر والشعراء (١/٢٧٠)] .

(٣) البيت له ، وهو في ديوانه (ص ١٦٥) .

(٤) الكتاب (٢/١٥٥-١٥٦) .

(٥) سورة النساء : ١٦٢ .

(٦) وهي القراءة المتواترة التي عليها قراءة الأئمة العشرة . [الدر المصون (٢/٤٦)] .

بالمقيمين" ، واعتبره بقوله في موضع آخر : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .
 الثالث : أنه معطوف على الضمير المجرور في "إليك" ، أي : يؤمنون بما أنزل إليك ،
 وإلى المقيمين الصلاة .
 الرابع : أنه معطوف على الكاف في "قبلك" ، فيكون المعنى : وما أنزل من قبلك ،
 ومن قبل المقيمين"^(٢) .
 وأكثر العلماء على التخريج الأول ، وأول من حمل القراءة على هذا الوجه سيويه (ت
 ١٨٠هـ)^(٣) ، وأنشد له :

لا يَبْعَدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَأَفْئَةُ الْجُرُزِ
 النازلين بكلِّ مُعْتَرِكٍ والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ^(٤)

وقال بهذا التخريج الفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٥) ، وابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)^(٦) ، والنحاس
 والنحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٧) ، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)^(٨) ، والعكبري (ت ٦١٦هـ)^(٩) .

(١) سورة التوبة : ٦١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٣) .

(٣) الكتاب (٦٣/٢) .

(٤) البيت للخزيم بن همام ، وهو في ديوانها (ص ١٠) ، والشاهد فيه نصب "النازلين" على المدح .

(٥) معاني القرآن (١٠٥/١) .

(٦) البيان في غريب إعراب القرآن (٢٧٥/١) .

(٧) إعراب القرآن للنحاس (٥٠٦/١) .

(٨) الكشف (٥٩٠/١) .

(٩) التبيان (٢٠٢/١) .

الباب الخامس

جهود ابن قتيبة في علوم القرآن وأصول التفسير

وفيه ثلاثة فصول :

- الفصل الأول: جهود ابن قتيبة في علوم القرآن .
- الفصل الثاني: جهود ابن قتيبة في أصول التفسير .
- الفصل الثالث : دراسة تطبيقية على قواعد التفسير عند ابن قتيبة

الفصل الأول

جهود ابن قتيبة في علوم القرآن

وفيه عشرة مباحث :

- المبحث الأول: أسماء القرآن الكريم وسوره وأقسامه .
- المبحث الثاني : نزول القرآن الكريم ، والحكمة من تنجيده .
- المبحث الثالث : جمع القرآن .
- المبحث الرابع : تواتر القرآن الكريم ، والجواب عن الشبه المثارة حوله .
- المبحث الخامس : فضائل القرآن الكريم .
- المبحث السادس : المحكم والمتشابه .
- المبحث السابع : النسخ .
- المبحث الثامن : القسم في القرآن الكريم .
- المبحث التاسع : إعجاز القرآن الكريم .
- المبحث العاشر : وقوع المعرب في القرآن الكريم .

المبحث الأول

أسماء القرآن الكريم وسوره وأقسامه

أولاً : أسماء القرآن الكريم .

للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة ، وقد جاء ذكرها في أربعمئة وثلاث وخمسين آية^(١)، كما حفلت السنة بأحاديث نبوية كثيرة جاء فيها بيان لشيء من أسماء القرآن وصفاته ، ولا شك أن كثرة الأسماء والصفات تدل على شرف القرآن الكريم وعظمته .

قال الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) :

"اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، أو كماله في أمر من الأمور ، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته ، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته ، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها ، وكذلك أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبي صلى الله عليه وسلم دلت على علو رتبته وسمو درجته ، وكذلك أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته"^(٢).

وقد اهتم العلماء بموضوع أسماء القرآن قديماً وحديثاً ، فأفرده بعضهم بالتصنيف^(٣)، وتناوله بعض المفسرين من خلال مقدمات تفاسيرهم^(٤)، كما تحدث عنه من صنّف في علوم القرآن^(٥).

(١) انظر : الهدى والبيان في أسماء القرآن للشيخ صالح البليهي (ص ٤٦) .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٨٨/١) .

(٣) صنّف فيه ابن القيم كتابه "شرح أسماء الكتاب العزيز" ، والشيخ صالح بن إبراهيم البليهي في كتابه "الهدى والبيان في أسماء القرآن" ، ومحمد جميل غازي في كتابه "أسماء القرآن في القرآن" ، ود.خمسواوي أحمد خمسواوي في كتابه "أسماء القرآن الكريم في القرآن" ، والباحث عمر الدهيشي في رسالة ماجستير بعنوان "أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم" .

(٤) انظر : تفسير الطبري (٦٧/١) ، النكت والعيون للماوردي (٢٧/١) ، تفسير ابن عطية (٥٦/١) ، التسهيل لابن جزي (٧/١) ، تفسير القرآن للعز بن عبدالسلام (ص ٧) ، روح المعاني للألوسي (١٩/١) .

(٥) انظر : جمال القراء للسخاوي (٧٢/١) ، البرهان (٣٤٣/١) ، الإتقان (٣٣٦/٢) ، الزيادة والإحسان (٣٦٢/١) ، المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة (ص ٢٤) ، في علوم القرآن لفرحات (ص ١٢) ، لمحات في علوم القرآن للضباع (ص ٣٦) .

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل من اعتنى بهذا الموضوع ، فقد أفرد باباً في "غريب الحديث" وسمه بـ "باب تفسير ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر القرآن" ، ولهذا الباب قيمة تاريخية ؛ إذ هو أول باب - فيما أعلم - يفرد للحديث عن أسماء القرآن ، وقد عرض فيه ابن قتيبة لجملة من أسماء القرآن ، فسرها وبيّن وجه تسميتها بهذا الاسم^(١).

كما أعاد الحديث عن هذه الأسماء في مقدمة "تفسير غريب القرآن" في "باب تأويل حروف كثرت في الكتاب"^(٢).

أ. عدد أسماء القرآن الكريم .

المطلع على ما سطره العلماء حول أسماء القرآن الكريم يجد أنهم قد اختلفوا في عدد هذه الأسماء ، وانتهجوا في ذلك طريقتين :

أحدهما: من توسع في عد هذه الأسماء، فذكر كثيراً من أوصاف القرآن وعدّها أسماءً له، وأغلب من كتب في أسماء القرآن قد انتحى هذا المذهب، كالحارلي (ت ٦٣٧هـ)^(٣)، وهو أول من صنف في أسماء القرآن، حيث أنهى أسامي القرآن إلى نيف وتسعين اسماً، كما ذكر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)^(٤)، وممن توسع أيضاً في عد أسماء القرآن الكريم الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) الذي عد أسماء القرآن ثلاثة وتسعين اسماً^(٥)، ونقل الزركشي عن أبي المعالي عزيزي بن عبدالمملك المعروف بـ "شيدلة" (ت ٤٩٤هـ)^(٦) أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين

(١) غريب الحديث (١/٢٤١-٢٤٦) .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص٣٣-٣٧) .

(٣) أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن الحرّليّ الشّجّبيّ ، مفسر من علماء المغرب ، قال الذهبي : "لقي العلماء وجمال في البلاد ، ولهج بالعقليات ، وسكن حماة ، وعمل تفسيراً عجيباً ملاًه باحتمالات لا يحتملها الخطاب العربي أصلاً ، وتكلم في علم الحروف والأعداد" ، له مصنفات منها : "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" ، و"تفهيم معاني الحروف" ، توفي سنة ٦٣٧هـ . [سير أعلام النبلاء (٢٣/٤٧) ، طبقات المفسرين للدوادري (١/٣٩٢)] .

(٤) البرهان (١/٣٤٣) .

(٥) بصائر ذوي التمييز (١/٨٨) .

(٦) أبو المعالي عزيزي بن عبدالمملك بن منصور الجبلي ، المعروف بـ "شيدلة" ، واعظ من فقهاء الشافعية، له اشتغال بالأدب ، ولي القضاء ببغداد ومات بها سنة ٤٩٤هـ ، قال ابن خلكان : "صنف في الفقه وأصول الدين والوعظ

وخمسين اسماً، وقد سردها الزركشي في البرهان مدلاً لها بالآيات، ثم شرع بشرح بعضها، وتفسيره^(١)، وكذلك فعل السيوطي (ت ٩١١هـ) في الإتيان^(٢) وزاد اسمين فأوصلها إلى سبعة وخمسين اسماً، ومن المتوسعين في عد أسماء القرآن الكريم شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨)، حيث عد سبعة وأربعين اسماً وارداً في القرآن^(٣)، ومثله تلميذه ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) في كتابه "شرح أسماء الكتاب العزيز"، وكذا السخاوي (ت ٦٤٣) حيث ذكر ثلاثة وعشرين اسماً للقرآن الكريم في كتابه "جمال القراء وكمال الإقراء"^(٤)، ومن المتأخرين الشيخ صالح البليهي (ت ١٤١٠) في كتابه "الهدى والبيان في أسماء القرآن"، حيث أورد ستة وأربعين اسماً للقرآن الكريم^(٥).

الثاني : من اقتصد في عدّ أسماء القرآن ، وعلى رأس هؤلاء الإمام ابن قتيبة ، الذي اقتصر على أربعة أسماء : القرآن ، والكتاب ، والفرقان ، والذكر .

ومثله فعل الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ؛ فقال في مقدمة تفسيره :
 "إن الله تعالى ذكره سمى تنزيله الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم أسماء أربعة
 منهن : القرآن ... ، ومنهن الفرقان ، ... ومنهن الكتاب العزيز ، ... ومنهن الذكر"^(٦).

وجمع كثيراً من أشعار العرب " ، من مصنفاته : "البرهان في مشكلات القرآن" ، و"ديوان الأنس" . [وفيات الأعيان

(٢٥٩/٣)، العبر للذهبي (٣٧٠/٢) .

(١) البرهان (٣٤٣/١) .

(٢) الإتيان (١٥٩/١) .

(٣) مجموع الفتاوى (١/١٤) .

(٤) جمال القراء (١٦٦١/١) .

(٥) الهدى والبيان في أسماء القرآن (ص ٥٠) .

(٦) تفسير الطبري (٦٧/١) .

وتبعهما في تحديد هذه الأسماء الأربعة الماوردي (ت ٤٥٠هـ)^(١)، وابن عطية^(٢) (ت ٥٤٦هـ)، والعز بن عبد السلام^(٣) (ت ٦٦٠هـ)، وابن جزري^(٤) (ت ٧٤١هـ)، وغيرهم. وزاد بعضهم اسماً خامساً وهو "التنزيل"^(٥)، وهي تسمية مقبولة، إذا علمنا أنه جاء ذكر القرآن بأنه منزل وتنزيل في مائة واثنتين وأربعين آية^(٦).

وهذا المسلك الذي رآه ابن قتيبة وغيره مسلك فيه دقة، وسلامة من الخلط بين الأسماء والأوصاف؛ لأن الأسماء: ألفاظ وضعت علاقة ودليلاً للشيء، ترفعه للذهن فلا ينصرف إلى غيره عند الإطلاق^(٧).

فهذه الأسماء الخمسة: القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر، والتنزيل، عند إطلاقها في سياق الإشارة إلى المنزل على النبي ﷺ لا ينصرف المعنى إلا إليها، بخلاف الأوصاف المشتركة، فإنها عند إطلاقها لا تفيد تخصيص الاسم بكلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ، بل غاية ما تدل عليه هو ما قام فيها من المعنى، وهو الوصفية المذكورة فيها، والإشارة إلى خصيصة من خصائص هذا الكتاب العزيز^(٨).

أما مسلك التوسع في عد أسماء القرآن الكريم فهو مسلك غير دقيق، وفيه مبالغة وتكلف في عد تلك الأسماء، ويمكن انتقاد هذا المسلك بأمرين:

١. أن فيه خلطاً بين الأسماء والأوصاف، فإن أغلب ما ذكروه من أسماء للقرآن هو

في الحقيقة أوصاف له، كعدهم لفظ "كريم" اسماً من أسماء القرآن، أخذاً من قوله تعالى: ﴿

(١) النكت والعيون (٢٧/١) .

(٢) تفسير ابن عطية (٥٦/١) .

(٣) تفسير القرآن للعز بن عبد السلام (ص ٧) .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٧/١) .

(٥) انظر : مناهل العرفان (٨/١)، المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبه (ص ٣٤) .

(٦) الهدى والبيان للبليهي (ص ٥٠) .

(٧) الكليات للكفوي (ص ٨٤) .

(٨) انظر : علوم القرآن بين البرهان والإتقان، د. حازم حيدر (ص ٢٠٣) .

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾، وعدهم أيضاً لفظ "مبارك" من أسماء القرآن أخذاً من قوله تعالى:

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ ﴿٢﴾، مع أن الظاهر كونهما وصفين للقرآن لا اسمين^(٣).

٢. أن في بعض ما عدوه اسماً للقرآن تكلفاً وبعداً في أن المراد به القرآن، مثل عدهم

"منادياً" من أسماء القرآن، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي

لِلْإِيمَنِ ﴾ ﴿٤﴾، مع أن المراد بالمنادي عند جمهور المفسرين هو الرسول ﷺ^(٥)، وكذلك

عدهم من الأسماء "الزبور" أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ

الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ﴿٦﴾، مع أن المراد بالزبور هو الكتاب

المنزل على داود عليه السلام، أو هو جميع الكتب المنزلة من غير تخصيص للقرآن^(٧).

ب. أسماء القرآن عند ابن قتيبة :

ذكر الإمام ابن قتيبة أربعة أسماء للقرآن الكريم ؛ هي : القرآن ، والكتاب ، والفرقان،

والذكر ، وتفصيلها كالاتي :

١. القرآن .

سمى الله كتابه "قرآناً" في ثلاثة وسبعين موضعاً^(٨)، ويعد هذا الاسم أشهر أسماء

القرآن ، وأكثرها وروداً في آياته ، وأشهرها دوراناً على ألسنة الناس .

يقول الإمام ابن قتيبة في تقرير هذا الاسم ، وفي بيان اشتقاقه ، ووجه التسمية به:

"والقرآن : من قولك : ما قرأت الناقة سَلًى^(٩) قط ، أي ما ضمت في رحمها ولداً،

وكذلك ما قرأت جنيناً ..

(١) سورة الواقعة : ٧٧ .

(٢) سورة الأنبياء : ٥٠ .

(٣) انظر : مناهل العرفان (١٤/١) .

(٤) سورة آل عمران : ١٩٣ .

(٥) انظر : تفسير البغوي (١٥٣/١)، المحرر الوجيز (٥٥٦/١)، تفسير القرطبي (٣٢٥/٤) .

(٦) سورة الأنبياء : ١٠٥ .

(٧) انظر : الطبري (٩٧/٩)، تفسير البغوي (٣٥٨/٥)، المحرر الوجيز (١٠٣/٤)، زاد المسير (٢٩١/٥) .

(٨) انظر : الهدى والبيان للبليهي (ص ١٨٠) .

(٩) جاء في اللسان ، مادة "سلا" (٣٩٤/١٤): "السلى: لفافة الولد من الدواب والإبل، وهو من الناس: المشيمة".

وقال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(١)، أي تأليفه، قال: وإنما سمي قرآناً لأنه جمع السور وضمها، ويكون القرآن مصدراً كالقراءة: يقال: قرأت قراءة حسنة وقرآناً حسناً، وقال الله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٢)، أي قراءة الفجر، يعني صلاة الفجر، قال الشاعر في عثمان بن عفان (ت ٣٥هـ) - رضي الله عنه -:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطِ^(٣) عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا^(٤)
أي تسبيحاً وقراءة " (٥).

وقد ظهر من كلام ابن قتيبة أن القرآن مشتق، وأن الهمزة فيه أصلية، وهو القول الأول في الأصل الاشتقاقي لكلمة "قرآن".
والقول الثاني: أن لفظ "قرآن" مشتق من مادة "ق ر ن"، أي أنه غير مهموز، وقد اختلف أصحاب هذا القول إلى فرقتين:

أ. فقالت فرقة - منهم الأشعري (ت ٣٢٤هـ) - : أن كلمة قرآن مشتقة من "قرنت الشيء بالشيء" إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمي القرآن بذلك لقرن السور والآيات والحروف فيه^(٦).

ب. وقالت فرقة - منهم الفراء (ت ٢٠٧هـ) - : أنه مشتق من القرائن، جمع قرينة، وسمي القرآن بذلك؛ لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً ويشابه بعضها بعضاً، وهي قرائن^(٧).

(١) سورة القيامة: ١٧.

(٢) سورة الإسراء: ٧٨.

(٣) الشمط: بياض شعر الرأس يخالط سواده. [لسان العرب، مادة "شمط" (٣٣٥/٧)].

(٤) البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه (ص ٤١٠).

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٣٣-٣٤)، وذكر نحوه في غريب الحديث (٢٤١/١).

(٦) انظر: البرهان (٣٤٩/١)، الإتيان (٣٣٩/٢)، تفسير الألويسي (١٩/١)، في علوم القرآن لفريحات (ص ١٣).

(٧) انظر: معاني القرآن للفراء (٢١١/٣)، البرهان (٣٤٩/١)، الزيادة والإحسان (٣٦٣/١)، التحرير والتنوير لابن

عاشور (١٧/١).

وقد تعقب الزجاج (ت ٣١١هـ) من قال بأن القرآن غير مهموز ، وبَيَّن أن قولهم خطأ ، وأن الصواب في ذلك هو أن ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ، ونقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها ^(١).

القول الثالث : أن القرآن اسم جامد غير مهموز ، وبه قرأ ابن كثير (ت ١٢٠هـ) ^(٢) ، وأَنَّه اسم خاص بكلام الله تعالى ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، مثل "التوراة" ، و"الإنجيل" ، وإلى هذا ذهب الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ^(٣) ، ورجحه السيوطي (ت ٩١١هـ) ^(٤).

وجاء عن الشافعي أنه قرأ على إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين (ت ١٧٠هـ) ، وكان يقول : "القرآن اسم وليس مهموزاً ، ولم يؤخذ من "قرأت" ، ولو أخذ من "قرأت" لكان كل ما قرئ قرآنًا ، ولكنه اسم للقرآن ؛ مثل التوراة والإنجيل" ^(٥).

وجمهور أهل العلم على القول الأول ، وهو أن القرآن مشتق والهمزة فيه أصلية ، إلا أنهم افترقوا إلى فرقتين :

أ . فقالت فرقة - منهم الطبري (ت ٣١٠هـ) ^(٦) ، وابن عطية (ت ٥٤٦هـ) ^(٧) - : أنه أنه مشتق من قرأ بمعنى تلا .

ب . وقالت فرقة - منهم ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ^(٨) ، والراغب (ت ٥٠٢هـ) ^(٩) ، وابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) ^(١٠) - : أنه مشتق من القرء بمعنى الجمع .

(١) معاني القرآن للزجاج (١/١٧٠) .

(٢) انظر : الغاية في القراءات العشر (ص ١٥٨) ، حجة القراءات لابن زنجلة (ص ١٢٥) .

(٣) انظر : تاريخ بغداد (٢/٦٢) ، تهذيب اللغة (٩/٢٩١) ، جمال القراء للسخاوي (١/٧٥) .

(٤) الإبتقان (٢/٣٤١) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک ح (٢٩٠٥) (٢/٢٥٠) .

(٦) تفسير الطبري (١/٦٧) .

(٧) تفسير ابن عطية (١/٥٦) .

(٨) مقاييس اللغة (٥/٧٩) .

(٩) المفردات (ص ٤٠٠) .

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٠) .

وفي كلام الإمام ابن قتيبة ما يشير إلى الجمع بين المعنيين : الجمع والقراءة ؛ وذلك أن القرآن سمي بذلك لكونه متلوّاً ، ولأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والسور بعضها إلى بعض .

يقول الدكتور أحمد حسن فرحات :

"وبناء على ذلك تكون "القراءة" اسماً جامعاً لكل من الجمع والتلاوة معاً ، ويمكن أن تطلق على كل واحدة منهما ؛ لأن كل اسم موضوع لمعنيين يطلق على كل واحد منهما إذا انفرد ، كالمائدة للخوان وللطعام ، ثم قد يسمى لكل واحد منهما بانفراده به ، وإذا صحَّ هذا كان معنى "قرآنه" في قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۗ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ ﴾^(١) : تلاوته فقط ؛ لأن معنى الجمع ذكر قبل ذلك مستقلاً في قوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ۗ ﴾^(٢) .

٢ . الكتاب .

يقول ابن قتيبة :

"وقد سمي الله القرآن "كتاباً" ؛ فقال : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾^(٣) ، وقال تعالى : تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾^(٤) ، والكتاب فعلُ الكاتب ، تقول : كتبت كتاباً ، كما تقول : حَجَبَ حِجَاباً ، وقام قياماً ، وصام صياماً ، وقد يسمى الشيء بفعل الفاعل ، يُقال : هذا درهم ضَرَبُ الأمير ، وإنما هو مضروب الأمير ، وتقول : هؤلاء خلق الله لجماعة الناس ، وإنما هم مخلوقو الله"^(٥) .

وقد سمي الله عزَّ وجل ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم كتاباً ، في سبع وسبعين آية^(٦) .

(١) سورة القيامة : ١٦-١٧ .

(٢) في علوم القرآن (ص١٦-١٧) .

(٣) سورة البقرة : ٢ .

(٤) سورة إبراهيم : ١ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص٣٦-٣٧) .

(٦) الهدى والبيان للبيهقي (ص١٧٨) .

والكتب في أصل اللغة بمعنى الجمع والضم^(١)، قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ):
 "الكاف والتاء والباء، أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء"^(٢)، فكل ما جمع
 فقد كتب، يقال "كتبت السقاء" إذا خرزته، لذا قيل لخرز القرية كُتِبَ جمع كتبة .
 ويقال أيضاً: "كتبت الناقة" إذا صررت أخلافها - أي جمعتها -، ومنه كتيبة الجيش
 لاجتماع الفرسان.

قال شمر (ت ٢٥٥هـ) : كل ما ذكر في الكتب قريب بعضه من بعض، وإنما هو
 جمعك بين الشيئين^(٣).

وسميت الكتابة بذلك لضم الحروف فيها بعضها إلى بعض، وكذا الكتاب لجمعه
 الحروف والأوراق، والأصل في الكتابة هو ضم الحروف بالخط، ولكن قد يقال للمضموم
 باللفظ كتابة أيضاً، قال الراغب (ت ٥٠٢هـ):

"ولهذا سمي كلام الله وإن لم يكتب كتاباً لقوله: ﴿الَّذِي كَتَبَ﴾"^(٤)^(٥).

قال السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) معقباً على قول الراغب:

"وأقرب من ذلك أن يقال: سمي كتاباً لما يؤول إليه من الكتابة في علم الله تعالى"^(٦).
 تعالى"^(٦). وهذا هو الأظهر، إذ إن النظم بالكلام لا يسمى كتابةً، وإنما سمي القرآن كتاباً
 لكونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي الصحف التي
 بأيدينا، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ
 مَّحْفُوظٍ﴾^(٧)، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ

(١) وخصه بعضهم بالجمع والضم في الأمور المرئية، قال أبو السعود في تفسيره (٢٣/١) : "وأصله الجمع والضم في

الأمر البادية للحس البصري، ومنه الكتيبة للعسكر، كما أن أصل القراءة الجمع والضم في الأشياء الخافية عليه".

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص ١٨٥) مادة (كتب) .

(٣) نقلاً عن الأزهري في تهذيب اللغة (١٥٠/١٠) .

(٤) سورة البقرة : ١-٢ .

(٥) المفردات للراغب (ص ٤٢٥) .

(٦) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي (٤٣٦/٣) .

(٧) سورة البروج : ٢١-٢٢ .

ذَكَرَهُ، (١٢) فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) (١)، ومكتوب في المصاحف التي بين أيدينا (٢).

والكتاب هنا بمعنى المكتوب، فهو فعال بمعنى مفعول، إما لكونه مصدرًا لكتاب المصوغ للمبالغة في الكتابة، والمصدر قد يأتي بمعنى المفعول - كما قال ابن قتيبة -، كالخلق بمعنى مخلوق، والضرب بمعنى مضروب، وإما لكونه فعالاً بمعنى مفعول، كلباس بمعنى ملبوس (٣) ملبوس (٣).

قال السخاوي (ت ٦٤٣هـ)، في سبب تسمية القرآن كتاباً:

"فسمي بذلك لما اجتمع فيه من المعاني، كالأمر والنهي والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، والحلال والحرام، ونبأ ما كان وما يكون، وما يحتاج إليه من أمر الدين وتفصيل ما اختلف فيه من الأحكام" (٤).

ولعل في تسمية القرآن بالكتاب إشارة إلى أن من حقه الحفظ بالكتابة، كما أن تسميته قرآناً إشارة إلى أن من حقه الحفظ في الصدور.

قال الدكتور محمد عبدالله دراز:

"وفي تسميته بهذين الاسمين - أي القرآن والكتاب - إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً" (٥).

٣ . الفرقان .

يقول ابن قتيبة:

"إن القرآن سمي فرقاناً؛ لأنه فَرَّقَ بين الحق والباطل وبين الكافر والمؤمن" (٦).

قال الشيخ صالح البليهي (ت ١٤١٠هـ):

(١) سورة عبس : ١٢-١٦ .

(٢) انظر : تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة) لابن عثيمين (٢٥/١) .

(٣) انظر : تفسير البغوي (٥٩/١)، تفسير الألوسي (١٧٥/١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٢/١) .

(٤) جمال القراء (١٧٢/١) .

(٥) النبأ العظيم، د. محمد دراز (ص ٨) .

(٦) غريب الحديث (٢٤١/١) .

"وسماه الله - أي القرآن - فرقاناً في أربع آيات"^(١).
وما ذكره الشيخ - رحمه الله - فيه توسع، إذ لا تظهر تسمية القرآن "فرقاناً" إلا في آيتين هما:

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(٢)، فالفرقان هنا هو القرآن باتفاق المفسرين^(٣) .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾^(٤) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ^(٥) ، فالفرقان هنا على قول بعض بعض السلف كقتادة (ت ١١٧هـ) والربيع بن أنس (ت ١٤٠هـ) هو القرآن^(٦) .
ولفظ (الفرقان) من الفرق، وهو في أصل اللغة التمييز بين شيئين.
قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ):

"فرق: الفاء والراء والقاف أصل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين، ومن ذلك الفرق: فرّق الشعر، ... والفرقان: كتاب الله، فرق به بين الحق والباطل، والفرقان: الصبح، سمي بذلك لأنه به يفرق بين الليل والنهار"^(٧) .

وقد تعددت أقوال العلماء - وإن كانت متقاربة - في تسمية القرآن "فرقاناً":
فجمهور المفسرين وأهل اللغة على أن القرآن سمي بذلك؛ لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل^(٨) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ)، ومجاهد (ت ١٠٢هـ)، أن الفرقان:
المخرج^(٩)، وعن عكرمة (ت ١٠٤هـ)، والسدي (ت ١٢٨هـ) وغيرهما، أن الفرقان:

(١) الهدى والبيان (ص ٥١) .

(٢) سورة الفرقان : ١ .

(٣) انظر : تفسير الطبري (٣٦٣/٩) ، تفسير البغوي (٧١/٦) .

(٤) سورة آل عمران : ٣-٤ .

(٥) انظر : تفسير الطبري (١٦٨/٣) .

(٦) معجم مقاييس اللغة (ص ٨١٤) مادة (فرق) .

(٧) مجاز القرآن (١٨/١) ، تفسير الطبري (٦٩/١) ، تفسير ابن عطية (٥٦/١) ، البرهان (٣٥١/١) .

(٨) تفسير الطبري (٦٩/١) .

النجاة^(١).

وهذه الأقوال مع اختلاف ألفاظها إلا أنها متقاربة المعاني، فالمخرج هو النجاة، ومن نجى فقد افترق عن أهل الباطل.

وهذه التسمية ليست مقتصرة على القرآن فقط، بل تشمل بقية الكتب السابقة كالطوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾^(٣).^(٤)

٤ . الذكر .

ذكر الإمام ابن قتيبة هذه التسمية عند تفسير "الذكر" في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾^(٥)؛ فقال: "نسوا الذكر، أي القرآن"^(٦).

قال الشيخ صالح البليهي (ت ١٤١٠ هـ):

"الله جل شأنه سمي القرآن الكريم، والدستور الحكيم، والنبراس العظيم، ذكراً وتذكراً، في خمسة وخمسين موضعاً"^(٧).

وقد تتبعنا الآيات التي جاء فيها وصف القرآن بأنه ذكراً فوجدتها تزيد عن خمس وعشرين آية.

والذكر في اللغة جاء على معنيين؛ أحدهما: الذكر الذي هو ضد النسيان، والآخر العلو والشرف، قال ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ):

"ذكرت الشيء، خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذكر، بضم الذا، أي لا تنسه، والذكر: العلاء والشرف، وهو قياس الأصل"^(٨).

(١) المصدر السابق (٦٩/١).

(٢) سورة البقرة: ٥٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٤٨.

(٤) انظر: كتاب العين (٧٤٠)، في علوم القرآن لفرحات (ص ٢٣).

(٥) سورة الفرقان: ١٨.

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٣١١).

(٧) الهدى والبيان للبليهي (ص ١٨٥).

وعند التأمل في المعنيين نجد أنهما بمعنى واحد كما أشار إلى ذلك ابن فارس، وذلك لأن من شرف وعلا شأنه فإنه لا ينسى. أما سبب تسمية القرآن "ذكراً" فقد تعددت فيه أقوال العلماء؛ بناءً على المعنيين المذكورين في اللغة:

فمن قال بالمعنى الأول، قال: إن القرآن سمي بذلك لأنه ذكر من الله تعالى، ذكر به عباده، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه^(٢)، وقيل: سمي بذلك لأن الله جل وعلا ذكر به الناس آخرتهم وإلهمهم، وما كانوا في غفلة عنه فهو ذكر لهم^(٣)، وقيل: بل سمي بذلك لما فيه من المواعظ، والتحذير، وأخبار الأمم الماضية^(٤).

ومن قال هو من الشرف، قال: سمي بذلك لأنه شرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه^(٥).

وقد جمع بين المعنيين الإمام ابن قتيبة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾^(٦)؛ فقال: "أي ذي الشرف، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾"^(٧)، ويقال: فيه ذكر ما قبله من الكتب"^(٨).

ثانياً: سور القرآن وأقسامه:

تحدث الإمام ابن قتيبة عن معنى السورة في اللغة، ووجه تسميتها بذلك؛ فقال: "والسورة: تهمز ولا تهمز؛ فمن همزها جعلها من "أسأرت"، يعني: أفضلت، لأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من سورة البناء، أي منزلة بعد منزلة، قال النابغة - الذبياني - في النعمان:

(١) معجم مقاييس اللغة (ص ٣٦٨) مادة (ذكر).

(٢) تفسير الطبري (٧٠/١).

(٣) تفسير ابن عطية (٥٦/١).

(٤) البرهان للزركشي (٣٥٠/١).

(٥) تفسير الطبري (٧٠/١)، تفسير ابن عطية (٥٦/١)، البرهان (٣٥٠/١).

(٦) سورة ص: ١.

(٧) سورة الأنبياء: ١٠.

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٣٧٦).

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كلَّ ملكٍ دونها يتدبَّدبُ^(١)

والسورة في هذا البيت سورة المجد ، وهي مأخوذة من سورة البناء^(٢) .

ولأهل العلم أقوال أخرى في اشتقاقها :

ف قيل : سُميت سورة القرآن تشبيهاً لها بسور المدينة ، لكونها محيطة بآيات وأحكام إحاطة السور بالمدينة^(٣) .

وقيل : سميت بذلك لتكوين بعضها على بعض ، من التسور بمعنى التصاعد والتكوين^(٤) .

إلا أن الأشهر في اشتقاقها ما ذكره الإمام ابن قتيبة ، وهو الذي ارتضاه ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)^(٥) ، والداني (ت ٤٤٤هـ)^(٦) ، والسخاوي (ت ٦٤٣هـ)^(٧) .

وبعد أن فرغ ابن قتيبة من بيان معنى السورة لغَةً ، عرض لأقسام سور القرآن الأربعة ، المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم : "أعطيت مكان التوراة السبع ، وأعطيت مكان الزبور المثني ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفُضِّلْتُ بالمفصل"^(٨) .

وتفصيلها كالتالي :

١ . السَّبْعُ الطُّوَالُ .

يقول ابن قتيبة في تعيينها :

(١) البيت في ديوانه (ص ١٩) .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٤) ، وانظر : غريب الحديث (١/٢٤١) .

(٣) انظر : المفردات للراغب (٤٣٤) ، البرهان (١/٢٦٤) .

(٤) الإتيان (٢/٣٤٦) .

(٥) معجم مقاييس اللغة (٣/١١٥) .

(٦) البيان في عد آي القرآن (ص ١٢٤) .

(٧) جمال القراء (١/٩٥) ، وانظر للاستزادة : تحذيب اللغة (٣٦/١٣) ، البيان في عد آي القرآن (ص ١٢٤) ، البرهان

(١/٢٦٣) ، بصائر ذوي التمييز (١/٨٤) ، أسماء سور القرآن وفضائلها ، د. منيرة محمد الدوسري (ص ٢٣) .

(٨) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٠٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان ح (٢٤١٥) (٢/٤٦٥) ، وأبو عبيد في

فضائل القرآن (ص ٢٢٥) ، والطبري في تفسيره (١/٩٦) ، من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، وصححه

الألباني [السلسلة الصحيحة (٣/٤٦٩)] .

"والسبع الطوال آخرها براءة ، كانوا يرون الأنفال وبراءة سورة واحدة ؛ لأثما جميعاً نزلتا في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لم يفصلوا بينهما"^(١).
ولم يكن هذا التعيين محل اتفاق بين العلماء ، فقد ذهب بعضهم إلى أن السورة السابعة هي سورة يونس ، وهو منسوب لابن عباس (ت ٦٨ هـ)^(٢) ، وسعيد بن جبير (ت ٩٤ هـ)^(٣) ، ومجاهد (ت ١٠٤ هـ)^(٤) ، واختاره ابن جرير (ت ٣١٠ هـ)^(٥) ، والماوردي (ت ٤٥٠ هـ)^(٦).

يقول ابن عباس (ت ٦٨ هـ) لعثمان بن عفان (ت ٣٥ هـ) رضي الله عنهما :
"ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المثاني ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطرًا بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتوها في السبع الطوال"^(٧).
قال ابن جرير (ت ٣١٠ هـ) - معلقاً - :
"فهذا الخبر يصرح أن ابن عباس لم يكن يرى أن الأنفال وبراءة من السبع الطوال"^(٨).
الطوال"^(٨).

٢ . المثون .

يقول ابن قتيبة :

"والسور التي تُعرف بـ "المثين" : هي ما ولي السبع الطوال ، سميت بمثين ، لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها"^(٩).

(١) غريب الحديث (٢٤٢/١)، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ٣٥) .

(٢) تفسير الطبري (٩٩/١) .

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٢٢٧) .

(٤) التحبير في علم التفسير للسيوطي (ص ٣٧٠) .

(٥) تفسير الطبري (٩٨/١) .

(٦) النكت والعيون (٢٦/١) .

(٧) أخرجه أبو داود في الصلاة ، باب من جهر بما ح (٧٨٦) (ص ١٢٨١)، والترمذي في تفسير القرآن، باب ومن

سورة التوبة ح (٣٠٨٦) (ص ١٩٦٣)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٢٨٥)، والطبري في تفسيره (٩٨/١)،

وضعه الألباني [ضعيف سنن أبي داود (ص ٦٦)، صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٤٢/٣)].

(٨) تفسير الطبري (٩٩/١) .

(٩) غريب الحديث (٢٤٢/١)، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ٣٥) .

٣ . المثاني :

يقول ابن قتيبة :

"المثاني : ما ولي المعين من السور التي هي دون المائة ، كأنّ المعين مبادٍ وهذه
مثانٍ"^(١).

وقيل : سميت بذلك لأنها تتنى أكثر مما يتنى الطوال والمئون^(٢).

وقيل : سميت مثاني ، لتثنية الله جل وعلا فيها الأمثال والخبر والعبير^(٣).

ويسترسل الإمام ابن قتيبة - بعد بيانه معنى المثاني كقسم - فيبين معنى المثاني في صفة
القرآن عامة ، أو الفاتحة خاصة ؛ فيقول :

"وقد تكون المثاني سور القرآن كلها قصارها وطوالها ، يقال من ذلك قوله جل وعز :

﴿ كُنِبًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي ﴾^(٤) ، ومنه قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾^(٥).

وإنما سمي مثاني ؛ لأن الأنبياء والقصص تُتلى فيه .

ويقال : المثاني في قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ ، آيات سورة الحمد ،

سمّاها مثاني ؛ لأنها تتنى في كل صلاة وفي كل ركعة^(٦).

٤ . المفصل .

يقول ابن قتيبة في بيانه :

"والمفصل : ما يلي المثاني من قصار السور ؛ سميت مفصلاً لقصرتها وكثرة الفصول

فيها بسطر : بسم الله الرحمن الرحيم"^(٧).

وقد اختلف العلماء في تحديد أول المفصل على أقوال كثيرة^(٨) ، أرجحها : أن أوله

(١) غريب الحديث (٢٤٢/١) ، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ٣٥) .

(٢) انظر : معاني القرآن للفراء (٤١٨/٢) .

(٣) انظر : الإتيقان (٤١٣/٢) .

(٤) سورة الزمر : ٢٣ .

(٥) سورة الحجر : ٨٧ .

(٦) غريب الحديث (٢٤٢/١) ، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ٣٥) .

(٧) غريب الحديث (٢٤٣/١) ، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ٣٥) .

سورة (ق) ، وهو اختيار ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٢) ، والزركشي (ت ٧٩٤هـ)^(٣) ، وقال وعليه أصحاب الأثر ، وحكاه عيسى بن عمر الكوفي (ت ١٥٦هـ) عن كثير من الصحابة^(٤) .
ويدل على هذا القول حديث أوس بن حذيفة الثقفي (ت ٥٩هـ) رضي الله عنه ، قال: "سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف تحزبون القرآن ، قالوا: نحزبه ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل"^(٥) .
وحيئنذ إذا عددت ثمانياً وأربعين سورة كانت التي بعدها سورة (ق) .
ثم إن العلماء يقسمون المفصل إلى ثلاثة أقسام :
أ . طوال المفصل : من أول المفصل إلى سورة النبأ .
ب . أوساط المفصل : من سورة النبأ إلى سورة الضحى .
ج . قصار المفصل : من سورة الضحى إلى آخر القرآن^(٦) .

(١) انظر هذه الأقوال في : جمال القراء (١/٨٩) ، البرهان (١/٢٤٥) ، الإتيقان (٢/٤١٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٣٩٢) .

(٣) البرهان (١/٢٤٦) .

(٤) نقله الماوردي في النكت والعيون (١/٢٧) .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة ، باب تحزيب القرآن ح (١٣٩٣) (ص ١٣٢٧) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة ، باب في

كم يستحب أن يختم القرآن ح (١٣٤٥) (ص ٢٥٥٦) ، وقد حسن الحديث الحافظ العراقي في المغني عن حمل

الأسفار (١/٢٢٥) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٦٩) .

(٦) الإتيقان : (٢/٤١٧) .

المبحث الثاني

نزول القرآن والحكمة من تنجيّمه

أولاً : نزول القرآن .

يعد هذا المبحث من أهم مباحث علوم القرآن ، إذ تعرف به كيفية نزول القرآن ، ومتى نزل ؟ وكيف كان يتلقاه جبريل - عليه السلام - من الله عزّ وجل ؟ وكيف تلقاه الرسول ﷺ من جبريل ؟ وبه يرد على ما أثير حول كيفية نزول القرآن من جدال ونقاش كلامي ، حيث أدخل فيه القول بخلق القرآن ، وأن جبريل نقله من اللوح المحفوظ ، وأن الله عزّ وجل لم يتكلم به عند نزوله على الرسول ﷺ ، وعليه فإن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن ، وأنه كلام الله عزّ وجل .

كما يعد هذا المبحث كالأصل بالنسبة لبقية علوم القرآن ؛ إذ يتوقف كثير منها على العلم بنزوله، كالعلم بأول ما نزل ، وآخر ما نزل ، والمكي والمدني ، والناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول وغير ذلك^(١) .

وقد عرض الإمام ابن قتيبة لهذا المبحث في "تأويل مشكل القرآن" ، فتحدث عن النزول المفترق للقرآن ، والحكمة منه ، فقال :

"إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة ، بفرضٍ بعد فرض ، تيسيراً منه على العباد ، وتدریجاً لهم إلى كمال دينه .. يقول الله عزّ وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾^(٢) ، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالثبیت هو المؤمنون"^(٣) .

ثم أطال الحديث عن الحكمة عن تنجيّم القرآن الكريم ، ثم عاد إلى الحديث عن تنجيّم نزول القرآن ؛ فقال :

(١) انظر : مناهل العرفان (٣٠/١) ، المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبه (ص٤٧) .

(٢) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص٢٣٢) .

"إن القرآن كان ينزل شيئاً بعد شيء ، وآية بعد آية ، حتى لربما نزل الحرفان والثلاثة ... ، فعن الحسن (ت ١٠١هـ) : أنه قال في قوله الله عزّ وجل : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾^(١) ، قال : "كان ينزل آية وآيتين وآيات ، جواباً لهم عما يسألون ورداً على النبي صلى الله عليه وسلم"^(٢).

وكذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ وَزَلَّزْنَاهُ نَزِيلاً ﴾^(٣) ، شيئاً بعد شيء"^(٤).
كما كرر الحديث عن تنجيم نزول القرآن في "تفسير غريب القرآن" ، حين فسر تفصيل آيات القرآن على أنه نزولها مفرقة ، وذلك في عدد من الآيات ؛ منها :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾^(٥) ؛ قال :
"أي : تأتي بها متفرقة شيئاً بعد شيء ، ولا ننزلها جملة"^(٦).
وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ الرِّكَابُ أَكْثَرُ الْحَيَاةِ قَدِ احْتَمَّتْ بَيْنَهُمْ فُجُورُهُمْ فُصِّلَتْ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾^(٧) ؛ قال :
"فُصِّلَتْ بالحلال والحرام ، ويقال : فُصِّلَتْ ؛ أنزلت شيئاً بعد شيء ، ولم تنزل جملة"^(٨).

كما فسّر ابن قتيبة الإقسام بالنجوم في القرآن على أنها نجوم القرآن إذا نزل .
ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾^(٩) ؛ قال :
"كان القرآن ينزل نجوماً ، فأقسم الله بالنجم منه إذا نزل"^(١٠).

(١) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٤٦/١٧) .

(٣) سورة الإسراء : ١٠٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٨) .

(٥) سورة الأنعام : ٥٥ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ١٥٤) .

(٧) سورة هود : ١ .

(٨) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠١) .

(٩) سورة النجم : ١ .

(١٠) تفسير غريب القرآن (ص ٤٢٧) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾^(١)؛ قال :
"أراد : نجوم القرآن إذا نزل"^(٢).

ثانياً : الحكمة من نزول القرآن منجماً .

لنزول القرآن منجماً حكم كثيرة ، وفوائد عديدة ، منها ما يعود على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما يتعلق بالمؤمنين ، ولالإمام ابن قتيبة كلام نفيس في هذا الباب ، إذ يقول :

"إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة ، بفرضٍ بعد فرض :
تيسيراً منه على العباد ، وتدرجاً لهم إلى كمال دينه ، ووعظٍ بعد وعظ ، تنبيهاً لهم من سنة الغفلة ، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعدة ، وناسخٍ بعد منسوخ ، استعباداً لهم واختباراً لبصائرهم ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾^(٣).

الخطاب للنبي صلى الله عليه ، والمراد بالثبوت هو المؤمنون .

وكان رسول الله صلى الله عليه يتحوّل أصحابه بالموعدة مخافة السامة عليهم ، أي يتعهدهم بها عند الغفلة ودثور القلوب^(٤).

ولو أتاهم القرآن نجماً واحداً لسبق حدوث الأسباب التي أنزله الله بها ، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين ، وعلى من أراد الدخول في الدين ، ولبطل معنى التنبيه ، وفسد معنى النسخ ، لأن المنسوخ يُعمل به مدة ثم يُعمل بناسخه بعده .

وكيف يجوز أن ينزل القرآن في وقت واحد : افعلوا كذا ولا تفعلوه؟"^(٥).

(١) سورة الواقعة : ٧٥ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٤٥١) .

(٣) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٤) دثور القلوب : أي الحياء الذكر منها ودروسها . [تهديب اللغة، مادة "دثر" (١٤/٦٢)] .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٢-٢٣٣)، وانظر للاستزادة من حكم نزول القرآن منجماً : المرشد الوجيز لأبي شامة (ص ١٣٣)، مناهل العرفان للزرقاني (١/٤٨)، المدخل لدراسة القرآن لأبي شعبة (ص ٦٩)، نزول القرآن الكريم ، د.محمد الشايع (ص ٤٢)، دراسات في علوم القرآن ، د.فهد الرومي (ص ٢٢٧)، المحرر في علوم القرآن، د.مسعد الطيار (ص ٧٦)، محاضرات في علوم القرآن ، د.غانم قدوري (ص ٣٢) .

المبحث الثالث

جمع القرآن

جمع القرآن يطلق تارة ويراد به حفظه في الصدور ، ويطلق أخرى ويراد به كتابته في الصحف والسطور ، وجمع القرآن بهذا المعنى الثاني مرّ بمراحل متعددة ؛ قسمها العلماء إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

المرحلة الثانية : في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

المرحلة الثالثة : في عهد عثمان رضي الله عنه .

وسيكون تفصيل هذه المراحل من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بحفظ القرآن ، وإقراءه لأصحابه وحفظهم له ، بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده في السطور ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ عدداً من كتّاب الوحي ؛ منهم : الخلفاء الأربعة ، وزيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) ، وأبي ابن كعب (ت ٣٠هـ) ، ومعاوية (ت ٦٠هـ) ، وعمرو بن العاص (ت ٤٣هـ) ، والمغيرة بن شعبة (ت ٥٠هـ) ، وعبدالله بن رواحة (ت ٨هـ) ، وخالد بن الوليد (ت ٢١هـ) ، رضي الله عنهم أجمعين^(١) ، فكان إذا نزل عليه شيء من الوحي أمر أحدهم بكتابته فور نزوله ، كما جاء في عدد من الآثار ، منها ما جاء عن البراء بن عازب (ت ٧٢هـ) رضي الله عنه ؛ قال : "لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً (ت ٥٥هـ) فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم (ت ١٥هـ) ، فشكا ضرارته ، فأنزل الله ﴿عِدِّ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(٢) .

(١) انظر : المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبه (ص ٢٦٧) ، جمع القرآن الكريم حفظاً وكتابة ، د.علي العبيد (ص ٢٥) ، تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ، خالد العك (ص ٤٦) .

(٢) سورة النساء : ٩٥ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير [سورة النساء] ، باب "لا يستوي القاعدون من المؤمنين" ح (٤٥٩٣) (ص ٣٧٨) ، ومسلم في الأمانة ، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين ح (٤٩١١) (ص ١٠١٧) .

وفي رواية أخرى نقلها ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" ^(١):

"قال زيد بن ثابت : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ ، فجاء عبد الله بن أم مكتوم ، فقال : يا رسول الله إني أحب الجهاد في سبيل الله ، ولكن بي من الضر ما ترى ، قال زيد: فتقلت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي حتى خشيت أن ترُضَّها ، ثم قال :

"اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾" ^(٢).

ولم تكن أدوات الكتابة ميسرة في ذلك الوقت ، فلذلك كانوا يكتبونه على حسب ما تيسر لهم في الرِّقَاع ^(٣) ، والعُسْب ^(٤) ، والأكتاف ^(٥) ، واللِّخَاف ^(٦) ، والأقْتَاب ^(٧) ، ونحو ذلك.

يقول ابن قتيبة عن الأدوات التي كتب فيها القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن الصحف في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى ما كتب فيه القرآن ؛

لأنهم كانوا يكتبونه في الجريد والحجارة والخزف وأشباه هذا ، ... قال الزهري (ت ١٢٥هـ):

"قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن في العُسْب والقُضْم والكرانيف" ^(٨) ، والقُضْم :

: جمع قضيم ، وهي الجلود ، والكرانيف : أصول السعف الغلاظ ، واحدا كرنافة" ^(٩).

ثم أشار الإمام ابن قتيبة إلى أن القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن

مجموعاً في مصحف واحد ؛ بل كان متفرقاً بين المسلمين في عدد من أدوات الكتابة ^(١٠).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير [سورة النساء] ، باب "لا يستوي القاعدون من المؤمنين" ح (٤٥٩٢) (ص ٣٧٨).

(٣) الرِّقَاع : جمع رقعة ، وهي القطعة من الجلد ، وقد تكون من غيره . [لسان العرب ، مادة "رَقَع" (١٣١/٨)].

(٤) العُسْب : جمع عَسِيب ، وهو سعف النخل . [غريب الحديث لابن قتيبة (٦٦٨/٣)] .

(٥) الأكتاف : جمع كتف ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم.

[لسان العرب ، مادة "كْتَف" (٢٩٤/٩)] .

(٦) اللِّخَاف : واحدها لَخْفَة ، وهي حجارة بيض رقاق . [غريب الحديث لأبي عبيد (١٥٦/٤)] .

(٧) الأقْتَاب : جمع قْتَب ، وهي قطعة من الخشب التي توضع على ظهر البعير ليتركب عليه . [لسان العرب ، مادة

"قْتَب" (٦٦٠/١)] .

(٨) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٣٩٠/١) ، عن الزهري مسنداً عن عبيد بن السَّيِّاق عن زيد بن ثابت.

(٩) تأويل مختلف الحديث (ص ٢١٠) .

(١٠) المصدر السابق (ص ٢١١) .

وقد ذكر العلماء عدة اعتبارات لعدم جمع القرآن في مصحف واحد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ منها :

١ . أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة ، وإنما منجماً في ثلاث وعشرين سنة، ولم يكن ترتيب السور والآيات على ترتيب النزول ، فلو جُمع القرآن في مصحف واحد لكان عرضة للتغيير كلما نزلت آية أو سورة .

٢ . أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله نسخه من القرآن ، فلو كان القرآن مجموعاً في مصحف واحد لكان عرضة للتغيير كلما وقع نسخ.

٣ . أن الدواعي لجمع القرآن في مصحف واحد لم تكن موجودة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما وجدت في عهد أبي بكر (ت ١٣هـ) رضي الله عنه، فالأمة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بخير وأمن ، والقراء كثيرون ، والفتنة مأمونة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرائهم ، بخلاف ما كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مقتل الحفاظ وخشية ضياع القرآن الكريم بمقتلهم^(١).

المطلب الثاني : جمع أبي بكر رضي الله عنه .

أشار الإمام ابن قتيبة لهذا الجمع حين نقل أثر زيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) رضي الله عنه : "أمرني أبو بكر رضي الله عنه بجمعه ، فجعلت أتبعه من الرقاع والعشب واللخاف"^(٢).
(٣)

وقد بيّن هذا الأثر الكثير مما يتعلق بجمع أبي بكر رضي الله عنه .
فعن سبب هذا الجمع والداعي له يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه :

(١) انظر : هذه الاعترافات في : الإبانة لمكي (ص٥٧)، البرهان في علوم القرآن (١/٢٣٥)، مناهل العرفان (١/٢٠٤)، المدخل لأبي شعبة (ص٢٦٩)، جمع القرآن، د.العبيد (ص٢٩)، المحرر في علوم القرآن ، د.الطيار (ص١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير [سورة براءة] ، باب قوله تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾ ح(٤٦٧٩) (ص٣٨٨)، وفي فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ح(٤٩٨٦) (ص٤٣٢) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص٢١٠)، وانظر : غريب الحديث (٢/٣٠٤) .

"أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر (ت ٢٣هـ)، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر".

وفي هذا ما يشير إلى أن سبب الجمع يعود إلى مقتل عدد كبير من القراء في حروب الردة، مما جعل بعض الصحابة يخشى من ذهاب شيء من القرآن بذهاب حفظته، فتشاوروا واتفقوا على جمع القرآن في مصحف واحد.

وعن الصفات التي أهلته لأن يتولى جمع القرآن؛ يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: "قال لي أبو بكر رضي الله عنه: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فأجمعه". وقد ظهر من هذا المقومات التي اتصف بها زيد رضي الله عنه، والتي لأجلها كُلف بمهمة الجمع؛ وهي:

١. أنه شاب تتوفر فيه الحماسة والنشاط، فيكون أقوى وأجلد على هذا العمل الشاق.

٢. أنه عاقل فطن يحسن التصرف، فيكون أوعى لما يعمل، وأبعد عن الخلل والنقص.

٣. أنه - كما هو حال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - غير متهم في دينه، فلا يكون في عمله أدنى ريبة أو شك.

٤. أنه من كُتَّاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بل هو أشهرهم وأكثرهم وأخصهم بكتابة الوحي^(١).

(١) انظر: جمع القرآن، د. العبيد (ص ٣٤)، جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، د. الرومي (ص ١٣)، المحرر في علوم القرآن، د. الطيار (ص ١٥٥).

ويضاف إلى هذه المقومات : أنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عبدالرحمن السلمي (ت ٧٣هـ) :

"قرأ زيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام الذي توفاه الله فيه مرتين ، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت ، لأنه كتبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرأها عليه ، وشهد العرضة الأخيرة ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات ، ولذلك اعتمده أبو بكر (ت ١٣هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) في جمعه ، وولاه عثمان (ت ٣٥هـ) كتب المصاحف رضي الله عنهم أجمعين"^(١).

ثم يتحدث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن مصادره في الجمع ؛ فيقول :

"فقتت بتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمه الأنصاري (ت ٧٣هـ) رضي الله عنه لم أجدهما مع أحد غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨ ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ١٢٩ ﴾"^(٢) ^(٣).

المطلب الثالث : جمع عثمان رضي الله عنه .

لم يتحدث الإمام ابن قتيبة عن الجمع في عهد عثمان (ت ٣٥هـ) رضي الله عنه إلا بإشارة مقتضبة ، وذلك في معرض حديثه عن اشتراط موافقة رسم المصحف العثماني لقبول

(١) رواه البغوي في شرح السنة (٤/٥٢٥) .

(٢) سورة التوبة : ١٢٨-١٢٩ .

(٣) انظر - للاستزادة - حول جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه : الإبانة لمكي (ص٥٧)، البرهان (٢٣٣/١)، الإتيان (٣٧٧/٢)، مناهل العرفان (١/٢٠٤)، المدخل لأبي شهبه (ص٢٦٩)، تاريخ توثيق نص القرآن الكريم (ص٦١)، جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين (ص١١)، المحرر في علوم القرآن (ص١٥٣) .

القراءة ، وحينها تحدث عن أن هذا المصحف كان آخر العرض ، وأنّ السلف اتفقوا عليه^(١).

كما أشار ابن قتيبة إلى أن الغرض من هذا الجمع هو جمع الناس على مصحف واحد ؛ والقضاء على المصاحف الخاصة التي جمع فيها بعض الصحابة القرآن الكريم لأنفسهم^(٢). وقد جاء بيان كثير مما يتعلق بهذا الجمع بما رواه أنس بن مالك (ت ٩٣هـ) رضي الله عنه ؛ قال :

"إن حذيفة بن اليمان (ت ٣٦هـ) قدم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصُّحف ننسخها من المصاحف ثم نرُدّها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمرَ زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصُّحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحفٍ مما نسخوا، وأمرَ بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحفٍ أن يُحرق"^(٣).

ويؤخذ من هذا الأثر ما يلي :

١ . أن سبب الجمع الداعي له هو الاختلاف الشديد بين القرأة ، والذي ظهر بجلاء في فتح أرمينية وأذربيجان بين أهل الشام وأهل العراق ، ويعود سبب الاختلاف إلى اتساع الفتوحات الإسلامية ، وانتشار الصحابة رضوان الله عليهم في تلك البلدان ، وتعليم أهلها القرآن ، وأمور الدين ، فكان كل صحابي يعلم أهل البلد الحرف الذي تلقاه، فكان أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب (ت ٣٠هـ) رضي الله عنه، وأهل العراق يقرأون بقراءة

(١) انظر : المسائل والأجوبة (ص ٢١٣-٢١٤)، وتأويل مشكل القرآن (ص ٤٢) .

(٢) انظر : المسائل والأجوبة (ص ٢١٤)، وتأويل مشكل القرآن (ص ٥١) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ح (٤٩٨٧) (ص ٤٣٢) .

عبدالله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) رضي الله عنه ، وهكذا ، فإذا جمعتهم المجمع وسمع بعضهم قراءة بعض ؛ أنكرها وغلظها، ووصل بهم الأمر إلى أن كُفّر بعضهم بعضاً^(١).

٢ . أفاد هذا الأثر أن الأصل الذي اعتمد عليه هذا الجمع هو الصحف التي جمعها زيد بن ثابت (ت ٥٥ هـ) رضي الله عنه في عهد أبي بكر (ت ١٣ هـ) رضي الله عنه، ولهذا أمر عثمان (ت ٣٥ هـ) رضي الله عنه بإحضار هذه الصحف من حفصة بنت عمر (ت ٤٥ هـ) رضي الله عنهما ؛ إذ كانت عندها بعد أن كانت عند عمر (ت ٢٣ هـ) وقبله عند أبي بكر رضي الله عنهما ، وكان العمل يقوم على نسخ المصاحف من هذه الصحف^(٢).

٣ . دلّ الأثر على أن عثمان رضي الله عنه عهد بمهمة الجمع إلى لجنة مؤلفة من أربعة أشخاص من الصحابة من خيرة الحفاظ والكتاب ، هم : زيد بن ثابت (ت ٥٥ هـ)، وعبدالله بن الزبير بن العوام القرشي (ت ٧٣ هـ)، وسعيد بن العاص القرشي الأموي (ت ٥٣ هـ)، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام القرشي المخزومي (ت ٤٣ هـ) رضي الله عنهم أجمعين .

ولا يتنافى مدلول هذا الأثر مع ما جاء في بعض الروايات من أن الذين ساهموا في نسخ المصاحف اثنا عشر رجلاً^(٣)، فإن أثر أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) رضي الله عنه حدّد للجنة الأساسية ، أما الروايات الأخرى فقد أضافت من ساعدتهم بالإملاء والكتابة^(٤).

٤ . أبان الأثر عن المنهج المتبع في الرسم حال الاختلاف ، فقد أرشد عثمان رضي الله عنه اللجنة عند الاختلاف في كتابة كلمة إلى كتابتها بحرف قريش ؛ لأنه نزل بلسانهم . والمقصود بالاختلاف : الاختلاف من حيث الرسم والكتابة ، لا من حيث الألفاظ والكلمات ، بدلالة قوله : "فاكتبوه" ، فيكون المعنى : إذا اختلفتم أنتم وزيد في رسم كلمة، فاكتبوها بالرسم الذي يوافق لغة قريش ولهجتها^(٥).

(١) انظر : فتح الباري لابن حجر (١٨/٩)، تاريخ توثيق نص القرآن الكريم (ص٧٤) .

(٢) انظر : المحرر في علوم القرآن (ص١٥٩) .

(٣) أخرج ابن أبي داود في المصاحف (٢١٣) عن ابن سيرين عن كثير بن أفلح قال : "لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار ، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت".

(٤) انظر : جمع القرآن ، د.العبيد (ص٤٣)، علوم القرآن، نور الدين عتر (ص١٧٤) .

(٥) انظر : جمع القرآن ، د.العبيد (ص٤٥)، المحرر في علوم القرآن (ص١٥٩) .

٥ . دل الأثر على إلزام الناس بما نسخ من مصاحف في جمع عثمان ، وأمرهم بإحراق كل ما خالفها من مصاحف ، حتى لا يأخذ أحد إلا بتلك المصاحف التي حصل عليها إجماع الصحابة ، وبهذا يُدفع الشقاق والنزاع في القراءة ، ويحصل الوفاق ، ويتحقق الغرض الذي لأجله حصل هذا الجمع .

يقول الدكتور مساعد الطيار متحدثاً عن أهمية هذا الإلزام :

"وهذا الإلزام سيكون حاسماً قاطعاً للخلاف ؛ لاتفاق المصدر ، فلو خرج شامي وعراقي مرة أخرى ، وأثبت كل واحد منهما قراءته بما بعث به عثمان رضي الله عنه ، فإن الحال هنا إلى أن الصادر عن المدينة مما اتفق عليه الصحابة أنه قرآن بهذا الاختلاف الثابت فيه ، أما قبل ذلك فلم يكن لهم مرجع مُعيّن ، فكلُّ ينسب القراءة إلى من قرأ عليه من الصحابة ، وهم يقرؤون بالثابت والمتروك لعدم علمهم بتركه .

وبهذا يتضح خلاف عمل عثمان عن عمل أبي بكر رضي الله عنهما"^(١).

(١) المحرر في علوم القرآن (ص١٦٢)، وانظر - للاستزادة - حول جمع عثمان رضي الله عنه : المرشد الوجيز لأبي شامة (ص١٦٧)، البرهان (١/٢٣٥)، الإلتقان (٢/٣٨٧)، مناهل العرفان (١/٢١٠)، المدخل لأبي شهبه (ص٢٧٤)، تاريخ توثيق نص القرآن (ص٦٩)، جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين ، د. الرومي (ص١٩).

المبحث الرابع

تواتر القرآن الكريم ، والجواب عن الشبه المثارة حوله

أولاً : تواتر القرآن الكريم .

القرآن الكريم نقل إلينا بطريق الرواية، وقد أجمع المسلمون على أنه نقل بطريق التواتر، الذي يفيد بأن القرآن قطعي الثبوت.

وكيف لا يكون كذلك؟ وقد أنزله الله تعالى منهجاً للحياة، وكان ناسخاً لما قبله من الكتب، ولا ناسخ له ؛ إذ هو آخر الكتب السماوية، والإسلام هو الدين إلى يوم القيامة، والني ﷺ هو خاتم النبيين لا نبي بعده، ولهذا كله فقد تكفل الله عزّ وجل بحفظه، ليبقى حجة على الناس إلى أن تقوم الساعة، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١) .

قال الزركشي (ت ٧٩٤هـ) :

"لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً في أصله وأجزائه، وأما في محله ووضعه وترتيبه، فعند المحققين من علماء السنة كذلك، أي: يجب أن يكون متواتراً، فإن العلم اليقيني حاصل أن العادة قاضية بأن مثل هذا الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الهادي للخلق إلى الحق المعجز الباقي على صفحات الدهر، الذي هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم، فمستحيل ألا يكون متواتراً في ذلك كله، إذ الدواعي تتوافر على نقله على وجه التواتر، وكيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢)، والحفظ إنما يتحقق بالتواتر"^(٣).

والقرآن الكريم منذ نزوله على رسول الله ﷺ، لم يحمله فرد واحد، بل حملته الأمة كلها يومئذ، وحفظ القرآن في الصدور وفي السطور.

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة الحجر : ٩ .

(٣) البرهان (٢ / ١٣٣) .

وبعد وفاته ﷺ اجتمع عامة الصحابة على الاعتناء بنقله وضبط تلاوته وأدائه وروايته، وبقي الناس ينسخون المصاحف عن أصول الصحابة، ويقرؤون بأداء النقلة المجودين في جميع الأمصار، وهو كتاب واحد، برسم واحد، يتلى على أنواع الأداء، قد تلتقتها الأجيال عن الأجيال، لا يزيد فرد على فرد في تلاوته على ما في هذا المصحف، وتأتيه القرون بعد القرون لا يتغير ولا يتبدل.

ولم يكن المعول عليه المكتوب في هذه المصاحف فقط، إذ هو أحد طريقي نقل القرآن، بل كان التعويل في تلقي القرآن على الأخذ بالرواية والمشاهدة، فتناقلته القراء، طبقة عن طبقة، بالحفظ والعناية والصيانة، حتى وصل إلينا القرآن الكريم، من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل، فكان تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١).^(٢)

وبهذه الكيفية التي نقل بها القرآن الكريم حتى وصل إلينا يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن القرآن نقل نقلاً متواتراً، وقد اتفقت الأمة على ذلك^(٣).
قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨):

"والقرآن الذي بين لוחي المصحف متواتر، فإن هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة، ونقلوها قرآناً عن النبي ﷺ، وهي متواترة من عهد الصحابة نعلم علماً ضرورياً أنها ما غيرت"^(٤).

ثانياً : الجواب عن الشبه المثارة حول تواتر القرآن الكريم .

سبق الحديث عن أنه لا نزاع في تواتر نقل القرآن عند عامة المسلمين ، إلا أن أعداء الإسلام لم يفتؤوا عن تلمس المطاعن في القرآن الكريم، لأنهم يعلمون أنه أصل الدين، ومنبع الصراط المستقيم، فالتشكيك فيه إضعاف للدين، وصرف للمسلمين عن الطريق القويم، وقد

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) انظر: المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبدالله الجديع (ص ١٩٥).

(٣) انظر: الانتصار للباقلاني (٥٩/١)، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٢/٢١٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٦٩/١٢) .

سبقهم المشركون في ذلك، كما أخبرنا الله عز وجل بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾^(١).

ولهذا نجد أن من شكك في تواتر القرآن وأثار الشبه حوله، إنما هم أصحاب النفوس الحاقدة على الإسلام من المستشرقين والقسس، أو أهل الأهواء والبدع، كالرافضة أعداء أصحاب رسول الله ﷺ ومن شاكلهم، ولا شك أن من كان متلبساً بالحق والتعصب والهوى، فإنه لا ترجى منه النزاهة والأمانة العلمية، ويتضح ذلك جلياً من خلال الشبه التي تشبثوا بها وأثاروها، فإنها بمجموعها لا تخرج عن أحد أمرين:

أ. إما روايات ضعيفة واهية أو باطلة موضوعة، أكثرها عن الرافضة، تلقفوها، وأضافوا إليها ما شاءت نفوسهم الحاقدة، وهؤلاء المستشرقون وغيرهم من أهل البدع لا علم لهم بالأسانيد، ولا يميزون بين صحيح الأسانيد وسقيمها، فجميع الأخبار المحكية عندهم مسلمة، وأتى لهم العلم بالإسناد، والمستشرقون من اليهود والنصارى قد حرّموا الإسناد، إذ اختصت به هذه الأمة الوسط، وأما الرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء، فلا حظ لهم من الإسناد، إذ عقيدتهم مبنية على الهوى، فينتقون من الروايات ما يوافق أهواءهم، ويردون ما يخالفها، من دون اعتبار للإسناد، فهم ليسوا من أهل الإسناد.

ب. وإما روايات صحيحة، حملوها على غير محاملها الصحيحة، وصرّفوها إلى المحامل التي ترضي أحقادهم، وتشفي صدورهم المريضة، وليس هذا بغريب على من اتصف بالهوى والتعصب، فهو يعتقد قبل أن يستدل، ويلوي أعناق النصوص ويتأولها على ما يهواه^(٢).

وأغلب الشبهات المثارة حول تواتر القرآن كانت من خلال ما أثير حول جمع القرآن، وكذا ما كان من اختلاف القراءات، وهذا سر اهتمام المستشرقين بمهذين الموضوعين، وبكل ما يتعلق بهما من آثار وآراء ومؤلفات، وأغلب ما كتبه المستشرقون تأليفاً أو تحقيقاً كان حول تاريخ القرآن والقراءات، ظناً منهم أنهم وجدوا مدخلاً يستطيعون من خلاله الطعن في هذا الكتاب العظيم الذي تكفل الله بحفظه.

(١) سورة فصلت : ٢٦ .

(٢) انظر : المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شعبة (ص ٢٨٣) .

ومن أشهر المستشرقين الذين تناولوا هذه الشبه وأثاروها المستشرق المجري جولد تسيهر (ت ١٩٢١م) في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي)، والمستشرق الفرنسي بلاشير (ت ١٩٥٢م) في كتابه (القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره)، والمستشرق الألماني نولدكه (ت ١٩٣٠م) في كتابيه (تأريخ النص القرآني)، و(تأريخ القرآن) .

وقد تصدى لهؤلاء كثير من المحققين كالشيخ عبدالفتاح قاضي (ت ١٤٠٣هـ) في كتابه (القراءات في نظر المستشرقين والملحددين)، والدكتور عبدالفتاح شلي في كتابه (رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم دوافعها، ودفعها)، وكذلك الدكتور عمر إبراهيم رضوان في كتابه الموسوم (آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره) ويعتبر هذا الكتاب من أفضل من تناول شبه المستشرقين حول القرآن الكريم وعلومه، وتوسع في الرد عليها ونقضها^(١) .

كما أطل الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) في (مناهل العرفان)^(٢) ، وأجاد الدكتور محمد أبو شعبة (ت ١٤٠٣هـ) في (المدخل لدراسة القرآن الكريم) في تحرير تلك الشبه ونقضها^(٣) . يقول الدكتور محمد أبو شعبة في ردِّ عام على تلك الشبه - بعد أن نقضها واحدة تلو الأخرى - :

"وإليك رد عام يرد به على هذه الشبه وعلى غيرها، مما أورد على جمع القرآن، وهو أن المسلمين أجمعوا على أن هذا الذي كتب في المصاحف، وحفظه الألوف عن الألوف، هو القرآن الذي أنزله رب العالمين على نبيه محمد ﷺ، لا زيادة فيه، ولا نقصان، فمن ادعى زيادة عليه، أو نقصاناً فقد أبطل الإجماع، وبهت جمهور الناس، ورد ما قد صح عن الرسول ﷺ، وغير معقول أن يبطل ما أجمع عليه المسلمون، بروايات جلها باطل موضوع، وما صح منها فله محامل صحيحة، وليس نصاً على ما يزعم الزاعمون، وإن من يزعم أن القرآن نقص منه شيء أو زيد فيه شيء، كمن زعم أن الصلوات المفروضة كانت عشرين، فأنقصها

(١) وأصل هذا الكتاب رسالة علمية قدمت لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد بذل فيها الباحث جهداً مشكوراً، كما هي أغلب الأعمال الأكاديمية، فإنها تنال حظاً من العناية والجهد، وهذا يظهر الأثر الكبير والدور البارز الذي تقوم به الجامعات والمؤسسات العلمية في إثراء العلم ونشره.

(٢) مناهل العرفان (١/١٨٣-٢٠١) .

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص ٢٨٣) وما بعدها.

المسلمون إلى خمس، أو أنها كانت ثلاثاً فصيروها خمساً - سواء بسواء - فإذا صح في العقول شيء من هذا صح ما تقوّلوه على القرآن.

والله سبحانه - وقد وعد بحفظ كتابه - قد هياً من الأسباب الداعية إلى حفظه وصيانته من التحريف والتبديل ما لم يتهيأ لكتاب غيره في الدنيا، وعلى كثرة ما صوبه أعداء الإسلام إلى القرآن من سهام غير صائبة، وتلفيقات مزورة فقد بقي القرآن كالطود الشامخ الذي لا تزحزحه عن مكانه الرياح، والأعاصير، مهما اشتدت، وقد تكسرت على صخرته العاتية كل ما راشوا من سهام، وبيتوا من كيد، وسيقى هكذا، صلداً، قوياً حتى يرث الله الأرض وما عليها، وصدق الله حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١)، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٢) " (٣).

ويعد الإمام ابن قتيبة من أوائل المصنفين الذين حملوا لواء الدفاع عن القرآن الكريم، والذب عنه ، فقد عرض للشبه التي تعلق بها من شكك في تواتر القرآن من الزنادقة والملاحدة ، ونقل عنهم في باب "الحكاية عن الطاعنين" قولهم : "وكان ابن مسعود (ت ٣٢هـ) يحذف من مصحفه "أم الكتاب" ، ويمحو "المعوذتين" ، ويقول: "لم تزيدون في كتاب الله ما ليس فيه؟".

وأبي (ت ٣٠هـ) يزيد في مصحفه افتتاح "دعاء القنوت" إلى قول الداعي: "إن عذابك بالكافرين ملحق" ، ويعده سورتين من القرآن"^(٤).

وهذه أهم الشبه التي أثارها الطاعنون في تواتر القرآن الكريم ، وقد أجاب الإمام ابن قتيبة عنها بأجوبة تفصيلية نالت الاستحسان ، وتناقلها أهل العلم ، وتفصيل ذلك كالتالي :
أ . شبهة محو المعوذتين من مصحف عبدالله بن مسعود (ت ٣٢هـ) رضي الله عنه، وهي من أقوى الشبه التي تعلق بها من شكك في تواتر القرآن ، كونها وردت بأسانيد

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة فصلت : ٤١-٤٢ .

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص ٣٠٧) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٥) .

صحيحة ، فقد أخرج البخاري (ت ٢٥٦هـ) عن زر بن حبيش (ت ٨٣هـ) قال : سألت أبي بن كعب (ت ٣٠هـ) ، قلت : يا أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا ، فقال أبي : سألت رسول الله ﷺ ، فقال لي : قيل لي ، فقلت ، قال : فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ^(١) ، وقد وقع هذا اللفظ مبهماً في رواية البخاري ، وكأن بعض الرواة أجهمه استعظاماً له^(٢) ، وجاء التصريح في رواية الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) ، ولفظه "إن عبدالله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه"^(٣) ، وكذا جاء التصريح في رواية ابن حبان (ت ٣٥٤هـ) : "قال : قلت لأبي بن كعب إن ابن مسعود لا يكتب في مصحفه المعوذتين"^(٤) .

وأخرج الطبراني (ت ٣٦٠هـ) عن عبدالرحمن بن يزيد (ت ٨٣هـ) ، قال : "رأيت عبدالله يحك المعوذتين ، ويقول : لم تزيدون ما ليس فيه؟"^(٥) . وفي رواية قال : "لا تخلطوا فيه ما ليس منه"^(٦) ، وفي رواية عنه أنه كان يحك المعوذتين من المصحف ، ويقول : "ليستا من كتاب كتاب الله"^(٧) .

فهذه الروايات تدل على أن ابن مسعود - ﷺ - كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه ، وصرحت بعض الروايات أنه قال : "ليستا من كتاب الله" ، وقد تعلق بهذه الروايات أعداء الإسلام قديماً وحديثاً ، وقالوا : هذا يدل على أن القرآن قد زيد فيه ما ليس منه ، وأن هذا الروايات تطعن في قرآنية المعوذتين ، وهذا مما يشكك في ثبوت النص القرآني وسلامته .

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب قل أعوذ برب الناس رقم (٤٩٧٧) (ص ٤٣٢) .

(٢) انظر : فتح الباري (٦١٥/٨) .

(٣) مسند الإمام أحمد (١٢٩/٥) .

(٤) أخرجه ابن حبان (الإحسان) باب قراءة القرآن رقم (٧٩٧) (٧٧/٣) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٩١٤٨) (٢٣٤/٩) ، وقال الجديع : إسناده صحيح [المقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص ١٠٨)] .

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في فضائل القرآن باب في المعوذتين رقم (٣٠٢٠٥) (١٤٦/٦) ، والطبراني في الكبير

(٩١٤٩) (٢٣٤/٩) ، وقال الجديع : إسناده صحيح [المقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص ١٠٨)] .

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (٩١٥٠) (٢٣٥/٩) ، وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند (١٢٩/٥) ، وقال

الجديع : إسناده صحيح [المقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص ١٠٨)] .

وقد ذهب الجمهور إلى الطعن في هذه الروايات والجزم بأنها ضعيفة أو موضوعة، واختار هذا الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) في الانتصار^(١)، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره^(٢)، وجزم به النووي (ت ٦٧٦هـ) في المجموع^(٣)، وأطال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) في المحلى^(٤) والفصل^(٥) وجزم بالوضع.

وكأنهم أرادوا من الطعن في هذه الروايات تنزيه ابن مسعود - رضي الله عنه - مع جلالته وعلمه، عن مثل هذا الغلط الشنيع، وإبطال التمسك بمثل هذا عند الملحددين للطعن في نقل القرآن الكريم.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) :

" واعلموا رحمكم الله أن هذه سبيل القول عندنا في كل أمر يروى من جهة الأحاد يوجب تفسيق بعض الصحابة وتضليله أو تفسيق من هو دونه من المؤمنين، وإلحاق البراءة منه واعتقاد الذم له في أنه لا يوجب قبوله ولا العمل به، كما أنه لا يجب العمل بصحته، وإنما يوجب العمل بخبر الواحد الذي لا يوجب العلم في مواضع مخصوصة من الشريعة لموضع التعبد بذلك، فأما أن نعمله في تفسيق المؤمنين الأبرار وإيجاب خلع مولاتهم والقضاء على إحباط أعمالهم، وفي الحكم على الأمة قاطبة بالضلال والفسق وفي إنكار ذلك الشيء المروي الذي يجب إنكاره وأنه غير جائز، فهذا أيضاً جملة توجب الحكم بإبطال هذه الرواية وبترك الإحفال بها والعمل عليها، وكيف يجوز لمسلم الشهادة على عبدالله بن مسعود بجحد سورتين من القرآن، وبما يوجب الكفر والارتداد والتبري بخبر الواحد ويعدل عما ثبت عنده من إيمانه وسابقته وكثرة أقاويل الرسول فيه ، وكونه مرضياً مقبولاً عند الصحابة ، وكل ما وصفناه من حاله يقتضي نفي هذا التكذب عليه"^(٦).

(١) الانتصار (٣٠١/١).

(٢) التفسير الكبير (١٧٨/١).

(٣) المجموع (٣٥٠/٣).

(٤) المحلى (١٣/١).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣٠٩/٢).

(٦) الانتصار (٣٠٨/١).

قلت : وهذا مقصد حسن إلا أن الإنصاف والمنهج العلمي الدقيق يأبى إبطال الروايات بمثل هذه المقاصد، والقواعد العلمية تدل على صحة هذه الروايات عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وإلى هذا ذهب ابن حجر (ت ٨٥٢) في فتح الباري حيث قال: "والطعن في الروايات بغير مستند لا يقبل، بل الرواية صحيحة، والتأويل محتمل"^(١).

ولهذا نجد الإمام ابن قتيبة لم يطعن في صحة هذه الرواية ، بل وجهها على أن ابن مسعود رضي الله عنه أنكر المعوذتين ظناً منه أنهما دعاء أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بهما - وهو التوجيه الأول من توجيهات أهل العلم لهذه الرواية - ، وفي ذلك يقول ابن قتيبة :

"أما نقصان مصحف عبدالله بحذفه "أم الكتاب" و"المعوذتين" فإننا لا نقول إن عبدالله أصاب ، وأخطأ المهاجرون والأنصار ، ولكن عبدالله ذهب فيما يرى أهل النظر إلى أن "المعوذتين" كانت كالعُودَةِ والرقيّة وغيرها، وكان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعوّذ بهما الحسن (ت ٥٥٠هـ)، والحسين (ت ٦١هـ) رضي الله عنهما، وغيرهما، كما كان يُعوّذ بـ"أعوذ بكلمات الله التامة"^(٢)، وغير ذلك ، فظن أنهما ليستا من القرآن، وأقام على ظنه ومخالفة الصحابة جميعاً"^(٣).

وقد جاء عن أصحاب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ما يقوي توجيه الإمام ابن قتيبة ، فعن علقمة النخعي (ت بعد ٦٠هـ) عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف ، ويقول : "إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ بهما" ، وكان عبدالله لا يقرأ بهما^(٤).

(١) فتح الباري (٦١٥/٨).

(٢) أخرج البخاري في أحاديث الأنبياء ، في باب منه ح(٣٣٧١) (ص٢٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوّد الحسن والحسين ، ويقول : "إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة" ."

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص٤٢-٤٣)، وانظر : تأويل مختلف الحديث (ص٢١) .

(٤) أخرجه البزار في مسنده (٢٩/٥) ح(١٥٨٦)، والطبراني في الكبير (٢٣٥/٩) ح(٩١٥٠)، وقال الجديع: "إسناده صحيح". [المقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص١١٢)].

وعن أبي عبدالرحمن السلمي (ت ٧٣هـ) عنه أنه كان يقول : " لا تخلطوا بالقرآن ما ليس فيه ، وإنما هما معوذتان تعوذ بهما النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، وكان عبدالله يمحوها من المصحف" (١) .
وقد ردّ أبو بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) هذا التوجيه ؛ فقال :

"وهذا مردود على ابن قتيبة ؛ لأن المعوذتين من كلام رب العالمين ، المعجز لجميع المخلوقين ؛ "وأعيذكما بكلمات الله التامة" من قول البشر بيّن ، وكلام الخالق الذي هو آية محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وحجة له باقية على جميع الكافرين ، لا يلتبس بكلام الآدميين ، على مثل عبدالله بن مسعود الفصيح اللسان ، العالم باللغة ، العارف بأجناس الكلام ، وأفانين القول" (٢) .

وسواء كان هذا ظن ابن مسعود رضي الله عنه أم لم يكن ظنه ، فإن هذا لا يطعن في قرآنية المعوذتين ، ولا ينقض تواتر القرآن ، ولا يرفع العلم القاطع بثبوتها القائم على التواتر ؛ إذ أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كونهما من القرآن ، وثبت التواتر بذلك .
قال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) :

"إلا أن في الإجماع على كونهما من القرآن غنية عن تكلف الأسانيد بأخبار الآحاد" (٣) .

التوجيه الثاني :

أن عدم كتابة المعوذتين أو حكمهما من المصحف لا يستلزم إنكار كونهما من القرآن ، وإنما إنكار إثباتهما في المصحف ، فابن مسعود رضي الله عنه كان لا يرى إثبات المعوذتين في المصحف ، وذلك لأحد أمرين :

١ . أنه رضي الله عنه كان يرى ألا يكتب في المصحف شيئاً إلا إن كان النبي ﷺ أذن في كتابته فيه ، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك (١) .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٥/٩) ح (٩١٥١) ، وقال الجديع : "حديث صالح الإسناد" . [المقدمات الأساسية

في علوم القرآن (ص ١١٣)] .

(٢) نقلاً عن القرطبي في تفسيره (٢٤٨/٢٠) .

(٣) فتح الباري (٦١٦/٨) .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) :

"ويمكن أيضاً أن يكون إنما لم يكتبها ولا الحمد لأنه لم يرقط الرسول ﷺ أكتبهن أحداً ولا أمر بكتابتهم، ولا اتفق أنه بلغه ذلك من وجه يوجب العلم عنده، وراه ﷺ قد كتب جميع سور القرآن، وأمر بأن يكتب، ولم يكتب الحمد والمعوذتين، لأن رسول الله ﷺ لم يكتبها، فتكون شدة إثاره للاتباع وترك الإحداث في القرآن لما لم يفعل رسول الله ﷺ هو الذي حداه على ذلك، وهذا غاية التشدد، وأدل الأمور على الورع، ويكون باقي الناس إنما كتبوا هذه السورة لعلمهم بأن رسول الله ﷺ كتبها كما كتب غيرهن" (٢).

٢ . أنه رضي الله عنه كان يرى أن الداعي إلى كتابة القرآن وجمعه هو حفظ القرآن مخافة الشك والنسيان، والزيادة والنقصان، وذلك مأمون بالنسبة للمعوذتين لكونهما محفوظتين في قلب كل مؤمن، فلا داعي لكتابتها بسهولة تعلمها وحفظها، وحتميتها في حياة المؤمن للتعوذ (٣).

وقد نوقش هذا التوجيه بأن سور النصر والكوثر والإخلاص يجرى المعوذتين في أنهن غير طوال، والحفظ إليهن أسرع، ونسيانهن مأمون، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها (٤).

وتوجيه إنكار ابن مسعود رضي الله عنه للمعوذتين أنه إنكار لكتابتها لا إنكاراً لقرآنتها، توجيه جيد، إلا أنه يعكر عليه ما جاء في رواية عبدالرحمن بن يزيد (ت ٨٣هـ) :

"كان عبدالله يحك المعوذتين من مصاحفه، ويقول أنهما ليستا من كتاب الله تبارك وتعالى" (٥).

التوجيه الثالث :

(١) فتح الباري (٦١٥/٨).

(٢) الانتصار (٣١٨/١).

(٣) انظر : الانتصار للباقلاني (٣١٧/١).

(٤) انظر : تفسير القرطبي (٢٤٨/٢٠).

(٥) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند (١٢٩/٥)، والطبراني في الكبير (٢٣٥/٩) رقم (٩١٥٠)، وقال

الجديع: إسناده صحيح، انظر: المقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص ١١٢).

أن ابن مسعود رضي الله عنه لم تثبت عنده حقيقة تواتر المعوذتين في أول الأمر، ثم تبين له بعد ذلك تواترها وثبوتها، ويدل على ذلك؛ أنه صح عنه قراءة عاصم (ت ١٢٧هـ)، وحزمة (ت ١٥٦هـ)، والكسائي (ت ١٨٩هـ)، وخلف (ت ١٢٩هـ) بسندهم المتصل إليه، وفي قراءتهم المعوذتان^(١).

قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ):

"وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواتر عنده، ثم قد رجح عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة رضي الله عنهم أثبتوها في المصاحف الأئمة^(٢)، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك والله الحمد والمنة"^(٣).

وهذا التوجيه الأخير، هو الذي تطمئن إليه النفس، وبه يحصل الجمع بين الروايات التي دلت على ثبوت إنكار المعوذتين عن ابن مسعود رضي الله عنه، وبين صحة القراءات عنه، وفيهما المعوذتان .

ب . شبهة حذف الفاتحة من مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

جاء في بعض الآثار أن ابن مسعود رضي الله عنه لم يكتب الفاتحة في مصحفه ، فعن إبراهيم النخعي (ت ٩٦هـ) قال : " قيل لابن مسعود لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك؟ فقال : " لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة " "^(٤).

وعن ابن سيرين (ت ١١٠هـ) : " كتب أبي بن كعب (ت ٣٠هـ) في مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين ، واللهم إنا نستعينك واللهم إياك نعبد، وتركهن ابن مسعود (ت ٣٢هـ) ، وكتب عثمان (ت ٣٥هـ) منهن فاتحة الكتاب والمعوذتين "^(٥).

وقد تعلق الطاعنون في تواتر القرآن بهذه الروايات ، والحق أن هذه الروايات ليس فيها ما يدل على إنكار قرآنية الفاتحة ، وإنما قصارى ما فيه أن ابن مسعود لم يكن يكتبها،

(١) انظر : مناهل العرفان للزرقاني (٣٢٦/١) .

(٢) المصاحف الأئمة هي المصاحف التي استنسخها عثمان رضي الله عنه وعددها ستة على الأرجح .

(٣) تفسير ابن كثير (٥٧٦/٤) .

(٤) رواه ابن كثير في تفسيره (١٠٣/١) .

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٣١٨) .

وليس في ذلك جحد بأنها من القرآن الكريم وحاشا أن يصدر ذلك من ابن مسعود رضي الله عنه .

يقول ابن قتيبة في ردّ هذه الشبهة :

"وأما "فاتحة الكتاب" فإني أشك فيما رُوي عن عبد الله من تركه إثباتها في مصحفه، فإن كان هذا محفوظاً فليس يجوز لمسلم أن يظنّ به الجهل بأنها من القرآن ، وكيف يُظنّ به ذلك ، وهو من أشد الصحابة عناية بالقرآن ، وأحد الستة الذين انتهى إليهم العلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : "من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد"^(١) .

وهو مع هذا متقدّم الإسلام بدريّ لم يزل يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمّ بها ، وقال : "لا صلاة إلا بسورة الحمد"^(٢) ، وهي السبع المثاني ، وأم الكتاب ، أي أعظمه ، وأقدم ما نزل منه ، كما سميت مكة أم القرى ؛ لأنها أقدمها قال الله عزّ وجل : ﴿ إِنَّ

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ۖ ﴾^(٣) .

ولكنه ذهب ، فيما يظنّ أهل النظر ، إلى أنّ القرآن إنما كتبت وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان ، والزيادة والنقصان ، ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد لِقصرها ، ولأنها تُثنى في كل صلاة وكل ركعة ، ولأنه لا يجوز لأحدٍ من المسلمين ترك تعلّمها وحفظها، كما يجوز ترك تعلم غيرها وحفظه ، إذ كانت لا صلاة إلا بها .

فلما أمنَ عليها العلة التي من أجلها كتبت المصحف ، ترك كتابتها وهو يعلم أنها من

القرآن .

(١) أخرجه الإمام أحمد (٧/١)، وابن ماجه في السنة ، باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ح(١٣٨) (ص٢٤٨٥)، وابن حبان في صحيحه ح(٧٠٦٦) (٥٤٢/١٥)، وصححه الألباني ، [صحيح ابن ماجه (٢٩/١)] .

(٢) انظر : تخرجه (ص٧٧٧) .

(٣) سورة آل عمران : ٩٦ .

ولو أن رجلاً كتب في المصحف سوراً وترك سوراً لم يكتبها ، لم نر عليه في ذلك وَكُفّاً^(١) ، إن شاء الله تعالى^(٢) .

وهذا الجواب كافٍ شافٍ في رد هذه الشبهة .

ج . شبهة عدّ أبي بن كعب رضي الله عنه دعاء القنوت من القرآن .

جاء في بعض الآثار أن أبي بن كعب (ت ٣٠هـ) رضي الله عنه يقرأ بسورتي "الخلع والحفد" - دعاء القنوت - ، على أنها من القرآن .

فمن الأعمش (ت ١٤٨هـ) أنه قال : "في قراءة أبي بن كعب : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق"^(٣) .

وعن ابن سيرين (ت ١١٠هـ) ؛ قال : "كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين ، و"اللهم إنا نستعينك" ، و"اللهم إياك نعبد" ، وتركهن ابن مسعود (ت ٣٢هـ) ، وكتب عثمان (ت ٣٥هـ) منهن فاتحة الكتاب والمعوذتين"^(٤) .

وقد عرض الإمام ابن قتيبة لهذه الشبهة ، وأجاب عنها بأن أبي بن كعب رضي الله عنه أثبتتها في مصحفه ، ظناً منه أنها قرآن لكثرة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بها في الصلاة ، وفي ذلك يقول :

"أثبت أبي بن كعب في مصحفه افتتاح دعاء القنوت ، وجعله سورتين ؛ لأنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهما في الصلاة دائماً فظن أنه من القرآن"^(٥) .

ولم يرتض الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) هذا التوجيه ، وذهب إلى تكذيب هذه الروايات والطعن فيها ؛ فقال :

(١) في اللسان ، مادة "وكف" (٣٦٢/٩) : "الوكف : الإثم والعيب ، ويقال : ليس عليك في هذا الأمر وكف : أي

ليس عليك فيه مكروه ولا نقص" .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٧-٤٩) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦/٥) ح (٧١٠٣) .

(٤) سبق تخريجه (ص ٧٦٧) .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص ٢١) ، وانظر : تأويل مشكل القرآن (ص ٤٧) .

"ثم إذا صرنا إلى القول فيما روي عنه من إثبات هذا الدعاء في مصحفه لم نجد ظاهراً منتشراً ، ولا مما يلزم قلوبنا العلم بصحته ويلزمنا الإقرار به ، والقطع على أبي بأنه كتب ذلك ، بل إنما يُروى ذلك من طرق يسيرة نزرة رواية الآحاد التي لا توجب العلم، ولا تقطع العذر ، ولا ينبغي لمسلم عرف فضل أبي وعقله وحسن هديه وكثرة علمه ومعرفته بنظم القرآن ووزنه ، وما هو منه مما ليس من جملته : أن تنسب إليه أنه كتب دعاء القنوت في مصحفه أو اعتقد أنه قرآن ! فإن اعتقاد كونه قرآناً أبين وأفحش في الغلط من كتابته في المصحف ، وأن يُقطع على أبي الشهادة بذلك من جهة أخبار الآحاد، ويشهد بذلك عليه ، ويُشهد به على من دون أبي من العلماء المؤمنين ، وإذا كان ذلك كذلك ، وكنا لا نعرف صحة إثباته له بهذه الرواية ، فسقط التعلق بما سقوطاً ظاهراً ...

ولو صحّ وثبت أنه وُجد مصحفٌ ينسب إلى أبي فيه دعاء القنوت لوجب أن يُعلم أنه مُتكذّب موضوعٌ ، فُصد بوضعه لفساد الدين وتفريق كلمة المسلمين والقدح في نقلهم، والطعن في مصحفهم الذي هو إمامهم"^(١).

وللزقاني (ت ١٣٦٧هـ) توجيه جيد لهذه الشبهة ؛ يقول فيه :

"إن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم في صحف أو مصاحف خاصة بهم ، ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن ، مما يكون تأويلاً لبعض ما غمض عليهم من معاني القرآن ، أو مما يكون دعاء يجري مجرى أدعية القرآن في أنه يصح الإتيان به في الصلاة عند القنوت ، أو نحو ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن ، ولكن ندرة أدوات الكتابة ، وكوثهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم ، هوّن عليهم ذلك؛ لأنهم آمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره ، فظن بعض قصار النظر أن كل ما كتبه فيها إنما كتبه على أنه قرآن ، مع أن الحقيقة ليست كذلك إنما هي ما علمت"^(٢).

(١) الانتصار للقرآن (١/٢٦٩-٢٧٠) .

(٢) مناهل العرفان (١/٢٢٢) .

المبحث الخامس فضائل القرآن الكريم

التمهيد :

القرآن الكريم هو حبل الله المتين ، وصراطه المستقيم ، ونوره المبين ، أحسن الحديث ذكراً ، وأكمله هدياً ، وأصدقه خبراً ، وأبينه حكماً ، وأعظمه فضلاً ، وأجله قدراً ، وأثقله وزناً ، وأعدبه لفظاً ، وأغزره علماً ، وأشدّه على النفوس أثراً .

وكفى بهذا الكتاب شرفاً وفضلاً أنه كلام رب العالمين ، فلو لم يكن له من المزية والفضيلة إلا أنه كلام رب الخليفة لكفى ، فكيف وقد اجتمع مع كونه كلام الله عزّ وجلّ ، أن أحيا الله به القلوب ، وأنار البصائر ، وأخرج الأمة من ظلمات الجهل والشرك ، والضلال والرذيلة ، إلى نور العلم والإيمان ، والهدى والفضيلة ، وتحقق به نقلة كبيرة في حياة أمة كانت ترعى الإبل والغنم ، فإذا بها تحوز مشارق الأرض ومغاربها ، وتركع لها الأمم .

وقد اهتم العلماء قديماً وحديثاً بذكر فضائل القرآن ، مستندين في ذلك لما جاء في القرآن الكريم ، ولما روي عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من الأحاديث والآثار ، فاهتموا بالترغيب في دراسته وتلاوته وتدبره ، والترهيب من هجرانه ونسيانه ، وصنفوا في ذلك مصنفات بينوا فيها عظمة القرآن وحرمة ، وفضل قراءته ، وكيفية تلاوته واستماعه ، وحذروا من قراءته للرياء والسمعة ، وبينوا ما أعد الله عزّ وجلّ لأهله من النعيم المقيم في جنات النعيم ، وما أعد كذلك من العذاب الأليم لمن أعرض عن كتابه الكريم .

وكان لإمامنا ابن قتيبة عناية فائقة بهذا الموضوع "فضائل القرآن" ، ويمكن تفصيل

حديثه عن هذا الموضوع من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : فضائل القرآن عموماً .

يتحدث الإمام ابن قتيبة في مقدمة "تأويل مشكل القرآن" عن شيء من خصائص

القرآن وفضائله العامة ؛ فيقول :

"وهدانا الله بنور الكتاب ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾^(١)، بل نزله قيماً مفصلاً بيناً ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٢)، وشرفه وكرمه ورفعته وعظمته .

وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين ، وجعله متلوّاً لا يُملُّ على طول التلاوة ، ومسموعاً لا تمجّه الأذان ، وغضّاً لا يخلُّق على كثرة الردّ ، وعجيباً لا تنقضي عجائبه ، ومفيداً لا تنقطع فوائده ، ونسخ به سالف الكتب .
وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أوتيت جوامع الكلم"^(٣) " (٤) .

كما عرض الإمام ابن قتيبة لجملة من الأحاديث والآثار المتعلقة بفضيل قراءة القرآن ، وإكرام حامله ، والتحذير من نسيانه ، أو الميئنة لخصائصه وصفاته ، وكان غالب هذه الأحاديث والآثار في الباب الذي خصصه للحديث عن القرآن في كتابه "عيون الأخبار" .

ومما عرض له من الأحاديث والآثار في فضائل القرآن ما يلي :
أ . في فضل تلاوة القرآن .

ذكر الإمام ابن قتيبة في فضل تلاوة القرآن في الصلاة ، قول النبي صلى الله عليه وسلم :
" ثلاث آيات يقرؤهن أحدكم في صلاته ، خير له من ثلاث خلفات سمان عظام"^(٥) .^(٦)
وينقل في مثل المؤمن قارئ القرآن قوله صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأثريجة ریحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة

(١) سورة الكهف : ١ .

(٢) سورة فصلت : ٤٢ .

(٣) سبق تخريجه (ص ٥٤٨) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٣-٤) .

(٥) أخرجه مسلم في فضائل القرآن ، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه ح (١٨٧٢) (ص ٨٠٤) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) غريب الحديث (١٧٩/١) .

طعمها طيب ، ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرّ ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن مثل الخنظلة طعمها مر ولا ريح لها" (١). (٢)

ويذكر في فضل المداومة على تلاوة القرآن وختمه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ أي الأعمال أفضل ؟ ، قال : "الحال المرتحل" ، قيل : ما الحال المرتحل ، قال : "الخاتم - القرآن - المفتتح" (٣).

ثم قال ابن قتيبة - معلقاً - :

"الحال : الخاتم للقرآن ، شُبِّهَ برجل هو سافر ؛ فسار حتى إذا بلغ آخره وقف عنده. والمرتحل : المفتتح للقرآن ، شُبِّهَ برجلٍ أراد سفرًا فافتتحه بالمسير ، حتى إذا بلغ للمنزل حلّ به ، كذلك تالي القرآن يتلوه" (٤).

ومن الآثار التي ذكرها في هذا الباب : ما جاء عن عبدالله بن عمرو (ت ٦٥هـ) رضي الله عنهما ؛ أنه قال : "من قرأ القرآن فقد أُدرجت النبوة بين جنبيّه ، إلا أنّه لا يُوحى إليه" (٥). (٦)

ب . في إعظام أهل القرآن وإكرامهم .

ذكر الإمام ابن قتيبة في "باب القرآن" من "عيون الأخبار" حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من تعظيم جلال الله إكرام ذي الشيبة في الإسلام، وإكرام الإمام

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب فضل القرآن على سائر الكلام ح(٥٠٢٠) (ص٤٣٥)، ومسلم في فضائل القرآن ، باب فضيلة حافظ القرآن ح(١٨٦٠) (ص٨٠٣) .

(٢) عيون الأخبار (١٣١/٢) .

(٣) سيق تخريجُه (ص٢٤٣) .

(٤) غريب الحديث (٣٧١/٢) .

(٥) أخرجه موقوفاً على ابن عمرو : ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٦٧/١٠) ح(٣٠٥٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧/٤) ح(٢٣٥٢)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص١١٣)، وأخرجه مرفوعاً عنه : الحاكم في المستدرک (٧٣٨/١) ح(٢٠٢٨)، وقد ضعفه الألباني مرفوعاً ، وقال : "والصواب رواية الوقف" . [السلسلة الضعيفة (١٩٩/١١)] .

(٦) غريب الحديث (٣٧١/٢) .

العادل ، وإكرام حامل القرآن" (١). (٢)

ج . في التشديد على من حفظ القرآن ثم نسيه .

ذكر ابن قتيبة في هذا الباب حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم" (٣).

وقال في شرحه : "والجذم: القطع ، وكل شيء قطعته فقد جَذَمْتَهُ وَجَدَدْتَهُ، ولهذا قيل للمقطوع اليد أجذم ، كما قيل له أقطع ، وهذا أشبه بالعقوبة ؛ لأن القرآن كان يدفع عن جسمه كله العاهة ، ويحفظ صحته وزينته ، فلما نسيه فارقه ذلك ، فنالت الآفة في جميعه ، ولا داء أشمل للبدن من الجذام ولا أفسد للخَلْقَة" (٤).

د . في خصائص القرآن وأن الاعتصام به نجاة من الفتن .

ينقل في "باب القرآن" عن علي (ت ٤٠ هـ) رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحُكْم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذي لا تزبغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم" (٥). (٦)

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب في تنزيل الناس منازلهم ح(٤٨٤٣) (ص١٥٧٩) بنحوه ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥٣٦/٦) ح(٢٢٣٥٣)، وأبو عبيد في فضائله (ص٨٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وحسنه الألباني . [صحيح سنن أبي داود (١٨٩/٣)] .

(٢) عيون الأخبار (١٣٣/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة ، باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه ح(١٤٧٤) (ص١٣٣٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٧٨/١٠) ح(٣٠٦١٧)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص٢٠٢)، من حديث سعيد بن عباد رضي الله عنه ، وضعفه الألباني . [ضعيف سنن أبي داود (ص١١١)] .

(٤) إصلاح غلط أبي عبيد (ص٨٠) .

(٥) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل القرآن ح(٢٩٠٦) (ص١٩٤٣)، وقال : "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات ، وإسناده مجهول ، وفي حديث الحارث - بن الأعور - مقال" ، وأخرجه الدارمي في سننه (٥٢٦/٢) ح(٣٣٣١)، والبزار في مسنده (٧٠/٣) ح(٨٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٥/٢) ح(١٩٣٥)، قال ابن كثير في فضائل القرآن (ص٤٦) : "وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد وهم بعضهم في رفعه ، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روي له شاهد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم".

(٦) عيون الأخبار (١٣٣/٢) .

المطلب الثاني : فضائل سور مخصوصة من القرآن الكريم .

ورد في السنة بعض الأحاديث والآثار الدالة على فضائل سور مخصوصة من القرآن الكريم ، "وذلك إما بذكر أجر يترتب على قراءتها ، وإما بقصد قراءتها ، وإما بقصد قراءتها في وقت معين ، وإما ببيان أثرها الحسي والمعنوي على المسلم"^(١).

وموضوع "فضائل سور القرآن" أحد المواضيع التي كثر فيها الوضع ، إذ عمد بعض الوعاظ إلى وضع الأحاديث في فضائل السور بغرض الترغيب بالقرآن ، كما فعل أبو عصمة نوح بن أبي مريم المروزي المعروف بـ "نوح الجامع" (ت ١٧٣هـ)^(٢) ، الذي قيل له: من أين لك عن عكرمة (ت ١٠٥هـ) ، عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس هذا عند أصحاب عكرمة؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ) ، ومغازي ابن إسحاق (ت ١٥٠هـ) ، فوضعت هذا الحديث حُسبة"^(٣).

وقد نبّه الإمام ابن قتيبة لهذا الوضع في فضائل سور القرآن ، حين تحدث عن الحديث المنسوب لأبي بن كعب (ت ٣٠هـ) ، رضي الله عنه في فضائل القرآن سورة سورة ، ونقل عن ابن المبارك (ت ١٨١هـ) تكذيب هذا الحديث ؛ فقال :

"وقال ابن المبارك في أحاديث أبي بن كعب "من قرأ سورة كذا فله كذا ، ومن قرأ سورة كذا فله كذا" : "أظن الزنادقة وضعت"^(٤).

(١) المحرر في علوم القرآن ، د.مسعود الطيار (ص١٨٩) .

(٢) أبو عصمة نوح بن أبي مريم المروزي الجامع ، قاضي مرو ، كان يقال : جمع كل شيء إلا الصدق ، قال ابن معين : "ليس بشيء ولا يكتب حديثه" ، وقال البخاري : "ذهب الحديث جداً" ، وقال ابن المبارك : "كان يضع الحديث" . [التاريخ الكبير للبخاري (١١١/٨) ، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤٨٤/٨) ، الكامل لابن عدي (٣٧٢/٦)] .

(٣) رواه الحاكم عن أبي عمار المروزي في المدخل إلى معرفة كتاب الإكليل (ص٤٢) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص٥٢) .

كما نصّ على تكذيب هذا الحديث ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)^(١)، وابن القيم (ت ٧٥١هـ)^(٢)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٣).

روى ابن الجوزي بإسناده عن المؤمل بن إسماعيل (ت ٢٠٦هـ)^(٤)؛ قال :
 "حدثني شيخ بفضائل سور القرآن الذي يروى عن أبي بن كعب ، فقلت للشيخ : من حدّثك ؟ ، فقال : حدثني رجل بالمدائن^(٥) ، وهو حي ، فصرت إليه ، فقلتُ : من حدّثك ؟ فقال : حدثني شيخ بواسط ، وهو حي ، فصرت إليه ، فقال : حدثني شيخ بالبصرة ، فصرت إليه ، فقال : حدثني شيخ بعبادان^(٦) ، فصرت إليه ، فأخذ بيدي فأدخلني بيتاً ، فإذا فيه قوم من المتصوفة ، ومعهم شيخ ، فقال : هذا الشيخ حدثني، فقلت: يا شيخ من حدّثك ؟ فقال: لم يحدثني أحد ، ولكننا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن، فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن"^(٧).

وقد كان للإمام ابن قتيبة عناية بفضائل سور القرآن ، فقد عرض لبعضها في مصنفاته المتعددة ، ومن السور التي تحدث عن فضائلها ؛ ما يلي :

(١) الموضوعات لابن الجوزي (١/٣٩١) .

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف (ص٧٦) .

(٣) الإتيقان (٦/٢١٣٧) .

(٤) أبو عبدالرحمن المؤمل بن إسماعيل العدوي مولاهم البصري ، حدث عن شعبة والثوري ، وحماد بن سلمة، وعنه: أحمد وإسحاق وبندار ، وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : "صدوق شديد في السنة، كثير الخطأ" ، وأثنى عليه أبو داود ، ثم قال : "إلا أنه يهيم في الشيء" ، توفي سنة ست ومائتين بمكة . [سير أعلام النبلاء (١٠/١١٠)] ، تهذيب التهذيب (١٠/٣٨٠) .

(٥) المدائن : تقع على جانبي دجلة قريباً من بغداد ، تتألف من سبع مدن من بناء الأكاسرة الفرس ، ولهذا سميت المدائن ، وكان فتحها على يد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سنة ١٦هـ ، وهي الآن مدينة عراقية تقع على بعد بضعة كيلومترات من جنوب شرق بغداد . [معجم البلدان (٥/٧٤)] ، أطلس تاريخ الإسلام ، د.حسين مؤنس (ص١٢٧) .

(٦) قال الحموي : "موضع تحت البصرة قرب البحر الملح - أي الخليج العربي - وهي موضع رديء سبخ لا خير فيه، وماؤه ملح" ، وعبادان اليوم مدينة تقع في مقاطعة خوزستان جنوب غرب إيران على الحدود العراقية الإيرانية ، وغالب سكانها من العرب. [معجم البلدان (٤/٧٤)] ، أطلس تاريخ الإسلام (ص١١٣) .

(٧) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٣٩٣) .

١ . سورة الفاتحة .

يقول الإمام ابن قتيبة في فضل هذه السورة :

"قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة إلا بسورة الحمد"^(١)، وهي السبع المثاني ، وأم الكتاب ، أي أعظمه ، وأقدم ما نزل منه ، كما سميت مكة أم القرى ، لأنها أقدمها، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾^(٢) " (٣).

وكلام ابن قتيبة في كونها السبع المثاني ، وأعظم القرآن ، يشير به إلى حديث أبي سعيد بن المعلی (ت ٧٣هـ) رضي الله عنه ؛ قال : "كنت أصلي في المسجد ، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: "ألم يقل الله : ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾^(٤)، ثم قال لي : لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ، ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال: "الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته" ^(٥).

٢ . سورة البقرة .

ذكر الإمام ابن قتيبة في فضلها حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شيء سناماً ، وسنام القرآن سورة البقرة" ^(٦).

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها ح(٧٥٦) (ص ٦٠)، ومسلم في الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ح(٨٧٤) (ص ٧٤٠)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، بلفظ : "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" .

(٢) سورة آل عمران : ٩٦ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٨) .

(٤) سورة الأنفال : ٢٤ .

(٥) أخرجه البخاري في التفسير ، باب ما جاء في فاتحة الكتاب ح(٤٤٧٤) (ص ٣٦٦)، وفي فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب ح(٥٠٠٦) (ص ٤٣٤) .

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٥٦١) ح(٢٠٦٠)، وقال : "صحيح الإسناد"، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢/٢) ح(٢٣٧٧)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني . [سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٣٥)] .

وقال في شرحه : "أراد بقوله : سنام القرآن البقرة" أعلاه ، كما أن السنام من البعير أعلاه"^(١).

٣ . سورتا البقرة وآل عمران .

ذكر ابن قتيبة في فضلها قول النبي صلى الله عليه وسلم : "اقرأوا الزهراوين، البقرة وآل عمران ؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان"^(٢)، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما"^(٣).

ثم قال ابن قتيبة :

"وأراد بقوله تجيء البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان ؛ أن ثوبهما يأتي قارئهما حتى يظله يوم القيامة"^(٤).

ويذكر ابن قتيبة أن مَنْ حفظهما من الصحابة عُذَّ عظيمًا ، وفي ذلك يقول :

"قال أنس بن مالك (ت ٩٣هـ) رضي الله عنه : "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدًّا فينا"^(٥)؛ أي جلًّا في عيوننا ، وعَظَمَ في صدورنا"^(٦).

٤ . سورة يس :

ذكر الإمام ابن قتيبة في فضلها قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شيء قلبًا، وقلب القرآن يس"^(٧).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٧٤) .

(٢) مفردها غياية ، وهي كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه مثل السحابة والظل ، ونحوه . [اللسان ، مادة "غيا" (١٤٣/١٥)] .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل القرآن ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ح (١٨٧٤) (ص ٨٠٤)، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٧٤) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٢٠/٣)، وابن حبان في صحيحه (١٩/٣) ح (٧٤٤)، والبيهقي في السنن الصغرى (٢٨٥/١) ح (١٠٢٨) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٣)، وانظر : غريب الحديث (١٧/١)، (١٢٨/٢) .

(٧) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل يس ح (٢٨٨٧) (ص ١٩٤١)، وقال: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن ، وبالْبَصْرَةَ لا يعرفون من حديث قتادة إلا هذا الوجه، وهارون أبو محمد شيخ مجهول"، وأخرجه الدارمي في سننه (٥٤٨/٢) ح (٢٤١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٩/٢) ح (٢٤٦٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد حكم بوضع الحديث الذهبي [ميزان الاعتدال (٢٨٨/٤)]، والألباني [ضعيف سنن الترمذي (ص ٣٤٤)] .

وقال في معناه : "أراد بقوله قلب القرآن يس" ، أنها من القرآن كمحل القلب من البدن"^(١).

٥ . سور آل حم "غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف".

نقل ابن قتيبة في بيان فضلها أترين عن ابن مسعود (ت ٣٢٢هـ) رضي الله عنه^(٢)؛ هما

:

أ . قول ابن مسعود رضي الله عنه : "حم" ديباج القرآن"^(٣).

ب . وقوله رضي الله عنه : "إذا وقعت في آل حم" وقعت في روضات دُمثات"^(٤)، أتأنق فيهن"^(٥).

٦ . سورة الكافرون .

ذكر في فضلها قول النبي صلى الله عليه وسلم لنوفل بن فروة الأشجعي رضي الله عنه

: "اقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، عند منامك ، فإنها براءة من الشرك"^(٦).

واستشهد بهذا الحديث على صحة تعليل أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) لتسمية

"الكافرون" ، و"الإخلاص" بـ "المقشقتان" ؛ حين قال :

"إنما قيل لهما ذلك لأنهما تُبَرِّتان من الشرك ، ويقال للبعير إذا برأ من الجرب قد

تَقَشَّقَش"^(٧).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٧٤) .

(٢) عيون الأخبار (١٣٢/٢) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٥٨/١٠) ح (١٠٣٣٢)، وعبدالرزاق في مصنفه (٣٨١/٣) ح (٦٠٣١)، والحاكم في المستدرک (٤٣٧/٢) ح (٣٦٣٤)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٥٥)، وحكم الألباني بوضعه. [السلسلة الضعيفة والموضوعة (٣١/٨)] .

(٤) دُمثات : جمع دُمثة ، وهي الأرض السهلة اللينة . [اللسان ، مادة "دمث" (١٤٩/٢)] .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٥٨/١٠) ح (٣٠٩١٥) ، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٢٥٥) .

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب ما يقول عند النوم ح (٥٠٥٥) (ص ١٥٩٢)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام ح (٣٤٠٣) (ص ٢٠٠١)، والإمام أحمد في مسنده (٤٥٦/٥)، والحاكم في المستدرک (٥٦٥/١) ح (٢٠٧٧)، وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ، ووافقه الذهبي ، وصححه ابن حجر [تميز الصحابة (٢٥٩/٦)] ، والألباني [صحيح سنن أبي داود (٢٤٣/٣)] .

(٧) غريب الحديث (٣٥٧/٢) .

المبحث السادس المحكم والمتشابه

التمهيد :

إن موضوع المحكم والمتشابه من الموضوعات الهامة في علوم القرآن ، ومن الموضوعات الشائكة التي أثارَت جدلاً كبيراً بين أصحاب المذاهب والفرق ، حيث تمسك كل فريق بجملة من الآيات التي توافق ما ذهب إليه وأصبع عليها صفة الإحكام ، ورد مدلول الآيات التي تخالف ما يعتقده بحجة أنها من المتشابه ، وأصرح مثالٍ على هذا : ما حصل من خلاف حول أسماء الله وصفاته ، حيث دلف أهل الزيغ والضلال من خلال المحكم والمتشابه إلى تعطيل وتأويل أسماء الله وصفاته بحجة أنها من المتشابه ، ومن ثمّ كان من الأهمية بمكان تحرير القول في هذا الباب ، لا سيما وقد ارتبط بهذه المسألة العقديّة الهامة .

ويجدر بي - قبل البدء - التنبيه على صعوبة هذا البحث ، فتعريف المتشابه في حد ذاته يعد من المتشابه ، وقد وقع الخلاف في تحديده ، كما وقع الخلاف في الوقف هل هو على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، أم على قوله : ﴿ وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾^(١) ، أضف إلى ذلك الخلاف في معنى التأويل ، وتحديد هذه الأشياء الثلاثة المختلف عليها مرتبط بعضها ببعض ومتداخل غاية التداخل ، مما يجعل المهمة أكثر صعوبة وتعقيداً . وقد كان للإمام ابن قتيبة عناية فائقة بموضوع "المحكم والمتشابه" ، فقد أفرد له باباً في "تأويل مشكل القرآن" ، وسمه بـ "باب المتشابه" - كان من أوائل الأبواب المخصصة لهذا الموضوع - ، عرض فيه لمعنى المتشابه في اللغة وفي الاصطلاح والرباط بينهما ، وأبان عن الصلة بين المشكل والمتشابه ، ثم أسهب في الاستدلال لاختياره في معنى المتشابه ، مع إيضاح الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم .

كما أطل الحديث في "المسائل والأجوبة" في الرد على المخالفين لاختياره في معنى المتشابه ، وعرض لحججهم ، فأجاب عنها الواحدة تلو الأخرى بأجوبة قوية ومقنعة .

(١) سورة آل عمران : ٧ .

ولا أعلم أحداً من المصنفين سبق الإمام ابن قتيبة بمثل هذا الحديث المسهب في المحكم والمتشابه ؛ مما يضيف قيمة عالية لحديث الإمام ابن قتيبة ، وتفصيل حديثه عن المحكم والمتشابه في المطالب التالية :

المطلب الأول : معنى المحكم والمتشابه .

أولاً : المحكم والمتشابه لغة .

تعريف المحكم في اللغة :

المحكم مأخوذ من حَكَمَ الذي أصله المنع .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

" الحاء والكاف والميم أصل واحد ، وهو المنع ، وأول ذلك الحُكْم ، وهو المنع من الظلم ، وسميت حَكْمَة الدابة لأنها تمنعها ، يقال : حكمت الدابة وأحكمتها ، ويقال : حكمت السفينة وأحكمته ، إذا أخذت على يديه " (١) .

ومنه قول جرير (ت ١١٠هـ) :

أبني حنيفة أحكموا سفاهكم إني أخاف عليكم أن أغضباً (٢)
ومنه " الحكمة " وهي إصابة الحق بالعلم والعقل ، سميت بذلك لأنها تمنع صاحبها من الجهل (٣) .

والإحكام يأتي - أيضاً - بمعنى الإتقان ، يقال : أحكمه : أي أتقنه فاستحكم (٤) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَحْكَمْتَ عَيْنَهُ ﴾ (٥) ، بمعنى أتقنت وحفظت عن الغلط والخطأ والخطأ والتناقض (٦) .

وهذا الإطلاق غير بعيد عن الأصل الذي هو المنع ، لأن من أتقن الشيء فقد منعه من الفساد .

تعريف المتشابه لغة :

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة (حكم) (ص ٢٥٨) .

(٢) البيت في ديوان جرير (ص ٤٣) .

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (ص ١٣٤) .

(٤) القاموس المحيط ، مادة (حكم) (ص ١٤١٥) .

(٥) سورة هود : ١ .

(٦) انظر : تفسير القرطبي (١٠/٤) ، لسان العرب مادة (حكم) (١٤١/١٢) .

أصل المتشابه : من الشَّبَّه والشَّبَّه ، وهو أن يشبه أحد الأمرين الآخر ، وقد يؤدي ذلك في الغالب إلى الالتباس .

قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) :

" وأصل التشابه : أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر ، والمعنيان مختلفان ، قال الله عز وجل في وصف ثمر الجنة : ﴿ وَأَتُوا بِهِمْ مُمْتَشِبَهَا ﴾^(١) ، أي متفق المناظر ، مختلف الطعوم ، وقال : ﴿ تَشَبَّهت قُلُوبُهُمْ ﴾^(٢) ، أي يشبه بعضها بعضاً في الكفر والقسوة . ومنه يقال : اشتبه عليّ الأمر ، إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما ، وشبَّهت عليّ : إذا لَبَّست الحق بالباطل"^(٣) .

وقال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفاً ، يقال شِبَّه ، وشَبَّه ، وشَبَّيه .. والمشَبَّهات من الأمور المشكالات ، واشتبه الأمران إذا أشكلا"^(٤) . ومن خلال هذه النقول عن أهل اللغة يتبين أن معنى "التشابه" يدور حول أمرين : أحدهما : التماثل والتساوي . الثاني : الالتباس والإشكال .

ولا شك أن بين هذين المعنيين ارتباطاً وثيقاً ، بل يمكن إرجاعهما إلى الأصل الأول وهو التماثل ، وذلك لأنه حين تتماثل الأشياء ، وتضعف الفروق المميزة بينها ، وتتلاشى أو تكاد ، يلتبس حينئذ بعضها ببعض ويختلط ، ويحصل الإشكال^(٥) .

ثانياً : المحكم والمتشابه اصطلاحاً .

جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم ، نحو قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ أُحْكَمَتَ

ءَايِنُّهُ ﴾^(١) ، وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

(١) سورة البقرة : ٢٥ .

(٢) سورة البقرة : ١١٨ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١٠١) .

(٤) معجم مقاييس اللغة (ص ٥٢٦) مادة (شبه) .

(٥) انظر : معرفة تأويل المتشابه ، د. عبدالله أبو السعود بدر (ص ١٠) .

أَلْحَدِيثِ كِنْبًا مُتَشَبِهًا ﴿^(١)﴾، وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم ، وبعضه متشابه ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴿^(٢)﴾، ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاث ؛ إذ ينقسم الأحكام والتشابه قسمين : عام وخاص ، وبمعرفتهما يزول الإشكال ^(٤).

أ . الأحكام والتشابه العام .

وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم كله بأنه محكم ، ومعنى كونه محكماً : "أي في اطراده في البلاغة ، وانتظامه في سلك الفصاحة ، واستواء أجزاء كلماته في أداء المعنى من غير حشو يستغنى عنه ، أو نقصان يخل به ، واختصار القول الطويل الدال على المعنى الكثير" ^(٥) .

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

" فإحكام الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره ، وتمييز الرشد من الغي في أوامره ، والقرآن كله محكم بمعنى الإتيان" ^(٦) .

وكما وصف الله سبحانه وتعالى القرآن كله بالأحكام ، فقد وصفه كله بأنه متشابه، فقال عز وجل : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِيَ ﴿^(٧)﴾ ، ومعنى كونه متشابهاً : أي يشبه بعضه بعضاً في الأحكام والإتيان فلا يستطيع أحد المفاضلة والتمييز بين آية وأخرى للتماثل في البلاغة والهداية ^(٨) .

(١) سورة هود : ١ .

(٢) سورة الزمر : ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران : ٧ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٥٩/٣)، التفسير الكبير للرازي (١٧/١٤٢)، فتح الباري (٥٩/٨) .

(٥) قانون التأويل لابن العربي (ص ٦٦٤) ، وانظر : الموافقات للشاطبي (٥٧/٣) .

(٦) التدمرية (ص ١٠٣) .

(٧) سورة الزمر : ٢٣ .

(٨) انظر : التفسير الكبير (٢٣/٢٣٦) ، الإتيان (١/٦٣٩) ، مناهل العرفان (٢/١٩٥) ، أصول في التفسير

للعثيمين (٥٨) ، معاني المحكم والمتشابه في القرآن الكريم د. أحمد حسن فرحات (ص ٢٤) .

يقول ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى : ﴿ كُنْبًا مُتَشَبِهًا ﴾^(١) :
"متشابهاً : يُشبهه بعضه بعضاً ولا يختلف"^(٢).

وهذا التشابه العام لا ينافي الإحكام العام ، بل هو مصدق له ، فإن الكلام المحكم
المتقن يصدق بعضه بعضاً ، لا يناقض بعضه بعضاً^(٣).

ب . الإحكام والتشابه الخاص .

اختلف أهل العلم في الإحكام والتشابه المذكور في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾^(٤) ، على أقوال
كثيرة^(٥)؛ من تأمل فيها وجد أنها متقاربة ، وبعضها يتداخل في بعض ، ويمكن إرجاع المقبول
المقبول منها إلى قولين رئيسين :

أحدهما : أن المحكم ما استقل بنفسه وظهر معناه ، ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه ما
احتاج إلى بيان .

الثاني : أن المحكم ما عُلم معناه ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه .
قال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥١ هـ) :

"المحكم من القرآن ما وضح معناه ، والمتشابه نقيضه ، وقيل : المحكم ما عرف المراد منه
، إما بالظهور ، وإما بالتأويل ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة، وخروج
الدجال ، والحروف المقطعة في أوائل السور ، وقيل في تفسير المحكم والمتشابه أقوال أخرى

(١) سورة الزمر : ٢٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٣٨٣) .

(٣) انظر : التدمرية لشيخ الإسلام (ص ١٠٤) .

(٤) سورة آل عمران : ٧ .

(٥) انظر هذه الأقوال في : تفسير الطبري (١٩٢/٥) ، زاد المسير (٢٨٥/١) ، تفسير القرطبي (١٣/٤) ، روضة الناظر
لابن قدامة (٢٧٧/١) ، شرح مختصر الروضة للطوفي (٤٧/٢) ، البرهان (٧٩/٢) ، الإتيان (٦٤٠/١) ، مناهل
العرفان (١٩٥/٢) ، معاني المحكم والمتشابه في القرآن ، د. أحمد حسن فرحات (ص ٣١) ، المحكم والمتشابه في القرآن
العظيم ، د. عبدالرحمن المطرودي (ص ٥٧) .

غير هذه نحو العشرة ، ليس هذا موضع بسطها ، وما ذكرته أشهرها وأقربها إلى الصواب^(١) .
وإليك تفصيل هذين القولين :

القول الأول :

أن المحكم ما استقل بنفسه وظهر معناه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه ما احتج إلى بيان .

وقال بهذا القول محمد بن جعفر بن الزبير (ت ١١٠هـ)^(٢) ، ومجاهد (ت ١٠٤هـ)^(٣) ،
والشافعي (ت ٢٠٤هـ)^(٤) ، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ)^(٥) ، وإليه ذهب ابن
الأنباري (ت ٣٢٨هـ)^(٦) ، والنحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٧) ، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ)
٤٣٧هـ^(٨) ، وابن عطية (ت ٥٤٦هـ)^(٩) ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(١٠) ، وغيرهم .

وهذا القول هو الذي ارتضاه الإمام ابن قتيبة وانتصر له ، وردّ على مخالفه فيه ، وأطال
النفس في الاستدلال لهذا القول في "تأويل مشكل القرآن" ؛ فقال :

"ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم ، وهذا غلط من
متأوليه على اللغة والمعنى .

ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدلّ به على معنى أرادته .
فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطّاعن مقال ، وتعلّق علينا بعلّة ، وهل يجوز
لأحد أن يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المتشابه؟! .

(١) فتح الباري (٥٨/٨) .

(٢) تفسير الطبري (٢٢٠/٥) .

(٣) قواطع الأدلة (٢٦٥/١) .

(٤) زاد المسير (٢٨٦/١) .

(٥) العدة للقاضي أبي يعلى (٦٨٥/٢) .

(٦) زاد المسير (٢٨٦/١) .

(٧) إعراب القرآن (١٣/١) .

(٨) الهداية لمكي (٩٥١/٢) .

(٩) المحرر الوجيز (٤٠١/١) .

(١٠) تفسير ابن كثير (٣٢٦/١) .

وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(١) ، جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ؛ فقد علم علياً (ت ٤٠ هـ) رضي الله عنه التفسير ، ودعا لابن عباس (ت ٦٨ هـ) فقال : "اللهم علمه التأويل ، وفقهه في الدين"^(٢) .
وعن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) قال : "تعلمونه وتقولون : آمنا به"^(٣) .

ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا : ﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾^(٤) ، لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين ، بل على جهلة المسلمين ؛ لأنهم جميعاً يقولون : ﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ .

وبعد : فإننا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمرؤوه كله على التفسير ، حتى فسروا "الحروف المقطعة" في أوائل السور ، مثل : آلر ، وحم ، وطه ، وأشباه ذلك"^(٥) .

ويعيد الحديث في "المسائل والأجوبة" مناقشاً من خالفه ، مع التمثيل لما يصدق عليه معنى المتشابه ؛ فيقول :

"هذا المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ألا وقفنا منه على حرف واحد، أو خبرتنا عن واحد من الأئمة أنه قال في شيء من القرآن أنه متشابه لا يعلمه إلا الله وحده ، وأنه لا يعلمه النبي ، ولا جبريل صلى الله عليهما ، ولا الراسخون في العلم ، وما معنى تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً التفسير ؟ أعلمه المحكم الذي لا يعلمه غيره؟ وما معنى دعائه لابن عباس : "اللهم علمه التأويل" أكان دعاؤه يعلمه الظاهر الواضح؟ فإن أحببت أن تعرف المتشابه ، وكيف يكون علم الراسخين له ؟ وهل يجتمع ذلك كله عند الواحد منهم ، أو يكون متفرقاً؟ قلنا : قد يحتمل أن يكون ذلك مجتمعاً عند من دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكون متفرقاً عند العلماء ؛ فهذا يعرف منه بعضاً ، ويذهب عليه بعض ،

(١) سورة آل عمران : ٧ .

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٢٥) .

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/٢٢٠) .

(٤) سورة آل عمران : ٧ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٩٨-١٠٠) .

وهو عند غيره قد يجوز أن يكون منه شيء يعلمه رسول الله وحده؛ لأنه صلى الله عليه وأرسله الراسخين في العلم .

من ذلك قول الله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴾^(١) ، يحتمل أن يكون أراد إقبال ظلامه في أوّله وأن يكون أراد إدبار ظلامه في آخره ، ولا يعلم مراد الله ولا أيّ الوقتين أقسم به ، ورسول الله يعلم ذلك ، ومن أعلمه إياه .

وكذلك الحروف المقطعة قد اختلّف في تفسيرها ، وهي أولى الكتاب بالإشكال ، والتشابه ، ولم نرهم أمسكوا عن التأويل لها^(٢) .

القول الثاني :

أن المحكم ما علم معناه ، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه .

وقد قال بهذا القول جابر بن عبد الله بن رثاب رضي الله عنه^(٣) ، وهو مقتضى كلام الشعبي (ت ١٠٣هـ)^(٤) ، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)^(٥) ، وهو الذي مال إليه ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)^(٦) ، وقال به أبو منصور البغدادي (ت ٤٢٩هـ)^(٧) ، وابن السمعاني (ت ٤٨٩هـ)^(٨) ، وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) : " هذا أحسن ما قيل في المتشابه"^(٩) .

وقد احتج أصحاب هذا القول بقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾^(١٠) ، وقالوا : إن كتاب الله تعالى ينطق بالذم

(١) سورة التكويد : ١٧ .

(٢) المسائل والأجوبة (ص ٢١٥-٢١٦) .

(٣) تفسير الطبري (١٩٩/٥) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣/٤) .

(٥) المصدر السابق (١٣/٤) .

(٦) تفسير الطبري (١٩٩/٥) .

(٧) فتح الباري (٥٨/٨) .

(٨) قواطع الأدلة (٢٦٥/١) .

(٩) تفسير القرطبي (١٤/٤) .

(١٠) سورة آل عمران : ٧ .

لمن ابتغى تأويل المتشابه ، وأن الله عزّ وجل قد زجر الجميع عن اتباع المتشابه لابتغاء تأويله ، وأنه قد دلّ بقوله : ﴿ اِبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ ، أن ابتغاء تأويله لا يفيد إلا الفتنة^(١) .

وقد أطال الإمام ابن قتيبة في "المسائل والأجوبة" في الجواب عن هذا ؛ فقال :

"أما قولك : إن الكتاب ينطق بدمّ من ابتغى تأويل المتشابه ، فليس كذلك ، وإنما ذمّ الله من ابتغى تأويله من اليهود أو المنافقين الذين في قلوبهم زيغ أي انحراف عن الإسلام ، فهم يبتغون تأويله بغير مراد الله فيه ليفتنوا به الناس ، فيستزلّوهم عن الإسلام ؛ لأن المتشابه يحتمل التأويلات المختلفة ، والمحكم لا يحتمل ذلك ، فالمدمومون من مبتغى تأويله هم هؤلاء الذين سلكوا فيه سبيل الإضلال والفتنة بالتحريف ، وأما المبتغى تأويله ليعلمه ويعلمه ويُرشدُ به بغير مدموم ، وأشبه الأشياء بهذه الآية قوله في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾^(٢) ، فالفاسقون هاهنا هم الذين في قلوبهم زيغ ، وهم الضالون بالمثّل ، وإذا أنت جعلت المبتغين المتشابه بالتأويل المنافقين واليهود المحرّفين له دون المؤمنين ، كما قال الله : ﴿ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾^(٣) ، وضح لك الأمر ، وضح ما تأولناه من معرفة الراسخين بالمتشابه .

ثم قلت : إنه زجر الجميع عن اتباع المتشابه لابتغاء تأويله ، وأنه دلّ بقوله : ﴿ اِبْتِغَاءَ

الْفِتْنَةِ ﴾ ، على أن تأويله لا يفيد إلا الفتنة .

والجواب عنه : ولو كان زَجَرَ الجميع عن اتباع المتشابه لقال : لا تتبعوا المتشابه لتبتغوا تأويله ، فكان الكلام عاماً ، وإنما ذكر أنّ الذين في قلوبهم الزيغ هم المتبعون له ، المبتغون تأويله بغير الإصابة ليفتنوا به ، ويضلّوا عن سبيل الله ، ورأيتك قد جعلت ﴿ اِبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾

(١) انظر : روضة الناظر لابن قدامة (٢٧٩/١) .

(٢) سورة البقرة : ٢٦ .

(٣) سورة آل عمران : ٧ .

سبباً للفتنة ، ولو كان أراد ذلك لقال : يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله ، وإنما قال : ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ..

ثم قلت : ولما استحق الذم من ابتغى تأويله .

الجواب : والمستحق للذم ممن ابتغى تأويله هم الذين في قلوبهم زيغ عن الإسلام ، هذا ظاهر الكتاب حتى تأتي أنت بآية ، أو خبر صحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن كل من ابتغى تأويل المتشابه مذموم ، فيكون المفسرون للقرآن جميعاً مذمومين عاصين لله ، بإقدامهم على تفسير كل القرآن ، وتركهم التوقف عن شيء منه ، فإننا لا نعلم أنهم تركوا شيئاً منه ؛ لأنه متشابه لا يعلمه إلا الله ، ولا يتعاطونه ولا يسألون عنه^(١).

ومع وجاهة كلام الإمام ابن قتيبة إلا أن القول بأن المتشابه لا يعلمه إلا الله قول وجيه وقوي ، وهو الأقرب للصحة ، لأمر ؛ منها :

الأمر الأول :

أن الله قد وصف الآيات المحكمات بقوله : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ، فدل هذا على أن الأغلب والمعظم هو الآيات المحكمات ، ولو قيل بأن المتشابه ما لم يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان ، فيدخل فيه المنسوخ والمجمل والعام والمطلق والمؤول وغير ذلك ؛ لكانت الآيات المتشابهات هي معظم القرآن ، ولو كان الأمر كذلك لما أطلق على القرآن أنه بيان وهدى ، إذ إن المتشابه حين يصير كثيراً فلا يتصور إلا أن يقع الالتباس والإشكال كثيراً ، وحينئذ لا بد من القول : إن المتشابه قليل جداً بالنسبة للمحكم ، وهذا مما يقوي القول بأن المتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعلمه .

قال الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) :

" التشابه قد علم أنه واقع في الشرعيات ، لكن النظر في مقدار الواقع منه : هل هو قليل أم كثير ؟ ، والثابت من ذلك القلة لا الكثرة ، لأمر :

(١) المسائل والأجوبة (ص ٢٠٩-٢١٢) .

أحدها : النص الصريح ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾^(١) ، فقوله في المحكمات : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ يدل أنها المعظم والجمهور ، وأم الشيء معظمه وعامته ، فإذا كان كذلك فقوله تعالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ إنما يراد بها القليل .

الثاني : أن المتشابه لو كان كثيراً لكان الالتباس والإشكال كثيراً ، وعند ذلك لا يطلق على القرآن أنه بيان وهدى ، فدل على أنه ليس بكثير ، ولولا أن الدليل أثبت أن فيه متشابهاً لم يصح القول به ، ولكن ما جاء فيه من ذلك لم يتعلق بالملكفين حكم من جهته زائد على الإيمان به ، وإقراره كما جاء ، وهذا واضح .

الثالث : الاستقراء ، فإن المجتهد إذا نظر في أدلة الشريعة جرت له على قانون النظر واتسقت أحكامها ، وانتظمت أطرافها على وجه واحد ، كما قال تعالى : ﴿ الرَّكْعَتُ^ع أَحْكَمَتُ أَيْنَهُنَّ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾^(٣) (٤) .

الأمر الثاني :

أن التشابه الحاصل فيما ذكره من المنسوخ والمجمل والمؤول والعام والمطلق وغير ذلك ، هو في حقيقته تشابه نسبي ، علمه البعض وجهله آخرون ، فلا يصح حينئذ وصف الآية بالمتشابه ، والحال أن التشابه إنما هو في ذهن القارئ لا في ذات الآية .

قال الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) :

" والثاني : وهو الإضافي ليس بداخل في صريح الآية ، وإن كان في المعنى داخلاً فيه ؛ لأنه لم يصر متشابهاً من حيث وضع في الشريعة ، من جهة أنه قد حصل بيانه في نفس

(١) سورة آل عمران : ٧ .

(٢) سورة هود : ١ .

(٣) سورة لقمان : ٢ .

(٤) الموافقات (٣/٥٦-٥٧) باختصار .

الأمر، ولكن الناظر قصر في الاجتهاد ، أو زاغ عن طريق البيان اتباعاً للهوى ، فلا يصح أن ينسب الاشتباه إلى الأدلة ، وإنما ينسب إلى الناظرين التقصير أو الجهل بمواقع الأدلة" (١) .
وفي الحقيقة كل الدلائل تشير إلى صحة هذا القول ، إلا أن قراءة الوصل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (٢) تعكّر على هذا القول ، إذ تدل هذه القراءة على أن الراسخين في العلم ممن يعلم تأويل المتشابه ، وحينئذ فلا يصح حصر المتشابه فيما استأثر الله تعالى بعلمه .

الجمع بين القولين :

يمكن الجمع بين القولين ، وذلك بحملهما على قراءتي الوصل والوقف ، فهما قراءتان متواترتان ، والتعدد في القراءات القرآنية يقوم مقام التعدد في الآيات ، كما جاءت الأدلة والأقوال التي تدل على دلالة القراءتين ، ولذلك لا يجوز ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى ، لأن مثل هذا قدح في التواتر ، ولا تعارض أو تضاد بين القراءات القرآنية ، وإنما هي من باب التنوع (٣) .

ويظهر هذا الجمع من كلام شيخ الإسلام (ت ٧٢٨) حيث يقول :

" في الآية قراءتان : قراءة من يقف على قوله : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، وقراءة من يقف عند قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ وكلتا القراءتين حق ، ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره، وهو تأويله" (٤) .

وبهذا الجمع يمكن تعريف المتشابه بما يتوافق مع القراءتين ، فيقال :

(١) المصدر السابق (٦٠/٣) .

(٢) قرأ بالوصل ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف ، وقرأ الباقون بالوقف . [

القطع والائتناف للنحاس (١٢٥/١)] .

(٣) انظر : المحكم والمتشابه في القرآن العظيم ، د. عبدالرحمن المطرودي (ص ١٧) .

(٤) تفسير سورة الإخلاص (ص ٢٤٠) .

المتشابه ما يحتاج إلى دليل آخر في بيانه ، وهو إما أن يكون موجوداً أو غير موجود، فإن كان الدليل المبيّن موجوداً لغة أو شرعاً أو عقلاً كان مما يعلمه الراسخون في العلم ، وأما إذا كان الدليل المبين غير موجود فهو مما لا يعلمه إلا الله^(١) .

ومن خلال هذا التعريف يتضح أن المتشابه نوعان :

أحدهما : المتشابه الحقيقي : وهو ما لا يعلمه أحد من البشر ، كالعلم بحقيقة ذات الله ، وحقائق صفاته^(٢) ، وكالعلم بوقت الساعة ، وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه من الحقائق الغائبة عن الإنسان . وقراءة الوقف تدل عليه .

الثاني : المتشابه الإضافي أو النسبي : وهو ما يستطيع البشر معرفته عن طريق البحث والدرس ، كالتشابه الناشئ عن الألفاظ الغريبة أو المشتركة ، وهذا النوع متشابه من جهة ، ومحكم من جهة أخرى على القراءتين ، فهو محكم على قراءة الوقف ، ومتشابه على قراءة الوصل ، وقد يكون محكماً من جهة ومتشابهاً من جهة باعتبار الوضوح من عدمه بالنسبة للقارئ ، فإن كان المعنى واضحاً - عنده - فهو من المحكم ، وإن كان المعنى غامضاً فهو من المتشابه^(٣) وقراءة الوصل تدل عليه .

المطلب الثاني : الحكمة من وجود المتشابه .

بعد أن بيّن الإمام ابن قتيبة أن المتشابه في القرآن متشابه نسبي ، يعلمه الراسخون في العلم ؛ تحدث بكلام بديع عن الحكمة من هذا المتشابه ، موضّحاً أن وجود مثل هذا المتشابه في القرآن يُظهر التفاضل بين الناس والتفاوت في درجاتهم ، ويُبرز مكانة العلماء ،

(١) انظر : المحكم والمتشابه ، د. المطرودي (ص ٦١) .

(٢) ينبغي التنبيه إلى أن المتشابه من الصفات هو الكيفية ، أما معاني آيات الصفات فلا تعد من المتشابه - وإن عدها بعضهم من المتشابه بسبب الاعتقاد الذي يقول به لهذه الصفات - لأن في الصفات جانبيين ، أحدهما : المعنى وهو معلوم ، والثاني الكيف وهذا غير معلوم ، لأن الله تعالى لم يطلعنا عليه ، وهذا من المتشابه الحقيقي ، والذين يجعلون الصفات من المتشابه يعنون هذا ، وهم لا يفرقون بين المعنى والكيف ، بل يجعلونها كلها من المتشابه ، وعلى هذا فعد معنى الصفات من المتشابه خطأ ، لأن المعاني والدلالات لتلك الصفات يدرك الإنسان شيئاً منها بما يتفق مع قدراته وإمكانياته ، حيث إن الله تعالى قد قرب معانيها للأفهام بما يتناسب مع ذلك .

(٣) انظر : المفردات للراغب (ص ٢٥٨) ، الموافقات (٣/٥٩) ، مناهل العرفان (٢/٢٠٢) ، المحكم والمتشابه

للمطرودي (ص ٧٣) .

ويؤكد على أهمية العقل في فهم القرآن الكريم ؛ إذ يحفز المؤمنين لإعمال عقولهم في النظر فيه كيلا تضعف ؛ إذ السهل الجلي لا عمل للعقل فيه .

وهو بإبراز هذه الحكم يرد على الزنادقة ، الذين طعنوا في القرآن من جهة وجود المتشابه فيه ، وقالوا : ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن ، مَنْ أراد لعباده الهدى والبيان .

يقول ابن قتيبة - رداً على طعنهم - :

"وأما قولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن ، من أراد بالقرآن لعباده الهدى

والبيان؟

فالجواب عنه : أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار ، والإطالة والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن^(١) ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خفي .

ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة وماتت الخواطر .

ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلاغة ، وقالوا : عيب الغنى أنه يورث البله ، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة .

وكل باب من أبواب العلم : من الفقه والحساب والفرائض والنحو فمنه ما يجلب ، ومنه ما يدق ، ليرتقي المتعلم فيه رتبة بعد رتبة حتى يبلغ منتهاه ، ويدرك أقصاه ، وتكون للعالم فضيلة النظر ، وحسن الاستخراج ، ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية .

ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً : لم يكن عالم ولا متعلم ، ولا خفي ولا جلي ؛ لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها ، فالخير يُعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلو بالمر ، والقليل بالكثير ، والصغير بالكبير ، والباطن بالظاهر .

وعلى هذا المثال كلام رسول الله صلى الله عليه ، وكلام صحابته والتابعين وأشعار الشعراء ، وكلام الخطباء ، ليس منه شيء إلا وقد يأتي فيه المعنى اللطيف الذي يتحير فيه العالم المتقدم ، ويقرّ بالقصور عنه النّقاب^(١) المبرز^(٢) .

(١) جاء في اللسان ، مادة "لقن" (٣٩٠/١٣) : "لقن : سريع الفهم ، وفي حديث الهجرة : وبيت عندهما عبدالله

ابن أبي بكر ، وهو شاب ثقّف لقن أي فهّم حسن التلقين لما يسمعه" .

كما ذكر أهل العلم جملة من الحكم لوجود المتشابه في القرآن ، منها :

١ . زيادة الأجر والثواب ؛ إذ إن الوصول إلى معرفة المتشابه أصعب وأشق من المحكم واضح الدلالة ، ومعلوم أن زيادة المشقة توجب مضاعفة الثواب ، وهو الذي عناه ابن قتيبة بقوله : "ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية"^(٣).

يقول السيوطي (ت ٩١١ هـ) - في معرض حديثه عن المحكم والمتشابه - :

"منها الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه ، والبحث عن دقائقه ، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب"^(٤).

ثم ينقل عن الرازي (ت ٦٠٦ هـ) قوله : "منها : أنه يوجب المشقة في الوصول إلى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب"^(٥).

٢ . دفع الناس لتعلم علوم كثيرة توثق ارتباطهم بكتاب الله ، مثل علوم اللغة ، وأصول الفقه ، وغير ذلك مما يعين على النظر والاستدلال ، للوصول إلى معرفة المتشابه.

يقول الرازي (ت ٦٠٦ هـ) :

"باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه ، يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة، مثل اللغة والنحو وأصول الفقه ، بما يعينه على النظر والاستدلال ، فكان وجود المتشابه سبباً في تحصيل علوم كثيرة"^(٦).

٣ . إظهار عجز العرب عن معارضته بكل أضرب الكلام الذي يعرفونه ؛ لأنه جاء بلغتهم ووفق أساليبهم ومذاهبهم في الإيجاز والاختصار ، والإطالة والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ، وإغماض بعض معانيه حتى لا يظهر عليها إلا الفاهم الحاذق .

يقول الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) - معدداً الحكم من وجود المتشابه - :

(١) جاء في اللسان ، مادة "نقب" (٧٦٥/١) : قال أبو عبيد : النَّقَاب هو الرجل العلامة ، وقال غيره : هو الرجل

العالم بالأشياء المَحْت عنها الفُطْن الشديد" .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٨٦-٨٧) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٨٦) .

(٤) الإتيقان (٤/١٣٩٣) .

(٥) تفسير الرازي (٧/١٤٩) .

(٦) المصدر السابق (٧/١٤٩) .

"ومنها : إقامة الحجة بها عليهم ، وذلك إنما نزل بلسانهم ولغتهم ، ثم عجزوا عن الوقوف على ما فيها مع بلاغتهم وأفهامهم ، فيدل على أن الذي أعجزهم عن الوقوف هو الذي أعجزهم عن تكرر الوقوف عليها وهو الله سبحانه" (١).

٤ . أن في وجود المتشابه تحقيقاً للابتلاء ، إذ لو كان الكل ظاهراً جلياً لبطل معنى الامتحان ونيل الثواب بالجهد في الطلب ، ولو كان الكل متشابهاً خفياً لم يُعلم شيء حقيقة، فجعل بعضه جلياً ظاهراً وبعضه خفياً ؛ ليتوسل بالجلي إلى معرفة الخفي بالاجتهاد وإعمال الفكر ، فيتبين المجد من المقصّر ، والمجتهد من المفرط.

٥ . تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه ؛ لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء ، دال على معانٍ كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام، ولو عبر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ ؛ لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (٢). (٣).

المطلب الثالث : الصلة بين المشكل والمتشابه .

المشكل قد يراد به المشاكل للشيء أي المشابه له ، وقد يراد به ما غمض ودقّ عن الفهم ، والمتشابه مرّ بنا تعريفه في السابق ، ولا شك أن المتبوع لتعريف المشكل والمتشابه يتبين له وجود علاقة وصلة بين العلمين ، كما سيأتي في كلام الإمام ابن قتيبة ، ويمكن تحديد هذه العلاقة من خلال الحثيات التالية .

أولاً : من حيث التعريف اللغوي .

عند النظر إلى أصل الكلمتين في اللغة نجد أن المشكل والمتشابه لفظان متماثلان مترادفان .

(١) البرهان (٧٦/٢) .

(٢) سورة الكهف : ١٠٩ .

(٣) انظر : مناهل العرفان للزرقاني (٢/٢٢٤)، وانظر للاستزادة من الحكم لوجود المتشابه : تفسير الرازي (٧/١٤٩)، البرهان (٢/٧٥)، الإتقان (٥/١٣٩٣)، أصول التفسير وقواعده للعك (ص٢٩٣)، المحكم والمتشابه في القرآن العظيم ، د.عبدالرحمن المطرودي (ص١١١)، المتشابه في القرآن : مفهومه وأسبابه وحكمته، د.طه عابدين طه (ص١٣٧-١٤٢) ضمن مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية ، ج١٩، ع٤١، جمادى الثاني ١٤٢٨هـ.

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"شبه : الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفاً ، يقال : شبه وشبه وشبيه ، والشبه من الجواهر : الذي يشبه الذهب ، والمشبّهات من الأمور: المشكلات ، واشتبه الأمران ؛ إذا أشكلا"^(١).

وقال - أيضاً - : "شكل : الشين والكاف واللام ؛ معظم بابه المماثلة ، تقول : هذا شكّل هذا ؛ ومن ذلك يقال : أمر مُشكّل ، كما يقال : أمر مُشْتَبِه ، أي هذا شابه هذا ، وهذا دخل في شكل هذا"^(٢).

وجاء في القاموس المحيط : "تشابها واشتبها : أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا ، وأمور مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ : مُشْكَلَةٌ"^(٣).

وبعد هذا العرض لتعريف المشكل والمتشابه في اللغة ، يتبين اشتراكهما في معنى المماثلة المؤدية إلى الالتباس غالباً .

ثانياً : من حيث الواقع والتطبيق العملي للعلمين (المتشابه والمشكل) .

وهنا - أيضاً - يتبين مدى الارتباط الوثيق والعلاقة المتينة بين المشكل والمتشابه؛ لاحتواء كتب المتشابه على ما أوهم الاختلاف والتناقض ، وتناول كتب المشكل للمتشابه من الآيات ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور ياسر الشمالي في رسالته "موهم الاختلاف والتناقض في القرآن الكريم" ، حيث ذكر ضمن نتائج البحث ما نصه :

"لقد تبين لي من هذا البحث أن هناك علاقة وطيدة بين المتشابه في القرآن ، وبين موهم الاختلاف بين الآيات ، ولذلك نجد كثيراً من العلماء يطلق المتشابه على موهم الاختلاف بين الآيات أو يدرج الآيات التي فيها توهم اختلاف في كتب المتشابه"^(٤).

ثالثاً : من حيث التعريف الاصطلاحي لهما .

اختلف أهل العلم في بيان مدى الصلة بين المشكل والمتشابه نظراً لاختلافهم في مفهوم المتشابه ، وكذا الاختلاف في تعريف المشكل ؛ وهل هو عام في كل ما غمض ودق

(١) مقاييس اللغة (٣/٢٤٣) .

(٢) المصدر السابق (٣/٢٠٤) .

(٣) (٤/٢٨١) .

(٤) (ص ٧٠٠) ، نقلاً عن د.سعاد باقبي في مقدمة تحقيق "باهر البرهان" للنيسابوري (١/٤٨١) .

عن الفهم ؟ أو هو خاص فيما أوهم التعارض والاختلاف ، ومع هذا الاختلاف يصعب تحديد الصلة بينهما^(١).

فمن العلماء من عدّهما علماً واحداً ، كما مانا ابن قتيبة ، حيث قال في "تأويل مشكل القرآن" في معنى المشكل : "إنه سمي مشكلاً لأنه أشكل أي دخل في شكل غيره، فأشبهه وشاكله" ، ثم عمّم المشكل ؛ فقال : "ثم قد يقال لما غمض - وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة - أي جهة دخوله فيما يشبهه - : مشكلاً" ، ثم تحدث عن المتشابه ؛ فقال : "وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان" ، ثم عمّم التشابه ؛ فقال : "ثم قد يقال لكل ما غمض ودق : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبهه بغيره"^(٢).

ومن خلال التعريفين المجمعين للمشكل والمتشابه يتبين أن ابن قتيبة يرى أن المشكل والمتشابه لفظان متماثلان مترادفان ، ولذلك قال :

"ومثل المتشابه المشكل" ، والجامع بينهما الغموض والخفاء^(٣).

وقد يقال : إن الذي حمل ابن قتيبة على هذا هو مراعاته للتعريف اللغوي لهما.

وذهب إلى عدم التفريق بين المشكل والمتشابه جمع من العلماء ؛ كالقاضي أبي يعلى (ت ٤٥٨ هـ)^(٤)، والباجي (ت ٤٧٤ هـ)^(٦)، والشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)^(١)، والزركشي (ت ٧٩٤ هـ)^(٢).

(١) جدير بالذكر أن المراد بالمتشابه هنا : المتشابه النسبي أو الإضافي ، إذ إن المتشابه الحقيقي لا توجد بينه وبين المشكل صلة ؛ لأنه مما استأثر الله بعلمه ، بل إن بعض أهل العلم يقول ليس للمتشابه الحقيقي علاقة بالتفسير ، لأن التفسير مرتبط ببيان المعاني ، والمتشابه الذي استأثر الله بعلمه مرتبط بالمغيبات وهذا لا يعلمه إلا الله.

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٠١-١٠٢) .

(٣) انظر : مقدمة "باهر البرهان" للنيسابوري ، د. سعاد باقبي (١٤٩/١) .

(٤) القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء ، الفقيه الحنبلي ، ولد سنة ٣٨٠ هـ ، وكان عالم عصره في الفقه والأصول وأنواع الفنون ، ولي قضاء بغداد ، له مؤلفات كثيرة ، منها : "العدة" ، "الروايتين والوجهين" ، توفي سنة ٤٥٨ هـ . [طبقات الحنابلة (٢/١٩٣) ، المقصد الأرشد (٢/٣٩٥)] .

(٥) العدة في أصول الفقه (١/١٥٢) .

(٦) القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الأندلسي القرطبي الباجي ، الإمام العلامة الفقيه المالكي ، المالكي ، ذو الفنون ، صاحب التصانيف ، أخذ عن مكي بن أبي طالب ، ويونس بن مغيث ، وعنه : ابن عبد البر

قال الباجي : "المتشابه : هو المشكل الذي يحتاج في فهم المراد به إلى تفكير وتأمل"^(٣).

وقال الزركشي : "والمتشابه مثل المشكل ؛ لأنه أشكل ، أي دخل في شكل غيره وشاكله"^(٤).

ومن أهل العلم من يرى أن العلاقة بين المشكل والمتشابه بالعموم والخصوص ، فذهب بعضهم إلى أن المتشابه أعم من المشكل ، وعدّ المشكل نوعاً من أنواع المتشابه ، وينسب هذا إلى الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، الذي يذهب إلى أن المتشابه عام يشمل المجمل والمؤول والمشكل^(٥) ، وإلى هذا ذهب الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) ، وحكى اختيار المحققين له^(٦).

ويذهب بعضهم إلى أن المشكل أعم من المتشابه ، إذ إن كلّ متشابه مشكل ، وليس كل مشكل متشاهماً .

وعند التأمل في هذه الأقوال يمكن الجمع بينها ؛ فيقال :

من قال : هما مترادفان ؛ فقد راعى المعنى اللغوي لهما ، ومن قال : المتشابه أعم ؛ نظر إلى المتشابه بالمعنى اللغوي وإلى المشكل بمعناه الاصطلاحي ، ومن قال : المشكل أعم ؛ نظر إلى المتشابه بالمعنى الاصطلاحي وإلى المشكل بمعناه اللغوي .

وعلى كلّ : فإن بين العَلَمين "المشكل والمتشابه" تداخلاً كما هو الحال بالنسبة لكثير من أنواع علوم القرآن ، ومن الأمثلة على ذلك : علم معاني القرآن يدخل فيه علم غريب القرآن ، وعلم مشكل القرآن وعلم الأساليب العربية التي استخدمها القرآن كعلم إعجاز القرآن وعلم البلاغة .

وابن حزم ، له مصنفات كثيرة ؛ منها : المنتقى ، وإحكام الفصول ، توفي في تاسع عشر رجب سنة ٤٧٤هـ.

[ترتيب المدارك (١١٧/٨) ، سير أعلام النبلاء (٥٣٥/١٨)] .

(١) الاعتصام (٧٣٦/٢) .

(٢) البرهان (٦٩/٢) .

(٣) إحكام الفصول (١٧٦/١) .

(٤) البرهان (٦٩/٢) .

(٥) انظر : تفسير الرازي (١٤٦/٧) .

(٦) مناهل العرفان (٢١٦/٢) .

بل الأصل في العلوم الإسلامية التداخل ، وهناك قاسم مشترك بين أصول هذه العلوم ، وذلك أن العلوم الشرعية كلها مستقاة من الكتاب والسنة ، والكتاب نزل بلسان عربي مبين ، وكذا السنة فإنها بلسان عربي مبين^(١) .

المطلب الرابع : الحروف المقطعة في أوائل السور .

من المسائل التي تبحث في موضوع "الحكم والمتشابه" ، مسألة "الحروف المقطعة في أوائل السور" ، وهي الحروف التي افتتح الله بها عزّ وجلّ تسعاً وعشرين سورة من سور القرآن الكريم ، وسبب إدخالها في هذا الموضوع : هو ما جاء عن بعض السلف من عدّهم الحروف المقطعة مما استأثر الله بعلمه ، ولن أتوسع هنا بذكر الأقوال في معنى هذه الحروف ومناقشتها ، فليس هو المراد من هذا المبحث ؛ بل المراد : هل هي من المتشابه أم لا؟ .

والمراد هنا المتشابه الحقيقي ، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه ، والخلاف بين أهل العلم حول هذا ؛ إذ لا خلاف بين العلماء في كون الحروف المقطعة من المتشابه النسبي الذي يخفى على البعض ، وهذا ما أكّده الإمام ابن قتيبة في أكثر من موضع .

فتجده في "تأويل مشكل القرآن" ينص على أن الحروف المقطعة من المتشابه ؛ فيقول : "ثم قد يقال لكل ما غمض ودقّ : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره ، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة في أوائل السور : متشابه ، وليس الشك فيها والوقوف عندها ؛ لمشاكلتها غيرها والتباسها بها"^(٢) .

بل يذكر في "المسائل والأجوبة" أن الحروف المقطعة أولى ما يصدق عليه معنى المتشابه في القرآن الكريم ، وهو يريد بذلك المتشابه النسبي الذي يخفى على البعض ويعلمه الراسخون في العلم ، وفي ذلك يقول :

(١) انظر : أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن ، د.مسعود الطيار (ص٢٣)، وانظر - للاستزادة - في موضوع "الصلة بين المشكل والمتشابه" : المقارنة بين المشكل والمتشابه في القرآن الكريم ، د.محمد أحمد الكردي (ص٩٧-١٠٥)، ضمن مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية مجلد "٣"، عدد "٢" ، جمادى الأولى ١٤٢٧هـ ، مقدمة كتاب "باهر البرهان" للنيسابوري ، د.سعاد باقبي (ص١٤٦-١٥٠)، مشكل القرآن الكريم، د.عبدالله المنصور (ص٨٢-٨٥) .

(٢) (ص١٠٢) .

"وكذلك الحروف المقطعة قد اختلف في تفسيرها ، وهي أولى الكتاب بالإشكال والتشابه ، ولم نرهم أمسكوا عن التأويل لها ... ، ولكل فيما فسّر مذهب تحتمله الحروف ، ولم يخرج الحق منها إن شاء الله" (١).

ويؤكد على أن الحروف المقطعة ليست من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ فيقول :

"فإننا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن ؛ فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمرّوه على التفسير ، حتى فسروا "الحروف المقطعة" في أوائل السور ، مثل : "الر" ، و"حم" ، و"طه" ، وأشباه ذلك" (٢).

وبهذا يُقرر ابن قتيبة أن الحروف المقطعة من المتشابه النسبي ، وهذا - كما سبق - لا خلاف فيه بين أهل العلم ، وإنما الاختلاف في : هل هي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه أم لا؟ .

والعلماء في ذلك على قولين :

القول الأول :

أنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وعليه فيرد علمها إليه سبحانه . وهذا القول مروى عن الخلفاء الأربعة (٣) - رضوان الله عليهم - وبه قال الربيع بن خيثم (ت ٦١هـ) (٤) ، والشعبي (ت ١٠٣هـ) (٥) ، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ) (٦) ، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢هـ) (٧) ، وأبو بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) (٨) ، وابن

(١) (ص ٢١٦) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٠) .

(٣) انظر : بحر العلوم للسمرقندي (٤٧/١) ، تفسير البغوي (٥٨/١) ، زاد المسير (١٧/١) ، تفسير القرطبي (١٧٢/١) .

(٤) تفسير القرطبي (١٧٢/١) .

(٥) الصراط المستقيم (ص ٢١٣) ، تفسير البغوي (٥٨/١) .

(٦) تفسير البغوي (٥٨/١) ، تفسير الرازي (٤/٢) .

(٧) زاد المسير (١٧/١) .

(٨) تفسير القرطبي (١٧٢/١) .

حبان (ت ٣٥٤هـ)^(١)، ورجحه السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٢)، والشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)^(٣).

روي عن أبي بكر الصديق (ت ١٣هـ) رضي الله عنه ، أنه قال : " الله عز وجل في كل كتاب سر ، وسر الله في القرآن أوائل السور " (٤).

وقال داود بن أبي هند (ت ١٤٠هـ) : كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور ، فقال : " يا داود إن لكل كتاب سراً ، وإن سر القرآن فواتح السور ، فدعها وسل عما سوى ذلك " (٥).

وقد دلل الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) لهذا القول بأدلة ، منها :

- ١ . أن تفسيرها بلغة العرب كذب بحت ، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك.
- ٢ . أنه لم يثبت فيها عن رسول الله ﷺ شيء يصلح للتمسك به ، والدليل على ذلك هو اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم ، إذ لو كان عندهم شيء عنه ﷺ لما تركوا حكايته عنه ورفعوا إليه ، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم .
- ٣ . أن المروي عن الصحابة رضوان الله عليهم في هذا مختلف متناقض ، فإن عملنا بما قال أحدهم دون الآخر كان تحكماً لا وجه له ، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف ومتناقض (٦).

القول الثاني :

أنها ليست من المتشابهة .

وعليه جمهور العلماء ، وهم في ذلك على قسمين :

(١) المصدر السابق (١٧٢/١) .

(٢) الإتيقان (٦٥٨/١) .

(٣) فتح القدير (١٠٧/١) .

(٤) تفسير البغوي (٥٨/١) ، زاد المسير (١٧/١) ، الصراط المستقيم (ص ٢١٣) .

(٥) تفسير البغوي (٥٨/١) .

(٦) انظر : فتح القدير (١٠٤/١ - ١٠٧) ، ورسالة (علوم القرآن عند ابن حزم جمعاً ودراسة) للدكتور / ناصر ابن

محمد آل عشوان (ص ٣٦٠) .

أحدهما : من يقول إن لها معنى ، ولها تفسيراً يعلم معناه ، واختلف أصحاب هذا القسم في تعيينه على أقوال زادت على العشرين^(١) .
القسم الثاني : من قال : هي حروف هجائية ليس لها معنى ، ولكن لها فائدة ، والفائدة تغني عن المعنى .

وهذا الأخير ، هو القول الأقرب للصواب ، قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ) رحمه الله :

" وأصح الأقوال هو أنها حروف هجائية ليس لها معنى على الإطلاق "^(٢) .

فهذه الحروف لا معنى لها ؛ لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، والعرب لم تجعل للحروف المفردة معنى ، فحرف الصاد بمفرده لا معنى له ، وكذا حرف النون ، وكذا حرف القاف ، وغيره من الحروف ، فإذا كان الحرف لا معنى له في لغة العرب ، فإنه لا يتطلب لهذه الأحرف معنى محددًا تدل عليه^(٣) .

نقل الزجاج (ت ٣١١هـ) عن قطرب (ت ٢٠٦هـ) ، قوله :

"إن (الم) ، و (المص) ، و (المر) ، و (كهيعص) ، و (ق) ، و (يس) ، و (ن) حروف المعجم ذكرت لتدل على أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف المقطعة التي هي حروف أ ، ب ، ت ، ث ، ف جاء بعضها مقطعاً ، وجاء تمامها مؤلفاً ليدل القوم الذي نزل عليهم القرآن أنه بحروفهم التي يعقلونها لا ريب فيه "^(٤) .

ومع أن هذه الحروف لا معنى لها ، إلا أن لها مغزى وفائدة ، وهذه الفائدة تغني عن المعنى - وإن شئت فقل هي المعنى - وفائدتها هي التحدي وبيان إعجاز القرآن العظيم ، وأنه كتاب منزل من عند الله تعالى ، لا من صنع البشر ، حيث إنه لم يأت بكلمات ، أو

(١) انظر هذه الأقوال : تفسير الطبري (٢٠٤/١) ، تفسير القرطبي (١٧٢/١) ، تفسير الرازي (٤/٢) ، فتح

القدير (١٠١/١) ، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٣/١) .

(٢) تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة) (٢٢/١) .

(٣) انظر : تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة) (٢٢/١) ، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر ،

د. مساعد الطيار (ص ١٥٠) .

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥٥/١) .

بحروف خارجة عن نطاق البشر ، وإنما هي من الحروف التي يتكلم بها الناس ، ومع ذلك فقد أعجزهم .

وقد نص على هذه الفائدة جمهور العلماء ، كقطرب (ت ٢٠٦هـ)^(١) ، والفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٢) ، والمبرد (ت ٢٨٥هـ)^(٣) ، والزجاج (ت ٣١١هـ)^(٤) ، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)^(٥) ، والرازي (ت ٦٠٦هـ)^(٦) ، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)^(٧) ، وابن كثير (ت ٧٤٧هـ)^(٨) ، ومن المتأخرين فضيلة الشيخ محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)^(٩) ، والطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣)^(١٠) وغيرهم الكثير .

قال ابن كثير (ت ٧٤٧هـ) :

" وقال آخرون : بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين ، وحكى القرطبي (ت ٦٧١هـ) عن الفراء ، وقطرب نحو هذا ، وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية ، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي (ت ٧٤٢هـ) ، وحكاه عن ابن تيمية ، ... قلت : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء ، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة"^(١١).

(١) المصدر السابق (٥٥/١) .

(٢) الأضداد للأبباري (ص ٤٠٤) .

(٣) التفسير الكبير للرازي (٧/٢) .

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٥٥/١) .

(٥) الكشاف (٧٠/١) .

(٦) التفسير الكبير (٧/٢) .

(٧) تفسير ابن كثير (٣٦/١) .

(٨) المصدر السابق (٣٦/١) .

(٩) تفسير القرآن الكريم (٢٢/١) .

(١٠) التحرير والتنوير (٢١٥/١) .

(١١) تفسير ابن كثير (٣٦/١) .

وعلى هذا فالصحيح ما عليه جمهور العلماء من أن هذه الحروف ليست من المتشابهة،
ويجاب عما استدل به الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) على أنها من المتشابهة، فيقال:
أ. أما قوله: " إن تفسيرها بلغة العرب كذب بحت ، فإن العرب لم يتكلموا بشيء
من ذلك " فيقال في الإجابة عنه : إنا نسلم أن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك ، ولهذا
فنحن نقول : إن هذه الحروف لا معنى لها إلا التحدي وبيان إعجاز القرآن الكريم .
ب . وأما قوله : " إنه لم يثبت فيها عن الرسول ﷺ شيء يصلح للتمسك به " ،
فيقال في الإجابة عنه : إنه لا يلزم من كون النبي ﷺ لم يفسرها أن تكون من المتشابهة ، فإن
النبي ﷺ لم يفسر القرآن كاملاً ، ولم يقل أحد : إن ما لم يفسره النبي ﷺ فهو من المتشابهة .
ج . وأما قوله : " إن المروي عن الصحابة رضوان الله عليهم في هذا مختلف ومتناقض
" ، فيقال في الإجابة عنه : إن هذا أوضح دليل على أن هذه الحروف ليست من المتشابهة ،
إذ لو كانت من المتشابهة الذي لا يعلمه إلا الله لما خاضوا فيها ، فهم أروع الناس من أن
يقولوا في القرآن بغير علم .

المبحث السابع

النسخ

أولاً : تعريف النسخ لغةً .

النسخ لغة : يدور حول معنيين :

أحدهما : الرفع والإزالة، والثاني : النقل.

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

" نسخ : النون والسين والحاء أصل واحد، إلا أنه مختلف في قياسه، قال قوم : قياسه رفع شيء وإثبات غيره مكانه، وقال آخرون : قياسه تحويل شيء إلى شيء، قالوا : النسخ : نسخ الكتاب، والنسخ : أمر كان يعمل به من قبل ثم ينسخ بجادته غيره، وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه، وانتسخت الشمس الظل، والشيبُ الشباب"^(١).

وقد ذهب الطبري (ت ٣١٠هـ)^(٢)، والنحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٣)، إلى أن النسخ في القرآن مشتق من معنى النقل والتحويل.

فيما ذهب الجمهور من اللغويين والأصوليين والمفسرين إلى اشتقاقه من معنى الرفع والإزالة^(٤).

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل من أشار إلى ذلك بقوله :

"والناسخ هو الذي إذا وقع زال بوقوعه غيره ، أو استُغني عنه ، يُقال : الظلُّ ينسخ الشمسَ ، والشمسُ تنسخُ الظلَّ ؛ لأن كل واحدٍ منهما إذا وقع زال بوقوعه الآخر . وعلى هذا ناسخ القرآن ومنسوخه؛ لأن الناسخ يقع فلا يقع العمل بالمنسوخ"^(٥).

(١) معجم مقاييس اللغة (ص ٩٨٩) مادة (نسخ) .

(٢) تفسير الطبري (٣٨٨/٢) .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٤٢٤/١) .

(٤) انظر : المعتمد لأبي الحسين البصري (٣٦٤/١) تفسير ابن عطية (١٩٠/١) ، المحصول للرازي (٤٢٠/٣) ،

شرح مختصر الروضة (٢٥٢/١) ، شرح الكوكب المنير (٥٢٥/٢) ، مذكرة الشنقيطي (ص ١٢٠) وقد رجح

هذا القول د. مصطفى زيد ، وانتصر له بأدلة في رسالته "النسخ في القرآن الكريم" ، دراسة تشريعية تاريخية نقدية "

(٦٢/١) الفقرات (٨٥ . ٧٨) .

(٥) المسائل والأجوبة (ص ٤٥) .

قال مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) :

"وقد غلط في هذا جماعة، وجعلوا النسخ الذي وقع في القرآن، مأخوذاً من هذا المعنى . أي النقل والتحويل . وهو وهم ، وقد انتحله النحاس، وهذا خطأ، ليس في القرآن آية نسخت بآية مثلها في لفظها ومعناها، وهما باقيتان، لأن معنى نسخت الكتاب: نقلت ألفاظه ومعانيه إلى كتاب آخر، وهذا ليس من النسخ الذي هو إزالة الحكم وإبقاء اللفظ، ولا من النسخ الذي هو إزالة الحكم واللفظ ، والثاني من معاني النسخ : أن يكون مأخوذاً من قول العرب : نسخت الشمس الظل، إذا أزالته وحلت محله، وهذا المعنى الذي عليه الجمهور في منسوخ القرآن وناسخه" (١) .

ثانياً : تعريف النسخ اصطلاحاً .

للسنخ تعاريف متعددة ، من أحسنها ما ذكره فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، بقوله : "واصطلاحاً : رفع حكم دليل شرعي أو لفظه بدليل من الكتاب والسنة" (٢) .

فهذا التعريف إضافة إلى كونه مختصراً، فهو جامع مانع ، سالم من المآخذ والاعتراضات (٣) .

قلت : ويتضح تميز هذا التعريف بأمرين :

أحدهما : قوله : " رفع حكم دليل شرعي أو لفظه " ، فهذا يزيل الإشكال في منسوخ التلاوة ؛ حيث هو على تعريف النسخ بأنه " رفع حكم شرعي " لا يُدرج تحت النسخ وإنما تحت الرفع .

الأمر الثاني : قوله : " بدليل من كتاب أو سنة " ، فهو أفضل من قولهم : " بدليل شرعي " ؛ لأن القياس والإجماع من الأدلة الشرعية ، ومع ذلك لا يصح النسخ بها . وقد أبان فضيلة الشيخ رحمه الله عن محترزات التعريف، فقال :

(١) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه (ص ٤١ - ٤٣) .

(٢) الأصول (ص ٥١) .

(٣) مقدمة تحقيق "الناسخ والمنسوخ للنحاس" ، د. سليمان اللاحم (١١٤/١) .

" فالمراد بقولنا : "رفع حكم" أي تغييره من إيجاب إلى إباحة، أو من إباحة إلى تحريم مثلاً، فخرج بذلك تخلف الحكم لفوات شرط أو وجود مانع، مثل أن يرتفع وجوب الزكاة لنقص النصاب، أو وجوب الصلاة لوجود الحيض، فلا يسمى ذلك نسخاً. والمراد بقولنا : " أو لفظه " لفظ الدليل الشرعي، لأن النسخ إما أن يكون للحكم دون اللفظ أو بالعكس أو لهما جميعاً. وخرج بقولنا : "بدليل من الكتاب والسنة" ما عداها من الأدلة كالإجماع والقياس فلا ينسخ بهما"^(١).

المطلب الأول : ثبوت النسخ ، والحكمة منه .

قرر الإمام ابن قتيبة ثبوت النسخ ، وبيّن أنه جائز عقلاً ، وواقع شرعاً ، وهذا محل اتفاق بين العلماء ، وقد نقل كثير منهم الإجماع على ذلك . قال ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

" إن في أحكام الله عزّ وجل ناسخاً ومنسوخاً على حسبما ذكر في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، واجتمعت على ذلك أمته ﷺ"^(٢). وقال ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) :

" انعقد إجماع العلماء على هذا - أي أن في القرآن منسوخاً - إلا أنه قد شد من لا يلتفت إليه ، فحكى أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) أن قوماً قالوا : ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ، وهؤلاء قوم لا يعدون؛ لأنهم خالفوا نص الكتاب، وإجماع الأمة"^(٣). وقال فضيلة الدكتور مصطفى زيد (ت ١٣٩٩هـ) :

" إن المنطق السليم يقرر جواز النسخ عقلاً ؛ لأنه لا يترتب على وقوعه محال ، والجواز العقلي يكفي هذا ، فهو حسبه من دليل .

(١) الأصول (ص ٥١) .

(٢) التمهيد (٤٧/١٧) .

(٣) نواسخ القرآن (ص ١٠٨) .

والواقع التاريخي يؤكد وقوع النسخ سمعاً ، فقد شهد أمثلة على نوعيه : نسخ حكم لحكم في الشريعة الواحدة ، ونسخ شريعة للشريعة السابقة لها ، وليس أصدق من التاريخ شاهداً حين يقرر الواقع . ومن هذا وذاك ، قلنا نحن المسلمين بجواز النسخ ، ووقوعه . فقد قرر القرآن أنه كتاب الله ودعوته إلى الناس جميعاً ، وأن على كل إنسان أن يؤمن به ، ويتبع ما جاء فيه ، وهذا هو النسخ بمعناه العام : نسخ شريعة لشريعة سابقة . وسجل تاريخ الشريعة الإسلامية أحكاماً نسخت أحكاماً سابقة عليها ، فأضاف إلى النسخ بمعناه العام ذلك النوع الآخر من النسخ ونعني به نسخ حكم لحكم في الشريعة الواحدة . ومضى المسلمون منذ عهد النبوة على هذا ^(١) .

ونظراً لهذا الاتفاق ، ولكون المسألة بهذا الوضوح ، فلن أطيل في إيراد الأدلة على ثبوت النسخ ^(٢) ، وسأكتفي بما استدل به ابن قتيبة في هذا المقام .

١ . فمن الأدلة الشرعية التي استدل بها ابن قتيبة على ثبوت النسخ .

أ . قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ^(٣) .
يقول ابن قتيبة :

"إن الله عزّ وجل إنما ينسخ الثقيل بالخفيف ، والعسير باليسير ، قال الله عزّ وجل :
﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ، أي نأت بخير منها في الخفة والسهولة" ^(٤) .

(١) النسخ في القرآن الكريم (٢٢١/١) فقرة (٣١٤) .
(٢) للاستزادة انظر - الأدلة على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً - في : الفصول في الأصول للحصاص (٢١٥/٢) ، التبصرة (ص٢٥٢) ، الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي (ص٥٣) ، قواطع الأدلة (٤٢٠/١) ، العدة (٧٦٩/٣) ، المستصفي (ص٨٩) ، نواسخ القرآن (ص١٠٩) ، المحصول (٤٤٠/٣) ، الإحكام (١٢٧/٣) ، مختصر ابن الحاجب (١٨٨/٢) مع شرحه ، شرح مختصر الروضة (٢٦٦/٢) ، تفسير ابن كثير (١٤٢/١) ، الإبهام (٢٢٨/٢) ، التقرير والتحجير (٦٠/٣) ، شرح الكوكب المنير (٥٣٦/٣) ، إرشاد الفحول (٧٨٨/٢) ، مناهل العرفان (١٣٥/٢) ، أضواء البيان (٣٢٧/٣) ، الأصول للعثيمين (ص٥١) ، النسخ في القرآن الكريم (٢٢١/١) ، الآيات المنسوخة للشنقيطي (ص٥٧) ، في علوم القرآن د.فرحات (ص١٧٠) .
(٣) سورة البقرة : ١٠٦ .

(٤) المسائل والأجوبة (ص٩٢) ، وانظر : (٢٧٥) ، تفسير غريب القرآن (ص٦٠ ، ٦١) .

ويقول مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) :

"ويدل على جواز النسخ للقرآن قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ

بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ .

فهذا نص ظاهر في جواز النسخ للقرآن بالقرآن .

والمعنى على قراءة الجماعة أن الله عزّ وجل يخبر عن نفسه ، يقول : ما نرفع من حكم آية ونبقي تلاوتها أو ننسخها يا محمد فلا تحفظ تلاوتها نأت بخير منها لكم ، أي نأت بآية أخرى ، هي أصلح لكم وأسهل في التبعّد ، أو نأت بمثلها في العمل وأعظم في الأجر ، فهذا قول صحيح معروف .

وقد قيل : إن معناها : ما نرفع من حكم آية وتلاوتها نأت بخير منها، أي أصلح لكم منها"^(١) .

ب . قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾^(٢) .

يقول ابن قتيبة :

" يمحوا الله ما يشاء " ؛ أي ينسخ من القرآن ما يشاء ، " ويثبت " أي يدعه ثابتاً ، فلا ينسخه ، وهو المحكم ، " وعنده أم الكتاب " أي : جملة وأصله "^(٣) .

وهذا تفسير ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما ، فقد ورد عنه أنه قال :

" يمحوا الله ما يشاء " من القرآن ، يقول : يُبدّل الله ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدّله ، " وعنده أم الكتاب " ؛ يقول : وجملة ذلك عنده في أم الكتاب : الناسخ والمنسوخ ، وما يُبدّل ، وما يُثبّت ، كل ذلك في كتاب "^(٤) .

ج . قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾^(٥) .

(١) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه (ص ٦٢) .

(٢) سورة الرعد : ٣٩ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٢٢٨) .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/٥٦٦) .

(٥) سورة النحل : ١٠١ .

قال ابن قتيبة : "أي نسخنا آية بآية"^(١) .
وقال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ) :

"ويدل على جواز النسخ للقرآن - أيضاً - قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ .
فهذا نص ظاهر في جواز زوال حكم آية ، ووضع أخرى موضعها"^(٢) .

ويقول ابن قتيبة متحدثاً عن جواز النسخ عقلاً ، ومبيناً الحكمة من النسخ :

"ونحن نقول إن الله عز وجل يختبر عباده بالفرائض ، ليعلم كيف طاعتهم أو معصيتهم ، وليجازي المحسن والمسيء منهم ، فإذا جاز أن يبعث الله عز وجل رسولاً بشريعة ؛ فتستعمل حقباً من الدهر ، ويكون المستعملون لها مطيعين لله ، ثم يبعث رسولاً ثانياً بشريعة ثانية تنسخ الأولى ، ويكون المستعملون لها مطيعين لله تعالى ؛ كبعثه موسى عليه السلام بالسبت ، ونسخ السبت بالمسيح عليه السلام ، وبعثه إياه بالختان في اليوم السابع ، ونسخ ذلك أيضاً بالمسيح عليه السلام ، جاز أيضاً أن يفرض شيئاً على عباده في وقت ، ثم ينسخه في وقت آخر ، والرسول واحد ، وقد قال عز وجل : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾^(٣) ، يريد بخير منها : أسهل منها"^(٤) .

المطلب الثاني : أنواع النسخ في القرآن الكريم .

النسخ في القرآن الكريم عند الإمام ابن قتيبة يتنوع إلى أنواع ثلاثة :

أحدها : نسخ الحكم دون التلاوة .

الثاني : نسخ التلاوة دون الحكم .

الثالث : نسخ الحكم والتلاوة معاً .

وقد نصّ ابن قتيبة على النوعين الأولين بقوله :

(١) تفسير غريب القرآن (ص ٢٤٩) .

(٢) الإيضاح (ص ٦٢) .

(٣) سورة البقرة : ١٠٦ .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣١) .

"... فإنه يجوز أن يكون أنزله قرآناً ، ثم أبطل تلاوته ، وأبقى العمل به ، كما قال عمر (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه في آية الرجم ، وكما قال غيره في أشياء كانت من القرآن قبل أن يجمع بين اللوحين فذهبت ، وإذا جاز أن يبطل العمل به وتبقى تلاوته جاز أن تبطل تلاوته ويبقى العمل به"^(١).

ومثّل للنوع الثالث بحديث عائشة (ت ٥٨هـ) في الخمس رضعات المحرّمات^(٢). وهذا التقسيم - عند ابن قتيبة - تكاد تجمع عليه كتب التفسير وعلوم القرآن وأصول الفقه ، وأما ما ذكره بعض العلماء من تقسيمات أخرى ، كما فعل مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) حين عدّ أقسام النسخ سبعة في القرآن^(٣) ، فهي في حقيقتها عند التأمل لا تخرج عن الأقسام الثلاثة السابقة .

وإليك تفصيل هذه الأقسام .

القسم الأول : نسخ الحكم والتلاوة معاً .

وقد مثّل له ابن قتيبة بما جاء عن عائشة (ت ٥٨هـ) رضي الله عنها ، أنها قالت: "كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فيما يقرأ من القرآن"^(٤).^(٥)

وقد حكى الزرقاني (ت ٣٦٧هـ) اتفاق أهل العلم على هذا القسم ، فقال :
"أما نسخ الحكم والتلاوة جميعاً ، فقد أجمع عليه القائلون بالنسخ من المسلمين"^(٦).

(١) المصدر السابق (ص ٢١٢) .

(٢) المصدر السابق (ص ٢١٣) .

(٣) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه (ص ٦٧) .

(٤) قال الزركشي : "وقد تكلموا في قولها "وهي مما يقرأ" فإن ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك ، فمنهم من أحاب بأن المراد قارب الوفاة ، والأظهر أن التلاوة نسخت أيضاً ، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فتوفي وبعض الناس يقرؤها" . [البرهان (٤٦/٢)] .

(٥) أخرجه مسلم في الرضاع ، باب التحريم بخمس رضعات ح (٣٥٩٧) (ص ٩٢٣) .

(٦) مناهل العرفان (١٥٤/٢) ، وانظر - في اعتبار هذا القسم - : الفصول في الأصول للحصاص (٢٥١/٢) ، الناسخ والمنسوخ لهما بن سلامة (ص ١٥) ، الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص ٩) ، العدة (٧٨٢/٣) ، المستصفي (ص ٩٩) ، الواضح في أصول الفقه (٢٤٥/١) ، نواسخ القرآن (ص ١٩) ، الإحكام للآمدي (١٥٤/٣) ، ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البارزي (ص ١٩) ، شرح الكوكب المنير (٥٥٤/٣) ، =

وحكاية الاتفاق على هذا القسم محل نظر ، فقد نقل الزركشي (ت ٧٩٤) عن القاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣) أن قوماً أنكروا هذا القسم ، بحجة أن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها^(١) .
وأجيب : بأن هناك فرقا بين ثبوت نزول القرآن وثبوت النسخ ، فثبوت القرآن يشترط فيه التواتر ، أما ثبوت النسخ فيكفي فيه الدليل الظني بخبر الواحد ولا يشترط فيه التواتر^(٢) .

القسم الثاني : نسخ الحكم دون التلاوة .

وأغلب النسخ في القرآن منه ، وهو القسم الذي ألفت فيه كتب الناسخ والمنسوخ، ولا خلاف بين المحققين في وقوعه^(٣) ، بل ونقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك ، فقال : "وقد أجمعوا أن من القرآن ما نسخ حكمه وثبت خطه"^(٤) .

كما يعد هذا القسم ألصق أنواع النسخ بالنسخ الاصطلاحي عند الأصوليين ، الذي هو رفع الحكم الشرعي ؛ بخلاف منسوخ التلاوة ، فهو ألصق بالمعنى اللغوي للنسخ ، وهو مجرد الرفع .

وحكاية الإجماع هنا محل نظر ، فقد حكى ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) عن قوم^(٥) إنكار هذا القسم ، لأن التلاوة دليل الحكم ؛ فكيف يرفع المدلول مع بقاء الدليل؟!^(٦) .

=الإتقان (٧٠٥/٢) ، إرشاد الفحول (٨٠٤/١) ، مناهل العرفان (١٥٤/٢) ، النسخ في القرآن الكريم (٢٧٩/١) ، الأصول للعثيمين (ص ٥٤) ، الآيات المنسوخة د. الشنقيطي (ص ٧٢) .

(١) البرهان (٤٧/٢) .

(٢) انظر : مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان (ص ٢٤٥) .

(٣) انظر : النسخ والمنسوخ للنحاس (٤٢٨/١) ، الفصول في الأصول (٢٥١/٢) ، النسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص ١٥) ، العدة (٧٨٠/٣) ، النسخ والمنسوخ لابن حزم (ص ٩) ، المستصفي (ص ٩٩) ، الواضح في أصول الفقه (٢٥٤/١) ، المحصول لابن العربي (ص ١٤٦) ، نواسخ القرآن (ص ١٤٩) ، المسودة (٤٠٨/١) ، البرهان للزركشي (٤٥/٢) ، شرح الكوكب المنير (٥٥٣/٣) ، الإتقان (٧٠٦/٢) ، إرشاد الفحول (٨٠٤/١) ، مناهل العرفان (١٥٤/٢) ، إتقان البرهان (٣٩/٢) ، النسخ في القرآن الكريم (٢٧٩/١) ، مباحث في علوم القرآن (ص ٢٤٥) .

(٤) التمهيد (٧٧/٩) .

(٥) عزاه الأمدي في الإحكام (١٥٤/٣) ، وابن الحاجب في مختصره (١٩٤/٢) لطائفة شاذة من المعتزلة .

(٦) روضة الناظر (٢٩٤/١) .

وقد أجاب ابن قدامة عن هذا : بعدم التسليم بكون اللفظ دليلاً على الحكم بعد نسخ الحكم ؛ وإنما يكون دليلاً عليه عند انفكاكه عما يرفع حكمه ، فإذا جاء الخطاب الناسخ لحكمه زالت دلالة على الحكم بالكلية^(١) .

وأورد الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في " البرهان " تساؤلاً حول هذا القسم ، وهو عن الحكمة من رفع الحكم وبقاء التلاوة ، وكان جوابه عن هذا من وجهين : أحدهما : أن القرآن كما يُتلى ليُعرف الحكم منه ، والعمل به ، فإنه يتلى لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه ، فتركت التلاوة لهذه الحكمة .

والثاني : أن النسخ غالباً يكون للتخفيف ، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة ورفع المشقة^(٢) .

القسم الثالث : نسخ التلاوة دون الحكم .

ومثّل ابن قتيبة لهذا القسم بنسخ آية الرجم ، فقد جاء عن عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه ، أنه قال : " إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها ، رجم رسول الله ﷺ ، ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو كان الحبل ، أو الاعتراف "^(٣) ، وفي رواية لابن ماجه " وقد قرأتها) والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة " ^(٤) .

وقد وقع خلاف بين المثبتين للنسخ في جواز نسخ التلاوة دون الحكم على قولين :

القول الأول : جواز نسخ التلاوة دون الحكم ووقوعه .

(١) الروضة (٢٩٦/١) ، وانظر : شرح مختصر الروضة (٢٧٥/٢) .

(٢) البرهان (٤٦/٢) ، وانظر نحو هذا الجواب لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين في شرح نظم الورقات (ص ١٤٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الحدود ، باب رجم الحبل في الزنا إذا أحصنت ح (٦٨٣٠) (ص ٥٦٩) مطولاً ، ومسلم في الحدود ، باب رجم الثيب في الزنى ح (٤٤١٨) (ص ٩٧٧) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الحدود، باب الرجم ح (٢٥٥٣) (ص ٢٦٣٠) ، وقد صححه الألباني في الإرواء (٤/٨) .

وهو قول أبي عبيد^(١) (ت ٢٢٤هـ) ، وابن جرير الطبري^(٢) (ت ٣١٠هـ) ، ومكي بن أبي طالب^(٣) (ت ٤٣٧هـ) ، وابن عبد البر^(٤) (ت ٤٦٣هـ) ، وابن العربي^(٥) (ت ٥٤٣هـ) ، وابن الجوزي^(٦) (ت ٥٩٧هـ) والزرکشي^(٧) (ت ٧٩٤هـ) ، والسيوطي^(٨) (ت ٩١١هـ) ، وإليه ذهب جمهور العلماء ، وهو اختيار ابن قتيبة .

وقد استدلل الجمهور على هذا بأية الرجم - كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٩) - وبالخمسة رضعات المحرمات - كما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها^(١٠) - فإن حكم الرجم ، وحكم الخمس رضعات المحرمات باقٍ ، مع عدم وجود هاتين الآيتين فيما يتلى من القرآن الكريم .

وأما من جهة العقل ؛ فقالوا : إن ما يتعلق بالنصوص القرآنية من التعبد بلفظها وجواز الصلاة بها ، وحرمتها على الجنب في قراءتها ومسها ، شبيه كل الشبه بما يتعلق بها من دلالتها على الوجوب والحرمة ونحوهما ، في أن كلاً من هذه المذكورات حكم شرعي يتعلق بالنص الكريم ، وإذا كان الأمر كذلك فيجوز نسخ التلاوة فقط ، وهو نسخ التعبد بلفظه والصلاة به وكتبه في المصحف ، مع بقاء حكم آخر لم ينسخ ، وهو ما دل عليه اللفظ من الوجوب أو الحرمة ونحوهما^(١١) .

القول الثاني : عدم وقوع نسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

(١) الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز (١٣٩/١) .

(٢) تفسير الطبري (٣٩٨/٢) .

(٣) الإيضاح (ص ٥٨) .

(٤) التمهيد (٧٧/٩) .

(٥) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم (٥/٢) .

(٦) نواسخ القرآن (ص ١٤٠) .

(٧) البرهان (٤١/٢) .

(٨) الإتيقان (٧١٧/٢) .

(٩) سبق تخريجه (ص ٨١٤) .

(١٠) سبق تخريجه (ص ٨١٢) .

(١١) انظر : الروضة (٢٩٤/١) ، العدة (٧٨٢/٣) ، المستصفي (ص ٩٩) ، الإحكام للآمدي (١٥٤/٣) ، شرح مختصر الروضة (٢٧٤/٢) ، شرح الكوكب المنير (٥٥٨/٣) ، إرشاد الفحول (٨٠٨/٢) ، مناهل العرفان (١٥٥/٢) .

وهذا هو الظاهر من كلام الإمام أبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) ، حين قال معلقاً على حديث عمر رضي الله عنه - في آية الرجم - : " وإسناد الحديث صحيح ، إلا أنه ليس حكمه حكم القرآن الذي نقله الجماعة عن الجماعة ولكنه سنة ثابتة ، وقد يقول الإنسان كنت أقرأ كذا لغير القرآن ، والدليل على هذا أنه قال : " ولولا أني أكره أن يقال زاد عمر في القرآن لزدتها " (١) .

وقد احتج من أنكر هذا القسم بأدلة :

أحدها : أن الأخبار المثبتة له أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها (٢) .

وقد سبق الإجابة عن هذا : بأن هناك فرقاً بين ثبوت نزول القرآن وثبوت النسخ ، فثبوت القرآن يشترط فيه التواتر ، أما ثبوت النسخ فيكفي فيه الدليل الظني بخبر الواحد ، ولا يشترط فيه التواتر (٣) .

الثاني : أن اللفظ إنما نزل ليتلى ويثاب عليه فكيف يرفع (٤) ؟ .

وقد أجاب ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) عن هذا : بأنه لا مانع من أن يكون أصل المقصود من المنسوخ تلاوة لا حكماً وإنما هو الحكم دون التلاوة ، لكنه أنزل على رسول الله ﷺ بلفظ معين ليثبت به الحكم وليستقر ، والحال أنه هو المقصود ، فلا مانع من نسخ اللفظ لأن المقصود هو مجرد الحكم (٥) .

الثالث : قالوا : إن جاز نسخ التلاوة فلينسخ الحكم معها ، لأن الحكم تبع للتلاوة، فكيف يبقى الفرع مع نسخ الأصل؟ (٦) .

(١) الناسخ والمنسوخ (٤٣٨/١) ، وقال محققه د. سليمان اللاحم : " يظهر من كلام المؤلف أنه ينبغي أن تكون آية الرجم مما أنزل من القرآن ، ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها ، لأنه - حسب ما يظهر من كلامه هذا - لا يسلم بوقوع هذا الضرب من النسخ في القرآن ، وهو نسخ التلاوة دون الحكم " .

(٢) انظر : البرهان (٤٣/٢) .

(٣) وانظر : مباحث في علوم القرآن (ص ٢٤٦) ، الآيات المنسوخة (ص ٧٩) ، المقدمات الأساسية للجديع (ص ٢٧٦) .

(٤) انظر : الروضة (٢٩٤/١) .

(٥) الروضة (٢٩٦/١) ، وانظر : المستصفي (ص ٩٩) ، شرح مختصر الروضة (٢٧٤/٢) .

(٦) انظر : المحصول لابن العربي (ص ١٤٦) .

وقد أجاب الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) عن هذا ؛ فقال :

" إن التلاوة حكم ، وانعقاد الصلاة بها حكم آخر ، ودلالتها على ما دلت عليه حكم آخر ، فلا يلزم من نسخ التعبد بها وعدم الصلاة بها نسخ حكمها الذي دلت عليه ، فكم من دليل لا يتلى ولا تنعقد به صلاة ، والآية المنسوخة تلاوتها مع بقاء حكمها دليل لنزولها وورودها ، لا لكونها متلوّة في القرآن ، والنسخ لا يرفع ورودها ونزولها ، ولا يجعلها كأنها غير واردة ، بل يلحقها بالوارد الذي لا يتلى"^(١) .

الترجيح :

القول الراجح - والله أعلم - هو اختيار ابن قتيبة ، وهو جواز نسخ التلاوة دون الحكم وصحة وقوعه، وذلك لتظاهر الأدلة الصحيحة على ذلك، وسلامتها من المناقشة، ولضعف ما استدل به المنكرون لهذا القسم .

المطلب الثالث : نسخ القرآن بالقرآن .

من أقسام النسخ باعتبار دليله : نسخ القرآن بالقرآن ، وهذا القسم محل إجماع بين العلماء .

قال مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) :

"فأما نسخ القرآن بالقرآن ؛ فجوازه إجماعٌ من أهل السنة"^(٢) .

وقال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) :

"اتفقوا على جواز نسخ القرآن بالقرآن"^(٣) .

وقال ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) :

"اتفق العلماء على جواز نسخ القرآن بالقرآن"^(٤) .

وقد أشار الإمام ابن قتيبة إلى نسخ القرآن بالقرآن عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا

(١) مذكرة الشنقيطي (ص ١٣٠) ، وانظر : المستصفي (ص ٩٩) .

(٢) الإيضاح (ص ٧٧) .

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (٤/٥٠٥) .

(٤) نواسخ القرآن (ص ١١٩) .

بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴿١﴾؛ فقال: "أي نسخنا آية بآية" (٢).

كما قال بنسخ بعض الآيات بالقرآن ، وحكم بذلك في خمس آيات ، تفصيلها كالتالي :

١ . نسخ قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (٣) ، بآيات الموارث : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنِ ﴾ الآيات (٤).

يقول ابن قتيبة في "تفسير غريب القرآن" :

"أي يوصي لهم ويقتصد في ذلك ، لا يسرف ولا يضر ، وهذه منسوخة بالموارث" (٥). ويتوسع في "تأويل مختلف الحديث" فبيّن وجه نسخها بآية الموارث ؛ فيقول : "ونحن نقول إن هذه الآية منسوخة ، نسختها آية الموارث، فإن قال : وما في آية الموارث من نسخها ، فإنه قد يجوز أن يُعطى الأبوان حظهما من الميراث ويعطيا أيضاً الوصية التي يوصي بها لهما؟ .

قلنا : لا يجوز ذلك ؛ لأن الله تعالى جعل حظهما من ذلك الميراث، المقدر الذي نالهما بالوراثة.

وقال عز وجل بعد آية الموارث : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (٦).

(١) سورة النحل : ١٠١ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٤٩) .

(٣) سورة البقرة : ١٨٠ .

(٤) سورة النساء : ١١-١٤ .

(٥) (ص ٧٢) .

(٦) سورة النساء : ١٣-١٤ .

فوعده على طاعته فيما حد من الموارث أعظم الثواب ، وأوعده على معصيته فيما حد من الموارث بأشد العقاب ؛ فليس لأحد أن يوصل إلى وارث من المال أكثر مما حد الله تعالى وفرض^(١).

٢ . نسخ قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِّنكُمْ ۖ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّهِنَّ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْبُيُوتَ يَبْنَؤْنَ وَأَنَّ الْبُيُوتَ يَبْنَؤْنَ وَأَنَّ الْبُيُوتَ يَبْنَؤْنَ وَأَنَّ الْبُيُوتَ يَبْنَؤْنَ ۚ ﴾ ، بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَاعَاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۚ ﴾^(٢).

يقول ابن قتيبة :

"وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ۚ ﴾ ، منسوخة ، نسختها ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ ۚ ﴾ ، يعني الفاحشة ﴿ فاعاذوهما ۚ ﴾ ، أي عزروهما ، ويقال : حدوهما ، ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۚ ﴾ ، أي : لا تعيروهما بالفاحشة"^(٤).

٣ . نسخ قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾^(٥) ، بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۚ ﴾^(٦).

يقول ابن قتيبة :

"﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ ﴾ ، وهذا منسوخ بقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۚ ﴾"^(٧).

(١) (ص ١٣٠) .

(٢) سورة النساء : ١٥ .

(٣) سورة النساء : ١٦ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ١٢٢) .

(٥) سورة البقرة : ١٨٤ .

(٦) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٧٣) .

ووجه نسخ هذه الآية : أن المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مخيرين أول الأمر بين الصوم وبين الإفطار مع الافتداء حتى نزلت ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، فألزموا بالصيام وبطل الخيار بينه وبين الافتداء والإفطار^(١).
جاء عن سلمة بن الأكوع (ت ٧٤هـ) رضي الله عنه أنه قال :

"لما نزلت ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ ، كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فنسختها"^(٢).

٤ . نسخ قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾^(٣) ، بقوله تعالى : ﴿ قَدْ زَرَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾^(٤).

يقول ابن قتيبة : " ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ ، نزلت في ناس من أصحاب رسول الله كانوا في سفر ، فعميت عليهم القبلة ، فصلَّى ناسٌ قبل المشرق ، وآخرون قبل المغرب^(٥) ، وكان هذا قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة"^(٦).

ويتضح وجه نسخها بقول ابن زيد (ت ١٨٢هـ) :

"كانوا أيبحوا أن يصلوا إلى أي قبلة شاؤوا ؛ لأن المشرق والمغرب لله ، فأنزل الله : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هؤلاء يهود قد استقبلوا

(١) انظر : الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/٤٩٤) ، الإيضاح لمكي (ص ١٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير [سورة البقرة] ، باب "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" ح (٤٥٠٧) (ص ٣٧٠) ، ومسلم في الصيام ، باب نسخ قوله تعالى : "وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين" بقوله : "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" ح (٢٦٨٥) (ص ٨٦١) .

(٣) سورة البقرة : ١١٥ .

(٤) سورة البقرة : ١٤٤ .

(٥) انظر : أسباب النزول للواحدي (ص ٣٧) .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٦٢) .

بيتاً من بيوت الله ، يعني بيت المقدس فصلوا إليه" ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليه بضعة عشر شهراً، فقالت اليهود : ما اهتدى لقلته حتى هديناه، فكره النبي صلى الله عليه وسلم قولهم ، ورفع طرفه إلى السماء ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾^(١).

٥ . نسخ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾^(٢) ، بقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلُمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٣) .
يقول ابن قتيبة في تفسير آية النحل :

"﴿ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ ، أي: خمرًا ، ونزل هذا قبل تحريم الخمر"^(٤).

وقد روي القول بنسخها عن سعيد بن جبير (ت ٩٤هـ) ، وإبراهيم النخعي (ت ٩٦هـ) ، والشعبي (ت ١٠٣هـ) ، ومجاهد (ت ١٠٤هـ) ، وقتادة (ت ١١٧هـ)^(٥) .
قال قتادة في تفسير آية النحل :

"أما السُّكْرُ فخمور هذه الأعاجم ، وأما الرزق الحسن فما تَنْتَبِدُونَ وما تُخَلَّلُونَ وما تأكلون، ونزلت هذه الآية ولم تُحَرِّم الخمر يومئذ ، وإنما جاء تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة"^(٦).

ويُجسب للإمام ابن قتيبة في هذا الباب أنه مقل مقتصد في الحكم بنسخ الآيات، وذلك أن أهل العلم اختلفوا في عدد الآيات المنسوخة ، وانتهجوا في ذلك طريقتين :
أحدهما : من بالغ في الحكم بنسخ الآيات ، فأدخل في النسخ ما ليس منه ،
كتخصيص العام ، وبيان الجملة ، وتقييد المطلق ونحوها ؛ بناءً على الاصطلاح المتقدم عند

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٥٢/٢) .

(٢) سورة النحل : ٦٧ .

(٣) سورة المائدة : ٩٠ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٢٤٥) .

(٥) انظر : الناسخ والمنسوخ للنحاس (٤٨٦/٢) ، تفسير الطبري (٢٧٨/١٤) .

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨٠/١٤) .

السلف للنسخ ، ومن هؤلاء : أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) ، حيث أورد مائة وثمانية وثلاثين (١٣٨) آية ، وأبو البقاء هبة الله بن سلامة (ت ٤١٠هـ)^(١) ، حيث أورد مائتين وخمسة وثلاثين (٢٣٥) آية ، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ) أورد مائتين وأربع عشرة (٢١٤) آية ، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) أورد مائتين وأربعاً وسبعين (٢٧٤) آية^(٢) ، وغيرهم الكثير .

الثاني : من اقتصد في الحكم بنسخ الآيات وقال به في حدوده المعقولة ، وعلى رأس هؤلاء الإمام ابن قتيبة ؛ إذ الآيات التي قال بنسخها فيما تتبعت لا تعدو خمس آيات ، وهذا قليل جداً ، لا سيما عند المتقدمين الذين يميلون في الغالب إلى التوسع في النسخ .

ومن هؤلاء السيوطي (ت ٩١١هـ) الذي حرّر الآيات التي ثبت فيها النسخ فأوصلها إلى عشرين آية^(٣) ، وكالدهلوي (ت ١١١٤هـ) الذي ناقش ما ذكره السيوطي وتعبه فيه ، ثم قال : " وبما حررته لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات "^(٤) ، وكذا الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) ، الذي تعرض لثنتين وعشرين واقعة ، قبل النسخ في اثني عشرة واقعة منها^(٥) ، ومنهم الدكتور مصطفى زيد الذي قرر أن الآيات التي صحت فيها دعوى النسخ لا تزيد عن ست آيات^(٦) .

ويقول الدكتور عبدالله الشنقيطي في خاتمة بحثه " الآيات المنسوخة في القرآن الكريم " : " وما ثبت عندي نسخه من الآيات ، هي تسع آيات ، دخلها نسخ في سبعة موضوعات ، ولم أجد آية اتفق على نسخها غير آية تقديم الصدقة لأجل النجوى بين يدي رسول الله ﷺ^(٧) ، وأما غيرها من الآيات ففيها خلاف .

(١) أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي الضرير المفسر ، إمام ، حافظ ، قال الداني : " كان أحفظ أهل زمانه لتفسير القرآن ، واختلاف السلف فيه " ، له مصنفات ، منها : " الناسخ والمنسوخ في القرآن " ، و " الناسخ والمنسوخ في الحديث " ، و " المسائل المثورة " في النحور . [تاريخ بغداد (١٠٧ / ١٦) ، غاية النهاية (٣٠٦ / ٢)] .

(٢) هذه الإحصائيات نقلاً عن إتيان البرهان ، د. فضل إحسان عباس (٢٩ / ٢) .

(٣) الإتيان (٧١٦ - ٧٠٦ / ٢) .

(٤) الفوز الكبير في أصول التفسير (ص ٦٠) .

(٥) مناهل العرفان (١٨٣ / ٢ - ١٩٤) .

(٦) النسخ في القرآن الكريم (١٢ / ١) .

(٧) وهي قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَةٌ ذٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [سورة المجادلة : ١٢] .

وقد ظهر لي من خلال البحث أن من أسباب الخلاف في النسخ عدم الاتفاق في مدلوله بين المؤلفين في النسخ والمنسوخ.

كما تبين لي أن المؤلفين في النسخ والمنسوخ بين إفراط وتفريط ، فكثير منهم عدّ من النسخ ما ليس بنسخ ، كالتقييد والتخصيص والإجمال .

وقلة من العلماء منعوا النسخ وأغلبهم معاصرون .

وقلة من العلماء توسطوا وقبلوا النسخ بشروطه ، وميزوا بينه وبين التقييد والتخصيص ، وعلى رأس هؤلاء الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) - رحمه الله - واضح أول تأليف بين يدينا في الأصول .

ومن سار على منهج الاعتدال ، وعدم الخلط بين المصطلحات التي ميّز بينها الإمام الشافعي في الرسالة : إمام المفسرين ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، فإن فهمه في تفسيره رائع ، وهو عمدة في هذا الباب .

وكذلك الإمام ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) في التمهيد ، فمن عباراته التي تعتبر منهجاً في هذا الباب : " والصحيح في النظر عندي : أن لا يحكم بنسخ شيء من القرآن إلا ما قام عليه الدليل الذي لا مدفع له ، ولا يحتمل التأويل " (١) .

وهذه الكلمة في غاية الإتيان والدقة في إعطاء الدارس لهذا الموضوع الصعب منهجاً يسير عليه في قبول النسخ ورفضه ، وهي عبارة جامعة مع قلة ألفاظها ، رحمه الله رحمة واسعة " (٢) .

ومما لا شك فيه أن هذا المنهج هو المنهج الأسلم والأحكم ، والذي ينبغي ألا يجحد عنه المرء ، وهو المناسب للحكمة التي من أجلها وجد النسخ .

المطلب الرابع : نسخ القرآن بالسنة .

تحدث الإمام ابن قتيبة في "تأويل مختلف الحديث" عن جواز نسخ القرآن بالسنة، ودلّل له ؛ فقال :

(١) التمهيد (٣٩٢/١٤) .

(٢) الآيات المنسوخة في القرآن الكريم (ص ١٥٥-١٥٦) بتصرف يسير .

"فإذا جاز أن يبعث الله عز وجل رسولاً بشريعة فتستعمل حِقْباً من الدهر ، ويكون المستعملون لها مطيعين لله ثم يبعث رسولاً ثانياً بشريعة ثانية تنسخ الأولى ، ويكون المستعملون لها مطيعين لله تعالى ؛ ... جاز أيضاً أن يفرض شيئاً على عباده في وقت ، ثم ينسخه في وقت آخر ، والرسول واحد ، وقد قال عز وجل : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ ﴾^(١) ، يريد بخير منها : أسهل منها، وإذا جاز أن ينسخ الكتاب بالكتاب ، جاز أن ينسخ الكتاب بالسنة ؛ لأن السنة يأتيه بها جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى ؛ فيكون المنسوخ من كلام الله تعالى الذي هو قرآن ، بناسخ من وحي الله عز وجل الذي ليس بقرآن ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوتيت الكتاب ومثله معه"^(٢)؛ يريد أنه أوتي الكتاب ومثل الكتاب من السنة ، ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۗ ﴾^(٣) .

وقد علم الله عز وجل أنا نقبل منه ما بلغنا عنه من كلام الله تعالى ، ولكنه علم أنه سينسخ بعض القرآن بالوحي إليه ، فإذا وقع ذلك قدح في بعض القلوب ، وأثر في بعض البصائر ، فقال لنا: ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالرَّسُولَ فَخُذُوهُ ۗ ﴾ ، أي : ما آتاكم به الرسول مما ليس في القرآن أو مما ينسخ القرآن فاقبلوه"^(٤).

وهذه المسألة - جواز نسخ القرآن بالسنة الأحادية - اختلف فيها أهل العلم على ثلاثة أقوال :

القول الأول : لا يجوز نسخ القرآن بالسنة الأحادية .

وينسب هذا القول إلى جمهور الأصوليين^(٥) ، وكل من قال بعدم جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة فإنه من باب أولى يقول بعدم جوازه بالسنة الأحادية .

(١) سورة البقرة : ١٠٦ .

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٩٤) .

(٣) سورة الحشر : ٧ .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣١-١٣٢) .

(٥) انظر : الفصول في الأصول (٣٦٥/٢) ، العدة (٧٨٨/٣) ، المعتمد (٣٩٨/١) ، اللمع (ص ٥٩) ،

الواضح لابن عقيل (٢٥٨/٤) ، نواسخ القرآن (ص ١٢١) ، الإحكام للآمدي (١٥٩/٣) ، لباب المحصول

وقد استدل أصحاب هذا القول بأدلة ؛ منها :

أولاً : ما أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب (ت ٢٣) رضي الله عنه ، أنه قال : " لا نترك كتاب الله وسنة نبينا ﷺ لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت " (١) .
فهنا عمر رضي الله عنه لم يعمل بخبر الواحد الذي روته هذه المرأة ، ولم يحكم به على القرآن وما ثبت من السنة المتواترة ، فدلّ هذا على أن خبر الواحد لا يقوى على نسخ القرآن والسنة المتواترة .

مناقشة هذا الاستدلال :

نوقش هذا الاستدلال من وجهين :

أحدهما : مناقشة الشنقيطي (ت ١٣٩٣) رحمه الله ، حين قال : " وأما قول عمر رضي الله عنه : " لا ندع كتاب ربنا . . إلخ " ، فالحق في ذلك ليس معه رضي الله عنه ، بل مع المرأة المذكورة وهي فاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، قالت : إن زوجها طلقها آخر ثلاث تطليقات ، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى ، وعندما سمعت قول عمر : " لا ندع كتاب ربنا لقول امرأة . . " قالت : بيني وبينكم كتاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ (٢) ، حتى قال : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (٣) ، فأبي أمر يحدث بعد الثلاث .

وصرح أئمة الحديث بأنه لم يثبت من السنة ما يخالف حديثها ، فالسنة معها ، وكتاب الله معها ، فلا وجه للاستدلال بمخالفة عمر لما سمعته من النبي ﷺ ، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ " (٤) .

(١) (٣١٨/١) ، مختصر ابن الحاجب (١٩٥/٢) ، تقريب الوصول (ص٣١٩) ، الإجماع (٢٥١/٢) ، التقرير

والتجسير (٨٢/٣) ، إرشاد الفحول (٨٠٩/٢) ، مناهل العرفان (١٧٣/٢) .

(١) أخرجه مسلم في الطلاق ، باب المطلقة البائن لا نفقة لها ح(٣٧١٠) (ص٩٣٢) .

(٢) سورة الطلاق : ١ .

(٣) سورة الطلاق : ١ .

(٤) مذكرة الشنقيطي (ص١٥٤) .

الوجه الثاني : أن رد عمر رضي الله عنه لهذا الخبر بعينه لا يدل على قاعدة عنده في رد أخبار الآحاد إذا خالفت المتواتر ، لأنه لا مانع من أن يكون امتناعه من قبوله هو عدم الثقة في الرواية أو لوقوع شبهة فيها^(١) .

قال الطوفي (ت ٧١٦) : " وهذا لا يفيد أن خبر الواحد لا ينسخ الكتاب والمتواتر، بل يفيد جوازه ، وذلك لأن عمر إنما رد خبر فاطمة لشبهة احتمال أنها نسيت ، وهذا يدل على أن خبرها لو أفاده الظن ولم تقع له الشبهة المذكورة لعمل به " ^(٢) .

ثانياً : قالوا : لا يجوز نسخ القرآن بالسنة الأحادية لأنها لا توجب العلم بل تفيد الظن ، والقرآن يوجب العلم ، فلا يجوز ترك المقطوع به لأجل المظنون^(٣) . مناقشة هذا الاستدلال :

نوقش هذا الاستدلال من عدة أوجه ؛ منها :

الوجه الأول : أن المتواتر وإن كان قطعياً من جهة الثبوت ، فإنه ليس بقطعي الدلالة، بل دلالاته ظنية ، وعليه فإنه يجوز مقابلة الآحاد المقطوع بحسب الثبوت ، بالمتواتر المظنون بحسب الدلالة^(٤) .

الوجه الثاني : أن الناسخ في الحقيقة إنما جاء رافعاً لاستمرار حكم المنسوخ ودوامه، وذلك ظني ، وإن كان دليلاً قطعياً ، فالمنسوخ إنما هو هذا الظني ، لا ذلك القطعي^(٥) .
الوجه الثالث : أن قولهم : إن الآحاد ظني الثبوت ، غير مسلّم ، بل إن خبر الآحاد قد يفيد العلم إذا احتفت به قرائن تدل على ثبوته ، فيكون التعارض - حينئذ - بين خبرين كلاهما يفيد العلم ؛ فلا مانع من نسخ أحدهما بالآخر^(٦) .

(١) انظر : " كتاب مناهل العرفان دراسة وتقييم " د. خالد السبب (٧٠٣/٢) .

(٢) شرح مختصر الروضة (٣٢٧/٢) ، وانظر : الإحكام للآمدي (١٦٠/٣) ، مذكرة الشنقيطي (ص ١٥٥) .

(٣) انظر : الفصول في الأصول (٣٦٥/٢) ، اللمع (ص ٥٩) ، نواسخ القرآن (ص ١٢١) ، لباب الحصول

(٣١٩/١) ، الإجماع (٢٥١/٢) ، التقرير والتحبير (٨٢/٣) ، مناهل العرفان (١٧٣/٢) .

(٤) انظر : شرح مختصر الروضة (٣٢٦/٢) ، الإجماع (٢٥٢/٢) .

(٥) انظر : المسودة (٤١٩/١) ، إرشاد الفحول (٨١٠/٢) ، نزهة الخاطر العاطر (١٨٨/١) .

(٦) انظر : " كتاب مناهل العرفان دراسة وتقييم " (٧٠٦/٢) .

ثالثاً : استدلووا بإجماع الصحابة - رضوان الله عليهم - على أن القرآن والمتواتر لا يدفع بخبر الواحد^(١) .

ويناقش : بأن الإجماع - هنا - لا يسلم ؛ حيث لم يوافق على ذلك الكل ، لا من حيث الصراحة ، ولا من حيث السكوت ؛ فالإجماع الصريح غير مسلم ؛ لعدم النقل ، ولو نقل لاشتهر ، وكذلك الإجماع السكوتي غير مسلم - أيضاً - ؛ لأن الكل لم يكونوا حاضرين حتى يتعين ذلك^(٢) .

وقال الطوفي : " وأما ما ادعاه المانعون مطلقاً ، من إجماع الصحابة على عدم رفع المتواتر بخبر الواحد ، فممنوع وعلى مدعي الإجماع على ذلك إثباته ، كيف وبعض الظاهرية، والباجي (ت ٤٩٤هـ)، من أصحاب مالك (ت ١٧٩هـ) يدعون وقوعه في صور"^(٣) .

القول الثاني : يجوز نسخ القرآن بالسنة الأحادية في زمن النبي ﷺ ، ولا يجوز بعده .
وبه قال السرخسي^(٤) (ت ٤٩٠هـ) ، والباجي^(٥) ، والغزالي^(٦) (ت ٥٠٥هـ) ،
والقرطبي^(٧) (ت ٦٧١هـ) .

وقد علل أصحاب هذا القول ذلك بأن النبي ﷺ كان يبعث رسله إلى الأطراف ومعهم الناسخ والمنسوخ ، وهم آحاد^(٨) .

وقد رد هذا الطوفي ، فقال : " وأما قول من فرق بين زمن النبوة وبعده ، أن النبي ﷺ كان يبعث الآحاد بالناسخ إلى أطراف البلاد ؛ فلا حجة فيه لوجهين :
أحدهما : أن هذا مبني على قاعدة أخرى ، وهي أن تلك الآحاد كانت تنسخ الكتاب والمتواتر بناءً على أنه يبعد أن يكون جميع المنسوخات بتلك الآحاد آحاداً . . .

(١) الروضة (٣٢٨/١) ، وانظر : المستصفي (ص ١٠١) .

(٢) انظر : إتحاف ذوي البصائر (٨٠١/٢) .

(٣) شرح مختصر الروضة (٣٢٨/٢) .

(٤) أصول السرخسي (٧٧/٢) .

(٥) إحكام الفصول في أحكام الأصول (ص ٤٢٦) .

(٦) المستصفي (ص ١٠١) .

(٧) تفسير القرطبي (٧٣/٢) .

(٨) انظر : المستصفي (ص ١٠١) ، تفسير القرطبي (٧٣/٢) ، إحكام الفصول (ص ٤٢٦) .

الثاني : أن حياة النبي ﷺ قرينة تفيد العلم بخبر الأحاد في زمانه ، وحينئذ ما نُسخ الكتاب والتواتر إلا بمعلوم مثلهما ^(١) .

القول الثالث : يجوز نسخ القرآن بالسنة الأحادية مطلقاً .

وبه قالت الظاهرية ^(٢) ، ومنهم ابن حزم ^(٣) (ت ٤٥٦هـ) ، وبه قال الطوفي ^(٤) (ت ٧١٦هـ) ، وابن السبكي ^(٥) (ت ٧٧١هـ) ، والمحلي ^(٦) (ت ٨٦٤هـ) ، والشنقيطي ^(٧) (ت ١٣٩٣هـ) ، وفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ^(٨) (ت ١٤٢١هـ) رحمهم الله جميعاً . وقد استدل أصحاب هذا القول بأدلة ؛ منها :

أولاً : استدلوا على الجواز بوقائع نسخ فيها القرآن بأخبار الأحاد ^(٩) ، منها :

أ . نسخ قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ ^(١٠) بحديث ابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما: " نهي رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع ، وعن كل ذي مخلب من الطير " ^(١١) .

^(١) شرح مختصر الروضة (٣٢٧/٢) .

^(٢) المعتمد (٣٩٨/١) ، التبصرة (ص ٢٦٥) ، الواضح (٢٥٨/٤) .

^(٣) الإحكام (٥٠٥/٤) .

^(٤) شرح مختصر الروضة (٣٢٥/٢) .

^(٥) جمع الجوامع (ص ٥٨) .

^(٦) شرح المحلي على جمع الجوامع (١١٢/٢) .

^(٧) مذكرة أصول الفقه (ص ١٥٣) .

^(٨) الأصول (ص ٥٥) ، شرح العقيدة الواسطية (٦/٢) ، شرح نظم الورقات (ص ١٤٥) .

^(٩) كثيراً ما يستدل المجيزون لنسخ القرآن بأخبار الأحاد بقصة أهل قباء حين قبلوا خبر الواحد في نسخ القبلة ، وهم أرادوا بهذا الاستدلال على قبول خبر الواحد ، وجاء المتأخرون من بعدهم ونقلوا هذا الدليل على أنه مثال على نسخ المتواتر بالأحاد ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه لم يقل أحد : إن نسخ التوجه إلى بيت المقدس كان بخبر ذلك الرجل ، بل نسخه كان بصريح القرآن ، وذلك الرجل كان مجرد ناقلٍ ومبلغٍ لذلك الناسخ ، فتنبه لهذا .

^(١٠) سورة الأنعام : ١٤٥ .

^(١١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح ، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير

ح (٤٩٩٤) (ص ١٠٢٣) .

ب . نسخ قوله تعالى: ﴿ وَأَجَلٌ لَّكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾^(١) بحديث أبي هريرة (ت ٥٧٥هـ) رضي الله عنه "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها"^(٢).

وقد وقع الاعتراض على هذين المثالين وغيرهما مما ادعي فيه نسخ القرآن بأخبار الآحاد ، وهي اعتراضات قوية^(٣) ، ولكن على فرض عدم سلامة تلك الأمثلة من المناقشة والمعارضة والمعارضة ، فإن السنة النبوية إذا صحت فهي بمنزلة القرآن ، تنسخه وتُنسخ به ، بغض النظر وُجد المثال أم لم يوجد .

يقول فضيلة العلامة محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ) رحمه الله :

" لا أعلم شيئاً من القرآن نسخ بالسنة إلا إمساك اللوطي ؛ فإن الله تعالى قال في القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ فَعَاذُوْهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيْمًا ﴾^(٤) ، فهذه الآية تدل على أن الفاعلين يؤذيان حتى يتوبا ويصلحا ، فجاءت السنة "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به"^(٥) ، فهذا يستدل به على أن السنة تنسخ القرآن . . ، لكن ليكن معلوماً لديك أنه حتى وإن لم

(١) سورة النساء : ٢٤ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ، باب لا تنكح المرأة على عمتها ح (٥١١٠) (ص ٤٤٢) ، ومسلم في النكاح ، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ح (٣٤٤٤) (ص ٩١٢) واللفظ له .

(٣) انظر الاعتراضات على هذه الأمثلة : المعتمد (٣٩٩/١) ، التبصرة (ص ٢٧١) ، القواعد النورانية لشيخ الإسلام (ص ٢-٤) ، الإجماع (٢٥٣/٢) ، التقرير والتحبير (٨٢/٣) ، إرشاد الفحول (٨١٠/٢) .

(٤) سورة النساء : ١٦ .

(٥) أخرجه أبو داود في الحدود ، باب فيمن عمل عمل قوم لوط ح (٤٤٦٢) (ص ١٥٤٩) ، والترمذي في الحدود ، باب ما جاء في حد اللوطي ح (١٤٥٦) (ص ١٨٠٠) ، وابن ماجه في الحدود ، باب من عمل عمل قوم لوط ح (٢٥٦١) (ص ٢٦٣٠) ، والحاكم في المستدرک ح (٨٠٤٧) (٣٩٥/٤) ، وقال : "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ، والإمام أحمد (٣٠٠/١) ، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، والحديث استنكره ابن معين والنسائي [الدراية (١٠٣/٢) ، تلخيص التحبير (٥٤/٤)] ، وصححه الألباني [الإرواء (١٦/٨) ، صحيح سنن أبي داود (ص ٨٤٤)] .

يوجد مثال يسلم من المعارضة ، فإن السنة إذا صحت عن النبي ﷺ فهي بمنزلة القرآن ، يجب العمل بما فيها ، وتصديق خبرها " (١) .

ثانياً : أن خبر الآحاد يوجب العمل قطعاً ، وعليه فهو قطعي ، فلا يضرنا التردد في أصله مع القطع بوجوب العمل به (٢) .

ثالثاً : قالوا : كما يجوز تخصيص المتواتر بخبر الآحاد ، فكذلك يجوز النسخ به ؛ فكما أن التخصيص رفع في الأعيان ، فالنسخ رفع في الأزمان (٣) .

رابعاً : أن خبر الواحد دليل من أدلة الشرع ، فإذا صار معارضاً لحكم المتواتر وجب تقديم المتأخر منهما قياساً على سائر الأدلة (٤) .

الترجيح :

الذي يظهر رجحانه - والله أعلم بالصواب - القول الثالث ، وهو جواز نسخ القرآن بالسنة الأحادية مطلقاً ، وذلك لقوة ما استدلووا به ، ولعدم وجود المانع الشرعي أو العقلي من جوازه .

(١) لقاء الباب المفتوح ، اللقاء (٤٦) (ص ١٢٥ ، ١٢٦) ، وانظر : شرح نظم الورقات (ص ١٤٦) .

(٢) انظر : الإجماع (٢٥٢/٢) .

(٣) انظر : المعتمد (٣٩٨/١) ، الإحكام للآمدي (١٦٠/٣) ، الإجماع (٢٥٣/٢) .

(٤) انظر : " كتاب مناهل العرفان دراسة وتقييم " للسبت (٦٩٩/٢) .

المبحث الثامن القسم في القرآن الكريم

التمهيد :

القسم في القرآن الكريم من مباحث علوم القرآن التي كانت محل عناية العلماء قديماً وحديثاً ، فقد أفرده بالتصنيف ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) في "التبيان في أقسام القرآن" ، والشيخ حميد الدين عبدالحميد الفراهي الأنصاري الهندي (ت ١٣٤٩هـ) في "الإمعان في أقسام القرآن".

كما أفرده بنوع خاص في كتابه الزركشي (ت ٧٩٤هـ)^(١) ، والسيوطي (ت ٩١١هـ)^(٢) ، وابن عقيلة المكي (ت ١١٥٠هـ)^(٣) ، وآخرون ممن صنف في علوم القرآن^(٤).

القسم في اللغة :

جاء في اللسان : "والقَسَمُ - بالتحريك - : اليمين ، وكذلك المُقَسَّمُ ، وهو المصدر مثل المَخْرَج ، والجمع أقسام .

وقد أقسم بالله واستَقَسَمَه به وقاسمه : حلف له ، وتقاسم القوم : تحالفوا ، وفي التنزيل : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾^(٥) ، وأقسمت : حلفت ، وأصله من القسامة ، ... والقسامة : الذين يجلفون على حَقِّهم ويأخذون"^(٦).

وللقسم عدة إطلاقات في اللغة ، بينها فضيلة شيخنا ابن عثيمين (ت ١٤٢١هـ) رحمه الله بقوله :

(١) البرهان (٤٠/٣) .

(٢) الإتيقان (٩٤٥/٥) .

(٣) الزيادة والإحسان (٤٦٣/٦) .

(٤) مباحث في علوم القرآن للقطن (ص ٢٨٥) ، دراسات في علوم القرآن ، د.الرومي (ص ٤١٩) ، الواضح في علوم

القرآن ، د.مصطفى البغا (ص ٢٠٧) .

(٥) سورة النمل : ٤٩ .

(٦) لسان العرب ، مادة "قسم" (٤٨١/١٢) .

"والحلف له عدة أسماء ؛ هي : يمين ، أليّة ، حلف ، قسم ، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ﴾^(١)، وقال تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾^(٢)، وقال تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾^(٣)، وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ﴾^(٤)، أي يخلفون ، وقال : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ ﴾^{(٥) (٦)}.

وقد جاءت هذه الإطلاقات عند ابن قتيبة ، فقد بين وجه تسمية القسم والحلف يميناً ؛ فقال :

"وإنما قيل للقسم يمين ، لأنهم كانوا إذا تحالفوا أو توافقوا ضرب كل امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه ، كما يفعل في بيعة السلطان ، فيقال : أخذ يمينه ، وأخذ صفقته إذا فعل ذلك ، ثم قيل للحلف بالله وبكل ما يُحلف به يمين ، إذ كان ذلك يقع مع التصافق بالأيمان"^(٧).

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ﴾^(٨) : "يخلفون ، يقال : أليت من امرأتي أولي إيلاءً ؛ إذا حلف أن لا يجامعها ، والاسم الأليّة"^(٩).

أما تعريف القسم في الاصطلاح ، فقد بينه فضيلة الشيخ ابن عثيمين (ت ١٤٢١ هـ) بقوله : "تأكيد الشيء بذكر مُعْظَم بصيغة مخصوصة"^(١٠).

(١) سورة الواقعة : ٧٥ .

(٢) سورة الانشقاق : ١٦ .

(٣) سورة القيامة : ١ .

(٤) سورة البقرة : ٢٢٦ .

(٥) سورة البقرة : ٢٢٥ .

(٦) القول المفيد (٣/٢٦٠) .

(٧) غريب الحديث (١/٥٠) .

(٨) سورة البقرة : ٢٢٦ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٨٥) .

(١٠) تفسير سورة البقرة (٣/٩٣) .

المطلب الأول : صيغته .

الصيغة الأصلية للقسم أنه يؤتى بالفعل "أقسم" ، أو "حلف" متعدياً بالباء إلى المقسم به، ثم يأتي المقسم عليه - وهو جواب القسم - كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾^(١).

وعلى هذا فأركان القسم أربعة :

الأول : أدوات القسم ؛ وهي : الباء والواو والتاء .

الباء : وهي الأصل ؛ لأنها تدخل على الظاهر والمضمر ، تقول : "أقسم بالله" ، و"بك أقسمت يا الله" .

والواو : تختص بدخولها على الاسم الظاهر ، كقول : "والله" ، "ورب الكعبة" ، وهي الأكثر استعمالاً في القرآن .

والتاء : تختص بدخولها على اسم الله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ

أَصْنَمَكُمْ ﴾^(٢).

يقول ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) في وجه كون الباء أصل حروف القسم :

"فإن قيل : فلم قلتم إن الأصل في حروف القسم الباء دون غيرها ، يعني الواو والتاء؟ قيل : لأن فعل القسم المحذوف فعل لازم ، ألا ترى أن التقدير في قولك : "بالله لأفعلن: أقسم بالله ، أو أحلف بالله" ، والحرف المعدّي من هذه الأحرف هو "الباء" ، لأن "الباء" هو الحرف الذي يقتضيه الفعل ، وإنما كان "الباء" دون غيرها من الحروف المعدية؛ لأن "الباء" معناها الإلصاق ، فكانت أولى من غيرها ليتصل فعل القسم بالمقسم به مع تعديته ، والذي يدلّ على أنها هي الأصل أنها تدخل على المضمر والمظهر ، و"الواو" تدخل على المظهر دون المضمر ، والتاء تختص باسم الله تعالى دون غيره ، فلما دخلت الباء على المظهر

(١) سورة النحل : ٣٨ .

(٢) سورة الأنبياء : ٥٧ .

والمضمر ، واختصت الواو بالمظهر ، والتاء باسم الله تعالى ، دلّ على أن الباء هي الأصل^(١).

الثاني : فعل القسم "أقسم" و"أحلف" ، ولكثرة الاستعمال فإنه غالباً ما يحذف فعل القسم ، ويكتفى بأداة القسم للدلالة عليه .

الثالث : المقسم به ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولا يجوز القسم بغيره ، والله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

الرابع : المقسم عليه ، وهو جواب القسم ، ويكون مذكوراً تارة ، وتارة محذوفاً إذا كان في الكلام ما يدل عليه^(٢).

وقد ذكر الإمام ابن قتيبة بعض المسائل المتعلقة بصيغة القسم، تفصيلها كالتالي:

١ . القسم المسبوق بـ "لا" ودلالته في القرآن الكريم .

وردت بعض مواضع القسم في القرآن الكريم مسبوقه بـ "لا" ، كما في قوله تعالى: ﴿

فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ التُّجُومِ ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿

فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿

﴾^(٥).

وقد تحدث الإمام ابن قتيبة عن هذه المسألة وبيّن أن الغرض من دخول "لا" على القسم هو الجواب والرد على من أنكر المقسم عليه ، وهو الرأي الذي يذهب إليه جمع من

(١) أسرار العربية (ص ٢٧٥-٢٧٦) .

(٢) انظر : مباحث في علوم القرآن للقطان (ص ٢٨٥)، علوم القرآن : مدخل إلى القرآن وبيان إعجازه، د.عدنان

زرزور (ص ٣٥٤)، دراسات في علوم القرآن للرومي (ص ٤١٩) .

(٣) سورة الواقعة : ٧٥ .

(٤) سورة المعارج : ٤٠ .

(٥) سورة الحاقة : ٣٨-٤٠ .

المفسرين ، كالفراء (ت ٢٠٧هـ)^(١) ، والطبري (ت ٣١٠هـ)^(٢) ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)^(٣) .
يقول ابن قتيبة :

"وأما زيادة "لا" في قوله تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۗ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ ۗ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۗ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۗ﴾^(٥) ، و﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۗ﴾^(٦) ، فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين ، كما تقول في الكلام : لا والله ما ذاك كما تقول ، ولو قلت : والله ما ذاك كما تقول ، لكان جائزاً ، غير أنّ إدخالك "لا" في الكلام أولاً أبلغ في الردّ .

ثم ذكر ابن قتيبة أن بعض النحويين يجعل "لا" السابقة للقسم صلة^(٧) ، وردّ عليهم بأنه: لو جاز هذا لم يكن بين خبر فيه الجحد وخبر فيه الإقرار فرق^(٨) .
وكلام ابن قتيبة في هذه المسألة مستفاد من الفراء (ت ٢٠٧هـ) الذي قال في "معاني القرآن" :

"وقوله تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ ۗ﴾ ، كان كثير من النحويين يقولون : "لا" صلة ، قال الفراء : ولا يتبدأ بجحد ، ثم يجعل صلة يراد به الطرح ؛ لأن هذا لو جاز لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث ، والجنة ، والنار ، فجاء الإقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه ، وغير المبتدأ؛ كقولك في الكلام : لا والله لا أفعل ذاك ، جعلوا "لا" وإن رأيتها مبتدأة ردّاً لكلام قد كان مضى ، فلو ألقيت "لا" مما ينوي به الجواب لم يكن بين اليمين التي تكون جواباً ، واليمين التي تستأنف فرق ،

(١) معاني القرآن (٢٠٧/٣) .

(٢) تفسير الطبري (٤٦٨/٢٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٢٢٩/٨) .

(٤) سورة القيامة : ١-٢ .

(٥) سورة الانشقاق : ١٦-١٧ .

(٦) سورة البلد : ١ .

(٧) قال به الزجاج وابن خالويه وآخرون ، انظر : إعراب القرآن للنحاس (٣٤/٥) ، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن

لابن خالويه (ص ٨٧) .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٦-٢٤٧) .

ألا ترى أنك تقول مبتدئاً : والله إن الرسول لحق ، فإذا قلت : لا والله إن الرسول لحق ، فكأنك أكذبت قوماً أنكروه ، فهذه جهة "لا" مع الإقسام، وجميع الأيمان في كل موضع ترى فيه "لا" مبتدأ بها ، وهو كثير في الكلام"^(١).

٢ . إضمار "لا" مع جواب القسم .

تحدث الإمام ابن قتيبة عن هذه المسألة في "باب الحذف والاختصار" من "تأويل مشكل القرآن" ، وفيه ذكر أن من صور الحذف : إضمار "لا" مع جواب القسم ، وفي ذلك يقول :

"ومنه - أي من صور الحذف - أن تُحذف "لا" من الكلام والمعنى إثباتها ، كقوله

سبحانه : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ ﴾^(٢)؛ أي : لا تزال تذكر يوسف، وهي وهي تحذف مع اليمين كثيراً .

قال الشاعر :

فقلتُ يمينُ اللهِ أبرحُ قاعداً ولو ضربوا رأسي لَدَيْكَ وأوصالي^(٣)»^(٤).

وقد أشار إلى إضمار "لا" مع القسم جمع من النحويين، كالخليل (ت ١٧٥هـ)^(٥)، وسيبويه (ت ١٨٠هـ)^(٦)، والفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٧)، والزجاج (ت ٣١١هـ)^(٨)، والنحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٩).

يقول الزجاج في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ ﴾^(١٠):

(١) معاني القرآن (٢٠٧/٣)، وفي المسألة أقوال أخرى ، انظر : مباحث في علوم القرآن (ص٢٨٨)، دراسات في علوم

القرآن ، د.الرومي (ص٤٣٠)، علوم القرآن ، د.عبدالله شحاته (ص١٧٦) .

(٢) سورة يوسف : ٨٥ .

(٣) البيت لامرئ القيس ، وهو في ديوانه (ص١٣٧) .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص٢٢٥) .

(٥) إعراب القرآن للنحاس (٣٤٣/٢) .

(٦) المصدر السابق (٣٤٣/٢) .

(٧) معاني القرآن (٥٤/٢) .

(٨) معاني القرآن وإعرابه (١٢٦/٣) .

(٩) إعراب القرآن (٣٤٣/٢) .

(١٠) سورة يوسف : ٨٥ .

"معنى "تالله" : والله ، و"لا" مضمرة ، والمعنى : والله لا تفتأ تذكر يوسف ، أي لا تزال تذكر يوسف .

وإنما جاز إضمار "لا" في قوله : ﴿ تَأَلَّه تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ ﴾ ، لأنه لا يجوز في القسم "تالله تفعل" حتى تقول : "لتفعلن" أو "لا تفعل" ^(١) .
٣ . حذف جواب القسم إذا كان في الكلام ما يدل عليه .

وقد عرض الإمام ابن قتيبة لهذه المسألة في "باب الحذف والاختصار" ؛ فقال :
"ومن الاختصار : القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل على الجواب، كقوله : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١ ﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ مَجِيئٌ ٢ ﴾ أءَذَا مِتْنَا ﴾ ، نبعث ، ثم قالوا : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ^(٢) ، أي : لا يكون .

وكذا قوله عز وجل : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ١ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ٢ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ٣ فَالسَّيِّقَاتِ سَبْقًا ٤ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ٥ ﴾ ، ثم قال : ﴿ يَوْمَ تَرَجُّفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ^(٣) ، ولم يأت الجواب لعلم السامع به ؛ إذ كان فيما تأخر من قوله دليل عليه ؛ كأنه قال :
والتأزعات وكذا وكذا، لتبعثنَّ ، فقالوا : ﴿ أءَذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴾ ^(٤) نبعث؟! ^(٥) .
وقد تحدث عن حذف جواب القسم جمع من العلماء ^(٦) ، منهم : ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، الذي تناول هذه المسألة بكلام بديع ، بين فيه أن جواب القسم قد يحذف إذا كان في المقسم به ما يدل عليه ؛ وفي ذلك يقول :

(١) معاني القرآن وإعرابه (١٢٦/٣) .

(٢) سورة ق : ١-٣ .

(٣) سورة النازعات : ١-٦ .

(٤) سورة النازعات : ١١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢٣-٢٢٤) .

(٦) انظر : البرهان للزركشي (١٩٢/٣) ، الإتيقان (١٩٥١/٥) ، إمعان في أقسام القرآن للفراهي (ص ٣٨) .

"وأكثر ما يحذف الجواب إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، فإن المقصود يحصل بذكره ، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز ، كقوله : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾^(١) ، فإن في القسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه ، والشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه ، وهو كونه حقاً من عند الله غير مفترى كما يقوله الكافرون ، ولهذا قال كثيرون : إنَّ تقدير الجواب : إن القرآن لحقٌّ ، وهذا مطردٌ في كل ما شابه ذلك ، كقوله : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ لَا أُقِيمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾^(٣) ، فإنه يتضمَّن إثبات المعاد ، وقوله : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾^(٤) الآيات^(٤) ، فإنها أزمانٌ تتضمن أفعالاً معظمة من المناسك ، وشعائر الحج التي هي عبودية محضة لله ، ودلٌّ وخضوع لعظمته ، وفي ذلك تعظيم ما جاء به محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام"^(٥).

المطلب الثاني : فائدته .

للقسم - كما هو بقية الأساليب الواردة في القرآن الكريم - أغراض وفوائد تحدث عنها أهل العلم ، ومن تلك الفوائد :

١ . ما أشار إليه الإمام ابن قتيبة من أن القسم يدل على فضل المقسم به وعظمته ، وذلك حين عرض للأقوال في الحروف المقطعة في أوائل السور ، فذكر منها : أن هذه الحروف المقطعة إقسام من الله تعالى بحروف المعجم ؛ ثم قال :

"وإنما أقسم الله بحروف المعجم ، لشرفها وفضلها ، ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة ، ومباني أسمائه الحسنی وصفاته العلی ، وأصول كلام الأمم ، بما يتعارفون ، ويذكرون الله ويوحدون"^(٦).

(١) سورة ص : ١ .

(٢) سورة ق : ١ .

(٣) سورة القيامة : ١ .

(٤) سورة الفجر : ١-٥ .

(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص ١٤) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠١) .

ثم ذكر شيئاً من أقسام الله تعالى بمخلوقاته - وسيأتي بيانها في المطلب القادم^(١) -
وبيّن أن في ذلك إظهار لفضلها وعظمتها^(٢).

ثم تابع حديثه عن الحروف المقطعة ؛ فقال :

"ووقع القسم بها في أكثر السور على القرآن ، فقال : ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿٣﴾ ؛ كأنه قال : وحروف المعجم ، هو الكتاب لا ريب فيه .

و﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿٤﴾ ، أي وحروف المعجم هو الله لا إله إلا هو ﴿الْحَى الْقِيَوْمُ ٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴿٤﴾ ، و﴿الْمَص ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴿٥﴾ ، أي :
وحروف المعجم ، هو كتاب أنزل إليك ، و﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٦﴾ ، و﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ٧﴾ ، و﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ٨﴾ ، كلها أقسام^(٩) .

وقد أفاد الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ) في كتابه "التبيان في أقسام القرآن" من كلام ابن قتيبة في هذا الموضوع ؛ وذلك في قوله :

"الصحيح أن "ن" ، و"ق" ، و"ص" من حروف الهجاء التي يفتح الرَّبُّ - سبحانه -
بها بعض السور ، وهي : أحادية ، وثنائية ، وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تُجاوِز الخمسة ، ولم تُذكر - قطُّ - في أول سورة إلا وعقبها يذكر القرآن ، إمّا مقسماً به ، وإمّا مخبراً عنه ،
ما خلا سورتين : سورة "كهيعص" ، و"ن" ..

(١) انظر : (ص ٨٤٢) من هذه الرسالة .

(٢) انظر : تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠١) .

(٣) سورة البقرة : ١-٢ .

(٤) سورة آل عمران : ١-٣ .

(٥) سورة الأعراف : ١-٢ .

(٦) سورة يس : ١-٢ .

(٧) سورة ص : ١ .

(٨) سورة ق : ١ .

(٩) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠١-٣٠٢) .

ففي هذا تنبيهٌ على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها ، وجلالتها ، إذ هي مباني كلامه ، وكتبه التي تكلم - سبحانه - بها ، وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعدده، ووعدده، وعرفهم بها الخيرَ والشرَّ ، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلُّم بها ، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم ، بأسهل طريق ، وأقله كلفة ومشقةً ، وأوصله إلى المقصود ، وأدله عليه ، وهذا من أعظم نعمه عليهم ، كما هو من أعظم آياته .

فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال إحسانه وإنعامه ، فهي أولى أن يُقسم بها من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات ، فهي دالةٌ - أظهر دلالةً - على وحدانيته وقدرته ، وحكمته، وكمالها، وكلامه ، وصدق رُسله" (١).

٢ . تأكيد المقسم عليه ، وهو الغرض الأصلي من القسم عند العرب .

وذلك أن القرآن بلغة العرب ، وللتأكيد عندهم صيغ مختلفة ، كان القسم أقواها تأكيداً وتحققاً ، لأنه يفيد الجزم بصحته والقطع بصدقه ، ومن هنا كان من أهم أغراض القسم في القرآن : تأكيد المقسم عليه .

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأموار الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها ، فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر ، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها" (٢).

ويقول الدكتور عدنان زرزور :

"يدل أسلوب القسم في القرآن على إظهار التأكيد والجدد في القول ، كما ترى في قوله

تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴿١٤﴾ ،

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ٢٩٩-٣٠٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣١٥) .

(٣) سورة الطارق : ١١-١٤ .

وقد علموا أن الحُرَّ إذا أقسم على أمر فقد بالغ في إظهار الجِد منه ، ونفى عن نفسه الإهمال والتهاون ؛ ولذلك كثر القسم في أوائل النبوة حتى تبين لهم جدّ الداعي فيما يدعو إليه^(١).

٣ . لفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من أسرار عجيبة ، وما فيه من نظام بديع محكم ، والدلالة على عظمة خالقها ، ولهذا يتبع المقسم به أحياناً ما يُنبه على كون المقسم به دليلاً للعقلاء ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ و﴿ لَيْلٍ عَشْرٍ ٢ ﴾ و﴿ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ ﴾ و﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ٢ ﴾^(٢) ، ثم قال : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ٣ ﴾^(٣) ، وكما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ٤ ﴾^(٤) ، جاء متبوعاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٥ ﴾^(٥) ، وهذا التنبيه أمر زائد على القسم .

٤ . امتناع إنكار الخصم في القسم .

وذلك أن القسم يتكون من جملتين : إنشائية ، وهي المقسم به ، وخبرية أو إنشائية وهي جواب القسم .

ومعلوم أن الجملة الإنشائية لا يتطرق إليها الإنكار أو التكذيب ، ولهذا نجد في المقسم به حشداً من قضايا العقيدة تساق مساق الجملة الإنشائية التي لا يمكن إنكارها .

بل يحذف - أحياناً - جواب القسم إذا كان جملة خبرية ، ويكتفى بالمقسم به ليبادرهم بكلام آخر يؤيد جواب القسم المحذوف ، لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء إلى الخبر فيتنازع فيه ، وكأن المقسم بهذا يهيبُ فرصة للسمع وانتظار الجواب ، فيبادر بما يؤيد جواب القسم المحذوف ، كقوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ٦ ﴾^(٦) ، فاكتمى بالمقسم به "والقرآن" ، واستغنى عن الجواب بما ذكره من صفة القرآن "ذي الذكر" ، وفي الوقت الذي

(١) علوم القرآن لزرزور (ص ٣٥٤) .

(٢) سورة الفجر : ١ - ٤ .

(٣) سورة الفجر : ٥ .

(٤) سورة الواقعة : ٧٥ .

(٥) سورة الواقعة : ٧٦ .

(٦) سورة ص : ١ .

ينتظر فيه المخاطب جواب القسم يأتيه ما يؤكد معناه ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾^(١)، فكأنه يقول : والقرآن ذي الذكر إنه لحق ولكن الكفار استكبروا عن قبوله .

٥ . بلاغة الإيجاز في القسم .

فهو يجمع بين عدة أدلة متتابعة في جمل قصيرة موجزة ، فيكون بذلك أشد أثراً ،

وأحكم أمراً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكُنُوبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍ مَّشْهُورٍ

۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَعٌ

۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾^(٢) .

وكما هو ظاهر - أيضاً - في أقسام سور الفجر والبلد والشمس والليل والتين^(٣) .

المطلب الثالث : إقسام الله بمخلوقاته .

عرض الإمام ابن قتيبة لمسألة : الحلف بغير الله ، في "المسائل والأجوبة" حين شرح حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "من حلف بغير الله فقد أشرك"^(٤) ، وفيه بين أن ذلك من الشرك الذي لا يُخرج من الملة ، يريد به الشرك الأصغر ، بدليل تشبيهه لهذا الحديث بحديث : "يسير الرياء شرك"^(٥) .

(١) سورة ص : ٢ .

(٢) سورة الطور : ١-٨ .

(٣) انظر - هذه الفوائد وغيرها - في : الإمعان في أقسام القرآن للفراهي (ص٥٦) ، علوم القرآن ، د.عدنان زرزور (ص٣٥٤) ، دراسات في علوم القرآن ، د.فهد الرومي (ص٤٣٣) ، علوم القرآن ، د.عبدالله شحاته (ص١٧٩) ، مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان (ص٢٨٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في الأيمان والندور ، باب كراهية الحلف بالآباء ح(٣٢٥١) (ص١٤٦٧) ، والترمذي في أبواب الندور والأيمان ، باب ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد أشرك ح(١٥٣٥) (ص١٨٠٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٨٦/٢) ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وصححه الألباني . [صحيح سنن أبي داود (٣١٤/٢)]

(٥) أخرجه ابن ماجة في الفتن ، باب من ترجى له السلامة من الفتن ح(٣٩٨٩) (ص٢٧١٦) ، والطبراني في الأوسط (١٤٥/٧) ح(٧١١٢) ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وضعفه الألباني [ضعيف سنن ابن ماجة (ص٣٢٤)] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء"^(١).

وقد ظهر استحضر ابن قتيبة لهذا المعنى حين شرح حديث : "من حلف بغير الله فقد أشرك" ؛ فقال :

"والذي عندي أنه لم يُرد بقوله : "فقد أشرك" أي كفر وخرج عن الإسلام، وإنما أراد أنه قد أشرك بينه وبين الله في القسم إذا حَلَفَ به كما حَلَفَ بالله .

ونحوه الحديث الآخر ، وهو قوله : "قليل الرياء شرك" ، أراد : الرجل يُرائي بعمله الناس ليحمدوه ، ويثنوا عليه ، ألا ترى أنه إذا فعل ذلك فقد جعل بعض عمله للناس، كما جعل بعضه لله"^(٢).

ومع النهي عن القسم بغير الله ، فقد أقسم الله ببعض مخلوقاته كما بين ابن قتيبة بقوله:

"وقد أقسم الله في كتابه بالفجر، والطور، والعصر، وبالتين والزيتون - وهما جبلان ينبتان التين والزيتون ، يقال لأحدهما : طور زَيْتَا ، وللآخر : طور تَيْنَا ، بالسريانية، فسماهما بما يُنبتان - وأقسم بالقلم ؛ إعظاماً لما يسطرون"^(٣).

وقد أجاب أهل العلم عن هذا بأجوبة ؛ ذكر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في "البرهان" ثلاثة منها ، هي :

الأول : أنه على حذف مضاف، أي "ورب الفجر"، و"رب الطور"، ونحو ذلك.

الثاني : أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء ، وتقسم بها ، فنزل القرآن على ما يعرفون.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢٥٣/٤) ح(٤٣٠١)، والبيهقي في

شعب الإيمان (١٥٤/٩) ح(٦٤١٢)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه ، وحوّد المنذري إسناده في

الترغيب والترهيب (٦٩/١) .

(٢) المسائل والأجوبة (ص ٣٢٢) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠١) .

الثالث : أن القسم إنما يكون بما يعظمه المقسم أو يُجْلُهُ وهو فوقه ، والله تعالى ليس فوقه شيء ، فأقسم تارة بنفسه ، وتارة بمصنوعاته ، لأنها تدل على باري صانع^(١) .
ومن أحسن ما قيل في الجواب عن ذلك : قول فضيلة الشيخ ابن عثيمين (ت ١٤٢١هـ) رحمه الله :

"وأما قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾^(٤) ، وما أشبه ذلك من المخلوقات التي أقسم الله بها ، فالجواب من وجهين :

الأول : أن هذا من فعل الله ، والله لا يسأل عما يفعل ، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه ، وهو سائل غير مسؤول ، وحاكم غير محكوم عليه .
الثاني : أن قسم الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته ، فيكون القسم بها الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمناً للثناء على الله عزّ وجل بما يقتضيه من الدلالة على عظمته"^(٥) .

(١) البرهان في علوم القرآن (٤١/٣) .

(٢) سورة الشمس : ١ .

(٣) سورة البلد : ١ .

(٤) سورة الليل : ١ .

(٥) القول المفيد في شرح كتاب التوحيد (٣٢٥/٢) ، وانظر - للاستزادة في الجواب عن إقسام الله بمخلوقاته - : الإمعان في أقسام القرآن (ص ٤) ، الإتيقان في علوم القرآن (١٩٤٧/٥) ، الزيادة والإحسان لابن عقيلة (٤٦٥/٦) ، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص ٢٨٧) ، دراسات في علوم القرآن ، د.فهد الرومي (ص ٤٢٤) .

المبحث التاسع إعجاز القرآن الكريم

التمهيد :

ما بعث الله عز وجل نبياً ولا رسولاً إلا وأيده بآيات ودلائل ؛ لتكون دليلاً لرسالته، وتأييداً لدعوته وصدق نبوته ، لذا كانت تلك الآيات والدلائل مقترنة بالرسالات ، ولولاها لأشكل الأمر على الناس والتبس أمر الصادق بغيره ، ولما سلمت الدعوات من مدعين كاذبين .

وكان القرآن الكريم هو معجزة نبينا محمد ﷺ ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرْحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

وقال الرسول ﷺ : " ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة" (٢) .
وتعدّ هذه المعجزة أعظم المعجزات على الإطلاق ، إذ كانت معجزات الأنبياء السابقين أدلة لمن شهدها ، أما القرآن الكريم فإنه المعجزة الباقية ، التي لم تزل حية بين الناس، لم يتبدل ولم يتغير ، ولن يكون ذلك في يوم من الدهر ، وقد تحدى الله عز وجل أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان ، بل جميع بني الإنسان ، حتى لو ظاهرهم عليه الجان ، ولم يزل التحدي إلى يوم القيامة : أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بمثل بعضه ، فلم يفعلوا ، ولن يفعلوا .

(١) سورة العنكبوت : ٥٠-٥١ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (ص ٤٣٢) ح (٤٩٨١) ، وفي الاعتصام باب قول النبي ﷺ "بعثت بجوامع الكلم" (ص ٦٠٦) ح (٧٢٧٤) ، وأخرجه مسلم في الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل مجلته (ص ٧٠٣) ح (٣٨٥) .

ومن هنا كان إعجاز القرآن وبيان معجزة النبي ﷺ من أهم مواضيع علوم القرآن ، مما حمل العلماء على دراسة نصوص التحدي وإثبات العجز ، وما يتعلق بذلك كله تحت هذا الموضوع (إعجاز القرآن) .

ومع هذه الأهمية لإعجاز القرآن إلا أن التأليف في هذا الموضوع بدأ متأخراً في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري ، وقد كان للمعتزلة وأهل الكلام قصب السبق في هذا الميدان ، إلا أن اهتمامهم بهذا الجانب والبحث فيه لم يكن يوماً من أجل إعلاء شأن القرآن وبيان إعجازه ، بل كان الغاية من ذلك كله الغرض من قيمة القرآن ، وأنه ليس بمعجز بذاته ، وأن البشر يستطيعون الإتيان بمثله أو بأحسن منه ، وأرادوا من هذا كله الوصول إلى الدسيسة الاعتزالية المفتراة ، وهي القول بخلق القرآن ، حتى إن بعض المعتزلة لم يرتض مقالاتهم في نفي الإعجاز الذاتي عن القرآن ، فانبرى للرد عليها وبيّن فسادها ، وأوضح أن الغاية منها هو الاحتجاج لخلق القرآن ، فهذا هو الجاحظ المعتزلي (ت ٢٥٥هـ) يرد على مقالة رأس المعتزلة أبي إسحاق النظام (ت ٢٣١هـ) القائل بالصّرفة^(١) في كتاب أسماه "نظم القرآن" ، وقد وصف كتابه هذا في "حجج النبوة" فقال:

"كتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي ، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلي . . . فلم أدع فيه مسألة لرافضي . . . ولا لأصحاب النظام ، ولمن نجم بعد النظام ، ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان ولا دلالة ، فلما ظننت أنني قد بلغت أقصى محبتك . . . أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن ، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن"^(٢) .

(١) الصرفة : هي القول بأن الله عزّ وجلّ صرف العرب عن الاهتمام بمعارضة القرآن الكريم ، وكان مقدوراً لهم الإتيان بمثله ، ومعناه أن إعجاز القرآن ليس ذاتياً ، بل هو لأمر خارجي ، وهو صرف العرب عن معارضته ، وقد اقترن اسم الصرفة بأبي إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري (ت ٢٣١) وقد أنكر هذا القول جمهور علماء اللغة والدين ، انظر ردهم : [إعجاز القرآن للباقلاني (ص ٢٩) ، الجواب الصحيح لشيخ الإسلام (٧٦/٤) ، البرهان للزركشي (١٠٥/٢) ، مناهل العرفان للزرقاني (٣٠١/٢) ، مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم (ص ٥٨)] .

(٢) نقلاً عن محمود شاكر في مداخل إعجاز القرآن (ص ٦٤) .

ولما انفرد المعتزلة وأهل الكلام في التصنيف في إعجاز القرآن ، وبثوا من خلاله ما شاءوا من دسائسهم وأباطيلهم ، كان لزاماً على أهل السنة خوض هذا الغمار للذب عن القرآن ، والتصدي لهذه الافتراءات والدسائس ، ومن ثم رأينا مصنفاً في إعجاز القرآن، وكان الباعث منها الرد على مزاعم المعتزلة في هذا الجانب .

نشأة مصطلح الإعجاز .

مصطلح المعجزة والإعجاز لم يرد في القرآن ولا في السنة المطهرة ولا في كلام الصحابة رضي الله عنهم ، ولا حتى عن التابعين ، وقد جاء في القرآن الكريم التعبير عما اصطاح عليه (معجزة) بلفظ (آية) كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلُوبٌ إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) ، وتارة كان التعبير بلفظ (البينة) كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾^(٢) ، وتارة يستخدم القرآن لفظ (البرهان) كما في قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ ﴾^(٣) ، وأحياناً يكون التعبير عنها بلفظ (سلطان) كما قال تعالى : ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتِ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾^(٤) .

ولا شك أن هذه التعبيرات القرآنية عن خوارق الأنبياء أدل على المقصود من تسميتها (معجزة) ، إذ تدل هذه التعبيرات القرآنية على المراد من خوارق الأنبياء وهو إقامة الدليل على صدق النبي ، وليس مجرد الإعجاز ، أما لفظ (المعجزة) فإنه وإن كان شرطاً في آيات الأنبياء ولازمها من لوازمها ، إلا أن العجز عن معارضتها غير مقصود لذاته، وليس هو مراد

(١) سورة الأنعام : ١٠٩ .

(٢) سورة الأعراف : ٧٣ .

(٣) سورة القصص : ٣٢ .

(٤) سورة إبراهيم : ١٠ .

الله من الإتيان بآيات الأنبياء ، بل المراد كونها دليلاً على ثبوت النبوة وبرهاناً لها وآية عليها^(١) .

ولم نجد هذا المصطلح (المعجزة) إلا في القرن الثالث الهجري ، وهو مصطلح محدث ومولد ، ومثله أيضاً اللفظ الآخر الذي يقترن بـ (الإعجاز) اقتراناً لا فكاً منه وهو لفظ (التحدي) ، فهو محدث ومولد أيضاً ، لم يكن في كتاب الله ولا في حديث رسوله ﷺ ، ولم يكن إلا في كلام أهل القرن الثالث^(٢) .

وأول ظهور لهذين المصطلحين كان في كلام المعتزلة وأهل الكلام ، وذلك أنهم نظروا في القرآن الكريم لكونه آية النبي ﷺ ، فوجدوا أن الله تعالى طالب العرب المكذبين لنبيه في آيات من هذا القرآن : بأن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ، ثم لم يجدوا أحداً من مشركي العرب قد فعل ذلك أو حاوله ، فسموا مطالبة العرب بالإتيان بمثل هذا القرآن أو بعضه "طلب المعارضة" ، وسموا امتناع العرب عن ذلك "ترك المعارضة" ، ثم بعد ذلك سمو طلب المعارضة "تحدياً"^(٣) ، وسموا ترك المعارضة "عجزاً"^(٤) ، ثم انتشر هذان المصطلحان واستفاضوا استفاضة ظاهرة في القرن الرابع إلى يومنا هذا^(٥) .

تعريف المعجزة لغة واصطلاحاً :

المعجزة لغة :

أصلها مأخوذ من (عجز) .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"والعين والجيم والزاء أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على الضعف ، والآخر على مؤخر الشيء ."

(١) انظر : النبوات لشيخ الإسلام (ص ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٣١٠) .

(٢) انظر : مداخل إعجاز القرآن (ص ١٩ وما بعدها) ، مباحث في إعجاز القرآن (ص ١٧) .

(٣) قال محمود شاكر في المداخل (ص ٢٢) : وأقدم ما وقفت عليه من ذكر (التحدي) بهذا المعنى المحدث هو كلام أبي عثمان الجاحظ ، ولا سيما في رسالته (حجج النبوة) .

(٤) ذكر محمود شاكر في المداخل (ص ٢٨) أن محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي (ت ٣٠٦هـ) هو أول من وُلد لفظ (الإعجاز) ، وأن هذا اللفظ استفاض من بعده ، وجرت به الألسن إلى يومنا هذا .

(٥) انظر : مداخل إعجاز القرآن (ص ٤١) .

فالأول عَجَزَ عن الشيء يعجز عجزاً ، فهو عاجز ، أي ضعيف ، وقولهم : إن العجز نقيض الحزم فمن هذا ، لأنه يضعف رأيه ، ويقولون: المرء يعجز لا محالة، ويقال: أعجزني فلان ، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه ، ولن يعجز الله تعالى شيء ، أي لا يعجز الله تعالى عنه متى شاء، وفي القرآن: ﴿لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾^(١)، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) . . .

وأما الأصل الآخر : فالعَجُزُ : مؤخر الشيء ، والجمع أعجاز ، حتى إنهم يقولون : عجز الأمر، وأعجاز الأمور، ويقولون : (لا تدبروا أعجاز أمور ولت صدورها) "^(٣) .
وهذان الأصلان اللذان ذكرهما ابن فارس متقاربان ، لأن التأخر والضعف متلازمان، ولهذا قال الراغب (ت ٥٠٢هـ) :

"عجز : عَجَزُ الإنسان مؤخره وبه شُبه مؤخر غيره ، قال تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نُحْلِ مُنْقَعِرٍ﴾"^(٤) ، والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي مؤخره كما ذكر في الدبر ، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة ، قال تعالى : ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾"^(٥) ، وأعجزت فلاناً وعجزته وعاجزته جعلته عاجزاً"^(٦) .
وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) :

" المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها"^(٧) .

(١) سورة الجن : ١٢ .

(٢) سورة الشورى : ٣١ .

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ص ٧١٢) مادة (عجز) .

(٤) سورة القمر : ٢٠ .

(٥) سورة المائدة : ٣١ .

(٦) المفردات للراغب (ص ٣٢٥) .

(٧) تفسير القرطبي (٨٦/١) .

المعجزة اصطلاحاً :

أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة يظهره الله عز وجل على يد رسله شاهداً على صدقهم^(١) .

شرح التعريف :

"أمر خارق للعادة" بحيث يكون مخالفاً للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون ، ولا يخضع للأسباب والمسببات المعروفة للبشر^(٢) .

"مقرون بالتحدي" أي يكون المقصود منها تحدي القوم وإثارتهم للإتيان بمثلها حتى تقوم عليهم الحجة عند عجزهم ، والتحدي يكون بلسان المقال أو بلسان الحال من غير نطق به ، ويتضح هذا من خلال الأصل اللغوي للإعجاز ، حيث سمي بذلك لعجز من يقع عندهم عن معارضته ، ولا يكون العجز إلا من تحدي سواءً أكان ذلك التحدي صريحاً أم حكماً .

وقد فرق بعض العلماء بين الخارقة التي يتحدى بها الرسول قومه ويجعلها آية صدقه ودليل صحة رسالته ، وبين الخارقة التي لا تقترن بالتحدي ، فأطلقوا على المقترن بالتحدي اسم (المعجزات) ، وأطلقوا على الآخر اسم (دلائل النبوة)^(٣) .

"سالم من المعارضة" بحيث لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها ، إذ لو استطاع أحد أن يأتي بمثل ما جاء به النبي لبطلت حجته ، ولم يسلم له ادعاؤه أن هذه الخارقة آية صدقه ودليل صحة رسالته^(٤) .

"يظهره الله عز وجل على يد رسله" أي أن هذه المعجزة وإن جاء بها النبي فليست من عنده ولا في قدرته ، ولكنها من الله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ

(١) انظر : الإنصاف للباقلاني (ص ٦١) ، الإتيان للسيوطي (١٠٠١/٢) ، مناهل العرفان (٥٣/١) .

(٢) انظر : مناهل العرفان (٥٦/١) ، مباحث في إعجاز القرآن (ص ١٩) ، دراسات في علوم القرآن (ص ٢٥٧) .

(٣) انظر : فتح الباري (٦/٦٧٣) ، مباحث في إعجاز القرآن (ص ٢١) .

(٤) انظر : مباحث في إعجاز القرآن (ص ٢٠) ، دراسات في علوم القرآن (ص ٢٥٧) .

يَأْتِي بِعَايَةِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٢) (٣) .

"شاهداً على صدقهم" وذلك أن الإتيان بهذه المعجزات إنما هو لإقامة الدليل على أنهم قد أرسلوا من ربهم ، وإقامة الحججة على قومهم (٤) .
إعجاز القرآن :

للعلماء في تعريف إعجاز القرآن أقوال متعددة وإن كانت متقاربة المعاني ، منها ما ذكره الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) في "مناهل العرفان" :

"إعجاز القرآن مركب إضافي ، معناه بحسب أصل اللغة : إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به" (٥) .

وكل من عرّف إعجاز القرآن فإنه يشير إلى قضية التحدي بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا يدل على أن دليل إعجاز القرآن يتجلى من خلال التحدي بمعارضته ، وعجز الخلق عن تلك المعارضة ، ولهذا فقد اقترن الإعجاز بالتحدي ، ويظهر ذلك جلياً من خلال كلام العلماء رحمهم الله ، فنجدهم تارةً يعبرون بالإعجاز ، وتارةً يعبرون بالتحدي ، وكثيراً ما يقرنون بينهما .

بقي أن نشير إلى أنه لا يلزم من اقترانهما - أي الإعجاز والتحدي - الترادف ، بل هناك فرق بينهما ، فإن التحدي أحص من الإعجاز ، لأن التحدي بالقرآن الكريم إنما هو أحد وجوه إعجاز القرآن .

وقد حظي موضوع "الإعجاز" بعناية فائقة عند إمامنا ابن قتيبة ، ويكفي في الدلالة على ذلك أمران :

(١) سورة غافر : ٧٨ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٩ .

(٣) انظر : مداخل إعجاز القرآن (ص ١٧) ، مباحث في إعجاز القرآن (ص ١٩) .

(٤) انظر : دراسات في علوم القرآن الكريم (ص ٢٥٧) .

(٥) مناهل العرفان (٢ / ٢٣٨) .

أحدهما : أنه أفرد مصنفاً في دلائل النبوة عامة ، أسماه "أعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم المنزلة على رسله صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغير ذلك، ودلائل نبوته من البراهين النيرة والدلائل الواضحة"^(١) .

الثاني : أنه تحدث بإسهاب عن قضية إعجاز القرآن خاصة ، وذلك في كتابه "تأويل مشكل القرآن" الذي وضعه في مقابل كتاب "نظم القرآن" للجاحظ المعتزلي (ت ٢٥٥هـ)، - والذي يعد من أوائل المصنفات في إعجاز القرآن - وقد أوضح ابن قتيبة في كتابه صور إعجاز القرآن البيانية من منظور أهل السنة ، وهذا يشهد لما قلت سابقاً من أن أهل السنة في مصنفاتهم الأولى في "الإعجاز" كان هدفهم الرد على مزاعم المعتزلة في هذا الجانب .
يقول الدكتور محمد زغلول سلام :

"وقام الجدل حول الصور البيانية في القرآن ، واشتجرت المذاهب فيما تتناوله من زوايا متعددة ، ... وإزاء هذه المعارك الكلامية بين المعتزلة وأصحاب الحديث والسنة واللغويين يخرج ابن قتيبة على رأس أهل السنة فيردّ على ما ادّعاه الجاحظ ورمى به أصحابه، ويخوض في البيان كصاحبه ، ويتعرض للقرآن كما تعرض له ، ويناقش مسائل أسلوبه ومشكلات بيانه في كتاب "مشكل القرآن" كما ناقش ذلك الجاحظ في "نظم القرآن" ، والخلاف بين وجهتي نظر المعتزلة وأهل السنة تتضح لمن تتبع كتابات ابن قتيبة ... ، ويبدأ - ابن قتيبة - "المشكل" بمقدمة طويلة يتناول فيها مسألة "إعجاز القرآن البياني" وكلامه في هذه الناحية إثارة لقضية الإعجاز من وجهة نظر أهل السنة في إعجازه بنظمه وسمو تأليفه عن سائر كلام العرب ونظومهم"^(٢) .

وسيكون الحديث عن عناية الإمام ابن قتيبة بموضوع الإعجاز من خلال هذين المطلبين :

المطلب الأول : معجزات النبي صلى الله عليه وسلم .

اجتمع للنبي صلى الله عليه وسلم من الدلائل على صدق نبوته ما لم يجتمع لنبي قبله، فبالإضافة إلى القرآن الكريم ، المعجزة التي كانت أعظم آيات صدقه ؛ فقد أجرى الله على

(١) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، المنتخب من مخطوطات الحديث، للشيخ الألباني (ص ١٣٣).

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي (ص ١٠٣) .

يديه خوارق للعادات حسية ؛ وهذه الخوارق منها ما يدخل تحت المعجزة الاصطلاحية لكونه وقع التحدي بها ، وذلك : كالإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، ومنها ما يعد تكريماً للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً للمؤمنين معه ، وذلك : كتسبيح الحصى بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكثير الطعام بيده ، وحنين الجذع إليه ، وغير ذلك .
وهذه المعجزات والدلائل سجل القرآن بعضها : كالإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، وبعضها جاء في أحاديث صحيحة ؛ وهي وإن لم تبلغ حد التواتر إلا أن لها من الشهرة والقرائن والقبول ما يجعلها محل التصديق والجزم واليقين .

قال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) :

"وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام وانشقاق القمر ونطق الجماد ، فمنه ما وقع التحدي به ، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحد ، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده صلى الله عليه وسلم من خوارق العادات شيء كثير ، كما يُقطع بوجود جود حاتم وشجاعة علي (ت ٤٠هـ) رضي الله عنه ، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد ، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجسم الغفير ، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار ، والعناية بالسير والأخبار ، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك ، بل لو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعداً وهو أنه لا مزية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدّثوا بهذه الأخبار في الجملة ، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة ولا من بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك ، ولا الإنكار عليه فيما هنالك ، فيكون الساكت منهم كالناطق ، لأن مجموعهم محفوظ من الإغضاء على الباطل"^(١).

وكما سبق فإن الإمام ابن قتيبة أفرد كتاباً في هذا الموضوع ، تحدث فيه عن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما عرض لبعض هذه المعجزات والدلائل في مصنفاته المتعددة ؛ ومن ذلك :

١ . معجزة الإسراء والمعراج .

(١) فتح الباري (٦/٥٨٢) .

وهي من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نصّ القرآن عليها بقوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِيٓ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖٓ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهٗ لِنُرِيَهٗ مِنْ اٰيٰتِنَا اِنَّهٗ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيْرُ﴾^(١)، وجاء تفصيلها في الصحاح، كما في حديث أنس بن مالك (ت ٩٣هـ)^(٢)، وجابر بن عبد الله (ت ٧٨هـ)^(٣)، رضي الله عنهما ، وقد استوعب الحافظ ابن كثير (ت ٧٧هـ) في تفسيره أغلب الروايات الواردة في كتب الأحاديث حول الإسراء والمعراج^(٤).

وقد تحدث الإمام ابن قتيبة عن هذه المعجزة ، وردّ على من جعل الإسراء للنبي صلى الله عليه وسلم بالروح دون الجسد^(٥) ؛ فقال :

"وكيف يكون ذلك كما تأولوا ، والله جل وعزّ يقول : ﴿سُبْحٰنَ الَّذِيٓ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖٓ لَيْلًا﴾ الآية، وهذا لا يجوز أن يتأول فيه هذا التأويل ، ولا يدفع بمثل هذه الأحاديث ، ونحن نعوذ بالله أن نتعسف ، فتأول فيما جعله الله فضيلة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن نُسلم للحديث ، ونحمل الكتاب على ظاهره"^(٦).

٢ . انشقاق القمر .

من أوضح دلائل صدق نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : معجزة انشقاق القمر، فقد نص القرآن نصاً صريحاً عليها بقوله تعالى : ﴿اَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَاَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٧).

(١) سورة الإسراء : ١ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات ح(٤١١) (ص٧٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء ح(٣٨٨٦) (ص٣١٥)، ومسلم في الإيمان ، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال ح(٤٢٨) (ص٧٠٨) .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير (٦/٥-٤٢) .

(٥) انظر - تفصيل هذه المسألة - في : تفسير ابن كثير (٥/٤٣)، فتح القدير للشوكاني (٣/٢٠٧) .

(٦) تأويل مختلف الحديث (ص١٤٧) .

(٧) سورة القمر : ١ .

وجاء بيانها في أحاديث كثيرة رواها جمع من الصحابة ، كابن مسعود (ت ٥٣٢هـ) ، وابن عباس (ت ٦٨هـ) ^(١) ، وأنس (ت ٩٣هـ) ^(٢) رضي الله عنهم .

أخرج البخاري (ت ٢٥٦هـ) عن ابن مسعود ، أنه قال : "انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اشهدوا" ^(٣) .

وقد تحدث الإمام ابن قتيبة عن هذه المعجزة حين ذكر عن النظام المعتزلي (ت ٢٣١هـ) أنه أنكر انشقاق القمر في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأكذب ابن مسعود (ت ٣٢هـ) رضي الله عنه ، لروايته هذا الحديث ، وقال : "كيف لم تعرف بذلك العامة ولم يؤرخ الناس بذلك العام ، ولم يذكره شاعر ، ولم يسلم عنده كافر ، ولم يحتج به مسلم على ملحد؟" ^(٤) .

فقال ابن قتيبة ردّاً عليه :

"وهذا ليس بإكذاب لابن مسعود - رضي الله عنه - ، ولكنه بحسّ لعلم النبوة ، وإكذاب للقرآن العظيم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ^(٥) ، فإن كان القمر لم ينشق في ذلك الوقت ، وكان مراده سينشق القمر فيما بعد ، فما معنى قوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ^(٦) ، بعقب هذا الكلام ، أليس فيه دليل على أن قوماً رأوه منشقاً ، فقالوا : هذا سحر مستمر من سحره ، وحيلة من حيله ، كما قد كانوا يقولون في غير ذلك من أعلامه" ^(٧) .

٣ . شكوى البعير له .

(١) أخرجه البخاري في التفسير [سورة اقتربت الساعة] ، باب "وانشق القمر" ح(٤٨٦٦) (ص٤١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير [سورة اقتربت الساعة] ، باب "وانشق القمر" ح(٤٨٦٧) (ص٤١٦) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير [سورة اقتربت الساعة] ، باب "وانشق القمر" ح(٤٨٦٤) (ص٤١٦) .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص١٨) .

(٥) سورة القمر : ١ .

(٦) سورة القمر : ٢ .

(٧) تأويل مختلف الحديث (ص٢٠) .

ذكر الإمام ابن قتيبة حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " أنه دخل يوماً حائش نخل، فرأى بعيراً ، فلما رآه البعير خَنَّ^(١) وذرفت عيناه ، فمسح النبي صلى الله عليه وسلم سراته ، وذفراه^(٢) فسكَّن ، فقال لصاحبه : " أحسن إليه فإنه شكَا إليّ ، إنك تدئبه^(٣) وتُجِيعه^(٤) " ^(٥).

ثم قال ابن قتيبة في شرحه :

"ومن الناس من يرى أن شكوى البعير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين أثر الضرب والإتعب ، فقضى عليه بأنه لو كان متكلماً لاشتكى ما ذكر ، يذهب إلى قول عنتره في فرسه :

فازورَ مِنْ وَقَعِ القَنَا بَلْبَانِهِ وشكا إليّ بِعَبْرَةٍ وَتَحْمُحِمِ^(٦)

وهذا تعسف في القول وبخس لعلم النبوة ، فلو كان الأمر على ما ذكر لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم فضلٌ على غيره في هذا الخبر ، لأن الناس قد يفهمون عن البهائم من هذا الوجه ، والقول في هذا : أن الله عزّ وجل أفهمه عن البعير من الوجه الذي أفهم به سليمان عليه السلام كلام النمل ، والنمل مما لا يُصوّت ، ومن الوجه الذي يتفاهم منه البهائم ، وليس شكوى البعير بأعجب من قصده إليه بالحنين ودُروف العين^(٧) .

٤ . كلام الذئب وإقراره برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

جاء عن أبي سعيد الخدري (ت ٧٤هـ) رضي الله عنه أنه قال :

(١) جاء في تهذيب اللغة مادة "خن" (٦/٧) : "خَنَّ خنيناً في البكاء إذا ردّد البكاء في الخياشيم" .

(٢) قال ابن قتيبة : "السراة : الظَّهْر ، والذفران : أصول الأذنين" [غريب الحديث (١٧٥/١)] .

(٣) تدئبه أي تكُده وتُتْعِبه . [اللسان ، مادة "دأب" (٣٦٨/١)] .

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ح(٢٥٤٩) (ص١٤١٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٤/١) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٩٣/١١) ح(٣٢٤١٥) ، من حديث عبدالله بن جعفر رضي الله عنه ، وأصله عند مسلم في الحيض ، باب التستر عند البول ح(٧٧٤) (ص٧٣٤) ، وصححه الألباني ، [صحيح سنن أبي داود (١١٠/٢)] .

(٥) غريب الحديث (١٧٤/١) .

(٦) البيت في ديوانه (ص٢٢٣) ، وازورَ : أعرض الفرس لما رأى الرماح تقع بنحره ، والتحمحم : الصوت الخفي ، فإن اشتد فهو الصهيل . [اللسان (٣٣٣/٤) ، (١٥٠/١٢)] .

(٧) غريب الحديث (١٧٥/١) .

"بيننا راعٍ يرعى بالحرّة إذ عدا الذئب على شاةٍ من الشياه، فحال الراعي بين الذئب وبين الشاة ، فأقعى الذئب على ذنبه ، فقال : يا عبدالله ، تحول بيني وبين رزقي ساقه الله إليّ؟ فقال الرجل : يا عجباه ذئب يكلمني بكلام الإنسان ، فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب مني ، رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين^(١) ، يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، فزوى الراعي شياهه إلى زاوية من زوايا المدينة ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صدق والذي نفسي بيده" ^(٢).

وقد أشار الإمام ابن قتيبة إلى هذا العلم من أعلام النبوة ؛ في معرض ردّه على النظام (ت ٢٣١هـ)، في إنكاره لانشقاق القمر ، لكون العامة لم يرّوه ؛ فقال :

"وكيف صارت الآية من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ، والعلم من أعلامه لا يجوز عنده أن يراها الواحد والاثنان والنفر دون الجميع ، أوليس يجوز أن يخبر الواحد والاثنان والنفر الجميع ، كما أخبر مُكَلِّم الذئب بأن ذئباً كلمه، وأخبر آخر أن بعيراً شكاً إليه"^(٣).

المطلب الثاني : مفهوم الإعجاز عند ابن قتيبة .

يعد الإمام ابن قتيبة من أوائل أهل السنة - إن لم يكن أولهم - الذين تناولوا قضية "إعجاز القرآن الكريم" ، فقد صدر كتابه "تأويل مشكل القرآن" بالحديث عن جوانب الإعجاز القرآني ، فبدأ ببيان أن القرآن هو المعجزة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن معجزة كل نبي فيما مضى تكون فيما برع فيه أقوامهم خاصة ، فكانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم فيما اختص به العرب من الفصاحة والبيان ، وهي القرآن الذي تحداهم الله بالإتيان بمثله فعجزوا عن معارضته ، ولو بسورة من مثله ، وفي ذلك يقول الإمام ابن قتيبة :

(١) يريد المدينة ؛ لأنها بين حرتين ، حرة في الشرق وحرة في الغرب ، والحرّة : الأرض ذات الحجارة السوداء. [معجم البلدان (٢/٢٤٥)، فتح الباري لابن حجر (١/١٨٤)].

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٨٨)، وابن حبان في صحيحه (٤١٨/١٤) ح (٦٤٩٤)، والحاكم في المستدرک (٤/٤٦٧) ح (٨٤٤٤)، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، والبيهقي في الدلائل (٦/٤٢)، وقال: "هذا إسناد صحيح".

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٢١).

"فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب خصيصاً من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله علماً، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه.

فكان لموسى عليه السلام فلق البحر، واليد، والعصا، وتفجّر الحجر في التيه بالماء الرّواء^(١)؛ إلى سائر أعلامه زمن السحر.

وكان لعيسى عليه السلام إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، إلى سائر أعلامه زمن الطب.

وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم، الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ إلى سائر أعلامه زمن البيان^(٢).

ثم يكرر الحديث عن قضية التحدي بالقرآن، وأنه أعيا العرب وأعجزهم عن معارضته، وجعلهم يتخبطون، فتارة يقولون: هو شعر، وتارة: قول كاهن، وتارة: أساطير الأولين، لا يثبتون على شيء من ذلك؛ لأنهم يعلمون أنه ليس كما يقولون، وإنما لجأوا لذلك حين أعيتهم الحيل، وضاعت بهم السبل إلى معارضته.

يقول ابن قتيبة:

"لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتج عليهم بالقرآن، ويجعله العلم لنبوته، والدليل على صدقه، ويتحداهم في موطن بعد موطن، على أن يأتوا بسورة من مثله، وهم الفصحاء البلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللدّد^(٣) في الخصام، مع اللب والنهي، وأصالة الرأي، وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، وكانوا مرة يقولون: هو سحر^(٤)، ومرة يقولون: هو قول الكهنة^(١)، ومرة: أساطير الأولين^(٢)"^(٣).

(١) في اللسان، مادة "روى" (٣٤٥/١٤): "ماء رواء - ممدود مفتوح الراء - أي عذب".

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٢).

(٣) اللدد: الخصومة الشديدة، يقال: رجل اللدُّ بيِّن اللدد: شديد الخصومة. [اللسان، مادة "لدد" (٣/٣٩٠)].

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَرٌ﴾ [سورة المدثر: ٢٤].

ثم عرض الإمام ابن قتيبة لجوانب إعجاز القرآن ، وحملت هذه الجوانب طابع الإعجاز البياني (اللغوي) ، ولا عجب في ذلك فإن الإمام ابن قتيبة كان لغوياً أديباً بليغاً نحوياً ، فهذا النبوغ اللغوي كان له أثر في الوجه الإعجازي عنده ، وقد أشار بإشارة عامة لهذا الوجه ؛ فيبين أن بلاغة القرآن وحسن نظمه هي التي تمثل إعجازه ، وقال في ذلك :

"وقطع فيه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين"^(٤).

ثم فصل في جوانب ذلك الإعجاز في التأليف والنظم ؛ فجعلها في الأمور التالية:

١ . النظم والتركيب ، بمعنى سبك الألفاظ وضمها بعضها إلى بعض في تأليف بديع ، يجمع بين دقة الألفاظ وروعة المعاني ، فيجريان معاً في سلاسة وعدوبة ، لا تعثر ولا كلفة ، ولا حواشي في اللفظ ، ولا زيادة أو فضول ، وبذلك يتكامل اللفظ والمعنى ويلتقيان على تحقيق البيان القرآني المعجز .

٢ . ما فيه من الجمال التوقيعي الفريد ، والنسق الصوتي البديع ، الذي ينجم من تآلف الحروف في أصواتها ومخارجها ، كما ينجم من الفاصلة واطرادها أو تغييرها في نسق معين ، فهو حلو رتيب الوقع ، لا تملأ الآذان لما ينساب في عباراته وخلال لفظه من إيقاع بديع ، ولا تتعثر فيه الألسن لسلاستها ، فهو يختلف عن كلام البشر الذي مهما بلغت مكانته في البلاغة وسما قدره في الفصاحة لا بد وأن تملأ الآذان وقعه ، والألسن ترداده.

يقول ابن قتيبة في ذلك :

"وجعله متلوّاً لا يُملأ على طول التلاوة ، ومسموعاً لا تمجُّه الآذان ، وغضاً لا يخلق على كثرة الرد"^(٥).

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُنُومُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴾ [سورة الحاقة: ٤٠-٤٢].

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥].

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢) بتصرف يسير .

(٤) المصدر السابق (ص ٣) .

(٥) المصدر السابق (ص ٣) .

٣ . ما في القرآن من المعاني الخالدة ، وما حواه من علوم خارجة عن متناول البشر ،
تثير الإعجاب فلا ينقضي ، وإلى ذلك أشار بقوله : "وعجيباً لا تنقضي عجائبه"^(١).

٤ . وبما جمع من المعاني وضروب العلم التي تفيد البشرية ، والتي تجمع زبدة الشرائع
السماوية ، وتزيد عليها وتممها ، وأشار إلى هذا بقوله :
"ومفيداً لا تنقطع فوائده ، ونسخ به سالف الكتب"^(٢).

٥ . ما فيه من المعاني البلاغية ، التي تعتمد على دقة التعبير وإجادة التصوير بأسلوب
عذب بديع ، وقد ذكر منها ابن قتيبة : الإيجاز الذي هو التعبير عن المعاني الكثيرة - بدقة
- بألفاظ قليلة ، وفي ذلك يقول :

"وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله
عليه وسلم : "أوتيت جوامع الكلم"^(٣).

فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ ﴾^(٤) ، كيف جمع له بهذا الكلام كل خُلق عظيم ، لأن في "أخذ العفو" : صلة
القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين .

وفي "الأمر بالعرف" : تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض
الطرف عن الحُرُمات .

وإنما سُمي هذا وما أشبهه "عُرْفاً" و"معروفاً" ؛ لأن كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئن
إليه .

وفي "الإعراض عن الجاهلين" : الصبر ، والحلم ، وتنزيه النفس عن ممارسة السّفِيهِه،
ومنازعة اللّجوج"^(٥).

كما ذكر ابن قتيبة صوراً عديدة لهذه الضروب البلاغية التي تظهر إعجاز القرآن
الكريم ورّعها على أبواب الكتاب المتنوعة .

(١) المصدر السابق (ص ٣) .

(٢) المصدر السابق (ص ٣) .

(٣) سبق تخرجه (ص ٥٤٨) .

(٤) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٣-٥) .

وبهذا يظهر جلياً أن الإمام ابن قتيبة يذهب إلى أن بلاغة القرآن وسمو ألفاظه ومعانيه ونظمه الراقي في الأسلوب هو سر إعجازه ، ولذلك وقف العرب دون القرآن وبلاغته ذاهلين عاجزين^(١).

^(١) انظر - مفهوم الإعجاز عند ابن قتيبة - في : أثر القرآن في تطور النقد العربي، د.محمد زغلول سلام (ص١٠٨)، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن ، د.محمد رفعت أحمد زنجير (ص١٤١)، إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، د.محمد بن عبدالعزيز العواجي (ص١٠٢) ، الظواهر اللغوية في كتب إعجاز القرآن، عادل عباس النصراوي، رسالة ماجستير جامعة الكوفة (ص١٥)، آراء العلماء في تحديد أوجه الإعجاز، د.عبدالله بن مقبل القرني (ص٩) .

المبحث العاشر

وقوع المعرّب^(١) في القرآن الكريم

جاء في تفسير الإمام ابن قتيبة لبعض ألفاظ القرآن الكريم ما يشير إلى أنها بغير لغة العرب ، وكان ذلك في مواضع محدودة جداً ، لا تتجاوز ستة مواضع ، كان في جميعها ناقلاً لقول غيره ، وربما أجم بعبارة تدل على التضعيف ، فقال : "يقال" أو "قيل" ، وهذه الألفاظ هي :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾^(٢) ؛ قال :

"القناطر : واحدها قنطار ، قال بعضهم : القنطار ثمانية آلاف مثقال ذهب بلسان أهل إفريقية"^(٣) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾^(٤) ؛ قال :

" "سجّيل" يذهب بعض المفسرين إلى أنها "سَنَكٍ وَكَلٍ" بالفارسية"^(٥) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾^(٦) ؛ قال : " "بالقسطاس" : الميزان ، يقال : هو بلسان الروم"^(٧) .

(١) قال السيوطي : "المعرّب : هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعية لمعانٍ في غير لغتها، وقال الجوهري في "الصحاح" : تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول: عربته العرب وأعربته" . [المزهر (٢٦٨/١)] .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ١٠٢) .

(٤) سورة هود : ٨٢ .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٢٠٧) .

(٦) سورة الإسراء : ٣٥ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٤) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾^(١)؛ قال :
"السندس: رقيق الديداج، والاستبرق: ثخينه، ويقول قوم : فارسي معرب، أصله:
"استبره" ، وهو الشديد"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٣)؛ قال :
" "الفردوس" قال مجاهد (ت ١٠٤هـ) : هو البستان المخصوص بالحسن، بلسان
الروم"^(٤).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٥)؛ قال :
"أي مفاتيحها وخزائنها، واحدها: "إقليد"، يقال: هو فارسي مُعَرَّبٌ "إكليد"^(٦).
ومع وجود هذه الألفاظ عند ابن قتيبة إلا أني لا أستطيع القطع برأيه في وقوع المعرب
في القرآن من عدمه ، إذ عباراته في نقله لتفسير تلك الألفاظ توحى بأنه كان متحرزاً من
الاعتراف بوقوع المعرب في القرآن ، ويتقوى مثل هذا الظن بقوله في "باب ما تكلم به العامة
من الكلام الأعجمي" في "أدب الكاتب" :

"ولم يكن أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) يذهب إلى أنّ في القرآن شيئاً من غير لغة العرب،
وكان يقول : هو اتفاق يقع بين اللغتين ، وكان غيره يزعم أن "القسطاس" الميزان بلغة الروم ،
و"الغساق" البارد المنتن بلسان الترك ، و"السجيل" بالفارسية "سَنُك" و"كِل" ، أي : حجارة
وطين"^(٧).

فقوله : "وكان غيره يزعم ... " توحى بأنه يُقَوِّي رأي أبي عبيدة فيما ذهب إليه، وهو
أحد الأقوال في مسألة وقوع المعرب في القرآن الكريم .

(١) سورة الكهف : ٣١ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص ٢٦٧) .

(٣) سورة المؤمنون : ١١ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٢٩٦) .

(٥) سورة الزمر : ٦٣ .

(٦) تفسير غريب القرآن (ص ٣٨٤) .

(٧) أدب الكاتب (ص ٢٢٦)، وكرّره في غريب الحديث (٩٨/٢) .

وهو القول الذي قال به الشافعي (ت ٢٠٤هـ)^(١)، وابن جرير الطبري^(٢) (ت ٣١٠هـ)، وأبو بكر الباقلاني^(٣) (ت ٤٠٣هـ)، والقاضي أبو يعلى^(٤) (ت ٤٥٨هـ)، وابن عقيل^(٥) (ت ٥١٣هـ)، والمجد ابن تيمية^(٦) (ت ٦٥٢هـ)، والزرکشي^(٧) (ت ٧٩٤هـ)، وهو وهو قول جمهور أهل العلم^(٨).

قال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) : "من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول"^(٩).

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(١٠)، وقوله تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾^(١١)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾^(١٣).

وجه الاستدلال : أن هذه النصوص دلت على أن القرآن عربي محض، ولو كان فيه من لغة العجم لم يكن عربياً محضاً.

قال الشافعي (ت ٢٠٤هـ) : "ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب"^(١٣).

(١) الرسالة للشافعي (ص ٤٢).

(٢) تفسير الطبري (٣١/١).

(٣) نكت الانتصار للباقلاني (٣٨٥).

(٤) العدة للقاضي أبي يعلى (٧٠٧/٣).

(٥) الواضح في أصول الفقه (٥٣/٤).

(٦) المسودة لآل تيمية (٣٨١/١).

(٧) البرهان للزرکشي (٣٥٩/١).

(٨) نسبه للجمهور ابن حجر في فتح الباري (٢٩/٣).

(٩) الصاحي لابن فارس (ص ٤٣).

(١٠) سورة يوسف : ٢ .

(١١) سورة الزمر : ٢٨ .

(١٢) سورة الشعراء : ١٩٢-١٩٥ .

(١٣) الرسالة للشافعي (ص ٤٢).

مناقشة الاستدلال بهذه الآيات : نوقشت بأنه لا يسلم أنها أثبتت أن القرآن عربي محض، بل هي تدل على أنه عربي في غالب ألفاظه، وأنه عربي حكماً لا حقيقة، بدليل اشتغال القرآن على كلمات يسيرة أعجمية، وهذا لا يخرج عن كونه عربياً، وعن إطلاق هذا الاسم عليه، فإن الشعر الفارسي يسمى فارسياً وإن كان فيه آحاد كلمات عربية^(١).

الإجابة عن هذه المناقشة: أن يقال: إن الأصل في وصف القرآن بأنه عربي أن يكون متوجهاً للقرآن كله لا أغلبه، وبمجموع أدلة المانع لوجود المعرب تؤيد هذا، وأما ما ذكروه من وجود كلمات يسيرة أعجمية، فإنه لا يسلم بأنها أعجمية، وادعاء أعجمية أصل هذه الكلمات، وأن العرب عربتها معارض بمثله، وهو إمكان كون أصلها عربياً، ثم استعمالها العجم في لغاتهم، خاصة وأن اللغة العربية من أقدم اللغات.

ثانياً : قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ

وَعَرَبِيٌّ ﴾^(٢).

وجه الاستدلال: أن في الآية نفياً للقول بأن فيه أعجمياً وعربياً، وهذا القول يتطرق عليه إذا كان بعضه غير عربي^(٣).

مناقشة هذا الاستدلال : نوقش بأن حجة الكفار إنما كانت تقوم لو كان جميع القرآن أعجمياً، أما وغالبه عربي بلغتهم، وإنما فيه من ألفاظ يسيرة من غيره، فلا حجة، فيكون حينئذ تأويل الآية: ولو جعلنا هذا القرآن أي جميعه، قرآناً أعجمياً لأنكروه . . . ولكن لم نجعله كذلك، فليس لهم إنكاره^(٤).

الدليل الثالث: أن الله سبحانه تحدى العرب بالإتيان بسورة من مثله، ولا يتحداهم بما ليس من لسانهم ولا يحسنونه.

(١) انظر : شرح مختصر الروضة للطوفي (٣٨/٢).

(٢) سورة فصلت : ٤٤ .

(٣) انظر : الواضح في أصول الفقه لابن عقيل (٥٥/٤) .

(٤) انظر : شرح مختصر الروضة للطوفي (٣٩/٢) .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ):

"لو كان في القرآن الكريم من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله، لأنه أتى بلغات لا يعرفونها"^(١).

القول الثاني: إن في القرآن ما ليس من لغة العرب .

وهو قول ابن عباس^(٢) (ت ٦٨هـ)، وعكرمة^(٣) (ت ١٠٤هـ)، ومجاهد^(٤) (ت ١٠٢هـ)، وسعيد بن جبير^(٥) (ت ٩٤هـ)، واختاره السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٦)، والطوفي^(٧) (ت ٧١٦هـ)، والشوكاني^(٨) (ت ١٢٥٠هـ)، وغيرهم.

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة:

الدليل الأول: الآثار الواردة عن ابن عباس (ت ٦٨) وعكرمة (ت ١٠٤) وسعيد ابن جبير (ت ٩٤) وغيرهم، من وجود ما ليس من لغة العرب في القرآن نحو (ناشئة)^(٩)، و(قسورة)^(١٠)، و(سجيل)^(١١)، وغير ذلك .

مناقشة هذا الدليل: ذهب المانعون لوقوع ما ليس من لغة العرب في القرآن الكريم،

في توجيه هذه الألفاظ إلى أربعة اتجاهات:

أ. الاتجاه الأول: يمثله أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي^(١٢) (ت ٢٢٤)، حيث يرى أن هذه الكلمات أعجمية في أصلها، ولكن لما عربتها العرب واستعملتها صارت من لسانها بتعريبها واستعمالها لها.

(١) الصاحبي لابن فارس (ص ٤٦) .

(٢) تفسير الطبري (٣١/١) .

(٣) المصدر السابق (٣١/١) .

(٤) المصدر السابق (٣١/١) .

(٥) المصدر السابق (٣١/١) .

(٦) الإتيان للسيوطي (٤٢٨/١) .

(٧) شرح مختصر الروضة (٣٢/٢) .

(٨) إرشاد الفحول للشوكاني (١٨٠/١) .

(٩) أخرج الطبري (٣١/١) عن ابن عباس أنها حبشية .

(١٠) أخرج الطبري (٣١/١) عن ابن عباس أنها بلسان الحبشة .

(١١) أخرج الطبري (٣١/١) عن سعيد بن جبير أنها فارسية .

(١٢) الصاحبي (ص ٤٥) .

وتابعه على هذا الاتجاه ابن فارس^(١) (ت ٣٩٥هـ)، والجواليقي^(٢) (ت ٥٤٠هـ)، وابن عطيبة^(٣) (ت ٥٤٦هـ)، وابن الجوزي^(٤) (ت ٥٩٧هـ)، وهو اختيار ابن قدامة^(٥) (ت قدامة^(٥) (ت ٦٢٠هـ).

ب . الاتجاه الثاني: ويمثله ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، الذي يرى أن هذه الألفاظ مما تواطأت عليه لغات الأمم، فيضاف إليها جميعاً دون تخصيص^(٦).
وتابعه على هذا الاتجاه الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره^(٧).

ج . الاتجاه الثالث: الذي يرى أن هذه الألفاظ وجدت في كلام العرب، لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظاً.

قال الشافعي (ت ٢٠٤هـ): "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا يعلمه بجميع علمه إنسان غير نبي"^(٨).

وتابعه على هذا الاتجاه أبو إسحاق الشيرازي^(٩) (ت ٤٧٦هـ)، والنابلسي^(١٠) (ت ١١٤٣هـ)، وأحمد شاكر^(١١) (ت ١٣٧٧هـ).

د . الاتجاه الرابع: - وهو قريب من سابقه - من يرى أن ادعاء أعجمية أصل هذه الكلمات وأن العرب عربتها معارض بمثلها، وهو إمكان كون أصلها عربياً، ثم استعملها العجم في لغاتهم، وذلك لأن العرب من أقدم الأمم، ولغتهم من أقدم اللغات وجوداً، وقد

(١) الصاحبي (ص ٤٥) .

(٢) المعرب للجواليقي (ص ٥٣) .

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٥١/١) .

(٤) فنون الأفتان (ص ٣٤٣) .

(٥) روضة الناظر (٢٧٦/١) .

(٦) تفسير الطبري (٣٢/١) .

(٧) التفسير الكبير (١٠/٢) .

(٨) الرسالة للشافعي (ص ٤٢) .

(٩) التبصرة (١٨٠/١) .

(١٠) تشریف التغريب في تنزيه القرآن عن التعريب (ص ١٦٨) .

(١١) مقدمة تحقيقه لكتاب "المعرب" للجواليقي (ص ٩) .

ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل هذه الألفاظ التي يظن أن أصلها أعجمي، لعلها من بعض ما فقد أصله وبقي الحرف وحده.

الدليل الثاني: قال السيوطي (ت ٩١١هـ): "وأقوى ما رأيته للوقوع - وهو اختياري - ما أخرجه ابن جرير^(١) (ت ٣١٠هـ) بسند صحيح عن أبي ميسرة (ت ٦٣هـ) التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان"^(٢).

مناقشة هذا الدليل: وجه الطبري قول أبي ميسرة بقوله: "... أن فيه من كل لسان اتفق فيه لفظ العرب، ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به ... ، وإذا كان ذلك كذلك، فبيّن إذاً خطأ من زعم أن القائل من السلف: "إن في القرآن من كل لسان"، إنما عنى بقبيله ذلك: أن فيه من البيان ما ليس بعربي، ولا جائزة نسبته إلى لسان العرب"^(٣).

ولو لم يوجه هذا الأثر، وكان صريحاً في وجود كل اللغات في القرآن، فإنه يُرد لكونه قول تابعي، وليس بحجة، خصوصاً مع معارضته للأدلة القوية التي تمنع وجود ما ليس من لغة العرب في القرآن الكريم.

الدليل الثالث: أن النبي ﷺ بعث إلى الناس كافةً، ولم يقف إرساله على العرب خاصة، فجمع في كتابه سائر اللغات، ليقع الخطاب لكل من بُعث إليه بلسانه الذي وضع له^(٤).

مناقشة هذا الدليل: أجيب عن هذا الدليل بأجوبة:

أ . أحدها: أن نزول القرآن على النبي ﷺ بلسان واحد كافٍ، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله بجميع الألسنة، ويكفي التطويل، كما جرى في الكتاب العزيز^(٥).

ب . الثاني: أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف^(٦).

(١) تفسير الطبري (٣١/١) .

(٢) الإتيان للسيوطي (٤٢٨/١) .

(٣) تفسير الطبري (٣٢/١) .

(٤) انظر : الواضح في أصول الفقه لابن عقيل (٥٨/٤) .

(٥) انظر : المصدر السابق (٥٨/٤) .

(٦) انظر : الكشاف للزحشري (٥٠٧/٢) .

ج . الثالث: يبعد أن يكون نزول القرآن بجميع الألسنة، فهذا خارج عن العرف، والمقصود من الكلام، ويبعد بكل حال أن ترد كل كلمة من القرآن مكررة بكل الألسنة، وإذا لم يجز هذا كان لا بد أن يكون بلسان واحد، ولسان العرب أحق من كل لسان، لأنه أوسع وأفصح، ولأنه لسان أول المخاطبين^(١) .

الدليل الرابع: أن في القرآن الكريم ألفاظاً أعجمية الأصل، نحو: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ونحوها، وهي غير منسرفة لاجتماع العلمية والعجمة فيها، وما اتصف بالعجمة فهو أعجمي.

قال الشوكاني (ت ١٢٥٠):

"والمراد به - أي المعرَّب - ما كان موضوعاً لمعنى عند غير العرب، ثم استعملته العرب في ذلك المعنى كإسماعيل، وإبراهيم، ... ومثل هذا لا ينبغي أن يقع فيه خلاف، والعجب ممن نفاه"^(٢).

مناقشة هذا الدليل: يجاب عن هذا أن الأعلام الأعجمية في القرآن ليست محل نزاع بين العلماء، فالنزاع والخلاف إنما هو في غير التراكيب والأعلام، فإنه لم يقل أحد بأن في القرآن تركيباً غير عربي، ولم ينف وقوع الأعلام الأعجمية في القرآن^(٣).

الإجابة عن هذه المناقشة: قال المجيزون لوقوع المعرَّب في القرآن، إذا اتفق وقوع الأعلام الأعجمية في القرآن، فلا مانع من وقوع الأجناس^(٤).

قلت: ويرد على هذا بأن الأسماء تختلف عن الأجناس، في كونها تنفق فيها اللغات، فهي تُحكى ولا تترجم بخلاف الأجناس.

القول الثالث: التوسط بين المانعين والمجوزين لوقوع المعرَّب في القرآن .

وهو القول بأن في القرآن الكريم كلمات أعجمية، ولكنها لما عربتها العرب واستعملتها صارت عربية بتعريبهم واستعمالهم لها، وذلك جمعاً بين الأدلة.

(١) انظر: قواطع الأدلة في الأصول لأبي مظفر السمعاني (٣٠٤/٢).

(٢) إرشاد الفحول للشوكاني (٣٠٤/٢).

(٣) انظر: مختصر الروضة للطوفي (٣٧/٢).

(٤) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٦١/٧).

وهو قول أبي عبيد القاسم بن سلام^(١) (ت ٢٢٤هـ)، وابن فارس^(٢) (ت ٣٩٥هـ)، وابن عطية^(٣) (ت ٥٤٦هـ)، ومال له الجواليقي^(٤) (ت ٥٤٠هـ)، وابن الجوزي^(٥) (ت ٥٩٧هـ)، وهو اختيار ابن قدامة^(٦) (ت ٦٢٠هـ).

قال أبو عبيد: "والصواب عندي - والله أعلم - مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية - كما قال الفقهاء - إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربت بها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: إنها أعجمية فهو صادق"^(٧).

ويظهر من كلام أبي عبيد أنه يجعل الخلاف بين المانعين والمجوزين خلافاً لفظياً، وليس الأمر كذلك فإن المانعين كالإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ومن معه لا يجهلون أن العرب إذا تكلمت باللفظ الأعجمي يصبح عربياً، ولكنهم كانوا يرون أن القطع بأن هذه الألفاظ أعجمية الأصل لا سبيل إليه، كما يفهم ذلك من القرآن، وهم يرون غلق هذا الباب^(٨).

الترجيح :

الذي يظهر رجحانه في المسألة - والله أعلم بالصواب - هو القول الأول القائل بأن ليس في القرآن لفظ بغير العربية، وذلك لأمر:

أحدها: قوة أدلة المانعين لوجود المعرب في القرآن الكريم.

الثاني: الأصل أن القرآن كله عربي، وأن جميع ألفاظه عربية صرفة، ومن ادعى غير ذلك، فهو ناقل عن الأصل ومطالب بالدليل، وادعاء العجمة لا يصح إلا بأدلة واضحة،

(١) الصاحبي لابن فارس (ص ٤٥) .

(٢) المصدر السابق (ص ٤٥) .

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٥١/١) .

(٤) المعرب للجواليقي (ص ٥٣) .

(٥) زاد المسير لابن الجوزي (١٣٦/٤)، وفنون الأفتان (ص ٣٤٣) .

(٦) روضة الناظر (٣٧٦/١) .

(٧) الصاحبي لابن فارس (ص ٤٥) .

(٨) انظر : مقدمة أحمد شاکر في تحقيقه لكتاب "المعرب" للجواليقي (ص ١١) .

من الاشتقاق أو التاريخ، أو خروج الكلمة عن الخصائص التي تمتاز بها الكلمات العربية، وغاية ما استدل به المجيزون لوقوع المعرّب لا يرقى لمضاهاة أدلة المانعين، بل يلاحظ على المجيزين لوقوع المعرّب التسرع في ادعاء العجمة، والمطلع - مثلاً - على كتاب "المعرّب" للجواليقي (ت ٥٤٠هـ) يتبين له مدى التسرع في دعوى العجمة في ألفاظ لا يستبين الدليل على عجمتها، لذا تعقبه أحمد شاکر في تحقيقه للكتاب، وأثبت بنقول عن أهل اللغة أصالة هذه الألفاظ في العربية، وفند القول بأعجميتها.

وكذا فعل الدكتور جاسر خليل أبو صافية، عند دراسته لكثير من الكلمات التي ادعي أعجميتها في بحثه النفيس "معرّب القرآن عربي أصيل".

الثالث: لو سلمنا جدلاً بأن هذه الألفاظ أعجمية، فإن العرب لما استعملتها قد غيرت في حروفها وأوزانها إلى حروف العربية وأوزانهم، ولم تنقلها كما ينطقها أهلها، وبالتالي فهي ليست أعجمية بل هي عربية لدخول التغيير عليها.
قال الجواليقي :

"اعلم أنهم - أي العرب - كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية، إذا استعملوها، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً، وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً...، وربما غيروا البناء من الكلام الفارسي إلى أبنية العرب"^(١).

ويقول أحمد شاکر (ت ١٣٧٧هـ) :

"وأكثر الأعلام التي نقل العرب، وأوثقها نقلاً ما جاء في القرآن الكريم من أسماء الأنبياء وغيرهم، فلو شئنا أن نخرج منها معنى واحداً تشترك كلها فيه، بالاستقصاء التام، والاستيعاب الكامل، وجدنا فيها معنى لا يخرج عنه اسم منها، وهو أن الأعلام الأجنبية تنقل إلى العربية مغيرة في الحروف والأوزان، إلى حروف العرب وحدها، وإلى أوزان كلمهم أو ما يقاربها، وأنها لا تنقل أبداً كما ينطقها أهلها"^(٢).

(١) المعرّب للجواليقي (ص ٥٤) .

(٢) في تحقيقه لكتاب "المعرّب" للجواليقي (ص ٢٠) .

الفصل الثاني

جهود ابن قتيبة في أصول التفسير

وفيه ستة مباحث :

- المبحث الأول: معنى التفسير والتأويل ، والفرق بينهما .
- المبحث الثاني : التفسير بالرأي ، ضوابطه وحكمه .
- المبحث الثالث : أسباب الاختلاف في التفسير .
- المبحث الرابع : موقفه من زيادة الحروف في القرآن الكريم .
- المبحث الخامس : موقفه من تضمين الحروف .
- المبحث السادس : الحقيقة والمجاز .

المبحث الأول

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما

أولاً : التفسير في اللغة والاصطلاح .

التفسير لغة :

التفسير لغة على وزن تفعيل من الفَسَّرَ ، وهو يدل على معنى البيان والكشف والإظهار والإيضاح والتفصيل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾^(١) ؛ أي : بياناً وتفصيلاً .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"الفَسَّرَ : كلمة تدل على بيان الشيء وإيضاحه ، تقول : فَسَّرْتُ الشيءَ وَفَسَّرْتُهُ"^(٢) .
وجاء في اللسان : "الفَسَّرَ : البيان ، يقال : فَسَّرَ الشيءَ وَفَسَّرَهُ ؛ أي : أبانه ، والفَسَّرُ كشفُ المعطَى ، والتفسير : البيان ، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل"^(٣) .
وقال آخرون : هو مقلوب من "سَفَرَ" ، ومعناه أيضاً الكشف والإبانه ، تقول العرب : سَفرت المرأة سفوراً ؛ إذا أَلقت خمارها عن وجهها ، وأسفر الصبح : أضاء ، ومنه قيل للسفر سفر ؛ لأنه يسفر ويكشف عن أخلاق الرجال"^(٤) .

وفي هذا ضعف ، إذ دعوى القلب خلاف الأصل ، ولهذا قال الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)

:

"والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه"^(٥) .

(١) سورة الفرقان : ٣٣ .

(٢) مقاييس اللغة ، مادة "فسر" (٤/٥٠٤) .

(٣) لسان العرب ، مادة "فسر" (٥/٥٥) .

(٤) انظر : البرهان للزركشي (٢/١٤٧) ، بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (١/٧٨-٧٩) .

(٥) روح المعاني (١/٥) .

وذهب الراغب الأصفهاني (ت بعد ٤٠٠هـ) إلى التفريق بين الاشتقاقين ؛ فذكر أن الفسر والسفر يتقارب معناهما ، كتقارب لفظيهما ، لكنه جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول، وجعل السفر لإبراز الأعيان للبصائر^(١).

التفسير اصطلاحاً :

كثرت عبارات العلماء في تعريف التفسير ، واختلفت من حيث الإيجاز والإطناب والإجمال والتفصيل ، مع اختلافها في بعض المقاصد والتفاصيل^(٢)، من أحسنها ما ذكره فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ) :

"التفسير: بيان معاني القرآن الكريم"^(٣).

ثانياً : التأويل في اللغة والاصطلاح .

التأويل لغةً :

التأويل مصدر من باب التفعيل ، تقول : " أول يؤوّل تأويلاً ، وأصله من الأول ،

وهو الرجوع .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

" أول : الهمزة والواو واللام ، أصلان : ابتداء الأمر وانتهاءه ، أما الأوّل فالأوّل وهو مبتدأ الشيء ، والمؤنثة الأولى ، والأصل الثاني : قال الخليل : الأيّل الذكر من الوعول ، والجمع أيائل ، وإنما سمي أيلاً ؛ لأنه يؤوّل إلى الجبل يتحصن"^(٤) .

وبتأمل هذين الأصلين نجد أنهما متقاربان جداً ، ويشتركان في معنى الرجوع الذي نص عليه أهل اللغة ، فالأوّل من الأشياء يرجع إليه ما بعده مما تأخر عنه .

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص٤١٢، ٦٣٦) .

(٢) انظر : التسهيل لابن جزي (٦/١) ، البحر المحيط لأبي حيان (١٣/١) ، البرهان (١٣/١) ، التحبير للسيوطي (ص٣٧) ، التيسير في قواعد التفسير للكافيحي (ص١٢٤-١٢٥) ، مناهل العرفان (٤٧١/١) ، تفسير ابن عاشور (١١/١) .

(٣) أصول التفسير (ص٢٨) .

(٤) مقاييس اللغة ، مادة (أول) (ص٨١) .

قال ابن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ) : " آل الرجل عن الشيء ارتد عنه " (١) .

وقال الراغب (ت بعد ٤٠٠هـ) :

" التأويل من الأول أي الرجوع إلى الأصل ، ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه ، وذلك

هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً ، ففي العلم ، نحو - قوله تعالى - ﴿

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (٢) ، وفي الفعل - قوله تعالى - ﴿ هَلْ

يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ (٣) ، أي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه " (٤) .

ويأتي في اللغة بمعنى التفسير ، وهو غير بعيد عن الأصل الذي هو الرجوع ، لأن تفسير

الكلام رجوع به إلى مراد المتكلم .

قال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) :

" التأويل : التفسير والمرجع مصيره ، قال الأعشى (ت ٧هـ) :

على أنها كانت تأول حُبَّها تأول رُبْعِي السِّقَابِ فأصبحاً (٥)

قوله : تأول حبها : تفسيره ومرجه " (٦) .

وقال ابن جرير (ت ٣١٠هـ) : " وأما معنى التأويل في كلام العرب فإنه التفسير والمرجع

والمصير " (٧) .

وقال الجوهري (ت ٣٩٣هـ) : " التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء ، وقد أولته وتأولته

تأولاً بمعنى " (٨) .

(١) جمهرة اللغة (٤٨٢/٣) .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٣ .

(٤) المفردات (ص ٤٠) .

(٥) البيت في ديوانه (ص ١١٣) تأول : تفسر ، الربعي : هو ولد الناقة ينتج في الربيع ، السقاب : جمع سقب وهو ولد الناقة ساعة يولد ، أصحب : صار له كالصاحب . [لسان العرب ، مادة "ربع" (٩٩/٨) ، ومادة "أول" (٣٢/١١)] .

(٦) مجاز القرآن (١/٨٦) .

(٧) تفسير الطبري (٥/٢٢٢) .

(٨) الصحاح (٤/١٦٢٧) .

ونستخلص مما سبق : أن الأول في اللغة يدور حول معنى الرجوع ، وهذا يعني أن تأويل الكلام هو الرجوع به إلى مراد المتكلم ، وهو على قسمين :
أحدهما : بيان مراد المتكلم ، وهذا هو التفسير .

الثاني : العاقبة والمرجع والمصير الذي يؤول إليه الكلام ، أي ظهور المتكلم به إلى الواقع المحسوس ، فإن كان خبراً ، كان تأويله وقوع المخبر به ، وإذا كان طلباً ، كان تأويله أن يفعل هذا الطلب^(١).

التأويل اصطلاحاً :

يطلق لفظ "التأويل" في اصطلاح السلف على المعنيين السابقين في اللغة العربية ، وهما التفسير والعاقبة .

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"وأما التأويل في لفظ السلف ، فله معنيان :

أحدهما : تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا - والله أعلم - هو الذي عناه مجاهد (ت ١٠٢هـ) أن العلماء يعلمون تأويله ، ومحمد بن جرير الطبري يقول في "تفسيره" : القول في تأويل قوله كذا وكذا، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك، ومراده التفسير .

والمعنى الثاني في لفظ السلف : هو نفس المراد بالكلام ، فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به^(٢).

وقد جاء هذان المعنيان للتأويل - العاقبة والتفسير - عند الإمام ابن قتيبة :

١ . التأويل بمعنى التفسير .

سبق الإمام ابن قتيبة الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) في إطلاق لفظ "التأويل" على التفسير ، وقد ظهر ذلك جلياً في عشرات المواضع في "تفسير غريب القرآن" ، و"تأويل مشكل القرآن" ، فتجده يقول : "فأما تأويل قوله تعالى ..."^(٣) ، أو "وقوله تعالى : ... تأويله"^(١) ، أو "تأويل

(١) انظر : المفردات للراغب (ص ٤٠)، الإمام ابن تيمية وقضية التأويل ، د.محمد السيد الجنيد (ص ٣٦)، مفهوم التفسير

والتأويل ، د.مسعود الطيار (ص ٩١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨٨/١٣) .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٤٥٦) .

"تأويل الآية"^(٢)، أو "تأويل السورة"^(٣)، أو "وعلى هذا التأويل"^(٤)، ونحو ذلك من الألفاظ الصريحة في إطلاق "التأويل" على التفسير .

كما فسّر التأويل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(٥)، على أنه التفسير؛ فقال :

"وإذا جاز أن يعرفه - رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾، جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ، فقد علم علياً (ت ٤٠ هـ) رضي الله عنه التفسير ، ودعا لابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما : فقال: "اللهم علمه التأويل، وفقهه في الدين"^(٦) "^(٧) .

٢ . التأويل بمعنى العاقبة .

وقد جاء عند الإمام ابن قتيبة في تفسير بعض الآيات ، ومن ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾^(٨)؛ قال :

"أي هل ينتظرون إلا عاقبته ، يريد ما وعدهم الله من أنه كائن"^(٩) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ نُنزِعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾^(١٠)؛ قال :

"﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ، أي : وأحسن عاقبة"^(١١) .

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣١٢) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٦٣) .

(٣) المصدر السابق (ص ٤٢٦) .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٣٠٢) .

(٥) سورة آل عمران : ٧ .

(٦) سبق تخريجه (ص ٣٢٥) .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٩٩) .

(٨) سورة الأعراف : ٥٣ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ١٦٨) .

(١٠) سورة النساء : ٥٩ .

(١١) تفسير غريب القرآن (ص ١٣٠) .

ومثله قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّنَا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلًا ﴾^(١).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾^(٢)؛ قال: "تأويله أي: عاقبته"^(٣).

وقد بقي هذان المعنيان - العاقبة والتفسير - للتأويل عند السلف ، ولم يرد عنهم غيرهما ، حتى ظهر اصطلاح ثالث حادث لا أصل له في كتب اللغة المتقدمة ، ولم يستعمل في عصر السلف ، بل كان هذا الاصطلاح سبباً لوجود الخلط والتشويش وسوء الفهم لمقاصد النصوص^(٤).

والتأويل بالاصطلاح الحادث الذي استقر عليه الأصوليون هو : صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوح لقرينة تدل عليه^(٥).

وهذا الاصطلاح الحادث لا يمكن الحكم عليه إجمالاً ، بل لا بد من عرضه على الكتاب والسنة ، ومفهوم السلف الصالح، فما وافقها فهو مقبول؛ وما خالفها فهو مردود.

يقول ابن القيم (ت ٧٥١هـ) :

"وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلّت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقتها هو التأويل الصحيح ، والتأويل الذي يخالف ما دلّت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد"^(٦).

ثالثاً : الفرق بين التفسير والتأويل .

اختلف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل ، وتعددت أقوالهم في تحديد العلاقة بينهما ، وكانوا في ذلك على مذهبين :

(١) سورة الإسراء : ٣٥ ، وانظر : تفسير الآية في تفسير غريب القرآن (ص ٢٥٤) .

(٢) سورة يونس : ٣٩ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ١٩٧) .

(٤) انظر : درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام (٣٨٠/٥) .

(٥) انظر : البرهان للجويني (٥١١/١) ، المستصفى للغزالي (٣٨٧/١) ، روضة الناظر لابن قدامة (٥٦٣/٢) ، الإحكام

للأمدي (٥٩٩/٣) ، شرح مختصر الروضة للطوفي (٥٩٩/٣) .

(٦) الصواعق المرسلّة (١٨٧/١) .

أحدهما : من يرى أنهما بمعنى واحد ، وعليه الإمام ابن قتيبة - كما سبق - ، وقال به عدد من اللغويين ، كأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) ، وابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، وهو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير^(١) .

الثاني : من يرى التفريق بينهما ، وهم على فريقين :

أ . من يرى أن الاختلاف بالعموم والخصوص .

كالراغب الأصفهاني (ت بعد ٤٠٠هـ) ، الذي يقول :

"التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجُمَل كتأويل الرؤيا ، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها"^(٢) .

ب . من يرى أن الاختلاف بينهما بالتباين .

فقال بعضهم : التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والتأويل ترجيح أحد

المحتملات بدون قطع^(٣) .

وقيل : التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية^(٤) .

وذهب بعضهم إلى أن التفسير للمعنى الظاهر ، والتأويل للمعنى الباطن^(٥) .

وقيل : إن التفسير يؤخذ من وضع العبارة ، والتأويل يستفاد من طريق الإشارة^(٦) .

والذي يظهر لي - والله أعلم - أنه لا تعارض بين هذه الأقوال في الفرق بين التفسير

والتأويل ، وأن كل قول من هذه الأقوال يُعبّر عن نوع من أنواعهما .

وعلى كُلِّ فإن التفسير والتأويل مرجعهما واحد ، إذ التأويل إرجاع الكلام إلى أصله ،

ورُدّه إلى الغاية المرادة منه ، ولا يتم هذا إلا بتفسير الكلام وبيانه والكشف عن معناه ، والواقع

والتطبيق العملي لا سيما عند المتقدمين يشهد لهذا ويشير إلى أن التفسير والتأويل بمعنى واحد .

ولهذا قال الألويسي (ت ١٢٧٠هـ) بعد أن ذكر الأقوال في الفرق بينهما :

(١) انظر : مجاز القرآن لأبي عبيدة (٨٦/١) ، تفسير الطبري (١٠٩/١) ، البرهان (١٦٤/٢) .

(٢) المفردات (ص ٦٣٦) ، وانظر : الإتيقان (٢٢٦١/٦) .

(٣) وهو قول أبي منصور الماتريدي ، انظر : الإتيقان (٢٢٦٢/٦) .

(٤) وهو قول الخازن في تفسيره (١٢/١) ، والذهبي في التفسير والمفسرون (١٨/١) .

(٥) وهو قول الثعلبي في الكشف والبيان (٨٧/١) .

(٦) ذكره الألويسي في روح المعاني (١٧/١) .

"وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة ، فلا أظنك في مرية من ردّ هذه الأقوال ، أو بوجه ما ، فلا أراك ترضى إلا أن في كل كشف إرجاعاً ، وفي كل إرجاعٍ كشفاً ، فافهم"^(١).

^(١) المصدر السابق (١٨/١) .

المبحث الثاني

التفسير بالرأي : ضوابطه وحكمه

التفسير بالرأي - أو بالدراية - هو ما كان اعتماد المفسر فيه على الاجتهاد والاستنباط^(١)، ويقابله التفسير بالمأثور - أو بالرواية - المعتمد على الرواية والنقل .
والتفسير بالرأي كثر فيه الخلاف وطال الجدل بين مجيزيه وبين منكريه ، مع تعدد الأدلة وتنوعها عند الفريقين .

أ . فقد استدل المانعون للتفسير بالرأي بأدلة ؛ منها :

١ . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّهُ

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾^(٢)، قالوا : دلّ هذا على المنع ، إذ التفسير بالرأي قولٌ على الله بلا علم .

٢ . ما جاء عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم ،

قال : "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"^(٣)، وفي رواية "من قال في القرآن برأيه"^(٤) .

٣ . ما جاء عن الصحابة والتابعين من النهي عن التفسير بالرأي ، والتحرج من القول في

التفسير ، ومن ذلك :

(١) انظر : التفسير والمفسرون للذهبي (١/١٨٣)، أصول التفسير وقواعده للعك (ص١٦٧) .

(٢) سورة الإسراء : ٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن ، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ح(٢٩٥٠) (ص١٩٤٨)، وقال : "هذا حديث حسن صحيح" ، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" في فضائل القرآن ، باب من قال في القرآن بغير علم ح(٨٠٨٤) (٣٠/٥) ، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٣٣)، وضعفه الألباني [ضعيف سنن الترمذي (ص٣١٣)] .

(٤) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" ، باب من قال في القرآن بغير علم ح(٨٠٨٥) (٣١/٥) .

ما جاء عن أبي بكر الصديق (ت ١٣هـ) ، رضي الله عنه حين سُئل عن قوله تعالى: ﴿ وَفَكَهَمَهُ وَآبَاً ﴾^(١) ، فقال : "أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم"^(٢).

وعن أنس بن مالك (ت ٩٣هـ) أنه سمع عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنهما يقول : " ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾^(٣٧) وَعِنْبًا وَقَضْبًا^(٣٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا^(٣٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا^(٤٠) وَفَكَهَمَهُ وَآبَاً ﴾^(٤١) ، قال : فكل هذا قد عرفناه ، فما الأب ؟ ثم نفض عصاً كانت في يده ، فقال : هذا لعمرُ الله التكلُّف ، اتَّبِعُوا ما تبين لكم من الكتاب "^(٤٢) .^(٤٣)
ب . أما المجيزون للتفسير بالرأي ، فقد استدلوا بأدلة منها :

١ . قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾^(٤٤) ، قالوا : ففي هذه الآية مدَحُ الله الذين يستنبطون المعاني والدلالات من الآيات ، وهم أولوا الألباب ، الذين يجتهدون في تفسير القرآن بأرائهم .

٢ . دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، لابن عباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما :
"اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"^(٤٥).

قالوا : ولو كان التفسير بالرأي ممنوعاً لما كان لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء فائدة .

٣ . استدلوا بأن الصحابة اختلفوا في تفسير القرآن على وجوهٍ فدلَّ على أنه من

(١) سورة عبس : ٣١ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه ح(٣٠٧٢٧) (٥١٢/١٠) ، والبيهقي في الكبرى ح(٧٥٥٦) (١٠١/٤) ، والطبري في تفسيره (٧٢/١) .

(٣) سورة عبس : ٢٧-٣١ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه ح(٣٠٧٢٩) (٥١٢/١٠) ، والحاكم في المستدرک ح(٣٨٩٧) (٥٥٩/٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤١/٣) .

(٥) انظر أدلة المانعين في : التفسير والمفسرون للذهبي (١٨٣/١) ، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين للخالدي (ص ٤١٥)

(٦) سورة النساء : ٨٣ .

(٧) سبق تخريجه (ص ٣٢٥) .

اجتهادهم^(١).

ويمكن الجمع بين هذين القولين بمعرفة نوعي التفسير بالرأي ؛ إذ ينقسم التفسير بالرأي قسمين :

أحدهما : ما كان مستنداً إلى أصول علمية من الشرع واللغة ، ووفق ضوابط دقيقة واضحة ، وهذا هو التفسير بالرأي المحمود ، وعليه تحمل أدلة المحيزين للتفسير بالرأي .
الثاني : التفسير بمجرد الرأي والهوى ، الذي لا يستند إلى نصوص الشريعة ، ولا يصدر فيه عن علم ولا دراية ، وهذا هو التفسير بالرأي المذموم ، وعليه تحمل أدلة المانعين للتفسير بالرأي^(٢).

وقد أشار الإمام ابن قتيبة لمثل هذا الجمع حين ردّ على النظام (ت ٢٣١هـ)، الذي ذكر قول أبي بكر (ت ١٣هـ) رضي الله عنه حين سئل عن آية من كتاب الله تعالى ، فقال: "أي سماء تظلي ، وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في آية من كتاب الله بغير ما أراد الله" ، ثم سئل عن الكلاله^(٣)؛ فقال : "أقول فيها برأبي ، فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأً فمني ، هي ما دون الولد والوالد"^(٤).

ثم قال النظام - طعناً في أبي بكر رضي الله عنه - : "وهذا خلاف القول الأول ، ومن استعظم القول بالرأي ذلك الاستعظام لم يُقدِّم على القول بالرأي هذا الإقدام حتى يُنفذ عليه الأحكام"^(٥).

ثم قال ابن قتيبة راداً على النظام ، ومبيّناً الجمع بين ما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه من النهي عن القول في القرآن بغير علم ، ومن القول في الكلاله برأيه :

(١) انظر أدلة المحيزين في : التفسير والمفسرون (١/١٨٧)، تعريف الدارسين (ص٤١٦)، بحوث في أصول التفسير ومناهجه ، د.الرومي (ص٧٩) .

(٢) انظر : تفسير القرطبي (١/٥٨) ، مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص١٠٧)، إعلام الموقعين لابن القيم (١/٨٣) .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً ﴾ [النساء: ١٢] .

(٤) أخرجه الدارمي في سننه ح(٢٩٧٢) (٢/٤٦٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه ح(٣٢٢٥٥) (١١/٤١٥)، والبيهقي في السنن الكبرى ح(١٢٦٢٩) (٦/٢٢٣)، والطبري في تفسيره (٦/٤٧٥) .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص١٧) .

"وأما طعنه على أبي بكر رضي الله عنه بأنه سئل عن آية من كتاب الله تعالى فاستعظم أن يقول فيها شيئاً ، ثم قال في الكلاله برأيه ؛ فإن أبا بكر رضي الله عنه سئل عن شيء من متشابه القرآن العظيم ، الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم؛ فأحجم عن القول فيه مخافة أن يفسره بغير مراد الله تعالى ، وأفتى في الكلاله برأيه ؛ لأنه أمرٌ ناب المسلمين واحتاجوا إليه في مواريثهم ، وقد أبيع له اجتهاد الرأي فيما لم يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيء ، ولم يأت له في الكتاب شيء كاشف ، وهو إمام المسلمين ومفزعهم فيما ينوبهم ، فلم يجد بُدّاً من أن يقول ، وكذلك قال عمر (ت ٢٣هـ)، وعثمان (ت ٣٥هـ)، وعلي (ت ٤٠هـ)، وابن مسعود (ت ٣٢هـ)، وزيد (ت ٥٥هـ) رضي الله عنهم حين سئلوا ، وهم الأئمة والمفزع إليهم عند النوازل ، فماذا كان ينبغي لهم أن يفعلوا عنده ، أيدعون النظر في الكلاله وفي الجدّ إلى أن يأتي هو وأشباهه ؛ فيتكلّموا فيهما؟" (١).

وإلى مثل هذا الجمع ذهب الطبري (ت ٣١٠هـ) (٢)، والنووي (ت ٦٧٦هـ) (٣)، وشيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) (٤)، وغيرهم .

يقول شيخ الإسلام بعد أن ساق أقوالاً عن الصحابة والتابعين في النهي عن التفسير بالرأي :

"فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف ، محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه . ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوالٌ في التفسير ، ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه .

وهذا هو الواجب على كلِّ أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك

يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَتَبَيِّنَنَّهٗ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ (١) (٢).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ٢٠) .

(٢) تفسير الطبري (٧٢/١) .

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٦٥) .

(٤) مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٧) .

ولهذا فقد جعل أهل العلم ضوابط لقبول التفسير بالرأي ، وسبق الحديث أن الإمام ابن قتيبة أشار إلى جملة من الضوابط التي ينبغي مراعاتها عند تفسير القرآن الكريم^(٣).

(١) سورة آل عمران : ١٨٧ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص١٠٧-١٠٨) .

(٣) انظر : (ص٣٤٩) من هذه الرسالة .

المبحث الثالث

أسباب الاختلاف في التفسير

أولاً : التمهيد .

إن الاختلاف بين أهل العلم المعترين في آرائهم واجتهاداتهم واقع وسائغ ، وليس هذا الاختلاف الذي نُهي عنه لأنه لم يكن عن هوى ووطن ، وليس عن سوء قصد وتعمد لمخالفة النصوص ، بل هو من سنن الله تعالى ، إذ جعل الناس متفاوتين في عقولهم وإدراكهم وفهمهم ، ومن ثمَّ يحصل الاختلاف في آرائهم .

وقد أشار الإمام ابن قتيبة لهذه القضية في مقدمة "إصلاح غلط أبي عبيد" ؛ فقال :
 "... على أنا لم نقل في ذلك الغلط أنه اشتمال على ضلالة ، وزيف عن سنة ، وإنما هو في رأي مضى به على معنى مستتر ، أو حرف غريب مشكل ، وقد يتعثر في الرأي جلة أهل النظر والعلماء المبرزون ، والخائفون لله الخاشعون ، فهؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم ، وهم قادة الأنام ومعادن العلم وينايع الحكمة ، وأولى البشر بكل فضيلة ، وأقربهم من التوفيق والعصمة ، ليس منهم أحد قال برأيه في الفقه إلا وفي قوله ما يأخذ به قوم ، وفيه ما يرغب عنه آخرون ، وكذلك التابعون ، والناس يختلفون في الفقه ، ويرد بعضهم على بعض في الحلال أنه حرام ، وفي الحرام أنه حلال ، وهذا طريق النجاة أو الهلكة ، لا كالغريب والنحو والمعاني التي ليس على الهائي فيها كبير جناح ، ... وعلماء اللغة أيضاً يختلفون وبينه بعضهم على زلل بعض ، ... ولا نعلم أن الله عزَّ وجل أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط ، وأماناً من الخطأ" (١).

ويؤكد في "تأويل مختلف الحديث" على أن الاختلاف أمر فطري ؛ فيقول :

"... لاختلاف الناس في عقولهم وإراداتهم واختياراتهم ؛ فإنك لا تكاد ترى رجلين متفقين حتى يكون كل واحدٍ منهما يختار ما يختاره الآخر ، ويرذل ما يرذله الآخر إلا من جهة

(١) إصلاح غلط أبي عبيد (ص ٤٤-٤٥) .

التقليد ، والذي خالف بين مناظرهم وهيأتهم وألوانهم ولغاتهم وأصواتهم وخطوطهم وآثارهم - حتى فرّق القائل بين الأثر والأثر وبين الأثر والذكر - هو الذي خالف بين آرائهم" (١).
وينقل في "عيون الأخبار" قصة ماعة بين المأمون ومرتب عاب على المسلمين اختلافهم،
يقول فيها :

"قال المأمون لمرتب إلى النصرانية : حَبَّرْنَا عن الشيء الذي أوحشك من ديننا بعد أنسك به واستيحاشك مما كنت عليه ؛ فإن وجدت عندنا دواءً دائك تعالجت به، وإن أخطأ بك الشفاء ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة ، وإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة وتعلم أنك لم تُقصر في اجتهاد ولم تفرط في الدخول من باب الحزم، قال المرتب : أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم، قال المأمون : لنا اختلافان : أحدهما كالإختلاف في الأذان، والتكبير في الجنائز ، والتشهد ، وصلاة الأعياد ، وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات ، ووجوه الفُتيا، وهذا ليس باختلاف ، إنما هو تحيُّرٌ وسعةٌ وتخفيفٌ من المحنة ، فمن أذن مثني وأقام مثني لم يُخطئ من أذن مثني وأقام فرادى ، ولا يتعايرون بذلك ولا يتعايرون ، والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت هذا الكتاب ، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل مُتَّفَقاً على تأويله كما يكون مُتَّفَقاً على تنزيله ، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلافٌ في شيءٍ من التأويلات ، وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغةٍ لا اختلاف في تأويل ألفاظها؛ ولو شاء الله أن يُنزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رُسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل، ولكننا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دُفع إلينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضلٌ ، وليس على هذا بنى الله الدنيا ، قال المرتب : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن المسيح عبدٌ ، وأن محمداً صادقٌ ، وأنك أمير المؤمنين حقاً" (٢).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٤) .

(٢) عيون الأخبار (٢/١٥٤) .

ثانياً : الأسباب العامة لاختلاف المفسرين .

أسباب اختلاف المفسرين - في الجملة - تعود إلى أمرين :

أحدهما : اختلاف فهوم المجتهدين من العلماء .

الثاني : خفاء الدليل أو الذهول عنه أو احتمالته أكثر من معنى .

إذاً فالخلاف منه ما يرجع إلى المجتهد ، ومنه ما يرجع إلى النص ، وقد أشار الإمام ابن

قتيبة لمثل هذا عند حديثه عن وقوع الاختلاف بين السلف رضوان الله عليهم وسببه؛ فقال :

"ونحن نقول أنه ليس بمنكر أن يخالف ابن الحنفية (ت ٨١هـ) ابن عباس (ت ٦٨هـ) ،

ويخالف عليّ (ت ٤٠هـ) عمر (ت ٢٣هـ) وزيد بن ثابت (ت ٥٥هـ) ابن مسعود (ت ٣٢هـ)

في التفسير وفي الأحكام ، وإنما المنكر أن يحكوا عن النبي صلى الله عليه وسلم خبرين مختلفين

من غير تأويل ، فأما اختلافهم فيما بينهم فكثير ، فمنهم من يعمل على شيء قد سمعه ،

ومنهم من يستعمل ظنه ، ومنهم من يجتهد رأيه ، ولذلك اختلفوا في تأويل القرآن ، وفي أكثر

الأحكام" (١).

ولهذا فقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) الاختلاف في التفسير على نوعين

:

الأول : اختلاف من جهة النقل .

الثاني : اختلاف من جهة الاستدلال .

يقول شيخ الإسلام - في بيان ذلك - :

"الاختلاف في التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير

ذلك، إذ العلم إما نقل مصدق ، وإما استدلال محقق" (٢).

ويقول - أيضاً - :

"والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل والذهول عنه ، وقد يكون لعدم سماعه ، وقد يكون

للغلط في فهم النص ، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح" (٣).

(١) تأويل مختلف الحديث (ص ١٩٤) .

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص ٤٨) .

(٣) المصدر السابق (ص ٤٧) .

ثالثاً : الأسباب الخاصة لاختلاف المفسرين .

أسباب اختلاف المفسرين كثيرة ، تناولها أهل العلم بالبيان والتفصيل ^(١) ، وقد نصّ الإمام ابن قتيبة على شيء من هذه الأسباب ، وهي كالتالي :

١ . اختلاف القراءات .

تعدد القراءات في الآية الواحدة ، وذلك باختلاف ضبط الكلمة القرآنية أو حروفها، قد يترتب عليه اختلاف في معنى تلك الكلمة وتفسيرها ، ومن ثمّ يختلف المفسرون في تفسيرها بناءً على الاختلاف في قراءتها .

مثال ذلك :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ^(١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا

سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ^(٢) ، فقد ورد في قوله : "سُكِّرَتْ" قراءتان :

فقرأ ابن كثير (ت ١٢٠هـ) : "سُكِّرَتْ" بالتخفيف ، فتكون بمعنى : أُخِذَتْ وَسُجِّرَتْ .

وقرأ الباقر "سُكِّرَتْ" بالتشديد ^(٣) ، فتكون بمعنى : سُدَّتْ .

يقول ابن قتيبة :

"سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا" - بالتشديد - عُشِيَتْ ، ومنه يقال : سُكِّرَ النهر إذا سُدَّ ،

والسُّكْرُ : اسم ما سَكَّرَتْ به ، وسُكِّرَ الشراب منه ، إنما هو الغطاء على العقل والعين .

وقرأ الحسن (ت ١١٠هـ) : "سُكِّرَتْ" ^(٤) - بالتخفيف - ، وقال : سُجِّرَتْ ^(٥) .

٢ . اختلاف وجوه الإعراب .

(١) انظر : هذه الأسباب في : أسباب اختلاف المفسرين ، د.محمد الشايع ، اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره، د.سعود الفهيسان ، اختلاف المفسرين : أسبابه وضوابطه ، د.أحمد الشرقاوي ، الاختلاف في التفسير: حقيقته وأسبابه، د.وسيم فتح الله، اختلاف السلف في التفسير بين التنظير والتطبيق ، محمد صالح سليمان (ص١٧٧-٢١٧)، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، د.فهد الرومي (ص٤١-٥٤)، فصول في أصول التفسير، د.مسعود الطيار (ص٥٥-٦٩)، أصول التفسير وقواعده للعك (ص٨٣-٩٠)، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين (ص٨١-١٢٠).

(٢) سورة الحجر : ١٤-١٥ .

(٣) انظر : المبسوط (ص٢٥٩)، النشر (٢/٢٢٦) .

(٤) انظر : إتخاف فضلاء البشر (٢/١٧٥) .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص٢٣٥) .

من أسباب اختلاف المفسرين الاختلاف في وجوه الإعراب ، ولا شك أن للإعراب تأثيره في المعنى - وقد سبق الحديث عن بيان الإمام ابن قتيبة لهذا الأثر^(١) - إذ تختلف المعاني باختلاف الإعراب ، ولذا عُدَّت معرفة الإعراب من شروط المفسر .
مثال ذلك :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ء كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(٢) .

فقد اختلف في الواو في قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، هل هي للعطف أم للاستئناف ؟ .

فمن قال بالوقف على الاسم الكريم "الله" ثم استئناف ما بعده ، يكون به المعنى أن المتشابه مما استأثر الله بعلمه ، وأن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، وإنما يؤمنون به .

ومن وصل وعطف ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، على الاسم الكريم ، كان المعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه^(٣) .
٣ . الاختلاف في مرجع الضمير .

يكون أحياناً في الآية الكريمة ضمير أو ضمائر ، فيختلف المفسرون في تعيين مرجع كل ضمير ، مما يبني عليه اختلاف المعنى والتفسير .
مثال ذلك :

قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾^(٤) .

فقد اختلف في مرجع الضمير في قوله : ﴿ فَمُلَاقِيهِ ﴾ ، فقيل : ملاق ربك ، وقيل : ملاق كدحك وعملك^(١) .

(١) انظر : (ص ٥٨٥) من هذه الرسالة .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

(٣) انظر : تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٠-١٠١) ، أسباب اختلاف المفسرين ، د. الشايع (ص ٧٢) .

(٤) سورة الانشقاق : ٦ .

وكلاهما صحيح محتمل ، فالإنسان سيلاقي ربه وعمله .
وقد أشار الإمام ابن قتيبة إلى الأسباب الثلاثة السابقة عند تفسير سورة الجن في "تأويل مشكل القرآن" ؛ فقال :

"في هذه السورة إشكال وغموض بما وقع فيها من تكرار "إِنَّ" واختلاف القراء في نصبها وكسرها ، واشتباه ما فيها من قول الله تعالى ، وقول الجن ، فاحتجنا إلى تأويل السورة كلها"^(٢).

ويعد تفسير الإمام ابن قتيبة لهذه السورة تطبيقاً موسعاً لأثر القراءات ، ووجوه الإعراب والإضمار في اختلاف المفسرين .

٤ . الحذف المحتمل في تقديره أكثر من معنى .

إذا وقع في الكلام حذف ، وكان المحذوف محتملاً في تقديره أكثر من معنى ، كان هذا سبباً في اختلاف المفسرين ، إذ يذكر كل مفسر أحد المعاني المحتملة التي يحتملها المحذوف .

وقد نصّ الإمام ابن قتيبة على هذا السبب بقوله :

"وقد يُشكل الكلام ويغمض بالاختصار والإضمار .

كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾^(٣) ، والمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، ذهب نفسك حسرة عليه ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء"^(٤).

ففي هذا المثال حذف جواب ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ ﴾ وتقديره كان سبباً للاختلاف بين المفسرين .

يقول ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) :

(١) انظر : تفسير الطبري (٢٤/٢٣٥)، تفسير البغوي (٨/٣٧٤)، تفسير ابن كثير (٨/٣٥٦) .

(٢) (ص٤٢٦) .

(٣) سورة فاطر : ٨ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص٢١٩) .

"فإن قيل : أين جواب ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ ﴾ ؟ . فالجواب : من وجهين ذكرهما الزجاج (ت ٣١١هـ) (١) .

أحدهما : أن الجواب محذوف ؛ والمعنى : أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله ؟ ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

والثاني : أن المعنى : أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهب نفسك عليهم حسرات ،

ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ (٢) (٣) .
٥ . الاشتراك اللفظي .

استعمال القرآن الكريم للألفاظ المشتركة الدالة على أكثر من معنى ، قد يكون سبباً لاختلاف المفسرين ، بسبب الاختلاف في المعنى المراد للفظ المشترك .

وقد نصّ الإمام ابن قتيبة على هذا السبب في "المسائل والأجوبة" ؛ فقال :

"وسألت هل تختلف العرب في الاسم الذي يحتمل معنيين ، فيظنُّ واحدٌ أحد المعنيين ،

ويظن آخرُ المعنى الآخر ؟

- فأجاب - وقد يقع هذا في جميع هذه الحروف ذوات الوجوه ، وإنما يُستدلُّ على معانيها بما يتقدم قبلها من الكلام ، ويتأخر ، وربما لم يُستدل بذلك ، فيحتاج حينئذٍ إلى التوقف ، كـ "القرء" هو في كلام العرب الحيض (٤) ، وهو الطهر أيضاً (٥) ، وإنما سمي الحيض قرءاً ، والطهر قرءاً ؛ لأن كل واحد منهما يأتي لوقت معلوم ، وكل شيء أتاكَ لوقت ، فقد

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/٢٦٤) .

(٢) سورة فاطر : ٨ .

(٣) زاد المسير (٦/٤٧٥) .

(٤) وقد فسّر عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم القرء في قوله تعالى : ﴿ وَالْمَطْلَقَتُ يَرَبِّصَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ

قُرُوءٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٨] ، بمعنى الحيض [تفسير الطبري (٤/٨٧)] .

(٥) وفسره بمعنى الطهر زيد بن ثابت وعائشة وابن عمر رضي الله عنهم [تفسير الطبري (٤/٩٦)] .

أُتَاكَ لِقْرَائِهِ وَقَارِئِهِ ، ومثل القرء قوله عز وجل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَّسَ ﴾^(١) ، يكون إذا أقبل^(٢) ،
ويكون إذا أدبر^(٣)«(٤)» .

(١) سورة التكوير : ١٧ .

(٢) وهو قول الحسن . [تفسير الطبري (١٦١/٢٤)] .

(٣) وهو قول ابن عباس وابن زيد [تفسير الطبري (١٦١/٢٤)] .

(٤) المسائل والأجوبة (ص ٥٥) .

المبحث الرابع

موقفه من زيادة الحروف في القرآن الكريم

مسألة "زيادة الحروف في القرآن الكريم" من المسائل التي بحثها أهل العلم من اللغويين والمفسرين والبلاغيين ، وقد أشار الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في "البرهان" إلى أن الأكثرين ينكرون إطلاق لفظ "الزائد" في كتاب الله ، ويسمونه التأكيد ، ومنهم من يسميه الصلة ، ومنهم من يسميه المقحم ، كما أشار إلى أن الزيادة واللغو من عبارة البصريين ، والصلة والحشو من عبارة الكوفيين .

ثم ذكر الخلاف حول وقوع الزائد في القرآن الكريم ؛ فقال :

"فمنهم من أنكروه ، قال الطرسوسي (ت ٧٥٨هـ)^(١) في العمدة : "زعم المبرد (ت ٢٨٥هـ) وثعلب (ت ٢٩١هـ) ألا صلة في القرآن ، والدّهماء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثبات الصلات في القرآن ، وقد وُجد ذلك على وجه لا يسع إنكاره فذكر كثيراً ، وعند ابن السراج (ت ٣١٦هـ)^(٢) ، أنه ليس في كلام العرب زائد ، لأنه تكلم بغير فائدة ، وما جاء منه حمّله على التوكيد"^(٣).

ثم أوضح أن مراد القائلين بالزيادة أنها زائدة من جهة الإعراب لا من جهة المعنى ، إذ تفيد معنى التوكيد ، وفي ذلك يقول :

(١) القاضي نجم الدين إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبدالواحد الطرسوسي الحنفي ، ولد ومات في دمشق ، وولي قضاءها ، له مصنفات كثيرة ؛ منها : "الإشارات في ضبط المشكلات" و"أنفع المسائل" ، توفي سنة ٧٥٨هـ . [الدرر الكامنة (٤٣/١) ، تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص ٨٩)] .

(٢) أبو بكر محمد بن سهل بن السري النحوي البغدادي ، المعروف بـ "ابن السراج" ، عالم بالأدب والنحو ، صحب المبرد وأخذ عنه العلم ، وإليه انتهت الرئاسة في النحو بعد المبرد ، وأخذ عنه الزجاجي والسيراfi والرماني ، له كتب ؛ منها : "الأصول في النحو" ، و"الاشتقاق" ، و"شرح كتاب سيبويه" ، توفي سنة ٣١٦هـ . [إنباه الرواة (٣/١٤٥) ، معجم الأدباء (١٩٧/١٨)] .

(٣) البرهان (٧٢/٣) .

"فإن مراد النحويين بالزائد من جهة الإعراب لا من جهة المعنى ، ... ومعنى كونه زائداً أن أصل المعنى حاصل بدونه دون التأكيد ، فبوجوده حصل فائدة التأكيد ، والواضع الحكيم لا يضع الشيء إلا لفائدة"^(١).

ويقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) متحدّثاً عن الفائدة من الزيادة :
 "ولا يذكر في القرآن لفظ زائد إلا للمعنى زائد ، وإن كان في ضمن ذلك التوكيد، ومما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُن لَّهُ مَفْزِعٌ لِّعِبَادِهِ إِذْ يَمُرُّونَ بِهِ لَنَمَكِّدَنَّهُمْ أَهْلًا نَّارًا ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصِيبُ مَن نَّذَمْنَا مِنْهُمُ لَأَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ قَلِيلًا مَّا نَذَكَّرُونَ ﴾^(٤) ، فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه ، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ، وقوة اللفظ لقوة المعنى"^(٥).

وجمهور أهل العلم من المفسرين والنحويين على جواز إطلاق لفظ الزائد في القرآن الكريم ، مع إقرارهم بأن الزيادة ليست لغواً من الكلام لا فائدة فيه - وحاشا أن يكون ذلك في القرآن - ، ولذلك يُقرن غالباً التصريح بالزيادة ببيان الغرض والفائدة منها^(٦).
 أما المنكرون لها فإنما ينكرون إطلاق لفظ "الزائد" في القرآن ويتحرجون منه ، ولا ينكرون أنها مزيدة من حيث لم تُقدّم لها من وظيفة نحوية ، ويُعبّرون عنها بالصلة أو التوكيد أو المقحم ، ومن ثمّ فالخلاف في هذه المسألة خلاف لفظي^(٧).

(١) المصدر السابق (٣/٧٢-٧٤).

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٣) سورة المؤمنون : ٤٠ .

(٤) سورة الحاقة : ٤٢ .

(٥) مجموع الفتاوى (١٦/٥٣٧) .

(٦) قال بالزيادة : سيبويه وأبو عبيدة والفراء والزجاج والنحاس ومكي بن أبي طالب وابن جنبي وابن هشام والزخشري وأبو حيان [مجاز القرآن لأبي عبيدة (٨/١)، معاني القرآن للفراء (١/٢٤٤)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/١٠٨)، إعراب القرآن للنحاس (١/٣٢٥)، مشكل إعراب القرآن لمكي (٢/٢٦٠)، سر صناعة الإعراب لابن جنبي (١/١٣٣)، الكشف (٤/٤١٢)، البحر المحيط (٨/١٦)، مغني اللبيب لابن هشام (١/٦٧)].

(٧) قال بأصالة الحروف وعدم زيادتها : الطبري والرازي وابن الأثير . [تفسير الطبري (٢/٢٣٤)، تفسير الرازي

(٧/٣١٢)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٣/١٧)].

أما إمامنا ابن قتيبة فحديثه وموقفه من هذه المسألة ذو قيمة عالية ، كيف لا ؟ وهو أول من عقد باباً خاصاً لهذه المسألة ، وفعل ذلك في مصنفين من مصنفاته :
أحدهما : "أدب الكاتب" عقد فيه باباً وسمه بـ "باب زيادة الصفات"^(١) ، تناول فيه مسألة زيادة الحروف ، فذكر جملةً من الآيات القرآنية والشواهد الشعرية ، وبيّن وجه زيادة الحروف فيها^(٢).

الثاني : "تأويل مشكل القرآن" أفرد فيه باباً للمسألة سمّاه "باب تكرار الكلام والزيادة فيه" ، تحدث فيه عن زيادة الحروف في القرآن الكريم ، فذكر من هذه الحروف التي قد تزداد في القرآن ثلاثة عشر حرفاً ؛ هي : "لا" ، و"الأ" ، و"الباء" ، و"من" ، و"اللام" ، و"الكاف" ، و"على" ، و"عن" ، و"إن" الثقيلة ، و"إن" الخفيفة ، و"إذ" ، و"ما" ، و"الواو" .
يقف عند كل حرف من هذه الحروف ، فيمثل لزيادته في القرآن ، وبيّن وجه الزيادة فيه ، وربما استشهد عليه من الشعر^(٣) .

ومن الأمثلة على ما ذكره في هذا الباب :

"و"من" قد تزداد في الكلام أيضاً ، كقوله : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾^(٤) ، أي ما أريد منهم رزقاً ، وكقول : ما أتاني من أحد ، أي أحد .

.... و"إن" الثقيلة تزداد ، كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا

لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(٥) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَلْمُوتَ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ﴾^(٦) .

وقال الشاعر :

إِنَّ الخليفةَ إِنَّ اللهَ سَرَبَلُهُ سَرَبَالٌ مُلْكٌ بِهِ تُرْجَى الخواتيم^(٧)

(١) الصفات هي الحروف باصطلاح الكوفيين [جمع الهوامع للسيوطي (١٩/٢)] .

(٢) أدب الكاتب (ص ٢٣٩-٢٤٠) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٦-٢٥٤) .

(٤) سورة الذاريات : ٥٧ .

(٥) سورة الكهف : ٣٠ .

(٦) سورة الجمعة : ٨ .

(٧) البيت لجرير ، وهو في ديوانه (ص ٤٣١) .

و"واو النسق" قد تزداد حتى يكون الكلام كأنه لا جواب له، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ^(١) ، والمعنى : قال لهم خزنتها ^(٢) .
كما قال بزيادة الحروف في "تفسير غريب القرآن" عند تفسيره بعض الآيات، ومن ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّكُمُ الْمُفْتُونُ ^(٣) ؛ قال :

"أي أيكم المفتون ؟ أي الذي فُتِنَ بالجنون ، والباء زائدة ، كما قال الراجز :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج ^(٤)

أي نرجو الفرج ^(٥) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ ^(٦) ؛ قال : "أي فبرحمة ، و"ما" زائدة ^(٧) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ^(٨) ؛ قال :

"أي : فيما لم نمكنكم فيه ، و"إن" بمعنى "لم" ، ويقال : بل هي زائدة ؛ والمعنى : مكنّاهم فيما مكنّاكم فيه ^(٩) .

وفي هذا المثال نجد الإمام ابن قتيبة حكم بأصالة الحرف في التفسير الأول، وقال بتضمينه معنى حرفٍ آخر ، ونقل في التفسير الثاني القول بزيادة الحرف .

(١) سورة الزمر : ٧٣ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٥٠-٢٥٣) .

(٣) سورة القلم : ٦ .

(٤) سبق توثيقه (ص ٤٨٦) .

(٥) تفسير غريب القرآن (ص ٤٧٧) .

(٦) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٧) تفسير غريب القرآن (ص ١١٤) .

(٨) سورة الأحقاف : ٢٦ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٤٠٨)، وانظر - للاستزادة - : (ص ٤٥، ١٠٣، ١٦٦، ١٧٧، ٢٩١، ٣٢٦، ٣٣٧،

٤٨٨، ٤٩٩) .

وفعل مثل هذا في تفسير قوله تعالى : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(١) ، ففي حديثه عن زيادة "الباء" ذكر هذه الآية شاهداً عليه ، وقال في تفسيرها : "أي يشربها"^(٢) .
وفي باب "دخول حروف الصفات مكان بعض" يستشهد بهذه الآية ، على وقوع "الباء" مكان "من" ، ويقول في تفسيرها : "أي يشرب منها"^(٣) .

(١) سورة الإنسان : ٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٤٨) .

(٣) المصدر السابق (ص ٥٧٥) .

المبحث الخامس موقفه من تضمين الحروف

التضمين لغة :

جاء في اللسان : "ضَمَّنَ الشَّيْءَ الشَّيْءَ أَوْدَعَهُ إِيَّاهُ ، كَمَا تُودَعُ الْوَعَاءُ الْمَتَاعَ ، وَالْمَيْتَ الْقَبْرَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ جَعَلْتَهُ فِي وَعَاءٍ فَقَدْ ضَمَّنْتَهُ إِيَّاهُ"^(١).

التضمين اصطلاحاً :

قال الزركشي (ت ٥٧٩٤هـ) :

"هو إعطاء الشيء معنى الشيء ، وتارة يكون في الأسماء ، وفي الأفعال ، وفي الحروف ، فأما في الأسماء فهو أن تضمّن اسماً معنى اسم ؛ لإفادة معنى الاسم جميعاً ، كقوله تعالى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾^(٢) ، ضمّن "حقيق" معنى "حريص" ؛ ليفيد أنه محقق بقول الحق وحريص عليه . وأما الأفعال فإن تُضمّن فعلاً معنى فعل آخر ، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً ؛ وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس من عادته التعدي به ، فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصحّ تعديّه به . واختلفوا أيهما أولى ، فذهب أهل اللغة وجماعة من النحويين إلى أن التوسع في الحرف ، وأنه واقع موقع غيره من الحروف أولى .

وذهب المحققون إلى أن التوسع في الفعل وتعديته بما لا يتعدى لتضمنه معنى ما يتعدى بذلك الحرف أولى ؛ لأن التوسع في الأفعال أكثر"^(٣).

وقد ظهر من كلام الزركشي أن العلماء في التضمين على مذهبين :

أحدهما : من يقول بتضمين الحروف ، ويسمونه "تناوب الحروف" أو "المرادفة" ، وعليه أكثر الكوفيين وغالب النحويين ، فهم يرون أن الحروف في العربية تأتي على أكثر من معنى ، ويقوم بعضها مقام بعض ، ومن ثمّ أجازوا تناوب الحروف .

(١) اللسان مادة "ضمن" (٢٥٧/١٣) .

(٢) سورة الأعراف : ١٠٥ .

(٣) البرهان : (٣٣٨/٣) .

وممن ذهب إلى هذا : الفراء (ت ٢٠٧هـ)^(١) ، والأخفش (ت ٢١٥هـ)^(٢) ، والمبرد (ت ٢٨٥هـ)^(٣) ، والزجاج (ت ٣١١هـ)^(٤) ، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ)^(٥) ، وابن مالك (ت ٦٧٢هـ)^(٦) ، وابن هشام (ت ٧٦١هـ)^(٧) .

ويعدّ الإمام ابن قتيبة من أصحاب هذا الاتجاه ، فقد عقد باباً في "تأويل مشكل القرآن" وسمه بـ "باب دخول حروف الصفات مكان بعض"^(٨) ، وباباً آخر في "أدب الكاتب" أسماه "باب دخول بعض الصفات مكان بعض"^(٩) – وهذان البابان من أوائل الأبواب المفردة لهذا الموضوع – ، تحدث فيهما عن نيابة كثير من الحروف ، فيذكر أن حرفاً يأتي بمعنى آخر ، ثم يُمثّل له من القرآن الكريم ومن شعر العرب ونثرها ، ومن الأمثلة على ذلك :

"في" مكان "على" . قوله تعالى : ﴿وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(١٠) ، أي على جذوع النخل . وقال عنتره :

يُحْدَى نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بَتَوَامٍ^(١١) بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ

أي على سرحة من طوله .

"إلى" مكان "على" .

(١) معاني القرآن (٢١٨/١) .

(٢) شرح التسهيل (١٣٦/٣) .

(٣) الكامل (١٠٠/٢) ، المقتضب (٣١٨/٢) .

(٤) إعراب القرآن (٨٠٦/٣) .

(٥) الصاحبي (ص ١١٤) .

(٦) شرح التسهيل (١٣٦/٣) .

(٧) معني اللبيب (٧٦٢/٢) .

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٦٧-٥٧٨) .

(٩) أدب الكاتب (ص ٢٣١-٢٣٩) .

(١٠) سورة طه : ٧١ .

(١١) البيت في ديوانه (ص ٢١٢) ، جاء في اللسان مادة "سبت" (٣٦/٢) : "السَّبْتُ: كل جلد مدبوغ ، مدحه بأربع خصال كرام : إحداها أنه جعله بطلاً أي شجاعاً، الثانية: أنه جعله طويلاً شبهه بالسرحة – ضرب من الشجر – ، الثالثة : أنه جعله شريفاً للبس به نعال السَّبْتِ ، الرابعة : أنه جعله تام الخلقِ نامياً ، لأن التوأم أنقص خَلْقاً وعقلاً وخُلُقاً" .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾^(١) ، أي مع أموالكم ، ومثله :
﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللَّهِ ﴾^(٢) ، أي مع الله .

والعرب تقول : الذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ إبْلٌ ، أي مع الذود .
"اللام" مكان "إلى" .

قال الله تعالى : ﴿ يَا نَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾^(٣) ، أي أوحى إليها .

وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾^(٤) ، أي إلى هذا .

يدلك على ذلك قوله في موضع آخر : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾^(٥) ، وقوله :

﴿ وَهَدَنَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٦)^(٧) .

كما قال بتناوب الحروف عند تفسيره الآيات في "تفسير غريب القرآن" ، ومن الأمثلة
على ذلك :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾^(٨) ؛ قال :

"أي : ويزيدون ، و"أو" بمعنى "الواو" "^(٩) .

(١) سورة النساء : ٢ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٢ .

(٣) سورة الزلزلة : ٥ .

(٤) سورة الأعراف : ٤٣ .

(٥) سورة النحل : ٦٨ .

(٦) سورة النحل : ١٣ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٥٦٧-٥٧٣) .

(٨) سورة الصافات : ١٤٧ .

(٩) تفسير غريب القرآن (ص ٣٧٥) ، وانظر - للاستزادة - : (ص ١١٨ ، ١٦٧ ، ٢٢٥ ، ٣٧٩ ، ٤٠٨ ، ٤٦٤ ، ٥٣٤)

المذهب الثاني :

من يذهب إلى أن الحروف لا ينوب بعضها عن بعض ، ويقول بتضمين الأفعال ، أي أن الفعل قد تضمّن معنى فعل آخر ، وحرف الجر مسوق لإتمام معنى هذا الفعل، وعليه أكثر البصريين .

وممن ذهب إلى هذا : ابن جني (ت ٣٩٢هـ)^(١) ، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)^(٢) ، وابن الشجري (ت ٥٤٢هـ)^(٣)(٤) ، وابن العربي (ت ٥٤٣هـ)^(٥) ، وابن عصفور (ت ٦٦٩هـ)^(٦)(٧) ، وأبو حيان (ت ٧٤٥هـ)^(٨) ، وابن القيم (ت ٧٥١هـ)^(٩) .

وانتصر شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) لهذا المذهب ؛ فقال :

"والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض

الحروف تقوم مقام بعض ، كما يقولون في قوله : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾

^(١٠)، أي : مع نعاجه ، و﴿مَنْ أَنْصَارِيٍّ إِلَىٰ اللَّهِ﴾^(١١) ، أي : مع الله ونحو ذلك . والتحقيق ما

قاله نحاة البصرة من التضمين ، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه ، وكذلك قوله

(١) الخصائص (١/١٩٤) .

(٢) الكشاف (٢/٣٧٢) .

(٣) أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة العلوي النحوي ، المعروف بـ "ابن الشجري" ، عالم بالنحو واللغة ، قال أبو البركات ابن الأنباري : "كان الشريف ابن الشجري أنحى من رأينا من علماء العربية" ، له تصانيف كثيرة ؛ منها : "الأمالي" ، و"الحماسة" ، و"ما اتفق لفظه واختلف معناه" ، توفي سنة ٥٤٢هـ . [نزهة الألباء (ص ٢٩٩) ، بغية الوعاة (٢/٣٢٤)] .

(٤) أمالي ابن الشجري (١/٢٢٣) .

(٥) أحكام القرآن (١/١٧٧) .

(٦) أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي ، المعروف بـ "ابن عصفور" ، عالم أديب نحوي ، حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس ، له مصنفات ؛ منها : "المتع في التصريف" ، "شرح جمل الزجاجي" ، و"المقرب" ، توفي بإشبيلية سنة ٦٦٩هـ . [بغية الوعاة (٢/٢١٠) ، شذرات الذهب (٧/٥٧٥)] .

(٧) شرح جمل الزجاجي (١/٥١٠) .

(٨) البحر المحيط (١/٦٠) .

(٩) بدائع الفوائد (١/٢١٤) .

(١٠) سورة ص : ٢٤ .

(١١) سورة الصف : ١٤ .

: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾^(١)، ضمن معنى يزيغونك ويصدونك ، وكذلك قوله : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾^(٢)، ضمن معنى نجيناه وخلصناه ، وكذلك قوله: ﴿ عَمَّا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾^(٣)، ضمّن يُروى بها، ونظائره كثيرة^(٤).

(١) سورة الإسراء : ٧٣ .

(٢) سورة الأنبياء : ٧٧ .

(٣) سورة الإنسان : ٦ .

(٤) مجموع الفتاوى (٣٤٢/١٣) .

المبحث السادس

الحقيقة والمجاز

المطلب الأول : معنى الحقيقة والمجاز .

أولاً : تعريف الحقيقة والمجاز لغة واصطلاحاً .

الحقيقة لغة :

الحقيقة من الحق وهو نقيض الباطل ، يقال : حق الشيء يحق حقاً وحقيقة ، إذا وجب وثبت^(١) .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

" حق : الحاء والقاف أصل واحد ، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته ، فالحق نقيض الباطل ، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج وحسن التلفيق ، ويقال : حق الشيء : وجب"^(٢) .

الحقيقة اصطلاحاً :

عرّف ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، الحقيقة - كقسيم للمجاز - بأنها : " اللفظ المستعمل في موضوعه الأصلي"^(٣) .

فقوله " اللفظ المستعمل " احترز به عن شيئين :

أحدهما : اللفظ المهمل .

الثاني : اللفظ قبل الاستعمال ، حيث إنه لا حقيقة ولا مجاز .

وقوله : " في موضوعه الأصلي " احترز به عن المجاز ؛ لأنه لفظ يستعمل في غير

موضوعه الأصلي^(٤) .

(١) انظر : كتاب العين (ص ٢٠١) ، الصحاح (٤/١٤٦٠) ، لسان العرب (١٠/٤٩) ، القاموس المحيط (ص ١١٢٩) .

(٢) مقاييس اللغة (ص ٢٢٧) ، مادة (حق) .

(٣) الروضة (٢/٥٤٩) .

(٤) انظر : الأصول من علم الأصول للشيخ العثيمين (ص ١٩) ، إتخاف ذوي البصائر (٣/١٤٢٢) .

وللأصوليين في تعريف الحقيقة اصطلاحاً أقوال متعددة ، وهي وإن كانت مختلفة الألفاظ ، إلا أنها متقاربة ، متحدة في أصل المعنى والمراد .

فمن تعريفاتهم للحقيقة ، أنها " اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً " (١) .

ومنها : " أنها كل لفظ يستعمل فيما وضع له من غير نقل " (٢) .

ومنها : " أنها ما أفيد بها ما وضعت له ، في أصل الاصطلاح الذي وقع التخاطب به " (٣) .

ولعلك تلحظ أن هذه التعريفات للحقيقة هي بناءً على تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ، فالقائلون بها مُقرُّون بوجود المجاز ، أما المنكرون للمجاز ، فالحقيقة عندهم تشمل الحقيقة والمجاز عند هؤلاء ، ويقولون بأن الكلام باقٍ على حقيقته ، والكلمة يفسرها سياقها، وقرينة لفظها (٤) .

ثانياً : تعريف المجاز لغة واصطلاحاً .

المجاز لغة :

المجاز مأخوذ من جاز يجوز جوازاً وجوازاً ، وهو العبور والانتقال من موضع إلى موضع آخر ، يقال : جاز المكان ، إذا سار فيه ، وأجازه أي قطعه ، وأجاز الشيء أنفذه، ومنه إجازة العقد ، إذا جعله جائزاً ماضياً على الصحة (٥) .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"جوز: الجيم والواو والزاء؛ أصلان: أحدهما : قطع الشيء ، والآخر وسط الشيء، فأما الوسط فجَوَز كل شيء وسطه ، والجوزاء : الشاة يبيض وسطها ، ... والأصل الآخر جُرِزَت الموضع: سرت فيه ، وأجزته : خلفته وقطعته ، وأجزته نفذته " (٦) .

(١) وهو تعريف الأمدي في الإحكام (٥٢/١) .

(٢) انظر : اللمع في أصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي (ص ٨) .

(٣) انظر : المعتمد لأبي الحسين البصري (١٧/١) .

(٤) انظر : الإيمان (ص ١١٠) ، منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للشنقيطي (ص ٧) .

(٥) انظر : مادة (جوز) في العين (ص ١٦٣) ، الصحاح (٣/ ٨٧٠) ، لسان العرب (٣٢٦/٥) .

(٦) مقاييس اللغة (ص ٢١٣) .

والجهاز من الأصل الأول ، وهو قطع الشيء وعبوره ، سمي بذلك لأنه لفظ جائز من موضوعه الأصلي إلى غيره^(١) .

المجاز اصطلاحاً :

عرّفه ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) بقوله: " هو اللفظ المستعمل في غير موضوعه على وجه يصح"^(٢) .

وعرّفه أبو الحسين البصري (ت ٤٦٣هـ) بأنه : " اللفظ المستعمل في غير ما وضع له "^(٣) .

وقال عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) : " وأما المجاز : فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها ، لملاحظة بين الثاني والأول "^(٤) .

وقال الرازي (ت ٦٠٦هـ) : " والمجاز ما أفيد به معنى مصطلح عليه على غير ما اصطُح عليه في أصل تلك المواضع التي وقع التخاطب بها لعلاقة بينه وبين الأول "^(٥) .

وعرّفه الإسنوي (ت ٧٧٢هـ) ، فقال : " المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، لمناسبة بينهما وتسمى العلاقة "^(٦) .

ومن خلال عرض هذه التعريفات ، يتبين أن أفضلها هو تعريف ابن قدامة رحمه الله^(٧) ، فقد جمع بين كونه مختصراً ، وبين كونه جامعاً مانعاً ، بالإضافة إلى أهمية القيد الذي زاده وهو قوله " على وجه يصح " ، للإشارة إلى أنه لا بد من توفر شروط المجاز .

(١) انظر : المحصول للرازي (٣٩٦/١) .

(٢) الروضة (٢٧٢/١ ، ٥٥٤/٢) .

(٣) المعتمد (١٧/١) .

(٤) أسرار البلاغة (ص ٣٥٠) .

(٥) المحصول (٣٩٧/١) .

(٦) التمهيد في تخرّيج الفروع على الأصول (ص ١٨٥) ، وانظر في تعريف المجاز : منتهى الوصول لابن الحاجب

(٣٤١/١) ، المستصفي للغزالي (ص ١٠٥) ، الإحكام للآمدي (٢٨/١) ، العدة لأبي يعلى (١٧٢/١) ،

التمهيد لأبي الخطاب (٧٧/١) ، شرح مختصر الروضة (٢٨/٢) ، جمع الجوامع للسبكي (٣٠٠/١) .

(٧) وهو الذي اختاره د. عبدالرحمن السديس في بحثه المجاز عند الأصوليين بين المحيزين والمانعين ، مجلة جامعة أم القرى،

العدد (٢٠) .

وعوداً على تعريف ابن قدامة ، نجد أنه قد احتز بقوله : " اللفظ المستعمل " عن شيئين

:

أحدهما : اللفظ المهمل .

الثاني : اللفظ قبل الاستعمال ، فإنه لا حقيقة ولا مجاز .

وقوله : " في غير موضوعه " أخرج الحقيقة ، لأنها اللفظ المستعمل في موضوعه

الأصلي^(١) .

وأحسن رحمه الله حين قيّد ذلك بقوله " على وجه يصح " مشيراً إلى أنه لا بد من توفر

شروط المجاز حتى يقال به ، ولهذا وجدناه - رحمه الله - سداً منيعاً في وجه أهل الزيغ والضلال

، الذين حادوا عن منهج السلف في الصفات ، والذين اتخذوا المجاز تكأةً للقول بتأويل

الصفات وتعطيلها ، وكتبه رحمه الله مليئة بردوده على هؤلاء .

ثالثاً : المجاز في القرآن الكريم .

اختلف العلماء في مسألة وقوع المجاز في القرآن الكريم على ثلاثة أقوال :

القول الأول :

أن المجاز واقع في اللغة والقرآن .

وهو قول جمهور العلماء من المفسرين والفقهاء والأصوليين واللغويين ، وعليه عامة

المتكلمين^(٢) .

قال الزركشي (ت ٧٩٤هـ) :

" وأما المجاز فاختلف في وقوعه في القرآن ، والجمهور على الوقوع ، ولو وجب خلو

القرآن من المجاز لوجب خلوه من التوكيد والحذف ، وتثنية القصص وغيره ، ولو سقط المجاز

من القرآن سقط شطر الحسن^(٣) .

(١) انظر : الأصول للعثيمين (ص ٢٠) ، إتحاف ذوي البصائر (٣/١٤٣٧) .

(٢) انظر : المعتمد (١/٢٤) ، الإحكام لابن حزم (٤/٤٣٨) ، العدة لأبي يعلى (١/١٧٢) ، الواضح في أصول الفقه لابن

عقيل (٤/٢٩) ، المحصول للرازي (١/٤٦٢) ، الإحكام للآمدي (١/٤٧) ، لباب المحصول لابن رشيقي (١/٢٨١) ،

المسودة (١/٣٦٧) ، البحر المحيط للزركشي (٣/١٨٥) ، البرهان (١/٢٧٢) ، تقريب الوصول لابن جزري (ص ٢٧٤) ،

الإتقان (٢/٧٥٣) ، شرح الكوكب المنير (١/١٩١) ، إرشاد الفحول (١/١٤٠) .

(٣) البرهان (٢/٢٥٥) .

وقال الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) :

"فإن وقوع المجاز وكثرته في اللغة العربية أشهر من نار على علم ، وأوضح من شمس النهار، ... وكما أن المجاز واقع في لغة العرب، فهو - أيضاً - واقع في الكتاب العزيز عند الجماهير وقوعاً كثيراً بحيث لا يخفى إلا على من لا يفرق بين الحقيقة والمجاز"^(١).

بل وزعم بعضهم كابن جني (ت ٣٩٢هـ): أن أكثر اللغة جارٍ على المجاز^(٢).

وقد حكم الجمهور على هذا الرأي بالشذوذ^(٣)، حتى قال ابن القيم (ت ٧٥١هـ) فيه:

"وهذا الرجل - ابن جني - ، وشيخه أبو علي - الفارسي النحوي - (ت ٣٧٧هـ) من كبار أهل البدع والاعتزال المنكرين لكلام الله تعالى وتكليمه ، فلا يكلم أحداً البتة ، ولا يحاسب عباده يوم القيامة بنفسه وكلامه ، وأن القرآن والكتب السماوية مخلوق من مخلوقاته، وليس له صفة تقوم به ، فلا علم له عندهم ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ، ... وهو خالق - عند هذا الضال المضل - وعالم مجازاً لا حقيقة ، والمجاز يصح نفيه ، فهو إذاً - عنده - لا خالق ولا عالم إلا على وجه المجاز ، فمن هذا خطؤه وضلاله في أصل دينه ومعتقدده في ربه وإلهه ، فما الظن بخطئه وضلاله في ألفاظ القرآن ولغة العرب ، فحقيق بمن هذا مبلغ علمه ونهاية فهمه أن يدعي أن أكثر اللغة مجاز ، ويأتي بذلك الهذيان"^(٤).

القول الثاني :

إنكار المجاز مطلقاً في اللغة والقرآن .

وهو قول أبي علي الفارسي^(٥) (ت ٣٧٧هـ) ، وأبي إسحاق الإسفراييني^(٦) (ت ٤١٨هـ) ،

وشيخ الإسلام ابن تيمية^(٧) (ت ٧٢٨هـ) ، وابن القيم^(٨) (ت ٧٥١هـ) ، ومن المتأخرين

(١) إرشاد الفحول (١٤١/١) .

(٢) الخصائص لابن جني (٤٤٧/٢) .

(٣) انظر : المحصول للرازي (٤٦٨/١) ، شرح الكوكب المنير (١٩١/١) .

(٤) مختصر الصواعق المرسله (ص ٣٢٣) .

(٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي (٣٦٦/١) .

(٦) الإيمان لابن تيمية (ص ٨٥) ، مختصر الصواعق المرسله (٢٧٣/٢) .

(٧) في كتابه "الإيمان" (ص ٨٣ وما بعدها) ، ورسالة "الحقيقة والمجاز" ضمن مجموع الفتاوى (٤٠٠/٢٠-٤٩٨) .

(٨) الصواعق المرسله (٦٣٢/٢ وما بعدها) ، مختصر الصواعق المرسله (٢٧١/٢ وما بعدها) .

الشنقيطي^(١) (ت ١٣٩٣هـ) ، وابن باز^(٢) (ت ١٤٢٠هـ) ، وابن عثيمين^(٣) (ت ١٤٢١هـ) .

يقول ابن القيم - بعد أن عقد فصلاً " في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية لتعطيل حقائق الأسماء والصفات وهو طاغوت المجاز " - :

"هذا الطاغوت لهج به المتأخرون ، والتجأ إليه المعطلون ، وجعلوه جنةً يتترسون بها من سهام الراشقين ، ويصدون به عن حقائق الوحي المبين"^(٤) .

وقال الشنقيطي :

"والذي ندين الله به ، ويلزم قبوله كل منصف محقق ، أنه لا يجوز إطلاق المجاز في القرآن مطلقاً على كلا القولين ، أما القول بأنه لا مجاز في اللغة أصلاً - وهو الحق - فعدم المجاز في القرآن واضح ، وأما على القول بوقوع المجاز في اللغة العربية فلا يجوز القول به في القرآن"^(٥) .

القول الثالث :

إنكار المجاز في القرآن وحده دون اللغة .

وهو قول داود الظاهري (ت ٢٧٠هـ)^(٦) ، وابنه أبي بكر (ت ٢٩٧هـ)^(٧) ، ومنذر ابن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥هـ)^(٨) - والذي صنّف مصنفاً في نفي المجاز عن القرآن - وابن خويز خويز منداد المالكي (ت ٤٠٠هـ)^(٩) ، وأبي عبدالله ابن حامد الحنبلي (ت ٤٠٣هـ)^(١٠) ، وغيرهم .

(١) في رسالته " منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز " ومذكرة أصول الفقه (ص ١٠٥) .

(٢) نقلاً عن : جناية التأويل الفاسد (ص ٨٠) .

(٣) شرح الأصول من علم الأصول (ص ١١٩) .

(٤) مختصر الصواعق المرسلّة (ص ٢٧١) .

(٥) منع جواز المجاز (ص ٧) .

(٦) انظر : البرهان (٢/٢٧٢) ، مختصر الصواعق المرسلّة (٢/٢٧٣) .

(٧) انظر : البرهان (٢/٢٧٢) ، الإيمان لابن تيمية (ص ٨٥) .

(٨) انظر : الإيمان (ص ٨٥) ، مختصر الصواعق المرسلّة (٢/٢٧٣) .

(٩) انظر : البرهان (٢/٢٧٢) ، الإتقان (٢/٧٥٣) .

(١٠) انظر : الإيمان (ص ٨٥) .

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

" وآخرون من أصحابه - أي الإمام أحمد - منعوا أن يكون في القرآن مجاز كأبي الحسن الجزري ، وأبي عبدالله بن حامد ، وأبي الفضل التميمي ، وكذلك منع أن يكون في القرآن مجاز ، محمد بن خويز منداد ، وغيره من المالكية ، ومنع منه داود بن علي ، وابنه أبو بكر ، ومنذر بن سعيد البلوطي ، وصنّف فيه مصنفاً" (١) .

ولن أتوسع في إيراد أدلة كل فريق ، وما أورد عليه من مناقشة (٢) ، فجميع ما ذكر من أدلة ومن مناقشة لا يخلو من نظر ، ويظهر أن الخلاف فيما يتعلق بالأسلوب في أغلبه خلاف لفظي ، وعليه سأكتفي بتسجيل الملاحظات التالية :

أولاً : المستقرئ لكتب التفسير والأصول والبلاغة يجد أن العرب لم يعرف عنهم تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، ولم يتكلموا بلفظ المجاز الذي هو قسيم الحقيقة عند أهل الأصول ، وإنما هذا اصطلاح حدث بعد القرون المفضلة ، وأول من تكلم بلفظ " المجاز " هو أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠) ، حيث سمى كتابه " مجاز القرآن " ، وأكثر من استخدام هذا اللفظ في هذا الكتاب ، إلا أن أبا عبيدة لم يستخدم المجاز بمعناه المعروف عند الأصوليين ، بل قصد معناه اللغوي وهو توضيح الكلمة وتفسير معناها (٣) .

وبهذا المعنى اللغوي ورد لفظ المجاز عن الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) حيث قال : "أما قوله

: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (٤) ، فهذا في مجاز اللغة ، يقول الرجل للرجل : إنا سنجري عليك رزقك ،

(١) المصدر السابق (ص ٨٥) .

(٢) انظر هذه الأدلة : التمهيد لأبي الخطاب (٨٠/١) ، العدة (٧٠٠/٢) ، الواضح في أصول الفقه (٢٩/٤) ، الإحكام للآمدي (٤٧/١) ، لباب الحصول لابن رشيقي (٢٨١/١) ، المعتمد (٣١/١) ، الإيمان لابن تيمية (ص ٨٣-١١٤) ، مجموع الفتاوى (٤٠٠/٢٠-٤٩٩) ، الصواعق المرسله (٦٣٢/٢ وما بعدها) ، البحر المحيط للزركشي (١٨٥/٣) ، شرح الكوكب المنير (١٩١/١) ، منع جواز المجاز للشنقيطي ، المجاز في اللغة العربية والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع ، د. عبدالعظيم المطعني ، مقدمة في المجاز ، الشيخ عبدالمحسن العسكركر ، موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة ، د. سليمان الغصن (٤٤٥/١-٤٧٧) .

(٣) انظر : الإيمان (ص ٨٤) ، مختصر الصواعق المرسله (٢٧٢/٢) .

(٤) سورة الشعراء : ١٥ .

إنا سنفعل بك كذا" ^(١) ، وقد ظن بعض أتباعه كأبي يعلى (ت ٤٥٨هـ) ، وابن عقيل (ت ٥١٣هـ) ، أنه يقول بوقوع المجاز في القرآن مستنديين في ذلك على هذه العبارة ، وليس الأمر كذلك ، فإنه رحمه الله أراد المعنى اللغوي ، إذ المعنى الاصطلاحي لم يكن قد عرف في ذلك الوقت ، ويشهد لهذا قوله - بعد العبارة المذكورة مباشرة - : " وأما قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ^(٢) ، فهو جائز في اللغة ، يقول الرجل الواحد للرجل : سأجري عليك رزقك ، أو سأفعل بك خيراً" ^(٣) ، فإن قوله " فهو جائز في اللغة " مثل قوله " فهذا في مجاز اللغة " ^(٤) .

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

" وحكى بعض الناس عن أحمد في ذلك روايتين ، وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ، ولا من قدماء أصحاب أحمد : إن في القرآن مجازاً ، لا مالك (ت ١٧٩هـ) ، ولا الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ، ولا أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ) ، فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهر في المائة الرابعة ، وظهرت أوائله في المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً في المائة الثانية ، اللهم إلا أن يكون في أواخرها ، والذين أنكروا أن يكون أحمد وغيره نطقوا بهذا التقسيم ، قالوا : إن معنى قول أحمد : " من مجاز اللغة " ، أي مما يجوز في اللغة ، أي : يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم الذي له أعوان : نحن فعلنا كذا ونفعل كذا ، ونحو ذلك .
قالوا : ولم يُرد أحمد بذلك أن اللفظ استعمل في غير ما وضع له " ^(٥) .

أما أول من عرف عنه المجاز بمعناه الاصطلاحي المتأخر ، فهو الجاحظ - عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) - من المعتزلة ، كما يظهر من كتبه كالبيان والتبيين ^(٦) ، وكتاب الحيوان الذي عقد عقد فيه ثلاثة أبواب متوالية صدرها بكلمة (المجاز) ^(٧) .

^(١) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص ٦٧) .

^(٢) سورة طه : ٤٦ .

^(٣) الرد على الجهمية والزنادقة (ص ٦٨) .

^(٤) انظر : الإيمان (ص ٨٥) ، مختصر الصواعق المرسله (٢/٢٧٢) ، جنابة التأويل الفاسد (ص ٧٦) .

^(٥) الإيمان (ص ٨٥) .

^(٦) انظر : البيان والتبيين (١/١٥٣) .

^(٧) انظر : الحيوان (٥/٢٣-٣٤) .

وجاء بعد ذلك ابن جني (ت ٣٩٢هـ) فتوسع فيه وبالغ في إثباته وكثرته في اللغة، حتى قال: "اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة" (١).

وفي منتصف القرن الخامس الهجري بلغت الدراسات المتعلقة بالمجاز قمته على يد عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، والذي حمل لواء المجاز بقوة، وبذل جهداً مضمياً في إرساء قواعده، وإيضاح مواصفاته، وعلاماته وخصائصه، بل وزعم أن القول بالمجاز وتأويل الآي عن ظاهره عصمة من الضلال ونجاة من الشبه (٢).

ومن ثم شاع استخدام المجاز وذاع وتناوله كثير من الأصوليين على أنه شيء مسلم اقتضاه المنهج المتبع في التعامل مع مدلولات الألفاظ اللغوية، ومع النصوص الشرعية (٣).

ومن هنا يتبين أن مصطلح (المجاز) حادث بعد القرون المفضلة، وليس مشكلاً أن يكون المصطلح حادثاً؛ فكثير من الاصطلاحات التي تعارف عليها العلماء إنما حدثت بعد القرون المفضلة، ولكن المشكل هو عندما تقحم هذه المصطلحات الحادثة في أمور العقيدة إقحاماً، فتجني على أصل الإيمان، لأنها تحمل في طياتها نوعاً من الغموض والالتباس على عقول العوام من المسلمين، وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام بقوله:

"فالسلف والأئمة لم يذموا الكلام بمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة، بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه، لاشتغال هذه الألفاظ على معان مجملة في النفي والإثبات" (٤).

وقال: "وهذا الكلام المتشابه الذي يخدعون به جهال الناس، هو الذي يتضمن الألفاظ المتشابهة المجملة التي يعارضون بها نصوص الكتاب والسنة، وتلك الألفاظ تكون موجودة مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس، لكن بمعانٍ أخرى غير المعاني التي قصدوها هم بها، فيقصدون هم بها معاني أخرى، فيحصل الاشتباه والإجمال" (٥).

(١) الخصائص (٢/٤٤٧).

(٢) انظر: أسرار البلاغة (ص ٢٩١).

(٣) انظر: جناية التأويل الفاسد (ص ٧٧)، الأقوال الشاذة في التفسير، د. عبدالرحمن الدهش (ص ١٦٦).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١/٤٤).

(٥) المصدر السابق (١/٢٢٢).

ثانياً: مما يزيد الإشكال حول (المجاز)، ويوجب على المرء أن يقف منه موقف الحذر، أن الدراسات الخاصة به تعريفاً واستخداماً نشأت على يد المعتزلة كالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، وابن جني (ت ٣٩٢هـ) ، وتلقاه عنهم المتكلمون كالأشاعرة والمرجئة ، ومن نحا نحوهم ، فالجواز نشأ لخدمة مذهب عقدي ، ويظهر هذا من التلازم الوثيق بين القول بالمجاز ، وبين تحريف كثير من النصوص الشرعية عن معانيها الحقيقية ، وخصوصاً ما يتعلق منها بأسماء الله وصفاته ، وقلما تجد نصّاً لهؤلاء المبتدعة فيه تعطيل لصفات الخالق، وإنكاراً لحقائق أقواله وأفعاله سبحانه وتعالى، ولي لأعناق النصوص، وتضعيف لدلالات آيات الكتاب الحكيم ونصوص السنة المطهرة في قلوب عامة المسلمين ، إلا وتجد خلفه القول بالمجاز ، ولذا قال ابن القيم (ت ٧٥١هـ) في الفصل الذي عقده لبيان بطلان المجاز - " فصل في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية لتعطيل حقائق الأسماء والصفات ، وهو طاغوت المجاز " - وقال فيه :

" هذا الطاغوت لهج به المتأخرون ، والتجأ إليه المعطلون ، وجعلوه جنة يترسون بها من سهام الراشقين ، ويصدون به عن حقائق الوحي المبين " ، ثم أسهب في رد المجاز وإبطال القول به ، وأوصل ذلك إلى ما يزيد على خمسين وجهاً^(١) .

وقال الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) - في كلامه عن المجاز - :

" وبهذا الباطل توصل المعطلون إلى نفي صفات الكمال والجلال الثابتة لله تعالى في كتابه وسنة نبيه ﷺ ، بدعوى أنها مجاز ، كقولهم في " استوى " استولى ، وقس على ذلك غيره من نفيمهم للصفات عن طريق المجاز "^(٢) .

وهذه المفاسد العظيمة المترتبة على القول بالمجاز هي التي حملت كثيراً من المحققين على إنكار المجاز والقول ببدعيته .

يقول الشيخ عبدالمحسن العسكر - عن سبب إنكار شيخ الإسلام وابن القيم للمجاز

: -

"وأكبر ما دفعهما إلى ذلك أن طوائف من المعطلة من الجهمية والمعتزلة، وغيرهم أولوا أسماء الله وصفاته تأويلات مجازية تصرفها عن حقائقها ، معتمدين على القول بالمجاز، فاليد

(١) مختصر الصواعق المرسله (٢٧١/٢ وما بعدها) .

(٢) مذكرة أصول الفقه (ص ١٠٧) .

عندهم مستعملة في النعمة أو القدرة ، والاستواء في الاستيلاء ، والنزول في نزول أمر الله، ونحو ذلك ، فنفوا حقائق هذه الصفات الثابتة بالوحي ، عن طريق حملها على المجاز ، فأراد الشيخان إغلاق هذا الباب حين نفيا وجود المجاز "(١) .

ثالثاً : ذهب بعض أهل العلم كابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) إلى أن الخلاف في المجاز خلاف لفظي ، وفي ذلك يقول : - "ومن منع ذلك فقد كابر ، ومن سلّمه ؛ وقال: لا أسميه مجازاً ، فهو نزاع في عبارة لا فائدة في المشاحة فيه والله أعلم"(٢) .

والذي يظهر أن هذا ليس على إطلاقه ، فالخلاف في مسألة المجاز منه ما هو لفظي، ومنه ما هو حقيقي :

فيكون الخلاف لفظياً - كما ذكر ابن قدامة - حين يتعلق الأمر بالأسلوب ، فالذين أثبتوه وقالوا به يسمونه مجازاً ، والذين أنكروه إنما أنكروا التسمية بهذا الاسم ، ولم ينكروا وجود ألفاظ أو تراكيب في اللغة ليست على ظاهرها ، ويعدونه أسلوباً من أساليب اللغة العربية ، وبعضهم يقول : اللفظ إن دل بنفسه فهو حقيقة لذلك المعنى ، وإن دل بقرينة فدلالته بالقرينة حقيقية للمعنى الآخر ، فهو حقيقة في الحالين(٣) .

فهذا الأسلوب موجود في اللغة ولا يمكن إنكاره ، ولهذا يقول ابن قتيبة: "ولو قلنا للمنكر لقوله : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾(٤) ، كيف كنت أنت قائلاً في جدار رأيتته على شفا انخيار : رأيت جداراً ماذا ؟ لم يجد بُدّاً من أن يقول : جداراً يهم أن ينقض، أو يكاد أن ينقض ، أو يقارب أن ينقض ، وأياً ما قال فقد جعله فاعلاً ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم ، إلا بمثل هذه الألفاظ"(٥) .

وحيثئذ يتبين أن الخلاف من هذه الجهة خلاف لفظي ، كما ذكر ابن قدامة .

(١) مقدمة في المجاز (ص ٣) .

(٢) الروضة (٢٧٣/١) .

(٣) انظر : ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١٧٤/١) .

(٤) سورة الكهف : ٧٧ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٨٦) .

ولكن يصير الخلاف حقيقياً ، حين يتعلق الأمر بما ينتج عن القول بالمجاز وهو التأويل في النصوص الشرعية ، وخصوصاً ما يتعلق بالأسماء والصفات منها ، فمن هذه الجهة يظهر بجلاء أن الخلاف خلاف حقيقي ، ولو كان الكلام في المجاز لغوياً فحسب ، ولو كان مجرد اصطلاح لا يترتب عليه خوض في النصوص الشرعية ، لما حصل فيه كبير خلاف ، ولما احتدم فيه النقاش ، ولكن نتيجة لما يترتب على القول به من مفاصد عظيمة سارع المحققون من أهل العلم إلى تحقيق القول فيه ، وبينوا ضعف قواعده ، وقصور مباحثه ، ومن ثم قالوا بإنكاره .

ويتبين من خلال الملاحظات السابقة ، ومن خلال الأقوال والأدلة صعوبة الترجيح في هذه المسألة ، والأقرب ألا يقال بالجواز المطلق ، ولا بالإنكار المطلق ، ولكن يقال بالتفصيل : فيمنع المجاز فيما يتعلق بالاعتقاد والصفات ، والأحكام الشرعية لما يترتب عليه من لوازم غير صحيحة ، ويجوز في غير ذلك بشروطه وضوابطه^(١) .

ويظهر هذا التفصيل من كلام ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) ، حيث يقول :

" والذي نقول به وبالله التوفيق أن الاسم إذا تيقنا بدليل نص أو إجماع أو طبيعة أنه منقول عن موضوعه في اللغة إلى معنى آخر وجب الوقوف عنده ، فإن الله تعالى هو الذي علم آدم الأسماء كلها وله تعالى أن يسمي ما شاء بما شاء ، وأما ما دمنا لا نجد دليلاً على نقل الاسم عن موضوعه في اللغة ؛ فلا يحل لمسلم أن يقول إنه منقول ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾^(٢) ، فكل خطاب خاطبنا الله تعالى به ، أو رسوله ﷺ فهو على موضوعه في اللغة ومعهوده فيها ، إلا بنص ، أو إجماع ، أو ضرورة حس ، تشهد بأن الاسم قد نقله الله تعالى ، أو رسوله ﷺ عن موضوعه إلى معنى آخر ، فإن وجد ذلك أخذناه على ما نقل إليه ، وهذا الذي لا يجوز غيره ، ومن ضبط هذا الفصل وجعله نصب عينيه ولم ينسه ، عظمت منفعته جداً ، وسلم من عظام وقع فيها كثير من الناس .

(١) ورجح هذا التفصيل د. حازم حيدر في علوم القرآن بين البرهان والإتقان (ص ٣٠٩) ، ود. عبدالرحمن السديس في

المجاز عند الأصوليين بين المجيزين والممانعين ، مجلة جامعة أم القرى ، العدد (٢٠) .

(٢) سورة إبراهيم : ٤ .

فكل كلمة نقلها الله تعالى عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر فإن كان الله تعبدنا بما قولاً وعملاً كالصلاة والزكاة والحج والصيام والربا وغير ذلك ، فليس شيء من هذا مجازاً ؛ بل تسمية صحيحة واسم حقيقي لازم مرتب من حيث وضعه الله تعالى" (١) .
وبهذا التفصيل المذكور تطمئن النفس ، وتنتفي المفسد العظيمة المترتبة على القول بالمجاز ، والتي حملت العلماء على إنكاره ، وسيأتي أن الإمام ابن قتيبة يسير وفق هذا المنهج السديد .

المطلب الثاني : مفهوم المجاز عند ابن قتيبة .

اعتنى الإمام ابن قتيبة عناية فائقة بموضوع المجاز ، وكان سابقاً في بحثه له في ضوء القرآن الكريم ، فعقد له باباً في "تأويل مشكل القرآن" وسمه بـ "باب القول في المجاز".
وحديثه في هذا الباب ذو قيمة تاريخية ، إذ تعد دراسته للمجاز وتطبيقاته من اللبنة الأساسية التي بنى عليها البلاغيون من بعده .
وتبرز الأهمية البالغة لهذا الباب في كون الإمام ابن قتيبة يعد مع الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) - وإن اختلفا في الضوابط والتطبيقات - أول من انتقل بالمجاز من معناه اللغوي عند المتقدمين إلى المعنى الاصطلاحي كفن بلاغي .

ويمكن تحديد مفهوم المجاز عند ابن قتيبة من خلال النقاط التالية :

أولاً : عرض الإمام ابن قتيبة لموضوع "المجاز" وتوسع فيه في كتابه "تأويل مشكل القرآن"

لغرضين :

أحدهما : الرد على الطاعنين في القرآن عن طريق المجاز ، وهم الزنادقة الذين طعنوا في القرآن من جهة المجاز ، فزعموا أنه كذب ، وقد وصفهم ابن قتيبة بالجهل وسوء النظر، وردّ عليهم فقال :

"وأما الطاعنون على القرآن "بالمجاز" فإنهم زعموا أنه كذبٌ لأن الجدار لا يريدُ، والقريّة لا

تُسأل .

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٤/٤٣٧) .

وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلتها على سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم ، ولو كان المجاز كذباً ، وكلُّ فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً كان أكثر كلامنا فاسداً ؛ لأننا نقول: نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السَّعر .

والله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾^(١) ، وإنما يُعزم عليه ، ويقول تعالى : ﴿ فَمَا رَمَحَتْ بِجَدَرَتُهُمْ ﴾^(٢) ، وإنما يُرْمَحُ فيها ، ويقول : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾^(٣) ، وإنما كُذِّبَ به .

ولو قلنا للمُنكر لقوله : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾^(٤) ، : كيف كنت أنت قائلاً في جدارٍ رأيتَه على شفا انهيّار : رأيتَ جداراً ماذا ؟ لم يجد بُدّاً من أن يقول : جداراً يُهْمُ أن ينقضَّ ، أو يكاد أن ينقضَّ ، أو يقارب أن ينقضَّ ، وأياً ما قال فقد جعله فاعلاً ، ولا أحسبُه يصلُّ إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم ، إلا بمثل هذه الألفاظ .

وأنشدني السَّجِسْتَانِي (ت ٢٥٥هـ) عن أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) في مثل قول الله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ :

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيُرَغَّبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ^(٥) (٦)

الغرض الثاني : الرد على المعتزلة ومن نحا نحوهم ممن أوَّل آيات القرآن ، وصرف كثيراً منها إلى المجاز .

ولهذا صدرَّ باب المجاز بقوله :

"وأما المجاز فمن جهته غلط كثيرٌ من الناس في التأويل ، وتَشَعَّبَتْ بهم الطرق واختلفت النحل" (٧) .

(١) سورة محمد : ٢١ .

(٢) سورة البقرة : ١٦ .

(٣) سورة يوسف : ١٨ .

(٤) سورة الكهف : ٧٧ .

(٥) البيت غير منسوب في الصناعتين (ص ٢١٢) ، واللسان (٣/١٨٧) .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ١٣٢-١٣٣) .

(٧) المصدر السابق (ص ١٠٣) .

وقد عرض فيه لجملة من النصوص الشرعية التي حملها هؤلاء على المجاز ، وردّ عليهم ردوداً لغوية وعقدية تدل على نفي ما زعموه من المجاز فيها ، وتبين أنها على الحقيقة بخلاف ما تأوّلوه^(١) .

ولهذا فقد ذكر الإمام ابن قتيبة في هذا الباب جملة من الضوابط للقول بالمجاز - سيأتي بيانها إن شاء الله في المطلب القادم - .

ثانياً : يختلف مفهوم المجاز عند ابن قتيبة عن مفهومه عند اللغويين المتقدمين ، كأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) ، والذي يعني توضيح الكلمة وتفسير معناها . فابن قتيبة يقول بالمعنى الاصطلاحي للمجاز ؛ إذ يذهب إلى تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، وقد ظهر جلياً استعماله المجاز كقسيم للحقيقة في موضعين : أحدهما : قوله : "ولسنا نشك في أن القرآن في المصاحف على الحقيقة لا على المجاز"^(٢) .

الثاني : عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾^(٣) ؛ قال : "أي قولكم على التشبيه والمجاز لا على الحقيقة"^(٤) .

وبهذا يظهر أن الإمام ابن قتيبة كان أكثر تحديداً - ممن سبقه من اللغويين - مدلول كلمة "المجاز" ، إذ نقلها إلى المدلول البياني الذي بنى عليه البلاغيون بعد ذلك .

ثالثاً : يختلف - أيضاً - مفهوم المجاز عند ابن قتيبة عن مفهومه الاصطلاحي المتأخر عند البلاغيين .

فقد توسّع الإمام ابن قتيبة كثيراً في مفهومه للمجاز ، وعرفه فقال : "ومجازات الكلام طرق القول وما أخذه"^(٥) . أي فنون الكلام ، ثم بيّنها فقال :

(١) المصدر السابق (ص ١٠٦-١٢٣) .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٦) .

(٣) سورة الأحزاب : ٤ .

(٤) تفسير غريب القرآن (ص ٣٤٨) .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٠) .

"ففيها : الاستعارة ، والتمثيل ، والقَلْبُ ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، ولفظ العموم لمعنى الخصوص"^(١).

فجميع هذه الفنون في الكلام تدرج عند الإمام ابن قتيبة تحت مصطلح "المجاز" ، وكثير منها لا يدخل في مفهوم المجاز بالمعنى الاصطلاحي عند البلاغيين ، مما يدل على توسع ابن قتيبة في تعريفه ومفهومه للمجاز .

وله كامل العذر في ذلك ، فإن المفاهيم والتعاريف لأي فن من الفنون عند نشأته وبداياته غالباً ما تكون واسعة متداخلة مع غيرها ، ثم تكون بعد ذلك أكثر تحديداً وتمييزاً. ونخلص من هذا : أن المجاز عند ابن قتيبة ليس هو التفسير والجواز إلى المعنى - كما هو عند أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) - ، وإنما هو المجاز المقابل للحقيقة ، إلا أنه توسع فيه فأدخل فيه الكثير من الفنون البلاغية .

المطلب الثالث : ضوابط القول بالمجاز عند ابن قتيبة .

تنبه الإمام ابن قتيبة إلى خطورة المجاز ، ووقف على ضلالات المتكلمين في عصره وتأويلاتهم الباطلة نتيجة التوسع في المجاز ، وحمل النصوص العقديّة عليه ، ولهذا قال :
"وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل ، وتشعبت بهم الطرق واختلفت النحل"^(٢).

ولم يحمّله هذا على القول بنفي المجاز ، بل أثبتته وقرره من جهة اللغة ، إلا أنه ذكر من جهة اللغة - أيضاً - العلامات التي تميز بين الاستعمال المجازي والاستعمال الحقيقي. ولهذا حين عرض للنصوص الشرعية التي عطّلها المتكلمون بحجة حملها على المجاز ، فنّد قولهم فيها ، وذكر ضوابط هي من أصل اللغة تمنع وتسد الباب على من أراد تعطيل النصوص وهدر دلالتها بحجة المجاز .

(١) المصدر السابق (ص ٢٠) .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ١٠٣) .

وهذا يظهر الدور العظيم للإمام ابن قتيبة في البلاغة القرآنية ؛ إذ لم يقتصر دوره على التأسيس لبعض الفنون البلاغية في القرآن الكريم ، بل تميز - أيضاً - في وضع الضوابط والأسس في هذه المباحث البلاغية كي لا تهدر دلالات النصوص ، وهو الذي وقع فيه الكثير ممن توسع في البلاغة القرآنية .

فمن الضوابط التي ذكرها في باب المجاز ما يلي :

١ . أن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر .

٢ . أفعال المجاز لا تؤكد بالتكرار .

قرر الإمام ابن قتيبة أن الفعل إذا أُكِّدَ بمجيء مصدره معه أو بالتكرار فلا يكون حينئذ مجازياً ، بل يراد به حقيقته ، وبهذا ردّ الإمام على تأويل المعتزلة لكلام الله تعالى وحملهم له على المجاز ، وفي ذلك يقول :

"وذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز ، كقول القائل : قال الحائط فمال ، وقُلْ برأسك إليّ ، يريد بذلك الميلَ خاصة ، والقولُ فضل" (١) .

ثم أبطل تأويلهم مقررًا الضابطين السابقين ؛ فقال :

"إن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا تؤكد بالتكرار ، فتقول : أراد الحائط أن يسقط ، ولا تقول : أراد الحائط أن يسقط إرادةً شديدة ، وقالت الشجرة فمالت ، ولا تقول : قالت الشجرة فمالت قولاً شديداً ، والله تعالى يقول : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (٢) ، فوَكِّدَ بالمصدر معنى الكلام ، ونفى عنه المجاز .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣) ، فوَكِّدَ القول بالتكرار ، ووَكِّدَ المعنى بإثما" (٤) .

(١) المصدر السابق (ص ١٠٦) .

(٢) سورة النساء : ١٦٤ .

(٣) سورة النحل : ٤٠ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ١١١) .

فهنا يقرر الإمام ابن قتيبة أن الفعل الذي يؤتى بمصدره معه في الجملة ، أو يؤكد بالتكرار يراد به الحقيقة وليس المجاز .

٣ . الأصل حمل النصوص على الحقيقة ، ولا يجوز القول بالمجاز إلا بوجود القرينة الدالة على ذلك .

قرر الإمام ابن قتيبة أن آيات الصفات ومسائل الغيب كالجنة ، والنار ، وعذاب القبر ، ومسألة الملكين ، ونحوها من المسائل العقدية لا يدخلها مجاز البتة ، وردّ على من ادعى المجاز في هذه المسائل ؛ فقال :

"وأما تأويلهم في قوله جل وعزّ للسماء والأرض : ﴿ أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(١) : إنه عبارة عن تكوينه لهما . وقوله لجهنم : ﴿ هَلِ أَمْتَلَأْتِ وَقَوْلُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴾^(٢) ، إنه إخبار عن سعتها - فما يُجوجُ إلى التّعسف والتماس المخارج بالحيل الضعيفة ؟ وما ينفع من وجود ذلك في الآية والآيتين والمعنى والمعنيين - وسائر ما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ من هذ الجنس ، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه مُمتنع عن مثل هذه التأويلات ؟ وما في نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب ؟ والله تبارك وتعالى يُنطق الجلود ، والأيدي ، والأرجل ، ويُسخّر الجبال والطير ، بالتّسبيح ، فقال : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ يَجِبَالٌ أَوْيِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾^(٤) ، أي سبّحن معه ، وقال : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾^(٥) ، وقال في جهنم : ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾^(٦) ، أي تقطع غيظاً عليهم ، كما تقول : فلان يكاد ينقذ غيظاً عليك ، أي ينشق ، وقال : ﴿ إِذَا

(١) سورة فصلت : ١١ .

(٢) سورة ق : ٣٠ .

(٣) سورة ص : ١٩ .

(٤) سورة سبأ : ١٠ .

(٥) سورة الإسراء : ٤٤ .

(٦) سورة الملك : ٨ .

رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١﴾ ، وروي في "الحديث" أنها تقول : "قَطَّ قَطُّ" (٢) أي حسي، وهذا سليمان عليه السلام يفهم منطق الطير ، وقول النمل ... وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره البعير أنَّ أهله يُجِئُونَهُ وَيُدْبِئُونَهُ (٣) ، ... وبمثل هذا النظر أنكروا عذاب القبر، ومساءلة الملكين وحياة الشهداء عند ربهم يرزقون، وأنكروا إصابة العين ونفع الرُّقى ... وأخشى أن يكون معتقد هذا والقائل به ، يُرَقِّقُ عَنْ صَبْحٍ (٤) ، وَيُسْرِ حَسَوًا فِي فِي ارْتِعَاءٍ (٥) .

وما على من آمن بالبعث بعد الممات : أن يؤمن بعذاب البرزخ ، وقد خبر به رسول الله صلى الله عليه ، وقوله قاضٍ على الكتاب ؛ وبمسألة الله يوم القيامة : أن يؤمن بمسألة الملكين في القبر؟! .

فمن آمن بمحمد ، صلى الله عليه وسلم ، وبأنَّ ما جاء به الحقُّ ، آمنَ بجميع هذا ، وشرح صدره به ، ومن أنكره : - لأنه لا يؤمن إلا بما أوجبته النظر والقياس على ما شاهدَ ورأى في المواتِ والحيوان - فماذا بقى على المسلمين ؟ وأيَّ شيء ترك للملحدين؟ (٦) .

(١) سورة الفرقان : ١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير "سورة الحجرات" ، باب قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ح (٤٨٤٨) (ص٤١٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء ح (٧١٧٧) (ص١١٧٢) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه (ص٨٥٦) .

(٤) يضرب مثلاً لمن يجمع ولا يصح . [تهذيب اللغة ، مادة "صبح" (٢٦٧/٤)] .

(٥) قال ابن فارس في مقاييس اللغة ، مادة "حسو" (٥٨/٢) : "والعرب تقول في أمثالها : "هو يسر حسواً في ارتعاء" أي أنه يوهم أنه يتناول رغوة اللبن ، وإنما الذي يريده شرب اللبن نفسه ، يضرب ذلك لمن يمكر ، يظهر أمراً وهو يريد غيره" .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص١١٢-١٢٣) .

الفصل الثالث

دراسة تطبيقية على قواعد التفسير

عند ابن قتيبة

الفصل الثالث

دراسة تطبيقية على قواعد التفسير عند ابن قتيبة

تكمن أهمية القواعد في أنها تجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وتحّد الحدود الدقيقة للتطبيقات المتعددة ، يظهر ذلك من تعريف القاعدة اللغوي والاصطلاحي ، فابن فارس (ت ٣٩٥هـ) يجعل القاف والعين والدال أصلاً يضاهي الأساس ، فقاعدة البيت: أساسه ، وقواعد الهودج : هي الخشبات الأربع المعترضة في أسفله^(١).

وفي الاصطلاح : هي "الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يفهم أحكامها منها"^(٢).

وهذا الاصطلاح جارٍ في جميع العلوم لا يخص علماً بعينه ، إذ لكل علم قواعده، وقد أشار العلماء إلى أهمية هذه القواعد والكيليات ، وعلو شأنها ، يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ، ليتكلم بعلم وعدل ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت ؟ وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات ، وجهل وظلم في الكليات ، فيتولد فساد عظيم"^(٣).

من أجل هذا اهتم علماء كل فن بتقيد قواعده وضبط أصوله ، ومن ذلك قواعد التفسير التي عُني بها المفسرون عناية فائقة ؛ إذ "من عرف قواعد التفسير انفتح له من المعاني القرآنية ما يجلب عن الوصف وصار بيده آلة يتمكن بواسطتها من الاستنباط والفهم، مع ملكة ظاهرة تصيره ذا ذوق واختيار في الأقوال المختلفة في التفسير فيقوى على الفهم والاستنباط والترجيح"^(٤).

(١) مقاييس اللغة ، مادة "قعد" (١٠٨/٥) ، وانظر : تهذيب اللغة (١٣٦/١) ، لسان العرب (٣٥٧/٣) .

(٢) انظر : الأشباه والنظائر للسبكي (١١/١) ، شرح الكوكب المنير (٣٠/١) ، الكليات للكفوي (ص٧٢٨) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠٣/١٩) .

(٤) قواعد التفسير ، د.خالد السبت (٣٨/١) .

ولم يكن الإمام ابن قتيبة بدعاً من العلماء ، فقد عني بهذا الجانب ، وقد ظهر لي جملة من قواعد التفسير التي أعملها ابن قتيبة وسار وفقها في تفسير آيات القرآن الكريم^(١) ، وتفصيلها كالاتي :

القاعدة الأولى : جميع ظواهر نصوص القرآن مفهومة لدى المخاطبين .

لقد أنزل الله تعالى كتابه بلسان عربي مبين ، على رسول عربي مبين ، وخاطب به أول الأمر أمة عربية ، ومعلوم أن القرآن مقصود به الهداية والإرشاد ، فلزم أن يكون بيناً للأمة المخاطبة به كي تقوم الحجة وتنقطع المعذرة .

ولهذا قرر أهل العلم أن جميع ظواهر نصوص القرآن مفهومة لدى المخاطبين^(٢) ، وقد جلى هذه المسألة وفصلها شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ، وردّ على المخالفين لها من وجوه عدّة ، وفي ذلك يقول :

"والمقصود هنا : أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له ، ولا يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وجميع الأمة لا يعلمون معناه ، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين ، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ ، ... فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره ، وهذا مما يجب القطع به ، وليس معناه قاطع على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه ، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد (ت ١٠٤هـ) ، - مع جلالة قدره - والربيع بن أنس (ت ١٣٩هـ) ، ومحمد بن جعفر بن الزبير (ت ١١٠هـ) ، ونقلوا ذلك عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) .

قالوا : والدليل على ما قلناه إجماع السلف ، فإنهم فسّروا جميع القرآن ، وقال مجاهد : "وعرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها"^(٣) .

(١) هذه القواعد منها : ما نصّ عليه ابن قتيبة ، ومنها : ما استنبطته من صنيعه ، ولم ألتزم تطبيق القواعد التي ذكرها العلماء قديماً وحديثاً على كلام ابن قتيبة ، فإن هذا يحتاج جهداً كبيراً يستغرق رسالة أو يزيد .

(٢) انظر : البرهان للزركشي (٧٤/٢) ، الموافقات للشاطبي (٩١/٣) ، الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٦٣/١) ، طريق الوصول إلى العلم المأمول للسعدي (ص ١١٦) .

(٣) سبق تخريجه (ص ٣٢٤) .

وأيضاً فإنّ الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقاً ، ولم يستثن منه شيئاً لا يُتدبر ، ولا قال: لا تدبروا المتشابه ، والتدبر بدون الفهم ممتنع ، ولو كان من القرآن ما لا يُتدبر لم يعرف، فإن الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره

وأيضاً فالكلام إنما المقصود به الإفهام ، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثاً وباطلاً ، والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث ، فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم ، وهذا من أقوى حجج الملحدّين .

وأيضاً فما في القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها ، وبينوا ذلك

وأيضاً فإذا كانت الأمور العلمية التي أخبر الله بها في القرآن لا يعرفها الرسول، كان هذا من أعظم قدح الملاحظة فيه ، وكان حجة لما يقولونه من أنه كان لا يعرف الأمور العلمية ، أو أنه كان يعرفها ولم يبينها ، بل هذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها ، فإن ما لا يعلمه إلا الله لا يعلمه النبي ولا غيره .

وبالجملة : فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول : إن في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره ^(١) .

وكان إمامنا ابن قتيبة من أوائل من أشار إلى هذه القاعدة ، وذلك بقوله :
"ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم ، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى ، ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل به على معنى أراد .

فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال ، وتعلق علينا بعله ، وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المتشابه؟! .

وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٢) جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته .

(١) مجموع الفتاوى (٣٩٠/١٧-٣٩٩) .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

وبعد : فإننا لم نَرِ المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن ، فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمرؤه كله على التفسير ... " (١).

ولهذا لم نجد الإمام ابن قتيبة في جميع مصنفاته توقف عن تفسير شيء من القرآن، فقال: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله .

القاعدة الثانية : يجب حمل كلام الله على المعروف من كلام العرب دون الشاذ أو الضعيف أو المنكر .

يجب أن يفسر القرآن على أفصح الوجوه وأشهرها ، وأن يحمل على المعروف عند العرب من الأوجه المطردة دون الشاذة والضعيفة ، وعلى الأكثر استعمالاً دون القليل والنادر ؛ وذلك لأن القرآن الكريم أفصح الكلام ، ونزل على أفصح اللغات وأشهرها، فلا يعدل به عن ذلك كله وله فيها وجه صحيح (٢).

وقد نصّ على هذه القاعدة جمع من العلماء المحققين ؛ منهم : الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، القائل :

"إنما يوجه الكلام إلى الأغلب المعروف في استعمال الناس من معانيه ، دون الخفي، حتى تأتي بخلاف ذلك مما يوجب صرفه إلى الخفي من معانيه حجة يجب التسليم لها من كتاب ، أو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع من أهل التأويل" (٣).

وقال في موضع آخر : "وغير جائز حمل كتاب الله تعالى ووحيه - جل ذكره - على الشواذ من الكلام ، وله في المفهوم الجاري بين الناس وجه صحيح موجود" (٤).

وقال أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) :

"والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله على الظاهر والمعروف من المعاني إلا أن يقع دليل على غير ذلك" (٥).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٩٨-١٠١) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (٣٣٧/٦) ، إعراب القرآن للنحاس (١٣٢/٥) ، الإيمان لشيخ الإسلام (ص ١٠١) ، البرهان للزركشي (١٦٠/٢) .

(٣) تفسير الطبري (٣٣٧/٦) .

(٤) المصدر السابق (١٥٣/٤) .

(٥) إعراب القرآن (١٣٢/٥) .

وقال العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) :

"وعلى الجملة فالقاعدة في ذلك أن يحمل القرآن على أصح المعاني ، وأفصح الأقوال ، فلا يحمل على معنى ضعيف ، ولا على لفظ ركيك"^(١).

وكانت هذه القاعدة مقررة عند الإمام ابن قتيبة واستعملها كثيراً ، لا سيما في الرد على التأويلات الباطلة ؛ كرده لتأويل المعتزلة للفظ "الخليل" في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾^(٢) ، بالفقير ، وتأويلهم لـ "غوى" في قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾^(٣) ، بأنه من غوي الفصيل ، أي : اتخم من أكل الشجرة ، وفي ذلك يقول ابن قتيبة : "ونزهوا الله فيما زعموا من أن يكون خليلاً لمخلوقه لأن الخلة الصداقة ، فقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ، اتخذه فقيراً إليه وجعلوه من الخلة بنصب الخاء ، واحتجوا بقول زهير :

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألة
يقولُ لا غائبٌ ما لي ولا حرمٌ^(٤)

أي فقير ، فقبحاً لهذه العقول وهذا النظر ! أما سمعوا ويجهم بإجماع الناس جميعاً على أن الخلة بضم الخاء لإبراهيم ، وعلى أن موسى كلیم الله ، وإبراهيم خليل الله ، وعيسى روح الله ، فإن كان معنى خليل الله الفقير إلى الله فأی فضيلة لإبراهيم في هذا القول ، إذ كان الناس جميعاً فقراء إلى الله ...

وما أشبه هذا بقوله في : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ، أي بشم من أكل الشجر وذهبوا إلى قول العرب : غوى الفصيل إذا أتخم ، وهذا غوي يَغْوَى وذاك غَوَى يغوي بكسر الواو غياً ، ولو وجدوا في ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ مثل هذا التأويل لقالوه"^(٥).

(١) الإشارة إلى الإيجاز (ص ٢٢٠) .

(٢) سورة النساء : ١٢٥ .

(٣) سورة طه : ١٢١ .

(٤) البيت في ديوانه (ص ٦٠) .

(٥) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٩-١٢٠) .

القاعدة الثالثة : لا يجوز تفسير القرآن بما لا يعرف في لغة العرب .

لقد أنزل الله القرآن بلغة العرب ، وهذا يعني أنه جارٍ في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾^(١) ، ومن ثم لا يصح أن يفهم القرآن أو يفسر إلا من الطريق الذي نزل عليه ، وهو اعتبار لغة العرب ، وكل تفسير للقرآن بما لا يعرف في لغة العرب فهو مردود ، وبهذا تبطل تفسيرات الملاحدة والزنادقة المنسوبة لكتاب الله عزّ وجل ، كما تبطل العقائد الكلامية المخالفة لعقيدة السلف، والتي تكلف أربابها تحريف النصوص كي تكون موافقة لمذاهبهم^(٢).

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) : "ولا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من الألفاظ ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ، ولا يكون الأمر كذلك"^(٣).

وهذا ما قرره الإمام ابن قتيبة في أكثر من موضع ، لا سيما في "الاختلاف في اللفظ" ، إذ أكثر من استخدام هذه القاعدة في ردّ تأويلات أهل الباطل من المعتزلة والرافضة، مبيناً أن تأويلاتهم تلك لا تعرفها العرب ، ولم ترد في لغتهم ، وإنما حملهم عليها الهوى لموافقة مذاهبهم الباطلة .

ومن الأمثلة على ذلك :

ردّ تأويلهم الكرسي في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾^(٤) ، بمعنى العلم ، وفي ذلك يقول :

(١) سورة الزخرف : ٣ .

(٢) انظر : قواعد التفسير للسبت (١/٢٢٤)، أسباب الخطأ في التفسير ، د. طاهر يعقوب (ص ٩٨٨) .

(٣) مجموع الفتاوى (٧/١١٦) .

(٤) سورة البقرة : ٢٥٥ .

"وفسروا القرآن بأعجب تفسير يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم ، ويحملوا التأويل على نحلهم ، فقال فريق منهم في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ، أي: علمه ، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف ، وهو قول الشاعر :

ولا يكرسى علم الله مخلوق .

كأنه عندهم ولا يعلم علم الله مخلوق - والكرسي غير مهموز ، ويكرسى مهموز - يتوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسيًا أو سريراً ، ويجعلون العرش شيئاً آخر ، والعرب لا تعرف العرش إلا السرير ، وما عُرش من السقوف والآبار ، يقول الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾^(١) ، أي : على السرير"^(٢).

ويقول ابن قتيبة في ردِّ تأويل "ذراً" بمعنى "ألقينا" :

"وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾^(٣) ، دفعنا وألقينا ، وهذا جهل باللغة ، واحتج من احتج منهم بقول المثقّب العبدي حكايةً عن ناقتة :

تقولُ إذا ذرأت لها وضيبي أهذا دينه أبداً وديني^(٤)

وهذا جهل باللغة وتصحيف ، وإنما هو درأت بالبدال غير المعجمة ، والله يقول : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ ، بالبدال وأحسبهم سمعوا بقول العرب : "أذرته الدابة عن ظهرها" أي ألقته، فتوهّموا أن "ذرأنا" من ذلك ، وذرأنا في تقدير فعلنا غير مهموز ، ولو أريد ذلك المعنى لكان: "ولقد أذرينا لجهنم" ، وسمعوا بقولهم : ذرته الريح ، ويقول الله : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ ﴾^(٥) ، أي تنسفه وتلقيه فتوهّموه منه ، ولو أريد ذلك لكان : ولقد ذرونا لجهنم ، وليس يجوز

(١) سورة يوسف : ١٠٠ .

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص٤٦) .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٤) سبق توثيقه (ص٤٥٧) .

(٥) سورة الكهف : ٤٥ .

أن يكون ذرأنا في هذا الموضع إلا خلقنا ، كما قال : ﴿ ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾^(١) ، وقال : ﴿ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ﴾^(٢) ، أي يخلقكم في الرحم ، ومنه قيل ذريرة الرجل لولده ، وإنما هو خلق الله^(٣) .

القاعدة الرابعة : لا يجوز حمل كلام الله تعالى على مجرد الاحتمال النحوي أو اللغوي .

من الأخطاء الشائعة لا سيما عند أهل الباطل التفسير بمجرد الاحتمال حتى لو كان بعيداً ولا يسعفه سياق الآية .

يقول الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ) :

"لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ، ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ، ويكون الكلام به له معنى ما ، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن ؛ فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة ، ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق ، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره ، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر ، وكلام آخر ، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن ، ... فإن للقرآن عرف خاص ومعانٍ معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه ، والمعهود من معانيه ، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ ، بل أعظم ؛ فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها ، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قُدْرُ العالمين ، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها ، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به ، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم ، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي ، فتدبر هذه القاعدة ، ولتكن منك على بال ، فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها ، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه"^(٤) .

(١) سورة المؤمنون : ٧٩ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ١٠٣-١٠٤) .

(٤) بدائع الفوائد (٣/٨٧٦-٨٧٧) .

وكان الإمام ابن قتيبة فطناً لهذه القاعدة ، إذ بين في كثير من ردوده على أهل الباطل أنّ تأويلاتهم التي بنوها على مجرد الاحتمال اللغوي لا تصح ؛ إذ لا تسعفها ألفاظ الآية وسياقها . ومن ذلك تفسيرهم لكلام الله تعالى بمعنى الإلهام ، يقول ابن قتيبة ردّاً عليهم :

"وأما قول من قال منهم : إن قول الله - تعالى - للملائكة : ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾^(١) إلهام ، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ ﴾^(٢) ، أي إلهاماً ، فما ننكر أنّ القول قد يسمى وحياً ، والإيماء وحياً ، والرمز بالشفقتين والحاجبين وحياً ، والإلهام وحياً ، وكل شيء دللت به فقد أوحيت به ، غير أنّ إلهام النحل تسخيرها لاتخاذ البيوت ، وسلوك السُّبُل والأكل من كل الثمرات .

وأما قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ ، فالوحي الأول : ما أراه الله تعالى الأنبياء في منامهم . والكلام من وراء الحجاب : تكليمه موسى .

والكلام بالرسالة : إرساله الروح الأمين بالروح من أمره إلى من يشاء من عباده . ولا يُقال لمن ألهمه الله : كلمه الله ؛ لما أعلمتُك من الفرق بين "الكلام" و"القول" . ولا يجوز أن يكون قوله للملائكة وإبليس ، وطول مراجعته إياه في السجود ، والخروج من الجنة ، والنظرُ إلى يوم البعث إلهاماً ، هذا ما لا يُعقل ، وإن كان ذلك تسخييراً فكيف يُسخرُ لشيءٍ يمتنع منه؟^(٣) .

وفي تأويلهم لبيد بمعنى التّعمة ، بين ابن قتيبة أن هذا محتمل من جهة اللغة ، غير أنه لا يمكن حمل الآية عليه ، وفي ذلك يقول :

"وفعلوا في كتاب الله أكثر مما فعل الأولون في تحريف التأويل عن جهته ، فقالوا في قول الله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾^(٤) ، أن اليد ههنا النعمة .

(١) سورة البقرة : ٣٤ .

(٢) سورة الشورى : ٥١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١١-١١٢) .

(٤) سورة المائدة : ٦٤ .

وما ننكر أن اليد قد تتصرف على ثلاثة وجوه من التأويل أحدها النعمة ، والآخر القوة من الله : ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾^(١) ، يريد أولى القوة في دين الله ، والبصائر، ومنه يقول الناس : "ما لي بهذا الأمر يد" يعنون ما لي به طاقة ، والوجه الثالث : اليد بعينها، ولكنه لا يجوز أن يكون أراد في هذا الموضع النعمة لأنه قال : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ، والنعم لا تغلّ ، وقال : ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ، معارضة لمثل ما قالوا ، ولا يجوز أن يكون أراد : غلّت نعمهم ، ثم قال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٢) ، ولا يجوز أن يريد "نعمتاه مبسوطتان"^(٣) .

القاعدة الخامسة : ما كل ما جاز في العربية جاز في القرآن .

من المقرر عند العلماء أنه ليس كل ما جاز في العربية جاز في القرآن ؛ فالقرآن الكريم وإن كان عربياً إلا أنه أشرف لفظاً وأحسن عبارةً وأسلوباً ، وأفضل جملة من كل ما تلفظ به العرب ، ولهذا قد تصح بعض الأساليب في لغة العرب ، إلا أنها لا تجوز في القرآن الكريم، ولا ينبغي حمل التفسير عليها^(٤) .

يقول الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في معرض حديثه عما يتجنبه المفسر لكتاب الله:

"ولا يجوز فيه - أي القرآن - ما يجوزه النحاة في شعر امرئ القيس وغيره"^(٥) .

ولهذا وقف الإمام ابن قتيبة على بعض الأساليب العربية ، وبين أنها جائزة في لغة العرب ، إلا أنها لا تجوز أن تكون في كتاب الله تعالى ، أو أن يحمل عليها ، ومن الأمثلة على ذلك : عند حديثه عن القلب في اللغة ، ذكر من أقسامه : ما قُلب على الغلط ، ومثّل له بقول خدّاش بن زهير :

وَتُرْكَبُ حَيْلٌ لَا هَوَادَةَ فِيهَا وَتَعْصِي الرِّمَاحُ بِالضِّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ^(٦)

وقال : "أي : تعصي الضياطرة بالرمّاح ، وهذا ما لا يقع فيه التأويل ، لأن الرماح لا

(١) سورة ص : ٤٥ .

(٢) سورة المائدة : ٦٤ .

(٣) الاختلاف في اللفظ (ص ١١٢) .

(٤) انظر : قواعد التفسير للسبت (١/٢٤١)، قواعد الترجيح للحري (٢/٣٦٣) .

(٥) البرهان (١/٣٠٦) .

(٦) سبق توثيقه (ص ٥٦٨) .

تعصي بالضياطرة ، وإنما يعصي الرجال بها ، أي يطعنون" (١).

ثم نقل ابن قتيبة عن بعض اللغويين تأويلهم بعض الآيات على أنها من هذا القسم من القلب ، كقولهم في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ (٢) ، أنه وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام ، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم ؛ ثم قال :

"وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عزّ وجلّ لو لم يجد له مذهباً ، لأن الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط ، أو على طريق الضرورة للقافية ، أو لاستقامة وزن البيت ... ، والله تعالى لا يغلط ولا يُضطرّ" (٣).

ومن الأمثلة على إعمال هذه القاعدة عند ابن قتيبة ؛ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَن

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴾ (٤) ؛ قال :

"قال الفراء : وقد تكون في العربية جنة واحدة ، أنشدني بعضهم :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرَّتَيْنِ قَطَعْتُهُ بِالسَّمْتِ لَا بِالسَّمْتَيْنِ (٥)
يريدُ مَهْمَهَا واحداً وَسَمْتاً واحداً .

قال : وذلك للقوافي ، والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان ما لا يحتمله الكلام".

ثم ردّ ابن قتيبة هذا التفسير ؛ مبيناً أن هذا غير جائز أن يحمل عليه كتاب الله ، فقال :
"وهذا من أعجب ما حُمل عليه كتاب الله ، ونحن نعوذ بالله من أن نتعسف هذا التعسف ، ونجيز على الله جل ثناؤه الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية ... ، فأما أن يكون الله عزّ وجلّ وعد جنتين فيجعلهما جنة واحدة من أجل رؤوس الآي ، فمعاذ الله ، وكيف

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ١٩٨) .

(٢) سورة البقرة : ١٧١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٠٠-٢٠٣) .

(٤) سورة الرحمن : ٤٦ .

(٥) البيت غير منسوب في البيان والتبيين (ص ٩٦) ، واللسان (٤٦/٢) وفيه : "السَّمْت : الطريق ، ومعنى البيت : قطعته على طريق واحد لا على طريقين" ، ونسبه البغدادي في خزانة الأدب (٢٧٥/٢) لخطام المجاشعي ، ورواية البيت فيه : ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الثرسين .

يكون هذا، وهو تبارك اسمه يصفها بصفات الاثنين، فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾^(١)، ثم قال: ﴿فِيهِمَا﴾^(٢)^(٣).

القاعدة السادسة : كل تفسير خالف القرآن أو السنة فهو ردُّ .

من القواعد المتفق عليها عند سلف الأمة أن كل تفسير يخالف القرآن أو السنة فهو مردود على صاحبه^(٤).

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"ومن الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن ، لا برأيه ، ولا ذوقه ، ولا معقوله ، ولا قياسه ، ولا وجدّه ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات ، والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ... ، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة ، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل ، فضلاً عن أن يقول : فيجب تقديم العقل ، والنقل - يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين - إما أن يفوض وإما أن يؤول .

ولا فيهم من يقول : إن له ذوقاً أو وجداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ، ... ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها، أو بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسرها ، فإن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، والمقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن ، لا رأي ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة"^(٥).

وقال في موضع آخر : "فكل معنى يخالف الكتاب والسنة فهو باطل ، وحجته داحضة"^(٦).

(١) سورة الرحمن : ٤٨ .

(٢) سورة الرحمن : ٥٠ .

(٣) تفسير غريب القرآن (ص ٤٤٠) .

(٤) انظر : الموافقات (٤/١٧٢)، تفسير ابن كثير (٦/٤٢٣)، قواعد الترجيح للحري (١/٢١٤) .

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/٢٨-٣٠) .

(٦) المصدر السابق (١٣/٢٤٣) .

وقد أعمل الإمام ابن قتيبة هذه القاعدة كثيراً في معرض ردّه تأويلات أهل الباطل، كما أعملها في ردّ تفسير أهل الرأي، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله في معرض نقده لأهل الرأي :

"وأعظم منها مخالفة كتاب الله كأنهم لم يقرؤوه ، وكان أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ) لا يرى لولي المقتول عمداً إلا أن يعفو أو يقتص ، وليس له أن يأخذ الدية ، والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾^(١) ، يريد :

فمن عفا عن الدم ؛ فليتبع بالدية اتباعاً بالمعروف ؛ أي يطالب مطالبة جميلة لا يرهق المطلوب ، وليؤد المطالب المطلوب أداءً بإحسان لا مَطْلَ فيه، ولا دفاعاً عن الوقت .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، يعني : تخفيفاً عن المسلمين مما كان بنو إسرائيل ألزموه ، فإنه لم يكن للولي إلا أن يقتص أو يعفو .

ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ ، أي : بعد أخذ الدية فقتل ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴾^(٢) .

قالوا : يُقْتَل ولا يُؤخذ منه الدية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أعافي أحداً قتل بعد أخذ الدية"^(٣) .

وهذا وأشباهه من مخالفة القرآن لا عذر فيه ، ولا عذر في مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العلم بقوله"^(٤) .

القاعدة السابعة : كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد .

(١) سورة البقرة : ١٧٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٨ .

(٣) أخرجه أبو داود في الديات ، باب من قتل بعد أخذ الدية ح(٤٥٠٧) (ص١٥٥٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣/٣٦٣) ، وأعله ابن حجر في فتح الباري (٢٠٩/١٢) ، بالانقطاع ، وضعفه الألباني [ضعيف سنن أبي داود (ص٣٧٣)] .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص٣٩-٤٠) ، وانظر : الاختلاف في اللفظ (ص٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٩، ١١٠، ١١٢) .

كل تفسير خرج بمعاني كتاب الله عما تدل عليه ألفاظه وسياقه ، ولم يدل اللفظ على هذا المعنى بأي نوع من أنواع الدلالة ، فهو مردود على صاحبه ، لأن الألفاظ قوالب المعاني؛ فالغاء دلالاتها إبطالاً للغة ، ونوع من التخصيص والتلاعب لا يجوز أن يكون في تفسير كتاب الله عز وجل .

وسلف الأمة سائرون على هذه القاعدة ؛ إذ جميع تفاسيرهم جارية وفق دلالات ألفاظ القرآن ، ولم يخرج منها شيء عن ذلك .

وبهذه القاعدة يُردُّ على كثير من تأويلات الباطنية والروافض وغيرهم ممن يفسر القرآن بتأويلات لم تدل عليها ألفاظ القرآن الكريم منطوقاً أو مفهوماً .

قال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) عن أهل الباطل :

"وهؤلاء عمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم ، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه، ومن هؤلاء فرق الخوارج ، والروافض ، والجهمية ، والمعتزلة ، والقدرية ، والمرجئة ، وغيرهم، ... ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ، ثم الفلاسفة ، ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك ، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة ، فإنهم فسروا بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه ، فتفسير الرافضة كقولهم : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾^(١) ، هما أبو بكر (ت ١٣هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) ، و﴿ لَيْنَ أَشْرَكْتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾^(٢) ، أي : بين أبي بكر وعلي (ت ٤٠هـ) في الخلافة ...

وأعجب من ذلك قول بعضهم : ﴿ وَاللَّيْنِ ﴾ أبو بكر ، ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ عمر ، ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ عثمان (ت ٣٥هـ) ، ﴿ وَهَذَا أَلْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾^(٣) علي (ت ٤٠هـ) ، وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال ، فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص^(٤).

(١) سورة المسد : ١ .

(٢) سورة الزمر : ٦٥ .

(٣) سورة التين : ١-٣ .

(٤) مقدمة في أصول التفسير (ص ٧٣-٧٧) .

وقال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) في مقدمة تفسيره :

"وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ القريبة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى ، وعلى علي (ت ٤٠هـ) كرم الله وجهه، وعلى ذريته ، ويسمونه علم التأويل ، وقد وقفت على تفسير لبعض رؤوسهم ، وهو تفسير عجيب يذكر فيه أقاويل السلف مزدرياً عليهم ، وذاكراً أنه ما جهل مقالاتهم ، ثم يفسر هو الآية على شيء لا يكاد يخطر في ذهن عاقل ، ويزعم أن ذلك هو المراد من هذه الآية ، وهذه الطائفة لا يلتفت إليها ، وقد رد أئمة المسلمين عليهم أقاويلهم ، وذلك مقرر في علم أصول الدين ، نسأل الله السلامة في عقولنا وأدياننا وأبداننا"^(١).

ويعد الإمام ابن قتيبة من أوائل المصنفين من أهل السنة إعمالاً لهذه القاعدة في ردّ تأويلات أهل الباطل ، وقد ظهر هذا في كثير من المواضع ؛ بين فيها أن تأويلاتهم مجرد تخرص وتلاعب وليس في ألفاظ الآية أو سياقها ما يدل عليها ؛ ومن ذلك :

ردّه لتأويل الرافضة لقوله تعالى : ﴿يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾^(٢) ، وفيه يقول

ابن قتيبة :

"ذهبوا إلى أنه عمر (ت ٢٣هـ) وتأولوا الآية فقالوا : ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ، يعني أبا بكر (ت ١٣هـ) رضي الله عنه . ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٣) ، يعني محمداً صلى الله عليه .

﴿يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ ، يعني عمر رضي الله عنه ، ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾^(٤) ، يعني علياً (ت ٤٠هـ) .

قال أبو محمد : وفي قولهم ما أنبأ عن نفسه ، ودلّ على جهل متأوله ، كيف يكون عليّ رحمة الله عليه ذكراً ؟ وهل قال أحدٌ : إن أبا بكر لم يسلم ، ولم يتخذ بإسلامه مع الرسول سييلاً ؟ .

(١) البحر المحيط (١٣/١) .

(٢) الفرقان : ٢٨ .

(٣) الفرقان : ٢٧ .

(٤) سورة الفرقان : ٢٩ .

وليس هذا التفسير بنكر من تفسيرهم وما يدعونه من علم الباطن كادعائهم في الجبّ والطاغوت أنهما رجلان، وأن الخمر والميسر رجلان آخران، وأن العنكبوت غير العنكبوت، والنحل غير النحل، في أشباه كثيرة من سخفهم وجهالاتهم^(١).

وقوله في موضع آخر :

"وأعجب من هذا تفسير الروافض للقرآن، وما يدعونه من علم باطنه، كقولهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾^(٢)، أنها عائشة (ت ٥٨هـ) رضي الله عنها.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَصْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾^(٣)، أنه طلحة (ت ١٣هـ)، والزبير (ت ٣٦هـ) رضي الله عنهما .

وقولهم في الخمر والميسر أنهما أبو بكر (ت ١٣هـ)، وعمر (ت ٢٣هـ) رضي الله عنهما، والجبّ والطاغوت أنهما معاوية (ت ٦٠هـ)، وعمرو بن العاص (ت ٤٣هـ)، مع عجائب أرغب عن ذكرها، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعه^(٤).

القاعدة الثامنة : تفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم.

السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وتابعيهم، هم أصح الناس لساناً، وأفصح بياناً، وأقرب عصراً من النبوة، وأعمق صلة بكلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان فهمهم لنصوص الكتاب والسنة - لا سيما ما يتعلق منها بمسائل الاعتقاد - حجة على من بعدهم .

وبهذه القاعدة يرد على تأويلات أهل الأهواء والبدع ممن خالف السلف، فحملوا القرآن على معانٍ اعتقدوها، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم^(١).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٦١-٢٦٢).

(٢) سورة البقرة : ٦٧ .

(٣) سورة البقرة : ٧٣ .

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص ٤٨-٤٩) .

وقد اعتمد إمام المفسرين ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) هذه القاعدة ، واستعمل مضمونها في رد أقوال ليس لها سلف في أقوال من سلف من الأمة، فتجده يقول:

"وهذا قول لا نعلم له قائلاً من متقدمي العلم قاله ، وإن كان له وجه ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان غير جائز عندنا أن يتعدى ما أجمعت عليه الحجة ، فما صح من الأقوال في ذلك إلا أحد الأقوال التي ذكرناها عن أهل العلم"^(٢).

وقرّر شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) هذه القاعدة ؛ فقال :

"فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول ، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه ، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة، والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا .

وفي الحملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك ، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه ، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته ، وطرق الصواب ، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً"^(٣).

ويعد إمامنا ابن قتيبة من أوائل المفسرين واللغويين الذين قرروا هذه القاعدة ، واعتمدوا عليها ، وكتبه شاهدة على هذا ، فقد حملت الكثير من التطبيقات على الاحتجاج بتفسير السلف ، وردّ ما سواه ، وكان قد صرّح في مقدمات كتبه ك"تأويل مشكل القرآن" ، و"تفسير غريب القرآن" على اعتماده فيها على تفسير السلف^(٤)، وقد جاء في ثنايا كتبه ما يدل على هذا الاعتماد ، فتارة يقول : "قد تكلم المفسرون - أي مفسروا السلف - في هذه الآية بما فيه مقنع وغناء ، أن يوضّح بغير لفظهم"^(٥).

(١) انظر : منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ، عثمان حسن (ص ٥٠٣) ، قواعد التفسير

للسبت (٢٠٦/١) ، قواعد الترجيح عند المفسرين للحري (٢٧١/١) .

(٢) تفسير الطبري (١٧٩/٢٣) .

(٣) مقدمة التفسير (ص ٨١) .

(٤) انظر : تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣) ، تفسير غريب القرآن (ص ٤) .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٠) .

وتارةً يتوقف عن التفسير لكونه لم ينقل عن السلف ؛ فيقول : "وكان على مذهب العرب وجهاً ، غير أنه لم يذهب إليه أحد فيما نعلم"^(١) .

وتارةً يقول : "ولست أعرف هذا في التفسير"^(٢) .

كما ردّ الإمام ابن قتيبة بهذه القاعدة الكثير من تأويلات أهل الباطل لكونها لم ترد عن السلف ، بل كانت مخالفة لمقتضى كلامهم^(٣) .

القاعدة التاسعة : إذا وقع الحرف بين تأويلين ، ولم يكن فيهما قول للسلف ، فإنه يصار إلى أقربهما إلى السلامة .

وقد نص الإمام ابن قتيبة على هذه القاعدة حين تحدث عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تسبوا الريح ، فإنها من روح الله"^(٤) ، وعرض فيه لتفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾^(٥) ؛ فقال :

"وإنما أراد أن الريح من فرج الله وروحه ، وقد فرّج الله عن نبيه بالريح يوم الأحزاب ، وقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمين"^(٦) ، يعني أنه يجد الفرج من قبل الأنصار، وهم من اليمين ... ، فروح الله بمنزلة نفس الله^(٧) ، ما أكثر من يذهب من حملة الحديث إلى غير ما ذهبنا إليه

(١) غريب الحديث (٥٢/٢) .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص٢٤٥) .

(٣) انظر : الاختلاف في اللفظ (ص٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب ما يقول إذا هاجت الريح ح(٥٠٩٧) (ص١٥٩٦) ، وابن ماجه في الأدب ، باب النهي عن سب الريح ح(٣٧٢٧) (ص٢٦٩٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٦٧) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني [صحيح سنن أبي داود (٣/٢٥٢)] .

(٥) سورة الأحزاب : ٩ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٥٤١) ، والطبراني في الأوسط (٥٧/٥) ح(٤٦٦١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٥٦) : "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير شبيب - أبي روح - وهو ثقة" ، وضعفه الألباني [سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٣/٢١٦)] .

(٧) يقول شيخ الإسلام عن هذا الحديث : "فقوله : "من اليمين" يُبيّن مقصود الحديث ، فإنه ليس لليمن اختصاص بصفات الله تعالى حتى يظن ذلك ، ولكن منها جاء الذين يحبهم ويحبونه ، الذين قال فيهم : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ

إليه ، وإذا وقع الحرف بين تأويلين ، ولم يكن لنا فيهما إمام من السلف نقلد مثله ، ملنا إلى أقربهما من السلامة"^(١).

وهذا يظهر عظيم عناية الإمام ابن قتيبة بتفسير السلف ، إذ كان يتحرج من التفسير إذا لم يكن صادراً عنهم ، ويوجب على من اختار قولاً لم يرد عن السلف أن يتوخى الحذر ويصير إلى الأقرب سلامة من تلك الأقوال .

القاعدة العاشرة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

اعتمد هذه القاعدة ونصّ عليها جمهور المحققين من أهل العلم^(٢) ، بل نقل الزركشي الإجماع على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(٣).

وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على اعتبار هذه القاعدة ، فعن ابن مسعود (ت ٣٢هـ) رضي الله عنه : " أن رجلاً أصاب من امرأة قبله ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأنزل الله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾^(٤) ، فقال الرجل : يا رسول الله ، ألي هذا؟ قال : "لجميع أمتي كلهم"^(٥).

قال الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) - معلقاً على هذا الحديث - :

"فهذا الذي أصاب القُبلة من المرأة نزلت في خصوصه آية عامة اللفظ ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ألي هذه ، ومعنى ذلك : هل النص خاص بي لأني سبب وروده؟ أو هو على

دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴿ [سورة المائدة: ٥٤] ، ... وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردة وفتحوا الأمصار ، فبهم نَفَسَ الرَّحْمَنُ عن المؤمنين الكريبات " [مجموع الفتاوى (٦/٣٩٨)] .
(١) غريب الحديث (١/٨٤) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (١٤/٣٤١) ، البحر المحيط لأبي حيان (١/٣٥٤) ، تفسير ابن كثير (٤/٤١) ، البرهان (١/٣٢) ، الإتيقان (١/١٩٦) .

(٣) البحر المحيط للزركشي (٣/١٩٨) .

(٤) سورة هود : ١١٤ .

(٥) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ، باب الصلاة كفارة ح (٥٢٦) (ص ٤٤) ، ومسلم في التوبة ، باب قول الله تعالى

: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ح (٧٠١) (ص ١١٥٧) .

عموم لفظه ؟ ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم له : "لجميع أمتي" معناه أن العبرة بعموم لفظ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ ، لا بخصوص السبب والعلم عند الله^(١).

وقال شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) في تقرير هذه القاعدة :

"والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهيّاً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزله ، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزله"^(٢).

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل الأئمة الذين قرروا هذه القاعدة ، فقال ردّاً على من ذهب إلى أن "الظالم" في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾^(٣٧) يُؤْتَلَقُ لَيْتِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلاً^(٣٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي^(٣) ، هو رجل بعينه :

"قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : إن عقبة بن أبي معيط صنع طعاماً ودعا أشراف أهل مكة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فامتنع أن يطعم أو يشهد عقبة بشهادة الحق ، ففعل ذلك ، فأتاه أبي بن خلف ، وكان خليله ، فقال : صبأت ؟ فقال : لا ، ولكن دخل عليّ رجلٌ من قريش فاستحييت من أن يخرج من منزلي ولم يطعم.

فقال : ما كنت لأرضى حتى تبصق في وجهه وتفعل به وتفعل ، ففعل ذلك ، فأنزل الله هذه الآية عامة ، وهذان الرجلان سبب نزولها .

والمفسرون على أن هذه الآية نزلت في هذين الرجلين ، وإنما يختلفون في ألفاظ القصة ، فأراد الله سبحانه بـ "الظالم" كل ظالم في العالم ، وأراد بـ "فلان" كل من أطيع بمعصية الله وأرضي بإسقاط الله.

ولو نزلت هذه الآية على تقديرهم فقال : ويوم يعض الظالم - قارون وهامان وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والمغيرة ، وفلان وفلان ، بالأسماء - على أيديهم يقولون : يا ليتنا لم نتخذ فرعون ، ونمرود ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبا جهل ،

(١) أضواء البيان (٣/٥٤٦) .

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص ٣٧) .

(٣) سورة الفرقان : ٢٧-٢٩ .

والأسود وفلاناً وفلاناً بالأسماء - لطلال هذا وكثر وثقل ، ولم يدخل فيه من تأخر بعد نزول القرآن من هذا الصنف ، وخرج عن مذاهب العرب ، بل عن مذاهب الناس جميعاً في كلامهم .

فكان "فلان" كناية عن جماعة هذه الأسماء ... و"الظالم" دليل على جماعة الظالمين ، كقوله : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾^(١) ، يريد جماعة الكافرين^(٢) .

القاعدة الحادية عشرة : القول الذي يعظم مقام النبوة ولا ينسب إليها ما لا يليق بها ، أولى بتفسير الآية .

يتفق جمهور أهل السنة على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر والكبائر ، وكل ما يتعلق بالتبليغ ، وعليه فإن التفسير الذي يتمشى مع هذه العصمة أولى بتفسير الآية ، وكل قول طعن فيها وخالفها فهو مردود لمخالفته للدلائل الصريحة على عصمة الأنبياء . وهذه قاعدة مقررة عند المفسرين ، وقد أعملوها في الآيات المتعلقة بقصص الأنبياء ، وأنكروا من خلالها الكثير من الأقوال التي تقدح في عصمة الأنبياء^(٣) .

يقول إمام المفسرين ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾^(٤) :

"وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب قول من قال : عَنَى به : فظن يونس أن لن نجسه ونضيق عليه ؛ عقوبة له على مغاضبته ربه . وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الكلمة ؛ لأنه لا يجوز أن يُنسب إلى الكفر ، وقد اختاره لنبوته ، ووصفه بأنه ظن أن ربه يعجز عما أراد به ، ولا يقدر عليه ، ووصف له بأنه جهل قدرة الله ، وذلك وصف له بالكفر ، وغير جائز لأحد وصفه بذلك"^(٥) .

(١) سورة النبأ : ٤٠ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٦٢-٢٦٣) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٢٨٩/١٠) ، المحرر الوجيز (٣٦١/١) ، البحر المحيط للزركشي (١٧٠/٤) ، قواعد الترجيح

للحري (٣٢٨/١) .

(٤) سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٥) تفسير الطبري (٣٨١/١٦) .

ويقول أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) في معرض رده للأقوال التي قيلت في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا ^ط ﴾^(١) :

"وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيء من ذلك ، لأنها أقوال متكاذبة^(٢) ، يناقض بعضها بعضاً ، مع كونها قاذحة في بعض فساق المسلمين ، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة ، والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب ، لأنهم قدروا جواب (لولا) محذوفاً ، ولا يدل عليه دليل ، لأنهم لم يقدروا : لهمَّ بها ، ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط ، لأن ما قبل الشرط دليل عليه ، ولا يحذف الشيء لغير دليل عليه ، وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير ، مما لا يليق ذكره ، واقتصرنا على ما دل عليه لسان العرب ، ومساق الآيات التي في هذه السورة ، مما يدل على العصمة وبراءة يوسف - عليه السلام - من كل ما يشين"^(٣).

وكان إمامنا ابن قتيبة سابقاً في تقرير هذه القاعدة وإعمالها ، فقد ردّ القول بأن إبراهيم

عليه السلام لما قال : ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ^ط ﴾^(٤) للكوكب قاله عن اعتقاد ؛ فقال :

"ومن الناس من يذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام كان في تلك الحال على ضلال وحيرة ، وكيف يتوهم ذلك على من عصمه الله وطهره في مستقره ومستودعه ، والله سبحانه يقول : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهٖ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ^ط ﴾^(٥) ، أي لم يشرك به قط"^(٦).

وعرض لأقوال المفسرين في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ قَدْ

كُذِبُوا ^ط ﴾^(٧) ، ثم قال :

(١) سورة يوسف : ٢٤ .

(٢) أي مكذوبة عليهم .

(٣) البحر المحيط (٥/٢٧٥) .

(٤) سورة الأنعام : ٧٦ .

(٥) سورة الصافات : ٨٤ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص٣٣٧-٣٣٨) .

(٧) سورة يوسف : ١١٠ .

"وهذه مذاهب مختلفة ، والألفاظ تحملها كلها ، ولا نعلم ما أراد الله عزّ وجل، غير أن أحسنها في الظاهر ، وأولاها بأنبياء الله صلوات الله عليهم ما قالت أم المؤمنين عائشة (ت ٥٨هـ) رضي الله عنها : استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدّقوهم، وظنّت الرسل أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك" (١).

القاعدة الثانية عشرة : تنوع القراءات بمنزلة تعدد الآيات .

إذا وردت قراءتان في موضع واحد ، ولم يمكن اجتماعهما في شيء واحد، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد ، فهما عند أهل العلم بمنزلة الآيتين من حيث العمل بمدلول القراءتين (٢).

يقول شيخ الإسلام (ت ٧٢٨هـ) :

"فهذه القراءات التي يتغير فيها المعنى كلها حق ، وكل قراءة مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً، لا يجوز ترك موجب أحدهما لأجل الأخرى ، ظناً أن ذلك تعارض" (٣).

وقال الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) :

"اعلم أولاً أن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة ، لها حكم الآيتين، كما هو معروف عند العلماء" (٤).

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل من أشار إلى هذه القاعدة واستعملها في "تأويل مشكل القرآن" حين تحدث عن اختلاف التغيرات بين القراءات ؛ فقال :

"واختلاف التغيرات جائز وذلك مثل قوله : ﴿وَأَذْكُرُ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (٥) ، أي بعد حين، و﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (٦) ، أي بعد نسيان له ، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان ؛ لأنه ذكر أمر

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٤١٠-٤١٢) .

(٢) انظر : البرهان (١/٣٢٦) ، أضواء البيان (١/٣٣٠) ، قواعد التفسير للسبت (١/٨٨) .

(٣) مجموع الفتاوى (٣٩١/١٣) .

(٤) أضواء البيان (١/٣٣٠) .

(٥) سورة يوسف : ٤٥ .

(٦) سبق عزو القراءة (ص ٧٠٦) .

يوسف عليه السلام بعد حين وبعد نسيان له ، فأنزل الله على لسان نبيه ، صلى الله عليه ، بالمعنيين جميعاً في غرضين .

وكتوبه : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾^(١) ، أي تقبلونه وتقولونه ، و "تَلَقَّوْنَهُ"^(٢) ، من الوَلَقِ ، وهو الكذب ، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان ؛ لأنهم قبلوه وقالوه ، وهو كذب ، فأنزل الله على نبيه بالمعنيين جميعاً في غرضين"^(٣) .

القاعدة الثالثة عشرة : من شأن العرب الإيجاز والاختصار إذا كان فيما نطقت به الدلالة الكافية على ما حذف وتركت .

كان العرب أهل فصاحة وبلاغة ، وكان من فصاحتهم وبلاغتهم الاكتفاء ببعض الكلام ، والإيجاز فيه ، إذا لم يكن ذلك مؤدياً إلى التلبيس على السامع .

ولما كان القرآن نازلاً على لغة العرب وأساليبها ، وقع فيه الإيجاز والاختصار^(٤) . وهذا مقرر عند أهل التفسير ، فهاهو الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾^(٥) :

"فإن قال قائل لنا إنك ذكرت أن معنى قول الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ ، خمدت وانطفأت ، وليس ذلك بموجود في القرآن ، فما دلالتك على أن ذلك معناه ؟ .

قيل : قد قلنا إن من شأن العرب الإيجاز والاختصار ، إذا كان فيما نطقت به الدلالة الكافية على ما حذف وتركت ... فكذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ ﴾

(١) سورة النور : ٥١ .

(٢) سبق عزو القراءة (ص ٦٩٣) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠) .

(٤) انظر : تفسير الطبري (١/١٣٩) ، (٢/٥١) ، (٢٤٢) ، قواعد التفسير للسبب (١/٣٦٧) .

(٥) سورة البقرة : ١٧ .

مَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ ، لما كان فيه وفيما بعده من قوله : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، دلالة على المتروك كافية من ذكره اختصر الكلام طلب الإيجاز .

وكذلك حذف ما حذف واختصار ما اختصر من الخبر عن مثل المنافقين بعده ، نظير ما اختصر من الخبر عن مثل المستوقد النار ، لأن معنى الكلام : فكذلك المنافقون ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون" (١) .

وقد قرّر الإمام ابن قتيبة هذه القاعدة في أكثر من موضع ؛ منها قوله عن أساليب العرب :

"كما يحذفون من الكلام البعض إذا كان فيما أبقوا دليل على ما ألقوا ، فيقولون : والله أفعل ذاك ، يريدون : لا أفعل ، ويقولون : أتانا فلان عند مغيب الشمس ، أو حين ، أي حين كادت تغيب .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلْمُوتَى ﴾ (٢) ، أراد لكان هذا القرآن ، فحذف" (٣) .

كما ذكر من أنواع الحذف هنا : إضمار القول ، إذا كان في السياق ما يدل عليه ، ومثّل له فقال :

"كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴾ (٤) ، والمعنى : فيقال لهم : أكفرتم ؟ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ (٥) ، والمعنى : يقولون : ربنا أبصرنا ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ (٦) ، والمعنى : يقولون : ربنا تقبل منا" (٧) .

(١) تفسير الطبري (١/٣٤٤) .

(٢) سورة الرعد : ٣١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص٣٠٥) .

(٤) سورة آل عمران : ١٠٦ .

(٥) سورة السجدة : ١٢ .

(٦) سورة البقرة : ١٢٧ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص٢١٦) .

وأعمل ابن قتيبة هذه القاعدة في "تفسير غريب القرآن" ، ومن ذلك قوله:

"قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أُمِرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا ﴾^(١) ، وتم

الكلام ، ثم قال : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ ؛ أراد : هي طاعة معروفة ، وفي هذا الكلام حذف للإيجاز ، يستدل بظاهره عليه ، كأنّ القوم كانوا يُنَافِقُونَ ويخلفون في الظاهر على ما يضمرون خلافه ؛ فقيل لهم : لا تُقْسِمُوا ؛ هي طاعة معروفة ، صحيحة لا نفاق فيها ؛ لا طاعة فيها نفاق"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا^٤ ﴾^(٣) ؛ قال :

"﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ ، يعني ما كانوا يقولونه من هذا الظهار في الإسلام ﴿ فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ ، وأضمر : فكفارته ، ومثل هذا من المحذوف في القرآن كثير ،

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِن أَحْصَرْتُمْ مَّا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾^(٤) ، أي : فكفارة ذلك " ما استيسر

من الهدي " ، وقوله بعد ذلك : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ

صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾^(٥) ، أراد : فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه فحلق ، فعليه فدية

من صيام "^(٦).

القاعدة الرابعة عشرة : الغالب في القرآن الكريم وفي كلام العرب أن الجواب

المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه .

(١) سورة النور : ٥٣ .

(٢) تفسير غريب القرآن (ص٣٠٦) .

(٣) سورة المجادلة : ٣ .

(٤) سورة البقرة : ١٩٦ .

(٥) سورة البقرة : ١٩٦ .

(٦) غريب الحديث (٣٧/١) .

وهذه قاعدة مقررة عند أهل العلم ، يقول القرافي (ت ٦٨٤هـ)^(١) :

"يجوز حذف جواب الشرط إن كان في الكلام ما يدل عليه ، فيجعل الدليل نفس الجواب، وليس هو الجواب، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾^(٢) ، فإن تكذيب من قبله لا يتوقف على هذا الشرط ، بل سبق وتقدم ، وتقدير الجواب : وإن يكذبوك "فتسل" فقد كذبت رسل من قبلك ، فتكذيب من قبله دليل على تسليته ، وسبب تسليته قائم مقامه"^(٣).

ويقول الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) :

"إن الغالب في القرآن وفي كلام العرب : أن الجواب المحذوف يُذكر قبله ما يدل عليه، كقوله تعالى : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾^(٤) ؛ أي : إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، وكقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٥) ؛ أي إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم"^(٦).

وكان إمامنا ابن قتيبة من أوائل من أشار إلى هذه القاعدة ، وذلك حين عرض لأساليب الحذف في القرآن الكريم ؛ فقال :

"ومن ذلك أن يأتي بالكلام مَبْنِيًّا على أن له جواباً ، فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب به .

(١) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبدالرحمن بن عبدالله الصنهاجي الشهير بـ "القرافي" ، من فقهاء المالكية ، ولد بمصر ونشأ بها ، وتلقى العلم على عدد كبير من العلماء ، منهم : العز بن عبدالسلام، وابن الحاجب ، والمنذري ، له مؤلفات عديدة ، منها : "الفروق" ، و"شرح تنقيح الفصول في اختصار الحصول في الأصول" ، توفي سنة ٦٨٤هـ . [الديباج المذهب (ص ١٢٨)، الوافي بالوفيات (١٤٦/٦)] .

(٢) سورة فاطر : ٤ .

(٣) الفروق "أنوار البروق في أنواء الفروق للقرافي" (٢١١/١) .

(٤) سورة يونس : ٨٤ .

(٥) سورة البقرة : ١١١ .

(٦) أضواء البيان (٢٠٨/٢) .

كقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْثِقُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾^(١)؛ أراد : لكان هذا القرآن ، فحذف ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢)؛ أراد : لعذبكم، فحذف"^(٣).

كما أعمل ابن قتيبة هذه القاعدة عند تفسيره الآيات ، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَسَوَّغُوا شَاهِدًا مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾^(٤) : "والجواب هاهنا محذوف ، أراد أفمن كانت هذه حاله ، كهذا الذي يريد الحياة الدنيا وزينتها"^(٥)؟ فاكتمى من الجواب بما تقدم ، إذ كان فيه دليل عليه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ، ولم يذكر الذي هو ضده ؛ لأنه قال بعد : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ﴾^(٦) .

فالقائتون آتاء الليل والنهار هم الذين يعلمون ، وأصدادهم هم الذين لا يعلمون، فاكتمى من الجواب بما تأخر من القول ؛ إذ كان فيه دليل عليه"^(٧).

(١) سورة الرعد : ٣١ .

(٢) سورة النور : ٢٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٢١٤-٢١٥) .

(٤) سورة هود : ١٧ .

(٥) إشارة للآية قبلها : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [سورة هود: ١٥] .

(٦) سورة الزمر : ٩ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٩٥) .

القاعدة الخامسة عشرة : من شأن العرب أن تضمّر لغير مذكور، يدل المعنى عليه. تُقدّم العرب على الإضمار لغير مذكور توسعاً في الكلام وتصاريفه ، واقتداراً، واختصاراً ، ثقةً منهم بفهم السامع .

وهي قاعدة مقررة عند المحققين من أهل العلم ^(١)، يقول ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)

في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ ﴾ ^(٢) :

"وكنى عن الكلمة ، ولم يجر لها ذكر متقدم ، والعرب تفعل ذلك كثيراً إذا كان مفهوماً المعنى المراد عند سامعي الكلام ، وذلك نظير قول حاتم الطائي :

أماويُّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشّرت يوماً وضاق بها الصُدْرُ ^(٣)

يريد : وضاق بالنفس الصدر ، فكنى عنها ولم يجر لها ذكر ، إذ كان في قوله: "إذا

حشّرت يوماً" دلالةً لسامع كلامه على مراده بقوله : "وضاق بها" ، ومنه قول الله : ﴿ ثُمَّ

إِن رَّبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ

رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٤)، فقال : ﴿ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ ، ولم يجر قبل ذلك ذكر ذكر لاسم مؤنث ^(٥).

وكان الإمام ابن قتيبة سبقاً في النص على هذه القاعدة ، فقال في "تأويل مشكل

القرآن" :

"ومن الاختصار أن تضمّر لغير المذكور .

كقوله جلّ وعزّ : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ^(٦)؛ يعني : الشمس ، ولم يذكرها قبل

ذلك .

(١) انظر: فقه اللغة للثعالبي (ص ٢٩٣)، البرهان (٤/٢٦)، الكليات (ص ٥٦٨)، قواعد التفسير للسبت (١/٤١٠).

(٢) سورة يوسف : ٧٧ .

(٣) البيت في ديوانه (ص ١٩٩) .

(٤) سورة النحل : ١١٠ .

(٥) تفسير الطبري (١٣/٢٧٥) .

(٦) سورة ص : ٣٢ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾^(١)؛ يريد على الأرض .

وقال : ﴿ فَأَتَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾^(٢)، يعني : بالوادي .

وقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(٣)، يعني: القرآن، فكثرت في أول السورة^(٤).

كما استعمل هذه القاعدة في تفسيره الآيات ، فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾^(٥):

"قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ ﴾ ، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم، على مذاهب العرب في الإضمار لغير المذكور ..."^(٦).

القاعدة السادسة عشرة : قد يذكر شيان ويعود الضمير على أحدهما اكتفاءً بذكره عن الآخر ، مع كون الجميع مقصوداً .

من المقرر عند أهل العلم أن من أساليب العرب التي نزل بها القرآن أن تذكر شيئين ثم تفرد الضمير العائد إليهما مع إرادة الجميع .

يقول ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(٧) :

"فإن قال قائل : فكيف قال : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، فأخرجت "الهاء" و"الألف" مخرج الكناية عن أحد النوعين .

(١) سورة فاطر : ٤٥ .

(٢) سورة العاديات : ٤ .

(٣) سورة القدر : ١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٢٦) .

(٥) سورة الحج : ١٥ .

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٥٨) .

(٧) سورة التوبة : ٣٥ .

قيل : يحتمل ذلك وجهين :

أحدهما: أن يكون "الذهب والفضة" مراداً بها الكنوز، كأنه قيل: والذين يكتنزون الكنوز ولا ينفقونها في سبيل الله ، لأن الذهب والفضة هي : "الكنوز" في هذا الموضع. والآخر : أن يكون استغنى بالخبر عن أحدهما في عائد ذكرهما ، من الخبر عن الأخرى، لدلالة الكلام على أن الخبر عن الأخرى مثل الخبر عنها ، وذلك كثير موجود في كلام العرب وأشعارها"^(١).

وعدّ الزركشي (ت ٧٩٤هـ) أنواع الحذف في القرآن ، فذكر منها :

"السادس : أن يذكر شيئان ثم يعود الضمير إلى أحدهما دون الآخر ، كقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا ﴾^(٢) ، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) : تقديره: إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه"^(٣).

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل من نصّ على هذه القاعدة ؛ فقد قال في "تأويل مشكل القرآن" :

"ومنه - أي من مخالفة ظاهر اللفظ معناه - أن يجتمع شيئان فيجعل الفعل لأحدهما،

أو تنسبه إلى أحدهما ، وهو لهما، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا ﴾^(٤) ،

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾^(٥) ، وقوله: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾^(٦) ، وقال : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾^(٧) ، أراد : عن

عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد .

قال الشاعر :

(١) تفسير الطبري (١١/٤٣٥) .

(٢) سورة الجمعة : ١١ .

(٣) البرهان (٣/١٢٦) .

(٤) سورة الجمعة : ١١ .

(٥) سورة التوبة : ٦٢ .

(٦) سورة البقرة : ٤٥ .

(٧) سورة ق : ١٧ .

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف^(١)»^(٢).

وقد نقل هذا الكلام بنصه ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) في الصحاح^(٣).

القاعدة السابعة عشرة : قد يشئ الضمير مع كونه عائداً على أحد المذكورين دون

الآخر .

وهذه القاعدة عكس القاعدة السابقة ، وقد نصّ عليها المحققون من أهل العلم.

قال الحدادي (ت بعد ٤٠٠هـ)^(٤):

"اعلم أن العرب ربما تكني عن شيئين وتريد به واحداً ، ومنها قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ

مِنْهُمَا اللَّوْؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾^(٥). قال الكلبي (ت ١٤٦هـ) : "إنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من المالح

المالح دون العذب" . وقوله تعالى : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾^(٦) ، أي : لا حرج على

على الرجل فيما أخذ من امرأته من الفداء عند الخلع"^(٧).

وكان الإمام ابن قتيبة سباقاً في النص على هذه القاعدة ؛ فقال في "تأويل مشكل

القرآن" :

"ومنه أن يجتمع شيئان ولأحدهما فِعْلٌ فيجعل الفعل لهما .

(١) البيت من قصيدة لعمر بن امرئ القيس الأنصاري يخاطب بها مالك بن العجلان الذي تصلّب في رأيه بشأن قبول

الدية من بني عمرو بن عوف . [جمهرة أشعار العرب (٢/٦٧٥)] .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨٨-٢٨٩) .

(٣) (ص ١٦٦) .

(٤) أبو نصر أحمد بن محمد بن أحمد السمرقندي الحدادي ، مقرئ محدث ، تلقى العلم وأخذ القراءة عن عدد من

العلماء ؛ منهم : أبو سعيد السيرافي ، وأبو بكر بن مهران ، وأبو القاسم هبة الله بن سلامة الضرير ، قال عنه ابن

الجزري : "كان شيخ القراءة بسمرقند ، انتهى إليه التحقيق والرواية" ، له مؤلفات منها : "المدخل لتفسير كتاب الله

تعالى" ، و"الموضح لعلم القرآن" ، و"الغنية في القراءات" ، توفي ببغداد بعد ٤٠٠هـ . [غاية النهاية (١/٩٧)] .

(٥) سورة الرحمن : ٢٢ .

(٦) سورة البقرة : ٢٢٩ .

(٧) المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى (ص ٣٦٨) .

كقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا بَلْغًا جَمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيًا حُوتَهُمَا ﴾^(١) ، روي في التفسير : أن الناسي كان يُوشع بن نون ، ويدلُّك قوله لموسى صلى الله عليه : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾^(٣) ، والرسل من الإنس دون الجن .

وقوله : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾^(٤) ، ثم قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ ﴾^(٥) ، واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان من الماء المالح لا من العذب . وكذلك قوله : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾^{(٦)»(٧)} .

القاعدة الثامنة عشرة : الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم .

يذهب جمهور أهل العلم إلى ضعف دلالة الاقتران ، ويقولون : إن الاقتران في النظم لا يلزم منه الاقتران في الحكم^(٨) .

قال الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) :

"دلالة الاقتران : قد قال بها جماعة من أهل العلم ، ومن ذلك استدلال مالك (ت

١٧٩هـ) على سقوط الزكاة في الخيل بقوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا

(١) سورة الكهف : ٦١ .

(٢) سورة الكهف : ٦٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

(٤) سورة الرحمن : ١٩-٢٠ .

(٥) سورة الرحمن : ٢٢ .

(٦) سورة فاطر : ١٢ .

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٨٦-٢٨٧) .

(٨) انظر : العدة لأبي يعلى (٤/١٤٢٠) ، إعلام الموقعين (٢/٣٥٦) ، البحر المحيط للزركشي (٦/٩٩) ، الأشباه والنظائر

للسبكي (٢/١٩٣) .

وَزِينَةً ﴿١﴾، قال : فقرن بين الخيل والبغال والحمير ، والبغال والحمير لا زكاة فيها إجماعاً ، فكذلك الخيل .

وأنكر دلالة الاقتران الجمهور ؛ فقالوا : إن الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم" (٢).

وقد عرض الإمام ابن قتيبة لهذه المسألة ونصّ على أن الاقتران في النظم لا يلزم منه الاقتران في الحكم ؛ فقال :

"فإن قال : وسبيل هذه الأشياء سبيله ، لأنه لا يكون أن يكره شيئين فيكون أحدهما حراماً والآخر حلالاً ، قلنا له : قد يجوز ذلك ، ألا ترى أن الله جلّ وعزّ : يقول : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (٣) ، فالحج فريضة ، والعمرة غير فرض ، إلا في قولٍ يُخالفه عامة المسلمين ، وقد نُهي عليه الصلاة والسلام عن شيئين حكمهما مختلف ، وجمع بينهما في النهي ، فنهي عن كسب المومسة وكسب الحجّام (٤) ، والمومسة : الزانية ، وكسبها حرام ، وكسب الحجّام مكروه ، وجمع بينهما في النهي" (٥) .

القاعدة التاسعة عشرة : قد يرد التكرار لتعدد المتعلق .

التكرار يقع في القرآن الكريم ، ولا يقصد منه مجرد التكرار ، بل يكون ذلك لفوائد، منها : التكرار لتعدد المتعلق .

يقول السيوطي (ت ٩١١ هـ) :

"التكرير ، وهو أبلغ من التأكيد ، وهو من محاسن الفصاحة خلافاً لبعض من غلط، وله فوائد :

(١) سورة النحل : ٨ .

(٢) إرشاد الفحول (٢/١٠١٣) .

(٣) سورة البقرة : ١٩٦ .

(٤) يشير بذلك إلى ما أخرجه مسلم في البيوع ، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي ح(٤٠١١)

(ص ٩٥٠) عن رافع بن خديج رضي الله عنه ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "شُرُّ الكسب مهر

البغي ، وثن الكلب ، وكسب الحجّام" .

(٥) غريب الحديث (١/١١٢) .

... ومنها : ما كان لتعدد المتعلق ، بأن يكون المكرر ثانياً متعلقاً بغير ما تعلق به الأول ، وهذا القسم يسمى بالترديد"^(١) .

وقد سبق الإمام ابن قتيبة في الإشارة إلى أن التكرار في القرآن قد يكون لتعدد المتعلق ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٢) ؛ قال :

"وأما تكرار قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، فإنه عدّد في هذه السورة نعماءه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، ليفهمهم النعم ويُقرّرهم بها .

وهذا كقولك للرجل : أجل أحسنت إليه دهرك وتابعت عنده الأيادي ، وهو في ذلك يُنكرك ويكفرك : ألم أبؤئك منزلاً وأنت طريد ؟ أفتنكر هذا؟ ألم أحملك وأنت راجل؟ ألم أحج بك وأنت ضرورة^(٣) ؟ أفتنكر هذا؟ .

ومثل هذا تكرار ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾^(٤) ، في سورة : "اقتربت الساعة" ، أي: هل من معتبر ومتعظ؟"^(٥) .

القاعدة العشرون : العرب قد تُعلق الأمر بزائل والمراد التأييد .

من شأن العرب إذا أرادت وصف الشيء بالدوام أبداً أن تقول : هذا دائم دوام السموات والأرض ، أي : أبداً ، وكقولهم : افعل كذا ما تَعَاقَبَ الليل والنهار ، وهم يقصدون بذلك كله التأييد ، لا المعنى الحرفي لهذه الجمل^(٦) .

(١) الإتيان (١٦٤٨/٥-١٦٥٠) .

(٢) سورة الرحمن : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ،

(٣) في اللسان ، مادة "صرر" (٤٥٠/٤) : "رجل ضرور وضرورة : لم يجج قط" .

(٤) سورة القمر : ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٢٣٩-٢٤٠) .

(٦) انظر : قواعد التفسير للسبت (١/٢٨٣) .

يقول ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي
الْأَرْضِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ ﴿١﴾ :

"يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿ خَلِيدٌ فِيهَا ﴾ ، لا بئين فيها ، ويعني بقوله : ﴿ مَا
دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ، وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام قالت :
"هذا دائم دوام السموات والأرض" بمعنى أنه دائم أبداً" (٢).

ثم ذكر كلاماً طويلاً في ظني أنه أفاده من الإمام ابن قتيبة - نظراً للتشابه الكبير بين
تفسيرهما للآية - ، فقد سبقه في الإشارة إلى هذه القاعدة ، وذلك عند تفسيره لهذه الآية في
"تأويل مشكل القرآن" ؛ فقال :

"وأما قوله : ﴿ خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ، فإن
للعب في معنى "الأبد" ألفاظاً يستعملونها في كلامهم ، يقولون : لا أفعل ذلك ما اختلف
الليل والنهار ، وما طمى البحر ، أي ارتفع ، وما أقام الجبل ، وما دامت السموات والأرض ،
في أشباه لهذا كثيرة ، يريدون لا أفعله أبداً ؛ لأن هذه المعاني عندهم لا تتغير عن أحوالها أبداً ،
فخاطبهم الله بما يستعملونه فقال : ﴿ خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾" (٣).

القاعدة الحادية والعشرون : صيغة التفضيل قد تطلق في القرآن واللغة مراداً بها
الاتصاف ، لا تفضيل شيء على شيء .

في كلام العرب قد ترد صيغة التفضيل ويقصد بها مجرد الاتصاف لا معنى التفضيل .

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :

"باب أفعل في الأوصاف لا يراد له التفضيل . يقولون : "جرى له طائر أشأم" .

وقال الفرزدق (ت ١١٠هـ) :

(١) سورة هود : ١٠٦-١٠٧ .

(٢) تفسير الطبري (١٢/٥٧٨) .

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ٧٦) .

إنّ الذي سمك السماء بني لنا بيتاً دعائمه أعزّ وأطول^(١)

ويقولون : إنّ من هذا الباب قوله جلّ ثناؤه : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾^(٢)»^(٣).

وقال الزركشي (ت ٧٩٤هـ) :

"قد يجيء - أفعال التفضيل - مجرداً عن معنى التفضيل ، ثم هو تارة يجيء مؤولاً باسم

الفاعل ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾^(٤) ، ومؤولاً بصفة مشبهة

، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾^(٥) ، ف "أعلم" هاهنا بمعنى عالم بكم ، إذ لا مشارك

لله تعالى في علمه بذلك ، و ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ بمعنى هيّن؟ إذ لا تفاوت في نسبة المقدورات

إلى قدرته تعالى"^(٦).

وهذه قاعدة أشار إليها الإمام ابن قتيبة في أكثر من موضع ، وفسّر وفقها بعض الآيات

؛ يقول ابن قتيبة :

"قد يأتي "أفعل" في معنى "فاعل" وأشباهها ، ولا يراد بها أفعل من كذا ، كقولهم: فلان

أوحد يراد به واحد زمانه ، وفلان أميل عن الحق وأنكب ، يراد به مائل وناكب، وفلان أوجل

أي ووجل .

قال الشاعر :

لعمرك ما أدري وإني لأوجلُّ على أيّنا تعدو المنية أوّل^(٧)

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ

عَلَيْهِ ﴾^(٨)؛ قال : "أهون" بمعنى : وهو هيّن عليه ، أي سهل عليه"^(٩).

(١) البيت في ديوانه (٣١٨/٢) .

(٢) سورة الروم : ٢٧ .

(٣) الصاحبي (ص ١٩٨) .

(٤) سورة النجم : ٣٢ .

(٥) سورة الروم : ٢٧ .

(٦) البرهان (٤/١٧١) .

(٧) البيت لمعن بن أوس المزني ، وهو في ديوانه (ص ٣٦) ، وفي ديوان الحماسة (٣/١١٢٦) .

(٨) سورة الروم : ٢٧ .

القاعدة الثانية والعشرون : متى علّق الله تعالى علمه بالأمر بعد وجودها، كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء .

وهذه القاعدة يروى بها إشكال معروف ، إذ جاء في بعض الآيات أن الله عزّ وجل شرع وقدّر كذا ، ليَعْلَمَ كذا ، فكيف يكون ذلك ، وعلم الله عزّ وجل محيط بكل شيء، فهو يعلم الأشياء قبل وقوعها كما يعلم الأشياء بعد وقوعها .

فإذا عُلِمَ المراد وهو أن هذا العلم المذكور إنما هو علم خاص يترتب عليه الجزاء ، فإن الإشكال يرتفع ، ذلك أن الله تعالى لا يحاسب الخلق على مقتضى ما في علمه سبحانه وتعالى فقط ، وإنما اقتضت حكمته وعدله أن لا يحاسبهم حتى يعملوا^(٢).

يقول فضيلة الشيخ السعدي (ت ١٣٧٦هـ) :

"متى علّق الله علمه بالأمر بعد وجودها ، كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء ، وذلك أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم ، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي ، والظواهر والبواطن ، والجليات والخفيات ، والماضي والمستقبل ، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال .

وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدّر كذا ؛ ليعلم كذا ، فوجه هذا : أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء ، وأما علمه بأعمال العباد ، وما هم عاملون قبل أن يعملوا، فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء ، لأنه إنما يجازي على ما وجد من الأعمال"^(٣).

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل من أشار إلى هذه القاعدة ؛ إذ يقول في تفسير قوله

تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾^(٤) :

"وعلم الله تعالى نوعان :

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٨٢)، وانظر : تفسير غريب القرآن (ص ٣٤٠) .

(٢) انظر : قواعد التفسير ، د. خالد السبت (٧٥٥/٢) .

(٣) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص ١٢٢) .

(٤) سورة سبأ : ٢١ .

أحدهما : علم ما يكون من إيمان المؤمنين ، وكفر الكافرين ، وذنوب العصيين ، وطاعات المطيعين قبل أن تكون .

وهذا علم لا تجب به حجة ، ولا تقع عليه مثوبة ولا عقوبة .

والآخر : علم هذه الأمور ظاهرة موجودة ، فيحق القول ويقع بوقوعها الجزاء .

فأراد الله عزّ وجلّ : ما سلطناه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمنين ظاهراً موجوداً ، وكفر الكافرين ظاهراً موجوداً .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾^(١) ، أي يعلم جهاده وصبره موجوداً يجب له به الثواب^(٢) .

وأعاد فأعمل هذه القاعدة في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ

يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾^(٣) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ^(٤) ؛ فقال :

"و" العلم " هاهنا مثله في قوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ

جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾^(٥) ، يريد : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما جاهدوا وتصبروا ، فيعلم الله ذلك ظاهراً موجوداً يجب به ثوابكم^(٥) .

(١) سورة آل عمران : ١٤٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص ٣١١-٣١٢) .

(٣) سورة الجن : ٢٧-٢٨ .

(٤) سورة آل عمران : ١٤٢ .

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٣٤) .

الباب السادس

الموازنة بين الإمام ابن قتيبة والإمام أبي عبيد القاسم بن سلام في التفسير وعلوم القرآن

وفيه تمهيد وفصلان :

- الفصل الأول: الموازنة بينهما في التفسير .
- الفصل الثاني: الموازنة بينهما في علوم القرآن .

التمهيد

أولاً : ترجمة الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام .

أ . اسمه ونسبه وولادته :

هو أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء ، ولد بهراة^(١) ، سنة ١٥٤ هـ ، وكان أبوه رومياً مملوكاً لرجل من أهل هراة ، ولذا نسب إليها ، فقيل : الهروي^(٢) .

ب . طلبه للعلم ورحلاته :

بدأ أبو عبيد بطلب العلم في بلده هراة ، ثم رحل منها قاصداً طلب العلم ، فكان أولى رحلاته إلى بغداد في حدود سنة ١٧٦ هـ ، وذلك لأنه روى عن قاضيه سعيد بن عبدالرحمن الجُمحي (ت ١٧٦ هـ) ، ثم إنه ارتحل إلى الكوفة ، وكان ذلك قبل نهاية سنة ١٧٧ هـ ، حيث سمع من قاضيه شريك بن عبدالله النخعي (ت ١٧٧ هـ) .

ثم تحوّل إلى البصرة بعد رمضان سنة ١٧٩ هـ ، وكان قصدها للسمع من حماد بن زيد ، فدخل البصرة فإذا هو قد مات ، وقد توفي حماد في رمضان سنة ١٧٩ هـ . ثم انتقل إلى الرقة^(٣) ، قبل وفاة شيخه معمر بن سليمان سنة ١٩١ هـ .

ثم عاد أبو عبيد إلى موطنه ، فعمل مؤدياً لأبناء هرثمة بن أعين القائد (ت في خلافة المأمون)^(٤) ، ثم مؤدياً ومعلماً لأبناء ثابت بن نصر الخزاعي (ت ٢١٠ هـ)^(٥) ، فلما تولى

(١) هراة : مدينة عظيمة من مدن خراسان ، ما كان بخراسان مدينة أجلّ ولا أحصن ولا أكثر خيراً منها ، بناها الاسكندر المقدوني على نهر آريوس ، وفتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر رضي الله عنه ، وخرّبها التار سنة ٦٨١ هـ ، وهي الآن مدينة أفغانية تقع غربي أفغانستان . [معجم البلدان (٣٩٦/٥) ، أطلس دول العالم الإسلامي (ص١٢ ، ١٣)] .

(٢) انظر : تاريخ بغداد (٣٩٢/١٤) ، بغية الوعاة (٢٥٣/٢) .

(٣) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، وهي الآن مدينة في شمال وسط سوريا ، وهي عاصمة محافظة الرقة ، تقع على الضفة الشمالية لنهر الفرات ، على بعد حوالي ١٦٠ كيلاً شرق مدينة حلب . [معجم البلدان (٥٩/٣) ، أطلس دول العالم الإسلامي (ص٦٤)] .

(٤) هرثمة بن أعين ، مولى بني ضبة ، أحد القواد الكبار في دولة بني العباس ، تولى ولاية أفريقية ، ثم خراسان ، مات في خلافة المأمون . [الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٠/٥)] .

(٥) ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي ، كان يتولى إمارة الثغور ، وحسن أثره فيها ، ويذكر عنه فضل وصلاح ، توفي سنة ٢١٠ هـ . [تاريخ بغداد (١٥/٨)] .

ثابت طرسوس^(١) سنة ١٩٢ هـ أوكل قضاءها إلى أبي عبيد ، فبقي قاضياً فيها حتى سنة ٢١٠ هـ .

وبعد هذه المدة عاد أبو عبيد إلى بغداد ، واتصل بعبدالله بن طاهر (ت ٢٣٠ هـ) ، فأكرمه وقدمه، وفرّغه للتأليف والتدريس ، ثم ارتحل أبو عبيد مع صاحبه يحيى بن معين (ت ٢٣٣ هـ) إلى مصر ، فدخلها سنة ٢١٣ هـ ، ثم قدما دمشق سنة ٢١٤ هـ ، فسمعا من شيوخها وحدثا عنهم .

ثم قدم أبو عبيد إلى بغداد مرة ثالثة ، ومنها خرج إلى مكة حاجاً سنة ٢١٩ هـ، وبعد إتمامه الحج توجه إلى المدينة زائراً ، ثم عاد بعد زيارته للمدينة إلى مكة ، وبقي فيها إلى أن توفاه الله عز وجل سنة ٢٢٤ هـ^(٢) .

ج . شيوخه وتلاميذه .

أخذ أبو عبيد عن علماء كثيرين يحملون ألواناً من المعرفة الغزيرة ، وقد حظي اللغويون والنحويون منهم بسهم وافر ، وكان في مقدمتهم : الكسائي (ت ١٨٩ هـ)، والفراء (ت ٢٠٧ هـ)، وأبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ)، وأبو عمرو الشيباني (ت ٢١٣ هـ)، والأصمعي (ت ٢١٤ هـ)، وأبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) .

كما أخذ الفقه والحديث وبقية علوم الدين عن عدد كبير من علماء عصره من الفقهاء والمحدثين ؛ منهم :

أبو يوسف (ت ١٨٢ هـ) ، ومحمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٢ هـ)، تلميذا أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) ، وعبدالله بن إدريس (ت ١٩٢ هـ)، وعبدالرحمن بن مهدي (ت ١٩٨ هـ)، وحفص بن غياث (ت ١٩٤ هـ)، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧ هـ)، وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ)، وطائفة .

(١) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب ، وهي الآن مدينة تركية ، تقع جنوب البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط في منطقة مرسين . [معجم البلدان (٢٨/٤)، أطلس دول العالم الإسلامي (ص ٤٢)].

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (١٠/٤٩٠)، إنباه الرواة (٣/١٢)، تاريخ بغداد (١٤/٣٩٢) .

أما التلاميذ فقد تلقى العلم على يد أبي عبيد كثير منهم ، فشيخ مثله في العلم والتدوين حريّ بأن يتلمذ له كثير من طلبة العلم ، ويروي عنه الجمّ الغفير ، وممن روى له وتلمذ عليه :

أحمد بن نصر بن زياد القرشي (ت ٢٤٥هـ) ، وعبدالله بن عبدالرحمن الدارمي (ت ٢٥٥هـ) ، ومحمد بن إسحاق الصاغاني (ت ٢٧٠هـ) ، وعباس بن محمد بن حاتم الدوري (ت ٢٧١هـ) ، ونصر بن داود بن طوق الصاغاني (ت ٢٧١هـ) ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، وإبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ) ^(١).

د . مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

لقي أبو عبيد قبولا عظيماً عند سائر أهل الفنون ، فاحتجّ به المحدثون، وأثنى عليه اللغويون ، ورضيه الفقهاء ، واثم به القراء ، وتلك منزلة عظيمة قلّ من بلغها من العلماء الجامعين .

يقول عنه الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) : "أبو عبيد أستاذ ، وهو يزداد كل يوم عندنا خيراً" ^(٢).

وسئل يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) عن الكتابة عن أبي عبيد والسماع عنه؛ فقال: "مثلي يسأل عن أبي عبيد ، أبو عبيد يُسأل عن الناس ، لقد كنت عند الأصمعي (ت ٢١٤هـ) إذ أقبل أبو عبيد ، فقال: أترون هذا المقبل؟ فقالوا : نعم ، قال: لن يضيع الناس ما حييَ هذا المقبل" ^(٣).

وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ) : "رأيت أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثّله إلا بجبل نفخ فيه الروح" ^(٤).

(١) انظر : تاريخ بغداد (٣٩٢/١٤) ، سير أعلام النبلاء (٤٩٠/١٠) ، وفيات الأعيان (٦٠/٤) .

(٢) تاريخ بغداد (٤٠٦/١٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٠٤/١٠) .

(٤) تاريخ بغداد (٤٠٣/١٤) .

هـ . عقيدته :

كان أبو عبيد ركناً من أركان أهل السنة في زمانه ، وقد ذكره اللالكائي (ت ٤١٨ هـ) في مَنْ رُسِمَ بالإمامة في السنة والدعوة، والهداية إلى طريق الاستقامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

ويشهد لهذا ما سطره أبو عبيد في كتبه المتعددة ، فهو يذهب في الإيمان مذهب أهل السنة والجماعة في أن الإيمان اعتقاد القلب مع قول اللسان وعمل الجوارح ، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان^(٢).

وفي باب الصفات ، يثبت ما أثبتته الله عزّ وجل وما أثبتته رسوله صلى الله عليه وسلم، كما جاءت ، ويعتقد أن ظاهرها مراد ، مع عدم التعرض لها بتكليف أو تمثيل أو تشبيه أو تعطيل ، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة^(٣).

وفي مسألة خلق القرآن ، يقول بقول أهل السنة والجماعة في أن القرآن كلام الله، وليس بمخلوق ، ومن قال بخلافه فهو كافر^(٤).

كما تولى أبو عبيد في مصنفاته المتعددة الرد على المخالفين لأهل السنة من الخوارج والرافضة والمعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدع .

و . وفاته :

اختلف في وفاة أبي عبيد ، ف قيل توفي سنة ٢٢٢ هـ^(٥)، وقيل سنة ٢٢٣ هـ^(٦).

والصحيح أنه توفي سنة ٢٢٤ هـ ، هذا ما رواه تلميذه وخاصته علي بن عبدالعزيز البغوي (ت ٢٨٧ هـ)، وعليه اقتصر الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)^(٧)، وابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ)

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤٥/١) .

(٢) انظر : كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص ٥٣، ٥٤) .

(٣) انظر : مختصر العلو للذهبي (ص ١٨٥، ١٨٦) .

(٤) انظر : كتاب السنة لعبدالله بن أحمد (١/١٢٩)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/٢٦٤) .

(٥) انظر : تاريخ بغداد (٤٠٦/١٤) .

(٦) انظر : إنباه الرواة (٢٣/٣) .

(٧) سير أعلام النبلاء (٥٠٧/١٠) .

(١)، وأكده ابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، وعدّه الأصح (٢).

ثانياً : صلة الإمام ابن قتيبة بالإمام أبي عبيد .

للإمام ابن قتيبة صلة وثيقة بالإمام أبي عبيد ، فقد انتفع كثيراً بعلمه وبمصنفاته .
يقول ابن قتيبة في مقدمة "إصلاح غلط أبي عبيد" مثنياً على أبي عبيد ، ومبيناً انتفاعه
بعلمه :

"ونذكر الأحاديث التي خالفنا الشيخ أبا عبيد رحمه الله في تفسيرها ، على قلتها في
جنب صوابه ، وشكرنا ما نفعنا الله من علمه" (٣).

وقد بين ابن قتيبة في أكثر من مصنف أن واسطته فيما يرويه من مصنفات أبي عبيد
هو أحمد بن سعيد اللحياني ، يقول ابن قتيبة :

"وكل حكاية نحكيها في هذا الكتاب عن أبي عبيد ، فإن أحمد بن سعيد اللحياني
صاحبه ، كان حدثنا بذلك عنه" (٤).

وسبق الحديث عن أن مصنفات أبي عبيد من أهم موارد ابن قتيبة في مصنفاته
المتعددة (٥).

ومما يؤكد ارتباط ابن قتيبة الوثيق بأبي عبيد ، هو مصنفاته التي علقها بمصنفات أبي
عبيد ، إما تميمياً لجهده ؛ كـ "غريب الحديث" الذي تمم به عمل أبي عبيد في "غريب
الحديث" .

وإما استدراكاً عليه ، كـ "إصلاح غلط أبي عبيد" الذي استدرك فيه على أبي عبيد في
مصنعه "غريب الحديث" ، أو "كتاب القراءات" الذي استدرك فيه على اختيارات أبي عبيد
في كتابه "القراءات" .

(١) غاية النهاية (١٨/٢) .

(٢) تهذيب التهذيب (٣١٦/٨) .

(٣) (ص٤٧) .

(٤) المصدر السابق (ص٤٧) .

(٥) انظر (ص١٩١) من هذه الرسالة .

ثالثاً : أوجه الشبه بين الإمام ابن قتيبة والإمام أبي عبيد .

قبل الشروع في الموازنة بين الإمامين في منهجيهما ، يحسن بي التنبية على أوجه الشبه بين الإمامين ، وهي كثيرة:

١ . فهما إمامان معدودان من كبار أئمة أهل اللغة ، ولهما عناية فائقة بالجوانب اللغوية في مصنفاتهما .

٢ . لهما عناية فائقة بتفسير كتاب الله تعالى ، وهما معدودان من أهل التفسير .

٣ . هما من كبار أئمة أهل السنة والجماعة ، ولهما مصنفات في تقرير عقيدة السلف والرد على من خالفهم من أهل الأهواء والبدع .

٤ . يشتركان في الكثير من الموارد ، لا سيما اللغوية منها .

٥ . يعيشان في فترة متقاربة ، إذ توفي أبو عبيد سنة (٢٢٤هـ) ، فيما كانت وفاة ابن قتيبة سنة (٢٧٦هـ) .

٦ . يشتركان في التصنيف في بعض الفنون ؛ كـ "غريب الحديث" ، و "غريب القرآن" ، و "القراءات" ، و "النحو" .

وكان لهذه الأوجه أثر كبير في تشابه منهجيهما في التفسير وعلوم القرآن ، بل وصل إلى حد التطابق في بعض الجوانب فيهما .

وفيما يلي موازنة بين الإمامين في التفسير وعلوم القرآن .

الفصل الأول

الموازنة بينهما في التفسير

قبل الشروع في الموازنة ينبغي التنبيه إلى أن الإمام ابن قتيبة لديه مصنفان في التفسير هما "تفسير غريب القرآن" ، و"تأويل مشكل القرآن" ، فيما مصنفات أبي عبيد في التفسير "غريب القرآن" ^(١) ، و"معاني القرآن" ^(٢) ، مفقودة ، وإنما وجد له أقوال في التفسير متناثرة في مصنفاته أو منقولة عنه ، ولهذا فإن الحديث عن منهجه في التفسير ليس دقيقاً ، وإنما هو تقريبي مبني على ما وُجد من أقواله التفسيرية ، وبالتالي فإن الموازنة بين الإمامين هي - أيضاً- تقريبية .

وعلى سبيل الإجمال يمكن القول بأن منهجهما في التفسير يتشابه في جوانب عدة ، كاعتمادهما الطرق الصحيحة في التفسير ، وعنايتهما بالقراءات وتوجيهها ، وإلمامهما باللغة والرجوع إليها في التفسير ، وظهور أثر صحة المعتقد على التفسير عندهما .

وتفصيل الحديث عن هذه الجوانب ^(٣) ، كالتالي :

١ . تفسير القرآن بالقرآن .

للإمامين اهتمام بهذا الطريق من تفسير القرآن الكريم ، وقد ظهر هذا الاهتمام في تفسيرهما ، وإن كان ظهوره عند ابن قتيبة بشكل أبرز .
ومن الأمثلة على هذا الوجه عند أبي عبيد :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ

(١) ذكره في الفهرست لابن النديم (ص٧٨) ، وإنباه الرواة (٢٢/٣) ، بغية الوعاة (٢٥٣/٢) ، طبقات المفسرين للداودي (٢٢/٣) .

(٢) ذكره في الفهرست (ص٧٨) ، إنباه الرواة (٢٢/٣) ، بغية الوعاة (٢٥٣/٢) ، طبقات المفسرين للداودي (٣٤/٢) .

(٣) سأقتصر بالتمثيل لهذه الجوانب بالأمثلة عند أبي عبيد ، إذ سبق التمثيل لهذه الجوانب عند ابن قتيبة في باب "منهج ابن قتيبة في التفسير" .

يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ ﴿١﴾؛ قال :

"عضل الرجل أخته وابنته يَعْضِلُهَا عَضْلًا ؛ إذا منعها من التزويج ، وكذلك عضل الرجل امرأته ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ ، يقال في تفسيره : إنه أن يطلقها واحدة ، حتى إذا كادت تنقضي عدتها ارتجعها ، ثم طلقها أخرى ، ثم كذلك في الثانية والثالثة ، يطوّل عليها العدة إلى الثالثة ، ويُضَارُّهَا بذلك ، يقال في قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ (٢) ، إنه هذا أيضا" (٣).

٢ . تفسير القرآن بالسنة .

من أوجه التشابه بين منهجي الإمامين : العناية بتفسير القرآن بالسنة ، وقد ظهر هذا جلياً في مصنفاتهما ، وإن كان أبو عبيد يفوق الإمام ابن قتيبة بهذا الجانب ؛ كيف لا؟! ، وهو إمام محدث حافظ .

ومن الأمثلة على هذا الطريق عند أبي عبيد :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (٤)؛ قال :

"ويشبه هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يرد الحوض أقوام فيختلجون" (٥) ، فأقول : أمي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك" (٦) (٧) .

(١) سورة البقرة : ٢٣٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢٣١ .

(٣) غريب الحديث (٢٨٢/٣) .

(٤) سورة المائدة : ١٠٩ .

(٥) يختلجون : أي يتنازعون ، وأصل الخَلَج : الجذب والنزع . [النهاية في غريب الحديث (٥٩/٢)] .

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته ح(٥٩٧٨)

(ص١٠٨٤) ، وأحمد في المسند (٣٨٨/٥) ، واللفظ له ، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

(٧) نقله النحاس في معاني القرآن (٣٨٢/٢) .

٣ . تفسير القرآن بأقوال السلف .

والتفسير بهذا الطريق من المعالم البارزة في منهجي الإمامين ، إلا أن ابن قتيبة يفوق أبا عبيد في هذا ؛ بل إنه يفوق جميع من سبقه من اللغويين من هذه الناحية .
ومن الأمثلة على هذا الطريق عند أبي عبيد :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَبْدِيكَ زَيْنَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾^(١) ؛ روى بسنده عن عائشة (ت ٥٨هـ) رضي الله عنها ، أنها قالت : "القلب والفتحة" ؛ ثم قال :
"وقد روي عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) - رضي الله عنهما - في هذه الآية أنها "الكحل والخاتم" ... ، والذي عليه العمل عندنا في قول عبدالله بن مسعود (ت ٣٢هـ) رضي الله عنه ؛ قال : "هي الثياب" ، قال أبو عبيد : يعني أن لا يبدين من زينتهن إلا الثياب"^(٢) .

٤ . العناية بالقراءات وتوجيهها .

يعد أبو عبيد أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب ، وكتابه من أجل ما صنف في علم القراءات ، جمع فيه الروايات والمعاني ، وتحدث فيه عن أهل القرآن من الصحابة والتابعين ، ومن اشتهر بالقراءة والإقراء ، وحوى الكثير من اختياراته في القراءات^(٣) ، وقد صنف إمامنا ابن قتيبة كتاباً في القراءات استدرك فيه على اختيارات أبي عبيد .
ومن هنا فهما إمامان في هذا الجانب ، ولهذا فقد كانت لهما عناية فائقة بالقراءات وتوجيهها عند تفسيرهم الآيات الكريمة .
ومن الأمثلة عند أبي عبيد :

في قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾^(٤) ؛ قال :

"في قوله : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، معناه الملك يومئذ ليس ملكٌ غيره ، ومن قرأ

(١) سورة النور : ٣١ .

(٢) غريب الحديث (٤/٣١٧) .

(٣) انظر : النشر لابن الجزري (١/٣٣) .

(٤) سورة الفاتحة : ٣ .

"مالك"^(١)، أراد أنه يملك الدين والحساب ، لا يليه سواه"^(٢).

وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾^(٣)؛ قال :

"من قرأ بغير ألف ذهب إلى الزلل في الدين ، كقوله تعالى : ﴿ فَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾^(٤)، ومن خفف^(٥)، أراد إزالتها عن موضعها"^(٦).

٥ . تفسير القرآن باللغة .

يعد أبو عبيد وابن قتيبة من كبار أئمة اللغة المتقدمين، وكان لهذا أثره في بروز المنهج اللغوي في تفسيرهما ، إذ كان لهما عناية بالغة بالجوانب اللغوية ، من بيان غريب الألفاظ، وأصولها في اللغة وتصريفها واشتقاقها وأوزانها، والاهتمام بأقوال العرب وأمثالهم، والعناية بشعر العرب والإكثار من الاستشهاد به، وبيان لغات العرب وأساليبهم.

ومن الأمثلة على هذه الجوانب اللغوية عند أبي عبيد :

أ . بيان غريب الألفاظ .

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾^(٧)؛

﴿ بِإِذْنِهِ ﴾^(٧)؛ قال :

"حَسَسْتُ الدابة أحسها : إنما هو نفضك عنها التراب ، والحسُّ في غير هذا القتل؛

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾^(٨).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ

(١) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف "مالك" بالألف، وقرأ الباقون "ملك" بدون ألف. [المبسوط (ص ٨٦)، النشر (٢١٣/١)].

(٢) نقله أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة (٣٣/١) .

(٣) سورة البقرة : ٣٦ .

(٤) سورة النحل : ٩٤ .

(٥) سبق عزو القراءتين (ص ٦٥٠) .

(٦) نقله مكّي في الكشف عن وجوه القراءات السبع (٢٣٦/١) .

(٧) سورة آل عمران : ١٥٢ .

(٨) غريب الحديث (٣٧٨/٤) .

شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴿١﴾؛ قال :

"فالحِضْرُ : الغَضُّ الحسن ، قال الله عزَّ وجل : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾" (٢).

ب . الاهتمام بالاشتقاق والصرف .

في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (٣)؛ قال :

"فإن المدارأة مهموز من درأت ، وهي المشاغبة والمخالفة على صاحبك ، ومنها قول

الله عزَّ وجل : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ ، يعني اختلافهم في القتل" (٤).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ﴾ (٥)؛ قال :

"والإربة والأرب والإرب : الحاجة ، ويقال : المأزئة والمأزئة ، وجمعها : مآرب من قول

الله عزَّ وجل : ﴿ وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ﴾" (٦).

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (٧)؛ قال :

"الصعيد : التراب ، وجمع الصعيد : صُعد ، ثم الصعدات جمع الجمع ، كما تقول :

طريق وطُرُق ، ثم طرقات" (٨).

ج . الاستشهاد بشعر العرب ونثرهم .

في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ (٩)؛ قال :

(١) سورة الأنعام : ٩٩ .

(٢) غريب الحديث (٢/٢٨٢) .

(٣) سورة البقرة : ٧٢ .

(٤) غريب الحديث (١/٣٣٧) .

(٥) سورة طه : ١٨ .

(٦) الغريب المصنف (٣/٩٨٤) .

(٧) سورة النساء : ٤٣ .

(٨) غريب الحديث (٢/١٢٥) .

(٩) سورة الحج : ٣٦ .

"فالقانع في التفسير : الذي يسأل ، والمعتبر : الذي يتعرض ولا يسأل ، ومنه قول الشماخ (ت ٥٢٢) :

لَمَّا الْمَرْءُ يُصَلِّحُهُ فَيُعْنِي مَفَاقِرُهُ أَعْفُ مِنْ الْقُنُوعِ^(١)

، يعني مسألة الناس .

وقال عدي بن زيد :

وَمَا خُنْتُ ذَا عَهْدٍ وَأَيْتُ بَعْدَهُ وَلَمْ أَحْرَمِ الْمَضْطَرُ إِذَا جَاءَ قَانِعًا^(٢)

، يعني سائلاً^(٣) .

في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾^(٤) ؛ قال :

"أصله أن يقال للرجل إذا قلَّ ماله: "قد تَرَبَّ"، أي افتقر حتى لصق بالتراب"^(٥) .

د . بيان لغات العرب .

في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا

كَسَبُوا ﴾^(٦) ؛ قال :

"يقال : رَكَسْتُ الشيء وأركسته لغتان ، إذا رددته ، قال الله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ

أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ ، وتأويله فيما نرى أنه رَدَّهم إلى كفرهم"^(٧) .

(١) البيت في ديوانه (ص ٢٢١) ، المفاقر : وجوه الفقر ، والقنوع : مسألة الناس ، ومعنى البيت : أن قيام المرء على حفظ ماله وتشميره أصون له من تبذيره مع المسألة . [لسان العرب، مادة "قنع" (٢٩٧/٨) ، ومادة "فقر" (٦٠/٥) .]

(٢) البيت منسوب له في اللسان (٣٧٦/١٥) ، مادة (وأي) ، وفيه : "أصل الوأي: الوعد الذي يوثقه الرجل على نفسه ، ويعزم على الوفاء به" .

(٣) غريب الحديث (١٥٦/٢) .

(٤) سورة البلد : ١٦ .

(٥) غريب الحديث (٩٣/٢) .

(٦) سورة النساء : ٨٨ .

(٧) غريب الحديث (٢٧٥/١) .

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبَّهَلْ فَجَعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١)؛
قال :

"باهلته : من الابتهاه وهو الدعاء ، قال الله عز وجل : ﴿ثُمَّ نَبَّهَلْ فَجَعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ، وقال لييد :

في قُرُومٍ سَادَةٍ مِنْ قَوْمِهِمْ نظر الدَّهْرُ إِلَيْهِمْ فَاِبْتَهَلُ^(٢)

يقول : دعا عليهم بالموت ، ومنه قيل : بهلة الله عليه ، أي : لعنة الله عليه ، قال :
وهما لغتان : بَهْلَةٌ الله عليه ، وبُهْلَةٌ الله عليه"^(٣).

وبهذا العرض يظهر التشابه الكبير بين منهجي الإمامين ابن قتيبة وأبي عبيد ، من حيث استخدام أساليب التفسير وطرقه، وإن كان الاختلاف بينهما من جهة مقدار العناية بكل طريق أو أسلوب .

وقد ظهر لي أن ابن قتيبة يتميز عن أبي عبيد بأمر ؛ منها :

١ . تفسير القرآن بالقرآن ، ظهر بشكل أكثر عند ابن قتيبة .

٢ . العناية الفائقة بتفسير السلف والاحتجاج به .

٣ . بيان الأصل اللغوي للألفاظ القرآنية ، والتوسع في ذلك .

فيما تميز أبو عبيد عن ابن قتيبة بأمر ؛ منها :

١ . تفسير القرآن بالسنة ، وإمامة أبي عبيد في السنة دور كبير في هذا التميز .

٢ . عدم وجود الإسرائيليات في أقوال أبي عبيد التفسيرية ، فيما تفسير ابن قتيبة مليء

بهذه الإسرائيليات .

٣ . العناية بتفسير آيات الأحكام والتوسع في الأحكام الفقهية كان ميزة ظاهرة عند

أبي عبيد في تفسيره .

(١) سورة آل عمران : ٦١ .

(٢) البيت في ديوانه (ص ١٣٣) .

(٣) غريب الحديث (٤/٢٣١) .

الفصل الثاني

الموازنة بينهما في علوم القرآن

كما كان التشابه بين منهجي الإمامين في التفسير كبيراً ، فإنه كذلك كان ظاهراً في منهجهما في علوم القرآن ، وليس غريباً هذا التشابه ، فهما يعيشان في بيئة واحدة وفي فترة متقاربة والعلوم التي يهتم بها الإمامان واحدة .

ويمكن تفصيل الموازنة بينهما من خلال الأمور التالية :

أولاً : التصنيف في علوم القرآن .

سبق الحديث أن الإمام ابن قتيبة لم يصنف شيئاً في علوم القرآن - بمعناه الاصطلاحي المتأخر - ، وإنما عرض لمواضيع علوم القرآن في مصنفاته المتعددة .

بينما نجد للإمام أبي عبيد بعض المصنفات في علوم القرآن ؛ وهي :

١ . كتاب "فضائل القرآن ومعامله وأدبه" ^(١) .

من أجل الكتب المصنفة في "فضائل القرآن" ، يضمّ بين دفتيه نحو سبعين باباً في قضايا تتعلق بعلوم القرآن الكريم ، تتوزع على خمسة أقسام :

القسم الأول : يتناول قضايا تتعلق بفضل القرآن الكريم ، ومعامله ، والاستماع إليه ، واتباعه والعمل به ، وتعظيم أهله وإكرامهم وتقديمهم ، وجمع القرآن وإثباته في كتاب واحد وإعرابه ، ولغاته ، والمرء فيه ، وغير ذلك .

القسم الثاني : يتناول فضائل سور القرآن الكريم وآياته .

القسم الثالث : يتناول قضايا تتعلق بحامل القرآن وقارئه ، من إكرام القرآن ، وتعظيمه وتنزيهه ، واتباعه والعمل به ، وتدبر آياته ، والمحافظة على جزئه وورده ، وعدم نسيانه .

القسم الرابع : يتناول مسائل تتعلق بالمصاحف ، كبيعها وشرائها ، ونقطها ، وتزيينها ، وتعظيمها ، ومسّ المشرك والمسلم غير الطاهر لها .

(١) حققه في رسالة علمية محمد تيجاني جوهرى سنة ١٣٩٣هـ ، وطبع الكتاب بتحقيق مروان العطية ومحسن خرابة ،

ووفاء تقي الدين ، نشرته دار ابن كثير بدمشق .

القسم الخامس : يتناول مسائل تتعلق بقراءات القرآن ، وحروفه ، وما اختلف فيه منها ، وما خالف خط القرآن العثماني ، وما رُفِعَ منه بعد نزوله ولم يثبت في المصاحف^(١) .

٢ . كتاب "الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن"^(٢) .

ألّف أبو عبيد هذا الكتاب في الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ، وسلك في ترتيبه مسلكاً لم يسبق إليه ، إذ قسّمه إلى ثلاثين باباً حسب الموضوعات فبدأ بفضله علم ناسخ القرآن ومنسوخه ، وتأويل النسخ في التنزيل ، ثم أعقبه بذكر أبواب فقهية : الصلاة ، الزكاة ، الصيام ، النكاح ، الطلاق ، الشهادات ، المناسك ، الجهاد ... إلى آخره .

وكان في كل باب يعرض للآيات المدعى عليها النسخ ، فيبين غريبها إن وجد ، وما قيل في ناسخها ومنسوخها ، والأحكام المستنبطة منها ، مع ذكر أقوال السلف فيها ، والمناقشة لها .

٣ . كتاب "شواهد القرآن" .

ألّفه أبو عبيد في جواز التمثيل والاستشهاد بالقرآن الكريم ، والاقْتِباس منه ، وقد ذكره السيوطي (ت ٩١١ هـ) ؛ فقال :

"ألّف قديماً في جواز المسألة الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام كتاباً ، ذكر فيه جميع ما وقع للصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين من ذلك ، أورده بالأسانيد المتصلة لهم"^(٣) .

٤ . كتاب "عدد آي القرآن" .

وهو كتاب ذكره المترجمون لأبي عبيد^(٤) ، ولكنه معدود في جملة ما فُقد من ميراثه .

ثانياً : موضوعات علوم القرآن التي بحثها الإمامان .

أ . أهم الموضوعات التي درسها الإمام ابن قتيبة :

١ . أسماء القرآن الكريم وسوره وأقسامه .

(١) انظر : مقدمة فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ١٩-٢٠) بتحقيق مروان العطية وآخرين .

(٢) حققه د. محمد بن صالح المدير في رسالة علمية ، وطبعته مكتبة الرشد في الرياض سنة ١٤١١ هـ .

(٣) تنوير الحوالك على موطأ مالك (٢/٢٤) .

(٤) انظر : الفهرست لابن النديم (ص ١٠٦) ، إنباه الرواة (٣/٢٢) ، وفيات الأعيان (٤/٦٣) ، معجم الأدباء

٢. نزول القرآن الكريم .
 ٣. نزول القرآن على سبعة أحرف .
 ٤. لغة القرآن .
 ٥. جمع القرآن الكريم .
 ٦. تواتر القرآن الكريم .
 ٧. فضائل القرآن الكريم .
 ٨. المحكم والمتشابه .
 ٩. النسخ .
 ١٠. القسم في القرآن الكريم .
 ١١. إعجاز القرآن الكريم^(١) .
- ب . أهم الموضوعات التي درسها الإمام أبو عبيد :
١. نزول القرآن على سبعة أحرف^(٢) .
 ٢. لغة القرآن^(٣) .
 ٣. جمع القرآن^(٤) .
 ٤. فضائل القرآن الكريم^(٥) .
 ٥. تلاوة القرآن وأحكامه^(٦) .
 ٦. عد آي القرآن^(٧) .
 ٧. علم الوقف^(٨) .

(١) وقد سبق الإحالة إلى هذه الموضوعات عند ابن قتيبة ، انظر : فصل " جهود ابن قتيبة في علوم القرآن " .

(٢) انظر : غريب الحديث (١٥٩/٣) .

(٣) انظر : فضائل القرآن (ص ٣٣٤) .

(٤) انظر : المصدر السابق (ص ٢٨٠) .

(٥) انظر : المصدر السابق (ص ٢١٦-٢٧٩) .

(٦) انظر : المصدر السابق (ص ١١١-٢١٥) .

(٧) انظر : غريب الحديث (١٤٥/٣-١٤٨) .

(٨) انظر : تفسير ابن المنذر (ص ١٣٢) .

٨. الاقتباس من القرآن^(١) .

٩. رسم المصاحف^(٢) .

١٠. النسخ^(٣) .

١١. أسماء سور القرآن وأقسامه^(٤) .

ثالثاً : طريقة العرض لموضوعات علوم القرآن .

ومن خلال هذا العرض لأهم الموضوعات التي درسها الإمامان يتبين التوافق في عدد منها ، وإن كان التفاوت في طريقة العرض ، وعندني أن الإمام ابن قتيبة أكثر توسعاً في عرضه ، إذ يتناول الموضوع بشكل نظري ويبحث كافة جوانبه غالباً ؛ فيكون المقصود بعرضه الموضوع نفسه ، بخلاف أبي عبيد فتناوله لغالب موضوعات علوم القرآن ، سواء في "فضائل القرآن" أو "غريب الحديث" مرتبط بما يذكره من الأحاديث والآثار ، فيقتصر في حديثه عن الموضوع بتعليقه على هذه الآثار ، وربما اكتفى بإيراد الأحاديث والآثار دون تعليق .

ومثال ذلك : موضوع "نزول القرآن على سبعة أحرف" .

نجد الإمام ابن قتيبة يفرد له باباً كاملاً في "تأويل مشكل القرآن" يذكر فيه الأحاديث في نزول القرآن على سبعة أحرف ، ثم يعرض أقوال أهل العلم في معنى الأحرف السبعة مع مناقشتها ، ثم يذكر الراجح من أقوال أهل العلم ويدلل ، ويبين وجه رجحانه ، ثم يعرض بعد ذلك لوجوه الاختلاف في القراءات ؛ لأنها ناتجة عن رخصة الأحرف السبعة ، ثم يختتم الحديث عن الموضوع ببيان الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف^(٥) .

بينما يقتصر عرض أبي عبيد لموضوع "نزول القرآن على سبعة أحرف" على سرد الأحاديث والآثار الواردة في الموضوع ، والتعليق عليها تعليقاً مقتضباً ، يوضح اختياره في معنى الأحرف السبعة^(٦) .

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن (١/٤٨٣) .

(٢) انظر : المصدر السابق (١/٣٨٠)، فضائل القرآن (ص٣٨٩-٤٠٣) .

(٣) انظر : الناسخ والمنسوخ (ص١٠-١٨) .

(٤) انظر : فضائل القرآن (ص٢٢٥) .

(٥) انظر : تأويل مشكل القرآن (ص٣٣-٤٢) .

(٦) انظر : فضائل القرآن (ص٣٣٤-٣٤٧) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خير خلقه وأشرف رسله نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد:

فإني أحمد الله عز وجل ، وأشكره على أن منّ عليّ بفضله وتوفيقه لإتمام هذه الرسالة، بعد أن عشت خلالها مع كتب الإمام الجليل ابن قتيبة ، وجنيت خلالها بفضل الله أطيب الثمار، إذ اطلّعت على معارفه وفنونه ، وقرأت الكثير من كتب التفسير وعلوم القرآن والحديث و الفقه وأصوله واللغة وغيرها من شتى الفنون لإنجاز هذا العمل، مما كان له أبلغ الأثر في إثراء حصيلتي العلميّة ، فالحمد لله أولاً وآخراً ، والشكر له ظاهراً وباطناً .

وبعد هذه الرحلة مع تراث الإمام ابن قتيبة خلصت إلى جملة من النتائج ، أذكر أبرزها فيما يلي :

❖ تفنن الإمام ابن قتيبة وبراعته في فنون شتى ، من أجلّها علم التفسير ؛ إذ كان له حظ وافر من تفسير القرآن والقيام على معانيه وأحكامه وجميع علومه ، كما كان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ، وكان عارفاً بتاريخ العرب وأيامهم وأنسابهم وتاريخ المسلمين وفتوحاتهم وغزواتهم ، وفوق ذلك أديب لغوي نحوي، تشهد مؤلفاته على علو كعبه وتميزه .

❖ اشتهر الإمام ابن قتيبة من بين اللغويين بإشهار مذهب السلف ، والدعوة إليه ، والدفاع عنه ، وهو من كبار الأئمة الذين أسسوا منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال باللغة العربية على مسائل العقيدة ، والرد على المخالفين ، كما هو واضح من كتبه المتعددة ، حتى لقبه شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بـ"خطيب أهل السنة" .

❖ يعد الإمام ابن قتيبة من أوائل الأئمة الذين اعتنوا بتفسير السلف ، وأكثروا من النقل عنهم ، ولم يسبقه أحد من اللغويين إلى مثل ذلك ، وقد تجلت عنايته بتفسير السلف في صور عديدة ؛ منها :

- أنه يقتصر في كثير من الآيات على تفسيرهم ولا يُجاوزه إلى غيره .
- التقليل من قيمة المنقول عن غيرهم ، والتوقف عن بعض التفسير لكونه لم يُنقل عنهم .
- قصر وصف "المفسرين" على مفسري السلف .

❖ أَلَّف الإمام ابن قتيبة كتباً عظيمة في شتى فروع العلوم الإسلامية ، امتازت بالأصالة والجدّة ، وحسن الترتيب والتنظيم ، وكانت لونهاً جديداً خالصاً من شوائب الاستطراد والتحليط ومساوئ التأليف والتصنيف ، ظهر من خلالها دور الإمام ابن قتيبة في إثراء المكتبة الإسلامية ، ليس بإضافة أجود المصنفات فحسب ، بل - أيضاً - بإسهامه في تطور مناهج البحث والتأليف .

❖ تنوع موارد الإمام ابن قتيبة وكثرتها وعلو قيمتها العلمية ، مما مكّن له من أسباب القوة ، وهياً له من وسائل التفوق والتبريز ، وكان أثر ذلك جلياً في مصنفاته ، التي نهل منها وتأثر بها العلماء والمصنفون من بعده في شتى الفنون .

❖ حين يذكر المشكل والجهود في دفعه ، فلا بد أن يُذكر الإمام ابن قتيبة ؛ إذ هو فارس ميدانه وسابق أقرانه فيه ، وغالبُ مصنفاته الشرعية شاهدة على ذلك ، إذ حملت عناوينها لفظ الإشكال وما في معناه من الاختلاف والغرابة ، كما أظهر محتوى هذه المصنفات عظيم ما قدّمه ابن قتيبة في هذا الباب ؛ إذ أجاب فيها عن الآيات المشكّلة بأجوبة كافية شافية ، نالت الاستحسان وتناقلها العلماء وسطروها في مصنفاتهم .

❖ للإمام ابن قتيبة جهود عظيمة في البلاغة القرآنية ، ولهذه الجهود قيمة تاريخية كبيرة تتعلق بنشأة البلاغة وتطورها إذ يُغفل الكثير من المؤرخين لنشأة البلاغة دور ابن قتيبة وإسهامه في تكوين هذه الفنون وتطورها ، كما يغفلون الحديث عن دوره العظيم - بل المؤسس - في وضع ضوابط البلاغة القرآنية التي تمنع من تأويل وتعطيل النصوص وإهدار دلالاتها ، وهو الأمر الذي وقع فيه الكثير ممن توسع في الفنون البلاغية .

❖ للإمام ابن قتيبة مفهوم خاص بالمجاز ، يختلف عن مفهومه اللغوي عند المتقدمين ، وعن مفهومه الاصطلاحي عند البلاغيين ، فالجواز عنده ليس هو التفسير والجواز إلى المعنى - كما هو عند المتقدمين كأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) - ، وإنما هو المجاز المقابل للحقيقة ، إلا أنه توسع فيه فأدخل فيه الكثير من الفنون البلاغية التي لا تدخل في مفهوم المجاز بالمعنى الاصطلاحي عند البلاغيين .

❖ ظهر من خلال الموازنة بين الإمامين ابن قتيبة وأبي عبيد التشابه الكبير بين منهجيهما في التفسير وعلوم القرآن ، ويعود ذلك للقواسم المشتركة بينهما ، فهما من كبار أئمة أهل السنة والجماعة ، ومعدودان من أهل اللغة وأئمة التفسير ، ويعيشان في فترة متقاربة ، وينهلان من موارد مشتركة .

إلا أن الإمام ابن قتيبة يتميز بأمور ، منها :

. تفسير القرآن بالقرآن .

. العناية الفائقة بتفسير السلف والاحتجاج به .

. بيان الأصل اللغوي للألفاظ القرآنية ، والتوسع في ذلك .

. في علوم القرآن يتميز بأنه أكثر توسعاً في عرض الموضوع ، وبحث كافة جوانبه.

ومع هذا لا أدعي أنني وفيت الموضوع حقّه كاملاً ، ولكن حسي أنني تناولت قضايا جديدة ، وأبرزت جهوداً عظيمة للإمام ابن قتيبة في التفسير وأصوله وقواعده ، وفي القراءات وعلوم القرآن عامة ، وهي جهود لم تُبرز ولم يكشف عنها كما كُشف عن جهوده الأدبية والبلاغية والنحوية .

وقد ظهر لي من خلال البحث عدد من الموضوعات الجديدة بالبحث والدراسة ، بعضها طُرق في هذه الرسالة بإجمال ؛ إذ الاستطراد فيها يحتاج إلى رسائل مستقلة .

ومن هذه الموضوعات :

١ . دفع الإشكال عند الإمام ابن قتيبة ، دراسة نظرية تطبيقية ، يُتناول فيها مظاهر عناية ابن قتيبة بدفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم ، وبيان أوجه دفع الإشكال عنده ، ويُدرس ذلك دراسة تطبيقية ، إذ تحصر الآيات المشكلة التي أجاب عنها، وتُصنف ضمن هذه الأوجه ، ويناقش كل جواب عن الإشكال وتستوفي دراسته .

٢ . ضوابط التفسير عند الإمام ابن قتيبة ، دراسة نظرية تطبيقية .

ظهر لي من خلال تفسير ابن قتيبة وردوده - لا سيما ردُّه تفسير أهل الباطل - عدداً من الضوابط التي أعملها في رد تأويلاتهم المنحرفة ، وبيان التفسير الصحيح ، فتجمع هذه الضوابط ، وتدرس نظرياً وتطبيقياً من خلال مصنفاته المتعددة .

٣ . المجاز ، مفهومه وشروطه عند الإمام ابن قتيبة .

للمجاز عند ابن قتيبة مفهوم خاص ، ومن هنا كان جديراً بالدراسة تحديد هذا المفهوم ، أما شروط المجاز عنده فتكمن أهميتها في كونها من أصل اللغة ، وتمنع من تأويل النصوص - لا سيما العقديّة منها - بحجة المجاز .

وفي الختام أسأل الله أن يغفر لي خطأي ، ويتجاوز عن تقصيري ، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون في ميزان حسناتي ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهارس

- أ- فهرس الآيات الكريمة.
- ب- فهرس الأحاديث والآثار.
- ج- فهرس الأعلام.
- د- فهرس الفرق والقبائل والجماعات.
- هـ - فهرس الأماكن والبلدان .
- و - ثبت المصادر والمراجع.
- ز- فهرس الموضوعات .

أ . فهرس الآيات الكريمة

رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة	
١	٦٧٩
٣	٩٧٢
٤	٤٩٢-٢٤٣
٥ . ٤	٥٤٥
٦	١٤٥
٧	٣٠٢-٣٠٠
سورة البقرة	
٢ . ١	٨٣٩-٧٣٦
٢	٢٣٣
٢	٧٣٥
٩	٧١٩
١٠	٤٨٩
١٦	٩١٧
١٧	٩٤٨
٢٥	٧٨٢
٢٦	٧٨٨-٤٥٤-١٢٩
٢٨	٢٨٣
٣٠	٢٤٠
٣٤	٩٣٢
٣٥	٣٠٠

رقم الآية	رقم الصفحة
٣٦	٩٧٣-٦٤٩
٤٣	٢٩٨-٢٩٧-٢٧٠
٤٥	٩٥٥
٤٧	١٣٠
٤٨	٢٠٣
٥٣	٧٣٩
٦١	٢٠٨-١٦٢
٦٣	٢٨٨
٦٧	٩٣٩-٤٦٣
٦٨	٤٩٣-٨٣
٦٩	٢٠٧-٨٣
٧١	٢٠٤
٧٢	٩٧٤
٧٣	٩٣٩-٤٦٣-٣٧٩
٧٩	٥٦٤-٣٦٨
٨١	٢٦٤
٨٨	٦١٦-٢٧٩
٩٣	٥٥١
١٠٢	٥٠٦-٣٨٨-٣٥٧
١٠٦	٨٢٤-٨١١-٨٠٩-٤٢٨
١١١	٩٥١-٢٨٩
١١٥	٨٢٠
١١٧	٤٨٩
١١٨	٧٨٢

رقم الآية	رقم الصفحة
١٢٣	٢٩٢
١٢٧	٩٤٩-٥٥٣
١٢٨	١٠٣
١٣١	١٠٣
١٣٨	٥٣٧
١٤٤	٨٢٠
١٥٨	٦٤٧-٦١٤
١٦٦	٢١٦
١٦٨	٢١٧
١٧١	٩٣٤-٥٦٩-٣٣٧
١٧٧	٦١٨-٥٥١
١٧٨	٩٣٦-٣٤١
١٧٩	٥٥٠
١٨٠	٨١٨-٤٧٢
١٨٢	٢١٥
١٨٣	٢٠٦-١٤٥
١٨٤	٨١٩
١٨٥	٨١٩-٥٩٢
١٨٧	١٣٣
١٨٨	٦٢٤-٣٤١-٣٠٤
١٨٩	٦١٨
١٩١	٣٤١
١٩٤	٥٣٧-٣٢٨
١٩٦	٩٥٧-٩٥٠-٥٦٥-٨٩

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٠٣	١٥٩
٢٠٤	٥٩٨-٣٠٠
٢٠٧	٥٠٦
٢١٣	٥١١
٢١٩	١٣٢
٢٢١	٢٦٢
٢٢٢	٩٧١-٧١٩
٢٢٣	٥٣٤
٢٢٤	٢٢٠
٢٢٥	٨٣٢
٢٢٦	٨٣٢
٢٢٨	٥٠٧-٢٧٠-٨٩
٢٢٩	٩٥٦-٧١٩
٢٣٠	٥٠٦
٢٣١	٩٧١
٢٣٣	٢١٧
٢٣٦	٢٨٠
٢٣٨	٥٦٢-٣٠٢-٥٨
٢٤٣	٥٧٧
٢٤٩	٥٠٦-١٠٦
٢٥٥	٩٢٩-٤٩٩
٢٥٨	٥٧٧
٢٥٩	٧٠٧-٩٦٣-٥٧٧-٣٠٠-١٦٧
٢٦٠	٦٤٨

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٦٤	٢٨٤
٢٦٦	٢٨٣
٢٧٤	٣٨٣
٢٧٥	٢٧٥
٢٧٨	٦٣١
٢٨٢	٧٠٢-٢٨١-٢٧٨-٢٧٧
٢٨٣	٦٦٨
سورة آل عمران	
٣.١	٨٣٩
٤.٣	٧٣٨
٧	-٧٨٠-٦٥٨-٤٠٠-٣٣٨-٩٢٦-٨٧٧-٨٧٥-٥٢ ٨٩٠-٧٩٠-٧٨٩-٧٨٨-٧٨٦-٧٨٤-٧٨٣
١٤	٨٦٢-١٦١
٣٣	٢٧٤
٣٩	٦٦٥-٦٠١
٤٠	٥٧٢
٤١	٦٠٧
٥٢	٩٠١
٥٣	٢٠٦
٦١	٩٧٦
٧٢	٣٢٩
٧٨	٦٨٢
٩٦	٧٧٧-٧٦٧

رقم الآية	رقم الصفحة
١٠٢	١
١٠٣	٥٦٣-١٣٣
١٠٤	٥١١
١٠٦	٩٤٩-٦٩٦-٥٥٣
١١٠	١٣٠
١١٠	٢٧٤
١١٢	١٣٣
١١٩	٦٠٧- ١٦٠
١٢٥	٦٦٤
١٢٧	١٥٨
١٣٣	٤٨٢-٢٩١-٢١٩
١٣٨	٤٦١
١٣٩	٦٣١
١٤٢	٩٦٢
١٥٢	٩٧٣
١٥٩	٨٩٧-٨٩٥
١٦١	٣٠٦-٢١٩
١٦٧	٥٦٣-١٦٢
١٦٩	٦٠٦-٤١٦-٧١
١٧٠-١٦٩	٤٣٥
١٧٠	٧١
١٧٣	٢٧٤
١٨١	٤٤١
١٨٧	٨٨٥

رقم الآية	رقم الصفحة
١٩٣	٧٣٢
سورة النساء	
١	٦٦٦-١
٢	٩٠١
٦	٢٨٠
١١	٥٨١
١٤-١١	٨١٨
١٤-١٣	٨١٩-٤٧٣
١٥	٨١٩
١٦	٨٢٩-٨١٩-٦٢٤-٣٠٥
١٩	٥٠٠
٢١	٣٢٧
٢٢	٦٠٥-٥٩٢
٢٣	٢٩٨
٢٤	٨٢٩
٢٥	٤٧٢-٤٧١-٣٠٩-٣٠٨
٢٩	٣٣٠
٢٩	٣٣٩
٣٦	٥٦٣-٢٠٨
٤٣	٩٧٤-٧١٩-٥٣٤-٢٠٤
٥١	١٥٩
٥٩	٨٧٧
٦٥	٣٩٣

رقم الآية	رقم الصفحة
٦٦	٢٢٦
٦٩	٥٩٢-٣٠٠
٧٩	٥٨٣
٨٢	٧٢٠-٧١٧-٦٩٠
٨٣	٨٨٢-٥٧٣
٨٦	٦٠٠
٨٨	٩٧٥-٦٦٩
٩٢	٢٧٧
٩٥	٧٤٨
١٠٠	٣٠٠-٢١٩
١٠٥	٢٦٧
١١٥	٣١٩
١١٩	٢٦٨
١٢٥	٩٢٨-٣٥٧
١٣٥	٦٨٣-٦٨٢-٦٤٤
١٤١	٥١٣
١٤٥	٦٠
١٤٦	٦٠
١٥٧	٤٣٣-٢٠٩
١٦٢	٧٢٤
١٦٤	٩٢٠-٤١٣
١٧٦	٥٥٥
سورة المائدة	

رقم الآية	رقم الصفحة
١	٤٨٣-٢٧١
٣	٢٧١
١٢	٣٩٧
٢١	٢٠٥
٣١	٨٤٩
٣٨	٣١٣-٢٩٨
٤٤	١٠٢
٥٢	٥١٣
٥٤	٩٤٢
٦٤	٩٣٣-٤٢٠-٤١٩-٤١٨
٦٩	٧٢٣
٧٥	٥٣٥-٥٣٣
١٠٣	٢٢١
١٠٦	٦١١-٣٥٧
١٠٧	٦١٢
١٠٨	٦١٢
١٠٩	٩٧١
١١٦	٥٧٥-٥٧٤
سورة الأنعام	
١٤	٣٤٥
١٧	٢٠٦
٢٥	٢٧٩
٣١	١٠٦

رقم الآية	رقم الصفحة
٣٣	٦٤٩
٣٨	٥٦٤-٥١١
٥٥	٧٤٦
٧٠	٢٠٤
٧٤	٦٦٧-٣٨٧-٣٨٦
٧٥	٤٣٠-٣٨٢
٧٦	٩٤٥-٤٣٠-٣٨٢-٣٨٠
٧٩-٧٦	٣٨٢
٨٢	٢٦٣
٩٣	٥٠١
٩٥	٤٧٧
٩٧	٢٦٢
٩٩	٩٧٤-٥٩٨
١٠٣	٧٠-٦٩-٦٨
١٠٥	٢٦٢
١٠٩	٨٥١-٨٤٧
١١١	٦٧١
١٢٢	٥٢٩
١٢٥	٤٥٦
١٣٠	٩٥٦
١٤٠	٥٦٣
١٤٤-١٤٣	٢٧٢
١٤٥	٨٢٨-٣١٢
١٤٦	٥٣٠

رقم الآية	رقم الصفحة
١٥٣	٨٣
١٥٤	٥٩١
١٦٣	٢٧٤-١٣٠
سورة الأعراف	
١١	٣١٠
٢٩	١٦٢
٣١	٣٤٢
٤٣	٩٠١
٤٦	٢٧٢
٥٣	٨٧٧-٨٧٥
٥٧	٦٧١
٧٣	٨٤٧-٥٥٤
٨٩	٣٤٥
٨٩	٥١٣
١٠٥	٨٩٩
١٠٧	٣٨٣-٢٨٤
١٤٠	١٣٠
١٤٣	٥٩٩-٤٢٨-٢٧٤-١٣٠-٧٠-٦٩
١٤٥	٢٨٧-١٠٦
١٥٠	٢٢٢
١٥٥	٥٥٦-٣٩٧
١٥٧	٤٨٥
١٦٣	٣٠٠

رقم الآية	رقم الصفحة
١٧١	٢٨٨
١٧٢	٣١٠-٩٦
١٧٥	٢١٥
١٧٦	٢٠٧
١٧٩	٩٣٠-٤٥٦-٣٥٦
١٨٢	٢٢٢
١٨٩	٣٣٤
١٩٠	٣٣٤
١٩٣	٢٠٧
١٩٩	٨٦١-٨٦٠-٥٤٩-٥٩
سورة الأنفال	
٢٠	٣٩٤
٢٤	٧٧٧
٢٥	٣٠٦
٣٢	٦١٧
٣٣	٣٢٨
٣٤-٣٣	٦١٧
٥٨	٣٤٧
٥٩	٦٨٠-٦٤٥
٦٥	٣٩٧
٦٨	٤٣١
سورة التوبة	
١٩	٥٥١

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٢	٣٩٦
٣٠	٤٢٠-٢٧٩
٣٥	٩٥٤
٤٠	٣٠١
٥١	٢٠٦
٥٥	٢٤١
٦٠	٣٢٩-١٣١
٦١	٧٢٥
٦٢	٩٥٥
٦٦	٥٨١
٦٩	٣٨٣-٢٨٠
٧٩	٦٤٨
٩٩	٢٨٠-٩٠
١٠٠	٣١٩
١٠٣	٩٠
١٢٨	٣٢٦
١٢٩-١٢٨	٧٥٢
سورة يونس	
٢٢	٥٤٤-٥١٢
٢٧	٦٦٧
٣٠	٦٦٣-٦٤٥
٣٤	٥٧٦
٣٥	١٦٦

رقم الآية	رقم الصفحة
٤٩	٢٠٦
٥٤	٥٦٣-٥٠٨
٧١	٦٤٢-٥٥٢
٨٢	٥٥١
٨٣	٥٧٩
٨٤	٩٥٠
٩٤	٦١٠-٨٥٢-٥٨٠-٤٩٤-٢٦٦
٩٩	٦١٦-٦١١-٤٥٥
١٠٠	٦١٦-٦١٥-٤٥٥-٤٥٤
سورة هود	
١	٧٩٠-٧٨٣-٧٨١-٧٤٦
٦	٣٣٩
٨	٥١١
١٠	٥١٢
١٤	٥٧٩-٥٤٥
١٥	٩٥١
١٧	٩٥١-٥٨٣
٤٣	٦٠١-٤٨٩
٦٣	٢٨٠
٧١	٥٧٣-٣٨٥-٣٣٠-٢٤١
٧٨	٦٩٣
٨٢	٨٦٢
٨٧	٥٦٦

رقم الآية	رقم الصفحة
٩٢	٤٩١
٩٥	٥٠٠
١٠١	٢٨١-٢٨٠
١٠٨	٦٢٩
١٠٧-١٠٦	٩٥٩
١١٤	٩٤٣-٩٤٢
سورة يوسف	
٢	٨٦٤-٥١٥-٣٤٤
٣	٥٧٩-٢٨٤
١١	٦٦٤
١٢	٦٤٦
١٥	٤٨٦
١٨	٩١٧
٢٤	٩٤٥-٦١٠
٢٩	٥٠٢-١٦٦
٣١	٧١٨-٥٣١-٥٢٥
٣٥	٧٠١-٦٩٦
٤٥	٩٤٧-٧١٧-٧٠٦-٥١١
٤٩	٣٥٣
٥٣	٦١٠
٧٦	٢١٥
٧٧	٩٥٢-٣٨٠
٨١	٦٤٨

رقم الآية	رقم الصفحة
٨٢	٥٧٠
٨٥	٨٣٧-٨٣٦-٥٥٥
٩٢	٣٠٣
١٠٠	٩٣٠
١١٠	٩٤٦-٧٠٨-٦٥٠-٣٣٤-٣٣٢-١٥٧
سورة الرعد	
٤	٥٤٩-٥٩
١٧	٢٨١
٢٧	٣٥٦
٣١	٩٥١-٩٤٨-٧٠٣-٥٥٢-٤٥٥
٣٥	٦١٩
٣٩	٨١٠-٢٢٦
٤١	٣٤١
سورة إبراهيم	
١	٧٣٥-٢٣٣
٤	٩١٥-٧٠٤-٧٠٢-٧٠١-٣٤٤-٢٣٧
٩	٦٠٧-١٥٩
١٠	٨٤٧
١٦	٥٢٥-٥٠٨
٢٢	٦٧٧-٦٧٣-٦٤٤
٢٦-٢٤	٥٢٤
٢٧	٢٢٦
٢٨	٦٢٩

رقم الآية	رقم الصفحة
٤٣	١٦١
٤٦	٧١٩-٦٤٧
٤٧	٥٧٢-٥٦٧
٥٠	٦٤٤-٥٦
سورة الحجر	
٩	٧٦٠-٧٥٧-٧٥٦
١٧	٢٦٨
١٥-١٤	٨٨٩
٢٦	٥٩٨-١٦٧-١٠٤
٢٩	٣٥٧
٤٢	٣٩٠
٥٤	٦٨٤-٦٤٥
٨٧	٧٤٣-٦٢٢-٢٦٣
٩١	٣٣٠
٩٣-٩٢	٢٨٨
سورة النحل	
٨	٩٥٧
١٣	٩٠١
٣٨	٨٣٣
٤٠	٩٢١-٤١٣
٤٤	٣٢٣-٢٩٤
٤٧	٤٨٠
٤٨	٤٧٨

رقم الآية	رقم الصفحة
٥١	٤٥١
٥٤	٢٠٦
٦٤	٢٩٤
٦٧	٣٣٧
٦٨	٩٠١
٦٩	٢٧٥
٧٠	٢٨٢
٧٤	٤١١-٤١٠
٧٥	٣٤٠
٨١	١٦١
٩٢	٣٣٥
٩٣	٥١٢-٤٥٤
٩٤	٩٧٣
٩٩	٣٩٠
١٠١	٨١٨-٨١٠
١٠٣	١٦٠
١٠٨	٢٤٢
١١٠	٩٥٢
١١٢	٥٣٠-٢٧٥
١٢٠	٥١١-٥٨
١٢١	٥٩٧
سورة الإسراء	
١	٨٥٤-٣٩٩

رقم الآية	رقم الصفحة
٧	٥٥٤
٨	١٥٧
١٢	٤٨٩
١٣	٤٩٦-٣٣٦
١٦	٦٤٨
٢٣	٥٥٤
٣٥	٨٦٢-٦٦٩
٣٦	٨٨١-٢١٢
٤٤	٩٢٢
٤٧	١٦٠
٤٨	١٦٠
٦٠	٥٦
٧١	٣٣٠
٧٣	٩٠٣
٧٥	٥٥١
٧٨	٧٣٣-٦٣١-٢٣٣
٩٢	٦٧١-٢١٥
٩٧	٤٩٩
١٠١	١٦٠
١٠٢	٧٠٨
١٠٦	٧٤٦
سورة الكهف	
١	٧٧٢-٢٤١

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٠١	٥٧٣
٢	٢٤١
٦	٤٨٣
٢٨	٤٩١-٣٣٦
٣٠	٨٩٦
٣١	٨٦٣-٢١٠
٤٥	٤٥٧-١٤٥
٥٠	٤٧٧
٥٣	٥٠٦
٥٥	٢٢٢
٦١	٩٥٦
٦٢	١٣١
٦٣	٩٥٦
٧٣	٣٣٨
٧٧	٩١٧-٩١٤
٧٩	٥٠٨
٩٤	٢٢٦
١٠١	٢٧٩
١٠٤	٦٤٠
١٠٩	٧٩٥-٢٣٧
سورة مريم	
١١	٦٠٦
١٢	٣٧٢

رقم الآية	رقم الصفحة
٦٠٥	٣٨٦-٣٧٢
٧٠٥	٣٠٨-٣٠٧
٦٥	٤١٠
٧٤	١٦٤
٩٦	٦٠٦
سورة طه	
٢٠١	٢٨٥
٥	٤١٦-٣٥٧
٩	٢٨٥
١٥	٦٤٢
١٨	٩٧٤
٢٠	٢٨٤
٣٩	٦٠٦
٤٦	٩١١
٤٩	٥٤٥
٦٣	٧٢١-٦٤٥
٧١	٩٠٠
٧٩	٥٦٣
٨٧	٥٢٩-١٣٢
٩٦	٦٤٣
١١٧	٥٤٥
١٢١	٩٢٨-٤٣١
١٢٢-١٢١	٤٣٠

رقم الآية	رقم الصفحة
١٢٩	٥٧٣
١٣٣	٢٢٧
سورة الأنبياء	
١٠	٧٤٠-٢٦٧
١٣-١٢	٥٦٧
٢٠-١٩	٤١٦
٣٢	٢٦٨
٣٧	٥٧٢
٤٢	٥٧٥
٤٨	٧٣٩
٥٠	٧٣٢
٥٧	٨٣٣
٧٧	٩٠٣
٨٧	٩٤٥-٤٣٢-٣٧٠-١٦٧
٨٨	٦٦٦-٦٤٤-٢٢٨
٩٠-٨٩	٣٠٨
٩٧-٩٦	٤٨٦
١٠٤	٦٢٩
١٠٥	٧٣٢
سورة الحج	
٥	٦٠١
١١	٢٣٠
١٥	٩٥٣

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٥	٤٨٥
٣٠	٢٧١
٣٦	٩٧٤
٤١	٥٥٦
٤٦	٥٦٥-٢٣٨
٥٢	٣٨٩
٧٣	٢٠٥-١٢٩
سورة المؤمنون	
١	٤٨٥
١١	٨٦٣
١٢	١٠٥-١٠٤
٢٠	٤٨٦
٢٨	٤١٦
٤٠	٨٩٥
٤٤	٥٩٩
٥٠	٥٩٦
٥١	٥٧٩-٤٩٥-٢٧٤
٥٢	٥١٢
٥٣	٥١٢
٦٧	٦٤٣
٧٩	٩٣١-٤٥٧
٨٩	١٦٠
٩٩	٥٧٩

رقم الآية	رقم الصفحة
١٠١	٦٢٦
سورة النور	
٢	٥٨١-٣٩٦
١١	٤٧٧
١٣	٣٩٦
١٥	٧١٧-٧٠٧-٦٩٣
٢٠	٩٥١-٥٥٣
٢٢	٣٠١
٢٦	٥٨٢
٢٧	٢٨٠
٢٩	٢٨١
٣١	٩٧٢
٣٩	٥٠٠
٥١	٩٤٧
٥٣	٩٤٩
٦١	٦١٦-٣٣٩-٣٢٩-٢١٧
٦٣	٣٩٤
سورة الفرقان	
١	٧٣٨
٥	٨٥٩-٧٠٢
٧	٥٣٣
١٢	٩٢٢
١٨	٧٣٩-٦٦٢

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٧	٩٣٨-٤٦٤
٢٩-٢٧	٩٤٣
٢٨	٩٣٨-٤٦٤-٤٦٣
٢٩	٩٣٩-٤٦٤
٣٢	٧٤٧-٧٤٦-٧٤٥-٢٦٩
٣٣	٨٧٣
٤٥	٧٠-٦٩
٦٣	٥٠١
٦٨	١٣٢
٧٤	٥٧٠-٥٦٩
٧٧	٢٠٥
سورة الشعراء	
٣	٢٨٦
١٥	٩١١
٢٠	٢٨١
٢٧	٧٠٩
٣٧	٦٧٠
٦٠	٤٩١
٧٧	٥٧٢
٨٤	٤٨٤
٩٤	٥٩٩
١٤٩	٥١٣
١٥٣	١٦٠

رقم الآية	رقم الصفحة
١٦٥	٥٧٦
١٩٥	٧٠٤
١٠١-١٠٠	٢٩٢
٢٢٧	٢٤٠
١٣٠-١٢٨	٣٨٣
١٩٥-١٩٢	٨٦٤
١٩٥-١٩٣	٣٤٤
سورة النمل	
١	٣٨٣
١٠	٢٨٤
١٤-١٣	٧٠٩
١٦	٤٦٢-٣٠٨-٣٠٧
١٧	٤٧٩
١٩	٤٧٩
٢٣	٢٧٥
٣٥	٥٨٢
٣٧	٥٨٢
٤٩	٨٣١
٦٦-٦٥	٦٢٠
٨٧	٧٠٢-٦٢٣
٨٨	٥٢٦
سورة القصص	
١٠	١٦١

رقم الآية	رقم الصفحة
٣٢	٨٤٧
٣٨	٢٧١-٢٦٤
٥٨	٣٣٣
٦٥	٥٧٥
٧٦	٥٧٠-٥٦٩-٥١٢
٨٢	٢٤٢
٨٥	٢١٣-٢١٢
سورة العنكبوت	
١٢	٤٨٦
١٣	٥٢٩
٤١	١٢٩
٦٧	٤٨٩-٢١٢
٥١.٥٠	٨٤٥
سورة الروم	
٢٢	٥٥٠
٢٦	٥٨
٢٧	٩٦١-٩٦٠
٢٨	٥٧٦
٣٩	٥٤٤
٤١	٣٠٦
سورة لقمان	
٢	٧٩٠
١٣	٢٦٣

رقم الآية	رقم الصفحة
٣٣	٥٠١
سورة السجدة	
١٢	٩٤٩-٥٥٣
١٣	٤٥٥
٢٣	٢٨٧-١٠٦
٢٤	٥٧٠
٢٩-٢٨	٥١٣
سورة الأحزاب	
١	٥٨٢-٤٩٤-٢٦٦
٢	٥٨٢-٢٦٦
٤	٩١٨
٩	٩٤١
١٠	١٦٤
١٣	٤٩٢
٢٥	١٥٨
٣٥	٥٨
٣٦	٣٩٤
٦٠	٢٠٩
٧٠	١
٧١	١
سورة سبأ	
١٠	٩٢١
١٤	٦٤٢

رقم الآية	رقم الصفحة
١٦	٧٠٣
١٧	٦٩٣
١٩	٧١٩-٧٠٧-٤٩٣
٢٠	٢٦٧
٢١	٩٦٢
٢٣	٧٠٧-٦٩٣
٢٦	٥١٣
٤١-٤٠	٦٦٣
٤٧	٣٢٧
٥٤-٥١	٢٦٥
سورة فاطر	
١	٩٦
٤	٩٥٠
٨	٨٩٢-٨٩١
١٠	٤١٦
١٢	٩٥٦
٣٣	٢٩٢
٤١	٥٥٥
٤٣	٦٧٩
٤٥	٩٥٣-٥٥٥
سورة يس	
٢-١	٨٣٩
١٢	٢٨٢

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٥	٦٢٧
٢٩	٦٩٤
٣٥	٦٩٤
٣٨	٦٤٦
٣٩	٥٢٤
٥٥	١٦٧
٥٦	٦٦٨
٦٠	٦٩٦
٧٦	٥٨٦
سورة الصفات	
٢٢	٤٩٥-٢٢
٤٩	٥٢٤
٦٤	٥٦
٦٥-٦٤	٣٤٠
٦٥	٥٦
٨٤	٩٤٦-٤٣٠-٣٨٢
٩٣	٥٦٤
١٠٣	٤٨٦
١٣٩-١٤٠	٣٨٠
١٤١	١٦٦
١٤٢	١٤٢
١٤٥	٦١٢
١٤٦	٥٩٦

رقم الآية	رقم الصفحة
١٤٧	٩٠١
سورة ص	
١	٨٤١-٨٣٩-٨٣٨-٧٤٠
٢	٨٤٢
٣	٢٦٥
١٠	٥٧٦
١٥	٥٣٠
١٩-١٨	٩٢١
٢٤	٩٠٢
٢٩	٣٩٩
٣٢	٥٥٥
٣٢	٩٥٣
٤١	١٣١
٤٥	٩٣٣-٤١٩
٧١	١٠٤
٧٥	٤١٨
سورة الزمر	
٦	٢٧١
٨	٥٨٠-٢٦٧
٩	٩٥٢-٥٥٣-٣٠٣-٥٧
٢٣	٧٤٣
٢٣	٧٨٤-٧٨٣
٢٨	٨٦٤

رقم الآية	رقم الصفحة
٣١	٦٢٦-٢٨٩-١٦٥
٤٢	٤٩٥
٦٣	٨٦٣
٦٥	٩٣٧
٦٧	٤٢٢
٧٣	٨٩٦-٥١٣-٤٨٦
سورة غافر	
١١	٢٨٣
٣٧	٢٨١
٤٦	٦٠٩-٦٠٨-٤٣٥-٧١
٦٩	٢٧٩
٧٥	٥١٣
٧٨	٨٥١-٨٥٠
٨٣	٥١٢
٨٥-٨٤	٢٦٦
سورة فصلت	
٣	٣٤٤
٥	٢٧٩
١١-٩	٦٢٧-٢٨٩
١١	٩٢١
٢٠	٥٣٥
٢٦	٧٥٨
٤٠	٦٦٩

رقم الآية	رقم الصفحة
٤٢ - ٤١	٧٦٠
٤٢	٧٧٢-٧١٧
٤٤	٨٦٥
٥٣	٢٤٠
سورة الشورى	
١١	٩٣١-٤٩٦-٤٥٧-٤١٢-٤١٠-٤٠٧-٣٠٣-٦٩
٢٣	٣٢٦
٣١	٨٤٩
٤٠	٥٣٧
٥١	٩٣٢-٢٨٧-١٠٥
٥٢	٨٢
سورة الزخرف	
٣	٩٢٩-٧٠٤-٣٥٦-٣٤٤
٥	٢١٠
١٣	٥٠٠
١٥	١٦٨
٢٢	٥١٢
٣٦	٢٣٧-١٥٩
٤٥	٥٨٣-٢٦٦
٥٦	٦٦٧
٥٧	٥٩٩
٦١	٦٤٧
٧١	٢٩١

رقم الآية	رقم الصفحة
٨٠	٥٦٢
٨١	٦٢٨-٥٩٥
٨٤	٤١٧
٨٧	٩٦
سورة الدخان	
٢٩	٥٣٨
٣٦	٥٧٩
٣٧	١٣٠
٤٩	٦٠٨-٥٦٧
٥٦	٦٠٥
سورة الجاثية	
١٠	٥٠٨
٢٩	٢١٤
سورة الأحقاف	
٢٥	٢٧٥
٢٦	٨٩٧
سورة محمد	
٦	٣٣٦
١٣	٥٥١
٢٠	٦٤٢-١٦٣
٢١	٩١٧
سورة الفتح	

رقم الآية	رقم الصفحة
٩٠٨	٥٤٥
١٢	٧٠٣
٢٧	٦٣٠
٢٩	٤٧٧-٣٨٧-١٥٨
سورة الحجرات	
٤	٥٨١
٧	٥٤٤
٩	٤٩٨
٩	٥٩٣
١١	٦٣٠
سورة ق	
١	٨٣٩-٨٣٨
٣-١	٨٣٧-٥٥٤
١٠	٦٦٣-٣٤١
١٧	٩٥٥-٦٠١-٥٥٤
١٩	٧١٨-٦٩٤
٢٤	٥٨٠
٢٨	٢٨٩
٣٠	٩٢١
سورة الذاريات	
٥٧	٨٩٦
٥٩	٥٣١
سورة الطور	

رقم الآية	رقم الصفحة
٩	٣٣٨
٢٥	٦٢٦
٢٧	٢٩١
٣٠	٤٨٣
٣٨	٥٧٧
٤٤	٤٦١
سورة النجم	
١	٧٤٦
٤	٢٩٤
٦	٣٠٤
٨	٥٧٢-٥٦٧
٣٢	٣٣٩
٣٢	٩٦٠
سورة القمر	
١	٨٥٥-٥٦١
٢	٨٥٦
٨	٣٣٦
١١	١٠٥
١٢	١٠٥
١٥	٩٥٨-٦٠٠-٥٦١
٢٠	٨٤٩
٤٩	٥٧٩
سورة الرحمن	

رقم الآية	رقم الصفحة
٦	١٦٢
١٣	٢١٣-٥٥٩-٥٦٠-٩٥٨
١٤	١٠٤
٢٠-١٩	٩٥٦
٢٢	٩٥٥-٩٥٦
٣٧	٢٨٩
٣٩	٢٨٨
٤٦	١٦٣-٢٣٦-٢٤٠-٩٣٤
٤٨	١٦٤-٢٣٦-٩٣٥
٥٠	١٦٤-٢٣٦-٩٣٥
٥٢	١٦٤
٥٤	١٦٤
٦٨	٥٦٢
٧٦	١٥٨
سورة الواقعة	
٦٠٥	٢٨٣
١٨-١٧	٥٥٢
١٧-١٩	١٣٢
٢٦-١٨	٢٩١-٢٩٢
١٩	٦٠-٥٥٠
٢٢-٢٠	٥٥٢
٢٨	٣٠٤
٢٨-٣٣	٢٩٢

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٩	٦٩٤-٦٦٣-٣٤١-٣٤٠
٣٠	١٥٧
٣٣	١٣٢
٤٤-٤٣	٢٩١
٦٥	٧٠٣
٧٣	٢٨١-٢١١
٧٥	٨٤١-٨٣٤-٨٣٢-٧٤٧
٧٦	٨٤١
٧٧	٧٣٢
سورة الحديد	
١٣	٢٧٢
٢٠	٤٧٦
٢٤	٦٩٤
سورة المجادلة	
٣	٩٤٩-٢٧٨-٢٧٧-٨٩-٨٨
٧	٤١٧
سورة الحشر	
٧	٨٢٤-٣٩٥-٣١١
سورة الممتحنة	
١	٣٣٥
١١	٦٤٩
سورة الصف	

رقم الآية	رقم الصفحة
٦	٣٨٧
١٤	٩٠٢
سورة الجمعة	
٨	٨٩٦
٩	٦٢١
١١	٩٥٤
سورة المنافقون	
٤	٥٩٨-٥٥٠
سورة الطلاق	
١	٨٢٥-٥٨٣
٢	٢٧٧
٤	٩٠-٨٩
٨	٦٧٠
سورة التحريم	
٤	٥٨١
سورة الملك	
٥	٢٦٨
٨	٩٢٢
٢٧	٥٩٦
سورة القلم	
٥	٦١٣
٦	٨٩٧

رقم الآية	رقم الصفحة
٩	٥٦٠
١٦	٢٢٠
٢٠	٥٠٢
٤٩	٦١٢
٥١	١٦٣
سورة الحاقة	
٢٠	٥٠٦
٢١	٤٨٩
٣٥	٥٢
٣٦	٥٢
٤٠ - ٣٨	٨٣٤
٤٢ - ٤٠	٨٥٩
٤٢	٨٩٥
سورة المعارج	
١	٦١٨
٢	٦١٨
٤	٢٨٨
٤٠	٨٣٤
٤٣	٢٧٥-١٣١
سورة نوح	
١٤	١٠٤
سورة الجن	

رقم الآية	رقم الصفحة
٣	٣٤٠
١٢	٨٤٩
١٤	٥٠١
١٥	٥٩٣
١٨	٣٤٢
٢٨-٢٧	٩٦٢
سورة المزمل	
١٤	٢٨٣
سورة المدثر	
٤	٤٨٤
٢٤	٨٥٩
سورة القيامة	
١	٨٣٨-٨٣٢
٢-١	٨٣٥
٦-٣	٦٠٩
١٣	٢٨٢
١٤	٥٧٢
١٧	٧٣٣
١٧-١٦	٧٣٥
١٩	٢٦٢
٢٣-٢٢	٤٢٩-٤٢٧-٣٥٧
٣٥-٣٤	٥٦٠
سورة الإنسان	

رقم الآية	رقم الصفحة
٦	٩٠٣-٨٩٨-٤٨٧
١٦-١٥	٥٢٥
١٨	٣٤٢
٢٢-٢١	٤٥٤
سورة المرسلات	
١٢	٥٧٧
٢٩	٢٩١
٣٣-٢٩	٢٩٠
٣٢	٥٢٤
٣٥	١٦٥
٣٦-٣٥	٦٢٦-٢٨٩
سورة النبأ	
٢-١	٥٧٧
٩	٤٧٦
٤٠	٩٤٤-٤٦٥
سورة النازعات	
٦-١	٨٣٧-٥٥٤
١١	٨٣٧-٥٥٤
٢٤	٢٧١-٢٦٤
٢٥	٢٧١-٢٦٤
٢٧	٥٧٦
٣٠-٢٧	٦٢٧-٢٩٠
٣١	٥٤٩-٥٩

رقم الآية	رقم الصفحة
٣٣	٥٤٩-٥٩
سورة عبس	
١٧	٤٢٠
١٦-١٢	٧٣٧
٢١	٥٠٢
٣١-٢٧	٨٨٢
٣١	٨٨٢
سورة التكوير	
١	٣٤٢
٧	٢٦٤
١٧	٨٩٣-٧٨٧-٥٠٢
٢٤	٦٧٠
سورة الانفطار	
٦	٥٨٠-٢٦٧
١٨-١٧	٥٦٠
سورة المطففين	
٣	٥٥٦
١٤	٢٦٤
١٦-١٥	٤٢٧
٢٨	٤٨٧
سورة الانشقاق	
٦	٨٩٠-٥٨٠-٢٦٧

رقم الآية	رقم الصفحة
١٦	٨٣٢
١٧-١٦	٨٣٥
سورة البروج	
٢٢-٢١	٧٣٦
سورة الطارق	
٦	٦٠١-٤٨٩
٩	٦٦٣
١٤-١١	٨٤٠
سورة الأعلى	
٦	٤٣١
سورة الغاشية	
٦	٥٢
سورة الفجر	
٤-١	٨٤١
٥-١	٨٣٨
٤	١٦٤
٥	٨٤١
سورة البلد	
١	٨٤٤-٨٣٥
١٦	٩٧٥
سورة الشمس	

رقم الآية	رقم الصفحة
١	٨٤٤
سورة الليل	
١	٨٤٤
سورة الضحى	
٨	٥٠١
سورة الشرح	
٢	٥٢٩-١٣٢
٣	١٣٢
٦.٥	٥٥٩
سورة التين	
٣.١	٩٣٨
٦.٤	٦٢٣
٦	٣٠٥
سورة القدر	
١	٩٥٣-٥٥٥
سورة البينة	
١	٢٢٨
سورة الزلزلة	
٥	٩٠١
سورة العاديات	
١	٣٣٩

رقم الآية	رقم الصفحة
٤	٩٥٣
٨	٥٧٠-٥٦٩
سورة القارعة	
٥	٦٩٤
١٠	١٦٤
سورة التكاثر	
٤-٣	٥٥٩
٨	٣٤٢
سورة العصر	
٣-٢	٢٨٢
سورة الهمزة	
٣	٦٤٠
سورة قريش	
٢-١	٥٦١
سورة الكوثر	
٣	٣٠١
سورة الكافرون	
١	٥٦٠-٥٥٩
سورة النصر	
٢-١	٣٢٦
سورة المسد	

رقم الآية	رقم الصفحة
١	٢٨١-٩٣٧
سورة الإخلاص	
٤	٤١٠-٤١١
سورة الفلق	
٣	٢١٨

فهرس الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
٦٢٥-٣٠٥-٣٠٣	إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ، ولا يُتْرَب
٢٩٧	إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ...
٢١٨	استعيذ بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب
٧٤١	أعطيت مكان التوراة السبع ، وأعطيت مكان الزبور المثين ...
٤٣٦-٧٢	أعوذ بك من فتنة المحيا والممات ...
٧٦٣	أعوذ بكلمات الله التامة
٦٨٧	أقرأني جبريل على حرف فراجعته ...
٧٧٨	اقرأوا الزهراوين، البقرة وآل عمران ...
-٣١١-٢٩٤	ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ...
٨٢٤-٣٩٥	
٣٧٦	ألم آت بها بيضاء نقية
١٥٣	إن أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون المتشدقون
٨٤٣	إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ...
٣٠٩	إن الله تعالى مسح على ظهر آدم عليه السلام ...
١٨٠	إن الله عزّ وجل خلق آدم على صورته
٤١٨	إن الله عزّ وجل يبسط يده بالنهاية ليتوب مسيء الليل ...
٤٢٢	إن الله عزّ وجل يجعل السماء على أصبع
٦٩٧-٦٨٨-٦٨٧	إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته ...
٣٠٢	إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى
٦٤٠	أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: "يَحْسِبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ...
٣١٣	أن النبي صلى الله عليه وسلم قطع يد سارق من المفصل

الصفحة	طرف الحديث
٤٢٤	أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...
٤١٥-٤١٦	أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمة أعجمية للعتق، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين الله؟
٩٤٣	أن رجلاً أصاب من امرأة قبله ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأنزل الله : (وأقم الصلاة ...
٣١٢	أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية
٦٥٣	إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تقرأوا كما علمتم
٤٢١	إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل
٧٧٧	إن لكل شيء سناماً ، وسنام القرآن سورة البقرة
٧٧٨	إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن يس
٧٧٤-٧٧٣	إن من تعظيم جلال الله إكرام ذي الشيبة في الإسلام ...
٦٩٢	إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقراءوا منه ما تيسر
٦٣١	إنّا إن شاء الله بكم لاحقون
٣٨٦-٣٠٧	إنّا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة
٨٥٥	انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ...
١٠٣	إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبياءهم
٣١١	إنني لا أجد اللعن - أي لعن الواشحات والمستوشحات - في كتاب الله ، فقال : هو في كتاب الله ...
٩٢٢-٨٥٦	أنه - صلى الله عليه وسلم - دخل يوماً حائش نخل، فرأى بغيراً، فلما رآه البعير حنّ وذرفت عيناه ...
٦٠٦-٧١	إنه يطير مع الملائكة في الجنة
٩٢٢	إنها تقول : "قَطَّ قَطَّ"
٣٠٦	أنهلك وفينا الصالحون ، فقال : نعم إذا كثرت الخبث
٣٩٤	إني خلّفت فيكم ما لن تضلوا بعدي ما أخذتم بهما ...

الصفحة	طرف الحديث
٩٤٢	إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن
٧٧٢-٥٤٨	أوتيت جوامع الكلم
٧٧٣-٢٤٣	أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال : الحال المرتحل
٣٧٠-٣٦٤	بلغوا عني ولو آية ...
٨٥٧	بينما راعٍ يرعى بالحرة إذ عدا الذئب على شاةٍ من الشياه ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صدق والذي نفسي بيده"
٤٢٧-٦٨	ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ...
٦٦٤	تسوموا فإن الملائكة قد تسومت
٢٩٨	تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً
٥٠٧	تقعد عن الصلاة أيام أقرائها
٧٧٢	ثلاث آيات يقرؤون أحكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات سمان عظام
٦٨٨	جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: اقرأ القرآن على حرف ...
٦٢٢-٢٦٣	الحمد لله رب العالمين السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته
٣١٣	خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلاً، الثيب بالثيب ...
٣١٩-٣١٦	خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم
٥٧	سئل صلى الله عليه وسلم: أي الصلاة أفضل، فقال: طول القنوت
٤٣٣	سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي ...
٤٣٣	سُم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذراع شاة مشوية ...
٩٥٧	شرُّ الكسب مهر البغي ، وثمن الكلب ، وكسب الحجام
٣٠٢	شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ...
٣١٩	فإنه من يعيش منكم فسير اختلافاً كثيراً ...
٦٢٤-٣٠٥	فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه

الصفحة	طرف الحديث
٤٥٠	القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم ...
٧٧٤	كتاب الله فيه خير ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم ...
٣٠٣-٩٥	كل مولود يولد على الفطرة
٥٨	كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت : "وقوموا لله قانتين" ...
٧٤٩	كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله)، فجاء عبدالله بن أم مكتوم ...
٦٢٤	كيف أنعم؟ وصاحب القرن قد التقمه وحتى جبهته ...
٣٠٦	لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة على عنقه شاة لها ثغاء ...
٢٩٨	لا تُحْرَمُ الرضعة أو الرضعتان ، أو المصاة أو المصتان
٣٠٤	لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي
٩٤١	لا تسبوا الريح فإنها من روح الله
١٠٣	لا تماروا في القرآن فإن المرء فيه كفر
٧٧٧-٧٦٧	لا صلاة إلا بسورة الحمد
٤٧٢	لا وصية لوارث
٣١٣	لا يُجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها
٣٠٤	لا يُخْضد شوكتها، ولا يُعْضد شجرها
٥٨٧	لا يقتل قرشي صبراً بعد اليوم
٧٧٧	لأعلمتكم سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ... قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني ...
٢١٩	لقد ذهبتم فيها عريضة
٧٤٨	لما نزلت (لا يستوي القاعدون من المؤمنين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً فكتبها ...
٨٢٠	لما نزلت (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها ...

الصفحة	طرف الحديث
١٦٥	لمناديل سعد بن معاذ - في الجنة - أحسن من هذه الحلة
٣٢٥	اللهم علمه الحكمة
٣٢٥	اللهم علمه الكتاب
٨٧٧-٧٨٦-٣٢٥	اللهم فقهه في الدين
٤٣١	لو نزل عذاب ما نجا إلا عمر
٣٨٧	لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد والمحي والعاقب والحاشر
٢٩٨	ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الإبل ...
٢٦٣	ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه
٥٩٧	ما أخاف على قريش إلا أنفسها ...
٨٤٥	ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ...
٧٧٣-٧٧٢	مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ...
٣٠٣-٥٧	مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القانت الصائم
٧٦٧-٧١٤	من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد
٧٧٤	من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجزم
٨٤٢	من حلف بغير الله فقد أشرك
٨٨١	من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ، وفي رواية : من قال في القرآن برأيه
٧٧٣	من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه ...
٨٢٩	من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به
٦٩١	نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ ...
٨٢٩	نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها
١٠٣	نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كثرة السؤال ...

الصفحة	طرف الحديث
٣١٣	نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب ...
٨٢٩	نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع، وعن كل ذي مخلب من الطير
٤٦٧	ويملك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ ...
٦٩٧-٦٨٧	يا أباي أُرسل إليّ أن اقرأ القرآن على حرف، فرددْتُ عليه أن هوِّن على أمتي
٦٩٧	يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين ... قال : فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف
٤٢٢	يحمل الأرض على أصبع
٩٧١	يرد الحوض أقوام فيختلجون ، فأقول أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك
٨٤٢	يسير الرياء شرك
٦٢٣-٣٠٥	يقول الله للكُرام الكاتبين: إذا مرض عبدي فاكتبوا له ...
٤٥٩	يكون قوم في آخر الزمان يسمون الرافضة ، يرفضون الإسلام ...

فهرس الآثار

الصفحة	قائله	طرف الأثر
٢٦٤	عمر بن الخطاب	(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ، قال: ضرباءهم
٦٦٤-٣٣٢	قتادة	(استئس الرسل) من قومهم (وطنوا) أي: علموا ...
٢٦٤	ابن عباس	(فأخذ الله نكال الآخرة والأولى) ، أما الأولى فحين قال: ... (ما علمت لكم من إله غيري)
٣٣٩	ابن عباس	(فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) ... أراد المساجد
٨٨٢	عمر بن الخطاب	(فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضبا ...)، فكل هذا قد عرفناه ، فما الأب؟ ... هذا لعمر الله التكلف، أتبعوا ما تبين لكم من الكتاب
٣٣٨	ابن عباس	(لا تؤاخذني بما نسيت) لم ينس ولكنها من معارض الكلام
٣٣٣	مجاهد	(لراذك إلى معاد) يعني : مكة
٢٦٤	عمر بن الخطاب	(وإذا النفوس زوجت) ، قال: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة
٣٣٩	علي	(والعاديات ضبحاً) ... هي الإبل تذهب إلى وقعة بدر
٣٤٠	مجاهد	(وأنه تعالى جدُّ ربنا) ... جلال ربنا
٣٤٠	قتادة	(وأنه تعالى جدُّ ربنا) ... عظمته
٣٤٠	مجاهد	(وطلح منضود) ... أعجبهم طلح "وَجَّ" وحُسنه ...
٣٣٨	مجاهد	(يوم تمور السماء موراً) قال: تدور دوراً
٢٦٤	مجاهد	... الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ...
٧٠١	عثمان بن عفان	إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من عريية القرآن، فاكتبوه بلسان قريش ...
٧٧٩	عبدالله بن مسعود	إذا وقعت في آل "حم" وقعت في روضات دَمَثات ...

الصفحة	قائله	طرف الأثر
٦٦٥-٣٣٢	عائشة	استئس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم ...
١٧٦	أبو الدرداء	أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث ...
٨٨٣	أبو بكر الصديق	أقول فيها برأبي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني، هي ما دون الولد والوالد
٨٢١	قتادة	أما السكر فخمور هذه الأعاجم ...
٧٥٠	زيد بن ثابت	أمرني أبو بكر رضي الله عنه بجمعه، فجعلت أتبعه في الرقاع والعسب واللخاف
٧٠١	عمر بن الخطاب	إن أبا موسى لم يكن من أهل البهش
٣٢١	ابن مسعود	إن أحدكم ليُجلس في قبره إجلالاً، فيقال له من أنت؟
٧٠١	عمر بن الخطاب	إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرئ الناس بلغة قريش
٨١٤	عمر بن الخطاب	إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم ... وقد قرأتها: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)
٣١٩	ابن مسعود	إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد ...
٣٣٣	ابن عباس	إن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتشتاق إلى مولدك ووطنك ...
٧٦١	زر بن حبيش	إن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه
٤٦٤	ابن عباس	إن عقبة بن أبي معيط صنع طعاماً ودعا أشرف أهل مكة ...
٣٧٠	ابن عباس	أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان أمره بالمسير إلى نينوى ...
٥٩٧	عثمان بن عفان	إن هؤلاء النفر رَعاع غَثرة

الصفحة	قائله	طرف الأثر
٣٧٤	كعب الأحبار	إن وجَّأ مقدَّس ، ومنه عرج الرب إلى السماء ...
٢١٩	الحسن	أن يُعَلَّ : أي يُجَان
٧٦٤	عبدالله بن مسعود	إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ بهما
٦٥٤	عروة بن الزبير	إنما قراءة القرآن سنة من السنن فاقروا كما علَّمتموه
٣٧٣	وهب بن منبه	إنه رجل من أهل الإسكندرية، واسمه الاسكندروس ...
٦٦٥-٣٣٢	مجاهد	أنه قرأها (قد كذبوا) بفتح الكاف وتخفيف الذال ...
٢٢١	ابن عباس	أنها الشاة تنتج سبعة أبطن
١٦٦	عكرمة	إنها مواقف، فأما موقف منها: فتكلموا واختصموا ...
٣٤٠	مسروق	أنهار الجنة تجري في غير أ حدود ...
٣٥١	الحسن البصري	أهلكتهم العجمة، يقرأ أحدهم الآية فيعيا بوجوهها ...
٣٧٩	وهب بن منبه	أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له "إرمياء" ...
٣٣٠	الحسن البصري	أي بكتابهم الذي فيه أعمالهم
٨٢٢	أبو بكر الصديق	أي سماء تظلي ، وأي أرض تقلني إن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم
٣٤٤	عمر بن الخطاب	تعلموا السنة والفرائض واللحن كما تعلَّمون القرآن
٧٨٦-٣٣٨	مجاهد	تعلمونه وتقولون آمنا به
٦٧٥	إبراهيم النخعي	التكبير جزم، والقراءة جزم، والتسليم جزم
٣٨٥-٣٣١	عكرمة مولى ابن عباس	حاضت ، من قولهم : ضحكت الأرنب: إذا حاضت
٧٧٩	عبدالله بن مسعود	حم ديباج القرآن ...
٩٥	حماد بن سلمة	حيث أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم
٣٧٢	عبدالله بن عمرو بن العاص	دخيل يحيى بن زكريا بيت المقدس ، وهو ابن ثمانى حجج ...
٧٦١	عبدالرحمن بن زيد	رأيت عبدالله يحك المعوذتين ويقول: لم تزيدون ما ليس فيه

الصفحة	قائله	طرف الأثر
٧٦١	زر بن جحش	سألت أبي بن كعب قلت: يا أبا المنذر إن أحاك ابن مسعود يقول كذا وكذا، فقال أبي: سألت رسول الله ...
٧٤٤	أوس بن حذيفة الثقفي	سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف تحزبون القرآن، قالوا: نحزبه ثلاث وخمس وسبع ...
٣٤٥	ابن عباس	الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب ...
٩٢٢-٣٢٤	مجاهد	عرضت المصحف على ابن عباس رضي الله عنه ثلاث عرضات أوقفه عند كل آية وأسأل عنها
٣٣٠	عكرمة مولى ابن عباس	العَضَةُ: السحر بلسان قريش ...
٣٢٨	مجاهد	علم أن في أصلاهم من سيستغفر ...
٢٠٨	مجاهد	عند تفسير "الفوم" هو الثوم
٣٢٨	مجاهد	فخرت قريش أن صدّت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت في الشهر الحرام ...
٧٣٨	ابن عباس ومجاهد	الفرقان: المخرج
٧٣٨	عكرمة والسدي	الفرقان: النجاة
١٦٦	سفيان بن عيينة	فساهم: أي قامر، فكان من المدحضين أي المقمورين
٧٦٨	الأعمش	في قراءة أبي بن كعب: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ...
٣٢٩	قتادة	قال بعضهم لبعض أعطوهم الرّضا بدينهم أول النهار ...
٧٤٩	الزهري	قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن في العُسب والقُضم والكرانيف
٧٥٢	أبو عبدالرحمن السلمي	قرأ زيد بن ثابت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام الذي توفاه الله مرتين ...
٦٥٤	زيد بن ثابت	القراءة سنة

الصفحة	قائله	طرف الأثر
٦٦٥	عبدالله بن مسعود	القرآن ذكّر فذكّروه ، وإن اختلفتم في الياء والتاء فاجعلوها ياء
٣٢٦	ابن عباس	قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ...
٧٦٧-٧٦٦	إبراهيم النخعي	قيل لابن مسعود لمّ لمّ تكتب الفاتحة في مصحفك ...
٧٧٨	أنس بن مالك	كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا ...
٣٢١	ابن مسعود	كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن ...
٣٢٦	الحسن البصري	كان أول من عرف بالبصرة ، صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ...
٣٨٠	وهب بن منبه	كان ضيق الصدر، فلما حُمّل أعباء النبوة تفسّخ تحتها تفسّخ الربع تحت الحمل الثقيل ...
٨١٢	عائشة	كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يجرمن، ثم نسحن بخمس معلومات ...
٨٢١	ابن زيد	كانوا أبيعوا أن يصلوا إلى أي قبلة شاؤوا ...
٣٣٣	ابن عباس	كانوا بشرّاً ، يعني الرسل، يذهب إلى أن الرسل ضَعُفُوا ...
٧٦٨-٧٦٧	ابن سيرين	كتب أُبيّ بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين، واللهم إنا نستعينك، واللهم إياك نعبد ...
١٦٥	ابن عباس	كل القرآن أعلم إلا أربعاً: غسلين وحناناً والأواه والرقيم
٣٤٥	مالك بن أنس	لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله ...
٧٦٤-٧٦١	أبو عبدالرحمن السلمي	لا تخلطوا بالقرآن ما ليس فيه ...
٣٤٥	بجاهد	لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب
٣٣٢	عائشة	لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون من معهم من المؤمنين قد كذبوهم
٦١٤	عائشة	لو كان كما قلت : لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما

الصفحة	قائله	طرف الأثر
٧٦٦-٧٦١	عبدالرحمن بن زيد	ليستا من كتاب الله
٣٣٠	الحسن البصري	ليسلم بعضكم على بعض
٧٤٢	ابن عباس	ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهو من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما ...
٣٣٩	ابن عباس	ما دون الحدين حد الدنيا وحد الآخرة
٣٤٥	ابن عباس	ما كنت أدري ما ﴿فاطر السموات والأرض﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ...
٣٤٥	ابن عباس	ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن ...
٣٣٩	ابن مسعود	مستقرها: الأرحام ، ومستودعها: الأرض التي تموت فيها
٣٣٣	الزهري	معاده : الجنة
٣٣٣	الحسن	معاده: يوم القيامة
٧٢٠	عبدالله بن مسعود	من كفر بحرف منه فقد كفر به كله
٣٣٣	قتادة	هذا مما كان ابن عباس يكتمه
٣٨٨	ابن عباس	هما ملكان أُهبطا إلى الأرض حين عمل بنو آدم المعاصي ...
٧١١	عبدالله بن مسعود وأبو الدرداء	والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى، والذكر والأنثى
٧٥٣-٦٥٩	حذيفة بن اليمان	يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى
٣٦٨	ابن عباس	يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار ...
٨١٠	ابن عباس	يُبدّل الله ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدّله ...

الصفحة	قائله	طرف الأثر
٦٢٨	مجاهد	يريد إن كان لله ولد في قولكم، فأنا أول من عبَد الله ووَحَّدَه ...
٣٢٦	ابن عباس	يريد لا أسألكم على ما آتيتكم به من الهدى أجراً ...
٣٧٥	كعب الأحبار	يسخر معه جبل ماتع خِلاطه ثريد - الدجال -

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة	العلم
٢٣	إبراهيم بن سفيان الزيادي (أبو إسحاق)
٦٦	إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام (أبو إسحاق)
١٦٨	إبراهيم بن محمد السري الزجاج (أبو إسحاق)
٣١٥	إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري
١٩٩	إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري (أبو إسحاق)
٢٧	إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ (أبو القاسم)
٤٦١	أبو منصور العجلي
٢٤	أحمد بن خالد الضرير (أبو سعيد)
٢٤	أحمد بن سعيد اللحياني (أبو العباس)
٢٦	أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة (أبو جعفر)
٩٥٥	أحمد بن محمد بن أحمد السمرقندي الحدادي (أبو نصر)
٢٨	أحمد بن محمد بن الحسن الضراب الدينوري (أبو بكر)
٢٧	أحمد بن مروان بن محمد المالكي (أبو بكر)
١٤١	أردشير بن بابك
٣٥١	أرسطو
١٧٠	إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد البصري (أبو يعقوب)
١٧١	إسحاق بن إبراهيم بن محمد الصواف الباهلي (أبو يعقوب)
١٦٩-٢٢	إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي أبو يعقوب (ابن راهويه)
١٩٤	إسحاق بن مرار الشيباني (أبو عمرو)
٧١٠	إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد (أبو إسحاق)
٤٠٩	إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي (أبو القاسم الأصبهاني)
١٨١	أيوب السختياني أبو بكر بن أبي تميمية كيسان العنزي

الصفحة	العلم
٣٣٣	بازام ويقال : باذان مولى أم هانئ (أبو صالح)
٢٥	بحر بن محبوب الجاحظ (أبو عثمان)
٧٢٤	بشر بن أبي حازم ، عمرو بن عوف الأسدي (أبو نوفل)
١٨٣	بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء المروزي
٤٤٦	بكر بن أخت عبدالواحد بن زياد
٤٦١	بيان بن سمعان النهدي التميمي
٩٦٤	ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي
٦٧	ثمامة بن أشرس النميري (أبو معن)
٤٨٣	جرول بن أوس بن مالك العبسي (أبو مليكة)
٤٢٦	الجهم بن صفوان (أبو مخزر الراسبي)
٢٣١	حاتم بن عبدالله بن حاتم بن حنين بن قاسم البزار (أبو بكر)
٢٤	حرملة بن يحيى بن عبدالله التجيبي (أبو حفص)
٣٢٩	الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (أبو سعيد)
٦٩٩	الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزيد الأهوازي (أبو علي)
٥٠٥	الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي الصاغاني
٤٩٧	الحسين بن أحمد بن خالويه (أبو عبدالله)
١٧١	الحسين بن الحسين بن حرب السلمى المروزي
٤٤٦	الحسين بن محمد بن عبدالله النّجار
١٧٣	حماد بن سلمة بن دينار البصري (أبو سلمة)
٧٤	حمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي (أبو سليمان)
٦٦٨	حميد بن قيس الأعرج (أبو صفوان)
٥٦٨	خداش بن زهير العامري
١٩٣	الخليل بن أحمد الفراهيدي (أبو عبدالرحمن)
١٩٨	الربيع بن سليمان بن عبدالجبار المرادي

الصفحة	العلم
١٩٣	زيان بن العلاء بن عمار بن عبدالله المازني (أبو عمرو)
١٧٠-٢٥	زياد بن يحيى بن زياد الحساني (أبو الخطاب)
٢٥	زيد بن أخزم الطائي البصري (أبو طالب)
١٨٩	سعيد بن أوس بن ثابت بن بشر بن بشير (أبو زيد)
١٧٣	سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (أبو عبدالله)
١٧٥	سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي (أبو محمد)
٧٩٨	سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الأندلسي (أبو الوليد)
١٨١	سليمان بن طرخان التيمي (أبو المعتمر)
١٨٤-١٧٠-٢٢	سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (أبو حاتم)
٥٨٧	شبيب بن زيد بن نعيم الشيباني
١٨٢	شعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي (أبو بسطام)
٩٥٠	شهاب الدين أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبدالرحمن (أبو العباس القرافي)
٥٤١	ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري (أبو الفتح، ابن الأثير الكاتب)
٤٥٧	عائذ الله محصن بن ثعلب (المثقب العبدي)
٤٨١	عامر بن الحُلَيْس الهذلي (أبو كبير)
٢٣	العباس بن الفرغ الرياشي البصري (أبو الفضل)
٧٢٢	عبدالحميد بن عبدالمجيد الأخفش الكبير (أبو الخطاب)
٧٥	عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي (أبو القاسم)
٢٩٩	عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي السهيلي (أبو القاسم وأبو زيد)
٢٤	عبدالرحمن بن عبدالله بن قُريب (أبو محمد)
١٩٨	عبدالرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي (أبو عمرو)

الصفحة	العلم
٦٦١	عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة (أبو زرعة)
٣٦٤	عبدالرحمن بن محمد بن محمد ولي الدين (ابن خلدون)
٤٥١	عبدالرحيم بن محمد بن عثمان البغدادي (أبو الحسين الخياط)
٤١٢	عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماحشون (أبو عبدالله)
٥٢٢	عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني (أبو بكر)
٤٦٩	عبدالله بن أباض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي
٦٧٥	عبدالله بن إدريس بن يزيد بن عبدالرحمن الأودي (أبو محمد)
١٧٤	عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي (أبو عبدالرحمن)
٦٢	عبدالله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل على الله (أبو العباس)
٢٩	عبدالله بن جعفر بن دُرُسْتُويه بن المزربان (أبو محمد)
٤٦٧	عبدالله بن ذو الخويصرة التميمي وقيل : حرقوص بن زهير
٤٦٠	عبدالله بن سبأ الحميري
٣٢٥	عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم
١٨١	عبدالله بن عون بن أرطبان المزني (أبو عون)
٦٧٤	عبدالله بن محمد بن أحمد العكبري (أبو القاسم) (ابن المعلم)
١٨٧	عبدالمملك بن قُريب بن عبدالمملك الأصمعي (أبو سعيد)
٢٨	عبيد الله بن أحمد بن عبدالله بن بكير التميمي (أبو القاسم)
٤٦٩	عبيد الله بن الماحوز التميمي
٢٨	عبيد الله بن عبدالرحمن بن محمد بن عيسى السكري (أبو محمد)
١٣١	عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري (الراعي)
٥٨٧	عتبان الحروري
١٧١	عتبة بن عبدالله بن عبدة الخزاعي الصفار (أبو سهل)
٤٩٩	عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع
٧٣٠	عزيزي بن عبدالمملك بن منصور الجبلي (أبو المعالي شيدلة)

الصفحة	العلم
٣٣٠	عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما (أبو عبدالله)
٤٣٤	علي بن أبي علي الأمدي (أبو الحسن)
٧٢٩	علي بن أحمد بن الحسن الحرّالي التّجيبّي (أبو الحسن)
٤٠٩	علي بن إسماعيل بن أبي بشر (أبو الحسن)
١٩٤	علي بن حمزة بن عبدالله (أبو حمزة الكسائي)
٦٧٨	علي بن سالم بن محمد بن سالم الصفاقسي (أبو الحسن)
١٧٥	علي بن عبدالله بن جعفر بن نجيح السعدي (ابن المديني)
٤١٨	علي بن علي بن محمد بن أبي البركات (أبو الحسن ابن أبي العز)
٤٩٧	علي بن عيسى بن علي بن عبدالله الرماني (أبو الحسن)
٩٠٢	علي بن مؤمن بن محمد الحضرمي (أبو الحسن) ابن عصفور
٢١٥	عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي (أبو محجن)
١٨١	عمرو بن عبيد بن باب (أبو عثمان)
١٩٣	عمرو بن عثمان بن قنبر (أبو بشر الفارسي - سيويه)
٤٨٩	عمرو بن معديكرب بن عبدالله بن عمرو الزبيدي
٣٨٤	عوج بن عوق (أو عنق)
٦٤٥	عيسى بن عمر الثقفي (أبو عمر)
١٨٢	غيلان بن مسلم (أبو مروان)
١٨٣	الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر (أبو علي التميمي)
٢٨	قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف القرطبي (أبو محمد)
١٩١، ٩٦٤-٩٦٨	القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي (أبو عبيد)
٣٢٨	قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز السدوسي (أبو الخطاب)
٣٧٤	كعب بن ماته الحميري اليماني (أبو إسحاق) (كعب الأحبار)
٤٩٤	الكميت بن زيد بن خنس الأسدي (أبو المستهل)
١٨٢	الليث بن سعد بن عبدالرحمن (أبو الحارث الفهمي)

الصفحة	العلم
٤٨٤	ليلى بنت عبدالله بن الرّحال بن شداد بن كعب الأخيلىة
٧٧٦	المؤمل بن إسماعيل العدوي (أبو عبدالرحمن)
١٩٧	مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر المدني (أبو عبدالله)
٣٢٧	مجاهد بن جبر القرشي (أبو الحجاج)
٢٩٩	محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (أبو عبدالله)
٣١٧	محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني (أبو العون)
١٩٧	محمد بن إدريس بن العباس القرشي الشافعي (أبو عبدالله)
١٩٩	محمد بن إسحاق بن يسار القرشي المدني (أبو بكر)
٦٧	محمد بن الجهم البرمكي
٧٩٨	محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء (أبو يعلى)
٦٦	محمد بن الهذيل العلاف (أبو هذيل)
٤٤٥	محمد بن بشير بن محمد (أبو بكر المعافري)
٢٧	محمد بن خلف بن المزريان الآجري (أبو بكر)
١٩٥	محمد بن زياد أبو عبدالله ابن الأعرابي
٢٥	محمد بن زياد بن عبيد الله بن زياد الزياتي (أبو عبدالله)
٦٨٩	محمد بن سعدان الضير (أبو جعفر)
٢٥	محمد بن سلام الجمحي (أبو عبدالله)
٨٩٤	محمد بن سهل بن السري (أبو بكر)
٥٢٢	محمد بن عبدالرحمن بن عمر (أبو المعالي القزويني)
٦٨٩	محمد بن عبدالله بن محمد المرسي (أبو الفضل)
١٧٢	محمد بن عبيد بن عبدالملك الأسدي الهمداني (أبو عبدالله)
١٩٩	محمد بن عمر الواقدي (أبو عبدالله)
٦٥٥	محمد بن محمد بن علي أبو القاسم محب الدين النويري
٣١٦	محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (أبو حامد)

الصفحة	العلم
١٧٢	محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري (أبو بكر)
٣٧٦	محمد بن مفلح بن محمد المقدسي (أبو عبدالله)
٣٧٧	محمد بن هرمز أبو الحسين القاضي العكبري
٤٦٠	المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمر الثقفي
٢٢	مسلم بن قتيبة
١٩٠	معمر بن المثني التميمي (أبو عبيدة)
٤٣٨	منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد (أبي المظفر السمعاني)
٧٥	نافع بن الأزرق الحروري
٨٩٤	نجم الدين إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبدالواحد الطرسوسي
٥٥٧	نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن سعيد ، ابن الأثير
١٩٦	النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي (أبو حنيفة)
٧٧٥	نوح بن أبي مرثم المروزي (أبو عصمة)
٥١٠	هارون بن موسى الأزدي العتكي (أبو عبدالله) ويقال (أبو موسى)
٦٦١	هارون بن موسى بن شريك التغلبي (أبو عبدالله الأخفش)
٦٧	هاشم بن الحكم الشيباني (أبو محمد)
٨٢٢	هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي (أبو القاسم)
٩٠٢	هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة (أبو السعادات) ابن الشجري
٩٦٤	هرثمة بن أعين
٢٨	الهيثم بن كليب بن شريح بن معقل الشاشي (أبو سعيد)
٤٧٠	الهيصم بن جابر الضبعي (أبو بهيس)
٤٤٩	واصل بن عطاء الغزالي (أبو حذيفة)
٤٨٩	وعلة بن الحارث الجرمي
١٧٤	وكيع بن الجرح بن مليح الرؤاسي (أبو سفيان)

الصفحة	العلم
٣٧٢	وهب بن منبه بن كامل اليماني (أبو عبدالله)
٢٥	يحيى بن أكثم بن محمد التميمي المروزي (أبو محمد)
١٦١-١٩٢	يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الأسدي (أبو زكريا الفراء)
٥١٠	يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي
٦٤٤	يحيى بن وثاب الأسدي
٦٧٨	يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم
٤٧٦	يزيد بن عبيد السلمى السعدي (أبو وجزة)
٦٧٥	يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت السلمى (أبو خالد)
١٩٥	يعقوب بن إسحاق بن السكيت البغدادي (أبو يوسف)
١٣٥	اليمان بن أبي اليمان البنديجي (أبو بشر)
٥٢٢	يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (أبو يعقوب)
١٩٤	يونس بن حبيب أبو عبدالرحمن الضبي
١٨١	يونس بن عبيد بن دينار العبدي (أبو عبدالله)

فهرس الفرق والقبائل والجماعات

رقم الصفحة	الفرقة أو القبيلة أو الجماعة
٤٦٩	الأباضية أو الإباضية
٤٧٠-٤٦٩	الأزارقة
٤٤٣	أهل الكلام
٤٦١	البيانية
٤٧٠	البيهسية
٣٢	الجهمية
٤٦١	الخنّاقون
٤٦٧-٤٦٦	الخوارج
٤٥٩-٤٥٨ ، ٤٠	الرافضة
١٩	الشعبوية
٤٦١	الغرايبة
٤٦٠	الكيسانية
٣٢	المشبهة
٣٩	المعتزلة
٤٦١	المنصورية
٤٠	النواصب

فهرس الأماكن والبلدان

رقم الصفحة	المكان أو البلد
٦٥٨	أذربيجان
٦٥٨	أرمينية
٣٠١	التنعيم
٢١٣	البحففة
٨٥٧	الحرطين
٩٦٤	الرقة
٧٧٦	المدائن
٢٠	دينور
٩٦٥	طرسوس
٧٧٦	عبادان
٣٧٧	عكبرا
١٩	مرو العظمى
٢١	نيسابور
٣٧٠	نينوى
٩٦٤	هراة
٣٧٤	وجّ

ثبت المصادر والمراجع

- ١ - الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، لأبي عبدالله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري، تحقيق: رضا بن نعيان معطي، ط ٢، ١٤١٥هـ، دار الراية، الرياض.
- ٢ - الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: عبدالفتاح إسماعيل شليبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر .
- ٣ - إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع، لعبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤ - إبطال التأويلات لأخبار الصفات، لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء، تحقيق: محمد بن حمد النجدي، دار إيلاف الدولية، الكويت.
- ٥ - الإبهاج، لعلي بن عبدالكافي السبكي، ط ١، ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٦ - إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر، د. عبدالكريم بن علي النملة، ط ٢، ١٤٢٤هـ، مكتبة الرشد، الرياض .
- ٧ - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالغني الدمياطي، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل، ط ١، ١٤٠٧هـ، عالم الكتب، بيروت .
- ٨ - إتقان البرهان في علوم القرآن، د. فضل حسن عباس، ط ١، ١٩٩٧م، دار الفرقان، الأردن .
- ٩ - الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٦هـ. وأخرى تعليق: د. مصطفى ديب البغا، ط ٣، ١٤١٦هـ، دار ابن كثير، دمشق.
- ١٠ - أثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام، ط ١، مكتبة الشباب، مصر.
- ١١ - أثر علم الكلام على المنتسبين إليه، وموقف أهل السنة والجماعة وكبار المتكلمين منه، رسالة ماجستير بقسم العقيدة بجامعة أم القرى، إعداد: وليد بن صالح باصمد.

- ١٢ - إجمال الإصابة في أقوال الصحابة، للحافظ خليل بن كيكلي العلابي، تحقيق: محمد سليمان الأشقر، ط١، ١٤٠٧هـ، منشورات مركز المخطوطات والتراث بجمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت.
- ١٣ - الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم (دراسة ونقداً)، د. إبراهيم علي السيد، ط١، ١٤٢١هـ، دار السلام، القاهرة.
- ١٤ - الأحرف السبعة للقرآن، لأبي عمرو الداني، تحقيق: د. عبدالمهيمن طحان، ط١، ١٤١٨هـ، دار المنارة، جدة.
- ١٥ - الأحرف القرآنية السبعة، د. عبدالرحمن بن إبراهيم المطرودي، ط١، ١٤١١هـ، دار عالم الكتب، الرياض.
- ١٦ - أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٧ - أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، تعليق: محمد عبدالقادر عطا، ط٣، ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٨ - الإحكام للآمدي، لأبي الحسن علي بن محمد الآمدي، تحقيق: د. سيد الجميلي، ط١، ١٤٠٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٩ - الإحكام، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، ط١، ١٤٠٤هـ، دار الحديث، القاهرة.
- ٢٠ - اختلاف المفسرين (أسبابه وآثاره)، د. سعود بن عبدالله الفيسان، ط١، ١٤١٨هـ، دار إشبيلية، الرياض.
- ٢١ - الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: د. كاظم حطيط، ١٩٩٠م، دار الكتاب العالمي، بيروت. وأخرى: بتحقيق: عمر محمود أبو عمر، ط١، ١٤١٢هـ، دار الراية، الرياض.
- ٢٢ - الاختيارات الفقهية، لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، ترتيب علي بن محمد البعلي، مكتبة الرياض الحديثة، المملكة العربية السعودية.
- ٢٣ - آداب البحث والمناظرة، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

- ٢٤ - الآداب الشرعية، لأبي عبدالله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٢٥ - أدب الكاتب، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت. وأخرى: عناية فاتن محمد خليل اللبون، ط١، ١٤٢٣هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٦ - الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات وعقد الديانات بالتجويد والدلالات، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: محمد بن مجقان الجزائري، ط١، ١٤٢٠هـ، دار المغني، الرياض.
- ٢٧ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للإمام محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: سامي الأثري، ط١، ١٤٢١هـ، دار الفضيلة، الرياض .
- ٢٨ - الإرشاد في معرفة علماء الحديث، لأبي يعلى الخليل بن عبدالله الخليلي، تحقيق: د.محمد سعيد إدريس، ط١، ١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٢٩ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣٠ - أساس التقديس في علم الكلام، لأبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، ١٤٠٦هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- ٣١ - أسباب اختلاف المفسرين، د.محمد بن عبدالرحمن الشايع، ط١، ١٤١٦هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.
- ٣٢ - أسباب الخطأ في التفسير، د.طاهر محمود محمد يعقوب، ط١، ١٤٢٥هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٣٣ - أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، د. عماد الدين محمد الرشيد، ط١، ١٤٢٠هـ، دار الشهاب .
- ٣٤ - أسباب النزول، لأبي الحسين علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عصام بن عبدالمحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام.
- ٣٥ - استدراقات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى (دراسة نقدية مقارنة)، رسالة ماجستير بقسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى، إعداد: نايف بن سعيد الزهراني.

- ٣٦ - الاستذكار، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري، تحقيق: سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، ط ١، ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٣٧ - الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، ط ٤، ١٩٩٠م، مكتبة وهبة القاهرة.
- ٣٨ - الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، د. رمزي نعاة، ط ١، ١٣٩٠هـ، دار القلم، دمشق.
- ٣٩ - الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد بن محمد أبو شهبه، ط ٤، ١٤٠٨هـ، مكتبة السنة، القاهرة.
- ٤٠ - أسرار البلاغة، لأبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، ط ١، ١٤١١هـ، مطبعة المدني، القاهرة.
- ٤١ - الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة، رسالة ماجستير في اللغة العربية بجامعة أم القرى، إعداد: خالد بن محمد العثيم.
- ٤٢ - أسرار العربية، لأبي البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مبطوعات المجمع العلمي العربي، دمشق.
- ٤٣ - أسماء سور القرآن وفضائلها، د. منيرة محمد الدوسري، ط ١، ١٤٢٦هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٤٤ - الأشباه والنظائر، عبدالوهاب بن علي السبكي، تحقيق: عادل عبدال موجود، وعلي محمد معوض، ط ١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٥ - الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: ياسين محمد السواس، ط ١، ١٤٢٠هـ، دار الفكر، دمشق.
- ٤٦ - الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق : علي محمد البحايي، ط ١، ١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت .
- ٤٧ - إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: د. عبدالله الجبوري، ط ١، ١٤٠٣هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ٤٨ - أصول التفسير وقواعده، خالد بن عبدالرحمن العك، ط ٢، ١٤٠٦هـ، دار النفائس، بيروت.

- ٤٩ - أصول السرخسي، لأبي بكر محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت .
- ٥٠ - أصول الشاشي، لأبي علي أحمد بن محمد الشاشي، ط ١٤٠٢هـ، دار الكتاب العربي، بيروت .
- ٥١ - أصول في التفسير، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط ١، ١٤١٩هـ، مكتبة السنة، القاهرة .
- ٥٢ - الأصول من علم الأصول، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط ١، ١٤٢٤هـ، دار ابن الجوزي، الدمام .
- ٥٣ - الأضداد في كلام العرب، لأبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي الحلبي، تحقيق: د.عزة حسن، ط ٢، ١٩٩٦م، دار طلاس، دمشق.
- ٥٤ - الأضداد، محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٤٠٧هـ، المكتبة العصرية، بيروت.
- ٥٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ط ١٤١٣هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، وأخرى : بإشراف الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.
- ٥٦ - أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح الستة، د.شوقي أبو خليل، ط ٤، ١٤٢٦هـ، دار الفكر، دمشق.
- ٥٧ - أطلس تاريخ الإسلام، د.حسين مؤنس، ط ١، ١٤٠٧هـ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.
- ٥٨ - أطلس دول العالم الإسلامي، د.شوقي أبو خليل، ط ٢، ١٤٢٤هـ، دار الفكر، دمشق.
- ٥٩ - الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط ١، ١٤٢١هـ، مكتبة التوحيد، المنامة.
- ٦٠ - إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية، د.محمد عبدالعزيز العواجي، ط ١، ١٤٢٧هـ، دار المنهاج، الرياض.
- ٦١ - إعراب القراءات السبع وعللها، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: د.عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ط ١، ١٤١٣هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- ٦٢ - إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد ابن النحاس، تعليق: عبدالمنعم خليل إبراهيم، ط ١، ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت . وأخرى : تحقيق: د.زهير غازي زاهد، ١٤٠٩هـ، عالم الكتب، بيروت.
- ٦٣ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد "ابن خالويه"، ١٩٨٥م، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ٦٤ - إعلام الموقعين، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، ط ١٩٧٣م، دار الجيل، بيروت . وأخرى: تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط ١، ١٤٢٣هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٦٥ - الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد بن عبدالرحمن السخاوي، تحقيق: فرانز روزنثال، ترجمة: د.صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٦٦ - الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، ط ٢، دار الفكر، بيروت.
- ٦٧ - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: د.ناصر بن عبدالكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٦٨ - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبدالله بن محمد البطليوسي، تحقيق: مصطفى السقا، ود.حامد عبدالحميد، ١٩٩٦م، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٦٩ - الإقناع لطالب الانتفاع، لموسى بن أحمد بن موسى الحجاوي، تحقيق: د.عبدالله التركي، ط ١، ١٤١٨هـ، دار هجر، مصر .
- ٧٠ - الأقوال الشاذة في التفسير (نشأتها وأسبابها وآثارها)، د. عبدالرحمن بن صالح الدهش، ط ١، ١٤٢٥هـ، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا .
- ٧١ - الإكليل في المتشابه والتأويل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٠٠٢م، دار الإيمان، الإسكندرية.
- ٧٢ - الأم، للإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، ط ٢، ١٣٩٣هـ، دار المعرفة، بيروت .
- ٧٣ - أمالي المرتضى، لأبي القاسم علي بن طاهر الشريف المرتضى، تعليق: محمد بدر الدين النعساني، ط ١، ١٣٢٥هـ.
- ٧٤ - الأمالي، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ٧٥ - الإمام ابن تيمية وقضية التأويل، د. محمد السيد الجليلي، ط ٥، ٢٠٠٠م، دار قباء، القاهرة .
- ٧٦ - الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د. عبدالمجيد قطامش، ط ١، ١٤٠٠هـ، دار المأمون للتراث، دمشق.
- ٧٧ - الإمعان في أقسام القرآن، عبدالحميد الفراهي، ١٣٤٩هـ، المطبعة السلفية، القاهرة.
- ٧٨ - إنباه الرواة على أنباء النحاة، لأبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ١٤٠٦هـ، دار الفكر العربي، مصر.
- ٧٩ - الانتصار للقرآن، للقاضي أبي بكر الباقلاني، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار ابن حزم، بيروت .
- ٨٠ - الأنساب، لأبي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني، تعليق: عبدالله عمر البارودي، ط ١، ١٤٠٨هـ، دار الجنان، بيروت.
- ٨١ - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لأبي الحسن علي بن إسماعيل المرادوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
- ٨٢ - الأنواء في مواسم العرب، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ١٩٨٨م، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- ٨٣ - أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٨٤ - الآيات المنسوخة في القرآن الكريم، د. عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي، ط ١، ١٤٢٣هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة .
- ٨٥ - إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجل، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: محيي الدين عبدالرحمن رمضان، ١٣٩٠هـ، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
- ٨٦ - الإيضاح في القراءات، لأحمد بن أبي عمر الأندراي، تحقيق: منى عدنان غني، رسالة دكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة تكريت، ١٤٢٣هـ.
- ٨٧ - الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: د. مازن المبارك، ط ٣، ١٣٩٩هـ، دار النفائس، بيروت.

- ٨٨ - الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، د. أحمد حسن فرحات، ط ١، ١٤٠٦ هـ، دار المنارة، جدة .
- ٨٩ - الإيمان ومعالمه وسننه، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، ١٤٢١ هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
- ٩٠ - الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط ١٤٠٦ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٩١ - باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، لبيان الحق محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي، تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد باقوي، ١٤١٨ هـ، نشر جامعة أم القرى.
- ٩٢ - البحث البلاغي عند ابن قتيبة، رسالة ماجستير بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام، إعداد: محمد بن علي الصامل.
- ٩٣ - البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، ط ١، ١٤٠٩ هـ، وزارة الأوقاف للشؤون الإسلامية، الكويت .
- ٩٤ - بحوث في أصول التفسير ومناهجه، د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، ط ٤، ١٤١٩ هـ، مكتبة التوبة.
- ٩٥ - بدائع الفوائد، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، مطبوعات مجمع منظمة المؤتمر الإسلامي.
- ٩٦ - البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي، ط ١، ١٤١٧ هـ، دار هجر، مصر.
- ٩٧ - البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، للشيخ عبدالفتاح بن عبدالغني القاضي، ط ١، ١٤٠٤ هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة .
- ٩٨ - البرهان في أصول الفقه، لأبي المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني، تحقيق: د. عبدالعظيم محمود الديب، ط ٤، ١٤١٨ هـ، دار الوفاء، مصر .
- ٩٩ - البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١٤٢٢ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت . وأخرى: بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، ١٤٠٤ هـ، مكتبة التراث، القاهرة.

- ١٠٠ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: عبدالعليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت .
- ١٠١ جنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، ١٣٩٩هـ، دار الفكر، بيروت.
- ١٠٢ بلاغة التراكم "دراسة في علم المعاني"، د. توفيق الفيل، مكتبة الآداب، القاهرة.
- ١٠٣ البلاغة العالية "علم المعاني"، عبد المتعال الصعيدي، ط ٢، ١٤١١هـ، مكتبة الآداب، القاهرة.
- ١٠٤ البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني، تحقيق: د. غانم قدوري الحمد، ط ١، ١٤١٤هـ، مركز المخطوطات، الكويت .
- ١٠٥ البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات ابن الأنباري، تحقيق: د. طه عبد الحميد طه، ١٤٠٠هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ١٠٦ البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط ٧، ١٤١٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ١٠٧ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، ١٣٨٥هـ، مطبعة حكومة الكويت.
- ١٠٨ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط ١، ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٠٩ تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، د. شوقي ضيف، ط ١٢، ٢٠٠١م، دار المعارف، مصر.
- ١١٠ تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: د. عبدالحليم النجار، ط ٥، دار المعارف، مصر.
- ١١١ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ل محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري، ط ٢، ١٤١٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١١٢ تاريخ التراث العربي، الدكتور فؤاد سزكين، ترجمة: د. محمود فهمي حجازي، ط ١، ١٤١١هـ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض .

- ١١٣ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، مصر.
- ١١٤ تاريخ القراءات القرآنية، د. عبدالمهدي الفضلي، دار القلم، بيروت .
- ١١٥ التاريخ الكبير، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١١٦ تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر.
- ١١٧ تاريخ بغداد، لأحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ١١٨ تاريخ توثيق نص القرآن الكريم، خالد بن عبدالرحمن العك، ط ٢، ١٤٠٦هـ، دار الفكر، بيروت.
- ١١٩ تاريخ علماء الأندلس، لأبي الوليد عبدالله بن محمد ابن الفرضي، ١٩٦٦م، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ١٢٠ تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن "ابن عساكر"، تحقيق: عمر العمروي، ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت.
- ١٢١ تأويل مختلف الحديث، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: إسماعيل الخطيب الإسعدي، ١٤٢٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت. وأخرى: بتحقيق: محمد محيي الدين الأصغر، ط ٢، ١٤١٩هـ، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ١٢٢ تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط ٢، ١٣٩٣هـ، دار التراث، القاهرة.
- ١٢٣ التبتصرة، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، ط ١، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، دمشق .
- ١٢٤ التبتصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة، لأبي المظفر الإسفراييني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط ١، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب، بيروت.
- ١٢٥ التبتيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبدالعزيز السيروان، ط ١، ١٤٠٤هـ، دار النفائس، بيروت . وأخرى، تحقيق: أحمد بن إبراهيم أبي العينين، ط ١، ١٤٢٤هـ، دار الآثار، القاهرة .

- ١٢٦ التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، ط١، ١٤١٨هـ، دار الفكر، بيروت.
- ١٢٧ التبيان في أقسام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبدالله بن سالم البطاطي، مطبوعات مجمع منظمة المؤتمر الإسلامي، نشر عالم الفوائد.
- ١٢٨ التلخيص في علم التفسير، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د.فتحي عبدالقادر فريد، ط١، ١٤٠٢هـ، دار العلوم، الرياض.
- ١٢٩ تحريم النظر في كتب أهل الكلام، لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي تحقيق: عبدالرحمن دمشقية، ط١، ١٤١٠هـ، دار عالم الكتب، الرياض.
- ١٣٠ التلخيص من المحصول، لسراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي، تحقيق: د.عبدالحامد أبو زيد، ط١، ١٤٠٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٣١ تذكرة الأريب في تفسير الغريب، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د.علي حسين البواب، ط١، ١٤٠٧هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
- ١٣٢ تذكرة الحفاظ، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٣٣ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: محمد تاويت الطنجي وآخرون، ط٢، ١٤٠٣هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
- ١٣٤ تعبیر الرؤيا، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط٢، ١٤٢٧هـ، مؤسسة غراس للنشر، الكويت.
- ١٣٥ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، د.صلاح عبدالفتاح الخالدي، ط٣، ١٤٢٩هـ، دار القلم، دمشق.
- ١٣٦ التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٣٧ تفسير ابن أبي حاتم، للإمام عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق: محمد الطيب، المكتبة العصرية، بيروت.

- ١٣٨ تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير)، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي، ط٣، ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ١٣٩ تفسير ابن جزري (التسهيل لعلوم التنزيل)، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزري الكلبي، ط٢، ١٣٩٢هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٤٠ تفسير ابن عادل (اللباب في علوم الكتاب)، لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض، ط١، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٤١ تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير)، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس .
- ١٤٢ تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، ط١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٤٣ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي محمد السلامة، ط٢، ١٤٢٠هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع.
- ١٤٤ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، تعليق عبداللطيف عبدالرحمن، ط١، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٤٥ تفسير أبي حيان (البحر المحيط)، لأبي عبدالله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، ط١٤١٢هـ، دار الفكر، بيروت .
- ١٤٦ تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، لأبي الفضل محمود الألوسي، تحقيق: علي عبدالباري عطية، ط١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٤٧ تفسير البغوي (معالم التنزيل)، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد النمر وعثمان ضميرية وسليمان الحرش، ط٢، ١٤١٤هـ، دار طيبة، الرياض .
- ١٤٨ تفسير التابعين، د.محمد بن عبدالله الخضير، دار الوطن، الرياض.

- ١٤٩ تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، ١٤٢٢هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٥٠ تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، لعلي بن محمد البغدادي المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٥١ تفسير الرازي (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب)، لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط ١، ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٥٢ تفسير الرسعني (رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز)، لعز الدين عبدالرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي، تحقيق: د.عبدالمملك بن عبدالله بن دهيش، ط ١، ١٤٢٩هـ، مكتبة الأسد، مكة.
- ١٥٣ تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٥٤ تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، للشیخ عبدالرحمن ابن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويح، ط ١، ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ١٥٥ تفسير السمرقندي، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت .
- ١٥٦ تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس، ط ١، ١٤١٨هـ، دار الوطن، الرياض .
- ١٥٧ تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، للإمام محمد بن علي الشوكاني، ط ١، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.
- ١٥٨ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط ١، ١٤٢٢هـ، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، جمهورية مصر العربية. وأخرى : ط ٣، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٥٩ تفسير القرآن الكريم (الفاتحة والبقرة)، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط ١، ١٤٢٣هـ، دار ابن الجوزي، الدمام .

- ١٦٠ تفسير القرآن بالقرآن (دراسة تأصيلية)، د. أحمد بن محمد البريدي، ضمن مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد (٢)، ذو الحجة، ١٤٢٧هـ.
- ١٦١ تفسير القرآن، لأبي بكر محمد بن إبراهيم ابن المنذر النيسابوري، تحقيق: سعد ابن محمد السعد، ط ١، ١٤٢٣هـ، دار المآثر، المدينة.
- ١٦٢ تفسير القرآن، لعز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمى الدمشقي، تحقيق: د. عبدالله إبراهيم الوهبي، ط ١، ١٤١٦هـ، دار ابن حزم، بيروت.
- ١٦٣ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: سمير البخاري، ط ١٤٢٣هـ، دار عالم الكتب، الرياض.
- ١٦٤ التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د. مساعد بن سليمان الطيار، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ١٦٥ تفسير الماوردي (النكت والعيون)، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، تعليق: السيد بن عبدالمقصود، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- ١٦٦ تفسير المشكل من غريب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. علي حسين البواب، ١٤٠٦هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
- ١٦٧ تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: زكريا عميران، ط ١، ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٦٨ تفسير سورة الإخلاص، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تعليق: د. عبدالعليم حامد، ط ١، ١٤٠٨هـ، دار الريان للتراث، القاهرة.
- ١٦٩ تفسير عبدالرزاق، للإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. مصطفى مسلم، ط ١، ١٤١٠هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- ١٧٠ تفسير غريب القرآن، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٧١ تفسير مكي (الهداية إلى بلوغ النهاية)، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، ط ١، ١٤٢٩هـ، إشراف ونشر جامعة الشارقة.
- ١٧٢ التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، ط ٧، ٢٠٠٠م، مكتبة وهبة، القاهرة.

- ١٧٣ تقريب التهذيب، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، ط٣، ١٤١١هـ، دار القلم، دمشق.
- ١٧٤ تقريب الوصول إلى علم الأصول، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تحقيق: د. محمد المختار الشنقيطي، ط٢، ١٤٢٣هـ.
- ١٧٥ للتقرير والتحبير، لابن أمير الحاج، ط١٧٤١٧هـ، دار الفكر، بيروت.
- ١٧٦ تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر العسقلاني، ط١، ١٤١٧هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض.
- ١٧٧ التلخيص في علوم البلاغة، محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب، تحقيق: عبدالرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، بيروت.
- ١٧٨ التمهيد في أصول الفقه، لأبي الخطاب، محفوظ بن أحمد الكلوزاني الحنبلي، تحقيق: د. مفيد محمد أبو عمشة، ط١، ١٤٠٦هـ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- ١٧٩ التمهيد للإسنوي، لأبي محمد عبدالرحمن بن الحسن الإسنوي، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، ط١، ١٤٠٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٨٠ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري، تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكري، ط١٣٨٧هـ، وزارة عموم الأوقاف، المغرب.
- ١٨١ التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطبي الشافعي، تحقيق: د. محمد زينهم عزب، ط١، ١٤١٣هـ، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- ١٨٢ تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٨٣ تهذيب التهذيب، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٨٤ تهذيب الكمال، لأبي الحجاج يوسف المزني، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط٢، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- ١٨٥ تَهذِيبُ اللُّغَةِ، لِأَبِي مَنْصُورِ مُحَمَّدِ الْأَزْهَرِيِّ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدِ عَوْضِ مَرْعَبٍ، ط١، ٢٠٠١م، دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوتَ.
- ١٨٦ تَوْجِيهِهِ مَشْكَلُ الْقَرَاءَاتِ الْعَشْرِيَّةِ الْقَرَشِيَّةِ لُغَةً وَتَفْسِيرًا وَإِعْرَابًا، رِسَالَةٌ مَاجِسْتِيرٍ بِقِسْمِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ فِي جَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى، إِعْدَادُ: عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَلِيِّ الْحَرَبِيِّ.
- ١٨٧ التَّلْسِيرُ فِي قَوَاعِدِ عِلْمِ التَّفْسِيرِ، مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ الْكَافِيحِيِّ، تَحْقِيقُ: نَاصِرِ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَطْرُودِيِّ، ط١، ١٤١٠هـ، دَارُ الْقَلَمِ، دِمَشْقَ.
- ١٨٨ التَّلَثَاتُ، لِأَبِي حَاتِمِ مُحَمَّدِ بْنِ حَبَانَ التَّمِيمِيِّ، تَحْقِيقُ: السَّيِّدِ شَرْفِ الدِّينِ أَحْمَدَ، ط١، ١٣٩٥هـ، دَارُ الْفِكْرِ، بَيْرُوتَ.
- ١٨٩ سَمَاعُ الْأَصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ، لِأَبِي السَّعَادَاتِ الْمُبَارَكِ بْنِ مُحَمَّدِ (ابْنِ الْأَثِيرِ الْجَزْرِيِّ)، تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْقَادِرِ الْأَرْنَؤُوطِ، ١٣٨٩هـ، مَكْتَبَةُ الْحُلُوفِيِّ.
- ١٩٠ سَمَاعُ الْبَيَانِ فِي الْقَرَاءَاتِ السَّبْعِ، لِأَبِي عَمْرٍو عَثْمَانَ بْنِ سَعِيدِ الدَّانِيِّ، تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْمُهَيْمِنِ عَبْدِ السَّلَامِ طَحَانَ، رِسَالَةٌ دَكْتُورَاهُ بِقِسْمِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَالدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِجَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى، ١٤٠٦هـ.
- ١٩١ السَّمَاعُ لِأَخْلَاقِ الرَّوَايِ وَأَدَابِ السَّمَاعِ، لِأَبِي بَكْرٍ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ الْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ، تَحْقِيقُ: د. مُحَمَّدِ عَجَّاجِ الْخَطِيبِ، مَوْسُئَةُ الرِّسَالَةِ، بَيْرُوتَ.
- ١٩٢ السَّمَاعُ الْفَنِيُّ فِي قِصَصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، د. عَمْرٌو مُحَمَّدٌ عَمْرٌو بَاحَاذِقٌ، ط١، ١٤١٣هـ، دَارُ الْمَأْمُونِ لِلتَّرَاثِ، دِمَشْقَ.
- ١٩٣ السَّمَاعُ وَالتَّعْدِيلُ لِأَبِي مُحَمَّدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمِ الرَّازِيِّ، ط١، ١٣٧١هـ، دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ، بَيْرُوتَ.
- ١٩٤ سَمَاعُ الْقُرْآنِ وَكَمَالُ الْإِقْرَاءِ، لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ السَّخَاوِيِّ، تَحْقِيقُ: مَرْوَانَ الْعَطِيَّةَ، وَمُحَسَّنَ خِرَابَةَ، ط١، ١٤١٨هـ، دَارُ الْمَأْمُونِ لِلتَّرَاثِ، دِمَشْقَ.
- ١٩٥ سَمَاعِيَّاتُ الْقَلْبِ فِي الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، د. صَالِحُ بْنُ سَعِيدِ الزَّهْرَانِيِّ، ضَمَّنَ مَجْلَةَ جَامِعَةِ الْإِمَامِ، عَدَدُ (١٩).
- ١٩٦ سَمَاعُ الْجَوَامِعِ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ، لِعَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَلِيِّ السَّبْكِِيِّ، ط١، ١٤٢١هـ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوتَ.

- ١٩٧ جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، د.فهد بن عبدالرحمن الرومي، ط١، ١٤٢٤هـ، الرياض.
- ١٩٨ جمل الغرائب، محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري، تحقيق: خالد بن أحمد الأكوغ، رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى.
- ١٩٩ جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: د.محمد علي الهاشمي، ط١، ١٣٩٩هـ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- ٢٠٠ جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ١٩٨٨م، دار الفكر، بيروت.
- ٢٠١ جنابة التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد لوح، ط١، ١٤١٨هـ، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية .
- ٢٠٢ الجهمية والمعتزلة (نشأتهما وأصولهما ومناهجهما)، د.ناصر بن عبدالكريم العقل، ط١، ١٤٢١هـ، دار الوطن للنشر، الرياض.
- ٢٠٣ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: د.علي بن حسن بن ناصر وآخرون، ط٢، ١٤١٩هـ، دار العاصمة، الرياض.
- ٢٠٤ الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم، لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ط١٣٦٩هـ، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة.
- ٢٠٥ جواهر الكنز "تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة"، لأحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د.محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية.
- ٢٠٦ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لمحمد بن عرفة الدسوقي، تحقيق: محمد عlish، دار الفكر، بيروت .
- ٢٠٧ حجة القراءات، للإمام أبي زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط٥، ١٤١٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٢٠٨ الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد "قوام السنة"، تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، ط١، ١٤١١هـ، دار الراية، الرياض.

- ٢٠٩ الحجّة للقراء السبعة، لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، تعليق: كامل مصطفى الهنداوي، ط ١، ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٢١٠ حديث الأحرف السبعة، د. عبدالعزيز بن عبدالفتاح القارئ، ط ١، ١٤٢٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢١١ حرز الأمانى ووجه التهاني "متن الشاطبية"، للقاسم بن فيره الشاطبي، ضبط وتصحيح: علي محمد الصباغ، ١٣٥٥هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- ٢١٢ حياة المبرد وجهوده العلمية والبلاغية، رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية في جامعة أبي بكر بلقايد الجزائرية، إعداد: هبية بن قو.
- ٢١٣ الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط ٢، مطبعة مصطفى البابي، مصر .
- ٢١٤ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وأميل بديع يعقوب، ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢١٥ الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد بن علي البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت .
- ٢١٦ الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها، د. يوسف العشي، ١٣٦٦هـ، مكتبة الترقى، دمشق.
- ٢١٧ الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، د. ناصر بن عبدالكريم العقل، ط ١، ١٤١٩هـ، دار إشبيلية، الرياض.
- ٢١٨ الخوارج تاريخهم وآراءهم الاعتقادية وموقف الإسلام منها، رسالة ماجستير بكلية الشريعة بجامعة الملك عبدالعزيز، إعداد: غالب بن علي العواجي.
- ٢١٩ المدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخراط، ط ١، ١٤٠٦هـ، دار القلم، بيروت .
- ٢٢٠ حرة تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط ٢، ١٤١١هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- ٢٢١ دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، ط ٩، ١٤٢١هـ، مكتبة التوبة، الرياض .

- ٢٢٢ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة.
- ٢٢٣ - دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة"، د. أحمد محمد أحمد جلي، ط ٢، ١٤٠٨هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.
- ٢٢٤ - دراسة نقدية في علم مشكل الحديث، إبراهيم العسعس، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٢٢٥ - للدراية في تخريج أحاديث الهداية، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالله هاشم اليماني، دار المعرفة، بيروت .
- ٢٢٦ - للدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٢٧ - دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، رسالة دكتوراه بقسم اللغة في كلية التربية بجامعة بغداد، إعداد: محمد ياس خضر الدوري.
- ٢٢٨ - دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمد محمود شاكر، ط ٣، ١٤١٣هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٢٢٩ - دلائل النبوة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، ط ١، ١٤٠٨هـ، دار الريان للتراث، القاهرة.
- ٢٣٠ - للديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، للقاضي إبراهيم بن نور الدين "ابن فرحون" المالكي، تحقيق: مأمون الجنان، ط ١، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٣١ - ديوان الأصمعيات، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، ط ٢، ١٤٢٥هـ، دار صادر، بيروت.
- ٢٣٢ - ديوان الأعشى (ميمون بن قيس)، شرح: د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر.
- ٢٣٣ - ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، ط ١، ١٤٠٧هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٢٣٤ - ديوان الحماسة لأبي تمام، مع شرحه لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط ٢، ١٣٨٧هـ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر.
- ٢٣٥ - ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر.
- ٢٣٦ - ديوان الفرزدق بشرح إيليا الحاوي، ط ١، ١٩٨٣م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

- ٢٣٧ ديوان المفضليات، لأبي العباس المفضل بن محمد الضبي، تحقيق: أحمد شاكر
وعبدالسلام هارون، ط٦، دار المعارف، مصر.
- ٢٣٨ ديوان النابغة الذبياني، عناية: حمدو طمّاس، ط٢، ١٤٢٦هـ، دار المعرفة، بيروت.
- ٢٣٩ ديوان الهذليين، ط٢، ١٩٩٥م، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٢٤٠ ديوان امرؤ القيس، عناية: عبدالرحمن المصطاوي، ط٢، ١٤٢٥هـ، دار المعرفة،
بيروت.
- ٢٤١ ديوان جرير، ١٤٠٦هـ، دار بيروت، لبنان.
- ٢٤٢ ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: د. سيد حنفي حسنين، ط ١٣٩٤هـ، طبعة وزارة
الثقافة بجمهورية مصر العربية .
- ٢٤٣ ديوان زهير بن أبي سلمى، عناية: حمدو طمّاس، ط٢، ١٤٢٦هـ، دار المعرفة،
بيروت.
- ٢٤٤ ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي، تحقيق: د. عادل سليمان جمال، ط٢،
١٤١١هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٢٤٥ ديوان شعر ذي الرمة، تحقيق: كارليل هنري هيس، ١٣٣٧هـ، مطبعة كلية كمبرج.
- ٢٤٦ ديوان شعر عروة بن أذينة، جمع: د. يحيى الجبوري، ط٢، ١٤٠١هـ، دار القلم،
بيروت.
- ٢٤٧ ديوان عنتر بن شداد، ١٨٩٣م، مطبعة الآداب، بيروت.
- ٢٤٨ ديوان لبيد بن ربيعة، بشرح الطوسي، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٢٤٩ ذيل طبقات الحنابلة، لأبي الفرج عبدالرحمن بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت.
- ٢٥٠ رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد، للدارمي، تحقيق: محمد
حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٥١ الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن، للإمام أحمد بن حنبل،
ط١، ١٤٢٣هـ، دار المنهاج، القاهرة .
- ٢٥٢ رسالة الخط والقلم، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: هلال ناجي،
ضمن مجلة المورد، العدد (١)، سنة ١٤١٠هـ.

- ٢٥٣ الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، محمد بن جعفر الكتاني، ط٥، ١٤١٤هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
- ٢٥٤ الرسالة، للإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط ١٣٥٨هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة .
- ٢٥٥ رفع الإصر عن قضاة مصر، للحافظ أحمد بن علي بن حجر، تحقيق: د.علي محمد عمر، ط ١، ١٤١٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٢٥٦ روضة الناظر وجنة المناظر، لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د. عبدالكريم بن علي النملة، ط ٦، ١٤٢٢هـ، مكتبة الرشد .
- ٢٥٧ للزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، ط ١، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢٥٨ للزيادة والإحسان في علوم القرآن، لابن عقيلة المكي، ط ١، ١٤٢٧هـ، مركز البحوث والدراسات بجامعة الشارقة، الإمارات.
- ٢٥٩ للسبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، تحقيق: شوقي ضيف، ط ٢، ١٤٠٠هـ، دار المعارف، مصر .
- ٢٦٠ للمسحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، محمد بن عبدالله بن حميد، ط ١، ١٩٨٩م، مكتبة الإمام أحمد.
- ٢٦١ سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد بن ناصر الدين الألباني، ١٤١٥هـ، مكتبة المعارف، الرياض .
- ٢٦٢ السنة، لأبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني، بتخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، ١٤٠٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٢٦٣ السنة، لأبي عبدالله محمد بن نصر المروزي، تحقيق: د.عبدالله محمد البصري، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار العاصمة، الرياض.
- ٢٦٤ سنن ابن ماجه للإمام أبي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه، مطبوع ضمن (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة)، بإشراف: الشيخ صالح آل الشيخ، ط ٣، ١٤٢١هـ، دار السلام الرياض .

- ٢٦٥ سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، مطبوع ضمن (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة)، بإشراف: الشيخ صالح آل الشيخ، ط ٣، ١٤٢١هـ، دار السلام الرياض .
- ٢٦٦ سنن البيهقي الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط ١٤١٤هـ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة .
- ٢٦٧ سنن الترمذي (الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل)، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، مطبوع ضمن (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة)، بإشراف: الشيخ صالح آل الشيخ، ط ٣، ١٤٢١هـ، دار السلام الرياض .
- ٢٦٨ سنن الدارقطني، لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: عبدالله هاشم يماني، ط ١٣٨٦هـ، دار المعرفة، بيروت .
- ٢٦٩ سنن الدارمي، للحافظ عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق: حسين أسد، ط ١، ١٤٢١هـ، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض .
- ٢٧٠ سنن النسائي الصغرى (المجتبى من السنن)، للإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مطبوع ضمن (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة)، بإشراف: الشيخ صالح آل الشيخ، ط ٣، ١٤٢١هـ، دار السلام الرياض .
- ٢٧١ سنن النسائي الكبرى، للحافظ أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: د. عبدالغفار البنداري وسيد كسروي، ط ١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٢٧٢ سنن سعيد بن منصور، للإمام سعيد بن منصور الخراساني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط ١، ١٤٠٣هـ، الدار السلفية، الهند .
- ٢٧٣ سيرة أعلام النبلاء، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ٩، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٢٧٤ شذرات الذهب، لابن العماد عبدالحفي بن أحمد الحنبلي، تحقيق: عبدالقادر عطا ومحمود الأرنؤوط، ط ١، ١٤٠٦هـ، دار ابن كثير، دمشق .
- ٢٧٥ شرح أدب الكاتب، موهوب الجواليقي، تحقيق: د. طيبة حمد بودي، ط ١، ١٤١٥هـ، مطبوعات جامعة الكويت .

- ٢٧٦ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان الغامدي، ط ٤، ١٤١٦هـ، دار طيبة، الرياض .
- ٢٧٧ - شرح الأصول من علم الأصول، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار البصيرة، جمهورية مصر العربية .
- ٢٧٨ - شرح التسهيل، لابن مالك محمد بن عبدالله الجياني الأندلسي، تحقيق: د. عبدالرحمن السيد، ود. محمد بدوي المختون، ط ١، ١٤١٠هـ، دار هجر، مصر .
- ٢٧٩ - شرح السنة، للإمام الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط، ط ٢، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، دمشق .
- ٢٨٠ - شرح العقيدة الطحاوية، للقاضي علي بن علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق: د. عبدالله التركي وشعيب الأرنؤوط، ط ١٣، ١٤١٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٢٨١ - شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، عناية: سعد الصميل، ط ٦، ١٤٢١هـ، دار ابن الجوزي، الدمام .
- ٢٨٢ - المشرح الكبير، لأبي الفرج عبدالرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبدالله التركي، ط ١، ١٤١٥هـ، دار هجر، مصر .
- ٢٨٣ - شرح الكوكب المنير، لمحمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار، تحقيق: د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد، ط ١٨٤١هـ، مكتبة العبيكان، الرياض .
- ٢٨٤ - شرح جمل الزجاجي، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق: د. صاحب أبو جناح، ١٤٠٢هـ، دار الكتاب، العراق .
- ٢٨٥ - شرح شافية ابن الحاجب، لرضي الدين محمد بن الحسين الاسترأبادي، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٢٨٦ - شرح صحيح مسلم، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط ١، المطبعة المصرية بالأزهر .
- ٢٨٧ - شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، دار الفكر، بيروت .
- ٢٨٨ - شرح مختصر الروضة، لنجم الدين سليمان بن عبدالقوي بن سعيد الطوفي، تحقيق: د. عبدالله التركي، ط ٢، ١٤١٩هـ، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية، المملكة العربية السعودية .

- ٢٨٩ شرح مشكل الآثار، للإمام أبي جعفر الطحاوي، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، ط١، ١٤١٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٢٩٠ شرح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية، شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط١، ١٤١٥هـ، دار الوطن، الرياض .
- ٢٩١ شرح نظم الورقات، لشرف الدين يحيى العمري، شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط١، ١٤٢٣هـ، دار العقيدة، الإسكندرية .
- ٢٩٢ للمشرية، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: د. عبدالله بن عمر الدميحي، دار الوطن، الرياض.
- ٢٩٣ شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني، ط١، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٢٩٤ للمشعر والشعراء، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.
- ٢٩٥ للمشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: محمد علي البجاوي، ١٤٠٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٢٩٦ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: مصطفى أبو النصر الشلبي، ط١، ١٤١٢هـ، مكتبة السوادي، جدة.
- ٢٩٧ للمصاحبي، لأحمد بن فارس بن زكريا، تعليق: أحمد حسن بسج، ط١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٩٨ للمصارم المسلول على شاتم الرسول، لأبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: محمد الحلواني ومحمد شودري، ط١، ١٤١٧هـ، رمادي للنشر، الدمام.
- ٢٩٩ للمصاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط٤، ١٩٩٠م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٣٠٠ صحيح ابن حبان، لأبي حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .

- ٣٠١ صحيح ابن خزيمة، للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، ط ٢، ١٤١٢هـ، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣٠٢ صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، مطبوع ضمن (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة)، بإشراف: الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، ط ٣، ١٤٢١هـ، دار السلام، الرياض .
- ٣٠٣ صحيح الترمذي، للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣٠٤ صحيح الجامع الصغير وزيادته، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، ١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣٠٥ صحيح النسائي، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣٠٦ صحيح سنن ابن ماجه، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣٠٧ صحيح سنن أبي داود، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣٠٨ صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ)، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، مطبوع ضمن (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة)، بإشراف: الشيخ صالح آل الشيخ، ط ٣، ١٤٢١هـ، دار السلام الرياض .
- ٣٠٩ الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم، لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة تحقيق: د. محمد بن عبدالرحمن الخميس، مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٦٠) (من ص ١٤٧ إلى ص ٢١٤).
- ٣١٠ اللصفات، للحافظ علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: د. عبدالله الغنيمان، ط ١، ١٤٠٢هـ، مجموعة رسائل التوحيد.
- ٣١١ اللصناعتين: الكتابة والشعر، لأبي الهلال الحسن بن عبدالله العسكري، ط ١، ١٣١٩هـ، مطبعة محمود بك، القاهرة.

- ٣١٢ الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: د. علي محمد الدخيل الله، ط٣، ١٤١٨هـ، دار العاصمة، بيروت .
- ٣١٣ ضعيف الجامع الصغير وزيادته، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤١٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣١٤ ضعيف سنن ابن ماجه، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣١٥ ضعيف سنن أبي داود، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١، ١٤١٢هـ، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣١٦ ضعيف سنن الترمذي، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣١٧ ضعيف سنن النسائي، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٣١٨ المصوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبدالرحمن السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت .
- ٣١٩ طبقات الحنابلة، لأبي الحسين محمد بن أبي يعلى الحنبلي، تحقيق : د. عبدالرحمن ابن سليمان العثيمين، ١٤١٩هـ، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة .
- ٣٢٠ طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين علي بن عبدالكافي السبكي، تحقيق : د. محمود الطناجي ود. عبدالفتاح الحلو، ط٢، ١٤١٣هـ، هجر للطباعة والنشر .
- ٣٢١ طبقات الفقهاء، لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي، تحقيق: د. إحسان عباس، ١٩٧٠م، دار الرائد العربي، بيروت .
- ٣٢٢ الطبقات الكبرى، لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري، ط١، ١٩٦٨م، دار صادر، بيروت .
- ٣٢٣ طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، تحقيق: علي بن محمد عمر، ط٢، ١٤١٥هـ، مكتبة وهبة، القاهرة .

- ٣٢٤ طبقات فحول الشعر، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
- ٣٢٥ طبقات النحويين واللغويين ، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر.
- ٣٢٦ طريق الوصول إلى العلم المأمول، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المؤسسة السعيدية، الرياض.
- ٣٢٧ المعبر في خبر من غبر، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق : محمد السعيد ابن بسيوني زغلول، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٢٨ المعده في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، تحقيق: د. أحمد بن علي سير المباركي، ط١، ١٤٠٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٣٢٩ المعقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ط١، ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٣٠ عقيدة الإمام ابن قتيبة، د. علي بن نفيح العلياني، ط١، ١٤١٢هـ، مكتبة الصديق، الطائف.
- ٣٣١ المعقيدة التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. محمد بن عودة السعوي، ط٣، ١٤١٦هـ، مكتبة العبيكان، الرياض .
- ٣٣٢ المعقيدة السلفية بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية، د. سيد عبدالعزيز السيلي، ط١، ١٤١٣هـ، دار المنار، القاهرة.
- ٣٣٣ المعلل المتناهية، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: خليل الميس، ط١، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٣٣٤ علم البديع، د. محمود أحمد المراغي، ط١، ١٤١١هـ، دار العلوم العربية، بيروت.
- ٣٣٥ علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل البيان)، د. بسيوني عبدالفتاح فيّود، ط٢، ١٤١٨هـ، دار المعالم الثقافية، الأحساء.
- ٣٣٦ علم القراءات (نشأته، أطواره، أثره في العلوم الشرعية)، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل، ط١، ١٤٢١هـ .

- ٣٣٧ ثعلو للعلي الغفار، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: أبو محمد أشرف ابن عبدالمقصود، ط ١، ١٩٩٥م، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
- ٣٣٨ علوم القرآن : مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، د.عدنان محمد زرزور، ط ١، ١٤٠١هـ، المكتب الإسلامي، دمشق.
- ٣٣٩ علوم القرآن الكريم، د.نور الدين عتر، ط ٦، ١٤١٦هـ، مطبعة الصباح، دمشق.
- ٣٤٠ علوم القرآن بين البرهان والإتقان، د. حازم سعيد حيدر، ١٤٢٠هـ، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة .
- ٣٤١ علوم القرآن عند ابن حزم جمعاً ودراسة، رسالة ماجستير بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بالرياض، إعداد : ناصر بن محمد آل عشوان الدوسري .
- ٣٤٢ علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير، د. محمد صفاء شيخ إبراهيم حقي، ط ١، ١٤٢٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٣٤٣ علوم القرآن، د.عبدالله محمود شحاته، ٢٠٠٢م، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٣٤٤ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد التونجي، ١٤١٤هـ، دار الكتب، بيروت .
- ٣٤٥ العمدة في غريب القرآن، لأبي محمد مكّي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: يوسف ابن عبدالرحمن المرعشلي، ط ١، ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٣٤٦ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ٥، ١٤٠١هـ، دار الجليل، بيروت.
- ٣٤٧ حيون الأخبار، لابن قتيبة، ط ٢، ١٩٩٦م، مطبعة دار الكتب المصرية. وأخرى: تحقيق: د.محمد السكندراي، ط ٥، ١٤٢٣هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٣٤٨ -غاية النهاية في طبقات القراء، لمحمد بن محمد بن الجزري، عني بنشره : ج.برجستراثر، ط ١، ١٤٢٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٣٤٩ -لغاية في القراءات العشر، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني، تحقيق: محمد غياث الجنباز، ط ٢، ١٤١١هـ، دار الشواف، الرياض .

- ٣٥٠ غرر البيان في من لم يُسم في القرآن، لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، ط ١، ١٤١٠هـ، دار قتيبة، دمشق.
- ٣٥١ غريب الحديث، لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، تحقيق: د. سليمان العايد، ط ١، ١٤٠٥هـ، دار المدني للطباعة والنشر، جدة.
- ٣٥٢ غريب الحديث، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزبوي، ط ٢، ١٤٢٢هـ، مطبوعات جامعة أم القرى.
- ٣٥٣ غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: د. محمد عبد المعين خان، ط ١، ١٣٩٦هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٣٥٤ غريب الحديث، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: د. عبدالله الجبوري، ط ١، ١٣٩٧هـ، مطبعة العاني، بغداد. وأخرى: عناية: نعيم زرزور، ط ١، ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٥٥ غيث النفع في القراءات السبع، لأبي الحسن علي بن سالم الصفاقسي، رسالة دكتوراه بقسم الكتاب والسنة في جامعة أم القرى، إعداد: سالم بن غرم الله الزهراني.
- ٣٥٦ الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ١٤١٤هـ، دار الفكر، بيروت.
- ٣٥٧ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط ٣، ١٤٠٧هـ، المكتبة السلفية، القاهرة.
- ٣٥٨ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، لأبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق: علي حسين علي، ط ٢، ١٤١٢هـ، دار الإمام الطبري.
- ٣٥٩ الفرق بين الفرق، لعبد القاهر بن طاهر الأسفرايني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٤١٦هـ، المكتبة العصرية، بيروت.
- ٣٦٠ فخر معاصرة تنتسب إلى الإسلام، د. غالب بن علي العواجي، ط ٤، ١٤٢٢هـ، المكتبة العصرية الذهبية، جدة.
- ٣٦١ المفروع، لأبي عبدالله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: حازم القاضي، ط ١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ٣٦٢ للفروق "أنوار البروق في أنواء الفروق"، لأبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي المشهور بـ"القراي"، تحقيق: د. محمد أحمد سراج، ود. علي جمعة محمد، ط ١، ١٤٢١هـ، دار السلام للطباعة، القاهرة.
- ٣٦٣ للفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، ط ١، ١٤١٤هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.
- ٣٦٤ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد عبدالله بن محمد بن أبي مصعب البكري، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، ١٩٧١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٣٦٥ للفصل في الملل والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة .
- ٣٦٦ للفصول في الأصول، لأحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: د. عجيل النشمي، ط ١، ١٤٠٥هـ، وزارة الأوقاف، الكويت .
- ٣٦٧ فصول في فقه العربية، د. رمضان عبدالنواب، ط ٣، ١٤١٥هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٣٦٨ فضائل الصحابة، لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، ط ١، ١٤٠٣هـ، مطبوعات جامعة أم القرى.
- ٣٦٩ فضائل القرآن، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: أبو إسحاق الحويني الأثري، ١٤١٦هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٣٧٠ فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تعليق: مروان عطية، ط ٢، ١٤٢٠هـ، دار ابن كثير، دمشق .
- ٣٧١ فضل العرب والتنبيه على علومها، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: د. وليد محمود خالص، ط ١، ١٩٩٨م، منشورات الجمع الثقافي، أبو ظبي.
- ٣٧٢ فقه اللغة (مفهومه، موضوعاته، قضاياها)، محمد إبراهيم الحمد، ط ١، ١٤٢٦هـ، دار ابن خزيمة، الرياض.
- ٣٧٣ فقه اللغة وأسرار العربية، لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي، ط ٢، ١٤٢٠هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

- ٣٧٤ الفقيه والمتفقه، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: عادل يوسف العزالي، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٣٧٥ فخر ومباحث، علي الطنطاوي، ط٢، ١٤٠٨هـ، مكتبة المنارة، مكة.
- ٣٧٦ فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق: د. حسن ضياء الدين عتر، ط١، ١٤٠٨هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت .
- ٣٧٧ فهارس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف ببغداد، إعداد: د.عبدالله الجبوري.
- ٣٧٨ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية المنتخب من مخطوطات الحديث، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١، ١٤٢٢هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
- ٣٧٩ فهرسة ابن خير، لأبي بكر محمد بن خير الإشبيلي، ط١، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٨٠ لفهرست، لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم، تحقيق: رضا تجدد المازندراني، ١٣٩١هـ.
- ٣٨١ فوات الوفيات، لمحمد بن شاعر الكتي، تحقيق : علي محمد بن يعوض الله، ط١، ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٣٨٢ لففواكه الدواني لأحمد بن غنيم بن سالم المالكي، ط١٥١٥هـ، دار الفكر، بيروت .
- ٣٨٣ لفنوز الكبير في أصول التفسير، للإمام ولي الدين أحمد بن عبدالرحمن الدهلوي، ط١، ١٤٠٨هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت .
- ٣٨٤ في اللهجات العربية، د.إبراهيم أنيس، ط٨، ١٩٩٢م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- ٣٨٥ في رحاب القرآن الكريم، د. محمد سالم محيسن، ١٤٠٠هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة .
- ٣٨٦ في علوم القرآن (عرض ونقد وتحقيق)، د. أحمد حسن فرحات، ط١، ١٤٢١هـ، دار عمار للنشر والتوزيع .
- ٣٨٧ لفقاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط٤، ١٤١٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .

- ٣٨٨ للقراءات التي أتمها النحاة باللحن، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية، بجامعة الأزهر، إعداد: أشرف إبراهيم الشوادحي.
- ٣٨٩ للقراءات القرآنية (تاريخها، ثبوتها، حجيتها، أحكامها)، لعبدالحليم بن محمد الهادي قابة، ط ١، ١٩٩٩م، دار الغرب الإسلامي، بيروت .
- ٣٩٠ للقراءات وأثرها في التفسير والأحكام، د.محمد بن عمر بن سالم بازمول، ط ١، ١٤١٧هـ، دار الهجرة، الرياض.
- ٣٩١ للقراءة الشاذة عند الأصوليين، د. علي بن سعد الضويحي، مطبوع في مجلة البحوث الإسلامية، عدد (٤٩)، رجب - شوال ١٤١٧هـ .
- ٣٩٢ -القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، ط ٢، ١٣٩٥هـ، دار المعرفة، بيروت.
- ٣٩٣ للمقطع والائتناف، للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: د.عبدالرحمن المطرودي، ط ١، ١٤١٣هـ، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية .
- ٣٩٤ قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: محمد حسن الشافعي، ط ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٣٩٥ قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، ط ١، ١٤١٧هـ، دار القاسم، الرياض.
- ٣٩٦ قواعد التفسير (جمعاً ودراسة)، لخالد بن عثمان السبت، ط ١، ١٤١٧هـ، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، الخبر، المملكة العربية السعودية .
- ٣٩٧ للقواعد الحسان لتفسير القرآن، الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ط ١، ١٤١٣هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٣٩٨ قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، د.مصطفى حلمي، ط ١، ١٤٢٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٣٩٩ المقول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، تحقيق: د.سليمان أبا الخيل، ود.خالد المشيقح، ط ١، ١٤١٥هـ، دار العاصمة، الرياض.

- ٤٠٠ الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد المعروف بـ"ابن الأثير" الجزري، تصحيح: د.محمد يوسف الدقاق، ط١، ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٠١ الكامل في ضعفاء الرجال، لأبي أحمد عبدالله بن عدي الجرجاني، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، ط٣، ١٤٠٩هـ، دار الفكر، بيروت .
- ٤٠٢ الكامل، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: د.محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٤٠٣ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزّ وجل، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمه، تحقيق: د.عبدالعزیز بن إبراهيم الشهبان، ط٥، ١٤١٤هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٤٠٤ كتاب الزهد، عبدالله بن المبارك المروزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٠٥ كتاب السنة، لأبي عبدالرحمن عبدالله ابن الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د.محمد ابن سعيد القحطاني، دار ابن القيم.
- ٤٠٦ كتاب العين، لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ط١، ١٤٢١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . وأخرى: تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ٤٠٧ كتاب المصاحف، لأبي بكر عبدالله بن سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بابن أبي داود، تحقيق: د. محب الدين عبد السبحان واعظ، ط٢، ١٤٢٣هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت .
- ٤٠٨ كتاب مناهل العرفان للزرقاني (دراسة وتقييم)، د. خالد بن عثمان السبت، ط٢، ١٤٢٢هـ، دار ابن عفان، القاهرة .
- ٤٠٩ الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٣، ١٤٠٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٤١٠ كشف الأسرار على أصول البزدوي، علاء الدين عبدالعزيز بن أحمد البخاري، ط ١٣٩٤هـ، دار الكتاب العربي بالأوفست .

- ٤١١ كشف الظنون، لمصطفى بن عبدالله المعروف بحاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤١٢ كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين بن جماعة، تحقيق: د. عبدالجواد خلف، ط١، ١٤١٠هـ، دار الوفاء، مصر.
- ٤١٣ للكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكّي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: محيي الدين رمضان، ١٣٩٤هـ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ٤١٤ للكفاية في معرفة أصول علم الرواية، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: إبراهيم مصطفى الدميّاطي، ط١، ١٤٢٣هـ، دار الهدى، مصر.
- ٤١٥ للكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، ط٢، ١٤١٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٤١٦ لكتاب المحصول في علم الأصول، للعلامة الحسين بن رشيق المالكي، تحقيق: محمد غزالي عمر حاجي، ط١، ١٤٢٢هـ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة.
- ٤١٧ لكتاب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي، ط١، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- ٤١٨ لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، ط١، دار صادر، بيروت.
- ٤١٩ لسان الميزان، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، ط١، ١٤٢٣هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
- ٤٢٠ لطائف الإشارات لفنون القراءات، للإمام شهاب الدين القسطلاني، تحقيق: عامر السيد ود. عبدالصبور شاهين، ط١، ١٣٩٢هـ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- ٤٢١ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، د. محمد لطفي الصباغ، ط٣، ١٤١٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٤٢٢ للملح في أصول الفقه، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ٤٢٣ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، لأبي محمد عبدالله بن قدامة، مع شرحها لفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.
- ٤٢٤ لوائح الأنوار السنّية ولوائح الأفكار السنّية، محمد بن أحمد السفاريني، تحقيق: عبدالله بن محمد البصري، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٤٢٥ مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ط ١، ١٤٢٠هـ، دار القلم، دمشق .
- ٤٢٦ مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن، د. محمد رفعت أحمد زنجير، ط ١، ١٤٢٨هـ، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي.
- ٤٢٧ مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ط ٢٤، ٢٠٠٠م، دار العلم للملايين، بيروت .
- ٤٢٨ مباحث في علوم القرآن، د. مناع القطان، ط ٢، ١٤١٧هـ، مكتبة المعارف، الرياض .
- ٤٢٩ الملبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني، تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
- ٤٣٠ المتشابه في القرآن (مفهومه وأسبابه وحكمته)، د. طه عابدين طه، ضمن مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، ج (١٩)، ع (٤١)، جمادى الثاني، ١٤٢٨هـ.
- ٤٣١ المتفق والمفترق، لأبي بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمد صادق الحامدي، ط ١، ١٤١٧هـ، دار القادري، دمشق.
- ٤٣٢ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير الكاتب، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نخضة مصر، القاهرة.
- ٤٣٣ مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سركين، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٤٣٤ المجاز عند الأصوليين بين المجيزين والمنايعين، د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس، مطبوع في مجلة جامعة أم القرى، العدد (٢٠) (من ص ٥٧٣ إلى ص ٦١٠).
- ٤٣٥ المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري، تحقيق: د. محمد فؤاد سركين، ط ١، ١٤٢٣هـ، دار ابن حزم، بيروت.
- ٤٣٦ مجلة المورد، الصادرة عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الأعداد (١، ٧٣).

- ٤٣٧ مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٣٧٤هـ، مطبعة السنة المحمدية، مصر.
- ٤٣٨ مجمع الزوائد، لعلي بن أبي بكر الهيثمي، ط ١٤٠٧هـ، دار الريان للتراث، القاهرة .
- ٤٣٩ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن القاسم، ط ١٤١٦هـ، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة .
- ٤٤٠ مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، لأبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب، جمع وتحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، ط ٢، ١٤٢٤هـ، دار الفاروق الحديثة، القاهرة.
- ٤٤١ المجموع، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط ١٩٩٧م، دار الفكر، بيروت.
- ٤٤٢ محاضرات في علوم القرآن، د. غانم قدوري الحمد، ط ١، ١٤٢٣هـ، دار عمار الأردن .
- ٤٤٣ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د. عبدالفتاح إسماعيل شلي وآخرون، ١٤١٥هـ، مطبوعات لجنة إحياء كتب السنة بوزارة الأوقاف المصرية.
- ٤٤٤ المحرر في علوم القرآن، د. مساعد بن سليمان الطيار، ط ٢، ١٤٢٩هـ، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، جدة.
- ٤٤٥ المحصول لابن العربي، للقاضي أبي بكر ابن العربي المعافري المالكي، تحقيق: حسين البدري وسعيد فودة، ط ١٤٢٠هـ، دار البيارق، عمان .
- ٤٤٦ المحصول لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، ط ١، ١٤٠٠هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- ٤٤٧ المحكم والمتشابه في القرآن العظيم، د. عبدالرحمن بن إبراهيم المطرودي، ط ١، ١٤١٦هـ .
- ٤٤٨ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج وآخرون، ط ١، ١٣٧٧هـ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.
- ٤٤٩ المحلى، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة، بيروت .

- ٤٥٠ مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، ط ١٤١٥هـ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت .
- ٤٥١ مختصر ابن الحاجب (مختصر المنتهى)، لأبي عمرو عثمان بن عمر المشهور بابن الحاجب، تصحيح: شعبان محمد إسماعيل، ط ١٣٩٣هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة .
- ٤٥٢ مختصر خليل، لخليل بن إسحاق بن موسى المالكي، تحقيق: أحمد علي حركات، ط ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت .
- ٤٥٣ المختصر في أسماء السور، د. إبراهيم بن سليمان الهويمل، مطبوع في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد (٣٠)، ربيع الآخر، ١٤٢١هـ .
- ٤٥٤ مختصر في شواذ القرآن، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، مكتبة المتنبي، القاهرة .
- ٤٥٥ مدخل إعجاز القرآن، لأبي فهد محمود محمد شاكر، ط ١، ١٤٢٣هـ، مطبعة المدني، مصر .
- ٤٥٦ المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، ط ٣، مكتبة اللغة العربية، بغداد .
- ٤٥٧ المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، ط ٧، دار المعارف، مصر .
- ٤٥٨ المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، د. محمد بن علي الصامل، ط ٢، ١٤٢٦هـ، دار كنوز إشبيلية، الرياض .
- ٤٥٩ المدخل إلى علم القراءات، لـ د. شعبان محمد إسماعيل، ط ٢، ١٤٢٤هـ، مكتبة سالم، مكة المكرمة .
- ٤٦٠ المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد بن محمد أبو شهبة، ط ١، ١٤٢٤هـ، دار غراس، الكويت .
- ٤٦١ المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، لأبي النصر أحمد بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ط ١، ١٤٠٨هـ، دار القلم، دمشق .
- ٤٦٢ المدونة الكبرى، للإمام مالك بن أنس، دار صادر، بيروت .
- ٤٦٣ مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: سامي العربي، ط ١، ١٤١٩هـ، دار اليقين، مصر .

- ٤٦٤ امرأة الجنان وعبرة اليقظان، لأبي محمد عبدالله بن أسعد اليافعي، عناية: خليل منصور، ط ١، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٦٥ مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، مطبعة السعادة، مصر.
- ٤٦٦ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لشهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، تعليق : إبراهيم شمس الدين، ط ١، ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، وأخرى : بتحقيق: د.وليد مساعد الطبطبائي، ط ٢، ١٤١٤هـ، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت.
- ٤٦٧ المنزه في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ط ٣، دار التراث، القاهرة.
- ٤٦٨ المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: مروان عطية ومحسن خرابة، ط ١، ١٤١٠هـ، دار ابن كثير، دمشق.
- ٤٦٩ المستدرک علی الصحیحین، للحافظ أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. وأخرى: ط ١، ١٤١٧هـ، دار الحرمين، القاهرة.
- ٤٧٠ المستصفي، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: محمد عبدالسلام عبدالشافعي، ط ١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٤٧١ مسند أبي يعلى، لأبي يعلى أحمد بن علي الموصلبي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط ١، ١٤٠٤هـ، دار المأمون للتراث، دمشق .
- ٤٧٢ مسند البزار، لأبي بكر أحمد بن عمرو البزار، تحقيق : د. محفوظ الرحمن زين الله، ط ١، ١٤٠٩هـ، مؤسسة علوم القرآن، بيروت .
- ٤٧٣ المسند، للإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت . وأخرى: تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ٢، ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٤٧٤ المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية، تحقيق: د. أحمد بن إبراهيم الذروي، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار ابن حزم، بيروت .

- ٤٧٥ مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: ياسين محمد السّوّاس، ط٢، دار المأمون للتراث، دمشق.
- ٤٧٦ مشكل القرآن الكريم، د. عبدالله بن حمد المنصور، ط١، ١٤٢٦هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٤٧٧ مصطلحات علوم القرآن (عرض وتحليل واستدراك)، د. سليمان بن صالح القرعاوي، طبعة ١٤٢٣هـ .
- ٤٧٨ مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: محمد عوامة، ط١، ١٤٢٧هـ، دار القبلة، جدة.
- ٤٧٩ مصنف عبدالرزاق، لأبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعائي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت .
- ٤٨٠ المطلق والمقيد وأثرهما في اختلاف الفقهاء، د. حمد بن حمدي الصاعدي، ط١، ١٤٢٣هـ، إصدار الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- ٤٨١ المعارف، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ط٢، ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. ونسخة أخرى: بتحقيق: د. ثروت عكاشة، ط٤، دار المعارف، مصر.
- ٤٨٢ معاني القراءات، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: د. عيد درويش، ود. عوض القوزي، ط١، ١٤١٢هـ.
- ٤٨٣ معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط١، ١٤٠٨هـ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- ٤٨٤ معاني القرآن لعلي بن حمزة الكسائي، جمع: د. عيسى شحاته عيسى، ط١، ١٩٩٨م، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٤٨٥ معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شليبي، ط١، ١٤٠٨هـ، عالم الكتب، بيروت .
- ٤٨٦ معاني القرآن، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، تحقيق: د. هدى محمود قراة، ط١، ١٤١١هـ، مطبعة المدني، مصر.
- ٤٨٧ معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ط٣، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب، بيروت .

- ٤٨٨ المعاني الكبير في أبيات المعاني، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٨٩ معاني المحكم والمتشابه في القرآن، د. أحمد حسن فرحات، ط١، ١٤١٩هـ، دار عمار، الأردن .
- ٤٩٠ المعتزلة وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها، عواد عبدالله المعتق، ط٢، ١٤١٦هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٤٩١ المعتمد في أصول الفقه، لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري، تحقيق: خليل الميس، ط١، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٤٩٢ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، تحقيق: د. إحسان عباس، ط١، ١٩٩٣م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ٤٩٣ المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله وعبدالمحسن الحسين، ط١٤١٥هـ، دار الحرمين، القاهرة .
- ٤٩٤ معجم البلدان، لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، ١٣٩٧هـ، دار صادر، بيروت.
- ٤٩٥ المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، ط٢، ١٤٠٤هـ، مكتبة العلوم والحكم، الموصل .
- ٤٩٦ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، ١٤٠٣هـ، مطبعة الجمع العلمي العراقي.
- ٤٩٧ معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات، د. إبراهيم بن سعيد الدوسري، ١٤٢٥هـ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- ٤٩٨ المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. إنعام فؤال عكاوي، ط٢، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٩٩ معرب القرآن عربي أصيل، د. جاسر خليل أبو صفية .
- ٥٠٠ المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، تحقيق: د. ف. عبدالرحيم، ط١، ١٤١٠هـ، دار القلم، دمشق. وأخرى: بتحقيق: أحمد شاكر، دار الكتب المصرية، بيروت.

- ٥٠١ معرفة القراء الكبار، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د. طيار آلي قولاج، ١٤١٦هـ، اسطنبول.
- ٥٠٢ معرفة تأويل المتشابه، د. عبدالله أبو السعود بدر، ط١، ١٤٢١هـ، دار ابن حزم، بيروت.
- ٥٠٣ معرفة علوم الحديث، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم، تعليق: د. السيد حسين، ط٢، ١٣٩٧هـ، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.
- ٥٠٤ مغني اللبيب عن كتب الأعراب، لأبي عبدالله ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث العربي.
- ٥٠٥ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للحافظ أبي الفضل عبدالرحمن بن الحسين العراقي، اعتنى به: أشرف عبدالمقصود، ط١، ١٤١٥هـ، مكتبة طبرية، الرياض.
- ٥٠٦ المغني في الضعفاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: نور الدين عتر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.
- ٥٠٧ المغني، لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د. عبدالله التركي ود. عبدالفتاح الحلو، ط٣، ١٤١٧هـ، دار الكتب، الرياض.
- ٥٠٨ مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، ط٢، ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥٠٩ مفتاح الوصول إلى علم الأصول، لأبي عبدالله محمد بن أحمد المالكي التلمساني، ط١، ١٤٢٠هـ، المكتبة العصرية، بيروت.
- ٥١٠ مفحمت الأقران في مبهمات القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط١، ١٤٠٣هـ، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.
- ٥١١ مفردات القرآن، عبدالحميد الفراهي، تحقيق: د. محمد أجمل الإصلاحي، ط١، ٢٠٠٢م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ٥١٢ المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ١٤١٢هـ، دار العلم، دمشق.

- ٥١٣ مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين، د. أحمد عبد السيد الصاوي، ١٩٨٨م، المعارف، الاسكندرية.
- ٥١٤ مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، د. مساعد بن سليمان الطيار، ط ١، ١٤٢٣هـ، دار ابن الجوزي، الدمام .
- ٥١٥ المقارنة بين المشكل والمتشابه في القرآن الكريم، د. محمد أحمد الكردي، ضمن مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد (٣)، عدد (٢)، جمادى الأولى، ١٤٢٧هـ.
- ٥١٦ مقالة التشبيه، وموقف أهل السنة منها، د. جابر بن إدريس أمير، ط ١، ١٤٢٢هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
- ٥١٧ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٤١١هـ، المكتبة العصرية، بيروت.
- ٥١٨ مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ١٣٩٩هـ، دار الفكر، بيروت.
- ٥١٩ المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، ١٤١٥هـ، لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف المصرية، القاهرة.
- ٥٢٠ المقدمات الأساسية في علوم القرآن، لعبدالله بن يوسف الجديع، ط ١، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٥٢١ مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ١٤٢١هـ، دار الفكر، بيروت.
- ٥٢٢ مقدمة في أصول التفسير، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، عناية: فواز أحمد زمرلي، ط ١، ١٤١٤هـ، دار ابن حزم، بيروت. وأخرى: بشرح: د. مساعد ابن سليمان الطيار، ط ٢، ١٤٢٨هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
- ٥٢٣ المقصد الأرشدي في ذكر أصحاب أحمد، لإبراهيم بن محمد بن مفلح، تحقيق: د. عبدالرحمن العثيمين، ط ١، ١٤١٠هـ، مكتبة الرشد، الرياض .
- ٥٢٤ المقنع في رسم مصاحف الأمصار، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

- ٥٢٥ مكّي بن أبي طالب وتفسير القرآن، د. أحمد حسن فرحات، ط ١، ١٤١٨هـ، دار عمار، الأردن.
- ٥٢٦ ملامح رئيسية للمنهج السلفي، د. علاء بكر، ط ٢، ٢٠٠٢م، دار العقيدة.
- ٥٢٧ الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاي، ١٤٠٤هـ، دار المعرفة، بيروت.
- ٥٢٨ من معالم التيسير في تفسير السلف، د. عيسى بن ناصر الدريري، ضمن مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد (٣)، السنة الثانية.
- ٥٢٩ المنار المنيف في الصحيح والضعيف، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبدالرحمن ابن يحيى المعلمي، ط ١، ١٤١٦هـ، دار العاصمة، الرياض.
- ٥٣٠ منهاج التأليف عند العلماء العرب (قسم الأدب)، د. مصطفى الشكعة، ط ٦، ١٩٩١م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٥٣١ منهاج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، د. محمد الشيخ عليو محمد، ط ١، ١٤٢٧هـ، مكتبة دار المنهاج.
- ٥٣٢ مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، ط ١، ١٤١٦هـ، دار الفكر، بيروت، وأخرى: بتحقيق فؤاد أحمد زمري، ط ١، ١٤١٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٥٣٣ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبدالقادر عطا، ط ١، ١٤١٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥٣٤ المنتقى من شرح الموطأ، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد عطا، ط ١، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥٣٥ منجد المقرئين ومرشد الطالبين، للإمام محمد بن محمد بن الجزري، اعتناء: علي بن محمد العمران، ط ١، ١٤١٩هـ، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية.
- ٥٣٦ المنصف، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، ط ١، ١٣٧٣هـ، إدارة إحياء التراث القديم، مصر.

- ٥٣٧ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة .
- ٥٣٨ منهاج السنة النبوية، لأبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠٦هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- ٥٣٩ لمنهاج في الحكم على القراءات، د. إبراهيم بن سعيد الدوسري، ط١، ١٤٢٤هـ، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض .
- ٥٤٠ مننهج ابن كثير في التفسير، د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، ط١، ١٤٢٠هـ، دار المسلم، الرياض.
- ٥٤١ لمنهج الأحمد، لأبي عبدالرحمن بن محمد العليمي، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد، ط٢، ١٤٠٤هـ، عالم الكتب، بيروت .
- ٥٤٢ مننهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان بن علي حسن، ط٥، ١٤٢٧هـ، مكتبة الرشد الرياض.
- ٥٤٣ مننهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل، جابر إدريس علي أمير، ط١، ١٤١٩هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
- ٥٤٤ المهذب في علم أصول الفقه المقارن، د. عبدالكريم بن علي النملة، ط١، ١٤٢٠هـ، مكتبة الرشد، الرياض .
- ٥٤٥ المهذب في ما وقع في القرآن من المعرب، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. التهامي الهاشمي، مطبوعات صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية.
- ٥٤٦ موازنة بين كتابي تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، رسالة ماجستير بكلية الآداب للبنات بالرياض، إعداد: سوسن بنت عبدالله الهندي.
- ٥٤٧ الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، ط١، ١٤٢٣هـ، المكتبة العصرية، بيروت .
- ٥٤٨ موسوعة المدن العربية والإسلامية، د. يحيى شامي، ط١، ١٩٩٣م، دار الفكر العربي، بيروت.

- ٥٤٩ الموضوعات من الأحاديث المرفوعات، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: د. نور الدين بن شكري، ط ١، ١٤١٨هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
- ٥٥٠ الموطأ، للإمام مالك بن أنس، تعليق: محمد مصطفى الأعظمي، ط ١، ١٤٢٥هـ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي.
- ٥٥١ هوقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة (عرضاً ونقداً)، لسليمان بن صالح بن عبدالعزيز الغصن، ط ١، ١٤١٦هـ، دار العاصمة الرياض.
- ٥٥٢ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي معوض وعادل عبدالموجود، ط ١، ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. وأخرى: تحقيق: محمد علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
- ٥٥٣ الميسر والقдах، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محب الدين الخطيب، ١٣٤٢هـ، المطبعة السلفية، القاهرة.
- ٥٥٤ ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، لابن البارزي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، ط ٢، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٥٥٥ الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: د. محمد صالح المديفر، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٥٥٦ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لأبي القاسم هبة الله بن سلامة، ط ٢، ١٤٢٢هـ، دار الحكمة، دمشق .
- ٥٥٧ الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عزّ وجل واختلاف العلماء في ذلك، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، ط ١، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٥٥٨ الناسخ والمنسوخ لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، تحقيق: د. عبدالغفار البنداري، ط ١، ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٥٥٩ المنبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، د. محمد عبدالله دراز، ط ٢، ١٤٢١هـ، دار طيبة، الرياض .
- ٥٦٠ النبوات، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، ط ١٣٨٦هـ، المطبعة السلفية، القاهرة .

٥٦١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ط ١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٦٢ نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالكريم الراضي، ط ١، ١٤٠٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٦٣ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات عبدالرحمن بن محمد ابن الأنباري، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، ط ٣، ١٤٠٥هـ، مكتبة المنار، الأردن.

٥٦٤ نزهة الخاطر العاطر، للشيخ عبدالقادر بن أحمد بن بدران الدمشقي، ط ٢، ١٤١٥هـ، دار ابن حزم، بيروت .

٥٦٥ نزول القرآن الكريم، د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، ط ١، ١٤١٨هـ .

٥٦٦ نزول القرآن على سبعة أحرف، الشيخ مناع القطان، ط ١، ١٤١١هـ، مكتبة وهبة، القاهرة.

٥٦٧ المنسخ في القرآن الكريم (دراسة تشريعية تاريخية نقدية)، د. مصطفى زيد، ط ٣، ١٤٠٨هـ، دار الوفاء، المنصورة .

٥٦٨ المنشور في القراءات العشر، لمحمد بن محمد بن الجزري، ط ١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، وأخرى: بتحقيق: محمد سالم محيسن، مكتبة القاهرة.

٥٦٩ نظرات معاصرة في القرآن الكريم، د. محمد حسين علي الصغير، ط ١، ٢٠٠٠م، دار المؤرخ العربي، بيروت.

٥٧٠ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٧١ نكت الانتصار لنقل القرآن، للقاضي أبي بكر الباقلاني، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، منشأ المعارف، الاسكندرية .

٥٧٢ نكت على كتاب ابن الصلاح، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. ربيع ابن هادي عمير، ط ٣، ١٤١٥هـ، دار الراجحة، الرياض.

٥٧٣ النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، ط ١٣٩٩هـ، المكتبة العلمية، بيروت .

- ٥٧٤ نواسخ القرآن، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي الملباري، ط ١، ١٤٠٤هـ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- ٥٧٥ المهدى والبيان في أسماء القرآن، للشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، ط ٣، ١٤١٨هـ، دار المسلم، الرياض .
- ٥٧٦ للمواضح في أصول الفقه، لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي، تحقيق: د.عبدالله التركي، ط ١، ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٥٧٧ للموافي بالوفيات، لصالح الدين الصفدي، تحقيق : أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط ١، ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث، بيروت .
- ٥٧٨ وفيات الأعيان، لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
١	المقدمة .
١٦	التمهيد .
٤٤	الباب الأول : مصنفات ابن قتيبة، وموارده فيها، وأثره في من بعده.
٤٥	الفصل الأول : مصنفات ابن قتيبة.
٤٧	المبحث الأول : مصنفات ابن قتيبة في المشكل.
٥١	المطلب الأول : تأويل مشكل القرآن .
٦٤	المطلب الثاني : تأويل مختلف الحديث.
٧٤	المبحث الثاني : مصنفات ابن قتيبة في الغريب.
٧٩	المطلب الأول : تفسير غريب القرآن.
٨٥	المطلب الثاني : غريب الحديث.
٩٣	المطلب الثالث : إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث.
٩٨	المطلب الرابع : المسائل والأجوبة .
١٠٩	المبحث الثالث : مصنفات ابن قتيبة الأخرى.
١٠٩	المطلب الأول : كتبه المطبوعة، ومادتها التفسيرية.
١٣٤	المطلب الثاني : كتبه المخطوطة والمفقودة.
١٣٩	المبحث الرابع : خصائص التصنيف عند ابن قتيبة.
١٥٤	الفصل الثاني : موارد ابن قتيبة في مصنفاته.
١٥٦	المبحث الأول : موارد في التفسير وعلوم القرآن.
١٦٩	المبحث الثاني : موارد في السنة النبوية والآثار .
١٧٩	المبحث الثالث : موارد في العقيدة.

رقم الصفحة	الموضوع
١٨٤	المبحث الرابع : موارد في اللغة.
١٩٦	المبحث الخامس : موارد في العلوم الأخرى.
٢٠١	الفصل الثالث : أثر ابن قتيبة فيمن بعده.
٢٠٣	المبحث الأول : أثره في التفسير.
٢٢٥	المبحث الثاني : أثره في القراءات.
٢٣٦	المبحث الثالث : أثره في علوم القرآن.
٢٤٧	المبحث الرابع : أثره في أصول التفسير.
٢٥١	المبحث الخامس : أثره في العلوم الأخرى.
٢٦٠	الباب الثاني : منهج ابن قتيبة في التفسير.
٢٦١	الفصل الأول : تفسير القرآن بالقرآن.
٢٦٢	المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالقرآن.
٢٦٩	المبحث الثاني : أوجه تفسير القرآن بالقرآن عند ابن قتيبة.
٢٦٩	المطلب الأول : بيان المجل.
٢٧٢	المطلب الثاني : تخصيص العام.
٢٧٦	المطلب الثالث : تقييد المطلق.
٢٧٩	المطلب الرابع : تفسير الألفاظ الغريبة .
٢٨٢	المطلب الخامس : تفسير معنى آية بآية أخرى.
٢٨٤	المطلب السادس : تفصيل القصص.
٢٨٨	المطلب السابع : الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف.
٢٩٠	المطلب الثامن : جمع الآيات في الموضوع الواحد.
٢٩٣	الفصل الثاني : تفسير القرآن بالسنة.
٢٩٤	المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بالسنة.
٢٩٧	المبحث الثاني : أوجه تفسير القرآن بالسنة عند ابن قتيبة.
٢٩٧	المطلب الأول : بيان المجل.

رقم الصفحة	الموضوع
٢٩٩	المطلب الثاني : بيان المبهم.
٣٠٣	المطلب الثالث : تفسير الألفاظ.
٣٠٤	المطلب الرابع : تأكيد المعنى .
٣٠٦	المطلب الخامس : بيان المشكل وإزالة اللبس.
٣١١	المطلب السادس : بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم.
٣١٤	الفصل الثالث : تفسير القرآن بأقوال السلف.
٣٢١	المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن بأقوال السلف.
٣٣٨	المبحث الثاني : منهجه في عرض أقوال السلف، والاحتجاج بها.
٣٤٣	الفصل الرابع : تفسير القرآن باللغة.
٣٤٤	المبحث الأول : عناية ابن قتيبة بتفسير القرآن باللغة.
٣٤٩	المبحث الثاني : ضوابط التفسير اللغوي عند ابن قتيبة.
٣٥٨	المبحث الثالث : قيمة التفسير اللغوي لابن قتيبة.
٣٦٢	الفصل الخامس : الإسرائيليات.
٣٦٨	المبحث الأول : مصادر ابن قتيبة في الإسرائيليات.
٣٧٩	المبحث الثاني : منهجه في إيراد الإسرائيليات.
٣٩١	الباب الثالث : اهتمامات ابن قتيبة في التفسير.
٣٩٢	الفصل الأول : اهتمام ابن قتيبة بالجانب العقدي.
٣٩٣	المبحث الأول : منهج ابن قتيبة في توضيح العقيدة.
٤٠٧	المبحث الثاني : تقريره منهج السلف في الأسماء والصفات.
٤٢٤	المبحث الثالث : تقريره منهج السلف في بقية مسائل الاعتقاد.
٤٣٨	المبحث الرابع : منع القياس العقلي في باب الاعتقادات.
٤٤٣	المبحث الخامس : ذم علم الكلام.
٤٤٩	المبحث السادس : الرد على تأويلات المعتزلة.
٤٥٨	المبحث السابع : الرد على تأويلات الرافضة.

رقم الصفحة	الموضوع
٤٦٦	المبحث الثامن : الرد على تأويلات الخوارج.
٤٧٤	الفصل الثاني : اهتمام ابن قتيبة بالجانب اللغوي.
٤٧٥	المبحث الأول : بيان الأصل اللغوي للألفاظ.
٤٨٠	المبحث الثاني : كثرة الشواهد الشعرية.
٤٩١	المبحث الثالث : كثرة الشواهد النثرية.
٤٩٤	المبحث الرابع : بيان الأساليب العربية.
٤٩٧	المبحث الخامس : بيان الفروق اللغوية.
٥٠٣	المبحث السادس : بيان الأضداد في اللغة.
٥٠٩	المبحث السابع : بيان الوجوه والنظائر.
٥١٤	الفصل الثالث : اهتمام ابن قتيبة بالجانب البلاغي.
٥٢١	المبحث الأول : اهتمامه بعلم البيان.
٥٢١	المطلب الأول: التشبيه.
٥٢٦	المطلب الثاني : الاستعارة.
٥٣١	المطلب الثالث : الكناية.
٥٣٦	المبحث الثاني : اهتمامه بعلم البديع.
٥٣٦	المطلب الأول: المشاكلة.
٥٣٨	المطلب الثاني: المبالغة .
٥٤١	المبحث الثالث: اهتمامه بعلم المعاني.
٥٤١	المطلب الأول: الالتفات.
٥٤٦	المطلب الثاني : الإيجاز .
٥٥٦	المطلب الثالث : التكرار .
٥٦٢	المطلب الرابع : الإشباع والتوكيد.
٥٦٥	المطلب الخامس : القلب.
٥٧٠	المطلب السادس : التقديم والتأخير .

رقم الصفحة	الموضوع
٥٧٤	المطلب السابع: خروج الاستفهام عن معناه.
٥٧٨	المطلب الثامن: أساليب الخطاب.
٥٨٤	الفصل الرابع : اهتمام ابن قتيبة بالجانب النحوي والصرفي.
٥٨٥	المبحث الأول : بيانه أهمية الإعراب في تفسير القرآن الكريم.
٥٨٩	المبحث الثاني : اهتمامه بالإعراب، واستقلالته فيه.
٥٩٣	المبحث الثالث : اهتمامه بالصرف .
٦٠٣	الفصل الخامس : اهتمام ابن قتيبة بدفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم.
٦٠٥	المبحث الأول : دفع الإشكال بدلالة القرآن الكريم.
٦٠٨	المبحث الثاني : دفع الإشكال بدلالة السياق.
٦١٤	المبحث الثالث : دفع الإشكال بدلالة أسباب النزول.
٦١٩	المبحث الرابع : دفع الإشكال بدلالة القراءات.
٦٢٢	المبحث الخامس : دفع الإشكال بدلالة السنة النبوية.
٦٢٦	المبحث السادس : دفع الإشكال بأقوال السلف.
٦٢٩	المبحث السابع : دفع الإشكال بدلالة اللغة.
٦٣٣	الباب الرابع : جهود ابن قتيبة في القراءات.
٦٣٩	الفصل الأول : منهج ابن قتيبة في القراءات.
٦٤٠	المبحث الأول : منهجه في عرض القراءات.
٦٥١	المبحث الثاني : شروط قبول القراءة عند ابن قتيبة.
٦٦١	المبحث الثالث : أصول توجيه القراءات عند ابن قتيبة.
٦٧٢	المبحث الرابع : نقده لبعض القراء والقراءات.
٦٨٦	الفصل الثاني : آراء ابن قتيبة في القراءات.
٦٨٧	المبحث الأول : معنى الأحرف السبعة.
٦٩٦	المبحث الثاني : الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف.

رقم الصفحة	الموضوع
٦٩٩	المبحث الثالث : لغة القرآن الكريم.
٧٠٦	المبحث الرابع : أنواع اختلاف القراءات.
٧١٠	المبحث الخامس : حكم القراءة بالشاذ.
٧١٧	المبحث السادس : الجواب عن الشبه المتعلقة بالقراءات.
٧٢١	المبحث السابع : الجواب عما ادعي على القرآن من اللحن.
٧٢٦	الباب الخامس : جهود ابن قتيبة في علوم القرآن وأصول التفسير.
٧٢٧	الفصل الأول : جهود ابن قتيبة في علوم القرآن.
٧٢٨	المبحث الأول : أسماء القرآن الكريم وسوره وأقسامه .
٧٤٥	المبحث الثاني : نزول القرآن الكريم، والحكمة من تنجيده.
٧٤٨	المبحث الثالث : جمع القرآن.
٧٤٨	المطلب الأول : في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.
٧٥٠	المطلب الثاني : جمع أبي بكر رضي الله عنه.
٧٥٢	المطلب الثالث : جمع عثمان رضي الله عنه.
٧٥٦	المبحث الرابع : تواتر القرآن الكريم، والجواب عن الشبه المثارة حوله.
٧٧١	المبحث الخامس : فضائل القرآن الكريم.
٧٧١	المطلب الأول : فضائل القرآن عموماً.
٧٧٥	المطلب الثاني : فضائل سور مخصوصة من القرآن الكريم.
٧٨٠	المبحث السادس : المحكم والمتشابه.
٧٨١	المطلب الأول : معنى المحكم والمتشابه.
٧٩٣	المطلب الثاني : الحكمة من وجود المتشابه.
٧٩٦	المطلب الثالث : الصلة بين المشكل والمتشابه.
٧٩٩	المطلب الرابع : الحروف المقطعة في أوائل السور.
٨٠٦	المبحث السابع : النسخ.
٨٠٨	المطلب الأول : ثبوت النسخ، والحكمة منه.

رقم الصفحة	الموضوع
٨١١	المطلب الثاني : أنواع النسخ في القرآن الكريم.
٨١٧	المطلب الثالث : نسخ القرآن بالقرآن.
٨٢٤	المطلب الرابع : نسخ القرآن بالسنة.
٨٣١	المبحث الثامن : القسم في القرآن الكريم.
٨٣٣	المطلب الأول : صيغته .
٨٣٨	المطلب الثاني : فائدته.
٨٤٢	المطلب الثالث : إقسام الله تعالى بمخلوقاته.
٨٤٥	المبحث التاسع : إعجاز القرآن الكريم.
٨٥٣	المطلب الأول : معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.
٨٥٨	المطلب الثاني : مفهوم الإعجاز القرآني عند ابن قتيبة.
٨٦٢	المبحث العاشر : وقوع المعرب في القرآن الكريم.
٨٧٢	الفصل الثاني : جهود ابن قتيبة في أصول التفسير .
٨٧٣	المبحث الأول : معنى التفسير والتأويل، والفرق بينهما.
٨٨١	المبحث الثاني : التفسير بالرأي : ضوابطه، وحكمه.
٨٨٦	المبحث الثالث : أسباب الاختلاف في التفسير.
٨٩٤	المبحث الرابع : موقفه من زيادة الحروف في القرآن الكريم.
٨٩٩	المبحث الخامس : موقفه من تضمين الحروف.
٩٠٤	المبحث السادس : الحقيقة والمجاز.
٩٠٤	المطلب الأول : معنى الحقيقة والمجاز.
٩١٦	المطلب الثاني : مفهوم المجاز عند ابن قتيبة.
٩١٩	المطلب الثالث : ضوابط القول بالمجاز عند ابن قتيبة.
٩٢٣	الفصل الثالث : دراسة تطبيقية على قواعد التفسير عند ابن قتيبة .

رقم الصفحة	الموضوع
٩٦٣	الباب السادس : الموازنة بين الإمام ابن قتيبة والإمام أبي عبيد القاسم بن سلام في التفسير وعلوم القرآن.
٩٧٠	الفصل الأول : الموازنة بينهما في التفسير .
٩٧٧	الفصل الثاني : الموازنة بينهما في علوم القرآن .
٩٨٢	الخاتمة.
٩٨٦	الفهارس التفصيلية.

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

جهود الإمام ابن قتيبة ومنهجه في علوم القرآن

[عرضاً ودراسةً]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فمن العلماء الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ وبارزٌ في خدمة القرآن الكريم وعلومه الإمام المفسّر النحوي اللغوي صاحب التصانيف ذو الفنون ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ).

وقد كانت هذه الرسالة في التعريف بابن قتيبة ومصنفاته ، وفي بيان جهوده العظيمة في التفسير وأصوله وقواعده ، وفي القراءات وعلوم القرآن عامة ، وهي جهود لم يُكشف عنها، ولم تبرز كما أُبرزت جهوده النحوية والبلاغية والأدبية .

هذا وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة ، وتمهيد عرضت فيه عصر ابن قتيبة وحياته، ثم وزّعت الحديث عن جهود الإمام ابن قتيبة ومنهجه في علوم القرآن على ستة أبواب .

ففي الباب الأول : مصنفات ابن قتيبة وموارده فيها وأثره فيمن بعده .

تناولت مصنفات ابن قتيبة بشكل تفصيلي ، ذكرته فيه سبب تأليف كلّ مصنف، وأوضحت محتوى الكتاب ، ومادته التفسيرية ، ومنهج المؤلف العام فيه، وقيمه العلمية، وختمت هذا الفصل بالحديث عن خصائص التصنيف عند ابن قتيبة .

ثم تحدثت عن موارد ابن قتيبة وأبنت عن تنوعها وكثرتها وعلو قيمتها العلمية، مما مكن له من أسباب القوة ، وهياً له من وسائل التفوق والتبريز .

ثم ختمت الباب بإبراز أثر الإمام ابن قتيبة في العلماء والمصنفين من بعده في علوم القرآن خاصة وفي مختلف الفنون عامة.

وفي الباب الثاني : منهج ابن قتيبة في التفسير .

عالجت فيه عدداً من القضايا في منهج ابن قتيبة في التفسير ، منها :

- ١ . بيانه أهمية تفسير القرآن بالقرآن، وتفصيل أوجه تفسير القرآن بالقرآن عنده، مع إبراز تميزه في أكثر من وجه من تلك الأوجه ، وأسبقته في بعضها.
- ٢ . إيضاحه للعلاقة بين القرآن والسنة ، وتقديره لأهمية تفسير القرآن بالسنة، وتفصيل أوجه تفسير القرآن بالسنة عنده.
- ٣ . إبراز تميزه الواضح بالعناية بتفسير السلف ، وإكثاره من الاعتماد عليه في التفسير وعلوم القرآن ، مع بيان سبقه للغويين في فعل ذلك.
- ٤ . إبراز قيمة التفسير اللغوي عند ابن قتيبة ، والحديث عن ضوابط التفسير اللغوي التي أشار إليها ، وسار عليها في تفسيره.
- ٥ . إيضاح منهج ابن قتيبة في الإسرائيليات ، إذ له منهج خاص في عرضها، مع بيان مصادره في ذلك.

وفي الباب الثالث : اهتمامات ابن قتيبة في التفسير .

تحدثت عن الاهتمامات التي برزت بجلاء في تفسير ابن قتيبة، وهي [الاهتمام العقدي، واللغوي، والبلاغي، والنحوي والصرفي ، والاهتمام بدفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم] .

ومن الأمور التي أبرزتها في هذا الباب ما يلي :

- ١ . اشتهاه ابن قتيبة من بين اللغويين بإشهار مذهب السلف والدعوة إليه، والدفاع عنه، وهو من كبار الأئمة الذين أسسوا منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال باللغة العربية على مسائل العقيدة .
 - ٢ . للإمام ابن قتيبة تميز ظاهر في دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم، وغالب مصنفاته الشرعية شاهدة على ذلك ، إذ حملت عناوينها لفظ الإشكال وما في معناه من الاختلاف والغرابة .
 - ٣ . للإمام ابن قتيبة جهود عظيمة في البلاغة القرآنية ، ولهذه الجهود قيمة تاريخية كبيرة ، إذ كان لابن قتيبة دور في نشأة البلاغة وإسهام في تكوين فنونها وتطورها، كما له دور عظيم في وضع ضوابط البلاغة القرآنية التي تمنع من تأويل وتعطيل النصوص وإهدار دالاتها.
- وفي الباب الرابع : جهود ابن قتيبة في القراءات .

تحدثت فيه عن منهج ابن قتيبة في عرض القراءات ، وشروط قبول القراءة ، وأصول توجيهها عنده ، ونقده لبعض القراء والقراءات ، ثم عرضت لعدد من آرائه في بعض مباحث علم القراءات .

وفي الباب الخامس : جهود ابن قتيبة في علوم القرآن وأصول التفسير . بدأت بجهوده في علوم القرآن دارساً لأقواله في [أسماء القرآن وسوره ، وفضائله وإعجازه، ونزول القرآن وجمعه وتواتره ، والمحكم والمتشابه ، والنسخ ، والقسم في القرآن، ومسألة وقوع المعرّب فيه] . ثم كان الحديث عن جهوده في أصول التفسير، ثم ختمت الباب بدراسة لقواعد التفسير عند ابن قتيبة .

وفي الباب السادس : كانت موازنة بين الإمام ابن قتيبة والإمام أبي عبيد في التفسير وعلوم القرآن ، وقد ظهر التشابه الكبير بين منهجهما ، وذلك للقواسم المشتركة بينهما، فهما من كبار أئمة أهل السنة والجماعة، ومعدودان من أهل اللغة وأئمة التفسير ، ويعيشان في فترة متقاربة ، وينهلان من موارد مشتركة .

ثم كانت خاتمة الرسالة بأهم النتائج والتوصيات .

وفي الختام أسأل الله أن يغفر لي خطأي، ويتجاوز عن تقصيري، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون في ميزان حسناتي، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

In the name of Allah the merciful the mercy given**Summary of the research**
Imam iben Qutaybah and his approach in Koran studies

(presenting and discussing)

Praise be to Allah lord of the worlds and peace and blessings be upon his honorable prophet and messenger, our prophet Mohammad and his family and all of his companions.

Moreover, one of the most significant scholars is the interpreter Imam abo Mohammad (Abedulah son of Muslim son of Qutaybah Al-dynori) who was born on 213(two hundred and thirteen Hijri) and died on 276 (two hundred and seventy six Hijri).

The Imam had an eminent and remarkable role in serving the Holy Koran and its science.

This research is a biography about son of Qutaybah (iben Qutaybah) and his classifications. Also, this research show you the great efforts of the Imam in interpretation and the rules of it and its origins as well. Also, his knowledges in recitations and Koran sciences in general.

Those efforts has not been studied as they did with his other works in grammar, rhetorical and literature. According to that, I have divided the research to an introduction and six other sections. In the introduction, I introduced a biography about Iben Qutaybah in which I talked about his life, his works and so on.

Then I have talked about the Imam's efforts and his approach in Koran *sciences throughout the six sections.*

The first section: Iben Qutaybah's classifications and his sources as well as his impact on those who came after him.

I have discussed Iben Qutaybah's classifications in details, and mentioned the cause of authorship of each book. And its explanatory subject, as I have explained the author's general process.

Also, the scientific value which gave the book its strength and put it at the begging of many other books.

Then I concluded the section by referring to the Imam's impact on other scholars and compilers who worked in the same field of Koran sciences and the other arts.

The second section: Iben Qutaybah's interpretation method.

In this section I have dealt with many issues related to Iben Qutaybah's interpretation method. Here are some of these issues.

- How the Imam showed to people the importance of interpreting Koran through Koran itself. And the detail aspects of such a process according to the Imam's method. Also, I referred to his significance and his priority in some of those aspects.

- His clarification to the relation between Koran and Sunnah. And his admission the importance of interpretation of Koran through Sunnah and the special aspects needed for doing that thing.
- Showing his obvious successful in ancestor's interpretation and his reliance on that, with showing his priority to the grammarians in doing that.
- Showing the importance and the value of grammatical interpretation according to the Imam. Then, I talked about the grammatical interpretation criteria.
- Clarify Ibn Qutaybah's method in the Israeli stories. Because he has a special process in viewing them, and I referred to his sources in achieving that thing.

The third section: Ibn Qutaybah's concerns in interpretation.

In this section I have talked about the Imam's concerns which appeared clearly in his interpretation. Some of these concerns are (faith, linguistic, rhetoric, grammar and morphology). Also, he cared about explaining Koran verses correctly.

Also, the third section focused on the following ideas:

First, Ibn Qutaybah was known among linguists by encouraging the ancestor's doctrine and by defending it. Ibn Qutaybah considered to be one of the most important scholars who found the Arabic-language inference approach of (Ahl al-sunnah and the community) to answer the questions of faith.

Second, the Imam had an obvious importance in reinterpreting the Koran verses correctly (His legal classifications show that apparently). You can see that clearly from the titles of his books.

Third, Ibn Qutaybah had great efforts in Koran rhetoric. These efforts have been historically valued.

Ibn Qutaybah has played a key role in the emergence of rhetoric. Also, he has contributed in organizing its arts and its development. He, also, had a great role in putting the Koran rhetoric standards which prevented the misinterpretation of Koran and disabled the possibility of neglecting the texts and wasting their inferences.

The fourth section: Ibn Qutaybah's efforts in recitations.

Here, I have talked about the Imam's approach in viewing the readings and their acceptance conditions. Also, I made clear, how he used these conditions. I have mentioned in this section his criticism to some readers and their recitations. Then, I went through some of his opinions towards the science of recitation.

The fifth section: Ibn Qutaybah's efforts in Koran science and interpretation origins.

Here, I have started with his efforts in Koran science through studying his statements about the following:

The names of Koran and its verses.

The advantages of Koran and its miracles.

The revelation of Koran and its collection.

*The recurrence of Koran.
The tightened and similar texts in Koran.
The matter of cancellation.
The matter of swearing.
And finally, the issue of translation.*

Then, I carried on talking about his efforts in interpretation origins. After that, I concluded the section by a study to the rules of interpretation according to Iben Qutaybah's method.

The sixth section: this section was just a matter of comparison in interpretation and Koran science between Imam Iben Qutaybah and Imam Abi Aubaydah. The comparison showed a big similarity between their approaches. This similarity came from the common grounds between both of them.

The two Imams considered as the two brilliant scholars of the doctrine of (Ahl al-sunnah and the community). Also, people refer to them as the genius linguists and the smartest interpreters. Both of the Imams lived relatively in the same period and took their knowledge from common sources. Here we come to the end of this research as a whole. We came up with very important results and recommendations by finishing this interesting research.

At the end, I pray for Allah to forgive my sins and my shortenings. As I do ask him to make this research purely for Allah's sake. And make it in the balance of my charities. Peace and blessings be upon our prophet Mohammad as well as his family and all of his companions.